بحوث سماحة الأستاذ آية الله الشيخ محمد السند

الإمامة الإلهية

تأليف

السيد محمد علي بحر العلوم

جلد(٥-١)

بسم الله الرحمن الرحیم

الامامهٔ الالهیهٔ

کاتب:

محمد السند

نشرت فی الطباعهٔ:

فرصاد

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

الامامة الالهیة

اشارة

سرشناسه : سند، محمد، - ۱۳۴۰
عنوان و نام پدیدآور : الامامه الالهیه/ محاضرات محمد سند؛ جمع و اعداد محمدعلی بحرالعلوم
مشخصات نشر : تهران : فرصاد ، - ۱۳۸۵.
مشخصات ظاهری : ج ۳
یادداشت : عربی
یادداشت : فهرست نویسی براساس اطلاعات فیپا
یادداشت : کتابنامه
موضوع : امامت
موضوع : ولایت
موضوع : اصول فقه شیعه
شناسه افزوده : بحرالعلوم، محمدعلی، ۱۳۴۵ - مقرر
رده بندی کنگره : BP۲۲۳/س۹الف۸ ۱۳۸۵
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۴۵
شماره کتابشناسی ملی : م۸۱-۲۸۲۳۶

الجزء (۱)

مقدمة بقلم الاستاذ الشیخ محمد سند ... ص: ۵

بسم الله الرحمن الرحیم

الحمـد للّهرب العـالمین وصـلی اللّه علی سـید الخلق محمـد المبعوث للرسالـة وعلی آله الأئمـة الهـداة. وبعـد فـإن البحوث العقائـدیة والمعرفـة الدینیة بمکان من الأهمیة، حیث انها الراسـمة لطریق الانسان والمجتمع فی هذه النشأة فی مختلف شؤونها وجهاتها والنشآت اللاحقـة، فمن ثم احتلت موقعاً فی الصـدارة وأولوها عنایـة خاصة، فالإیمان والهدایة قد شدّد علی صدارتهما القرآن والسـنّة فی قائمة أعمال الإنسان، فقد قال تعالی:

«إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ یَرْفَعُهُ» «۱».

والواجب الاعتقادی المعرفی، هو فعل تقوم به النفس وجوانحها فی الدرجة الأولی، فالادراک والإذعان أو المعرفة والایمان، أو التعقل والاخبات أو الاهنداء والتسلیم فعلان تقوم بهما طویة القوی للنفس. ومن ثمّ یستعقبها أفعال أخری لواجبات اخری، وهذا یوازی التعبیر المقرر فی العلوم الانسانیـة الاکادیمیـة أن رؤیـة الانسـان اتجـاه الکون یتفرع لیهـا کـل الامـور الاـخری من الحقوق والآداب والقوانین والاعمال.

ولا یخفی أن الاصول الاعتقادیـة الخمسـة من التوحیـد والعدل والنبوة والامامة والمعاد، مآلها هو التوحید فی المقامات الخمسة فالاول هو التوحید فی الذات الازلیة

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۶

الإلهیـة، والثانی هو التوحیـد فی الصـفات، مطلق الصـفات والثالث هو التوحید فی التشریع والشـریعة وانه التوحید فی الافعال من نمط والرابع هو التوحیـد فی الطاعـة والولایـة والخامس هو التوحیـد فی الغایـة وهو الاخلاص والخلوص، فاللّه تعالی أحدی الذات واحد لا شریک له فی الـذات ولا فی الصـفات ولا شـریک له فی الحکم وله الولایـة وحق الطاعة بالذات، وهو غایة الغایات فلیس وراءه غایة. وهذا ما تکفلت الاشارة الیه مقدمات هذا الکتاب.

کما لا یخفی أن العلوم المتکفلـة للبحث فی المعرفة الدینیة قد اختلفت مناهجها من الاعتماد عمدة علی العقل النظری أو العقل العملی أو الواردات والادراکات القلبیـة الذوقیة، أو الکتاب العزیز والسـنة المطهرة، أو المزیج بینها علی انحاء عدیدة، ولیست المعرفة بحسب الطاقـة البشـریة المجردة کالمعرفـة الحاصـلة من مناهـل الوحی الإلـهی، فالمعرفـة الأولیـة الفطریـة وان کـانت رأس المال ولکن العقل والقلب لغتان یقرأ بهما کتاب الوحی، وهما المخاطبان للسانـة، ومن ثم کان البحث عن المنهجیـة المنطقیـة أمراً لابـد منه ومقدّماً علی البحث المعرفی الاعتقـادی، لاسیّما وأن کلًا من هـذه المصادر للمعرفـة کلًا منها علی حـدة قـد تشـعبت فیه المبانی وکثرت فی أطرافه التساؤلات الجادة او الملتبسة فکان اللازم- متابعة البحث فی ذلک وبتسلسل وهذا ما اشتمل علیه الفصل الاول من هذا الکتاب.

وقد أخذ عنان الحدیث فی الأوساط المختلفة فی الآونة الاخیرة، عقیدة الإمامة عند الشـیعة الاثنی عشریة، التساؤل عن الخلفیة القانونیة للحکومـة وإقامتهـا فی عصـر غیبـة الإمـام المهـدی المنتظر، وکون مشـروعیتها ممتـدة من امامته عجل اللّه تعالی فرجه الشـریف أو أن الصلاحیة مستمدة من الأمة والانتخاب وما یطلق علیه بالشوری، وتسلیط الضوء عن المذهب الرسمی لعلماء الإمامیة فی ذلک مع قراءة قانونیة للإمامة فی سیرة الأئمة

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۷

الاثنی عشـر علیهم السـلام وأدوارهم فی التاریـخ وبالتالی البحث عن الإمامة الإلهیة عند الشـیعة وبعدها القانونی والتشـریعی فی النظام السیاسی والاجتماعی، وهذا ما عالجه الفصل الثانی من هذا الکتاب.

کما أن معترک الکلام فی الأندیـة المتنوعة حول الإمامة الإلهیة للعترة المطهرة ترکز حول المقام الغیبی فی حقیقة الإمامة أو أنها مقام اعتباری قانونی صـرف للعترة النبویـة بلحاظ تفرقهم علی صـفات کمالیة کما ینسبق ذلک الی الذهن من تعریف المتکلمین، فهل هی حقیقة تکوینیة وصـفة خارجیة وسفارة إلهیة کما هو الحال فی النبوة وإن اختلفت عنها سنخاً، ویکون المقام القانونی أحد شؤون تلک الحقیقـة، ومن الواضـح أجنبیـة هـذه الجهـة من البحث عن أدوات الاعتبـار والعلوم الاعتباریـة القانونیـة، وتطلبها أدوات البحث العقلی والعیـانی والنقلی المعارفی، کما یسـتدعی البحث ثلاثـة أصـعدة صـعید التصور اللغوی والعقلی والنقلی وهو ما یوازی ما الشارحـة فی الاسلوب المنطقی، وصـعید التصـدیق العقلی والفقه العقلی للإمامـة وهو مـا یوازی مـا الحقیقیـة وهل البسـیطة عنـد المناطقـة وصـعید التصدیق النقلی والفقه الشـرعی للإمامة وهو ما یوازی هل المرکبة فی المنهج الاسـتدلالی المنطقی أی کان الناقصة. ولا محالة یستلزم کان التامـة أیضاً بمقتضـی الفقه النقلی یقع التـدبر فی النصوص القرآنیـة والنبویة المرویة عند الفریقین بالدرجة الاولی ومن ثمّ عطف النصوص المأثور عن المعصومین علیهم السـلام علیها. وفی خضم هذا البحث تقع قراءة عقلیة تفسیریة لحالات وشؤون الأئمة (صلوات اللّه علیهم) المأثورة فی الحدیث والتاریخ ومجموع کل ذلک هو البحث فی الإمامة الإلهیة وبعدها التکوینی عقلًا ونقلًا وهذا ما اهتم به الفصل الثالث من الکتاب.

ویسـتتبع ذلک شـرح عـدّة من العناوین المتفرعـة عن البحوث السابقة کالتولی والتبری ونحوهما والتی هی بمثابة وظائف للمأموم نحو الإمام، مع لمحة فهرسیة لمناهج

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۸

الاستدلال فی الإمامة، وهذا ما عنیت به الخاتمة للکتاب.

وقد جاء هذا الكتاب حصيلة بحث استغرق العامين الدراسيين ۱۴۱۷- ۱۴۱۸ ه ق للحوزة العلميـة فى قم المقدسة الذى عقدناه مع ثلة من الأفاضل وقرّره بنضد منسق المعانى فى عبارة جزلة الفاضل المجدّ السيد محمد على بحر العلوم دام نشاطه العلمى والدينى، عسى أن يقع محلّ فائدة لدى روّاد البحث والمعرفة.

قم/ عش آل محمّد عليهم السلام/ بجوار كريمة أهل البيت عليهم السلام

محمد سند

الخامس من شوّال ۱۴۲۱ ه. ق

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۹

المدخل ... ص: ۹

اشارة

ان البحث حول الإمامـة ليس بالبحث الهيّن وذلك لغور معناها وتعـدد جهاتها، كيف لا وأدنى معرفتها أنها عِـدل النبوة إلا أنها ليست بنبوة، ويصعب أكثر إذا أراد الباحث التعرض إلى كل الشبهات والاشكالات التى طرحت منذ عشرات السنين وما زالت تطرح وتتداول فى الأوساط المختلفة شأن بقية الأصول الاعتقادية، وقد اتخذنا فى هذا البحث طريقةً واسلوباً مختلفاً عما سبق وتناوله السلف الصالح جزاهم اللَّه خير الجزاء.

ونتعرض فى هذا المدخل لعدد من النقاط المهمة التى لابد من العلم بها قبل الولوج فى صلب البحث:

النقطة الاولى ...: ص: ۹

ان البحث حول الإمامة قد يكون اشق من البحث حول التوحيد وذلك لأن التوحيد يعنى اثبات الالوهية ونفى الشرك فى مقام الذات، وهذا يرتضيه كثير من الناس حتى غير المسلمين، اما الإمامة فإنها تمثل جانب آخر من الايمان باللَّه وهو جانب الانصياع والطاعة لمن أمر اللَّه بطاعتهم، ويعتبر ممارسة اعتقاديـة وعملية للإيمان، لذا كان من المهم الاهتمام به واعطاؤه الاولوية فى البحث لإثبات ان الحق تعالى ابقى هذا الاتصال بين الأرض والسماء.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۰

النقطة الثانية ...: ص: ۱۰

من المسلّمات التى لا يختلف فيها اثنان، ان ابن آدم يتكون من بـدن وروح، ومنـذ بدايـة نشأة الإنسان على هذه الأرض تتنازعه هاتان الجنبتان. فنرى أفرادا يتغلب عنـدهم الجانب البدنى فتسيطر عليهم المادة ويتخيل الفرد أن كمالاته تتحقق فى اتباع كمالات وشـهوات بـدنه، وفى الجـانب المقابل نرى افرادا يتغلب الجانب الروحى لـديهم فيوغلون فى الرياضات الروحيـة ويُميتون حاجـة أبـدانهم ليرتقوا بأرواحهم فى سُلّم السعادات وهم أصحاب النزعات الباطنية.

وباستعراض سريع لتاريخ البشرية يتضح لنا أن الأغلب والأكثر هم اتباع القسم الأول، الـذى سيطر الجانب المادى والبـدنى عليهم، فعانت البشرية من مشاكل كثيرة وذلك لأن تغلب هذا الجانب سوف يواجه صعوبات فى ايجاد واثبات الاتصال بين السماء والأرض، حيث يفقد المقاييس والضوابط التى فى الجانب الروحى، ويحكم ضوابط ومقاييس الجانب البدنى عليها مما يولد مشكلات عدة.

والإسلام والديانات بشكل عام تسعى إلى ايجاد التوازن بين هذين الجانبين فى الإنسان وعدم طغيان احدهما على الاخر. فالدهريون

منـذ زمن الرسالـة المحمدية إلى المدارس العصـرية فى زماننا هذا يحملون نفس الهاجس وهو سـيطرة الجانب البدنى وعدم الاعتراف بالضوابط والمقاييس الروحية. ومن خلال الايات القرانية نستطيع ان نتلمس بعض المظاهر لسيطرة هذا الجانب.

* «قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ» «۱»

:الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۱

فيرى المنكرون أنّ من ارسـلوا اليهم ليسوا إلاـ بشـراً، والبشـر قـدرته محـدودة فلاـ يكون رسولاـ من عنـد اللّه. وهـذا مع ايمـانهم بـاللّه والتوحيد.

* «وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ» «۱»

.وهـذا مثال آخر لقوم آخرين ينكرون الرسالة ولا يتصورون وجود قوة غير بشـرية بل كلها داخل قدرة البشـر وقواه المختلفة الادراكية والعمّالة.

* وتتدخل لانكار الرسالة دوافع الحسد والجاه «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» «۲»

: ويرى كـل فرد منهم ان يكون له اتصـال مع اللّه بنفسه وان يكون هو رسول من عنـد اللّه لاـ غيره. بل «يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً» «۳»

.* وعندما يطلب المنكرون اثبات اتصال الرسول باللّه يطلبون الرؤية «قَالُوا أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً» «۴»

فهم يؤمنون باللّه وبالتوحيد لكن ميزان الارتباط هو امر مادى وهو رؤية اللّه البصرية.

* والقرآن فى قبـال كل هـذه الانكارات يركز على أن الرسول بشـر وهو رجل منهم ولا يمكن ان يرسل غير البشـر ويتميز الرسول عن غيره بعدم سيطرة النزعة البدنية والمادية عليه بل هو فى الجانب الروحى متصل باللّه ومرتبط بالوحى ووزان

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۲

الروح ليس كوزان البدن وحدود الروح ليست حدود البدن، وهذا الجانب هو الذى يميز الرسول والامام والولى الصالح.

* وفى العصور المتأخرة يتغير بيان هذه الانكارات من بنى الإنسان فليجأون إلى صياغات أخرى.

منهـا: ان وجود اتصـال دائم بين البشـرية وبين الجـانب الربوبى يؤدى إلى الضـمور وعـدم الانطلاـق فى الحياة والكسل والاعتماد على المنح الغيبية.

ومنها: ان قوة الفكر البشرى كافية فى ارشاد الإنسان نحو الكمال.

او القول بان الركون إلى وجود مثل هذا الاتصال ولو على شكل امامة افراط فى النزعة الباطنية.

أو القول ان معنى النبوة الخاتمة هو اكتمال القوى العقلية لدى بنى البشر، فلا تحتاج البشرية فى مسيرتها إلى تسديد سماوى، أو دعوى تساوى أفراد البشر فى الكمالات الروحية.

والجامع بين هـذه الـدعوات والاساليب السابقـة هو سـيطرة الجانب المادى على نفوس أصـحابها فحرموا من نعمة الاحساس واسـتطعام حلاوة الروح.

النقطة الثالثة ...: ص: ۱۲

من الأمور التى يعيبها أهل الفكر من المتأخرين على أهل التدين هو انّ الاخيرين يضـفون على عقائدهم هالة من القدسـية تكون سورا أمام التفكير فيها وعائقاً يمنع عن البحث حول مدى صحتها.

وفى الواقع هـذا غير تام وان القدسـية مع الاعتراف بها- لا تمنع من البحث والتشـكيك الـذى يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة أو إلى

مزيد من اليقين.

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج ۱، ص: ۱۳

بيان ذلک: ان القدسـيهٔ تعنی اضـفاء احترام وخضوع خاص لحقيقهٔ معينهٔ او لقضيهٔ ما، وبتحليل أدق هی خضوع القوی العمليهٔ للإنسان للقوی النظريـهٔ، باعتبار أن هذا هو الأمر الطبيعی لقوی الإنسان، حيث ان القوی العمليهٔ ليس لها قوهٔ الإدراک فلابد ان تجد طريقها فی الهدايـهٔ بتوسـط القوی النظريـهٔ، فالقدسـيهٔ فعل من أفعال القوی العمليـهٔ، وهو احترام وخضوع لإدراک يتم بواسـطهٔ قوهٔ العقل النظری، وهی الحالهٔ الطبيعيهٔ لما يجب ان يكون عليه تفكير الإنسان.

ومن جهـهٔ أخری فإن التشـكيک علی نحوين: احـدهما: ممـدوح والآخر مذموم اما الممدوح فهو التشـكيک لاسـتكشاف المجهولات وبيان الحقائق، وهو الذی يدفع الإنسان للبحث والتنقيب، وهذا يزول بمجرد بروز الحقيقهٔ وقيام الأدلهٔ والبراهين الساطعهٔ.

اما المذموم فهو التشـكيک الذی يؤدی إلی زعزعهٔ الحقيقهٔ الحاصـلهٔ فی النفس، من دون أن يدفع نحو الفحص، بل تبقی حالهٔ الشک والاضـطراب والتحير وعدم القدرهٔ علی الاذعان بالبرهان السليم. مستوليهٔ علی هذا الفرد. وهذه حالهٔ مرضيهٔ مستعصيهٔ يفقد بها الإنسان قدرته علی التعايش حيث تكون الادراكات الصحيحهٔ غير قادرهٔ علی توليد الاذعان بها لديه.

فالشک ليس إلا جسر يُعبر عن طريقه إلی الحقيقهٔ سواء جهـهٔ النفی أو الاثبات، اما بقاء حالهٔ الشک فهذا مرفوض ومذموم.

النقطهٔ الرابعهٔ ...: ص: ۱۳

من الدعائم الفكريهٔ التی يقوم عليها المذهب الوهابی، والتی بنوا عليها نتائج كثيرهٔ لها أهميهٔ اجتماعيهٔ وسياسـيهٔ، هی ان القرآن الكريم فی ايات كثيرهٔ يركز علی

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج ۱، ص: ۱۴

عقيـدهٔ مهمـهٔ، وهی التوحيـد ونفی الشـرک ولاـ يتعرض لأصـل وجود اللَّه، والسـر فی ذلـک ان العرب فی ذلک الوقت كانوا يؤمنون بأصـل وجود اللَّه لكنهم كـانوا يجعلون له شـركاء فی الوجود والعبـادهٔ من أصـنامهم، لـذا واجه القرآن ذلـک وركز علی إنه واحـد لا شريک له. وبنوا علی هـذه العقيـدهٔ أن الإنسان يجب ان يرتبط باللَّه مباشـرهٔ من دون أيهٔ حاجهٔ إلی وسـيط، والخضوع غير جائز إلا له، وان اللَّه لا يجعل ايهٔ واسطهٔ أو وسيلهٔ بينه وبين العبد.

وقـد سـبقهم المفسـرون بعض الشـیء فی اصل دعواهم بمعنی ان الـدارس للقران الكريم يتضح له ذلک بنحو جلی وأن هناک آيات كثيرهٔ تركز علی هذا الجانب لكننا نقول لهم: حفظت شيئا وغابت عنک اشياء.

وذلـک لاـنّ هـذا الاسـتقراء نـاقص، إذ أن الآيـات التی تركز علی ذلـک الجانب واردهٔ فی العهـد المكی. اما الآيات الواردهٔ فی العهد المدنی وهو عصـر تكوين الدولهٔ الإسلاميهٔ فلا تركيز لها فی هذا الجانب، بل ركزت علی جانب اخر مهم، وهو التوحيد ونفی الشرک فی الطاعهٔ.

وبعبارهٔ أخری بعـد بناء المجتمع الإسـلامی واصـبح مَن فی المدينهٔ موحداً فی العبادهٔ ولا يشـرک باللَّه أحدا فی الوجود الإلهی وبطلت اصـنام الجاهليهٔ، وجّه القرآن المسـلمين إلی مفهوم آخر يعتبر اسـتكمالا للتوحيد فی العبادهٔ وذلک ان العبادهٔ الرسميهٔ وحدها لا تكفی بل يجب ان تقترن بالطاعـهٔ، وهـذه الطاعهٔ تكون لِمَن نصـبه اللَّه فطاعته تكون طاعهٔ للَّهومعصـيته تكون معصـيهٔ للَّه، بل ان طاعهٔ مَن لم ينصبه اللَّه هی شرک. فليس لأحدٍ حق الطاعهٔ إلا من خلال أمر اللَّه جل وعلا.

فإذن الايات المكيهٔ ركزت علی التوحيد ونفی الشرک فی الوجود الإلهی والعبادهٔ، والايات المدنيهٔ ركزت علی التوحيد ونفی الشركهٔ فی الطاعهٔ، والوهابيهٔ

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج ۱، ص: ۱۵

رأوا القسم الأول وعميت أعينهم عن القسم الثانى.

ومن الشواهد على ما ذكرته الايات المدنية:

* «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا» «۱»

...

فان النّد هو المماثل ويكاد يجمع المفسرون على ان المراد ليس اتخاذ إله آخر مع اللَّه فهم موحدون فى العبادة الاصطلاحية الرسمية، بل يقصد بالانداد هنا الرؤساء الذين خضع لهم بعض الناس وأطاعوهم من غير أنْ يأذن اللَّه فى اطاعتهم كما تشهد ذيل الاية «اذ تبرأ، واتبعوا».

وفى الكافى والعياشى عن الباقر عليه السلام: فى قوله ومن يتخذ من دون اللَّه اندادا..

قال هم واللَّه يا جابر ائمة الظلم واشياعهم.

* «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ».

والاية بعد ان تقرر وحدانية الالوهية وعبادة اللَّه وحده لا شريك له تؤكد على وحدانية الربوبية وهى ربوبية الطاعة اذ ان الرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى اى المشرع والمطاع من دون ارشاد اللَّه اليه. فالطاعة لا يجوز ان تكون لاى فرد بل هى مختصة لمن يرشد اليه اللَّه سبحانه.

*- «قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» «۲»

...

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۶

فمحبة اللَّه والايمان به تعنى وجوب اتباع الرسول الذى أرسله اللَّه اليكم فمن يحب اللَّه يجب ان يتبع الرسول، وبعكس النقيض من لا يتبع الرسول لا يحب اللَّه.

* ومما تكفلت الايات المدنية بيانه هو ارشاد المسلمين إلى خطأ اليهود والنصارى الذين وقعوا فى خطأ جسيم وهو اتباع رؤساء دينهم فيما يغشونهم وجعلوه كأنه اية منزلة من عند اللَّه. قال تعالى «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ اللّهِ» «۱»

. فمن الواضح انهم لم يكونوا يعبدونهم ولم يتخذوهم آلهة وكل الذى فعلوه انهم اطاعوهم طاعة عمياء.

* «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوْا لِآدَمَ.. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» «۲»

فرتب الكفر الاصطلاحى على عدم خضوع الطاعة.

* «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» «۳»

فنفى الايمان مع عدم تسليم الطاعة قلباً وعملا. ونكتفى بهذا المقدار من الشواهد مع وجود شواهد أخرى عديدة تؤكد على ان الايات المدنية وردت فى اكثر من موطن لتحذر المسلمين من مغبة الوقوع فى انحرافات اليهود والنصارى باتباع من لم يأمر الحق باتباعه. فالتوحيد من الطاعة من الأمور المهمة التى ركز عليها القرآن وطاعة الأئمة تدخل فى هذا النطاق.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۷

النقطة الخامسة ...: ص: ۱۷

ان البعض يتصور ان البحث حول الإمامة يؤدى إلى تفكيك المجتمع الإسلامى، وبتعبير آخر ان هذا البحث هو فى خط مقابل لبحوث

الوحدة الاسلامية. وهذا الاعتقاد خاطئ وذلك لإننا عندما ننظر إلى الوحدة الاسلامية يجب ان نحلل هذا المصطلح طبقا للمعايير الفقهية التى أسسها الفقة الإمامى لا أن نعبر تعبيرا عصرياً فننظر إليه بمنظار ما يسمى بالثقافة الإسلامية ونحيطه بطائفة الشعارات التى لا تمس الشريعة بصلة.

فمن وجهة نظر فقهية وبقراءة سريعة لما حبرته يراع الفقهاء السابقون رضوان اللّه عليهم نرى انهم ينصّون على ان من تشهد الشهادتين فقد دخل فى الإسلام وتصبح له حرمة يجب الحفاظ عليها ومراعاتها ولا يجوز ان تهتك، وهذه الحرمة تشمل جميع جوانب الحياة اليومية من اجتماعية واقتصادية وسياسية وجنائية، فلا يجوز تحميله عبئاً اقتصاديا غير ما فرضه اللّه على كافة المسلمين ولا يجوز معاقبته على جناية ارتكبها بعقوبة اكثر مما فرضه اللّه على الجميع، لمجرد عدم دخوله فى المذهب الحق. وهكذا فإنا نرى ان الفقهاء قد عملوا وأفتوا عملا بما تستلزمه وحدة المسلمين وبقاؤهم كالبنيان المرصوص.

اما الآية الكريمة «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً» «۱»

.فإنها تخاطب المسلمين بشكل عام وهم من تشهد بالشهادتين وتوجه لهم خطابان: احدهما وجوب الاعتصام، والآخر: عدم التفرقه، وهذا قد يكون أمرا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۸

جديدا غير الاعتصام، وقد يكون تأكيدا له. فالآية تدل على نكتة مهمة يجب على المسلمين التنبه اليها وهى ان مجرد الشهادتين واشتراك الجميع فى اداء العبادات الضرورية- التى يعترف بها الجميع- هذه كلها غير عاصمة للمجتمع الإسلامى، وان هذه الثوابت غير كافية فى احتفاظ المجتمع لبنائه الواحد وانها معرضة للفشل لذلك تعرض الآية إلى وجوب ان يتمسك المسلمون بأمر آخر يكون عاصماً للمسلمين من الضلال والغواية وهو التمسك بحبل اللّه، وفى هذا من الاستعارة التمثيلية ما لا يخفى فإن الحبل الذى يستخدم للنجاة طرف منه يكون بيد المنجي والاخر يكون بيد المعرّض للهلاك، واضافة الحبل إلى اللّه دليل على وجوب دوام الاتصال بين السماء والأرض إلى يوم القيامة، وان البارى تعالى هو الذى يجعل هذا الحبل.

وهذا الحبل هو القرآن الكريم والسنة المتمثلة بآل البيت عليهم السلام كما ورد فى كثير من الروايات كحديث الثقلين. فإما ان يقال انهما حبلان كما فى بعض الروايات وإنه حبل واحد وهو القرآن الكريم والحافظ والمبيّن للقران هم أهل البيت عليهم السلام.

وأخيرا سوف نشير إلى كيفية دلالة الروايات الكثيرة المتفق عليها بين الفريقين على عدم قبول الأعمال وبطلان العبادة بدون ولاية الائمة:. وان الولاية هى اساس لقبول الأعمال وهذا هو نفس مفاد الاية «۱» انه من دون تمسك بالحبل فلا عصمة من الضلال وكذا هو مقتضى آية كفر إبليس بإبائه الطاعة لآدم، ومقتضى آية إكمال الدين وإتمام النعمة بما أنزل ذلك اليوم من فريضة الولاية.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۱

الفصل الاول: منهج المعرفة الدينية ... ص: ۲۱

اشارة

منهج المعرفة الدينية

ونتناول فيه منهج الحجج فى بحث الإمامة فيقع البحث فى الكتاب والسنة والعقل والمعرفة القلبية. والعلاقة والارتباط بين هذه الأدلة لكن قبل الولوج فى هذا البحث لا بأس بذكر عدة مقدمات نتعرض فيها لتصوير الأحكام الشرعية فى مجمل العقائد وبالتالى يمكن تطبيق قواعد اصول الفقه لاستنباط الاحكام الشرعية فى العقائد.

المقدّمة الأولى ... ص: ٢١

اشارة

ينقسم الحكم الشرعى إلى قسمين احدهما الفقهي والاخر الاصولى، ويقصد بالأول الحكم الشرعى الواقعى المجعول بالجعل الأولى كوجوب الصلاة ووجوب قراءة السورة، ووجوب الخمس ويكون ملاكه فى نفسه ... فهو ناظر إلى الواقع ويتعلق بالعناوين والموضوعات الواقعية وبتعبير آخر حكم أولى مرتب على واقع الافعال.

اما الحكم الشرعى الأصولى فهو الذى يبحث عنه فى علم الاصول ويكون حكما طريقيا الهدف منه احراز الحكم الواقعى فملاكه ليس فى نفسه.

والبحث فى إمكان تصوير كلا القسمين فى العقائد أم لا؟

ولذا سوف يكون البحث من الناحية الثبوتية والإثباتية.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۲

أولًا: البحث الثبوتى ...: ص: ٢٢

والبحث من جهتين الاولى امكان التعبد بالحكم الواقعى الأولى فى العقائد سواء تفاصيلها أو امهات مسائلها. والثانية امكان ثبوت الحكم الشرعى الأصولى فى العقائد بمعنى هل يثبت بالظن النشآة السابقة، أو أحوال البرزخ ... فعندما يُقال لا يمكن التعبد بالظن، لا يكون ذلك منعا للحكم الشرعى الواقعى بل منعا للحكم الأصولى.

امّا الجهة الأولى:

وهو امكان وجود حكم شرعى فقهي فى باب العقائد، اى هل يمكن للشارع ان ينشأ حكماً شرعياً بوجوب الايمان بالرجعة- مثلا- أم لا؟

ان تصوير الحكم الشرعى فى تفاصيل العقائد بل حتى فى مسائل الإمامة والنبوة والمعاد ليس بالأمر المشكل وذلك لعدم تأتى اشكال وشبهة الدور اذ ان هذه المسائل تثبت بعد توحيد الحق تعالى والايمان به لذا سوف نركز الكلام حول التوحيد، واثبات امكانية الحكم الشرعى فيه.

والمدعى هو امكان ذلك وعدم وجود المانع منه. والدليل على ذلك يتضح من خلال النقاط التالية:

ان الايمان الذى يحصل لدى الفرد هو من وظيفة القوة العملية أى العقل العملى وليس من وظيفة القوة النظرية وذلك لان الايمان هو عقد القلب على شيء أى الاذعان والتسليم بذلك الشيء، وبهذا يكون فعلا من أفعال النفس.

اما القوة النظرية فوظيفتها الادراك البحت، والإدراك بعد حصول مقدماته من الأدلة والبراهين لا يكون اختياريا بل يحصل تلقائياً، لكن ليس كل ادراك يستتبعه اذعان من القوة العملية فقد يحصل ادراك بحقيقة ما، ومع ذلك تأبى النفس

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۳

التسليم بها والإخبار الى وجودها والالتزام بها ويتصرف الإنسان على خلاف ذلك.

ومن هنا فان الخطابات الشرعية والاحكام التى يجعلها الشارع لا يكون متعلقها الادراك ولا الفحص عن مقدماته، وإنما متعلقها هو الفعل القلبى الذى تقوم به القوى العملية، وهنا يكمن موضع الاشتباه حيث ان البعض تصور أن متعلق الحكم الشرعى هو الادراك بأن يخاطب الشارع الفرد: «أدْرِك ربك او اعْرِف ربك» فأشكل بالدور وما شابهه، وما دام الايمان وظيفة القوى العملية، فان الترغيب

والترهيب سوف يكون مؤثرا للنفس حتى تنصاع القوى العملية للأدلة الصحيحة والبراهين الساطعة التى ادركتها القوى النظرية.

قد يشكل البعض ان المناطقة عرّفوا العلم بأنه التصديق والجزم فيعود الاشكال؟

والجواب عن ذلك: انه طبقا لاخر تحقيقات مدرسة الحكمة المتعالية فان الحكم فى القضية هو غير العلم. بيان ذلك:

ان صدر المتألهين ذهب إلى ان العلم الحصولى هو حصول صورة الشيء لدى العقل، وهذا التصور تارة يكون كاشفاً تاماً بحيث يتولد منه اذعان النفس، وتارة لا ـ يولد الاذعان وهذا هو الحكم، فتارة يستتبع الحكم «وهُو فعل نفسانى ليس من قبيل العلم الحصولى والصورة الذهنية» «۱»

.واصحاب النفوس المريضة لا ـ يتولد لديهم اذعان حتى لو كان التصور مبنياً على ادلة حقيقية وذلك للحُجُب المانعة أو الأمراض النفسانية الادراكية أو العملية نظير

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۴

الجربزة والوسوسة والعناد واللجاج والعصبية وغيرها من حصول التصديق، لذا يجب على الباحث والمستدل أن يعمل على تهذيب النفس. وهذا التهذيب يكون بأحكام الشريعة. والحاصل أن قوام الحكم الفقهى هو كون متعلقه فعلا ـ اختيارياً ويجعل على امتثاله الثواب وعلى تركه العقاب وكلا الركنين متوفرا فى الايمان بالتوحيد وإليه الاشارة فى قول الصادق عليه السلام: «الايمان عمل كله».

ومن هنا يمكن القول بأنه من اللطف الالهى الواجب أن يأمر الحق وأن يرغِّب فى توحيده وأن ينهى ويرهب من الشرك به، وهذا الأمر يفسر لنا الاحاديث الواردة بأن على اللَّه المعرفة والبيان وعلى العبد الايمان والتسليم «۱».

ان الشبهة الحاصلة لدى البعض هى ان البراهين والادلة المتكونة من الصغرى والكبرى علة فاعلية للنتيجة والحكم، فقالوا باستحالة تخلفها عنهما، وهذا غير تام.

والصحيح أن هذه البراهين لها وظيفة اعدادية بمعنى انها لاتولد اليقين والجزم بل هو فعل النفس نتيجة لاعداد وتهيئة تلك الادلة ومادام ذلك فعل النفس يكون لاعداد النفس وتهذيبها اثر فعال فى تولد اليقين من الادلة الصحيحة.

والفلاسفة يعترفون ان تلك الادلة لا تورث اليقين بل الظن ولذلك يقولون إنه اذا حصل اذعان وتسليم من النفس فإن هذا كاف فى المقام، وقد مدح الحق تعالى: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُوا رَبِّهِمْ» «۲»

فمع انهم من جهة الادراك ظن لكن من جهة الاذعان والتسليم لا يوجد لديهم تردد.

فاتضح من خلال هذا الاستعراض ان الحكم الشرعى يعم كل المعارف الالهية حتى التوحيد، فثبوتا امكن تصوير الحكم الشرعى الفقهى.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۵

اما الجهة الثانية:

وهو امكان التعبد بالحكم الشرعى الأصولى.

ذكرنا سابقا ان الغاية من الحكم الأصولى هى الارائة، فهل تحصل الارائة من الظن؟ وهذه المسألة تداولها المتأخرون بشكل وافٍ بعد ان تعرض لها الشيخ الانصارى فى رسائله فى تنبيهات الانسداد وحكى «۱» عن كل من المحقق الطوسى والاردبيلى وتلميذه صاحب المدارك والشيخ البهائى والعلامة المجلسى والمحدث الكاشانى وغيرهم إمكان ذلك، وحكى «۲» عن الشيخ الطوسى كفاية الجزم والظن فى الاعتقاد إذا طابق الواقع وإنْ عصى المكلف بترك تحصيل الاعتقاد عن دليل قطعى لأنه واجب مستقل، وذهب إلى ذلك الميرزا القمى فى قوانينه «۳» والمحقق الاصفهانى فى نهاية الدراية «۴» والسيد الخوئى فى مصباح الأصول. وقد ذهب الشيخ نفسه إلى إمكانه بحسب مقتضى الصناعة إلا أنه منعه بحسب الوظيفة الشرعية.

والسر فى ذلك ان اليقين والجزم ليس على درجة واحدة اذ أنه كما ذكرنا يتأثر بدرجة الادراك وبالعوامل النفسية المختلفة، فلدينا

إذعان ينبع من اليقين العلمى واذعان ينبع من الظن الاطمئنانى- المتاخم للعلم-، وهناك اذعان يتولـد من تساوى الطرفين، وذلك فيما دأبت عليه النفس من أخذ الحيطة فى المحتملات البالغة الأهمية فلا تراعى درجة الاحتمال، وانما تراعى أهمية المحتمَل فيحصل

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۶

الاذعان والجزم مع وجود الاحتمال فقط وذلك لاهمية المحتمل وخطورته.

والخلاصـة: فان الاذعان وهو فعل القوى العملية يتبع- فى الغالب- الادراك وهو فعل القوى النظرية وبما ان الادراك ذو درجات تبدأ من تساوى الطرفين وحتى اليقين والعلم، فان الاذعان كذلك تختلف درجته- مع بقائه اذعانا وتسليما.

تبقى الإشارة إلى ان البعض يعتبر ان الشك هو درجة ادراكية وهـذا غير صـحيح اذا ان الشك هو عـدم الاذعان وحالة التردد العملى وبالتالى فهو صـفة لحالـة من حالات القوى العمليـة، فلا اذعان مع الشك، فما ذكر من كون تساوى الطرفين هو الشك الادراكى فهذا غير صحيح لذا لم نعبر عنه كذلك.

ثانياً: البحث الاثباتى ...: ص: ۲۶

اشارة

بعـد أن تم تصوير امكان توجه الحكم الشـرعى فى العقائـد سواء أصولها ام تفاصـيلها تصل النوبة للبحث الاثباتى وهو مقدار ما قامت عليه الادلة فى الاحكام الشرعية.

۱- الحكم الشرعى الفقهى ...: - ص: ۲۶

اى الحكم الأولى فيمكن القول أن الآيـات الواردة بصـيغة «أمنوا بـاللَّه» كلهـا احكام شـرعية لوجوب التوحيـد لـذا لم تخاطب الجانب الادراكى البحت، بل أتت بلفظ الايمان وهو ما اشـرنا اليه سابقا فى البحث الثبوتى، وعليه تكون هـذه الاوامر مولوية لوجوب طاعة اللَّه والايمان به وتوحيده.

اما الايات الواردة بوجوب الفحص والتفكير والمعرفة نحو «انْظُرُوا مَاذَا فِي

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۷

السَّماوَاتِ» «... ۱»

وغيرهـا فهى اوامر ارشاديـة ترشـد إلى وجـوب الفحص الـذى ادركه العقـل اذ ان الفحص مقدمـة للادراك، والادراك متقـدم على الاذعان.

اما بالنسبة لتفاصيل الاعتقـادات فأيضـاً قـامت ادلـة كثيرة على وجوب الاعتقـاد بها اذا حصل العلم بـذلك بمعنى أى أن الحكم فيها بخلاف الاصول فهناك يجب تحصيل الايمان، اما هنا فالحكم معلق على قيام العلم أو الحجة المعتبرة على تلك التفاصيل فالاعتقاد والايمان بها واجب حينئذٍ.

بل فى بعض الاخبار وجوب التسليم الإجمالى بما انزله اللَّه وما جاء به الرسول وبيّنه الائمة وان هذا هو مقتضى الايمان بهم.

ففى الرواية عن ابى عبد اللَّه عليه السلام قال: من سرّه ان يستكمل الايمان كله فليقل:

القولُ منى فى جميع الاشياء قول آل محمد، فيما أسروا وما أعلنوا وفيما بلغنى عنهم وفيما لم يبلغنى «۲».

۲- اما بالنسبة للحكم الشرعى الأصولى ...: ص: ۲۷

فهل من الممكن التعبد بالظن فى اصول الاعتقادات وتفاصيلها؟

والبحث هنا يختلف عن البحث فى الحكم الأولى، لذا سوف نقسمه إلى ثلاثة اقسام: -

التعبد بالظن فى التوحيد والنبوة.

ويوجد تسالم على عدم التعبد بالادلة الظنية فى هذين الأصلين وذلك للدور

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۸

الحاصل فى المقام. توضيح ذلك:

ان الايمان بالتوحيد والنبوة يجب ان يستند إلى شىء حجيته ذاتيه، اما اذا كانت حجيته عرضية فيجب ان ينتهى إلى ما هو بالذات اى إلى دليل عقلى اعتبره الشارع، و الفرض ان البحث مازال فى التوحيد فلم يثبت الشارع بعدُ حتى نثبت اعتبار الشارع له أو عدمه.

التعبد بالظن فى الإمامة والمعاد والعدل.

فالأشكال السابق غير وارد هنا وذلك لأن البحث فيما بعد ثبوت التوحيد والنبوة واذعان النفس بهما. لكن مع ذلك يوجد تسالم بين الفقهاء على عدم جواز الاستناد إلى الدليل الظنى فى اثبات الإمامة والمعاد بل يجب الاستناد إلى الدليل القطعى.

والسر فى هذا التسالم هو ان الواجب فى اصول الاعتقادات التحرز والتحفظ عن الوقوع فى الضلال وهذا الوجوب عقلى والركون إلى الظن لا يؤمن هذا الجانب. لا أن الظن غير محصل للاذعان بل يمكن الاذعان والتسليم مع الادراك الظنى لكن هذا لا يكون حصنا امام الشبهات والاشكالات.

التعبد بالظن فى تفاصيل المعارف الالهية.

والبحث هنا حول المقدار الذى ثبت من جواز التعبد بالظن لنيل تفاصيل الاعتقادات، وبعد أن ثبت فى علم الاصول حجية أخبار الآحاد والظواهر لتحصيل الأحكام الشرعية الفقهية الفرعية، يرد التساؤل هل يمكن تعميم الحجية لتشمل تفاصيل المعارف.

وقبل البدأ بأخبار الاحاد نشير إلى أن كثيراً من تفاصيل المعارف قامت عليها الاخبار المتواترة او المستيفضة والتى تورث القطع ويحصل بها العلم وهى خارجة عن بحثنا.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۹

اما اخبار الاحاد:

فأول اشكال يعترضنا هو ان العمل يكون بالخبر واجبا اذا كان مؤداه حكماً شرعياً او موضوعا لحكم شرعى، وتفاصيل الاعتقادات ليس من الواجب الاعتقاد بها، فلا معنى لوجوب العمل بخبر الواحد.

والجواب عن هذه الشبهة- وان كان يظهر مما تقدم ذكره فى البحث- لكننا نفصل ونقسم تفاصيل الاعتقادات إلى قسمين: -

أحدهما: المعارف التى تتعلق بعالم المادة وشئون الدنيا نحو: ان تحت الارض كذا أو فوق السماء كذا، والظن بأحوال القرون الماضية وكيف كانت حياتهم ولم يقل احد بوجوب الاعتقاد بها حتى وان حصل العلم بها.

والثانى: - التفاصيل المتعلقة بأفعال الحق سبحانه، وكيفية خلقه ونحو أفعاله، وما هو مرتبط بعالم الغيب من مختلف المعارف، وهذه يجب الاعتقاد بها، لكن فى حالة حصول العلم او قيام الحجة المعتبرة وقد جعلها المتقدمون كالصدوق والمفيد من قسم العقائد.

والدليل على ذلك مضافاً إلى أنه مقتضى عموم أدلة الحجية التعبدية- لو ثبت شمولها- عدم تعليق وجوب الاعتقاد بها على خصوص العلم، وإيجاب الاعتقاد بتوسطها، ولو بدرجة العقد الظنى: -

إنه هناك الكثير من الايات التى توجب الايمان بالغيب مطلقاً بل تذكر ان الايمان بالغيب من الصفات الممدوحة فى المؤمنين، وإذا

كان الملتزم بالغيب على نحو الاجمال ممدوح فتدل على عموم موضوع الأدلة الاولى، لمن قامت لديه ادلة تفصيلية على هذا الغيب فإن الإيمان بذلك يكون واجباً.

ان مقتضى الايمان بالنبى صلى الله عليه و آله ورسالته هو التسليم بكل ما صح عنه وبكل ما ثبت نسبته اليه.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۰

ان هذه الروايات تتناول صفات الحق وحكمته وأفعاله التى دلّت الأدلة العامة على لزوم الاعتقاد بها مع أن الاعتقاد بهذه التفاصيل لا ريب فى رجحانه ويزيد من قوة الايمان وهو مصحح للحجية.

ان بعض الروايات الواردة فى بعض التفاصيل قد صرحت بوجوب الاعتقاد بها كالرجعة. وهذه لا خصوصية لها فيعم الحكم جميع التفاصيل كعذاب القبر والبرزخ ونحوهما، ولا يتوهم الدور كما لا يخفى خصوصا اذا ضممنا الى ذلك ان الكثير من التفاصيل ثبت بروايات مستفيضة.

إنه قد وردت روايات كثيرة فى كفر- وإن لم يكن بالمعنى الخاص الاصطلاحى- من جحد ما تقوم به الحجة فى بعض الضروريات ولا يعتقد بها وخصت الحجة بنقل الثقات «۱».

ثم إنه لو فرض الشك فى وجوب الاعتقاد وعدم قيام الدليل فانه لا يسوغ الرد عقلا ولا شرعاً إذ بينهما مغايرة.

اما عقلًا وذلك لعدم قيام الدليل على النفى فاذا ردّ وجزم بالنفى فيكون كذباً لعدم قيام الدليل على النفى حتى لو كان رده صحيحا.

اما شرعاً فلأن احتمال الصدور من الشارع وارد فمع احتمال الصدور كيف يجوز الرد وقد ورد فى رواية زرارة عن ابى عبد اللّه عليه السلام: لو ان العباد اذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا «۲»

.ثم قد يورد اشكال ثان حاصله ان المطلوب هو الاعتقاد وهو جزم واذعان فكيف يمكن تحصيل ذلك من الظن؟

وجواب هذا الاشكال واضح وهو ان الاذعان والجزم ذو مراتب، فقد يحصل

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۱

من العلم والقطع وهو أعلى المراتب، وقد يحصل من الظن المعتبر فهو جزم إلا إنه ظنى فالتفرقة فى الفعل النفسى.

وقد يشكل اخيرا بالآيات الواردة فى النهى عن اتباع الظن وخصوصا ان علماء الاصول حملوا هذه الروايات على الظن فى الاعتقادات وان المطلوب فيها اليقين.

وقد اجيب عن هذا باجوبة عدة:

منها: ان المراد من الظن المنهى عن اتباعه هو الظن الذى لا يرجع إلى اليقين اما اذا كان مدرك حجية هذا الظن قطعياً فلا مانع من متابعته.

ومنها: ان النهى من اتباع الظن وارد فى اصول الاعتقادات اما فى التفاصيل فلا يعلم ان الاية تنهى عنه.

ومنها: ان الايات واردة فى ذم قسم من الناس الذين يرون المعاجز النبوية الثابتة ولا يؤمنون بها ويتبعون الظن وما جاءهم به اباؤهم. فالآيات واردة فى ذم من يتبع الظن المقابل والمنافى لما دلّ عليه اليقين.

ومنها: ان الظن انما يذم اتباعه حيث يمكن تحصيل اليقين والعلم، اما مع عدم امكان تحصيل اليقين فان النوبة تصل إلى الظنون المعتبرة.

وبعبارة أخرى أن المسائل فى المعارف كلما ترامت وابتعدت عن الاستدلال بالبديهيات وتوغلت فى النظرية كلما قلّ وضوح يقينيتها كما هو مشاهد بالوجدان وكانت إلى الظن منها أقرب من اليقين، كيف لا وهذا ابن سينا يقرّ بالعجز عن إقامة الدليل العقلى على المعاد الجسمانى مع أنه من أصول الدين، ويتوسّل ببرهان اخبار الشريعة الحقة المحمدية بذلك.

ثم هناك نكتة مهمة يجب التنبه اليها وهى جواب ايضاً عما هو وارد فى القرآن

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۲

وهی ان الظن والیقین فی اصطلاح القرآن «۱» لیس هو طبقا للمتعارف الشائع من کونهما درجتین من درجات الإذعان بل المراد منهما ان المقدمات اذا کانت لا یصح الرکون الیها وإن ولّدت احتمالًا فانها تسمی ظنا، واما اذا کانت المقدمات مما یصح الرکون الیها فانه یعبر عنها بالیقین.

ومنها: ما ذکره صاحب القوانین «۲» ان الاستناد إلی دلالة ظواهر تلک الایات هو استناد إلی الظن أیضا فکیف یمکن الاستناد الیها.

اما ادلة عموم التعبد بخبر الواحد:

بالنسبة للآیات الواردة علی حجیة خبر الواحد فان أهم آیة دالة علی ذلک هی آیة النفر. وفیها أنّ التفقه متعلق بالدین وهو یشمل الاحکام برمتها فرعیة واصولیة فمن یرید التفقه یجب أن یسعی للتفقه فی کلا المجالین، والانذار کذلک یکون فی الفروع والاصول غایة الامر وجد مانع من شمول الایة لاصول الاعتقادات- دون تفاصیلها- وهو المانع الخارجی الذی اشرنا الیه سابقا.

ومن ادلة حجیة خبر الواحد السیرة وهی قائمة علی تعاطی خبر الواحد فی تفاصیل الاعتقادات، بل هو مرتکز فی وجدانهم کما نری فی کتبهم، فهذا العدد الکبیر الهائل من الروایات التی یرویها الرواة فی تفاصیل المعارف شاهد علیه

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۳

وهذه هی السیرة الفعلیة، ویمکن التعبیر عن السیرة بان لها اطلاق تقدیری بمعنی إنه لو لم تکن لهم سیرة بالفعل قائمة علی العمل بخبر الواحد فی التفاصیل، فان ارتکاز السیرة بنحو یکون مدعاة لتعمیمه وعدم الردع من الشارع لهذا الارتکاز یعنی امضاؤه له.

کما أن الأصولیین یستندون فی حجیة أخبار الآحاد إلی روایات مستفیضة مفادها مثل أن السائل یسأل الإمام علیه السلام فلان ثقة آخذ عنه معالم دینی؟ فیجیب الامام علیه السلام بالایجاب.

واخذ معالم الدین شامل للفروع والاصول.

اما بالنسبة لحجیة الظواهر:

فقد اشار الکثیر إلی ان حجیة الظواهر لیس امرا متنازعاً فیه، وهذا یعنی ان الدلیل علی حجیتها هو القطع بتقریب ان الشارع لم ترد له طریقة أخری فی التعامل مع المکلفین غیر الطریقة القائمة فیما بینهم وهو الاعتماد علی الظواهر. وأن کثیراً من المعارف الالهیة وتفاصیلها قد ورد فی القرآن الکریم ولم تکن للشارع فی تفهیم القرآن طریقة غیر طریقة أهل المحاورة فهذا یثبت حجیة الظواهر فی المعارف أیضا.

وقبل ان نختم البحث فی هذه المقدمة نشیر إلی نکات مهمة: -

ان هذه المقدمة والتی تلیها تبرز أهمیة ان البصیرة فی هذه المباحث توجب حصول بصیرة فی کثیر من المجالات والعدید من المخاصمات فی تفاصیل الاعتقادات.

من المقرر فی علم الاصول ان حجیة خبر الواحد والظواهر منوطة بالفحص عن المعارض، والأمر هنا کذلک بل الفحص عن المعارض فی تفاصیل الاعتقادات یکون أشد واخطر واهم لکثرة القرائن المنفصلة فی هذا الباب ومنها

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۴

القرائن العقلیة فلا بد من الخوض فی البحوث العقلیة بمقدار کافٍ حتی یمکن فهم کثیر من الروایات.

ان الاحکام الشرعیة الواردة فی التفاصیل حکمها علی وزان الفروع فما کان منها ضروری فإن عدم الایمان به وردّه حکمه حکم الارتداد، وغیره قد یوجب الفسق فی حالة التقصیر.

المقدمة الثانية ... ص: ۳۴

ونتناول فيها البحث حول الميزان واصول الادلة فى علم العقائد.

ونستعرض فيها العلاقة القائمة بين العلوم وما يرتبط منها فى بحث العقائد.

فما هى اصول العقائد؟

يطلق الاصل على معان عدة فقد يطلق ويراد به الاساس للشيء، وتارة يطلق ويراد به ما هو السبب للمسبب. وفى الاصطلاح عندما يطلق على ما يعتبر اصلا لعلم اخر فانه يقصد به العلم الذى يتكفل ايضاح منهجية علم آخر وتهيئة قواعد لا تدخل نفسها كمواد فى قياس ذلك العلم. ومن هنا تفترق القواعد الفقهية عن القواعد الاصولية بالنسبة لعلم الفقه فإن القاعدة الفقهية بنفسها تدخل فى استنباط الحكم الشرعى فيستفاد منها فى باب التطبيق، بينما القاعدة الاصولية لا تحضر بنفسها فى الفقة بل هى تحدد المنهج الذى يجب اتباعه فى الاستنباط.

وبالنسبة للعقائد يمكن القول ان القواعد العامة التى تذكر فى علم الكلام أو الفلسفة يتم تطبيقها فى الالهيات فتكون من قبيل القواعد الفقهية، ويمكن التعبير عن التطبيق بالقول «ان المحمول بنفسه يأتى فى النتيجة».

وعلى كل ففى اصطلاح أهل الفن يطلق الاصل ويراد به احد هذين المعنيين.

والغرض هنا هو البحث حول اطلاق اصول ادلة العقائد

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۵

هل يراد بالاصل ما يبحث فى منهجية الاستدلال ام يُراد به ما يرادف القواعد الفقهية؟

والجواب عن هذا التساؤل:

إنه اذا اطلق الاصل هنا واريد المعنى الأول فالعلم الباحث عن منهجية الاستدلال فى العقائد هو علم اصول الفقة.

والسر فى ذلك اننا ذكرنا فيما سبق ان المقصود بالاحكام الشرعية لا يخص الفرعية (عبادات ومعاملات) بل يعم ويشمل العقائد اصولا وتفاصيلا طبقا للتصوير السابق ذكره. وعلم اصول الفقة هو الباحث عن معيار الحجة فى استنباط الاحكام الشرعية وبالتالى يتدخل فى العقائد. ويشهد لذلك ان المتكلمين «حتى ان القيصرى فى مقدمات شرح الفصوص بحث مفصلًا بالملائمة بين الكتاب والسنة والكشف. وهو بحث اصولى محض» عندما يتطرقون فى بعض مسائلهم إلى كيفية الاحتجاج لحجة معينة يستعينون بما تم تصويره وتحريره فى علم الاصول. بل ان صدر المتألهين مبتكر الحكمة المتعالية كثيرا ما يتعرض لمنهجة الملائمة بين الوحى والعقل ومتى يقدم كل واحد منها وما هو مدى كل منها.

* أصول الفقه والمنطق: من الضرورى جداً بيان الفارق بين العلمين وأن لا تعارض بينهما، ولا يكون علم الاصول بديلًا عنه بل يظل علم المنطق هو الباحث عن حجية الادلة العقلية فقط ويعتبر اصولا للفلسفة ويمكن التمييز بينهما.

أ- ان علم الاصول يبحث عن منهجة المعارف القلبية.

ب- إن فى علم المنطق لا يبحث عن اساس حجية الدليل العقلى من حيث المواد وإنما يوصلها إلى البداهة أو اليقين، بينما يبحث عنه فى علم الاصول.

ج- فى المنطق لايبحث إلا عن الدليل العقلى بينما فى الاصول يبحث عن الملائمة بين العقل والنقل والكشف.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۶

والحاصل أن كلا من العلمين يبحث عن الحجية حتى أن علم المنطق يشتمل على صناعة كل من البرهان والجدل والثانى فيه حيثية الالزام فيقترب من علم الأصول وإن كانت حيثيته ليست للخصومة، إلاـ أن بينهما فوارق، ومن ثم أضحى علم الاصول منطقاً للعلوم الدينية وللمعرفة الدينية.

فعلم الأصول له دخالة فى كل معرفة دينية وعملية استنباط يسعى اليها الإنسان لاستكشاف المجهول.

- ثم اننا عندما نـذكر تقدم علم على آخر لا نلتزم بذلك مطلقا، بل نقول أن من المتسالم عليه هو قاعدة التعاون بين العلوم فقد يكون علم مقدما على آخر من حيثية، ويكون العلم الثانی مقدما علی الأول من حيثية اخرى.

۲- وان اريد بالاصول القواعد الفقهية وهو المعنی الثانی فيعتبر علم الفلسفة هو اصول العقائد- هكذا قيل-.

لكن الصحيح ان جميع القواعد العامة التی حررت فی علم الكلام، وفی مقدمات التفسير، وروايات المعارف والبحث فيه كلها تكون اصلا لعلم العقائد.

ومن هنا نشأت مدارس مختلفة فی ارساء وتحرير القواعد العامة التی يحتاج اليها الباحث فی علم العقائد. وهی عديدة: -

منها مدرسة المشائين: والتی اعتمدت العقل كأساس لتفسير العقائد والايمان بها ولا يوجد منبعا آخر لا نقلا ولا كشفا، واساس هذه المدرسة الفلسفة اليونانية وتبناها منهم ارسطو.

ومنها مدرسة الاشراقيين: وهی أيضا متأثرة بالفلسفة اليونانية والتی ترى ان نيل المعارف الربوبية يكون عن طريق الاشراق والكشف الذی يتنزل إلی العقل. وبهذا تتميز هذه المدرسة عن المدرسة العرفانية اذ لاتشترط ان تتنزل المعارف القلبية علی العقل، بينما تشترطه الأولی واشتهر قول شيخ الاشراق لولا العقل والقلب لما

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۷

أمكن الوصول إلی هذه المعارف.

ومنها المدرسة العرفانية: والتی ترى عجز العقل عن الوصول إلی المعارف العالية تماماً بل يصل الإنسان إلی المعارف عن طريق المجاهدات وتصفية القلب، فينجلی امامه المجهول وتنكشف امامه الحقائق.

ومنها مدرسة المتكلمين: الذين حاولوا الربط بين العقل والنقل، لكنه يركز فيه علی ما ورد فی الشريعة ويحاول بعدئذ اقامة الدليل العقلی عليه، ويحرص علی موافقة الحكم المستنتج من العقل لما عليه الشرع.

ومنها مدرسة الحكمة المتعالية: وهی قمة ما وصل اليه متأخرو الفلاسفة وقد ظهرت من تحقيقات صدر المتألهين الذی حاول الجمع بين المدارس المختلفة لتظهر خلاصة تحقيقات المتقدمين، فوافق بين العقل والعرفان وجعل محورهما هو الوحی وحاول الملائمة بينها.

ومنها مدرسة المفسرين: حيث انها ترجع إلی ظواهر القرآن لاستلهام مجموعة من القواعد فی المعارف الالهية.

ومنها مدرسة التفكيك: والتی ظهرت علی يد الميرزا مهدی الأصفهانی حيث قامت بالتفكيك بين العقل المحدود والعقل اللامحدود وهو الوحی والاعتماد اساساً علی القرآن.

ومنها مدرسة المحدثين: وهذه استقت معارفها الالهية من الاحاديث والروايات فحرروا مسائل كثيرة لم تذكرها المدارس السابقة وقد برز منها المجلسيان وصاحب الوسائل · وصاحب تفسير البرهان...

فهذه المدارس كلها وغيرها مما ظهر وانتشر كان هدفها ابتكار ارفع الأساليب وأسلم المناهج للوصول إلی المعارف الإلهية.

ولا يمكن القول بالاقتصار علی لغة مدرسة منها والاكتفاء بها بل كل مدرسة

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۸

امتازت بقواعد حررتها لم تهتد اليها المدرسة الاخرى، فاذا كان المراد من الاصل هو المعنی الثانی فيجب ان تشمل الدراسة كل القواعد التی دونت دون الاقتصار علی بعض منها فی سبيل الوصول إلی معارف الوحی.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۹

المبحث الأول: حجية الكتاب الكريم ... ص: ۳۹

اشارة

من بـديهيات الفكر الإسـلامى حجيـة الكتاب وأنّه المعجزة الخالـدة وخاتم الرسالات الـذى لا يأتيه الباطل من بين يـديه ولا من خلفه. وقـد أسـهب الاـصوليون فى هـذا البحث ورد الشـبهات ومناقشـة الاخبـاريين وغيرهـم ممن فصـل فى حجيته فلاـ نعيـد الكلام فيه وانما نتعرض إلى نقطتين:

۱- نظرية تفسير القرآن بالقران والتى نادى بها العامة وبعض الخاصة، وآخرهم العلامة الطباطبائى.

۲- كيفية الملائمة بين حجية الكتاب والسنة والعقل.

اما النقطة الاولى: تفسير القرآن بالقران..

وتعتبر هذه النظرية فى الطرف المقابل لنظرية المحدثين والتى تقضى بعدم امكان التفيسر إلا بالرجوع إلى الروايات والاحاديث.

اما العلامة الطباطبائى فانه يرى ان القرآن فيه بيان كل شـىء، وفى تفسـير كل آية يجب الرجوع إلى الآيات الأخرى التى توضح المراد والمقصود، فمثلا قوله تعالى: «الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» «۱»

يشتبه المراد من كيفية الاستواء لكن اذا رجع إلى قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» «۲»

علم ان المراد من الاستواء هو

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۴۰

التسلط على الملك والاحاطة على الخلق دون التمكن والاعتماد على المكان الذى يستلزم التجسيم المستحيل.

ولم يكن العلامـة فى نظريته منفرداً بـل متبعاً لطريقـة أهل البيت: فإنهم قلما يفسـرون آيـة من دون ذكر ايـة أخرى توضـح المراد منها. وكأنهم يرشدون أتباعهم إلى كيفية تفسير القرآن والتدبر فى آياته بالاستفادة من الآيات الأخرى فى تفسير ما ابهم من المعانى.

ويضـيف أن ما ورد فى تقسيم آيات القرآن إلى المحكمات والمتشابهات لا يعنى أن الاية فى نفسها مبهمة ولا يتضح منها معنى البتة، بـل ان التشـابه هو بلحـاظ فهم السامع والقارىء وتردده بين معنى وآخر بحيث لايتعين المراد منها إلا بالرجوع إلى آيـة محكمـة والتى هى بمنزلة الأصل الواجب الرجوع اليه عند تردد المعانى فى المتشابهات.

وحصول التشـابه لـدى السـامع او القـارئ امر طبيعى، ومرجعه انس الإنسان بالامثلـة الماديـة المحسوسـة فيحمل الالفاظ لا على معانيها بحـدها الماهوى بل يخلط بها المصـداق المألوف لـديه فيختلط عليه المراد، اما اذا التفت إلى أن الألفاظ موضوعـة لروح المعانى دون النظر إلى المصـاديق التى هى عرضـة للتبـدل والتغير، ارتفع لـديه الاختلاـط، فمثلا السـجود موضوع لمنتهى الخضوع والخشوع وليس موضوعا للهيئة الخاصة المتداولة وعندها يمكن فهم امر الحق تعالى ملائكته بالسجود لادم.

وقد يشـكل عليه بأن هذه الطريقة من التفسـير هى ضـرب القرآن بعضه ببعض، وقد نُهى عنها صـراحة فى قول الصادق عليه السـلام ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۴۱

إلا كفر «۱»، وغيرها.

ويجيب عن ذلك بأن المقصود بالضـرب هو التفسير بالرأى الذى يؤدى إلى اختلاط الآيات بعضها ببعض ببطلان ترتيبها ودفع مقاصد بعضها ببعض.

ويستدل العلامة على نظريته بأدلة وشواهد عدة:

منها: ان القرآن وُصف بأوصاف متعددة منها إنه نور، وهدى، ومبين، وفرقان، وان فيه بيان لكل شيء وهذه كلها تدل على عدم اغلاقه وإنه لا يحتاج إلى مفسر خارج عنه.

ومنها: أن القرآن هو المعجزة الخالدة التى تحدى به الرسول صلى الله عليه و آله كافة الناس ان يأتوا بسورة أو آية مثله، ومقتضى التحدى كونه واضحاً غير مبهم فهو يبين نفسه بنفسه.

ومنها: وردت روايات عديدة ترشد إلى كيفية تمييز الحجة عن اللاحجة من الروايات بالعرض على كتاب اللّه، فهذا يعنى ان فى كتاب اللّه البرهان الواضح والمفاهيم الساطعة التى يمكن فهمها وعرض الروايات عليها.

ومنها: قوله تعالى: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً» «۲»

تدل على امكانية نيل المعارف القرآنية وأنه لا معنى لارجاع ذلك إلى بيان السنة لان ما بَيّنه إما أن يكون معنى يوافق ظاهر الكلام أو ان يكون معنى لا يوافق الظاهر، فإن كان الأول فهو مما يؤدى اليه اللفظ ويمكن التوصل اليه ولو بعد التدبر، وإن كان الثانى فهو مما لا يلائم التحدى.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۲

ومنها: ما ورد من الروايات التى كالنص فى ذلك كرواية الباقر عليه السلام فمن زعم ان كتاب اللّه مبهم فقد هلك وأهلك «۱».

ومنها: ما ذكره فى حاشيته على الكفاية.

– ان حجية السنة منبثقة عن حجية الكتاب فبينهما طولية حيث قد ورد فى القرآن حجية السنة «مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ» «... ۲» «وَلَكُم فى رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» «۳»

.– ويرى ان قوله: «إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيم حَمِيدٍ» «۴»

: يعنى أنه لا يبطله شىء وبالتالى لا ينسخ القرآن إلا بالقران أما ما اتفق عليه العامة والخاصة من امكانية النسخ بالسنة القطعية فمدفوع بهذه الاية.

تقييم نظرية العلامة ...: – ص: ۴۲

إن أصل ما ذكره العلامة متين ونوافقه عليه، لكن النتائج التى رتبها على ذلك من استقلال الإنسان فى تفسير القرآن بالقرآن بعد معرفة طريقة أهل البيت هذا غير صحيح، حتى أنه رضوان اللّه عليه لم يتبع ذلك فى تفسيره.

وما ندعيه هو أننا دائما فى تفسيرنا للقرآن نحتاج إلى الرجوع إلى السنة الشريفة، لأن المعصوم هو القيّم والحافظ للقران بدليل حديث الثقلين «۵»،

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۳

والرجوع اليهم لا يعنى نقصاً أو تقليلا من حجية القرآن، فلقد قُرر فى علم الاصول ان حجية الظواهر انما تكون بعد استفراغ الوسع فى البحث عن القرائن المنفصلة سواء من القرآن او السنة القطعية او المعتبرة او من القرائن العقلية.

ولتقريب الفكرة نضرب مثالًا فى علم الرياضيات؛ حيث أنه من العلوم المستقلة التى لا تعتمد على علوم أخرى، ويحتوى على بديهات ونظريات ومعادلات، لكن هل الجميع على حد سواء فى هذا العلم؟ بالطبع لا، فالأفهام تتفاوت والعقول تختلف ودرجات الادراك ليست على حد سواء، فيحتاج إلى قيّم وحافظ يدرك كل شىء ولا تستعصى عليه مسألة ولا يكون هذا القيم إلا من اتصل بعالم الغيب ونهل معرفته من العقل المحيط، كما نرى فى أجوبة مسائل امير المؤمنين فى باب الارث.

وعليه فإنا نقول إن الافهام بما انها متفاوتة فى فهم القرآن واستظهار معانيه لذلك يحتاج إلى قيّم وحافظ، فهمُه محيط بكل معانى القرآن فيُسترشد بفهمه دائما

واما ما استدل به العلامة: –

من الدعوة إلى التدبر الواردة فى القرآن فيجاب عليها: بأن التدبر المشروط لا ينافى التدبر، والشرط هو الاسترشاد بروايات أهل بيت

العصمة، بل ان العلامة كما ينقل من سيرته لم يبدأ التفسير حتى قرأ بحار الأنوار قراءة دقيقة بتفحص ثم بدأ فى تفسير القرآن وما ذاک إلا من أجل مراعاة خط أهل البيت وفهمهم فى تفسير القرآن.

نعم الدعوة إلى التدبر تقع فى قبال السلب الكلى الذى ادعاه الاخباريون من عدم امكانية فهم القرآن إلا من خلال الروايات.

* واما الاعجاز والتحدى فهو ممكن لكنه غير مشروط بأن يصل فهم الكافرين إلى كل بطون وأسرار القرآن بل مع الفهم البسيط إلى بعض أسرار القرآن وعجزهم

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۴

عن الاتيان بمثله اكبر دليل على إعجاز القرآن وأنه من عند اللَّه. بالاضافة إلى أن جهات الاعجاز فى القرآن كثيرة لما يحتوى من اسرار الخلق وشؤون النظام والمعارف العقلية. وهذا كله دليل على ضرورة وجود القيّم والحافظ للقران الذى يرشد إلى تلكم المعارف، ويأخذ بيد المتعلم والمتدبر إلى بطون القرآن التى لا تنالها الافهام العادية.

* وما ذكره من أن جميع الحجج منبثقة من الكتاب أمر لا ينكر لكنه لا يعنى انحصار حجية السنة بالكتاب، وذلک لأن المعجزات الاخرى للرسول صلى الله عليه و آله تثبت رسالته وحجيته كما هو الحال فى بدء الدعوة، بل إن فى بعض الآيات ما يشير إلى حجية الكتاب وصدق ما أنزل بتوسط صفات النبى صلى الله عليه و آله من الصدق والإمانة «.. أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ..» «۱» «.. فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً..» «۲»

، وكذلک حجية كلام الائمة عليهم السلام يعلم بمعجزاتهم وبليغ خطابهم واخبارهم عما هو مجهول فى ذلک العصر، وإلى قرون متمادية لاحقة.

* أما ما ذكره من روايات عرض السنة على الكتاب، فقد تقرر فى علم الأصول بان السنة بعضها قطعى ولا معنى للعرض، اما الخبر الظنى الصحيح فمعنى عرضه هو عدم مباينته للكتاب وليس المراد الموافقة التفصيلية وكذلک يعرض على السنة القطعية.

واما حديث النسخ وامتناعه فهو غريب منه لأن القرآن قد صرح بصدق الرسول وحجية خبره فما المانع من النسخ.

ونورد عليه نقضا بأن القائلين بهذه النظرية متعددون من العامة والخاصة، ومع ذلک لا نراهم يتفقون فى تفسير الايات، وهذا الاختلاف إما راجع إلى الخطأ فى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۵

المنهج أو خطأ فى التطبيق، اما الأول فذكرنا إنه صحيح فى نفسه فتبين ان الاختلاف راجع إلى الثانى حيث يجب الاسترشاد بالروايات لا الانعزال التام عن السنة، حيث ان المنهج وحده لا يوجب العصمة فى التطبيق.

* وقد أرشد القرآن الكريم إلى حَفَظَته بقوله تعالى: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» «۱»

فهم الحافظون للكتاب المطلعون على أسراره وبدونهم لا يمكن الاهتداء إلى بطونه ولا يمكن التدبر فى آياته.

تنبيه: - يجب التفرقة بين طائفتين من الروايات احداهما هى الروايات المبينة لتفسير الآيات فمعها لا يمكن الاعتماد على الظاهر القرانى، والاخرى هى الروايات المتعرضة للتأويل التى لا تمنع من حجية الظاهر بل يبقى الظهور على حجيته.

النقطة الثانية: فى الملائمة بين الحجج وقد ذكرت فى ذلک نظريات متعددة، والذى نراه أن الكتاب والسنة والعقل حجج متكافلة متضامنة فيما بينها تشير جميعها إلى حقائق واحدة، ويجب الرجوع فى كل منها إلى المحكم منها لا المتشابه، ويجب الابتداء بالعقل لأن اليه ترجع كل الحجج وليكون هو الاساس.

والاسترشاد بالادلة الواردة فى القرآن الكريم فىباب التوحيد. والسر فى ذلک ان العقل مع كونه هو المبدأ فى حركة الارادة إلا إنه ليس بالعقل المحيط ولا المرتبط بالوحى، فيجب حتى يأمن الخطأ ويسير فى الجادة الصحيحة أن يرتبط بالوحى وهو على نحوين احدهما القرآن الكريم والاخر هو السنة النبوية والمعصومة.

وسوف يأتى مزيد بيان لهذه النقطة.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۷

المبحث الثانى: حجية السنّة ... ص: ۴۷

اشارة

وكما تقدم فى حجية الكتاب ليس البحث فى اصل حجية السنة فإنه موكول إلى مباحث أخرى من علم الكلام وإلى علم الأصول بل البحث فى نكات جانبية لم يثرها الاصوليون: -

أولًا- اقسام الحديث ...: ص: ۴۷

ذكروا للحديث اقساما متعددة منها المتواتر والمستفيض والاحاد وقسموا الاخير إلى اقسام منها الصحيح والحسن والموفق والضعيف والمعلل ...

وليس الغرض التعرض إلى هذه الاقسام فهو موكول إلى علم الدراية بل الإشارة إلى عدد من المطالب يجب ملاحظتها فى العمل الروائى: -

أ- ذكروا فى تعريف المتواتر انه اخبار جماعة يمتنع تواطؤهم على الكذب، وقد قسم المتواتر إلى لفظى ومعنوى واجمالى- كما نبه اليه المحقق الخراسانى- وقد ذكروا ان تعدد الجماعة يجب أن يكون فى كل الطبقات وان اختلفوا فى تحديد العدد المطلوب «۱»، لكن الصحيح هو عدم التعبد بعدد معين بل الضابطة هى امتناع التواطىء على الكذب.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۸

وهذا يعنى ان انتاج المتواتر انما يكون لضابطة رياضية وقلة احتمال الكذب بل انعدامه فى بعض الصور. وما دام انتاج الخبر المتواتر للعلم عبر تلك الضابطة الرياضية فاننا نخلص إلى عدم اشتراط تساوى دائرة التواتر فى كل الطبقات، بل قد يكون فى بعض الطبقات واسع الانتشار بينما ينحسر ذلك فى دائرة أضيق فى الطبقات الاخرى فيقتصر على فئة معينة او باصحاب مسلك معين وهذا لا يخدش فى التواتر. والسر فى ذلك ان احتمال الكذب كما يتأثر بالجانب الكمى كذلك يتأثر بالجانب الكيفى الذى يعرف بتمييز طبقات الرواة وكيفية اختلاطهم والوضع السياسى والاجتماعى لكل طبقة، ومن هنا نخلص إلى أن وجود تواتر بدائرة معينة فى حديث ما فى طبقة معينة وهى الأولى وانحسار تلك الدائرة من التواتر فى الطبقات الاخرى لا يمنع من اعتبار الخبر متواتراً، اذا اخذنا بعين الاعتبار تلك الجهة الكيفية، فتحصل ان التواتر على درجات فقد يكون واسع الانتشار بين الناس وقد يختص بطبقة دون أخرى وبفئة معينة دون أخرى، لكن ذلك كله لا يخدش بالتواتر وتحققه ضمن دوائر متعددة تختلف سعة وضيقاً.

ويمكن تمثيل ذلك بعلم اللغة من صرف ونحو وبلاغة ... فان التواتر بدائرته الوسيعة التى كان عليها فى عموم من ينطق بالضاد فى طبقات عديدة متأخرة قد انقطع وانحصر وجود التواتر بالدائرة المزبورة بالطبقات الأولى، وأما وجود التواتر فى الطبقات اللاحقة فهو بدائرة أهل الاختصاص بالأدب اللغوى، وهم الحاملون لتراث اللغة عن الاندراس بكامل خصوصياته جيلًا بعد جيل. وهذا لا يمنع من ثبوت اللغة وشواهدها بالتواتر ولو ضمن طبقات أهل الاختصاص الادبى. وكذا الحال فى بقية الاختصاصات والفنون.

فمن ثم قسموا الضرورات فى العلوم وعلم المنطق إلى ضرورات عامة عند عموم الناس وضرورات خاصة عند خصوص شرائح معينة. وهذا يدل على عدم

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۹

اشتراط حصول التواتر بدائرة ثابتة فى جميع الطبقات حتى الآن بل يكفى حصوله بأى دائرة فى البعض مع مراعاة ضابطة التواتر.

وبتعبير اخر اذا حصلت ضابطة التواتر فى طبقةٍ فإن عدم حصوله بتلك الدائرة بعينها فى طبقات أخرى لا يخدش فى ذلك، ولا يمكن الاستدلال على عدم قطعية الحديث وبطلانه بعدم التواتر بدائرة ثابتة فى بعض الطبقات وجهل كثير من الناس له والأمثلة على ذلك متعددة. فإن هناك دوائر من التواتر على نطاق البشرية جمعاء، وتواتر على نطاق المسلمين خاصة، وتواتر على نطاق الطائفة الإمامية، وهلم جراً مادامت شرائط التواتر منحفظة فى الدوائر المختلفة، وإن كانت بين درجات الضرورة والتواتر المتعددة اختلاف كبير، ولا يخفى أن جهة بحثنا هذا هو من زاوية النقل والصدور، لا من زاوية مضمون المنقول وتمامية موازينه.

ونتيجة لما تقدم لا وقع للتعجب من تتواتر الخبر الواصل إلينا وإن اضيقت دائرة التواتر وهذا ما نراه فى بعض الأحاديث التى هى مواد خلاف بين المسلمين كحديث الغدير والثقلين حيث نجد أن دائرة التواتر فى الصدر الأول واسعة ثم تنحسر هذه الدائرة فى العصور المتأخر حتى تكاد تقتصر فى نطاق ضيق لدى المتخصصين فى هذا الفن.

وأخيراً نشير إلى أن التواتر على درجات كما أن اليقين والجزم على درجات واختلاف الدرجات لا يعنى عدم التواتر.

ب- ان النقطة المهمة فى التواتر هو التكرار الذى يحصل فى روايات مختلفة وهذا هو المحصل للتواتر اللفظى والمعنوى والاجمالى.

ومن هنا تبرز اهمية الأخبارالضعيفة (غير الموضوعة او المدلسة) حيث انها تمثل المادة والمنبع الذى يحقق التواتر.

فما يدعيه البعض من وجوب غربلة الاحاديث وترك الضعيفة والاقتصار على

الأخبارالمعتبرة فقط حديث لا أساس له من الموازين العلمية والصحة ودعوى جهالة، ويمكن ابراز فوائد تلك الأخبار فيما يأتى: -

١- ان الاخبار الضعيفة تمثل مادة ومنبع المتواترات.

٢- ان الأخبارالضعيفة اذا كانت محفوفة بقرائن توجب الوثوق بالصدور تجعلها معتبرة يعتمد عليها.

٣- ان المطالع والمتتبع فى تاريخ البشرية يلاحظ أن اعتماد الناس على الخبر الضعيف بلحاظ التواتر او الاستفاضة، وهذا هو الذى يجعل الخبر موثوقاً بصدوره، وخير مثال على ذلك الإخبار عن الأمم والقرون الماضية، حيث ان مادتها الأولى اخبار لا ترقى الى الصحاح مع قبول الناس لها بلحاظ ما تفيده من الوثوق بصدورها. وتحليل ذلك يعود الى ما يسمّى بعملية حساب الاحتمال وتصاعده البالغ لذلك الحد من الوثوق طبقاً للقواعد الرياضية البرهانية.

٤- إن المبانى فى قبول الأخبار مختلفة ومتنوعة، فكم من خبر رفض الشهيد الثانى العمل به بينما صححه المتأخرون خصوصا بعد بزوغ طريقة التحليل المشابه للتحليل التاريخى، والاستفادة من طبقات المحدثين التى ابتكرها السيد البروجردى والمحقق الاردبيلى صاحب جامع الرواة. وعليه لا يمكن اعتمادها ضابطة عامة لتضعيف الخبر فالضابطة اجتهادية.

٥- ان الخبر الضعيف (الذى لا يُعلم وضعه او تدليسه) يحرم رده وإن لم يجب العمل به، إذ بين حرمة الرد والحجية فرق، كما حرّر فى علم الحديث والاصول، ولم يخالف فى هذا الحكم أحد، وتلك الغربلة تعنى الرد.

٦- ان الخبر الضعيف ان لم يجب العمل على طبقه فإنه يفيد فى مواطن عدة من باب توليد طرح الاحتمال، فهو ليس بأقل- بل يفوق- استدلالًا منقول عن احد الحكماء أو العلماء السابقين، فأى ضرر فيها ان اعتبرت اشارتها إلى احتمال من

الاحتمالات.

ج- ان الخبر الضعيف لا يساوى الخبر الموضوع او المدلس وهذه نكتة قل الالتفات اليها، وهى احدى الاسباب التى ادت إلى ترك الأخبارالضعيفة. فاننا نسلم ان الأخبار الموضوعة المدلسة يجب طرحها واهمالها وتركها إذا عُلم وضعها وتدليسها حيث اتفق على أنه اذا ثبت كون حديث موضوعاً حرمت روايته لكونها اعانة على الاثم واتيان للفرية فى الدين، وأما ما كان ضعيف السند غير الموضوع

فلا بأس بروايته مطلقاً، نعم العمل على طبق مافيه يحتاج إلى جبر الضعف «۱»، وقد وضع العلماء اعلى اللّه مقامهم طرق وقرائن لكشف الحديث الضعيف الموضوع عن غيره فمثلًا مجرد اتصاف الراوى بالكذب لا يعنى وضع الخبر، فإن الكذوب قد يصدق، كما فى وهب بن ابى وهب. كما انا نلاحظ ان طائفة كبيرة قد وصفت بالكذب لمجرد روايتها لأخبار المعارف.

فما ثبت وضعه وتدليسه من الأخبارالضعيفة يجب ردها وتركها اما الأخبار الضعيفة كلها فلا يجوز ردها خصوصاً ان لدينا ضوابط سهلة يمكن بواسطتها تمييز الوضع والتدليس كعرضها على المحكمات فى الكتاب والسنة والعقل. وبالتالى لا يكون نقل الاحاديث الضعيفة تغريراً على المسلمين حيث ان الخبر الضعيف مهما بلغ شأنه لا يمكن ان يحرف المسلمين عن جادة المحكمات فى الحجج الثلاث.

ومن هنا تساهل القوم فى نقل الضعاف لما لها من فوائد جمّة فى الحجية، ولا مجال لتوهم اتحادها مع اخبار الوضع والدس «۲».

د- إن المسألة المهمة التى يجب الالتفات اليها هى مسألة تجميع القرائن حتى يوثق بصدور الرواية عن المعصوم، حيث من النادر ان تكون قرينة واحدة كافية

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۵۲

لاثبات الصدور بل تتجمع القرائن من هنا وهنالك. وهذا على غرار ما ذكرناه فى بحث الرجال أن المشيخة أو ورود الراوى فى أحد الاصول المعتمدة كلها قرائن مع اجتماعها تفيد التوثيق لا أن كلا منهما بمفرده يفيد التوثيق.

وهذا ايضاً على غرار ما ذكر فى بحث الاجماع حيث ذكر الشيخ تبعا لصاحب المقابيس أن قيمة الاجماع بكونه جزء الحجة تنضم إلى الحجج الاخرى لا أنه حجة مستقلة.

ومن القرائن التى تذكر فى هذا الباب الشهرة العملية والروائية بل حتى الفتوائية وهى ممكنة الحصول فى باب الاعتقادات من ملاحظة كتاب الاعتقادات للصدوق والامالى، والشهرة وإن نوقش فى مدى جبرها للضعف، لكن على ما ذكرناه فى المقام تكون قرينة من القرائن لا انها قرينة مستقلة.

ومنها: ان يرد الخبر فى بعض الكتب المعتبرة ككتب صفوان بن يحيى او محمد بن الحسين بن أبى الخطاب الزيات، والحسن بن محبوب المعروفين بضبطهم.

ومنها إنه يروى الخبر راوٍ هو على مذهب مخالف لما يرويه من مضمون.

وغيرها من قرائن توثيق الصدور المحرّرة فى تلك المسألة.

ه- نشير اخيراً إلى قسم من اقسام الحديث هو المستفيض، وهو الخبر الذى يقرب من المتواتر ويرتفع عن الآحاد، حيث أن رواته لم يبلغوا حد التواتر لكنه يكون مؤيدا ومدعوماً من جهة القرائن الداخلة والخارجة فيصبح مستفيضاً والخبر المستفيض أو الموثوق الذى بدرجته يصح الاستناد اليه كما هو مقرر فى علم الأصول، بل درجة حجيته تفوق الخبر الصحيح.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۵۳

ثانياً: احوال الكتب الاربعة والمصادر الروائية ...: ص: ۵۳

وفى بحث الكتب توجد مسألتان يجب معالجتهما قبل الاستناد إلى اى كتاب:

اولا: إثبات نسبة هذا الكتاب إلى المؤلف.

وثانياً: اثبات ان هذه النسخة الواصلة الينا هى النسخة التى ألفها المؤلف، ولم تصل لها يد التحريف.

وعلم الدراية هو العلم المختص بمعالجة هاتين المسألتين، لكنهم لم يذكروا سبيل العلاج على نحو مفهرس، لكنّا نستطيع عملًا اقتناص بعض النقاط لتوضيح منهجهم فى العمل: -

۱- الالمام بكتب الفهارس حيث أنها تختص بذكر كتب الطائفة واسماء مؤلفيها.

۲- التعرف على سلسلة اسناد وطرق صاحب الفهرست للكتاب أو صاحب المجاميع الروائية المتأخرة أو المتقدمة، فيُعرف انه لم يذكره في فهرسته اعتمادا على الشياع ونحوها بل بطريق مسلسل مسند.

۳- التعرف على مدى اشتهار الكتاب بين طبقات المحدثين والفقهاء وذلك بملاحظة: -

أ- سلسلة الاجازات المعروفة كإجازات العلامة المجلسى، واجازة العلامة الحلى لابن زهرة، وكذلك اجازات صاحب الوسائل.

ب- متابعة كتب الاستدلال في الاحكام الفرعية- بحسب القرون المتعاقبة- حيث يعلم منها مدى اشتهار الكتاب، وهذا يفيدنا فيما نحن فيه باعتبار ملاحظة روايات الاعتقاد المذكورة فيه.

۴- من خلال ملاحظة المجاميع الروائية في القرن التاسع والعاشر والحادى عشر، فانه يعلم منها ان لكل منها طريق خاص إلى الكتب الروائية الأم مع افتراق

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۵۴

اصحاب ومؤلفى المجاميع بين الامصار، ومنه يُعلم مدى اشتهار تلك الكتب الروائية وتوفرها بين المحدثين.

۵- مراجعة النسخ المختلفة الخطية وغيرها وعدم الاكتفاء بما هو مطبوع منها.

۶- ملاحظة الحواشى والتعاليق والتملكات الحاصلة على النسخ الخطية حيث يتبين من خلالها مدى معروفية النسخة وموثقيتها.

۷- يجب على المتتبع والباحث ان يلفق ويقرن بين الطرق المختلفة ويستعين بكتب مختلفة من اجل ان يحرز صحة رواية او صحة نسبة كتاب لمؤلفه، فمثلًا في العصور المختلفة إلى اصحاب المجاميع يستعان بكتب الذريعة، ورياض العلماء، واعيان الشيعة، وطبقات الشيعة وغيرها، ومن اصحاب المجاميع كالوسائل والبحار والوافى وتفسير البرهان وغيرها، ويستعان بما يذكره المؤلف في مشيخته او فهرسته او كتبه الاخرى، وقد ترد طبقات مجهولة تقريباً وهى ما بين اصحاب الكتب الاربعة وما بعدهم فهذه يجب ان يتم التتبع والمقارنة والتلفيق بين كتب مختلفة.

ومثال ذلك رواية القطب الراوندى في باب ترجيح الروايات رواها صاحب الوسائل في باب ۹ من ابواب صفات القاضى، ومشكلة هذه الرواية مع اهميتها ان صاحب الوسائل يرويها عن رسالة للقطب الراوندى في رسالة ألفها في احوال احاديث اصحابنا، ولم يرد ذكر هذه الرسالة في كلام مَن عدد وذكر مصنفات الراوندى، لا سيما تلميذه ابن شهر اشوب ومنتجب الدين، وقد توسل السيد الشهيد الصدر بطرق عدة للتصحيح هذه الرواية والتلفيق بين اسناد وطرق مختلفة «۱».

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۵۵

ثالثاً- العلم الاجمالى بوجود الدس ...: ص: ۵۵

من المسائل المثارة في علم الحديث هو دعوى وجود علم اجمالى بحصول دس ووضع في الاحاديث والروايات، وقد ذكرها الشيخ الانصارى في كتاب الرسائل في حجية خبر الواحد. ومن القرائن على دعوى حصول هذا الدس: -

- ما ورد من روايات عن الائمة بوجود كذابين:

منها: ما رواه الكشى في ترجمة عبد اللَّه بن سبأ عن الصادق عليه السلام: انا أهل بيت صديقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا ويسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس، كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله اصدق الناس لهجة واصدق البرية كلها وكان مسيلمة يكذب عليه «۱».

- ما رواه في ترجمة المغيرة بن سعيد «۲».

عن الرضا عليه السلام: ان ابا الخطاب كذب على ابى عبد اللَّه عليه السلام لعن اللَّه أباالخطاب.

وعن ابی عبد اللّه علیه السلام: کان المغیرة بن سعید یتعمد الکذب علی أبی، ویأخذ کتب أصحابه، وکان اصحابه المستترون بأصحاب ابی یأخذون الکتب من اصحاب أبی. فیدفعونها إلی المغیرة لعنه اللّه، فکان یدس فیها الکفر والزندقة ویسندها إلی أبی ثم یدفعها إلی اصحابه ویأمرهم ان یبثوها فی‌الشیعة، فکلما کان فی کتب أصحاب أبی من الغلو فذاک ما دسه المغیرة ابن سعید فی کتبهم.

وقد وصف الرضا علیه السلام وهب بن أبی وهب البختری: لقد کذب علی اللّه وملائکته ورسله.

وهذه القرائن وغیرها تکون محققة لعلم إجمالی بوجود الدس والوضع والتزویر فی الأخبارالتی بین أیدینا، وهذا العلم الاجمالی هو الذی دعا البعض إلی

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۵۶

ادعاء انسداد باب العلم بالاحکام عن طریق الاحادیث.

لکن فی قبال هذا العلم الإجمالی بالدس یوجد لدینا علم ویقین بما سعی الیه العلماء والمحدثون فی ازالة هذا الدس وهو یوجب زوال وانحلال العلم الاول وهذا العلم الثانی متولد من قرائن:

۱- ما ورد من عرض الکتب علی الائمة.

منها: ما رواه الکشی عن داود بن القاسم ان ابا جعفر الجعفری قال: ادخلت کتاب یوم ولیله الذی الفه یونس بن عبد الرحمن علی ابی الحسن العسکری علیه السلام فنظر فیه وتصفحه کله، ثم قال: هذا دینی ودین ابائی وهو الحق کله «۱».

ومنها ما رواه الکشی «۲» فی ترجمة الفضل بن شاذان من ان ابا محمد علیه السلام دخل علیه حامد بن محمد- الملقب بغورا- الذی بعثه الفضل بن شاذان فلما اراد ان یخرج سقط منه کتاب فی حضنه ملفوف برداء له، فتناوله علیه السلام ونظر فیه وکان الکتاب من تصنیف الفضل، وترحم علیه.

ومنها: ما ورد فی عرض کتاب سلیم بن قیس علی السجاد علیه السلام.

ومنها: عرض کتاب ظریف بن ناجح فی الدیات علی ابی عبد اللّه علیه السلام والرضا علیه السلام «۳».

ومنها: ما ذکره الحر العاملی «۴» حول عرض کتب یونس بن عبد الرحمن، وکتب بنی فضال، والفضل بن شاذان، وعبید اللّه بن علی الحلبی علی

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۵۷

الصادق علیه السلام.

مضافاً إلی روایات کثیرة تثبت ان الاصحاب کانوا یعرضون کتبهم علی الائمة او نوابهم کالعرض علی الحسین بن روح، ویصححة الائمة او ینکرونه او یقبلونه.

۲- ان اصحاب الکتب کانوا یدققون فی الکتب والروایات ولا- یودعونها إلا بعد ان یتیقنوا عدم الدس. کتشدد القمیین فی قبول الروایة، واخراجهم الضعاف او من یروی عن الضعاف من قم. وکاستثنائهم لروایات کتب الحدیث کالذی استثنوه من نوادر محمد بن أحمد بن یحیی الاشعری وما نقل من تشدد محمد بن الحسن بن الولید معروف. ومن یتصفح تراجم القمیین یراه حافلًا بعملیة تصفیة وغربلة الأحادیث.

۳- ما ورد فی ترجمة العدید من الرواة من أنه لا یروی ولا یرسل إلا عن ثقة کابن ابی عمیر وغیره.

۴- اهتمام الاصحاب بکتب الفهارس والتی غرضها تصحیح السند إلی صاحب الکتاب، وقد بدأ تصنیف الفهارس من الحسن بن محبوب.

۵- ما ورد فی طریقة رواتهم حیث لا- یعتمدون علی التلقی فقط بل یروون عمن سمع من الثقات اما من وجد فی الکتب فقط

فيتحرزون فى الرواية عنه حتى ان على بن الحسن بن فضال لم يرو كتب ابيه الحسن عنه مع مقابلتها عليه، وانما يرويها عن اخويه احمد ومحمد عن أبيه، واعتذر عن ذلك بأنه يوم مقابلة الحديث عن ابيه كان صغير السن ليس له كثير معرفة بالحديث.

وملاحظة ديدنهم فى كتب الامالى، وما ذكره الميرزا النورى من ان التهذيب وصل اليه وعليه توقيع تلامذة الشهيد الثانى وأنهم قرأوه عليه وكذا ما ذكره الفخر فى الايضاح عن التهذيب، يظهر مدى عناية المحدثين فى النقل والرواية.

۶- ما هو منقول فى كيفية تصنيف كتب الحديث فالكلينى قضى عشرين سنة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۵۸

فى التصنيف، وهذه الفترة انما احتاج اليها لانه كان يدقق فى الحديث وينتقى من بين الاحاديث.

۷- ما ذكره اصحاب المصنفات كما فى الفقيه وكامل الزيارات من انهم لا يكتبون من الاحاديث إلا ما يعتقدون حجيته بينهم وبين اللّه. وانهم رووه عن المشايخ الثقات وقرائتهم عليهم من الكتب المعتبرة.

مضافاً إلى أن خصوص القرائن المولّدة للعلم الإجمالى الأول هى بنفسها مذيلة بما يوجب انحلالها، فإن الأئمة عليهم السلام كانوا على ترصّد ومراقبة لما يدلّسه أولئك الكذبوان، وذكروا ضوابط لمعرفة الحديث المدلس والموضوع من أولئك بحيث تمت عملية الغربلة فى ذلك الحين. مضافاً إلى ضوابط روايات العرض على الكتاب والسنة القطعية.

فيتحصل ان القرائن الكاشفة عن اهتمام الاصحاب فى تنقيح الأخبار كثيرة جدا، مما يدعو إلى انحلال العلم الإجمالى الأول. وهذه الاحاديث التى بين دفتى كتب المتأخرين صادرة عن المعصومين عليهم السلام. بالاضافة إلى قرائن الدس المزعومة ما هو حاصل فى مسائل معروفة معينة، وهذا إن ادى إلى الانسداد فانه يسده فى بابه لا فى كل الأبواب كما ذهب اليه البعض، فدائرة العلم الإجمالى الأول ليست واسعة حتى تشمل كل الروايات. ويؤدى إلى القول بالانسداد فى جميع ابواب الفقه.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۵۹

المبحث الثالث: حجية العقل ... ص: ۵۹

وينقسم العقل إلى قسمين نظرى وعملى.

۱- اما النظرى فهو القوة الموجودة فى الإنسان المجردة عن المادة والتى بواسطتها يحصل الادراك وهى تنطلق من رأس مال البديهيات والفطرة وهو معصوم فيها ومنها ينطلق إلى النظريات والتى لا يكون معصوما فيها. وتجدر الإشارة إنه فى بديهياته لا يكون خالقاً لها وانما تصل اليه عن طريق اتصاله بالعوالم العالية عن طريق الالهام الفطرى او الايحاء.

- والحقائق التى يقوم على اثباتها العقل النظرى غير متناهية بل متطورة فبعض الحقائق عجز عن اثباتها بالبرهان الفلاسفة المتقدمون كابن سينا بينما اثبتها المتأخرون نحو المعاد الجسمانى فقد عجز عن ذلك ابن سينا بينما اثبتها صدر المتألهين مسترشداً بالدليل النقلى، وكذلك مسألة الرجعة فقد اثبتها من المتأخرين بالبرهان ابو الحسن الرفيعى «۱»، فعدم اقامة السابقين الدليل العقلى على مسألة لا يعنى عدم امكان المتأخرين على ذلك، فليس من سبق كُمّلى العقول حتى يمتنع على المتأخرين اقامة البرهان بل العقول فى سير تكاملى إذ الفحص والاسترشاد بالوحى يفتح ابواباً واسعة من العلوم والمعارف العقلية.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۶۰

- ما ثبت بالقطع من الوحى المحمدى يعتبره فلاسفة العهد الاسلامى وسطاً برهانيا وذلك لأن الشريعة الحقة ثبتت بالبرهان وكذلك ثبتت القدرة الغيبية بالبرهان، ومع ذلك لا يختلط علم الكلام بالفلسفة لأن الأول يعتمد التعبد الظنى أيضا.

- ان كثيرا من روايات المعارف ذكر فيها الاستدلال العقلى فالعمل بها لا يكون من باب التعبد بالنقل بل يكون عقليا وبرهانيا أيضاً.

۲- اما العقل العملى فقد عرفوه بانه القوة المدركة للقضايا التى ينبغى ان يقع العمل عليها.

ومنـذ القـدم بزغ الخلاـف فى ان العقـل العملى والنظرى قوتـان مختلفتان ام انهما قوة واحـدة والاختلاف بينهما من حيث المـدركات والصحيح انهما قوتان مختلفتان، وقد ذكر لذلك ادلة متعددة نذكر منها دليلان: –

١– ويتكون من مقـدمتين الأـولى ماقرره الفلاسـفة فى علم النفس ان التعرف على قوى النفس انما يتم باختلاف اثارها فكل أثر يكون ويتم عن درجة معينة من درجات النفس.

والثانية. ان الفلاسـفة قرروا فى الحكمة العملية ان كمال الإنسان يكون عندما تنصاع قواه السـفلية إلى القوة العقلية. أى ان القوة العقليه تدير القوة الوهمية والحسية والشـهوية والغضبية، بمعنى ان القوة العقلية تقوم بالتأثير فى هذه القوى والهيمنة عليها. وهذا يعنى ان القوة العاقلة لها عملان ادراك وتأثير وهو عمل وهو غير سنخ الادراك.

فهذا يدل– بضميمة المقدمة الأولى– على انه توجد قوتان عقليتان نظرية وظيفتها الادراك وعملية وظيفتها العمل والتأثير.

٢– ان آخر التحقيقات لدى صدر المتألهين أدت إلى القول بان التصور

الامامة الالهية(۵)، ج ١، ص: ۶١

والتصـديق همـا قسـما العلم وكلاهمـا يعرفـان بحصول الصورة لـدى العقـل والفرق بينهمـا ان التصور لا يوجب الاذعان والحكم بينما التصديق يوجب حصول الاذعان والحكم، ولذا فالحكم خارج عن التصديق وليس هو جزء القضـية، وانما هو فعل تقوم به النفس فبعد تصـور الموضـوع والمحمول والنسـبة تصـل إلى الحكم وهو الدمـج بين الموضوع والمحمول وهـذا وظيفـة العقـل العملى الـذى يقوم بالحكم والاذعان بما أدركه وتصوره العقل النظرى وهذا فعل غير الادراك. تقوم به قوة غير القوة التى وظيفتها الادراك.

ومن هنا نقول ان العقل له امر ونهى تكوينى اى بعث وزجر للقوى الاخرى الكلية.

* بناء على هـذا التفكيك بين القوتين تتضـح لنا حقيقـة العقل النظرى فهو يدرك نمطين من القضايا احدهما لا يرتبط بالعمل كالقول بان الوجود المادى متناهى.

والاـخرى ترتبط بالعمل وهـذا القسم من الادراكات يتناوله العقل العملى بعدئـذ ويؤثر على القوى المادون لتنصاع اليها فهو الرابط بين العقل النظرى والقوى السفلية، وكمال العقل العملى هو الانصياع إلى ادراكات العقل النظرى الصادقه.

* بالبيان السابق اتضـحت النقاط التى كنا اثرناها فى مقدمـة الفصل الأول من ان معنى الايمان والتسـليم هو الاذعان وهو وظيفـة العقل العملى وإنه ليس ادراكاً صرفا. فهناك ثلاث مراحل فحص و ادراك واذعان وايمان.

* قال العرفاء ان الإنسان فى حالة صعود وهبوط دائمين، ومقصودهم من ذلك ان الإنسان فى حركاته اليومية وطريقة تفكيره ينتقل فى درجات وجوديـة مختلفـة ادناها هى المتصـلة بعالم المادة واعلاها هى المجردة تجردا تاما، فيبـدأ من الدرجات الحسـية وهى المجردة عن المادة دون احكام المادة، إلى الخيال وهى مجردة عن المادة لا عن المقدار ولا ترتبط بالجزئى الحقيقى كالحسى، إلى الوهم

الامامة الالهية(۵)، ج ١، ص: ۶٢

وهو ادراك المعـانى الخاليـة عن المقـدار كـالحب والبغض وهى مع تجردهـا عن المادة وأحكامها إلا انها متعلقـة ومضافـة إلى جزئى معين. إلى العقل ذى التجرد التام عن المادة واحكامه، وهذه كلها درجات وجودية فى الإنسان.

والإنسان المهذب والكامل فى صـلاته يتوجه بقلبه إلى ما فوق عالم العقل حيث الصقع الربوبى والرؤية القلبية وهذا نمط من الادراك لكنه ليس بالقوة العاقلة.

ويطلق عليـه الاـدراك القلـبى وهـو ذو درجـات أربـع سـر وخفى وأخفى وهى ليست من سـنخ الادراكـات الحصوليـة بـل ادراكـات حضورية، وهذا استدراك لتوضيح درجات الإنسان الوجودية ومعرفة النفس البشرية وسوف يأتى مزيد بيان للعلاقة والارتباط بين هذه المراتب.

* من النقـاط السابقـة يتضـح لنـا تعريفـاً آخر للعقـل العملى وذلك لاننا قلنا ان مهمته الاساسـية هى الاذعان والحكم وهـذا قـد يكون

بقضايا ترتبط بالعمل وحينئذ يترتب على الحكم والاذعان بها تأثر القوى السفلية، وقد يكون بالحكم والاذعان بقضايا لا ترتبط بالعمل كحدوث العالم وعدم تناهيه.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۶۳

التنبيهٔ الأول: الحسن والقبح العقليان ...: ص: ۶۳

اشارهٔ

وهـذه المسألهٔ من امهات مسائل علم الفلسـفهٔ وعلم الكلام والتى جرى البحث عنها منذ القدم فى بدايهٔ عهد الفلسـفهٔ الاسـلامیهٔ وقبلها الفلسفات الهندیهٔ الفهلویهٔ والیونانیهٔ.

وقـد ذهب الاشـاعرهٔ إلى كونهمـا اعتبـاريين بجعـل العقلاـء وأيـدهم فى ذلـك بعض الإماميـهٔ وذهب كـثير منهم إلى القول بعقليتهما وتكوينيتهما، ويبتنى على هـذه المسألـهٔ ثمرات عـدهٔ اذ ان اغلب البراهين تعود إلى حسن العـدول وقبـح الظلم فاذا كان الحسن والقبح اعتباريين فان الاستدلالات سوف تكون خطابيهٔ لا برهانيهٔ.

وتظهر خطورهٔ المسألـهٔ اكثر حيث يـذهب كثير من المتـأخرين إلى اعتبارهـا من المشـهورات التى لا واقع لها وراء تطابق آراء العقلاء، وينتـج عن ذلك اختلال البنيـهٔ التحتيهٔ للشـريعهٔ وذلك لأن المتكلمين يقولون أن الاحكام الشـرعيهٔ ألطاف فى الاحكام العقليهٔ، أى ان العقل لو علم بملاكات الاحكام الشـرعيهٔ لحكم بها، فهى موضوعات لطف فى الكمال يحكم بها العقل لو اطلع عليها. فاذا كانت البنيهٔ التحتيـهٔ للشـريعهٔ هى الأحكـام العقليـهٔ وهى مسألـهٔ الحسن والقبـح وهى مسألـهٔ اعتباريـهٔ بيـد المعتبر وتتبع نظره، فينتـج من ذلك تغيير الاحكام تبعا لتغيير الافكار وهو ما يُعرف حديثا بنظريهٔ تغير المعرفهٔ الدينيهٔ أو بسط وقبض الشريعهٔ فلا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۶۴

تتصف الشريعهٔ حينئذ بالثبات.

ولكن بحمد للَّهومنّه هذا الاشكال وغيره مدفوع حتى على القول باعتباريهٔ الحسن والقبح. كما سوف يأتى بيانه.

من الناحيهٔ التاريخيهٔ المسألهٔ مرت بمراحل متعددهٔ: -

۱- ان الفلاسـفهٔ القدمى قبل الاسلام سواء فى الهنديهٔ او البهلويهٔ او الحرانيهٔ أو اليونانيهٔ كلهم قائلون بعقليهٔ المسألهٔ، ومن المسلمين مَن اشار إلى عقليتهما الفارابى فى كتابه المنطقيات.

۲- ان ابن سـينا الـذى قام بمهمـهٔ ترجمـهٔ كتب القـدماء عدل عن هذا الرأى ولم يبين عدوله ولم يشـر اليه، وهكذا أثر فى مَن أتى مِن بعـده حيث تعاملوا مع كتبه على انها ترجمـهٔ امينـهٔ لكتب القوم. وقد تأثر هو فى ذلك بما ذكره ابو الحسن الاشـعرى فى التفكيك بين معانى الحسن والقبح.

وابن سـينا تتضـارب كلمـاته فهو فى منطق الشـفاء والاشـارات (يمثل للمشـهورات بالحسن والقبـح وهى الاراء المحمودهٔ التى تطابقت عليهـا آراء العقلاء)، وفى مقام اخر فى النمط الثالث من الاشارات يقول: «ان احكام العقل العملى يسـتعين بالنظرى وقضاياه اما اوليات او مشـهورات»، وكذلك عبارات أخرى كما فى الهيات الشفاء فى مسألهٔ استجابهٔ الدعاء يذكر فيها ان قضايا الحسن والقبح قضايا حقهٔ يمكن اقامهٔ البرهان عليها.

۳- بعض المتـأخرين كـالمحقق اللاـهيجى فى كتابـهٔ «گوهر مراد» والسبزوارى فى شـرح الاسـماء الحسـنى ذهب إلى انها تكوينيـهٔ ولا ينافى كونها مشهورهٔ من جههٔ أخرى.

۴- المحقق الاصفهانى ومن بعده ذهب إلى أنها اعتباريهٔ مطلقا ولا يمكن اقامهٔ البرهان عليها وهذا هو المذهب السائد إلى الان.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۶۵

فمن خلال هذا السبر التاريخى نلاحظ كيف تحولت هذه القضية من عقلية تكوينية إلى اعتبارية جعلية.

اما الاسباب التى دعت ابن سينا إلى القول بالاعتبارية: -

۱- المغالطة التى ذكرها ابو الحسن الاشعرى بالتفكيك بين معانى الحسن والقبح وجعل بعض المعانى تكوينية، اما معنى المدح والذم فليس كذلك، وذلك لأنه لو كان بديهيا لأذعن به الجميع فمن ثَمّ أدرجه فى المشهورات. ولم يكن هو اول من ذكر هذه المغالطة بل ان السوفسطائيين اليونانيين معاصرو سقراط قالوا بهذه المقالة وردهم سقراط فى مؤلفاته

۲- تعريفه للعقل العملى حيث إنه قد عرفه بتعريف هو عين العقل النظرى، والاختلاف بينهما فى المدرَك وأن العقل مطلقا شأنه الادراك وليس من شأنه التأثير والانفعال، فكيف يمكن تصور ان العقل له تدخل فى اعمال الافعال النفسانية! بل العمليات ليست إلا تأديبات وعادات، وهذا المبنى على خلاف مبنى الفلاسفة المتقدمين كالفاربى وتقسيمهم الحكمة إلى نظرية وعملية.

۳- غض ابن سينا النظر عن أحد قسمى البرهان الذين ذكرهما ارسطو وهو البرهان العيانى او الشهودى ويمتاز هذا البرهان بأنه يقام على اثبات الجزئيات الحقيقية، واكتفى بالقسم الأول المعروف فى باب البرهان وهو مختص بالكليات لذا يشترط فيه الابدية وعدم التغيير.

ولابأس بذكر نبذة عن هذا البرهان: -

هناك قوة فى الإنسان تسمى بقوة الفطنة وهذه قوة تُرَوى أعمال الإنسان وتُراعى صدور الارادة على طبق الحكمة، فهى قوة تكون محيطة باحوال الأمور الواقعية الجزئية فتوجب انطباق الكليات على الجزئيات والوصول إلى الكمال المنشود.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۶۶

توضيح ذلك:

ان ادراك القضايا حتى العملية لايكفى للوصول إلى الكمال، وانما هذا هو كمال لقوة خاصة وهى العقل النظرى، وكمال العقل العملى والقوى السفلى يكون بالانصياع إلى القوة العملية، ولكن هذا وحده لا يكفى بل يجب ان تكون هناك آلة وأداة تميز حال الجزئيات الحقيقية، لا سيما فى‌الأمور الاجتماعية، وعدم ادراك الواقع الجزئى على ما هو عليه يؤثر فى عدم الوصول للكمال المنشود. لأن تنزل القضايا الكلية إلى الجزئية لا يتم إلا بأداة قادرة على استكشاف حال الجزئى على ما هو عليه وتطبيق الكلى عليه فيكون تسلسل الادراكات بالنحو التالى:

*- مرحلة ادراك الكمال فى الاعمال والبرهان عليها وهذا يقوم به.

العقل النظرى- ثم مرحلة الاذعان فى العقل العملى والتأثير على القوى السفلى- ثم مرحلة تشخيص الأمور الجزئية بالدقة وتطبيق تلك الكليات عليها.

وشبيه هذا التسديد عند التنزل من الاعلى إلى الاسفل قوله تعالى: «بِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبالْحَقِّ نَزَلَ» فهو اشارة إلى السداد والعصمة فى مراحل التنزيل، حيث كونه حقا لوحده لا يكفى بل يجب ان يكون السداد فى النزول، وفى النفس الانسانية الادراك والاذعان وحده غير كاف بل يجب ان يحصل التسديد فى التنفيذ على الأمور الخارجية الجزئية وهذا لا يكون إلا بقوة الفطنة. وهى قوة فوق القوى المادون (الغضبية والعمّالة والشهوية) فهى تستخدم هذه القوى للوصول إلى الجزئى الحقيقى المندرج تحت الاجناس العالية، فتصدر بعد ذلك اوامرها فى عالم النفس لتولد الشوق والارادة وصدور الفعل بعد ذلك.

وقوة الفطنة هى التى تقوم بالبرهان العيانى الذى يحتاجه الإنسان فى تطبيق الكليات على الجزئيات، والكمال فى الواقعة الجزئية مبتنٍ على هذا البرهان

فتلخص الفارق بين البرهان العيانى والبرهان النظرى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۶۷

۱- ان البرهان النظرى هو مختص بالكليات، والعيانى للجزئيات

۲- ان النظرى يتوسط العقل النظرى والعملى، اما العيانى فالنظرى والعملى والفطنة.

اما كيف أدى الغفلة عن هذا القسم من البرهان إلى انكار الحسن والقبح العقلى فبيانه:

انه لو اذعنا بلزوم كون الاعمال برهانية فلا بد من القول بارتكاز الجزئيات على انها قضايا برهانية والذى يمكنه البرهنة على ان الجزيئات حسنة وحكيمة اما الحسن والقبح او التشريع، اى ادراك حسن وكمال الافعال الجزئية يكون باحد هذين، والاحكام الشرعية ألطاف فى الاحكام العقلية.

وبتعبير اخر: ان البرهان العيانى يبرهن على ان العمل الجزئى على وفق الحكمة والكمال، ولا يمكن البرهنة على كل واقعة جزئية إلا بتوسط استناد البرهان إلى قضايا يقينية لا قضايا مشهورة لا أساس لها إلا الاعتبار. فحينئذ يحصل الالتفات إلى أن قضايا العقل العملى والحسن والقبح تكوينية لا مشهورة.

- وحينئذ نقول ان التوحيد النظرى وحده من دون تنزله إلى توحيد عملى هو توحيد أجوف، ولا يحصل هذا التنزل من التوحيد النظرى إلى التوحيد فى الطاعة إلا بالبرهان العيانى وقوة الفطنة.

ومن هنا أن التوحيد والاعتقاد بالنبوة من دون الولاية لا يقبل: «اليوم أكملت لكم دينكم ورضيت لكم الإسلام ديناً» وسيأتى بسط الكلام فيه.

فهذه الأمور الثلاثة هى التى سببت الخلط الحاصل لدى ابن سينا وعليه ابتنى اشتباه المتأخرين.

بعد اتضاح هذا الخلط التاريخى فى مسألة القبح والحسن نعرض للأدلة التى اقيمت على اعتباريتهما ومناقشتها ثم تعرض الى الادلة التى ذكرها صدر

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۶۸

المتألهين.

أولًا: ادلة اعتبارية الحسن والقبح: -

۱- اختلاف العقلاء فى تحسين بعض الأمور وتقبيحها باختلاف الازمنة والأمكنة، فهذا يعنى عدم وجود واقع تكوينى ثابت بحيث يبقى الشيء حسنا دائما أو قبيحا دائما.

۲- نفس وقوع التشاجر بين العلماء حول اعتباريتهما او عقليتهما.

۳- يذكرون فى اثبات النفس أن الإنسان لو خلق من دون اعضاء أصلا فإنه سوف يدرك ذاته وهذا يدل على مغايرة الذات للبدن، وهكذا فيما نحن فيه فلو خلق الإنسان وحيدا فى هذا العالم ولم يؤدب على العادات الحسنة ولم يلاقِ أى انسان آخر، فإنه سوف لن يحكم بحسن العدل وقبح الظلم فهذا يدل على أنهما ليسا تكوينين بل هما امران جعليان.

۴- ان العقلاء انما يحكمون بهذا الحكم من اجل مصلحة اجتماعهم ونظامهم، فلو انعدم الاجتماع والنظام لما حكم العقلاء بذلك. وبعبارة أخرى أنّ هذه الأحكام للوصول لإغراض أخرى بواسطة هذا الاعتبار.

۵- ما ذكره المحقق الاصفهانى: - ان الفعل المقتضى للمدح والذم على أحد نحوين إما بنحو اقتضاء السبب لمسببه والمقتضى لمقتضاه وإما بنحو اقتضاء الغاية لذى الغاية.

اما السببية والمسببية فهى تكوينية لكنها ليست ناشئة عن النزعة العقلية وقوى الإنسان العقلية، بل هى ناشئة بداوعى حيوانية كالانتقام والتشفى والغيظ. اما الغاية وذى الغاية فانها اذا ثبتت فهى تعنى وتدل على الاعتبارية، لأن الغاية لهيئة الاجتماع الاعتبارية، والمدح والذم موجب لما فيه صلاح العامة فهو اعتبارى محض.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۶۹

۶- ما ذكره ابن سينا والاصفهانى: ان الحسن والقبح لو كانا عقليين تكوينيين لما خرج عن احدى البديهيات الست وهى ليست بواحدة منها. فيبطل كونها من البديهيات.

۷- ان المدح والذم يعده العقلاء من الانشائيات، والانشاء من سنخ الاعتباريات.

۸- ما ذكره الشهيد الصدر ان تعريف العدل هو اعطاء كل ذى حق حقه، والظلم هو منع الحق، والحق امر اعتبارى قانونى فكذلك العدل والظلم، ومن هذا القبيل ما ذكره العلامة الطباطبائى من عروض الحسن والقبح على الأمور الاعتبارية كالتوقير والاحترام.

و هذه الأدلة كلها مردودة و قبل ان نستعرضها نتعرض لما ذكره الاشعرى بالتفكيك بين معانى الحسن والقبح و هو كما ذكرنا احد الاسباب التى ادت إلى مغالطة ابن سينا.

* اننا يجب ان نلاحظ الحد الماهوى للمدح و الذم، فالمدح هو القضية المتكفلة لحمل كمال معين على موضوع معين والذم بخلافه، وعليه يعلم انه يجب ان يكون الممدوح آت بكمالٍ فيكون المدح هو التوصيف بالكمال، والذم هو التوصيف بالنقص، ولا يمكن ان يُمدح بغير كمال او يذم بغير نقص. فيجب ان يكون هناك واقع يطابقه المدح والذم.

وبتعبير أخر: فان وظيفة المدح هو الحكاية الحقيقية عن الكمال اى المحمول الذهنى الحاكى عن الكمال الحقيقى الخارجى، والذم كذلك، فالا رتباط بينهما هو الارتباط بين الحاكى والمحكى عنهما، وهما متحدان هوية ومختلفان وجوداً، فالكمال الحقيقى وجود خارجى والمدح وجود ذهنى.

وحكاية وجود عن وجود أمر متسالم عليه، وأكمل صورة هو حكاية

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۷۰

الموجودات عن وجود الخالق اذ انها آيات عظمته وقدرته وكلما كان الوجود أكمل فحكايته عن الوجود الالهى اعظم وأتم. وقد قال عليه السلام: «ما للَّهآية أكبر منّى» باعتبار ان الكمالات التى وصل اليها عليه السلام (بغير وجوده البدنى) حاكية عن وجود الحق اكثر من حكاية السماوات والأرضين. فالوجود الخارجى يكون حاكيا عن وجود خارجى آخر أكمل وأتم من الأول.

فالحكاية ليست مقتصرة على الوجود الذهنى. بل ان الافعال القبيحة الصادرة من الفاعل البشرى المختار حاكية عن الهيئات الرديئة فى النفس.

* ثم إنه لا مضايقة فى ان يخلق الإنسان وجودات اعتبارية للامور الخارجية العينية وذلك لغرض الاحتياج إلى هذا الاعتبار من اجل الاجتماع والتفاهم، وهذا الوجود الاعتبارى لا يلغى الوجود التكوينى الخارجى العينى، ومثاله الواضح الوجود اللفظى والوجود الكتبى فهما وجوادن اعتباريان دعت اليهما الحاجة وهذان الوجودان الاعتباريان يكونان حاكيين عن الوجود العينى الخارجى. وقد تدعو الحاجة إلى اعتبار وجودات أخرى حاكية عن الوجود الغيبى

وهكذا نستطيع ملاحظة الهجاء الوارد فى القرآن فهو وان كان انشائيا لكنه حاك عن امور تكوينية وواقع خارجى وانما اظهره القرآن بانشاء الهجاء لاعلام الآخرين بما حصل فى للأقوام الآخرين.

* ثم ان الشجار فى الأمر البديهى لا يؤدى إلى عدم البداهة. نوضح ذلك فى علم المنطق إنه قد تعترى الإنسان أسباب تؤدى إلى انكار البديهة كالمغالطة والشبهة فى قبال البديهة، وهذا الانكار لا يؤدى إلى انكار بديهية القضية.

وقد يكون الانكار فى بعض الاحيان نتيجة حالة مرضية تصيب القوة العاقلة حيث لاينصاع العقل العملى لمدركات العقل النظرى، فيصاب بحالة التشكيك الدائم كما وقع للرازى. فهذا كله لا يؤدى إلى عدم بداهة القضية.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۷۱

هذا كله جواب إجمالى عن ادلة اعتبارية الحسن والقبح، أما الجواب التفصيلى.

۱- ان اختلاف العقلاء فى التحسين والتقبيح حسب اختلاف الازمنة والامكنة إما أن يكون ناشئا من اختلاف التشخيص أى عدم اصابة الكمال الواقعى والنقص الواقعى وذلك لاختلاف الافهام والعقول. واما ان يكون ناشئا من اختلاف الظروف البيئية المختلفة كالاختلاف بين الاماكن الباردة والحارة فانه فى الاولى يقبح لبس الملابس الخفيفة بخلاف الثانية.

۲- اما وقوع التشاجر والخلاف بين العلماء فيُعلم جوابه مما مر.

۳- اما ما ذكروه من ان الإنسان لو خلق وحيدا او لم يؤدب لما حكم بحسن أو قبح، فإن هذا كالمصادرة على المطلوب، بل أن العقل يحكم بحسن العدل وقبح الظلم ولولم يكن هناك اجتماع، ولو لم يؤدب فان الظلم كما سوف نبين هو ممانعة شخص لكمال آخر، فلو عرف العقل بذلك التعريف وفكّر به فإنه سوف يحكم لا محالة بقبحه.

وابن سينا نفسه وقع فى التناقض حيث قال فى الهيات الشفاء فى مسألة استحابة الدعاء والتضرع والتوسل أن اكثر ما فى ايدى الناس من الحسن والقبح حق يقام علية البرهان.

۴- اما ما ذكره المحقق الاصفهانى من ان سببية الفعل للمدح والذم تكون من مناشئ حيوانية، فهو غير تام وذلك لأن للعقل ملائمات ومنافرات، وبالتالى يمكن أن يكون المنشأ هو داع عقلى محض، ويكون العقل سبباً للمدح والذم وهذا واضح فى الكُمّلين من البشر حيث نلاحظ ان انفعالاتهم ومدحهم وذمهم ليس ناشئاً من دواع حيوانية، وذلك لأن قواهم كلها منصاعة تماما للقوى العقلية فتكون كل تصرفاتهم منبعثة عن العقل، فعندما يذمون ظالما مثلا لا يكون الذم بداعى

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۷۲

الغريزة الحيوانية. ويمكن ان يكون تعبير القرآن عن موسى: «وَلَمّا سَكَتَ عَنْ مُوسى الْغَضَبُ» اشارةً إلى ذلك، اذ ان النطق والسكوت من خصائص الإنسان بخلاف الحركة والسكون العامة لمطلق الحيوان، فقد استخدم تعبير السكوت للدلالة على أن غضبه لم يكن ناشئا من القوى الحيوانية بل من القوى العاقلة وسره هو ما ذكرناه.

وهذا التحليل هو الذى يفسر لنا كيف أن الإنسان الكامل يكون رضاه رضا اللّه وغضبه غضب اللّه، لأن قواه كلها منصاعة لقواه العقلية التى هى معصومة فى ما تتلقاه من مدركات عن العوالم العلوية من مشيئة اللّه.

ومن الجهة الأخرى أى عندما نُخبر بأن رضا اللّه فى رضا فاطمة «ان اللّه يرضى لرضا فاطمة ويغضب لغضبها» فانّ هذا يعنى عصمتها لأن هذا يعنى سلامة النفس والانقياد إلى القوة العاقلة التى هى فى اختيار مشيئة اللّه، والتعبير المزبور إنما يطلق ويصدق عندما يكون العبد تمام مظهر الطاعة والتبعية لربه.

۵- اما اشكال الشهيد الصدر فجوابه بمخالفته لتعريف الظلم والعدل، فان التعريف الصحيح للعدل هو وصول كل موجود إلى كماله المطلوب من دون اعاقة وممانعة موجود آخر، والظلم هو مما نعة موجود من وصول موجود آخر لكماله.

فالعدالة الاجتماعية مثلًا هى وصول كل افراد المجتمع فى حسن نظام المجتمع إلى كمالاته الممكنة من دون اعاقة الافراد الاخرين. أما عندما تصل طبقة لكمالها على حساب طبقة أخرى فانه يكون من الظلم الاجتماعى، والتشريع انما يكون عادلا لأنه يكون كاشفا عن الكمالات المخبوءة فى الأفعال والتى بها يصل الإنسان لكمالاته.

فالعدل كمال والظلم نقص، فيكون توصيف العدل والظلم بالحسن والقبح تكوينيا لا اعتباريا.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۷۳

اما الاحترام والتعظيم فنفس الاحترام والتعظيم ليس بشىء، بل المهم هو الداعى للاحترام والداعى للتعظيم لما فيه من ترويض النفس وهو فى الواقع تقديس واحترام للكمال المخبوء فى ذلك الشخص. فالتقديس لا للبدن بل للصفات العالية، ومن هنا نقول ان التقديس اذا كان للحقائق والكمالات فهو دعوة نحوهما وسير حثيث اتجاههما.

وبهذا يختلف عن تقديس الاباطيل والخرافات فهذه قدسية باطلة، وبتعبير آخر يمكن القول ان القدسية والتقديس هو خضوع قوى

الإنسان السفلى إلى قواه العقلية العملية، فاذا كانت تلك القوى العملية مصابة بحالة مرضية وتنصاع للاباطيل فتكون قدسية مذمومة، أما لو كانت القوة العملية منصاعة للكمالات العالية والتى بها تكبح جماح القوى المادون فإنها قدسية محمودة.

۶- أما ما ذكر من ان المدح والذم من الانشائيات. فقد ذكرنا ان الانشاء لا يصدر إلا من داعى، وهذا الداعى أمر تكوينى، فالهجاء هو اظهار للنقص التكوينى والمدح ابراز للكمال الخارجى الحقيقى. والبلاغيون قد اذعنوا بان اقسام الانشاء هى عناوين لماهيات الدواعى.

فتبين من كل ما سبق ان الحسن والقبح امران تكوينيان واقعيان وليسا اعتباريين كما ذهب اليه جلّ المتأخرين.

أدلة واقعية الحسن والقبح ...: ص: ۷۳

اشارة

ونلفت أخيرا إلى براهين أقامها صدر المتألهين تثبت تكوينية الحسن والقبح ذكرها بعد ان كان قد انكر واقعيتهما عندما تعرض لهما ابتداءً، وهذا يلفت إلى الخلط والتردد الحاصل لدى مَن أتى بعد ابن سينا، بسبب الاضطراب الحاصل فى كلماته والبراهين التى ذكرها للدلالة على واقعية الحسن والقبح فيه ثلاث: -

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۷۴

۱- العناية الالهية ...: ص: ۷۴

اى أن للحق تعالى عناية بخلقه والقاعدة الفلسفية المثبتة هنا هى ان علمه بالنظام الاتم والاكمل ورضاه به لهذا النظام. توضيح ذلك: ان البارى يكون على اكمل واشرف واعلى ما يمكن ان يكون فى مقام ذاته، فالصادر من الحق يكون كذلك حيث ان ايات ومخلوقات اللّه تدل على صفة الكمال فى البارى. والنظام الذاتى يكون علة للنظام الخلقى

وافاضة الكمال على ما دون هو من العناية وهكذا يستفيد الملا صدرا أنّ علم البارى هو منشأ افاضة الكمالات للمخلوقات، وصفة العناية هذه هى التى تفيض ما يعرف بالنظام الأحسن والأكمل حيث يكون كل عالم من العوالم بنحو يؤدى إلى تحقيق الكمالات الوجودية بنحو اكثر وأرفع فعناية الحق توصل تلك الموجودات الفاعلة بالارادة إلى أكمل ما يمكن أن تكون عليه، ومن هنا يستدل على ضرورة التشريع والتقنين الالهى حيث إنه يرشد الفاعل الارادى إلى طريق هذا الكمال.

ومؤدّى هذه القاعدة (العناية) يمكن ان يستبدل بقاعدة اللطف المعروفه إلا ان الاولى الحاكم بها هو العقل النظرى والثانية الحاكم بها هو العقل العملى.

ونعود فنقول ان الافعال يجب ان تؤدى إلى الكمال المطلوب، وهذا يقتضى ان يكون لهذه الافعال فى الواقع كمال مُعين (العلم تابع للمعلوم الذاتى وهو النظام الكمالى الذاتى، فالعلم (فعله الصادر) يتحدد طبقاً للكمال الذى فى المعلوم وهذا يعنى ان فى الأفعال الإرادية فى حد نفسها كمال ونقص وأن الخير والشر نابع من واقع الفعل الإرادى، وأن الحكم التشريعى الإلهى على طبق ما فى الأفعال من خير وشر، فهو كاشف عما هى عليه فى الواقع، لا كما يقوله الاشعرى ان واقع الفعل تابع لنمط التشريع ولا هوية له فى نفسه، أو لك أن تقول ما قدمناه من أن حقيقة المدح الاخبار عن الكمال، والذم الاخبار عن النقص فللافعال الإرادية فى نفسها مدح وذم أى حسن وقبح.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۷۵

۲- تجسم الاعمال ...: ص: ۷۵

وهی قاعدة مهمة نقحها بوضوح فائق فلاسفة الامامیة مسترشدین بالروایات الواردة فی ذلک ومؤداها ان تکرار الفعل یولد ملکات اما حسنة نورانیة او ملکات ردیئة، وکلما ازدادت ترسخت فی النفس اکثر حتی تصبح جوهریة، ومن هنا قالوا ان الإنسان لیس هو النوع الاخیر بل یتلبس بعد الصورة الإنسانیة بصورة وفعل اما ملکی أو شیطانی أو بهیمی أو سبعی. وهکذا وفی کل نوع هناک شعب أخری.

بیان ذلک:

ان الإنسان فی سعیه نحو الکمال انما یبتغی ان یحصل علی ما له ثبات، الکمال العرضی یکون فی معرض الزوال فتعود حاله إلی ما کانت علیه قبل تحصیله.

فهو یسعی لأن یحصل علی کمال ذاتی یکون بنحو جوهری لا یکون معرضا للزوال، وبهذا یتکامل ویصعد فی سُلّم الکمالات ویثبت عند کل درجة، ویحصل هذا التغییر الجوهری عن طریق الافعال المؤدیة للکمال حیث یحدث الفعل- عند تکراره والمواظبة علیه- حالات فی النفس تنتقل إلی هیئات ثم تنتقل إلی ملکات فتشتد حتی تصل وتصبح فصولا جوهریة.

بالاضافة إلی ذلک فإن البدن یکون بشکل یتناسب مع القوة التی یتملکها الإنسان وغیره، فمثلًا فی الذئب الهیئة الجسمانیة لها تناسب مع القوة التی یمتلکها، ودلت الروایات علی ان الاجسام الاخرویة هیئتها تابعة للفصول الجوهریة التی یتکامل بها الإنسان أو یتناقص.

اما تطبیق القاعدة علی ما نحن فیه، فهو أن موارد الحکم بالحسن هی نفسها فی موارد الفضائل والکمالات، حیث یتبین انها توجب تجسم تلک الأعمال بصورة نورانیة، وموارد الحکم بالقبح هی نفسها موارد النقص التی تتجسم بصور ردیئة ظلمانیة، فیظهر من ذلک ان الحکم بالحسن والقبح لیس اعتباریاً بل امراً عقلی له من مناشیء تکوینیة.

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۷۶

۳- قاعدة الغایة ...: ص: ۷۶

وهذه قاعدة تبحث فی ابحاث العلل، وهی تعنی وجود ارتباط بین صدور الفعل وغایته، بمعنی انّ تصور النتیجة المترتبة علی الفعل القصدی تکون دافعاً لرغبته للقیام بذلک الفعل، فهناک ارتباط بین الوجود العلمی للغایة وفاعلیة الفاعل، وهناک ارتباط بین الوجود الخارجی للفعل والتوصل للغایة، فالوجود العلمی هو فی سلسلة العلل المتقدمة علی الفعل والثانی متأخرة عن وجود الفعل.

وقد وردت هذه القاعدة فی بیانات عدة «الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّی وَالَّذِی قَدَّرَ فَهَدَی» فهناک تقدیر مقدّم علی الخلق وهدایة لهم بعد الخلق، فالمخلوقات فی سیر تکاملی وهو الغایة التی من اجلها خلقت، وهذا البرهان بهذا النحو یختلف عن برهان النظم وان اقتربا من بعضهما. وانکار العلة الغائیة یساوق انکار العلة الفاعلیة.

اما تطبیق ذلک علی الحسن والقبح فبیانه ان الفاعل الإرادی لا یفعل فعلًا إلا لأجل غایة وهذه الغایة هی تحقیق الکمال، فالکمال یتحقق بهذا الفعل وهذه هی الموارد التی یحکم بها العقل بالحسن، فالحسن راجع لکمالٍ یتحقق بواسطة هذا الفعل فهو أمر واقعی، والکمال المقصود هو کمال للقوة العاقلة وما فوقها من درجات النفس وتکون موجبة للقرب الالهی، اما فی موارد القبح فان الکمال الذی تحققه بالافعال هی کمالات للقوی الشهوانیة والغضبیة.

فدعوی الاشعری ان لا حسن ولا قبح واقعی فی الافعال یساوق انکار العلة الغائیة، وانکار العلة الغائیة یؤدی إلی انکار العلة الفاعلیة.

فتلخص من مجمل البحث ان الحسن والقبح العقلیین امران تکوینیان واقعیان بالادلة المثبتة سواء علی مبنی المتقدمین کابن سینا او

على مبنى صدر المتألهين.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۷۷

التنبيه الثاني: الخطأ في الفكر البشري ... ص: ۷۷

ومن الأمور المهمة التي يجب الإشارة إليها هو في كيفية نشأة الخطأ في الفكر البشرى وقد اثار هذا التساؤل كثير من الفلاسفة والمناطقة واجابوا باجابات متعددة.

منها: ان علوم المنطق تتكفل عصمة الفكر عن الخطأ، ويبقى على عاتق الإنسان مراعاته عند التطبيق، فالخطأ الناشيء هو من سوء التطبيق.

ومنها: - أن الخطأ ينشأ بسبب خطأ نفس مواد الأقيسة حيث ان بعضها نظرى، وكلما ابتعدت القضايا عن البداهة زادت نسبة الخطأ.

ومنها: - ان الخطأ هو نتيجة عدم توازن في افعال النفس فقد ذكرنا سابقا ان الاذعان والجزم الحاصل لدى النفس هو غير النتيجة، وان وظيفة العقل النظرى هو الادراك، فالخلل يحصل عندما يحصل تجزم واذعان غير متناسب مع درجة الادراك الحاصلة لدى العقل النظرى.

وقد سعى الفلاسفة والمفكرون لازالة هذا الخطأ أو على الأقل تقليل نسبة الخطأ. ومن تلك المحاولات ما دعى اليه السيد الشهيد الصدر رحمه الله باعتماد منهج الاستقراء وتراكم الاحتمالات في الفكر البشرى بدلا من القياس الارسطى، والاستقراء طريقة رياضية عملية. حيث تتضاءل احتمالات الخلاف حتى تصل إلى نسبة قليلة جداً بحيث تقوم النفس بالغاء احتمال الخلاف، وتتعامل مع النتيجة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۷۸

معاملة اليقين الصحيح التام وتكون النتيجة حينئذ يقينية برهانية.

ولنا على هذه النظرية تعليق لا يتصل في جوهرها فهي متينة وتامة لكن: -

۱- ان ما توصل اليه السيد الشهيد بحساب الاحتمال وكيفية تضاءله ومن كون النتيجة الحاصلة من الاستقراء برهانية، وهذا خطأ اذ ان النتيجة ليست برهانية بل العمل بهذه النتيجة برهاني، بمعنى أنه اقام البرهان على تعين العمل بهذه النتيجة، كما يقوم البرهان في علم الاصول عبر دليل الانسداد على وجوب العمل بالظن، وبعبارة أخرى النتيجة ليست يقينية وان كان العمل بها لابد منه بالدليل اليقيني.

۲- لقد ذكر السيد ان بامكان استخدام هذه النظرية لاثبات الغيبيات وما وراء الطبيعة وهذا غير تام لأن هذه الطريقة تظل غير يقينية ونحن لا نحتاج اليها في اثبات الغيب اذ لدينا كثير من البراهين كبرهان الصديقين التي تورث اليقين.

۳- ان احتمال الخلاف يظل قائماً وجزم النفس على خلافه- لانه قليل جداً- لا ينفيه من اساسه بل يبقى قائما ولا يتحول إلى يقين.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۷۹

التنبيه الثالث: الثابت والمتغير ... ص: ۷۹

اشارة

من المسائل المهمة التي تبتنى على مسألة الحسن والقبح هي ثبات التشريع وتغيره. فبناء على اعتبارية الحسن والقبح وإنه لا واقع حقيقي وراء تطابق آراء العقلاء فإن الحسن والقبح يتغير بتغير الزمان والمكان وبالتالي لا يوجد ما هو ثابت في التشريع بل هو متغير. وبناء على انهما امران واقعيان فالنتيجة خلافها.

- وقد يصاغ هذا البحث بصياغة أخرى وهي ان ختم النبوة يعني أن لا حاجة إلى النبوة حتى يوم القيامة، وذلك لأن العقول تكون قد

تكاملت بواسطة تلك النبوة الخاتمة ولا تحتاج إلى رعاية نبى ولا وصى ولاهدايتهما.

-وقد تصاغ بنحو ثالث، كما ذكره العلامة الطباطبائى وخلاصته ان الارادة تنبعث من جهات اعتبارية لا حقيقية، وحسب تغير هذا الاعتبار تتغير وجهة سير هذا الإنسان.

أما جواب هذه الصياغات:

أولًا: بما مر بالبراهين التى اثبتت تكوينية الحسن والقبح.

ثانياً: ان دعوى تكامل العقول يعنى وقوف السير والبحث والفحص العلمى لدى البشرية لاطلاعهم على الحقائق واصابتهم لها، والحال انا نجد من أنفسنا الاذعان بعدم توقف هذا السير ولن يتوقف هذا السعى الحثيث لدى الفطرة

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۸۰

البشرية، وهذا يدل على أمرين:

الاول: وجود واقعية وحقيقة ثابتة تسعى البشرية للوصول إليها.

الثانى: عدم إمكان وصول البشرية إلى الاحاطة بتمام تلك الحقيقة الواقعية وان كانت الاصابة النسبية مستمرة وهذا وان لم يزلزل الحقائق المتوصل إليها إلا انها لا تعنى تمام الواقع.

وهذان الامران يستلزمان دوام حاجة البشرية إلى التشريع السماوى والنبوة المحمدية لأن رب الواقعية هو المحيط تماماً بها كما يثبت بذلك عدم احاطة البشرية بكنه غايات التشريع السماوى والمصالح المخبوّة فيه.

ثالثاً: اما جواب ما يدعى من انبعاث الإرادة دوماً من الاعتبار والذى ذهب إليه العلامة الطباطبائى فهو يستدعى ان نلقى نظرة على ما سطره يراعه الشريف فى رسالة الاعتبار والتى تعتبر حصيلة البحث الأصولى فى ذلك الوقت.

تحليل مختصر لنظرية الاعتبار ...: ص: ۸۰

وملخص ما ذكره العلامة:

أ- ان الاعتبار يمثل جانبا من نشاطات العقل العملى ومدركاته وشأناً من شؤونه.

ب- ان كل موجود يسعى نحو كماله، فالفاعل غير الارادى يوجد له صراط معين يسير فيه، اما الموجود الارادى فانه يسعى نحو كماله من خلال ارادته.

ج- ان الفاعل الارادى فى تحريك ارادته يسعى نحو تحقيق ما هو غير موجود، اما ما هو موجود فلا يسعى لتحصيله كما هو واضح.

د- ان الارادة تنطلق من قضايا غير حقيقية أى لا واقع خارجى فعلى لها، فلا محالة تكون القضايا اعتبارية وهى التى تولد الارادة ومن دونها لا يمكن للإرادة ان تنطلق.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۸۱

ه- اول اعتبار قام الذهن بتصويره حتى يحرك الارادة هو ايجاد نسبة الضرورة بين موضوع ومحمول لم تكن بينهما تلك النسبة من قبل، بيان ذلك:

ان الإنسان يرى وجود نسبة حقيقية بين ذاته وبين اعضائه، فيقوم بجعل نفس هذه النسبة بين نفسه وبين الأكل فيسعى نحو تحققه فيتحرك نحو الغذاء. وعبّر عن هذا بانه أول خديعة.

بعض تلامذة العلامة يصور الخديعة بنحو اخر وذلك بان الخديعة التى تقوم بها هى تصوير ان حاجات البدن هى حاجات الروح، ويجعلها ضرورية لها، وتفسير هبوط آدم إنه هبوط ادراكى حيث جعلت الروح البدن جزء حقيقة نفسها، فجعلت كمالات البدن وحاجاته هى حاجات لها فأول خديعة هى من جعل البدن جزء من الروح. خدعت بها الفطرة الانسانية اياه لتتوصل بها إلى الخير

بالذات والكمال المطلق الحقيقى.

و- ان نسبة الضرورة تعنى الوجوب وهو متقدم على الحرمة كما ان الاستحباب متقدم على الكراهة وذلك لأن الشعور بالحاجات والضرورات متقدم على الشعور بالمضرات والمؤذيات التى نسبة الامتناع.

ز- مثال آخر على نشأة اعتبار آخر هو اعتبار الملكية وكيفية حصوله: هو أنه رأى وجود نسبة حقيقية بين الإنسان وسلطته على اعضائه وتصرفه بها كما يشاء، فجعل هذه السلطة بين الأمر الخارجى وبين نفسه حتى يستطيع التصرف والاستفادة منه وحده ولا ينازعه فيه أحد.

ح- وأول اعتبار اجتماعى نشأ هو اعتبار الالفاظ ودلالتها على المعانى، ثم بعد ذلك تولد اعتبار العقد والمعاملات، واعتبار الرئاسة وذلك لأن فى الإنسان توجد قوة العقل التى تكون مهيمنة على بقيه القوى، فانتزع العقل هذه النسبة وجعلها فى مملكة صغيرة هى مملكه الأسرة ورئاسة وهيمنة ربها ثم للمجتمع.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۸۲

ط- ان الاعتبارات غير ثابتة و متزلزلة فلا يمتنع ان لا يأتمر و لا يتبع الإنسان ذلك الاعتبار، لذا مست الحاجة إلى ان تعتبر ما يدعم هذا الاعتبار ويجعله مؤثرا فى ارادة الإنسان، فاعتبر الثواب والعقاب واعتبر المدح والذم، فاعتبار المدح والذم انما هو لاجل أن يكون دافعا لأن يتبع الإنسان الاعتبار الأصلى حيث يضعف تأثيره وكلما قوى تأثيره ضعفت الحاجة إلى الثواب والعقاب او إلى مدح وذم العقلاء.

والعلامة الطباطبائى فى المقالة الثانية من رسالة الاعتباريات يركز على أمر مهم، وهو كيفية نشأة التكوين من الاعتبار حيث أوضح فى مقالته الأولى كيفية نشأة الاعتبار من التكوين والحقيقة، وكيف ان الاعتبار هو اعطاء حد الشىء أو حكمه لشىء آخر بتصرف الوهم، وانه ينشأ بسبب النقص وهو امر حقيقى، اما فى المقالة الثالثة فبيّن ان الاعتبار يولد الارادة والارادة تحقق الفعل التكوينى الخارجى، وهو إما كمال للانسان أو نقص، فينشأ حينئذ التكوين من الاعتبار، فولّد العقل التكوين من خلال عنوان اعتبارى.

وجوه التأمل فى نظرية العلامة ...: ص: ۸۲

لا- يخفى ما فى النظرية من ظرافة ودقة نظر ويظهر كذلك مدى أهميتها فى صياغة الفكر البشرى، وهذا لا يمنع من وجود بعض التأملات لنا عليها:

۱- اننا نتفق مع العلامة فى:

* ان العقل النظرى لا- يحرك الارادة، لذا سوف يأتى فى الفصل الثانى ان التوحيد النظرى من دون التوحيد العملى، وهو تولى ولىّ اللَّه الذى يهدى لإرادات اللَّه ومشيئاته، لا يوجب تحرك الإنسان بل توجد مراتب أخرى متوسطة حتى تصل إلى مدركات العقل العملى.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۸۳

* ان الفاعل الارادى لايتكامل إلا بتوسط ارادته.

* ان الارادة لا تسعى إلى تحصيل ما هو متحقق بالفعل لانه تحصيل للحاصل.

لكن نختلف مع العلامة فى تحديد القضايا الحقيقية، فقد ذكر ان كل ما ليس له تحقق خارجى فعلى فهو قضية اعتبارية، وهذا غير صحيح وغفلة منه قدس سره، وذلك لأن القضية الحقيقة لا تساوى القضية الخارجية بل هى تشمل ما يكون الموضوع فيها حاك عن وجودات فى ظرف الاستقبال، وما تكون حاكية عن وجود تقديرى، وما تكون حاكية عن موضوعات ممتنعة وهى القضايا غير البتية التى ليس فيها سوى فرض الوجود وهذا أمر متسالم عليه، وبناء عليه فإن القضية التى يتصورها العقل ويحكم بها العقل العملى هى غير حاصلة فى الخارج فعلًا لكنها ليست اعتباراً محضا بل تكون قضية حقيقية.

۲- لقد حصر العلامة رحمه الله الحاجة إلى الاعتبار لانه مولد للأرادة وهذا غير صحيح بل ان الحاجة للاعتبار هو امر آخر ذكره المتكلمون والأصوليون حاصله:

ان الارادة تنبعث من مدركات العقل العملي ومدركات العقل العملي هي من الكليات الفوقانية كحسن العدل وقبح الظلم، ومن هذه المدركات التي تمثل رأس مال العقل العملي ينطلق في سلسلة ادراكاته، وكذلك يستطيع ادراك الكليات القريبة وفوق المتوسطة كحسن الصدق وقبح الكذب، اما الكليات النازلة والجزئيات الحقيقية فإن العقل العملي لا يصل اليها كما في قبح القمار، ونكاح الشغار، ناهيك عن الجزئيات الحقيقية المتكثرة وغير المتناهية، من هنا يحتاج إلى ضابطة تكون كاشفة عن حسن هذه الأمور وقبحها وهذه الضابطة تكون بالاعتبار، فالاعتبار وظيفته الكشف عن الحقائق وما تخبأه من حسن وقبح، وحينئذ الارادة تنطلق من هذا الاعتبار الكاشف لا من كونه اعتباراً محضاً.

والاعتبار انما يكون كاشفا صائباً للواقع في حال صدوره من العقل اللامحدود

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۸۴

الذي يعلم بحسن وقبح جميع الافعال.

۳- ما ذكره من توسط الاعتباريين بين حقيقتين وتكوينين صحيح لكنه الاعتبار بما هو الكاشف لا بما هو هو اعتبار.

ونضيف على ما ذكره العلامة وتكملة لما ذكرناه من الحاجة للاعتبار.

- إنه قد يتساءل لماذا لجأ إلى الاعتبار- الذي هو انشاء- في الكشف عن الحقائق ولم يلتجأ إلى الأخبارعن حقيقة الافعال الخارجية؟.

والجواب عنه:

أ- ان الجزئيات غير متناهية فاذا اعتمد اسلوب الأخبارالتفصيلي فهذا يعني اخبارات غير متناهية لعدم تناهي الافعال وعدم تناهي الاشخاص فيجب ان يكون اخبارا لكل أحد. ويترتب عليه ان يجعل كل الناس انبياء، وأنّ لا يخطئ الكل في فعل وهذا يبطل عالم الامتحان والابتلاء.

ب- ان برهان النظام الأصلح يقتضي وجود مراتب في العلم والوجود.

والأخبار التفصيلي لكل أحد يقتضي عدم وجود مراتب ويبطل النظام الأصلح.

ج- ان الأخبارقد يؤدي إلى اختلاط الجزئيات حيث ان الجزئي قد تكون له جهة حسن، وله قبح من جهة أخرى هي العامة، وقد يختلف الجزئي الواحد في تقديم جهة على جهة عن جزئي آخر فلا تنضبط القضايا بضابط معين، بخلاف ما لو جعل ضابط يكون غالب المطابقة للواقع فانه ينظم حالة الإنسان بنحو افضل.

فالاعتبار أحد أمثلته القانون الوضعي حيث يراد من وضعه أن يكون كشفه غالبيا.

د- ان وساطة الاعتبارين الحقيقين هي وساطة اثباتية باعتبار كشفه عن الواقع، ولا يتبعه الإنسان لأنه اعتبار بل لأنه كاشف من الواقع، وما ذلك إلا- لأن الإنسان لا ينطلق الا من الحقائق، وما ذكره من أن أول اعتبار هو الأكل ونحوه فمحل إشكال إذ لا داعي فيه إلى الاعتبار حيث ان الاكل يعتبر مكملا للبدن، ويشعر الإنسان

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۸۵

بحاجته ويقصد اليه وهذه حقيقة يتولد منها الشوق والارادة، وهذه الواقعية يدركها العقل سواء العملي او النظري بسهولة فلا حاجة إلى الاعتبار.

وهنا قد يرد تساؤل حول ما يظهر من التناقض بين قولنا فيما سبق ان الارادة دوما تنطلق من الحقائق- القضايا الحقيقية- وبين ما ذكرناه في الاسطر السابقة من انطلاق الفاعل الارادي من القضايا الاعتبارية.

وحل هذا الاشكال يتم بالتدقيق فيما بيناه من الحاجة إلى الاعتبار إذ انما يلجأ اليه العقل لجهة كشفه عن جهات الحسن والقبح في

الفعل فهذا الاعتبار يساوق الحقيقة، لأنه يكون كاشفا عن أمر واقعى، وليس بما هو اعتبار محض، ومن هنا لا يتبع الفاعل الارادى أى معتبر كان بل يتحرى المعتبر المطّلع على جهات الحسن والقبح. وخير مثال على ذلك الاعتبار التشريعى الإلهى فيتبعه الإنسان لأنه صادر من عقل لا محدود ومن المحيط بكل شىء، فهو كاشف عن الواقع والتكوين، وهكذا الاعتبار فى القانونى الوضعى لأنه يقتضى صدوره من الكُمّلين فى مجتمع بشرى ما فيتبعه لهذا الكشف ايضاً، ومن ثَمّ ذكر ارسطو أنه لا يمكن ان يصدر التقنين الا ممن يكون انسانا إلهيا.

اما ما ذكر من الاثارة وهى التغير فى التشريع وعدم الثبات فيمكن الجواب عنه بما يلى:

۱- ان الحسن والقبح واقعيان فأحكام العقل العملى ليست متغيرة وقد برهنا على ذلك.

۲- ان الاعتبار ليس امرا اعتباطيا يقوم به كل أحد بل لاجل الكشف عن الواقع فيجب ان يتولاه من تكون له تلك القدرة، وآية ذلك ان المقنن الوضعى لا يوكل كل من هب ودبّ بل يتخير من افراد المجتمع فئة خاصة تمتلك الخبرة والتجربة.

۳- هناك نظريتان مشهورتان احدهما المسماة بنظرية التضاد او الديالكتيكية،

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۸۶

والاخرى نظرية العقل التجريدى.

والأولى تفترض عدم الثبات والتغير الدائم، واما الثانية فتفترض الثبات ولو بنحو الموجبة الجزئية. وقد اثرى البحث فيهما بنحو تام وكامل، وثبت خطأ الأولى لأنهم لابد ان يفترضوا ثوابت حتى فى نفس نظريتهم فيكون نقضا عليهم، اذن لابد من الاستناد إلى ثوابت، واذا افترض ان كل شىء فى تغير ولا ثابت، فما هو الهدف من البحث والاكتشافات فما دام لاثبات فالسعى من اجل اكتشاف المجهول لن يصل إلى حد وغاية حيث لا واقع ثابت.

۴- انا نسلم بوجود ثابت وبوجود متغير، لكن المشكلة فى تحديد ضابط كل منهما. فمنطقة الثبات كما اشرنا اليها سابقا هى منطقة الكليات العالية كحسن العدل وقبح الظلم والكليات المتوسطة القريبة من العالية كالأخلاق الفاضلة المنبعثة عن الملكات الفاضلة. أما ما دونها وهى منطقة الاعتبار فهى تحتاج إلى ضوابط لمعرفة المتغير والثابت.

ونستطيع ان نستفيد من القانون الوضعى وتقسيمه لتقريب فكرة الثابت والمتغير فى الاعتبار بعد ثبوت أن لغة القانون والاعتبار واحدة. فإن القانون الوضعى على ثلاثة اقسام الدستور- التشريعات البرلمانية- التشريعات الوزارية، فالقسم الأول غير قابل للتغير عادة «۱»، والقسم الثانى اقل ثباتا اما الثالث فهو دائم التغير وهكذا فى الاعتبار فنجد بعض الاعتبارات غير قابلة للتغيير والبعض الاخر يحصل فيه التغيير والتبديل.

لكن ما هى ضابطة الأمور والاعتبارات المتغيرة. لقد ذكر هناك ضوابط متعددة نذكر منها:

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۸۷

۱- ذكر الميرزا النائينى ان ما هو قابل للتغير هو الاحكام السياسية، أما بقية التشريعات فثابتة، وتوضيح المقصود من الاحكام السياسية. ان التسيس هو التدبير، وكيفية جعل الجزئيات متطابقة مع الكليات الفوقانية، حيث ان الامر الكلى الذى يكتشف بقوة العقل يتنزل حتى يصل إلى هذا الجزئى الحقيقى، فابتداءً هذا الجزئى لا يكون مندرجاً تحت قانون معين ولا محدود بميزان مخصوص، وانما يختلف باختلاف الاعصار والامصار ويتغير بتغير المصالح والمقتضيات، وبالتالى يجب ان تكون هناك قوة خاصة لدى الإنسان تُرجع هذه الجزئيات إلى كلياتها حسب جهات الحسن والقبح وهذا يكون بقوة الفطنة، وهذه الجزئيات هى منطقة البرهان العيانى. فالفطنة لا تتدخل فى الجزئى الخارجى بقدر ما تشخصه إنه تحت اى كلى وكيف يتنزل هذا الكلى فى مدارج النفس إلى العمل الجزئى.

۲- من الأمور التى تؤدى إلى تغير الاحكام هو تبدل الموضوع الجزئى.

۳- وجود التزاحم والورود بالعناوين الثانوية كالعسر والحرج والضرر على صعيد الاحكام الاجتماعية والأمور العامة، لكن ليلتفت ان

الحكم الثانوى لا يكون إلا مؤقتا دائماً ولا ينقلب إلى الدوام لانه خروج عن مقتضاه.

۴- الاختلاف فى الاحراز ومدى رعاية الضوابط الموضوعة سواء فى فهم القانون الالهى او القانون الوضعى فكم نجد من فقهاء القانون يختلفون فى تفسير القواعد القانونية، وهكذا فى فقهاء الشريعة حيث يختلفون فى تفسير وفهم بعض النصوص الالهية.

وهذا الاختلاف لا يتناول الكليات الفوقانية وذلك لانها ثابتة وغير متغيرة، والأمور الثابتة اكثر وضوحا والخفاء فيها يقل بل ينـدر والخفاء يظهر فى الجزئيات والمتوسطات- التى هى ذات درجات كثيرة وعرض عريض- حيث تتداخل

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۸۸

الجزئيات مع بعضها البعض فيكون عنصر الغموض.

وتتفق هذه الاسباب الثلاث على ان مورد الاختلاف والتغير هو فى الجزئيات، ومن هنا تنشأ الحاجة إلى فهم الضوابط التى تمنع الإنسان من الوقوع فى الاشتباه عند تمييز الجزئيات وهذه الضوابط تقع فى مباحث اصول الفقة.

و يتلخص من كل ما مر: -

۱- ان الاساس للأحكام الشرعية هو الحسن والقبح العقليين وهما برهانيان وهذا يعنى أن لا تبدل فيهما ولا تغير.

۲- ان منشأ الحاجة للاعتبار هو محدودية العقل البشرى، فتظهر عناية ولطف واجب الوجود بأن يبين لهم تشريعات ثابتة فى تلك المنطقة التى لايدركها العقل المحدود.

۳- ان جهات التغير والتبدل فى الاعتبار هى غالباً فى منطقة الجزئيات.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۸۹

التنبيه الرابع: فى تبعية الولاية التشريعية للولاية التكوينية ... ص: ۸۹

اشارة

والمقصود من هذا البحث بيان انّ من له صلاحية التشريع وسن القوانين

يجب ان يكون له مقام تكوينى خاص. فبعد اتفاق جميع الموحدين أن المشرّع الأول والمحيط بالواقع وحقائق الوجود هو اللَّه عز وجل. يرد التساؤل والبحث ان هل اعطيت صلاحية مقدار من التشريع للبشر؟ واذا كان بالايجاب فأى بشر هو الذى يمكنه سن القوانين؟

للاجابة عن هذا التساؤل يوجد مسلكان:

احدهما: النقل والاستدلال بالايات القرآنية والروايات الشريفة الدالة على هذه التبعية من نحو قوله تعالى: «مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا»، «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً «۱»» «۲»

، «لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» «۳»

.ومن امثلة الروايات ما ورد أن الصلاة الرباعية كانت ثنائية فأوكل التشريع للرسول فجعلها رباعية وغيرها من الروايات.

المسلك الثانى: - العقل وهذا هو المقصود بالبحث هنا فيمكن اقامة وجوه ثلاث لاثبات تلك التبعية.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۹۰

الوجه الأول ...: ص: ۸۹

وهو ما ذكرناه سابقا فی التنبیه الثانی من وجه الحاجة إلی الاعتبار حیث بینا.

أ- الحاجة إلی التشریع والقانون لتنظیم الاجتماع ولمسیرة الإنسان فی هذه الحیاة.

ب- ان العقل البشری لمحدودیته لا یستطیع التوصل إلی الواقع ولا یحیط بجهات الحسن والقبح والموازنة بینها.

ح- یحتاج العقل المحدود إلی من یسن له تلک القوانین، فتتم صیاغة الحقائق عن طریق قضایا اعتباریة قانونیة.

وحتی لا تکون هذه الصیاغات جهلا یجب ان تکون مطابقة للواقع فیجب ان یتصف من یسن تلک التشریعات ان یکون له علم متصل ومرتبط بالذات المقدسة وإلا لأصاب التشریع والتقنین التغییر والتبدیل کما نراه فی التشریعات الوضعیة الحدیثة علی مرّ الزمان.

د- ان من رحمة اللّه بعباده ورأفته بهم ان یوصل العباد إلی کمالاتهم ویُبعدهم عن نقائصهم، فطبقا لذلک ولما ذکره المتکلمون بقاعدة اللطف او ما ذکره الفلاسفة بقاعدة العنایة الالهیة، یجعل الباری تعالی فی بنی الإنسان من له ذلک الاتصال الغیبی وتلک المنزلة الرفیعة.

وبذلک یثبت ان من تکون له الولایة التشریعیة وصلاحیة سن القوانین فان له ولایة تکوینیة واتصال غیبی بالذات المقدسة.

الوجه الثانی ...: ص: ۹۰

ویعتمد علی:

۱- ملاحظة الجهاز الادراکی للانسان وتفصیل قواه العقلیة وکیفیة توصله للنتائج، وقد ذکر الفلاسفة ان هناک جهازین یحکمان ادارکات الإنسان احدهما الجهاز القلبی وهو یعنی بالعلم الحضوری ومراتبه اربعة قلب، وسر، وخفی وأخفی.

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۹۱

والجهاز العقلی الذی یحکم ادراکاته الحصولیة ومراتبه: - العقل النظری- والعقل العملی- وقوة الفطنة والرویة- والقوة النازلة الادراکیة کقوة الوهم والخیال والحس.

والقوی العملیة النازلة کقوی الغضبیة والشهویة.

وهذه القوی النازلة تکون منصاعة إلی قوة العقل العملی بحسب الفطرة الإلهیة الأصلیة وهو یمارس هیمنته وتوجیهه لها.

۲- ذکرنا فی التنبیه الأول ما یمیز العقل العملی عن النظری، فالادراک لأیقضیة یمر عبر افعال ثلاث احدها الفحص والبحث فی الفکر، الثانی ادراک النتیجة المتولدة من المقدمات، الثالث الاذعان بتلک النتیجة والتسلیم بها

وقد اشار صدر المتألهین فی رسالته فی التصویر والتصدیق وتبعه جل المتأخرین ان النتیجة والحکم فی القضیة لا یعتبر جزءاً للقضیة. فالتصور وهو الصورة الحاصلة لدی الذهن تارة تکون مؤدیة ومؤثرة فی حصول الحکم فتکون تصدیقا وتارة لا تکون مؤثرة فتسمی تصورا. وهاتان المقدمتان هی من ادراک العقل النظری فهو یدرک النتیجة المتولدة من المقدمات، لکن هذا غیر الاذعان والحکم الذی هو من افعال العقل العملی ویفسر العلامة الطباطبائی الحکم بأنه «۱» قیام النفس بدمج صورة الموضوع مع صورة المحمول فی صورة واحدة

وقد تقدم منا الإشارة إلی ان المراد من وجوب المعرفة هو الفعل الثالث ومن هنا قلنا بامکانیة کونه واجباً شرعیاً.

۳- کثیر من المفکرین یتوهمون بان العلاقة والارتباط بین المقدمات (الصغری والکبری) والنتیجة والعلاقة بین النتیجة والحکم والاذعان، هی علاقة العلیة والمعلولیة بمعنی استحالة تخلف النتیجة عن مقدماتها واستحالة تخلف الاذعان عن النتیجة. لکن الحق ان الفلاسفة اثبتوا خلاف ذلک. فقد ذکر السبزواری فی منظومته فی بحث القیاس ان الرابطة لیست هی رابطة العلة والمعلول بل المقدمات

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۹۲

اعدادية فقط، والمتكلمون ذكروا بأن سنة اللّه جل وعلى قد جرت على أنه اذا أدركت تلك المقدمات فإنها تكون معدة لافاضة النتيجة على الإنسان. وهذه الافاضة من العقول العالية على العقل البشرى النازل.

والذى اوقع البعض فى هذا الوهم هو عدم التخلف وغفلوا عن أن هذا لا ينحصر بالعلية، وقد ذكر الحق سبحانه فى امثال الفلاح الذى يقوم بعملية الزرع حيث نص سبحانه على ان وظيفته ليست افاضة وجود الشجرة على البذرة بل يقوم الفلاح بالاعداد عن طريق تهيئة التربة ووضع البذرة وريّها اما المفيض لوجود هذا النبات هو الحق سبحانه «ءَأَنتُمْ تَزرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ» وقد اثبت الفلاسفة ان الجسم لا ـ يمكن ان يُفيض صورة جسمية أخرى. وهكذا الارتباط بين النتيجه والحكم والاذعان فالوظيفة التى يقوم بها العقل العملى هو الاذعان بالنتيجة فهذا هو الحالة الطبيعية وهى بذلك تكون معدة لحصول ذلك الاذعان وليست علة.

۴- ان ما ذكرناه سابقا فى تسلسل عملية الادراك فى الجهاز الوجودى للانسان هى الحالة الطبيعية والتى بمقتضاها ينصاع الاسفل إلى الاعلى، وتمارس القوى العليا هيمنتها على القوى النازلة، وتنساب عملية الفكر والادراك فى هذه المراحل المتسلسلة.

لكن هذا التسلسل لعملية الادراك يواجه عوائق وموانع تمنع عن حصول الادراك الصحيح وتمنع من خروج التصرف الصحيح طبقا للادراك الصحيح، وتؤدى هذه العوائق إلى قلب عملية التفكير حيث تسيطر القوى النازلة على القوى العالية وتتحكم بادراكاتها بمعنى ان ما ندركه هو ما يحقق كمالات تلك القوى، فيندفع الإنسان حينئذ إلى تحقيق شهواته واشباع رغباته الفتاكة.

ومن هذه الأمراض «۱»:

مرض الجُربزة وهى مقابل للبلادة وهى البطء الشديد فى ادراك النتائج بعد

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۹۳

ادراك- المقدمات العناد- وهى عدم انسياق العقل العملى لمدركات العقل النظرى مع العلم بصحتها- الوسوسة- الاضطراب.

فهذه الامراض التى تمنع من حصول اذعان النفس بمدركات العقل النظرى.

وهذه الامراض هى التى تصيب قوى الإنسان فى ادراكاته الحصولية، وهناك امراض تصيب درجات اداركه الحضورية، حيث تمنعه من الترقى الوجودى وتمنعه من الوصول بل ومن الاتصال بالصقع الربوبى، فيبتعد اكثر عن ساحة الحق ويصير بينه وبين الحقائق حاجبا وساترا لا يزول إلا بالتقوى والعمل الصالح ولقد قال عز من قائل «اتَّقُوا اللَّهَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» «۱»

.ومن هذه المقدمات الاربعة تنتقل إلى ما نريد التوصل اليه وهو إنه مع وجود هذه المراحل فى ادراك الإنسان، ووجود مثل تلك الموانع والعوائق التى تؤثر فى صدور القرار الصحيح والفعل النافع، كيف يمكن تقليده صلاحية التقنين والتشريع، فيجب ان يمتلك زمام التشريع والتقنين من يكون جهازه الادراكى فى مأمن من تلك العوائق والموانع ويكون محلا لافاضة العلوم عليها من العوالم العلوية وتنزلها فى مأمن من تشويش ومشاغبة قوى النفس الدنيا.

هذا أذ أرادنا تشريعا يكون مظهرا للحقائق الواقعية ومطابقا وصحيحا.

وهذا الإنسان الذى يمتلك تلك القابلية هو الذى يكون مظهرا للرضا الالهى وللغضب الالهى وللعزائم الالهية وذلك لا يكون الا بأن تتساوى كل حركاته وسكناته بلحاظ التأثر بالعوالم العلوية.

ومن لا ـ يمتلك تلك المكانة والقابلية فلن يكون تشريعه سالما وصحيحا ومن هنا قلنا بأن الولاية التشريعية تابعة للمقام التكوينى الخاص.

والمقام الأكمل الذى يصل اليه المشرع والمسن للقوانين هو مقام العصمة، وهى كما لا يخفى على درجات فبعضهم أصحاب شرائع، وبعضهم اولوا عزم،

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۹۴

وبعضهم شرائعهم دائمة وأبدية وهكذا تختلف درجاتهم العصموية بالاختلاف درجات قربهم من الصقع الربوبى. وتتنزل درجات

العصمة حتى تصل إلى العصمة فى الإنسان العادى وتتمثل فى حدود البديهيات الموجودة فى العقل البشرى حيث ان عدم وجودها يؤدى إلى نوع من الاضطراب والخلل حيث لا يوجد حينئذ ما يتكأ عليها الفكر البشرى.

الوجه الثالث ...: ص: ۹۴

السنن التكوينى والسنن التشريعى.

ذكرنا فيما سبق ان الإنسان يركز ويستند فى علومه إلى نوع محدود من العصمة وذلك من خلال البديهيات الموجودة فى العقل البشرى والتى ينتهى اليها فى كل قضية، وبدونها يحل الاضطراب فى الفكر البشرى، كما اشرنا فيما سبق إلى ان مدركات العقل العملى والنظرى هى الكليات الفوقانية، ولمحدودية العقل البشرى احتاج إلى التقنين والاعتبار لضبط الجزئيات الخارجية وان التفكير البشرى فى تنزل العلوم الكلية إلى الجزئيات يمر بمراحل متعددة وبجملة من البراهين التى يستعين بها لاحراز التفكير الصحيح. وهما البرهان النظرى ورأس ماله العلوم البديهية او البرهان العيانى الذى يتصل بالجزئيات، ويضمن اختيار الفعل الاصلح عن طريق قوة الفطنة والتروى التى تستلم من العقل العملى والبرهان النظرى النتائج الصادقة الحقيقية. وتستخدم قوة الفطنة القوى الادراكية الجزئية والقوى العمالة السفلية حيث الغضب الرافع للموانع والشهوة المولدة للشوق وبهذا الشكل يصدر الفعل الجزئى صحيحاً غير خاطئ.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۹۵

التنبيه الخامس: العلاقة بين العقل العملى والعقل النظرى ... ص: ۹۵

نلاحظ بعض الظواهر التى يتحد فيها حكم العقلين وان اختلف طريقهما من امثلة ذلك قاعدة اللطف الكلامية المعروفة ومدركها العقل العملى، وقاعدة العناية الفلسفية ومدركها العقل النظرى وهما قاعدتان ينتجان نتائج متشابهة بنحو كبير.

وهكذا فى بحث العقوبة الاخروية بمقتضى المعاد الجسمانى وكون القبح والحسن عقليين، فان العقل العملى يحكم بالعقوبة الاخروية حيث ان مدح اللَّه ثوابه وذمه عقابه أو أن مدح الفعل بالكمال المنتهى إليه وذم الفعل بالنقص، والعقل النظرى يحكم به بالعقوبة الاخروية بتوسط نظرية تجسم الأعمال وهكذا سوف نجد موازاة بين قواعد أخرى يحكم بها العقلان. فهذا الارتباط بينهما ليس ارتباطاً عفويا وصدفة وانما له منشأ تكوينى.

بيان ذلك: أن ضابطة مدركات العقل العملى هو ما ينبغى فعله وما لا ينبغى فعله، وما ينبغى فعله هو الحب التكوينى الفطرى والانجذاب نحو الكمال فلذا هو يطلبه طلبا تكوينيا ويبتغيه كغاية، وما لا ينبغى فعله هو خلافه أى ما تنفر منه تكوينا.

والكمال هو الخير والوجود والنقص هو الشر والعدم، وضابطة مدركات العقل النظرى هى الوجود ونفى الوجود، فمباحث الحكمة النظرية مرتبطة بالكمال والوجود، ومباحثه تؤثر فى العقل العملى الذى ينجذب تكويناً نحو الكمال الذى

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۹۶

يحكم به العقل النظرى وقد ذكرنا فيما سبق ان محمولات العقل العملى هى الحسن والقبح بمعنى المدح والذم، والمدح هو الحكاية عما يختزنه الفعل من الكمال والذم هو الحكاية عما يكنزه من النقص.

وهكذا نلاحظ الارتباط الحاصل بين العقلين والاندماج بين مدركاتهما بحيث يفتح بابا جديداً فى الاستدلال الحكمى البرهانى والمعرفة العقلية ويمكن استخدام الادلة الكلامية فى المباحث الفلسفية حيث تكون كاشفا كشفا إنيا وكذلك العكس واستخدام الادلة الفلسفية فى المباحث الكلامية.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۹۷

المبحث الرابع حجية المعارف القلبية ... ص: ۹۷

اشارة

والبحث فيها من جهات: -

الجهة الأولى: فى بيان المراد من المعارف القلبية ... ص: ۹۷

ان الحديث عن المعارف القلبية متشعب وطويل وسوف نتناول منه ما يهمنا فى بحثنا وعن المقدار الذى يكون فيه حجة متميزة عن غير الحجة.

يتفق الفلاسفة على أن هناك نحوين من الادراكات التى يتوصل بها الإنسان لمعرفة الحقائق الأول هى الادراكات العقلية والثانى هو الادراكات القلبية، وضابطة التفصيل بينهما يعتمد على كيفية الادراك فالأول يتم عن طريق الصور الحصولية للأشياء والثانى يتم عن طريق الادراكات الحضورية وهو الارتباط بالشيء ارتباطاً ما.

توضيح ذلك: ان الادراكات العقلية تعتمد على الصور ويختلف مدى ارتباط هذه الصور بالمادة حسب المراتب.

ففى الصورة الحسية فان نفس الصورة وان كانت مجردة عن الخارج إلا ان لها ثلاثة تعلقات:

۱- من جهة الابعاد الطول والعرض والعمق.

۲- من جهة المشخصات والالوان.

۳- لابد من محاذات وجود خارجى محسوس، ففيها تجرد عن نفس المادة ولها ثلاث تعلقات من لوازم المادة.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۹۸

اما الصورة الخيالية ففيها شيء من اللطافة اذ يضاف اليها تجرد عن المحاذات لشيء محسوس لكن مع تعلق من جهة الابعاد ومن جهة العوارض المشخصة.

اما الصورة الوهمية فيضاف اليها تجرد عن الابعاد الثلاثة وعن العوارض لكن تبقى لها تعلق باعتبار وجوب اضافتها إلى الجزئى الحقيقى كحب زيد وبغض عمر وهكذا.

واما فى العقل العملى والنظرى ففيه تجردات تامة لكن يبقى له تعلق بالصور.

والنفس فى ادراكها لهذه الصور المختلفة لها إياب وذهاب وخلط وترتيب وربط بين هذه الصور المختلفة، فقد تغرب عن الصور الحسية اى الوهمية أو الخيالية وتحمل المعنى الوهمى على المعنى الحسى وهكذا.

وهذا ما يسمى فى الاصطلاح ان النفس لها حركة تجرد وتعلق.

اما المعارف القلبية فهى أشد تجردا حيث لا تتعلق بالصور كما فى الادراكات العقلية بل هو الارتباط بالشيء بنحو ما.

وللنفس أيضا اياب وذهاب فى مراتب المعارف القلبية الاربعة وهى: -

۱- القلب وهو الارتباط بحقائق الاشياء من دون توسط الصور المادية، نعم يدرك فى هذه المرحلة الصور العينية البرزخية كما فى سماع انين الموتى من الصالحين وكذلك تشمل ادراكات عالم المثال، و يقال حينئذ انها تدرك صور الجوهر المثالى.

۲- السر وهى الادراكات التى فوق عالم البرزخ والمثال فهى اكثر سعة من مرتبة القلب واكثر احاطة وجودية.

الخفى والاخفى وهى المرتبة المتعلقة بالانوار الربوبية وادراك الاسماء الالهية.

اذا اتضح ذلك نقول:

١- إنه كما ان الادراكات العقلية موجودة فى كل انسان لكن قد لا يستطيع

الامامة الالهية(۵)، ج١، ص: ٩٩

البعض استخدامها ويعجز عن الوصول حتى إلى القوة الوهمية بل تظل نفسه محبوسة بين الحس والخيال، فهكذا المراتب القلبية فهى مراتب شأنية يستطيع كل انسان ان ينالها لكن تحتاج إلى قوة ايمانية وكمالات عالية حتى يكون للنفس سبح فى هذه المراتب ولا ينالها الا ذو حظ عظيم، والإنسان بعمله ومناعة نفسة يرتقى إلى هذه المراتب.

٢- ان التمييز بين المراتب القلبية الأربعة هو التميز فى الحدود الوجودية.

٣- ان مدرسة أهل البيت عليهم السلام تبنت الرؤية القلبية للذات المقدسة لا الرؤية الحصولية الوهمية ولا الخيالية ولا الحسية وأما الرؤية العقلية بتوسط المعانى المجردة فقد أثبتتها العديد من الروايات الواردة عنهم المتضمنة للتنبيه على لزوم الوحدة والبساطة فى المعانى والصفات وعدم تطرق التركيب العقلى التحليلى فيها، وأنه الفارق فى التوصيف العقلى للذات الواجبة عن الممكنات وهو متطابق مع ما قام عليه البرهان الحكمى.

وفى بعض الروايات «١» انه لو احيل الادراك بالمعانىالعقلية لكانت المعرفة أمر لا يطاق عند عامة البشر، كما أن الروايات نبهت على أن المعبود هو المحكى بالمعانى العقلية وهو المسمى لا نفس المعانى العقلية وهى الاسم. فالذات المقدسة لا تقتنص بحس ولا بوهم ولا بخيال لعدم الحدود والمقدار فيه. فكيف يمكن اقتناصها بتلك القوى واثبات الرؤية الحسية لها، نعم الادراكات العقلية هى الحالة الوسط بين الادراكات الصورية النازلة وبين الادراكات القلبية، ولذا فهى بوابة على الغيب لكنها تبقى معان حاكية وليست هى نفس المحكى أى ليست هى نفس الواقع، وهذه الادراكات العقلية بهذا المقدار، والحاكية عن أقصى غيب

الامامة الالهية(۵)، ج١، ص: ١٠٠

الغيوب وهو البارى جل وعلا هو المقدار المكلف به الناس. اى العبادة عبر ادراكاتهم العقلية.

۴- فوائد المعارف القلبية:

أ- ان الإنسان لم يخلق للخلود فى هذا العالم بل هو مخلوق لعوالم أخرى، فهو يعيش منذ ولادته عالمه البرزخى بمعنى إنه يصنع بأعماله وعقائده عالمه البرزخى، وعندما يتكامل ويبلغ ويرشد يصنع حياته الاخروية التى هى بعد الحياة البرزخية فى عين عيشه حالياً للحياة الدنيوية، والمراتب القلبية تجعله مشرفاً على تلكم العوالم.

وقد يظن البعض أن هذا نوع من الخيال وتسطير الكلمات فما الحاجة إلى الاشراف على هذه العوالم وهو لم يعشها بمعنى لم يحن ظرفها الزمانى فنقول: - خير مثال على ذلك الطفل الذى يعيش فى بطن امه يكون له اذن وانف وفم ولسان وشفتين وكل شىء فَلِمَ كل هذه الاجهزة هل هى حتى يستعين بها فى حياته داخل رحم أمه؟ بالطبع لا، من الواضح ان هذه الاجهزة لأجل ان يعيش بها فى عالم آخر غير عالم الرحم. وهو عالم الدنيا. وهكذا الإنسان فى مراحله القلبية فالانسان لا يحتاج اليها فى ادارة شئون عالم الدنيا إلا إنه محتاج لها فى عالم الاخرة.

ب- ان المراتب القلبية هى السبيل لمعرفة الغيب فكلّ يستطيع ادراك الغيب وكلا يعيش الغيب ولو مرتبة ضامرة.

ج- الفائدة الجليلة والعظيمة فى الادراكات القلبية هى رؤية أشرف مرئى وهو نور واجب الوجود.

۵- ان الإنسان اذا أدرك بلحاظ المراتب القلبية حقيقة من الحقائق وأراد لها ان تنزل إلى الادراك العقلى النظرى فلابد ان تتنزل بمعناها لا بوجودها وحقيقتها، فالارتباط بين المراتب القلبية والعقل النظرى هى بوحدة المعنى وبوحدة المفهوم،

الامامة الالهية(۵)، ج١، ص: ١٠١

فالمراتب القلبية تدرك الشىء بوجوده العينى وهويته العينية اما القوة العقلية فهى اكثر لاصطياد المدرك بمعناه ومفهومه ويمكن التمثيل للفرق بين الادراكين بمن يدرك الشىء المقابل للمرآة تارة ويدرك تارة أخرى صورته فى المرآة.

والمرآة هی القوی الادراکیة الحصولیة العقلیة.

۶- ان الادراکات العقلیة یتصور فیها التصور والشک والتردید والجزم، اما فی المدرکات القلبیة فهی صحیحة دوماً علی صواب أبدً لا مکان للشک فیها حال المعاینة القلبیة. والسر فی ذلک إنه فی الادراکات العقلیة یکون المدرک هو صورة الشیء، والحاکی عن الشیء، فیرد التساؤل عن مدی مطابقته للواقع أو عدم مطابقته، (وقد ذکرنا فی نهایة التنبیه الأول مشکلة الخطأ فی الفکر البشری وکیفیة معالجته وان تحصیل الیقین فی الامور النظریة من الأمور الصعبة) بخلاف ما اذا کان نفس الشیء وعینه حاضرا فإنه یکون یقینا لا لبس فیه ولا تردید، ومن هنا نجد ان الکثیر من روّاد علم المعارف الإلهیة اشار إلی ندرة الحصول علی الیقین بل کلها ظنون متاخمة للیقین، وتطرق إلی ذلک السید الصدر فی بحثه عن الاستقراء «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ».

ومن هنا نعرف السر فی حث کثیر من العلماء علی تنزیه النفس وتربیتها لنیل تلک العلوم الیقینیة، وألّا یقتصر علی تحصیل العلوم التی لا تتجاوز الصور. إذ الادراکات القلبیة أشرف من العلوم الحصولیة وإن کانت هی البوابة المأمونة لها.

۷- ان مراتب الادراکات القلبیة تتفاوت شدة وضعفا حیث أن الوصول إلی الحقائق تتبع سعة ظرفیة الواصل (المدرِک)، فقد یصل الانسان إلی هذه المراتب بنحو العرض، وقد یصل إلی تلک المراتب وتکون بالنسبة الیه کفصل جوهری حیث یکون قد حصل لذاته تکامل ورقی وجودی أوصله إلی تلک المرحلة فیتصفح حیث ما شاء فی العالم الغیبی.

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۱۰۲

فالذی یدرک الغیب لا یعنی إنه ادرک کل الغیب، فاللّه عز وجل لا تحیطه الابصار والقلوب بل عرفته القلوب بحقائق الایمان.

۸- مما ذکرنا یتضح السر فی أن المسلمین قد صرفوا النظر عن العلوم الحصولیة والعلوم المادیة، واوغلوا فی بحوث الاعتقادات وفقه الأحکام من اجل تحصیل ذلک الیقین ونیل المراتب القلبیة وذلک مع تهذیب النفس وانشغالها بالعبادة، حتی تتهیأ النفس لتصفح انوار الملکوت وتقوی الادراکات القلبیة، فمنهم من وصل إلی المراد وهو المتبع لطریقة أهل البیت علیهم السلام ومنهم من ضل الطریق وأضل غیره.

۹- ان معرفة الإنسان لنفسه هی بوابة المعرفة الربوبیة، وذلک لأن کل مخلوق هو آیة لخالقه، وکل کامل نازل هو آیة للکمال الصاعد فیقال ان کل غیب نازل له حکایة تکوینیة لغیب صاعد، وهذه الحکایة لیست علی نسق حکایة الصور الحصولیة، بل هی حکایة الرقیقة عن الحقیقة، کما عبر بذلک الفلاسفة، او حکایة المظهر عن الظاهر کما عبر العرفانیون. لکن هذه الحکایة وان کانت غیر قابلة للخطأ والصواب بل هی صواب دائم إلا انها لیست حکایة احاطة لأن الرقیقة لا تمثل کل کمالات الحقیقة.

۱۰- من الأمور التی تدلل علی أهمیة الادراکات القلبیة هو رجوع جمیع الادراکات العقلیة الیها بیان ذلک: -

إنه قد ثبت فی محله رجوع جمیع التصورات والتصدیقات النظریة إلی البدیهیات التصوریة والتصدیقیة وهی رأس مال الإنسان فی تحصیل علومه، وحینما نقوم بتحلیل هذه البدیهیات نری انها فی تکونها محتاجة إلی الادراکات القلبیة فعندما نقول إنه صادق فیعنی عدم احتمال اللامطابقة والسر فی ذلک ان النفس تدرک ذاتها ووجودها والصورة نفسها مدرکة لدیها بالعلم الحضوری فالمحکی والحاکی کلاهما موجود لدی النفس فلا یحتمل اللانطباق، وهذا ببرکة

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۱۰۳

العلم الحضوری.

ونفس الشیء یقال فی أول البدیهیات التصدیقیة وهو استحالة اجتماع النقیضین وارتفاعهما فموضوع القضیة اجتماع النقضین ومحمولها هو الامتناع.

حیث تقیس النفس بین مفهوم الوجود ونفی الوجود وحیث إن للوجود محکیاً، فتری ان هذا المحکی مع نفی هذا المفهوم لا یجتمعان.

من خلال هـذا العرض نصل إلى حقيقـة فى وجود الإنسان هى إنه فى اتصاله بعالم المادة يكون عبر قنطرة الصور الحصولية اما اتصاله بالغيب فهو اتصال حضورى مباشر.

الجهة الثانية: حول ضابطة حجية المعارف القلبية ... ص: ۱۰۳

قد يتراءى لغوية هذا البحث وذلك لما ذكرناه سابقا من ان المدرَك بالقلب هو عين ومتن الواقع فلا يحتمل الخطأ، وبالتالى فهو حجة كله، بل كل ادراكه صدق، ولكن فى الواقع نحن بحاجة إلى هذا البحث وذلك لأن العرفاء انفسهم فى بحث المكاشفات يشيرون إلى ان المكاشفات على اقسام وان الادراكات الحضورية على درجات، وأن بعض الاشياء العينية قد تكون من تسويل وتمثلات العيانية من الشياطين أو كون قوى النفس قد اختلقتها. فلا يمكن القول بحجية كل الادراكات القلبية، فكما ذكرنا فى العلوم الحصولية قد تحصل الحجب والامـراض الـتى تمنع عن ادراك الحقـائق فهنـا كـذلك تحصـل حجب النفس التى تحجب الواقع عن ادراكه- وقـد تعرضـنا تفصيلا فى بحث الرؤية القلبية «۱» إلى تصرف الشياطين والجن فى

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۰۴

قلب الكائن البشرى هو تصرف تكوينى وفعل حضورى ولكن ليس حضور الحقائق العالية.

- وقـد ذكر القيصـرى نفسه فى مقدمات شـرح الفصوص والسـيد حيدر الآملى فى نص النصوص، على ان من الكشف ما هو رحمانى ومنه الشيطانى ومنه النفسانى...

فقالوا: إن الميزان فى تمحيص المكاشـفة الصـحيحة عن الخاطئـة هو الكتاب والسـنة باعتبار ان الكتاب ارتباط بعالم الغيب وان القرآن تنزل من الصقع الربوبى.

نلاحظ مما تقدم ان العرفاء ركزوا على نكتة ان المدركات قد لا تكون من الحقائق فلذا يجب الاعتماد على الميزان المعصوم وادراك معصوم.

ويتبقى جانب آخر نشـير اليه وهو تنزل المـدركات القلبيه الى المـدركات العقليـة، حيث ان العلوم الحضوريـة يجب ان تنزل إلى القوة العقليـة حتى يسـتطيع ان يسـتفيد منها الإنسان وتكون مؤثرة فى واقعه الحياتى، وهذا التنزل يجب ان يكون مأموناً والمقصود بالأمن ان الصور الحصولية التى يلتقطها العقل يجب ان تكون متطابقة مع حقائق الاشياء التى توصل اليها بالعلم الحضورى.

فكمـا ذكرنـا سابقا توجـد امراض تمنع من تنزل ادراكات العقل النظرى وتمنع من سـيطرة العقل العملى على القوة السـفلى، فهنا ايضـاً توجـد امراض واخطار تمنع من حصول الادراكات العقليـة الصـحيحة. فالعقل هو كالمرآة التى تنطبع عليه مـدركات القلب فقد يكون المنطبع شبح الحقيقة لا عين الحقيقة وقد تكون الصورة مشوشة.

وبتعبير أخر: ان مرآة العقل قد تصاب بسـبب الاخلاق الرديئة او الأعمال السـيئة تشوبها حجب فلا تنطبع فيها صور الحقائق بنحو صاف وسليم

ومن هنا نحتاج إلى ضابط وميزان لتمييز الحجة من اللاحجة. حيث ليس لنا أمان من الزلل والخطأ لا فى نفس المدرَك، ولا فى تنزله، ويظهر من هنا الميزة

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۰۵

للفرد المعصوم حيث إنه لاـ يـدرك الاـ مـا هو حق ولاـ يتنزل إلا بتنزل من الحق. ومن هنا نرى ان القران يوصف بأوصاف متعـددة «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» فهو مـدرك حق «فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» اى المعصومون من الـذنوب والخطأ «بالحَقِّ أَنْزَلناهُ وَبالحَقِّ نَزَلَ» فالعصمة فى صدوره لا تكفى بل عصمة فى التنزل من العوالم العلوية.

فالقران الكريم سار مسيرة طولية من العوالم العلوية إلى نفس النبى الاطهر صـلى الله عليه و آله إلى ان يصل إلى رسم الخط فيجب ان

يحرز ان هـذا الرسم والصوت مطـابق لقوة الادراك الحسـى وهى مطابقـة لقوة المخيلـة المطابقـة لقوة العاقلـة العمليـة المطابقـة للعقل النظرى المطابق للقلب ومراتبه القلبيه المطابق لما اوحى له من اللّه عزوجل.

لذلک نفى عن النبى صـلى الله عليه و آله الجنون ونفى عنه الشـعر ونفى عنه الكهانة فقواه العقلية تسـير بالسير الفطرى مطابقة المادون للاعلى وعدم تصـرف الشـيطان فى قلبه، فكل ذلک الوارد فى وصف القرآن والوارد فى وصف الرسول صـلى الله عليه و آله من اجل بيان ان هـذه القناة معصومـة مأمونـة من الخطأ والزلل. وهـذا دليل على أنه ليست كل مـدركات القلب حجـة و الا لما احتيـج إلى كل ذلک التأكيد ودفع الشبهات.

فالضابطـة الميزان فى كل ذلک هو الكتاب والسـنة حيث يعبران عن الوحى المعصوم وكـذلک العقل البديهى والنظرى فيمكن عرض التنزل على تلک البديهيات ليعلم الصحيح منها من السقيم.

وهذه النتيجة لا تعنى انكار الغيب او انكار للمدركات القلبية بل هى الضابطة التى تحتاج اليها النفوس البشرية غير المعصومة. ونحن لا ننفيها بنحو مطلق بل ننفى الحجية المطلقة لها.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۰۶

خاتمة: حول العلاقة بين الحجج الاربعة ... ص: ۱۰۶

لقـد مضـى الكلام فى هـذا الفصـل حول الطرق والحجـج الاربعـة اثنان نقليان هما الكتاب والسـنة واثنان تكوينيان هما العقل والقلب والغرض من هذه الخاتمة هو الإشارة إلى الارتباط والعلاقة بين هذه الطرق.

وقد ذكر للعلاقة بينها امور: -

- ان الفلسـفة وهى الباحثة عن مدركات العقل والعرفان وهو الباحث عن لغة الادراكات الحضورية، وهما تلميذان يؤهلان لفهم نكات الوحى.

- ان العقـل والقلب يرجع اليهمـا فى رفع متشابهات النص، وإنه يرجع إلى محكمات النص ليرفع متشابهات العقل والقلب فيرفع متشابة كل منهما بمحكم الآخر.

- ان العقل والقلب شأنهماالادراک، اما الوحى فهو نفس المدرَک.

- وقـال البعض: - ان وظيفـة العقـل والقلب هو التصور، وأمـا الحكم فهو من وظيفـة الوحى بمعنى ان المخـاطَب هو العقـل والقلب اما نفس الخطـاب هو الكتـاب والسـنة حيث انهمـا مواد الوحى. فالمخـاطَب ليس هو القوى النازلـة بل المخاطب هو العقل والقلب، واللغة اللسانيـة وظيفتها احـداث التصور، واللغـة العقلية وظيفتها احداث أصل الادراک، والحكم والتصديق يكون من الشارع فالمدرک لهذا الحكم والتصديق والتصوير هو العقل، والمدرک لهذه الاشعاعات النورية هو القلب.

فكمـا أن الالفـاظ موصـلة للمعنى وبهـا يحتـج فكـذلک فى لغـة العقـل بهمـا يحتـج على الإنسـان فالعقل والقلب هما المخاطبان ولغة الخطاب هو الوحى.

بتعبير آخر: ان العقل ايضاً يحكم ويصدق ويدرک التصورات ولكن يتبع حكم الوحى والشارع. فليس فيه الغاء لدورهما.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۰۷

- ان هناک سـنناً تكوينيـة جعلها اللّه عز وجل فى طريقة التفكير البشـرى، فالعلم وان كان نورا يقذفه اللّه فى قلب الإنسان الا ان طريقه القذف تعتمد على أحد نحوين:

الاول: هى الوصول إلى الاسـتنتاج عن طريق تهيئـة المقـدمات والمواد وعبر مراعاة موازين ما يسـمى بالمنطق، وذكرنا انها معدات تعد الإنسان لكى يفاض عليه النتائج.

والآخر: هو التصفية والتخلية عن الرذائل والتحلية بالفضائل والايمان والمعارف، فيصل الإنسان إلى العلوم الحضورية وهذا مسلك الاشراق والعرفاء...

فهاتان سنتان تكوينيتان فى نيل الفكر والمعرفة الانسانية، ويضاف إلى هاتين السنتين سنة وطريقة ثالثة وهى الوحى (الكتاب والسنة).

وهذه الطرق ليست متقابلة بل يجب الاستعانة بكل منها مع الاخر فاذا استمد الإنسان بالسنتين التكوينيتين دون الوحى فيعنى خسران المعارف الهائلة، وكذلك لا يستفيد تمام وكمال الفائدة من الرافد الاخير إلا بالرافدين الاولیین لانهما قناتى وطريقى المعارف.

– ووجه آخر لبيان العلاقة وهو ان الرياضة العقلية فى العلوم العقلية، والرياضة القلبية فى العلوم القلبية العرفانية بالغة الأهمية من حيث كونها معدة للتأهل وخوض الوحى لفهم اسراره.

والعمدة التى تدور حولها جميع هذه الاجوبة لبيان العلاقة هو بيان التلازم بين هذه الطرق المختلفة بوضع كلٍ فى دوره الموظف له بحيث لا يلغى أحدهما الاخر بل الوصول إلى الحالة الوسطية، وهذه الوجوه هى لبيان تلك الحالة الوسطية، ومنها جعل العقل والقلب الحجة الباطنة وجعل الوحى الحجة الظاهرة.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۰۸

وفى حديث طويل عن الصادق عليه السلام أن أول الأمور ومبدأها وقوتها وعمارتها التى لا تنفع شىء إلا به، العقل الذى جعله اللَّه زينة لخلقه ونورا لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم وانهم مخلوقون ... وعرفوا به الحسن من القبيح وأن الظلمة فى الجهل وان النور فى العلم فهذا ما دلهم عليه العقل. قيل له: فهل يكتفى العباد بالعقل دون غيره؟ قال: ان العاقل لدلالة عقله الذى جعله اللَّه قوامه وزينته وهدايته علم، أن اللَّه هو الحق وانه هو ربه، وعلم ان لخالقه محبة وان له كراهية وأن له طاعة وان له معصية فلم يجد عقله يدله على ذلك وعلم أنه لا يوصل إليه إلا بالعلم وطلبه وأنه لا ينتفع بعقله إن لم يصب ذلك بعلمه» ... الحديث «۱».

فيبين الإمام عليه السلام أن مصدر الأمور وأسسها هو العقل، ثم سأل سائل هل يكتفى بالعقل فقال: إنه علّم العقل بانه لا يصل الى الحقائق من رضى اللَّه وغيرهما ... بل يصل اليها بعلم الوحى.

فلابد منهما كليهما ولا يتوهم ان الشريعة والمعارف تجريد وغيب محض بل هو غيب وشهادة وذلك اننا اذا حافظنا على موازين تلقى معارف الغيب حينئذ يكون التنزل سليما حتى الى عالم الحس والشهادة، فبيوت الغيب يجب ان تؤتى من ابوابها فلابد من التدرج عبر بوابة العقل ثم بوابة القلب، فكما ان سنة اللَّه مع عالم المخلوقات جرت بالتدرج فكذلك تنزل هذه المعارف.

فالنتيجة ان التمسك بالوحى ورفض العقل والقلب هو رفض للوحى ايضاً وذلك لأن المخاطب بالكتاب والسنة هو العقل وجعل المخاطب غير العقل والغاء شرط العقل هو فى الواقع الغاء للكتاب والسنة.

وكذلك من تمسك بالعقل من دون الكتاب والسنة فقد ضيع العقل ايضاً،

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۰۹

وذلك لأن التمسك بالعقل والقلب هو ابقاء الإنسان فى الحدود النازلة وعدم ارتقائه إلى المعانى العالية وهو حرمان للعقل من المعارف الالهية، وكذلك من ادعى انه يفهم الكتاب والسنة من دون الالتفات إلى النكات العقلية فقد أنزل المعارف من مستواها العالى، فلابد من الوسطية والتوازن.

وقد حاول العلامة الطباطبائى أن يذكر فى كل مسألة الفحص فى هذه الطرق الاربعة ولا يقتصر على جانب دون آخر، وممن حاول أيضاً الجمع بين هذه الطرق هو الملا صدرا فى الحكمة المتعالية، وبغض النظر عن مدى موفقية كل منهما فى النتائج التى توصلا اليها إلا أنها محاولة جريئة وجديدة فى بابه فلم يقصر فكره على طريقة واحدة ومنهجية واحدة، حيث إنه استفاد من نكات مذكوره فى السنة فى ايجاد براهين عقلية لأمور عجز العقل فى السابق عن اثباتها كالمعاد الجسمانى.

– اما الشيخ الانصارى فيذكر فى الرسائل:

ان التنافی بین الادلة النقلیة والادلة العقلیة لو قدر وجوده لا یخرج عن صور ثلاث:

اما صورة التعارض لدلیلین قطعیین.

واما صورة تعارض نقلی قطعی وعقلی نظری.

واما صورة تعارض نقلی ظنی وعقلی قطعی (نظری وبدیهی).

اما الصورة الاولی: فلا وجود لها ولم یشر أحد من الباحثین الیها قط.

اما الصورة الثانیة: فهی وان کانت بدوا تعارض إلا أن الإنسان اذا دقق ولاحظ فی مواد الدلیل العقلی لوجد أنها ظنیة ولیست قطعیة، والمشکلة تکمن اننا للوهلة الاولی لا نلتفت الی ذلک بل بعد فتره من الزمن حیث نتصور استحکام التعارض والسر فی عدم التعارض هو ان الوحی برهان وقطعی حیث ثبت واقعیته. وإنه من واجب الوجود فلا ـ یمکن ان یتصادم مع العقل القطعی. وقد نبّه الملا صدرا إلی ان

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۱۱۰

قول المعصوم یمکن ان یستخدم کوسط فی البرهان لعصمته عن الخطأ.

اما الصورة الثالثة: إنه لو اعید النظر فی العقل القطعی وتأکدت من قطعیته فانه یکون قرینة علی التصرف فی الظاهر الظنی والتأویل.

وتوجد صورة رابعة فی التعارض بین الظنی النقلی والظنی العقلی وفی هذه الصورة نلاحظ ان العقل الظنی لیس بحجة اما النقلی الظنی فقد ذکرنا فی بدایة بحثنا امکان اعتباره ووقوعه- کما یظهر من عبارة الشیخ فی بحث الانسداد، ومال إلی ذلک کثیر من علمائنا کالبهائی والشیخ الطوسی والمیرزا القمی وغیرهم.

ویشیر الشیخ إلی توصیة هامة وهی: -

انه فی بحوث المقام یجب التتبع وبذل الجهد للحصول علی المعارف النقلیة القطعیة منها والظنیة المعتبرة بناءً علی اعتباره فی التفاصیل النظریة فی شعب المعرف»، فکما نجهد انفسنا فی البحوث العقلیة البحتة أو القلبیة فانه یجب بذل الجهد بعنایة فائقة فی تحصیل القطعیات النقلیة، ومما یؤسف له قلة الجهود المبذولة فی هذا المضمار بالقیاس إلی حجم النقل الواصل بإیدینا وبالقیاس إلی ما یبذل من جهود فی المجال الآخر، فإنه لو اثریت البحوث العقلیة الاستدلالیة فی المعارف النقلیة لتوفّر تبویب کثیر من الطوائف للأدلة النقلیة ولأمکن العثور علی جم کبیر من القرائن والاستفاضات المعنویة فی کثیر من المسائل.

****

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۱۱۱

الفصل الثانی: نظریة الحکم علی ضوء الإمامة الإلهیة ... ص: ۱۱۱

اشارة

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۱۱۳

نظریة الحکم علی ضوء الإمامة الإلهیة

المبحث الأول لمحة تاریخیة ... ص: ۱۱۳

ان الناظر للتاریخ الاسلامی وللمذاهب التی نشأت فی هذا الدین وما ذکرته ل منها فی مسألة الخلافة والحاکمیة، یری کم هو البون الشاسع بین المبدأ والمنتهی وبین التنظیر والتطبیق لدی اکثر المذاهب الاسلامیة، فکثیر ممن رفعوا رایة الشوری لم یثبتوا علی مبدأ

واحـد وقول متحـد منـذ بدايـة الخلافـة الاسـلامية وحتى يومنا هـذا، لا يوجد تطابق بين ما ادعوه من شوروية الحكم وما طُبق. كما ان بعض القـائلين بـالنص فى عصـرنا لم يثبتوا على مقـولتهم بـل نرى ذلـك البعض يحـاول ان يخفف من وطأتهـا ويـدمجها مع الشورى ويحاول ان يجعلها شورى عند التطبيق وهكذا.

بعض البـاحثين فى شؤون الملـل والنحـل ذكروا لنـا اتجاهـاً ثالثاً بين الشورى والنص وهو التلفيق بين هاتين النظريتين، ولم يعـدوها من القول بالنص بل يجعلونها من القول بالشورى، وأوضح مثال على ذلك هو ما سارت عليه الزيدية والاسماعيلية. حيث حسبوا ان هناك تصادمـاً بين القول بـالنص وبين لزوم اقامـة الحكم الاسـلامى، وهـذا التصـادم هو الـذى ألجـأهم الى التلفيق. وهـذا المنزلق اسـتطاعت الاماميـة ان تخرج منه وحـافظت على وتيرة القول بـالنص من دون تلفيق مع الشورى. وقـد يكون من الامور التى دفعت الى التلفيق هو احجام مَن نُص عليه

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۱۴

عن اقامـة الحكم السياسـى، مع عدم الالتفات الى أن الأئمة عليهم السـلام كانت لهم حكومة حقيقية مبسوطة على كل مَن شاء الرجوع اليهم. وان المتتبع للروايات المتناثرة هنا وهناك يرى ان الأئمـة كانوا يمارسون كل انواع السـلطة وكافـة شؤونها وأنهم لم يحجموا فى واقع الأمر وانما قد أدبر الناس عنهم.

واكثر مؤلفى الشيعة ممن تعرضوا للملل والنحل ردوا شبه الزيدية فراجع اكمال الدين والغيبة للطوسى وأصول الكافى للكلينى والكشى فى رجاله.

فنرى الشهرسـتانى فى الملـل والنحل يقول: والاختلاف فى الإمامـة على وجهين: أحـدهما: القول بأن الإمامـة تثبت بالاتفاق والاختيار. والثانى: القول بأن الإمامـة تثبت بالنص والتعيين. فمن قال: إن الإمامـة تثبت بالاتفاق والاختيار قال بإمامـة كل من اتفقت عليه الأمـة أو جماعة معتبرة من الأمة: إما مطلقاً وإما بشرط أن يكون قرشياً على مذهب قوم، وبشرط أن يكون هاشمياً على مذهب قوم «۱».

وقال: الخلاف الخامس: فى الإمامة، وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الامامة، إذ ما سُلّ سـيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة فى كل زمان..

- ثم نقل كلام عمر حين حضر مع أبى بكر سقيفة بنى ساعدة- فقبل أن يشتغل الأنصار بالكلام مددت يدى إليه فبايعته وبايعه الناس، وسكنت الفتنة، إلا أن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى اللّه المسلمين شرها فمن عاد الى مثلها فاقتلوه، فأيما رجل بايع رجلًا من غير مشورة من المسلمين فإنها تغرّة يجب أن يقتلا ... وهذه البيعة هى التى جرت فى السقيفة «۲».

وقال: الخلاف الثامن: فى تنصيص أبى بكر على عمر بالخلافة وقت الوفاة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۱۵

فمن الناس من قال: قد وليت علينا فظاً غليظاً. وارتفع الخلاف.. «۱».

وقال فى الباب السادس: الشيعة: هم الذين شايعوا علياً رضـى الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته: نصاً ووصيةً إما جلياً وإما خفياً واعتقـدوا أو الامامة لا تخرج من أولاده وقالوا: ليست الإمامة قضـية مصـلحة تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصـبهم، بل هى قضية أصولية، وهى ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم السلام اغفاله وإهماله، ولا تفويضه الى العامة وارساله. ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصـيص وثبوت عصـمة الأنبياء والأئمـة وجوباً عن الكبائر والصـغائر والقول بالتولى والتبرى: قولا وفعلا، وعقداً، الا فى حال التقية ويخالفهم بعض الزيدية فىذلك» «۲».

وقال فى الزيدية: اتباع زيد بن على بن الحسـين بن على بن أبى طالب رضـى الله عنهم ساقوا الإمامة فى أولاد فاطمة (رضى اللّه عنها)، ولم يجوزوا ثبوت الإمامـة فى غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمى، عالم، زاهد شـجاع، سـخى، خرج بالإمامة أن يكون إماماً واجب الطاعـة.. وجوزوا خروج إمامين فى قطرين يسـتجمعان هذه الخصال ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة.. ثم ذكر السـليمانية

من فرق الزيدية- أصحاب سليمان بن جرير وكان يقول إن الامامة شورى بين الخلق ويصح أن تنعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين وأنها تصح فى المفضول مع وجود الأفضل وأثبت إمامة أبى بكر وعمر حقا باختيار الأمة حقاً اجتهادياً وربما كان يقول: إن الأمة أخطأت فى البيعة لهما مع وجود على رضى الله عنه خطأ لا يبلغ درجة الفسق.. قالوا: الإمامة من مصالح الدين، ليس يحتاج اليها لمعرفة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۱۶

اللّه تعالى وتوحيده، فإن ذلك حاصل بالعقل لكنها يحتاج اليها لإقامة الحدود والقضاء» «... ۱».

وقال عن الصالحية والبترية من الزيدية وقوله فى الإمامة كقول السليمانية..

وأكثرهم- فى زماننا- مقلدون لا يرجعون الى رأى واجتهاد أما فى الأصول فيرون رأى المعتزلة حذو القذة بالقذة ويعظمون الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة اهل البيت وأما فى الفروع فهم على مذهب أبى‌حنيفة..» «۲».

ويقول سعد بن عبداللّه الاشعرى القمى، وهو من الفقهاء اخذ اصل كتابه فى الفرق عن النوبختى وهو من المتكلمين له كتاب الفرق والمقالات، الا ان سعد اضاف على ما أخذه: واختلف أهل الاهمال فى إمامة الفاضل والمفضول فقال أكثرهم: هى جائزة فى الفاضل والمفضول اذا كانت فى الفاضل علّة تمنع عن إمامته ووافق سائرهم أصحاب النص على أن الإمامة لا تكون إلا الفاضل المتقدم، واختلف الكل فى‌الوصية فقال أكثر أهل الاهمال: توفى رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولم يوص الى أحد من الخلق ... ثم عدّ البترية والسليمانية من فرق الزيدية من أهل الاهمال» «۳»، وقال عن الجارودية من الزيدية.. فقالوا بتفضيل على ولم يروا مقامه لأحد سواه، وزعموا أن من رفع علياً عن هذا المقام فهو كافر، وأن الامة كفرت وضلت فى تركها بيعته ثم جعلوا الإمامة بعده فى الحسن بن على ثم فى الحسين بن على ثم هى شورى بين أولادهما فمن خرج منهم وشهر سيفه ودعا الى نفسه فهو مستحق للإمامة» «۴».. وزعموا أن الإمامة صارت بالنص من رسول اللّه لعلى بن أبى طالب ثم الحسن بن على وبعد أن مضى الحسين بن على لا يثبت الا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۱۷

باختيار ولد الحسن والحسين وإجماعهم» «۱».

وفى المقالات لابن الحسن الاشعرى المتوفى ۳۲۴ ه فى ص ۴۵۱- ۴۶۷ قال:

وأجمعت الروافض على ابطال الخروج وانكار السيف ولو قتلت، حتى يظهر لها الإمام، وحتى يأمرها بذلك..».

فهو يشير الى نفس النكتة التى ألمح اليها الشهرستانى من حصر الحاكمية لدى الإمامية فى النص وفى قبالهم المعتزلة والزيدية والخوارج والمرجئة حيث يرون خلاف ذلك.

ومن خلال هذه اللمحة التارخية يتضح لنا امران:

۱- هى ان الصياغات المختلفة للشورى والتلفيق بينها وبين النص معدود عند اصحاب التراجم والمؤرخين فى منهج يقابل النص.

۲- ان بعض الفرق الشيعية- فى الأصل- انتقلت من النص الى الشورى او الى التلفيق بسبب ما رأوه من تصادم بين النص وبين مسلمة لزوم اقامة الحكومة الاسلامية، حيث عجزت افكارهم عن ايجاد حل ضمن اطار النص بخلاف فقهاء الامامية الاثنى عشرية الذين مع بقائهم وتمسكهم بالنص استطاعوا ايجاد صيغ بديلة عن الشورى او التلفيق.

ومن أمثلة هذه الفرق: الزيدية الذين نتيجة هذا التصادم ذهبوا الى ما ذهبوا اليه، وقد عقد الشيخ الصدوق فى كتابه اكمال الدين واتمام النعمة ص ۷۷ فصلًا فى الجواب عنه.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۱۹

«۱»

المبحث الثانى النظريات المختلفة فى ادارة شؤون الحكم ودور الشورى فيها ... ص: ۱۱۹

۱- النظرية الاولى المشهورة ...: ص: ۱۱۹

من أن للأمة صلاحية البت فی ولاية الحكم والقيادة من رأس الهرم الى كافة

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۲۰

الاجنحة، وهذه النظرية مع شهرتها إلا انها لا تجد أساساً تطبيقياً فی التاريخ الاسلامی من انتخاب الخلفاء الثلاثة الى دولة بنی امية وبنی العباس، لذا نجد أن معالمها قد تكاملت مع العصور المتأخرة ويمكن التعبير عنها بالمصطلح الحديث:

ان السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية بيد الأمة.

ولكن بقی فی هذه النظرية نقاط لم تحسم:

منها: أن المدار فی الانتخاب هل هو علی الأكثرية الكمية او علی الكيفية مما قد يصطلح عليه أهل الحل والعقد، وعلی الفرضية الاولی هل هی مطلق الكثرة النسبية ولا يلتفت الی الطرف المقابل ولو كان بنسبة ۴۰٪ فما فوق، حتی وإن كان الطرف الأقل أكثر وعيا وأبصر بالأمر.

ثم هل المدار علی ما يهوی المنتخبون من دون ملاحظة شرائط ومواصفات فی المنتخَب أو أنهم مقيدون فیانتخابهم بشرائط خاصة.

وهل عليهم مراعاة توفرها بالنحو الاكمل فی المنتخب أم بأی درجة كانت.

ومنها: أن الاساس القانونی او بتعبير آخر شرعية الحاكم فی تولی السلطة لم يتم تشخيصه وتحديده.

فهل الحاكم المختار هو وكيل عن الجماعة فی ادارة شؤونها العامة، وهذا يعنی وجود عقد وكالة بينهم، مع ما يستلزمه هذا من القول بأنه وكالة من نوع خاص اذ لا تسری عليه كل احكام الوكالة.

أو أن سلطة الحاكم المختار هی ولاية علی الأمة وهذه يتصور علی نحوين:

احدهما: ان تنقل الأمة الولاية التی لديها علی نفسها إلی هذا الحاكم.

والاخر: أن يكون له الولاية من قبل اهل الحل والعقد الذين يجعلون الحاكم المنتخب له الولاية، فتكون ولايته طولية كما فی ولاية حاكم المدينة المعيّن من قبل الإمام المعصوم.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۲۱

ففقهاء المذاهب مختلفون فی تحديد شرعية سلطة الحاكم.

وقد ظهر متأخراً طرح ثالث للشوری وهو أن الشوری تكون كاشفة ومبينة عمن له حق الولاية فی علم اللَّه عزوجل، والشوری تكون كاشفاً اثباتياً عن الاجدر والاكثر تأهلًا لنيل منصب الولاية، وان الولاية ثابتة له من اللَّه عزوجل. ويظهر هذا الطرح فی كتابات بعض المتأخرين من اتباع المذاهب غير الإمامية.

النظرية الثانية ...: ص: ۱۲۱

ان الولاية تثبت بالنص لشخص الولی إلا أن فعلية ولايته منوطة بالبيعة والشوری، وعند فقد النص يكون الأمر شوری، وبالتعبير الحديث يقال ان السلطة التنفيذية بيد الأمة غايتها يكونون مقيدين بالمنصوص عليه وفی حالة عدمه يختارون من تنطبق عليه المواصفات والشرائط، أما السلطة التشريعية فهی بيد الأمة. فالولاية للمختار بالاصالة لا بالنيابة عمن اختار المنصوص عليه.

النظرية الثالثة ...: ص: ۱۲۱

فی حالة وجود النص فهو المتبع ولا دور للشوری، وفی حالة عدمه او غيبة المنصوص عليه، فالأمر يعود للأمة لاختيار الحاكم لكن

ذلک مشروط بنظارة أهل الخبرة الشرعية وهم الفقهاء.

وفی عصر الغيبة يكون الأمر للأمة شورى تمارس السلطة التنفيذية والتشريعية غايته يكون ذلک تحت نظارة واشراف الفقيه.

ولهذه النظرية صياغات:

۱- ان دور الفقيه يكون كدور المحكمة الدستورية فی التعبير الحديث، وهو فصل النزاعات والاختلافات الحاصلة بين السلطات. وامضاء التشريعات التی

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۲۲

تصدرها الهيئة التمثيلية للأمة، وهذا هو ما ذكره الميرزا النائينی فی تنبيه الأمة وتنزية الملة.

۲- أن الفقيه يكون له دور المشاهدوالرقيب على سير عمل السلطات الثلاث، فاذا ما انحرفت عن مسارها الصحيح تدخل لتقييم اعوجاجها وهذا ما يذكره الشهيد الصدر فی عهد الغيبة.

۳- ان الفقيه هو المحور فی الحكم غايته قد تعوزه الخبرة العملية فی تحصيل الموضوعات فيستعين بأهل الخبرة فی كافة المجالات التی يحتاجها فی تسيير شؤون الدولة من سياسة واقتصاد وقانون وثقافة ... وهذا نظير ما طرحه السيد الخوئی فی الجهاد من كونه بيد الفقيه غايته يجب ان يستعين بأهل الخبرة من السياسين والعسكريين فی اعلان الجهاد.

وهذا التفسير الاخير يباين النظرية المزبورة وقد يتطابق مع النظرية الخامسة الآتية.

النظرية الرابعة ...: ص: ۱۲۲

النظرية الرابعة:

أن ولاية الأمر هی بيد المنصوص عليه أو مَن ينيبه المنصوص عليه ولا يعود الاختيار للأمة.

غايتها ان كليهما ملزمان فی تسيير أمور الأمة بالشورى، ويكون رأی الشورى ملزما لهما ولا يجوز لهما مخالفته.

وطبقاً للتعبير الحديث السلطة التنفيذية بيد المنصوص عليه أو مَن ينيبه والسلطة التشريعية فی كلا الفرضين بيد الأمة.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۲۳

النظرية الخامسة ...: ص: ۱۲۳

أن ولاية الأمر تكون بالنص ولا مناص منه حيث ان الولاية للّهعزوجل يجعلها لمن يشاء من خلقه، فهی تابعة للمنصوص عليه أو مَن ينيبه، غايته يكون ملزماً فی طريقة تسيير شؤون دولته وأمته بالاستشارة لكنه غير ملزم بنتيجة المشورة فيستطيع مخالفتها.

وتكون فائدة الاستشارة بالنسبة للمعصوم ما سوف نبينه فيما بعد اما بالنسبة لغير المعصوم فهی نوع من الاستعانة الفكرية.

وهذه النظرية هی التی يتبناها فقهاء الإمامية وهی مؤدى نظرية النص، غايته فيها نوع من الاستعانة بالشورى فی ادارة شؤون الأمة.

وهناک طرح اخير يتداول بين علماء الامامية وليكن نظرية سادسة حاصله أن الولاية هی بالنص دائماً، غايته فی عصر الغيبة جعل المعصوم نيابة عامة ضمن من تتوفر فيهم شرائط خاصة. ويعود للأمة تعيين ذلک المصداق فيمن تتوفر فيهم الشرائط.

وشرعية سلطة ذلک الولی المختار من قبل الامة هی بكون الولاية له من المعصوم لا من الامة، غاية الأمر الاستنابة من المعصوم هی لمن تتوفر فيه شرائط أحدها رجوع الأمة اليه المستفاد من: «فارجعوا فيها الى رواة حديثنا» «اجعلوا بينكم ممن قد عرف حلالنا وحرامنا، فإنی قد جعلته قاضيا» «فليرضوا به حكماً فإنی قد جعلته عليكم حاكماً».

وهذا الطرح الاخير يكاد يتطابق مع النظرية الخامسة، مع اناطة دور للامة فی الاختيار والرجوع الى الفقيه.

وقد خالف الإنصاف من نسب النظريات الاخرى الى الامامية بل هى رأى عدةٍ من المتأخرين، لا المتسالم بينهم المنسوب الى الضرورة عندهم، ومن ثم لم يكن

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۲۴

من الانصاف ايضاً التعبير والاقتصار على تلك النظريات مع كونها خلاف ظاهر المشهور بين الإمامية، فإن تصريحاتهم تنادى بالخلاف مع إطباقهم فى كل الطبقات على حصر مشروعية الحكم بكل شعبه وفى كل الأدوار الزمانية بالنص.

وقد بحث الفقهاء جانباً من هذا الموضوع فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واقامة الحدود وكتاب القضاء، وكتاب الجهاد ومسألة التولى عن السلطان الجائر فى المكاسب المحرمة.

ولابد أن نشير إلى أن النظريات الاربعة عندما تسند دور الشورى فى تشريع القوانين فان ذلك يكون فى الموارد التى سكت عنها الشارع ولم يكن له فيها حكم خاص، وبتعبير اخر أن الشورى تكون لسد منطقة الفراغ فى التشريع.

بخلاف النظريتين الخامسة والسادسة حيث لا يكون لمجلس الشورى- مثلًا- اى دور تشريعى بل هو اشبه بالمجلس الاستشارى فتحتاج قوانينه الى امضاء الفقيه.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۲۵

المبحث الثالث: الادلة النقلية التى اقيمت على النظريات المختلفة ... ص: ۱۲۵

اشارة

وتشترك النظريات الأربعة فى اناطة جانب من الحكم- التنفيذى والتشريعى.

- بالأصالة للأمة، ومن هنا سوف نجعل ذلك هو المحور فى البحث، فهل يوجد للأمة مثل هذا الدور أم لا؟

والمستدل بهذه الادلة تارة يستدل على أن الولاية لمجموع الامة وتارة للنخبة وهم أهل الحل والعقد، وقد يستدل بها على أن الولاية ثابتة للامة فى عصر الغيبة فقط دون عصر النص.

أولًا: الادلة المتضمنة للفظ الشورى ...: ص: ۱۲۵

۱ الآيات ...: ص: ۱۲۵

وقد ورد لفظ الشورى فى موضعين من القرآن الكريم:

أ- قوله تعالى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» «۱»

.ب- «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» «۲»

.فالآية الاولى وردت بصيغة الأمر، والآية الثانية وردت فى سياق بيان صفات

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۲۶

المؤمنين وبعض هذه الصفات الزامى وبعضها ندبى.

وصيغة الامر فى الآية الاولى تجلى الخطاب اذ هو أمر فى وجوب المشاورة فى كافة الشؤون حتى بالنسبة للرسول، ويكون الهدف من ذلك تعليم الأمة وتثقيفها على هذا النوع من الاسلوب وهو المشورة.

اما الآية الثانية فورد فيه لفظان الأول: امرهم والمراد به الشأن او الشىء المهم، وعند اضافته الى المسلمين يكون المجموع دالًا على أن الأمر والشىء المهم هو الذى يرتبط بالمجموع، وهل يوجد ما هو أهم من تعيين الولى الذى يقوم بادارة شؤون المجتمع؟!

اما الشورى فتعنى تداول الاراء بين المجموع، وكلمة بينهم تؤكد دخالة المجموع فى ابداء الرأى واستقلالية هذا الرأى عن العناصر الخارجة عنهم.

والآية الكريمة تعدد مجموعة من صفات المؤمنين أكثرها الزامى كاقامة الصلاة والانفاق الواجب والاجتناب عن الكبائر، وهذا الوصف طبيعى من حيث تعلقه بالوظائف العامة والامور التى تعنى المجتمع لا تقبل الندبية، حيث أن بعض الامور ان شرعت وجبت ولا يمكن أن تكون مشروعة وغير واجبة، وبهذا يستدل على الزامية الشورى الواردة فى هذه الآية.

ويلاحظ أن هذه الآية مكية وقد نزلت فى وقت لم يكن للمسلمين دولة وكيان بالمعنى المتعارف.

۲ الاستدلال بسيرة الرسول ... ص: ۱۲۶

الأكرم صلى الله عليه و آله حيث التزم بالشورى فى عدة مواضع:

۱- واقعة بدر: حينما نزل الرسول فى موقع، قال له الحباب بن المنذر بن الجموح: يارسول اللَّه أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا انزلكه اللَّه ليس لنا ان تقدمه ولا تتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال: يارسول اللَّه فان هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى اول

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۲۷

ماء من القوم فتنزله ثم تغور ما وراءه من القُلُب، ثم تبنى عليه حوضاً فتملؤه ماءً ثم تقاتل القوم فتشرب ولا يشربون، فقال له الرسول صلى الله عليه و آله: لقد اشرت بالرأى «۱».

۲- غزوة أحد: حيث تشير كثير من كتب السير على أنه صلى الله عليه و آله كان رأيه البقاء فى المدينة، ورأى عامة المسلمين هو الخروج، وقد اختار ما رآه عامة المسلمين فى الخروج من المدينة، حيث دخل صلى الله عليه و آله بيته وخرج لابساً لامته وصلى بهم الجمعة، ثم خرج فندم الناس وقالوا: يارسول اللَّه استكرهنا ولم يكن لنا ذلك فان شئت فاقعد صلى اللَّه عليك. فقال صلى الله عليه و آله: ما ينبغى لنبى اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل «۲».

۳- غزوة الاحزاب- الخندق ...: ص: ۱۲۷

فقد أخذ برأى سلمان الفارسى فى حفر الخندق. وقصته معروفة مشهورة.

وموقف آخر حينما أراد الرسول صلى الله عليه و آله عقد الصلح مع غطفان، فأرسل الى عيينة بن حصين والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن اصحابه، فلما اراد أن يوقع معهما الشهادة والصلح بعث الى سعد بن مُعاذ وسعد بن عُبادة، فذكر لهما ذلك واستشارهما فقالا:

يارسول اللَّه، أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك به اللَّه لابد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شىء أصنعه لكم، واللَّه ما أصنع ذلك الا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة، وكالبوكم من كل جانب فأردت أن اكسر عنكم من شوكتهم الى امرٍ ما. فقال له سعد بن معاذ: يارسول اللَّه قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك باللَّه وعبادة الاوثان لا نعبد اللَّه ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرىً أو بيعاً. أفحين أكرمنا اللَّه بالاسلام وهدانا له واعزنا بك

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج ۱، ص: ۱۲۸

وبه نعطیهم اموالنا. واللّه مالنا بهـذا من حاجـهٔ، واللّه لا نعطیهم إلا السـیف حتی یحکم اللّه بیننا وبینهم، قال رسول اللّه صـلی الله علیه و آله: فأنت وذلک فتناول سعد بن معاذ الصحیفهٔ فمحا ما فیها من الکتاب ثم قال: یجهزوا علینا «۱».

فهذه المواقف هی نبذ یسیرهٔ من سیرهٔ الرسول صلی الله علیه و آله فی تعامله مع قومه وانه کان ینزل عند رأی من یستشارهم، ولو لم یکن ینزل عند رأیهم لکان الامر بالمشورهٔ لغواً وعبثاً.

وعلیه نعود الی الآیتین الکریمتین فان الامر الواردالاستشارهٔ فیه اما ان نعممه الی رأس الهرم السیاسی وهو الخلیفهٔ والزعیم او لا أقل یستفاد منها الالزام فی الوظائف التی تهم المجتمع کالقوهٔ التنفیذیهٔ والتشریعیهٔ.

۳- الاستدلال بالعدید من الروایات الدالهٔ علی وجوب الشوری، ونحن نقسمها الی أصناف:

الصنف الأول ...: ص: ۱۲۸

روایات الشوری: قول علی علیه السلام فی‌النهج/ قسم الکتب/ ۶: «انه بایعنی القوم الـذین بایعوا أبابکر وعمر وعثمان، علی ما بایعوهم علیه، فلم یکن للشاهـد أن یختـار، ولاـ للغـائب أن یردّ، وانمـا الشوری للمهـاجرین والانصار فإن اجتمعوا علی رجل وسـمّوه إماماً کان ذلک للّه‌رضی، فان خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعهٔ ردوه الی ما خرج منه.

فـإن أبی قـاتلوه علی اتبـاعه غیر سبیـل المؤمنین، وولّـاه اللّه ما تولی، وان طلحـهٔ والزبیر بایعانی ثم نقضا بیعتی وکان نقضـهما کردهما فجاهدتهما علی ذلک حتی جاء الحق وظهر أمر اللّه وهم کارهون فادخل فیما دخل فیه المسلمون» وقد ذکر صدرها ابن

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج ۱، ص: ۱۲۹

مزاحم فی وقعهٔ صفین: «أما بعد فإن بیعتی لزمتک وأنت بالشام لأنه بایعنی..».

- النبوی: «إذا کان امراؤکم خیارکم واغنیاؤکم سمحاءکم وأمورکم شوری بینکم فظهر الأرض خیر لکم من بطنها» «۱»

.- النبوی: «لن یفلح قوم ولّوا أمرهم امرأهٔ» البخاری کتاب المغازی باب کتابه صلی الله علیه و آله الی کسری.

- قوله علیه السـلام عنـدما اریـد البیعـهٔ له: «دعونی والتمسوا غیری.. واعلموا ان اجبتکم رکبت بکم مـا اعلم، ولم اصغ الی قول القـائل وعتب العاتب، وان ترکتمونی فأنا کأحدکم ولعلی اسمعکم واطوعکم لمن ولّیتموه أمرکم وانا لکن زویر خیر لکم من امیر» «۲»

.- تاریخ الیعقوبی ۲: ۹ فی احـداث غزوهٔ مؤتهٔ قال رسول اللّه صـلی الله علیه و آله: أن أمیر الجیوش زید بن حارثهٔ فإن قتل فجعفر بن أبی طالب فإن قتل فعبداللّه بن رواحهٔ فإن قتل (فلیرتضی المسلمون من أحبوا).

- وفی الطبری ۶/ ۳۰۶۶ عن ابن الحنفیهٔ «کنت مع أبی حین قتل عثمان فقام فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله فقالوا: إن هـذا الرجل قـد قتل ولا بد للناس من إمام، ولا نجد الیوم أحدا أحق بهذا الامر منک، لا اقدم سابقهٔ ولا اقرب من رسول اللّه صلی الله علیه و آله فقال: لا تفعلوا فانی اکون وزیراً خیر من أن أکون أمیرا، فقالوا: لا واللّه، ما نحن بفاعلین حتی نبایعک.

قال: ففی المسجد، فان بیعتی لا تکون خفیهٔ ولا تکون الا عن رضی المسلمین».

- وفی الکامل ۳/ ۱۹۳: «أیها الناس عن ملأ وأذن إنّ هـذا امرکم لیس لأحد فیه حق الا من أمّرتم، وقد افترقنا بالأمس علی أمر وکنت کارهاً لأمرکم فأبیتم الا أن اکون علیکم، ألا

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج ۱، ص: ۱۳۰

وانه لیس لی دونکم الا مفاتیح ما لکم ولیس لی أن أخذ درهماً دونکم».

- کشف المحجهٔ لابن طاووس/ ۱۸۰ قوله علیه السـلام: «وقد کان رسول اللّه صـلی الله علیه و آله عهد الیّ عهداً فقال: یاابن أبی‌طالب لک ولاء امتی، فان ولوک فی عافیهٔ واجمعوا علیک بالرضا فقم بأمرهم، وان اختلفوا علیک فدعهم وما هم فیه».

- النبوی فی شرح ابن أبی الحدید ۱۱/ ۱۱: «ان تولوها علیا تجدوه هادیا مهدیا».

- کتاب سلیم بن قیس/ ۱۱۸ عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «ما ولت امهٔ قط أمرها رجلًا وفیهم أعلم منه الا لم یزل امرهم یذهب سفالًا حتی یرجعوا الی ما ترکوا».

- کتاب سلیم بن قیس/ ۱۸۲ عنه علیه السلام، والواجب فی حکم اللّه وحکم الإسلام علی المسلمین بعدما یموت امامهم أو یقتل... أن لا یعملوا عملًا ولا یحدثوا حدثاً ولا یقدموا یدا ولا رجلًا ولا یبدؤوا بشیء بل أن یختاروا لأنفسهم اماما عفیفاً عالما عارفا بالقضاء والسنهٔ یجمع أمرهم».

- مقاتل الطالبیین/ ۳۶ عن الحسن المجتبی علیه السلام فی خطاب لمعاویهٔ «ان علیاً لما مضی لسبیله.. ولّانی المسلمون الأمر بعده، فدع التمادی بالباطل وادخل فیما دخل فیه الناس من بیعتی فإنک تعلم انی أحق بهذا الأمر منک».

- بحار الأنوار ۴۴/ ۶۵ ب ۱۹ کیفیهٔ المصالحهٔ من تاریخ الإمام الحسن علیه السلام:

«صالحه علی أن یسلم له ولایهٔ أمر المسلمین، علی أن یعمل فیهم بکتاب اللّه وسنهٔ رسول اللّه صلی الله علیه و آله وسیرهٔ الخلفاء الصالحین ولیس لمعاویهٔ بن أبی سفیان أن یعهد الی أحد من بعده عهدا، بل یکون الأمر من بعده شوری بین المسلمین».

- إرشاد المفید/ ۱۸۵- الکامل فی التأریخ ابن الأثیر ۴/ ۲۰- کتاب وجهاء الکوفهٔ لسید الشهداء علیه السلام: «أما بعد فالحمد للّهالذی قصم عدوک الجبار العنید الذی انتزی علی هذه الامهٔ فابتزها أمرها وغصبها فیئها وتأمّر علیها بغیر رضی منها»

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۱، ص: ۱۳۱

فأجابهم علیه السلام: «انی باعث الیکم أخی وابن عمی وثقتی من أهل بیتی مسلم بن عقیل فان کتب إلی انه قد اجتمع رأی ملائکم وذوی الحجی والفضل منکم علی مثل ما قدمت به رسلکم وقرأت فی کتبکم فإنی اقدم الیکم وشیکاً».

- الدعائم ۲/ ۵۷۲ کتاب آداب القضاء عن الصادق علیه السلام: «ولایهٔ أهل العدل الذین أمر اللّه بولایتهم، وتولیتهم وقبولها والعمل لهم فرض من اللّه».

- قوله علیه السلام لطلحهٔ والزبیر: «ولو وقع حکم لیس فی کتاب اللّه بیانه ولا فی السنهٔ برهانه لشاورتکما» «۱»

.- سنن أبی داود ج ۲. کتاب الجهاد باب القوم یسافرون یؤمرون أحدهم.

عن النبی صلی الله علیه و آله اذا خرج ثلاثهٔ فی سفر فلیؤمر أحدهم. وفی مسند أحمد بن جنبل ج ۲/ ۱۷۷ لا یحل لثلاثهٔ نفر یکونون بأرض فلاهٔ، إلا أمروا علیهم أحدهم.

- فی کتاب الوثائق السیاسیهٔ ص ۱۲۰ الوثیقهٔ ۳۳ معاهدته مع أهل ومضمون المعاهدهٔ هو أنه لیس علیکم أمیر إلا من انفسکم او عن أهل رسول اللّه والسلام.

- فی خطبهٔ الإمام علی علیه السلام رقم ۷۳.

«ولعمری لأن کانت الإمامهٔ لا تنعقد حتی تحضرها عامهٔ الناس فما الی ذلک بسبیل، ولکن أهلها یحکمون علی مَن غاب عنها ثم لیس للشاهد أن یرجع ولا للغائب أن یختار».

وفی الخطبهٔ ۱۲۷: «والزموا السواد الاعظم فإنّ ید اللّه مع الجماعهٔ وایاکم والفرقهٔ».

- وفی وقعهٔ صفین عندما کان القرّاء یتوسطون بین الامام ومعاویهٔ قال معاویهٔ:

إن کان الأمر کما یزعمون فما له ابتز الأمر دوننا علی غیر مشورهٔ منا ولا ـ ممن هاهنا معنا، فقال علی علیه السلام: «انما الناس تتبع المهاجرین والانصار، وهم شهود المسلمین

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۱، ص: ۱۳۲

علی ولایتهم وأمر دینهم، فرضوا بی وبایعونی، ولستُ استحل أن أدع حزب معاویهٔ یحکم علی الامهٔ ویرکبهم ویشق عصاهم».

فرجعوا الى معاوية فأخبروه بذلك فقال: ليس كما يقول، فما بال مَن هاهنا من المهاجرين والانصار لم يدخلوا فى الأمر فيؤامِروه، فانصرفوا الى على عليه السلام فقالوا له ذلك واخبروه فقال عليه السلام: «ويحكم هذا للبدريين دون الصحابة وليس فى الارض بدرى الا وقد بايعنى وهو معى، أو قد أقام ورضى فلا يغرنّكم معاوية من انفسكم ودينكم» «۱»

.فهذا الجواب للامام يدلل على مدى قيمة رأى النخبة فى المجتمع أو أهل الحل والعقد.

وأمر الإمام معروف عندما أقبل عليه الثائرون من الامصار بعد مقتل عثمان وارادوا مبايعته فقال: انما ذلك لاهل الشورى وأهل بدر.

ولا يتصور أن اجوبة الامام هى فى مقام المحاجة فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام عن ابائه عليهم السلام عن النبى صلى الله عليه و آله: «من جاءكم برأيه يفرّق الجماعة ويغصب الامة امرها ويتولى من غير مشورة فاقتلوه» «۲»

.فهى ليست فى مقام المحاجة بل ذكرها ابتداءً وتأسيساً لقانون وجوب اتباع رأى الامة وهو الشورى وعدم جواز الخروج عن رأيهم.

الصنف الثانى ...: ص: ۱۳۲

روايات الاستشارة: وهى روايات كثيرة متظافرة من جهة المعنى تؤكد على ضرورة المشاورة والاستشارة فى كافة الامور نحو قوله عليه السلام: «لن يهلك امرؤ عن

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۳۳

مشورة»، «خاطر بنفسه من استغنى برأيه»، وذكرت الروايات فضيلة المشاورة والشروط الواجب توفرها فى المستشار من الايمان والعقل وهى مفصلة يمكن ملاحظتها فى وسائل الشيعة كتاب الحج. ابواب احكام العشرة باب ۲۱- ۲۶ وفى بحار الانوار الجزء ۷۲ باب ۴۳- ۴۸.

وتقريب الاستدلال بهذه الطائفة:

أ- ان التأكيد الوارد فى هذه الروايات يدلل على محبوبية الاستشارة ولزوم اتباع نتيجتها، ولو كانت نتيجتها غير واجبة الاتباع لكان الامر بها والحث عليها بهذا النحو لغوا وعبثاً.

ب- انه قد ورد فى بعض الروايات على نحو القضية الشرطية من لم يستشر هلك. فقد يقول قائل ان الوقوع فى الهلكة فى بعض الحالات قد يكون له وجه لكن اذا عممنا الامر بالاستشارة للوظائف العامة التى تهم صالح المجتمع فان الوقوع فى التهلكة لا يكون جائزاً بأى نحو كان. فهى تدلّ على وجوب الاستشارة ولزوم نتيجتها.

ج- بعض الروايات توجب اتباع اراء المستشارين وفى بعضها التحذير «اياك والخلاف، فإن مخالفة الوَرِع العاقل مفسدة فى الدين والدنيا» «۱»

. فهذه تدل على لزوم الاخذ بالاستشارة.

د- ورد فى روايةٍ انه قيل: «يارسول اللّه ما الحزم؟ قال: مشاورة ذوى الرأى واتباعهم» «۲»

.فالاستشارة لها ارتباط بالحزم وهو استجماع العزم والارادة فالارادة فى مثل هذه الامور التى تهم المجتمع والتى يجب أن يؤخذ بها بالحزم يجب أن تكون صادرة

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۳۴

ومنبعثة عن الاستشارة.

ه- ان العقل العملى يحكم بلزوم الاستشارة وذلك لأن عقل الانسان وحده غير محيط بجهات الحسن والقبح فى الافعال فإذا أراد أن يقدم على أمرٍ ما يجب عليه مشاورة الاخرين والاخذ بارآئهم حتى يظهر له وجوه الحسن والقبح، وتزداد أهمية الاستشارة كلما ازدادت أهمية المورد الذى يريد الانسان أخذ قرار فيه، فكيف اذا كان شأناً من شؤون المجتمع العامة والمصالح العامة. والحكم

والعلل المذكورة فى الروايات انما هى ارشاد لهذا الحكم العقلى.

وقد يقال: ان الآيات والروايات الواردة فى الشورى لا تدل على المطلوب وذلك لانها اكتفت بذكر العنوان فقط مع الاغفال عن ذكر تفصيلات الاستشارة وكيف تكون؟ وما هو دور أهل الحل والعقد؟ وماذا يحصل عند الخلاف؟ وهذا مع عظم أهمية الشورى حسب مدعى القائل ودخالتها فى تلك الامور الهامة فلماذا سكت الشارع عن تحديد كل هذه التفصيلات؟

والجواب: انه مما لاشك فيه أن هذه القاعدة تدخل فى تنظيم شؤون المجتمع فهى تتأثر بظروف المجتمع الخاصة، فلو كان الرسول صلى الله عليه و آله قد اتخذ عدداً معيناً للمشورة فهو عدد يتلائم مع تعداد المسلمين فى ذلك الزمان ومع ذلك فانه سوف يتمسك بهذا العدد حتى مع بلوغ عدد أفراد المجتمع الآف الاضعاف، فلذلك لم يشأ الرسول صلى الله عليه و آله أن يجعل هناك ضوابط جزئية لهذه المسألة الهامة حتى يكون لكل مجتمع فى كل زمان ما يرتأيه طبقاً لظروفه الخاصة وحتى يكون الاسلام متلائماً مع التطورات الحاصلة فى كل مجتمع.

هذا تمام ما يمكن الاستدلال به من الطائفة الاولى وهى أهم الطوائف، يبقى كيفية الاستفادة من الشورى فى اتخاذ الاراء والقرارات هل يتبع الكم ام الكيف؟

فمن جهة يقال انه من اجل حفظ النظام واستقامة الامر لا يمكن طرح رأى

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۳۵

الاكثرية فيجب أن يؤخذ به على حساب الاقلية.

والمشكلة تنشأ من أن الأقلية لو كانت متضمنة لرأى نخبة المجتمع من المفكرين والعلماء، فكيف يمكن غمض النظر عن هذا الأمر وترجيح رأى الاكثرية.

فذهب كثير الى محاولة التلفيق بين هذين الرأين:

- فقال البعض إن الامة يجب أن تقوم بانتخاب النخبة وهؤلاء ينتخبون الولى.

- أن توضع حدود لانتخاب واختيار الامة اى لا تكون الامور مطلقة على عنانها بالنسبة للامة بل يجب أن يتقيدوا بقوانين وأحكام اسلامية.

التقييم ...: ص: ۱۳۵

أولا: رأى آخر فى فهم الأدلة ...: ص: ۱۳۵

فى مقام تقييم هذه الادلة من آيات وروايات وقبل أن نبدأ بالاجابة على كل نقطة من النقاط السابقة فانا نذكر ان نفس الآيتين اللتين استدل بهما على الشورى يوجد لهما تفسير آخر وهو مشهور وشائع بين المفسرين والمفكرين وحاصل ذلك:

ان المستفاد من الآيات والروايات هو حث المكلف- الذى هو فى موضع المسؤولية عن الامة وادارة شؤونها بل حتى فى اموره الخاصة- على الاستشارة وتوسعة افق التفكير ومنابعه، وعدم التعنت برأيه والتوحد به بل يلزم الانسان بفحص اراء الآخرين مع تمسكه بأن يكون الرأى النهائى له والا يكون متحركاً تبعاً لارادة المجموع.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۳۶

بيان ذلك:

ذكرنا سابقاً فى الفصل الاول عن وجود قوتين مفكرتين فى النفس البشرية أحدهما النظرية والاخرى العملية فالاولى تقوم بدور البحث

بين المعلومات المتوفرة لأجل تهيئة مقدمات استكشاف المجهول وادراك النتيجة.

والاخرى عملية تقوم بدور الاذعان والتسليم والجزم بتلك النتيجة وتسيير القوى السفلى وممارسة دور الامير والتوجيه لها.

وبتعبير آخر ان الانسان فى منهجية تفكيره يتبع ما هو متداول فى العصر الحديث من سلطات الشورى والتشريع حيث دور البحث والتنقيب، ثم دور القضاء القانونى الذى يقوم بالاذعان والجزم بهذه النتيجة وعدمها ثم دور التنفيذ وتوجيه القوى العمالة.

فالانسان فى تفكيره ينطوى على تلك السلطات التى تدير شؤون المجتمع المدنى. لذلك عبر عن المجتمع بالانسان المجموعى، وكلما دققنا النظر وتأملنا فى سير عملية التفكير فى الانسان الصغير سوف يتضح لنا حلًا لملابسات كثيرة فى الانسان المجموعى.

فالمدعى هو أن الشور والتشاور فعل ومادة وعنوان لفعل القوى الفكرية النظرية، وليس عنواناً لفعل القوى العملية وسلطتها العمالة على القوى النازلة وهى الارادة، ثم ترد مرحلة الجزم والتسليم والاذعان وهى مرحلة قضائية اذ تكون فيصلًا بين التسليم بتلك النتيجة وعدمها وهو فعل مزدوج بين القوة الفكرية والعملية فالقضاء يقوم بتحديد الكبرى وهو عمل فكرى وليس بعملى ثم تطبيق الكبرى على النزاعات والموارد الموجودة والمعروضة امامه.

وعلى كل حال فالمشورة والتساؤل يقابله الفعل الاول من افعال العقل وهو البحث والتنقيب، والفعل الثانى هو ادراك النتيجة فهو أمر غير مسألة البحث وان

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۳۷

اختص بها العقل النظرى أيضاً إلا انه ليس عين الفعل الأول، ويبقى الفعل الثالث وهو الجزم والتسليم والاذعان وهو ما اطلقنا عليه بالقضائية.

إذن فالمشورة والتشاور ماهية لفعل ادراك المعلومات لا ماهية لفعل عملى فكيف يناسب عنوان السلطة والولاية والقدرة التى هى عناوين لأفعال القوى العملية، فهناك جمع للآراء تارة واخرى جمع للارادات فالشورى عنوان للأول لا للثانى، بل ليست هى فى حقيقتها ايضاً جمع للآراء ولى للجمع والاجتماع مدخلية فيها بل هى كما سيأتى فى معناه المقرر فى اللغة تقليب الآراء لاستخراج الصواب سواء كان هو رأى الواحد أو الأقل او الاكثر فصبغة الرأى المنتخب هو لصوابيته لا لكثرته فهى لا تعنى حسم الامر فى اتخاذ قرار فى مسألة ما بل هو مقدمة لفعل آخر يقوم به المستشير.

واذا عدنا الى مفسرى العامة فى القرون الاربعة الاولى لا نلاحظ وجود نظرية معينة حول الشورى أو تفسير كلا الآيتين بمعنى ولاية الشورى، بل على العكس تراهم يذهبون فى تفسيرها الى معنى المشورة اللغوية ويشكك الطبرى انه كيف يؤمر النبىّ باتباع الشورى مع انه صلى الله عليه و آله غنى عن المسلمين بالوحى «۱». ويذكر فوائد الشورى من اقتداء الامة به، وتأليف قلوبهم وينقل ذلك عن قتادة وابن اسحاق والربيع والضحاك والحسن البصرى، والسيوطى فى الدر المنثور يورد روايات كثيرة فى ذيل الآية الكريمة على حسن الاستشارة واستحبابها، وان المشاورة من الامور الموصلة للحق ومنها ما عن الامام على عليه السلام: يارسول اللَّه اذا نزل بنا الأمر من بعدك وليس فيه قران وليس فيه من قولك ومن سنتك فماذا نصنع؟ قال: اجتمعوا وليكن فيكم العابد فترشدون الى أصوب الآراء.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۳۸

فقد يستفاد منها أنه فى مورد منطقة الفراغ يكون التشريع بيد الشورى. إلا ان الامر ليس كذلك بل المشاورة من أجل معالجة الأمر من كافة جوانبه وتبادل الرأى للوصول الى ما هو الصواب فى نفسه لا من جهة نسبته للاكثرية أو شبهها.

والزمخشرى فى ذيل «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» ان الشورى كالفُتيا بمعنى التشاور، وفى ذيل «وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ» يعنى فى أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وهى لتستظهر برأيهم ... ويذكر من فوائده لئلا يثقل على العرب استبداده صلى الله عليه و آله بالرأى دونهم، «فَإِذَا عَزَمْتَ» يعنى قطعت الرأى على شىء بعد الشورى «۱».

فالجزم والرأى النهائى يكون للرسول صلى الله عليه و آله وهو قد يخالف اكثرية الاراء.

وما نلاحظه من استدلال العامة بالآيتين على ولاية الشورى بدأ فى العصور المتأخرة بكتابات الآلوسى ورشيد رضا وابن الخازن.

اذن خلاصة ما يذهب اليه هذا الرأى انه يوجد منحى فى فهم هاتين الآيتين غير ما استدل به اصحاب ولاية الشورى، وأن أوائل المفسرين لم يجعلوا هذه الآية دليلًا على ولاية الشورى.

مضافاً الى أن مبدأ ولاية الشورى يقترب من مبدأ سيادة الامة، وهو المصطلح الحديث فى النظم السياسية المعبر عن حكم الامة، وتدخل الامة فى ادارة شؤونها بنفسها، وهذا المبدأ من المبادئ الحديثة التى ظهرت فى القرنين الاخيرين وما زالت تتدخل فيه يد القانونيين حتى يسدوا الثغرات التى تظهر بين آونة واخرى، فلا نجد مظهراً واحداً معبراً عن هذا المبدأ مع أن اغلب دول العالم تتمسك به وان الديمقراطية هى الاساس الذى تستند عليه الدولة الحديثة إلا ان الثغرات والعيوب

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۳۹

الكثيرة التى ظهرت فى هذه الممارسة للسلطة دعتهم الى أن يعيدوا النظر مرة وثانية وثالثة ليغيروا فى طريقة الانتخاب وأهلية المنتخب وما ذلك إلا لأنهم يرون أن هذه الديمقراطية تؤدى الى مظهر من مظاهر الدكتاتورية الحديثة بسيطرة اصحاب رؤوس الاموال وظهور طبقة معينة تتداول الحكم فيما بينها.

ثانياً: الجواب عن تلك الأدلة ...: ص: ۱۳۹

اشارة

بعد استعراض السير التأريخى لنظرية الشورى والرأى الآخر فى فهم الآيتين الشريفتين وهو الحق فإنا نذكر الجواب عن الأدلة السابقة وهى فى نفسها تكون دليلًا على الفهم الآخر الذى ذكرناه وقويناه.

الوجه الاول ...: ص: ۱۳۹

وهو العمدة حيث أن المعنى اللغوى لمادة الشور والمشاورة معاً هو الموضوع لهذا المصطلح.

- الراغب الاصفهانى فسر الشورى بأنها من التشاور والمشاورة والمشورة وهى استخراج الرأى بمراجعة البعض الى البعض الآخر.

وقولهم: شرت العسل اذا أخذته من موضعه واستخرجته منه «۱».

- وابن منظور فى لسان العرب يذكر ان الاصل اللغوى هو من شار العسل اى استخرجه من الوقية واجتناه. ويقال: شرت الدابة اذا أجريتها لتعرف قوتها.

وحمله البعض على قوله تعالى: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» بمعنى لتعلم الامين والمخلص من غيره واستشاره اى طلب منه المشورة.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۴۰

فالمدار فى الاشتقاقات تشير الى عملية الفحص والبحث الفكرية عن حقيقة الأمر والوصول الى نتيجة صحيحة «۱».

- تاج العروس: فلان شيّرُك وزيرك، يقال: فلان وزير فلان وشيّره اى مشاوره. وجمعه شوراء كما فى شُعراء، وأشرنى عسلًا واشرنى على عسل أعنى على جنيه وأخذه من مواضعه «۲».

وهذه تؤكد أن المشاورة هى أحد اساليب الفحص والبحث قبل اتخاذ الرأى النهائى والعزم الارادى فى المسألة، وهو ما اشرنا اليه وأنه الفعل الأول للفكر.

- وأوضح من كل من مضى ما يذكره ابن فارس ان شور وضعت لأصلين مفردين الأول: ابداء شىء وأظهاره وعرضه. والآخر أخذ

شيء «٣».

وكلا المعنين شاهدان على ما ذكرناه فالاول عملية استكشاف واختبار وفحص، والثانية أخذ الرأى الصائب من تصفح الاراء.

فتكاد كلمات اللغويين تشير الى هذه الحقيقة فى الشورى ولم يرد منها ذكر واشارة الى جهة سلطة أو ارادة أو ولاية أو قدرة تتحلى بها الشورى.

- ومن كتب اللغة المتأخرة نرى ما ذكر فى المعجم الوسيط شار الشيء عرضه ليُبدى ما فيه من محاسن، وأشار اليه بيده، أومأ إليه معبراً عن معنى من المعانى كالدعوة للدخول والخروج. اشتور القوم: شاور بعضهم البعض، والمستشار:

العليم الذى يؤخذ رأيه فى أمر هام علمى أو فنى أو سياسى او قضائى ونحوه، هو اصطلاح محدث (إلا انها ليست مرتجلة بل منقولة عن الاصل اللغوى لمناسبة بين المنقول منه والمنقول اليه بل قد يقال انه نفس المعنى القديم وليس معنى جديداً

الامامة الالهية(٥)، ج ١، ص: ١٤١

منقولًا «١».

وانما اسهبنا فى استعراض كلمات اللغويين لأن عمدة ما يستدل به على عدم وجود ولاية او سلطة فى مادة الشورى هو أصل وضعها اللغوى فاذا ادُعى مثل ذلك فى ظهور اللفظة فيجب أن يكون بمؤنة زائدة على مجرد ورود اللفظ فى الكلام.

وكل ما تفيده الكلمة انها شبيه ما يسمى ب (بنك المعلومات او بنك الخبرات).

ويمكن أن نضيف بعض الشواهد المؤيدة لما ذكره اللغويون:

١- ان البشرية تعتمد على نظام المستشارين فى ادارة اى عمل وقلما يوجد مدير أو مسؤول خال عن المستشارين وفى نفس الوقت لا يكون لهم أية سلطة على المستشير بل وظيفتهم مجرد ابداء الرأى والنصح.

٢- ان الفقهاء من الفريقين يذكرون أن أحد أنواع الاستخارة هى الاستشارة وهذا يدل على أن فهمهم لمادة الشورى هو بمعنى انتقاء الرأى الصائب لا وجود سلطة للمستشار على المستشير.

٣- سوف نشير فيما بعد الى التحليل الماهوى لمادة الشورى حيث نذكر انه لا ملازمة بين ابداء الرأى ووجوب الأخذ به. وانما الملزم هو حقانية الرأى واستصوابه.

۴- أن الآية الشريفة فى مقام بيان صفات خاصة يتحلى بها المؤمنون ومن هذه الصفات عدم استبدادهم بالرأى وعدم نبذهم لاراء الاخرين، فهى تشير الى ما يجب أن يتحلى به المسلم فى شؤونه الخاصة من تحريه للصواب والحكمة وهى ضالته أينما وجدها أخذها، وليس الامر محصوراً بالشؤون العامة التى تهم جميع المسلمين.

الامامة الالهية(٥)، ج ١، ص: ١۴٢

۵- أن القران اعتنى بمسألة الولاية ومن تكون لهم الولاية على الاخرين ولذا فى أى موضع ارادها أشار اليها صراحة «وأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ».. فالولاية من الامور المهمة سواء كانت فردية أو جماعية فلو كان الشارع قد ارادها فى الشورى لصرح بها بمادتها بنحو لا يعتريه شك.

۶- قد ورد فى القران الكريم فى قوله تعالى: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا .....»

فالحديث فى الآية حول خصام الزوج والزوجة حول الطفل، والفقهاء متفقون على أن الولاية للأب وأن الحضانة هى للام ومع ذلك ورد التعبير بالتشاور فمع اختصاص الولاية ندب الى التشاور بين الزوجين فى أمر الرضاع، وهذا لا يعنى كون المشورة ملزمة للولى وهو الأب بل هى معرفة اراء الاخير من أجل اتخاذ الرأى النافع لمصلحة الطفل.

٧- ما ورد فى قصة بلقيس ملكة سبأ عندما جاءتها رسالة النبى سليمان عليه السلام فانها استشارت قومها مع أن الحكم بيدها فاشاروا اليها: «نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ».

فواضح انهم عرفوا موقعهم فى الدولة وان الأمر بيد الملكة ووظيفتهم بيان ما يرونه من الرأى، والتصميم على الحرب او السلم بيد الملكة. وهى لم تأخذ برأيهم فى المواجهة بل اختارت طريق السلم والدبلوماسية.

والغرض ليس الاستدلال بفعل بلقيس بل الاشارة الى أن مسألة الشورى والاستشارة أمر عقلائى منذ القديم، وأسلوب فى الادارة متبع منذ الازمنة الغابرة.

والشارع قد أكد على ذلك الامر المهم وحثّ عليه.

۸- فى سورة الحجرات (۴۹: ۶): «وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ..».

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۴۳

حيث انها واضحة الدلالة فى أن الرسول لو الزم بالاخذ بنتيجة ارائهم دائماً لوقع المسلمون فى العنت والشقة.

والآية واقعة فى سلسلة من الآيات التى ترشد الامة الاسلامية الى كيفية التعامل مع الرسول صلى الله عليه و آله وكيفية الخضوع والمتابعة والتوقير وعدم رفع الصوت فوق صوته صلى الله عليه و آله، ويظهر من الآية أن الرسول كان يدارى قومه فى بعض الشىء لأجل تطييب خاطرهم وتحبيب قلوبهم لاجل تمهيد الطاعة له صلى الله عليه و آله.

۹- ما ورد فى اول سورة الحجرات: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

اى لا ـ تتقدموا على رسول اللّه فى البت فى الامور فضلًا عن تنفيذها فانها ليست من وظيفتهم بل هى وظيفة القيادة فى حسم الامر واتخاذ القرار النهائى. فهم تابعون حتى مع طلب المشورة منهم.

بل إن ملاحظة ما تقدم هذه الآية من قضية اخبار وليد بن عقبة حول بنى المصطلق وتريث الرسول الاكرم فى الاخذ بقوله، وعدم تريث المسلمين بل تصميهم على العمل بقوله، فالآية تنهاهم عن مثل هذا العزم المتقدم على عزم الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله.

۱۰- ان الحكمة من المشاورة بناء على هذا هو ربط القيادة بالقاعدة وتحفيز المواطنين على المشاركة فى الشأن العام.

تلك عشرة كاملة تدعم وتثبت الاصل اللغوى لاصطلاح الشورى وهو مداولة الاراء وتكون جسراً للتفاهم والتحاور وايصال المرادات حتى يصل القائد والمستشير الى نتيجة أقرب الى الصواب ويقل احتمال الخطأ فيها.

وبناء على هذا التحقيق فى المعنى اللغوى نصل الى ان التعبير السائد بولاية الشورى غير صحيح وذلك لأن الولاية تدل على القوة العملية والتنفيذية وجهة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۴۴

الحسم واتخاذ القرار. والشورى تدل على أصل بداية المداولة الفكرية فيوجد تدافع وتنافى بين اللفظين فهذا تعبير ركيك وأعجمى والأعجب صدوره من ادباء عرب يدعون العلم بموازين البلاغة واللغة.

الوجه الثانى ...: ص: ۱۴۴

ما استدل به فى «وأمْرَهُم» من ان الاضافة دالة على أن الشأن المستشار فيه هو ما يهم مجموع المسلمين.

فجوابه بعد بيان مقدمة ان علماء اصول الفقه واصول القانون يتفقون على أن القضية لا تتكفل اثبات موضوعها بمعنى أن القضية تدل على ثبوت المحمول والحكم للموضوع ويكون الموضوع مفروض الوجود والتحقق، اما تحديد الموضوع وتعيين موارده ومصاديقه فهو قضية اخرى لا تتصدى لها نفس القضية.

وبناء عليه فاذا نظرنا الى الآية الكريمة التى تشير الى «وأمْرَهُم» فغاية ما تدل عليه ان الامر والشأن مضاف الى المسلمين ولكى يترتب عليه المحمول كما يدعيه المدعى يجب توفر امران:

احدهما: أن يكون الامر مما يهم جماعة المسلمين.

والثانى: أن يكون صلاحية النظر فى هذا الأمر اليهم أى مضاف اليهم مختص بهم. وهذا شرط مهم حتى يمكن تطبيق الآية والحكم بشورائية الأمر. فيجب ان نحرز أن هذا الأمر المجموعى مفوض وموكل الى الجماعة ومما لا شك فيه ان تعيين الامام وثبوت النص وعدم اقحام الامة فى اختيار قيادتها سيما فى عصر النبى صلى الله عليه و آله والأئمة عليهم السلام أمر مسلم لا يختلف فى الأول أحد من المسلمين ولا فى الثانى أحد من الشيعة، فانه يدل على أن هذا الشأن وهو اتخاذ القائد والزعيم ليس من الامور التى تعود صلاحيتها بيد الشورى وعلى كل حال فنفس الآية ومجرد

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۴۵

تعبير «أَمْرُهُم» لا يثبت المراد.

الوجه الثالث ...: ص: ۱۴۵

ملاحظة ذيل الآية «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ».

فان العزم يغاير الشور وهما ليسا بمعنى واحد، فالأول متأخر عن الثانى زماناً اذ أنه حاصل بعد الاستشارة فى سياق الآية الكريمة، وهو بحسب بياننا لمراحل التفكير يمثل الفعل الثالث فى افعال النفس للانسان الصغير أو الكبير، وهو عنوان للقوة الاجرائية والتنفيذية وهى تسند العزم له وحده صلى الله عليه و آله دون بقية المسلمين.

فاتخاذ القرار بيده.

مضافاً الى أن الشورى جعلت فيها للمجموع أما هنا فانه مسند اليه وحده. فهذه مقابلة بين الفعلين مادة واسناداً.

وثالثاً: ان الأمر بالتوكل هو للنبىّ صلى الله عليه و آله والخطاب له وحده.

ورابعاً: ان مادة التوكل يؤتى بها لأجل استمداد القوة ورباطة الجأش، فهو يدل على انه صلى الله عليه و آله لو خالف رأيهم فعليه ان يعزم عليه ويتوكل على اللَّه.

وخصوصاً اذا ما قارنا هذه الآية مع ما ورد فى سورة الشعراء: «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ».

ففيها ندب للرسول الاكرم ان يربى المسلمين ويجذبهم بلطيف المعاملة وحسن السيرة وخفض الجناح. وليس هذا معناه أن يكون لهم سلطة عليه بل يبقى الامر بيده وعليهم المتابعة والانقياد. فادراة شؤون الامة والحاكمية ليست أمراً فردياً يقوم به شخص واحد ولو كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بل هو واجب مجموعى يتقاسمه الحاكم والمحكوم كل حسب دوره، ولذا حرص الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله على

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۴۶

تربية المؤمنين وحثهم على القيام بهذه المهمة وتكون الشورى وقيامه صلى الله عليه و آله باستشارتهم لاشعارهم أن الأمر يهمهم وان كان عليهم الطاعة المطلقة لقيادته ويكون له الرأى النهائى والعزم طبقاً للرأى الصائب فى نفسه وان كان مخالفاً لهواهم واكثريتهم.

فاذا كانت سيرة المعصوم عليه السلام مع أمته هى سيرة اللين والمداراة والاستشارة فكيف بغير المعصوم الفاقد للعلم اللدنى فهو الزم باتباع طريقته وعدم الاستبداد بالرأى وان كان اختيار الرأى النهائى راجعاً اليه وبيده زمام الامور.

الوجه الرابع ...: ص: ۱۴۶

وهو جواب عما قيل انه لو لم تكن نتيجة الشورى ملزمة لكان الأمر بها مع الآية الكريمة عبثاً. وهذا يقودنا الى البحث عن الحِكَم والمصالح المترتبة على الشورى وهى كثيرة:

منها: تطييب القلوب وتآليفها.

ومنها: اختبار القيادة للقاعدة وتمحيصهم لمعرفة المؤمن الذى يشير من واقع الاحساس بالمسؤولية من غيره الذى يتبع هواه.

ومنهـا: اشـراكهم فى الأمر وأن للأمـة دور فى ادارة دفـة الحكم وأنّ القرار الصادر وإنْ كان بيـد القائـد إلا أنّ لهم دور فى صـنعه مما يجعلهم يتعاملون معه فى تنفيذه ونشره والدفاع عنه بين الناس بشكل أكبر وحماس أكثر حيث يكون عملهم على بصيرة وقناعة.

ومنها: أن الاسـتشارة تكون نوعاً من تربيـة القائـد للامة على كيفية التعامل مع الحوادث المختلفة وأن المحور فى كل الاسـتشارات هو الرأى الصائب والحقانى.

ومنها: أن فى الاستشارة حداً من الاستبداد البشرى والدكتاتورية المطلقة التى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۴۷

تجعل الانسان يسـتبد برأيه مع أنه حقيقة الفقر والاحتياج وان الاسـتبداد المطلق هو من الصفات الإلهية. أما بنى البشر فهم الفقر المطلق والحاجـة المطلقة، ولا يكون معصوماً عن الخطأ إلا من عصـمه اللّه عزوجل، فالنبى والإمام مع أن لهم هذه الخصوصـية إلا انهم أرادوا تعليم وتربية أمتهم على عدم الاستبداد بالرأى وأنّ بالمشاورة يمكن الوصول الى أرجح الاراء ومعالجة المشكل من كافة جوانبه، فيقلّ فيه احتمال الخطأ.

ومنهـا: ان الاسـتشارة تـؤدى الى افشـال مـا يقـوم به المعـارضون والمنـافقون حيث انهـم يسـتغلون الغمـوض الـذى يكون فى القرارات والاحكام للتلبيس على الامة، فالاستشارة تؤدى الى رفع ذلك الغموض بحيث يكون ملابسات الحكم وخلفياته واضحة معروفة.

فهـذه الحِكَم وغيرها التى تظهر بالتأمل يتضـح ان لا لغويـة فى البَين وهى حكم ومصالـح مهمـة فى نفسـها يهتم بها الشارع ومن أجلها يكون تشريع الاستشارة والحث عليها. وسوف يأتى مزيد بيان لهذه النقطة فى البحث العقلى.

فاتضح من خلال هذه الوجوه الاربعة أن المسـتدل اذا استدل بالآية الكريمة على لزوم رأى الاكثرية من اصطلاح (الشورى وشاورهم) فهو غير دال على ما ذكر.

اما اذا اسـتدل على مراده من خلال بيان ان الولايـة هى للمجموع فإنه لم يقم الدليل عليه ونفس الآيتين لا تثبتان موضوع نفسـهما. كما تقـدم بيانه بل يجب أن يقيم دليلًا آخر على أن هـذا الامر والشأن هو لمجموع الأمـة وحينئذ يكون لهم الولاية. والمسـتدل يسـتفيد من هذه المغالطة فى الاستدلال بالآية الكريمة.

الوجه الخامس ...: ص: ۱۴۷

لو أغمضنا العين عن حقيقة معنى الشورى، وسلمنا أنها بمعنى الارادة والولاية

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۴۸

للشورى فإن مقتضـى اسـتعراض الآراء ومداولتها هو تمحيص الصواب من الخطأ والحق من الوهم والسداد من الخطل، وحينئذ فاللازم أن تكون الولاية للصواب والصائب وإن كان مخالفاً لرأى اكثر وهواهم وميولهم الشخصـية فانه كثير ما يصحح الصواب ويتبين السداد ويلتفت الاكثر الى صواب القلـة لكن تمنعهم ذواتهم من الاسـتجابة الى ذلك، فلازم ولاية لاشورى ليس هو نافذية رأى الكثرة وكون المـدار على الاكثرية بل هو نافذية الرأى الصائب والسديد ومحوريته، والا لكان اسـتخدام عنوان ومادة الشورى فى الأدلة خاطئاً وكان الصحيح التعبير بأن الأمة أو المؤمنون املك بأمرهم او أولى به ونحو ذلك مما يعطى محض معنى السلطة والقدرة والصلاحية الذى لا ربط له بالفحص والتنقيب الفكرى.

الوجه السادس ...: ص: ۱۴۸

فقد استشهد بالعديد من الوقائع والحوادث التی تمسک بها الرسول الکريم صلی الله عليه و آله برأی الاکثرية المشاورة ولم يخرج عنها. وفی مقام الجواب نشير من باب المقدمة الی حقيقة تأريخية يجب أن يلتفت اليها عند تحقيق الحال فی الحوادث التأريخية. بيان ذلک:

أن المدقق فی سيرة النبی الأکرم وما جری بعد انتقاله الی الرفيق الاعلی يلاحظ ان الملتفين حول الرسول الاکرم لم يکونوا علی نسقٍ واحد من الجهة الايمانية بل کانوا علی درجات مختلفة وأهواء متعددة، وان کان وجود النبی صلی الله عليه و آله قد منع البعض من اظهار ما يکنّه لکنه بعد وفاته صلی الله عليه و آله رأی متسعاً لاظهار حقيقة أمره واتباعه لاهوائه فظهر خطان مختلفان تمام الاختلاف، وکان من تقدير اللّه عزوجل أن يتولی قيادة الامة طيلة سنوات متمادية بل قرون طويلة الخط المناوئ لعلی عليه السلام وأهل بيت النبی صلی الله عليه و آله.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۴۹

ومن الساعة الاولی عمل هذا الخط الحاکم علی توطيد سلطانه وملکه علی حساب خط آل محمد صلی الله عليه و آله المتمثل بعلی عليه السلام وشيعته والمُعَنْوَن ب خط الامامة، وکان من الرکائز التی استند عليها الخط الحاکم هو أن زعامة الامة ليست نصية بل هی شوروية. ولذا حَشّد الکُتّاب والُمحدّثين والمؤرخين وکل الاجهزة الاخری لبيان هذه النظرية وتجذيرها فی المجتمع الاسلامی، ومن هنا فانا نقول ان التاريخ‌المکتوب ما هو إلاـ صورة لما اراده الحُکّام. وعليه لايمکننا فی مقام التحقيق والتمحيص القبول بکل ما هو مکتوب بل يجب الرجوع الی المصادر الخاصة واستنطاق الآيات الکريمة لمعرفة الحق من الباطل فی تلک الحوادث التاريخية.

ويری أحد الباحثين طرح منهجية جديدة فی دراسة التاريخ، وهی مراجعة القرآن الکريم الذی يعتبر کتاب تاريخ وسيرة لحياة الرسول صلی الله عليه و آله والتأمّل فی الترتيب التاريخی لنزول الآيات الکريمة وملاحظة سياقها يعطينا صورة کاملة للسيرة النبوية، کما يجب مقارنة الروايات المختلفة ودفع ما بينها من تعارض حتی نستنتج رواية تاريخية مقبولة عقلًا ونقلًا. بعد ذلک نقول:

أولا: کان أهم ما استند عليه المستدل هو غزوة أحد وما قام به الرسول الاکرم صلی الله عليه و آله فی الاستشارة والنزول عند رغبة القوم وإنْ کان مخالفاً لما يراه.

وخصوصاً أن آية «وَشَاوِرْهُمْ فِی الأَمْرِ» قد نزلت فی هذه الواقعة. فلذا يجب التفصيل فی بيان هذه الواقعة.

أنّه لمّـا سمع الرسول صلی الله عليه و آله بخروج قريش قال للمسلمين: انی قد رأيت واللّه خيراً. رأيت بقرا ورأيت فی ذباب سيفی ثلماً، ورأيت أنی ادخلت يدی فی درع حصينة، فأولتها المدينة.

ثم انه استشار قومه فی قتال المشرکين وکان رأی عبداللّه بن أبی بن سلول مع رأی النبی صلی الله عليه و آله وهوالبقاء فی المدينة. وقال له: يارسول اللّه، أقم بالمدينة لا تخرج

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۵۰

اليهم فواللّه ما خرجنا منها الی عدوٍ لنا قط إلا اصاب منا ولا دخلها علينا أحد الا أصبنا منه، فدعهم يارسول اللّه فإن أقاموا بشر فحبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فی وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين کما جاءوا. وقال رجال ممن أکرمه اللّه بالشهادة يوم أحد وغيره ممن کان قد فاته يوم بدر: يارسول اللّه اخرج بنا الی اعدائنا لا يرون أنا جَبُنّا وضعفنا.

فلم يزل الناس برسول اللّه صلی الله عليه و آله الذين کان من أمرهم حب لقاء القوم حتی دخل بيته ولبس لامته ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا: استکرهنا رسول اللّه صلی الله عليه و آله ولم يکن لنا ذلک. فلمّا خرج الرسول صلی الله عليه و آله عليهم قالوا: يارسول اللّه استکرهناک ولم يکن ذلک لنا، فإن شئت فاقعد صلی اللّه عليک، فقال الرسول صلی الله عليه و آله: ما ينبغی لنبی إذا لبس لامته أن يضعها حتی يقاتل. فخرج النبی فی ألفٍ من اصحابه حتی اذا مشوا مسافة رجع عنه عبداللّه بن أبی بن سلول بثلث الناس وقال: أطاعهم وعصانی «۱».

هذا هو التقرير الرسمی لما جری فی حادثة الاستشارة فی غزوة أحد. ونشير مصادر اخری کما فی الکامل فی التاريخ ابن کثير فی (۳: ۲۳) وأبی کثير من الناس إلا الخروج الی العدو ولم يتناهوا الی قول رسول اللَّه ورأيه ولو رضوا بالذی أمرهم کان ذلک، ولکن غلب القضاء والقدر وعامة من أشار اليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدراً قد علموا الذی سبق لاصحاب بدر من الفضيلة.

ويدل ما ذکره ابن کثير أنّ کبار الصحابة کانوا يرون رأيه والشباب المتحمس هو الذی أصر علی الخروج.

اذن فالآية وردت فی هذه الغزوة وقد طبقها الرسول صلی الله عليه و آله حيث استشار قومه

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۵۱

ونزل عند رغبتهم بالخروج مع کراهته لذلک.

وهذا هو ما ادعی فی المقام. وفی مقام التحقيق فی هذه الحادثة التاريخية المهمة التی نزلت فيها ايات عديدة فيجب الرجوع إلی عرض هذه الحادثة علی ما ورد من نصوص قرآنية ومقارنتها ليحصل الغرض النهائی وهو الوصول للحقائق الناصعة.

وعدم الاخذ بالأمر علی عواهنه من دون غربلة وتحقيق ومن خلال تشعبنا واستخدامنا لهذا المنهج اعنی العرض علی القرآن الکريم ومقارنة الروايات المختلفة نستنتج:

۱- ان رأی الرسول الاکرم صلی الله عليه و آله لم يکن البقاء فی المدينة بل الخروج منها.

۲- ان الصواب من الناحية الحربية والقتالية هو الخروج لحرب المشرکين خارج المدينة.

۳- ان سبب هزيمة المسلمين فی أحد لم يکن الخروج من المدينة- کما يظهر من بعض الکتّاب- بل هو تخلف المسلمين عن التوصيات العسکرية لرسول اللَّه صلی الله عليه و آله.

۴- أن البقاء فی المدينة کان رأی عبداللَّه بن ابی‌بن سلول وهو رأس المنافقين والذی اثنی ثلث جيش المسلمين عن القتال مع الرسول الاکرم صلی الله عليه و آله. وقد وافقه علی ذلک أکابر الصحابة وهم الذين کانوا علی رأس عقد البيعة لأبی‌بکر وهم اصحاب الصحيفة السبعة، اثنين من الانصار وخمسة من المهاجرين.

۵- ان القرآن امتدح القتال خارج المدينة وذم البقاء داخلها.

۶- أن اللَّه عزوجل قد وعد المسلمين بالنصر المؤزر قبل غزوة أحد اذا هم خرجوا للحرب.

أما القرائن التی يستفاد منها هذه المدعيات:

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۵۲

القرينة الاولی: ما ورد فی تفسير علی بن ابراهيم فی ذيل قوله تعالی: «إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا» «۱»

.حيث يذکر انها نزلت فی عبداللَّه بن أُبی بن سلول واصحابه اتبعوا رأيه فی ترک الخروج والقعود عن نصرة رسول اللَّه صلی الله عليه و آله، عن الصادق عليه السلام قال: وکان سبب غزوة أحد أن قريشاً لما رجعت من بدر الی مکة وقد أصابهم ما اصابهم من القتل والاسر. قال أبوسفيان: يامعشر قريش لا تدعوا النساء تبکی قتلاکم فان البکاء والدمعة اذا خرجت أذهبت الحزن والحرقة والعداوة لمحمد ويشمت بنامحمد واصحابه. فلمّا غزا رسول اللَّه صلی الله عليه و آله يوم أحد أذِن لنسائهم بعد ذلک بالبکاء، ولمّا ارادوا أن يغزوا رسول اللَّه فی أحد ساروا فی حلفائهم من کنانة وغيرها وجمعوا الجموع والسلاح، وخرجوا من مکة فی ۳۰۰۰ فارس وألفی راجل، وأخرجوا معهم النساء يذکرنّهم ويحثّنهم علی حرب الرسول صلی الله عليه و آله، وأخرج أبوسفيان هند بن عتبة وخرجت معهم عمرة بنت علقمة فلمّا بلغ رسول اللَّه صلی الله عليه و آله ذلک جمع أصحابه وأخبرهم أن اللَّه عزوجل قد أخبره أن قريشاً قد تجمعت تريد المدينة، وحث اصحابه علی الجهاد والخروج، فقال عبداللَّه بن ابی‌بن سلول: يارسول اللَّه لا نخرج من المدينة حتی نقاتل فی أزقتها فيقاتل الرجل الضعيف والمرأة والعبد والأمة علی أفواه السکک وعلی السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا ونحن فی حصوننا ودورنا وما خرجنا علی عدوٍ لنا قط إلا کان لهم الظفر علينا. وقال سعد بن معاذ وغيره من الأُوس: يارسول اللَّه ما طمع فينا

أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يطمعون بنا وانت فينا، لا حتى نخرج اليهم فنقاتلهم. فمن قتل منا كان شهيداً ومن نجا كان فی هدی. وقبل رسول اللّٰه قوله.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۵۳

فیلاحظ من هذا النص:

- أن رأی بعض الاکابر کان هو الخروج کما یظهر من سعد بن معاذ وهو من الانصار.

- ان دعوی الانصار کانت مستندة الی دلائل علی أن الخروج افضل منها:

أ- أن بقاءنا یطمع فینا أعدائنا ویضعف شوکة المسلمین من الجهة السیاسیة والعسکریة.

ب- أن ذلک سوف یحرمنا من الاراضی التی حول المدینة حیث سوف یمنعونا من الاستفادة منها مضافاً الی طمع کثیر من القبائل فی هذه الأراضی.

ج- ان عدتنا فی بدر کانت أقل من ذلک وکان النصر حلیفنا، فکیف فی هذه المعرکة التی تضاعف فیها عدد المسلمین وقویت شوکتهم.

هذا مضافاً الی أن بعض کتب السیر قد عبرت عن أصحاب الرأی بالخروج أنهم من ذوی البصائر والرأی وعن اصحاب الرأی فی المکث والبقاء فی المدینة بالمتخاذلین فکیف یکون الصواب هو المکث وکیف یکون ذلک هو رأی الرسول الاکرم صلی الله علیه و آله.

القرینة الثانیة: وهی العمدة فی الباب حیث نستنطق الآیات الواردة فی هذا الباب وهی فی سورة آل عمران (۱۲۱- ۱۶۰).

وهذه الآیات الکریمة تتحدث عن الواقعة بنحو مفصل وسوف نورد أهم النقاط الواردة حسب ترتیبها:

۱- «وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِکَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِینَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ» حیث أن اللّٰه عزوجل یذکّر النبی صلی الله علیه و آله عندما خرج یهیئ أماکن القتال، ومواضع الرماة والفرسان فی غزوة أحد، فهذا مدح لما فعله النبی صلی الله علیه و آله من الخروج للقتال وتحریضه للمؤمنین علی ذلک، وفی ذیلها یشیر الباری عزوجل الی أنه سمیع

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۵۴

لأقوالکم وما ذکره المسلمون فی المدینة من البقاء والخروج علیهم علیم بنیاتهم، ویعلم المخلص من المتخاذل.

۲- «إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنکُمْ أَن تَفْشَلَاوَاللّهُ وَلِیُّهُمَا وَعَلَی اللّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» وقد ورد فی تفسیرها أن المقصود بهذه الطائفة اما عبداللّٰه بن أُبی بن سلول وأصحابه وقومه. أو بنو سلمة من الخزرج وبنو الحارث من الأوس أرادا الرجوع الی المدینة مع ابن سلول إلا أن اللّٰه عزوجل اثنی ذلک عن قلوبهما. وعلی کل حال فالآیة تذم المتخاذل والمتراجع الی المدینة، فکیف یُدّعی أن البقاء فی المدینة هو الصائب.

۳- «وَلَقَدْ نَصَرَکُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ‌ء ۱۲۳ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِینَ أَلَن یَکْفِیَکُمْ أَن یُمِدَّکُمْ رَبُّکُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِکَةِ مُنزَلِینَ.. لَیْسَ لَکَ مِنَ الْأَمْرِ شَیْءٌ أَوْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ أَوْ یُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ»، ففی هذه الآیات تذکیر للرسول بما جری یوم بدر حینما خرج لمحاربة الکفار وکانوا قلة ومع ذلک انتصروا ودحروا الکفار وذلک بالامداد الغیبی وبالملائکة الذین کانوا یقاتلون ویدخلون فی قلوب الکفار الرعب.

فهذه الآیات وان کانت نازلة بعد غزوة أحد إلا أنها تعکس الموقف الذی جری قبل الغزوة وتخاذل بعض المسلمین وتذکیر الرسول لهؤلاء ان الخروج للقتال هو الافضل حیث ان الامداد الإلهی حاصل بلا شک کما حصل فی غزوة بدر، فما کان البعض یصر علیه من ضرورة البقاء فی المدینة لأنه أحفظ للأنفس وأمنع لا داعی له إذ أن المدد الإلهی متیقن واللّٰه یعد رسوله بالنصر فی حال الخروج لمقاتلة الکفار.

ثم تتعرض الآيات (۱۲۹- ۱۳۸) الى مواضيع اجنبية عن البحث ويعود الى محل الكلام فى الآية ۱۳۹.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۵۵

۴- «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ».

وفى هذه الآية بيان لمّا تراجع المسلمون عن مواقعهم العسكرية التى ابانها الرسول صلى الله عليه و آله لهم فسيطر الكفار على ساحة المعركة فحثهم على الصبر وعدم الضعف عن الجهاد اذ مع هذه الخسارة المؤقتة فانتم الاعلون، وان كنتم قد أصبتم فقد اصاب الكفار فى بدر أكثر مما أصبتم الان، ويذكر سنة من سنن اللّه فى الكون وهى أنّ الايام يصرّفها بين الناس فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء.

۵- ثم يبين الحِكَم والمصالح التى تظهر من تلك المداولة والفوز والخسارة فانها امتحان للمسلمين «وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ء ۱۴۱ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» فالحكمة واضحة والابتلاء ظاهر، فليس جميع المسلمين فى مرتبة واحدة من الايمان والاعتقاد فيجب تمحيصهم وابتلاءهم بشتى صنوف الاختبار واذا ما انتصر الظالمون يوماً فهذا مؤقت ولا يدل على حب اللّه لهم، بل هو امتحان وابتلاء للمؤمنين، ودخول الجنة ليس بالايمان اللفظى بل بالعمل والجهاد والصبر.

فما حصل من تضعضع فى صفوف المسلمين يجابهه القرآن ويرفعه ويذكرهم «وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» وقد ورد ان المؤمنين عندما اخبرهم اللّه تعالى بمنزلة شهداء بدر قالوا: اللهم ارنا قتالًا نستشهد فيه. وقد نقلت كتب السير بعض مواقف هؤلاء الثابتين والمشتاقين الى لقاء اللّه.

۵- «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللّهُ الشَّاكِرِينَ».

وهذا هو الامتحان الأهم فبعد أن سيطر الكفار على ساحة المعركة لأسباب سوف تشير اليها الآيات القادمة. ولم يبق مع الرسول الاكرم إلا الخلّص مثل أمير

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۵۶

المؤمنين وأبو دجانة سماك بن خرشة، وأُشيع بأن الرسول قد قتل وهنا انقلب عدد من المسلمين ورجعوا.

وكان من المنقلبين بعض الصحابة كما تشير اليه رواية الطبرى «۱» قال: انتهى انس بن النضر عم انس بن مالك الى عمربن الخطاب وطلحة بن عبيد اللّه فى رجال من المهاجرين والانصار وقد القوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل محمد رسول اللّه، قال: فما تصنعون بالحياة بعده فموتوا على ما مات عليه رسول اللّه صلى الله عليه و آله، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل.

وفشا فى الناس أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد قتل فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولًا الى عبداللّه بن أبى فيأخذ لنا أمنة من أبى سفيان، يا قوم ان محمداًقد قتل فارجعوا الى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم» «۲».

ومنهم عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وسعد بن عثمان وهما رجلان من الانصار فقد فروا حتى بلغوا الجلَعب جبلًا بناحية المدينة، فأقاموا به ثلاثاً «۳» ومن اراد المزيد (الصحيح من سيرة الرسول الاعظم ۲/ ۲۴۰- ۲۵۰).

فالاية الكريمة تصف فرقتان من المسلمين.

احدهما المنقلبة والاخرى الثابتة مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله وقد وصف اللّه عزوجل الاولى انها لا تضر اللّه شيئاً بل الضرر لأنفسهم أما الثانية فمنهم الشاكرون الذين سيجزيهم اللّه.

وفى الآيات التالية يؤكد على ذلك ويكرر البارى تعالى «وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ» ويستمر القرآن فى وصف الفئة التى ثبتت مع النبى صلى الله عليه و آله على قول الحق ولا يصيبهم

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۵۷

الضعف والحزن والوهن ولا يقعدوا عن الجهاد.

۶- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ بَلِ اللّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً».

فهو نهى للمسلمين عن اتباع الكفار الذين استغلوا ما أُشيع عن موت النبى صلى الله عليه و آله فقالوا للمسلمين: ارجعوا الى اخوانكم وارجعوا الى دينهم، فاللّه هو الناصر وهو المؤيد والمعز.

ومع سيطرة المشركين على المعركة إلا أن اللّه قد ألقى فى قلوبهم الذعر والخوف وعادوا الى مكة.

۷- «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم» فهذا يدل على وعد سابق من اللّه لرسوله بالنصر، وبالفعل تحقق هذا النصر فى بداية المعركة وقُتل عدد كبير من المشركين «حَتَّى إِذَا فَشِلْتُم وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ» اى ملتم الى الغنيمة وتركتم مواقعكم وخالفتم أوامر الرسول وكان الرسول الاكرم قد نبههم وأمرهم عند بداية المعركة فقال للرماة: لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تغيثونا يجب عليكم الثبات فى مواقعكم»

لكنهم شغلوا أنفسهم بجمع الغنائم «وَمِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ» وهم الثابتون عبداللّه بن جبير ومَن ثبت معه من الرماة الذين بقوا فى مواقعهم حتى قتلوا. «ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ» تفضلًا «وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

فالآيات واضحة فى بيان سبب الهزيمة ولا مجال حينئذ للاجتهاد بأنّ سبب الهزيمة هو الخروج من المدينة.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۵۸

۸- «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ».

والآية تستمر فى بيان حال المسلمين بعد سماعهم لشايعة موت الرسول صلى الله عليه و آله فاذا هم قد همّوا بالفرار والرسول يناديهم يقول: إلىّ عباد اللّه ارجعوا أنا رسول اللّه الى اين تفرون عن اللّه وعن رسوله، مَن يكر فله الجنة. ثم تبين صفة هؤلاء الذين «يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ»، وهو الاعتقاد بأن اللّه لا قدرة له وأن يد اللّه مغلولة ولابد من الاستعانة باللات والعزى وهبل فهذا هو اعتقاد الجاهلية.

«قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ» وهو مالك كل شىء.

فيتضح أن اللّه قد وبّخ المسلمين فى ثلاثة مواضع:

۱- عصيان الرماة لأوامر الرسول صلى الله عليه و آله وتركهم لمواقعهم.

۲- الفرار عندما أُشيع موت الرسول صلى الله عليه و آله.

۳- ظن البعض باللّه ظن الجاهلية ونسبة العجز إليه جلّ عن ذلك وعلى علواً كبيراً.

۹- ثم يتعرض الحق تعالى لما يقولون «يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَىءٌ مَا قُتِلْنَا هاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ اللّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلُيمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وهذا التصريح بأنهم فى ساعة الهزيمة كرروا قولهم أن لو كنا فى المدينة لكنّا أمنع وأحصن متناسين تقدير اللّه وقضاءه الذى لا راد له حتى لو كان فى أمنع الحصون فهذا ذم لهم على تفكيرهم، وسوف يرد ذم آخر لهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى الارْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِى وَيُمِيتُ

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۵۹

وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

فتبين خطأ هذا التفكير وأن سبب الهزيمة ليس هو الخروج من المدينة بل العصيان، والموت والأجل أمر محتوم وقضاء اللّه.

وبعد هذا التوبيخ تبين الآيات مصير المجاهدين والمستشهدين هو الجنة والقرب الالهى، ثم فى هذا السياق تردآية وشاورهم فى الامر فى سياق بيان صفات النبى التى تحلى بها من حسن الخلق ولين الجانب.

١٠- تعود الآيات للتذكير بين واقعة أحد وواقعة بدر.

«إن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِن بَعْدِهِ وَعَلى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أن يَغُلَّ» حيث نسب البعض الى النبى هذه الخيانة فى المغنم «وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

«أوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا» وذلك فى غزوة بدر حيث انكم قد اصبتم الكفار بعض ما اصابوكم الان «قُلْتُمْ أَنَّى هذَا» اى من أين هذا اصابنا وظننتم باللّه ظن الجاهلية «قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ» اى بسبب فعلكم وعصيانكم «إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

«وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ»...

ثم تبين الآيات صفات المؤمنين من الثبات ورباطة الجأش وعدم الخوف ثم

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۶۰

يذكر صفة اخرى لها صلة بما تقدم «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِمَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ».

فالفئة المؤمنة هى التى رجعت مع الرسول الأكرم، وعندما جاء النداء مرة اخرى بأمر اللّه لرسوله بالخروج فى أثر القوم وأن لا يخرج معه إلا من به جراحة، فنادى منادٍ: يامعشر المهاجرين والانصار مَن كانت به جراحة فليخرج به ومن لم يكن به جراحة فليقم فأقبلوا يضمدون جراحاتهم ويداونها، فخرجوا على ما بهم من الألم والجراح. فلمّا بلغ الرسول صلى الله عليه و آله حمراء الاسد، وقريش قد نزلت الروحاء قال عكرمة بن أبى‌جهل والحارث بن هشام وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد: نرجع ونغير على المدينة قد قتلنا سراتهم وكبشهم يعنى حمزة، فوافاهم رجل خرج من المدينة فسألوه الخبر فقال: نزل محمد وأصحابه فى حمراء الاسد يطلبونكم جد الطلب. فرجعوا الى مكة وسميت بغزوة بدر الصغرى.

وهذا الاستعراض الطويل للآيات الكريمة ١٢١- ١٧۴ خير شاهد على ما جرى ودار فى هذه الغزوةالتى تدل على حنكة الرسول الاكرم فى استخبار نيات القوم ومعرفة المنافقين وما يسعون اليه من تثبيط عزيمة المسلمين، كما اتضح من ذلك أن الخروج كان هو الحل الأمثل وان المنافقين ارادوا الايقاع بالمسلمين من خلال البقاء فى المدينة والتكاسل عن الخروج والجهاد فى سبيل اللّه.

وأخيراً نشير إلى رواية أن الرسول قال بعد نزول الآية: أما أن اللّه ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها اللّه رحمة لأمتى، من استشارهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يُعدم غياً» «١».

ثانياً: غزوة الخندق فقد استدل بها على الشورى والزاميتها فى موطنين، الاول:

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۶۱

فى حفر الخندق حيث نزل الرسول عند رأى سلمان الفارسى، والعجيب اعتبار ذلك من الشورى بالمعنى الذى اصطلحوا عليه حيث أنه رأى فرد واحد وليس اكثرية مضافاً الى أنه دليل على أن الرسول صلى الله عليه و آله يختار دائماً الرأى الصائب وإن قلّ قائله. ومنه يتضح الجواب عن سائر الموارد التى استشهد بها لمتابعة الرسول لرأى الأكثرية.

الثانى: فى مداولاته مع عيينة بن حصين والحارث بن عوف لاستجلابهما ومساومتهما على تمر المدينة ورفض سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ذلك. ونزوله عند رأيهما.

والجواب: أنه بعيد عما يدعونه من ولاية الشورى بل أن الرسول الاكرم انما اراد مساومة بنى غطفان من أجل التخفيف عن أهل

المدينة وازالة الحصار شأنه شأن أی قائد یرید فک الحصار عن قومه، ولکنه عندما رأی عزیمة وثبات الاوس والخزرج لم یجد أی داعی الی مثل هذه المساومة فالموضوع قد تبدل والامر بعید عن ولایة الشوری.

الوجه السابع ...: ص: ۱۶۱

انه توجد حوادث تاریخیة تثبت ان الرسول صلی الله علیه و آله استشار اصحابه ولم یتبع رأی الاکثریة کما فی:

- صلح الحدیبیة

حیث تنقل کتب السیر ان کثیراً من المسلمین کانوا علی خلاف الصلح بینما أصر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی الصلح مع تعنت الکفار ورفضهم ذکر اسم اللَّه تعالی فی بدایة الصلح واصرارهم علی کتابة اسم النبی مع ابیه دون عبارة (رسول اللَّه) ومع ذلک کان یری ان فی الصلح خیر المسلمین، مع ان الصلح لم یکن أمراً سماویاً

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۱۶۲

بمصطلح الوحی حتی تمنع المعارضة، وان کان اصل التوجه للعمرة أمراً إلهیاً اما الصلح وما تضمنه من بنود فإنها من تدبیر النبی الاکرم صلی الله علیه و آله.

- تأمیر زید بن حارثة فی وقعة مؤتة ویدل علیها ما ذکره الرسول الاکرم عند تأمیر اسامة حیث خالفه عدد من المسلمین فقال صلی الله علیه و آله "ما تلوموني فی تأمیر اسامة إلا کما لمتموني فی تأمیر أبیه زید.

ففیه اشارة الی مخالفة عدد منهم لتأمیر زید وابنه اسامة فهذا یُظهر أنه صلی الله علیه و آله لا یری نفسه ملزماً بالشوری.

الوجه الثامن ...: ص: ۱۶۲

ان آیة: «وَأَمْرُهُمْ شُورَی بَیْنَهُمْ» مکیة کما ینص علیه المفسرون ومن المعلوم انه لم تکن للمسلمین فی مکة دولة أو شأناً عاماً بالمعنی الذی یحتاج فیه الی اعتماد الشوری کتنظیم یستند علیه المسلمون، فاستفادة کون الولایة للشوری مع عدم وجود مورد لها فی ذلک الوقت أمر بعید عن الصواب، خصوصاً اذا لاحظناأن الآیة تعدد الصفات الفعلیة للمسلمین فهذا یدل علی أن هذه الصفة فعلیه أیضاً، مضافاً الی أن حاکمیة الرسول صلی الله علیه و آله فی ذلک الوقت بجعل الهی ولیست نابعة من تولیة المسلمین له وهذا أمر لم یختلف فیه أحد فهذه الامور تدلل علی أن المراد من الشوری هو نفس المفاد اللغوی، وهو المداولة الفکریة وأن من صفات المؤمن الاستفادة من خبرات الاخرین وعدم الاستبداد برأیه ولو کان فی مسألة خاصة.

وما یذهب الیه البعض فی الاستدلال بهذه الآیة علی أحد صیاغات نظریة الشوری مجانبة عن الحق.

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۱۶۳

الوجه التاسع ...: ص: ۱۶۳

مضمون ما ذکره الشهید الصدر وحاصله:

ان نظریة الشوری بالمصطلح المزعوم تعبر عن نظامٍ حدیث فی تولی السلطة السیاسیة فی المجتمع وهو سلطة الجماعة، وهو نظام نشأ فی القرنین ۱۹ و ۲۰ المیلادی وکان المجتمع الغربی مهد هذا النظام ومازال حتی الان یتطور بین آونة واخری وتتعدد صیاغاته. ویبقی منه الاطار العام فقط وهو أن الجماعة تحکم نفسها بنفسها أما کیفیة هذا الحکم وکیف یتم تداول السلطة وکیف یتم التشریع؟

واسئلة کثیرة اختلف الجواب فیها.

وقد تصل أشکال النظم التی تطبق هذا المبدأ الی ما یزید علی سبعة اشکال تتمرکز فی دول العالم الجدید أوروبا وامریکا. وما تعدد

هذه الاشكال الا دليل على ما يعثر عليه العقل البشرى من سلبيات وثغرات اثناء التطبيق.

وبناء عليه فانه عند نزول القرآن لم يأنس المجتمع المكى بل لم يعرف مثل هذا النظام على العكس كان النظام السائد هو النظام الفردى حيث نجد أن القبيلة هى المجتمع الخاص، وسلطة رئيس القبيلة هى المطلقة ومن غير المعقول أن يقوم الاسلام بتشريع نظام يخالف فيه تماماً النظام السائد آنذاك ولا يبين فيه سوى آية أو آيتين تثبتان الإطار العام بل تثبت العنوان فقط، اما المعنون والطريقة والكيفية فلا ـ نرى لها اثر لا ـ فى القرآن ولا فى السنة، فيُعلم من ذلك بل يجزم بأن ما ورد فى الآيتين الكريمتين لم يكن طرحاً لنظام جديد، وانما أرادت الآيتين أن ترشد الانسان المؤمن الى طريق جديدة فى التوطئة ومقدمات التصميم والحزم ويقع فى حيز المداولة الفكرية واستجماع المعلومات.

وقد حاول البعض الاجابة من هذا الامر:

ان الدين الاسلامى حينما يصوغ قاعدة فانه يؤطرها بعنوانها العام تاركاً

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۶۴

التفاصيل والجزئيات لكى يتم استنباطها بِما يتوافق مع زمان مسار التطبيق، والسر فى هذه الطريقة ان الاسلام لو جعل التفاصيل الجزئية فان القاعدة سوف تكون موافقة لتلك التفاصيل ولشرائط ذلك الزمان ولا تستطيع مواكبة كل الاعصار.

ولكن هذه الاجابة مدفوعة من جهة أن هذه القاعدة التى ذكرها وان كانت مقبولة فى بعض القواعد إلا ان الشارع لم يكتف فيها أيضاً بذكر العنوان فقط، بل كان يجعل أسساً وضوابط خاصة تمثل الإطار العام للقاعدة التى يريد تطبيقها، أما ان يكتفى بذكر العنوان فقط فهذا مما لا نظير له فى الفقه الاسلامى بل لا نظير له فى القانون الوضعى. لا سيما فى مثل هذه المسألة الخطيرة التى هى دعامة كل المجتمع والأفراد.

وما نحن بازائه فى مسألة الشورى بالمعنى المصطلح المزعوم من هذا القبيل بل ان القول بأن الشارع قد جعل نظرية الشورى يعنى ان الشارع مع حكمته قد جعل المجتمع يتخبط فى عالم من العشوائية لا تتناسب مع بدء نشأته للدولة الاسلامية التى يريد لها البقاء حتى قيام الساعة.

فمن البعيد عن الانصاف القول ان الشارع يترك تابعيه من دون تأهيل ومن دون أن يعبّد لهم طريق آخر للسلطة والقيادة وذلك من خلال نظرية النص لكن لا ـ بالمعنى المألوف من رئاسة المجتمع القبلى الاستبدادى بل من خلال التنصيص على الفرد الاكمل على الاطلاق والاشبه بالنبى صلى الله عليه و آله وهو حكم فردى يقوم على اساس اشراك الناس فى مهمات الامور من دون ان يكون لهم السلطة والولاية بل الرقابة والمتابعة.

الوجه العاشر ...: ص: ۱۶۴

من الادلة التاريخية الثابتة والتى تدلل على عدم دلالة الايتين على ولاية

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۶۵

الشورى هى طريقة اختيار الخليفة الاول والثانى والثالث.

فما جرى فى سقيفة بنى ساعدة واحتجاج ابى بكر بالقرابة من النبى الاكرم، فإن هذه الجهة تعتمد على أُسس قبلية جاهلية أزالها الإسلام وحاربها إلا أنّهم أعادوا استخدامها خصوصاً اذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما كان قد استعد له تكتّل السقيفة من حشد القبائل المحيطة بالمدينة وايجاد جو من الارهاب بحيث لا يمكن أنْ يجابههم احد.

وهكذا طريقة انتخاب الثانى فإنها كانت بتعيين الاول، أما الآن بعد ما وقع ما جرى فترتفع اصوات لتأول فعله بأنه قد استشار الامة وأنها أوكلته فى الاختيار بدليل البيعة التى لا تدل على الشورى المصطلحة بأى نحو كما سوف نشير فيما بعد الى مدى دلالة البيعة فضلًا عن

البيعة التى كانت تؤخذ فرضاً ورهبةً ولا يحق لأحد الاعتراض فأين هى الأكثرية وأين هى سلطة وولاية الشورى.

فمن الجهل ان نعتبر المنحى القبلى البدائى الذى ساد هذه الخلافات هو تنظير لنظام عصرى وهو نظام سلطة الجماعة.

الوجه الحادى عشر ...: ص: ۱۶۵

مع التنزل عن جميع الاشكالات والوجوه السابقة المقتضية لأجنبية دلالة الآيتين عن ولاية الشورى، فإنها سوف تقع فى طرف المعارضة مع ايـات كثيرة تبين أن الولايـة فى الأصل للّهعزوجل ثم للرسول الاكرم صـلى الله عليه و آله ومن بعـده لطائفـة خاصـة من الأمـة وهم أولوا الأمر الذين يقيمون الصـلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون وهى آيات كثيرة تامة الدلالة. فهذا إما أن نعتبره تخصيص (لأمرهم) اى ان الولايـة والقضـاء والتشـريع ليس من شؤون المسـلمين التى تخضع للشورى بالمعنى المزعوم. أو نقول بتقـديم الطائفـة الاخرى على آيتى الشورى.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۶۶

أمـا طوائف الروايـات التى اسـتدل بهـا على نظريـة الشورى وعمـدتها مـا ورد عن امير المؤمنين فى بعض احتجاجاته حيث يسـتند الى الشورى واختيار الأمة. وقبل الدخول فى تفصيل هذه الخطب واجوبتها نذكر ثلاث نقاط مهمة:

۱- أن ما يظهر من كلام الامام مؤيداً به للشورى ومعتبراً أن سـلطة الجماعة هو ما أسـسه الاسـلام فى الفقه السياسى هو من باب التنزل والجـدل مع الخصم والزامه بما التزم به من نظريـة الشورى، حيث إن الامام فى كل هـذه الموارد كان يواجه من يتشبث بالشورى فهو عليه السلام يبين أحقيته حتى على مذهب الشورى.

۲- أن المسـتدل يأخذ بقسم خاص وقليل من كلام الامام عليه السلام بينما نجده يترك القسم الاوفر من كلامه عليه السلام الذى يبين أحقيته بموجب النص القاطع. ففى كثير من خطبه يبدأ عليه السلام ببيان أحقيته ووجود النص على امامته ثم يتعرض بعد ذلك لاثبات أحقيته على فرض التنزل وغض النظر عن النص، فنلاحظ المستدل يقتطع جزءاً من كلامه ويأخذ بالذيل تاركاً الصدر.

فمـع قطع النظر عن هـذا التقطيـع الـذى يؤدى بدلالـة السـياق نلاحـظ انه يجب اعمـال المعارضـة بين كلاـ الطـائفتين الـتى تنسب اليه الاسـتدلال بالشورى والتى يتمسك بها بدلالة النص. لكن المسـتدل حتى هذه المعارضة نجده يغفل عنها مع كثرتها وان الامام ما كان يترك أى فرصة الا ويبين فيها ذلك.

۳- من الثابت تاريخياً والذى لا مجال لإنكاره أن الإمام عليه السـلام امتنع عن البيعة لأبى بكر حتى وفاة الصديقة الزهراء، وانه لم يبايع إلا مكرهاً، وهـذا يـدل على أنه ل يقبل شورى بنى ساعـدة كأساس لانتخاب الخليفـة، فكيف يُسـند إليه القول بظريـة الشورى مع هذه المخالفة الشديدة.

ومن المصادر التى ذكرت عدم بيعة الإمام للأول:

- مسلم فى صحيحه كتاب الجهاد باب: ۱: ۷۲/ ۵: ۱۵۳، الاستيعاب وأسد

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۶۷

الغابـة فى ترجمة أبى بكر- كنز العمال ۳: ۱۴۰، أنساب الأشراف ۱: ۵۸۶. تاريخ ابن عسكر ۳: ۱۷۴ مسند بن حنبل ۱: ۵۵، فتح البارى فى شرح صحيحة البخارى ۵: ۱۴۳. سيرة ابن هشام ۴: ۳۳۸، الإمامة والسياسة ۱: ۱۲، مضافاً الى المصادر الخاصـة التى تطبق على هذا الأمر.

- فى الخطبة (۲): «هم موضع سـره ولجأ أمره وعيبة علمه وموئل حكمه وكهوف كتبه وجبال دينه بهم اقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائص دينه..» ثم يصف آخرين اعـداء آل محمـد.. «رزعوا الفجور وسـقوه الغرور وحصـدوا الثبور لا يقاس بآل محمـد من هذه الامة أحـد، ولاـ يُسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه ابـداً، هم اساس الـدين وعماد اليقين إليهم يفىء الغالى وبهم يلحق التالى ولهم خصائص

حق الولاية وفيهم الوصية والوراثة الآن اذا رجع الحق الى أهله ونقل الى متنقله».

وهذه الخطبة كانت اثناء انصرافه من صفين ففيها تصريح أن الحق كان مغتصباً والان قد عاد الى أهله، فهو تنديد بما كان قد جرى سابقاً مما يسمى بالشورى.

- وفى الشقشقية: «فيالله وللشورى» فاذا كان هذا تعبيره عن الشورى بالمعنى المصطلح المزعوم وتقريعه لها فكيف يكون قد أقر بالشورى. فالشورى فى نظر الامام عليه السلام استصواب الرأى فى الامر المجهول الحال. «ومتى اعترض الريب فىّ مع الاول منهم حتى صرت أُقرن الى هذه النظائر». اما اذا كان الامر بيّن ومعالمه واضحة لا غبار عليها فلا حاجة الى استصواب الرأى وما بعد الحق الا الضلال.

- وفى خطبته عليه السلام: «بنا اهتديتم فى الظلماء وتسنمتم ذروة العلياء، وبنا أفجرتم عن السرار..» (خطبة ۴).

فبأى مناسبة يتعرض عليه السلام لحقه وحقوقه آله المغصوبة.

- خطبة ۸۷: «فأين تذهبون وأنى تؤفكون والاعلام قائمة والايات واضحة والمنار منصوبة فأين يتاه بكم وكيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمّة الحق. وهم أعلام

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۶۸

الدين وألسنة الصدق فأنزلوهم بأحسن منازل القرأن. وردوهم ورود الهيم العطاش..

ألم أعمل فيكم بالثقل الاكبر وأنزل فيكم الثقل الاصغر (اشارة الى حديث الثقلين) قد ركزت فيكم راية الايمان ووقفتكم على حدود الحلال والحرام.

انظروا اهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا اثرهم فلن يخرجوكم عن هدى ولن يعيدوكم فى ردى فإن بعدوا فابعدوا وان نهضوا فانهضوا ولا تسبقوهم فتضلوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه و آله فما أرى أحد يشبهه منكم».

- خطبة ۱۰۰: «ألا ان مثل أل محمد صلى الله عليه و آله كمثل نجوم السماء اذا هوى نجم طلع نجم فكأنكم قد تكاملت من اللّه فيكم الصناع واراكم ما كنتم تأملون».

- خطبة ۷۴ حينما عزموا البيعة لعثمان: «لقد علمتم أنى أحق الناس بها من غيرى ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علىّ خاصة».

- خطبة ۱۰۹: «نحن شجرة النبوة ومحط الرسالة ومختلف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحكمة، ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة».

فهنا يظهر الامام وجود صنفان فى المجتمع الاسلامى وهذان تياران ليسا من جهة الدين فقط، بل تياران سياسياً ودينياً.

- خطبة ۱۵۲: فى بيان صفات اللّه جل جلاله وصفات أئمة الدين:

«قد طلع طالع ولمع لامع وراح رائح واعتدل مائل واستبدل اللّه بقوم قوماً وانتظرنا الغير انتظار المجدب، وأن الائمة قوام اللّه على خلقه وعرفائه على عباده ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه. وهذا معنى: من مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية».

- الخطبة ۱۵۴: فى فضائل أهل البيت عليهم السلام:

«فيهم كرائم القرأن وهم كنوز الرحمن ان نطقوا صدقوا وإن سكتوا لم يسبقوا، فليصدق رائد أهله وليحضر عقله وليكن من ابناء الآخرة فإن منها قِدم واليها ينقلب».

ففيها دلالة على العصمة وهى محصورة بهم.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۶۹

- الخطبة ۱۷۲: «الحمد للّهالذى لا توارى عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً، وقد قال قائل: انك على هذا الأمر يابن أبى طالب لحريص،

فقلت: بل انتم واللّه لأحرص وأبعد وأنا أخص وأقرب، وانما طلبت حقاً لی وانتم تحولون بینی وبینه وتضربون وجهی دونه، فلمّا قرعته بالحجة فی الملأ الحاضرین هبّ کأنه بُهت لا یدری ما یجیبنی. اللهم انی استعدیک علی قریش ومَن اعانهم فانهم قطعوا رحمی وصغروا عظیم منزلتی واجمعوا علی منازعتی علی أمرٍ هو لی ثم قالوا: الا أنّ فی الحقّ أن تأخذه، وفی الحق أن تترکه»..

فهل یوجد اصرح من هذا البیان علی أحقیته ورفضه للشوری وما یسمی بسلطة الجماعة.

خطبة ۱۷۸: «أیها الناس ان الدنیا تغر المؤمّل لها والمخلد لها ولا تَنْفَسُ من نافس فیها، وتغلب من غلب علیها وأیم اللّه ما کان قوم قط فی غضّ نعمة من عیش فزال عنهم الا بذنوب اجترحوها وإنی لاخشی علیکم ان تکون فی فترةٍ (والفترة فی الاصطلاح المدة الفاصلة بین رسول ورسول بعده) وقد کانت أمور مضت مِلتم فیها میلة کنتم فیها عندی غیر محمودین ولان رُدّ علیکم أمرکم انکم سعداء وما علی إلا الجهد ولو أشاء أن اقول لقُلت عفی اللّه عما سلف».

وانظر ایضاً الی کتاب (۶۲) لأهل مصر مع مالک الاشتر وکتاب (۲۸) الی معاویة. وفیه یقول: «فاسلامنا قد سمع وجاهلیتنا لا ترفع وکتاب اللّه یجمع لنا وما شذ عنا وهو قوله تعالی: «وأُولُوا الارْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَی بِبَعْضٍ فِی کِتَابِ اللّهِ»».

وما ورد فی کتاب سلیم بن قیس ص ۱۸۲ فی جواب کتاب معاویة حیث طلب منه قتلة عثمان لیقتلهم قال لمن حمل کتاب معاویة: «ان عثمان بن عفان لا یعدوا أن یکون أحد رجلین اما هو امام هدی حرام الدم. وواجب النصرة لا تحل معصیته ولا یسع الأمة خذلانه أو امام ضلالة حلال الدم لا تحل ولایته ولا نصرته فلا یخلو من احدی خصلتین والواجب فی حکم اللّه وحکم الاسلام علی المسلمین بعدما یموت امامهم أو

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۱۷۰

یقتل ضالًا او مهتدیاً مظلوماً کان او ظالماً، حلال الدم او حرام الدم، ان لا یعملوا عملا ولا یحدثوا حدثاً ولا یقدموا یداً ولا رجلا ولا یبدؤا بشیء قبل ان یختاروا لأنفسهم اماماً عفیفاً عالما ورعاً عارفاً بالقضاء والسنة.. ان کانت الخیرة لهم ویتابعوه ویطیعوه وان کانت الخیرة الی اللّه عزوجل والی رسوله فإن اللّه قد کفاهم النظر فی ذلک والاختیار ورسول اللّه قد رضی لهم إماما وأمرهم بطاعته واتباعه وقد بایعنی الناس بعد قتل عثمان وبایعنی المهاجرون والانصار بعدما تشاوروا بی ثلاثة أیام وهم الذین بایعوا أبابکر وعمر وعثمان وعقد إمامتهم، ولی ذلک أهل بدر والسابقة من المهاجرین والانصار غیر أنهم بایعوهم قبلی علی غیر مشورة من العامة وان بیعتی کانت بمشورة من العامة فان کان اللّه جل اسمه جعل الاختیار الی الامة وهم الذین یختارون وینظرون لأنفسهم واختیارهم لأنفسهم ونظرهم لها خیر لهم من اختیار اللّه ورسوله لهم وکان من اختاروه وبایعوه بیعة وبیعة هدی وکان إماماً واجباً علی الناس طاعته ونصرته فقد تشاوروا فیّ واختارونی باجماع منهم وان کان اللّه عزوجل الذی یختار له الخیرة فقد اختارنی للامة واستخلفنی علیهم وأمرهم بطاعتی ونصرتی فی کتابه المنزل وسنة نبیه صلی الله علیه و آله فذلک أقوی لحجتی وأوجب لحقی».

فهذه تدل علی أن حجاجه بالشوری حجاج تنزیلی وان الشوری یجب أن تکون علی میزانٍ، والمیزان هو الضوابط العقلیة والشرعیة ولیست سلطة الجماعة وأهواء الکثرة وانما تکون وظیفة الامة فی اکتشاف وجود هذه الصفات والضوابط فی المختار فلیست الولایة والسلطة للشوری بل هی استکشاف.

ففی هذه الروایة یبین الامام أن البیعة علی نحوین بیعة هدی وبیعة ضلال، فالبیعة اذا کانت علی الموازین وکان الامام واجداً للشرائط فتکون بیعة هدی أما اذا کانت علی خلاف الضوابط فانما تکون بیعة ضلال. ونلاحظ أن البعض اقتطع من هذه الروایة جزءاً استدل به علی الشوری تارکاً بقیة الروایة التی توضح تمام موقف

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۱۷۱

الامام علیه السلام.

ومما استدل به فی المقام ما ورد فی شرح النهج للمعتزلی ج ۷/ ۴۱ ان طلحة والزبیر قالا للامام علیه السلام: اعطیناک بیعتنا علی ألا

تقضى الامور ولا تقطعها دوننا وان تستشيرنا فى كل أمر ولا تستبد بذلك علينا. فقال عليه السلام: «ولو وقع حكم ليس فى كتاب اللّه بيانه ولا فى السنة برهانه لشاورتكما».

وقد استدل بها أيضاً على أن الشورى مشروعة فى منطقة الفراغ التشريعى حسبما يزعم من وجود ذلك الفراغ-.

وهذا الاستدلال ممنوع- بيان ذلك:

۱- أن لو تقيد الامتناع للامتناع اى امتناع الجواب لامتناع الشرط فالعبارة تقيد أن مشاورتكما قد انتفت لامتناع خلو الواقعة من حكم فى كتاب اللّه والسنة والذى اوقع هذين الشخصين فى هذه الملابسة هو ان الخلفاء السابقين على الامام كانوا يستشيرون بعض الصحابة فى بعض الأحكام وفى كيفية اعمال المرجحات، أما الإمام فلم يقم بهذا العمل، والسر فى ذلك ان الاعتقاد الحق هو انه ما من شىء يقربكم الى اللّه إلا وقد امرتكم به، وما من شىء يبعدكم عند اللّه إلا وقد نهيتكم عنه، فالقاعدة ان لا تخلو واقعة من حكم للّهإلا أن هذا الحكم قد يخفى على العقول القاصرة غير المطلعة، أما من له احاطة بأحكام اللّه وسنة نبيه ومن عايش النبى فى حلّه وترحاله لا يخفى عليه حكم حتى يحتاج فيه الى مشاورة البعض، نعم قد يكون للمشورة مجال فى باب تطبيق الاحكام الكلية على مصاديقها واختيار أفضل الأساليب فى كيفية تطبيق الحكم الموجود إلا ان هذا بعيد عن مرام القائل اذ لا تكون الشورى منشئة للحكم حينئذ.

ومما ذكره عليه السلام فيه تعريض لمن كان قبله حيث كثر جهلهم بالاحكام الشرعية وليست المسألة بالنسبة اليه عليه السلام من باب الاستبداد فى شىء.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۷۲

- ومما استدل به ايضاً ما أشرنا اليه من محاولة توسط بعض القرّاء بين الإمام ومعاوية والكتاب السادس فى نهج البلاغة والجواب عنه مضافاً الى ما مضى وإلى الاجوبة العامة وانه لم يرض بمن بايعه الانصار فى سقيفة بنى ساعدة انه اشترط لتحقق البيعة «فان اجتمعوا وسموه اماماً» فان الشرط المهم هو حصول الاجتماع المطلق ولا أقل عدم الاعتراض وهذا لم يحصل فيمن سبقه، أما معه عليه السلام فقد حصل ذلك الاجتماع ومن سكت فانه لم يعترض كعبداللّه بن عمر وابوموسى وسعد بن أبى وقاص. ففى هذا التعبير تعريض بمن يشترط الاكثرية.

- ومما استدل به قوله عليه السلام: «اذا كان امراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحائكم وأموركم شورى بينكم فظهر الارض خير لكم من بطنها».

الظاهر ان هذا النص مقتطع من جواب الامام عليه السلام المتقدم لكتاب معاوية، وقد قام الشريف الرضى بتقطيع بعض النصوص لمناسبتها لأبواب مختلفة.

مضافاً الى أنه ذكر عنوانين امراؤكم خياركم وأموركم شورى بينكم فمورد الأمراء غير مورد الشورى وهما من واديان يختلف احدهما عن الاخر، وفى هذه العبارة ايضاً يرد البحث الذى ذكرناه فى «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» وان الاضافة لا تعنى أن لهم الولاية والسلطة فى كل شىء بل ما يضاف اليهم فقد يكون فى بعض الصور لا تكون لهم القابلية فى البحث فى هذا الأمر وهو خارج عن اختصاص الامة، كما يرد فيها نفس البحث فى لفظ الشورى وقد ذكرنا انها ندب وارشاد الى صياغة فكرية فى كيفية الاسترشاد فى الامور المختلفة واستصوابها.

- ومما استدل به ما ورد فى عيون أخبار الرضا عن الرضا عليه السلام عن النبى صلى الله عليه و آله: من جاء يريد أن يفرق الجماعة ويغصب الامة أمرها ويتولى من غير مشورة فاقتلوه فان اللّه قد أذن بذلك:

وهذا الحديث لا يدل على مرادهم أيضاً، وذلك لأنه مهما كانت النظرية

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۷۳

المدعاة فيجب على الأمة أن تقاوم امام الضلال الذى يتولى امورها غصباً بقوة السلاح، وفى هذا جواب على أحد نظريات العامة التى

اجازت تولى السلطة بالسيف، فالغاصب مهدور الدم حيث أنه قد غصب أعظم وأخطر الامور فى المجتمع الاسلامى وهو ولاية الامر، وقد عنى عليه السلام (من غير مشورة) الغصب وعدم رضا الناس به، لا أنّ للشورى سلطة وولاية فى هذا الأمر، و لا دلالة فيه على ارادة اعطاء الشورى سلطة وولاية، وذلك لان نفى الشىء لا يعنى إثبات ما عداه، لاسيما إذا كان محتملا لوجوه لكنه ذكرها من باب الحجاج مع القوم، والتعريض بسلطة بنى العباس وغيرهم الذين تولوا الامور بالسيف والقوة والقهر.

– ومما استدل به على الشورى ما ورد عن الصادق عليه السلام: «من فارق جماعة المسلمين قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه» «من فارق جماعة المسلمين ونكث صفقة الامام جاء الى اللّه تعالى اجذم» اصول الكافى ۱/ ۴۰۵.

وما ورد فى النهج خطبة ۱۲۷ «والزموا السواد الاعظم فإن يد اللّه على الجماعة واياكم والفرقة فان الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب».

وهذه الروايات يتضح المقصود منها اذا عرفنا المقصود من الجماعة.

ففى رواية عن ابىعبداللّه عليه السلام: سئل رسول اللّه صلى الله عليه و آله عن جماعة امته؟ فقال:

جماعة امتى أصل الحق وإن قلّوا.

وفى اخرى قيل: يارسول اللّه صلى الله عليه و آله ما جماعة امتك؟ قال: من كان على الحق وإن كانوا عشرة.

وفى رواية عن الامام على عليه السلام: الجماعة أهل الحق وان كانوا قليلًا والفرقة أهل الباطل وان كانوا كثيرا.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۷۴

وعن الرسول صلى الله عليه و آله: ان القليل من المؤمنين كثير «۱». وهذه الروايات واضحة الدلالة فى كون المدار هو على الصواب والسداد للأمر بحسب الواقع وعدم القيمة الموضوعية للكثرة بذاتها.

– ومما استدل به أيضاً الروايات الكثيرة الواردة فى فضائل الاستشارة والحث عليها فى كتاب الوسائل فى كتاب الحج فى أبواب أحكام العشرة باب ۲۱– ۲۶ ويُلاحظ على الاستدلال:

أ– انها واردة بعموم يشمل الامور الفردية الشخصية التى ليس لها بُعد اجتماعى حيث لا توجد سلطة للجماعة على الفرد، فيجب ان يكون معناها الوحدانى العام هو الاراءة نحو: «من لا يستشر ندم» «من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها فى عقولها» «ولا ظهير كالمشاورة» «خاطر بنفسه من استغنى برأيه» فحينئذ الاستشارة هى اصابة الواقع والوصول الى نتيجة صائبة، وليس فيها جهة تحكيم سلطة الجماعة أو إرادة خارج إرادة الفرد، بل هى تمد جهة التفكير الانسانى بالاراء الاخرى فتمكنه من استكشاف اصوب الاراء.

ب– ان الروايات المذكورة تورد صفاتٍ فى المستشار من الورع والعقل و «ان مخالفة الورع العاقل مفسدة فى الدين والدنيا» وانها تارة تكون نافعة وتارة ضارة، واذا كانت بمعنى سلطة الجماعة فأى معنى للضرر والنفع، فالحق أنها نمط من التفكير، وفى بعض الروايات يشترط ان يكون المستشار حراً متديناً.

فلا ارتباط بين هذه الشرائط مع الحقوق العامة وانما تريد الروايات بيان مَن له اهلية الاستضاءة بخبراته وتجاربه، وان يكون رأيه الذى يدلى به خالصاً ومحضاً عن النزعات الاخرى. ولذا ورد «من استشار اخاه فلم ينعمه محض الرأى سلب اللّه

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۷۵

عزوجل رأيه».

– ومما استدل به ايضاً: «اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا احدهم».. ونحوها مما ورد فى مصادر غير الإمامية كسنن أبى داود ۲: ۳۴.

وهذه الروايات لم يقل فقهاؤكم فيها بالوجوب، بل قالوا: انها من باب الندب فينظر الى ارجح القوم عقلًا فيؤمره ويستهدى برأيه، وفى كتاب الوثائق السياسية ص ۱۲۰ فى معاهدته مع أهل مصر «وان ليس عليكم امير إلا من انفسكم او من اهل رسول اللّه صلى الله عليه و

آله».

وواضح منها ان الرسول قد خوّلهم فى ذلك الظرف الزمانى والجغرافى المكانى على أن يكون الأمر بيدهم فى اتخاذ امير عليهم، ومفاده يدلل على أن الامر لا يكون بيدهم ابتداءً بل بتخويل من الرسول.

ويلاحظ فى هذه الطوائف أنها وردت بصيغ الاستشارة الاستفعال والمشورة مفعلة والشورى فعلى وهى كلها بمعنى واحد لاتحاد المادة. وفى نهاية هذه الروايات نذكر روايات صحيحة تؤكد ما ذكرناه من معنى الاستشارة:

۱- صحيحة معمر بن خلّاد قال: هلك مولى لأبى‌الحسن الرضا عليه السلام يقال له سعد، فقال: أشر علىّ برجل له فضل وأمانة، فقلت: انا أشير عليك؟ فقال- شبه المغضب-: ان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يستشير أصحابه ثم يعزم على ما يريد.

۲- صحيحة الفضيل بن يسار قال: استشارنى ابوعبداللَّه عليه السلام فى أمر فقلت:

اصلحك اللَّه مثلى يشير على مثلك؟ قال: نعم اذا استشرتك.

۳- فى موثقة الحسن بن جهم قال: كنا عند ابى‌الحسن الرضا عليه السلام فذكر أباه عليه السلام فقال: ان عقله لا توازن به العقول وربما شاور الاسود من سودانه فقيل له تشاور مثل هذا؟ فقال: إن اللَّه تبارك وتعالى ربما فتح على لسانه. قال: فكانوا ربما أشاروا عليه بالشيء فيعمل به من الضيعة والبستان.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۷۶

۴- وفى النهج ان الامام عليه السلام قال لابن عباس وقد اشار عليه فى شىء لم يوافق رأيه: عليك ان تشير علىّ فإذا خالفتك فاطعنى »(۱).

فالخلاصة التى نخرج بها من هذه الروايات الكثيرة هى أن المراد من الاستشارة والشورى والمشورة، هو المداولة الفكرية للوصول الى نتيجة أكثر دقة واقرب الى الصواب لا ان للمستشار سلطة وولاية على المستشير.

ونختم الكلام حول هذه الطائفة بالحديث حول قوله تعالى:

«فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ» فالآية تتناول قضية مهمة وتعالج وظيفة من الوظائف التى تهم المجتمع وهى وظيفة القضاء، وهى من الوظائف المشتركة بين افراد المجتمع حاكماً ومحكوماً فيجب أن يشترك الجميع فى تطبيقها والعمل بها ولا ينفع الالتزام من طرف واحد.

وببيان آخر نشير إلى ان الوظائف والتكاليف سواء الاجتماعية او العبادية على نحوين: أحدهما ما يقوم به فرد واحد كما فى الصلوات والعبادات المختلفة.

والنحو الثانى: الوظائف المشتركة كما فى صلاة الجمعة حيث لا يكفى وجود الامام العادل لاقامتها بل يجب أن يتواجد افراد المجتمع لاقامتها، ويقع على عاتق كل طرف منهم قسم من اداء هذه الوظيفة المهمة السياسية العبادية، وهكذا الجهاد فهو وظيفة مشتركة بين الافراد والقائد، وهكذا فى كثير من الوظائف التى تهم الاجتماع فلابد من اجتماع واتحاد ارادات فى الأطراف المختلفة لأداء هذه الوظيفة والقيام بالتكليف المراد. والقضاء الوارد فى الآية الكريمة من هذا القبيل فإن الرسول الاكرم هو المنصوب من قبل اللَّه قاضياً وحاكماً فيما شجر بين المسلمين،

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۷۷

لكن التحقق الخارجى لهذه القضية لا يكون إلا اذا التزم المسلمون بذلك وهى وظيفتهم إذ عليهم واجب الرجوع الى الرسول فيما شجر بينهم وعليهم الالتزام بما يحكم به، وهذا لا يعنى أن رجوعهم اليه تنصيب منهم له صلى الله عليه و آله ولا انه الذى اعطاه صلاحية القضاء، بل التنصيب وصلاحية القضاء هى من عند اللَّه عزوجل وهذا مما اتفق عليه كل المسلمين فليس المراد من (يحكموك) هو انشاء منصب الحكومة لك، بل يعنى اقدارك خارجاً تكويناً ومعاونتك على تنفيذ قضاءك وفصلك للخصومات

بينهم.

ونفس المعنى الوارد فى الآيـة الكريمة يذكر فى مسألة الشورى وألسـنة بعض الروايات التى وردت بها صيغة: «ولّانى المسلمون الامر بعده» «فانّ ولّوك فى عافية» «... ان تولوها علياً». فهو لا يعنى انشاء الامة للولاية وتنصيبهم للوالى بل هى فى صدد وجود واجب وتكليف استغراقى على كل أفراد المجتمع بالرجوع لمن نصبه اللّه عليهم والياً وحاكماً، فالانصياع لاحكامه والانقياد لأوامره وظيفة افراد المجتمع، فكل من الطرفين يتحمل عبئاً من المسؤولية وشطراً منها.

ومن هنا يمكننا ان نعود لاية: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» فنضيف اشكالًا مهماً الى الاشكالات السابقة وهو أن الامر المهم المسند الى المجموع يختلف تحديده ونمطه حسب نوعه وماهيته، فاذا كان الأمر يشمل مسألة الولاية والحاكمية فذلك بمفرده لا يدل على سلطة الأمة فى امر الولاية بل يبقى السؤال والاجمال أنه ما هو طبيعة الامر المهم المسند اليهم وما هى وظيفتهم اتجاهه هل بنحو الفاعلية والاصدار والتنصيب أم بنحو القابلية والمتابعة والإعانة كأيدى وسواعد للوالى المنصوب من الشريعة المقدسة، أو ان الاية مهملة من هذه الجهة؟!

والمعهود فى الشرايع السماوية كون دور المجتمع هو القبول والانصياع وقد جاءهم التأنيب على التقصير فى ذلك «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۷۸

اسْتَكْبَرْتُمْ».

فتقاعسهم عن اقامة صرح الهداية واستكبارهم عن متابعة الرسول سبب توجيه هذا الذم والتوبيخ للمجتمع.

وهذا هو طبيعة كل فعل مشترك بحيث يكون صدوره من طرف على نحو الفاعلية ومن طرف آخر على نحو القبول والانصياع. ومن هنا عندما يخاطب بعض الأئمة عليهم السلام الناس بأنكم وليتمونا فهو صحيح من الجهة والحيثية التى ذكرناها وهى انكم عملتم بوظيفتكم التى أوجبها اللّه عليكم وهى الرجوع الينا، والامام على عليه السلام فى رواية سليم بن قيس يذكر كلا الطريقين ان كانت الخيرة للامة وان كانت الخيرة للّه. وأنه الحق فالامة قد عملت بوظيفتها من الايتمام وإعانة وتمكين ولىّ وخليفة اللّه.

فهذان خطان متقابلان أحدهما يسند الامر للأمة على نحو يكون لها الولاية وهو ما رفضناه منذ بداية البحث والاخر أن الامر بيد اللّه يجعله حيث يشاء وعلى الامة تطبيق ذلك خارجاً بنحو القبول والانصياع لأوامر من نصبه اللّه. وتمكينه من نفوذ قدرته التشريعية والتنفيذية والقضائية.

وعلى ضوء ذلك اذا فسرنا (امرهم) بهذا النحو يكون كيفية تقبل هذا الامر وكيفية القيام بهذه الوظيفة المهمة تكون بالتداول والتشاور، والانصياع والمتابعة للقائد المنصوب ويجب أن يكون برضاهم.

وقد ورد عن الصادق عليه السلام: ان الأئمة أهل العدل الذين امر اللّه بولايتهم وتوليتهم وقبولها والعمل لهم فرض من اللّه «۱».

وبهذا يتضح تمام المراد من آيات وروايات الشورى.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۷۹

وقد ذكرت بعض الاشكالات:

۱- انه لو كان المراد من الشورى هو المداولة الفكرية فقط من دون لزوم اتباعهم فان عقد الاستشارة فى الامور المهمة سوف يؤدى أوّلًا الى عدم تفاعل المستشارين فى ابداء الرأى. وثانياً سوف يخلق مشكلة اجتماعية حيث تتعدد الاراء ولن يكون هناك حسم لهذا الامر المهم، بخلاف ما اذا قلنا بولاية الشورى والاكثرية فسوف تكون ضابطة وميزان الاكثرية هى لحسم مثل هذه المشاكل الاجتماعية الهامة.

والجواب عن هذا الاشكال يكون بملاحظة التطور الحاصل فى حضارات المجتمع البشرى منذ بداية تَكوّن أول اجتماع من الاسرة الى

القبيلة الى القرية الى البداوة الى التحضر والتمدن، وقد تعددت وسائل الاتصال بين أفراد الانسان خلال فترات التطور هذه، حتى أصبح مجتمع القرن العشرين والواحد والعشرين الميلادى قد طوى حضارة التكنولوجيا والتصنيع وحضارة الذرة، فانتهى به المطاف حالياً الى حضارة المعلومات من الارتباط والاتصالات، والهدف من جعل الارتباط والاتصال هو محور حضارة هذا العصر هو سرعة انتقال المعلومات والأفكار بين أفراد الإنسان، وهذا يدلل أن أحد ابرز وسائل السيطرة هى الهيمنة على المعلومات واستقصاء البحث. والقرآن الكريم قبل ما يزيد على الالف عام ندب الى هذا الأمر المهم، وأن يكون القائد مهيمناً على افكار الناس جامعاً لمعلوماتهم ومستمعاً لارائهم فهذا منهج مهم فى حد ذاته لا يمكن الاستهانة به.

أما بالنسبة للنقطة الثانية فقد عولجت من جهتين، الاولى: ان أحد ثمار الشورى هو كون الجميع على مستوى من الوعى الثقافى والمعلوماتى بحيث يستطيع المشاركة فيما يهم المجتمع، وهذا أمر يقفز بالمجتمع على طريق الرقى، وبعد استقصاء الاراء المختلفة سوف يتضح لدى المستشير ولدى الاطراف الرأى المتين

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۸۰

من الهزيل.

ومن جهة أخرى تعمل الاستشارة على توحد الارادة فى مجتمع المستشارين فقد عالجته نظرية الولاية بحصر الارادة والعزم بالشخص المنصوب خليفة للّه تعالى «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ» فإرادته هى التى تكون لها السيطرة على جميع الارادات وتخضع لها كل الارادات، وكذلك الحال فى نائبه العام وهو الفقيه، وإن كانت ولايته على نطاق محدود بدائرة التطبيق للأحكام الشرعية فى مجال القوى الثلاث.

۲- وقد يشكل انه اذا كان المراد «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» هو الامر المهم الذى يمس المجموع فهذا يعنى انه من الامور الخطرة، فكيف ينسجم هذا مع كون الاستشارة فى نفسها مستحبة.

والجواب عنه ان الشورى تكون فى كل موردٍ بحسبه فان كانت فى الامور التى طبيعتها خطيرة وطبيعة الغرض الشرعى فيها بالغ الأهمية عند الشرع، فان الشورى والفحص عن الصواب وواقع الحال تكون واجبة، ولا يمكن للقائد غير المعصوم النائب من قبله أن يستبد برأيه، كما لاحظنا فى فتوى الفقهاء فى باب الجهاد فمع ان الافتاء بالجهاد هو بيد الفقيه الا أنه ملزم بالرجوع الى اهل الخبرة العسكرية فى ذلك، وإذا لم يكن الامر المجموعى بهذا الوقع والخطورة فتكون الاستشارة ندبية وتكون فوائدها هو ما ذكرناه سابقاً.

۳- وقد استدل محمد رشيد رضا بذيل آية الشورى على سلطة الجماعة وولاية الشورى وذلك بقوله تعالى: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ» حيث ان متعلق العزم غير مذكور فهو مطلق، لكن لما كانت الآية فى صدد بيان ما يميز رأى الجماعة فيكون المراد منه هو رأى الجماعة اى فاذا عزمت على ما يرون وما يريدون فتوكل على اللّه.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۸۱

وهذا مردود حيث انه من الواضح ان العزم فاعله هو الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله والظهور العرفى «۱» شاهد على ان المراد هو تصميم نفس فاعل العزم اى بعد ان نظرت أنت الى هذه الاقوال المختلفة والاراء المتضادة فاختر منها ما شئت واستصوب منها ما تراه مناسباً واعزم.

ويؤيد ذلك ما ورد فى الامر بالتوكل على اللّه وعدم خشية الآخرين، أى أن مورد العزم قد يكون على خلاف ما عليه اراء الاكثرية فتوكل على اللّه فيما عزمت مهما كان ذلك وان كان على خلاف ما يرونه، وواضح ان الآيات الكريمة وردت فى غزوة احد حيث ظهر فرار بعض المسلمين وتخلف البعض الاخر عن ميدان الحرب، وطمعهم فى الغنائم، وسوء ظنهم باللّه بعد ذلك، وتصديقهم موت رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وهذا كله يدل على أن الرأى هو ما اختاره الرسول الاكرم وما عزم عليه بغض النظر انه وافق الاكثرية ام لا.

مضافاً الى أن الرسول الاكرم هو القسطاس المستقيم «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى» والجادة الواضحة والذى يجب أن يتبعه الاخرون وقد امره اللّه عزوجل «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ» عندما يحيدون عن جادة الصواب، فكيف يتصور بمن يكون بهذه المرتبة وبهذا المقام يلزم بأن يتبع رأى الاكثرية والاغلبية وإن كان على خطأ.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۸۲

الخلاصة ...: ص: ۱۸۲

ان التعبير بلفظ الشورى المشتق من تشاور واشتور، والاشارة والمشورة هى اراءة المصلحة، وشاورته فى كذا راجعته لأرى رأيه، وشرت العسل اشوره جنيته، واشار بيده اشارة أى لوح بشىء يفهم من النطق.

فمادة الشورى تعطى معنى الاستفادة من الخبرات والعقول الاخرى لكى يكون العزم على بصيرة تامة، فهى نظير ما جاء من أن اعقل الناس من جمع عقول الناس الى عقله، واعلم الناس من جمع علوم الناس على علمه، فهى توصية بجمع الخبرات وتنضيج وتسديد الرأى وتصويبه بكشف كل زواياه الواقعية عبر الاذهان المختلفة، وقريب من ذلك ما قاله اللغويين انها استخراج الرأى بالمفاوضة فى الكلام ليظهر الحق.

سواء كان الأمر بيد الفرد الواحد أم لا، كما هوالحال فى سلطة الانسان على أمواله اذا اراد ان يقدم على بيع او عقد معاملى، فان استبداده برأيه يؤدى به الى الجهالة بخلاف ما اذا اعتمد المشورة والاستشارة، ولكن ذلك لا يعنى فى وجه من الوجوه قط سلطة المشير على المستشير، أو سلطة المشير مع المستشير وانما يعنى اعتماد الوالى على منهج العقل الجماعى فى استكشاف الموضوعات والواقعيات العارضة.

وهذا هو مفاد الروايات المستفيضة فى باب الاشارة والمشورة والاستشارة والشورى، أى التوصية باعتماد تجميع الخبرات والعقول، لا جعل السلطة بيد المجموع بل الفيصل والنقض والابرام والترجيح بين وجهاة النظر يكون للولى على الشىء بعد استطلاعه على الاراء المختلفة، كما هو دارج قديما وحديثا فى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۸۳

الزعامات الوضعية البشرية حيث تعتمد على لجان وخبرات- مستشارين- «۱» فى كل حقل ومجال مع عدم افادة ذلك لدى المدرسة العقلية البشرية ولاية لأفراد تلك اللجان يشاركون فيها ذلك الزعيم.

ولذلك عد الفقهاء تلك الروايات المستفيضة أحد أنواع الاستخارة بل افضلها، والاستخارة هى طلب الخير لا تولية ا لمشيرين مع المستشير، فلا يتوهم ان فتح باب الاستشارة والشورى فى الرأى لغو اذا لم يكن بمعنى التشريك فى الولاية وتحكيم سلطة المستشارين، إذ أى فائدة أبلغ واتم من استكشاف الوالى واقع الاشياء وحقائق الامور عبر مجموع الخبرات والعقول، واعتماده منهج جمع العلوم الى علمه، فان ذلك يصيّره نافذ البصيرة، سواء كان ذلك على الصعيد الفردى كولاية الفرد على أمواله أو على الصعيد الاجتماعى كولاية الشخص على المجتمع.

فمجىء مادة المشورة فىقوله تعالى يعطى هذه التوصية للمؤمنين فى التدبير، بأن يكون البت فيه بعد استخراج الرأى الصائب من العقول المختلفة بالمداولة والمفاوضة مع العقول الاخرى، اما مَن يكون له الرأى النهائى فليست الاية فىصدده، لاختلاف ذلك التعبير مع «وَأَمْرُهُمْ شُورَى» حيث ان اليد هى من أقرب الكنايات عن السلطة، وكذلك يختلف مع التعبير فى قوله تعالى: «وأُولُوا الارْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللّهِ»، وغيرها من التعبيرات القرآنية والمتعرضة للولاية فى الاصعدة المختلفة.

ومما يعزز ما تقدم قوله تعالى: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۸۴

جُنَاحَ عَلَيْهِمَا» فانه تعالى ندب الى التشاور بين الزوجين فى رضاعة الطفل مع ان ولاية الرضاعة ذات الاجرة بيد الزوج فقط، وان كانت الحضانه فى غير ذلك من حق الزوجة.

وكذا قوله تعالى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الامْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» ففيه ندبة من اللّه للرسول صلى الله عليه و آله الى مشورة المسلمين فى سياق الرأفة والرحمة بهم واللين معهم والعفو عنهم والاستغفار لهم، لا لتحكيم ولايتهم عليه صلى الله عليه و آله (والعياذ باللّه) إذ ذيل الآية صرّح بان العزم على الفعل مخصوص به صلى الله عليه و آله.

بل ان الامر بالتوكل فه اشعار بنفوذ عزمه وحكمه صلى الله عليه و آله وان خالف آراءهم، ولذلك ذكر أكثر المفسرين وجوهاً فى امره بالمشاورة.

احدها: ان ذلك لتطييب انفسهم والتألف لهم والرفع من قدرهم.

الثانى: ان يقتدى به فى المشاورة، كى لا تعد نقيصة ليتميز الناصح من الغاش، وكتشاوره صلى الله عليه و آله قبل واقعة بدر- الكبرى والصغرى- وغيرها من الوقائع.

الرابع: لتشجيعهم وتحفيزهم على الادوار المختلفة والتسابق الى الخيرات والاعمال الخطيرة المهمة، وتنضيج عقول المسلمين وتنميتها، ولكى يتعرفوا على حمة قرارات الرسول وافعاله صلى الله عليه و آله.

ومن الغفلة الاستدلال بمورد نزول الآية فى غزوة أحد على كون الشورى ملزمة له صلى الله عليه و آله، بدعوى أن رأيه صلى الله عليه و آله كان هو اللبث فى المدينة وعدم الخروج، ورأى بقية أصحابه على الخروج ومع ذلك تابع رأى الأكثرية وخرج الى جبل أحد. وقدمنا مفصلًا خطأ هذا الاعتقاد.

ومما يستأنس لكون معنى الشورى بمعنى المشورة والاستشارة لا تحكيم السلطة الجماعية أن الآية مكية ولم يكن ثمة كيان سياسى للمسلمين، بل ان ظاهر

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۸۵

الآية ترغيب المؤمنين حين نزولها فى الاتصاف بتلك الصفات، فيكف يلتئم مفاد السلطة الجماعية مع ولاية الرسول صلى الله عليه و آله المطلقة، ولذلك ترى أن كثيرا من مفسرى العامة فسروا الاية بمعنى الاستشارة واستخراج الرأى لا تحكيم السلطة الجماعية.

مناقشة الاستدلال على نظرية التلفيق بين النص والشورى ... ص: ۱۸۵

اشارة

قام بعض المفكرين بمحاولة الجمع بين ادلة التعيين والنصب- ككثير من الايات القرآنية الدلة على ان الامامة عهد وجعل الهى، وان المنصوب هو على عليه السلام وذريته- وبين ما يزعم من مفاد آية الشورى ودلالتها على أن السلطة للامة، بأنّ مورد الادلة الاولى هو مع وجود المعصوم عليه السلام وتقلده للزعامة الاجتماعية السياسية، ومورد الثانية هو مع عدم وجوده عليه السلام كما فى زمن الغيبة.

وهذا الرأى مردود لأنه ان جعل المدار لسلطة الامة والشورى عدم تقلد المعصوم الزعامة بالفعل فذلك يعنى شرعية سلطة الامة فى الفترة التى كان فيها على عليه السلام مبعدا عن السلطة، وكذلك فى فترة ما بعد صلح الحسن عليه السلام الى عصر الغيبة، حيث انهم عليهم السلام لم يكونوا متقلدين بالفعل زمام الحكم، وهذا مناقض لمبدأ النص.

وان جعل المدار على وجودهم عليهم السلام وان لم يتقلدوا زمام الامور والحكم بالفعل، فوجودهم لا تخلو منه الارض «اللهم بلى لا تخلو الارض من قائم للّهبحججه اما ظاهر مشهور او خائفاً مغمور لكى لا تبطل حجج اللّه وبيّناته» «۱»

.الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۸۶

ولا فرق بين حضور الامام وغيبته بعد كون عدم تقلده زمام الامور بالفعل غير مؤثر فى كونه اماما بالفعل- بما للامامة من عهد معهود إلهى ذات شؤون عظيمة بالغة- كما فى الحديث النبوى المروى عن الفريقين «الحسن والحسين امامان ان قاما او قعدا» فقعودهما عليهما السلام بسبب جور الامة لا يفقدهما الجعل الالهى والخلافة الالهية على الامة.

وهل من الامكان ابداء الاحتمال انه (عج) فى غيبته يفقد هذا المنصب والجعل الالهى، اذ هذا لا ينسجم مع مبدأ النص والتعيين، ومن هنا كان تمسك الفقهاء فى نيابتهم فى عصر الغيبة الكبرى بنصبه لهم نوابا فى قوله المروى مسنداً فى غيبةالشيخ الطوسى «واما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة حديثنا فانهم حجتى عليكم وانا حجة اللَّه» فقوله عليه السلام «فانهم حجتى عليكم» استنابة منه عليه السلام للفقهاء.

وهل يتعقل ان يكون للَّهحجتان بالاصل فى عرض واحد بالفعل، بان يكون الحجة فى غيبته حجة بالاصل، ومنتخب الامة حجة اخرى بالاصل ولكن بالانتخاب لا بالنيابة عنه، ومن هنا كان دأب فقهاء الإمامية على ضوء مبدأ النص والتعيين ان ولاية الفقيه مستمدة منه عليه السلام وعجل اللَّه فرجه الشريف فى الغيبة لا انها للفقيه بالاصالة مع خلعه عليه السلام عن ذلك المنصب.

هذا ولا يغفل عن ان سبب عدم تقلده (عج) زمام الامور والحكم وعدم الظهور هو المذكور فى قوله عليه السلام «لو كنتم على اجتماع من امركم لعجل لكم الفرج» ولذلك قال السيد المرتضى والخواجة وغيرهما ان سبب غيبته منا.

نعم اذا أمكن ان تخلو الارض من الحجة المعصوم، وان يترك اللَّه البشر وحالهم مع قوانين دينه علىاوراق وتكون يد اللَّه مغلولة- والعياذ باللَّه تعالى- امكن حينئذ ذلك الاحتمال والجمع المزعوم بين الادلة.

ومن الطريف ان الدعوى المزبورة تذعن فى طياتها بشروط المرشح بالانتخاب

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۸۷

من الفقاهة والكفاءة والامانة والعدالة والضبط وسلامة الحواس الى غير ذلك من الشروط التى لا تتوفر بنحو الاطلاق والسعة وبنحو الثبات الذى لا تزلزل فيه الا فى المعصوم عليه السلام، وكأن ذلك أوْبٌ الى النص مرة أخرى، اذ الاشتراط فى جذوره تعيين.

نعم نصبه (عج) للفقهاء كنوّاب بالنيابة العامة قد استفيد من قوله «فارجعوا» الايكال للامة فى اختيار احد مصاديق النائب العامالجامع للشرائطولا يعنى ذلك أن النصب بالاصالة من الامة بالذات، بل منه (عج) بالاصالة ومن الامة بتبع ايكال وتولية المعصوم لها، كما هو الحال فى القضاء والافتاء عند التساوى فى الاوصاف.

ولا يتوهم ان تولية الامة ذلك يلزمه امكان توليتها السلطة على نفسها بالاصالة من اللَّه تعالى فى اختيار خليفة اللَّه فى ارضه، إذ بين المقامين فيصل فاصل وفاروق فارق، حيث انه لابد من العصمة فى قمة الهرم الادارى للمجتمع دون بقية درجات ذلك الهرم، اذ بصلاح القمة يصلح مجموع الهيكل.

كما لا يتوهم انه حيث لابد للناس من امير برّ او فاجر تدار به رحى ادارة النظام الاجتماعى البشرى وهذه اللابدية والضرورة العقلية التى نبه عليها على عليه السلام فى النهج تقتضى تنصيب الامير على الناس بالذات بالاصالة من دون حديث النيابة عن المعصوم.

ووجه اندفاع التوهم: أن الضرورة العقلية تقتضى الزعيم، أما شرائط كونه امير برّ لا فاجر هو كون امارته من تشريع اللَّه تعالى واذنه اذ الولاية للَّهتعالى الحق، والامارة تجرى على يد الفرد البشرى المخول منه تعالى فى ذلك.

ولذلك ترى أن عدة من الفقهاء قدس سرهم استدلوا بتلك الضرورة فى الكشف عن اذنه وتنصيبه للفقهاء باعتبار انهم القدر المتيقن، أو غير ذلك من التقريبات المذكورة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۸۸

فى كلماتهم.

وبذلك ننتهى الى أن الايـة هى فى صدد الاشادة بصفة ممدوحة مهمة فى المؤمنين وهى عدم الاستبداد بالرأى، واعتماد العقل المجموعى فى استخراج الرأى الصائب وفتح الافق، وأما أين هى منطقة السلطة الجماعية وأين هى منطقة السلطة الفردية ومن هو من هم فذلك يتم استكشافه من مبدأ السلطات وهو اللَّه تعالى ومن ثم رسوله صلى الله عليه و آله وخلفائه المعصومين، بالوقوف على حدود نصوص الجعل والتنصيب كما ذكرنا لذلك مثالا فى النائب العام والقاضى والمفتى.

والمهم التركيز علىهذه الجهة فى الايـة ان مادة الشورى هى لاستطلاع الرأى الصائب والمداولة مع بقية العقول، وفرق بين استطلاع رأى الاخرين وبين جمع ارادة الاخرين، فالاول هو موازنة بين الافكار والاراء من المستطلع والمستشير، والثانى سلطة جماعية، فلا يمكن اغفال التباين الماهوى بين الفكر والارادة، وان الشركة فى الاول لا تعنى الشركة فى الثانى بتاتاً.

فالتوصية فى الايـة هى فى اعتماد التلاقح الفكرى فى اعداد الفكرة، أما مرحلة البتّ والعزم والارادة فلا نظر إليها من قريب ولا من بعيد، ومجرد اضافة الامر الى ضمير الجماعة لا يعنى كونها فى المقام الثانى، بعدكون مادة المشورة صريحة فى المقام الاول.

بل غاية ذلك هى أهمية اعتماد المفاوضة فى استصواب الرأى فى الموضوعات التى تخص وتتعلق بمجموعهم، هذا لو جمدنا على استظهار الموضوع المتعلق بالمجموع من لفظة (امرهم)، ولم نستظهر معنى الشأن من الامر- كما استظهره كثير من المفسرين- أى بمعنى شأنهم وعادتهم ودأبهم على عدم الاستبداد بالرأىواعتماد طريقة الاستعانة بالمستشارين.

ونكتة الاضافة الى ضمير الجماعة هى وحدة سوق الافعال فى الايات كما فى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۸۹

«وَأَقِيمُوا الْصَّلَاةَ» «وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الاثْمِ»، وأما لفظة (بينهم) فهى ظرف لغو متعلق بمادة الشورى لكونها مداولة بينالآراء ومفاوضة لا تقل عن كونها بين اثنين، فهى فعل بينىُّ وفيما بينهم.

بعد هذا الاستعراض المطول للطائفة الاولى من ادلة نظرية الشورى بالمعنى المصطلح وهى ما ورد من الآيات والروايات من مادة الشورى والاستشارة توصلنا الى نتيجة ان مفاد الشورى هو بيان منهج عقلائى وهو جمع الخبرات والتجارب والاستضاءة بمعلومات الاخرين. وان لا يكون اقدام على مهام الامور الا بعد المداولة الفكرية وهى بعيدة عن تشريع سلطة للجماعة بل تبقى السلطة لذلك الفرد الذى يقوم بغربلة هذه الاراء واختيار الأصح منها والأوفق مع ما عليه قواعد الدين. وهذا المنهج أصبح الان منهجاً حضارياً متبعاً بعيداً عن الدكتاتورية المطلقة والاستبداد بالرأى الواحد.

ثانياً: عنوان الولاية والأمر بالمعروف ... ص: ۱۸۹

وقد ورد ذلك فى آيتين:

أ- قوله تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَولِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «۱»

.أن الظاهر من الآية الكريمة اسناد الولاية الى الكل فالمولى هو الكل والمولى عليه كذلك فهى ولاية الكل على الكل وهذا يعنى أن أمر الامة بيدهم، وهذه الولاية تعم ولاية النصرة «۲» وولاية الاخوة والمودة. والامر بالمعروف معنى عام شامل

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۹۰

(ويذهب محمد رشيد رضا الى ان الولاية معنى عام يشمل كل معنى يحتمله ولا يختص بأمر دون آخر) ويدخل فى هذا السياق جميع الآيات الواردة فيها معنى الولاية كما فى الانفال ۸/ ۷۳.

ب- «وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۱»

.فهو امر لكل المسلمين بأن تكون منهم جماعة خاصة وقوة معينة تأمر بالمعروف وتدير فيهم دفة الامور حيث ان الامر بالمعروف عام

يشمل كل ما فيه صلاح الأمة الاسلامية، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى درجاته الأولى مثبت لنحو من الولاية من للآمر وللناهى على الطرف الآخر، فكيف فى درجاته القصوى المستلزمة للضرب او المنع الخارجى بالقوة.

وبتقريب آخر أن الأمر بالمعروف له صورتان، أحدهما: صرف الامر والنهى الانشائى والقولى والاخر: ان يراد منه الأمر التنفيذى وتطبيق ذلك المعروف والردع عن المنكر. فإن كان الأمر الأول فلا خصوصية فيه حتى تختص به طائفة معينة بل هو عام شامل لجميع المسلمين. فلابد أن يكون المراد منه هو الصورة الثانية وحينئذ يتعقل تخصيصه بجماعة خاصة تقوم بهذا الامر.

بل ان محمد رشيد رضا «۲» يرى أن هذه الآية فى دلالتها على كون الشورى اصل الحكم فى الاسلام اقوى من دلالة آيتى الشورى.

وفى كل ما ذكر نظر بيان ذلك:

۱- مادة (اولياء) و (ولى) ورد استعمالها فى القران فى موارد كثيرة جداً «۳»

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۹۱

عديدة واختلفت معانيها تبعاً لموارد استخدامها، ويمكن من خلال نظرة عامة الى تلك الموارد القول ان اكثر مواردها التى بصيغة الجمع كان معناها النصرة والمحبة.

والمراد من هذه الآية هو ذلك بقرينة نفس الآيات المحيطة بهذه الآية فإنها قد وردت ضمن آيات يقارن فيها الحق تعالى بين فئتين من الناس هم المنافقون والمؤمنون ومورد هذه المقارنة فى غزوة تبوك «۱» حيث تخلفوا عنه صلى الله عليه و آله واستهزؤوا به فذكر ابتداءً وصف المنافقين بأنّ بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويستمر فى ذكر صفاتهم وبُعدهم عن الحق تعالى والعذاب فى الاخرة. وفى قبال هذه الفئة يقف المؤمنون وهم كالبنيان المرصوص فى توادهم وتناصرهم وتحابهم. ويذكر صفاتهم التى هى على طرف النقيض من المنافقين فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعندما يقال المؤمن ولى المؤمن معناه أنه ينصر اولياء اللَّه وينصر دينه واللَّه وليه بمعنى أولى بتدبيره وتصريفه وفرض طاعته عليه.

وبقية الصفات المذكورة من عباداتهم اقامة الصلاة وايتاء الزكاة واطاعة اللَّه ورسوله. والنتيجة الاخروية وهى رحمة اللَّه تعالى والوعد بالجنة وهذه كلها فى قبال صفات المنافقين.

فالمنافقون يأمرون بالمنكر والمؤمنون يأمرون بالمعروف.

والمنافقون ينهون عن المعروف والمؤمنون ينهون عن المنكر.

والمنافقون يقبضون ايديهم والمؤمنون يؤتون الزكاة.

والمنافقون نسوا اللَّه فنسيهم والمؤمنون يطيعون اللَّه ورسوله وسيرحمهم اللَّه.

والمنافقون وعدهم نار جهنم والمؤمنون وعدهم جنات تجرى من تحتها

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۹۲

الانهار.

فالمنافقون كتلة واحدة لهم نفس الوصف والجزاء والمؤمنون ينصر بعضهم بعضاً ولهم نفس الوصف والجزاء.

فالآية الكريمة غير ناظرة الى الولاية بمعنى الحكم وادارة الشؤون كما هو مورد الاستشهاد بها.

ومما يدل على ما ذكرناه أيضاً أن اقامة الصلاة وايتاء الزكاة واعمال فردية وليست متفرعة عن ولاية البعض على البعض، مضافاً الى أن ذيل الآية ويطيعون اللَّه ورسوله فإذا كانت بصدد بيان سلطة الجماعة على مجموع الأمة فكيف يلتئم مع الحث على طاعة الرسول صلى الله عليه و آله وانصياعهم ومتابعتهم.

۲- اما الاية الثانية فإن غاية ما تدل عليه أن الامة يجب عليها تشكيل مثل هذه الجماعة لتدير دفة الدولة، ولكن هذا لا يفيد أن السلطة من الامة بل السلطة تكون من قبل اللَّه تعالى وأن التولية الفعلية العملية هى بيد الامة وهذه وظيفتهم من حيث أن الحكم وظيفة يقوم

بها الحاكم والمحكوم، فالحاكم تكون سلطته من قبل اللّه تعالى وعلى المحكوم الرجوع وتمكين الحاكم من ذلك.

وبتعبير آخر أن الآية تبين الدور الذى يجب أن تقوم به الامة فى مجال الحكومة وهو تمكين صاحب الصلاحية والسلطة لا ان التشريع والقدرة هو بيد الامة. فالآية لا تتعرض لهذا المقام بل تذكر ما هو تكليف الامة وكيف تتعامل مع مسألة الحكم وتمكين الحاكم.

۳- أن هذا الدور لا يعنى أنّ لها تخويل من تشاء وتسلطه على نفسها، كيف والآية تصف الجماعة الآخذةبزمام الأمور انها داعيةالى الخير كل الخير لمكان اللامالجنسية أو الاستغراقية، آمرة بالمعروف كل المعروف لمكان اللام أيضاً، ناهين عن المنكر كل المنكر لذلك أيضاً عن المنكر الاعتقادى او الاقتصادى او المالى او

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۹۳

الاجتماعى فى كل المجالات والشؤون، ومن الظاهر ان الداعى الى كل سبل الخير والآمر بكل معروف دق او جل وعظم وتوقفه خبر بماهية المنكر، وحائزاً على العصمة العملية كى لا يتوانى عن الأمر بكل معروف والنهى عن كل منكر لا تأخذ فى اللّه لومة لائم، ولا يعدل به هوى عن ذلك. فتنحصر وظيفتهم أى الامة فى التكوين والرجوع الخارجى الى تلك الجماعة غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

۴- ان الآيات الحاصرة للولاية فى فئة خاصة تكون مفسرة وحاكمة فى الدلالة ومبينة للفئة الخاصة التى يجب على الأمة الرجوع اليها وتمكينها خارجاً.

۵- ان فى الآية احتمالًا آخر وهو كونها فى صدد بيان الوجوب الكفائى للآمر بالمعروف غير المشروط بالعلم بالمعروف بل العلم قيد واجب فيه وهو مغاير للوجوب الاستغراقى المشروط بالعلم بالمعروف نظير وجوب الحج الكفائى غير المشروط على كل المسلمين فى كل سنة أن يقيموا هذه الشعيرة لئلا يخلو البيت هو مغاير للوجوب الاستغراقى العينى المشروط بالاستطاعة.

ويمكن تقريبه بأن الشرط العام الذى يذكره الفقهاء فى وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر هو العلم بأحكام الشريعة فالجاهل لاـ يتأتى منه ذلك. فاشتراط العلم هو شرط وجوب وبضميمة أن التعلم لجميع الاحكام أو غالباً غير ما يبتلى به نفس المكلف واجب كفائى فهذا يعنى ان الواجب هو قيام فئة من المجتمع بالتعلم المزبور فيتحقق موضوع الوجوب الآخر المشروط به وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

فالآية الكريمة محتملة أن تكون بصدد الاشارة الى ضرورة حصول ذلك التوجه لدى فئة من المجتمع للقيام بهذه الوظيفة نظير الوجوب الكفائى لإقامة الحجج غير المشروط بالاستطاعة لئلا يخلو بيت اللّه الحرام عن إقامة هذه الشعيرة ولئلا يعطّل.

وبتعبير آخر اننا تارة ننظر الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بمعنى اقامة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۱۹۴

العدل والحدود وحفظ النظام الذى هو وظيفة الدولة وتارة ننظر اليه بنحو شامل وعام لجميع الافراد والآية ناظرة الى الثانى والدليل على ذلك هو ما سبق الآية من قوله تعالى: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ... وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا..» وهذه كلها ناظرة الى تكاليف اجتماعية يقوم بها افراد المجتمع ويتوجب على المجتمع اقامتها والعمل على ايجادها خارجاً، وان الآية ليست فى صدد بيان واجبات الدولة اتجاه المجتمع.

وقد ورد فى تفسير هذه الآية قوله عليه السلام: «انما الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على العالم». فوجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على هذا الاحتمال وجوباً كفائياً وهو واجب على الأمة بنحو الكفاية.

ثالثاً: البيعة ...: ص: ۱۹۴

اشارة

۱- «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَن أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» «۱»

.۲- «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أن لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» «۲».

تقريب الاستدلال ...: ص: ۱۹۴

ينطلق المستدل من المعنى اللغوى للبيعة. فالبيعة الصفقة على ايجاب البيع وبايعته من البيع، والمبايعة عبارة عن المعاقدة والمعاهدة كأن كل واحد منهما باع

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۹۵

ما عنده من صاحبه واعطاه خالصة نفسه «۱».

فالبيع تمليك من جهة البايع للمشترى ونقل الولاية على هذه العين للمشترى ولا يصح البيع إلا ممن له الولاية والصلاحية للتصرف فى المبيع. والبيعة هى انشاء ولاية من المبايع للمبايَع على نفسه، واسناد هذه المبايعة للامة يدل على أن الولاية هى للأمة وهى تنقلها الى الرسول صلى الله عليه و آله او للمعصوم فى نظرية النص.

وقد استدل من الروايات:

- عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: ثلاث موبقات نكث الصفقة وترك السنة وفراق الجماعة «۲».

وقال العلامة المجلسى نكث الصفقة نقض البيعة وانما سميت البيعة صفقة لأن المتبايعين يضع احدهما يده فى يد الاخر عندها. ويؤيد ما مضى السبر التأريخى حيث نرى الالتزام بالبيعة، فبيعة العقبة الاولى والثانية، وبيعة الامام على وابنه الحسن والحسين عليهم السلام. ومبايعة الامام الرضا عليه السلام وما ورد فى مبايعة الامام المهدى (عجل اللَّه تعالى فرجه) «۳».

وتقريب الاستدلال بالروايات:

۱- نفس المعنى اللغوى المتقدم والذى يجعل البيعة نوع تولية وانشاء ولاية فالطاعة وانشاء الولاية للحاكم فى مقابل تقسيم بيت المال والغنائم كما يظهر من مفردات الراغب، وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته الفصل الثالث- فصل ۲۹ ان

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۹۶

البيعة هى العهد على الطاعة كأنما المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر فى أمر نفسه وامور المسلمين وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهداً جعلوا أيديهم فى يده تأكيد للعهد فأشبه فعل البايع والمشترى فسمى بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالايدى.

۲- ما ورد من التعبير انه عهد اللَّه وهذا ينسجم مع قوله تعالى: «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ». ومنه يعلم ان الامامة والحاكمية تنوجد وتتولد من البيعة.

۳- ان السيرة العقلائية الجارية فى فترة ما قبل الاسلام مقتضاها أن البيعة وسيلة لعقد التولية وتأمير الحاكم. وهذه الحقيقة والماهية أمضاها الاسلام.

۴- من تكرر السيرة على أخذ البيعة عند الاستخلاف يدل على ضرورة وجود نوع من المناسبة بين البيعة وبين تسليط وتأمير الآخرين، وهذا يدل على أنه كما ننشئ بالتأمير والولاية بالنص فإنها تنشأ بالبيعة فكأنه يوجد طريقان لحصول التأمير والاستخلاف أحدهما النص والاخر البيعة، فإذا ما وجدا معاً فإن يكون من باب التأكيد والثبوت. كما فى تولية الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله حيث لم يقل أحد أن توليه كان بالبيعة بل بنص اللَّه عزوجل الذى أوجب حاكمية الرسول صلى الله عليه و آله وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، كما أوجب رسالته ونبوته، أما كون البعية له هى المنشئة لتوليه وإمرته فهى بعيدة عن أقوال العامة والخاصة، ومن ادعى ذلك من

المتأخرين فهو غن غفلة عن تلك النصوص ومخالفة لضرورة الذين عند الفريقين.

وفى هذا الاستدلال نأمل من جهات:

١- اننا ننطلق من نفس مدلول البيع. فان المحققين والفقهاء «١» نصوا على ان البيع ليس من الاسباب الاولية لحصول الملكية فهو ليس كالحيازة والابتكار

الامامة الالهية(۵)، ج ١، ص: ١٩٧

والارث. بل هو يكون فرعاً عن ملكية سابقة، ففى الرتبة السابقة يجب ان يكون للبايع (المبايع) صلاحية وسلطان معين على مورد المبايعة ثم ينقله الى آخر.

فنفس دليل البيعة لا يدل على وجود تلك الملكية السابقة والسيادة السابقة للأمة.

اى اذا فرض كون سيادة موجودة فحينئذ تكون المبايعة نقل لتلك السيادة من الامة الى الحاكم «١»، ويؤيد ذلك ان نفس المعانى التى ذكرها اللغويون بعيدة عن انشاءالامرة والحاكمية بل غاية ما تدل عليه هو الالتزام ببذل الطاعة، وفى مسند أحمد بن حنبل قلت لسلمة بن الاكوع: على أى شىء بايعتم رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم الحديبية؟ قال: بايعته على الموت. فلم تكن المبايعة على الترشيح او التولية.

٢- لو لاحظنا ما ذكر فى الآيتين الكريمتين من مورد البيعة، وان المسلمين عندما بايعوا على ماذا بايعوا وان المؤمنات عندما بايعن على ماذا بايعن، هل بايعوا على امور لهم صلاحية تركها والالتزام بها فاختاروا الثانى. ام ان المبايعة كانت على الحاكمية.

اننا نلاحظ انه فى الآيتين وفى غيرها لم يرد ذكر للحاكمية على الاطلاق، بل وردت المبايعة على المناصرة والالتزام بأمور أوجبها الاسلام كعدم الشرك وترك الزنا وعدم العصيان، وهى أمور يجب الالتزام بها ويحرم عليهم تركها فما الذى أفادته البيعة؟ اذن البيعة تعبير ظاهرى وخارجى عن ذلك الالتزام. فهى أولًا: لم يكن موردها الحاكمية فإن حاكمية الرسول هى من اللّه، وثانياً: لم تكن فيه عملية نقل او انشاء ولاية على الاطلاق، وهذا يعنى ان للبيعة معنى آخر ليس هو نفس المعنى المأخوذ فى البيع.

الامامة الالهية(۵)، ج ١، ص: ١٩٨

٣- النقض بالنذر والعهد واليمين فإن مورد هذه الأمور قد يكون المباحات وقد يكون الواجبات أيضاً، فالصلاة الواجبة والثابت وجوبها قبل النذر يجعلها المكلف مورداً للنذر وحينئذ يكون الوجوب آكد ويكون وجوبان، أحدهما: سابق على النذر، والآخر: لاحق عليه. ويفسر الفقهاء ذلك بانه انشاء عهد للّهعزوجل ومورد البيعة قد لا يكون امراً اختياره بيد المكلف بل يكون من الواجبات ويكون النذر بها تعهداً زائداً. والبيعة كذلك فالمبايع يُنشأ التعهد بالتزام حاكمية ذلك المبايَع مع أن اصل الحاكمية ثابت فىرتبة سابقة وليس سبب الحاكمية هو المبايعة بل قد تكون فى بعض صورها أداء لامر واجب عليهم كما فى مبايعة الرسول صلى الله عليه و آله والامام عليه السلام.

فالبيعة تكون نوع توثيق وزيادة تعهد وتغليظ التكليف والثبات على مَن نُص على ولايته. وغاية ما يفرق بينها وبين النذر واخويه، أن الاخير فى الامور العبادية، والاول فى الامور الاجتماعية والسياسية. ويشير لذلك عدة من الروايات منها موثقة مسعدة بن صدقة عن جعفر عن أبيه عليهما السلام: انه قال له: ان الايمان قد يجوز بالقلب دون اللسان؟ فقال له: ان كان ذلك كما تقول فقد حرم علينا قتال المشركين، وذلك أنا لا ندرى بزعمك لعل ضميره الايمان فهذا القول نقض لامتحان النبى صلى الله عليه و آله من كان يجيئه يريد الإسلام، واخذه إياه بالبيعة عليه وشروطه وشدة التأكيد، قال مسعدة: ومن قال بهذا فقد كفر البتة من حيث لا يعلم. (البحار ج ۶۸/ ۲۴۱ نقلا عن قرب الاسناد للحميرى) ومفاده: ان الايمان لو كان فى القلب دون اللسان لتوجه النقض على رسول اللّه صلى الله عليه و آله- والعياذ باللّه- فى قتاله للمشركين اذ قد يكون آمن وتحقق الايمان فى قلبه دون لسانه، ونقض آخر أنه لم يطالب صلى الله عليه و آله من أتاه يريد الاسلام بالتشهد بالشهادتين وأخذ البيعة بعد تشهده التى هى زيادة استيثاق وتأكيد للالتزام بالتشهد.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۱۹۹

۴- ان ما ذكر من موارد المبايعة فى الآيتين أمور يجب على المبايع الالتزام بها عند انشائه للشهادتين ودخوله فى الإسلام ولا تحتاج الى البيعة لأجل ايجابها عليه، ففى بيعة الشجرة كان الجهاد مفروضاً على المسلمين قبلها وكان واجباً عليهم الاطاعة مما يدل على أن البيعة لم تنشأ اصل الالتزام بل هو تغليظ وتعهد ظاهرى.

۵- من المسلمات والبديهيات الدينية ان منشأ السلطة هو اللَّه عزوجل (ان الحكم إلا للَّه)، وهذا لا يتلائم مع ما استدل به المدعى من أنّ ماهية البيعة هى نقل سلطة الفرد للمبايع وهذا يعنى وجود سلطنة للفرد على مورد البيعة فى رتبة سابقة وهذا ينافى تلك المسلمة البديهية وان السلطنة للَّهعزوجل وقد استخلف الرسول صلى الله عليه و آله فى أيام حياته.

۶- ان القائل بالبيعة لا يقول بها بنحو مطلق بل يجعلها مقيدة بقيود أوجبها الشارع والعقل فلا تجوز بيعة الظالمين، وكذلك يجب توافر الشروط التى أوجبها الشارع فى الوالى وتدور حول محورين هما الكفاءة والأمانة، وهاتان الصفاتان لا تكونان بنحوٍ واحد عند كل الأفراد بل تختلف بنحوٍ متفاوت، فإذا انطبقت على أحدهما دون الآخر فإن العقل سوف يعين من هو أكفأ وأكثر أمانة. وإذا ثبت توفر الصفتين بنحو تام الكمال الى حد العصمة بأدلة أخرى ونصوص تامة السند والدلالة- طبقاً لنظرية النص- فإنها سوف تكون هى المعينة. وعلى كل حال فإنّ التعيين إما أن يكون للعقل أو الشرع.

فيعود الامر الى ان الشارع هو الذى يعطى الصلاحية لا الفرد ويكون دور الفرد هو الكاشفية فقط.

۷- ان الروايات طافحة بعبائر امثال «الأمر للَّهيضعه حيث يشاء»، وهذا يعنى ان البيعة ليست تولية وخصوصاً إذا لاحظنا ما دار بين الرسول صلى الله عليه و آله وبين عامر بن

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۰۰

صعصعة حيث دعاهم الى اللَّه وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم: إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك اللَّه على مَن خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك.

قال صلى الله عليه و آله: الأمر للَّهيضعه حيث يشاء.

۸- ان البيعة نوع من العقود والعهود وهذا يعنى انها تصنف فى باب المعاملات فيجب ان نعود قليلًا الى الادلة الواردة فى باب المعاملات، فإن الفقهاء يصنفون الادلة هناك الى قسمين أدلة صحة وأدلة لزوم. ويعنون بأدلة الصحة هى الأدلة التى تتعرض الى ماهية المعاملة وحقيقتها وأنها صحيحة أم لا، والثانية تتعرض الى المعاملة الصحيحة وانها لازمة ولا يجوز فسخها. وبتعبير آخر الفرق بينهما موضوعاً ومحمولًا.

أما موضوعاً فموضوع ادلة الصحة هى الماهية المعاملية، بفرض وجودها عند متعارف العقلاء، وموضوع ادلة اللزوم هو المعاملة الصحيحة عند الشرع. أما محمولًا ففى ادلة الصحة المحمول هو صحة المعاملة واثبات وجودها الاعتبارى فى اعتبار الشارع أما ادلة اللزوم فمحمولها هو لزوم المعاملة وعدم جواز فسخها، والتفريق بين هذين الصنفين من الادلة مهم جداً حيث لا يمكن التمسك ب «المؤمنون عند شروطهم»، اذا شك فى صحة ماهية معاملية، فهى ليست من أدلة الصحة. بل من ادلة اللزوم التى يؤخذ فى موضوعها ماهية معاملية أولية صحيحة ويتعرض لوصف يطرأ عليها وهو وصف اللزوم.

وبناء عليه يطرح التساؤل بأن ادلة البيعة اين يمكن تصنيفها فى أدلة الصحة أم فى أدلة اللزوم؟ بمقتضى التعاريف اللغوية وانها بمعنى العهد فانها تصنف فى الثانية وهذا يعنى أن هذه الادلة لا تتعرض لمورد البيعة وان المبايعة لهذا الوالى صحيحة أم لا؟ بل يجب أن يثبت فى مرتبة سابقة ومن أدلة اخرى أنّ التولية لهذا الشخص ممكنة وواجبة، ثم تكون البيعة نوع توثيق وتوكيد لذلك الأمر الثابت

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۰۱

سابقاً، فعنوان البيعة كعنوان العقد والشروط تعرض على ماهيات اولية مفروغ عن صحتها.

والخلاصة ان البيعة انشاء الالتزام بمفادٍ ثابت صحته في رتبة سابقة.

نقض ودفع ...: ص: ۲۰۱

وهنا قد يورد نقض او تساؤل ان الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله لم يهاجر إلا بعد أن أخذ البيعة من اهل المدينة، وأن امير المؤمنين عليه السلام لم يرض أن يستلم السلطة إلا بعد البيعة، وهذان التصرفان يدلان على وجود خصوصية في البيعة.

والجواب عن ذلك: أن الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله قبل اخذ البيعة قام بالدعوة الى نفسه وبيان حقيقة رسالته فحصل انجذاب افراد المجتمع اليه ومن ثَمّ أخذ منهم البيعة، وهكذا يقال في امير المؤمنين عليه السلام فبعد ايمان العامة بالامام علي وأنه الشخصية التي تنقذهم من التفكك والانهيار الذي صادف الدولة الاسلامية حصلت المبايعة.

فالغرض من المبايعة هو التغليظ والتوكيد وحصول الاطمئنان للرسول الاكرم حيث أنه ينتقل الى مرحلة المواجهة مع المجتمع المكي، فيجب ان يطمئن الى التزام جماعته وتعهدهم بذلك الالتزام.

وهكذا يقال في ولاية امير المؤمنين عليه السلام وولاية الحسن عليه السلام وبيعة أهل الكوفة وحواليها للحسين عليه السلام بتوسط نائبه مسلم بن عقيل، وهكذا يمكن تصوير اخذ البيعة للحجة المنتظر (عجل اللّه تعالى فرجه) فالبيعة في كل هذا ضرب من التوثيق والتغليظ في المتابعة.

- واما ما ورد في مبايعة المسلمين للرسول الاكرم في الحديبية فسببه ان المسلمين لم يريدوا ايقاع الصلح مع المشركين خلافاً لرأي الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله الذي كان يرى فيه انتصاراً للمسلمين واذلالًا للكافرين حيث اعترفوا

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۰۲

للمسلمين بكيان ودولة، فيكون أكبر انتصار سياسي للمسليمن لكن غالبية مَن كان مع الرسول لم يتفطن لذلك، وازدادت الشقة بينهم، وبعد تمامية الصلح وقبل رجوعه للمدينة أراد الرسول أن يجدد المسلمون التزامهم وتعهدهم بمناصرته التي هي في الأساس واجبة عليهم بحكم وجوب الطاعة.

وما ذكر من الروايات الاخرى تؤكد كلها هذا المطلب.

- واما خطب الامام عليه السلام ففي بعضها يقيم الامام الحجة على مبنى الخصم وهو اعتبار البيعة شرط في تولي الحاكم وان كانت على خلاف ماهية البيعة وخلاف ما يعتقد به عليه السلام.

- واما قوله للذين تخلفوا عن بيعته: ايها الناس انكم بايعتموني على ما بويع عليه من كان قبلي وأن الخيار للناس قبل ان يبايعوا فاذا بايعوا فلا خيار لهم، وهذه بيعة عامة مَن رغب عنها رغب عن دين الاسلام واتبع غير سبيل اهله.

فبالاضافة الى ذلك الجواب فإن هذا المقطع من خطبته مقتطع من صدره المذكور في كتاب سليم حيث يبتدأها: ان كانت الإمامة خيرة من اللّه ورسوله فليس لهم ان يختاروا وان كانت الخيرة للناس فقد بايعني الناس بالشورى..

رابعاً ...: ص: ۲۰۲

الاستدلال بآيات كثيرة وردت في الكتاب العزيز يخاطب الحق تعالى الناس عموماً بوجوب الجهاد واقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقضاء واقامة الحدود «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «۱»

. وقوله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۰۳

نَكَالًا مِنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «۱»

، «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ» «۲»

فاجلدوا ولا تأخذكم اقطعوا الخطاب فيها للمجموع.

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» «۳»

. وغيرها من الآيات التى تخاطب الناس بما هو من وظائف الدولة.

وتقريب الاستدلال بها ان هـذه الآيات تحـدد وظيفـة الانبياء والرسل بالتبليغ أما نفس الحكومـة وادارة أمور المجتمع والوظائف العامة فهى للناس يجب عليهم القيام بها.

والجواب عنها:

۱- قـد ذكرنا سابقاً وظائف الدولـة كجهاز لا يمكن أن يقوم به فرد واحـد بل لابـد أن يقوم به الجماعـة والناس كافة، وبتعبير آخر إن الدولـة والحكم جهـدمشترك بين النـاس والحـاكم ولاـ يسـتطيع الحـاكم أن يقوم به بمفرده، ومن دون تفاعل الناس مع جهاز الـدولة وطاعتهم له لا يمكن لهذا الجهاز أن يقوم بمهمته.

۲- لو سـلمنا بدلالـة الايـات على المـدعى فنتسـاءل كيف يمكن للناس ان يقوموا بتلك المهام فهل يؤدونها بنحو المجموع وهـذا غير ممكن بل لابـد أن يكون هناك جهاز يتولى هـذه المهمـة، فمع قيام هذا الجهاز نتساءل ان الواجب هل يسـقط عن الامة وبقية الناس؟ الجواب بالطبع لا، فالواجب يبقى مع وجودهذا الجهاز.

وبتعبير آخر ان وجوب هـذه الأـمور على الناس لا يعنى عـدم وجود جهاز خاص يقوم بتنفيـذ هـذه المهام فانه يبقى على الناس الطاعة والالتزام بما يقرره هذا

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۰۴

الجهاز. فهذه الايات على فرض تمامية دلالتها لا تنافى وجود جهاز خاص يقوم بتنفيذ هذه الأمور.

۳- إن أى فعل له جهات ثلاثـة أحـدها ماهيـة الفعل وكيفيـة ادائه وشـرائطه. والثانيـة الـذى يقوم بالفعل، والثالث الذى يقع عليه الفعل (القابل).

والأدلـة التى تـذكر فى بيان أداء وظيفـة أو فعل ما، تكون فى صـدد بيان احدى هذه الجهات ولا يمكن الاسـتفادة منها فى بيان الجهة الاـخرى فقوله عليه السـلام: نهى النبى صـلى الله عليه و آله عن بيع الغرر، لبيان الجهـة الاولى ولا يمكن الاسـتفادةمنها لمعرفـة شـرائط المتعاقـدين، وما ذكر من الايات فى صدد بيان الجهة الاولى وهى ما هى الأمور التى يجب تنفيذها فى المجتمع الاسـلامى. أما مَن هو الـذى يقوم بهـذا العمل فإن الآيات غير متعرضة له. فهذه وظائف خاصة واجبة على عامة المجتمع بنحو الوجوب الكفائى وهو لا ينافى كونه واجبـاً عينياً على الزعيم والمـدير والرئيس وهو نظير تجهيز الميت إذ أنه واجب كفائى على عامـة المسـلمين ولاينافيه كونه واجباً عينياً على الولى او الوصى، وهذا النحو من الوجوب مشترك بين نظرية النص والشورى.

۴- ورد فى ذيل آية سورة الحديد: «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»، فالآية الكريمة فيها دلالة واضحة أن الأمر فى الواقع بيـد الرسل والمبلغين عن اللّه وأن وظيفة الناس هى المناصـرة والطاعة وليميز اللّه الخبيث من الطيب. ۵- إن المستدل استدل بظـاهر هـذه الايـات وأن هـذه الاـوامر عامـة للناس لكن غفل عن آيات اخرى كان المخاطب فيها الرسول صـلى الله عليه و آله وحـده «جَاهِدِ الْكُفَّارَ- فَاحْكُم بَيْنَهُم بالعَدْلِ».

وهذا يعنى انه لا يمكن الاغفال عن هذه الايات، ووضعها بجانب تلك الايات

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۰۵

حتى يظهر لنا ما هو الواجب على الامـة، وما هو الواجب على المرسـلين، ولا يمكن النظر اليها بنحو منفصلٍ عن بقيـة الآيات التى تثبت الولاية ووظائفالولاة، وادلة الولاية لا تكون معارضة لهذه الآيات بل تكون قرينة على تعيين مفادها.

خامساً: آيات الاستخلاف ... ص: ۲۰۵

«وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَايَشَاءُ..» «۱»
«وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الارْضِ..» «۲» «أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ» «۳»
. «إِنَّا عَرَضْنَا الامَانَةَ عَلَى السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ» «۴»
. «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ..» «۵»

.وتقريب الاستدلال بها بأن بنى البشر قد وُلوا عمارة الارض من قبل اللَّه جل وعلا ومن بين الأمور التى تقتضيها الخلافة هو تولى احدهم وتأميره واعطاء الولاية له.

وهذا الفهم للآية يقابله فهم آخر طبقاً لنظرية النص أن هذه الآيات هى اذن عام بالاستفادة من خيرات الارض وإعمارها فى قبال بقية الكائنات التى ليست لها هذه القابلية ولم يفوض لهم تكويناً ذلك. اما الولاية الخاصة والتأمير فهو أمر آخر لا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۰۶

يستفاد من هذه الخلافة العامة.

وهنا ملاحظات حول هذه الطائفة:

۱- ان غاية تقريب هذه الطائفة لا يفوق ما ذكر من الآيات والوجوه السابقة من تكليف الامة بالوظائف العامة فيرد عليها ما أوردناه هناك والوظيفة التى تظهرها هذه الآيات هى أن وظيفتهم اعمار الارض والاستفادة من مواردها الطبيعية فى قبال الافساد والاهمال.

۲- يصرح كثير من المفسرين ان هناك نوعين من الاستخلاف احدهما عام يشمل جميع البشر والاخر خاص وهو الذى يتعرض فيه للولاية وهو خاص بمن يصطفيه اللَّه تعالى (البقرة: ۳۰- ۳۵)، وخص من اصطفاه بخصوصيات منع منها الاخرين كالعلم اللدنى واسجاد الملائكة له. وكذلك راجع سورة ص اية ۲۶ والنور آية ۲۵.

والآيات المذكورة فى هذا الوجه هو فى الاستخلاف العام وهو غير ناظر للولاية.

۳- ان آيات الخلافة العامة مدلولها هو تفويض اعمار الارض للبشر تكويناً، اما تشريعاً فانه لم يفرضها لمطلق البشر بل لمن توفرت فيه شرائط من قبيل التوحيد والعمل بأحكام اللَّه وطاعته، وأن اللَّه لا يريد صرف ومجرد الاعمار البشرى المادى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ» «۱»

. وهذا وجه التعبير بالفيئ على ما استولى عليه الرسول صلى الله عليه و آله من أموال يهود خيبر ونواحيها، وكل مال للكفار لم

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۰۷

يوجف عليه بخيل ولا ركاب بمعنى المال الراجع فلم يعتبر للكفار صلاحية التملك، واعتبر لخليفة اللَّه نبيه صلى الله عليه و آله ولاية الاموال العامة فى الارض.

سادساً: آية الامانة ... ص: ۲۰۷

قوله تعالى: «إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» «۱»

.يوجد للآية تقريبان:

الاول: ان يكون المراد من الامانة هنا هو خصوص الحكم بين الناس بقرينة التفريع «وَإِذَا حَكَمْتُم» بمعنى ان الحكم بين الناس امانة، وأن من يملك تدبير هذا الحكم هو الناس حيث أنهم المخاطبون بذلك، فاذا وُلى بعضهم على بعض يجب أن يحكموا بين الناس

بالعدل.

الثاني: ان الامانة وهى الحكم بين الناس بالاصالة، وعند وجود المعصوم فان الولاية تكون له بموجب النص، وعند عدمه فإنها تعود للامة.

وقوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا»» .وقد فسرت الامانة تارة بالتكاليف وأخرى بالأحكام وعلى كليهما ينفع فى المقام، اذ تفيد شمولها للتكاليف الولائية وأنشطة الدولة التى هى نوع من التكاليف الكفائية فى المجتمع المدنى، فالامانة بيد الأمة اما بالاصالة مطلقة أى فى عرض النص أو انها فى طول النص.

والجواب عن هذا كله:

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۰۸

لو لاحظنا آية سورة النساء لوجدنا انها ابتدأت بضمير المخاطب «إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ» وفى ذيلها: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ» وقد تغير الاسلوب إلى الخطاب بالصفة، وهذا يقرّب ما ورد من الروايات أن المخاطب فى الأولى هم ولاة الأمر، فالإمامة هى أمانة الحكم إلا أن المخاطب بها هم ولاة الأمر.

وفى الثانية خطاب الى عامة الناس لطاعة أولى الأمر. وقد ورد فى ذيلها رواية عن الباقر عليه السلام: «إن احدى الآيتين لنا والاخرى لكم» وقد ذهب بعض الكتّاب إلى تفسير الرواية ان الآية الاولى هى للناس والثانية للأئمة. وهذا عجيب إذ أن الخطاب فى الثانية ب «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» وهو خطاب عام، والآية الاولى وان كان الخطاب فيها عاماً إلا انه لا يعقل توجيهه لكل الناس لأنه ليس وظيفتهم حكم كل الناس، وواضح أن المخاطب فيها هم الحكّام.

وعلى فرض التنزل وان المخاطب فى الآية الاولى هم عامة الناس فهى أصرح على نظرية النص حيث يكونون مطالبين بأن يولّوا عمليا ويمكنوا من هو أهل لذلك وهم الواجب طاعتهم.

أما بقية الآيات فهى بصدد بيان الأمانة العامة ومطلق التكاليف الفردية منها والاجتماعية، وليست فى صدد التعرض الى ولاية الامر بالخصوص.

وبعبارة أخرى أن ذيل الآية من لزوم طاعة أولى الأمر المقرونة طاعتهم بطاعة اللّه وطاعة رسوله- مما يدلل على أنها متفرعة منهما لا من تنصيب الناس- شاهد على أن الأمانة والحكم بين الناس ليس من صلاحية الناس وتنصيبهم لان اللازم على الناس المتابعة والانقياد، ومن بيده النصب لا يكون تابعاً منقاداً، فالأمانة عهد اللّه الذى لا يناله الظالمين كما فى سورة البقرة لا العهد من الناس.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۰۹

سابعاً: آيات تدل على نفى مسؤولية الرسول عن الامة ... ص: ۲۰۹

«مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً» «۱»

، «وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ» «۲»

. «وَلَوْ شَاءَ اللّهُ مَاأَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ» «۳»

، «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ» «۴»

، «فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلَنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ» «۵»

، وغيرها من الآيات ق ۴۵، النحل ۱۲۵، الغاشية ۲۱، يونس ۹۹.

وتقريب الاستدلال أن هذه الايات تحصر مهمة الرسول فى التبليغ وهداية الناس ونفى مسؤوليته عن تولى زمام الامة وانه ليس مسؤولًا

عنهم اذا اختاروا طريقاً آخر، فهى تدل على انه ليس من مهام الرسول الولاية فى الاصل.

والجواب عن هـذا الاستدلال انه يجب ملاحظة شأن نزول هـذه الآيات وملاحظة ما يحيط بها من آيات تكون قرينة على بيان معناها، حيث ان الايات بصدد الإشارة الى مطلب مهم بعيد عما يشهدون بها عليه، وهو أن الايمان الذى هو مدار النجاة فى الآخرة لا يمكن للرسول أن يُلجأ أو يُقسِر عليه «لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ»، وكان الرسول صلى الله عليه و آله يتألم لما يرى من صدود المنافقين وهو الذى أرسل رحمة للعالمين، وما يتحلى به من رأفة وشفقة عليهم «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» «إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ».

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۱۰

مضافاً الى ان الرسول كان رحمة للناس وكان يظهر شفقته وحزنه حتى على المنافقين، وان الحفاظة والوكالة المنفية هى فى مورد الايمان والدين لا فى مورد ادارة المجتمع ونحوه، كما ان هذا التفسير لا ينسجم مع الايات الصريحة بأن على الرسول اقامة العدل سواء فى مجال الاقتصاد والاموال أو فى الحقوق والمنازعات السياسية أو الفردية، والحكم بين الناس والقضاء شعبة ركنية من شعب الدولة.

والآيات التى تأمر النبى بالجهاد «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» فإنها صريحة فى وجوب اقامة الحكم الاسلامى وحمل الناس على العيش فى ضمن قوانين الدولة الاسلامية والتسليم الخارجى لهم، أما من جهة القلب والايمان الباطنى فإن هذا أمر غير قابل للإكراه فيه، وفى هذا المجال نرى تلك الآيات التى تنفى مسؤولية الرسول صلى الله عليه و آله عنهم، أما الجانب الاول فإن الآيات صريحة فى وجوب اقامة الحكم على الرسول صلى الله عليه و آله وجعل كلمة اللَّه هى العليا.

ثامناً ...: ص: ۲۱۰

«إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» استدل البعض بهذه الآية الشريفة على ان الحكم عن طريق الشورى، وأنه يكون فى طول النص حيث أن الآية ذكرت انه أنزل التوراة ليحصل بها الحكم وهو غير الهداية بل يشمل التشريع والقضاء، وهو للنبى أولًا ثم يأتى دور الربانيين وهى صيغة مبالغة، وربانى المنسوب الى الرب وهم المطيعون للَّهعزوجل طاعة خالصة غير مشوبة بمعصية غير المغضوب عليهم ولا الضالين وهم أوصياء كل نبى، ثم يأتى ثالثاً دور الاحبار وهم العلماء الذين عليهم مسؤولية استلام سدة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۱۱

الحكم وان هذه السنة الالهية فى تولى الحكم جارية فى جميع الاديان.

وهذا الحكم العام يستفاد من مجموعة من القرائن:

أ- قوله تعالى: «فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ» فالمخاطب بها المسلمون وهذا يدل على جريان هذه السنة الإلهية فيهم أيضاً.

ب- ان القرآن ليس كتاب تاريخ أو قصص بل هو كتاب اعتبار وتشريع، فكل ما يذكره إنما يأتى به اللَّه عزوجل من أجل العبرة، والتشريعات تكون ثابتة ما لم ينص على خلاف ذلك. فهذه السنة العامة التى ذكرها القران فى بنى اسرائيل غير مختصة بهم بدليل عدم ذكر القران لهذا الاختصاص، بل ان ذكرها للدلالة على ارادتها من المخاطبين.

ج- الايات الواردة بعد ذلك فى بيان حكم أهل الانجيل إذ يعيد الحق سبحانه نفس المفاد حيث تنص على وجوب الحكم بما جاء فى الانجيل «وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» ومن ثم تستمر الآيات فى بيان وجوب أن يحكم الرسول صلى الله عليه و آله بما أنزل اللَّه.

والخلاصة: ان الآيات تبين سنة إلهية جارية فى جميع العهود والأزمان وأنه اذا انزل كتاباً سماوياً فمراده من ذلك هو أن يكون دستوراً

إلهياً على الأمة أن يتخذوه فى تصرفاتهم على كافة الأصعدة الفردية والاجتماعية والقضائية والتشريعية والولائية. وتظهر الآية تسلسل ترتب الحاكمية فهى للنبى ثم لوصيه ثم للأمة والاحبار اى العلماء الذين هم جزء من الأمة، مع اشتراط توفر العلم والكفاءة والأمانة وهى امور لا ريب فيها.

وفى هذا الاستدلال تأمل ب:

۱- إن الآية لا تنافى نظرية النص بل تدل عليها، وذلك: لأن ايكال سدة الحكم للأحبار هل هو بالاصالة عرضا مع الربانيين ام بالنيابة عنهم؟ والآية تصلح

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۱۲

للانطباق على كلا المعنين.

۲- أن الترتيب فى الذكر الوارد فى الآية ليس اعتباطياً بل هو للدلالة على نيابة المتأخر عن المتقدم بمقتضى ولاية المتقدم ذكراً على المتأخر لأن المتأخر من رعية المتقدم، فتكون ولاية المتأخر متفرعة عن المتقدم، وحيث ان العلماء مستقى علمهم من المعصومين فتوليهم للحكم يكون بالنيابة عن المعصوم، والدليل على تسنمهم سدة الفتيا هو آية النفر «۱» فاسناد سدة الفتيا للفقهاء هو من عصر الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله غايته أنه فى طول المعصوم عن الرسول، حيث أن أصل العلوم كلها هى للرسول صلى الله عليه و آله وهو الذى يُطْلِع المعصوم عليها، وإن كان تشريع فتياهم أى الفقهاء هو من قبل اللّٰه عزوجل لكنها عن المعصوم عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه و آله.

ان قلت: ظاهر الاية ان ولاية الاحبار ليست نيابة وذلك لأن اللّٰه عزوجل اسند الحكم اليهم فالتخويل هو من قبل اللّٰه.

قلت: إن لهذا نظائر كما فى طاعة اللّٰه وطاعة الرسول، وولاية اللّٰه ولاية الرسول، فان المزاوجة بين الولايتين لا يدل على انهما فى عرض واحد بل انها جعلت للمعصوم بتخويل من اللّٰه عزوجل استخلافا. ومن نظائرها ما ذكر فى موارد الخمس والزكاة وأصنافها فان الولاية على الأموال هى للرسول والمعصوم لا للاصناف، فالفقراء ليست لهم الولاية على اموال الزكاة.

ان قلت: هل تتصور- بناء على نظرية النص- ولاية الرسول صلى الله عليه و آله على المعصومين بعد وفاته صلى الله عليه و آله.

قلت: إن ولاية الرسول صلى الله عليه و آله باقية على مَن بعده حتى بعد وفاته وذلك لان الرسول الاكرم هو الطريق لوصول العلوم اليهم عليهم السلام ويذكر مضافاً الى نفوذ

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۱۳

أحكامه صلى الله عليه و آله فى كل المجالات على من بعده الى يوم القيامة كمثال على ذلك ما جرى بين الحسين عليه السلام وابن عباس عندما سأله الاخير عن خروجه مع علمه بما فعلوه بأبيه وأخيه، فأجابه عليه السلام: إنه قد رأى النبى صلى الله عليه و آله فى المنام وأخبره بالخروج الى العراق، حيث أن رؤيا المعصومين صادقة فهذه تمثل استمرار ولايته عليهم وبقاء تلك الطولية بينهم.

۳- قوله تعالى: «بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» فإن هذه العبارة فى الآية ليست متعلقة بالأحبار بل متعلقة بالنبيين والربانيين وذلك:

- ان مادة الحفظ واردة فى القرآن غالبا بمعنى الايكال العهدى الخاص الشبيه بالتكوينى من اللّٰه عزوجل الى الملائكة المسمون (بالحفظة)، ولفظة (استحفظوا) لم ترد الا فى هذا المورد وهذا يدل على أن المراد منه هو العهد الخاص، ويقابل الاستحفاظ لفظ (التحميل) حيث ورد وصفاً لعلماء بنى إسرائيل فى سورة الجمعة «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا» فالتعبير بالحمل هو بمعنى ا لتكليف وهو غير الاستحفاظ والثانى ورد فى علمائهم لا الأول.

- ورد عن الصادق عليه السلام فى ذيل الآية: «الربانيون هم الأئمة دون الأنبياء الذى يربّون الناس بعلمهم، والأحبار هم العلماء دون الربانيين». قال: «ثم أخبر عنهم فقال: بما استحفظوا من كتاب اللّٰه وكانوا عليه شهداء ولم يقل بما حملوا منه- تفسير الصافى ۲: ۳۸.

وهذا أيضاً يدل على أن المراد من الاستحفاظ هو عهد خاص من اللّه عزوجل.

– وقد يتساءل عن السر فی تأخير (بما استحفظوا) وايرادها بعد الاحبار وكان الانسب ذكرها بعد الربانيين.

والجواب عن ذلك:

أ– مثل هذا التعبير وارد فی مواضع اخرى فی القران مثلا فی سورة النساء (۷۲–

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۱۴

۷۳): «وَإِنَّ مِنكُم لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيداً وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَم تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً». فجملة (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) متعلقة بالآية السابقة عندما يقول المنافقون إذا هُزم المسلمون الحمد للّهالذی لم نكن معهم فوجود الفاصل لا ينفی الارتباط بين الجملتين.

ب– ان هذا التعليل بين ان المحورية والمركزية فی الحكم للنبی والربانيين وذلك لأن لهم العهد الخاص من قبل اللّه عزوجل، ويكون موضع الاحبار هو النيابة عنهم، وبمنزلة الايدی والاعوان ولا يكونون مستقلين بالحكم والأمر بل يصدر الأمر عنهم، نعم يكون لهم نوع من الاستقلالية فی ما لم يُنط بهم كما فی ولاية الإمام عليه السلام لمالك الاشتر فقد زوده بالخطوط العامة للحكم وعليه التصرف ضمن تلك الحدود ولا يرجع فی كل صغيرة للإمام، وهذا مقام لا يعطی لكل أحد بل لمن يمتلك الكفاءة العلمية والأمانة ولذا عبر عنهم بالأحبار، فعدم الاستقلال بالولاية يرجع الی عدم توفر التعليل فيهم حيث ان منحصر فی النبيين والربانيين.

۴– واخيراً يرد على المستدل بهذه الآية الكريمة للجمع بين الشورى والنص وانه مع انتفاء النص تصل النوبة للشورى، ان ذلك يتنافی مع ما هو مقرر فی العقيدة الشيعية من أن الارض لا تخلو من حجة ظاهرة أو باطنة وان الولاية مع وجود المنصوص عليه تكون فعلية وليست اقتضائية ولا تقديرية، وهذا يعنیان موضوع النص لا ينتفی اصلًا حتى يمكن أن نفرض الشورى عند انتفاء النص، ولا يمكن اعتبار عدم تسلم الامام لسدة الحكم لجور الامة وضلالها لا يعنی انتفاء النص فهو كما فی تصريح الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله: الحسن والحسين امامان إن قاما وانقعدا.

وكذلك غيبة المعصوم لا تعنی انتفاء النص لأنه موجود ومؤثر بتسديده للامة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۱۵

وهدايته لها من ستار الغيب كما يظهر من الروايات الكثيرة فی هذا المجال.

منها: قوله عليه السلام: انی لانزلت راعٍ لكم ولست بغافل عما يدور حولكم. فضرورة المذهب السائدة ان الفقهاء هم نواب الامام وشرعيتهم من شرعية الامام، لا أن لهم ذلك بالاصالة مع اختلافهم فی مساحة تلك النيابة سعة وضيقاً، وهذه النيابة للفقهاء بالنصب العام لا الخاص لجماعة واشخاص بخصوصهم، نعم أوكل أمر تعيين هذا المصداق النائب للأمة، فهو نوع من التخويل سواء كان هذا الانتخاب بنحو مفرد أو لمجموعة واجدة لشرائط النيابة، وهذا نظير صلاحية القاضی فإنها استنابة عنه عليه السلام إلا أنه جعل تعين المصداق بيد المتخاصمين.

وهذا المعنى ليس ايكالًا للأمة باختيار القائد بمعنى ان الامة تختار من ينوب عنها، بل هو تفويض للامة فی تعيين المصداق من بين هؤلاء العلماء. فما يذكره بعض المتأخرين من ان للفقهاء الولاية بالاصالة فی عصر الغيبة مخالف لضرورة من ضروريات المذهب.

تاسعاً: سيرة الأئمة عليهم السلام ... ص: ۲۱۵

وقد ذكرت وجوه اخرى للدلالة على الشورى بعضها قد مضى فی تضاعيف الاستدلال بالآيات السابقة.

۱– الاستدلال بالسيرة: ان الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله والامام عليه السلام جرت سيرتم وعملهم على عدم استلام سدة الحكم إلا بعد حصول البيعة ورجوع الناس اليهم وإن الامام نقل عنه انه يكون وزيراً ومرشداً أفضل من أن يكون اميراً. وأن حكومة الرسول

صلى الله عليه و آله هى حكومـة معنويـة أقرب منها أن تكون حكومـة سياسـية. ولذا قيل ان الموروث من الرسول صـلى الله عليه و آله ليس بذاك الحجم الذى يمكن أن يؤسس به دستور لدولة سواء فى الجانب القضائى او التشريعى او التنفيذى.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۱۶

- ان الائمة عليهم السـلام كانوا يبتعدون عن السـلطة ولا يسعون لاقامة الحكم بل على العكس كانوا يدفعون من يأتى ليبايعهم. فالامام على عليه السـلام عندما اتاه الناس لمبايعته صدهم وامتنع اول الأمر وهذا يعنى ان الامر بيد الامة فان انتخبتهم فقد اصابت طريق الرشاد والصـلاح. كما ان أبامسلم الخراسانى قد عرض الحكم على الامام الصادق عليه السلام وقد رفض ذلك، والامام الرضا قد عرض عليه المأمون الحكم وقد رفض فهذا يعنى انهم لم يكن يرون أنفسهم منصوبين من قبل اللَّه.

۲- ان السـياسة وتـدبير الامـور ليست جزءاً من الـدين والشـريعة، بـل هى امور عامـة ترجع الى تقـدير الناس وحسن رويتهم فالحكومة تستمد مشروعيتها من الامة والمجتمع.

۳- ان المعصومين مبشـرون ومبلغون وهـداة، والنص على امـامتهم يعنى وجوب الرجوع اليهم فى معرفـة أحكام الـدين أصولًا وفروعاً، وان الحكومـة ليست تكليفاً الهياً وليس من مراتبه ومقاماته الحكومـة واوضـح مثال على ذلك انبياء بنى اسـرائيل اذ لم يكونوا يديرون شؤون الناس.

۴- ان الكتاب الكريم لم يحتوى الا على جزء قليل من أحكام الدولة.

۵- ان مفهوم النبوة والامامة يعتمد على العلم الخاص وليس فيه دلالة او ايماء الى الحكم والولاية.

والجواب عن هذه الوجوه ...: ص: ۲۱۶

أولًا: قد ذكرنا سابقاً الجواب عن السيرة ونكرره هنا:

- ان الآيـات الـتى تـأمر النبى بإقامـة القسـط والعـدل والقضـاء والجهـاد والنشـاط العسـكرى والـدفاع عـن المجتمـع الاسـلامى كـثيرة وهذهخطابات‌لا تصلح إلا للحاكم والوالى، واما البيعة فقد ذكرنا نكتها وأنه لا يكفى مجرد التكليف من دون حصول

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۱۷

الوثوق والاطمئنان وقد ذكرنا ان البيعة ليست تفويضاً او توكيلًا بل هى اظهار الالتزام وأخذ العهد والتغليظ.

- وهكـذا فى سيرة الامـام على عليه السـلام فـإنه فى كثير من كلمـاته يشـير الى احقيته بالخلافـة والحكومـة، وأن مماطلته فى اسـتلام الخلافـة بعـد مقتل عثمان لحكمـة تتضح لمن له أقل تتبع فى التاريخ، حيث أنه أراد قطع العذر لمن يشق عصا المسـلمين والطاعة عليه وحتى لا يكون هناك مجالًا لمن أراد أن ينكث البيعة.

- وقـد يشـكل بما روى عن الامام الحسـين عليه السـلام من أنه فى ليلة العاشـر من المحرم قال لأصـحابه: وإنى قد اذنت لكم فانطلقوا جميعاً فى حلٍ ليس عليكم منى ذمام وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملًا.

وجوابه: أن الامـام الحسـين واجب النصـرة لأنه مظلوم فضـلًا عن كونه إماماً مفترض الطاعـة، فنصـرته لم تجب بالبيعـة فقط بل بـدونها نصرته واجبة. وقد ذكروا وجوها لهذه المقالة منها انه أراد امتحان أصحابه ليعلم الثابت منهم عن غيره.

ومنها: أنه يكون إذن خاص منه عليه السلام حيث علم أن سوف يستشهد.

ومنها: ان اصـحابه ليسوا كلهم على درجـة واحـدة من الثبات، فلـذا تنقل بعض الروايات انه قـد ذهب بعض منهم- ولكن يسـير جـداً- فهؤلاء لم يلزمهم بالبقاء.

ومنها: ان الاستشـهاد معه عليه السـلام مرتبـة لا ينالها إلا من اتى نصـيباً وافراً من المعرفة الحقيقية بمقامهم عليهم السـلام ولذا كان هذا

التحليل هو لـذوى النفوس الضـعيفة التى ليس من مقامها الاستشـهاد معه عليه السـلام. وهؤلاء كانوا يظنون ان بقاءهم معه عليه السـلام مرتبط ببيعتهم له فعاملهم الامام عليه السلام على اعتقادهم.

– اما بالنسـبة للامام الصادق عليه السـلام فلقد عرض عليه ابومسلم الخراسانى البيعة ولكن الإمام رفض ذلك وسره واضح لأن ابامسلم لم يرد تحكيم وتولية الامام، وانما اراد التستر والاستفادة من شخصية الامام عليه السلام لأنه يعلم أن التغيير غير ممكن إلا إذا كانت

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۱۸

هناك شخصية ذات نفوذ وسلطة فى قلوب الناس والامام عليه السلام كان له احاطة بالأوضاع الاجتماعية وعلى دراية بخبايا ابى‌مسلم. ولذلك ما أن أعرض عنه الامام فبادر ودعى الى بنى العباس.

– اما بالنسـبة للرضا عليه السـلام فأولًا عندما امتنع عن قبول الولاية حقق هدفاً مهماً وهو اتضاح أن المأمون ولايته لا أساس شـرعى لها. وثانياً عنـدما قبـل الولايـة تحت الإجبـار والإكراه مع شـرط عـدم التـدخل فى أمور السـلطة فانه يتجنب امضاء مشـروعية افعال السـلطة الحاكمة حيث يتضح أن المأمون لا شـرعية لسلطته حتى يوليه ولاية العهد. وبهذا يكون قد خلص من الهدف الذى توخاه المأمون من استغلال مكانة الامام الدينية فى دعم شرعية سلطته.

– أما ما استشـكله البعض من انصـراف الأئمة عليهم السلام عن الجانب السياسى وعدم سعيهم لإقامة الدولة والحكم فجوابه يتضح من خلال النقاط التالية:

أ– ان الأئمة عليهم السلام انصرفوا الى اعمال تعتبر أهم ملاكا من إقامة الحكم عند التزاحم وهى بيان أحكام الدين ومعارفه، أى تدبير الجهة العقلية والمعرفية عند الناس وهى مقدمة على تدبير الابدان، واضح أن نشـر الدين وبيان الاحكام تعم منفعته جميع المسلمين فى كافـة الازمنـة، بينما تدبير الحكم وإقامة الدولة يفيد الاجيال المعاصـرة لتلك الحقبة فقط فإذا دار الأمر بين النفع والفائدة الاطول زمانا مع آخر ذى فائدة اقصر زمانا فالتقديم للأول.

ب– ان المجتمع الاسـلامى قد توسع بشـكل كبير فى القرنين الاول والثانى وانفتح على حضارات مختلفة واختلط بأمم متعددة مما اثار جملـة كبيرة من الاسـئلة والاسـتفسارات والشـبهات التى احتاجت الى اجوبـة شافيـة دامغـة لكل ما يمس الـدين الحنيف، وقـد عجزت الاذهان العادية التى تنهل من العلوم الكسبية عن الاجابة عليها واحتاجت الى من يكون له علم لدنى يجيب عنها، خصوصاً ان

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۱۹

الحركـة المسيحية واليهوديـة لم تألوا جهداً على ضـرب الإسـلام فكرياً وعقائديا بعد أن عجزت عن الاطاحة به عسـكرياً، فقامت ببث التشكيك فى معارف القران والجبر والتفويض وتجسيم اللّه عزوجل ومعاجز النبى صلى الله عليه و آله و...

ج– ان إقامـة الحكم ورئاسـة الامـة وظيفـة مشتركـة بين القائـد والأمـة فاذا لم تتمثل الامة للواجب الملقى على عاقتها من رجوعها الى الامام المعصوم فإنه لا يجب على الامام اجبارهم على ذلك. وقد تخاذلت الامة عن القيام بواجبها فاتجه الامام الى الوظيفة الاخرى.

– ان الائمـة لم يغفلوا الجـانب السياسـى البتـة، وكانوا لا يفوّتون الفرصـة من حين لآخر لاثبات أحقيتهم بالخلافـة. فالامام الكاظم عليه السـلام عندما حج هارون الرشـيد وزار المدينة وجعل الاخير يسـلم على الرسول: السـلام عليك يابن العم. قال عليه السلام فى السلام: السـلام عليك ياجـداه. للاشارة الى ان المشـروعية اذا كانت بالاقربية فإنا اقرب اليه منكم. وغيره من مئات الوقائع التى رصدها التاريخ لهم عليهم السلام مع سلاطين بنى أمية وبنى العباس.

– ان الائمة عليهم السلام كانوا يمارسون نوعاً من الحكومة الخفية ويأمرون وينهون شيعتهم ومن هذه المواقف:

أ– نهى الكـاظم عليه السـلام لصـفوان عن ايجـار جمـاله– والتى كانت له أكبر مؤسـسات النقل فى العالم الاسـلامى آنـذاك– للـدولة الحاكمة انذاك.

ب– جبايـة الامـوال فى ذلـك الزمـان من الأـمور المختصـة بالدولـة، ومـع ذلـك فـانهم عليهم السـلام كـانت تجبى إليهم الأخمـاس

والزكوات، واتفاق الفقهاء على أنه مع حضور الامام لا تبرأ ذمة شخص إلا بتسليمها للامام عليه السلام. لما كان على بن يقطين يدفع زكاته للامام الكاظم عليه السلام مع كونه وزيراً للسلطان العباسى، حتى ان جواسيس بنى العباس خاطب يوما هارون بما مضمونه هل للمسلمين خليفتان تجبى لكل

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۲۰

منهما الاموال، وان الثانى هو موسى بن جعفر عليهما السلام، وان معه من شيعته عشرات آلاف السيوف تنصره. مما ينذر الخليفة العباسى بتنامى نفوذ الكاظم عليه السلام فى المجتمع الإسلامى.

ب- نصب الوكلاء فى المناطق المختلفة وهؤلاء يرجع اليهم الناس فى كل من معرفة الأحكام وفى خصوماتهم القضائية وفى كل توابع ولواحق القضاء من انفاذ الاوقاف والوصايا وتقسيم المواريث وادارة اموال القصّر وأخذ القصاص أو الديات وغيرها.

وكان النصب على نحو نصب خاص ونصب عام ونجد أن فقهاء الشيعة يجعلون المناصب ثلاثة: الافتاء- القضاء- المرجعية، حيث يرون لكل منها شروطاً تختلف عن الاخر وقد تتداخل بعضها وهذا التفصيل استفيد من روايات الائمة عليهم السلام فعن تقرير يرفعه أحد عيون الجاسوسية للدولة العباسية- يرويه لنا الكشى فى كتابه الرجالى- يصف الشيعة فى الكوفة انهم على ثمان طوائف أحدها زرارية بن أعين والاخرى مسلمية اتباع محمد بن مسلم وهشامية اتباع هشام بن الحكم وبصيرية أتباع ابى بصير وهذا يذكر فى الحقيقة تعداد الجماعات الشيعية التى ترجع الى فقهاء الرواة عن الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام كما نجد أن الائمة قد أجازوا اقامة الحدود بما يتناسب مع هذه الحكومة الخفية كالاب على ابنه والزوج على زوجته والسيد على عبده.

ج- الممانعة من الجهاد الابتدائى مع السلطة الاموية والعباسية كما فى رواية زين العابدين عليه السلام فى الرواية المعروفة عندما اعترض عليه أحد أقطاب العامة قائلا- تركت الجهاد وخشونته ولزمت الحجج وليونته واللّه تعلى يقول: «إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» فأجابه عليه السلام اكمل الآية فقال: «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۲۱

بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» فقال عليه السلام:

إذا وجدت من هذه أوصافهم من المجاهدين فحينها لا ندع الجهاد والقتال»، وهو عليه السلام يشير الى أن الفتوحات التى تقوم الدولة بها حينذاك هدفها لم يكن نشر الاسلام بل جنى الغنائم وتحصيل الجاه والاموال والجوارى...

د- ما ورد فى رواية ابن حمزة عن ابىجعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: من احللنا له شيئاً اصابه من أعمال الظالمين فهو له حلال وما حرمناه ذلك فهو له حرام. وهذه ممارسات ولائية حكومية فى تحليل ما يؤخذ من السلطة الجائرة التى كانت تقوم بجباية الاموال من خراج وزكاة ومقاسمة.

ه- الاشراف على تولى المناصب فى الدولة القائمة من قبل بعض الشيعة حتى يسهل ادارة امور الشيعة. كما فى الامام الصادق عليه السلام مع داود الزربى والكاظم عليه السلام مع على بن يقطين، والصادق عليه السلام مع النجاشى فى توليه للاهواز والامام الرضا مع محمد بن اسماعيل بن بزيع.

و- الاذن لاصحابهم فى التصدى للفتيا.

ز- تقنينهم لبعض التشريعات الولائية التى هى مقتضيات منصب الحاكمية وليست تشريعات ثابتة. فكما فى احياء الموات والأمور الخاصة بها، والتفويض الخاص بالأراضى هو نوع من الممارسة الولائية وليس تشريعاً ثابتاً بدليل ما فى بعض الروايات المشيرة الى أنه عند ظهور الحجة عليه السلام سوف يتغير هذا النظام فى الاراضى.

ح- اعفاؤهم شيعتهم من اعطاء الخمس فى بعض الموارد وفى بعض السنين كما فى رواية على بن مهزيار عن الجواد عليه السلام. وما

ورد عن الباقر عليه السلام فى تقنين نظام التضمين وعدم ضمان الاجير.

ط- حث الشيعة على التمسک بالأحكام الخاصة بالمذهب من التولى والتبرى،

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۲۲

وعدم الولاء للسلطة الحاكمة وعدم مشروعيتها، من قبيل التقية، ومتعة الحج والنساء، واقامة الاحكام الفقهية الخاصة فى الاعمال اليومية. وحث الامامالباقر عليه السلام والصادق عليه السلام لاصحابه على اقامة الجمعة فيما بينهم.

وبنظرة استقرائية لأحد المجاميع الروائية القديمة أو لكتاب الوسائل مثلًا يجد الناظر مشجرة كاملة فى الابواب الفقهية المروية لممارسات الأئمة عليهم السلام فى المجال التنفيذى الولائى والقضائى فضلًا عن التشريعى، فرسم صوررة كاملة عن انشطة الحكومة الشرعية فى كل المجالات التى تقوم بدورها فى الخفاء عن الظهور أمام السلطة الظاهرية آنذاک.

ثانياً: الدين والسياسة:

اما ما ذكر من ان السياسة ليست من الدين وان الحكومة من الأمور الخارجة عن التكليف الالهى وان الكتاب غير حاوٍ لاحكام السياسة فيجاب عنه:

أ- ان القران عالج جوانب عدة من كيفية اقامة النظام فى المجتمع، فوضع نظام الاحوال الشخصية، وقواعد القضاء وهذه القواعد التى تتفرع منها الاف القضايا الفرعية، وكذا الحدود الجنائية والتعزيرات، والجهاد وأحكامه والذى هو نظام علاقة المسلمين بالكفار وبأهل الكتاب فى الحرب والسلم، والخطوط العامة للنظام الاقتصادى الذى تقوم عليه الدولة فى دائرة القتصاد الكل والجزء (الدولة والمدينة والريف) ونظام المنابع المالية العامة، وقد أعدت دراسات حديثة لاستخراج نظام القانون الدولى بين الدول من القران.

فهل يعقل ان يقال ان من اهتم ببيان هذه الموارد اغفل عن ذكر نصوص تتعلق بالحاكم وشروطه وتعيينه.

ب- ينقض على المستشكل بأن حكومة الرسول صلى الله عليه و آله فى تلک الفترةالحرجة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۲۳

وصلت وحققت الكثير من الاهداف والانجازات، فهذا يعنى أن هذا النظام مع وجود الشخصية المؤهلة قادرعلى تأدية وظائف الحكومة و تنفيذها بأحسن حال.

كيف وقد انتشلت المجتمع البدوى القبلى المتخلف الى درجة أعظم نظام دولة يناهض القوتين العظميين حينذاک الكسروية والقيصرية.

ج- إن القول بكون مشروعية الحكومة مستمدة من الأمة يناقض فصل الدين عن السياسة، لأن المشروعية تعنى الأمر الذى شرعه الشارع واعتبره وصحّحه والذى لا حرج فى التعامل والأخذ به، فإذا كانت الحكومة المنبثقة من الأمة مشروعة أى اعتبرها الشارع، فكيف لاتتعرض الشريعة للحكم السياسى، وكيف تكون تلک الحكومة تستمد كل صلاحيتها من الأمة دون الشارع، وبعبارة أخرى ما المعنى المحصل للمشروعية فى كلامه ان لم ترجع الى عدم التأثيم والعذر عند مالک يوم الدين، وأى معنى للحديث عن المشروعية حينئذ.

ثم ان مقتضى أن اللَّه سبحانه وتعالى مالک للمخلوقين ولأفعالهم أن مبدأ وأصل الولاية هو للَّهتعالى وان كل الولايات تتشعب من ولايته «الولاية للَّهالحق» و «ان الحكم الا للَّه»، وهذا أصل غاية الأمر حيث جعل للإنسان الاختيار لا القسر كانت الولاية الربانية عليه من نمط تكوينى غير قاسر ونمط تشريعى اعتبارى قانونى فمنطق التوحيد ومنطق الشرعية الالهية يبنى على أن أصل الولاية للَّهوأن كل شعبة لابد وأن تنتهى الى ذلک الأصل.

نعم، المنطق الوضعى غير المتقيد بالملة والنهج السماوى وأن للكون خالقاً مالكاً، يجعل مصدر الولاية هو الانسان وسلطة الفرد على نفسه، فيجعل من العقد الفردى والاجتماعى مصدر السلطات والولايات كما يفصل ذلک الدكتور السنهورى فى (الوسيط) فبين

المنهجين بعد المشرقين.

د- إن أحدث النظريات فى القانون الوضعى تشير الى أن تعيين القائد الذى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۲۴

تنتخبه الامة ليس اعتباطياً، بل يجب أن تتوفر فى القائد المواصفات والاهلية اللازمة التى وضعها الدستور من الكفاءة والامانة وغيرها. وحينئذ فاذا رشح من له هذه الصفات وانتخبته الامة يكون الانتخاب صحيحاً، فحقيقة الانتخاب هى استكشاف من ترى الامة ان توفر هذه الصفات فيه بنحوٍ اكمل وافضل، فمنشأ ولايته هو توفر تلك الشروط فيه لا اختيار الامة وانما هو استكشاف فقط، وهذا يقترب من نظرية النص التى تدعى ان السماء هى التى تتكفل ببيان هذه الصفات وتحديدها ويكون بيد الامة تشخيصهم فى الخارج.

وقد أثار هذا وأن الباحثون من فقهاء القانون الوضعى أن العقد ليس هو مبدأ نشوء السلطنة سواء على الأفعال أو الأعيان، بل السلطة التكوينية على الأولى والحيازة أو العمارة للثانية هو المنشأ، وأما فقهاء الشرع من الفريقين فقد نصوا على لزوم امضاء الشارع لهذا الاعتبار البشرى للسلطة اذ ان للّهما فى السموات والارض. فلا يملك الفرد البشرى فى الاعتبار من الافعال والاعيان الا ما حدده الشرع له، لأن الشارع الاقدس مبدأ السلطات والولايات، لا أن الانسان فاعل ومالك لما يشاء ومطلق العنان، الا ما ينقله هو باختياره عن نفسه بالعقد الفردى او العقد الاجتماعى (الانتخاب) أو العقد السياسى (البيعة) الى الغير. فبين المنهج التوحيدى والمنهج الوضعى بون بعيد. وبذلك يتضح أن اساس الحكومة فى المجتمع بين المنهجين مختلف، فعند المنهج التوحيدى هو متشعب من ولاية اللّه تعالى على المخلوقات البشرية، وعند المنهج الوضعى هو مستمد من سلطة الفرد والأفراد على أنفسهم.

بل ان الدراسات القانونية فى الفقه الوضعى تكاد تصل كما ذكرنا آنفا الى هذه النتيجة وهى أن الاساس فى الحكومة هو حكم العقل الفطرى، وذلك لأن العقد الاجتماعى (الانتخاب) الناشئ من سلطة الفرد على نفسه لا يبرر حكومة الأغلبية

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۲۵

على الأقلية ولو بتفاوت يسير. وكذلك لزوم توفر شرائط فى الشخص المنتخب بالعقد الاجتماعى وليس هو من وضع سلطة الأفراد على أنفسهم، بل كلا الأمرين وغيرها من النتائج التى لا تتلائم مع فلسفة السلطة الفردية والعقد هى من قضاء العقل كمادة قانونية مرعيّة عند الكل. فمثلا لزوم كون الرئيس المنتخب ذو خبرة وكفاءة عالية (العلم بمعناه الوسيع) وذو أمانة فائقة (العدالة واذا ترقت أصبحت عصمة) لابد منه، وليس للفرد والأفراد تخطى هذا القانون تحت ذريعة السلطة الفردية المطلقة العنان، وهذا ما يقال من غلبة النزعة للمذهب العقلى فى القانون الوضعى الحديث على المذهب الفردى.

ومن ذلك يتضح أن العقد الاجتماعى والسياسى (سواء الانتخاب أو البيعة) ليس الا عبارة عن عملية توثيق وإحكام وعهد مغلّظ للعمل بالقانون، سواء على المنهج التوحيدى الدينى او الوضعى أخيراً، فضابطة الصحة للحاكم ليس هو العقد السياسى بل هو توفر شرائط القانون الالهى فيه، أو الوضعى الالهى حيث انه يشعّب الولاية من المالك المطلق الخالق طبق موازين الكمال والعصمة والاصطفاء، فهو يعين المصداق الذى تتوفر فيه الشرائط ويكسبه ولاية الحكم، وتكون البيعة والعقد السياسى معه من قبل الناس ما هو الا زيادة تعهد وإلزام بالعمل نظير النذر والقسم المتعلق بأداء صلاة الظهر أو صيام رمضان تغليظاً للوجوب.

وأما المنهج الوضعى فهو يترك مجال تعيين المصداق لاختيار الامة لكن يظل هذا التخيير له لون صورى غير واقعى فى حالة تخلف الشرائط والمواصفات فى الشخص الحاكم التى يعيّنها القانون، ويظل التخيير غير صائب فى حالة توفر الصفات بنحو أكمل فى شخص لم يقع عليه الاختيار، وهذا الجانب السلبى فى المنهج الوضعى قد عالجه المنهج الربانى الالهى بجعل الانتخاب بيد العالم بالسرائر وبمعادن البشر «وَرَبُّکَ یَخْلُقُ مَا یَشَاءُ وَیَخْتَارُ مَا کَانَ لَهُمُ الْخِیَرَةُ».

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۲۶

فكون العقد السياسى وثيقة إلزام والتزام وسبب لزيادة التعهد، لا انه عملية مولدة لصحة الشىء الذى تم التعاقد عليه بل الصحة

والسلامة آتية من الشارع أو القانون، وكون العقد هذا مفاده من اوليات الأبحاث القانونية فالعقد السياسي والبيعة لا يؤمنان صحة الانتخاب وسلامة المنتخب والمبايع، وانما الذى يؤمنه تعيين الشرع فى المنهج التوحيدى والقانون فى المنهج الوضعى. فالعقد لا يؤمن الصحة والسلامة، وهذا ما نجده عند فقهاء القانون من تمييزهم أدلة الصحة عن أدلة اللزوم.

ثم كيف يتلائم قول القائل بأن الحكمة الالهية فى المعصوم عليه السلام هى تجسيده للقانون الالهى على كل الاصعدة السياسية والاجتماعية والفردية وغيرها، مع قوله بعدم نصب الشارع له حاكماً ووالياً على الأمة، وهل يكون ناطقاً حياً بالقانون الا بجعل الزعامة له على الامة.

ه- إن من الضرورى معرفة الفرق الجوهرى بين القانون الوضعى والقانون الالهى، ففى القانون الوضعى يكون المحور هو الفرد والانسان بما هو هو، وفى القانون الإلهى يكون المحور اللّه جل وعلا أو الفرد بما هو عبد للّه، وهذا المائز مهم جداً فى فهم عملية التقنين وما يمكن أن يوضع ويقنن إذ يضفى آثاره على بنوده والأهداف المتوخاة.

ففى القانون الالهى يكون الالتفات الى القوى الناطقية والالهية فى الانسان، وفى الوضعى يكون الالتفات الى القوى النازلة والحيوانية له، ولذا تكون نظرية النص اكثر انسجاماً مع القانون الالهى. ونظرية الشورى تنسجم مع القانون الوضعى حيث تجعل السلطة للفرد.

وفى القانون الوضعى تختلف الرؤية الكونية، وفى القانون الالهى تراعى الكمالات التى توصل الى الحق تعالى وهى غير محدودة. ومن هنا يمكننا القول ان

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۲۷

هناك مائزين جوهريين بين نظريتى النص والشورى:

- ان نظرية الشورى تكاد تشترك مع القانون الوضعى من زاوية فصل الدين عن السياسة، حيث ان الدين لا يقع منهاجاً وتقنيناً للنظام السياسى الحاكم، لأن النظام المتكامل هو الذى يتكفل بنصب الحاكم وبيان خصائصه وشروطه وامتيازاته، بخلاف نظرية النص التى تتكفل هذه الجهة وتطرح نظاماً سياسياً تاماً يعتمد على أسا الوراثة الملكوتية والتنصيب والتأهيل السماوى.

- ان أصحاب نظرية الشورى يجدون فراغاً كبيراً فى التشريع اذ انهم يعتمدون على ظاهر الكتاب وما ورد عن الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله، أما أصحاب نظرية النص فالتشريع لديهم مستمر عشرات السنين على يد الأئمة المعصومين الذين أثروا الفكر الاسلامى بالتشريعات المناسبة، وأكملوا مسيرة الرسول الأكرم واستخرجوا كنوز القران الكريم التى لا تفتح للأذهان العادية ولذا يكون اندماج الدين فى السياسة واضح وجلى.

و- ما ذكر من خلو الكتاب الكريم من النصوص المتعلقة بالسياسة العامة باطل، لكن قد يقال بأن السياسة ليست هى معرفة تلك الأمور الكلية، بل هى فن من الفنون قائم على الفصل بين الجزئيات المختلفة التى تحتاج الى كياسة وخبرة وتجربة والسائس يكون مؤهلًا إذا حصلت لديه تلك الممارسة، ولذا صنف الحكماء السياسة فى باب الحكمة العملية.

والجواب عن هذا:

- أن السياسة كما لها جانب عملى فإنّ لها جانب نظرى أيضاً، وتحكمه اصول كلية وهذه الأصول الكلية موجودة فى الدين (وقد أوضحنا ذلك مفصلًا فى بحث الاعتبار والحسن والقبح) ثم ان الدين لا- يختص بالأمور النظرية العقائدية فقط بل يرتبط بالجانب العملى وفروع الدين تمثل هذا الجانب.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۲۸

- إن السياسة علم يدرس فى الجامعات الاكاديمية ويحتوى على كليات مسطورة فى الكتب. نعم الجانب التطبيقى منها يعتمد على الخبرة والكياسة، وفى نظرية النص يكون المعصوم هو صاحب الخبرة حيث أن علمه اللدنى لا حاجةمعه الى اكتساب خبرة من الأجيال البشرية لما قد يصوره البعض فى غيبة الحجة عليه السلام «وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً»، والعلم نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء وما التجارب

والممارسات إلا معدات لذلک الفيض الالهی. هذا بجانب علمه المحيطبا لموضوعات بتسديد من البارئ وترفره علی کمال الصفات فی قواه النفسية الاخری.

ثالثا: ان الانبياء لم يکونوا هداة ومبلغين فقط بل يديرون دفة الحکم والاية المذکورة فی سورة المائدة (۴۴) أوضح دليل علی ذلک غاية الأمر ان الانبياء فی اداء هذه الوظيفة بالذات يحتاجون الی مؤازرة الناس واقدارهم وبدون رجوع الناس اليهم لا تتم هذه الوظيفة.

رابعاً: ما ذکر من أن الحاکمية خارجة عن معنی الامامة والنبوة باطل وجوابه يتضح من قوله تعالی: «إِنِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَاماً»، «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ»، «النَّبِیُّ أَوْلَی بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ»، «يَحْکُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ»، «وَأَن احْکُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ»، «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْکَ الْکِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْکُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاکَ اللّهُ»، «يَسْأَلُونَکَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ»، «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَیْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِی الْقُرْبَی وَالْيَتَامَی وَالْمَسَاکِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن کُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ»، «مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَی رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَی فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِی الْقُرْبَی وَالْيَتَامَی وَالْمَسَاکِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ کَیْ لَا يَکُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنکُمْ»، «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَکِّيهِم» فکل المنابع المالية العامة والضرائب المالية هی بيد الرسول صلی الله عليه و آله والإمام، مضافاً الی آيات

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۲۹

الولاية العامة الکثيرة «النَّبِیُّ أَوْلَی بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ»، «أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِی الأَمْرِ مِنْکُمْ» وغيرها.

خامسا: النص والعقل: انالقول بالحاکمية التعينية يلازم ويسوقإلی الحجر علی عقل الانسان وفکره وتقييد لسلطة العقلاء، فحتی فی المعصوم يحتاج الی انتخاب الناس وإلا فالولاية عليهم من دون الانتخاب هو حکم بقصورهمالعقلی. وبتعبير آخر فإن النص يحمل فی طياته التناقض وذلک لأن جعل الولاية يقتضی التعين، والقيمومة موردها القصور والحجر وکونهم قُصر يعنی عدم جواز توليتهم وتنصيبهم مع أنها وظيفتهم، فالتولية يلزم منها عدمها. ومع افتراض ان الناس عقلاء فلا معنی لجعل الولاية عليهم فالعصمة التی فی الأئمة هی عصمة ا لتبليغ والهداية لا الولاية الحاکمية، والجانب السياسی فی حياة الانسان أمر دنيوی لا يرجع فيه الی السماء والحاکم ليس إلا وکيل عن الجماعة فی ادارة شؤونها.

وجوابه: ان يکون الانسان عاقلا لا يعنی أن له الولاية المطلقة علی نفسه وعلی کل جزء من بدنه، بل ان الولاية المطلقة هی للّهعزوجل وتتصل به ولاية الرسول والامام أی المعصوم فبمجرد کونه عاقلًا لا يعنی عدم ثبوت ولاية عليه من أحد، بل إن هذا العقل ينقصه الکثير الکثيرلکی يحيط خبرا بکافة الامور غير المتناهية سواء المحيط به أو داخل ذاته، فولاية اللّه ورسوله وخليفته هی ولاية الحکيم المطلق علی العاقل بعقل محدود فی حدود نسبية يسيرة.

فلو قلنا ان الولاية تابعة لمدی عقلائيته لازمه أن تعطی الولاية للاخرين فی الامور التی لا يحيط بها عقله. فتبين أن صرف ثبوت الولاية لأحد علی أحد لا يعنی أن الاخر محجور عليه. بل للفرد العاقل ولاية فی حدود عقلائيته، والمعصوم عقله محيط بجميعالأمور فولايتهأقوی من ولايةالانسان علی نفسه. «النَّبِیُّ أَوْلَی بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ»، مضافاً الی أن المستشکل يری أن الفرد عندما ينتخب اخر

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۳۰

ويعطيهالولاية علی نفسه فهذا لا يجعله متنافياً مع عقلائيته، والبعض فراراً من هذا الاشکال ذهب الی انالحکم والانتخاب هو وکالة وليس ولاية، لکن الصحيح انه لا يمکن تصوير الوکالة بالمعنی المصطلح الجاری عليه فی باب المعاملات وذلک لأن الحاکم يقوم بالزام المجتمع بنوع خاص من القوانين والتصرفات ولا يمکن تصوير ان الوکيل يُلزم الموکل بما لا يريده فضلًا عن لزوم هذه الوکالة. إذ مقتضی أن الوکالة جائزة هو أن الامة يمکن ان ترجع فی اختيارها حتی من دون سبب وهذا لا يقول به أحد فی هذا المقام.

مضافاً الی العديد من الشواهد التی لا تنسجم مع الوکالة الاصطلاحية کالتعبير عنها بالنيابة والتولية. والقَسَم الدستوری الذی يؤديه

الحاكم، وعدم امكان الحاكم الثانى ابطال أعمال الحاكم الأول. وغيرها من الشواهد الكثيرة التى تبطل كون الحاكم وكيلا عن الفرد.
وعلى كل تقدير يبقى المجال امام الولاية فاذا كان القول بأنّ نقل ولاية الفردعلى نفسه بنفسه لا تنافى عقلانيته فكذلك جعل الوالى من قبل اللّه لا ينافى عقلائيته.

سادساً: النص والاستبداد: إن البعض ذكر أن نظرية النص تؤدى الى الاستبداد والاستبداد من المعانى المذمومة فى القران والسنة، اذ قد وردت كثير من الآيات التى تذم ظاهرة الفرعونية التى تجعل المحور ذات الفرد ولذا قال البعض فراراً من هذا الاشكال ان المعصوم ملزم بالشورى والاستشارة وملزم ايضاً بنتيجة الشورى.

والجواب عنها:

أ- ان الاستبداد ينشأ تارة من أصل النظرية وتارة ينشأ من تطبيق النظرية.

ولاجل ابطال النظرية يجب اثبات الاول.

ب- ان المشرع فى نظرية النص وضع وسائل تمنع حصول الاستبداد وذلك عن

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۳۱

طريق ضمانات اجرائية:

منها: ان المنصوص عليه هو المعصوم من الزلل والخطأ ولا ينساق وراء الذات والشهوات، وسوف يأتى فى الحديث فى غير المعصوم.

ومنها: لزوم التقيد بالأحكام الالهية بعيداً عن الهوى والاحاسيس، وهذه قاعدة فوقانية تشبه المواد الدستورية والتى يبطل كل تصرف مخالف لها.

ومنها: رقابة الامة تحت اطار الامر بالمعروف والنهى عن المنكر. وحرمة طاعة المخلوق فى معصية الخالق. ورقابتها بالنسبة الى حكومة نائب المعصوم ظاهرة وأما بالنسبة الى حكومة المعصوم فأجنحة الدولة وأفراد جهاز الدولة ليسوا بمعصومين، فتكون الامة معينة للمعصوم على مراقبة جهاز الدولة كما هو الحال فى سيرة على عليه السلام.

ومنها: لزوم اتصافه بالمواصفات المؤهلة له كالعدالة والامانة والكفاءة هذا فى غير المعصوم الذى ينوب عنه وإلا فهى فى المعصوم بالنحو الكامل المتصاعد الى العصمة العملية والعصمة العلمية. وقد قال الامام عليه السلام: لا تكلمونى بما تكلّم به الجبابرة ولا تتحفظوا منى بما يتحفظ به عند أهل البادرة.

ومنها: ان الحاكم فى نظرية النص له فى الجانب التشريعى- مضافاً الى الجانب التكوينى الخاص- حيثيتان حقوقية بما هو رسول او امام او نائب امام، والاخرى حقيقية ومن هذه الحيثية يعتبر كسائر افراد المجتمع، له ما لهم وعليه ما عليهم، وهذا لما مر فى النائب عن المعصوم واما فيه فانه كذلك سوى ما خصّ به من امتيازات فى التشريع الالهى مما شرّف وفضّل به على سائر الناس. فكل تصرف ينبع من شخصيته الحقوقية يكون نافذاً، وكل تصرف ينبع من الاخرى لا يكون نافذاً هذا فى النائب غير المعصوم والا ففيه لا مجال لاحتمال التصرف الاقتراحى.

وبتعبير آخر ان ولاية شخصٍ ما ينوب عن المعصوم هى لعقيدته وفقاهته وعدالته

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۳۲

أنيب فى الولاية لا لخصوصية شخصه، وفى نظرية النص الحاكم (المعصوم او نائبه) ينظر الى الحكم كمسؤولية وامانة وخدمة ووظيفة.

ومنها: المساواة أمام القانون فالجميع يقفون أمام القانون على حدٍ سواء وتطبق العدالة عليهم، وهو لا يعنى ان يتساوى الجميع فى العطاء- مثلا- بل يعطى كل على حسب ما هو مقدر له فى الشرع فالتفاضل والتمايز حاصل، لكنه تمايز وتفاضل رضى عليه الشرع، وهو بلحاظ عالم الاخرة لا عالم الدينا.

ومنها: المحورية فى نظرية النص ليس للفردى بما هو هو بل بما هو عبد اللّه بينما فى القانون الوضعى تكون المحورية للفرد بما هو

هو، وقد ذکرنا سابقاً ما یترتب علی هذه التفرقة وأهمها أنها فی التقنین تُؤمن ما یسد رغباته وحاجاته الشخصیة وغرائزه الدانیة من ملکیة وحریة.. وهذه کلها تعتبر من درجات الانسان السفلی.

بینما فی التقنین الالهی یکون الانطلاق من الجهة العقلیة والتألهیة أی قوی الانسان العلیا وهی المحور فی التقنین، فمصلحة المجموع قبل المصلحة الشخصیة والحریة لیس فی اشباع الإنسان لرغباته وشهواته، بل الحریة الحقیقیة هی فی سیره اللامحدود نحو الکمال المطلق ونیل الکمالات اللامحدودة، والاستبداد یأتی من حرص الانسان علی نفسه وخصوصیته وهذا إنما یرد فی النظریات الاخری لا نظریة النص التی تجعل اللّه هو الأصل والمقصد والغایة.

فهذه الأمور والضمانات الاجرائیة المانعة من الاستبداد، وهی کالقواعد الدستوریة التی یبطل کل تصرف یخالفها.

أما الاستبداد فإن نشأته تعود الی عوامل: آ- جهل وقلة وعی بالقانون. ب- وجود طبقة من العلماء والمفکرین یروجون لمحوریة ذاتهم والصلاحیات المعطاة لاصحاب المناصب. ومحوریة الفرد.

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۲۳۳

ج- التفکک والاختلاف فی صفوف الامة.

د- اشاعة الرعب والرهبة من الولاة.

ه- جعل منابع الثروة بید طبقة معینة مما ینشأ استبداد طبقی.

وهذه العوامل تجد أرضیة خصبة فی عالمنا الیوم فی الانظمة الغربیة المدعیة للدیمقراطیة ولانتخاب الأمة وسیادتها حیث تجد الفارق الطبقاتی شدیدواسعالهوة والمال دُولة بین الاغنیاء وفرعنة للطبقة الثریة تحت عنوان سیادة الأمة وتحکیم آرائها (ولایة الشوری)، وهذا ما اطلعنا علیه التاریخ قدیما فان اکثر من جاء تحت هذا الغطاء الی سدة الحکم کان فی الحقیقة بالتغلب والفتک بینما تقاوم نظریة النص نشأة مثل هذه العوامل بعد کون مرکز القوی السیاسیة والمالیة والقضائیة والعسکریة والامنیة هی بید من عصم علما وعملا کما بیناه مفصلًا وکما اطلعنا التاریخ علی حکومة الرسول صلی الله علیه و آله والامیر علیه السلام وبرهة من حکم الحسنین علیهما السلام.

الامر الرابع: الأدلة العقلیة علی الشوری ...: ص: ۲۳۳

اشارة

وله تقریبات ثلاثة:

التقریب الاول: ینطلق من أن الانسان مدنی بطبعه، ویعلم من ضرورة العقل انه لابد فی کل اجتماع مدنی من نظام وادارة تقیم هذا الاجتماع وهو المشار الیه فی قوله علیه السلام: لابد للناس من أمیر بر أو فاجر. کما ان الواجبات الکفائیة الملقاة علی عاتق المسلمین لا یمکن تعطیلها فی زمان ما، فهذه الحکومة التی تدیر شؤون هذا الاجتماع لا تخلو إما ان تکون منصوبة من قبل اللّه عزوجل، أو تنصبها الامة، أو تنال الحکم بالقهر والغلبة، وهذا الثالث باطل بالتأکید لأنه ظلم واستئثار، فینحصر الأمر بین الاولین والفرض ان النصب من قبل اللّه منتفٍ اما مطلقاً أو علی الاقل فی عصر الغیبة فیتعین انتخاب الامة.

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۲۳۴

التقریب الثانی: ان السیرة العقلائیة والبناء العقلائی جاریان علی ان الناس ینتخبون حُکّامهم بانفسهم، ولا یوجد ردع عن هذا البناء العقلائی، وهی سیرة عقلائیة جاریة حتی زماننا هذا، وهی لیست سیرة فحسب بل تقنین مرکوز فی عالم الاعتبار لدی العقلاء.

التقریب الثالث: وحاصله انه قد ثبت أن الناس مسلطون علی أموالهم، والسلطنة علی المال فرع من السلطنة علی فعل النفس، فهذا

كافٍ فى اثبات سلطنة الناس على أنفسهم، وقد يقال استدلالا على هذه المقدمة ان الانسان مسلط على نفسه بحكم العقل العملى، حيث ان الانسان مسلط على نفسه تكوينا فهو مالك لتصرفاته وحركاته وسكناته بيده ومع وجود تلك الملكة التكوينية لا حاجة للاعتبار، ومن هنا قالوا فى الاجارة ان عمل الاجير لا يملكه المؤجر قبل عقد الايجار، وهذه المقدمة قد يستدل عليها بنحو آخر بالقول ان اللّه تعالى ذكر ان الرسول اولى بالمؤمنين من انفسهم، فهو يثبت ولاية الانسان على نفسه فى مرتبة سابقة، غايتها ان الشارع جعل الرسول أولى منه بذلك وهذا خاص بالرسول او المعصوم، ومقتضى تسلط كل فرد على نفسه أنه لا يجوز لأحد أن يقهرهم، وعندما تقام الحكومة لابد من حصول تنسيق بين حريات الافراد المقتضى للحد من اطلاقها، وهذا التحديد لحرية الفرد يخالف تلك السلطنة المطلقة التى للفرد على نفسه فلابد ان يحصل ذلك بإذنه أو بتوكيل منه.

ويرد على هذه التقريبات:

اما الاول فإنا مع التسليم بالمقدمات ولكنا نختار من شقوقه نصب اللّه عزوجل بل نفس لابدية الحكم نستخدمها لقلب الاستدلال لصالح نظرية النص، حيث أن تعيين الحاكم والقائد من الامور التى يتحقق بها لطف اللّه حيث انه يدخل فى الهداية، وهو ألطف بالبشر وأكثر عناية بهم، وهذا وان كان ينطبق على المعصوم

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۳۵

إلا أنه بنفسه يمكن ذكره فى الغيبة، أى ترتب المقدمات بعينها بعد فرض وجود المعصوم حياً وان كان فى ستار الغيبة فنستكشف من اللابدية المزبورة نصب الفقيه العادل نائباً من قبل المعصوم، إذ الولى فى الأصل هو المعصوم فلا معنى لولاية الفقيه العادل بالاصالة بل بالنيابة عن إمام الأصل فيقال: ان اللّه لا يترك مجتمعه هكذا بدون ارشاد وبدون تعيين بل يذكر لهم الشروط والطريقة الفضلى فى تعيين القائد، وهذا يستلزم استكشاف نصب المعصوم للنائب الفقيه العادل وينسجم مع نظرية النيابة عن المعصوم.

وخصوصاً ان المعصوم حى ومازال يمارس دوره فى هداية الامة وحفظها سواء عبر نوابه بالنيابة العامة، أو عبر دائرة الابدال والاوتاد والسياح المغمورين بين الناس كما تشير اليه الروايات الكثيرة الواردة من طرق الخاصة والعامة، لكنهم نشطون فى مجريات الأمور المتغيرة فى العالم البشرى اجمع فضلًا عن العالم الاسلامى، ولك أن تمثل لذلك بالتنظيم السياسى السرى الذى يقوم بدور فعّال فى مجريات الامور من دون ظهور بارز على منصة السياسة فى العلن. وقد أشار الى ما يقرب من ذلك كل من الشيخ المفيد والطوسى والسيد المرتضى فى كتبهم المتعلقة بغيبته (عج).

وما يقال من أن الامة الاسلامية قد وصلت الى مرحلة الرشد العقلى التى به تستغنى عن الهداية الالهية المباشرة من خلال المعصوم أو نائبه مردود بأن الكمالات الالهية والهداية الربانية لا حدود لها، وأن الحامل لهذه الكمالات لابد أن يكون شخصاً لا محدود فينحصر العترة الطاهرة، وبعدهم تصل النوبة لهؤلاء الذين يهتدون بهداية العترة، وهذا التقريب حينئذٍ لا يتأتى إلا فى نيابة الفقيه عن المعصوم. مع أن ما يشاهد حالياً فى الأمة من تحكيم الاهواء والامراض الفكرية والاجتماعية الفتاكة خير شاهد على ضرورة المعصوم.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۳۶

أما التقريب الثانى فيرده ان هذا البناء العقلائى ليس بممضى بل ورد الردع عنه فى آيات وروايات تقدم ذكرها تشير أن الحكم للّهفقط، وأنه يضعه حيث يشاء، ويجب التنبه الى أن السيرة العقلائية ليست هى حكم العقل فالسيرة تعنى تواضع ووضع العقلاء الاعتبارى وانشاؤهم الفرضى لأجل تنظيم مجريات أمورهم وحياتهم، وبعضه يقع موضع امضاء الشارع وبعضا لا يقع كذلك وما نحن فيه من هذا القسيم.

وقد يقال بامضاء البناء العقلائى من جهة ما ورد فى نهج البلاغة (الكتاب ۵۱) حيث يصف عمال الخراج: من عبداللّه على الى أصحاب الخراج أما بعد..

فأنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فإنّكم خزّان الرعية و وكلاء الأمة:

فالتعبير بوكلاء الامة يعنى ان الامة قد أوكلت الإمام وهو بدوره أو كل هؤلاء.

والجواب:

أ- فى التقنين الاقتصادى الاسلامى يعتبر الخراج ضريبة توضع على الأراضى، وهى ملك المسلمين وليست ملكاً للإمام ولا الحاكم، فمن يكون على أموالهم له نوع من التوكيل وهذا غير من نحن فيه، وهذا التقنين غير وارد فى الفيء والانفال حيث انها ملك لولاية المعصوم نظير ما يقال حاليا ملك الدولة لا الامة.

ب- ان الامام قال: «وكلاء الأمة وسفراء الأئمة». فهؤلاء لهم لحاظان فمن حيث كون المال للمسلمين فهو بمنزلة الوكيل، ومن ناحية الولاية على التصرف والتدبير فهو بيد الحاكم وهو سفير له.

ج- الايكال له معنى آخر غير الاصطلاحى وهو يحصل بأن يوكل الانسان أمراً الى آخر مع أنه ليس تحت يده كما فى التوكل على اللَّه وايكال الأمر إليه، وإنما يعنى جعل همّ وتدبير ذلك الشيء بيد الآخر.

وما قيل من دلالة قوله تعالى: «فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۳۷

أَحْسَنَهُ» «۱»

، على مشروعية الانتخاب ومدح وتحسين غريزة الانتخاب وهو دليل على امضاء السيرة العقلائية مردود. بان الاية فى صدد بيان ممدوحية متابعة القول الحسن فالمحورية ليس لانتخاب الفرد وأعمال سلطة وولاية وارادته وانما انتخاب قوته الفكرية وانتقاءه أصوب وأحسن الآراء كما تقدم فى الاستشارة والشورى، وهذا هو مضمون الآية، ثم ليس أن ما انتخبه هو الحسن بل المحورية للحسن فى نفسه وانه يجب على الفرد اتباع ما هو حسن لا أن ما ينتخبه يصبح حسناً.

اما التقريب الثالث: وهذا التقريب تارة يستدل به على الشورى فى قبال النص وتارة فى طول النص، وعلى كل حال فانطلاقة هذاالتقريب هو من أن الناس مسلطون على انفسهم، لكن الرواية لم تذكر ما هو مورد السلطنة هل هو التصرفات الفردية الخاصة، أم التسلط علىالنفس فى الامور العامة التى تمس منافع الاخرين من الاموال العامة كالمباحات وإقامة اركان الدين فى المجتمع وبث الهداية بتوسط جهاز الدولة والرقابة والاشراف على مسير الامة فى كل المجالات لتأخذ طريق الكمال، والرواية غير ناظرة للأمرالثانىبل تتعرض فقط للأمرالأول، وحتى هذه السلطنة ليست مطلقة له بل هى محدودة بما أجاز له اللَّه، والدليل على ذلك مضافاً الى ما تقدم ذكره من ان الولاية فى الاساس هى للَّهوكل الولايات بما فيها الولاية للفرد على نفسه متشعبة من الولاية الاولى. ان اللَّه عزوجل حرم بعض التصرفات التى يكون فيها ربا واحل البيع وهو نوع تصرف، وغيرها من القيود التى جعلها اللَّه على تلك التصرفات فهذا أدل دليل على أن هذا النوع من السلطنة على تصرفه غير مطلقة بل هى للَّهعزوجل أحل له التصرف فى نطاق وحدود معينة، ومن هنا نقول

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۳۸

ان اللَّه عزوجل يمكن ان يجعل الولاية فى الأمور العامة لِمَن يشاء وأن يمنعه من التصرف فيها كيف يشاء.

وقد يصور البعض هذا التقريب بحكم العقل العملى بحسن تصرف الانسان بما يتولاه، أو أن الواقعية التكوينية تدل على أنه مسلط على نفسه وعلى عمله تكويناً فضلا عن الاغيار.

ويجاب عن هذا التصوير أن حكم العقل العملى بتحسين او تقبيح التصرف يعود ويدور مدار الكمال الواقعى وهو مدى أحقية هذا الفرد بالتصرف وهذه الأحقية تعلم من كتاب اللَّه. فى مثل هذا المورد الخفى جهاته مع تكثرها.

أما لو اريد الاستدلال بالتقريب على الشورى فى طول النص فجوابه انه مع وجود النص فهو تقييد وتخصيص للرواية وللقاعدة العقلية فيجب أن يعلم ان هذا التخصيص هو استثناء طارئ او استثناء دائم، مضافاً الى انه فى عصر الغيبة لا نعدم وجود الامام فالولاية له

وليست منقطعة او متوقفة كما هو ضرورى مذهب الامامية ومقتضى الأدلة كتاباً وسنة. مع ان لازم هذه الدعوى من كون منتخب الأمة له الولاية بالأصالة من قبل الامة لا من قبل المعصوم لعدم بسط يده فى الخارج، هو أنه فى فترة الخمس والعشرين عاما التى لم يتسلم كان الامير عليه السلام مقاليد السلطة فيها وكذا بقية الأئمة عليهم السلام تكون الولاية للأمة ولمنتخبها لا للإمام المعصوم عليه السلام، وهو كما ترى يناقض أوليات المذهب والأدلة القطعية.

إشكالان ودفعهما ...: ص: ۲۳۸

من الأدلة على الشورى وهى فى كنهها اشكالات على نيابة الفقيه عن الإمام، وأن النيابة انما تكون للمجموع، أى أن النيابة عن المعصوم لابد أن تكون هى المجموع لا الفرد (الفقيه) فالشورى ان لم تكن صياغة بديلة عن النص فى الغيبة

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۳۹

وفى طول النص، فلا محالة هى المتعينة لنيابة المعصوم، وانها تستمد الولاية منه نيابة لا بالأصالة من الأمة.

وبعبارة اخرى ان الادلة المتقدمة التى لم تتم لإثبات الشورى الا أن هناك نمطين آخرين لاثباتها غير ما تقدم:

الاول: عدم تمامية أدلة النيابة للفقيه.

الثانى: أن أدلة النيابة توكل الأمر الى الامة.

- الاشكال الثانى الذى اعترض على نظرية نيابة الفقيه هو عدم امكان حصر السلطات بيد الفقيه لأنه ليس بمعصوم، وقد يقرب الاشكال بنحو آخر وهو أن يقال ان الشيعة فى تجويزهم للفقيه بتولى السلطات مع انه غير معصوم يكونون قد تراجعوا عما دافعوا عنه فى زمن ظهور الائمة من وجوب تولى المعصوم سدة الحكم، وعليه فاذا جاز للفقيه تولى الحكم، فالعصمة ليست شرطاً فبطلت ضرورة خلافة الائمة، و اذا كانت العصمة شرطاً كيف يجوز للفقيه تولى السلطة.

والجواب عن كل ذلك ان هذا الاشكال يرد لو قلنا بالولاية المطلقة للفقيه نيابة عن الامام وأن ما للامام له، أما على ما يقوله مشهور علماء الإمامية من أنّ تولى الحكم ليس يعنى توليه لكل الصلاحيات الثابتة للمعصوم، بل الفقيه فى توليه للسلطة فى زمن الغيبة حاله حال الولاة النواب فى زمن ظهور الامام عليه السلام من كون صلاحياته النيابية هى فى تطبيق الأحكام الشرعية فى مجال الولاية التنفيذية كما له منصب القضاء ومنصب الافتاء واستنباط الاحكام.

ثم ان اختيار مصداق وفرد الفقيه الذى يتولى سدة الحكم اوكله المعصوم للأمة، فهم الذين يختارون من تجتمع فيه الشرائط لكن منشأ ولايته تكون بإنابة المعصوم له بالنيابة العامة، والأمة بعد ذلك تظل فى رقابتها للفقيه وحيازته وواجديته للشرائط العلمية والعملية.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۴۰

وبعبارة أخرى حيث أن الأئمة عليهم السلام لم ينصبوا نائباً خاصاً كما فى عصر الحضور والغيبة الصغرى، كان جعلها نيابة عامة يفيد تخيير الأمة فى اختيار أحد المصاديق ممن ينطبق عليه شرائط النيابة العامة عن المعصومين عليهم السلام.

واما ما ذكر من التقريب الآخر فهذا نابع من جهل بمقام الامامة وما يرادفها، فإن الامامة لا تساوى تسلم سدة الحكم، وبالتالى فلو كانت تعنى الامامة التسلم الفعلى لسدة الحكم لكان عدم تسلم الأئمة عليهم السلام السابقين لسدة الحكم يعنى عدم فعلية امامتهم وعدم فعلية ولايتهم، مع انا ذكرنا أن الحكم ليس منحصراً فى الحكومة الظاهرية فان ممارسة الحكومة الخفية والنفوذ على الاتباع فى الابعاد المختلفة هى نوع من المباشرة للولاية وكذا للحال فى الامام الثانى عشر (عج) فإن مباشرته للأمور ليست منحصرة فى العلن فراجع. بل ان هناك شؤون ومقامات اخرى للامامة- وهذه الشؤون والمقامات ليس للفقيه منها حظ-:

منها: السلطة والولاية المعنوية والتكوينية، وهذه لها شعب لا مجال لبسطها فى المقام.

ومنها: وجوب المودّة بنص القرآن «قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى».

ومنها: الإقرار والاعتقاد بهم، وهو ركن في تحقق الإيمان قال صلى الله عليه و آله: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» «۱»

فأوجب المعرفة للإمام وهو عنوان غير عنوان الطاعة الواجبة، وحذّر صلى الله عليه و آله بأن من لم تتحقق لديه تلك المعرفة فسيموت على الكفر الجاهلي الذي ما دخل الإسلام.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۴۱

ومنها: عرض اعمال العباد عليهم، قال تعالى: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ»، فان عرض اعمال كل الامة المخاطبة في هذه الاية لا يكون على الامة المخاطبة وانما على عدة خاصة من المؤمنين الذين يتلون مقام رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

وغيرها من المقامات والمناصب الاخرى.

- ومن الاشكالات: عدم وجود نص على نصب الفقيه نائباً عن المعصوم وعندئذ نعود الى مقتضى القاعدة عند عدم النص وهو كونه بيد المجموع والأصل عدم تسلط أحد على أحد.

وبتقريب آخر انه مع الايمان بوجود الامام عليه السلام في سماء الغيب إلا انه مع عدم تمامية النص على فقيه معين يعني عدم وجود النائب الخاص.

والجواب: ان النص ثابت وجلي في نصب الفقيه كما تقدمت الإشارة اليه من الآية والروايات والدليل العقلي وقد حرر في محله، وقد نشير اليه بنحو أوفى مؤخرا.

مضافاً الى انه عند عدم النص على النائب كيف يصل الامر الى ولاية الشورى والحال أن المعصوم الحيّ هو الوليّ بالفعل بل تصل النوبة طبقاً لقاعدة الحسبة، وهي إما يستكشف منها نيابة الفقيه العادل كما قدمناه، واما يستكشف مجرد مأذونيه التصدي وتجعل القدر المتيقن هو الفقيه، وهذا واضح من الفقهاء الذين لم تتم لديهم أدلة النيابة العامة للفقيه طبقاً لقاعدة الحسبة أسدوا جواز التصدي والتصرف من باب مجرد المأذونية لا المنصب والتولية في الجهاد ونحوه للفقيه.

وبين التخرجين فروق مذكورة في تلك الأبواب.

وعليه فيمكننا القول إن المذهب الرسمي لفقهاء الامامية لا- ينتهي إلى قاعدة الشورى بل لا يمكن ملائمة تلك القاعدة مع القول بالامامة.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۴۲

فلنستعرض الان النظرية المختارة والهدف منها هو القراءة العقائدية للطرح الموجود في الفقه السياسي أي ان الاطروحة هل تتلاءم مع الأسس التي اسست في علم الكلام ام لا.

والوجه الاخر الذي نريد الاشارة اليه هو أن ادلة النص على نيابة الفقهاء تامة وهي توكل تعيين المصداق الواجد للشرائط بيد الأمة وأنها تظل على مراقبته له.

وهذه الطريقة لها نظائر في الفقه الامامي.

*- في تولي سدة القضاء فقد تسالم الفقهاء على ان للمتخاصمين وللمتنازعين ان يعينوا من يشاؤون من القضاة الجامعي للشرائط فيختارون من شاؤوا ويرجعون اليه.

*- ما ورد في المرجعية وسدة الفتيا اذ من اجتمعت فيه الشرائط يصح للناس الرجوع اليه فيختار الناس من يشاؤون ممن اجتمعت فيه الشرائط وجواز فتياه لا يكون بسبب رجوع الناس اليه بل بالنصب العام من الامام عليه السلام لمن اجتمعت فيه شرائط الفتيا.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۴۳

المبحث الخامس: أدلة نصب الفقهاء ... ص: ۲۴۳

اشارة

- اما ما ورد من النصب للفقهاء بنحو عام فيمكن الاستدلال به بما يأتى:

۱- فى سورة المائدة: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» «۱»

.سبب النزول: يكاد يجمع المفسرون من العامة والخاصة على أن سبب النزول هو اختلاف بنى النضير وبنى قريظة، فقالت بنو قريظة انه اذا قتل منهم واحد شخصاً من بنى النضير قتلوا القاتل، واذا كان القاتل من بنى النضير والمقتول من بنى قريظة اعطوا الدية.

وكان اليهود اذا كان الزانى من الاشراف لم يقيموا عليه الحد، واذا كان من غيرهم اقاموا عليه الحد. فنزلت هذه الايات الشريفة لبيان ماذا يجب على علماء بنى اسرائيل وربانيهم من الحكم.

- ان الاية تدل على ان العلماء مخولون طولياً فى طول الربانيين، وهم أوصياء الأنبياء بقرينة ذكرهم بعدهم وقبل الأحبار- وغيرها من القرائن التى تقدمت الإشارة اليها- لتولى سدة القضاء والفتيا والتى اجملت فى سدة الحكم وهذه النيابة ثابتة بإذن المعصوم.

- ان هذا التفويض ليس مختصاً بعلماء بنى اسرائيل بقرينة كونه خطاباً

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۴۴

للرسول صلى الله عليه و آله من بداية اية ۴۱ وانما ذكر التوراة لانها هى التشريع الالهى الذى يقضى به الأنبياء والربانيون والعلماء فى ذلك الموقف فكذلك القرآن فيه التشريع الالهى الذى يحكم به هؤلاء وإنّ هؤلاء هم الذين يصلحون للحكم.

- ان الحكم المذكور أعم من القضاء بل يشمل الفتيا، والحكم انما يقام لأجل أن يُعمل به ويُنفذ.

۲- رواية عمر بن حنظلة:

جرى الكلام فى مدى وثاقة عمر بن حنظلة حيث لم ينص على توثيقه فى كتب الرجال المعروفة، ولذا يعتبر البعض رواياته من المقبولات. ولكننا نذهب الى وثاقته، بل نعدّ هذه الرواية من الصحيح الاعلائى تبعاً لما ذهب اليه عدة من الفقهاء منهم الشهيد الثانى والدليل على ذلك:

أ- ما رواه فى الكافى عن يزيد بن خليفة، قال: قلت لابىعبداللّه عليه السلام: ان عمر بن حنظلة اتانا عنك بوقت، فقال ابوعبداللّه عليه السلام: إذاً لا يكذب علينا.

وهذه الرواية واردة فى مسألة حساسة كانت محل خلاف بين كبار فقهاء الشيعة فى الكوفة، فعندما يكون لابن حنظلة رأياً يرويه عن الصادق عليه السلام فهذا يدل على مكانة علمية له ومرجعيته لثلة من الشيعة، كما لا يخفى على من أحاط خبراً بمسألة الوقت التى ثارت بين جماعة زرارة وجماعة أبى بصير وجماعة محمد بن مسلم.

وروايات يزيد بن خليفة متينة.

ب- نفس الرواية التى هى مورد الاستشهاد نلاحظ فيها التشقيقات الواردة، وجواب الامام عن كل منها يدل على فقاهة وعلمية للسائل، وان الامام جاراه فى تشقيقاته ولم يمانع.

ج- يروى عن محمد بن مسلم بسند صحيح «۱» أن مشكلة حصلت لدى آل المختار فحمّلوها ابن حنظلة ليسأل الامام عنها واذا علم ان

ديدن الشيعة هو تحميل

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۴۵

المسائل للكبار المعروفين بالفضل لاسيما من البيوتات المعروفة. وان نفس محمد بن مسلم مع منزلته ومكانته هو الذى يروى الرواية ولم يذكر مغمزاً فى ابن حنظلة مما يدلل على أرفعية منزلة ابن حنظلة على ابن مسلم إذ العادة فى الأقران عدم التصريح بوقوع مراجعة لقرينه فى مسألة علمية مهمة من وجهاء الشيعة.

د- رواية اصحاب الاجماع عنه.

ه- ان ۲۱ راويا مسلّم بوثاقتهم يروون عنه.

د- ان أخيه على بن حنظلة نصّ على توثيقه وهو دون اخيه وجاهة وعلمية «۱».

اما فقه الرواية

فالبعض كالسيد الخوئى قدس سره أصرّ على ان مورد الرواية هو فى قاضى التحكيم والمشهور هو دلالتها على قاضى التنصيب، والدليل على ذلك أن القاضى الذى ينصبه الامام حيث يحتاج فى انفاذ حكمه وبسط يده الى مؤازرة الناس، وعبّر عليه السلام ب «فليرضوا به حكماً» الا انه قد جعله حاكماً فى الرتبة السابقة معللًا الأمر فى «فليرضوا..» والان تصل النوبة للناس حتى يرضوا به حكماً.

ويؤيد ذلك انه فى معتبرة أبى خديجة حيث وردت بنفس اللسان يعترف السيد الخوئى انها فى قاضى التنصيب ولا يعلم وجه التفرقة بينهما.

وبعبارة أخرى انه فى المعتبرة ذكر بعد «فليرضوا.. فإنى قد جعلته» ... وليست الفاء للتفريع بل هى تعليل لوجه الأمر بالرضا ولو كان قاضى تحكيم لما كان للتعليل وجه.

ويؤيده انه ورد فى المعتبرة: «فالراد عليه كالراد علينا»، ولو كان قاضى التحكيم لما كان هناك وجه لاعتبار الراد عليه كالراد علينا، بل الوجه هو لأنه قاضٍ منصوب من قبل الامام فالراد عليه هو راد على مقام الطاعة والولاية.

ومادة الحكم كما ذكرنا ليست خاصة بالفقهاء بل الترافع سابقاً كان يجرى لدى

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۴۶

السلطات والقاضى على حد سواء، مضافاً الى أن القاضى كان يمارس جميع الامور الحسبية والفتيا بالجهاد وهو أمر تنفيذى كما فى الفتيا الملعونة لابن شريح بقتل سيد الشهداء عليه السلام، وكذا إقامة الحدود والقصاص، وهو جانب تنفيذى يتعلق بأمن الدولة والمجتمع وغيرها من المجالات التى يجدها المتصفح لعصر صدور الرواية، والتفكيك بين القضاء والفتيا وبين الممارسة السلطوية غير تام.

۳- التوقيع الشريف الصادر عن الناحية المقدسة.

فقد اعتبره البعض ضعيفاً لوروده فى الاحتجاج مرسلًا، لكن الشيخ الطوسى أورده فى الغيبة بسند عالٍ.

حيث يورده عن الكلينى، وكان يتشدد فى التوقيعات اكثر من تشدده فى الرواية العادية، والسر فى ذلك أنه صادر عن الامام الحى الفعلى فهو يعين التكليف الفعلى للسائل، مضافاً الى ظروف التقية، ووجود النائب الخاص الذى يستطيع تكذيبه، وأن اجابة الناحية المقدسة للسائل يعتبر نحو تشريفٍ له، فلو لم يكن التوقيع موثقاً لما رواه الكلينى.

نعم قد اشكل انه لم يورد الكلينى هذا التوقيع فى الكافى، وجوابه ان الكافى خالى من التوقيعات تماماً مع أنه معاصر للنواب الخاصين ويُعزى سبب ذلك ان الكلينى اراد ان ينشر كتابه ومع ظروف التقية واختفاء الامام نقل التوقيع يعلم منه وجود الامام ونحوه.

ثم ان الكلينى يروى عنه الطوسى كثيراً من الروايات وهى غير موجودة فى الكافى، فهذا يعنى انه لم يودع كل ما يرويه فى الكافى مضافاً الى ضياع بعض مؤلفات الكلينى وعدم وصولها الينا.

اما فقه الرواية:

فان التوقيع يحمل اجوبة عن اسئلة متعددة لا ارتباط بينها، ومحل الاستشهاد الفقرة «واما الحوادث الواقعة».

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۴۷

أ- المحقق الاصفهاني في حاشية المكاسب يصرف ظهور هذه الفقرة عن محل الاستشهاد، ويذكر ان لها ارتباطاً بما ذكر سابقاً في التوقيع ويتعرض فيه لوقت الظهور، وأن الوقاتين كاذبون أو المقصود بالحوادث أي الأمور المرتبطة بعلامات الظهور لا ارتباط لها بجعل الفقهاء في سدة الحكم والقضاء والفتيا.

ويجاب عنه: بأنّ الفاصل بين الفقرتين فقرات ترتبط بمواضيع اخرى فلا يعقل أن تعود الحوادث لعلامات الظهور.

ب- واحتمل ان يكون المراد من الحوادث هي الشبهات الواقعة من قبيل حكمها الكلي، فيرجع فيها الى رواة الحديث والفقهاء. أو يقال يراد منها بالاضافة الى ما سبق الشبهات الحكمية من حيث حكمها الجزئي، أي من جهة فصل الخصومة وهو القضاء وجعل سدة القضاء للفقيه.

لكن الجمع بينهما غير ممكن لأن الشبهة الحكمية من حيث حكمها الجزئي تتبع موازين القضاء، ومن حيث حكمها الكلي تتبع موازين الفتيا.

وقد استدل البعض للتعميم بقوله: «هم حجتي عليكم» وهذا لا يناسب مقام الفتيا اذ لا موقعية لكلام المعصوم، فالفتيا اخبار عن المعصوم وهو مخبر محض عن الرسول عن اللَّه.

فيكون المقصود الولاية في القضاء أو الولاية في تدبير الشؤون وهذا ايضاً غير تام لان في فتيا الفقيه، ونقله عن المعصوم- في مقام الفتيا- موضوعية وليس طريقاً محضاً إذ فتيا الفقيه هي دراية للحديث لا رواية للحديث. وأما كون فهم الفقيه فتيا مستندة الى ما فهمه من قول المعصوم فله موضوعية أيضاً لحجية قول المعصوم لا من باب أنه راوٍ بحت للحكم كبقية الرواة، بل انهم عليهم السلام يبلّغون عن اللَّه بقنوات ربانية مسددة لا يداخلها الوهم والخيال ولا وساوس الشيطان ولا الهوى ولا الجهل، فمستقى علمهم لدني معصوم من الزلل والخطأ ينقلونه بالحق والصواب، ويؤدونه الى الخلق بالحق والصواب، فعلمهم ليس مرهون بدرجة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۴۸

التتبع والفحص وقوة التدبر والاستظهار نظير أفراد الفقهاء والمجتهدين فلا يصح التنظير لحكمهم واخبارهم عن اللَّه ورسوله وتقدمه على حكم واخبار غيرهم برواية الأعدل والاضبط عند المعارضة برواية الأقل عدالة وضبطاً فإن هذا التنظير مرتكز على نظرة بقية المذاهب لا نظرة الإمامية والنصوص القرآنية والنبوية في حقهم.

ج- ان (ال) في الحوادث ليست عهدية او اشارة الى حوادث معينة بل هي مطلقة تشمل كل الحوادث، ويدلل على ذلك أن هذا التعبير متخذ كالاصطلاح في الاوساط العلمية من العامة والخاصة آنذاك بل منذ القرن الثاني يدل على مجريات الامور الحادثة وسدة الحكم. فراجع كلمات العامة عن متقدميهم.

- انه قد ورد في التوقيع: «انهم حجتي عليكم وانا حجة اللَّه» فهذا تصريح بالطولية وأن حجتهم منبثقة عن حجية المعصوم وهي وان لم تكن عينها بل بينهما فوارق.

لكن اطلاق المتعلق للحجية يفيد الشمول لكل من الحكم والقضاء والفتيا. وبعبارة أخرى أن متعلق حجيته (عج) سارية في الموارد الثلاثة، ومع إطلاق النيابة المدلول عليها بالطولية في التعبير المزبور تشمل الموارد المزبورة مع التحفظ على عدم الاطلاق بنحو التطابق كما ذكرنا سابقاً لموضوعية العصمة كما لا يخفى.

وههنا اشكال معروف له صياغتان:

إحداهما: انه كيف يتصور في عهد الغيبة الصغرى ومع وجود النواب الخاصين تجعل النيابة العامة والولاية للفقهاء.

والاخرى: ان روايـة ابن حنظلـة ومعتبرة ابى خديجة اذا اسـتفيد منها النصب العام فهو نصب من قبل الامام الصادق عليه السـلام فكيف يبقى ذلك التنصيب الى زمن الحجة عليه السلام والمعروف انه بموت المنوب عنه تبطل النيابة.

وجواب هذا الاشـكال يعلم من التأمل فى حالة النيابة العامة وفلسـفتها حيث ان الائمة عليهم السـلام واتباعهم كانوا يعيشون ظرفاً خاصاً فمع انهم ارادوا المحافظة على المذهب وتعاليمه ارادوا الا يظهروا بمظهر المخالف حتى لا ينالوا عقاب السلطة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۴۹

الحاكمـة آنـذاك، فمع هذه الظروف كان هناك وكلاء خاصون للائمة لكنهم كانوا محط نظر لا يسـتطيع الشـيعة الرجوع اليهم دائما، فجعل النصب العام والنيابة العامة حتى يكون للأئمة عليهم السلام أذرع مختلفة فيسهل الامر على الشيعة فى الرجوع اليهم.

مضافاً الى ان الحكم الولائى التنفيذى يلزم أن يكون موقتا بل يمكن ان يكون دائماً فاذا وجدت القرائن على ذلك كصيغة الحكم هنا ووردت على نحو القضـية الحقيقـية فتـدل على عمومه وديمومته. نعم اذا وجـدت قرائن تدل على توقيته فانه يبطل بوفاة الامام مباشـرة. واذا كان على هذا النحو لا يسمى تنصيباً بل يكون نحو من الوكالة والمأذونية اما الديمومة فانها تتصور فى التنصيب.

هذا كله مضافاً الى ما تقدم فى المناقشات السابقة من الاشارة الى الوجه العقلى للنيابة، ووجه قاعدة الحسبة فى استكشاف النيابة للفقيه العادل وغيرها من الوجوه المحررة فى موضعها من علم الفقه.

الخلاصة ...: ص: ۲۴۹

۱- ان للفقيه الولايـة بحسب بسط يده، وهذه نظرية مشـهورة بين علماء الامامية، فلاحظ ما ذكروه فى باب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما صـرح بـذلك المفيـد فى أوائل المقالات وغيره من الفقهاء، فهم يقومون بالرقابـة التنفيذية على شؤون الحاكمين اذا اتيح لهم المجال، وهـذه الرقابة لا تكون فى مورد النزاع والتخاصم فقط بل فى المجال التنفيذى، نعم ذلك لا يعنى عدم اسـتعانته بالخبرات الكفوءة، بـل لابـد منه كـل حسب مجاله وخبرته واسـتشارتهم أو ايكال بعض الامور فى تلك المجالات لهم مع رقابته، وبعبارة أخرى شكل الجهاز والنظام هو بحسب آليته بحسب الظروف مع مراعاة الموازين العامة.

۲- فى حالـات عـدم بسط اليـد لا تكون الولايـة لغيره، لأن بسط اليـد من قبيل قيـد الواجب وهو فرض امكان تنفيـذ الوظيفـة، نعم فى الامور التى لا يستطيع مباشرتها يوكلها للمتخصص الكفؤ.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۵۰

۳- التعبير الوارد «فارجعوا.. فليرضوا.. واجعلوا» خطاب عام لكل المكلفين بوجوب السـعى الى تعيين المصـداق من بين الفقهاء كما مر بيانه.

۴- ان الاسـتشارة لازمـة وان كانت غير ملزمـة له وافضـليتها من باب ان الاسـتعانة بالعقل الجماعى أسـد وأفضل مما يتوصل اليه العقل الفرد، وهو ما يسمى حديثاً بالاستعانة ببنك المعلومات.

۵- ذكر بعض اصـحاب التلفيق بين نظرية النص والشورى فى كيفية الحكم فى عصر الغيبة من ان النصوص عمومها مجموعى وبالتالى يصل الى شورى الفقهاء.

وان ارادة العموم الاستغراقى يلزم الترجيح بلا مرجح اذ ترجع كل فئة الى واحد فترجيح احدهما على الاخر يكون بلا مرجح.

والجواب عن هذا:

أ- ان ظاهر لسان الدليل: «فاجعلوا رجلا..» هو الاسـتغراق لا المجموع، ويدين الفقهاء على اسـتظهار الاستغراق منها، وتكون النتيجة ان يتصـدى الكل للفتيا ولو فى عرض واحـد ويمارس الكل الجانب التنفيـذى وان كان فى منطقة محدودة والا لزم فى القضاء أن لا ينفذ

الا الحكم الصادر من المجموع وهو كما ترى.

ب- ان استظهار الاستغراق لا ينافى امكان اخذ شورى الفقهاء اذ قد يرى الفرد والأمة الصلاحية فى فقيهين او اكثر، وقد اثير نظيره فى بحث القضاء فى احكام اتخاذ قاضيين او اكثر. ويذكرون هناك كيف يكون الحل عند الاختلاف.

وللمسألة تفريعات وتشقيقات تستعرض فى مواضعها.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۵۱

الفصل الثالث: المقام الغيبى فى الإمامة ... ص: ۲۵۱

اشارة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۵۳

المقام الغيبى فى الإمامة

كما ذكرنا فى بداية الكتاب أن الحديث حول الإمامة له جوانب متعددة وجهات مختلفة، وقد تناول علماؤنا المتقدمون والمتأخرون- رضوان اللّه تعالى عليهم- البحث حول اثبات النص وإفحام الخصم وإقامة الأدلة المتنوعة على إثبات إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، وخلافته عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أمثال الإرشاد والغدير وعبقات الأنوار والمراجعات وغيرها كثير، وكانت نتيجة هذه الجهود المتواصلة أن أصبح البحث حول صحة وتواتر حديث من أحاديث الولاية من السهولة واليسر مما لا ينكره إلا مكابر أو معاند. والبحث الذى نريد أن نتناوله هنا هو حقيقة الإمامة وما هيتها وكنهها، وهو ليس أمرا مبتكرا فى بابه، فقد تناوله الأعلام لكن بنحو مضغوط ومبعثر فى ذيل تفسير بعض الآيات القرآنية، وفى شرح بعض الأحاديث الشريفة، ونسعى إلى طرح ذلك من خلال نهج واضح وأسلوب يرفع الستار عن كثير من الحقائق التى خفيت فى كتب الأقدمين ويعتبرها بعض أهل العصر من العجائب والغرائب، وقبل الشروع فى ذلك نقدم ذكر بعض الامور التى لها مدخلية فى البحث:

أولًا: تحرير محل النزاع ... ص: ۲۵۳

يعتبر مصطلح الإمامة من الموضوعات التى كانت مثار بحث وجدل بين المتكلمين والفقهاء من الصحابة والتابعين وغيرهم منذ بدأ عصر الرسالة، وعندما

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۵۴

يحررون محل النزاع يقال: إن الإمامة ترادف الزعامة الدنيوية، وأن البحث حول الإمامة هو البحث حول من يجب أن يتولى إدارة أمور المسلمين ومن يكون له الأمر والنهى، وبالتعبير الحديث حصر محل النزاع فى ما يصطلح عليه اليوم بالفقه السياسى.

وتوسع بعض المتكلمين من الامامية بل أكثرهم فى محل النزاع، وأضافوا إليه الزعامة الدينية بمعنى أنه بالإضافة إلى دور الإمام فى إدارة شئون المجتمع فهو يقوم ببيان الدين والذب عنه ونشر الأحكام الشرعية، فيُعد قوله وتقريره مصدرا من مصادر التشريع الإسلامى.

ونحن لا ننكر هذين الموردين- وإن كان العامة قد انكروهما وأصبح موردا للنزاع- لكن نقول أن الأمر لا ينحصر بهما، بل أن الإمامة تحمل فى طياتها معنى أوسع وأكبر مما ذكره هؤلاء جميعا، ويمكننا القول أن علماءنا رضوان اللّه تعالى عليهم ألجأتهم ظروف التخاصم والتقية إلى ذكر ذلك كمحل للنزاع ولا يحصرون اعتقادهم بالإمامة فى هذا النطاق.

فالإمامة فى حقيقتها هى محور الاتصال بين الأرض والسماء، حيث أن الاتصال الغيبى بين الخالق ومخلوقه لم ولن ينقطع منذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة، فدائما يوجد من يمثل تلك الصلة الروحية والمعنوية ومن هنا اعتبروا الإمامة امتدادا للنبوة والرسالة، فهى من

تلك الجهة تؤدى نفس وظيفة النبوة فى عالم الدنيا.

فإن الأدلة قائمة على ضرورة وجود حجة للّهعز وجل فى كل زمان، وأن الاتصال لا ينقطع بوفاة النبى صلى الله عليه و آله، وهذا هو المقام الإلهى الذى يثبته الامامية الأثنى عشر، وهو من الامور التى انفردوا بها عن بقية المذاهب حتى الاسماعيلية والزيدية، وهنا يكمن النزاع والخلاف مع المذاهب الأخرى، وتلك الحقيقة هى

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۵۵

التى نريد إماطة اللثام عنها.

ومن الشواهد التى تؤيد ما ذكرناه: أن الأئمة فى دعواهم للإمامة لم يكونوا ليقصروا حديثهم على زعامة المسلمين، بل كانوا يركزون على مقامات أكبر من ذلك ويذكرون فى كلماتهم اتصالهم بالغيب، وتحديث الملك لهم، وأن علومهم من نور، وإطلاعهم على أعمال العباد، وأن ما لديهم هو علم لدنى.

والجدير بالذكر أن مثل هذه الدعاوى لم تصدر عن غيرهم ممن عاصرهم أو من أتى بعدهم، بل غاية ما ادعوه هو تصديهم للزعامة الدنيوية، ومن هنا نرى بعض المنحرفين يرمون الأئمة بدعوى الألوهية والنبوة، وذلك لأن الأئمة كانوا يركزون على مسألة الاتصال بالغيب وهى أعم من النبوة والإمامة.

بل فى موقف عمر بن الخطاب مع سلمان المحمدى ما يدلل على أعمق من ذلك فقد روى الشيخ الطبرسى «۱» أن سلمان قال- لعمر-: أشهد أنى قد قرأت فى بعض كتب اللّه المنزلة أنك باسمك ونسبك وصفتك باب من أبواب جهنم. فقال لى: قل ما شئت أليس قد أزالها اللّه عن أهل هذا البيت الذين قد اتخذتموه أربابا من دون اللّه «۲».

وفى ذيل قوله تعالى: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا» «۳»

يذكر البحرانى فى البرهان وكذلك الطباطبائى فى الميزان أن نافع كان على خط الخليفة الثانى جالسا فى المسجد الحرام فى موسم الحج، إذ رأى أن الناس قد تجمعوا حول شخص (وهو الإمام الباقر عليه السلام) فسأل هشام بن عبد الملك: من هذا الجالس الذى اجتمعت عليه الناس؟ فقال: هذا نبى أهل الكوفة.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۵۶

فهم كانوا يعرفون أن عقيدة الامامية هى بأن هؤلاء هم الرابط بين السماء والأرض، فالتهمة بالربوبية ليست تهمة جديدة بل لها جذورها من العصر الأول، والسبب فى ذلك أن دعوى الربوبية- فى أذهانهم- تختلف عن دعوى الألوهية، فالربوبية تعنى اتحاد الوسائط بين الارض والسماء، وذلك لأن الإنسان بنفسه يذعن بعدم إمكانيته الاتصال بالغيب وفى نفس الوقت يشهد عقله بأن الاتصال بالغيب لابد منه.

فحكم الفطرة يوجب ان تكون هناك واسطة، ولكن يجب فى هذه الوسائط أمران:

أحدهما: أن تكون مجعولة من قبل الخالق الواحد الأحد، لا أن يختلقها بنو الإنسان كما كانوا يفعلون فى الأصنام.

والثانى: أن لا تصل هذه الوسائط إلى رتبة الألوهية فهى مخلوقة للّهوهى ذليلة للّه تعالى «إِن كُلُّ مَن فِى السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمنِ عَبْداً» «۱»

وخاضعة له سبحانه فى السر والعلانية، وسوف يأتى مزيد بيان لهذا المطلب.

ثانياً: الإمامة وراثة نسبية أم روحيّة ... ص: ۲۵۶

ينسب إلى الشيعة القول بأن الإمامة وراثية، وبالتالى فهم يقولون أن الزعامة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الرئاسة بين الملوك وأبنائهم. وهذا لا أساس له من الصحة إذ بناء على ما ذكرنا من أن الإمامة مقام إلهى واتصال بالغيب، فبالتالى فهى بعيدة عن التوريث النسبى،

بل هی مقام تکوینی ووراثة روحیة بمعنی وجود استعداد فی روح أخری للکمالات التی أفیضت علی روح سابقة، وعندما یقال: أن الإمامة وراثة فإن ما ذکرنا هو المقصود منه، قال تعالی «إِنَّ اللّهَ اصْطَفَی آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۲۵۷

إِبْرَاهِیمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَی الْعَالَمِینَ ذُرِّیَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ» «۱»

ثالثاً: الإمامة نصّ أم شوری ... ص: ۲۵۷

مما ذکرنا فی الأمر الأول یتضح أن مثل هذا المقام لا یکون بید الانسان بل للّهعز وجل یجعله حیث یشاء، أما إذا اقتصرنا فی محل النزاع علی الزعامة الدنیویة فواضح أن ما یطرحه العامة من جعله بید الناس وباختیارهم یکون أوهم إلی العقول وأمیل إلی النفوس، وکأنه اشبه بلغة العصر، لنفرة الإنسان من تسلط فئة معینة علی إرادته وتقییدها فی إدارة شئون مجتمعه، فطرح محل النزاع بتلک الصورة یخدم العامة، أما علی ما ذکرناه من حقیقة الإمامة یتضح السبب فی ایکال ذلک الأمر إلی اللّه عز وجل، وما إن یجعل الحق تعالی إماما فلا- معنی للجوء إلی طرق أخری لتعیین من له الزعامة الدنیویة بل یکون هو المتعین، وبتعبیر آخر أن من تثبت فیه الکمالات الروحانیة العالیة ومن یتصل بالغیب لا یمکن أن یلجأ الناس إلی غیره لإدارة شئونهم، وبهذا تری أن مرکز الزعامة الدنیویة متفرع علی ذلک المقام وتابع، کما رأینا فی حیاة الرسول صلی الله علیه و آله فإنه بعد ثبوت نبوته وإیمان الناس به لم ینازع أحد فی حاکمیته، والخلاصة أنه یمکننا القول أن مقام الزعامة الدنیویة هو أدنی مراتب الإمامة ومقاماتها.

رابعاً: الإعتبار والتکوین ... ص: ۲۵۷

إن وظیفة النص فی تعیین الإمام لا تنحصر فی الجعل والاعتبار والإنشاء کما یقوم أی حاکم فی تعیین حاکم آخر، بل إن النص سوف یکون کاشفا عن الإرادة التکوینیة والجعل الإلهی.

ومن هنا یتضح أن نصب الرسول أو الإمام السابق للإمام اللاحق لا یقوم به من

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۲۵۸

تلقاء نفسه بل هو بایحاء من اللّه عز وجل فهو جعل اعتباری کاشف عن الجعل التکوینی.

خامساً: الإمامة من أصول الدین ... ص: ۲۵۸

من الامور المهمة التی تترتب علی تغییر محل النزاع هو أن مسألة الإمامة تدخل فی ضمن المسائل الاعتقادیة الأصلیة فی الدین، لأنها تکون بمنزلة النبوة وإن اختلفت عنها، وتکون هذه المسألة ما بها النجاة یوم القیامة، بخلاف المسائل الاعتقادیة غیر الأصلیة وهی التی لا تکون النجاة یوم القیامة مرهونة بها.

بیان ذلک: أنا ذکرنا أن الرکن الاساسی فی مقام الإمامة هو مقام السفارة الإلهیة ومَن یکون سفیرا من قبل الغیب ومَن هو حجة اللّه علی خلقه، فالأمر الرئیسی هنا هو فی الاعتقاد والتسلیم بهذه السفارة والسفیر وهذا أمر اعتقادی ولیس مسألة عملیة فرعیة، نعم هذا المقام تلحقه شؤون عملیة وفرعیة، لکن الأمر الاساس هو الأمر الاعتقادی، کما هو الحال فی بحث النبوة.

وللأسف الشدید نجد البعض یعبّر بأن مسألة الإمامة خارجة عن الأصول وداخلة فی الفروع، وهذا بلا شک غفلة عن حقیقة الحال، وله لوازم فاسدة من نحو عدم وجود فائدة عملیة لهذا البحث فی زماننا الحاضر وذلک لأن الامام غائب فینتفی موضوع الزعامة ولو انتفاء مؤقتا، کما انه لا فائدة من البحث عمن کان یجب أن یخلف النبی صلی الله علیه و آله فهذا حدث تاریخی قد مضی، اما علی ما ذکرنا فإن البحث تبقی له أهمیته القصوی، إذ قضیة الاعتقاد لا ترتبط بحضوره وعدم حضوره ولا بحیاته وعدم حیاته.

ومثل هذا فی الوهن أن یقال: أن أهمیهٔ بحث الإمامهٔ تنحصر فی أن الإمام هل هو مصدر من مصادر التشریع الإسلامی أم لا؟ فهذا وإن کان صحیحا إلا أن فائدهٔ البحث لا تنحصر به بل البحث فی أمر اعتقادی جانحی کما یُبحث حول النبوهٔ مع

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۱، ص: ۲۵۹

عدم وجود نبی علی قید الحیاهٔ إلا أن البحث له أهمیهٔ وخطورهٔ من حیث وجوب الاعتقاد علی کل مسلم.

فلیس البحث حول من یکون رئیسا وزعیما فقط، ولیس البحث عن میزان استنباط الأحکام الفرعیهٔ، وهل السنهٔ تشمل النبی والأئمهٔ أم یقتصر فیها علی النبی، فهذه کلها أمور فرعیهٔ تبتنی علی ذلک الأصل الاعتقادی، وهو أن الإمامهٔ استمرار لمسیرهٔ النبوهٔ فالاعتقاد بها علی نحو الاعتقاد بالنبوهٔ.

سادساً: مقامات الأئمّهٔ علیهم السلام ... ص: ۲۵۹

أن البحث قد یتعمق إلی البحث حول مقامات الأئمهٔ سلام اللَّه علیهم، ولیعلم أن مقام الإمامهٔ من أهم هذه المقامات کما أن مقام الزعامهٔ أدناها وأقلها، فتوجد مقامات أخری تتجاوز الإمامهٔ ککونهم کلمات اللَّه «۱» وأسماء اللَّه الحسنی، وغیرها من المقامات العالیهٔ التی تعد من أسرار معارف أهل البیت، وفی کل هذه المقامات لا یخرجون عن زی العبودیهٔ بل أن خضوعهم وتذللهم التام وفنائهم فی المعبود هو الذی جعلهم ینالون هذه المقامات.

وبعض هذه المقامات یشارکهم فیها غیرهم من الأنبیاء والمرسلین، وفی بعضها یتفردون ویشارکون بها الخاتم صلی الله علیه و آله، وکذلک الزهراء علیها السلام تشارکهم فی بعض هذه المقامات کمقام حجهٔ اللَّه، کما ورد فی الخبر المتواتر معنی «وفاطمهٔ حجهٔ اللَّه علینا» أو کون مصحفها مصدر من مصادر علومهم.

سابعاً: الوظیفهٔ الشرعیّهٔ ... ص: ۲۵۹

إذا تم مقام الإمامهٔ فسوف یتوجه إلی المکلفین عدد من الوظائف الشرعیهٔ، بدءا من الاعتقاد والمعرفهٔ والتسلیم إلی التولی والتبری القلبی والعملی، ووظائف

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۱، ص: ۲۶۰

أخری سوف نأتی علی ذکرها فی الخاتمهٔ.

ولا- یخفی أن هذه المقامات الاخری لا یتوقف علیها الإیمان، فکثیر من علمائنا فی علم الرجال یشیرون إلی أن الاعتقاد بأدنی مراتبه وهو إجمال الزعامهٔ الدینیهٔ والدنیویهٔ- کما هو حال کثیر من الناس والرواهٔ- کاف فی اعتبارهم من الامامیهٔ.

ثامناً: تحلیل الإقتداء ... ص: ۲۶۰

وقد یطرح هاهنا إشکال حاصله:

إن اثبات المقامات الغیبیهٔ للنبی والأئمهٔ وتعمیق هذا الجانب فی شخصیتهم البشریهٔ یتنافی مع جعلهم قدوهٔ للبشریهٔ ولا یتلاءم مع أمر اللَّه عز وجل باتباعهم واتخاذهم أسوهٔ.

بیان ذلک: أن طبیعهٔ الاقتداء والإتباع أن یأمل المقتدی من الوصول إلی مرتبهٔ المقتدی، وأن یجعل همه الأول هو الوصول إلیه والسیر علی هداه، وهذا یعنی أن یکون المقتدی بمرتبهٍ ومقامٍ یمکن الوصول إلیه، أما إذا کان مقامه مما لا یمکن الوصول إلیه بل هو ممتنع المنال فکیف یجعل قدوهٔ ونؤمر باتخاذه أسوهٔ! فعلیه یجب حصر الجانب الغیبی فی ما یظهرونه من معجزهٔ لاثبات الرسالهٔ والإمامهٔ فقط.

وقد يطرح الاشكال بنحو آخر أن تعميق هذا الجانب الغيبي في أحكام‌الدين سوف يبعد الدين عن الجوانب الاجتماعية والمادية التي جعلها ضمن اهتماماته، وبتعبير آخر أنه لو قلنا أن ملاكات الأحكام أمور غيبية بعيدة عن تأثيرات وضعية دنيوية سوف يفقد المكلف الدافع المحرك للسعي وتحصيل تلك الملاكات.

وفي الواقع ليس هذا الاشكال بصياغته شيئا جديدا مبتكرا بل هو اشكال يعود في جذوره إلى ما قبل الاسلام، حيث كان الناس يعتقدون أن الوصول والاتصال

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۶۱

باللّه سبحانه وتعالى ذي القدرة المطلقة اللامحدودة متعسر وممتنع فيجب توسيط وسائط تعد أربابا وآلهة صغيرة تكون وسيلة وواسطة.

أما الجواب:

أولا: أن طبيعة الاقتداء تقتضي أن يكون هناك فارق بين المقتدي والمقتدى، فإذا كان المقتدى مساويا للمقتدي، فإن الإقتداء يكون ممتنعا، إذ لا توجد مزية للمقتدى حتى يقتدى به، فالسعي والحركة والانبعاث الذي يحصل للمقتدي إنما هو من أجل تحصيل أمور وكمالات هو فاقد لها لكنها متوفرة وحاصلة في المقتدى، إذن يجب أن يكون المقتدى غير مساو للمقتدي.

ثانيا: كما أن الحاصل لا يسعى الإنسان إلى تحصيله، كما أن الممتنع أيضا لا يسعى الانسان إلى تحصيله، فيجب أن يكون المقتدى له مرتبة بين هذين الأمرين، وفي نفس الوقت يجب أن يكون هذا الاقتداء ملازماً للانسان في كل مسيرته بمعنى أن المقتدى يجب أن يكون متفوقا دائما على المقتدي، وإلا ـ لو فقد هذا التفوق لتوقف الاقتداء في فترة من فترات حياة الإنسان، وذلك فيما إذا نال كل كمالات المقتدى، وحينئذ لا يكون هناك سعي ولا يكون هناك هدف يحرك هذا الانسان، فيجب أن يكون هناك باعث ومحرك دائمي للانسان وللانسانية قاطبة، وفي نفس الوقت لا تكون كل درجات كمالات المقتدى ممتنعة، كي يمكن السعي والتحصيل.

وهذا هو معنى الحالة الوسطية بين الأمرين أي لا كمالاته كلها ممتنعة ولا كل كمالاته بكل درجاتها حاصلة، فيسعى الانسان لتحصيل تلك الكمالات فقد يصل بجهده إلى تحصيل بعضها وقد لا يستطيع «ألا أنكم لا تستطيعون على ذلك فأعينوني بورع واجتهاد وعقل وسداد».

فتحصيل كل كمالات المقتدى أمر مستحيل غير ممكن أما تحصيل بعض

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۶۲

درجات كمالاته فهو أمر مرجو ممكن الحصول عليه، فلماذا لا يصح الاقتداء ولماذا لا يمكن السعي نحوها!!

وقد يقال: إذا كان الأمر كذلك فما الحاجة إلى الإمام من أجل الإقتداء به إذا لم يكن من الممكن الحصول على كل كمالاته، فليقتدي مباشرة بالكمال المطلق اللامحدود وهو الذات المقدسة؟

وجوابه: أن الإمام هو الآية العظمى وفي الحديث «ما للّه‌أية أكبر مني» وآيته في الصفات الخلقية، فالسعي إلى اللّه غير متناه لا في الدنيا ولا في الآخرة ومن رحمة اللّه بعباده أن جعل لهم إماما يقتدون به يماثلهم في البشرية ومتخلقا بأخلاق اللّه عزّ وجل، وهذا هو لطف اللّه بعباده لأن المقتدى أيضا هو في حالة سير وحركة من أجل تحصيل الكمال اللامتناهي، وسوف يأتي مزيد بيان لهذه النقطة.

ونعود إلى محل الكلام فإن هذه الحالة الوسطية دائما هي التي تدفع الإنسان نحو الحركة والعمل وكما في الخوف والرجاء، فلا هو حصر في حالة الخوف فقط لأنه يأس من رحمة اللّه، واليأس عدم اعتقاد برحمته تعالى فهو كفر، والرجاء المطلق كفر أيضا لأنه عدم اعتقاد بعقاب اللّه.

فالإمام ليست صفاته كلها قابلة للمنال ولو كانت كذلك لما كان الانسان متحركا نحوها بحركة مستمرة دائمة لا تقف عند حد، ولا هي حاصلة للانسان حتى لا يكون هناك دافع نحو السير والسعي الحثيث. وسوف نشير في بحث الفقه العقلي للإمامة إلى أن الوسيلة الصحيحة للتوحيد هي الإمامة.

ثالثا: ذكرنا أن كمالات الإنسان تشمل جنبتيه البدنية المادية و الروحية المعنوية، وكمالات الجنبة الأخيرة على قسمين: منها ما له ارتباط بالبدن كالشجاعة فهي كمال روحي إلا أن له ارتباطاً بالبدن. والقسم الآخر: كمالات روحية لا ارتباط لها بالبدن بل ترتبط بعوالم الغيب و الآخرة والعوالم المجردة،

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۶۳

وكمالات هذا الجانب أشرف من الجوانب الأخرى، والاقتداء المؤدى للكمال لا بد أن يشمل جميع جوانب النفس الانسانية، ومن هنا نحتاج في المقتدى أن تكون له جوانب غيبية وكمالات مرتبطة بعالم الغيب.

رابعا: إن دراسة طبيعة حركة الانسان ترشدنا إلى أن جوارحه تنطلق في حركتها من الجوانح، والأخيرة تتحرك طبقا للاذعان والايمان والاعتقاد الذي يلتزم به الانسان فهذه الهيكلية في صدور تصرفات الانسان هي الاساس، وهذا يعني أن أساس تحرك الانسان هو معارفه الاعتقادية، والاعتقاد يشمل جميع الجوانب الغيبية وغيرها، فلا يمكن أن نتمسك بقسم معين من المعارف ونثبته ونغض الطرف عن القسم الآخر لأن العقائد شأن مجموعي تبتني عليه عمل الجوانح التي هي المحرك للجوارح فإذا اختل الأساس اختل ما عليه من البناء.

خامسا: نحن نسائل المستشكل الذي لا ينفي الغيبيات في المقتدى، بل يحصرها في اثبات المعجزة للرسالة والنبوة والإمامة، نقول: لماذا في هذا الجانب نثبت الأمر الغيبي؟

والجواب: أن هذا هو الكاشف عن اتصال هذا الشخص بالغيب وأنه مبعوث وسفير من قبل اللّه سبحانه وتعالى، فالمعجزة هي المثبتة للاتصال والسفارة الإلهية وأن هذا الاتصال غير موجود في بقية أفراد البشر، ونحن نقول أن هذا الاتصال الغيبي هو المقام الغيبي نفسه، بمعنى أن هذا الاتصال يكشف أن لهذا الشخص درجة وجودية معينة، وهذه الخصوصية مَنّ اللّه تعالى بها عليه وهي التي مكنته من الإتيان بالمعجزة حتى يثبت لبني البشر أنه سفير من قبل اللّه تعالى.

ومما لا شك فيه أن تصحيح محل النزاع بما ذكرنا سوف يهئ لنا الأرضية والذهنية المطلوبة للتعامل مع الأدلة العقلية والنصوص الشرعية، حيث أن طائفة كبيرة سوف تدخل في ضمن نطاق التحليل والاستنطاق بخلاف ما إذا كان

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۶۴

المطلوب هو اثبات الزعامة الدنيوية فإنه سوف يتم اسقاط عدد كبير من الأدلة بحجة أنها تبحث عن ما هو خارج عن محل النزاع.

ولا يخفى أن الخوض في مثل هذه المباحث يحتاج إلى أهلية عقلية وإلمام تام بالمباحث الفقهية والتفسيرية والكلامية والفلسفية والعرفانية، مضافا إلى ما يمكن استفادته من علوم النفس والاجتماع الحديث.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۶۵

المبحث الأول: تعريف الإمامة ... ص: ۲۶۵

الجهة الاولى: التحليل اللغوي ...: ص: ۲۶۵

إنا لا نهدف من بحثنا استعراض المعنى اللغوي الذي يسطره اللغويون في كتبهم، بل مرادنا هو الوصول إلى ماهية وحقيقة الإمامة وبتعبير اصطلاحي رفع الستار عن ما الشارحة وما الحقيقية. وإذا ما استعرضنا كلمات اللغويين فما ذلك إلا توطئة للوصول إلى التعريف الماهوي واستخلاص المعاني العقلية التي تنطوي عليها اللفظة.

ومن خلال ما يذكره اللغويون يمكن ذكر بعض الملاحظات التالية:

۱- أن اصطلاحات الامام والأمة والمأموم كلها تعود إلى جذر لغوي واحد هو أمّ يؤم.

۲- أن المراد من یؤمه أمّ إذا قصده، والأمّ هو القصد المستقیم والتوجه نحو المقصود «۱» ففی هذا الأصل الاشتقاقی جنبة السیر والسلوک.

۳- أن المراد من الأمة هی الجماعة الذین یکون لهم مقصد واحد.

۴- أن الإمام هو کل من ائتم به قوم کانوا علی الصراط المستقیم أو کانوا ضالین، وعلی هذا یکون معنی إمام بمعنی المقتدی اسم مفعول، ویکون المأموم اسم فاعل

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۲۶۶

أی الذی یقتدی بغیره، وأما إذا کانت بمعنی الهدایة فسوف یکون الامام بمعنی الهادی وهو اسم فاعل والمأموم المهتدی فهو اسم مفعول.

فیلاحظ أن المعنی اللغوی یستطبن معنی الاقتداء والهدایة.

من خلال تلک النقاط نری أنه فی جمیع اشتقاقات (أمّ) یتضمن قصد وسلوک غایة وهدف معین مع إضافات أخری فی کل اشتقاق، فإذا کانت الأمة فإنها تطلق علی الجماعة البشریة التی لها مقصد واحد فهی بالضرورة تتبع إماماً لها یقتدی به الناس ویأخذ بیدهم نحو ذلک المقصد وتلک الغایة، ومن هنا ورد التعبیر فی القران «یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ» «۱»

، ولذا لم یطلق الأمة علی کل المجتمع البشری بل أطلقه بحسب الحقب الزمانیة.

ویمکننا القول أن الامامة فی اللغة تساوق الهدایة، والهدایة کما یذکر اللغویون لها معنیان أحدهما: مجرد إراءة الطریق المستقیم، والآخر: هو الإیصال إلی المطلوب، والثانی یستلزم الأول، وذلک لأنه لو قلنا أنها بمعنی الأخذ بید المأموم وإیصاله إلی المطلوب والغایة المرادة فهی لا تقتصر علی مجرد الاراءة بل تتعداها إلی الإیصال.

ونقول أن المراد من الهدایة هنا هو الثانی، وذلک لأن الأمة وهی الجماعة التی لها مقصد واحد فإنها تسیر نحو هذا المقصد وتتبع الامام من أجل الوصول إلی تلک الغایة، ووجود الامام ومقتضی السیر أن یکون المراد من الهدایة هو الایصال وأن الامام لا یقتصر علی مجرد إراءة الطریق الصحیح بل یتبع ذلک بالاخذ بید الامةمن أجل ایصالهم إلی الغایة القصوی، نعم تلک الهدایة والایصال لیس ایصالا جبریا بل ایصال اختیاری.

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۲۶۷

الجهة الثانیة: التحلیل العقلی ... ص: ۲۶۷

اشارة

إنا إذا قمنا بتحلیل أعمق لماهیة الامامة وکیفیة أخذ الامام بید الأمة لتحقیق الغایة القصوی، فإنه یجب أن تکون هناک طاعة ومتابعة وانقیاد من قبل المأموم للامام، مع المحافظة فی نفس الوقت علی الاختیار والارادة التی للمأموم، وهذا یعنی وجود نوع من السلطة والولایة من قبل الامام علی المأموم مع المحافظة علی اختیاره وهو أنه إن شاء فعل وإن لم یشأ لم یفعل.

فالامامة متقومة بطرفین الامام والمأموم وفی کل طرف منهما یکون لها معنی؛ ففی الاول له التسلط والولایة، وفی الثانی له الاختیار بمعنی أن الامام لا یلجأ المأموم علی التصرف المعین ولا یقوم بتسخیره أو قهره بل یجب أن یقوم المأموم بذلک طواعیة واختیارا، ونستطیع تشبیه ذلک بالانجذاب الحاصل بین المحب ومحبوبه وسیطرة الأخیر علی الأول لا بنحو یقهره ویسلبه وهذا لا ینافی اختیاره.

ومن هنا نستطیع القول أن الإمامة لیست علة تامة للهدایة بل هی مقتضٍ لحصولها إذا ارتفع المانع وهو إرادة نفس المأموم واختیاره، إذ بیده أن یتبع هدایة الأمام حتی یوصله إلی الغایة وان یسلم له القیادة، وله أن لا یستجیب له فلا تؤثر علیه هدایة الامام.

فالتحليل الماهوى للإمامة يقوم على حيثيات؛ حيثية الاقتداء، وحيثية الهداية الايصالية، وحيثية السير السلوك والحركة، وحيثية الولاية والسلطة والجذب.

وإذا أردنا أن نتلمس بنحو أفضل فما علينا إلّاالتأمل فى هذه الامثلة الثلاثة والموازنة بينها: الانسان الصغير وهو ذلك المخلوق الذى كرمه اللّه تعالى بالعقل.

والإنسان المجموعى وهو المجتمع البشرى، والإنسان الكبير وهو عالم الخلقة.

فنتناول دور الهداية فى هذه العوالم الثلاثة.

– أما الانسان الصغير: فهو ذو جنبتين أحدهما البدن والاخرى الروح، ولكل

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۶۸

منهما تكامل وارتفاع وصعود كما أن لهما تسافلًا وهبوطاً وانحداراً.

ولندقق النظر فى تكامل الروح فإن اللّه تعالى قد كرم بنى آدم بالقوى العقلية والعملية المختلفة التى تضمن للانسان أفضل السبل للصعود إلى الكمالات العالية.

وعلى رأس القوى العملية والإدراكية يقف العقل ليقود هذه القوى، فإذا ما رضخت له القوى الأخرى تصاعد الانسان فى الكمالات، وإذا ما انقلبت الآية ولم يأخذ العقل موقعه المناسب تجد الإنسان فى هبوط وانحدار.

والقوى العقلية على نحوين: العقل النظرى والعقل العملى. والأول وظيفته الادراك. والآخر وهو العقل العملى ووظيفته الادراك والعمل والتأثير على القوى المادون التى تتبعه فى الحركة، فيكون أميرا لها وتكون أسيرة له، وفى اتباعه لا تكون ملجئة بل يبقى للقوى الاخرى الاختيار فى اتباع العقل العملى، فإذا ما تسلطت القوى المادون على قوة العقل العملى فتكون إمام ضلال وباطل، وقد ورد فى حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام: «كم من عقل أسير تحت هوى أمير» «۱»

.أما إذا أذعنت لقوة العقل العملى فإنه يصبح إمام هدى، فالعقل العملى هاد ومرشد لقوى الانسان المختلفة، ووجود هذه القوة امر لا بد منه وإلا لسعت كل قوة إلى ما يؤدى إلى تكاملها وأدى الصراع بين قوى الانسان إلى فنائه، فيحتاج إلى ما يكون هاديا وموصلا للكمال وهو العقل العملى، وزود هذا العقل بسلطة اخضاع القوى المادون مع احتفاظ النفس الانسانية بالاختيار، والاختيار حيثية نفسانية توظفه النفس– التى هى غير القوى العملية والادراكية– فى يد القوى الفوقانية أو القوى المادون، ولو كان العقل العملى ملجئا وسالبا للاختيار لما صدرت المعصية من أحد لأنه موجود فى كل إنسان.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۶۹

والعقل العملى فى فعله يعتمد على الادركات الصحيحة التى تتم فى العقل النظرى والعملى، فهو يقود لأنه يمتلك العلم الذى لا تمتلكه بقية القوى وهذا العلم هو الذى يعطيه الصلاحية لقيادة قوى الانسان، ولو كان هذا العلم محتملا للخطأ لما أصبحت لديه اللياقة لقيادة الانسان وقواه، وقد بينا فى الفصل الأول مفصلا مدركات العقل العملى والنظرى وعلمه الحصولى والحضورى، والمهم هو الأخير لأنه أعلى وأشرف من الأول، فالهداية الايصالية للعقل العملى وهو إمام هدى للقوى المادون تتم بواسطة علم شريف أشرف من العلم الحصولى وهو العلم الحضورى.

والعقل فى نفسه مبرأ من الغرائز الشهوية والزلل، وليس العقل هو الذى يسبب الزلل والوقوع فى الخطأ، بل هو بسبب سيطرة القوى المادون، وقد قرروا فى محله أن إدراكات العقل فى نفسها لا خطأ فيها إلا إذا تدخلت القوى الأخرى فيها وهى الواهمة والمخيلة والقوى الشهوية والغضبية.

والخلاصة ...: ص: ۲۶۹

أ- أن قوى الإنسان تهتدى إلى الكمال بواسطة العقل العملى.

ب- أن العقل العملى يقوم بدور إمام هدى، وهذه الهداية ايصالية وليست مجرد إراءة وإلا لاكتفى بالعقل النظرى، فهذا يدل على الحاجة الفطرية داخل الانسان لوجود ما يقوده إلى الكمال.

ج- أن العقل العملى استحق هذا المقام بسبب العلم الذى لديه.

د- أن العلم الحصولى لدى العقل العملى يعتمد على أساس العلم الحضورى الذى لا خطأ فيه.

ه- أن العقل واسطة لتنزل العلوم من العوالم الغيبية العلوية إلى العوالم المادون، ولا يمكن للقوى المادون (الغضبية والشهوية) ... أن تتصل بتلك العوالم إلا

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۷۰

بالعقل العملى وذلك لضعف قابليتها.

و- ورد فى الأثر أن للَّهحجتين ظاهرة وباطنة أما الظاهرة فهو الرسول وأما الباطنة فهو العقل، وهذه الموازنة تعنى أن مقام النبوة كما له دوره وموقعه فى الانسان المجموعى فإن له موضع فى الانسان الصغير، وأن اللَّه عز وجل قد أودع فى الإنسان رسولًا باطناً وظيفته الهداية وهى على وزان الهداية التى يقوم بها الرسول الظاهر وهى الاراءة «إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ» «۱»

فهى هداية إرائية وانذار وبيان أين يكمن الطريق الصائب والصحيح من دون أن تقوم بوظيفة الايصال (نعم قد يكون النبى إماما فتجتمع لديه ولاية تشريعية وتكوينية كما فى أولى العزم) والعقل المقصود به هنا هو العقل النظرى، فتكون أوامره تشريعية يشخص الصواب من الخطأ ولا تكون له سيطرة على بقية القوى، وهذه هى مهمة الرسول الباطن.

ز- أن الرسول الباطن وحى فطرى إنبائى، والامام الباطن وحى فطرى ولوى.

أما كونه وحيا: فلأن العقل قوامه بالعلم، لكن العلم الذى فى الوحى النظرى غير عمّال أى علم باطنى غيبى أما فى العقل العملى فهو علم عمّال ومستند للعلم الحضورى، والعلم الإنبائى الذى فى العقل النظرى أيضا مستند للعلم الحضورى إلا أن تكامل العقل النظرى يكون فيما إذا وجد العقل العملى، وعندما نقول أن العلم فيه حيثية ولوية فلا نقصد بذلك تعبيرا أدبيا بل إشارة إلى عمّاليته ومحركيته وقدرته.

أما سبب اطلاقنا عليه بالوحى «۲» فلأن حقيقة الوحى هى الارتباط بالغيب، والانسان لوجود حيثية التجرد فيه فهو مفطور على الارتباط بعالم التجرد بواسطة

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۷۱

العقل، أى بتوسط نفسه، ومن هنا كان فطريا، لا وحيا نبويا تشريعيا جعليا، ومن هنا نقول أنه عندما يقال: انقطع الوحى فإنما يعنى الوحى التشريعى لا انقطاع الوحى بمعناه الأعم الشامل لما بيناه أى مطلق الارتباط بعالم الغيب.

ح- فى مراتب العلم الحضورى يذكرون أن مرتبة القلب من النفس بوابة الغيب والعوالم العلوية لكلا العقلين، والعقل العملى والنظرى يأتمان به وهو مصدر علومهما الحضورية.

ط- أن تصرف الامام الباطن فى القوى المادون يكون بقدرة ملكوتية ونعنى بها القدرة التجردية التى ليس فيها تدريج وتدرج بل على نحو كن فيكون، وهذه القدرة لا تحتاج إلى شرائط عالم المادة و لا شرائط فى فعله وتأثيره، وإنما مجرد الاذعان يحرك النفس تحريكا اختياريا، فلو أن المحرِّك لم يختر التحريك فلا يتحرك، وليس معنى (كن فيكون) الجبر.

وبيان أخر للملكوتى: أنه اصطلاح يطلق على القدرة النابعة من العلم محضا فى مقابل القدرة التى تتوقف على العلم والآلة المادية وتسمى القدرة المادية، وهذا أمر متفق ومبرهن عليه فى علوم المعارف العقلية والنقلية نذكره كأصل موضوعى.

فالعلم الحصولى وهو مرتبة ضعيفة من العلم يحتاج إلى الآلة كما فى قدراتنا المعتمدة على العلم الحصولى. أما إذا كانت القدرة نابعة

من العلم الحضورى فإنها لا تحتاج إلى شرائط المادة لشرافة و قوة العلم المعتمدة عليه.

فإمامة الامام الباطن وعمّاليته بتوسط قدرة ملكوتية وهداية الامام الباطن بأمر ملكوتى ويسمى أمر إلهى، والإلهى اشارة إلى عالم التجرد، وقد يطلق على عالم الملكوت بعالم الامر فتسمى القدرة الأمرية.

فتبين أن الامام الباطن تكون له نحو إحاطة وقيمومة على من دونه، وهذه ليست كإحاطة واجب الوجود ببقية الممكنات بل هى كإحاطة العلة بمعلولها،

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۷۲

ويُمثل لها بالصور الخيالية الحاصلة لدى النفس، فإن النفس تحيط بها احاطة قيمومية فظاهرها وباطنها وأصل وجودها مرهون بفعل النفس.

وفى الانسان الصغير نرى أن نسبة العقل العملى والنظرى لما دونه من القوى هى إحاطة قيمومية، والوجه فى ذلك أن النفس والقوى المادون لا- تستطيع أن تصدر فعلا- من الأفعال سواء كان فعلا إدراكيا أو عمليا من دون توسيط العقل فى البين، فهو يحيط بأعمال وأفعال القوى المادون، وأن الكمالات العملية تفاض عليها بتوسط العقل وبسبب كونه واسطة فى الفيض فهو يدرك كمالات المادون ولا يكون جسرا للعبور فقط.

وبناء على كل ما مضى نقول فى تعريف الامام الباطن فى الانسان الصغير: انه يكون هاديا وموصلا للنفس إلى كمالاتها بأمر ملكوتى.

ى- نقطة أخيرة؛ نضيفها أن التسلسل فى تنزل الفيوضات يكون من القلب للعقل النظرى الذى هو الرسول الباطن ومن ثم للعقل العملى الذى هو امام باطن، وقد ذكرنا ان العلم الذى فى الثانى أشرف من الأول لكن إذا جمع الأول بين الرسالة والامامة فإنه ينال الشرف العالى، وقد ورد فى كلمات أمير المؤمنين عليه السلام عن الذين ابتعدوا عنه «احتجوا بالشجرة وضيعوا الثمرة»، وهذا قريب مما ذكرنا أن كمال العقل النظرى هو بالعقل العملى فالامامة هى ثمرة النبوة، وذلك لأن مجرد العلم ومجرد التمييز بين الحسن والقبيح من دون ترجيحها إلى إعمال وإثارة القوى المادون لا يكون ذا أثر، والأثر الوحيد هو فى الاستفادة من العلم الذى يتوصل إليه العقل النظرى لوصول الانسان إلى الكمال وتجنب الوقوع فى المفاسد والقبائح، ومن هنا تكون الامامة ثمرة النبوة والرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قد حاز شرف النبوة والإمامة وكما أنه امام للخليقة فهو إمام للأئمة كما أن القلب امام للعقل العملى الذى هو إمام لما دونه من القوى.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۷۳

وبهذا البيان نستطيع استيعاب ما ورد فى الأثر أن «المؤمن جماعة بمفرده فى صلاته» حيث يكون أحد تفسيراته أن كل قواه تكون مسخرة لقوة العقل العملى وهو مسيطر عليها.

الانسان المجموعى ...: ص: ۲۷۳

وهو مجموع المجتمع بما فيه من اركان وهى الدولة والحكومة، فإنا نشاهد انها تتألف من فقرات متعددة منها القوة التنفيذية، ومنها القوة التشريعية، ومنها القوة القضائية، كما أن كلا من تلك القوى الثلاث تتشعب إلى أقسام.

والقوة التشريعية وظيفتها الهداية الارائية، والقوة التنفيذية وظيفتها الهداية الايصالية، والقوة القضائية وظيفتها كوظيفة الوجدان فى الانسان الصغير، وهى لتعديل الاشياء لكى لا تستعصى فى قبول الهداية الارائية الايصالية والسير نحو التكامل وعدم التخلف عن ذلك، ويمكن المطابقة فى التفاصيل الاخرى بين الانسان المجموعى والانسان الصغير فمثلا وزارة الجيش والدفاع توازى القوى الغضبية، ووزارة الرياضة والتربية البدنية أو السياحة ونحوها مما يغطى جانب اللهو واللعب توازى القوى الشهوية، وإلى غير ذلك من التطابق إلا ان اهم ركن فى الانسان المجموعى هو ما يقوم بالهداية الارائية والهداية الايصالية إلى الكمالات المنشودة.

الانسان الكبير ...: ص: ۲۷۳

ونقصد به عالم الخلقة وما يحويه من عوالم ونشآت فى قوس النزول وقوس الصعود، وذلك لنتعرف على دور الامامة وحقيقتها فى هذا العالم الكبير، وهذا الانتقال طبقا لما هو المسلم به فى المعارف أن «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، أى أن معرفة آيات اللَّه وأفعاله جل وعلى يكون عن طريق معرفة الانسان نفسه وهذا يقتضى موازاة الانسان الصغير للانسان الكبير، وأن فعل اللَّه وهو الخلقة تكون

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۷۴

معرفته بمعرفة الانسان الصغير.

ففى الانسان الكبير أيضا مراحل ومراتب من النفوس الكلية (بمعنى السعة والاحاطة) إلى العقول الكلية التى تدير تلك النفوس، ونحن فى بحثنا نعتمد على قاعدة عقلية مؤداها أن التعريف الماهوى للإمامة له مصداق فى الانسان الصغير إى فى ترتب قوى النفس الانسانية وبمقتضى التطابق مع الانسان الكبير- عالم الخلقة- نستكشف الاخير.

والمهم لدينا هو استكشاف موقع الامامة فى الانسان الكبير وأنها مرتبة تكوينية ومقام وجودى فى ضمن المراتب الوجودية المختلفة، وهذا هو محل النزاع مع الآخرين والذى أردنا إثباته، فهم قد جعلوا محور البحث فى الانسان المجموعى ونحن ننقل ذلك إلى الانسان الكبير أيضا.

ولا ندعى أنا قد توصلنا إلى معرفة كنه وحقيقة الامامة فى هذا الموقع بل تمكنا من وضع تصور اجمالى يرفع الغموض واللبس وإن بقيت جوانب مجهولة، وهذا المقدار لا يمنع من ثبوت المعرفة وتحققها.

ونبدأ بحديث هشام بن الحكم مع عمرو بن عبيد المعروف والمشهور حيث قال له: ألك عين؟ قال: نعم، قلت: ما ترى بها؟ قال: الألوان والاشخاص، قال: قلت: فلك أنف؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: اشتم به الرائحة، قلت: فلك فم؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أذوق به الطعم. قلت: ألك قلب؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح، قلت: أليس فى هذه الجوارح غنى عن القلب؟ قال: لا، قلت: وكيف ذلك وهى صحيحة سليمة؟ قال: يا بنى الجوارح إذا شكت فى شىء شمته أو رأته أو ذاقته ردته إلى القلب فيتيقن اليقين ويبطل الشك، قلت: وإنما أقام اللَّه القلبلشك الجوارح؟ قال: نعم، قلت: فلا بد من القلب وإلا بم تستيقن الجوارح؟

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۷۵

قال: نعم، قلت: يا أبا مروان إن اللَّه لم يترك جوارحك حتى جعل بها إماما يصحح لها الصحيح ويتيقن لها ما شكت فيه، ويترك هذا الخلق كلهم فى حيرتهم وشكهم واختلافاتهم لا يقيم لهم إماما يردون إليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماما لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك «۱».

فيلاحظ فى هذه الرواية أن ما ذكره عمرو بن عبيد من التسالم على خضوع القوى المادون للقلب وأن هذا الخضوع ليس اعتباريا بل تكوينى حقيقى.

الجهة الثالثة: التعريف النقلى ... ص: ۲۷۵

يلاحظ أن هذه الكلمة وردت فى القران فى موارد عدة هى: «قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً» «۲»

، «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ» «۳»

، «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» «۴»

، «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ» «۵»

، «وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ» «۶»

.والعلامة الطباطبائی يتعرض لتفسير مقام الامامة الذی أُعطی لابراهيم وأنه مغاير لمقام النبوة والرسالة، ويأتی بشواهد عدة:

۱- أن هـذا المقام أعطی لابراهيم علی كبره و بعـد تولد ذريته اسـماعيل واسـحق، وقد كان قبلها نبيا بلا شك. وذلك لأنه لو لم يكن لديه ذرية لما كان سؤاله اللّه تعالی «وَمِنْ ذُرِّيَّتِی».

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۷۶

۲- أنه لو كـان المراد من الإمامـة هنـا النبوة فلاـ معنی لأـن يقـال لنبی مفترض الطاعـة إنی جاعلـك للنـاس نبيا أو مطاعا فيما تبلغه من نبوتك فهذا لا يتناسب مع كونه نبيا.

۳- أن القران كلما تعرض للإمامـة تعرض معها للهداية تعرض تفسير «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ» والهدايـة الجديـدة التی حاز مرتبتها ابراهيم يجب أن تكون مخالفـة للهدايـة السابقة التی كان حائزا عليها عندما كان نبيا، ولا شك أن الهداية التی فی النبوة هی هداية اراءة فالهداية هنا هی هداية ايصال.

۴- أن لفظ الهدايـة قُيد بالأمر فی آية السـجدة، والأمر هو الذی يبين حقيقته ما ورد فی قوله تعالی «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ» «۱»

، وقوله «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» «۲»

، فهـذا الأمر هو أمر ملكوتی ليس فيه تدريـج بل يحصل دفعـة واحـدة بمجرد إرادته بعيداً عن شـرائط المادة والآلة وهذا الملكوت قد حاز عليه ابراهيم كما ورد فی «وَكَذٰلِكَ نُرِی إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» «۳»

، فـإراءة الملكوت لاـبراهيم كـانت مقدمـة لافاضـة اليقين عليه، وأهل اليقين لا يحجبهم عن ربهم حجاب قلبی من معصـية أو جهل أو شك أو ريب، بل يكون لهم شهود حضوری علی الأعمال أی أعمال البشر.

فالامـام هـاد يهـدی بـامر ملكوتی يصـاحبه، والامامـة بحسب البـاطن نحو ولايـة علی الناس فی أعمالهم، وهـدايتها ايصالها إياهم إلی المطلوب بامر اللّه دون مجرد اراءة الطريق الذی هو شأن النبی والرسول»

.الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۷۷

ولأـن محور تعريف الامام حول فهم الملكوت فإنا نستـكشف رأی العلامـة فی ذلك فتوجـد آيات عـدة تتعرض للملكوت وهی يس ۸۳- الانعام ۷۵- الملك ۳- المائدة ۱۲۰- القمر ۵۰- آل عمران ۲۶.

ففی سورة الملـك تَبَارَكَ الَّذِی بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَی كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَی فِی خَلْقِ الرَّحْمنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ» ... فالآية تشـير إلی أن الذی بيده الملك هو بيده القدرة وعلله «الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ» أی كل عالم الخلقة، فالملـك بيـد اللّه لأـن ايجـاد الخلق بيـد اللّه، فكون وجود الاشـياء منه وانتسـاب الاشـياء بوجودها وواقعيتها إليه تعالی هو الملاك فی تحقق ملكه الذی لا يشاركه فيه غيره، ولا يزول عنه إلی غيره ولا يقبل نقلا ولا تفويضا، وهذا هو الذی يفسـر الملكوت فی قوله تعالی «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِی بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَیْءٍ» «۱»

فالملكوت هو وجود الاشياء من جهة انتسابها إلی اللّه سبحانه وتعالی، أی جنبة الإيجاد والقيومية والهيمنة والاحاطة.

فـالمخلوق يكون ذا جهتين فإذا لحظناه بما هو فی نفسه فإنك تلحظه من جهـة المخلوقيـة، أما إذا لحظته بما هو دال علی خالقه تكون جنبـة ملكوتيـة، ومن هنـا كان النظر فی ملكوت الأشـياء يهـدی الانسان إلی التوحيـد هدايـة قطعيـة، فإراءة ابراهيم ملكوت السـماوات والأرض هو توجيهه تعالی نفسه الشريفة إلی مشاهدة الاشياء من جهة استنادها ووجودها إليه «۲».

«قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِی الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ» «۳»

،

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۷۸

فالملك هنا يشمل الحقيقى والاعتبارى، بل قد يقال بالأول فقط وهو قد يعطيه من يشاء من عباده وليس فيه معنى تعطيل نفسه عن الملك وحصر لقدرته حتى تكون يده مغلولة والعياذ باللّه، وإنما هو اقدار فى عين أنه قادر.

إذن فالامامة هى الهداية الايصالية الملكوتية النابعة من العلم والقدرة، فالامام هو رابطة تكوينية بين الخالق والمخلوق فهو يشهد الاعمال «كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» «۱»

، فالمقربون لهم نوع من العلم الحضورى، ويضيف العلامة أنه يوجد فى سورة الانبياء قيد آخر «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ» فمتعلق الوحى جاء خال من (إن) وقد حرر فى البلاغة أن إضافة العامل إلى معموله إن كانت ب (أن والفعل) فإنه يفيد الاستقبال وأنه أمر تشريعى، مثل «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ» اما إذا أضيف إلى ما يضاف الفعل لمعموله من دون توسط (أن) بين أوحينا إليهم وبين فعل الخيرات، فهذا يدل على تحققه فعلا على نحو ما ورد فى آية التطهير «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ» فإن الفعل لم يسبق بأن وهو دال على وقوع التطهير فعلا، ففعلهم نابع من الوحى والتسديد الإلهى وهو معنى العصمة أى لا يحتاج إلى هداية غيره.

- وقوله تعالى «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ».

يذهب العلامة إلى أن المراد من الامام هنا هو إمام الهدى، إذ ان الآية تدل على أن لكل زمان إمام، ولا يخلو أناس فى عصر من العصور من إمام فيكون المراد من الإمام هنا هو إمام الهدى، نعم الروايات دالة على وجود إمامين هدى وضلال، واستظهار العلامة وإن خالف ظاهرها لكن لا مخالفة حقيقية عند التدبر فى الروايات، وذلك لان الروايات المفسرة للقران على نحوين:

أحدهما: أنها تقوم بمعالجة ظاهر القران الكريم بحيث تبين المراد من الآية

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۷۹

وترشد إلى النكات الأدبية والبلاغية فى الآية، و هذه لا مجال لاستظهار غير المعنى الذى تشير إليه بل يجب الأخذ بها، وأمثلتها كثيرة منها: فى تفسير آية الوضوء «إِلَى الْمَرَافِقِ» أنه ليس المراد بيان انتهاء عملية الغسل بل لتحديد المقدار المغسول ويذكر الامام شواهد على ذلك، وقوله «فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ» ليس المراد هو التخيير بين القصر والتمام، بل المراد هو الالزام فمثل هذه الروايات يجب الأخذ بها فى تعيين الظهور.

والقسم الآخر: من الروايات التى تقوم ببيان باطن القرآن وهذه الروايات لا تنفى حجية الظاهر بل يبقى على حجيته فهى لا تحصر معنى الآية فيما تذكر، والشاهد على ذلك ورود روايات متعددة فى تفسير الآية الواحدة، فهذه كلها غير متناقضة إذ أنها تشير إلى أسرار الآيات التى لا يصل إليها غير المعصوم. وهذا بحث حرره الأصوليون.

نعود إلى الآية الكريمة: فعلى فرض كون المراد من الامام هو إمام الضلال أيضا لا الامام الذى اجتباه اللّه، فإن إمام الهدى هو من البشر، وقد عرفته آيات أخرى من أن هدايته تكون بأمر ملكوتى خلاف إمام الضلال الذى لم تعرفه الآيات بهذا السنخ، وسيأتى مزيد تفصيل لهذا المعنى فى فقه الآيات.

وقد ذهب البعض إلى أن المراد من الامام هوا لكتاب التشريعى كالتوراة والانجيل والقرآن، وهذا غير صحيح لأن المراد من كل أناس أنه يعم كل الناس من الأولين والآخرين، وليس مختصا بفئة معينة، ويلاحظ أن القرآن إذا أراد تخصيص فئة معينة من الناس لها هدف معين فإنه يعبر عنهم بالامة وعدم استخدامه لهذا اللفظ هنا يدل على إرادته كل الناس فى مختلف الأزمنة.

ونعود إلى إمام الهدى والضلال؛ فإن امام الهدى هو الذى تكون هدايته بأمر ملكوتى بخلاف إمام الضلال الذى تكون هيمنته على مستوى الشيطنة، وهذه

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۸۰

الهيمنة يوازيها فى الانسان الصغير التخيل والتوهم إىالعقل المقيد، وفى رواية فى ذيل سورة القدر: واللَّه إنه ليوحى إلى امام الضلالة بتوسط ابليس وجنوده كما يوحى إلى امام الهدى كما تتنزل عليه الملائكة من اللَّه.

ففى الانسان الصغير بظل أئمة الضلال من الواهمة والمتخيلة والغضبية والشهوية لا ـ تستطيع أن تترفع إلى مستوى التجرد العقلى فكذلك أئمة الضلال فى الانسان الكبير إبليس وأشياعه وأتباعه.

ويستعين العلامة فى توضيح الهداية المخبوة فى الامام بقوله تعالى «أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لَا يَهِدِّى إِلَّا أَن يُهْدَى» «۱»

، فإن الآية تجعل المقارنة بين هاديين إلى الحق (والهادى إلى الضلال خارج عن هذه المقارنة) أحدهما يهدى إلى الحق من نفسه والآخر يحتاج إلى هداية الغير من أجل أن تهتدى نفسه ثم يقوم بهداية غيره.

إن قلت: أن الذى يهدى من نفسه ولا يحتاج إلى هداية الغير هو اللَّه سبحانه وتعالى كما ذكرته الآية فى الشق الأول، والذى يحتاج إلى هداية الغير هم الأنبياء والرسل والائمة المهتدون بهداية اللَّه سبحانه.

قلت: إن لازم ذلك أن يبعث اللَّه للناس نحو هداية نفسه مباشرة لا الهداية التى فى الرسل والانبياء لأنهم يهتدون بغيرهم، وبتعبير آخر لازم ذلك أن ينهانا عن اتباع الرسل والانبياء فى حين لا توجد لدينا قناة لاستلام الهداية إلا من الرسل فيحصل تنافى فى مدلول الآية الشريفة، وهداية اللَّه لا يدعيها أحد من دون توسط الرسل والانبياء، فبالتأكيد هذا المعنى خاطئ، والصواب أن الآية دالة على أن الهادى الذى يتبع هو المعصوم الذى علمه لدنى لا من الأغيار البشرية وإن كانت

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۸۱

فى خط الهداية، ومن يهدى بهداية غيره لا يكون مأمونا من الخطأ والزلل، فلا يكون هاديا.

وذلك المعصوم هو الذى يكون هاديا للحق على نحو الدوام أما الشخص الآخر الذى لا يهتدى إلى الحق إلا بهداية غيره فإذا لم يوجد ذلك الغير فهو يهدى إلى الباطل والضلال. وهداية اللَّه لهؤلاء المعصومين تكون بأحد الطرق الثلاثة «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» «۱»

.وينقل العلامة دليلا عقليا على وجوب العصمة وهو تفسير الامامة بأنه يهدى (بأمرنا) وأن الهداية ايصالية كما مر ذكره سابقا، فلابد أن مَن يكون لديه القدرة على تلك الهداية أن يكون مهتديا بنفسه بل تدل الآية على أن الفيوضات الكمالية العملية على النفوس، وانتقال النفوس فى سيرها التكاملى من موقف لآخر إنما يتم عبر الامام، وذلك لأنه يهدى بأمرنا إىبالامر الملكوتى وهو (كن فيكون) فالفيوضات تكون بواسطة رابطة الامامة أما رابطة النبوة فهى من أجل هداية الخلق فى الاراءة فقط وهى الجهة التشريعية.

فتحصل مما تقدم:

۱- ضرورة كون الامام معصوما.

۲- أن يكون موجودا فى كل زمان.

۳- أنه يفوق غيره فى الفضائل النفسية سواء المعاشية أو الاخروية.

۴- أن الإمامة باقية فى عقب ابراهيم، وهذا يستفاد من نفس سؤاله للّه‌تعالى فى سورة البقرة، واستجابته تعالى لذلك، وما ورد فى سورة الانعام من الآية ۸۲- ۹۰:

«وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ... وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۸۲

وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ..» حيث الخطاب فى الآية لذرية ابراهيم واصطفاء اللَّه لهم، وهدايتهم ثم يقول عز من قائل «فَقَدْ وَكَّلْنَا

بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ» فالمراد من (بها) الامامة، وهذا يدل على تأبيدها واستمرارها، وأن الخطاب ما زال لابراهيم وذريته فهم الموكلون بهداية البشرية.

ويطرح العلامة اشكالا ويجيب عنه، أما الاشكال فهو أن الآية تدل على أن من يكون نبيا فهو مهتديا فهذا يدل على أن كل نبى إمام، ويجيب عنه: أنه مما لا شك فيه أن النبى يكون مهتديا لكن ليست لدينا قاعدة أن كل مهتدى فهو هاد هداية ايصالية، نعم ما دلت عليه آية «أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ» ... تدل على أن الهادى إلى الحق يجب أن يكون مهتديا فالتلازم من طرف واحد لا من طرفين.

ويضيف العلامة فى آية سورة الزخرف ٢٨: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ء ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أن اللّه عز وجل جعل الهداية باقية فى عقبه.

نعم يبقى اثبات أن المراد من الهداية فى (سيهدين) حيث أنه كان نبيا ويدعو قومه فيجب أن تكون تلك الهداية غير ما هو حاصل عنده وما ذلك إلا الهداية الايصالية والامرية المجعولة باقية فى عقبه.

ويخلص العلامة إلى أنه يتضح من آية البقرة سبع مسائل هى امهات مسائل الامامة:

١- أن الامامة مجعولة.

٢- أن الامام يجب أن يكون معصوما بعصمة إلهية

٣- أن الارض لا تخلو من أمام حق.

۴- أن الامام يجب أن يكوم مؤيدا من عند اللّه.

۵- أن اعمال العباد غير محجوبة عن علم الإمام.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۸۳

۶- أنه يجب أن يكون عالما بجميع ما يحتاج إليه الناس فى أمور معادهم وحياتهم.

٧- أنه يستحيل أن يوجد من يفوقه فى فضائل النفس.

وفى كتاب المقالات التأسيسية يذكر العلامة تعريفا أوسع للامامة: أن الامام هو السائق للنفوس البشرية إلى لقاء اللّه وإلى المعاد حيث يسوق أعمالهم ونفوسهم إلى اللّه تعالى، فبه معادهم وحشرهم ونشرهم حيث تشير الروايات المستفيضة إلى ورود الامام فى كافة منازل الآخرة، وقد أشار القرآن إلى ذلك «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» فهذه الآية تثبت للرسول الذى هو حى فى عالم الدنيا بأنه يشهد الاعمال وهى من سنخ ملكوتى والمؤمنون هم المعصومون يشهدون الاعمال بمقتضى «يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ».

ونضيف على ما ذكره العلامة أن رابطة الامام والرسول بما هو امام لا تقتصر على عالم الدنيا وما بعده بل حتى ما قبل عالم الدنيا، حيث بعثه فى عالم الذر إلى الآخرين وبقية العوالم السابقة على نشأة الدنيا، وأن الهداية الارائية ايضا مفروضة فى الامامة لتقدمها على الايصالية- وان كانت هى فى الامام فى طول الهداية الارائية للنبى صلى الله عليه و آله- وهو ما يعبر عنه بالحافظ والمبين للدين عند المتكلمين، وأن الامامة فى المجتمع- الانسان المجموعى- هى الزعامة السياسية أيضا مفروضة فى حدّ الامامة.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۸۵

المبحث الثانى الأدلة العقلية على ماهية الإمامة الإلهية ... ص: ۲۸۵

اشارة

وقبل الدخول فى البحث، نذكر مقدمة تنفع فى المقام:

من المسائل المهمة التى دار البحث عنها فى الامم السابقة هى مسألة اتصال الارض بالسماء وهل أن اللّه بعد أن خلق الخلق تركهم أم

استمر اتصاله بهم، واتخذت هذه المسألة اشكالا متعددة ففى عهد اليهود شاعت مقولة «يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ» بمعنى أن اللَّه عز وجل ترك عالم الخلق يسير كما يشاؤن ولا يتدخل فى سيرهم ولا يعيق إرادتهم.

وفى عهد مشركى الجزيرة العربية قالوا بضرورة توسيط آلهة صغار ليتم الاتصال مع الذات المقدسة اللامحدودة.

وفى العهد الاسلامى ظهرت مقولة العامة من انقطاع الاتصال بين الارض والسماء بعد الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله وأنه لا يمكن أن تتنزل مشيئة إلهية جزئية فى الموارد الخاصة، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق، وأن دعوى العامة وإن لم تكن فى انقطاع التشريع الالهى لكنها فى انقطاع الارادة التكوينية المرتبطة بالناموس البشرى فتكون هذه العقيدة قريبة المضمون من «يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ».

والقران الكريم عالج كل تلك المقولات فبالنسبة لعقيدة اليهود أجابهم بصراحة «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» وأن الارادة الالهية لم ينقطع اتصالها

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۸۶

بالمخلوقين.

كما أن القران قد عالج مشكلة المشركين حيث خطّأهم فى نقطتين:

۱- فى اعتقادهم أن الرابطة مع الغيب يجب أن تكون ذاتاً مستقلة صغيرة (إله صغير).

۲- فى اختراعهم لتلك الوسيلة والواسطة من عند أنفسهم دون اللَّه تعالى، فالقرآن الكريم فى نفس الوقت يؤكد على عدم انقطاع الاتصال بالغيب المطلق، وأن هناك وسيلة للاتصال بالعوالم العلوية وهى فى حقيقتها محكومة للَّهعز وجل ولا تكون معبودة بل العبودية المطلقة للَّهعز وجل.

فهذه الصيغ الثلاث تتضمن نفس المحتوى وهو انقطاع الوحى عن الارض وعدم الاتصال مع السماء. وأما استمرار الاتصال فهو عين التوحيد وذلك لأن التوحيد الخالص هو توحيد الذات والصفات والافعال بل حتى التوحيد فى التشريع حيث لا يكون للانسان حق التشريع والتقنين بل اللَّه وحده له هذا الحق الذى بيّنه عن طريق الانبياء والائمة.

وايضا هناك التوحيد فى الولاية أى نتبع اللَّه عز وجل فيمن نتولاه ونستهديه للوصول إلى الكمالات العالية وهذا هو معنى الامامة فنفى الامامة يكون شركا ونفيا للتوحيد فى الطاعة.

ويمكن لنا أن نضم إلى هذه الصيغ الثلاث صيغة رابعة نادى بها أصحاب المدرسة المادية الحديثة التى تدعى أن عالم المادة تحكمه المعادلات المادية والقوانين الخاصة بها حيث أنهم يجعلون مصدر الخلقة والايجاد هو المادة ثم يختلفون فى تفسير هذه المادة فيجعل البعض أن المقصود منها الطاقة والقدرة ولأجل الأقلمة مع أساس العقيدة يجعلون المادة شاعرة عالمة.

ولكننا نقول- فى مقابل الصياغات المتقدمة- أن ارتباط مراتب الوجود مع

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۸۷

الذات المقدسة موجود ودائم غير منقطع حتى فى عالم الانسان الصغير، وهذا الارتباط اختيارى لا اجبارى وقد برهن عليه فى محله.

الدليل الاول: ضرورة الإرتباط بالغيب ... ص: ۲۸۷

اشارة

وخلاصته:

أنه لابد من ارتباط غيب الغيوب وهو الذات المقدسة بالعوالم النازلة وبالاخص عالم الانسان الصغير وإراداته وهدايته الارائية والايصالية وهذا التنزل بلا شك يجب أن يكون عبر قناة وجودية خلقية وإلا لاقتضت وجود طفرة، ولابد لهذه القناة من أن تتصف

بصفتين أحدهما الارتباط بالغيب والاخرى الارتباط بالعالم النازل. وتفصيل ذلك من خلال النقاط التالية:

* أننا اثبتنا فيما سبق وجوب الارتباط وعدم انقطاع الاتصال بين الارض والسماء.

* أن الاتصال إما أن يكون من خلال ارتباط الذات المقدسة بكل فرد فرد وبكل نفس بشرية، وهذا يعنى أن تكون كل النفوس أنبياء ورسل وائمة وهذا وإن أمكن ثبوتا وليس بممتنع على الحق تعالى لكنه على خلاف نظام الخلقة إذ أنه قائم على أن لا يكون الكل كذلك.

* أن الاتصال حينئذ يكون عبر أفراد، ولا يخلو أمرهم أن يكونوا إما بشرا او ملائكة أى اننا اشترطنا أن يكون فيهم جنبة بشرية وذلك لما ذكرنا سابقا أن عدم وجود الجنبة البشرية مطلقا يفقد خيرية الاقتداء والأسوة إذا أنه لا يحقق البعث والتحريك نحو الكمال فهو بشر يراه الناس كأنفسهمن لكنها نفس تعالت عن مزالق الشهوات إلى مراتب الكمال فأصبحت تهدى بأمر ملكوتى، فهو نموذج بشرى توفرت فيه صفات الكمال، وفى هذا جواب على ما ذكره بعض العرفاء او

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۸۸

الصوفية من أن المرتاض فى سير وسلوك وارتباط بالارواح الكلية و العوالم العلوية أما فى عالم الشهادة فإنه يخطئ فى تطبيق تلك الروح المرتبطة بعلى عليه السلام فيجعل لها مصداقا من آخرين كزيد وعمرو ... فهو فى حقيقة أمره مرتبطومذعن بالعوالم النورية، مثل ما قد ينسب إلى بعض عرفاء العامة فيرى أنه وصل فى سيره وسلوكه إلى الحقائق العلوية ولكنه اخطأ فى التطبيق فى هذه النشأة.

وقد ذكرنا أن هذا الارتباط أيضا غير نافع، وذلك لأن الحقيقة الانسانية هى أشرف صور المخلوقات الالهية ومنها يبدأ السير التكاملى والاتصال بالغيب فيجب أن لا يكون دونها كمالا، وهذا مع ما ذكرناه سابقا يقتضى أن يكون الهادى والرابط بين الأرض والسماء له جنبة بشرية.

* نعم يبقى الجواب عن اشكال قد يطرأ على ذهن البعض؛ وهو أن الاتصال بالغيب يكفى فيه النبوة فما الحاجة للائمة، وبتعبير آخر ما الحاجة إلى الهداية الايصالية مع وجود الهداية الارائية؟

وفى مقام الجواب نشير إلى أن الروايات قد استفاضت أو تواترت على أن للائمة جنبة تشريعية للاحكام لا بمعنى الاتيان بأصل الشريعة بل هى هداية تشريعية متممة للنبوة والرسالة، وبيان ذلك من خلال مقدمات:

- من المبادئ الاساسية التى تحكم التشريعات والتقنينات على مدى العصور هو مبدأ تدرج القوانين، وهو يعنى أن القانون يبدأ من قواعد كلية وعمومات فوقانية ثم تتدرج إلى قوانين متوسطة حتى تصل إلى القوانين الجزئية التى تطبق على الظواهر الفردية والاجتماعية، وهذا النحو هو الحاكم على التقنينات الوضعية فترى الدستور ثم القوانين الصادرة من المجالس النيابية ثم القوانين الصادرة من السلطة التنفيذية. وقد أشرنا فى بحوث الاصول إلى تماثل الاعتبار الشرعى مع الاعتبار الوضعى على أساس اتحاد لغة التقنين والتشريع.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۸۹

- أن تنزل القوانين العامة والقواعد الكلية إلى المصاديق يحتاج إلى مراقبة وذلك لمنع حصول الاختلاط والتدافع والتصادم فى التطبيق.

- أن السنة الجارية فى عالم الخلقة هى محدودية أعمار الانبياء والرسل، ولذا فهم يكتفون بذكر الكليات والقوانين العامة ولا يستوفون تنزيلها وتطبيقها على كل الدرجات و الموارد الجزئية إذ أن محدودية أعمارهم تمنع من مراقبة كل الدرجات و الجزئيات الحاصلة بعد حياتهم الشريفة.

- ان سلامة الشريعة وصوابية التقنين تقتضى استمرار المراقبة فى تطبيق تلك القواعد العامة والقوانين الكلية، خصوصا فى القواعد الالهية التى ترعى المصالح والمفاسد الواقعية التى تخفى على الاذهان العادية فلابد من استمرار بيان المتوسطات والتطبيقات، خصوصا

إذا قلنا أن الاحكام الشرعية هى إرادات إلهية صادرة من جانب الذات المقدسة فى الوقائع الجزئية والفردية والمجموعية.

- أن البشر العادى المنقطع عن الغيب ليس له أن يتوصل إلى بيان مؤدى النقطة السابقة وذلك لاحتياجها إلى عصمة علمية.

والنتيجة: انه لا بد من وجود فرد له عصمة علمية مضافا إلى العصمة العملية والكمالات النفسانية العالية، وهذا الفرد الذى يكمل مسيرة الأنبياء التشريعية هو الامام.

ولا يخفى على كل ذى لب ما نشاهده فى حياتنا العملية حال التشريعات الوضعية والمراقبة المستمرة على كيفية تطبيق التشريعات الدستورية وعدم مضادتها لها، ومع ذلك توجد موارد عديدة للنقض والخطأ وبين كل فترة وأخرى تحصل الاستدراكات والملاحق لغرض تفادى الاخطاء والنقص، وفى القانون الالهى وإن لم يُقس بالقانون الوضعى البشرى إلا انه لا بد من وجود المعصوم عصمة علمية يقوم ببيان تلك المتوسطات وبذلك يؤمن عن الوقوع فى الخطأ

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۹۰

والزلل فى التطبيق أوالتنزيل المسمى فى اصطلاح الوحى بالتأويل، ومجرد احتواء الكتاب على تلك التشريعات العامة لا يدفع الخطأ فى مجال التنزيل أو التفريع، فكم نرى فى عملية الاجتهاد أثناء استنباط الاحكام الشرعية من أخطاء وغفلات «۱».

وبهذا يندفع الاشكال من أنه لا حاجة إلى افتراض العصمة العلمية بواسطة وجود كتاب يروونه عن النبى صلى الله عليه و آله فيعتبرون لكونهم رواة عدولًا ولا حاجة إلى العصمة حينئذ.

ووجه الاندفاع أنه مهما بلغت درجته العلمية فإنه لا يؤمن من الوقوع فى الخطأ فى بيان القوانين المتوسطة وتطبيقها على الجزئيات، فلا بد من الاتصال بالغيب.

وبناء على ما مضى يتبين ضرورة ابراز جنبة الهداية الارائية فى الائمة مضافا إلى الهداية الايصالية، وعدم الاكتفاء بالاخيرة فقط كما ذهب إليه السيد العلامة فى الميزان.

* وقد يثار اشكال آخر: أنه ما المانع من عدم وجود ائمة معصومين عملا فكل ما نحتاجه هو عصمة نسبية عملية كالعدالة، وعصمة نسبية علمية كالفقاهة، فنكتفى بهما عن العصمة الشاملة بمعنى المقام الغيبى والملكوتى؟

ويوجد فى المقام جوابان:

الأول: ان هذا الإشكال قد حصل فيه التغافل عما ذكرناه فى بداية البحث أن الانبياء والرسل بمقتضى محدودية أعمارهم البشرية لا يوضحوا كل شيء ولا يبينوا كل القوانين الجزئية والمتوسطات، فمن أين للفقيه أن يعلم بقية المتوسطات مع عدم كونه متصلا بالغيب إذ المتوسطات ليست مجرد تطبيقات للكليات بل هى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۹۱

نوع من الانشاء التشريعى من نفس المشرع الاول. وبتعبير آخر: أن الانبياء نحو اراءتهم كانت اراءة اجمالية فلابد من الاراءة التفصيلية واستمرارها عن طريق الائمة بأن تكون متصلة بالغيب معصومة من الوقوع فى الخطأ.

الثانى: أن بيان الامام وفهمه للحكم الشرعى لا يكون كفهم الفقيه بل هو، بيان بعلم الغيب والتسديد الالهى المصيب للحق دوما. فاراءة الامام للاحكام الشرعية ليست شريعة جديدة بل بيان لتلك الشريعة الاجمالية الكلية المتنزلة عبر القناة الغيبية للنبى صلى الله عليه و آله.

إذن نلاحظ فى مقام الامامة والنبوة نقاط التقاء وافتراق وأفضلية جانب على آخر فكلاهما حلقة اتصال بالغيب، وكلاهما حجة اللَّه على الخلق وسفارة إلهية إلا أن وظيفة كل منهما تختلف عن الآخر فالنبوة فضيلة فى نفسها والامامة فضيلة فى نفسها، ورأينا فى تفسير آية البقرة كيفية استحقاق ابراهيم للامامة، وأنه كان عبر تلك الابتلاءات المختلفة والشديدة.

فالنبوة لها فضل والامامة تفصيل لتشريع النبوة، ويبقى للامامة الهداية الايصالية بخلاف النبوة التى تقتصر على الهداية الارائية وبعض

الانبياء هم ائمة أيضا، أما الائمة فليسوا بأنبياء وتفضيل بعضهم على بعض ثابت بالنصوص القرآنية والروائية، وقد تبين أيضا كيف أن النبوة لا تقوم مقام الامامة وأنها تكتمل بها.

وهاهنا تساؤل آخر وحاصله: لماذا لا يكتفى بالامامة عن النبوة فإنها جامعة للهداية الايصالية والارائية؟؟

والجواب عن ذلك:

۱- أن المفروض أن الهداية الايصالية ليست إلجائية بل اختيارية.

۲- أن المكلف فی اختياره لأیسيرة فی حياته يجب أن يكون طبقا لعلم، لكی يؤمّن جانب الاختيار والكمال فی المسير الانسانی فلابد أن يكون الانسان علی

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۹۲

علم بالطريق والغاية والهدف من هذا المسير وهذا الجانب العلمی لا يؤمّن إلا بالهداية الارائية، فعلمه وانتقاؤه طبقا لهداية النبی هو قوام الاختيار.

وبعد حصول ذلك العلم لدی المكلف يأتی دور الهداية الايصالية والتسبب الملكوتی الذی يری أن أرضية المكلف مخيرة ومهيأة لتقبل الكمال، ويستطيع المكلف الاختيار ويتبع إمام الهدی ويفضله علی اتباع إمام الضلال.

فتظهر أهمية العلم بالشريعة الذی يبينه النبی، ثم يأتی دور الامام بعد أن يختاره المكلف فتكون هدايته اختيارية لا إلجاء فيها ولا جبر، وخصوصا أن السير التكاملی لا يؤدی هدفه إلا اختياريا وإذا كان جبريا فلا كمال فيه.

وعليه فمن تمام عناية اللَّه ولطفه بالانسان أن يهيئ له الاسباب المعدة للكمال، ونظير هذا حقيقة الانسان الصغير حيث أن العقل العملی لا يغنی عن العقل النظری فحكمة وجوده هو نوع اعداد وتهيئة أرضية لانجذاب الانسان إلی نزعات العقل العملی وذلك بما يحصل عليه من علوم حصولية «۱».

تقييم الدليل الأول ...: ص: ۲۹۲

يلاحظ علی هذا الدليل هو تركيزه علی حيثية الهداية الارائية فی الامام، ولا يقوم باثبات المقام الغيبی للامام بما هو هاد هداية ايصالية، وهذا الدليل هو الذی اعتمده عامة المفسرين من الامامية طيلة قرون عديدة، ولكنهم عند ذكره لم يتطرقوا إلی المقام الغيبی للامام الذی يمكن التعمق فيه من خلال نفس المقدمات

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۹۳

المذكورة.

الصياغة الثانية لنفس الدليل ...: ص: ۲۹۳

فی بداية هذا الفصل بيّنا الجهاز العلمی والادراكی فی الانسان الصغير وذكرنا أنه توجد مدارج ادراكية ثلاث:

- المراتب الروحية (الاخفی والخفی والسر والقلب).
- المراتب الادراكية (العقل والوهم والخيال والحس).
- المراتب العملية (العقل العملی والقوی الشهوية والقوی الغضبية والاختيار).

وذكرنا أن تنزل العلوم البشرية دليل علی وجود العالم العينی وعالم ما وراء المادة حيث أن العلم ليس بمادی وليس له عوارض المادة وقد ثبت فی محله أن التجربة و الاستقراء لا يفيدان العلم وذلك لأن الجزئی لا كاسب ولا مكتسب، بل العلم يفاض من العالم الغيبی.

وفى تنزل العلوم تـدرج فى تلك المراتب حتى يصل إلى عالم الخارج، وقـد أشـرنا إلى أن البديهيات توفر عصـمة نسبية لدى الانسان ولهـذا أطلق على العقـل الرسول البـاطن، وأن هـذه البـديهيات لا ـ تكون بديهيـة لـدى العقل النظرى إلا بعـد ارتباطها بعلوم حضوريـة، وذلـك لأ ـن العلوم الحصوليـة وهى الصور الذهنيـة تظل قابلـة للانطباق على كثيرين وطبيعتها أنه يظل فيها الاحتمال والامكان، فهى لا تولـد اليقين ولا ـ الضـرورة أى ضـرورة الوقوع والوجود، أما الـدرك العيانى الحضورى فليس محلا للاحتمال والزلل لـذلك يجب أن تستند الادراكات الحصولية إلى ادركات حضورية حتى تكون يقينية صحيحة.

وعلى كل حال فهذه القنوات الانسانية ليست بمأمونة من الخطأ باعتبار تجاذب النزعات الشيطانية باعتبار أن الجن والشيطان ذو وجود خفى لطيف حيث بامكانه أن يرتبط بالانسان عبر مدارج وجوده لا سيما الادراكية النازلة وهو ما يعبر عنه فى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۹۴

الروايات «أنه يجرى فى البدن مجرى الدم فى العروق» فللشيطان منافذ يستطيع أن ينفذ من خلالها فى الانسان.

ونضـيف هنا أنه كيف يمكن أن تتنزل الارادات والمشـيئات الربانيـة من دون اشـتباه والتباس وخطأ؟ والجواب: أن هـذا غير ممكن إلا لمن أهّله اللّه بمـدارج روحانية وادراكية بأن لا يسـتطيع الشـيطان النفوذ إليها، وهو ما تشـير إليه الآية قاصدة النبى صـلى الله عليه و آله «وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ» «وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ» فما دام الاتصال بالغيب موجودا فى كل الازمنة وأن عالم الشهادة قائم على وجود هذا الاتصال وأن يد اللّه مبسوطة فهذا يدل على ضرورة وجود قناة معصومة تتنزل عن طريقها المشيئات الالهية.

وبعبارة أخرى: أن الارادة والمشـيئة الالهية يجب أن تبرز إلى عامة البشـر المختارين حتى يسـتعلموا مواطن مشـيئة وإرادة اللّه حتى فى الموارد الجزئيـة سواء الجزئى الاضافى أو الحقيقى، وهـذه الارادات لا يمكن أن تتنزل إلا عبر من كانت له عصـمة عمليـة وعلميـة أى يكون على صـعيد المـدارج الادراكيـة النازلـة وعلى المـدارج الادراكيـة الروحية الفوقانية. وبتعبير جامع له مقام غيبى، فلا تنازعه قوى الغضب ولا الشهوة والخيال ولا الوهم: «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ» «۱»

، فالشـيطان يدعو ويغرى الادراك، فالذى تكون ارادته ومشـيئته مظهرا لارادة اللّه يجب أن يكون مأمونا من نفوذ الشـيطان إلى ادراكا ته.

تقييم الدليل ...: ص: ۲۹۴

هذه الصـياغة توضح كثيرا من الروايات نحو «نحن تراجمة أمر اللّه ونهيه وتراجمة ارادة اللّه ومشـيئته». وفى هذه الصياغة ترميم للنقص فى تعريف الامامة لدى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۹۵

العلامة الطباطبائى، حيث أنه قد ركز على أن للامام مقاماً ملكوتياً يوجب بمقتضاه التصـرف فى النفوس والسير بها من منزل إلى منزل معنوى أعلى، وما ذكرناه يركز على الهداية الارائية للمعصوم.

فالدليل الاول بصياغتيه يقوم بمهمة البرهنة على جانب الهداية الارائية فى الامام.

الدليل الثانى: الفطرة ... ص: ۲۹۵

وهو المعروف بالدليل الفطرى وقد ورد فى عدة روايات، واجماله:

أن كـل فطرة بشـرية تجـد فى أعماقهـا انجـذاباً فطريـاً نحو الكامـل علمـا وعملاـ وهـذا الانجـذاب هو الباعث والمحرك للانسان لأن يتكامل، وهذا دال على وجود من هو كامل علما وعملا.

تفصيل الدليل: من خلال بيان عدة مقدمات:

المقدمة الأولى:

أن مدارس المعارف البشرية تتفق على وجود الأمور البديهية والفطرية لدى الانسان، ويعرفون القضية البديهية بأنها القضية التى يضطر الانسان إلى الاذعان بها بالضرورة من دون حاجة إلى إعمال الفكر بل مجرد الرجوع إلى النفس ورفع الموانع يجد نفسه مصدقا بها.

ونلاحظ أن هذا التعريف للبديهة ينطبق على الامور التى فطر عليها الانسان، فاذا افترض امر اشتركت البشرية فيه فإنه يعلم أنه من الامور الفطرية، ومن أدلة التوحيد د ليل الفطرة وهو من براهين الصديقين حيث يقولون أن انجذاب الفطرة البشرية نحو الكمال اللامحدود، دليل على وجود اللامحدود، وذلك لأنه لا يعقل أن تشترك البشرية بالايمان بأمر ما وتكون خاطئة به وإلا لزم السفسطة لأنه لو تبين

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۹۶

خطؤها فهذا يعنى عدم وجود حقيقة يمكن أن يرتكز عليها الانسان فى علومه، إذ أن السفسطة تعنى احتمال الخطأ فى كل علم تذعن به النفس، فالعلوم التى تكون على وزان الامور الفطرية والبديهية والتى يشترك بها عامة البشرية لا يمكن أن تكون خاطئة.

المقدمة الثانية:

أن الانسان فى حين انجذابه إلى اللامحدود يقر فى نفسه أنه لا يستطيع أن يكون لا محدودا لان قدرته وامكاناته كلها محدودة. فحتى لا يصاب باليأس وعدم الأمل والرجاء يجب أن يسعى لتحصيل الكمالات العلمية والعملية بالمقدار الممكن على حسب قدرته ووسعه، وهذا أحد وجوه تفسير ما يعبر عنه فى بعض الروايات «أه من طول السفر وقلة الزاد» فهذا السفر لا نهاية له لأن المقصود لا محدود ولا متناه.

المقدمة الثالثة:

أن من مسببات الانجذاب إلى الكامل اللامحدود الانجذاب إلى الكامل من بنى الانسان، فنجد الناس ينجذبون إليه وهذا ما يثبته علماء الاجتماع حيث يذكرون أن من أعرق الاساطير فى تاريخ البشرية هى اسطورة البطل، ولا يكاد يخلو مجتمع وملة منها، حيث يصورون البطل الشجاع والهمام المتحلى بمحاسن الاخلاق، ونرى الناس يندفعون إلى التشبه به فى كافة جوانبه وذلك للاعتقاد أن كمالاته من اللامحدود.

المقدمة الرابعة:

أن من كمالات الانسان الارتباط باللامحدود علما وقدرة و هيمنة على كل عالم الخلقة أو مَن تكون له السيطرة على كل شيء، وهذا لا يعنى الاحاطة المطلقة بالعزل عن الذات المقدسة وإلا لم يكن ذلك كمالا، ونفس وجود هذا الأمر و النزع

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۲۹۷

الفطرى دال على عدم امتناعه.

والنتيجة: أنه لا بد من وجود مثل هذا الكامل لامتناع السفسطة وثبوت ذلك بالفطرة.

الصياغة الثانية:

وهى تنطلق من نفس ما انطلقت منه الأولى أن الانسان ينجذب نحو الكمال اللامحدود.

المقدمة الثانية:

أن الحركة نحو أية غاية كمالية يشترط فيها أمران ذكرناهما فيما سبق: كون الهدف ممكنا وليس بممتنع ولا محال، وان يكون الكمال المطلوب غير حاصل للانسان فعلا.

المقدمة الثالثة:

أن الكمالات المطلقة للذات المقدسة لا يحدها حد والانسان يعلم من نفسه أنه لا يمكن أن ينقلب إلى اللامحدود، فحتى تكون تلك

الكمالات ممكنة يجب أن تتنزل إلى الحظيرة الانسانية حتى يتصورها الانسان ممكنة التحصيل مع بقاء تلك الكمالات المتنزلة غير حاصلة لديه.

وينتج من ذلك أن الارتباط بالذات المقدسة يجب أن يكون بواسطة رابطة من الحقيقة البشرية وقد ذكرنا سابقا أن المقتدى يجب أن يتحلى بالصفتين الغيبية والبشرية، وقد أشار القران إلى هذه الحقيقة «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ» «۱»

، فهذه الآية تؤكد ذات الحقيقة، ولذا يعيش الانسان الحالة الوسطى ما بين الخوف والرجاء فالارتباط مع الذات المقدسة يكون بواسطة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۹۸

المعصوم، وإذا لم نفترض ذلك فإنه يعنى انقطاع الاتصال مع الخالق جل وعلا.

والخلاصة: أن الموجب لحفظ الخوف والرجاء حسب التعبير الشرعى والموجب لضمان دوام الحركة حسب التعبير الفلسفى، والموجب للايمان بالغيب حسب تعبير الروايات (ونعنى بالايمان بالغيب الاعتقاد بغيب الكمال اللامحدود والانجذاب إليه فتتحكم إرادات الغيب فى التكامل بنحو غير منقطع) لا يتحقق إلا بوجود الرابطة، فمآل مَن لم يؤمن بالرابطة أنه لا ينجذب ولا يؤمن بالذات المقدسة ومعنى الايمان بها هو الايمان باللَّه تعالى.

وضرورة الارتباط باللَّه عز وجل عن طريق الواسطة يؤمن به العامة أيضا باضطرارهم الفطرى، إلا أنهم فى تطبيق مَن يلبسونه لباس العصمة يشتبهون فى التطبيق، وهذا هو عين الانحراف والضلال، مثلاـ يلبسون الصحابى أو بعضهم ثوب العصمة والكمال العلمى والعملى وهذا واضح من خلال ما ينقلونه من فضائل للأول والثانى والعشرة المبشرة بالجنة كما يدعون، ونحن نستشهد بذلك على أنه فى واقعه استجابة لنداء الفطرة الذى قد أشرنا إليه فى بداية الدليل وإقرار بمسلك الإمامية ومعتقد الامامة العهدية الالهية، و لأجل ذلك نلاحظ اطلاق الروايات على الأول والثانى الجبت والطاغوت لأنهما فى قبال العبودية والمخلوقية، فالجبت مأخوذ من الجب وهو الطم أو القطع أى السد العام لطريق الحق وسلوك الكمال، والطاغوت من الطغيان والتمرد فى الذات على ما توجبه حقيقة الفطرة البشرية بأن يكون عبدا للعيش ويدرك حالة الفقر فى حقيقته لربه فيتمرد ويعتد بذاته مستقلة ومستغنية عن المدد الربانى.

ولذلك فبوابة التوحيد هو الامام، وهو السبيل إلى الايمان الخالص باللَّه، وفى الرواية عن النبى الاكرم صلى الله عليه و آله «يا على من قصد اللَّه و لم يقصدنى فلم يقصد اللَّه و من قصدنى ولم يقصدك فلم يقصدنى» إذن فالواسطة والرابط يجب أن يكون من الكمال

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۲۹۹

العلمى والعملى بمكان حتى يتحرك الانسان وينبعث انبعاثا صحيحا سليما نحو الكمال المطلق والذات الأزلية، وواضح من الحديث أن الهداية النبوية هى هداية ارائية اجمالية بحاجة إلى هداية تفصيلية يقوم بها الامام.

فالامام مظهر عقلى أتم للخوف والرجاء الذى يجب أن يتحلى به الانسان ليتكامل وليكون مرتبطا بالذات المقدسة.

وهاهنا اشكال: أن هذه الصياغة تثبت كيفية الارتباط بين أفراد البشر والذات المقدسة وذلك عبر المعصوم الذى يتوفر فيه الشرطان اللذان يدفعان الانسان نحو الحركة، لكن كيف هو الارتباط بين المعصوم وهو بشر مع الذات المقدسة حيث يعلم أن كمالات الذات المقدسة أزلية أبدية لا يمكن تحصيلها فكيف يحصل الاقتداء والسير التكاملى بالنسبة إلى نفس المعصوم؟

والجواب: لقد ذكرنا فى المراتب الوجودية أن النبى الخاتم صلى الله عليه و آله هو أفضل الائمة والمعصومين فهو يمثل الرابطة بينهم وبين الذات المقدسة، ويكونون فى حالة استسعاء تام لتحصيل كمالات الحقيقة المحمدية، وهذا ما تفيده الروايات والآيات، وارتباط النبى الخاتم صلى الله عليه و آله بالذات المقدسة تكون مسألة من مختصات النبوة ولكن نشير إليها بنحو الاجمال، حيث أن عليه الصلاة والسلام أول ممكن فى الوجود فهو يعلم أن ما فى الذات الازلية غير منقطع الفيض عنه، والكمالات كلها تتجلى أو تتنزل تدريجيا شيئا فشيئا فالنبى صلى الله عليه و آله فى تكامل دائم.

الصياغة الثالثة ...: ص: ۲۹۹

تعتمد على مقدمة نقلية ذكرناها فيما سبق، حاصلها: أن لفظ الأمة أطلق فى اللغة على المجموع البشرى السائر نحو هدف ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بوجود هاد مطلع وعالم بالهدف يقود الامة فى هذا المسير التكاملى، ولا يمكن أن ينال هذا الدور أحد إلا إذا توفرت لديه العصمة العلمية والعملية حتى يمكن الوثوق بهدايته

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۰۰

فيتبعه الآخرون. فماهية الامة يستحيل أن تتخلف عن وجود الامام فيها.

يبقى اشكال على هذه الصياغة: بأن القران الكريم أطلق الامة على عدد آخر من الأمم بل بعضها منحرف وتتبع إمام الضلال؟

والجواب: أن القرآن أطلق على هذه الأمة أنها الملة الحقة والأمة الحقة، وهى التى لديها هدف حقيقى يوصل إلى الكمال الواقعى أما الامم الأخرى فاطلاق الامة عليها لا يكون بلحاظ قصد الكمال الحق فهم لا يؤمّون إليه لأن سيرها لا ينتهى إلى الكمال المطلق.

تقييم الدليل الثانى ...: ص: ۳۰۰

أن هذا الدليل يثبت ما ذكره العلامة الطباطبائى من جنبة الهداية الايصالية فى مقام الامامة وفيها جنبة الهداية الارائية، وهو ما ذكرناه من الاشكال والجواب ومدى الحاجة إلى الهداية التفصيلية ليحصل الاطمئنان فى اتباع هذا الهادى.

الدليل الثالث: برهان الغاية ... ص: ۳۰۰

ويسمى برهان الغاية، وله عدة مقدمات:

۱- أن كل انسان عندما يتكامل لا بد أن يجعل له غاية يريد الوصول إليها وهذا أمر ثابت فى جميع مدارس المعارف البشرية القديمة والحديثة.

۲- أن الموحدين يجعلون هدفهم هو اللّه عز وجل أى التخلق بأخلاق اللّه.

۳- ثبت لدى أصحاب المعارف أن الفطرة لا يستحثها الكمال فقط بل ما يدفعها نحو السعى هو خوف الضرر والهلاك أيضا، وعليه فالايمان بالتوحيد والنبوة يوفر الجانب الأول وهو كونه غاية وهدف، أما الجانب الآخر فيوفره الايمان بالمعاد والعقاب الأخروى، وأن الانسان لا يعيش عالم الدنيا فقط وإنما يوجد هناك عوالم أخرى يحياها الانسان، وهذه الرابطة بين المعاد والتوحيد يقرها كثير من علماء

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۰۱

النفس والاجتماع.

۴- أن الكمالات التى يسعى الانسان إلى تحصيلها لا تقتصر على كمالات عالم الدنيا بل هى كمالات فى عوالم لاحقة لهذه الدنيا فهناك عوالم آتية فيها كمالات و دركات ومفاسد، وأعمال الانسان فى هذه الدنيا تهيئ الارضية لنيل المكانة فى تلك العوالم وهذا هو معنى المعاد.

فالنتيجة: أن هذا السير يقتضى وجود الهادى والمعصوم الذى يسير بالامة نحو المعاد الحقيقى واحراز الكمالات العالية فى العوالم اللاحقة، وهذه المقدمات تثبت ضرورة تحلى الامام الهادى ب:

أ- الهداية الايصالية وأن يكون له تصرف فى النفوس تصرفا غير إلجائى أى تتكامل النفوس باختيار الانسان.

ب- الهداية الارائية التفصيلية.

ج- الزعامة الاعتبارية فى الانسان المجموعى وهو المجتمع.

فهذا الدليل يثبت ضرورة الامامة حسب تعريف العلامة مع التكملة التى أضفناها.

كذلك يبين الدليل الارتباط بين المعاد ومعرفة الامام ومن هنا نفهم قوله تعالى «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ» فالدعوة والحشر والمعاد يكون بتوسط الامام لأنه هو الهادى لهم نحو الكمالات التى تظهر فى العوالم اللاحقة، والآثار التى تظهر فى المعاد إنما هى بتوسط الامام حيث يكون مرتبطا بالغيب، ويعلم بلوازم الافعال الدنيوية وحقائقها وما يضر وما ينفع.

ومن الأدلة النقلية التى تؤيد هذا الدليل وما هو دور الامام فى المعاد:

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۰۲

قوله تعالى «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» «۱»

، وهذه الآية سوف نفرد لها بحثا مستقلا فى المقام الثالث، إلا أنا نريد أن نشير إلى أن الآية تنص على أن المؤمنين (وهم الائمة كما فى العديد من الروايات) يشاهدون حقائق أعمال العباد فى الدنيا وهذا الاطلاع اطلاع ملكوتى.

وفى روايات أخرى تشير إلى أن الاعمال إذا أريد أن تصعد إلى السماء والعرش فإن الصاعد بها هوا لامام، وروايات تشير إلى أن دور الامام يكون عند قبض الروح وفى البرزخ وعقبات الانتقال من عالم إلى عالم، وروايات تشير إلى أن الامام يُنصب له عمود من نور على كل مدينة فيطلع على أعمال العباد.

وفى تفسير «وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ» «... ۲»

يشير العلامة إلى أنه على الاعراف رجال مشرفون على الناس من الاولين والآخرين يشاهدون كل ذى نفس منهم فى مقامه الخاص به على اختلاف مقاماتهم ودرجاتهم ودركاتهم «۳».

تقييم الدليل الثالث ...: ص: ۳۰۲

إن هذا الدليل يثبت مقام الهداية الايصالية والارائية والزعامة والرئاسة التى ذكرها المتكلمون.

الدليل الرابع: معرفة النفس ... ص: ۳۰۲

ويعتمد على مقدمات:

۱- أنه من الثابت روائيا وعقليا أن معرفة النفس من أشرف الطرق للمعرفة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۰۳

الربوبية وذلك لأنه طريق برهانى يؤول إلى العيان الحضورى بناء على «من عرف نفسه فقد عرف ربه» «أعرفكم بربه أعرفكم بنفسه».

۲- قد بينا فى زاوية التعريف العقلى ل (ما الحقيقية) شئون النفس والرسول الباطن ودور العقل العملى والقلب واشرنا إلى صفات عشرة لدور العقل العملى وآثار القلب وسائر القوى.

۳- بمقتضى المطابقة بين الانسان الصغير والكبير، وأن المقصود من معرفة الرب ليس معرفة الذات الأزلية بل معرفة أفعال الذات وعالم الخلقة الذى هو عالم ربوبية البارى للخلق، والرب هو عنوان من الصفات الفعلية للبارى عز وجل بل وبمقتضى المطابقة بين الانسان الكبير والمجموعى أى المجتمع وهو وأن كان اعتباريا إلا أن هذا الاعتبار ليس ناشئا من لا شيء، بل الاعتبار كما أشرنا إليه يقتنص وينتزع من التكوين، وقد مثلنا أن قوى الانسان الصغير كلها تتمثل فى المجتمع فالجيش يمثل القوة الغضبية ووزارات الترفيه تمثل القوة الشهوية، والقوى المقننة تمثل العقل النظرى، والقوة القضائية تمثل الوجدان والضمير وحسب تعبير القرآن «النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» فهذه هى المطابقة بين الانسان الكبير والصغير والمجموعى.

وبمقتضى هذه المقدمات إذا كان فى الانسان الصغير توجد امامة ذات هداية ايصالية ارائية فنستكشف وجود ذلك فى الانسان الكبير والمجموعى وهو دور الامامة فى المجتمع، وما ذكرنا فى كيفية تصرف العقل العملى فى بقية القوى ينطبق على الامام فى الانسان المجموعى.

الدليل الخامس: برهان العناية ... ص: ۳۰۳

اشارة

وهو برهان العناية، وقد تعرضنا له فى الفصل الأول إلا أنا نعيده هنا ملخصا:

وهو علم البارى بالنظام الوجودى الأحسن، وعلى أكمل ما يكون عليه، وهذا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۰۴

العلم مستلزم لإفاضة الوجود الإمكانى الخلقى على أحسن ما يمكن أن يكون‌عليه، ولو بنحو الترتيب أو التدريج فى العوالم كى تستقصى كل الكمالات فى عالم الامكان (وهذا التعريف مأخوذ من مدرسة الاشراق والحكمة المتعالية)

وقد أشرنا إلى أن قاعدة العناية الفلسفية هى بعينها قاعدة اللطف لدى المتكلمين حيث أن الاخيرة تعنى أن كل فعل موجب لقرب المكلف من كماله المنشود، فإن البارى يحسن ويلطف تهيئته وايجاده ويقبح عدم ايجاده، فمن حيث اللب القاعدتان تعبران عن مفهوم واحد وأمر واحد، إلا أن الفلاسفة فى منهجهم يعتمدون على العقل النظرى فى اثبات القاعدة، أما المتكلمون فيعتمدون على العقل العملى فى اثبات القاعدة.

* أن أعلام الامامية استنادا إلى الروايات المختلفة ذهبوا إلى أن موقع الامام فى الانسان المجموعى (موقع الرئاسة والزعامة) هو لطف فلذا يحسن عن اللّٰه نصبه وتعيينه واللطف هو أكمل ما يمكن أن يكون عليه الوجود، فإذا كان أكمل ما يمكن أن يكون عليه الانسان المجموعى هو بوجود الامام فبمقتضى قاعدة العناية يجب عن الحق تعالى ايجاده.

* أن الحفظ للدين و تدبير الدنيا تستلزمان أن تتوفر فى الامام الهداية الايصالية والارائية التفصيلية، وذلك أن الامام لا يكون حافظا للدين إلا إذا أمّنت جنبة المقام الغيبى، ويكون على اتصال بالغيب فلا تصدر منه زلة علمية فى تبيان مدارج الاحكام الشرعية، وبما أن الغاية هو تكامل الافراد إلى الكمالات المنشودة وهو نوع من الهداية الايصالية.

تقييم الدليل ...: ص: ۳۰۴

أن المتكلمين اقتصروا فى اثبات الامامة فى الانسان المجموعى على قاعدة اللطف ولم يتناولوا جانب الهداية الايصالية مع انها لطف أيضا، وقد قمنا بتوسعة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۰۵

الدليل ليشمل هذا الجانب أيضا حيث أن العناية صفة من صفات البارى وأنه لطيف خبير «إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ».

ملاحظة عامة ...: ص: ۳۰۵

إلى هنا نلاحظ الارتباط بين الإمامة وبقية أصول الدين ففى الدليل الأول بيّنا كيف الارتباط بين الامامة والنبوة، وفى الدليل الثانى بينا الارتباط بين الامامة وفطرة التوحيد وأن بوابة التوحيد هو الامامة، وفى الدليل الثالث بينا الارتباط بين الامامة والمعاد ودور الامام فى

عوالم ما بعد نشأة الدنیا، وفی الدلیل الرابع انتقلنا من معرفة النفس إلی الامامة، وفی الدلیل الخامس ننتقل من صفات الباری وإنها تستلزم الامامة.

وبتعبیر آخر أن هذه الادلة لیست أدلة خطابیة بل هی برهانیة عرفانیة فی آن واحد أی ان ادراکها یحتاج إلی مقدمات فکریة من المعانی الحصولیة وإلی ذائقة قلبیة کی یدرک کنه تلک الأدلة الخمسة، ففیها مطالب علمیة ممتزجة من العلم الحصولی والعلم الحضوری، والنکتة التی أردنا الاشارة إلیها أن هذه الادلة الخمسة اللمیة تدلل علی أن أصول الدین تقود إلی الامامة.

الدلیل السادس: الأدلة الإنیّة ... ص: ۳۰۵

اشارة

وهو من الأدلة الإنیة التی اعتمدها المتکلمون والتی تنطلق من احتیاج الکل إلیه وغناؤه عن الکل دلیل علی إمامته، وعبر البعض عنه انه اجتمعت فیهم من الفضائل کلها، فهم احق بالامر بحکم العقل العملی، وبتعبیر ثالث أنهم علیهم السلام المشار إلیهم باشخاصهم وأسمائهم بحسب الجرد التاریخی وباعتراف کل الفرق والملل قد فاقوا نوابغ کل صفة فی کمال تلک الصفة.

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۳۰۶

تفصیل ذلک ...: ص: ۳۰۶

أن التاریخ یذکر أنهم قد وضعوا الحلول الناجعة لکثیر من المعضلات الفکریة التی ابتلیت بها الامة الاسلامیة؛ کما فی اشکالیة صفات الباری حیث قالوا:

«لا تعطیل ولا تشبیه وإنما أمر بین أمرین»، فلا یجوز تعطیل الصفات والقول أننا لا ندرک شیئا من صفاته تعالی، کما لا یجوز التشبیه والقول أننا ندرکه کما ندرک المحسوسات، وکذا نفی التجسیم ولوازمه عن ذات الباری، فقد کانت الاذهان عالقة بهذا الوهم. ونفی الجبر والتفویض وإثبات الاختیار فی الافعال.

وهکذا فی معالجتهم للمشاکل الفکریة التی انتقلت إلی الامة الاسلامیة من الحضارات الأخری فتراهم یجعلون لها الحلول بنحوٍ لا یصطدم مع الاسلام وضروریاته، وموارد هذا شتی من التوحید وصفات الحق تعالی، والعدل والمعاد والقضاء والقدر وما ورد من الشبهات حول نبوة الأنبیاء علیهم السلام، وبقول ابن أبی الحدید فی ذیل إحدی الخطب «لم تنتشر المعارف الالهیة من غیر هذا الرجل ولم یکن فی الصحابة من تصور أو صور شیئا طفیفا من المعارف»، ونضیف علی مقولته تلک أن عباراتهم وحلولهم وحکمهم ظلت حتی یومنا هذا مدار بحث وتشیید لأنها تفوق ما توصل إلیه السابقون من الفلسفة الیونانیة ویستنیر بهدیها المتأخر ون من الفلاسفة.

* المرحوم الشاه أبادی یذکر: أنه فی الصحیفة السجادیة لفتات وحلول لمعضلات فی عالم المعنی والعرفان، بنحو لم یکن مطروحا فی العرفان الهندی الذی هو من أقوی وأقدم المدارس العرفانیة لدی البشریة، ویشیر إلی أنه فی الادعیة الأولی بحوث عدیدة وغریبة ودقیقة فی السیر والسلوک أو فی مقامات الهادی، أو مقامات الخلقة والتکامل الانسانی ویعبّر عن ادعیتهم علیهم السلام أنها بمثابة القرآن الصاعد لما تحتویه من أسرار المعرف الالهیة.

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۳۰۷

فمثلاـ المتقدمون یجعلون الظاهر فی قبال الباطن والأول فی قبال الآخر، بینما الامام علیه السلام جعل الذات المقدسة هو الظاهر والباطن والاول والآخر، «فهو وحدة واحدة یستوی فیها الظاهر والباطن والأول والآخر»، وفی کتاب التوحید فی ما ذکره الامام الصادق علیه السلام تبیان إلی کیفیة الدلالة علی ذلک.

* أن خضوعهم وعبوديتهم المطلقة للَّهعز وجل لا تجد لها مثيلا عند من عاصرهم أو تأخر عنهم.

* أن معجزة السماء الخالدة القرآن الكريم لم ولا يوجد في الساحة الاسلامية ترجمان له- بحيث يثبت للبشرية أن القران الكريم يغطى كل احتياجاتها وكل تساؤل يطرح على وجه الأرض لم يتمكن احد من الاجابة عليه- سوى الامام مما يوضح وجود رابطة بينهم وبين القران، وهو ما سوف نثبته في المرحلة الثالثة في فقه الآيات.

* يضاف إلى تلك الادلة مقدمة مشتركة لا بد منها وذلك لأن الاقتصار عليها يثبت أن الائمة هم أليق الناس وافضلهم لادارة شئون الامة، لكن لاـ يثبت بها وجود مقامات أخرى في حين اننا يمكن أن نستفيد من تلك الادلة لما هو أوسع من ذلك باضافة هذه المقدمة وحاصلها:

أن توافر هذه الصفات بهذا النحو في هؤلاء الاثنى عشر إما أن يكون من باب الصدفة والاتفاق أو يكون بسبب وعلة.

اما الأول فباطل وذلك لأن القول به هو نفى لوجود اللَّه وذلك لأن الطفرة هي صدور شيء من شيء من دون سبب وعلة والاتفاق عبارة أخرى عن نفى السببية، وأن حيازة هؤلاء على الريادة في الصفات الكمالية إن كان اتفاقا يعنى أن يد اللَّه مغلولة، وأنه ترك الخلق كما خلقهم من دون هدايتهم والاتصال بهم.

فيبقى الثانى وأن وجود تلك الصفات فيهم لم يكن من باب الصدفة والاتفاق

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۰۸

بل أن هذا يدل على عناية الهية وافاضة ربانية جعلت هؤلاء متصفين بتلك الصفات طيلة تلك السنين المتعاقبة والتي شهدت منافسين عدة حاولوا النيل منهم بشتى الطرق والوسائل، فتوجد في البين إفاضة ربانية للكمالات العلمية والعملية، وإن الوراثة بينهم ليست وراثة نسبية بل وراثة نورية تكوينية جعلت تلك الحقيقة الغيبية مستمرة بهم.

وبهذه المقدمة تكون تلك الادلة الإنية مثبتة للمقام الغيبى الذي نتوخاه في الامامة والذي يكون به عدل النبوة وسفارة إلهية.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۰۹

المبحث الثالث الامامة في القران الكريم ... ص: ۳۰۹

اشارة

إن الهدف الذي نتوخاه من هذه الدراسة هو فهم حقيقة الامامة ودورها في عالم الغيب بعد ان استوفى الباحثون حقيقتها في عالم الشهادة، ونعتمد في ذلك على الآيات الكريمة التي تحمل معانٍ نورانية لنستوحى منها معانى تلك القناة المعصومة المرتبطة بالغيب.

وهاهنا ملاحظة مهمة: أنه يجب الالتفات إلى أن القرآن الكريم قد صدر من الحكيم العالم بخفايا الامور، والعارف بأساليب اللغة ومفرداتها، فالالفاظ المستخدمة في القرآن ليست قوالب لفظية شعرية وأدبية بغرض ابراز الجمال الادبى، بل إن وراء استخدام ألفاظ دون أخرى أو صياغات معينة دون غيرها غاية وهدف ومعنى يرمى إليه القران، وعدم فهم كلام البارى بهذا النحو يكون ابتذالا وتوهيناً للمعانى القرآنية وتزييفا لمعارفه ويخالف قوله تعالى «تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ» فليس المراد أن القرآن فيه تبيان للحقائق التشريعية فقط، بل أن القرآن فيه بيان للحقائق التكوينية أيضا، كما يظهر من كثير من الآيات التي تذكر خلق العالم وسنن التكوين، وأن هذا القران الحامل لسبعين بطنا لا يجوز لنا أن نقف أمام الظاهر فقط بل يجب الغوص في حقائق معانيه وما تحمله الالفاظ من معارف، بل نجد أن البعض يقدس القرآن ويسلّم بعظمته لكنه عندما نلاحظ فهمه لآياته نجده يبتذل

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۱۰

معانيه ويقف عند حاق اللفظ والظاهر فقط جاهلا أن الالفاظ ليست هي الهدف والغاية، بل هي قنطرة للوصول إلى المعنى المراد

فيجب تجاوز منطق الادب وعلومه، فتنفتح أمام الانسان حينئذ تلك المعانى العالية الدقيقة التى تحتاج إلى موازين العقل والمنطق.

وهذه نقطة نفترق بها عن العامة الذين حجبوا عن أعينهم تلك الأمور.

وقد قسمنا الآيات التى تتحدث عن الامامة إلى طوائف عدة نتناولها بالتفصيل.

الطائفة الأولى ...: ص: ۳۱۰

اشارة

استخلاف آدم، من الوقائع القرآنية العجيبة التى يحكى بها الحق تعالى بدأ الخلقة وكيفية خلق آدم عليه السلام وامر الملائكة بالسجود إليه، وهى من الآيات التى تحمل معانٍ كبيرة تدللنا على موقع الامامة فى الوجود الامكانى، ويمكن القول أنها تمثل البوابة لهذا البحث والعلامة الأم لهذا الموقع الإلهى. وقد تكرر ذكر هذه الواقعة أو مقاطع منها فى مواضع كثيرة من القرآن فى السور التالية:

۱- سورة البقرة ۲: ۳۰:

«وَإِذْ قَالَ رَبُّکَ لِلْمَلَائِکَةِ إِنِّی جَاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِیهَا مَنْ یُفْسِدُ فِیهَا وَیَسْفِکُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَنُقَدِّسُ لَکَ قَالَ إِنِّی أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ کُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَی الْمَلَائِکَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِی بِأَسْمَاءِ هؤُلَاءِ إِنْ کُنْتُمْ صَادِقِینَ قَالُوا سُبْحَانَکَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّکَ أَنْتَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ قَالَ یَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَکُمْ إِنِّی أَعْلَمُ غَیْبَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِکَةِ اسْجُدُوْا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِیسَ أَبَی وَاسْتَکْبَرَ وَکَانَ مِنَ الْکَافِرِینَ وَقُلْنَا یَاآدَمُ اسْکُنْ أَنْتَ وَزَوْجُکَ الْجَنَّةَ وَکُلَا مِنْهَا رَغَداً حَیْثُ شِئْتُما وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَکُونَا مِنَ الظَّالِمِینَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّیْطَانُ عَنْهَافَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا کَانَا فِیهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۱۱

وَمَتَاعٌ إِلَی حِینٍ فَتَلَقَّی آدَمُ مِنْ رَبِّهِ کَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَیْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ».

وهذه السورة تحوى جميع مقاطع الواقعة منذ إخبار اللّه الملائكة بخلق آدم وحتى هبوطه إلى الأرض.

۲- سورة الكهف: ۵۰:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِکَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِیسَ کَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّیَّتَهُ أَوْلِیَاءَ مِن دُونِی وَهُمْ لَکُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِینَ بَدَلًا».

۳- سورة الحجر: ۲۸:

«وَإِذْ قَالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَةِ إِنِّی خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِن رُّوحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِینَ فَسَجَدَ الْمَلائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِیسَ أَبَی أن یَکُونَ مَعَ السَّاجِدِینَ».

۴- سورة الاسراء: ۶۱:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِکَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِیسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِیناً قَالَ أَرَأَیْتَکَ هذَا الَّذِی کَرَّمْتَ عَلَیَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَی یَوْمِ الْقِیَامَةِ لَأَحْتَنِکَنَّ ذُرِّیَّتَهُ إِلَّا قَلِیلًا».

۵- سورة طه: ۱۱۵:

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَی آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِیَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِکَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِیسَ أَبَی فَقُلْنَا یَاآدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَکَ وَلِزَوْجِکَ فَلَا یُخْرِجَنَّکُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَی إِنَّ لَکَ أَلَّا تَجُوعَ فِیهَا وَلَا تَعْرَی وَأَنَّکَ لَا تَظْمَؤُا فِیهَا وَلَا تَضْحَی فَوَسْوَسَ إِلَیْهِ الشَّیْطَانُ

قَالَ یَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّکَ عَلَی شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْکٍ لَّایَبْلَی فَأَکَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا یَخْصِفَانِ عَلَیْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَی آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَی ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَیْهِ وَهَدَی قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِیعاً بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا یَأْتِیَنَّکُم مِنِّی هُدیً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَایَ فَلَا یَضِلُّ وَلَا یَشْقَی وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِکْرِی فَإِنَّ»....

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۳۱۲

۶- سورة الاعراف: ۱۱- ۲۵:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَاکُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاکُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِکَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِیسَ لَمْ یَکُن مِنَ السَّاجِدِینَ قَالَ مَا مَنَعَکَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُکَ قَالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِینٍ»...

۷- سورة ص: ۷۱- ۷۵:

«إِذْ قَالَ رَبُّکَ لِلْمَلَائِکَةِ إِنِّی خَالِقٌ بَشَراً مِن طِینٍ»...

وقبل الاستعراض التفصیلی لهذه الطائفة نذکر عدة ملاحظات:

۱- إن هذه الواقعة العجیبة التی یذکرها اللّه جلّ وعلا لعباده تحتوی علی معانٍ جلیلة وعظیمة وتستحق وقفة مطولة.

۲- إن ستة سور من التی وردت فیها القصة مکیة، وسورة واحدة مدنیة وهی البقرة.

۳- إن العنصر المشترک المتکرر فی کل هذه الموارد السبعة هو أمر الملائکة بالسجود لآدم وامتناع ابلیس عن ذلک.

۴- تمتاز سورة البقرة بورود نص الاستخلاف فیها ومناقشة الملائکة فیه، وهذا لم یتکرر فی الموارد الاخری.

۵- قد رتبنا السور المکیة التی ورد فیها هذه القصة حسب النزول.

وسوف تکون دراسة هذه الحادثة فی مقامات أربع:

أولًا: دراسة الألفاظ الواردة فیها ... ص: ۳۱۲

نبدأ بدراسة الواقعة کما وردت فی سورة البقرة والتدقیق فی المعانی الواردة فیها:

* الملائکة: وهو وإن کان جمع معرف باللام ویفید العموم أی جمیع الملائکة إلا أن بعض الروایات تشیر إلی أنهم قسم من الملائکة لا أقل من نمط جبرئیل

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۳۱۳

ومیکائیل واسرافیل وعزرائیل، لکن ادخال عنصر غیب السماوات والارض یدل علی أن الملائکة فی الواقعة لم یکونوا صنفا خاصا منهم بل عموم الملائکة إذ أن ما غاب عنهم هو خاف علی کل السماوات والارض. کما ان الخطاب للملائکة بإخبارهم عن جعلٍ عام وهو جعل الخلیفة، ولم یخصص بآدم.

* فی الارض: وفیه احتمالات ثلاث:

أ- أن تکون متعلقة ب (خلیفة).

ب- أن تکون متعلقة بالضمیر المستتر فی (خلیفة) لأنها مشتق.

ج- أن تکون متعلقة ب (جاعل).

فعلی الاحتمال الاول یکون المعنی أن الخلیفة مقید فی الارض، فدائرة الخلافة تکون محددة حینئذ بالأرض.

وعلی الاحتمال الثانی تکون دائرة الخلافة مطلقة غیر محددة، والمستخلف مقید بکونه أرضیا فهو انسان أرضی دائرة خلافته مطلقة غیر محددة فتشمل کل عالم الخلقة.

وعلى الاحتمال الثالث فحيث أن (جاعل) تتعدى إلى مفعولين الاول (فى الارض) والثانى (خليفة) فيكون المعنى اخبارا من اللَّه عز وجل أن الذى هو فى الارض قد جعلته خليفة على نحو «جعلت الآجر بيتا».

أما الاحتمال الاول فهو بعيد حيث أن من البعيد جدا تقيد الخلافة فى الأرض وذلك لمجموعة من القرائن نستوحيها من الآية نفسها:

أ- أن العلم الذى يمتلكه هذا الخليفة علم خاص يفوق علم الملائكة إذ أنه علم محيط بكل الاشياء حتى التى لا ـ ترتبط بالواقع الأرضى- كما سوف نتبين ذلك لاحقا- فلو كانت خلافته محددة بالارض فما هو الحاجة لهذا العلم ثم ما هو الداعى لاظهار تفوق علمه على علم الملائكة بخلاف ما إذا كانت دائرة الاستخلاف

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۱۴

غير محددة بالارض.

ب- إن إسجاد الملائكة لآدم يدل على الهيمنة التكوينية للمطاع بإذن اللَّه، وهذه الطاعة وتلك الهيمنة إنما هى وليدة العلم بحيث أن الملائكة تستقى علومها منه كما سوف يأتى التدليل عليه، ومعلوم أن شؤون الملائكة ليست منحصرة بالارض بل بكل عالم الخلقة، فهذا يدل على أن دائرة الخلافة غير مقيدة بالارض بل هى تشمل كل عالم الخلقة غايتها هذا الموجود كينونة بدنه هى فى الارض.

وقد يستشكل أنه لو كانت خلافته عامة لكل عالم الامكان فكيف يجعل متأخرا عن الملائكة أى كيف تتأخر خلقته عنهم؟؟ والجواب: ان خلقته غير متأخرة عنهم وأنما المتأخر هو وجوده الارضى أما أصل الخلقة فإنها لم تتأخر عنهم كما سيتضح ذلك لا حقا.

ج- استنكار الملائكة وتساؤلهم لم يكن دائرا حول دائرة الاستخلاف بل حول الموجود الارضى، فهى فهمت أن هناك ذاتاً فى الارض سوف تكون هى الخليفة فجاء الاستنكار، وبعبارة أخرى أن مقتضى كلامهم (أتجعل فيها من) ... هو تعلق (فى الارض) بالجعل.

د- إن مقتضى تقدم الجار والمجرور على لفظة الخليفة، مع صلاحية تعلقه بالعامل المتقدم يعين تعلقه به وخلاف ذلك يحتاج إلى قرينة.

* أما بالنسبة إلى (جاعل) فإنها تأتى بمعنيين أحدهما بمعنى موجد وهو يتعدى إلى معمول واحد، والاخر يعنى الصيرورة وهو يتعدى إلى معمولين، والاقرب ان يكون الوارد هنا الثانى، ومعمولاه هما (فى الارض) و (خليفة) وهذا يؤدى نفس المعنى الذى نتوخاه وهو عدم تقييد وتحديد دائرة الخلافة فى الارض.

إن اصل المعمولين مبتدأ وخبر فلو قدرنا المبتدأ (خليفة) والخبر (فى الارض) فمقتضاه انه ليس فى صدد جعل الاستخلاف بل هو أمر مفروغ منه، وأنما هو فى

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۱۵

صدد الاخبار عن الجعل الارضى لهذا الخليفة، أما لو كان العكس فإنه يعنى أن كونه فى الارض أمر مفروغ عنه والجعل والاخبار عن الاستخلاف، والاول أنسب وذلك لأن مسائلة الملائكة هو عن كينونته فى الارض وعن هذا القيد الذى يظهر انه مجهول بالنسبة إليهم.

ويحتمل أن يكون الجعل بمعنى الايجاد فيأخذ معمولا واحدا، هو (فى الارض) وخليفة صفة له، وقد يعترض عليه أن هذا التركيب يشبه قولك إنى جاعل فى البيت مسئولا أو إنى جاعل فى المؤسسة مديرا وهذا تقيد للمسؤولية والادارة؟؟ والجواب: أن هنا مناسبة بين المؤسسة والادارة والبيت والمسئولية فى حين أنها مفقودة بين الارض والاستخلاف، كما أن القرائن التى ذكرناها سابقا من التعليم والا سجاد وما يأتى من تعليم الاسماء كلها تؤكد على ان الاستخلاف دائرته أوسع من الارض، ثم ان هذا الجعل مضافا إلى ظهوره فى الاطلاق الزمانى والتأبيد ما دام الموجود الارضى أن اعتراض الملائكة حيث يكفى فى توجهه صدقه ولو بمقدار البرهة والفترة اليسيرة، فالتخطئة لهذا الاعتراض لابد ان يكون بنحو النفى والسلب المطلق له، وذلك بدوام وجود الخليفة ذى العلم اللدنى ما دام

الخلق البشری علی الارض.

* خلیفـة: والاسـتخلاف الوارد فی القرآن علی نحوین: اسـتخلاف عام لنوع البشـر والهدف منه إعمار الأرض والعالم الکونی، والثانی اسـتخلاف خاص وهو خلافـة الاصـطفاء وهی المقصودة هنا وذلک لأن الحق تعالی قـد ربط هذا الاسـتخلاف بالعلم اللدنی المحیط، ومثل هـذا العلم لیس لـدی نوع البشـر بل لدی فئة خاصة منتخبة من البشـر، ولکن هذا لا یعنی الاختصاص بآدم بل قد یعم فئة من بنی البشر، نعم هو لا یعم کل البشر.

والفارق بین الاستخلاف والنیابة والوکالة، أن هذه العناوین تقتضی وجود

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۳۱۶

طرفین أحـدهما یتولی عن الآـخر الفعـل والعمـل إلا أن دائرة التولی إذا کانت محـدودة فتسـمی وکالـة ویتبع ذلک ضـیق صـلاحیات الطرف، وإذا اتسعت تسمی نیابة وتزداد صلاحیات الطرف، وإذا اتسعت أکثر تسمی ولایة، وإذا ازداد اتساعها تسمی خلافة و هی قیام شخص مقام آخر، فیقال خلف فلان فلانا أی حل محله، غایة الامر أنه فی عالم الممکنات تکون بدلا عن فقد أی بعد فقد المستخلف فی ذلک المقام، أما عندما تکون الخلافة عن الواجب فلا تکون عن فقد بل بنحو الطولیة، فاللَّه مالک الملک فی السـماوات والارض فهو یملک ویُقْدِر الملائکة علی شـیء، ولا هو فاقد للقدرة بل فی عین تملکهم واقدارهم یکون مالکا وقادرا، فهذا الاسـتخلاف لیس هو التفویض الباطل بل هو اقدار وتمکین من دون تجافٍ وفقد.

فالمسـتخلف هو اللَّه عز وجل والخلیفـة یکون هو الرابطـة التکوینیة بین الذات الأزلیة ومورد الاسـتخلاف، نظیر الافعال الاختیاریة التی یقـدم بهـا الفاعل المختار المخلوق فإنها إقـدار وتمکین من مالک الملوک واسـتخلاف فیها من دون عزلـة ولا إنحسار لقـدرة واجب الوجود.

وأخیرا فإن عنوان الخلیفة غیر عنوان النبوة والرسالة بل یکون أهم شأنا منها لأنه یقوم مقام اللَّه ویخلف اللَّه بخلاف العنوانین.

* قال: إنی أعلم ما لا تعلمون.

إن اعتراض الملائکـة یـدل علی انهم تصوروا أن الهدف من ایجاد آدم هو اعمار الارض ولکن الآیة تبین خطؤهم فی فهمهم، ومحط اعتراض الملائکـة أن من یصـدر منه الافسـاد وسـفک الـدماء أی من یصـدر منه الزلـل والخطـأ لاـ یتساوی مع من یکون معصوما عن الخطأ، فهم أحـق بخلافـته من هـذا الموجود، وکـان الجواب أن هـذا الاـعتراض منشؤه الجهـل، حیث أن العصـمة العملیـة لیست هی العاصمة فقط عن الزلل بل المهم هو العصمة العلمیة التی تکون عاصمة حینئذ عن الزلل العملی

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۳۱۷

أیضـا، فالجهـل العلمی هـو الـذی یسـبب الوقـوع فی الاخطـاء والزلـل، ومـن هـذه الآیـة نعرف السـر فی حـث القرآن علی طلب العلم واسـتخدام العقل حیث أن التقـدّس والتعبـد غیر مانع وعاصم من الوقوع فی الخطأ بل العلم التام والصـحیح هو العاصم الأتم، وبـذلک یمکننا القول أن سؤال الملائکـة لیس اعتراضا فهم مسـلمون للَّه وخاضـعون إلیه إلا أنه سؤال اسـتفهامی ناتـج عن عـدم احاطتهم بکل شیء فتصوروا أنهم أکثر أهلیة لهذا المقام.

* الاسـماء: وهو جمع محلی باللام مفید للعموم، والکلام فی المراد من هذه الاسـماء فذهب البعض إلی انها المعانی المختلفة، وبعض إلی أنها أسماء المعانی کلها، ولکن التدبر فی الآیات الشریفة لا یساعد علی الاقتصار علی أیٍ منها وذلک:

– أن العلم بهذه الاسماء أوجد امتیازاً لآدم علی الملائکة وبه استحق الاستخلاف، وإذا کان هو ما ذکروه من المعلومات الحصولیة فإن آدم بتعلیمه للملائکـة یصـبحون فی مستوی واحد، بل قد یکون تدبر اللاحق اشـرف من السابق وعلیه لا موجب لاسـتحقاق الافضـلیة لآدم علی الملائکة.

– أن الاسـماء لو کـانت هی اللغـات وأسـماء هـذه المعـانی المتداولـة فإن الحاجة إلیها إنما هو لانتقال المعانی والمرادات بین الناس،

والملائکة ذات کمال أعلی وأشرف من ذلک فإنها تطلع علی النوایا من دون حاجة إلی الألفاظ فأی کمال تحصل علیه الملائکة فی إنبائها بهذه الاسماء.

– أن هذه الاسماء أرفع من أن تصل إلیها الملائکة مع تنوع شئونها ووظائفها حیث أنها جاهلة بها، خصوصا أن الملائکة کانت عالمة بشؤون الارض ولذا سألت عن هذا الموجود الارضی فلا یخفی علیها شأن من شؤون الارض، فلا بد أن تکون هذه الاسماء غیر أرضیة.

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۳۱۸

– فی الآیة اللاحقة عندما عرض اللّه جل وعلی المسمیات أو الاسماء علی الملائکة أشار إلیها باسم الاشارة (هؤلاء) وهو یستخدم للعاقل الحی الحاضر ولا یقال للمعدوم ولا للجماد، وکذا استعمل ضمیر الجمع للعاقل (هم) فی جملة (عرضهم) وفی جملة (انبأهم باسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم).

– إن تمیز آدم عن الملائکة ظل حتی بعد إنباء الملائکة بهذه الاسماء أو بأسماء الاسماء.

– إن آدم لم یعلم الملائکة بهذه الاسماء بل أنبأهم والإنباء غیر التعلیم إذ أن التعلیم هو العیان الحضوری، أما الانباء فهو إخبار بالعلم الحصولی.

– التعبیر عن هذه الاسماء أنها (غیب السماوات والارض) فالاضافة هنا لامیة ولیست تبعیضیة أی غیب للسماوات والارض لا أنه غیب من السماوات والارض أی ما وراء السماوات والارض وأنها کانت غائبة عن الملائکة بل خارجة عن محیط الکون.

وهذه القرائن والشواهد تدل علی حقیقة واحدة:

أن هذه الاسماء لمسمیات و وجودات شاعرة حیة عاقلة عالمة أرفع مرتبة وأشرف وجودا من الملائکة، بل هی اشرف من آدم لأنه بالعلم بها استحق الخلافة، فهی اشرف مقام فی الخلیقة.

* العلم: أن العلم الذی تعلمه آدم من قبل الحق تعالی لم یکن بالتعلیم الکسبی الحصولی إنما هو بالعلم الحضوری، وهو نوع من الارتباط والرقی للروح إلی عوالم عالیة حیث ترتبط الروح بتلک العوالم العلویة عیانا وحضورا، والحدیث هنا لیس فی مقام الرسالة والنبوة بل فی مقام الخلافة وخلیفة اللّه.

إذن فالعلم المذکور هنا هو خارج حد الملائکة، لذا نفی التعلیم عنهم حتی بعد إنباء آدم یدل علی ان هذا المقام هو غیر مقام النبوة بل هو مقام الامامة والخلافة کما

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۳۱۹

ترتب علیه إطواع وإتباع الملائکة له.

ثم أن هذا التعلیم لآدم کان قبل دخوله الجنة وقبل نزوله للأرض کما یتفق علیه المفسرون أی قبل أن یکون مقام النبوة لأدم، وقد یقال أن من إنبائه للملائکة یدل علی کونه نبیا لهم لکن هذا لیس من قبیل النبوة الاصطلاحیة للأرض حیث التکلیف والعمل، وإنما الانباء هاهنا من قبیل التعلیم اللدنی الذی هو فوق مقام الملائکة.

ویذهب البعض إلی القول أن الخلافة التی جعلت عنوانا لهذا الموجود هی خلافة عن النسناس الأرضی وهذا خطأ فاحش بل بقرینة الانباء المزبور هو مقام خلافة اللّه عز وجل أی بمعنی الاقدار من قبله عز وجل.

ومما یدلل علی أن العلم الوارد لیس علم النبوة والرسالة أن فی هذا العلم لا یحتمل واسطة ملکیة بین اللّه وبین آدم بینما فی علم النبوة یحتمل واسطة الملک ویمکن وقوعها.

فهذه القرائن تدل علی أن هذا العلم الذی تعلمه آدم نحو من العلم الحضوری الخاص، وأنه استحق به مقام الولایة والرتبة التکوینیة، وهو فوق مقام النبوة والرسالة.

* إن كنتم صادقين.

إن القرآن فى حديثه عن الصدق يذكر له مراتب من مقام الصديقين والصديق وهذه المراتب ليس فى قبالها الكذب الاصطلاحى، بل هى مراتب اشتدادية فى نفس الصدق وقد أشرنا قبل إلى قوله تعالى «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلًا» حيث ذكرنا أن اللَّه أصدق من سيد الكائنات وهذا لا يعنى أنه كاذب- والعياذ باللَّه- فالاصدق دوام كلامه وسعته أكثر من الآخر، والامر الذى نريد التأكيد عليه أن مراتب الصدق لا يقابلها الكذب فالآية لا تدل على كذب الملائكة بل تشير إلى عدم واقعية ما

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۲۰

حسبوه وتوهموه.

وهناك روايات تبين كيف الطريق إلى أن يكون الانسان من الصديقين وهو مقام أوسع من الصدق الخبرى والمخبرى، فالذى يكون أكثر علما وأكثر احاطة يكون أصدق من الاقل علما وذلك لان الاول يكون علمه محيطا والآخر أقل احاطة فتأتى علومه غير مطابقة، فالمقصود أن المراد هنا من الصدق الاحاطة وعدمها لا المطابقة للواقع وعدمها.

ونظير ذلك ما تصف الروايات بعض آيات القرآن أنها أصدق من آيات أخرى وأكثر احكاما وأكثر حقا، وهذا لا يقصد منه بطلان الآيات الاخرى بل يقصد منه أن تلك الآيات اكثر احاطة بالواقع فتكون أصدق وأحق وأحكم.

فالملائكة فى هذه الآية يخبرون عن أحقيتهم وأهليتهم للخلافة فى الارض حيث انهم أنبئوا عن استحقاق ذلك لمن تكون له العصمة العملية لا أنهم يخبرون عن واقع بل من باب المسائلة.

* الإنباء: بناء على ما ذكرنا سابقا من أن استخدام الحق تعالى للالفاظ المختلفة ليس من باب التنوع اللفظى والنثر البلاغى، بل القرآن كتاب حقائق، وتغير اللفظ من موضع إلى آخر يدل على تغاير فى المعنى الحقيقى المراد للحق تعالى.

فنلاحظ هنا أن البارى تعال أسند تعبيرين لهذه الاسماء أحدهما: وعلم آدم الاسماء كلها، والآخر: قوله للملائكة (أنبئونى) وأجابت الملائكة (لا- علم لنا إلا- ما علمتنا) فأمر آدم بانبائهم باسمائهم، فالارتباط بين الحق تعالى وآدم كان بالتعليم أما عندما أخبر آدم الملائكة كان بالانباء. وهذا التغاير يدل على أن الملائكة لم ينالوا العلم الحقيقى بهذه الاسماء.

والسر فى هذا التغاير هو أن التعليم عيانى حضورى، والانباء إخبار من وراء حجب الصور والمفاهيم وما شابه ذلك، فإضافة آدم مع ربه من نحو العلم

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۲۱

الحضورى، وأما الاضافة بينه وبين الملائكة فهى اضافة انباء وهى درجة نازلة عن العلم، ومن القرائن على تلك المغايرة:

- أن الملائكة لو كانت قابلة لتعليم الاسماء لأصبحوا فى الشرف سواء مع آدم، ولما كانت لآدم مزية عليهم فالملائكة لم يستحصلوا على ذلك العلم إلى آخر المطاف، خصوصا إذا لاحظنا أن الاهلية للخلافة غير منوطة بالاسبقية الزمانية للحصول على العلم بل الاهلية هى بالعلم وهى حاصلة لآدم.

- فاطلاع الملائكة لم يكن بالعلم اللدنى ولو كان كذلك لما كانت حاجة لانباء آدم.

فالخلاصة أن الملائكة بعد إنباء آدم أصبح لديهم علما حصوليا بتلك المسميات.

* غيب السماوات والأرض: ذكرنا فى بحث الاسماء أن الاضافة فى غيب السماوات هى اضافة لامية أى غيب للسماوات والارض، وقد جعل بعض العامة أن المراد بهذا الغيب هو ما كتمته الملائكة لكنه غير تام وذلك لأن قوله تعالى «وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» (۱)

من عطف المغاير زيادة على الجملة السابقة إذ (ما تبدون) ليس من الغيب أصلا، وما كانت تكتمه هو أنها كانت ترى أنه لا يوجد من هو أقرب منها إلى اللَّه كما يفهم من مفاضلتها ذواتها على مطلق من هو غيرها من المخلوقات، فليس هذا المراد من غيب السماوات

والارض بل المراد منه أمر ليس بجزء من السماوات والارض.

ومقابل الاضافة اللامية التبعيضية أى خصوص غيب هو جزء من السماوات والارض وهو ينطبق عل الكونية المستقبلية لكن المورد ليس من هذه الموارد التى

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۲۲

تكون الاضافة تبعيضية، وذلك لأنه مقام اظهار قدرته تعالى واحاطته وعجز الملائكة، وتمام العجز أن هذه الاسماء أمور غائبة عن العالم السماوى والارضى خارج محيط الكون، ومما يبعد معنى التبعيض وأن الغيب بمعنى المستقبل الذى هو جزء السماوات والارض أنه قد عرضهم على الملائكة فهى موجودات بالفعل لا مستقبلية، وهذا مما يعزز أيضا أن المراد غيب فعلى عن السماوات والارض، فإذن هى موجودات أحياء فعلية خارج إطار السماوات والارض.

* أية السجود: وفيها موقفان يجب التأمل فيهما، أحدهما: أمر اللَّه عز وجل الملائكة بالسجود لآدم، والآخر هو إباء ابليس واستكباره وكونه من الكافرين.

أما الامر الاول وهو السجود ففيه عدة نقاط:

- أن التساؤل يثار عادة هل أن السجود لغير اللَّه تعالى صحيح أم لا؟ وهذه مسألة كلامية فقهية نتعرض لبعض جوانبها ومن ثم نذكر ما يمكن استيحاؤه من الآية الكريمة.

ذهب بعض الفقهاء إلى أن السجود ذاتيه العبادة، فأينما وقع فهو عبادة فلا يجوز ايقاعه لغير اللَّه تعالى لأنه هو المعبود حقيقة، ولذا يذهبون إلى تأويل ما ورد فى القرآن الكريم من السجود لغير اللَّه تعالى إلى أنها تحمل على مطلق الخضوع والخشوع لا اداء تلك الحركة المعينة، لأنه من المحال أن يأمر اللَّه تعالى بعبادة من ليس أهلا للعبادة فهو شرك وقبيح، ويستشهدون بما ورد من الأثر عن النبى صلى الله عليه و آله:

«لو كنت آمرا أحدا بالسجود لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»، وهذا يعنى عدم جواز الأمر بالسجود.

والجواب عنه: أن المستدل يستدل بوجهين أحدهما أن السجود ذاتيه العبادة، والآخر نهى الشارع عن السجود لغير اللَّه.

أما الاول: فكون السجود- لو كان بمعنى الهيئة الجسمانية المخصوصة- ذاتية

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۲۳

العبادة أول الكلام، بل أن السجود مظهر ومبرز للعبادة وفرق بين الأمرين، والشاهد على ذلك أن تلك الهيئة المعينة قد يوقعها الإنسان و مقصوده الرياضة أو الاستراحة أو أى أمر آخر، وهذا يدل على أن العبادية فيها متقومة بالقصد لا أن الهيئة متى وقعت كانت عبادة، وعليه نقول أن تلك الهيئة لو وقعت بقصد الاكرام والاحترام لا بقصد الخضوع العبادى فلا تكون عبادة، وقد مورس هذا النوع من التكريم والاحترام فى الشعوب القديمة حيث كان يسجد للسلطان والملك كما فى عهد النبى يوسف عليه السلام، ولم يكن فى البين عبودية وهذا يدلل على أن تلك الهيئة ليست ماهيتها التكوينية العبادة، مضافا إلى أن أصحاب هذا الرأى لا يعتبرون الركوع عبادة مطلقا، ويجوّزون وقوعه لغير اللَّه إذا كان القصد منه الاحترام والتكريم.

وبعبارة أدق أن الخضوع تارة عبودى وأخرى مطلق الاحترام والتكريم والتعظيم، والفارق بينهما أن الخضوع إن كان بقصد ان المخضوع له ذات واجبة الوجود بنفسه خالق متصف بجميع الكمالات بالذات فهو عبادة، وإن كان لا بقصد منتهى الخضوع ولا ان المخضوع له ذات مستقلة الوجود فلا يكون عبادة.

بل أن القبح يزول عن هذه الهيئة عندما يكون الآمر إلى هذا السجود هو اللَّه عز وجل، بل يعد السجود لهذا الشخص هو منتهى الامتثال والخضوع لأوامر اللَّه، بل هو منتهى الفناء والابتعاد عن أنانية الذات، والحق تعالى عندما يأمر بالسجود لا يكون أمرا بمعنى العبادة لغيره إذ أنه مستحيل، بل العبادة للَّه‌تعالى بتوسط الاحترام والخضوع لخليفته تعالى، وهذا ما توضحه كثير من الاخبار والآثار

الواردة فی ذیل السجود لیوسف علیه السلام، وفی آیة «وَاجْعَلُوا بُیُوتَکُمْ قِبْلَةً وَأَقِیمُوا الصَّلَاةَ» «۱»

، إذ لیس

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۳۲۴

المراد السجود لبیت موسی بل هو سجود للّهوإکرام واحترام للشخص.

أما الوجه الثانی: فابتداء لیتنبه إلی أنه غیر الوجه الاول إذ أنه یتم ولو فرض التنزل بأن السجود لیس ذاتیه العبادة فهو منهی عنه من قبل الشارع ایقاعه لغیر اللّه. وبذلک لا نحتاج إلی تأویل آیات السجود فی القرآن، بل بأن السجود بهذا المعنی لم یکن محرما فی شریعة یوسف وموسی علیهما السلام، وعلی کل حال نقول أن السجود بمعنی العبادة لغیر اللّه منهی عنه من قبل الشارع.

أما الآیة الکریمة التی نحن بصددها فإنه- علی ما ذکرنا- لا حاجة لتأویل السجود إلی معنی الخضوع والاحترام وما معناه، ولا حاجة إلی القول أن السجود علی معناه الحقیقی ولاـ مانع منه لأنه لم یکن محرما إلا فی شریعة الخاتم، لا حاجة إلی کل هذا بل نقول ان السجود لا مانع منه حیث لم یوقع بقصد العبادة.

مضافا إلی أنه لو کان منهیا عنه فیمکن أن یأمر اللّه تعالی به فی هذا الموضع ویکون تخصیصا للنهی العام عن السجود لغیر اللّه ولا مانع من تخصیص العام- علی الوجه الثانی- حیث أن السجود کان تکریما لآدم، وقد أشارت الروایات من الفریقین إلی أن ابلیس کان ومازال یستطیع التوبة بالسجود لآدم فلو سجد لتاب اللّه علیه، وهذا من سعة حلمه تعالی بعباده إلا أن ابلیس أخذته العزة بالاثم فأبی عن السجود.

۲- ومن أجل الوصول إلی المعنی المراد من السجود فی الآیات الکریمة نستعرض عدداً من النقاط:

أ- نعید التذکیر بأن القرآن کتاب حقائق فعندما نلاحظ لفظ کرر عدة مرات فلا یمکن القول أن التعبیر به أمر أدبی بل یکون إشارة إلی ماهیة معینة أراد الحق تعالی إفهامها لخلقه وهذا هو ما ذکرناه سابقا فی مقدمة البحث.

ب- عبر فی آیة ۲۹ من سورة الحجر «فَقَعُوا» حیث لم یکتف بذکر مادة

الامامة الالهیة(۵)، ج۱، ص: ۳۲۵

السجود بل عبر بالوقوع الفوری وهذا فیه نوع من التشدید والتأکید لمعنی الخضوع والتعظیم.

ج- أن حادثة السجود هی الحلقة المتصلة بین هذه السور السبعة فقد کررت فی کل الآیات بخلاف بقیة مقاطع قصة آدم.

د- أن لفظ السجود ومشتقاته تکرر کثیرا حتی فی الآیة الواحدة مثلا فی سورة الحجر کررت ۵ مرات وفی الاعراف ۴ مرات وفی الاسراء وص کرر ۳ مرات، وهذا التکرار لهذه اللفظة لابد له من وجه لا أنه مجرد التحسین اللفظی والأدبی، بل یدل علی محوریة هذه الماهیة وجعلها فیصلا بین الطاعة والمعصیة.

ه- فی بعض الآیات ورد التأکید علی أن الامر بالسجود کان لجمیع الملائکة ولم یکتف بدلالة الجمع المحلی بأل (الملائکة) بل أردف بالتأکید ب (أجمعون) و (کلهم) للدلالة علی الاستغراق.

و- إنه عندما رفض ابلیس السجود لآدم عبر عن ذلک «أَبَی وَاسْتَکْبَرَ» أی أن منشأ عصیان إبلیس هو الإباء والاستکبار وفی مقابله طاعة الملائکة الذی یقابل الاباء والاستکبار وهو الانقیاد والمتابعة والخضوع، فمعنی السجود المأمور به فیه زیادة علی معنی الاحترام والتکریم بل هو اظهار لمطلق الانقیاد (غیر العبادی) لآدم، و ابلیس لم یستکبر عن عبادة اللّه فی الصورة بل استکبر عن أمر اللّه بالانقیاد لآدم حیث زعم أن آدم أقل مرتبة منه.

ز- أن قوله تعالی فی خطابه لابلیس «مَالَکَ أَلَّا تَکُونَ مَعَ السَّاجِدِینَ» منطو علی ظریفة لا تحصل من التعبیر بلفظ الملائکة أو الضمیر ما منعک ان تکون معهم إذ وصفهم بالساجدین لبیان حالة الانقیاد وهو السجود.

ح- نسبة آدم للّهجل وعلا «وَنَفَخْتُ فِیهِ مِن رُّوحِی» فیها تشریف لأدم وأن خلقته وتسویته مباشرة من اللّه من دون توسیط الملائکة.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۲۶

ط- يظهر من بعض الآيات الحاكية لهذه الواقعة أن الامر بالسجود وقع مباشرة بعد خلقة آدم من دون وجود تراخى «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» وهذا يدل على التلازم والفورية وأن لا تمر فترة من بعد الخلقة من دون انقياد الملائكة به.

ی- أن تكرار هذا المقطع بالذات من دون بقية المقاطع فيه دلالة مؤكدة على أن ما جرى من الواقعة هو من باب المقدمة لهذا الأمر، وأن كل ما مضى كان اعداداً لها وبتعبير آخر أن المحاورة من إخبار الملائكة بالخلق وغيره كله جرى تمهيدا وبيانا لمقام هذا المخلوق الجديد حتى لا يكون الامر بالسجود مفاجئا للملائكة ولا تنفر منه ذواتهم.

فهذه ۱۰ قرائن وملاحظات عامة على التعابير الواردة فى هذا المقطع، أما ما يمكن استظهاره من المعانى فى هذا الشأن فهو:

۱- كما ان انباء آدم للملائكة تعبير عن الهداية الا رائية وأنه استكمال لهم لولاه لما حصل لهم ذلك العلم، فإن السجود لآدم هو تعبير عن الهداية الايصالية والمتابعة العملية التى بدونها لا يحصل لهم أى كمال، وهذا الانقياد لم يكن لمجرد مخلوق بل إنما هو لمقام الخلافة الذى جعله اللَّه تعالى لآدم فلازم مقام الخلافة عند اللَّه هو متابعة وانقياد الملائكة والجن (بناء على القول المشهور ان ابليس من الجن) وهذا هو مفاد الامامة وهى المتابعة العملية والعلمية والهداية الا رائية والايصالية، ويثبت بذلك أن شؤون الامامة ليست للناس فقط وإنما هى تشمل الملائكة والجن.

۲- أن حدود إمامة آدم لا تقتصر على البشر بل تشمل الملائكة والجن أيضا.

۳- أن القرآن الكريم قد أثبت للملائكة وظائف وشؤون متعدد منها الحفظة، انزال الذكر، قبض الأرواح، نشر الرياح، اللواقح، المقسمات، نصرة الرسل

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۲۷

وتأييدهم، تسبيح اللَّه ...

ونتيجة أن علمهم كان من آدم وأن عليهم متابعة آدم والانقياد له وأنه حاز مقام الخلافة فهذه كلها تدل على أن لآدم الولاية التكوينية على الملائكة، وتكون شؤون الملائكة كلها تحت يده وفى تصرفه.

۴- أن خلافة آدم ليست خلافة مقيدة بل خلافة مطلقة ونستطيع أن نطلق عليها أنها خلافة اسمائية للَّهعز وجل وذلك لأنه بالعلم بالاسماء الشاعرة الحية العاقلة استحق مقام الخلافة، وأسماء اللَّه لها تأثير فى عالم الخلقة حيث أنها حقائق حية واقعية مهيمنة، حيث أن أفعال اللَّه تعرف باسمائه وهى آثار وتوابع اسمائه فتكون بذلك كل القدرات الموجودة فى عالم التكوين محاطة بها وهو ذلك المقام.

وبالطبع ليس هذا الثبوت بنحو التفويض الباطل العزلى بل هو اقدار من اللَّه سبحانه وتعالى فى عين ثبوت القدرة المستقلة الازلية للَّهعز وجل.

الأمر الثانى: إباء ابليس

* إن من المسلم به أن ابليس كان فى جمع الملائكة عندما خاطبهم اللَّه وأمرهم بالسجود لآدم، أما أن ابليس هل هو من الجن أو الملائكة فقد كان موضع خلاف وتعبير القرآن أنه من الجن «كَانَ مِنَ الْجِنِّ» وهذا وإن كان له تفسيران أنه كان من الملائكة فصار من الجن وأن (كان) هنا بمعنى صار، أو أن يقال أنه من الجن وإنما تواجد فى جمع الملائكة لأن اللَّه جل وعلا، كان يكلفه بوظائف الملائكة وهذا نوع تشريف لابليس، والروايات الواردة تشير إلى أن لابليس قبل الامتحان مقاما رفيعا ويدل عليه انضمامه فى الخطاب الموجه للملائكة، كما أن تشريفه بالخطاب الالهى يدلل على أنه كان من الموحدين، والمؤمنين باللَّه وبعالم الغيب والمعاد «أَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» وأما انباء آدم للملائكة فقد كان حاضرا بمقتضى تواجده معهم.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۲۸

ومقتضى ذلك أن ابليس استحق الكفر لأنه لم يؤمن بالامامة، مقام خلافة اللّه، وبالتحديد لعدم طاعته للّهعز وجل فى الائتمام والانقياد لمن جعله اللّه اماما، ولم يذكر لابليس فعلا وعصيانا آخر استحق به هذا العقاب، وكانت النتيجة أن مصير ابليس هو جهنم وأن كل ما عمله قد ذهب سدى وهباء.

فهذا يثبت أحد معتقدات الامامية وهى ان النجاة مرهونة بالائتمام بخليفة اللّه فى ارضه، وقد وصف ابليس بالكفر وهو على درجات، و يراد منه هاهنا الكفر الاصطلاحى الذى يقابل أصل الايمان ويستوجب الخلود فى النار.

والكفر على قسمين: أحدهما بحسب الواقع دون الظاهر، والآخر بحسب الواقع والظاهر معا، والظاهرى هو ما عليه الكفار الآن، واما الأول فهو ما نشاهده من المقصرين الذين اطلعوا على الادلة الحقة إلا انهم لم يؤمنوا «قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ» «۱»

، فهؤلاء وإن كانوا فى الظاهر غير كافرين إلا أنهم بحسب الواقع كافرون، ويعاملون فى الآخرة على طبق الواقع الحقيقى، وأما فى هذه النشأة والدار فيعاملون معاملة ظاهر الاسلام، فالامامة مرتبة من مراتب التوحيد والايمان فهى توحيد فى الطاعة كما ذكرنا ذلك مرارا فى الفصل الاول، وبالتعبير الوارد فى هذه الواقعة رأينا أن الكفر أطلق فى قبال الائتمام كما اطلق فى مقابل الايمان والتوحيد.

* كما أننا نلاحظ أن من أصعب الامتحانات الالهية فى العقيدة هو الايمان بالامامة حيث أن هذين الموجودين الملائكة والجن لا يظهر منهم أى تمنع من الاستجابة لنداء التوحيد والنبوة بخلاف الامامة وهو الانقياد المطلق لخليفة اللّه والخضوع و السجود إليه حيث تمنع ابليس عن ذلك.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۲۹

وبتعبير آخر أن أكمل مراتب التوحيد والايمان هو الامامة أى أن بها تمام التوحيد لا بمعنى أنها الأصل والباقى فرع.

ثانياً: الفوائد ... ص: ۳۲۹

بعد هذا الاستعراض للمقاطع الواردة فى هذه الآيات الشريفة نستعرض الفوائد التى نقتطفها من هذه الآيات:

الفائدة الاولى: يمكن القول أن هذه الآيات تعتبر من أمهات الآيات الوارد ذكرها فى قوله تعالى «هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ» وذلك لأنها تبين ركناً من أركان النجاة الاخروية، وتبين كيفية بدء الخليقة ومقام خليفة اللّه.

الفائدة الثانية: أن المفاد الاجمالى هو استخلاف اللّه عز وجل لخليفةٍ أحد مصاديقه آدم وهذه الخلافة مطلقة غير مقيدة بقيد وهى خلافة اسمائية كما بيناه.

الفائدة الثالثة: أن هذا المقام الذى يبينه الحق تعالى فى هذه الآيات ليس مقام النبوة والرسالة وإن كان يتصادق معهما بل ينطبق على مقام الامامة، وسوف يأتى مزيد بيان لهذه النقطة فى شرح الخطبة القاصعة.

الفائدة الرابعة: أن الخلافة ليست محدودة فى الارض وغير مقيدة بهذه النشأة وإن كان المستخلف ذات بدن وسنخه أرضيا.

الفائدة الخامسة: الذى يظهر من الآيات الكريمة أن آدم كان قد تلقى العلم اللدنى قبل نزوله الارض بل قبل دخوله الجنة، وهذا يدفعنا للقول أن الموجود الانسانى حقيقته ليست جهته البدنية التى يحيا بها على هذه الأرض بل إن له مدى أعمق من ذلك، وأن وراء تلك الحقيقة البدنية الأرضية حقيقة بعيدة عن عالم البدن هى الروح تكون- بشهادة قصة آدم- سابقة على الوجود الأرضى مخلوقة قبل خلق البدن، وهذا هو المقدار الذى اتفق عليه كثير من الفلاسفة من لدن أفلاطون وحتى صدر المتألهين وإن اختلفوا بعد ذلك فى كيفية التقدم وتفسير ذلك

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۳۰

التقـدم وحـدوثه أو قدمه على نظريات مختلفة، لكن القدر المتفق عليه بينهم أن خلق الارواح كان قبل خلق الابدان بمعنى ما، وإن عبّر المشاؤون بأنها حادثة بحدوث البدن.

فهذه الروح أيضا ذات درجات مختلفة تبعا لاختلاف درجات العلم كما يظهر من قصة آدم، ووجود هذه الروح يتلاءم مع تفسير العلم أنه من سنخ المجردات.

وأخيرا نود ان يسائل الانسان نفسه إذا كان تلك حال آدم وروحه المقدسة ودرجاتها العالية فكيف يكون الحال مع من تكون حقيقته الاسماء التى أشير إليها بلفظ (هؤلاء)؟!

الفائدة السادسة: أثبتنا سابقا أن ملاک استخلاف آدم هو العلم اللدنى الذى تلقاه من الحق تعالى.

الفائدة السابعة: أن متعلق العلم الذى تلقاه آدم حقائق نورية حية عاقلة شاعرة جامعة للعلوم وهى غيب السماوات والارض، وما ورد فى بعض روايات العامة والخاصة من أن المراد بالاسـماء هى مسـميات كل الاشياء فى عالم الخلقة فهو لا يتنافى مع ما نذكره، وذلک لأن الفرض أن العلم بالمعلومـات التى هى جوامع ومحيطـة بمـا تحتهـا من مصـاديق وأنواع وأجناس، فيكون متعلق العلم اللـدنى جامع كل العلوم وذلک بجنسية اللام.

الفائدة الثامنة: ان هذه الآيات تقودنا إلى ما يثبته الامامية من أبدية الخليفة على وجه الارض ودوام وجود الحجة على هذه الأرض إلى أن يرث اللّه الارض وما عليها. ويتضـح ذلک من خلال تساؤل الملائکـة عن الخليفة الارضـى حيث أنها نظرت إلى الصـفات السـلبية، فأجاب الحق تعالى أنه يكفى فى صحة الاستخلاف وجود انسان كامل تتمثل فيه الحقيقة البشرية، وهو حاصل العلم اللدنى وهو خليفة اللّه فى أرضه، فلو فرضنا انتفاء ذلک الموجود الكامل على وجه الارض فترة

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۳۱

وبرهة زمنية ما لصح اعتراض الملائکة وتساؤلهم وأن ما ذکره اللّه عز وجل غير متحقق- والعياذ باللّه-.

الفائـدة التاسـعة: أن الروايات وردت أن الامامـة سـفارة ربانيـة الهيـة كالنبوة وإن لم تكن نبوة فآدم حل فى مقام الخليفة والسـفير وهو الحجة صاحب التعليم، وهم ينقادون إليه، فهو ينطبق عليه الحد الما هوى للامامة بدليل اكتمال الملائکة بالعلم الحصولى الذى حصلوا عليه وأنبأهم به آدم وبالانقياد إليه وإلا لما امرهم تعالى بذلک، فهو إمام الإنس والجن.

الفائـدة العاشـرة: أن الخلافـة هنا لا تكون بعزل المسـتخلف عن الأمر بل هى خلافة مع وجوده تعالى ولا انحسار لقدرته تعالى، بل هو اقـدار من جـانبه لآدم والخليفـة هنـا حـاو وجـامع لصـفات المسـتخلف بنحو التنزل فى عالم الامكان لا أن الاسـتخلاف هو عين تلک الصفات.

الفائـدة الحاديـة عشـر: ذکرنا مرارا أن مراتب التوحيـد لا تتم إلا بالمرتبـة الأخيرة وهى التوحيـد فى الطاعة، ومن هنا نجد أن الروايات المختلفة لدى العامة والخاصة تشير إلى أن كفر ابليس ليس كفر شـرک فهو لم يعبد غير اللّه، وإنما كان جحده واستكباره عن توحيد اللّه فى مقـام الطاعـة وقـد ورد فى بعضـها أنه طلب من ربه اعفائه من السـجود لآدم وسوف يعبـده عبادة لا نظير لها، وجاء الجواب من الحق تعالى: «إنى أريد أن أطاع من حيث أريد لا من حيث تريد» «۱»

، وفى رواية اخرى «إنى أُريد أن اعبد من حيث أُريد لا من حيث تريد» «۲»

، وهـذه هى الضابطـة المهمـة فى بحث الامامة فالامامة هى توحيد فى عبادة وطاعة البارى من حيث يريد لا من حيث الذوات الاخرى تريد.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۳۲

الفائدة الثانية عشـر: أنه ورد فى بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السـلام «الناس عبيد لنا» وهذه ليست عبادة ربوبية بل هى خضوع وانقياد وعبوديـة الطاعـة ونكران الـذات والانقياد المطلق للسـفير الإلهى، وهـذا التسـليم هو الذى نسـتفيده من الاسـجاد الوارد فى هذه

الآيات.

الفائدة الثالثة عشر: أن قبول الاعمال مرهون بالتولى لخليفة اللَّه وسفيره، وهذا نستفيده من الغضب الالهى الذى حل على ابليس لامتناعه عن السجود كما أن عبادته السابقة ذهبت هباء لا اثر لها لعدم التولى والانقياد لخليفته، وقد أشرنا فيما سبق أن قبول الاعمال مرهون بالموافاة أى موت المكلف الحى على موافاة التوحيد أى أن لا يكفر، وقد ذكرنا أن التوحيد المقابل للكفر الاصطلاحى أحد أركانه التوحيد فى الطاعة أى تولى ولى اللَّه. وهذا الأمر الذى دلت عليه هذه الواقعة القرآنية مدلل عليه أيضا فى علم الكلام والتفسير. وبتعبير آخر أن الثواب على الاعمال هو التكامل، والتكامل هو السير إلى المقامات المعنوية العالية والامام هو صاحب ذلك المقام الملكوتى الذى يسير بالنفوس فى سيرها التكاملى من كمال إلى كمال.

الفائدة الرابعة عشر: أن الآية تثبت الولاية التكوينية، وذلك لأن سجود الملائكة لآدم كما ذكرنا لم يكن سجودا عباديا بل طاعتيا وهذا يعنى إقداره عليهم، وهذا يعنى ولايته على أهل السماوات والارضين والغيب ومن ثم الاشراف على كل عمل يسند إلى الملائكة فى الكتاب المجيد.

ويجب الالتفات إلى أن المقصود بالولاية التكوينية هى اقدار من عند الحق تعالى وفى طوله من دون أن يوجب ذلك حصر قدرته وعزله عن مخلوقاته ومن دون ان يؤدى إلى التفويض الباطل ومن دون أن يحيط المخلوق- الذى أقدره تعالى- بقدرة البارى، وحيثية الشرك ناشئة من عزله تعالى وحصر قدرته بل إن

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۳۳

الاعتقاد باستقلالية الممكن استقلالية تامة هو شرك وندية للّه‌تعالى أما الاعتقاد بالطولية واقدار اللَّه وأن كل عالم الامكان هو فى حضرته تعالى فهو ليس بشرك بل تمام التوحيد فى الافعال.

إذن فى هذه الآيات بيان لجانب من جوانب الولاية التكوينية وخصوصا إذا لاحظنا أن السجود قامت به كل الملائكة وليس بعضهم، بخلاف المواقف الأخرى فى الآيات الكريمة حيث أنه كان بمحضر بعض الملائكة كما يظهر من بعض الروايات، أما مقام السجود فإنه كان بحضور جميع الملائكة كما يظهر من (كلهم، اجمعون، اللام فى الملائكة) ويؤيده ما ورد فى الحديث أن جبرائيل لا يتقدم على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وفى كثير من المواطن يخاطبه الرسول صلى الله عليه و آله عن ذلك، فيعلله من أن اللَّه أسجدنا نحن أجمعون لآدم، وفى صحيح عبد اللَّه بن سنان عن أبى عبد اللَّه عليه السلام قال: لما مات آدم عليه السلام فبلغ إلى الصلاة عليه، فقال هبة اللَّه لجبرئيل: تقدم يا رسول اللَّه فصل على نبى اللَّه، فقال جبرئيل: إن اللَّه أمرنا بالسجود لأبيك فلسنا نتقدم على ابرار ولده وأنت من أبرهم» «۱».

الفائدة الخامسة عشر: يستفاد من جعل الخليفة سابقاً على الخلق (أن الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق) وهو تفسير لما ورد «لولا الحجة لساخت الارض».

الفائدة السادسة عشر: إن امامة آدم وغيره من خلفاء اللَّه وسفراءه مطلقة وعامة للجميع- البشر والملائكة والجن- وهذا يستدعى بيان مقدمات:

- أشرنا فى الفصل الثانى إلى أن الاستخلاف لبنى البشر على نحوين أحدهما:

استخلاف اصطفاء وهو مقام خليفة اللَّه والامامة، والثانى: الاستخلاف العام لنوع

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۳۴

بنى الشر وفى هذا النحو اختلفت الآراء فى الهدف من هذا الاستخلاف، فذهب جمع من العامة إلى أن الغاية من هذا الاستخلاف هو اعمار الارض تمسكا بظاهر قوله تعالى «هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها» «۱»

، ولكن فى هذا الرأى مجانبة للحقيقة والواقع وذلك لأن ظاهر كثير من الآيات القرآنية تدل على خلاف ذلك أو بالاحرى تدل على

أن الغايـة من الخلقـة والاسـتخلاف فی هـذه النشأة لا ينحصـر بالاعمار، وأوضـح تلك الآيات «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُـدُونِ» حيث فسـرت العبادة بالمعرفـة، فالغاية النهائية من الاسـتخلاف فی هذه النشأة هو معرفة الحق تعالی حق معرفته وإطاعته وعبادته بل فی قوله تعـالی «إِنَّا عَرَضْـنَا الأَمَانَـةَ عَلَی السَّمـاوَاتِ ... وَحَمَلَهَا الإِنسَـانُ إِنَّهُ كَـانَ ظَلُوماً جَهُولًا» اشارة إلی ان الغايـة من خلق الانسان ليس خصوصـيته الارضـية بل هو أمر أعمق غورا، وآيات تسـخير المخلوقات له وأن أكرم الخلق هم بنی آدم التی تدل دلالة قاطعة علی أنه حشد فی هذا المخلوق من الامكانيات والطاقات لا يتناسب مع جعل الغاية هو اعمار جزء عالم الامكان.

- وبتعبير فلسـفی عرفـانی أن الانسـان هو المظهر الجامع للاسـماء الحسـنی، فمظاهر كل اسم من اسـماء اللَّه الحسـنی يمكن أن تتجلی وتظهر فی الانسـان وفی أفعـاله ودرجـات وجوده بخلاـف بقيـة الكائنات، ولـذا يوصف الانسان بأنه مظهر الاسم الجامع اللَّه، وإن كان هناك أبرز أفراد البشر وهو النبی صلی الله عليه و آله فی مظهر اسم الجمع (اللَّه)، أما بقية الافراد مظهر العليم أو غيرها..

وعليه فالانسـان أتم مخلـوق وأشـرف مخلـوق وأكرم مخلوق، فمن غير الممكن أن يكون المخلوق بتلـك الامكانيـات والقـدرات أن يخلق من أجل أمر سافل بل لا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۳۵

بد أن يكون لأجل شیء أعلی وهدف أسمی.

وهـذا الامـر العقلی يتناسب مع ما ذكرنا من ظواهر الآيات القرآنيـة أن هـدف الخلقـة ليس هو مجرد اعمار الارض بل يجب ان يكون أمرا أسمی وأعلی، وأن المطلوب من الانسان غير الذی هو مطلوب من غيره، وهذا من باب الكشف الآنی.

- أشرنا أيضا إلی أن حادثة السجود حضرها جميع الملائكة بدون استثناء والملائكة هی التی تدير الكون بأمر اللَّه تعالی ورتبتها تفوق كثير من المخلوقات، ومع ذلك فهی تنقاد لخليفة اللَّه فيظهر من ذلك أن الجن وما دون الجن تنقاد أيضا لخليفة اللَّه.

الفائـدة السابعـة عشـر: من الامور التی ركّز عليها فی قصـة آدم هو مسألـة خلق آدم من الطين، وأن اللَّه عز وجل تعمـد إخبار الملائكة بـذلك قبـل أمرهم بالسـجود، وهـذا يـدلل علی أمر مهم وهـو أن الملائكـة مع أنهم معصومون إلاـ أن تكـاملهم ورقيهم يتوقف علی الامتحـان والابتلاـء- كما سوف تأتی الاشارة إلی ذلك فی الخطبـة القاصـعة فی نهـج البلاغـة- وذلك بالامر بالسـجود مع علمهم انه مخلوق من طين وهو ليس من جنسـهم وهـذا فيه تشديـد فی الابتلاء والامتحان، وما ذلك إلا لأن الطاعـة حينئـذ سوف تكون خالصـة للَّهلا شائبة فيها، فلو كان فی خلق آدم مزية علی خلق الملائكة وكان له من النور ما يخطف به الابصار لكانت الطاعة مشوبة لا خالصة.

وهـذا يرشـدنا إلی مـا يجب أن تكون عليه الواسـطة من كونها لمجرد الارشاد والعلامتيـة والحرفيـة للـذات المقدسـة، وأن لا يری فيها الانسان شيئا سوی حرفيتها، ولهذا كان التنبيه الدائم علی الطبيعة الارضية لآدم.

فكمال التوحيد وتمامه هو بالائتمام وبه يتم الخلوص فی العبادة وهذا ليس شرطا كماليا للعبادة بل يكون شرطا مقوما للتوحيد والعبادة، حيث يری أن كل ما

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۳۶

سوی اللَّه مخلوقا للَّه.

وإذا نظر إليهـا علی نحو الاسـتقلالية فإنهـا سوف تكون ربا، وحال الواسـطة حال المعنی الحرفی الـذی إذا لوحظ فی نفسه فلن ينبأ عن معنی فی غيره، وإذا لـم يلاحظ كذلك فسوف ينبأ عن معنی فی غير ه ويؤدی الغرض منه.

ومن هنا يجب أن تكون الطاعة خالصة للَّهعز وجل لا يری فيها إلا وجه المعبود خالية من الزوائد والشوائب. وهذا لا يكفی فيه الخطور الـذهنی فقط بل يجب ان يری فی نفسه حقيقـة العبوديـة، والخلوص بهذا المعنی نسـتفيده من هذه الآية، وأن ما جری لابليس أنه كان يری لنفسه اسـتقلالية فقال «لَمْ أَكُن لأَسْـجُدَ لِبَشَـرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَـلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْـنُونٍ» فهو رأی أن لا يليق بشأنه أن يسجد لآدم وهذا نحو من رؤية اسـتقلال الذات ونفی للواسطة التی نصبها اللَّه أی نفی للحاظ الافتقار إلی الباری. ومن هنا يظهر ان الايمان أحد محاوره

هو الامامة حيث فيها يظهر كيف يقوم الانسان باماتة الذات ودحر الانانية وأن عدم الاعتقاد بالامامة هو بداية الشرك.

الفائدة الثامنة عشر: والحديث حول نفس الوسائط حيث يجب أن يؤمن فيها معنى الحرفية وهذا يعنى أنهم لا يشيرون إلى ذواتهم وغرور ذاتهم بل هم فى حالة خضوع وتذلل لباريهم، وهذا لا يكون إلا بعصمتهم العلمية والعملية، وذلك لأنه إذا نصب واسطة غير معصومة فإنها سوف لا تكون مشيرة إلى الحق تعالى وسوف تظهر نفسها، ولا تظهر عظمة اللَّه، ولدينا فى بعض الروايات «أن من حكم بغير حكم اللَّه فهو طاغوت».

وهنا يجب التدقيق فى أن منشأ عدم حكمه بما حكم به اللَّه ما هو؟ والجواب:

هو غرائزه النفسية فذاته طغت على ما يجب ان تكون عليه الذات الانسانية من حقيقة العبودية للَّهوالحرفية له تعالى، وطاغوت صيغة مبالغة من الطغيان، وقال

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۳۷

فى المفردات «أنه كل متعد، وكل معبود ما سوى اللَّه»، أى تعدى حدود نفسه ونظر إليها على نحو الاستقلالية، والايمان بالطاغوت هو الايمان بذلك الطاغوت وهى الذوات التى ليس فيها اراءه للَّهعز وجل، إذن العصمة هى التى تؤمن لنا أن يكون الواسطة دائما مظهرا للَّهيطوع ارادته لارادة ربه فى كل مكان ولا يرى لنفسه شيئا.

فيجب على العابد:

۱- أن لا يلتفت إلى ذاته، وأن يرى نفسه دائما مخلوقا.

۲- أن تكون الوسائط حقة من عند اللَّه لا أن توسطها له من عند المخلوق بل توسطها منتسب إلى اللَّه ولا استقلالية لها فى نفسها وأن الواسطة دائما فى حالة خضوع وتذلل إلى اللَّه ولا تشير إلى نفسها ومن هنا كان التنصيب للواسطة من عند اللَّه، وكانت الواسطة معصومة حتى لا ترى لنفسها مكانا سوى مكان الطاعة والخضوع للَّهعز وجل، بل يجب أن تكون فى تمام شئوناتها حاكية عن اللَّه قال تعالى «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِن دُونِ اللّهِ» «۱»

.وإذا لم تكن الواسطة آية فسوف تكون حجابا «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ» إذ من الواضح أن المسيحيين لم يؤلهوا أحبارهم وإنما كانوا مستقلين فى أحكامهم يحكمون بهواهم ورغباتهم ولم يستقوها من عند اللَّه.

وفى كلام بعض أهل المعرفة والتحقيق عند شرحه للسفرين الاولين من الاسفار الاربعة قال: وفى هذين السفرين لو بقى من الانانية شيء يظهر له شيطانه الذى بين جنبيه بالربوبية ويصدر منه (الشطح) والشطحيات كلها من نقصان السالك والسلوك وبقاء الإنية والانانية، ولذلك بعقيدة أهل السلوك لا بد للسالك

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۳۸

من معلم، يرشده إلى طريق السلوك، عارفا كيفياته غير معوج عن طريق الرياضات الشرعية، فإن طرق السلوك الباطن غير محصور بل هو بعدد انفاس الخلائق «۱».

والائمة عليهم السلام فى حالة خضوع وخشوع وتضعضع للَّهدائما ومن اقترب منهم فقد اقترب من الحق تعالى لأنهم مرآة له وآيات له.

الفائدة التاسعة عشر: أن مقام سفير اللَّه وحجته احد شئونه النازلة هى الزعامة السياسية وأن غصبها منه لا تعنى غصب مقام الامامة، وهى أدنى شؤون الامامة، وقد أشرنا أن أعلاها هو الخلافة الاسمائية لاسماء اللَّه حيث يبين فى الآيات أن استحقاقه لهذا المقام هو بتعلمه لهذه الاسماء فأدنى الدرجات اعتبارية كما فى نصبه فى حديث الغدير وأعلاها تكوينى.

الفائدة العشرون: أن الامامة أمر اعتقادى ومن أصول الدين وليست مسألة فرعية ويبتنى عليه أن البحث فيها يكون ذا ثمرة خطيرة وليس بحثا متوسط من الفائدة، ولا تنحصر الفائدة منه فى كونه مصدرا للاحكام فقط، بل المسألة اعتقادية كمسألة النبوة تناط بالتواجد الفعلى فيجب بحثها حتى مع غيبة المعصوم، كما أنها ليست مسألة فرعية يكون الحكم فيها دائرا مدار وجود الموضوع، ومن

الغفلات الشديدة ان يقال أن البحث فى الامامة لا محل له الآن.

وهذا الامر نستفيده من مقام الولاية على الملائكة الوارد فى الآية، وأن هذا المقام حقيقة تكوينية، ويحاول البعض من العامة الاستفادة من غفلة البعض ليعترض بأن الامام الثانى عشر غائب فما الفائدة من البحث فى امامته وهذا الامر يؤثر على المبنى المتبع فى تنظير الحكم والحكومة فى زماننا هذا، حيث أنه مع عدم وجود الامام فقد يقال بالشورى، وهذا كله غفلة عن حقيقة الامام و مقامه

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۳۹

التكوينى وانه يتصرف فى النفوس لا من باب الجبر وقد مضى البحث فى هذا مفصلا.

الفائدة الحادية والعشرون: اثبات المعرفة النورانية وأنهم كانوا أنوارا لما تقدم من ان اسم الاشارة (هؤلاء) وضمير الجمع (هم) المتكرر ثلاث مرات، إنما يستعمل فى الحى الشاعر العاقل وأن تلك المسميات غيب محيط بالسماوات والارض بالعلم باسمائهم استحق مقام الخلافة والتفوق على الملائكة، فهذه المسميات موجود نورى أى حى شاعر لطيف منشأ للقدرة والعلم وكونهم أعلى وأرفع شأنا من آدم فضلا عن الملائكة، وفى الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام «إنه لا يستكمل أحد الايمان حتى يعرفنى كنه معرفتى بالنورانية فإذا عرفنى بهذه المعرفة فقد امتحن اللّه قلبه للايمان وشرح صدره وصار عارفا مستبصرا،.. معرفتى بالنورانية معرفة اللّه عز وجل، ومعرفة اللّه عز وجل معرفتى بالنورانية وهو الدين الخالص الذى قال اللّه تعالى «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ»» «۱»

والحديث طويل يتناول فيه معرفتهم بالنورانية وشؤون الامامة وهو وإن كان حديثا مرسلا إلا أن مضمونه عال، وهكذا الرواية التى تليها من نفس الباب عن جابر بن يزيد الجعفى عن الامام السجاد والباقر عليهما السلام وهى كالسابقة عالية المضامين ويشير بعض الاعلام فى ذيلها (إنما أفردت لهذه الاخبار بابا لعدم صحة أسانيدها، وغرابة مضامينها، فلا نحكم بصحتها ولا ببطلانها ونرد علمها إليهم عليهم السلام) وهذا عجيب منه قدس سره حيث أن أحاديث النورانية عنهم كثيرة فى غير هذا الباب وليس فيها غرابة، انظر فى بحار الانوار المجلدات ۲۳- ۲۴- ۲۵ يذكر روايات كثيرة فى بيان مقام الامامة التكوينية

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۴۰

وعلومهم اللدنية، وكذا من طرق العامة التى بمضمون «اول ما خلق اللّه نور نبيك يا جابر».

وفى حديث طارق بن شهاب عن أميرالمؤمنين المروى فى البحار ۲۵: ۱۶۹:

«يا طارق الأمام كلمة اللّه و حجة اللّه ووجه اللّه ونور اللّه وحجاب اللّه و أية اللّه يختاره اللّه ويجعل فيه ما يشاء ويوجب له بذلك الطاعة والولاية على جميع خلقه فهو وليه فى سماواته وأرضه أخذ له بذلك العهد على جميع عباده، فمن تقدم عليه كفر باللّه من فوق عرشه» وهذه الموارد كلها قد ذكرناها فى النقاط الماضية حيث أنه يكون حرفيا بالنسبة للّهمشيرا إليه دائما وأن إمامته تشمل جميع الخلائق، و لا نريد الاسترسال فى البحث الروائى وإنما اوردنا البعض فقط من باب التأييد لما يستفاد من ظهور الآية الكريمة، ومن أراد الاستزادة فعليه بما ورد عن الامام الرضا فى الكافى حيث يزاوج بين مقامات الامام العالية وشئونه النازلة.

الفائدة الثانية والعشرون: إن اللّه عز وجل بيّن موضوعية الواسطة والوسيلة وضرورة الأخذ منها فلا يقول قائل ملك مقرب أو عبد ممتحن وأنه يجب أن يكون كل شىء عن طريقه، وفى نفس الوقت نؤكد أن تمام وجودها آية والاقتراب من الحق سبحانه هو بالواسطة ومن دون الواسطة سوف يكون كفراً إبليسياً وحجاب.

الفائدة الثالثة والعشرون: أن الملائكة على عظم مقاماتهم وخلوصهم وصفائهم ونورانيتهم غير مؤهلين لخلافة اللّه تعالى. الفائدة الرابعة والعشرون: أن اضافة الرب إلى ضمير الخطاب (ربك) يفيد ان هذه السنة الالهية فى هذه الامة ايضا، بل ان صياغة التعبير المكرر فى السور لهذه الواقعة آب عن الاختصاص بأمة دون أخرى بل لنوع البشرية، هذا مضافا إلى ما ذكرناه من أن عموم جواب الملائكة لدفع اعتراضهم يقتضى التأييد ايضا.

الفائدة الخامسة والعشرون: أن مقتضى الجملة الاسمية واعتماد هيئة الفاعل في

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۴۱

الخبر الذي هو بمنزلة الفعل المضارع يفيد الاستمرار، ومقتضاه الحصر به تعالى في جعل هذا المقام.

الفائدة السادسة والعشرون: أن مقتضى مادة الخلافة تعطي تحلي الخليفة بصفات المستخلف لأنه ينوب في جهة ومورد الخلافة وإن كان في الباري الامر بلا عزلة ولا انحسار رباني ولا تفويض باطل.

ثالثاً: قراءة في الخطبة القاصعة ... ص: ۳۴۱

في قراءة للخطبة القاصعة التي يتناول فيها الامام عليه السلام مقامات الائمة ويتعرض لهذه الآيات:

«الحمد للّهالذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه وجعلهما حمى وحرما على غيره واصطفاهما لجلاله وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده».

ففي هذا المقطع نشاهد أنه انطلق من كون هذين الاسمين مختصين به تعالى لأن العز والكبرياء من لوازم الاستقلال وما عداه فهو خاضع له متذلل له، ومن ينازعه فيهما ويدعي له هاتين الصفتين فسوف يبعد عن رحمة اللّه، ولا- يخفى ما في الابتداء من براعة الاستهلال حيث يريد أن يبين في الخطبة حقيقة التوحيد والطاعة وأن لا استقلالية لأحد على الاطلاق وسوف نشاهد أن هذا الامر هو السلك الذي تنتظم عليه فقرات الخطبة، وهو المنتهي إلى وجه ركنية الامامة في عقيدة التوحيد ونفي الشرك.

(ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من‌المستكبرين).

ثم أراد الباري اختبار ملائكته في التوحيد في الطاعة ليتميز المتواضع عن المستكبر ومنه يعلم أن التواضع جذره عقيدتي وليس مجرد أخلاق حيث أن المتواضع هو الذي لا- يرى لنفسه موقعا ومقاما ومكانا، ومنه ايضا يتبين أن الملائكة يعملون ويتكاملون لكن فرقهم عن غيرهم أن الملك لا يعمل بغريزة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۴۲

الشهوة والغضب، واختبارهم يدلل على أنه يفعل ما يفعل عن علم واختيار. ثم إن اختبار التوحيد- وهو اتصاف الباري فقط بالاستقلالية- هو في اتباع ولي اللّه وهو كما أشرنا إليه مرارا أشق المقامات.

(وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب «إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلَائِکَةِ إِنِّی خَالِقٌ بَشَراً مِن طِینٍ فَإِذَا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِن رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِینَ فَسَجَدَ الْمَلَائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِیسَ»).

ويوجد بحث بين الفلاسفة أنه هل لدى الملائكة علوما وصورا مرتسمة أم لا؟

العلامة الطباطبائي في الميزان والنهاية ينفي ذلك لكن ما في القرآن «وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ» يدلل على أن لديهم نوع من العلم الحصولي، ويركز الامام على الصفة الطينية لآدم، وكذلك اجتماع (فقعوا) مع (السجود) حيث أن فيه زيادة في الاخضاع.

(اعترضته الحمية، فافتخر على أدم بخلقه وتعصب عليه لأصله، فعدو اللّه إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية ونازع اللّه رداء الجبرية وادرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل).

فيشير الامام أن ابليس نازع اللّه تعالى رداء الكبر الذي لا يحق لأحد إلا له سبحانه واعتقد لنفسه الاستقلال ورفض الانصياع لولي اللّه، وخلع قناع التذلل فجحود خليفة اللّه تعالى وحجته على خلقه جذره ومنشأه كبر في الجاحد واستكبار على امر اللّه تعالى ورؤية استقلالية للجاحد في ذاته، وكانت عاقبته:

(ألا يرون كيف صغّره اللّه بتكبره ووضعه بترفعه فجعله في الدنيا مدحورا وأعد له في الآخرة سعيرا).

وهذه هى نتيجة الكفر الابليسى وعدم الانصياع لاوامر اللَّه تعالى، وعاقبة من لا ينزل نفسه منزلتها ويرى الانا دون خالقه.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۴۳

(ولو أراد اللَّه أن يخلق أدم من نور يخطف الابصار ضياؤه، ويبهر العقول رواؤه وطيب يأخذ الانفاس عرفه، لفعل، ولو فعل لظلت له الاعناق خاضعة ولخفت البلوى فيه على الملائكة ولكن اللَّه سبحانه يبتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزا بالاختبار لهم، ونفيا للاستكبار عنهم وإبعادا للخيلاء منهم).

فهكذا نرى أن آدم لو كان فى خلقه مبهرا للعقول لاستجاب له الملائكة لأنه بهرهم لا لأن اللَّه أمرهم بذلك ومن هنا كان امتحان الامامة أصعب الامتحانات وأشقها حيث يكون المعنى حرفيا فقط دالا عليه وبه يكون التوحيد خالصا حيث لا يكون فى اتباع الواسطة سوى حرفيته وآيتيته للَّهجل وعلاـ فإذا نجح فى هذا الامتحان الشاق واستطاع أن يكبح جماح ذاته وأناه فبها، وإلا لم تنفعه عبادته الماضية كابليس.

(فاعتبروا بما كان من فعل اللَّه بابليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد، وكان قد عبد اللَّه ستة ألاف سنة، لا يدرى أمن سنى الدنيا أم من سنى الآخرة عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد ابليس يسلم على اللَّه بمثل معصيته. كلا ما كان اللَّه سبحانه ليدخل الجنة بشرا بامر أخرج به منها ملكا).

ويتبين أن ابليس كان ملكا، كما يشير إلى ان القانون واحد بين أهل الارض والسماء وسير الكمال واحد وحكمه واحد.

«فاحذروا عباد اللَّه عدو اللَّه أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بخيله ورجله، فلعمرى لغد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد...

فأطفئوا ما كمن فى قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإن تلك الحمية تكن فى المسلم من خطرات الشيطان...

ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم! الذين تكبروا عن حسبهم وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة على ربهم وجاحدوا اللَّه على ما صنع بهم..

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۴۴

ولاـ تطيعوا الادعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم فى حقكم باطلهم، وهو أساس الفسوق وأحلاس العقوق اتخذهم إبليس مطايا ضلال وجندا بهم يصول على الناس وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقا لعقولكم ودخولا فى عيونكم ونفثا فى أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله وموطئ قدمه ومأخذ يده».

فهذا تحذير منه عليه السلام من عدوى داء ابليس إليهم، ودائه هو عدم التسليم لخليفة اللَّه تعالى والكبر عن طاعة اللَّه فى امره بطاعة حجته، وترفع ذاته عن الخضوع لأمر اللَّه بمتابعة خليفته، وأن ابليس أخذ على نفسه إغواء البشر بنفس الغواية التى ابتلى بها، وإخباره عليه السلام بأن قد وقع منهم تأثر بعدوى ابليس، وهذا إشارة إلى ترك الناس الائتمام بإمامته عليه السلام بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وأن سبب ذلك الحمية الجاهلية التى يسعرها ابليس فى قلوبهم ايجادا للكبر والاستكبار عن متابعة وطاعة خليفة اللَّه تعالى، وأن دواء هذا الداء هو التواضع، ثم يشير مرة أخرى إلى وجود من هو مبتلى بهذا الداء فى هذه الأمة ومتابعته لكبرياء ابليس وجحود حجة اللَّه تعالى وأن عليه الوزر والآثام إلى يوم القيامة، ثم يقتبس عليه السلام من القرآن قوله تعالى «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ» الوارد فى سياق ذم محترفى النفاق فى الامة وتحذيرهم بأنهم لاستكبارهم بحمية وفخر الجاهلية عن طاعة خليفة اللَّه تعالى فى أرضه، إذا تقلدوا زمام الامور امعنوا فى الغى وافسدوا فى الارض إلا انه عليه السلام يخبر عن تحقق ما حذّرت عنه الآية الكريمة.

ثم انه عليه السلام يحذّر الناس من طاعة واتباع الذين تكبروا عن طاعة أمر اللَّه فى خليفته فى ارضه وحجته على عباده الذى هو كبر ابليس أيضا، ووصفهم بأنهم جحدوا اللَّه، وكابروا قضائه ... ومن هنا يتبين ان هذه الخطبة أصرح من الخطبة الشقشقية فى بيان زلة

طريقة القوم.

(فاعتبروا بما اصاب الامم المستكبرين من قبلكم من بأس اللَّه وصولاته ووقائعه

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۴۵

ومثلاته، واتعظوا بمثاوى خدودهم، ومصارع جنوبهم..

فلو رخص اللَّه فى الكبر لأحد من عباده لرخص فيه لخاصة انبيائه، ولكنه سبحانه كره إليهم التكابر...

فإن اللَّه سبحانه يختبر عباده المستكبرين في انفسهم، بأوليائه المستضعفين فى اعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون- صلى اللَّه عليهما على فرعون وعليهما مد ارع الصوف وبأيديهما العصى...

ولو اراد اللَّه سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان ... ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحلت الانباء ولما وجب للقابلين أجور المبتلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين ولا لزمت الاسماء معانيها ولكن اللَّه سبحانه جعل رسله أولى قوة فى عزائمهم وضعفا فيما ترى العين من حالاتهم مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الابصار والاسماع أذى. وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل).

فيستعرض عليه السلام استكبار الامم الماضية وكيف آل مصيرهم، ومن المعلوم أن أكثر استكبارهم كان على أنبياء اللَّه حجه استصغارا لهم، وهو عين الاستكبار والجحود الابليسى، ثم وصف عليه السلام حالة موسى وهارون عند دخولهما على فرعون من حالة التواضع والمسكنة زيادة امتحان اللَّه لفرعون إذ لو بعث اللَّه انبياءه بالقدرة المهيبة والسطوة الشديدة لسقط البلاء وبطل الجزاء ولكان الايمان عن خوف القوة أو رغبة فيها لدبّ الشرك فى النيات، ولكان التسليم ليس للَّه‌تعالى وحده، فمن ثم يظهر وجه التناسب الطردى بين شدة الامتحان وشدة الخلوص فى التوحيد، وهذا يتجلى بوضوح فى رسل اللَّه تعالى وخلفائه حيث انه تعالى أراد أن يكون الاتباع لرسله والاستكانة لأمره له خاصة أى التذلل له تعالى فى كل من التابع وهم البشر والمتبوع وهم الرسل والحجج، فيصفى الامر عن أى كبر وإدعاء استقلالية فى البين

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۴۶

لأن الكبر هو دعوى المخلوق الفقير الغنى والاستقلال عن البارى بأى نحو كان.

(ألا ترون أن اللَّه سبحانه اختبر الاولين من لدن أدم صلوات اللَّه عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر...

ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وانهار وسهل وقرارٍ جم الاشجار دانى الثمار ملتف البنى متصل القرى بين برة سمراء وروضة خضراء وأرياف محدقة وعراص مغدقة وزروع ناضرة وطرق عامرة لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء

ولكن اللَّه يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجا للتكبر من قلوبهم وإسكانا للتذلل فى نفوسهم وليجعل ذلك أبوابا فتحا إلى فضله وأسبابا ذللا لعفوه...

فاللَّه فى عاجل البغى وأجل وخامة اللم وسوء عاقبة الكبر فإنها مصيدة إبليس العظمى ومكيدته الكبرى...

انظروا إلى ما فى هذه الافعال من قمع نواجم الفخر وقدع طوالع الكبر).

يتعرض إلى وجود هذا السلك التوحيدى الجامع لكل أبواب الشريعة فيتعرض إلى وجود هذه الحكمة فى الحج إلى بيت اللَّه الحرام وأن ضروب المشقة فى السفر وأداء الاعمال ووعورة المسالك كل ذلك اختبارا بالشدائد وأنواع المجاهد ليخرج التكبر من قلوبهم واسكانا للتذلل فى نفوسهم، إذ حالة التكبر شرك وندية لذوات البشر مع باريهم وخروج منهم عن طورهم وواقعهم وهو الفقر لباريهم بخلاف حالة الذل فى النفس فإنها حالة توحيد وخضوع لتسليم الذوات حينئذ بالفقر للبارى وأن الغنى والعز خاص به تعالى.

ثم انه عليه السلام يبين وجود هذه الحكمة ايضا فى بقية الفرائض فى الصلاة والزكاة والصيام مع ما فيها من الحكم الاخرى من انها

تسبب خشوع أبصار البشر، وتسكّن

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۴۷

أطرافهم، وتذلل نفوسهم، وتذهب خيلاءهم، وأنها دواء عن السموم القاتلة لابليس وهى الكبر الذى وصفه عليه السلام بأنه مكيدة ابليس الكبرى.

(ولقد نظرت فما وجدت أحدا من العالمين يتعصب لشئ من الاشياء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء او حجة تليط بعقول السفهاء غيركم فإنكم تتعصبون لأمر ما يُعرف له سبب ولا علة، أما ابليس فتعصب على أدم لأصله وطعن عليه فى خلقته ... واما الاغنياء من مترفة الامم فتعصبوا لآثار مواقع النعم..

فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الافعال ومحاسن الامور...

فتعصبوا لخلال الخمد من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبر والمعصية للكبر والاخذ بالفضل والكف عن البغى والإعظام للقتل والإنصاف للخلق والكظم للغيظ، واجتناب الفساد فى الارض

واحذروا ما نزل بالامم قبلكم من المثلات بسوء الافعال وذمم الاعمال فتذكروا فى الخير والشر أحوالهم واحذروا ان تكونوا امثالهم ...

وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا فى حال التمحيص والبلاء، ألم يكونوا اثقل الخلائق أعباء وأجهد العباد بلاء وأضيق أهل الدنيا حالا ... ألا وقد قطعتم قيد الاسلام وعطلتم حدوده وامتم أحكامه).

ثم انه عليه السلام يبين أن العصبية وليدة الكبر والاستكبار على اختلاف الوانه وأقسامه، وأن الحرىّ بالانسان أن يتعصب للفضائل والمكارم المحمودة.

ثم أنه عليه السلام بين أن النصرة والعزة لأىأمة من الامم لا تكون إلا بالولاية فإنه بها يذهب تشتت الألفة وتزول اختلاف الكلمة والافئدة، وكذلك كان حال ولد اسماعيل وبنى اسحاق وبنى اسرائيل، حيث كانت الا كاسرة والقياصرة غالبين لهم قاهرين عليهم، إلا انه بنعمة اللَّه عليهم حين بعث رسولا إليهم انتظمت به ملتهم

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۴۸

وطاعتهم وألفتهم واغدقت عليهم البركات فعادوا قاهرين بعد ان كانوا مقهورين، وغالبين بعد ان كانوا مغلوبين، ولكنهم- بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله- سرعان ما تركوا حبل الطاعة والولاية وهدموا حصن اللَّه تعالى بأحكام الجاهلية وصاروا بعد الهجرة أعرابا، وبعد موالاتهم لولى اللَّه أحزابا، لم يبقوا إلا على ظاهر الاسلام يرفعون شعار النار ولا العار، إلى ان تمادى بهم الامر أن قطعوا قيد الاسلام وعطلوا حدوده وأحكامه.

(ألا وقد امرنى اللَّه بقتال أهل البغى والنكث الفساد فى الارض، فإما الناكثون فقد قاتلت وأما القاسطون فقد جاهدت، واما المارقة فقد دوخت...

أنا وضعت بكلاكل العرب وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر...

ولقد قرن اللَّه به صلى الله عليه و آله من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره.

ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر امه يرفع لى فى كل يوم من أخلاقه علما ويأمرنى بالاقتداء به ولقد كان يجاور فى كل سنة بحراء فأراه، ولايراه غيرى ولم يجمع بيت واحد يومئذ فى الاسلام غير رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحى والرسالة، وأشم ريح النبوة. ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحى عليه صلى الله عليه و آله، فقلت: يا رسول اللَّه، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان، قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبى ولكنك لوزير، وإنك لعلى خير

)....

فبعد ما بين عليه السلام أن قوة الامة وعزها بموالاة ولى اللَّه وخليفته فى أرضه وأن هذه الموالاة تذلل فى النفوس وتواضع للبارى تعالى سبب لنزول الفيض الالهىوالبركات والنعم وأن بدون موالاة حجة اللَّه تعالى فى أرضه تدب الفرقة والاهواء والاحزاب لكون ذلك عن كبر فى النفوس واستكبار وهو منشأ نزاع كل منهما مع الآخر، بعد هذا كله، أخذ عليه السلام فى بيان الادلة والبراهين على تقلده لمقام خليفة اللَّه

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۴۹

فى أرضه وحجته على عباده بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من بيان الصفات الخاصة التى يتحلى بها سواء للتربية السوية أو الاهلية الروحية الخاصة به حيث يرى نور الوحى والرسالة ويسمع المغيبات حتى قال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنك تسمع ما اسمع وترى ما أرى ... إىأنه قد أوتى مؤهلات العلم اللدنى، ثم يبين أنه اول السابقين إلى الاسلام وأنه معصوم من الزلل والخطل، وأنه أقرب واشد الناس اتباعا لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله وغيرها من الصفات التى تشير إلى تقلده الخلافة الالهية.

وبهذا يختم خطبته عطفا على ما بدأ من أن كمال التوحيد وتمام الاخلاص هو بموالاة ولى اللَّه وطاعته كما فى سجود الملائكة لآدم ولذلك كفر ابليس اللعين ودحر باستكباره عن ولاية خليفة اللَّه.

وبذلك يفصح عليه السلام عن وجه هذه الواقعة القرآنية التى تكررت فى سبع سور من القرآن الكريم، كما أنه عليه السلام افصح عن حقه وغصب القوم له، ومن بديع الحكمة الذى أظهره عليه السلام أن يبين كيفية كون الصفات الخلقية هى جذر الافعال. وان الاعتقادات جذر للصفات الخلقية، أى ان كل فعل صادر من الفاعل المختار منشؤه صفة خلقية فى نفس الانسان وهى منشؤها أمر اعتقادى يبطنه الفاعل ذو الصفة المعينة وهذا يفسر موالاة ولى اللَّه وخليفته فى أرضه وعدم موالاته أنهما يتسببان عن التواضع فى النفس فى الموالى والمنقاد، والكبر فى الجاحد والمنكر، وأن التواضع متسبب عن خلوص الشخص لربه أى خلوص توحيد لربه عن الشرك بإقامة ذات نفسه ندا لخالقه، والكبر كفر وجحود وشرك لاقامة المتكبر ذات نفسه مستقلة على غير ما هى عليه من الحد الواقعى من الفقر للَّهتعالى.

ومن ثم يتبين أن الولاية لخليفة اللَّه فى ارضه على أصعدة ثلاث فى الفعل وفى الخلق بالمحبة له، وفى الاعتقاد بالاذعان أنه مجعول من قبل البارى.

وهكذا نرى الامام يتدرج من الكفر الابليسى إلى الكفر فى النبوة ثم الكفر فى

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۵۰

الافعال يرى أن جذرها كلها واحد هو الانصياع إلى الانا وعدم تسليم النفس للَّه الواحد الاحد وعدم الانصياع لأوامره وأن كل شىء ذائب فيه وأن لا استقلالية لأحد بل كل فى سبيله ومن أجله وكل آية له سبحانه، و أخيرا يصل إلى الاخلاق وأن منشأ جميع الرذائل يرجع إلى الكبر ومنشأ كل الفضائل يرجع إلى الخضوع، والامام فى كل هذا يربط بين اقسام الكفر ويرجعها إلى الاصل الواحد.

رابعاً: عصمة آدم ... ص: ۳۵۰

معصية آدم وإخراجه من الجنة، وهذه من المسائل المهمة التى كثرت فيها الاقوال والآراء وزلت الاقدام من القديم وحتى يومنا هذا، وخصوصا أن القران قد عبر «وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى»، فكيف يتناسب هذا التعبير مع غيره من نسبة زلة الشيطان لآدم الذى له تلك المقامات العالية والخلافة عن الحق تعالى وهى خلافة اسمائية، وهذا له جواب نقضى وحلى.

أما الجواب النقضى فهو: أن الواقعة تحكى نوع من المخالفة للملائكة مع أنهم معصومون ولا يعصون اللَّه ما أمرهم، وذلك عندما قال

لهم الحق تعالى «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فإن فيها نوع من التأنيب فأى جواب يذكر للملائكة فيتجه لآدم، ثم إن المكان الذى يجب أن يكون فيه هو الارض وان فعله هذا لم يؤثر على مقامه وخلافته بدليل رد الاعتبار الذى حصل له بالتوبة، وأن الذى فقده هو الخروج من الجنة ولا- يعلم أن هذا عقاب حيث أن آدم مخلوق أرضى أصلا، ثم ان الانزال للأرض ليس فيه عقاب بل هو نوع من التكريم لأنها دار الحصاد وفيها الابتلاء والتكامل والسعى نحو الآخرة، وهذه الجنة التى كان فيها ليست جنة الخلد بل هى أقل شأنا من جنة المأوى والآخرة وذلك لأن الخلود فى الأخيرة، وهذا كله شاهد على ان الهبوط للارض ليس فيه توهين لآدم.

اما الجواب الحلى:

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۵۱

۱- أن الحق تعالى يتعرض فى حديثه عن الانبياء دائما إلى جنبتهم البشرية وأنهم مخلوقون له، وان كمالاتهم بالنسبة إليه ناقصة ومحدودة كما يتعرض إلى كمالاتهم الغيبية التى يفوقون بها على البشر، وهذا ليس لأجل بيان عيوبهم ونقائصهم بل لأجل بيان أنهم ليسوا بآلهة يعبدون من دون اللّه بل هم عباد مكرمون محتاجون إلى اللّه، وحتى الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله الذى لا خلاف فى مقاماته ومنزلته فإن القران يركز على بشريته، كما يركز على مقاماته الغيبية «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ» «۱»

ففى الحين الذى يؤكد على مماثلته لهم بالبشرية يؤكد على اختلافه معهم بالمقام الغيبى وهو الارتباط بالوحى والعوالم الإلهية، حتى لا- يعبد من دون اللّه فهم بالاضافة إلى بارئهم محدودين كمالاتهم ناقصة ولكن بالاضافة إلى ما سواهم فهم المعصومون الانبياء الواجب اتباعهم واتخاذهم قدوة. وهذا كله لأن الواسطة- فى الحين الذى هى ضرورة لا بد منها- يجب أن يتوفر فيها خاصية الوساطة لا خاصية الحجاب.

وبتحليل آخر يشير علماء النفس إلى أن الانسان يجب ان يستشعر فى نفسه النقص فإذا أحس به سار وسعى نحو الكمال، ولذلك كانت العبادة- أى اصل العبادة- تكاملًا لكن المتعلقة بالمعبود الحقيقى، وحيث كان الانبياء هم قدوة المخلوقات فيجب أن يشعر الناس فيهم كلا الجنبتين، يرونهم أعلى منهم شأنا وأرفع منزلة من جهة الهدى الخارق والافعال التكوينية الخارقة ليستشعر الانسان النقص فى نفسه فيسعى نحو الكمال الذى يراه، ويجب فى نفس الوقت أن يلحظوا فيهم جنبة النقص والحاجة للّهوانهم مخلوقون مثلهم حتى لا يكونوا حجابا دون الحق تعالى فيظهر الحق تعالى جانب النقص فيهم من خلال بعض

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۵۲

الافعال ويكون جانب النقص بالاضافة إلى من هو أعلى رتبة منه لا بالنسبة إلى من هو دونه ممن يكون لهم إماما، فالانبياء والائمة فى حركة إلى اللّه تعالى.

۲- الجواب الآخر المذكور فى بعض الروايات أن النهى فى عالم الجنة ليس هو نهى تكليفى حيث أن الجنة ليست دار تكليف إذ التكليف مقارن مع الكمال والعقاب والثواب وبالتالى لا- تكون معصيته معاقباً عليها كما فى عالم الارض، مضافا إلى ان هذه الجنة كانت مختصة بأحكام خاصة منها أن لا تجوع ولاتعرى، ومن المتفق عليه بين العامة والخاصة أن المخالفة ليست لعزيمة وليس لها عقوبة أخروية.

۳- أن الآية تدل على ان هناك مقامات ورتب و مدارج فى الامامة وهى تلك الوجودات الحية النورية الشاعرة التى عرضها على آدم وهى بالتأكيد غير الذات الالهية المقدسة ونسبتهم لآدم كنسبة آدم لبقية الخلق.

الطائفة الثانية: آيات الكتاب ... ص: ۳۵۲

وهى كل آية ورد فيها لفظ القرآن أو الكتاب، وعمدة البحث فى آيتين الاولى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» «۱»

.الثانية: «أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» «۲»

.والبحث فی الآیة الاولی ویقع فی أمور:

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۵۳

۱- فی شأن النزول المعروف أن سورة الرعد مكية وإن ادعى البعض أن خصوص الآية التی هی مورد بحثنا مدنية، علی أساس ان المقصود من (من عنده علم الكتاب) هم اهل الكتاب وهؤلاء أسلموا فی المدينة، وهذا ليس بشئ لان الاتفاق علی نزولها فی مكة.

كما أن السورة كأغلب السور المكية واردة فی بيان التوحيد والرسالة والرسول وتأكيد أن الرسول حق من عند اللَّه عز وجل، وقد ورد فيها لفظ الكتاب ۷ مرات، والآية واردة مورد الاحتجاج مع الكفار حيث ظلوا يجحدون بآيات اللَّه ويستهزؤن بالرسول فهی بقرينة (بينی وبينكم) دالة علی ورودها مورد الاحتجاج وهذا كله يدفع ورودها فی المدينة حيث لم يتعرض الرسول لمثل هذه المواقف.

۲- أن الآية تذكر شهادتين الأولی شهادة اللَّه تعالی والثانية شهادة من عنده علم الكتاب، واقترانها بالاولی يدل علی عظمها وفضلها، وهی غيرها وإلا لما ذكرت ثانية فإن التعدد دال علی المغايرة.

۳- كيفية شهادة اللَّه، إن الكفار لما كانوا مشركين فأنهم يؤمنون بالقدرة المطلقة للَّهغايته أنهم يشركون بعبادته ويكفرون بنبوة النبی الخاتم صلی الله عليه و آله، كما انهم يذعنون بكبری مؤداها أن الذی يتقول علی المقام الربوبی سيما مقام الشريعة وبيان مطلق الارادات الالهية فهذا ليس بكذب فی مسألة جزئية بل هو ادعاء مقام من وإلی الرب، ومن هاتين كان وجه حجية المعجزة أنه اقدار الباری بقدرة يعجز عنها بقية البشر وتكون مقرونة بدعوی الوساطة. وهم مع اذعانهم أنها قدرة خاصة لا تصدر من البشر إلا أنهم يغالطون ويقولون أنها قدرة سحرية، فهم يذعنون كبرويا أن القدرات التی لا يقدر عليها البشر لا بد أن يكون منبعها الغيب.

فشهادة اللَّه هی اقداره للنبی صلی الله عليه و آله إیاعطاؤه قدرة غيبية، وكيفيتها هی نفس كيفية المعجزات وأنها هی شهادة منه والمعجزة هنا هی القرآن

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۵۴

الكريم.

ويمكننا القول ان الشهادة نوع من البرهان وهو لا ينحصر بالعلم الحصولی بل يطلق علی ما يولّد العلم الحضوری، وذكرنا أن الكثير- من الفلاسفة من عهد ابن سينا- غفل عن البرهان العيانی، وغرضنا أن شهادة اللَّه هی من نوع البرهان العيانی خلافا لما هو مشهور عند المتكلمين من الخاصة والعامة من حصر برهانية المعجزة فی العلم الحصولی، بيان ذلك:

أن معجزات الانبياء المذكورة فی الكتاب باقية وليست منصرمة ومختصة بزمن معين، بل هی باقية وذلك لأن الغرض من المعجزة هو تحدی جميع الأقوام وليس خصوص القوم الذی أرسل لهم الرسول، ولو كانت المعجزة خاصة بمن ارسل إليهم لأمكن أن يطلع علی ايجادها الأمم الاخری فينتهون إلی بطلان نبوته ولا تكون فی واقعها معجزة بل أمرا عاديا خفی سببه عن الآخرين، فلابد أن يتوفر فی المعجزة أنها تحدٍ أبدی للبشرية أی ما يعجز عنه الاولون والآخرون، ولذا نقول أنه يطلق علی المعا جز البرهان العيانی.

أما تطبيق البرهان العيانی علی شهادة اللَّه فذلك بعد كون بعض مواده المؤلفة عيانية لا بتوسط الصور الحصولية، وهنا قد يتساءل عن وجه تقديم (باللَّه) علی (شهيدا) والجواب انه من جهة الحصر ثم من جهة العيانية فاللَّه حاضر بقدرته اللامتناهية واللامحدودة فكفی باللَّه الحاضر عيانا وكفی بحضوره العيانی، ويذكر بعض المفسرين أن التعبير ب (شهيدا) وليس بشاهد دليل علی إرادة الحضور لا الشهادة المنشأة بالكلام.

ومما يدلل علی أن المراد من الشهادة التكوينية لا_ الاعتبارية، هو الرجوع إلی أصل اشتقاقها اللغوی حيث أنها أطلقت علی التأدية والاداء مع انها اسم للتحمل

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۵۵

والحضور فاطلقت على التأدية باعتبار المنشأ أى أن من له التأدية هو من كان حاضرا فتحمّل الشهادة، والشهادة فى الامور الاعتبارية تجعل السامع كالحاضر حين التحمل أما فى الامور التكوينية فإنها تجعل المشهود له فى أكمل إدراك وأقصى ما يمكن تصوره وهذا لا يكون إلا بحصول علم لديه من الشهادة علما حضوريا.

وكأن المعنى كفى باللّه حاضرا وتشهدون حضوره فى بيان الحق حيث ان هذه القدرة المدركة فى القرآن التى يعجزون عنها نحو من رفع الستار عن قدرة الغيب فهو ظهور للغيب عيانى لهم بعد كونهم يذعنون بأن اللّه موجود وحاضر.

۴- شهادة من عنده علم الكتاب، وهاهنا تطرح أسئلة متعددة فى كيفية شهادة هذا الشاهد وفى امكان كونها شهادة على صدق النبى وفى مصداقها، وذلك لان المشهود به هو النبوة والارسال فكيف يكون هذا الشاهد شاهدا على ارساله وهذا يعنى انه يكون حاضرا فى مقام انباء الرسول حتى يستطيع تحمّل الشهادة والاداء بها، وإذا لم يكن حاضرا عند تحمله فسوف تكون شهادته اطمئنانا بصدق النبى صلى الله عليه و آله، ومقتضى كون النبى فى مقام الاحتجاج أن هذا الشاهد حاضر الانباء حتى يستطيع الأداء. ومن هنا نستطيع أن نفهم ما ورد فى الخطبة القاصعة «انك تسمع ما أسمع وترى ما أرى»، وهذا يعنى أن (من عنده) جهز بجهاز وجودى وروح ذات خصائص معينة مشابهة للروح النبوية «وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ».

قد يقول قائل ان تحمل (من عنده) ببرهان حصولى ثبت لديه فسوغ له الشهادة كما فى قصة ذى الشهادتين حيث شهد لمجرد ان الرسول هو الذى أخبر ان الدرع له.

وهذا القول مدفوع أن تسمية هذا بالشهادة من باب التنزيل وهذا مسلم به، ولو كان حصول العلم لدى الشاهد بهذه الطريقة فالاولى أن يذكر نفس البرهان ولا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۵۶

حاجة حينئذ لشهادته لأن ترامى الشهادة اضعاف للمشهود به فلو أمكن الادلاء بالمشهود به فهو أولى، فالغرض من الشهادة ان ما حصله الشاهد بعين الشهود واليقين المستند إلى العلم الحضورى، وهذا يدل على أن مستند الشاهد ليس علما حصوليا.

وهاهنا تساؤل يطرح أنه كيف تكون شهادة الشاهد وهو من تابعى النبى يحتج بها على الكفار الذين يشككون فى النبى؟

ومن أجل الاجابة على هذا التساؤل يجب الاشارة إلى أن النبى محمد صلى الله عليه و آله كان قبل البعثة معروفا لدى قومه ببعض الخصال والصفات التى استيقن منها الجميع كالصدق والامانة وانه من الذين يستسقى بهم الغمام، وهو من عائلة سلمت إليها زعامة قريش وذلك لأهليتهم وصدور خوارق العادات منهم، ومن هنا كان يتهم بالسحر، وقد تواتر النص التاريخى من المشركين على وصفه «أنه سحر قديم فى بنى هاشم» مع ما هو مقرر عند قريش من كونهم من نسل ابراهيم واسماعيل الذبيح وهم ورّاثهما، وقد ذكر الامام ذلك فى ذيل الخطبة القاصعة «وأنى لمن قوم لا تأخذهم فى اللّه لومة لائم سيماهم سيما الصديقين، وكلامهم كلام الابرار عمار الليل ومنار النهار، متمسكون بحبل القرأن يحيون سنن اللّه وسنن رسوله لا يستكبرون ولا يعلون ولا يغلون ولا يفسدون، قلوبهم فى الجنان، وأجسادهم فى العمل» أى انه من قوم وشجرة توفرت فيهم صفات الكمال من الحكمة والصدق والاحسان والعفاف والشجاعة والخلوص للّه‌تعالى والاجتهاد فى العبادة والتحلى بالعصمة العملية، فلم يشاهد لهم زلل ولاخطل فى جاهلية قريش ولا فى الاسلام.

ثم أن نفس ولادة الامام فى الكعبة وانشقاق الجدار ودخول فاطمة بنت أسد وبقاؤها داخل الكعبة ثلاثة أيام لم يكن بالامر الذى لاقى استنكارا من قريش لما تعودوه من أهل هذا البيت من خوارق العادات.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۵۷

وعلى كل حال لا نجد فيما بأيدينا من أخبار وتواريخ اعتراض الكفار على هذه الشهادة وطعنهم فيها، ثم إن وصفه بأنه عنده علم الكتاب يعطى الحجية على وجه الاستشهاد به لأن فى ذلك اشارة إلى انطوائه عليه السلام على العلم الجامع وفى ذلك تبيان لكيفية

استعلام ذلک بالمسائلة ونحوها ليتحققوا من ثبوت الوصف ومن ثم يستثبتوا وجه حجية شهادته عليه السلام، وهذا الكتاب إما ان يراد به الكتب السماوية أو القرآن الكريم، والاخير هو الارجح حيث أن سورة الرعد نزلت دفعة واحدة غير متقطعة وموارد الكتاب فيها قد قصد منه القران الكريم، بل فى بعض الآيات من السورة ارادة كتاب التكوين كما فى ام الكتاب.

۵- من عنده علم الكتاب، من بين معانى الاضافة الانسب ان تكون الاضافة بيانية استغراقية ولو اريد منها التبعيض لأتى بلفظ من كما فى وصف آصف بن برخيا فى سورة النمل، وقد ذكرنا ان الاختلافات الواردة فى تعابير القرآن تدل على اختلاف المعانى وليس الهدف منها بلاغيا أدبيا، والاحاطة بمعانى الكتاب ليس بالعلم الحصولى بل بالعلم الحضورى، حيث ان الكتاب ليس الموجود النقشى بل كتاب التكوين كما سوف يأتى بيانه فيما بعد. هذا مضافا إلى ان العلم لو كان ببعض الكتاب لما كان فى شهادته مزية حيث ان المشهود عليه هو اعظم الغيبيات وهو نبوة النبى الخاتم.

ثم إن ماهية هذا العلم لا يمكن ان تكون حصولية وذلک لما ذكرناه من ان هذا العلم جعل منشأ لحجية الشهادة ومقتضاه ان يكون التحمل حضوريا.

وقد ينقض على هذا المعنى وأن القرآن استشهد بشهادة بعض اصحاب الكتب السابقة وذلک فى عدة آيات: منها «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۵۸

شَاهِدٌ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ» «۱»

.منها: «أَوَ لَمْ يَكُن لَهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ» «۲»

.ومنها: «لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً» «۳»

.ومنها: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِکَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِى إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُم لَا تَعْلَمُونَ» «۴»

.والجواب العام عن هذه الموارد أن الاستشهاد بطائفة من علماء بنى اسرائيل وما شابههم ليس من جهة أشخاصهم بل استشهاد بما ورد فى كتبهم من بشارات بالنبى الخاتم، وواضح أن هذه الكتب غيبية من عند اللَّه، والمشركون متأكدون من أن كتبهم متقدمة بقرون على زمن النبى صلى الله عليه و آله وهى منسوبة إلى السماء وليس هو من السحر، وفى ذلک بينة وبرهان قاطع على نبوة النبى الخاتم فهى شهادة الكتب السماوية بالنبوة وهى تكون من سنخ شهادة اللَّه وهى بمعنى آخر شهادة الانبياء السابقين على صدق النبى الخاتم، وشهادة الملائكة أيضا شهادة غيبية وسنخها ليس بالعلم الحصولى، وعليه نصل إلى نتيجة أن جميع الشهادات ترجع إلى سنخ واحد.

اما الأجوبة التفصيلية:

۱- فشهادة الملائكة ليس شهادة عادية وذلک لأنهم لا يستطيعون استنطاق

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۵۹

الملائكة فكيفيتها يجب أن تكون بما ذكر فى شهادة اللَّه من أن ذلک هو بمحضره وقدرته، حيث ان مشركى قريش يذعنون بوجود الملائكة وانهم اعوان اللَّه وذلک بدليل نسبتهم الأنوثة لملائكة للَّهوانهم بنات اللَّه والعياذ باللَّه تعالى.

۲- أن قريش والمشركين كانوا على اطلاع وخبر من علم أحبار اليهود ببعثة النبى صلى الله عليه و آله حيث كانوا من قبل يستبشرون ببعثته ويأملون النصر به على المشركين قال تعالى «وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» «۱»

.۳- أن الآية الاخيرة ليس فيها استشهاد على أصل الرسالة والبعثة بل دفع لاستبعادهم كون الرسول المرسل بشرا رجلا، ومع ذلک فإن الاستشهاد بأهل الذكر لا باعتبار اشخاصهم كما قدمنا.

۶- ونتعرض فيه لمقام القران الكريم ومراتبه.

وفيه مسائل ثلاث:

المسألة الاولى: ان القران ذو حقيقة تكوينية بمعنى ان القرآن لا تنحصر درجات وجوده بالعبارات الوارد ذكرها بين الدفتين، وأن هذا الوجود للقرآن هو المعبر عنه بالكتبى وأنه معبر عن وجود آخر للقرآن وهو الوجود التكوينى، ويدل على هذه المرتبة للقرآن مجموعة من الشواهد:

أ- ان التنزل يدل على أن القرآن كان موجودا ثم تنزل بما نراه نحن الآن وهذا التنزل لا يضاهيه التعبير بأنه كان لفظا مصوتا وكلاما نفسيا.

ب- بعض الآيات القرآنية التى تدل على آثار للقرآن لا يمكن نسبتها إلى هذا الوجود الاعتبارى من نحو «وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْكُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بل لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً»»

، حيث أنه قد ذكر فى شأن النزول أن قريش اقترحت على النبى صلى الله عليه و آله أن يباعد بين جبال مكة لأن مكة ضيقة فتتوسع وتصبح بها

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۶۰

وديان وسهول ومزارع وما شابه ذلك، وطلبوا منه أن يحيى لهم قصى جد قريش وأجدادهم ليكلموهم، فاللَّه تعالى يخاطبهم أن القرآن لو أظهر لهم تلك الآثار بالقرآن لما آمنوا، وهذه الآثار لا تفترض للكتاب الاعتبارى لأن هذه ألفاظ والوجود اللفظى وجود تنزيلى للشىء.

ج- قوله تعالى «لَوْ أَنزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» «۱»

، وواضح ان المقصود فى هذه الآية ليس القرطاس والورق الذى كتب عليه القرآن له هذه الخصوصية، ولم ينزل القرطاس المكتوب على صدر النبى الخاتم، بل ان ما نزل هو المعانى وحقيقة القرآن التكوينية هو الذى يجعل الجبل خاشعا متصدعا، ولدينا شاهد على تصدع الجبل وهو فى قوله تعالى «فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً» فتدكدك الجبل هو من تجلى النور الالهى، والحقيقة القرآنية هى التى تجعل الجبل متصدعا وهى التى لها الآثار التكوينية.

د- قوله تعالى «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» «۲»

، فهذا القرآن المتصف بالمجد وهو نوع من العلو والرفعة والعز العظمة فى اللوح المحفوظ فهو متنزل من حقيقة أخرى.

ه- قوله تعالى «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ» «۳»

وهذه الآية صريحة فى كون حقيقة القرآن التكوينية فى كنّ محفوظ لا يناله إلا المعصومون.

المسألة الثانية: ما ورد من وصف الكتاب بالمبين وقد ورد ذلك فى أماكن

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۶۱

متعددة.

ويذكر العلامة الطباطبائى فى ذيل قوله تعالى «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ... فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۱»

أن الكتاب وارد فى ثلاث معان:

الاول: الكتب المنزلة على الانبياء وهى المشتملة على شرائع الدين مثل كتاب نوح «وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» «۲» «صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى» «۳»

وكتاب عيسى وهو الانجيل «وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ» «۴»

وكتاب محمد صلى الله عليه و آله «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ» «۵»

.والثانى: الكتب التى تضبط أعمال العباد من حسنات أو سيئات، وهو كتاب الاعمال والآجال «وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ

وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً» «۶»

وما ورد فی سورهٔ المطففین: ۲۱.

والثالث: الکتب التی تضبط تفاصیل نظام الوجود و الحوادث الکائنهٔ فیه ولعل هذا النوع من الکتب فیه ضبط عام حفیظ لجمیع الموجودات وهو ام الکتاب یستطر فیه کل شیء وفیه ضبط خاص یتطرق إلیه المحو والاثبات، وهذا هو الکتاب المبین واللوح التکوینی «وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ ... إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «۷»

.فالکتاب المبین بشهادهٔ الآیات هو الذی یستطر فیه کل شیء وهو یحصی

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج ۱، ص: ۳۶۲

جمیع ما وقع فی عالم الصنع والایجاد مما کان وما یکون وما هو کائن من غیر أن یشذ عنه شاذ وفیه نوع تعیین وتقدیر للاشیاء إلا أنه موجود قبل الأشیاء ومعها وبعدها.

المسألهٔ الثالثهٔ: ان القرآن الکریم هو الکتاب المبین بدلیل قوله تعالی «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ» «۱»

، وهذا الکلام الصادر من الحکیم العلیم لیس من قبیل الالفاظ العادیهٔ والمبالغات وقد أشرنا إلی ذلک فی بدایهٔ الفصل حول المعانی القرآنیهٔ العالیهٔ، و أننا إذا استنطقنا القرآن ووصلنا إلی معنی فلا یجوز ان نتراجع عنه خشیهٔ ذلک المعنی الهائل، فإذا کان القرآن فیه تبیان لکل شیء صادر من حکیم، وهو تعالی یعبر عن القران بذلک وفی موضع آخر أن الکتاب المبین فیه کل شیء ولا یعزب عنه شیء، ولیس المقصود من التبیان هو خصوص الاحکام الشرعیهٔ وذلک لان الواقع یخالفه حیث أن أربعهٔ أخماس القرآن فی المعارف الالهیهٔ، ولا یمکن ان نقول ان ظاهر هذا الذی بین الدفتین هو فیه کل شیء من احکام الوجود وهو محدود إلا إذا اعتبرناه نافذهٔ علی أمر آخر، وأنه یشیر إلی حقیقهٔ معینهٔ هی القرآن الذی فیه تبیان لکل شیء، وهذا هو الذی نرید الوصول إلیه من أن النبی الخاتم اختص بالکتاب المبین، ومن هنا لم تطلق علی کتب بقیهٔ الانبیاء القرآن بل الفرقان.

ونستطیع ان نوجز الدلیل علی اتحادهما من خلال اتحاد وصفهما:

۱- ان الکتاب المبین یستطر فیه کل شیء وهکذا القرآن الکریم.

۲- ان المقصود من القرآن لیس هو خصوص اللفظ المصوت بل الحقائق النورانیهٔ التی لیست من سنخ المعانی الحصولیهٔ ومن الشواهد علی ذلک قوله

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج ۱، ص: ۳۶۳

تعالی «فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ» فکیف یکون مکنونا مع أن المنقوش برسم الخط متداول بین أیدی الناس.

۳- قوله تعالی «مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ» ... وقد ورد توصیف الکتاب المبین بأنه ام الکتاب.

۴- أن فی القرآن الاسم الاعظم وهو لیس من جنس الالفاظ المصوتهٔ- وإن کان لإسمه لفظ- فلا یعقل وجوده فی القرآن بوجوده الاعتباری بنقش رسم الخط بل فی القرآن التکوینی.

ومن هنا ننتقل إلی نقطهٔ أخری ان هذه الاقسام التی ذکرناه للکتاب هی فی واقعها تنزلات ومراتب للکتاب المبین وأنها کلها تعود إلیه، والکتاب المبین هو عین القرآن الکریم وهو له مدارج عالیهٔ ونازلهٔ ومدارجه العالیهٔ ام الکتاب أی المصدر الذی یتنزل عنه کل شیء، والبقیهٔ تنزلات.

والدلیل علی ذلک:

أ- أنه قد ورد أن فی القرآن أشیاء یراد منها أمور تکوینیهٔ کالاسماء الحسنی، واللوح، والقلم والصحف والرق المنشور.

ب- أن الماهیهٔ المقررهٔ للکتاب شیء یکتب فیه ویجمع فیه الکلمات والکلام، والکلمهٔ والکلام هو ما یدل علی أمر ما، وهذه الدلالهٔ وإن کانت بالوضع الاعتباری کما فی الالفاظ فهی کلمهٔ وکلام اعتباری، ومصداق فرضی لماهیهٔ ومفهوم الکلمهٔ والکلام، وأما إن

كانت الدلالة تكوينية فالشىء الدال تكوينا كلمة وكلام حقيقيان ومصداق خارجى للماهية، قال تعالى «إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» «۱»

، وبالتالى فإن الكتاب الحقيقى هو الذى يجمع ويضم الكلمة

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۶۴

والكلام الحقيقيين جمعا وضما تكوينا.

وكذلك الحال فى الاسم إنما سمى اسما لأنه يكون علامة على ذى العلامة والمصداق الاعتبارى له هو اللفظ المصوت لكون دلالته بالوضع الفرضى الاعتبارى، بخلاف المصداق الحقيقى فهو الدال تكوينا والعلامة التكوينية على الشىء، فالكتاب مجموع الكلمات، و ماهية الكلمة هى الشىء المنطوق بها، والنطق هو الاظهار والاعراب وهو أيضا ينقسم إلى اظهار تكوينى واعتبارى، وهو اعراب عن مغيب ومستور فنطق اللّه تعالى خلقه وايجاده ومخلوقاته كلماته وبعضها تام.

ج- ذكر فى المعقول أن كل معنى ماهوى له وجود اعتبارى، ولا يمكن ان يكون هناك شىء اعتبارى ليس وراءه امر تكوينى أى ان الماهية التى يفرض لها وجود اعتبارى انما تُقتنص وتنتزع عن وجود تكوينى لها، فالكلمة لها وجود تكوينى، والاسم له وجود تكوينى، فالمعنى الاعتبارى لا يمكن ان يكون مستلا لا من شىء، بل لا بد ان يستل من وجود تكوينى، وهذه مسألة استوفى البحث فيها فى الاعتباريات فى علم الاصول أيضا، ومن شواهدها القرآنية التعبير عن بعض الانبياء انه كلمة من اللّه، (النساء: ۱۷۱- المؤمنون: ۵۰)، وهذا الاطلاق ليس مجازيا بل هو اطلاق حقيقى واطلاق الكلمة على اللفظ هو المجازى لأن حقيقة الكلمة هى المعبرة تكوينا عن معنى لدى المتكلم، والمتكلم هنا هو اللّه جل وعلى والنبى معبر حقيقى عن اللّه وعن عظمته وينبئ عما فى الغيب، فهذا الاطلاق حقيقى.

وإذا كان القرآن الكريم هو الكتاب المبين وهو ام الكتاب وهذا يعنى انه الكتاب التكوينى فكل الكمالات المتنزلة تكون هناك موجودة بشكل بسيط شريف وعالٍ ويكون معنى الكتاب هو وجود جمعى بسيط مجموع فيه كل الكلمات التى تعبر

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۶۵

عن الغيب.

د- وهناك الكثير من الآيات التى يذكر فيها الحق سبحانه تنزيل الكتاب والآيات مع ذكر خلق السموات والأرض مثل قوله تعالى «إِنَّ اللّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّماءِ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرَ مُتَشَابِهاتٌ» «۱»

، وقوله تعالى «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ... وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ» «۲»

، وقوله تعالى «الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّماوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ» «۳»

، وقوله تعالى «طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّماوَاتِ الْعُلَى» «۴»

، وغيرها من الآيات فى السور الاخرى.

۵- الروايات الواردة ان فى القرآن عمل كل عامل ومكانه فى الجنة مآله وثوابه وعقابه ... وهذه الكتب فى الكتاب المبين باعتبار انه يستطر فيه كل شىء، وهذا يعنى ان القرآن فيه كل شىء وهو عبارة ثانية عن العينية بين القرآن والكتاب المبين.

والخلاصة: ان المراد من حقيقة القرآن الكريم هو الكتاب بوجوده التكوينى وهو حقيقة علوية تكوينية جامع لجميع الكلمات الالهية، والشهادة المعطوفة على

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۶۶

شهادة اللّه تعالى هى شهادة من عنده علم مثل هذا الكتاب فمن ثَمّ ذكرت تلو الشهادة الاولى.

ثانياً: قوله تعالى «أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَکُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّکَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» «۱»

.* الآية الكريمة فى مقام الموازنة بين كفتين بعد ان ذكر الاحتجاج مع الكفار على كون القرآن كتابا منزلا من عند اللّه سبحانه، ثم يطيب خاطر النبى بأن ليس من كان كذا وكذا كغيره ممن ليس كذلك، وأنت على هذه الصفات من كونك على بصيرة من ربك ويتلوه من يشهد بأحقية القرآن وكان على بصيرة من أمره فآمن به عن بصيرته وشهد بأنه حق منزل من عند اللّه تعالى.

* إنما اوردناها فى هذه الطائفة من حيث ان هذا الشاهد من شأنه أن يشهدعلى اصل النبوة وأحقية القرآن فتكون قريبة المضمون من آية سورة الرعد، مع اتفاقهما فى كونهما مكيتان.

* حاول البعض صرف ظهورها عن الامام على عليه السلام وذلک بالتصرف فى ارجاع الضمائر ونحوه أو القول ان المراد منه جبرائيل يتلو القرآن على النبى صلى الله عليه و آله، لكن كلها مردودة وخصوصا على ما ورد فى بعض القرآت عند أهل البيت عليهم السلام من ان الآية «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى» فوصف الامامة والرحمة للشاهد لا لكتاب موسى إلا أنهم بدلوا موضعها عند جمع القرآن.

* وجود قيد (منه) للشاهد تدفع الاحتمالات التى ادعوها فى المقصود من الشاهد، حيث لا معنى ان يرجع الضمير إلى غير الرسول، وان المراد من (يتلوه)

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۶۷

التلو التابع لا التلاوة.

* ان المراد من حرف الجر فى قوله تعالى «بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» هى النشوية لا البيانية أى انها ناشئة من اللّه وآتية من جانبه.

* لفظة (منه) الواردة فى (شاهد منه) هل المراد منها الاتصال النسبى أم امر آخر؟ والاول بعيد وذلك لان القرآن لا يعتد بخصوص ظاهرة الولاء النسبى فقط فى نسبة الاشخاص كما فى قوله تعالى «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» مع انه ابنه، بل يعتبر ان من خرج عن الطريق الصحيح فهو خارج عن اتصاله بالنبى وهنا اطلاق (منه) على الامام على عليه السلام من جهة نسبة الروح والولاء والايمان وكونه منه لها دخالة فى شهادة الشاهد، ويؤكده ما ورد عن الامام من رؤيته لنور النبوة، وقوله صلى الله عليه و آله: انت أخى، فالاخوة ليست نسبية والشقيق يعنى الاشتقاق من أصل واحد فمرتبتهما الغيبية تؤول إلى أصل واحد، وقريب منه ما ورد كنا نورا واحدا، ومثله قوله تعالى «وأَنْفُسَنا وأنْفُسكم».

ثالثاً: اما النقاط التى يمكن استفادتها من هذه الطائفة:

۱- ثبوت مقام الطهارة والعصمة لمن عنده علم الكتاب حيث ان الشهادة لا يمكن أن تقبل فى هذه المواطن التى هى اللبنة الاولى للشريعة إلا لمن اتصف بذلك، وإن سر وحقيقة العصمة يعود للعلم، ولم يدع احد من الاولين والآخرين ان لديه علم الكتاب إلا هؤلاء الاطهار واستعدادهم للجواب على كل تساؤل، ومن دلائل العصمة اجوبتهم وكلماتهم التى صحت نسبتها إليهم فإنها تظل منارا هاديا ومشعلا مضيئا إلى أبد الدهر ودالا على امامتهم وعصمتهم ومعاجزهم العلمية.

۲- أن الائمة عليهم السلام لديهم العلم اللدنى المحيط بكل الاشياء وهو ليس غير علم الاسماء الجامع، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى الطائفة الاولى.

۳- ان من يكون لديه العلم اللدنى يكون مؤهلا للهداية التكوينية الايصالية وهى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۶۸

الحد لماهية الامامة كما ذكرنا فى الطائفة الاولى.

۴- بما أن لديهم هذا العلم الحضورى فلديهم القدرة وهذا يعنى ان لديهم الولاية التكوينية والقدرة التكوينية على من سواهم حتى الملائكة، وهذا العلم يكسب مثل هذه القدرة الغريبة كما رأينا فى آصف بن برخيا إذ ان اتيانه بعرش بلقيس بهذه السرعة ليس إلا بسبب ما حصل عليه من علم من الكتاب فكيف بمن عنده علم الكتاب، وقد حرر فى محله ان القدرة فرع العلم.

۵- لقد أشرنا إلى ان الكتاب هو الكتاب المبين وهو كتاب التكوين وهو الحاوى لكل شىء ومن وصل إلى هذا العلم يدل على علو منزلته ومقامه وعلى حسب ما أوتى نستطيع معرفة رقيه الروحى، ومن المسلم به فى علوم المعارف الالهية أن فضيلة الانسان بمقدار ما أوتى من ربه.

۶- ان مقتضى النقاط السابقة هو امامتهم لمن دونهم وان هذه الامامة هداية تكوينية وانها باقية على مر الزمان، إذ تنزل العلوم والكمالات من المراتب العليا على النفوس المستعدة لها، وقد مرّ عليك اطلاق الكلمة على بعض الانبياء، كما انه قد عرفت الفرق بين الكلمة والكتاب التكوينيين، فعلم الكتاب حاوٍ لجميع الكلمات، وإياك أن تحمل هذه الاستعمالات القرآنية على المجاز والتفنن اللفظى، فإنه كتاب حقائق موزونة ألفاظه واستعمالاته ومعانيه ولطائفه وحقائقه من لدن حكيم عليم، فلاحظ ما ذكرناه فى الفصل الاول.

۷- ان القرآن معجزة خالدة باقية على حقانية الرسول وهكذا الامام الذى هو شاهد حى على مر الدهور على صدق الرسول، حيث ان شهادة من عنده علمالكتاب لكل افراد الانسانية كما ان القرآن لجميع الانسانية فكذلك الشاهد الآخر يكون شاهدا ابديا على صدق الرسالة وصدق الكتاب من الحق سبحانه وهو القرآن الناطق.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۶۹

وهذا المفاد عين مفاد حديث الثقلين، وقد اشارت روايات أهل البيت عليهم السلام إلى العديد من الآيات التى يتطابق مفادها مع حديث الثقلين، وبالتالى فإن هذا الحديث وإن كان متواترا بين الفريقين إلا انه يزداد رصيد اعتباره مفادا وسندا.- وسوف يأتى مزيد بيان فى فقه الروايات- والمحصل: ان وجود الائمة عليهم السلام وتصديقهم بنبوة النبى صلى الله عليه و آله شهادة و معجزة على نبوته صلى الله عليه و آله على حذو شهادة ومعجزة القرآن الكريم على نبوته، وهذا مفاد يدق معناه ويلطف فى معنى معية الثقلين، فوجود الائمة عليهم السلام وعلومهم وسيرتهم وطهارتهم وكمالاتهم المختلفة فى الجوانب العديدة التى بهرت العقول دليل صدق على النبوة، ومن ثم ورد عنهم عليه السلام أن آية «وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً» ... مورد نزولها فى أمير المؤمنين عليه السلام وهى جارية فى الأئمة عليهم السلام، ولقد كان تحدى السلطات القائمة دولة بنى امية و بنى العباس لهم مستمرة على كافة الاصعدة فى العلوم المختلفة والرياضات النفسانية والقدرات الكمالية، وكانوا يستعينون برواد العلوم والفنون والرياضات من الاقطار المختلفة فى العالم ومن الممالك المختلفة بل كانوا يستعينون بالسباع فيرونها تخبت لهم خاضعة.

۸- يثبت من خلال الآية ان ولايتهم وامامتهم امر اعتقادى وليس من الفرعيات وذلك باعتبار ان المعجزة يجب الايمان بها كالقرآن وهذه الشهادة أمر اعتقادى وهى دليل النبوة، مما يدلل على أن النبوة والامامة توأمان وقرينان لا ينفك احدهما عن الآخر.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۷۰

الطائفة الثالثة: آيات الهداية ... ص: ۳۷۰

وهى على ثلاثة ألسنة:

أ- «إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» «۱»

.«أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لَا يَهِدِّى» «۲»

.ب- «وَإِنِّی لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَی» «۳»

.«یَا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِن رَبِّکَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لَا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکَافِرِینَ» «۴»

.ج- «وَیَزِیدُ اللَّهُ الَّذِینَ اهْتَدَوْا هُدیً» «۵»

.«وَالَّذِینَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدیً» «۶»

.«وَقُلْ عَسَی أن یَهْدِیَنِ رَبِّی لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً» «۷»

.«وَالَّذِینَ جَاهَدُوا فِینَا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنَا» «۸»

.إن الهدایهٔ الواردهٔ فی القرآن الکریم علی انحاء مختلفهٔ:

۱- الهدایهٔ التکوینیهٔ الخلقیهٔ «وَالَّذِی قَدَّرَ فَهَدَی» أی الذی خلق کل شیء، وجعله فی صراطه التکوینی الذی یؤدی إلی کماله وهدفه، وجعل ذلک فی فطرته حتی الکائنات غیر الشاعرهٔ غیر الارادیهٔ.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج ۱، ص: ۳۷۱

۲- الهدایهٔ التشریعیهٔ الارائیهٔ العامهٔ، وهی التی تصدر عن النبوات وشرائع الانبیاء وهی معلقهٔ علی العلم والادراک الذی یستطیع ان یصیبه کل احد.

۳- الهدایهٔ الایصالیهٔ للفاعل المختار، وهی التی نبحث عنها بالآیات من القسم الاول ویقابلها الاضلال التکوینی، وفی القسم الثالث یتضح أن هذه الهدایهٔ معلقهٔ علی العمل والطاعهٔ «وَمَن یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً»، «وَالَّذِینَ جَاهَدُوا فِینَا لَنَهْدِیَنَّهُمْ».

فهذه الالسنهٔ الثلاثهٔ تعالج ماهیهٔ الامامهٔ، وهی المستبطنهٔ للهدایهٔ الایصالیهٔ وأما الارائیهٔ فتکون تابعهٔ لصاحب الشریعهٔ، ونلاحظ ان القران فی مواطن کثیرهٔ یشیر إلی أن العمل الصالح له آثار وضعیهٔ منها انه یؤدی إلی عمل صالح آخر أکثر من الاول.

و- یظهر من آیهٔ سورهٔ الکهف: ۲۴ أن الهدایهٔ علی مراتب ودرجات وهی لا تقف عند حد فکلما زاد العمل والسعی زادت الهدایهٔ، وما ذلک إلا لأن الکمال لا حد له والقرب الالهی لا یقف عند نقطهٔ معینهٔ، وفی هذا جواب قاطع علی العامهٔ الذین یقولون ان الهدایهٔ حاصلهٔ بمجرد التلفظ بالشهادتین بل أن قوله تعالی «وَزِدْنَاهُمْ هُدیً» «۱»

، وقوله تعالی «وَقُلْ عَسَی أن یَهْدِیَنِ رَبِّی لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً» «۲»

دلیل علی خطئهم.

وتشیر آیهٔ سورهٔ المائدهٔ إلی تعین الولایهٔ وتشخیص صاحب الهدایهٔ الایصالیهٔ، مما یعنی ان هذا السعی یجب ان یسری عن هذا الطریق ومن هذا الباب.

أن آیهٔ سورهٔ طه التی اشرنا إلیها فی البدایهٔ تدل علی ان الغفران منوط بالولایهٔ لأنها تشترط الایمان والعمل الصالح والهدایهٔ وهو اتباع الهادی.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج ۱، ص: ۳۷۲

المفاد التفصیلی للآیات:

۱- إنما أنت منذر ولکل قوم هاد

فی هذه الآیهٔ الشریفهٔ موارد للبحث:

أولا: من المقصود بالهاد، فقد ذکر البعض ان المقصود هو الرسول الاکرم صلی الله علیه و آله أی انک هاد لکل قوم، وهذا الاحتمال ضعیف لامور منها: ان الحصر ب (انما) فی قبال توهم أن وظیفته صلی الله علیه و آله هی اهتداؤهم بالفعل بتلبیهٔ طلبهم بإتیان المعجزهٔ والآیهٔ التی یقترحونها.

ومنهـا: من الجهـة الاعرابيـة حيث سوف يتنـازع منـذر وهـاد الجـار والمجرور ولـذا لاـ يجوز توسـطها، كما لا يجوز الفصل بين العامل والمعمول بالواو.

ومنها: ان الانذار هداية ارائية فتكون هاد عطف تفسير، وهو خلاف الاصل الاولى فى ظهور الكلام فى التأسيس.

ومنها: انه لا يكون هناك وجه لتأخير هاد عن الجار والمجرور

ثانيا: أن الهداية ليست الهداية الارائية بل الايصالية وذلك لعدة وجوه:

* المقابلة بين الانذار والهداية.

* إن الكفار طلبوا من الرسول آية وهى مظهر للقدرة والقدرة مظهر الولاية، وهذا ما يحتاج إلى بيان:

وذلك لان المدعى أن المعجزة التى تظهر على يد الرسول هو من حيثية ولايته لا رسالته، ويكون جواب طلبهم أنك من حيث الرسالة لا تجرى بيـدك الآية وإنما ظهور الآية، والمعجزة بيد الهادى ومَن له الهداية الايصالية، والنبى الاكرم حيثياته متعددة ومن هذه الحيثية يكون المعجز على يديه.

* إن هـذه الهدايـة جعلت عـدلا للنبوة باعتبار أنها تحقق الايمان فى الخارج وهو غايـة الهدايـة الارائية فإن الايمان فى الخارج متوقف على الهادى.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۷۳

* إن مجيئ أداة العموم (كـل) والتنوين فى (قوم، هـاد) يـدل على الاسـتغراق وأن لكـل قوم هـاد وحيث أن النبى صـلى الله عليه و آله محدود العمر و ليس باقٍ فى هذه النشأة لجميع الأقوام، فبتكثر الاقوام يتكثر الهادى.

* إن سياق الآيات التالية لهذه الآية يدل على العلم اللدنى، وأن علم الحق يسع ويحيط بكل شيء وموارد قدرته التكوينية وهو مناسب للهداية التكوينية.

۲- الآية الثانية «أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لَا يَهِدِّى إِلَّا أَن يُهْدَى».

والآيـة مكيـة واردة فى مقام الاحتجاج مع الكفار، وأن الالهـة التى يعبدونها لا تسـتطيع شـيئا وان الهادى هو اللَّه واسـناد الهداية إليه لا يختص بالهدايـة الارائيـة بـل يعم حتى الايصاليـة، ويكـاد يجمع المفسـرين ان (يهـدى) فى الاصـل يهتـدى ثم قلبت التـاء دالاـ لاـجل التخفيف، والمقابلـة هنـا بين من يهـدى إلى الحق وهو عـام ولم يخصـص كما فى قوله تعالى «قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ» أى من هو الاحق بالاتباع هل هو الذى يهدى إلى الحق ام من لا يهتدى إلى الحق إلا أن يهدى.

فالـذى تكون هدايته من ذاته ومن نفسه هو الذى يكون هاديا، أما من لا تكون هدايته ذاتية وليست من نفسه فإنه لا يكون هاديا للحق فتوجـد ملازمـة بين الهدايـة الحقـة والهدايـة اللدنيـة، فيجب ان يكون الهادى مهتـدياً لا بغيره وفى المقابل الذى يهتدى بغيره لا يكون هاديا للحق فتوجـد ملازمـة بين الاثنين أى ان المهتـدى بنفسه هـدايته ملكوتيـة باقدار اللَّه عز وجل. والمهتدى باللَّه لا يقال انه مهتدى بغيره من المخلوقين، إذ الاهتـداء بهدايـة اللَّه كمـا ورد فى قل اللَّه يهـدى للحق هو عبر اتباع رسوله واللَّه هو الحق وهدايـة الرسول إلى الحق هى هدايـة إلى اللَّه، ونتيجـة لهـذه الخصوصـية فى الهدايـة نقول ان المراد هو الهداية الايصالية وذلك لان المهتدى بسـبب غيره قادر على الهداية الارائية اما الايصالية فلا يستطيعها.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۷۴

ثم أن للهداية درجات كما تشير إليه العديد من الآيات كقوله تعالى «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» «۱»

، وقوله تعالى «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» «۲»

، وقوله تعالى «وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً» «۳»

مما يدلل على كون الهداية على درجات، وفى الاستعمال القرآنى أيضا استعملت الهداية فى مقابل الضلالة، والهداية بمعنى الصراط

المستقيم فى مقابل بقية السبل المتفرقة.

كما ان فى قوله تعالى «وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى» «۴»

دال على وجود درجة من الهداية دخيلة فى أصل النجاة الاخروية وهذه الدرجة وراء مبدأ الايمان والعمل الصالح، وهذا المفاد كما يلاحظ مقارب لمفاد الطائفة الاولى فى واقعة آدم عليه السلام، حيث تبين ان ابليس لم ينفعه إيمانه باللَّه تعالى واليوم الآخر، ولا عبادته بعد عدم توليه آدم عليه السلام وعدم خضوعه وانقياده إليه كخليفة للَّه تعالى، وهذا المفاد فى آية سورة طه لمفاد آية الاكمال «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً» فالاسلام بما فيه من التوحيد والنبوة والمعاد والفروع من الصلاة وغيرها كملت بالذى نزل ذلك اليوم وتم به، ورضا الرب مشروط بما نزل فى حجة الوداع عند رجوعه صلى الله عليه و آله فى غدير خم فى قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»»

، فوعده بالعصمة مما

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۷۵

يحذره صلى الله عليه و آله من الناس وأن من يكفر بذلك الذى انزل فإن اللَّه لا يهديه، فهذه الهداية هداية زائدة على ما ذكرنا تشترط فى النجاة الاخروية وهى الهداية التى فى هذه الطائفة.

الطائفة الرابعة: آيات الملك ... ص: ۳۷۵

قوله تعالى «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيماً» «۱»

.والآية تتعرض للنبى الخاتم صلى الله عليه و آله بأن الآخرين يحسدونه على ما آتاه اللَّه من فضله ثم يعدد ذلك الفضل بالكتاب والحكمة والملك العظيم، اما الكتاب والحكمة فمعناهما واضح إجمالا فالاول هو النبوة، والثانى هو العصمة كما تشير إليه كثير من الروايات فإن مقتضى الحكمة عدم الزلل.

أما الملك العظيم فيتضح معناه بالالتفات:

أولا: ان آل ابراهيم لم يستلم أحد منهم السلطة والملك إلا سليمان وداود وهذا لا يتناسب مع مجيئه مورد صفة الجمع والمنة على كل آل ابراهيم.

وثانيا: هذا الملك العظيم لا بد أن يكون مغايرا للكتاب والحكمة ولا يكون غير الاقتدار والسلطنة، وهذا هو الحد الماهوى للملك.

وثالثا: إذا لاحظنا الآية السابقة عنها وهى «أَم لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً» فما هو الملك الذى لو أوتوه بنى اسرائيل لما اعطوا الناس منه شيئا بالتأكيد ليس هو الملك الظاهرى حيث ان المراد من النقير هو المتخلف من التمر فى النواة وهذا نوع تشبيه و المراد منه باب المحاجة وبيان المباغضة والحسد الذى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۷۶

عند اليهود تجاه نبوة النبى صلى الله عليه و آله وهى فى مقام النعم الغيبية الالهية التى حباها اللَّه تعالى آل ابراهيم، فإذا كانت لديكم النبوة وما هو من قبيلها من المنح الإلهية فلا تؤتونها أحداً من الناس وتمانعون من وصول هذا الفضل الالهى لأحد، فلا بد من مجموع هذه القرائن أن يكون هذا الملك ولاية تكوينية.

وهذا يعنى ان الملك هو الذى تنبثق عنه النبوة وهو أعظم مقام من النبوة بمعنى أن ولاية كل نبى أرفع شأنا من نبوته- لا أن ولاية أى ولى أرفع من مطلق النبوة- وذلك لأن الولاية تعبر عن أرقى مراحل الروح التى ترتقى فيها فترتبط بالفيض عن الذات الازلية، او ترتبط بالذات ويعبر عنه بباطن النفس وهى تنقاد للرب وتعبد الرب منتهى الانقياد والعبادة بحيث تكون مشيئته مشيئة اللَّه وارادته ارادة اللَّه.

فالولايـة هى الجانب الملكوتى اما الانباء والنبوة دون ذلك المقام وذلك لانه بتوسط رقى روحه يفاض عليه المطالب العالية حيث أن علومها أوسع من التشـريعية وتكون مصـدرا لها، ويشير إلى ذلك قوله تعالى «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّیَتِی قَالَ لَا یَنَالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ» «۱»

، حيث أن الابتلاء كان فى كبر سنه بعد ما رزق الذرية، والابتلاء بتوسط ما أوحى إليه كما تشرحه بقية السور، فهو بعد النبوة والرسالة: كان التأهل لمقام الامامة.

ثم بـالنظر إلى الآيات الاخرى نرى ان آل ابراهيم قـد أوتوا الامامـة وحبوا بها «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا..» «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنَـا وَأَوْحَیْنَا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرَاتِ»، فالحبوة التى حبى بها اللَّه آل ابراهيم هى الامامـة، وهل يوجـد ملك اعظم من هـذا! وهذا الملك العظيم هو الذى حباه اللَّه لرسوله

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۷۷

الاكرم وعترته الطاهرة.

يـذكر العلامة الطباطبائى «ان المراد من الملك هو السـلطنة على الامور المادية والمعنوية فيشـمل ملك النبوة والولاية والهداية وملك الرقـاب والثروة وذلـك انه هو الظـاهر من سـياق الجمـل السابقـة واللاحقـة فإن الآيـة السابقـة تومئ إلى دعواهم انهم يملكون القضاء والحكم على المؤمنين وهو مسانـخ للملـك على الفضائـل المعنويـة ... ثم عنـدما يصـل إلى الملـك العظيم يقول «تقـدم ان مقتضـى السياق ان يكون المراد بالملك ما يعم الملك المعنوى الـذى منه النبوة والولايـة الحقيقية على هداية الناس وارشادهم ويؤيده ان اللَّه سبحانه لا يستعظم الملك الدنيوى لو لم ينته إلى فضيلة معنوية ومنقبة دينية» «۱»، ونحن وإن نقلنا كلام العلامـة بطوله إلا أنا لا نتفق معه على أن كلا من النبوة والامامة داخلتان فى الملك العظيم لما ذكرناه من القرائن، ونضيـف أن قوله تعالى «قَالَ الَّذِی عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْکِتَابِ..» يدل على أن القدرة هو علم الكتاب وهو الامامة كما توصلنا إليه.

ثم ان المراد بآل ابراهيم هم النبى وآله وذلك لجملة من القرائن:

- منها ان المقام هو المحاجة والحاسدين هم بنو اسـرائيل وحسدهم للنبى صـلى الله عليه و آله، ولو كان المراد انبياء بنى اسرائيل لكان تقريرا لحجتهم لا دحضا لها فلا بد ان آل ابراهيم لا يشمل بنى اسحق.

- ان الناظر فى الآيات الاخرى:

كقوله تعالى «وَتِلْکَ حُجَّتُنَا آتَیْنَاهَا إِبْرَاهِیمَ عَلَی قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّکَ حَکِیمٌ عَلِیمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَیَعْقُوبَ کُلّاً هَدَیْنَا وَنُوحاً هَدَیْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّیَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَیْمَانَ وَأَیُّوبَ وَیُوسُفَ وَمُوسَی وَهَارُونَ وَکَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ وَزَکَرِیَّا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۷۸

وَیَحْیَی وَعِیسَی وَإِلْیَاسَ کُلٌّ مِنَ الصَّالِحِینَ وَإِسْمَاعِیلَ وَالْیَسَعَ وَیُونُسَ وَلُوطاً وَکُلّاً فَضَّلْنَا عَلَی الْعَالَمِینَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّیَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَیْنَاهُمْ وَهَدَیْنَاهُمْ إِلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیمٍ ذلِکَ هُدَی اللّهِ یَهْدِی بِهِ مَن یَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَکُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَاکانُوا یَعْمَلُونَ أُولئِکَ الَّذِینَ آتَیْنَاهُمُ الْکِتَابَ وَالْحُکْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن یَکْفُرْ بِهَا هؤُلَاءِ فَقَدْ وَکَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَیْسُوا بِهَا بِکَافِرِینَ أُولئِکَ الَّذِینَ هَدَی اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَاأَسْأَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِکْرَی لِلْعَالَمِینَ» «۱»

.وقوله تعـالى «وَإِذِ ابْتَلَی إِبْرَاهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّیَّتِی قَالَ لَا یَنَالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَیْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِیمَ مُصَلًّی وَعَهِدْنَا إِلَی إِبْرَاهِیمَ وَإِسْمَاعِیلَ أَن طَهِّرَا بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَالْعَاکِفِینَ وَالرُّکَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْیَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن کَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِیلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَی عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِیرُ وَإِذْ یَرْفَعُ إِبْرَاهِیمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَیْتِ وَإِسْمَاعِیلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَیْنِ لَکَ وَمِن ذُرِّیَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ وَأَرِنَا مَنَاسِکَنَا وَتُبْ عَلَیْنَا إِنَّکَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِیهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ

آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» «۲»

.وقوله تعالى «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» «۳»

.فإن ما فى سورة الانعام دل على ان ابقاء هذا الاجتباء والحبوة الالهية فى ذرية ابراهيم متصلة حتى النبى الخاتم صلى الله عليه و آله فإن يكفر بها أى بهذه النعم اللدنية الالهية

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۷۹

(الكتاب والحكم والنبوة) فقد وكلنا...

وهكذا فى سورة البقرة أن الامامة متصلة فى ذريته وهى ذرية اسماعيل وكذا ما فى سورة الزخرف فإن كلمة التوحيد ونفى الشرك جعلها اللّه باقية فى عقب ابراهيم متصلة، ومن الواضح أن الباقى على التوحيد ونفى الشرك إنما هو فى عقب اسماعيل، وتدل كل هذه الآيات فى السور على بقاء هذا الأمر والأمور بعد النبى الخاتم فى ذريته التى هى ذرية اسماعيل وابراهيم عليه السلام أيضا.

فيستنتج ان الامامة فى عقب ابراهيم و اسماعيل إلى النبى الخاتم صلى الله عليه و آله ثم فى ذريته.

– قوله تعالى «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا» «۱»

، فهذا التشقيق الثلاثى الذين اتبعوه والنبى والذين آمنوا فهو اولى الناس بابراهيم...

– إن ما ورد فى دعاء اسماعيل عند بناء البيت العتيق واستجابة الدعاء وأن الامامة فى ذريته. وهى الآية المتقدمة فى سورة البقرة.

وعلى كل حال فإن المتتبع لآىالقرآن الكريم يقف على ان المراد من آل ابراهيم فى اصطلاحه هم محمد وآله عليهم الصلاة و السلام.

الطائفة الخامسة: آيات الاصطفاء والطهارة ... ص: ۳۷۹

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ» «۲»

، «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۸۰

تَطْهِيراً» «۱»

.«إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» «۲»

، «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً» «۳»

، «إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» «۴»

.* ونبدأ البحث فى آية سورة الاحزاب وقد وردت الآية فى ضمن سياق آيات تخاطب نساء النبى وقد اشبع علماء الامامية البحث عن ان المراد منهم اصحاب الكساء خاصة لا نساء النبى ولذا نكتفى بما قرروه و نتحدث فى فقه الآية:

– ان فى الآية قصرين احدهما ب (انما) والمقصور عليه اذهاب الرجس عن اهل البيت، والآخر هو تكرار الاسم بعد الضمير فى عليكم وهو دال على القصر والاختصاص أى ان المخاطب هم اهل البيت

– ان الارادة هل هى تشريعية ام تكوينية؟ وهذا أيضا بحثه علماء الامامية واثبتوا ان الارادة تكوينية ونشير إلى نكتتين لذلك:

أحدهما: ان الارادة لو كانت تشريعية وان اللّه يريد تبيين ان الهدف من ارادته– أى من التكاليف– هو تطهير اهل البيت فهو غير مختص بهم عليهم السلام، حيث ان المعنى ان ارادته تعالى متعلقة بصدور الفعل الواجب تشريعا من غيره بارادته واختياره كما فى ارادة اللّه سبحانه وتعالى صدور العبادات والواجبات من عباده باختيارهم وارادتهم لا مجرد حصولها باعضائهم وصدورها بابدانهم،

وحملها هنا عليهم فقط لا خصوصية فيه لان الجميع مخاطبون بـذلك كما فى «فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ.. إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۸۱

لأن التعليل بالاعتزال لا يختص بأهل البيت، بخلاف ما إذا كانت الارادة تكوينية فهى لا تتخلف أى ان المراد يتحقق لا محالة، فيصح التخصيص فى لفظ الآية، هذا مع أن الاغلب فى استعمال الارادة التشريعية مجىء لفظ (أن) التفسيرية متوسطة بين الارادة و متعلقها تدليلا على التكليف.

الثانى: يبقى التساؤل حول التعبير بالمضارع الدال على التدريجية لا الدفعية واذا كانت الارادة كذلك فهذا يدل على ان المراد من الارادة هو التشريعية لا التكوينية إذ ان الارادة التكوينية لا يتخلف عنها المراد فلا مجال للتدريج والاستمرار، مضافا إلى ان أهل البيت استخدمت فى القرآن واريد منها الزوجة كما فى سارة امرأة ابراهيم «رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ».

اما الاخير فجوابه ان سارة هى ابنة عم ابراهيم فهى من اهل بيت الوصاية وهى من اهل البيت من هذه الجهة لا من جهة زوجيتها لابراهيم. مع انه فى هذه الآية أيضا لم يستعمل فى خصوص الزوجة، وكذا فى قوله تعالى حول موسى عليه السلام «وَسَارَ بِأَهْلِهِ» حيث أن الاطلاق عليها وهى حامل مقرب.

وعلى أية حال فاطلاق الاهل على ذى الرحم ودخوله فيه لا ريب، وأما الازواج فعلى فرض الاطلاق فليس اطلاق ذاتى بل معلق على الوصف وهو الزوجية، ويزول بزواله وظاهر الحكم فى الآية أنه بلحاظ الذوات هنا، مضافا إلى ما حرره العديد من الاعلام من ورود الروايات من طريق العامة على قراءة الرسول صلى الله عليه و آله هذه الآية ستة اشهر على باب اصحاب الكساء، أى اختصاصها بهم عليهم السلام، مضافا إلى تغاير الضمير بين آيات سورة الاحزاب المخاطبة لنساء النبى صلى الله عليه و آله بضمير جمع الاناث بينما الضمير فى الآية بلفظ جمع المذكر كما ان لسان تلك الآيات التحذير والوعيد والتشدد بينما لسان هذه الآية المجد والتودد مما يوجب الوثوق بأن هذه الآية أقحمت بين تلك الآيات عند جمع القرآن الكريم.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۸۲

اما الاشكال الاساس فى الارادة فجوابه: أولا: ان الارادة التكوينية على نحوين اما دفعية واما تدريجية كما فى الامطار وارسال الرياح لواقح، وهذه التدريجية لا تقدح فى كونها تكوينية وذلك لان الخاصية الاساس لها هو عدم التخلف وهى متوفرة، وكونها تدريجية لا يقدح فى كون الارادة تكوينية. اما ان التدريجية تقدح فى العصمة فهذا أيضا غير تام وذلك لان العصمة على درجات فالملائكة معصومون ولكن هذا لم يمنع ان يتركوا الاولى، والمسلمون قاطبة يجمعون ان النبى الخاتم صلى الله عليه و آله بالنسبة إلى ربه تعالى هو فى تكامل مستمر ويكتسب الفيض منه تعالى، وان كان بالنسبة لمن دونه لا يصل إليه احد لما له من مقام لا يصل إليه نبى ولاوصى، إذن التدريجية لا تنافى العصمة لان التكامل والسير نحو اللّه مستمر وهم مكلفون بحقيقة التشريع.

وأما الاشكال: بأن الاذهاب من زاوية التدريج لا يستلزم العصمة، لكن من زاوية اثبات الرجس قبل الاذهاب يدل على عدم العصمة.

فجوابه: ان هناك مقطعين فى الآية احدهما يذهب الرجس والاخر يطهركم تطهيرا فلنتأمل فى سر المخالفة بينهما! والسر فى هذه المخالفة انه قد قرر فى علم الفلسفة والعرفان وايده الاخلاق ان هناك مقامان مقام التزكية او التخلية ثم مقام التحلية و التجلية، وذلك لان التحلية بالفضائل لا يكون إلا بعد التخلية عن الرذائل وهذا شرط فى تحقق التحلية وبدونه لا تتحقق، وفى مقامنا نقول ان اذهاب الرجس تخلية والتطهير تحلية ويلاحظ أن التطهير- وإن كان مستمرا- فعلى حيث لا يوجد فيه دلالة على الاستقبال بل انه مؤكد بالمفعول المطلق وهذا يدل على الوقوع الحالى فلا بد من وقوع الاذهاب قبل ذلك، وهذا التطهير غير متناهى.

ثم ان هناك معنى آخر لإذهاب الرجس يجتمع مع ما تقدم من المعنى وهو بمعنى الإبعاد وأن لا يقترب الرجس من الذات والتوقية عن حريم ذواتهم نظير

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۸۳

قوله تعالى «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» «۱»

، أى الصرف فلا يقترب إليه.

والجواب الثانى: يذكر علماء الاخلاق والعرفان ان المرتبة الادنى من العصمة هى عدم الرجس وما فوقها كمالات، كما ان ليس كل عدم يطلق عليه رذيلة، وذلك لأن العدميات تصنف إلى قسمين احدهما ما يكون منشأ للرذيلة والشرور والاخر عدم كمال، والمنطقة الاولى من العصمة سميت بإذهاب الرجس، ومنه يبدأ السير التكاملى.

اما المراد من الطهارة فى الآية:

فهى فى معناها اللغوى مقابل القذارة وقد استعملت فى القرآن فى مصاديق مادية ومعنوية، اما الاولى ففى النقاء من الحيض وموارد الاستنجاء بالماء، اما المعنوية فقد عبر عن الكفر بالرجس فى آيات عديدة «كَذلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ»، وقد اطلق فيها الرجس على احد معانى الشرك أو الالتفات لغير اللَّه.

وللطهارة مراتب ومدارج نستفيدها من نفس القرآن الكريم ففى سورة الدهر «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً» فى الرواية عن الامام الصادق عليه السلام قال: «يطهرهم عن كل شىء سوى اللَّه» «۲»

، فهؤلاء الذين ادخلوا الجنة ونعموا بها يبقى هناك مجال للتطهير مع انهم داخل الجنة ولا يدخلها إلا المؤمنون، ولكن مع ذلك يمكن ان ينظروا بانشداد وجذبة فى هذه الجنة إلى غير الذات الالهية نظرة مستقلة وهذا معنى للشرك دقيق قد لا يلتفت إليه الانسان فى حياته اليومية، وفى بعض الروايات نرى التعبير ان كل شىء شغلك عما سوى اللَّه فهو صنم، وهذا يدلنا على ان الطهارة

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۸۴

لها مدارج عديدة وعجيبة.

* ثم أن هاهنا تحقيق دقّى يزول به اللبس المتوهم فى معنى الإذهاب، وذلك بالامعان فى هذه النكتة العقلية وهى أن الرفع وإن عرف بأنه إزالة ما كان، والدفع ممانعة الشىء عن الحصول منذ البدء إلا انه فى الواقع يرجع الرفع فى حقيقته إلى الدفع لأنه أيضا ممانعة من الوجود غاية الامر بقاءا، إذ أن وجود الشىء حدوثا لا يشفع فى وجوده بقاءا بل هو محتاج إلى سبب ليفيض عليه وجوده أناً فآناً فمن ثم يتضح أن الرفع هو دفع ممانعة عن حصة الوجود اللاحقة لا أن ما هو موجود بالفعل يزال ويعدم فى عين فرض وجوده، فإن ذلك تناقض فإن العدم لا- يصدق على نفس الوجود، فمن ثم يتضح أن الرفع أو الاذهاب فى حقيقته دفع وليس هناك رفع حقيقى، نعم المصحح للتفرقة هو الوجود السابق ثم لحوق العدم أو العدم من الابتداء، ولكن المصحح للتفرقة لا ينحصر بذلك بل يسوغه أيضا وجود القابلية فى المحل، إذ أن الممانعة التى فى الدفع لا تصحح إلا بوجود الاقتضاء القابلى وإلا فلا معنى للممانعة «لولا التقى لكنت أدهى العرب» وهو ممانعة التكليف، فالاذهاب والرفع والدفع يصححه الامكان الذاتى والاقتضاء القابلى، فليس يتوقف الذهاب على الوجود الفعلى كما يتوهم وهذا الذى قررنا باللغة العقلية هو المعنى الثانى للاذهاب الذى اشرنا إليه سالفا بمعنى الصرف والابعاد للرجس عن حريم الذوات المطهرة.

* اما الآية الثانية وهى «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ ء ۷۸ لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ».

لقد تقدم البحث فى شئون الكتاب فى الطوائف السابقة ونشير هنا إلى المراد من المس، وقد ذكر ان المس غير اللمس الحسى بل يقصد به الادراك والعلم به، وعليه يحمل على ان الكتاب مكنون فى العوالم العلوية لا يصل إليه إلا المطهر،

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۸۵

والمطهر بقول مطلق هو الذى عنده علم الكتاب وبهذا يكون التناسب بين هذه الآية وبين الآيات السابقة فى الكتاب.

* آيات الاقتران بين التوبة والطهارة.

وهنا نلاحظ ان منشأ التوبة هو منشأ الطهارة، وبيانها العقلى ان كل أوبة وتوبة هو رجوع وسير إلى اللَّه عز وجل إذ هو انقلاع للنقائص، والبعد عن البارى هو سبب النقائص والقرب منه تعالى هو سبب الكمال.

* آيات الاصطفاء.

وواضح ان المراد منها هو الغربلة والانتقاء ومنها «إِنِّى اصْطَفَيْتُکَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِى» «۱»

، وهو اختصاص بمقام غيبى واصطفاء آل ابراهيم وآل عمران على العالمين واضح فيه انه لمقام فوق مقام بقية العالمين، وفى بعض الآيات «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى» «۲»

، وهذا سلام مخصوص يدل على مقام مخصوص.

الطائفة السادسة: آيات شهادة الاعمال ... ص: ۳۸۵

«وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» «۳»

.«كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاکَ مَا عِلِّيُونَ ء ۱۹ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ء ۲۰ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» «۴»

.وقوله تعالى «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۸۶

فِى إِمَامٍ مُبِينٍ» «۱»

. وهذا المقام هو مقام غيبى حيث فيه شهادة اعمال الأمة.

«لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» «۲»

.الكلام يقع أولا فى الشهادة على الناس فليس المراد شهادة مطلق المسلمين بل المراد ثلة خاصة منهم لقرائن:

- لما ورد فى آية الحج «وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هذَا..» «۳»

والتعبير ب (أبيكم) حيث لا يراد منه مطلق المسلمين.

- إن هذه الامة المسلمة التى دعى لها ابراهيم ربه «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَکَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً» «۴»

، وهذه هى التسمية التى اطلقها ابراهيم عليهم.

- ما ورد فى آيات عديدة من خصائص لذرية ابراهيم من الاصطفاء وان ليس كل الذرية مشمولون بكل دعاء وقوله تعالى «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» «۵»

.- وقوله تعالى «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِکَ عَلَى هؤُلَاءِ شَهِيداً» «۶»

، ومن الواضح ان مقام الشهادة ليس لكل الناس بل لفئة خاصة حيث يكون الرسول شاهدا على جميع الامم الغابرة، وهذا يقتضى نوع خاص من التحمل، خارج اطار الحياة البشرية حيث انها قبل ولادة الرسول وبعد وفاته.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۸۷

- إن سنخ هذه الشهادة التى هى مقرونة برؤية اللَّه تعالى للاعمال تعنى أن التحمل لهذه الشهادة ليس من سنخ الادراک الحسى إذ هو ممتنع فى حقه تعالى لأنه ليس بجسم، وممتنع فى حق رسوله صلى الله عليه و آله والمؤمنون المعنيون فى الآية، بحسب أجسامهم البدنية أن يفرض لها الاحاطة بكل الناس مع ان رؤية الاعمال غير مخصوصة بما إذا كانوا فى النشأة الدنيوية للتأبيد والعموم فى الآية، فيحدس اللبيب بالقواعد العقلية أن نحو الإحاطة بأعمال العباد إحاطة ملكوتية فى طول إحاطة البارى تعالى.

- وقد ورد مثلها فى قوله تعالى «وَكَذلِکَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً» «۱»

، وفى قراءة أهل البيت «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً» حيث فرع غايتين على الوسطية شهادتهم على الاعمال وشهادة الرسول عليهم وهذه الوسطية ليست متوفرة فى جميع افراد الامة، ففيها الطغاة والظالمين فليس كونهم مسلمين هو الذى جعل لهم تلك الوسطية بل أن الوسطية فى الصفات العلمية والعملية والخلقية- بين الافراط والتفريط- على نحو الاطلاق تعنى التوفر على أكمل الصفات وأعلاها وإلا لم يكن وسطا ميزانا شاهدا وهو يعنى العصمة من كل النقائض.

وفى العياشى عن الصادق عليه السلام قال: ظننت ان اللَّه عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين أفترى أن من لا يجوز شهادته فى الدنيا على صاع من تمر يطلب اللَّه شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الامم الماضية، كلا لم يعن اللَّه مثل هذا من خلقه يعنى الامة التى وجبت لها دعوة ابراهيم كنتم خير امة اخرجت للناس وهم الائمة الوسطى وهو خير امة اخرجت للناس «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۸۸

إذن ما نستفيده من الآية ان الرسول له مقام الشهادة على كل الامم والائمة على كل اعمال الناس، وفى قوله تعالى لعيسى بن مريم «مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ» «۱»

، فهو شهيد عليهم فى زمن حياته، بخلاف شهادة النبى صلى الله عليه و آله فهو مقام شهادة يفوق مقام شهادة بقية الانبياء.

كما نستفيد من هذه الطائفة ان الامام هو رائد قافلة الاعمال الذى له وسطية الفيض فى العمل وله احاطة بالعمل، وقد ورد فى كثير من تعاريف الامامة على لسان الائمة بشهادة الاعمال، فقد روى فى بصائر الدرجات بعدة اسانيد معتبرة عن الباقر عليه السلام: أن الامام إذا قام بالامر رفع له فى كل بلد منار ينظر به إلى أعمال العباد، وروى بعدة أسانيد أخرى أنه يجعل له فى كل قرية عمود من نور يرى به ما يعمل أهلها فيها «۲».

الطائفة السابعة: آيات الولاية ... ص: ۳۸۸

وهى الآيات التى تبين مقامات من ولاية النبى صلى الله عليه و آله فى الامة ولسان آخر تبين ان الولاية للنبى وآخرين معينين «أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ»، «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» «۳»

.وهذه الآيات وثيقة الصلة ببحث التوحيد فى الطاعة وهى آيات اغلبها مدنية وقد اشبعنا البحث حولها فى الفصول السابقة، اما هنا فالكلام فى نقاط:

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۸۹

* قوله تعالى «النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» «۱»

.فى هذه الآية يطرح بحث حول حدود ولايته وسلطانه، وكما ذكرنا مرارا ليس الغرض من القرآن التفنن الادبى الصرف والتزويق اللفظى المجرد بل الالفاظ لقولبة المعانى وهندسة القواعد وتحديد الحقائق، وأن انتقاء الالفاظ للدلالة على المعانى المعينة المحددة، وهنا يعبر عز من قائل عن النبى بأنه اولى من النفس فكل ما يثبت انه شأن من شئون النفس فالنبى اولى به وشئون النفس غير منحصرة فى الارادة قال العلامة: «فالمحصل ان ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والكلاءة والمحبة والكرامة واستجابة الدعوة وانفاذ الارادة فالنبى أولى بذلك من نفسه ولو دار الامر بين النبى وبين نفسه فى شىء من ذلك كان جانب النبى ارجح من جانب نفسه.، وكذا النبى اولى بهم فيما يتعلق بالامور الدنيوية أو الدينية كل ذلك لمكان الاطلاق فى الآية» «۲».

وهكذا تظهر الاولوية بنصوصية فى قوله تعالى «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ»»

، وواضح من نزول الآية كون موردها قضية شخصية وهى زواج زينب بنت جحش وهو امر شخصى وهذا يعنى ان ولايته تعم حتى الامور الشخصية

- وهاهنا اشكالات قد تطرح على تعميم الولاية:

۱- و حاصله ان ارادة النبی لو كانت فی الاغراض الشرعية والامور العامة المهمة التی يعتمد عليها مصير الجماعة فيكون هناک وجه لتقديم ولاية النبی صلی الله عليه و آله، اما لو كانت إرادته صادرة عن أمر نفسانی خاص وشوق شخصی فإنه لا يليق بالشريعة

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۹۰

ذلک، وأنه لو كانت الولاية عامة لشملت حتی وطی الزوجة والنظر إلی محارم المؤمنين.

والجواب: أن هذه الأحكام منوطة بعناوين خاصة كالزوجية وعناوين الرحم الخاصة كالابن والاب والعم ونحو ذلک، مضافا إلی عدم كونها أفعالا- منوطة بالرضا والاختيار أی بقدرة وولاية الشخص فلم ينط حلية وطء الزوج للزوجة برضا الزوج ولم يعلق حلية نظر لمحرم للمرأة المحرم برضاه، والولاية خارج هذا الاطار وانما الولاية تشمل المواطن التی تناط بالاختيار والارادة وتكون للمؤمن ولاية علی نفسه، وبتعبير آخر الاشياء الثابتة للمؤمن بما هو مؤمن وليست ثابتة له بعنوان خاص مثل عنوان الولد أو الاب أو الزوج لذا لا تصح المقايسة بين البيع والنظر لان فی الاول منوط بالرضا والاختيار لذا يستطيع المالک ان ينيب غيره عنه بخلاف الوطی فإنه لا يعقل ان ينيب فيه أحد عنه والطلاق كفعل مثل انيط برضا بالزوج بما ان له الولاية وحينئذ يثبت للنبی صلی الله عليه و آله.

۲- ما ذكره البعض ان الآية ليست فی صدد بيان الولاية الخاصة للنبی علی الامة بل فی صدد بيان ولايته علی بيت المال وإمرة المؤمنين بدليل ما ورد فی أدلة الارث من أن النبی ولی من لا- ولی له، وان الامام من ضمن طبقات الميراث وانه إذا لم يوجد من يسدد ديون الميت فالامام هو الذی يقوم بسداده، مع الاستدلال بهذه الآية فی مثل تلک الروايات منها ما روی عن النبی صلی الله عليه و آله أنه كان يقول: «أنا أولی بكل مؤمن من نفسه فأيما رجل مات وترک دينا فإلی، ومن ترک مالا فهو لورثته» «۱»

، وأمثال هذه الروايات العامة التی تثبت ولايته فی الامور السياسية العامة وما يشبه الضمان الاجتماعی فی يومنا هذا.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۹۱

ولكن الحق أن كل هذا لا يدل علی تحديد لولاية النبی صلی الله عليه و آله وذلک لأن الآية ظاهرة فی أن للنبی مقاماً فوق منزلة النفس يجب الانصياع لها فی كل مورد يوجد نفوذ للارادة التی هی فی مجال الولاية، وهذه الروايات فی الارث لا تتنافی مع هذا الذی ذكرناه وذلک لأنها تعلل وتنزل ولاية النبی علی الامة منزلة الوالد علی الولد وهذه الولاية تعنی أنه فی موارد التزاحم تنفذ ولاية الوالد بمناط حرمة العقوق ووجوب الطاعة (وهی لا تعنی أن يجب ان يستأذن من والده فی كل تصرف) وهكذا فی مورد البيع أنيط برضا المالک الشخصی ولم ينط بارادة النبی صلی الله عليه و آله، وكذلک بقية التصرفات الاعتبارية انيطت بالملاک الشخصيين ولم تنط بولاية النبی، نعم فی بعض الموارد إذا أعمل النبی صلی الله عليه و آله ولايته وارادته تكون المفاضلة له وهی النافذة.

هذا فی موارد وجود الارادة النبوية اما فی موارد عدمها فأن صرف الاعتقاد والمحبة هو الذی يكون عليه الفرد المسلم، ويوطن نفسه أنه فی بعض الموارد إذا أراد النبی استعمال ارادته.

۳- أنه لا- يعقل تعميم الولاية للميل الشخصی أی أن النبی صلی الله عليه و آله يعمل ولايته تبعا لرغبات وأمور شخصية، لأنه يكون فيها نوع من الاستبداد الذی ينبذه القرآن والعقل فلا بد من اعتماده ميزانا شرعيا يرجع إليه فی تصرفاته، وهذا يعنی أن ولايته غير مطلقة بل محددة، وشبيه بهذا ما يقال فی الأنفال والأخماس من أنه ليس ملكا شخصيا للامام بل هو للمقام، ويترتب عليه أن الامامة حينئذ لا تكون حيثية تعليلية بل تقييدية، لأنها إذا كانت تعليلية فتكون ملكا شخصيا للامام، وعليه لا يكون المعصوم منطلقا من الميول الشخصية خصوصا فی الأمور العامة ومصالح المسلمين.

والجواب: إن فی هذا الكلام خلط لأنا عندما نتكلم عن اعمال الولاية فی الأمور

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۹۲

العادية والشخصية هل مرادنا هو غرائز المعصوم أم الارادة المعصومة؟ ولاشک أنا نريد الثانی وأصل البحث أن ثبوت هذه الولاية لهم

هو بتعليل عصمتهم، فهم آباء هذا الامة فارادته معصومة عن الزلل والخطأ وغرائز الشهوة وكبرياء الذات، ولا يمكن أن تصدر منه نزوة و لا يكون تصرفه صادر عن جهالة، بل إنا من تصرفه نستكشف الارادة الشرعية لأن ارادته هى ارادة شرعية وإنْ لم نعلم جهتها الشرعية، وخلاصة القول:

إن المعصوم غير خال من الغرائز والشهوات كبقية بنى آدم، لكن الفارق أن مبدأها هو العقل والارادة الالهية التى تجعل كل فعل يقوم به الانسان يكون خالصا لوجهه الكريم ولا يكون مبدؤها الشهوات الطامحة البهيمية التى تأكل الإنسان العادى، بل القوة العاقلة المتصلة بالافق المبين هى التى تسيطر على جميع القوى المادون فتجعلها تسير فى خط مستقيم لا ينحرف عن جادة الصواب والحق.

وهذا يقودنا إلى بحث آخر وهو ان الجنبة البشرية فى النبى والامام هل تعنى الغاء الافعال الغيبية أو ان الجنبة الغيبية للمعصوم تلغى افعاله البشرية؟

وللاجابة عن هذا التساؤل نقول أنه يذكر فى اقسام العبادات: عبادة الاحرار وهو من يعبد اللّه حبا فيه وأنه أهلا للعبادة، وعبادة التجار وهى عبادة من يرغب فى الجنة، وعبادة العبيد وهى من يعبد اللّه خوفا من النار، ومن جانب آخر نرى فى الادعية حرص الائمة على العبادة والدعاء خوفا من ناره وطلبا لجنته، وقد ألفت صدر المتألهين- فى مبحث المعاد من كتاب الاسفار- إلى ان هذا الرجاء والخوف لا ينافى الاكملية، إذ أن تلبية الغرائز الدانية للنفس ليس ينافى الا كملية دوما فليس كل من طلب بعبادته الجنة فهى عبادة التجار بل توجد روايات تشير إلى أن الذى يعبد طلبا للجنة بما هى جنة من دون غاية أخرى فهى عبادة التجار أما إذا أتى بالعبادة طلبا للجنة والنجاة من النار كغاية متوسطة، والغاية النهائية هى اللّه فلا

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۹۳

يكون خلافا للراجح وتكون هى عبادة الاحرار.

وبيان عقلى ان لكل قوة من قوى النفس كمال تسعى إليه وهذه القوى المادون كمالها هو فى النعيم الاخروى والاجر والابتعاد عن النار، فيجعل الانسان سعيه فى الدنيا لغرض تسكين تلك الغرائز فى النشأة الدنيوية كى لا تمانعه من أن يسير فى طريق آخر وهو طريق الحق وسير النفوس فى كمالاتها العالية، فالخوف من النار وطلب الجنة هو غاية متوسطة للقوى النازلة حتى لا تمانع من سير النفوس العالية.

وروى فى الصحيفة السجادية أنه عليه السلام رؤى بعد منتصف ليلة متهيأ بأحسن وأجمل هيئة لى سكك المدينة فسئل: إلى أين؟ فقال عليه السلام: إلى خطبة الحور وقصد بذلك التهجد فى المسجد النبوى، وفى كفاية الاثر فى باب ما جاء عن الصادق عليه السلام فى التنصيص على الائمة عليه السلام فى حديث قال عليه السلام: أن اولى الالباب الذين عملوا بالفكرة حتى ورثوا منه حب اللّه فإن حب اللّه إذا ورثه القلب استضاء به وأسرع إليه اللطف فإذا نزل منزلة اللطف صار من أهل الفوائد فإذا صار من أهل الفوائد تكلم بالحكمة فإذا تكلم بالحكمة صار صاحب فطنة فإذا نزل منزل الفطنة عمل فى القدرة فإذا عمل فى القدرة عرف الاطباق السبعة، فإذا بلغ هذه المنزلة جعل شهوته ومحبته فى خالقه «۱».

۴- أنه ورد فى معتبرة السكونى عن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا حضر سلطان من سلطان اللّه جنازة فهو أحق بالصلاة عليها، وإن قدّمه ولى الميت وإلا فهو غاصب» «۲»

فقد قيد صلاته على الجنازة بإذن ولى الميت، ولم يجعل أولى منه.

والجواب: أن متن الرواية متدافع حيث ان اثبات الاحقية يفيد اولويته على

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۹۴

الكل وعلى ولى الميت، والتقييد بأن قدمه ولى الميت، ينفى الاحقية الخاصة به، إذ أن من يقدمه ولى الميت أحق من غيره سواء كان السلطان أو غيره فلو كان المدار على تقديم من يقدمه ولى الميت فلا اختصاص لها بالسلطان كما ان الاحقية هى لتقديم ولى الميت،

فلو لم يقدمه لما كان أحق، فكيف يجعل الاحقية الخاصة به دون بقية الناس.

فالوجه فى مفاد الرواية هو كون المراد ان سلطان اللّه أحق بالصلاة، وعلى ولى الميت تقديمه على الجميع، وإلا فولى الميت غاصب فى التصرف فيما غيره وهو السلطان أحق منه، ويعضد هذا التفسير لمفاد الرواية، ما رواه الكلينى فى الصحيح عن طلحة بن زيد- وهو وإن كان عاميا بتريا إلا ان الشيخ الطوسى وصف كتابه بأنه معتمد- عن أبى عبد اللّه عليه السلام قال: إذا حضر الامام الجنازة فهو أحق الناس بالصلاة عليها «۱» وقد رواه الشيخ فى التهذيب أيضا، فإن ظاهر اطلاقها الأحقية على الجميع بما فيهم ولى الميت، ويكفى بيانا فى المقام قضية زواج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة، فقد روى فى تفسير البرهان عن الكلينى عن أحمد بن عيسى عن أبى عبد اللّه عليه السلام فى قول اللّه عز وجل «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» قال: أنما يعنى اولى بكم أى أحق بكم وبأموركم وانفسكم وأموالكم وللّه ورسوله والذين آمنوا يعنى عليا واولاده عليهم السلام إلى يوم القيامة.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۹۵

المبحث الرابع: الامامة فى السنة النبوية ... ص: ۳۹۵

اشارة

وجريا على ما اتخذناه من المنهج فإنا لن نتعرض للروايات الخاصة الواردة فى مقامات الائمة عليهم السلام بل سوف ننتقى الروايات التى تواتر نقلها لدى الفريقين والتركيز على الفقه العقلى والذوق المعرفى.

الحديث الأول: حديث الثقلين ... ص: ۳۹۵

اشارة

وهو حديث متواتر ومشهور بين العامة والخاصة ويظهر التسليم على أنه قد ذكره النبى الاكرم صلى الله عليه و آله فى مواطن عدة حتى قال ابن حجر الهيثمى فى صواعقه: ثم اعلم ان لحديث التمسك بذلك طرقا كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابيا، ومر له طرق مبسوطة فى حادى عشر الشبه، وفى بعض تلك الطرق أنه قال ذلك بحجة الوداع بعرفة وفى أخرى أنه قاله بالمدينة فى مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفى أخرى أنه قال ذلك بغدير خم، وفى أخرى أنه قال لما قام خطيبا بعد انصرافه من الطائف، ولا تنافى إذ لا مانع من أنه كرر عليهم ذلك فى تلك المواضع وغيرها اهتماما بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة «۱».

والاستدلال من طرق العامة فى ثبوت هذه الاحاديث له فائدة فى افحام الخصم لأن الحديث كلما كان نقلته غير مؤمنين بما ورد فيه كلما كان ابعد عن الرمى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۳۹۶

بالتدليس والكذب.

والبيان الاجمالى لهذا الحديث هو: ان النبى اشترط للنجاة من الضلال التمسك بالعترة ومن ثم ورد فى كثير من الروايات انهم اعدال الكتاب فلا مجال لمقولة حسبنا كتاب اللّه ولا أن يقال حسبنا الروايات المأثورة، وعلى حسب تعبير العلامة: ان من يقول حسبنا كتاب اللّه فقد خالف الحديث وذلك لأن من فارق التمسك بهما فقد فارقهما لا أنه فارق أحد والتزم بالاخر.

ثم أن مقتضى العِدلية هى اتحاد صفاتهما، فإذا كان الكتاب تبياناً لكل شىء ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ونور وهدى وغير ذلك هو ثبوت الصفات للعِدل الآخر، ومن ثم تسمى كل منهما باسم الآخر، فهم القرآن الناطق، والكتاب امام لمن استهداه

وعمل به.

ومن الغريب بعد ذلك حسر مفاد حديث الثقلين بكون مفاده كالقاعدة الفقهية، وهو كون مصدر التشريع الكتاب والعترة، وحجية اقوالهم، كيف وأن نفى الضلال المشروط بالتمسک بهما ليس مخصوصا بالاعمال الجارحية، بل أن الشطر الاعظم فى جانب الضلال هو فى العقيدة والمعرفة فبالتمسک بهما يتحرز عنه اولا، وعن الضلال فى الفروع ثانيا، كما ان الكتاب الكريم أكثر ما اشتمل عليه هو فى المعتقدات والمعارف، وكذلک مجموعة المنظومة الروائية المأثورة عنهم عليهم السلام، وهل يتم التمسک بالكتاب- مع ذلک- من دون الاعتقاد به انه منزل من البارى تعالى، فكذلک فى التمسک بالعترة لا يتم من دون الاعتقاد بنصبهم من قبله تعالى، مع ان لازم حجية اقوالهم الاخذ بما يدعون إليه من الاعتقاد بامامتهم.

۱- حديث الثقلين فى القرآن الكريم ...: ص: ۳۹۶

ذكرنا سابقا ان هذا الحديث الشريف اكد عليه القرآن فى ضمن مجموعة من الآيات نستعرضها:

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۹۷

۱- قوله تعالى «وَنَزَّلْنا عَلَيْکَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ» «۱»

، وقوله تعالى «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ» وغيرها من الآيات الدالة على ان الكتاب الكريم فيه تبيان لكل شيء ولا يعدوه شيء ثم نربط هذا بقوله تعالى «هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» «۲»

، حيث ان القرآن- الحامل لهذا النعت المادح لنفسه- لابد ان يوجد من يصل إلى هذا البيان العظيم الذى اقتصر على الذين اوتوا العلم وصاروا هم المحيطون به احاطة علمية تامة، فقد جعل اللَّه لهذا القرآن عِدلا مطلعا على أسراره واحاطته، وهؤلاء موجودون ما وجد القرآن، وذلک لأنه لو كان تبيانا ولا يوجد من يصل إلى هذا التبيان لما كان هناک فائدة من هذا الوصف، واللطيف أنه لم يدع احد من المسلمين علم ما فى القرآن إلا هم عليهم السلام.

۲- قوله تعالى «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»، وهى دالة على ان للقرآن مرتبة وجودية تكوينية غيبية لا يصل إليها أحد إلا المطهرون المعصومون، كما نستطيع اقتناص عدة نكات من الآية: آ- أن مس هذا الكتاب المكنون وهو مرتبة للقرآن- قد أشرنا سابقا إلى مؤداها تفصيلا- مختص بالمطهرين مما يدل على ان لهم رقى روحى يجعلهم قادرون على الوصول إلى تلک المرتبة، ب- انهم معصومون، ج- ان المؤهل لنيل هذه المرتبة العلمية العالية بسبب الطهارة والعصمة.

۳- قوله تعالى «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْکَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرَ مُتَشَابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ». ويستفاد منها:

أ- ان الاستفادة المستقلة من الكتاب من دون توسط الراسخون غير ممكن

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۹۸

ويجب الاستهداء بهم فى رفع المتشابه.

ب- كما تدل على أن المحكم أيضا لا سبيل للوصول إليه من دونهم وذلک لأن المحيط بالمحكم يرتفع عنده التشابه حينئذ حيث انها ام الكتاب والامومة هى فى الاحاطة التامة، فهم يهدون إلى القرآن وعليه نستطيع فهم المعية فهما صحيحا فلا مقولة حسبنا كتاب اللَّه تامة ولا مقولة حسبنا الروايات المأثورة تامة بل هما معا.

ج- إن هذه الآية تدل على وجودهم دائما لأن القرآن موجود دائما والمحكم والمتشابه موجودان فيجب أن يكون هناک من يرفع هذا المتشابه خصوصا أن التشابه فى كثير من الاحيان يعود إلى المصداق والتطبيق لا المعنى المراد، و إلى تأويل القرآن تطبيقاته حيث

أن كثير من الاخطاء والانحرافات تنشأ من ارجاع الصغريات أو الكليات العديدة المتوسطة إلى الكليات الفوقانية.

ومن هنا ايضا نفهم كيف يقاتل عليه السلام على التنزيل وعلى التأويل ايضا، ومن هنا نتوجه لمعنى ما روى عنهم عليهم السلام أنهم الكتاب الناطق، وأن بدونهم يعنى تعطيل الكتاب وترك التمسك به، ومن أمثلة رفع التشابه ما ذكره المشايخ الثلاث وابن حمزة والحلبى ان من فوائد وجوده عليه السلام أنه ينبه بوسائط خفية بوسائط غيبية شيعته، ولذا اعتبروا الاجماع حجة من باب اللطف وأن الامام إذا وجد الاتفاق على الخطأ فإنه يتدخل لازالته واحداث الخلاف فيرتفع الاتفاق.

د- ان هذه الطائفة تدلل على وجوب الاتباع فى الجزئيات والكليات المتوسطة، ومن ثم يدل على لزوم الائتمام بهم وهذا هو الهداية الايصالية التى هى حد الامامة، فإذا كان امير المؤمنين عليه السلام قاتل على التأويل فإن بقية الائمة يهدون إلى التأويل، فليس الايمان فقط بالتنزيل بل المهم ايضا الايمان بالتأويل وأنه بيد ثلة خاصة هم اهل البيت عليهم السلام، إذ ما الفائدة فى الايمان بالكليات الفوقانية مع فرض الخطأ فى الكليات المتوسطة بدرجات عديدة و فى الجزئيات والمصاديق.

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۳۹۹

۴- قوله تعالى «مَا فَرَّطْنَا فِی الْکِتَابِ مِن شَیْءٍ» وقوله تعالى «وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْکِتَابِ».

وواضح الارتباط بين الآيتين إذ أن الكتاب الحاوى لكل شىء ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة وان الذى عنده علم الكتاب هم أهل البيت عليهم السلام.

۵- قوله تعالى «کُونُوا مَعَ الصَّادِقِینَ» الدالة على أن الصادقين المأمور بالكون معهم موجودون فى كل زمان ومكان.

۲- أما ما ورد من الالفاظ فى الحديث الشريف ...: ص: ۳۹۹

التعبير ب (الثقل) وهو العيار الذى يوضع ليثبت به الميزان، وقد يعبر به عن الثقل والتثبت وأن حركته تكون مطمئنة فالكتاب والعترة هما اللذان تستقر بهما الحياة المطمئنة الدنيوية، وبارتفاعهما يرتفع الاستقرار، وبهذا المضمون «لولا الحجة لساخت الارض بأهلها».

- (فيكم) مما يدل على التواجد الدائم وأنه امر يتوصل إليه وليس ممتنعا.

- «ما ان تمسكتم بهما» لم يقيد التمسك بمورد معين أو فى مجال ما، بل جعله مطلقا حتى يشمل كل شىء ومطلق الامور وخصوصا أن القرآن جامع لكل العلوم.

- «لن تضلوا أبدا» تأكيد الاطلاق ب (أبدا) يدل على عدم الضلال المطلق وهو يعنى أنه غير مختص بالارائة فقط بل يعمه إلى الهداية الايصالية وهو يدلل على ماهية الامامة التى ذكرناه.

- «لن يفترقا» دليل على العصمة حيث أن العترة مع الكتاب دوما، والكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، وهذا غير مختص بهذه النشأة بل يدل على الاتصال فى جميع مراتبه ومدارجه

- إن المعية بين القرآن والعترة مؤبدة بدليل قوله «حتى يردا على الحوض» وهذا يشمل جميع النشآت التالية للدنيوية والبرزخ والبعث وتطاير الكتب ... والمراد

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۴۰۰

من الحوض هو حوض يوم القيامة وقد يشار به إلى حقائق أخرى، كما يستفاد من الورود على النبى انه صلى الله عليه و آله أعلى مكانة ومنزلة ومقاما من العترة ومن الكتاب إذ انه المرجع والمنتهى، وهو المبدأ «إنى تارك» لحجية الثقلين وهو المنتهى (على الحوض) لهما.

۳- النظريات فی تفسير المعية بين القرآن والعترة ...: ص: ۴۰۰

ثم إن مقتضی المعية الواردة فهی هو التلازم بينهما كما ذكرنا مرارا وهاهنا بحث فی تفسير هذه المعية وقد ظهرت ثلاث نظريات فی بيان العلاقة بينهما:

النظرية الاولی:

حسبنا كتاب اللّه وأنه هاد، ولذلك ورد الأمر فی تمييز الحجة عن اللاحجة من الروايات فی عرضها علی الكتاب الكريم، وهذا مؤيد بأنه المعجزة الخالدة الباقية الذی لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه، ودور اهل البيت هو كونهم مقدمة للقرآن الذی عليه المدار فإذا وصل واصل إلی تلك المفادات بأی طريقة كانت فبها ونعمت فيكون الآل طريق ليس إلا، ويستدل لهذا البيان بقوله تعالی

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ» «۱»

، «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» «۲»

فدوره دور المعلم والدال علی طريق التعليم والأصل هو القرآن، ويعضده ما ورد من تحدی المشركين بأن يؤتوا بمثل هذا القرآن فلو كان مغلقا مقفلا لما كان هناك معنی للتحدی، بل إن حجية قوله صلی الله عليه و آله مستمدة من معجزة القرآن وحجيته.

وفی مقام تقييم هذه النظرية نری ان أدلة النظرية الثانية وان لم تتم منفردة فهی بلا شك تخدش فی تمامية هذه النظرية، ولكن يمكن الاجابة عن هذه النظرية بعدة وجوه:

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۴۰۱

منها: وجود آيات- قد أشرنا إليها وهی التی ذكرنا أنها دالة علی الثقلين ومعيتهما علی الاطلاق وغيرها- وطوائف روايات عدة دالة علی أنهم المخاطبون بالقرآن وهم القادرون علی فهمه وتأويله، والظاهر من عموم الادلة أنه لا يمكن الإستبداد دونهم والانفراد فی فهم القرآن.

منها: أن معجزة الرسالة المحمدية ليس هو القرآن وحده والذی يظهر من النصوص- سواء من حديث الثقلين وغيره- أن مقام النبی الخاتم فوق مقام القرآن، فهو كما ذكرنا المبدأ لهما بمقتضی أنه صلی الله عليه و آله أسند وجود الثقلين فی الامة إلی نفسه الشريفة «إنی تارك» فهو بمنزلة المصدر لاعتبارهما، وهو المنتهی باعتبار «يردا علی الحوض».

بل أحد وجوه حجية القرآن هی صفات الرسول صلی الله عليه و آله «وَإِذَا تُتْلَی عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَايَكُونُ لِی أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِی إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَی إِلَيَّ إِنِّی أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّی عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُل لوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» «۱» «أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ» «۲»

فأمانته وصدقه ووثاقته كانت بدرجة عالية فائقة تضاهی أمانة وصدق ووثوق المعجزة فی الدلالة علی كون القرآن من الباری تعالی، وقد لبث فيهم عمرا لم يأتهم بشیء لأنه لم يأته من تلقاء نفسه، وهذه كلها من الموثقات علی ان القرآن من عند اللّه، والتاريخ ينقل لنا ان الرسول الاكرم صلی الله عليه و آله سأل المشركين: أنه لو اخبرتكم ان العدو وراءكم وراء هذا الجبل أكنتم تصدقونی؟ قالوا: بلی انك الصادق الامين، إذن نفس حجية الكتاب من نفس قطع المشركين بصدقه وامانته، وما رأوا من بقية معجزاته، لكنه العناد

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۴۰۲

والتكبر هو الذی منعهم عن التسليم له.

ومنها: ان الاحتياج إلی الغير فی فهم القرآن لا- يدل علی نقص القرآن الكريم، بل هو أشبه شیء بالوادی العميق الذی يحتاج فی ارتياده إلی رائد يقود المسير والقرآن فيه المحكم والمتشابه والظاهر والباطن، فالنقص فی الواقع هو فی الانسان الذی يقرأ القرآن ويتداوله حيث لا يستطيع أن يصل إلی أعماقه، لا فی القرآن الذی نزل بلسان عربی مبين وعلی الانسان ان يغرف منه ما استطاع طبقا

لما يمتلك من القدرات والامكانيات العلمية.

ومنها: أن الصحيح بعدما تقدم هو تكافل الحجج الالهية فصفات الرسول صلى الله عليه و آله وبقية معجزاته أحد وجوه حجية القرآن و القرآن هو أحد معجزات النبى صلى الله عليه و آله، ومن عنده علم الكتاب، والراسخون فى العلم، والذين اوتوا العلم...

أحد وجوه حجية القرآن، وهم شهداء للرسول صلى الله عليه و آله، فالتكافل والتشاهد بين الحجج برهانا وفى مقام الدلالة الاثباتية كذلك.

وأخيرا: قد ذكرنا بحثا مبسوطا فى الفصل الاول فى جواب منهج العلامة الطباطبائى القائل أنه بممارسة السنة يحصل لنا الدربة فى طريقة تفسير القرآن بالقرآن.

النظرية الثانية:

ومؤداها حسبنا الاحاديث المأثورة عن العترة الطاهرة وقد نادى بها الاخباريون، واستدلوا على ذلك بما ورد بأنهم المخاطبون بالقرآن وأنه لا يحيط بالقرآن إلا أهل البيت، وأن القرآن فيه المحكم والمتشابه وله ظاهر وباطن وفيه العام والخاص والناسخ والمنسوخ، وهذا يعنى عدم امكان التوصل لنا إلى معانيه المرادة الواقعية، وكذلك يستدل بما ورد من النهى عن التفسير بالرأى والذى فسر على أساس النهى عن الاستبداد بالرأى، كما يستدل بالحصر الوارد فى قوله تعالى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۰۳

«والرّاسِخُونَ فِى العِلْمِ» حيث أن فيها حصرا فى عدم العلم بالتأويل إلا لهؤلاء، وهذا يعنى ان المحكم ايضا لا يحيط به كل أحد وذلك لأن للمحكم قيمومة على المتشابه باعتبار أنه أم الكتاب فلو كان غير الراسخين لهم احاطة بالمحكمات فلا يبقى متشابه حينئذ وعليه يبطل الحصر الوارد ان المتشابه لا يعلمه إلا اللّه والراسخون فى العلم.

وما ذكره الاخباريون من مواد الأدلة متين لكن لا ـ يؤدى إلى ما ذكروه، ونفس أدلة النظرية الأولى تبطل أدلتهم، كما أن النصوص القرآنية لا تجعل المدار على أقوال العترة فقط بل تنص على أن للقرآن دورا خصوصا مع روايات العرض على الكتاب، ونفس الآيات التى مفادها حديث الثقلين وكذا نفس الحديث التمسك فيه بهما معا لا بأحدهما هو المدار فى عدم الضلال، بل قد تقدم أن التمسك بأحدهما هو تمسك صورى وإلا ـ فهو فى واقعه عدم تمسك به أيضا لأنهما لا ينفكان عن الآخر فالانفكاك عن احدهما انفكاك عن كل منهما معا.

النظرية الثالثة:

وهى التى نادى بها أغلب علماء الامامية والتى تنص على المعية على نحو المجموعية لا الاستقلال كما أفادته النظريتان السالفتان، وهذه المجموعية هى المدار فى المعرفة الدينية واستنباط الاحكام الشرعية الاصولية والفرعية، فالتعامل يكون معهما كوحدة واحدة.

هذا هو البيان الاجمالى لمفاد النظرية، اما المفاد التفصيلى:

فإن المعية بين الكتاب والسنة على صعيدين أحدهما تكوينى والاخر اعتبارى باعتبار الحجية. أما الصعيد الاول فقد اشرنا فى بحث الآيات إلى طوائف عدة تشير إلى أن للقرآن حقائق تكوينة و مدارج فى عالم التكوين، وأن لأهل البيت حقيقة تكوينية وأن تلك الحقيقتين فى الواقع واحدة.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۰۴

ونشير مجملا ـ إلى ذلك ببيان أن المصداق الحقيقى للكتاب هو الشىء الوجودى الجامع للكلمات الحقيقية فالكتاب له دلالة على شىء جامع لكل شىء وهو شاعر، ومَن تكون له الاحاطة الحضورية بذلك الوجود الجامع، ويكون هناك اتحاد بين العالم والمعلوم والعلم فهذا يعنى أن العلم يكون فصلا نوعيا واحدا، وكذا الفصول النوعية للراسخين فى العلم والذين أوتوا العلم فهى تدل على أن الفصل النوعى كمال جوهره ورقيه بذلك العلم، وهو يدل على الوحدة التكوينية بينهما فهناك معية فى مدارج الوجود.

نعم فى تنزل هـذه الحقائق العلويـة تتنزل بكثرة ويعبر عن ذلك فى بعض الروايات أن الائمـة نور واحـد، وقـد يعبر عنه فى مقام التنزل بالروح الاعظم التى تنتقل من امام إلى امام.

فإذا كان الحال هكـذا فى مدارج التكوين فهو بنفسه فى مدارج الاعتبار، فالوجود الاعتبارى اللفظى المصوت أو للنقوش المرسومة فى الخـط للقرآن فى محـاذاته وجود اعتبـارى للامـام وهو كلامـه، وممـا تقـدم يتضـح أن كلامـهم عليهم السـلام واحـد وإن كـان متفرقا ومجموعه حجـة وإن تعددت رواياته، نعم القرآن له اضافة تشـريفية فى كونه كلام اللّه وكلام العترة هو دونه وانه كلام المخلوق وفى الجهة الحقيقية التكوينية فإنهم كلمات اللّه التكوينية، كما فى التعبير عن عيسى أنه كلمة اللّه وهم حقيقة القران.

ومـن هنـا نفهـم لمـاذا يجـب عرض روايـاتهم على الكتـاب الكريـم بمعنى ان المتشابهـات مـن كـل من الكتـاب والعـترة تعرض على المحكمات منهما جميعا، وما ذلك إلا لأن مصـدر الكلام واحـد، وقريب من هذا التعبير فى عالم الاعتبار والحجية ما يقال إن الكتاب الكريم هو كالمتن، وإن روايات المعصومين هى كالشـرح على المتن وإنهم شارحون لشـريعته صـلى الله عليه و آله وهادين إليها على اساس «إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۰۵

قَوْمٍ هَادٍ».

۴- خلاصة ما يستفاد من الحديث ... ص: ۴۰۵

۱- أن من المسامحـة والبعـد عن الانصاف حصـر مفاد الحديث فى التشـريع والفروع حيث أن التمسك بهما ورد مطلقا من دون تقييد ومقتضى الاطلاق وجوب الاخذ بهما فى الاعتقادات، كما ان مقتضى ذلك هو وجوب الاعتقاد بكل منهما.

۲- دوام وتأبيد بقاء امامتهم وهذا التأبيد شامل لعالم الدنيا والحشر.

۳- أن النبى صلى الله عليه و آله هو المبدأ لحجية الثقلين والمنتهى لهما وأنه أفضل من أهل البيت عليهم السلام.

۴- ان لهم مقام غيبى باعتبارهم عِدلا للقرآن فصـفات القرآن المسـطورة فى الآيات والسور المتكثرة كلها فيهم بمساعدة الآيات الدالة على الحديث.

۵- المعية فى الحجية بين الكتاب والعترة فلا يجوز الاكتفاء بأحدهما دون الاخر.

۶- مفاضـلتهم على بقيـة الانبيـاء حيث أن الكتـاب وصـف بأوصـاف لم يتصف بهـا أى من الكتب السـماوية الـتى نزلت على الانبيـاء، وكونهم عدل الكتاب المتصف بهذه الاوصاف يدل على مدارجهم الروحية واحاطتهم بهذا الكتاب الذى امتاز بهذه المميزات.

الحديث الثانى: «من مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية ...» ص: ۴۰۵

وهذا من الاحاديث التى ثبتت صحتها من كتب العامة والخاصة والكلام فى فقه الحديث.

وللأسف حاول البعض تفسير هذا الحديث سياسيا بمعنى وجوب مبايعة الامام

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۰۶

ولو كان فاسقا ولا يجوز ان تكون رقبة وذمة المكلف خالية من البيعة، وقد وجدناامثال هؤلاء فى العصر المتقدم كعبد اللّه بن عمر مع الحجاج عندما ذهب إليه ليبايعه مستدلا بهذا الحديث، وسوف نتناول الحديث فى نقاط عدة:

* إن أول أمر يواجهنا فى هـذا الحديث هو الأثر المترتب على عدم المعرفة لا عدم البيعة، وهو أن تكون النتيجة كميتة الجاهلية أى أن هذا الانسان مدرج فى الذى لم يشم رائحة الاسلام فى الآخرة أى بحسب الواقع، ويكأن الرواية الشريفة تعطى مفاد الآية «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

لَكَمْ دِينَكَمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكَمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكَمُ الإِسْلَامَ دِيناً» فرضيت كانت متوقفة على الامامة التى بلّغها الرسول فى هذا اليوم وبها يتم الدين والاسلام كمجموع متكامل وكل شىء مرهون به، وقبله لم يكن رضا، ولذلك قال عز من قائل «وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» وهذه كلها تؤكد المضمون الذى يورده هذا الحديث من أن معرفة والاعتقاد بالامامة دخيل فى أصل الدين والتدين بالاسلام بحسب الواقع والآخرة.

* نعود إلى الشرط المذكور فى الرواية حيث أنه مطلق غير مقيد بشىء بل هو المعرفة المطلقة مما يدلل على أن المطلوب العمدة هو أمر اعتقادى، فليس المطلوب الاهم المتابعة فى الفروع ولا المتابعة السياسية بل المتابعة الاعتقادية والمعرفة والتدين والائتمام، وهل يعقل ترتب مثل هذه النتيجة وهى الموت ميتة الجاهلية على مجرد عدم المتابعة فى الفروع، بل الأمر أهم وأكبر وهو محور اعتقادى المعرفة والاعتقاد، ولو فرض المتابعة السياسية المصطلح عليه بالولاء السياسى والمتابعة فى الفروع والاخذ من الامام المنصوب أحكام الفروع من دون المتابعة الاعتقادية المصطلح عليه بالولاء الاعتقادى المعرفى لما تحقق أصل التدين بالاسلام بحسب عالم الآخرة والواقع.

* إن الرواية مطلقة من حيث الزمان والمكان فهذا اللسان عام وشامل لكل

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۰۷

الافراد فى جميع الازمنة، مما يدلل على عموم وجود الامام وانه موجود حتى قيام الساعة وهذا يؤيد مدعى الامامية من تأبيد وجود الامام.

* إن الرواية تدلل على وجود واجب شرعى فى قسم من الأصول الدينية على الفرد المسلم وهو السعى إلى معرفة الامام فى كل فترة من فترات حياته فهذه وظيفته التى أوكلها إليه الحق سبحانه ويقع على عاتقه تشخيص الامام، وإن هذا الواجب جانحى، وإن هذا الامام تناط به النجاة من النار.

* ثم أن هذا الوجوب الاعتقادى- من قسم الاصول الدينية- دال على كون المعتقد من الامامة ليس من سنخ حسى مشهود بالآلات الحسية، بل متعلق المعرفة ومتعلق الاعتقاد هو من السنخ الغيبى فمثلا نبوة النبى ليست امرا حسيا بل شيئا وراء الحس ومن قبيل نشأة الروح، وإن كان لها آثار فى عالم الدنيا والحس دالة عليها برهانا، وإلا فمثل السماء والارض والشمس والقمر والنجوم والجبال ونحوها من الحسيات ليست تتعلق بها المعرفة الدينية، فالمعرفة الحسية والشهود المادية ليس من متعلقات الايمان والمعرفة الدينية، فالايمان ركن متعلقه لا بد أن يكون غيبيا من نشآت أخرى وأن كانت تلك النشآت مهيمنة محيطة على الحس، يقصر الحس عن مدرج ظهورها فتكون غيبا عنه، فظهورها الشديد عين غيبها عن الحس.

* وقد ينقض على هذا اللسان ما ورد من ان من استطاع الحج ولم يحج او سوّف فى ذلك ثم مات بعثه اللّه يهوديا أو نصرانيا، ولكن التأمل فى هذا المفاد يبين الفرق بين ان يبعث يهوديا وان يبعث كافرا جاهليا فإن الثانى هو من لم يدخل فى الدين السماوى من الاساس أما الأول فهو المعتنق للديانة الالهية إلا انه بعّض فى التدين وآمن ببعض وكفر ببعض، فقد تكرر فى أحاديث كثيرة ان تكون هناك درجة معينة من العذاب فى النار مترتبة على ارتكاب بعض الكبائر، ولكنه بخلاف

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۰۸

ما نحن فيه من ان المنكر وغير العارف لإمام زمانه يخلد فى النار ويموت ميتة الجاهلية، وهو إنما يتفق مع كون الواجب الاعتقادى من اصول الديانة.

الحديث الثالث: فى تبليغ سورة براءة ... ص: ۴۰۸

اشارة

وقد ورد الحديث بألسنة متعددة منها: ان جبرائيل نزل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال: يا محمد لا يؤدى عنك إلا رجل منك، ومنها: لا يبلغ عنك إلا على، ومنها:

لا يؤدى عنى إلى أنا أو رجل منى.

ولا خلاف فى نزول هذا الحديث فى امير المؤمنين عليه السلام، ولكن الكلام فى مدلول هذا الحديث الشريف الذى ينطوى على دلالات مهمة تفوق مسألة التبليغ لسورة براءة كما يحاول كثير من العامة تصويرها على أساس أن من عادات العرب ان لا ينقض العهد إلا عاقده أو رجل من أهل بيته ومراعاة هذه العادة الجارية هى التى دعت النبى صلى الله عليه و آله أن يأخذ سورة براءة- وفيها نقض ما للمشركين من عهد- من ابى بكر ويسلمها إلى على ليستحفظ بذلك السنة العربية فيؤديها عنه بعض اهل بيته ويزعمون أن ابا بكر لم ينفصل من امارة الحاج.

وواضح أن هذا التأويل من العامة لا أساس له.

أما أولا: فأى شهادة من التاريخ أن من عادة العرب ذلك بل من عاداتهم أنهم يبعثون فى اجراء العهد أو حله علية القوم ومن يطمئنون به، وأى مدرك فى سير ووقائع العرب دال على أنه يجب أن يكون من عشيرة القوم، فهذه قريش فى صلح الحديبية بعثت مسعود الثقفى وهو ليس من قريش لإبرام العهد مع النبى صلى الله عليه و آله والواقعة فى تبليغ سورة براءة ليست قبلية وعائلية وشخصية بل أمر الهى لا يتحمله إلا من هو أهل له.

وثانيا: إن كتب السير والتاريخ مختلفة فى كون أمارة الحاج بيد أبى بكر فى ذلك

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۰۹

العام، مضافا إلى أن أبا بكر لم يكن هو الأمير إلى الابد بل تولى الامارة غيره أيضا.

وثالثا: ما ذكره العلامة الطباطبائى: من أن البحث ليس فى أفضلية مَن على مَن، بل الكلام فى ما يمكن فهمه من الحديث، و «وليت شعرى من اين تسلموا ان هذه الجملة التى نزل بها جبرائيل: «انه لا يؤدى عنك إلا انت او رجل منك» مقيدة بنقض العهد لا تدل على ازيد من ذلك ولا دليل عليه من نقل او عقل فالجملة ظاهرة أتم ظهور فى أن ما كان على رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يؤديه لا يجوز ان يؤديه إلا هو أو رجل منه سواء كان نقض عهد من جانب اللّه كما فى مورد سورة براءة او حكما آخر إلهيا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله ان يؤديه ويبلغه»، ثم أن هذا التبليغ يتميز أنه التبليغ الأول عن السماء حيث ان الحكم لم يعلن بعد على مسامع المسلمين وغيرهم بل اختص به النبى صلى الله عليه و آله، ومن هنا ورد فى الرواية أن الكتاب كان لدى ابى بكر مغلق لا يعلم ما فيه وعندما اتى الامام اخذه منه.

وهذا يغاير ابلاغ بقية الاحكام بتوسط من سمعها إلى من لم يسمعها التى كان النبى قد أعلن عنها فى ملأ المسلمين فى مناسبات عدة، فمقام تبليغ سورة براءة هو مقام الناطق الرسمى عن السماء وهذا لا يعنى الشركة فى النبوة مع النبى الخاتم صلى الله عليه و آله و سلم لأن الوارد هو لا يؤدى عنك إلا انت أو رجل منك وليس الوارد لا يؤدى إلا انت أو رجل منك، وواضح الفرق بين المعنيين بأدنى تأمل.

وبتعبير آخر: أن الذى له أهلية التبليغ عن الغيب يجب أن يكون له ارتباط بالغيب، فلا يبلغ عن تلقيك النبوى إلا لسانك النازل وبفيك أو فاه آخر لكنه من سنخك الذى يسمع صوت الوحى ويرى نوره ويشمه، ويسمع رنة ابليس، كما تقدم فى الخطبة القاصعة.

وهذا يفتح الباب لفقه حديث المنزلة (أشركه فى أمرى) وأن هارون كموسى نبى، وحيث يضفى النبى على علىّ تلك المنزلة إلا النبوة أى الانباء فبقية الصفات

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۱۰

تكون ثابتة للامام بمقتضى حديث المنزلة، كما يتضح معنى الحديث «يا على انا وانت ابوا هذه الامة» والظاهر أن هذا المقام من مختصات على أمير المؤمنين، وهكذا نفهم المؤاخاة بينهما فى المدينة ليست اعتبارية بل تكوينية حقيقية.

فالمدلول الذى نستفيده من الحديث أنه يشير إلى مقام للامام عليه السلام وأن مقام تأدية الاحكام الالهية لا يكون إلا للنبى أو من يؤديه عنه وهو منه، ونستفيد منه أن ما يبلغه الامام وبقية الائمة لا ـ ينحصر فيما بلغه النبى بل حتى الموارد التى لم يبلغها للامة فهم يبلغونها عنه، وتشمل الأخذ عن مقامه النورى بعد مماته كما هو الحال فى مصحف فاطمة عليها السلام، لأن عنعنتهم عن النبى ليست روائية حسية سماعية كما هو المتعارف فى نقلة الحديث خاضعة لشرائط الحس والمشاهدة، بل هى عنعنة نورية.

وقد روى الصدوق فى العيون «ان المأمون سأل الرضا عليه السلام: ما وجه إخباركم بما يكون؟ قال: ذلك بعهد معهود إلينا من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: فما وجه إخباركم بما فى قلوب الناس؟ قال عليه السلام: اما بلغك قول الرسول صلى الله عليه و آله اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور اللَّه، قال:

بلى، قال: وما من مؤمن إلا ـ وله فراسة ينظر بنور اللَّه على قدر ايمانه ومبلغ استبصاره وعلمه وقد جمع اللَّه فى الائمة منّا ما فرقه فى جميع المؤمنين، وقال اللَّه عز وجل فى محكم كتابه «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ» فأول المتوسمين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ثم امير المؤمنين عليه السلام من بعده، ثم الحسن والحسين والائمة من ولد الحسين عليهم السلام إلى يوم القيامة، قال: فنظر المأمون فقال له: يا أبا الحسن زدنا مما جعل اللَّه لكم أهل البيت، فقال الرضا عليه السلام: إن اللَّه عز وجل قد ايدنا بروح منه مقدسة مطهرة ليست بملك ولم تكن مع أحد ممن مضى إلا مع رسول اللَّه وهى مع الائمة منا تسددهم وتوفقهم وهو عمود من نور

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۴۱۱

بيننا وبين اللَّه عز وجل» «۱»

.ومن هنا يجب ان نهتم كثيرا بإزالة هذا الالتباس عن أذهان الجميع من ان روايتهم ليست رواية بالموازين العادية أوان حجية اقوالهم بما أنهم رواة.

ونتجاوز اطار اللفظ إلى عمق المعنى لنقول إن هذا الحديث يدلنا على حجية الزهراء البتول عليها السلام وذلك من جهة ان المناط فى حجية المؤدى عن النبى صلى الله عليه و آله هو الوصف المتعقب للرجل وهو (منك) وهذا الوصف يدل على عدم خصوصية الرجل بل الوصف هو المهم وقد ورد فى الحديث انها منه صلى الله عليه و آله، فما تؤديه عن النبى لا ينبغى التشكيك فيه، ومن هنا كان مصحف فاطمة مصدر لعلوم الائمة عليهم السلام.

اشكال ودفع ...: ص: ۴۱۱

قد يقال ان رواة الحديث الذين ينقلون الحديث عن المعصومين لهم هذا المقام، حيث يسأل الامام حول مسألة معينة ولم يكن الامام قد أظهر الحكم فيها قبل ذلك، ويكون دور الراوى نشر هذا الحكم بين أهل مدينته أو قبيلته وما شابه ذلك؟

والجواب عن هذا الاشكال: أن الحديث يتحدث عن مقام خاص اختص به الامير عليه السلام، وليس الحديث عن مسألة شرعية سألها أحد المسلمين بتلقيه حسا عن حس المعصوم، وهذا المقام هو مقام التلقى النبوى الذى حازه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ولو كان هذا التلقى عن الوجود النازل لمقام النبوة لما قيل فى الحديث القدسى لا يؤدى عنك إلا أنت أو ... فتأدية النبى صلى الله عليه و آله عن نفسه، ليست بمعنى تأدية حسه الشريف عن حسه بل هو نحو من التجريد وتأدية المراتب النازلة من وجوده

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۴۱۲

الشريف عن المراتب العالية من روحه المقدسة، وعن مقام التلقى للوحى فى درجة وجوده، فالذى يبلغ عن ذلك المقام من روحه

وجوده النازل أو رجل منه يتلقى عن ذلك المقام، فعلى عليه السلام يتلقى من المقام الروحى النورى النبوى كما تتلقى القوى الادراكية النازلة فى نفس النبى صلى الله عليه و آله عن المقام الباطن لروحه الشريفة، ومن ذلك يتضح أن عليا فى حين أخوته للنبى صلى الله عليه و آله إلا ان النبى صلى الله عليه و آله يمتاز عليه وعلى بقية الائمة عليه السلام انهم يتلقون مما قد تلقاه المقام الروحى النورى النبوى أى فى طوله متأخرا عنه.

فالتصريح بأنه لاـ يؤدى عنك أى عن هذا المقام الذى انت فيه إلا انت او رجل منك، والترديد هو لإفادة كونكما فى نفس هذه المرتبة الصالحة للتأدية عن مقامك النورى.

وجواب ثالث: أن المعصوم فى السؤال والجواب العاديين لاـ يكون غرضه تخصيص السائل دون غيره بالحكم بل أى شخص أتى وسأله هذا السؤال لكان أجابه بنفس الحكم لأنه أدى إليه الحكم عبر قناة الحس إلى حسه، فليس المقام مقام تبليغ حكم عن السماء وكون المبلغ هو الناطق الرسمى، بل من باب الاتفاق اختص هذا السائل بهذا الحكم، ثم إن الحصر الوارد فى هذا الحديث القدسى عن رب العزة بالحصر فى التأدية بهذين دليل على ان هذا لا يشمل مقام الرواية.

الحديث الرابع: «ان اللّه يرضى لرضا فاطمة ...» ص: ۴۱۲

إن هذا الحديث من الاحاديث المهمة التى نستفيد منها عصمة الزهراء البتول، وليست المسألة هى مداراة من العلى القدير لنبيه الاكرم فى تبجيل ابنته التى يحبها، بل هو مقام حباها اللّه به، حيث تكون هى ممثلة لرضا اللّه جل وعلى ويكون رضاه برضاها، وهذا يعنى أنها لا تفعل المعصية لأنها ممثلة لرضا الرب وغضبه.

وقد ذكرنا سابقا فى بحث المراتب الوجودية للانسان وتنزل العلوم ان للانسان مراتب ثلاث هى مرتبة العلم الحضورى ومرتبة العلوم الحصولية ومرتبة القوى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۱۳

العملية التى هى دون المرتبتين، وسلامة الافعال تتوقف على مدى المطابقة بين هذه المدارج الثلاث حيث تتنزل الارادات الالهية من دون عوائق، ولا تكون هناك مشاكسات من القوى المادون وذلك إذا ما ابتلى بالامراض والوساوس والبلادة والحدة أو سلطنة الغرائز النازلة.. وقد استعرضنا ذلك بنحو التفصيل وشواهده من الآيات القرآنية.

وبناء على هذا فعندما يقال ان الرضا الالهى هو برضا أحد عباده فهذا يعنى أن هذا العبد هو ممثل للمشيئة الالهية ويكون كل حركاته وسكناته لاـ تتخلف عن المشيئة الالهية، وهذا يعنى ان تكون القنوات التى تسير فيها علوم الانسان وهى ما تقدم ذكره غير مبتلاة بأمراض ادراكية ولا عملية، ولا يكون هناك عائق أمامها فتتنزل صافية من دون كدر، وهذا ليس تأليها بل هو استقامة فى مدارج الوجود فيخرج العمل مظهرا للارادة الالهية، وعلى هذا البيان لا تنحصر عصمة فى الموضوعات الكلية بل تشمل الجزئيات الخارجية ولا يشذ عنها مورد، وقريب من هذا المعنى الحديث الذى ينص على ان عليا مع الحق والحق مع على، إذ لا يمكن أن تكون هناك موائمة بينه وبين الحق إلا إذا افترضنا ان هناك عصمة علمية عملية تجعل كل تصرفاته نابعة عن العلم الحضورى وأن اراداته تمثل الارادة الالهية.

ومنه نستطيع الربط مع الاحاديث التى تبين كيفية تلقى الامام عليه السلام عن النبى الاكرم صلى الله عليه و آله حيث لا يكون التلقى من الوجود البشرى للنبى صلى الله عليه و آله، بل هو تلقى عن مقام النورية للنبى وخصوصا فى مثل الحديث القائل «علمنى رسول اللّه الف باب من العلم ينفتح من كل باب الف باب»، حيث لا يوجد تفسير لها على نحو العلوم الحصولية، بل هى الوراثة النورية التى ورثها النبى صلى الله عليه و آله للائمة الاطهار، وعليه يكون أداء الائمة عن النبى ليس عن مرتبته الوجود الحسى له، بل عن المرتبة النورية.

وقد اورد على هذا التقريب لفقه الحديث عدة نقوض حاصلها: انه قد ورد فى الاحاديث والآيات القرآنية تصريح برضا اللَّه تعالى عن بعض المؤمنين، مثل «قَالَ

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۱۴

اللّهُ هـذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِىَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» «۱»

، وورد فى موارد اربعة قوله تعالى «رَضِىَ اللّهُ عَنْهُمْ» الفتح ۱۸، المجادلة ۲۲، البينة ۸، التوبة ۱۰۰، ما ورد فى الحديث الشريف «رضى اللَّه عن عمار»، وان ابا ذر لا يكذب قط.

وهناك جواب تفسيرى عن هذه الاحاديث ينفع جوابا كليا عن هذه الموارد نذكره: وهو ان العصمة على درجات وليس كلها من نحو واحد، فإن منها العلمية ومنها العملية ومنها الذاتية ومنها الافعالية أى فى مقام الفعل دون الذات، وكل منها فيه شدة وضعف، وقد مر بعض الحديث عن ذلك فى آية استخلاف آدم والفرق بين عصمته وعصمة الملائكة، كذلك هناك مقامات تتلو آدنى مراتب العصمة كمقام الحكمة الذى من أوتيه أوتى خيرا كثيرا كما وردت الاشارة إليه فى الآيات، وكمقام الصديقين ومقام أهل الفوائد ومنهم من يعطى علم البلايا والمنايا وغير ذلك من المقامات.

ويشير إلى تلك المقامات حديث الامام الصادق عليه السلام الذى رواه الخزاز القمى فى كفاية الاثر: ۲۵۳، وهى مقامات من سنخ غيبى وهبية ملكوتية بحسب تولى الشخص وتسليمه لأوامر اللَّه تعالى ونواهيه الالزامية والندبية وطوعانيته لاراداته.

فلا يقال بامتناع انوجادها فى من يتلو المعصومين من المؤمنين المتمسكين بحبل اللَّه كالاوتاد والابدال الذين اخلصوا فى طاعة اللَّه، مثل لقمان الذى لم يكن نبيا ومع ذلك اوتى الحكمة وهى نحو يتلو العصمة العلمية، وكما فى ذى القرنين الذى ورد عن امير المؤمنين عليه السلام أنه رجل أحب اللَّه فأحبه اللَّه وآتاه ما تذكره سورة الكهف، و مثل زينب عندما قال لها الامام زين العابدين يا عمة انك عالمة غير معلمة، وفى السيد محمد ابن الامام الهادى عليه السلام وابى الفضل العباس وغيرهم من ابناء الائمة وهكذا عمار وابو ذر، مضافا إلى انهم ممن ائتم بإمامة أهل

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۱۵

البيت عليهم السلام وآمن بالمقام الغيبى للائمة ويتولون أهل الكساء وممن يتشفع بهم، وهذا المقدار لا يجعل مقامهم مقام الائمة.

وقد ذكرنا فى علم الكلام وعلوم المعارف أن الصفات الكمالية وإن كانت مشتركة بين الخالق وعبده ولكنها ليست بمرتبة واحدة كالصدق فقوله تعالى «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلًا» و النبى الاكرم صلى الله عليه و آله هو الصادق الامين أيضا، لكن اتصاف الحق تعالى بهذه الصفة فى مرتبة واجب الوجود- لا متناهية- غير مرتبة اتصاف الرسول الاكرم بها، وهذا التفاوت فى الدرجات حاصل أيضا بين المعصوم وغيره اذ ان رضا اللَّه لرضا المعصوم غير رضاه على عمار او ابى ذر لأنهم آمنوا بالمعصوم واعتقدوا به فهم فى مرتبة تلى المعصوم، وروايات كثيرة تشير إلى الاوتاد وان وجودهم هو حفظ لمدنهم او لمن يحيط بهم، كالذى ورد عن الرضا عليه السلام فى زكريا بن آدم «۱» والذى ورد فى سلمان وأبى ذر والمقداد وعمار «۲»، كما تشير المصادر ان عمار انما وصف بهذا الوصف فى سياق نصرته وولائه لعلى عليه السلام «۳».

اما الجواب التفصيلى:

۱- اما آية المجادلة «لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِروحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»، وهذه الآية لا ينقض بها على ما تقدم وذلك لأن الرضا الالهى مترتب على الاتصاف بهذه الاوصاف الخاصة وهى الايمان باللَّه واليوم الآخر و عدم موادة من حاد اللَّه

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۱۶

ورسوله، كتب الايمان فى قلوبهم، التأييد بروح منه و الاتصاف بها مورد رضا اللّه وهو يختلف عما نحن فيه حيث ان الرضا مترتب على ذات فاطمة من دون تقييدها بوصف معين ولا- زمان ولا- مكان معين بل هو عام شامل ومطلق، اما ما ورد فى الآية فهو رضا للوصف لا لذات هؤلاء بما هى هى.

۲- وقريب منه ما فى سورة البينة حيث أن الرضا هو للوصف ويزاد عليه ما ختمت به الآية من ان «ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» أى مقيد بالخشيه منه تعالى وإلا ينتفى عنه الرضا، مضافا إلى ان المفسرين ينصون على انها نزلت فى على عليه السلام، وقد ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى ذيل آية خير البرية من السورة.

۳- آية الفتح: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» وهذه الآية الشريفة تؤكد نفس المدلول من ان الرضا هنا بالوصف وهو الايمان لا انه مطلق وذلك مع ان مطلق المسلمين قد بايع لكن الرضا لم يكن عن الكل، ويؤيد ذلك «إذ التعليلية حيث أن الرضا نتيجة الفعل الصالح وهو المبايعة تحت الشجرة وليس رضا بالذات، ثم إن تمامية المبايعة والحصول على الرضا الالهى مناط بالموافاة والبقاء على العهد حتى الموت، وهكذا آية المائدة التى ذكر فيها الرضا مقيدا بالوصف وهو الصدق مع شرط الموافاة.

۴- أما آية التوبة «وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» فالجواب عن النقض بها مضافا إلى الاجوبة السابقة..

أ- ورد فى الحديث فى ذيل الآية انهم هم النقباء وابوذر والمقداد وسلمان وعمار ومن آمن وثبت على ولاية امير المؤمنين عليه السلام «۱». ويشهد لذلك و لعدم إرادة العموم أن سورة التوبة تقسم من صحب النبى صلى الله عليه و آله من المكيين والمدنيين إلى اقسام

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۱۷

عديدة كالذين فى قلوبهم مرض، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق، الذين يلمزون المطوعين، المخلّفون، الذين يؤذون النبى، المنافقون وغيرهم.

ب- إنه ليس فيها تعميم لكل المهاجرين والانصار بل خصوص السابقين، بل خصوص الأولين من السابقين، بل خصوص الاولين من السابقين.

ج- إن اصطلاح السابقون تشرحه الآيات القرآنية «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» ومن هم المقربون «كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» فهم شهداء الأعمال الذين لا يكونوا بشرا عاديين إذ لا يمكن أن يشهد الأعمال إلا البشر الذين يكون لهم نفوس خاصة هى عِدل النبوة، كما تقدم مفصلا.

د- إن الآيات فى سورة المدثر تشير إلى أن بعض من أسلم أول البعثة من المنافقين من الذين فى قلوبهم مرض أى أن اسلامهم لم يكن عن ايمان فلا يمكن أن يراد منها السابقون من المهاجرين والانصار على العموم، وكذاما فى سورة العنكبوت المكية الآية ۱- ۱۳ وسورة النحل المكية: ۱۰۷- ۱۱۰.

ه- ورد فى الرواية ان المقصود من السابقين على عليه السلام ومن الانصار الحسن والحسين، والذين اتبعوهم باحسان هم الائمة الذين لم يدركوا النبى صلى الله عليه و آله، ويشهد لذلك ما تقدم من إرادة شهداء الاعمال من السابقين الاولين.

و- ان (من المهاجرين) ليس متعلقا و لا معمولا للسابق بل للفاعل المضمر فيه إذ لا تصلح (من) التبعيضية للتعلق لمادة السبق، ولو أريد ذلك لأتى بلفظ (فى الهجرة) ونحوه، وهذا يعنى أن (السابقون) وصف مستقل و (المهاجرين) وصف مستقل آخر لهؤلاء الاشخاص، لا أن المراد السابقون هجرة كما يريد البعض تصويرها.

ز- أنه ورد فى العديد من السور تأنيب الصحابة الذين خالفوا أوامر الرسول، ونجد ذلك فى سورة الانفال وهى من أوائل السور

المدنية وتتعرض لغزوة بدر، وتقسم مَن شهد بدرا إلى صالح وبعضهم طالح، وكذا سورة آل عمران تتعرض لمَن شهد أحدا وتقسمهم إلى ثلاث فئات واحدة صالحة مخلصة واثنتين

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۱۸

طالحتين، فلاحظ سياق مجموع الآيات فى السورتين، وكذا سورة الاحزاب فى مَن شهد الخندق وسورة محمد، وفى سورة التوبة نفسها وهى آخر ما نزل فى المدينة تقسيم مَن صحب النبى صلى الله عليه و آله من المكيين والمدنيين إلى فئات عديدة كما تقدم وتشير إلى فرار المسلمين فى حنين إمام الزحف إلا ثلة من بنى هاشم

ومن هنا لا نستطيع القول ان الآية شاملة لكل من أسلم مع الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله.

وهناك نكتة تشير إليها الآية وهى أن التابع موصوف بالمحسن فكيف بالسابق إذ مقام الاحسان ليس من المقامات العادية حيث ورد فى القرآن «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيما طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» «۱»

، فهو مقام بعد الايمان والعمل الصالح والتقوى بدرجات من المنازل العلوية، ثم المذكور فى هذه الآية هو التابعين المقيدين بقيد الاحسان، وهذا لا يكون إلا فى المعصومين الذين لم يشهدوا الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله.

وورد فى رواية أن عليا عليه السلام قرأ هذه الآية فى زمن عثمان وقرأ بعدها آية السابقون السابقون وقال: من يشهد أنها نزلت فيمن؟ فشهد عدة من الصحابة أنها نزلت فى الانبياء والاوصياء وفى على، وكذا ينفى العموم ما ورد فى مسلم (كتاب الفضائل- باب حوض النبى صلى الله عليه و آله) والبخارى (كتاب الفتن) مِن عرض الصحابة على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عند الحوض، إلاـ أن جماعات منهم يحال بينهم وبين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ويذادون عن الحوض فيقول: اصحابى اصحابى، فيقال: لقد أحدثوا أو بدلوا بعدك، فيقول: بُعدا بُعدا «على اختلاف فى الفاظ الحديث، وهى تؤكد ان الصحبة ليست هى الموجبة للنجاة بل الموافاة على منهاج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتى الممات هو المناط فى النجاة.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۱۹

الحديث الخامس ...: ص: ۴۱۹

«على منى وانا من على»، هذا الحديث الشريف الذى تواتر نقله فى كتب العامة والخاصة، دال بلا ريب على النشوية وهى ليست البدنية فقط بل هى وحدة بلحاظ الروح و النورية، وفى بعض الروايات قال جبرائيل وأنا منكما، وهذا يدل على ان الوحدة من سنخ الملك الغيبى العلوى اللطيف، وقريب من هذا المعنى ما ورد من «الناس معادن شتى واشجار شتى وانا وعلى من شجرة واحدة»، وبنفس البيان حديث النور الوارد كنت انا وعليا نورا بين يدى اللَّه..

الحديث السادس: قاتلت على التأويل كما قاتلت على التنزيل ... ص: ۴۱۹

والتنزيل هو تلقى المقامات الكلية لحقيقة القرآن الكريم، والتأويل هو تطبيق تلك المقامات الكلية على الموارد الدرجات المتوسطة و الجزئية العديدة، ولاـ يمكن لشخص أن يحيط بكل تأويل القرآن إلا أن يكون قد أحاط بمراتب القرآن وأن تكون قواه خالية من الزلل والزيغ ومنه يعلم أن النبوة فى التنزيل والامامة فى التأويل فهى تلو النبوة الخاتمة ومشتقة منها ومترتبة عليها، وفى كثير من الاحاديث نرى ان النبى صلى الله عليه و آله يقرن بين النبوة والامامة المتمثلة بشخص النبى الاـكرم صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام، مع بيان الفاصل بين الشأن النبوى والشأن الولوى.

تذییل ...: ص: ۴۱۹

بعد هذا الاستعراض لفقه الروایات الواردة فی الامامة نحاول ان نذکر عدد من التوصیات التی تنفع فی المقام:

اولا: أن قدماء الامامیة تبعا للطرق المبیّنة فی الکتاب والسنة للمعصومین علیهم السلام قد ذکروا عدة مناهج لأثبات امامة الائمة الاثنی عشر- سواء من متکلمی الرواة أو متکلمی الغیبة کالشیخ المفید والمرتضی والطبرسی- ونحن نشیر إلی تغایر صیاغات أدلتهم ومواد قوالبها تنبیها علی تعدد اشکالها وموادها المنطقیة.

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۴۲۰

منها: التدلیل علی الکبری بما ورد نصوص عدیدة تنص علی ان الخلفاء بعد الرسول الاکرم صلی الله علیه و آله اثنا عشر، وفی بعضها أنهم من قریش، وفی بعضها أنهم من بنی هاشم، وهذه طائفة من الاحادیث.

وقد وقع العامة فی بلبلة وتشویش فی کیفیة التطبیق الخارجی للخلفاء الاثنی عشر، واختلفت اقوالهم وبعض جعل بینهم فاصل ولم یشترط التتابع، وبعض أنهاهم قبل یوم القیامة مع أن فی بعض الالسنة أنه هؤلاء الخلفاء حتی یوم القیامة، ولو بحث الباحث عن الحقیقة بعیدا عن التعصب لا یری مصداقا لهذا الحدیث إلا لدی الامامیة الاثنی عشریة حیث لا یوجد طائفة لدیها تفسیر لهذه الطائفة المتواترة إلا لدی الامامیة الاثنی عشریة، حیث أن الامامة المنصوبة المجعولة من قبل اللَّه تعالی عندهم إلی یوم القیامة هی فی الاثنی عشر.

ونشیر إلی نکتة مهمة یلحظها المطالع لکتب التاریخ انه لم یدّع احد لنفسه هذه المقامات وأنها خلافة الرسول طبقا لهذا الحدیث إلا الائمة الاثنی عشر، فکانوا یدّعون علم الکتاب کله وکانوا علی مرأی ومسمع من الدول الامویة والعباسیة قرابة ثلاثة قرون، ولم تفتأ تلک الدولتین من امتحانهم فی العلوم المختلفة ومسائل الدین وأحکامه، بل کانوا یمتحنونهم فی الفنون المختلفة وفی الصفات البدنیة بغیة منهم أن یقطعوا علیهم دعواهم، ولم تکتفِ الدولتین بما کان لدیها من أفراد فی العلوم المختلفة بل کانت تستعین بعلماء النصاری والیهود والروم والهند وغیرها، وبأصحاب الریاضات المختلفة، وبمختلف وسائل القوی روما فی دحض دعوی هؤلاء الائمة الاثنی عشر.

لکن الرصد التاریخی ینبئنا بفشل الدولتین فی ذلک، وفشل علماء الفرق الاسلامیة الاخری فی مقابلتهم، بل کان نجمهم یزداد تلألأ مما یضطر السلطات إلی تصفیة وجودهم المبارک، فکان ذلک تحدی واعجاز للبشریة أجمع طیلة قرون ثلاثة.

وقد تحدوا جمیع مَن حولهم أن یُقدِموا علی مساجلتهم وقطع حجتهم ولم

الامامة الالهیة(۵)، ج ۱، ص: ۴۲۱

یظفر احد علی ذلک، ومناظراتهم مع الیهود والنصاری اکثر من ان تحصی، بل انا نجد ان الائمة المعروفة الان قبورهم قد تواتر بین کل المسلمین انهم هم الذین ادعوا الامامة بهذا المعنی من السفارة الالهیة والخلافة للَّهفی أرضه ولم یدعها غیرهم.

ثم اذا تساءلنا عن کیفیة الخلافة وانها فی أی شیء؟ نجیب: أن الحدیث مطلق واذا ضممنا إلی ذلک ان الزعامة الدنیویة لم یتولها إلا البعض منهم فقط، وحینئذ یکون الحدیث لا اثر له مع تواتره وتعدد المواضع التی ذکّر الرسول امته بهؤلاء، وهذا یدلنا علی ان مقام الخلافة عمدتها فی المقامات الغیبیة وهی المهمة بدلیل انهم لم یتولوا الزعامة الدنیویة إذن مقام الامامة لا ینحصر بالزعامة الدنیویة بل یشمل المقام الغیبی.

ومنها: الاجوبة العلمیة الاعجازیة فی المسائل العلمیة التی کان علماء الیهود والنصاری وغیرهم من اصحاب الملل والنحل التی دخلت الاسلام یسألون عنها وهی اسئلة یمکن القول انها فوق افق البشریة، وهذه الاجوبة تکون مقدمة لکبری ان من یستطیع الاجابة عنها لا بد ان یکون له نحو من العلم یختلف عن بقیة البشر ومستقی من معین خارج اطار القدرات البشریة العادیة، ویثبت بذلک اهلیتهم وامامتهم وافضلیتهم وقد اعتبرها الطبرسی من الدلائل الصریحة علی امامتهم.

وهذه الاجوبة لا ـ زالت تتحدى المعارف والعلوم البشرية و مادة اعجازية لبيان امامتهم من اللّه تعالى، فمثلا فى علم المعرفة الالهية ببركة كلماتهم المبسوطة المتكثرة ننفى التجسيم عن الذات الالهية ولوازم الجسم من الاين والمتى والكيف ونحوها، حتى أصبح الامر من البديهيات فى الدين الاسلامى مع ان بعض الفرق الاسلامية لا زالت مجسمة فيما يسرونه من اعتقادات.

وكذلك ببركة كلماتهم عليهم السلام ننفى الجبر والتفويض حيث اثبتوا الاختيار والأمر بين الأمرين، وبكلماتهم أبانوا عن عينية الصفات للذات وأن الذات فى عين بساطتها هى عين كل كمال حتى صفة العلم، بينما بقية فرق المسلمين يجعل

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۲۲

الذات جوفاء خالية تتبعها الصفات الكمالية، بل أن ذلك حتى فى فلسفة البشر المشائيين والاشراق فأنهم يخلون الذات من العلم وأنه عبارة عن الصور المرتسمة أو عين الفعل، بينما يقول الصادق عليه السلام: ان الذات الالهية علم لا جهل فيه قدرة لا عجز فيه نور لا ظلمة فيه حياة لا موت فيه.

وكذلك كلامهم فى التوحيد وتوحيد العبادة وأن مَن عبد الاسم دون المسمى فقد ألحد، ومَن عبدهما فقد أشرك، ومَن عبد المسمى دون الاسم فقد وحّد، ومراده عليه السلام مطلق مدارج و درجات الاسم، وهذا من البحوث العرفانية الوعرة التى لم تفتق معرفتها فى البشرية قبل ذلك.

وكلماتهم فى ان الارادة صفة فعل لا صفة ذات وغيرها من غوامض المعرفة، مثلا الصحيفة السجادية زبور آل محمد صلى الله عليه و آله فإن فيها من دقائق المعرفة والتهذيب للنفس ولطائف السير والسلوك لمَن رام الرياضة وآداب العبودية، هذا فضلا عما يجده الباحث فى ما يبهر الالباب فى نهج البلاغة وبقية الروايات عنهم عليهم السلام.

ومنها: الملاحم المذكورة عن كل واحد منهم عليهم السلام بدءا بأمير المؤمنين عليه السلام وما اخبر به من ملاحم عديدة فى كيفية قتل اصحابه، وما يجرى على شيعته وعلى بقية المسلمين إلى قرون متمادية، وكذلك ما أخبر به الحسنان عن اعدائهما، وإخبار الصادق عليه السلام للمنصور الدوانيقى بوصوله للسلطة وأن بنى الحسن لا يصلوا إليها.

ومنها: ريادتهم وسبقهم فى كل فضيلة وكمال علمى وعملى فى الصفة والاخلاق، ويكفيك التنبيه لذلك انهم عليهم السلام من السجاد للعسكريين لم يقوموا بنشاط للإطاحة بالنظام الحاكم من الامويين والعباسيين، ومع ذلك كان الحكام على أشد هيبة وخوف منهم، وكأن اصل وجودهم الحامل لهذه المناقب والفضائل ينادى بحقانيتهم ونصبهم من قبل البارى تعالى.

ومنها: ان الاصل فى الفكر البشرى هو الاختلاف فلا يكاد يكون هناك اثنان يتفقان فى طريقة معينة للتفكير، وهذا بخلاف الفكر السماوى الآتى من السماء حيث يكون واحدا لأنه لا يصطبغ بطبيعة الفرد بل يعبر عن المصدر الواحد، وهذه

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۲۳

الكبرى نطبقها على ائمتنا حيث نلاحظ انهم يصدرون عن فكر واحد ورأى واحد لا تضارب بين آرائهم وعقائدهم فى ما لا يحصى من ابواب المعرفة والاعتقادات وابواب الفروع المتكثرة الهائلة، فما ثبت عنهم بطريق قطعى لا تخالف فيه، وما ثبت عنهم بالظن يندفع ما بينه من التخالف بطرق الجمع المعروفة، ونظيره فى ظواهر الآيات فيما بينها، وذلك بقانون حمل المحكم على المتشابه والمظنون على ما يتفق مع المقطوع، وهذا القانون من أصول البيان فى النطق البشرى، والعمدة أن ما هو مقطوع به عنهم لا ترى يه أى تخالف «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً» «۱»

.ومن الطرق الاخرى لاثبات الامامة النظر فى نبوءات الاديان الاخرى المتقدمة وتبشيرهم بأوصياء خاتم الانبياء كما ورد فى الكتابة على سفينة نوح وما هو مذكور فى التوراة والانجيل والزبور، وقد استقصى عدة من محققى الامامية هذا الباب ووضعوا فيه كتبا جليلة، ويذكر هذا المنهج المسعودى فى اثبات الوصية وفى تاريخه واليعقوبى فى تاريخه.

ثانيا: ان البحث حول الامامة يتناول الكتاب والحديث ومن غير الصحيح أن يتناول الباحث أحدهما ويهمل الآخر بل يجب ضمهما إلى

بعضهما دائما، حيث ان الآيات الكريمة توضح الامر الكلى ومواصفاته والروايات توضح المصاديق المتصفة، إذ ان الروايات تشير إلى وجود ثلة مع النبى وبعده لها هذه المواصفات ولها تلك المقامات ومن ثم نأتى إلى الاحاديث التى تنص على التطبيق ومن له هذه الصفات.

وبعبارة أخرى إن طوائف الآيات تثبت كبرى هى وجود ثلة معصومة هم ائمة منصبون من اللَّه تعالى، ولهم ذلك المقام الغيبى إلى انقضاء هذه النشأة النبوية، وتدل بعض تلك الطوائف على إمامة على عليه السلام، وبعضها على ضميمة الحسنين،

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۲۴

ونظير اثبات الكبرى كثير من الاحاديث النبوية المتواترة كحديث الثقلين فإنه يدل على دوام بقاء العترة حتى الحوض، وأنهم عِدل الكتاب، واللازم التمسك بكل منهما والائتمام بهما، وكحديث الاثنى عشر خليفة كلهم من قريش، وحديث من مات ولم يعرف امام زمانه، وغيرها من الاحاديث التى إما تشمل جميع الائمة أو بعضهم، وعلى أية حال فإن اثبات الكبرى ينضم إليها عدة تقريبات لاثبات الصغرى والمصادق كما اشرنا إليه فى النقطة السابقة.

ثالثا: من خلال قراءة التاريخ نستطيع أن نكشف عن طريقة اخرى من الاستدلال، وهى إن التاريخ ينص على وجود فرقة عاشت فى الدولة الاموية والعباسية اسمها الرافضة، وهؤلاء كانوا يتبعون الائمة من أهل البيت عليهم السلام، وكان من المنطقى والطبيعى ان يقوم اصحاب الطوائف الاخرى ان يقطعوا الطريق عليهم من خلال محاولة افحام ائمتهم فى المناظرات والاسئلة، وأن يكون ذلك بمساعدة السلطة الحاكمة، والحال أن التاريخ لا يذكر لنا شاهدا ولو واحدا حول ابكات هؤلاء الائمة، بل على العكس ينقل لنا صورا مشرقة عن العديد من المناظرات والمحاجات التى اجراها امراء الدولتين فى محاولة للاطاحة والنيل من الائمة، مع الاخذ بعين الاعتبار ان ما نقل الينا هو النزر اليسير الذى لم تستطع السلطة الحاكمة اخفاؤه عن الناس.

وعليه نستطيع القول ان منهج الاستدلال يكون بالآيات والاحاديث والعقل والتاريخ.

رابعا: يجب الالتفات إلى ما اشرنا إليه فى حقيقة التواتر وانه لا بد من الرجوع إلى كتب الحديث والاخذ بالنصوص ولو فرض انها بمفردها غير تامة لكن بتظافرها و بمعية الجميع وبتراكم الاحتمالات كما وكيفا ينتج التواتر.

وقد أشرنا فى الفصل الاول إلى تقسيم التواتر إلى ثلاثة أقسام لفظى ومعنوى واجمالى، وبيّنا كل قسم، كما ذكرنا إن دوائر التواتر تختلف سعة وضيقا وأن هذا الاختلاف لا يخل بضابطة التواتر الرياضية البرهانية، فمن الخطير الغفلة عن ذلك.

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۲۵

الخاتمة ... ص: ۴۲۵

الوظيفة الإجمالية فى الإئتمام ... ص: ۴۲۵

بعد هذا الاستعراض كنموذج لفقه ماهية الامامة فقها عقليا وفقها قرآنيا وروائيا، وبيان مقتطف من المقامات التى للائمة عليهم السلام رأينا من المناسب ان نختم البحث فى بيان الوظائف الإجمالية للمكلفين اتجاه أئمتهم حيث قال تعالى «وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ» «۱»

وقال تعالى «قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى» «۲»

، وقال تعالى «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» «۳»

، وسوف نوجزها بالامور التالية:

۱- معرفتهم كأمر اعتقادى وهو غير مرهون بحضورهم بل حتى بعد مماتهم فى زمان غيبتهم فمعرفتهم واجبة، كما هو الحال فى الاعتقاد بنبوة الرسول صلى الله عليه و آله.

۲- كون الامامة من أصول الدين لا- من فروعه، ومن تحريف الكلم عن مواضعه بمكان حصر توليهم على الموالاة السياسية فقط، والتولى والتبرى المذكور فى الفروع صحيح ولكنه غير معرفتهم.

۳- إن محبتهم وبغض اعدائهم من الامور الركنية فى معرفتهم والاعتقاد بهم التى لا تتوقف على حياتهم بل يجب اظهارها لأن المحبة من الامور التى تكون مصداقا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۲۶

للموالاة ألا ترى فى قوله تعالى «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ» «۱»

حيث أن المحبة واظهارها مصداق من مصاديق الولاء، وأن حب اعداء اللَّه يوجب الخسارة وضياع الاعمال حسرات بل والخلود فى النار، كما تشير إليه تتمة هذه الآية من سورة البقرة، وبقية الآيات الناهية عن موادة من حادّ اللَّه ورسوله.

۴- تحليل فلسفى وذوقى معرفى لنكتة ما ورد فى بعض الروايات «هل الايمان إلا الحب والبغض».

إن الايمان بنحو مطلق فعل من افعال النفس، و لا يمكن للموجود البشرى أن يعيش من دونه لأن الايمان والاذعان بشئ ما من كمال الفرد البشرى، ولو عثر على فرد بشرى لا يعتقد بشىء أصلا فهو لا يستطيع أن ينتهج أى جادة فى حياته، ومن ثَمّ فسيكون من الممتنع أو الصعب على بقية البشر التعامل معه لأن المفروض انه لا يتقيد بأى منهج ولا طريقة، إذ لا يؤمن بشىء ما كى يتقيد به، وحينئذ سوف يكون مطلق العنان فى جميع غرائزه ورغباته كالوحش الكاسر أو الحيوان أو الحيوان المسعور المخيف لمن حوله، ويتبين بذلك أن الايمان بأى نحلة كانت وبأى شىء ما من الكمال بالمعنى الاعم، بمعنى أنه لا يستطيع احد ان يتركه ومن هنا وقع البحث فى علوم مختلفة حول حقيقة الايمان بعض النظر عن متعلقه، فهل حقيقته هو الادراك ام المعرفة أم الاعتقاد والتصديق أو انه مجرد الانجذاب نحو الشىء؟؟

وذكرنا فيما سبق أن الايمان ليس هو مجرد الادراك لأن بعض درجات الادراك الحصولى لا يلازمها الايمان وبتعبير آخر علينا معرفة ان الايمان من أفعال العقل النظرى أو العملى؟

ومن الأمور التى تسهل البحث فى الحكم فى القضايا المدركة أن الحكم طبقا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۲۷

لآخر التحقيقات ليس جزء القضية، فقد ذكر الملا صدرا أن الادراك تارة يلازمه الاذعان فيسمى تصديقا وتارة لا يلازمه فلا يسمى تصديقا، ثم فى التحقيقات الاخيرة فسروا الحكم بما تقوم به النفس من دمج المحمول بالموضوع وهو من افعال العقل العملى، ولكنه لا- يقوم به إلا- مع الادراك والوضوح بنحو يدفع العقل العملى للحكم والاذعان، ومن ثَمّ التسليم والاخبات، فاتضح انه من لوازم الادراك بدرجته العالية.

اما حالة الجحود التى تحصل عند استيقان الحق فهى ناشئة من أمراض النفس من استهواء نزعات الغرائز او جربزة الخيال وانفعالات الوهم الذى يمنع من الانفعال الطبيعى الفطرى لليقين، ولذا تقدم- فى الفصل الاول- أن اليقين ليس علة تامة للاذعان ولكنه مقتض له.

ومن ثم نستطيع معرفة تعريف الامام أن الايمان هو الحب والبغض لأن الايمان يعنى اذعان النفس فإن الحب والبغض من افعال العقل العملى، وهو من درجات العقل العملى فإن الايمان بشىء يعنى انجذاب النفس إليه وعدم الايمان بشىء ما هو خلافه فتنفر النفس منه فالنفرة تعنى البغض والابتعاد.

وبتعبير آخر نقول: إن افعال العقل العملى والنظرى وجهان لعملة واحدة، والحقائق التى يدركها العقل النظرى إثباتا لوجودها أو نفيا لها، إذا ادركها العقل العملى بعينها يكون لها آثار أخرى كالحب والبغض.

ومن هنا يتضح ما ذكره أهل المعرفة من الامامية من أن التولى لاولياء اللَّه وهم الائمة عليه السلام، والتبرى من اعدائهم من مظاهر

الجلال والجمال الالهى، وذكرنا أن الجلال والجمال من لوازم الصفات الثبوتية والسلبية للذات الالهية، لأن معرفة الصفات الثبوتية يلازمها المحبة لأنه مفطور على حب الكمال ومعرفة الجلالية يلازمه النفرة والخوف، وقد بينا ملازمة معرفة الذات لمعرفة الامام فمن لوازم الصفات الثبوتية الجمالية الايمان لوليه وانه مهبط لنافذية قدرة اللَّه ومحل لتنزل مشيئة اللَّه تعالى واراداته فى مقام الفعل، وفيما ينكره العقل النظرى فيوازيه فى

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۲۸

العملى التبرى من اعدائه.

ومنه يتبين أن التولى والتبرى بعض درجاته فى الاصول وبعضها فى الفروع فالذى يكون فى القلب من الاصول ويتنزل إلى الجوارح فيكون من الفروع، كما أن المتابعة السياسية ليست وحدها من الفروع بل قبول أقوالهم ومودة اوليائهم ومعاداة اعدائهم فى أفعال الجوارح ايضا منها.

وقد ورد عنهم عليهم السلام: «كذب من يزعم انه يحبنا ويتولى عدونا ويبغض ولينا».

والبرهان عليه بنفس النحو: إذ كيف يمكن للانسان ان يجمع بين الكمال والنقص، ويثبت الصفات الثبوتية ولا يثبت الصفات السلبية لأن الصفات السلبية تعنى نفى النقص عن البارى فالجلال لا يمكن ان لا يلازم الجمال

ومن ثمّ من لوازم اثبات الجمال والجلال والصفات الثبوتية ونفى السلبية هو اثبات كمال قدرة البارى تعالى بإرسال الرسول وجعل خليفته فى الارض الهادى لمراضيه ما دامت النشأة الدنيوية- كما اوضحنا فى صدر هذا الفصل كون الامامة ركن من اركان التوحيد- فالتوحيد واثبات القدرة الازلية يستدعى عدم مغلولية يد البارى عن خلقه أى تولى خلفائه فى أرضه، كما ان توحيده بنفى الصفات السلبية عنه أى صفات الجلال يعنى الخوف والابتعاد عن قهره ومواطن غضبه بالتبرى من اعدائه.

۵- إن الحب والولاء محدود بحد وهو عدم الغلو وهو الافراط، وعدم الجفاء وهو التفريط فيجب بيان الحد الذى يجعل الانسان مغاليا أو جافيا قاليا وخارجا عن جادة الصواب؟

قال بعض: بأن من يثبت صفة لهم خارجة عن نطاق البشر يوجب الغلو والخروج عن حد الاستقامة فهو يثبت لهم مقام العصمة العملية والعلمية فقط، وهذا مع انهم انفسهم يرون روايات احاطة أنوارهم لا اجسامهم بالعوالم والنشآت السابقة واللاحقة.

اما اصحاب السر كسلمان ورشيد الهجرى ومحمد بن سنان ويونس بن عبد الرحمن وجابر بن يزيد الجعفى وامثالهم فانهم يعتقدون بهم فوق ذلك المقام

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۲۹

«قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ» فالرسول فى عين مثليته البشرية للآخرين إلا انه يغايرهم فى (يوحى إلى) وأى مغايرة هذه وأى مفارقة. وانهم منذ بدء الخليقة كانوا أنوارا وأنهم مطلعون على عالم الملكوت بما يزيد على الانبياء من اولى العزم، ورواية تفسير الثمانية الذين يحملون العرش أربعة من الاولين وأربعة من الآخرين وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام على يسار العرش، ومحمد صلى الله عليه و آله وعلى والحسن والحسين على يمين العرش، ومن المعلوم ان اليمين واليسار فى الرواية يدل على الدنو وعلو المقام وأنه لا من جهة المكان والأين إذ لا مكان جسمانى للعرش الذى هو العلم

وقد عرفت فى استخلاف آدم أنه يحمل علم اللَّه ما لا تحمله الملائكة، وقد أشير إلى تفسير الثمانية عند العامة (فقد رواه السيوطى فى الدر المنثور عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: يحمله اليوم أربعة، ويوم القيامة اربعة، فإن اليوم اشارة إلى من يحملهم من هذه الامة، وقد صرح بأسمائهم فى روايات أهل البيت).

وكل الامامية متفقون على ان مستقى علومهم ليس بالعلم الحصولى الاعتيادى بل لهم العلم الواقعى، وانهم مطهرون مبرؤون من العيب والادناس والارجاس، وهذه كلها بعيدة عن الغلو.

فالمقياس العقلى هو أن الخروج بهم عن حد الامكان أو الخروج بصفاتهم عن صفات الممكن هو افراط، وأن كل ما عندهم هو من عند اللَّه العزيز الحكيم الذى اعزهم واقدرهم واعطاهم من نعمه ما لا يحصى، مع بقاء محدودية ذاتهم وانهم معاليل مخلوقون والمعلول لا يبلغ شأن العلة، بل يجب الاعتقاد انهم محتاجون إليه تعالى ولا يوكل اليهم الامور بنحو العزلة والاستقلال- والعياذ باللَّه- مطلق ومستقل فهم الفقراء إلى اللَّه واللَّه هو الغنى المطلق، كما هو البحث والكلام الجارى فى ادنى فعل يوجده البشر من أعمال جوارحه أنها باقدار اللَّه لا بنحو التفويض العزلى الباطل.

واما جانب الجفاء والذى يجب الابتعاد عنه ايضا فمعناه هو تنزيلهم عن مقام

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۳۰

كرامة الخلقة التى اولاها البارى تعالى لهم، وبيان ذلك على نحو الاجمال:

إن الصوادر الاولى فى عالم الخلقة لها صفات لا يقاس بها سائر المخلوقات الاخرى، وهذا يعنى ان لهم مقاما، وانهم ليسوا كبقية البشر وبالنسبة إلى باقى الخلق فبينهم بون شاسع، وهم بوجودهم النورى لا بأجسادهم واسطة فى الفيض، كما تقدم اثبات ذلك برهانيا فى طيات البحوث السابقة قال تعالى «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هؤُلَاءِ» ولم يقل تعالى عرضها أو اسماء هذه فهم ذوات عالية «أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ» وقد تقدم شرح ذلك، فكما ان افاضة الحياة فى الزرع لا تكون إلا بواسطة مادة البذر وصورة الزرع واعداد التربة فهى فى حقيقتها شرائط قابلية القابل ولذا كان الكمال من البارى يتنزل عن طريقهم، وهذا أيضا لعجز القابل المخلوق لا الفاعل جلّ وعلى علوا كبيرا وهذا كله لا يجعلهم شركاء للبارى فهل التربة شريكة اللَّه وهل الصورة الزرعية ومادة البذر شريكة اللَّه.

والضابطة الشرعية- المتطابقة مع الضابطة العقلية المتقدمة- المهمة ما ورد مستفيضا أو متواترا على لسانهم عليهم السلام «نزلونا عن الربوبية وقولوا فينا ما شئتم، ولن تبلغوا» «۱»

، وهناك طوائف عديدة من الروايات التى تثبت هذا المطلب، والمعنى بلسان آخر كما فى حديث الرضا «فمن ذا الذى يبلغ معرفة الامام.. ضلت العقول وتاهت الحلوم وحارت الالباب وخسئت العيون وتصاغرت العظماء وتحيرت الحكماء وتقاصرت الحلماء وحصرت الخطباء وجهلت الالباء وكلّت الشعراء وعجزت الادباء وعييت البلغاء عن وصف شأن من شئونه وفضيلة من فضائله، واقرت بالعجز والتقصير، وكيف يوصف بكله أو ينعت بكنهه أو يفهم شيء من امره» «۲»

.وببيان فقهى نقول: ان المتابعة والتعظيم ليس فيه أى حد من حدود الشرك، بل ان كبار الفقهاء من المسلمين يذكرون أن التعظيم لغير اللَّه لا يكون شركا إذا كان لا

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۳۱

عن عبادة، وانه يكون عبادة اصطلاحية وتأليها إذا كان تمام الخضوع مع اعتقاد الاستقلال لذلك لا يجوز، أما إذا كان مع اعتقاد حاجة المخضوع له وفقره إلى اللَّه سبحانه فانه لا يكون عبادة، هذا من جانب الحد الاعلى.

أما من جانب الحد الادنى فإن ادنى درجات الولاء هو المودة والمحبة القلبية وعليه يكون التشفع بهم وزيارتهم والتوسل والدعاء بهم لا يكون عبادة ولا يدخل تحت حد الغلو، قال تعالى «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» «۱»

، وقال تعالى مخاطبا نبيه «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ» «۲»

، وقال تعالى «أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ» «۳»

، وقال تعالى «اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَذا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً» «۴»

، وقال تعالى «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ء ۹۷ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» «۵»

، قال تعالى «مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» «۶»

.۶- ولابأس بالاشارة مختصرا إلى ان شرك الجاهلية فى العبادة كان بالتعظيم والتوسل بأمور من دون جعل اللّه تعالى وإذنه، والتوحيد فى العبادة هو نفى الطقوس التى لم تؤخذ من عند اللّه سبحانه وتعالى، ونستطيع ان نجد ما يدعم نظرية الامامية فى التوسل بهم:

أ- ان اللّه يأمر بابتغاء الوسيلة إليه قال تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَابْتَغُوا

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۴۳۲

إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»

، وقد تقدمت الاشارة إلى انهم السبيل إلى اللّه.

ب- ان الشفاعة مذكورة بنص القرآن الكريم «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» والعديد من الآيات وهذا الاستثناء يدل على وجود اصل الشفاعة، والشفاعة تعنى كرامة خاصة ومنزلة للشافع عند اللّه تعالى.

ج- انه لا- فرق بين الوسيلة ان تكون تصرفا وعملا- كالصلاة والصوم للّه‌من اجل تحقيق حاجة معينة، وبين ان تكون بالتوسل بالنبى صلى الله عليه و آله بل ان آية المائدة المتقدمة تدل على ان الوسيلة هى غير العمل الصالح والتقوى وأنها درجة فوق ذلك.

د- ان القرآن ذكر سجود الملائكة لآدم وابناء يعقوب ليوسف سجود احترام لا عبادة.

ه- ان النذر مباح فى اصله فقد نذرت والدة مريم ما فى بطنها لمكان العبادة، كما ينذر الشيعة للّه‌تعالى الان مالا يختص بالائمة والصالحين أى يصرف فى خيراته.

و- قوله تعالى «واسْتَغْفِرْ لَهُمْ» الواردة فى العديد من السور القرانية.

ز- «وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ» فوجوده صلى الله عليه و آله كان حرزا لهم.

ح- «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» فلا بد من مطلق التسليم النفسى للرسول فضلا عن عمل الجوارح.

فوجوب الخضوع للتوقير ثابت فى القرآن للرسول الا-كرم وهو مغاير للعبادة، والتفريق بينه حيا وميتا مما يضحك الثكلى، و فى بعض الروايات لدى العامة والخاصة ان المسلمين كانوا يتبركون بفضل وضوء رسول اللّه (كما فى ما حكاه مندوب مشركى قريش فى صلح الحديبية من فعل المسلمين، فلاحظ كتب السير والتاريخ)، و فى غزوة خيبر تنص الروايات التاريخية ان الامام على كان به رمد

الامامة الالهية(۵)، ج۱، ص: ۴۳۳

فدعاه الرسول صلى الله عليه و آله وتفل فيها فبرأت، وغير هذا كثير جدا.

بل ان احد مبرزات التودد واظهار محبتهم هو زيارة قبورهم وتعاهدها وغير ذلك، وكل ذلك لكرامتهم عند اللّه تعالى وشأن قربهم ومنزلتهم عنده وخاصتهم به وصدق مقاعدهم عنده.

ومن مراتب ولايتهم هى الولاية التشريعية بمعنى انهم ليسوا رواة عدول ليس إلا بل ان علومهم مستقاة من معين الغيب وان واسطتهم الروائية هى بالقناة النورية لا بالحس كما فى عنعنة النبى صلى الله عليه و آله عن جبرئيل عن ميكائيل عن اسرافيل عن اللّه تعال، وإن اختلفت القناة النبوية بالوحى والنبوة، وقناتهم بالعلم اللدنى الجامع بالكتاب المكنون «لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»، «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

وكذلك ولا-يتهم التكوينية بإذن اللّه تعالى وقد اشرنا إليها فى موارد عدة ونشير هنا إلى بعض الآيات التى تنص على وجود ولاية تكوينية للبعض منها قوله تعالى «إِذْ قَالَ اللّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونَ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» (۱)

، «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۲»

، «وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ» «۳»

، «وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ» «۴»

، «قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ

الامامة الالهية(۵)، ج ۱، ص: ۴۳۴

مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هذَا مِن فَضْلِ رَبِّي» «۱»

.أخيرا.. فإن من الواجب على الانسان الذى يوالى ائمة الهدى ان يثبت لهم هذه المقامات العلوية عند اللّه من دون ان يكون هناك تحفظ او تردد فى احدها، فهم خلفاء اللّه فى ارضه وآيات قدرة اللّه الواسعة التى لا يحدها شىء يؤتيها من يشاء من عباده وهو تعالى أقدر بلا كفو على الشيء الذى يؤتيه.

وهؤلاء هم الذين عرفوا اللّه حق معرفته واستحقوا بذلك تلك المقامات وهم على ما هم عليه من المنزلة الرفيعة فى جميع عالم الوجود إلا انهم يستشعرون النقص والفقر والعبودية اتجاه الذات المقدسة وانهم دونها منزلة وهل يقاس برب الارباب شىء؟! ولذا نرى عبادتهم- التى لم يبلغها بشر كما وكيفا- تتناسب معقدر معرفتهم بربهم، وعظيم تذللهم- الذى لا يُرى لأحد غيرهم- لعلمهم أنهم امام العليم الجليل.

الجزء (۲)

المُقدّمة ... ص: ۵

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّهالجاعل فى الأرض خليفة إماماً افترض طاعته على جميع الملائكة والجنّ والإنس وقد علّمه من لدنه علماً جامعاً بالأسماء كلها فاحتاجته الملائكة لعلمه، ولم يقبل تعالى طاعة وعبادة أحد من خلقه إلّابالطاعة لخليفته، ثمّ الصلاة والسلام على المبعوث للعالمين رحمة إمام الخلق التارك فينا الثقلين الجاعل باب علمه وحكمته وصيه المرتضى والمستخلف على الأمة اثنى عشر وعلى آله المطهّرين الذين يمسّون الكتاب المكنون وهو آيات بينات فى صدورهم الذين قرن اللّه بطاعته وطاعة رسوله طاعتهم فريضة، وجعل مودّتهم قرين الرسالة وسبيلًا متخذاً إليه.

وبعد فهذا هو الجزء الثانى والثالث من كتاب الإمامة الإلهية وقد اشتملا على مباحث متعدّدة من خمسة فصول وقد كان من بواعث الخوض فيها ما يلاحظ فى جملة من المقولات من النظرة إلى علم النبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليه السلام كملكة علمية بفقه الدين والشريعة وان الأحكام الصادرة عنهم أشبه بالفتاوى النابعة عن أعمال جهد الفهم المكتسب والتتبع فى الكتب والأدلّة. أو أن ما يحكمون به هو وليد الاستظهار من وراء حجاب الألفاظ ودلالاتها، وقد صرّح أهل سنّة جماعة الخلافة باجتهاد النبى صلى الله عليه و آله والعياذ باللّه تعالى- وانه هل يصيب أم يخطأ، ولوازم وتوالى هذا القول من الحالقات للدين.

وقد عبرّ فى بعض الأقوال عن بيان أئمة أهل البيت عليهم السلام للسنّة النبوّية انهم رواة لها ونقلة، وهو تخيل ان اخبارهم عن النبى صلى الله عليه و آله على حذو الرواة من سائر الناس، وانهم يخبرون عنها بما يمتلكون من رصيد مسموعات حسّية وكتب مخطوطة.

الامامة الالهية(۵)، ج ۲، ص: ۶

وقد جاءت سلسلة البحث بدءاً بالمنهجية والنظام المتّبع فى معرفتهم (صلوات اللّه عليهم) ثمّ تلا ذلك البحث فى فقه مصادر تلك

المعرفة بالتعرض للقواعد الأمّ فی معرفة مقاماتهم ولم يكن ذلك على سبيل الاستقصاء كيف ومن حدّهم فقد وصفهم ومن وصفهم بكمالهم فقد أحاط بهم فهو أعلم منهم لان من حدّ شيئاً فهو أكبر منه.

ثمّ البحث عن جملة من أبواب تلك المعرفة وأسسها.

وقد تضمّن فی مطاوی تلك السلسلة محاور قد احتدم فيها الجدل العلمی:

كالاستقامة فی طريق المعرفة بعيداً عن إفراط الغلوّ وتفريط التقصير إن الايمان فضلًا عن الأعمال لا يصحّ فضلًا عن القبول إلّابالتوجّه والتوسّل والانقياد لهم فضلًا عن معرفتهم- قراءات جديدة ثلاث فی حديث الغدير أن ولايتهم عليهم السلام من أصول الدين الواحد الذی بعث به جميع الانبياء عليهم السلام ولايتهم فی التشريع- ان الامام هو حقيقة القرآن المكنون وهو الثقل الأكبر أن ليلة القدر نافذة غيبية وقناة ارتباط سماوية لا زالت قائمة مستمرة فی عقيدة الإسلام عند المسلمين- أن للقرآن منازل ومواطن غيبية هی منال لهم عليهم السلام الإمامة القائمة الراهنة للمهدی (عج) فی ظل الغيبة نماذج الارتباط الغيبی لأمثال الإمامة فی القرآن-.

وقد قام بتقرير وضبط هذه المباحث ذو البصيرة المعرفية والنظر النافذ الشيخ صادق الساعدی أدام اللَّه سعيه فی نشر العقائد الحقّة لمدرسة أهل البيت عليهم السلام.

قم عش آل محمّد عليهم السلام

بجوار كريمة أهل البيت عليهم السلام

محمد سند

الحادی من ذی القعدة ۱۴۲۶ ه. ق

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۷

مقدّمة المؤلّف ... ص: ۷

الحمد للَّهربّ العالمين والصّلاة والسلام على صفوة الخلق محمّد وآله الهداة المهديين الذين اجتباهم اللَّه وجعلهم صراطه المستقيم وارتضاهم لغيبه واختارهم لسرّه وجعلهم خلفاء فی أرضه وحججاً على بريته.

الإمامة هی ضرورة من الضرورات الفطرية ولهذا تجدها فی الوجدان لدى عامة المسلمين وتحت ذريعة الضرورة تسارع جمع من الناس لنصب الخليفة ومنعوا مخالفته أو الخروج عليه بزعم انهم خلفاء وألوا امر الذين أمر اللَّه بطاعته كما أمر بطاعته وطاعة رسوله وبهذا الزعم انقادوا لهم واتبعوا الملوك الذين تربّعوا على العروش باسم الخلافة الإسلامية كملوك بنی امية وبنی العباس وغيرهم الذين عاثوا بالإسلام فساداً وبالمسلمين قتلًا وتشريداً إلى أن أوصلوا الإسلام والمسلمين إلى ما نراه الآن..

والإمامة هی منصب الولاية فی الدين والحاكمية على المسلمين وهل الإمام هو من استطاع الوصول إلى هذه الزعامة والمنصب بأية طريقة كانت حتى لو كان عن طريق سفك دماء المسلمين وانتهاك حرماتهم بل وحتى لو كان انتهاك لحرمة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهل ضرورة الإمامة مبرر لذلك وهل يعقل أن يلتزم بهذا القول فی الإمامة غالبية الأُمّة الإسلامية وفی الحقيقة أنه يترتّب على الإمامة نتائج خطيرة على مستوى العقائد وبقية أبواب الدين ومستوى الأحكام الفقهية ولا ابالغ لك فی القول كما سيتضح ذلك من خلال المباحث الموجودة فی صفحات الكتاب الذی بين يديك.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۸

والمنهج فی مدرسة أهل البيت عليهم السلام لأصل الإمامة يختلف اختلافاً جوهرياً عمّا رسمته المدارس الاخرى لهذه الحقيقة وكذلك لصفات الإمام.

فالإمامة هی عهد إلهی وجعل ربّانی وتنصيب منه سبحانه وتعالى وهذا صريح الآيات والروايات قال تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ

بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّیَّتِی قَالَ لَایَنَالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ» «۱»، وقال تعالی: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» «۲» والإمام له صفات ومقامات خاصة أولها أن یکون معصوماً وهذا ما أشار إلیه سبحانه وتعالی: «إِنَّمَا یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرُکُمْ تَطْهِیراً» «۳» وقوله تعالی: «لَایَنَالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ».

والإمامة مستمرّة وباقیة لا تنقطع «وَجَعَلَهَا کَلِمَةً بَاقِیَةً فِی عَقِبِهِ» «۴».

وقد جاءت هذه البحوث القیمة التی أفاضها علینا سماحة الأستاذ الشیخ محمد سند (دامت برکاته) لتجلی البصائر عن تلک المقامات للنبی وأهل بیته علیهم السلام وبیان وتأثیر تلک المقامات فی مسیرة الخلق إلی الحقّ والناس فی هذه المسیرة علی درجات ارتفاع وانخفاض بما لدیهم من معرفة تلک المقامات.

صادق الساعدی

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۹

الفصل الرابع: الغلوّ والتقصیر (منهجیة المعرفة ...) ص: ۹

اشارة

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۱۱

الفرقتان أوالثلاث المذمومة ... ص: ۱۱

ورد فی الکتاب العزیز والسنّة المطهّرة ذمّ الغلوّ والتقصیر، وکذلک العداوة والضغینة لأصفیاء اللّه وحججه، قال تعالی: «قُلْ یَا أَهْلَ الْکِتَابِ لَاتَغْلُوا فِی دِینِکُمْ غَیْرَ الْحَقِّ» «۱»

، وقال تعالی: «یَا أَهْلَ الْکِتَابِ لَاتَغْلُوا فِی دِینِکُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَی اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ» «۲»

، وقال تعالی علی لسان المقصّرة فی معرفة أصفیاء اللّه: «قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَیْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَکْذِبُونَ» «۳»

، وقال تعالی علی لسانهم: «مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُرِیدُ أَنْ یَتَفَضَّلَ عَلَیْکُمْ» «۴»

وأیضاً: «مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یَأْکُلُ مِمَّا تَأْکُلُونَ مِنْهُ وَیَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ* وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَکُمْ إِنَّکُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ» «۵»

وأیضاً: «فَقَالُوا أَبَشَرٌ یَهْدُونَنَا فَکَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَی اللَّهُ» «۶»

وأیضاً: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَی إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» «۷».

فیبرز القرآن الکریم أهم العوامل الموجبة لجحود الصراط الإلهی وهو قصور معرفة الأُمم بشخصیات الحجج الإلهیة واقتصارهم فی المعرفة علی الحیثیة

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۱۲

البشریة. وقد أجاب تعالی عن هذا القصور بقوله: «وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَیْهِ مَلَکٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَکًا لَقُضِیَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَایُنْظَرُونَ* وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَکًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَیْهِمْ مَا یَلْبِسُونَ» «۱»

، أی أنّ أصفیاء اللّه وإن کانت حقائقهم ملکیة، إلّاأنّ صورتهم ولباسهم فی الخلقة هی الصورة البشریة.

وقال تعالی فی ذمّ الفرقة الثالثة المنطویة علی عداوة أصفیاء اللّه: «أَمْ حَسِبَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ یُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ» «۲».

والضغینة المنهی عنها فی القرآن الکریم هی فی مقابل المودّة المأمور بها فی کتابه العزیز: «قُلْ لَاأَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی» «۳».

وقال تعالى: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَايُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا* أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا* فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا» «۴»

، وقال تعالى على لسانهم: «أَءُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ» «۵»

، و «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» «۶».

أمّا الروايات: فقد روى فى زيارته عجّل اللّه تعالى فرجه الشريف: «الحمد للّه الذى هدانا لهذا وعرّفنا أولياءه وأعداءه، ووفّقنا لزيارة أئمّتنا ولم يجعلنا من المعاندين الناصبين، ولا من الغلاة المفوّضين، ولا من المرتابين المقصّرين» «۷».

وفى الزيارة الجامعة: «فالراغب عنكم مارق، واللازم لكم حق، والمقصّر فى حقّكم

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۳

زاهق» «۱»

، وكذلك ما ورد فى الصلوات الشعبانية: «اللهمّ صلِّ على محمّد وآل محمّد، الفلك الجارية فى اللجج الغامرة، يأمن من ركبها ويغرق من تركها، المتقدّم لهم مارق، والمتأخّر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق» «۲».

وروى الكلينى أيضاً فى مصحّح محمد بن سنان، قال: «كنت عند أبى جعفر الثانى عليه السلام فأجريت اختلاف الشيعة، فقال: يا محمد، إنّ اللّه تبارك وتعالى لم يزل متفرّداً بوحدانيته، ثمّ خلق محمّداً وعليّاً وفاطمة فمكثوا ألف دهر، ثمّ خلق جميع الأشياء فأشهدهم خلقها وأجرى طاعتهم عليها وفوّض «۳» أمورها إليهم، فهم يحلّون ما يشاؤن، ويحرّمون ما يشاؤن ولن يشاؤا إلّاأن يشاء اللّه تبارك وتعالى. ثمّ قال: يا محمّد، هذه الديانة التى من تقدّمها مرق ومن تخلّف عنها محق ومن لزمها لحق، خذها إليك يا محمّد» «۴»

.قال المجلسى «۵» فى شرح الحديث: والديانة الاعتقاد والمتعلّق بأُصول الدين، من تقدّمها أى تجاوزها بالغلوّ، مرق أى خرج من الإسلام، ومن تخلّف عنها أى قصّر ولم يعتقدها، محِق أى أبطل دينه أو بطل، ومن لزمها واعتقد بها لحق أى بالأئمّة أو أدرك الحقّ، خذها إليك أى احفظ هذه الديانة لنفسك.

وروى المجلسى هذه الرواية عن محمّد بن سنان بطريق آخر مثل ما تقدّم، إلّا أنّ فيه: «وفوّض أمر الأشياء إليهم فى الحكم والتصرّف والإرشاد والأمر والنهى فى

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۴

الخلق؛ لأنّهم الولاة، فلهم الأمر والولاية والهداية، فهم أبوابه ونوّابه وحجّابه، يحلّلون ما يشاء ويحرّمون ما شاء، ولا يفعلون إلّاما شاء، عبادٌ مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، فهذه الديانة التى من تقدّمها غرق فى بحر الإفراط، ومن نقصّهم عن هذه المراتب التى رتّبهم اللّه فيها زهق فى بر التفريط، ولم يوفِ آل محمّد حقّهم فيما يجب على المؤمن من معرفتهم. ثمّ قال: خذها يا محمّد «۱»؛ فإنّها من مخزون العلم ومكنونه».

وروى المجلسى فى البحار فى باب معرفتهم بالنورانية رواية طويلة فى فضائل أمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام ومقاماتهم ورتبهم، قال عليه السلام: «يا سلمان ويا جندب! قالا: لبيك ياأمير المؤمنين صلوات اللّه عليك. قال عليه السلام: من آمن بما قلت وصدّق بما بيّنت وفسّرت وشرحت وأوضحت ونوّرت وبرهنت فهو مؤمن ممتحن، امتحن اللّه قلبه للإيمان وشرح صدره للإسلام، وهو عارف مستبصر قد انتهى وبلغ وكمل، ومن شكّ وعَنَدَ وجَحَدَ ووقف وتحيّر وارتاب فهو مقصّر وناصب» «۲»

.وفى صدر الرواية قال صلوات اللّه عليه مخاطباً إيّاهما: «مرحباً بكما من وليّين متعاهدين، لستما بمقصّرين إلى أن قال عليه السلام: - إنّه لا يستكمل أحد الإيمان حتّى يعرفنى كنه معرفتى بالنورانية، فإذا عرفنى بهذه المعرفة فقد امتحن اللّه قلبه بالإيمان وشرح صدره للإسلام وصار عارفاً مستبصراً، ومن قصر عن معرفة ذلك فهو شاكّ ومرتاب» «۳»

.وروی الشیخ الطوسی فی الغیبة بطریقین»

، عن أبی نعیم محمد بن أحمد الأنصاری، قال: «وجّه قوم من المقصرة والمفوضة کامل بن إبراهیم المدنی إلی أبی

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۱۵

محمّد علیه السلام، قال کامل: فقلت فی نفسی أسأله لا یدخل الجنّة إلّامن عرف معرفتی وقال بمقالتی. ثمّ سرد الروایة وفیها لقیاه بالإمام العسکری وتشرّفه بلقیا الحجّة (عج) معه، ثمّ قال (عج): وجئت تسأله عن مقالة المفوضة؟ کذّبوا، بل قلوبنا أوعیة لمشیئة اللَّه، فإذا شاء شئنا، واللَّه یقول: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ یَشَاءَ اللَّهُ» «۱»

.. الحدیث».

وفی زیارة عاشوراء المعروفة، قال علیه السلام تعلیماً للزائر: «ولعن اللَّه أمةً دفعتکم عن مقامکم وأزالتکم عن مراتبکم التی رتبکم اللَّه فیها» «۲»

.وروی الصفّار بسنده عن الثمالی عن أبی جعفر علیه السلام قال: «یا أبا حمزة لا تضعوا علیّاً دون ما وضعه اللَّه، ولا ترفعوه فوق ما رفعه اللَّه، کفی لعلیّ أن یقاتل أهل الکرّة وأن یزوّج أهل الجنّة»، وکذا رواه الصدوق فی الأمالی «۳».

وروی الشیخ فی الأمالی عن الأصبغ بن نباتة قال: «دخل الحارث الهمدانی علی أمیر المؤمنین علیه السلام حیث قال لأمیر المؤمنین علیه السلام: وزادنی إواراً وغلیلًا اختصام أصحابک ببابک. قال: وفیم خصومتهم؟ قال: فی شأنک والبلیة من قبلک، فمن مفرطٍ غالٍ ومقتصدٍ قالٍ ومتردّدٍ مرتاب لا یدری أیقدم أو یحجم. قال: فحسبک یا أخا همدان، ألا أنّ خیر شیعتی النمط الأوسط، إلیهم یرجع الغالی، وبهم یلحق التالی.. الحدیث» «۴»

.وروی السیّد شرف الدین فی تأویل الآیات، بسنده عن الصادق علیه السلام قال: «قال علیّ بن أبی طالب علیه السلام.. وإنّه لیس عبدٌ من عبید اللَّه یُقصّر فی حبّنا لخیر جعله اللَّه

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۱۶

عنده» «۱».

وروی ابن شهرآشوب فی المناقب عن الحسن بن علیّ علیهما السلام أنّه خطب الناس فحمد اللَّه وأثنی علیه وتشهّد ثمّ قال: «أیّها الناس، إنّ اللَّه اختارنا لنفسه وارتضانا لدینه واصطفانا علی خلقه وأنزل علینا کتابه ووحیه، وأیم اللَّه لا ینقصنا أحدٌ من حقّنا شیء إلّاانتقصه اللَّه فی عاجل دنیاه وآجل آخرته» «۲»

. وهو یشیر علیه السلام إلی انتقاصهم من مقاماتهم التی ذکرها علیه السلام.

وروی الکلینی فی الموثق عن عبدالخالق الصیقل، قال: «سألت أبا عبداللَّه علیه السلام عن قول اللَّه عزّوجلّ: «وَمَنْ دَخَلَهُ کَانَ آمِنًا» «۳»

؟ فقال: لقد سألتنی عن شیء ما سألنی أحد إلّامن شاء اللَّه. قال: من أمّ هذا البیت وهو یعلم أنّه البیت الذی أمر اللَّه عزّوجلّ به وعَرِفَنا أهل البیت حقّ معرفتنا کان آمناً فی الدنیا والآخرة» «۴»

. ومفهوم قوله علیه السلام: إنّ المقصّر فی معرفتهم لا یکون آمناً فی الآخرة.

روی الکلینی فی الکافی عن ضریس الکناسی، قال: «سمعت أبا جعفر علیه السلام یقول وعنده أُناس من أصحابه-: عجبت من قوم یتولّونا ویجعلونا أئمّة ویصفون أنّ طاعتنا مفترضة علیهم کطاعة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ثمّ یکسرون حجّتهم ویخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم، فینقصونا حقّنا ویعیبون ذلک علی من أعطاه اللَّه برهان حقّ معرفتناوالتسلیم لأمرنا! أترون أنّ اللَّه تبارک وتعالی افترض طاعة أولیائه علی عباده، ثمّ یخفی عنهم أخبار السماوات والأرض» «... ۵»

.الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۱۷

جدلیة الغلوّ والتقصیر فی قول بعض أعلام الطائفة ... ص: ۱۷

وسيأتى جملة عديدة من أقوال علماء الطائفة فى أبواب الفصول اللاحقة حول التفويض، إلّاأنّا سنشير إلى نبذة وجملة نافعة، منها ما قاله الشيخ المفيد فى شرح اعتقادات الصدوق عند قوله: اعتقادنا فى الغلاة والمفوّضة، وإنّ علامة المفوّضة والغلاة وأصنافهم نسبتهم المشايخ والعلماء إلى القول بالتقصير ... قال:

والغلاة من المتظاهرين بالإسلام، هم الذين نسبوا أمير المؤمنين وذرّيته إلى الإلوهية والنبوّة إلى أن قال وأمّا نصّه رحمه الله أى الصدوق بالغلوّ على من نسب مشايخ القمّيين وعلمائهم إلى التقصير، فليس نسبة هؤلاء القوم إلى التقصير علامة على غلوّ الناس؛ إذ فى جملة المشار إليهم بالشيخوخة والعلم من كان مقصّراً، وإنّما يجب الحكم بالغلوّ على من نسب المحقّين إلى التقصير، سواء كانوا من أهل قمّ أم من غيرها من البلاد وسائر الناس.

وقد سمعنا حكاية ظاهرة عن أبى جعفر محمد بن الحسن بن الوليد لم نجد لها دافعاً فى التقصير، وهى ما حكى عنه أنّه قال: أوّل درجة فى الغلوّ نفى السهو عن النبىّ صلى الله عليه و آله والإمام عليه السلام، فإن صحّت هذه الحكاية عنه فهو مقصّر، مع أنّه من علماء القمّيين ومشيختهم.

وقد وجدنا جماعة وردوا إلينا من قم يقصرون تقصيراً ظاهراً فى الدين، وينزلون الأئمّة عليهم السلام عن مراتبهم، ويزعمون أنّهم كانوا لا يعرفون كثيراً من

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۸

الأحكام الدينية حتّى ينكت فى قلوبهم، ورأينا من يقول إنّهم كانوا يلتجئون فى حكم الشريعة إلى الرأى والظنون، ويدّعون مع ذلك أنّهم من العلماء، وهذا هو التقصير الذى لا شبهة فيه، ويكفى فى علامة الغلوّ نفى القائل به عن الأئمّة عليهم السلام سمات الحدوث وحكمه لهم بالإلهية والقدم ... ولا يحتاج مع ذلك إلى الحكم عليهم وتحقيق أمرهم بما جعله أبو جعفر رحمه الله سمة للغلوّ على كلّ حال «۱».

وعلّق المجلسى على قولَى الصدوق والمفيد بقوله: ولكن أفرط بعض المتكلّمين والمحدّثين فى الغلوّ لقصورهم عن معرفة الأئمّة عليهم السلام وعجزهم عن إدراك غرائب أحوالهم وعجائب شؤونهم، فقدحوا فى كثير من الرواة الثقاة لنقلهم بعض غرائب المعجزات، حتّى قال بعضهم: من الغلوّ نفى السهو عنهم، أو القول بأنّهم يعلمون بما كان وما يكون، وغير ذلك، مع أنّه قد ورد فى أخبار كثيرة «لا تقولوا فينا ربّاً، وقولوا ما شئتم ولن تبلغوا» «۲»

.وورد: «إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلّاملك مقرّب أو نبىّ مرسل أو عبد مؤمن امتحن اللَّه قلبه للإيمان».

وورد: «لو علم أبو ذر ما فى قلب سلمان لقتله»، وغير ذلك ممّا مرّ وسيأتى.

فلابدّ للمؤمن المتديّن أن لا يبادر بردّ ما ورد عنهم من فضائلهم ومعجزاتهم ومعالى أمورهم إلّاإذا ثبت خلافه بضرورة الدين أو بقواطع البراهين أو بالآيات المحكمة أو بالأخبار المتواترة، كما فى باب التسليم وغيره. «۳»

وفى صحيحة زرارة قال: «دخلت على أبى جعفر عليه السلام فسألنى ما عندك من أحاديث الشيعة؟ قلت: إنّ عندى منها شيئاً كثيراً قد هممت أن أوقد لها ناراً ثمّ أحرقها. قال: ولِمَ؟

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۹

هات ما أنكرت منها. فخطر على بالى الأُمور. فقال لى: ما كان علم الملائكة حيث قالت:

أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك» «... ۱»

.وقال المجلسى فى شرح معنى الحديث: لعلّ زرارة كان ينكر أحاديث من فضائلهم لا يحتملها عقله، فنبّهه عليه السلام بقصّة الملائكة وإنكارهم فضل آدم عليهم وعدم بلوغهم إلى معرفة فضله، على أنّ نفى هذه الأُمور من قلّة المعرفة، ولا ينبغى أن يكذب المرء بما لم

يحط به علمه، بل لا بدّ أن يكون فى مقام التسليم، فمع قصور الملائكة مع علوّ شأنهم- عن معرفة آدم لا يبعد عجزك عن معرفة الأئمّة عليهم السلام «۲».

وقال الوحيد البهبهانى «۳» فى فوائده: إعلم أنّ الظاهر أنّ كثيراً من القدماء سيما القمّيين منهم والغضائرى، كانوا يعتقدون للأئمّة عليهم السلام منزله خاصّة من الرفعة والجلالة، ومرتبة معينة من العصمة والكمال بحسب اجتهادهم ورأيهم، وما كانوا يجوّزون التعدّى عنها، وكانوا يعدّون التعدّى ارتفاعاً وغلوّاً على حسب معتقدهم، حتّى أنّهم جعلوا مثل نفى السهو عنهم غلوّاً، بل ربما جعلوا مطلق التفويض إليهم، أو التفويض الذى اختُلف فيه كما سنذكر- أو المبالغة فى معجزاتهم ونقل العجائب من خوارق العادات عنهم، أو الإغراق فى شأنهم وإجلالهم وتنزيههم عن كثير من النقائص وإظهار كثير قدرة لهم وذكر علمهم بمكنونات السماء والأرض ارتفاعاً أو مورثاً للتهمة به، سيما بجهة أنّ الغلاة كانوا مختفين فى الشيعة مخلوطين بهم مدلسين.

وبالجملة، الظاهر أنّ القدماء كانوا مختلفين فى المسائل الأُصولية أيضاً، فربما

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۰

كان شيء عند بعضهم فاسداً أو كفراً أو غلوّاً أو تفويضاً أو جبراً أو تشبيهاً، أو غير ذلك، وكان عند آخر ممّا يجب اعتقاده، أو لا هذا ولا ذاك.

وقال صاحب تنقيح المقال «۱» ما ملخّصه: وإنّ أكثر ما يُعدّ اليوم من ضروريات المذهب فى أوصاف الأئمّة عليهم السلام كان القول به معدوداً فى العهد السابق من الغلوّ؛ وذلك أنّ الأئمّة عليهم السلام حذّروا شيعتهم من القول فى حقّهم بجملة من مراتبهم؛ إبعاداً لهم عمّا هو غلوّ حقيقة، فهم منعوا الشيعة من القول بجملة من شؤونهم حفظاً لشؤون اللّه جلّت عظمته، حيث كان أهمّ من حفظ شؤونهم؛ لأنّه الأصل وشؤونهم فرع شأنه، نشأت من قربهم لديه ومنزلتهم عنده، وهذا هو الجامع بين الأخبار الثمينة من الشؤون لهم والنافية لها.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۱

لا غلوّ ولا تقصير بل معرفة بحقّهم ... ص: ۲۱

والملاحظ ممّا تقدّم التوصية القرآنية عن الوقوع فى كلّ من جانبى زيغ الغلوّ وزيغ التقصير، وكذلك لسان الروايات المتضمّن لاصطلاح الغلوّ والغلاة والتقصير والمقصّرة، هو تخطئة كلا المنهجين والأمر بمنهج آخر يعتمد فيه نفى الغلوّ الذى هو إفراط ونفى التقصير الذى هو تفريط، وأنّ هذا النهج الوسط من الدقّة بمكانة يصعب المحافظة على تجنّب الوقوع فى الطرفين.

ومن ثمّ يُلاحظ رسوخ هذا الاصطلاح فى ذهنية علماء الطائفة الأقدمين والمتقدّمين والمتأخّرين، وتشدّدهم على توخّى نهج المعرفة والعارف بالأئمّة عليهم السلام، وهو النهج الوسط، ومحاذرة الوقوع فى طرفى الغلوّ والتقصير، فلا غلوّ ولا تقصير بل معرفة عارف بحقّهم عليهم السلام. وهذا ميزان أطّره لنا الكتاب والسنّة المطهرة، نظير لا تعطيل ولا تشبيه بل توصيف بما وصف به نفسه وهو التوحيد، نظير لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين.

كما يتبيّن ممّا تقدّم أنّ الغلوّ ذو درجات، وكذلك التقصير شدةً وضعفاً، وأنّ محذور التقصير لا سيّما فى بعض مراتبه- ليس هو بأدون من محذور الغلوّ، وأنّ النجاة فى سلوك نهج التعرّف وكسب المعرفة بكيفية مقاماتهم ومراتبهم والتسليم الإجمالى أثناء ذلك السلوك.

هذا وقد وقف أئمّة أهل البيت عليهم السلام قبالة ظاهرة التقصير فى معرفة الأئمّة عليهم السلام،

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۲

نظير وقوفهم أمام ظاهرة الغلاة، حتّى فشى وانتشر عند أصحاب الأئمّة عليهم السلام أنّ التقصير والغلوّ والتفويض فى الزيغ عن جادة سواء الحقّ، وهذا المعيار تلقّاه شيعتهم بتعليم منهم عليهم السلام، وقد ورد مكرّراً تأكيدهم على زيارة قبورهم بحال كون الزائر عارفاً

بحقّ الإمام حقّ معرفته، أو عارفاً بحقّه، وإنّ أدنى حقّ معرفة الإمام كونه منصوباً منتجباً من قبله تعالى لهداية الخلق.
ومحذور التقصير كونه يؤدّى بصاحبه إلى الإنكار والجحود، وبالتالى إلى نقص الإيمان أو المروق منه، ومن ثمّ قد ورد مستفيضاً «۱» أو متواتراً الحثّ على التسليم، وأنّها من صفات الإيمان الكبرى، بل فى بعضها أنّها من أعظم صفات الإيمان ولوازمه، وإليه تشير الآية الكريمة: «فَلَا وَرَبِّکَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوکَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» «۲»
، كما قد أُطلق عليه فى الروايات الإخبات، كما فى قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ» «۳»
.ومن هذا الباب أيضاً ما ورد من حرمة الردّ للأحاديث المرويّة وإن كانت ضعيفة السند، وهذا الحكم وإن لم يكن بمعنى حجّية واعتبار الروايات الضعيفة، إلّا أنّه يعنى فيما يعنيه وجوب التسليم الإجمالى لما صدر عنهم عليهم السلام فضلًا عمّا يتولّد من الأخبار الضعيفة نتيجة تراكم حساب الاحتمالات من تولّد المستفيض والمتواتر أو الموثوق بصدوره.
وهذا الحكم قد اتّفق عليه علماء الإمامية الأصوليون منهم والأخباريون، فاللازم فى الخبر الضعيف ردّ علمه إليهم والتسليم إجمالًا بالواقع وحقائق الدين

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۳

وإن لم نعلمها تفصيلًا، ولا يسوغ الردّ والإنكار ولا المبادرة بالنفى والإنكار.
وهذا المفاد ممّا قرّره الحكماء بقولهم: كلّما قرع سمعک ممّا لم يزدک واضح البرهان فذره فى بقعة الإمكان، ويشيرون بذلک إلى هذا المنهج المنطقى الفطرى من أنّ الإثبات كما يحتاج إلى دليل كذلک النفى والإنكار يحتاج إلى دليل.
ولک أن تقول: إنّ الفحص والتنقيب عن الأدلّة فى الشبهات الحكمية من الأحكام الشرعية الفرعية إذا كان لازماً وكان إجراء الأُصول النافية للتكليف قبل الفحص التامّ البالغ فى أبواب الأدلّة غير سائغ، فكيف يسوغ فى المعارف العقائدية حول شؤونهم ومقاماتهم ومراتبهم المبادرة إلى النفى والإنكار من دون فحص تامّ ومن دون تضلّع وممارسة علمية ممتدّة، لا- سيّما وأنّ أبواب الأدلّة فى المعارف هى أضعاف مضاعفة على عدد وكم أبواب أدلّة الفروع، وكذلک الحال فى آيات القرآن فى المعرفة هى أضعاف آيات الأحكام الفرعية التى عددها خمسمائة ونيف، وهو أقل من عشر آيات القرآن!
ويكفى للمتتبع أن يُلاحظ المجاميع الروائية ككتب الصدوق، فإنّ أغلب أسمائها هى فى أبواب وفصول المعارف، وكذلک بقية المحدّثين وأصحاب الجوامع الروائية من متأخّرى الأعصار كصاحب البحار، حيث قد وضع لروايات الفروع عشر مجلّدات (الطبعة الحديثة) بينما الغالب فى بقية المجلّدات بحوث المعارف، فإذا كانت أدلّة المعارف بهذه السعة والترامى فضلًا عن أهمّية وخطورة أحكام المعارف التى هى مدلول تلک الأدلّة، فكيف يتهاون فى الفحص والتنقيب والممارسة العلمية الطويلة؟ وكيف يتسنّى الفحص فى كلّ تلک الأبواب فى وقت قصير فضلًا عن البحث فى الدلالة ومعالجة العامّ والخاصّ والحاكم والمفسّر، وتأليف القرائن العديدة، والتمعّن فى الدلالات الالتزامية، وتبويب الأدلّة فى طوائف؟

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۴

كيف يتمّ ذلک فى برهة قصيرة فلا يسوغ المبادرة بالإجابة بنفى ثبوت الأمر الفلانى أو الكذائى أو زعم أنّه لم يقم دليل عليه، ونحو ذلک من التعابير التى تطلق مع عدم استنفاذ الفحص وعدم المراس والاضطلاع والخبرة المعرفية فى تلک الأبواب، ومع عدم الإحاطة بأقوال علماء الإمامية من المتكلّمين والمحدّثين والمفسّرين على اختلاف مبانيهم ومشاربهم، والإحاطة بشتّى الوجوه المذكورة، وربط المسائل بعضها ببعض، فالحرىّ والعزيمة فى مثل ذلک هو التوقّف قبل استتمام الفحص كما هو ديدن فتاوى وأجوبة الشيخ المفيد فى المسائل العقائدية فى الموارد التى لم يكمل تمحيصاً ولم يستنفذ الوسع فى الفحص والتنقيب عنها، بمثل قوله لم أقف على الروايات فى ذلک، أو المسائلة بعد محتاجه إلى التأمّل، ونحو ذلک من التعابير.
وهذا منهج السالک المتعلّم من علومهم عليهم السلام على سبيل النجاة، وأمّا المبادرة بالنفى والإنكار فهو طابع منهج التقصير

والمقصّرة.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۵

إلفات إلى قاعدة فى الغلو ... ص: ۲۵

اشارة

قال تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَاتَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ» «۱»

الآية، وقال تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَاتَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» «۲»

.ذُكر فى تفسير هـاتين الآيتين أنّ الغلوّ هو التجاوز عن الحدّ والزيادة والإفراط، وغير الحقّ الباطل وادّعاء أنّه ما أنزل اللَّه. فى المعجم الوسيط: (غلاـ السعر وغيره غلواً وغلاءً، زاد وارتفع وجاوز الحدّ فهو غالى وغلى ... فلان فى الأمر والدين تشدّد فيه وجاوز الحدّ وأفرط) «۳».

وظاهر الآيتين يشير إلى ضابطة وقيد مقوّم لمعنى الغلوّ، وهو أنّ الغلوّ تجاوز الحدّ فى الشيء والإفراط فيه بغير الحدّ الذى له فى الدين، وبالتالى وضعه فى غير محلّه الذى وضعه له الدين، أى التجاوز برتبته الرتيبة التى جعلها الدين لذلك الشيء، ومن ثم وضعه فى غير حقّ موضعه الذى حدّد فى الدين، وإلى ذلك تشير الآية الثانية.

كما يلزم من الغلوّ القول على اللَّه بغير الحقّ؛ لأنّ التديّن والديانة بالإفراط فى

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۶

الشيء ينطوى على نسبة ذلك إلى دين اللَّه تعالى وتشريعه، وبالتالى الافتراء على اللَّه عزّوجلّ، وإلى هذا المعنى تشير الآية الثانية.

ويتحصّل من ذلك: أنّ للغلوّ معنىً عامّ وهو التجاوز بالشيء والإفراط فى رتبته زيادةً على الرتبة التى حدّدها الشارع لذلك الشيء. ولهذا المعنى العامّ موارد ومصاديق لا تحصى؛ إذ لا يقتصر الغلوّ على التأليه وهو ما ارتكبته النصارى فى النبيّ عيسى عليه السلام بل يعمّ الإفراط والتجاوز فى كلّ شيء زاد عن حدّه المرسوم فى دين اللَّه، فلو اعتُقد فى الإمام أنّه نبىّ لكان ذلك من الغلوّ وكذا لو اعتُقد فى النبىّ غير المرسل أنّه رسول لكان من الغلوّ أيضاً، وهكذا لو اعتُقد فى صحابة النبىّ صلى الله عليه و آله بالعصمة لكان من الغلوّ أيضاً، وكذا لو اعتُقد فى علماء الأُمّة وفقهائها أو فى بعض العارفين السالكين أو فى بعض الحكماء والفلاسفة بالعصمة لكان من الغلوّ أيضاً، وكذا لو اعتُقد فى بعض أركان فروع الدين أنّه برتبة تفوق بعض اصول الدين الاعتقادية كان من الغلوّ أيضاً...

وبالجملة، فوضع أىّ شيء فى رتبة زائدة عن الرتبة التى حدّدها الدين لذلك الشيء فهو من الغلوّ، ولا يقتصر ذلك على التأليه، كما لا يقتصر شكل الغلوّ ونموذجه على التصريح بالإفراط فى رتبته، الشيء بل قد يتّخذ أشكالًا وأنماطاً متعددة ترجع فى جوهرها إلى الافراط فى الحدّ والرتبة، وذلك مثل ترتيب أحكام وآثار على ذلك الشيء تتجاوز برتبتها عن رتبة الشيء، مثل أن نجعل قول الصحابى فى قبال قول النبى صلى الله عليه و آله.

ومن الغريب زعم أهل سنّة الخلافة غلوّ الشيعة فى أئمتهم مع أنّهم لاـ يقولون فيهم أجاز إلّاما أجاز لهم القرآن فى ذلك والنصوص النبوية بفقه غور تلك المعانى، ولم يتعدّوا فى مقامات الأئمة عليهم السلام إلّاما هو دون مقام سيّد الأنبياء عليهم السلام:

(مسلمين للَّهمطيعين لأمر رسوله).

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۷

بينما ترى أنّ أهل سنّة الخلافة يقرّون ويصحّحون للصحابى- كالخليفة الثانى- مواقف يعترض فيها على النبىّ صلى الله عليه و آله،

وأنّه ينزل الوحى بتصويب الثانى وتخطأة النبىّ صلى الله عليه و آله، فى حكايات اختلقوها بأسباب النزول مشحونة بالتناقض والتهافت.

أو يروون بأنّ الثانى كانت غيرته على الدين والعياذ باللَّه- أكثر من النبىّ، وأنّه أشدّ نكيراً للباطل منه صلى الله عليه و آله.

ومع أنّهم ينفون وينكرون دعوى العصمة فى الصحابى حسب زعمهم- ومع ذلك تراهم يفرطون ويغلون فيه إلى ما فوق عصمة النبىّ صلى الله عليه و آله، فمن جانب قد وقعوا فى الغلوّ فى شأن بعض الصحابة، ومن جانب آخر وقعوا فى التقصير فى شأن مقام النبىّ صلى الله عليه و آله وعصمته التى قال تعالى: «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى» «۱»

. وإنّ اجتهاد الصحابى على حدّ حكم النبى صلى الله عليه و آله بزعم أنّه اجتهاد منه صلى الله عليه و آله، وكذلك جعل قول الحكيم والفيلسوف والعالم فى قبال قول المعصوم!

هذا وقد ورد عن الأئمّة الأطهار أقوال تحثّ شيعتهم على تنزيههم عن الربوبيّة: «نزّلونا عن الربوبية» و «قولوا فينا إنّا عبيد مخلوقون» و «لا تزعموا أنّا أنبياء وقولوا فينا ما شئتم»، أى فى بيان الحدّ الذى هو دون الخالقية، أى حدّ المخلوق المكرّم عند اللَّه، «ولن تبلغوا كنه معرفتنا»، أى رتبة الإكرام والحظوة والزلفى التى لهم عند اللَّه «۲»، وفى هذه القاعدة توصية بعدم الغلوّ فيهم، كما أنّ ذيلها متضمّن للتوصية بعدم التقصير بمعرفتهم.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۸

ملازمة بين الغلوّ والتقصير ...: ص: ۲۸

وبعد ما تبيّن أنّ للغلوّ أصنافاً وأقساماً عديدة، يجدر الإلفات إلى أنّ بعض أقسام الغلوّ هى ملازمةٌ إلى أنماطٍ من التقصير، بل التدقيق يرشد إلى تلازم كلّ أنواع الغلوّ لنمط من أنماط التقصير، فمثلًا التأليه للبشر المخلوق من نبىّ أو إمام- هو فى الواقع تقصير فى معرفة البارى؛ للزومه الشرك ونحوه، وكذلك البناء على العصمة فى الصحابى رافقه الخدشة فى عصمة النبىّ صلى الله عليه و آله.

وبكلمة جامعة: إنّ الغلوّ كما هو وضع الشى‏ء زيادة على رتبته، فهو يستلزم سلب الشى‏ء الآخر رتبتَه، وإعطائها للطرف الأوّل الذى حصل فيه الغلوّ، وهذا من ميزات باب الغلوّ والتقصير، أنّهما متلازمان من جهتين، وإن كانا متقابلين فى الجهة الواحدة، فلا يظنّ أنّ الخلاص من الغلوّ هو بالتقصير، بل التقصير هو وقوع فى الغلوّ من نمط آخر من حيث لا يشعر المقصّر.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إلينا يرجع الغالى فلا نقبله، وبنا يلحق المقصّر فنقبله.

فقيل: كيف ذلك يابن رسول اللَّه؟ قال: لأنّ الغالى قد اعتاد ترك الصلاة والزكاة والصيام والحجّ، فلا يقدر على ترك عادته وعلى الرجوع إلى طاعة اللَّه عزّوجلّ أبداً، وإنّ المقصّر إذا عرف عمل وأطاع» «۱».

أسباب التقصير ...: ص: ۲۸

إنّ أسباب التقصير عديدة كما هو الحال فى أسباب الغلوّ فبعضها ناجمة عن قصور علمى، وكلّ مورد بحسب العلم الذى يتكفّله أو إلى عوامل نفسانية ذاتية، وبعضها عن تقصير.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۹

وقد تقدّم أنّ القصور حالة بشرية ملازمة لغير المعصوم مهما بلغ سعيه العلمى والعملى، إلّاأنّ المحذور هو فى إنكار ما وراء الحدّ الذى بلغه الشخص، بخلاف ما إذا كان مسلّماً بما لا يحيط بمعرفته التفصيلية «۱».

نعم، هناك من الدواعى العمدية للتقصير قد ارتكبتها طوائف من هذه الأُمّة لمنازعة الحقّ أهله ومدافعة الأئمّة المعصومين المطهّرين، تارةً فى المقامات التكوينية، وهى الخلافة الإلهية فى جانبها الملكوتى، وأُخرى فى الحاكمية والإمامة السياسية، وهى الخلافة الإلهية

فى جانبها الملكى لتدبير النظام الاجتماعى.

وممّن وقع فى ورطة النموذج الأوّل: جملة غفيرة من الصوفية والعرفاء، حيث قالوا: بأنّ القطب فى كلّ زمن من الكمّلين، وهو لا يقتصر على أشخاص بأعيانهم محدودين، بل هو مقام نوعى، وهو الغوث والإمامة النوعية.

وممّن وقع في النموذج الثاني: فقهاء أهل سنّة الجماعة، حيث بنوا على عدم لزوم العصمة فى الحاكم، وأنّ دور العلم الكسبى يكفى فى إدارة الأُمور العامّة.

ومن ثمّ ترى أصحاب النموذجين ينالون من مقامات أئمّة أهل البيت وقيعة؛ بداعى فسح المجال لتسنّم مراتبهم.

ويشير إلى هذه الظاهرة فى دواعى التقصير، وإلى النموذج الأوّل ما قاله على بن الحسين عليه السلام، قال: «انتحلت طوائف من هذه الأُمّة بعد مفارقتها أئمّة الدين والشجرة النبوية إخلاص الديانة، وأخذوا أنفسهم فى مخائل الرهبانية، وتعالَوا فى العلوم، ووصفوا الإيمان بأحسن صفاتهم، وتحلّوا بأحسن السنّة، حتّى إذا طال عليهم

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۳۰

الأمد وبعدت عليهم الشقّة وامتحنوا بمحن الصادقين، رجعوا على أعقابهم ناكصين عن سبيل الهدى وعلم النجاة، يتفسّخون تحت أعباء الديانة تفسّخ حاشية الإبل تحت أوراق البزل.

ولا تحرز السيف الروايا وإن جرت ولا يبلغ الغايات إلّاسيوفها

وذهب آخرون إلى التقصير فى أمرنا، واحتجّوا بمتشابه القرآن فتأوّلوا بآرائهم، واتّهموا مأثور الخبر ممّا استحسنوا «۱»، يقتحمون فى أغمار الشبهات ودياجير الظلمات بغير قبس نور من الكتاب ولا أثرة علم من مظان العلم بتحذير مثبطين، زعموا أنّهم على الرشد من غيّهم.

وإلى من يفزع خَلَف هذه الأُمّة وقد درست أعلام الملّة ودانت الأُمّة بالفرقة والاختلاف يكفّر بعضهم بعضاً، واللّه تعالى يقول: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ» «۲»

؟ فمن الموثوق به على إبلاغ الحجّة وتأويل الحكمة إلّاأهل الكتاب وأبناء أئمّة الهدى ومصابيح الدجى، الذين احتجّ اللّه بهم على عباده، ولم يدع الخلق سدى من غير حجّة؟ هل تعرفونهم أو تجدونهم إلّامن فروع الشجر المباركة، وبقايا الصفوة الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وبرّأهم من الآفات، وافترض مودّتهم فى الكتاب!

هم العروة الوثقى وهم معدن التقى وخير جبال العالمين وينعها» «۳»

.بيّن عليه السلام أنّ هنالك نموذج من هذه الأُمّة ممّن ينازع الحقّ أهله- وهم أئمّة العترة- فى بعد كمالاتهم الملكوتية، فهو ينسب نفسه إلى إخلاص الديانة، أى إلى درجة المخلَصين والفتح وتزيّوا بالرسوم الظاهرية من الرهبانية والزهد

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۳۱

والانقطاع عن الدنيا، ونسبوا لأنفسهم مراتب من العلوم وأجهدوا أنفسهم فى تحصيلها، وتبجّحوا فى وصف الإسلام تعريضاً بالمديح لأنفسهم أنّهم يتحلّون بتمام درجات الإسلام، إلّاأنّهم لم يتمكّنوا لطبيعة شأنهم- فى الاستقامة على هذا المنوال؛ لاحتياجه إلى إعداد ربانى للذات الإنسانية، وهو الاصطفاء والانتجاب، وهم لم يُصطَفوا لذلك فلم يقدروا على مواصلة الطريق وتبيّن حال تقمّصهم لهذا المقام، وهو مقام الإمامة الملكوتية التى تنطوى على مقام العلم اللدنى بمنبع غيبى، وعلى كمال روحى يكون فيه الشخص مخلَصاً بالفتح- وعلى اتّصاف النفس بتمام الكمالات الروحية.

وهذا الغلوّ الذى ادّعاه هؤلاء لأنفسهم استلزم التقصير فى من له حقّ تلك الرتبة، وهم الأئمّة من عترة النبىّ صلى الله عليه و آله، كما مرّ بنا: كلّ غلوّ يستتبع تقصير من جهة أُخرى، وإنّ كلّ تقصير يستتبع غلوّ من جهة أُخرى، وقد وقع فى شراك هذا النموذج من الغلوّ والتقصير أكثر الصوفية وكثير من العرفاء، حيث قالوا: بأنّ القطب والغوث فى كلّ زمان شخص، ويتبدّل من زمان إلى آخر، ولا ينحصر

فى عدد محدود، وإنّ الولاية الإلهية لنوع الواصلين، وبالتالى فالعصمة الذاتية تتعدّى وتتحقّق لكلّ سالك للقرب الإلهى، فباب الوصول الكامل مفتوح للكلّ.

وقال تعالى: «قَالَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا* قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَکَ أَمْرًا* قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَکَ مِنْهُ ذِكْرًا» «۱»

.وفى هذه الواقعة التى سردها لنا القرآن الكريم تنبيه على منهجية وضابطة فى طبيعة الإنسان بل وكلّ موجود مدرك- أنّ الأُمور التى يصعب عليه معرفتها

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۳۲

بالتفصيل وتبهم لديه وتجمل حقيقتها عن أفق إدراكه، تحصل لديه النفرة والجموح عن الإذعان بها، فيبادر إلى الإذعان بنفيها، وكأنّه توصّل إلى أنّ نفيها هو الحقّ، مع أنّ فرض الحال أنّ الأمر مبهم ومجمل عليه، وأنّ إبائه ونفرته منه هو لأجل ذلك، لكن يحصل لديه الخلط بين ذلك وبين أن يحسبه أنّه من قبيل ما يعلم ببطلانه وبعدمه فى الواقع، وهذا الخلط فى كيفية الاستنتاج يربك على الإنسان طريقة الاستنتاج الصحيحة؛ فإنّ المطلوب منطقياً ومنهجياً فى الحالة الأُولى هو التوقّف عن النفى أو الإثبات وعن الإنكار أو القبول تفصيلًا، والقيام بعملية الفحص العلمى، لا المبادرة باستنتاج النفى ومن ثمّ الإنكار والجحود.

وهذا المنهج جارى فى كلّ مسألة صعبة ومعقّدة فى أى علم من العلوم، كعلم الرياضيات والفيزياء والكيمياء، وغيرها من العلوم التجريبية أو العلوم الإنسانية أو علوم المعارف الإلهية، كما قد يحصل خلط لدى الإنسان بين حالة الفحص والبحث والتنقيب وحالة التشكيك؛ فإنّ حالة التشكيك فى ظاهر صورتها أنّها عملية تسائل وتنقيب، إلّاأنّ فى طياتها استنتاج عجول للنفى ومبادرة سريعة للإنكار غير مبنية على أُسس الفحص العلمى، والتمييز بين الحالتين غامضة تدقُّ على أفهام عامّة البشر.

ويذكر القرآن الكريم لنا مثالًا آخر فى قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّکَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِکُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَنُقَدِّسُ لَکَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَاتَعْلَمُونَ* وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هؤُلَآءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَکَ لَاعِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۳۳

تَكْتُمُونَ»

. ففى المثال يضرب تعالى عبرة لنا بالملائكة مع قدسيتهم ومكانتهم، إلّاأنّه لاحتجابهم عن علم الغيب الإلهى بدر منهم استنكار ما جهلوه ومسارعة إلى التنديد به مع كونه الحقّ.

ويشير إلى النموذج الثانى الإمام أبو عبداللّه عليه السلام فى قوله: «إنّما مثل على عليه السلام ومثلنا من بعده من هذه الأُمّة كمثل موسى عليه السلام والعالم حين لقيه واستنطقه وسأله الصحبة، فكان من أمرهما ما اقتصّه اللّه لنبيه صلى الله عليه و آله فى كتابه، وذلک أنّ اللّه قال لموسى: «إِنِّي اصْطَفَيْتُکَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُکَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» «۲»

، ثمّ قال: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» «۳»

، وقد كان عند العالِم علم لم يُكتب لموسى فى الألواح، وكان موسى يظنّ أنّ جميع الأشياء التى يحتاج إليها فى تابوته وجميع العلم قد كُتب له فى الألواح، كما يظنّ هؤلاء الذين يدّعون أنّهم فقهاء وعلماء، وأنّهم قد أثبتوا جميع العلم والفقه فى الدين ممّا تحتاج هذه الأُمّة إليه وصحّ لهم عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله وعلموه وحفظوه.

وليس كلّ علم رسول اللّه صلى الله عليه و آله علموه، ولا صار إليهم عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولا عرفوه؛ وذلک أنّ الشىء من الحلال والحرام والأحكام يرد عليهم فيُسألون عنه، ولا يكون عندهم فيه أثر عن رسول اللّه، ويستحيون أن ينسبهم الناس إلى

الجهل، ويكرهون أن يُسألوا فلا يجيبوا فيطلب الناس العلم من معدنه.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۳۴

ولـذلك استعملوا الرأى والقيـاس فى دين اللَّه، وتركوا الآثـار ودانوا اللَّه بالبـدع، وقـد قال رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: كلّ بـدعة ضلالـة، فلو أنّهم إذا سُئلوا عن شىء من دين اللَّه فلم يكن عندهم منه أثر عن رسول اللَّه ردّوه إلى اللَّه وإلى الرسول وإلى أُولى الأمر منهم، لَعلِمهُ الذين يستنبطونه منهم من آل محمّد عليهم السلام، والذى منعهم من طلب العلم منّا العداوة والحسد لنا، لا واللَّه ما حسـد موسى عليه السلام العالِم، وموسى نبىّ اللَّه يُوحى اللَّه إليه، حيث لقيه واستنطقه وعرّفه بالعلم ولم يحسـد كما حسدتنا هذه الأُمّة بعد رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله على ما عَلِمنا وما ورثنا عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، ولم يرغبوا إلينا فى عِلمنا كما رَغب موسى عليه السلام إلى العالِم وسأله الصحبة ليتعلّم منه ويرشده، فلمّا أن سأل العالِمَ ذلك عَلِم العالِمُ أنّ موسى عليه السلام لا يستطيع صحبته ولا يحتمل علمَه ولا يصبر معه، فعند ذلك قال العالِم: «وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا» «۱»

، فقال موسى عليه السلام له وهو خاضع له يستعطفه على نفسه كى يقبله: «سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» «۲».

وقـد كـان العـالم يعلم أنّ موسـى عليه السـلام لاـ يصبر على علمه، فكـذلك- واللَّه يـا إسـحاق بن عمّـار- حال قضاة هؤلاء وفقهائهم وجمـاعتهم اليوم، لا يحتملون واللَّه- علمنا ولا يقبلونه ولا يطيقونه ولا يأخـذون به ولا يصبرون عليه، كما لم يصبر موسـى عليه السـلام على علم العـالِم حين صـحبه ورأى مـا رأى من علمه، وكـان ذلـك عنـد موسـى عليه السـلام مكروهاً، وكان عنـد اللَّه رضاً وهو الحقّ وكذلك علمنا عند الجهلة مكروه لا يؤخَذ وهو عند اللَّه الحقّ» «۳»

.وفى هذه الرواية العديد من الوجوه على ضرورة موقعية الإمام فى القيمومة على الشريعة، وسيأتى بيانها مفصّلًا، إلّاأنّنا نقتصر فى المقام على نبذة مجملة منها، وهى أنّ النبىّ موسى عليه السلام مع كونه نبيّاً مرسلًا من أولى العزم يتنزل عليه الوحى، أى إنّه محيط بالأحكام الشرعية وتشريعات اللَّه على ما هى عليه فى الواقع، أى بالأحكام الواقعية، إلّاأنّ ذلك لم يغنه عن العلم اللدنى الذى أعطاه اللَّه

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۳۵

للخضـر، وهو الشـريعة فى نظامها الكونى والإرادات الإلهيـة التكوينيـة. وهـذا العلم اللـدنى غير النبوّة، وهو حقيقـة الإمامة، والذى كان مجتمعاً بشكله الأكمل والأتمّ فى خاتم النبيين صلى الله عليه و آله، فلا تُغنى الإحاطة بالأحكام الواقعية لكلّ تفاصيل ظاهر الشريعة عن شريعة الإرادات الإلهية الكونية وتأويلها، فضلًا عن إحاطة الفقهاء القاصرة عن الإلمام بكلّ الأحكام الواقعية لظاهر الشريعة.

بل الفقهاء كما ذكر المحقّق النائينى فى بحث الإجزاء- لا يحيطون بجميع الأحكام الظاهريـة التى دورها إحراز الأحكام الواقعية لظاهر الشريعة؛ فإنّ جملة من الأحكام التى يستنبطها هى أحكام تخيّلية التى ينكشف له عدم كون استنباطها على الموازين من الأدلّة.

وبعبارة أُخرى: إنّ الفارق بين علم النبىّ موسى وعلم الفقهاء، إنّ علم النبىّ موسى ليس منبعه نقلى، بل هو منبع وحيانى، بينما منبع علم الفقهاء ليس إلّا ظنون معتبرة، فضلًا عمّا لو كانت ظنون تخيّلية يتوهّم أنّها معتبرة، ومع كلّ ذلك فلم يُغن علم النبىّ موسى وهو صاحب الشـريعة- عن علم التأويل الذى زوّده اللَّه تعالى للخضـر لدنيّا، فكيف يفرض إستغناء الفقهاء فى أحكام الشريعة عن دوام الرجوع إلى المعصوم؟

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۳۶

قاعدة آلية لنفى الغلوّ والتقصير ... ص: ۳۶

وهى ما روى عنهم مستفيضاً من قاعدة: «نزّلونا عن الربوبية، وقولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا». فأمّا الروايات الواردة فى ذلك فهى:

الأُولى: ما رواه الصدوق فى الخصال من حديث الأربعمائة المعروف، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إيّاكم والغلوّ فينا، قولوا إنّا عبيد مربوبون، وقولوا فى فضلنا ما شئتم». «۱»

الثانية: ما رواه الصفّار فی بصائر الدرجات، عن إسماعيل بن عبد العزيز، قال: «قال أبو عبد اللَّه عليه السلام فی حديث: ياإسماعيل لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم، إجعلونا مخلوقين، وقولوا فينا ما شئتم فلن تبلغوا» «۲»

.الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۳۷

الثالثة: ما رواه الصفّار بسنده عن كامل التمّار، قال: «كنت عند أبی عبد اللَّه عليه السلام ذات يوم فقال لی: ياكامل، اجعل لنا ربّاً نؤوب إليه، وقولوا فينا ما شئتم قال: قلت: نجعل لكم ربّاً تؤوبون إليه ونقول فيكم ما شئنا؟ قال: فاستوى جالساً ثمّ قال: وعسى أن نقول ما خرج إليكم من علمنا إلّاألف غير معطوفة.

والمراد من الألف غير المعطوفة كناية عن نهاية القلّة» «۱»

.الرابعة: روى فی كشف الغمّة من كتاب الدلائل للحميری عن مالك الجهنی، قال: «كنّا بالمدينة حين أُجلبت الشيعة وصاروا فرقاً، فتنحينا عن المدينة ناحية، ثمّ خلونا فجعلنا نذكر فضائلهم وما قالت الشيعة، إلى أن خطر ببالنا الربوبية، فما شعرنا بشیء؛ إذا نحن بأبی عبد اللَّه عليه السلام واقف على حمار، فلم ندرِ من أين جاء، فقال:

يامالك وياخالد، متى أحدثتما الكلام فی الربوبية؟ فقلنا: ما خطر ببالنا إلّاالساعة.

فقال: إعلما، أنّ لنا ربّاً يكلأنا بالليل والنهار نعبده، يامالك وياخالد، قولوا فينا ما شئتم، واجعلونا مخلوقين. فكرّرها علينا مراراً وهو واقف على حماره» «۲»

.الخامسة: وروى فی البحار فی باب معرفتهم بالنورانية (أی إنّ مبدأ خلقهم هو خلق أنوارهم)، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «يا سلمان ويا جندب. قالا: لبيك صلوات اللَّه عليك. قال عليه السلام: أنا أمير كلّ مؤمن ومؤمنة ممّن مضى وممّن بقی، وايّدتُ بروح العظمة، وإنّم أنا عبدٌ من عبيد اللَّه، لا تسمّونا أرباباً وقولوا فی فضلنا ما شئتم، فإنّكم لن تبلغوا من فضلنا كُنه ما جعله اللَّه لنا، ولا معشار العشر» «۳»

.السادسة: ما رواه الراوندی فی خرائجه عن خالد بن نجيع، قال: «دخلت على أبی عبداللَّه عليه السلام وعنده خلق، فجلست ناحية وقلت فی نفسی: ما أغفلهم، عند من

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۳۸

يتكلّمون! فنادانی: إنّا واللَّه عبادٌ مخلوقون، لی ربّ أعبده؛ إن لم أعبده عذّبنی بالنار.

قلت: لا أقول فيك إلّاقولك فی نفسك.

قال: اجعلونا عبيداً مربوبين وقولوا فينا ما شئتم إلّاالنبوّة» «۱»

.ورواه فی بصائر الدرجات بطريقين.

السابعة: ما رواه فی التفسير المنسوب إلى الإمام العسكری عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا تتجاوزوا بنا العبودية ثمّ قولوا ما شئتم ولا تغلوا، وإيّاكم والغلوّ كغلوّ النصارى؛ فإنّی بری من الغالين» «۲»

.ورواه فی الاحتجاج عن تفسير الإمام العسكری عليه السلام: «قال الرضا عليه السلام: من تجاوز بأمير المؤمنين عليه السلام حدّ العبودية فهو من المغضوب عليهم والضالين.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: لا تتجاوزوا بنا العبودية ثمّ قولوا ما شئتم ولن تبلغوا، وإيّاكم والغلوّ كغلوّ النصارى؛ فإنّی بری من الغالين...

إلى أن قال بعد شرح غلوّ النصارى: فكذلك هؤلاء، وجدوا أمير المؤمنين عبداً أكرمه اللَّه ليبيّن فضله ويقيم حجّته، فصغر عندهم خالقهم أن يكون جعل عليّاً له عبداً، وأكبروا عليّاً عن أن يكون اللَّه عزّوجلّ له ربّاً، فسمّوه بغير اسمه، فنهاهم هو وأتباعه من أهل ملّته وشيعته، وقالوا لهم: يا هؤلاء! إنّ عليّاً وولده عبادٌ مكرمون مخلوقون مدبرون، لا يقدرون إلّاعلى ما أقدرهم عليه اللَّه ربّ العالمين، ولا

يملكون إلّاما ملكهم» «۳»

.الثامنة: ما فی غرر الحكم: «قال أمیر المؤمنین علیه السلام: إيّاكم والغلوّ فينا، قولوا إنّا

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۳۹

مربوبون واعتقدوا فی فضلنا ما شئتم» «۱»

.التاسعة: ما رواه الكلينی عن عبد العزيز بن مسلم، قال: «كنّا مع الرضا عليه السلام...

ثم ساق حديثاً طويلًا عنه فی الإمامة، وفيها: إنّ الإمامة أجلّ قدراً وأعظم شأناً وأعلى مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم أو ينالوها بآرائهم ... الإمام كالشمس الطالعة المجلّلة بنورها للعالم، وهی فی الأُفق بحيث لا تنالها الأيدی والأبصار ... فمن الذی يعرف معرفة الإمام أو يمكنه اختياره؟ هيهات هيهات، ضلّت العقول وتاهت الحلوم وحارت الألباب وخسئت العيون وتصاغرت العظماء وتحيّرت الحكماء وتقاصرت الحلماء وحصرت الخطباء وجهلت الألبّاء وكلّت الشعراء وعجزت الأدباء وعييت البلغاء، عن وصف شأن من شأنه أو فضيلة من فضائله، وأقرّت بالعجز والتقصير، وكيف يوصف بكله أو ينعت بكنه أو يفهم شیء من أمره أو يوجد من يقوم مقامه ويغنی غناه، لا، كيف وأنّى؟ وهو بُعد النجم عن يد المتناولين ووصف الواصفين، فأين الاختيار من هذا، وأين العقول عن هذا» «۲»

.وروى فی المنتخب من بصائر الدرجات لسعد بن عبد اللَّه الأشعری، عن ابن عيسى بإسناده إلى المفضّل، قال: «قال أبو عبد اللَّه عليه السلام: ما جاءكم منّا ممّا يجوز أن يكون فی المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه، فلا تجحدوه، وردّوه إلينا، وما جاءكم عنّا ممّا لا يجوز أن يكون فی المخلوقين، فاجحدوه ولا تردّوه إلينا «۳».

فبيّن عليه السلام أنّ الضابطة فی صحّة إسناد النعوت والأوصاف لهم عليهم السلام والمدار فی تحقيق مقاماتهم، ليس على عدم غرابة النعت، ولا على تعقّلنا لتلك النعوت وإمكان فهمنا لها تفصيلًا، ولا على أنسنا لتلك الأوصاف والنعوت، بل ولا على

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۴۰

صرف صحّة السند وعدمه، وإنّما المدار على إمكان كون تلك الصفة صفة المخلوقين، أی عالم الإمكان ما سوى اللَّه، وإن لم يكتنه العقل المحدود للبشر كنه حقيقة تلك الصفة بنحو التفصيل، لكنّه يدرك إجمالًا أنّ الصفة صفة ممكن حادث، لا صفة المختصّة بالذات الأزلية الغنية.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۴۱

قاعدة آلية أُخرى وهی معرفتهم بالخلقة النورية ... ص: ۴۱

وهی أنّه تعالى أوّل ما بدأ بخلق نورهم، ثمّ خَلَق جميع الأشياء بعد ذلك.

وهذه القاعدة فی المعرفة متطابقة المعنى مع الإطار السابق: نزلونا عن الربوبية وقولوا فينا ما شئتم. من الكرامة الوجودية التی حباها اللَّه تعالى لهم ولن تبلغوا كنه ذلك. وبسبب تطابق المعنى بين الإطارين فهما قاعدة واحدة، ذُكِرا فی الرواية الخامسة المتقدّمة- فی لسان الإطار الأوّل.

وقد عقدت أكثر المجامع الحديثية من الفريقين باباً لذكر روايات الإطار الثانی، وهی أنّ بدأ الخلقة كان نور النبیّ صلى الله عليه و آله، ثمّ أنوار أهل بيته، ومن ثمّ بقية الخلق، من العرش والكرسی واللوح والقلم والجنّة والسماوات والأرضين وعالم الأرواح وعالم الأجسام ... وقد تعدّدت ألفاظ الحديث بسطاً واختصاراً واللفظ الجامع لها. ثمّ نعقّبه بالمصادر من الفريقين، ثمّ إشارة مقتضبة لمفاد الحديث وأُمومته لبقية أبواب المعارف.

فأمّا لفظ الحديث من بعض طرقنا، ما روی فی الكافی:

«أحمـد بن إدريس، عن الحسـين بن عبـد اللّه، عن محمّد بن عيسـى ومحمّد بن عبد اللّه، عن على بن حديد، عن مرازم، عن أبى عبد اللّه عليه السـلام، قال: قال اللّه تبارک وتعالى: يا محمّد، إنّى خلقتک وعليّاً نوراً، يعنى روحاً بلا بدن، قبل أن أخلق سـماواتى وأرضـى وعرشى وبحرى، فلم تزل تهلّلنى وتمجّدنى، ثمّ جمعت روحيكما فجعلتهما واحدة، فكانت

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۴۲

تمجّدنى وتقدّسنى وتهلّلنى، ثمّ قسّمتها ثنتين، وقسّمت الثنتين ثنتين فصارت أربعة:

محمّـد واحـد، وعليّ واحد، والحسن والحسـين ثنتان، ثمّ خلق اللّه فاطمة من نور إبتدأها روحاً بلا بدن، ثمّ مسـحنا بيمينه فأفضـى نوره فينا» «۱»

.وكذلک ما رواه الكافى فى نفس الباب: «الحسـين بن محمّد الأشعرى، عن معلى بن محمّد، عن أبى الفضل عبد اللّه بن إدريس، عن محمّد بن سـنان، قال: كنت عند أبى جعفر الثانى عليه السلام، فأجريت اختلاف الشيعة، فقال: يا محمّد، إنّ اللّه تبارک وتعالى لم يزل متفرّداً بوحـدانيته، ثمّ خلق محمّـداً وعليّاً وفاطمـة، فمكثوا ألف دهر، ثمّ خلق جميع الأشـياء فأشـهدهم خلقهـا، وأجرى طاعتهم عليها، وفوّض أمورها إليهم، فهم يحلّون ما يشاؤون ويحرّمون ما يشاؤون، ولن يشاؤوا إلّاأن يشاء اللّه تبارک وتعالى.

ثمّ قال: يا محمّد، هذه الديانة التى من تقدّمها مرق ومن تخلّف عنها محق ومن لزمها لحق، خذها إليک يا محمّد» «۲»

.الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۴۳

وذكر المجلسى فى ضـمن شـرحه للروايـة: فأشـهدهم خلقهـا، أى خَلَقهـا بحضـرتهم وبعلمهـم، وهم كـانوا مطّلعين على أطـوار الخلق وأسراره، فلذا صاروا مستحقّين للإمامة؛ لعلمهم الكامل بالشرائع والأحكام وعلل الخلق وأسرار الغيوب، وأئمّة الإمامية كلّهم موصوفون بتلک الصفات دون سائر الفرق فيه، فيبطل مذهبهم، فيستقيم الجواب على الوجه الثانى أيضاً.

ولا ينافى هذا قوله تعالى: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» «۱»

، بل يؤيّده؛ فإنّ الضـمير فى (ما أشـهدتهم) راجع إلى الشـيطان وذرّيته، أو إلى المشركين؛ بدليل قوله تعالى سابقاً: «أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِی» «۲»

وقوله بعد ذلک: «وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا» «۳»

، فلا ينافى إشهاد الهادين للخلق.

قال الطبرسـى رحمه الله: قيل: معنى الآيـة أنّكم اتّبعتم الشـياطين كما يتّبع من يكون عنده علم لا يُنال إلّامن جهته، وأنا ما أطلعتهم على خلق السماوات والأرض ولا على خلق أنفسهم، ولم أعطهم العلم بأنّه كيف يُخلق الأشياء، فمن أين يتبعونهم؟ انتهى.

وأجرى طـاعتهم عليهـا: أى أوجب وألزم على جميع الأشـياء طاعتهم، حتّى الجمادات من السـماويات والأرضـيات، كشقّ القمر وإقبال الشجر وتسبيح

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۴۴

الحصـى، وأمثالهـا ممّا لا يحصـى، وفوّض أُمورها إليهم من التحليل والتحريم والعطاء والمنع، وإن كان ظاهرها تفويض تـدبيرها إليهم فهم يحلّون ما يشاؤون، ظاهره تفويض الأحكام كما سيأتى تحقيقه ... الخ. «۱»

وكذلک ذكر قدس سره فى ذيل روايات أوّل ما خلق من الروحانيين العقل، وذكر له ستّة تفاسير، وقال عقب تفسير الفلاسفة:

فاعلم أنّ أكثر ما أثبتوه لهذه العقول قد ثبت لأرواح النبيّ والأئمّة عليهم السلام فى أخبارنا المتواترة على وجه آخر، فإنّهم أثبتوا القدم للعقـل، وقـد ثبت التقـدّم فى الخلق لأـرواحهم إمّـا على جميع المخلوقـات، أو على سائر الروحانيين فى أخبار متواترة. وأيضاً أثبتوا لها التوسّـط فى الإيجـاد أو الاشتراط فى التأثير، وقـد ثبت فى الأخبار كونهم عليهم السـلام علّـة غائيـة لجميع المخلوقات، وأنّه لولاهم لما خلق اللّه الأفلاک وغيرها، وأثبتوا لها كونها وسائط فى إفاضـة العلوم والمعارف على النفوس والأرواح، وقد ثبت فى الأخبار أنّ جميع

العلوم والحقائق والمعارف بتوسّطهم تفيض على سائر الخلق، حتّى الملائكة والأنبياء.

والحاصل، إنّه قد ثبت بالأخبار المستفيضة أنّهم عليهم السلام الوسائل بين الخلق وبين الحقّ فى إفاضة جميع الرحمات والعلوم والكمالات على جميع الخلق، فكلّما يكون التوسّل بهم والإذعان بفضلهم أكثر، كان فيضان الكمالات من اللَّه أكبر...

فعلى قياس ما قالوا يمكن أن يكون المراد بالعقل نور النبىّ صلى الله عليه و آله الذى انشعبت منه أنوار الأئمّة عليهم السلام، واستنطاقه على الحقيقة. أو بجعله محلّاً لمعارف الغير المتناهية.

والمراد بالأمر بالإقبال ترقّيه على مراتب الكمال وجذبه إلى أعلى مقام القرب والوصال، وبإدباره إمّا إنزاله إلى البدن أو الأمر بتكميل الخلق بعد غاية الكمال،

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۴۵

فإنّه يلزمه التنزّل عن غاية مراتب القرب بسبب معاشرة الخلق، ويشير إليه قوله تعالى: «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا* رَسُولًا» «۱»

، وقد بسطنا الكلام فى ذلك فى الفوائد الطريفة، ويحتمل أن يكون المراد بالإقبال الإقبال إلى الخلق، وبالإدبار الرجوع إلى عالم القدس بعد إتمام التبليغ؛ ويؤيّده ما فى بعض الأخبار من تقديم الإدبار على الإقبال وعلى التقادير.

فالمراد بقوله تعالى (ولا أكمّلك) يمكن أن يكون المراد ولا أكمّل محبّتك والارتباط بك وكونك واسطة بينه وبينى، إلّافيمن أحبّه، أو يكون الخطاب مع روحهم ونورهم عليهم السلام، والمراد بالإكمال إكماله فى أبدانهم الشريفة، أى هذا النور بعد تشعّبه بأى بدن تعلّق وكمل فيه يكون ذلك الشخص أحبّ الخلق إلى اللَّه تعالى. انتهى. «۲»

وأمّا فى طرق العامّة، فقد ذكر صاحب عبقات الأنوار السيّد حامد حسين اللكهنوى عن حديث النور، قال:

الحديث الثامن: «ما رووا أنّه صلى الله عليه و آله قال: كنت أنا وعلىّ بن أبى طالب نوراً بين يدى اللَّه قبل أن يُخلق آدم بأربعة آلاف سنة، ولمّا خلق اللَّه آدم قسّم ذلك النور جزئين، فجزء أنا وجزء علىّ بن أبى طالب» ... الحديث.

قال صاحب العبقات: لقد نسب الدهلوى صاحب التحفة الاثنى العشرية- رواية حديث النور إلى الإمامية فقط، وادّعى إجماع أهل السنّة على كونه موضوعاً، وعن مدى تعصّب صاحبها وعناده بذكر رواة الحديث من الصحابة والتابعين وكبار علماء أهل السنّة، ثمّ ذكر أسماء رواة حديث النور من الصحابة وعدّتهم ثمانية، كما ذكر رواة حديث النور من التابعين وعدّتهم ثمانية أيضاً،

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۴۶

وذكر العلماء والمحدّثين والحفّاظ الذين رووا الحديث فى مجاميعهم وعدّتهم واحد وأربعون، بطرقهم المختلفة. منهم: ابن حنبل، وابنه عبد اللَّه، وابن مردويه، وأبو نعيم الأصبهانى، وابن عبد البرّ القرطبى، وابن المغازلى، والخطيب الخوارزمى المكى، وابن عساكر الدمشقى، والمحبّ الطبرى، والحموينى، والگنجى الشافعى، والخطيب البغدادى، وابن حجر العسقلانى، وغيرهم.

ثمّ أخذ رضوان اللَّه عليه- فى إثبات تواتر الحديث، ثمّ ذكر مصادر الحديث واحداً واحد، وذكر صحّة أسانيد الحديث لديهم، ثمّ ذكر كلام الشيخ ابن عربى فى تفسير الحديث بأنّه: لم يكن أقرب إلى اللَّه تعالى فى عالم الهباء وهو عالم النور- من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وأقرب الناس إليه علىّ بن أبى طالب، أمام العالم بأسره، والجامع لأسرار الأنبياء أجمعين «۱».

ثمّ نَقَل عن ابن عربى فى الفتوحات: إنّ جميع الأنبياء يأتيهم الإمداد من تلك الروح الطاهرة لسيّد الأنبياء، فى ما يظهرون فيه من الشرائع والعلوم فى زمان وجودهم رسولًا وتشريعهم الشرائع.

ونَقَل عنه قوله أيضاً: إنّ اللَّه لمّا جعل منزل محمّد صلى الله عليه و آله السيادة فكان سيداً ومن سواه سوقة، علمنا أنّه لا يُقاوَم؛ فإنّ السوقة لا تقاوم ملوكها، فله منزل خاصّ وللسوقة منزل، ولمّا أُعطى هذه المنزلة وآدم بين الماء والطين، علمنا أنّه الممدّ لكلّ إنسان مبعوث بناموس إلهى أو حكمى، وأوّل ما ظهر من ذلك فى آدم، حيث جعله اللَّه خليفة عن محمّد صلى الله عليه و آله فأمدّه بالأسماء كلّها من مقام جامع الكلم التى لمحمّد صلى الله عليه و آله.

ثمّ نَقَل كلام الشيخ عبد الوهاب الشعرانی من كتابه اليواقيت والجواهر وتقريره

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۴۷

لكلام ابن عربی. ثمّ نَقَل كلام شمس الدين القناری وتقريره لكلام ابن عربی فی مصباح الانس «۱».

ثمّ نَقَل مصادر حديث النور عند الإمامية، فذكر جملة من الروايات عن الكلينی فی الكافی، وعن الصدوق فی جملة من كتبه، وعن الشيخ المفيد فی الاختصاص، والشيخ الطوسی فی الأمالی، والراوندی فی الخرائج والجرائح، والعلّامة الحلّی فی كشف اليقين، وتفسير فرات الكوفی ... وجملة غفيرة أُخری من علماء الإمامية. «۲»

هذا، وقد روی بألفاظ متعدّدة أيضاً، فمنها: ما رواه عبد الرزاق الصنعانی فی مصنّفه، كما حكاه عنه صاحب كشف الخفاء «۳» بسنده عن جابر بن عبد اللَّه قال:

«قلت: يارسول اللَّه، بأبی أنت وأُمّی، أخبرنی عن أوّل شیء خلقه اللَّه قبل الأشياء؟ قال:

يا جابر، إنّ اللَّه تعالی خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء اللَّه، ولم يكن فی ذلك الوقت لوح ولا قلم، ولا جنّة ولا نار، ولا ملك، ولا سماء ولا أرض، ولا شمس ولا قمر، ولا جنّی ولا إنسی، فلمّا أراد اللَّه أن يخلق الخلق قسّم ذلك النور أربعة أجزاء: فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثانی اللوح، ومن الثالث العرش.

ثمّ قسّم الجزء الرابع أربعة أجزاء: فخلق من الجزء الأوّل حملة العرش، ومن الثانی الكرسی، ومن الثالث باقی الملائكة.

ثمّ قسّم الجزء الرابع أربعة أجزاء: فخلق من الأوّل السموات، ومن الثانی الأرضين،

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۴۸

ومن الثالث الجنّة والنار.

ثمّ قسّم الجزء الرابع أربعة أجزاء: فخلق من الأوّل نور أبصار المؤمنين، ومن الثانی نور قلوبهم وهی المعرفة باللَّه، ومن الثالث نورانيتهم وهو التوحيد لا إله إلّااللَّه محمّد رسول اللَّه ...» الحديث، كذا فی المواهب.

وقال فيها أيضاً: واختُلف، هل القلم أوّل المخلوقات بعد النور المحمّدی أم لا؟ فقال الحافظ أبو يعلی الهمدانی: الأصحّ أنّ العرش قبل القلم؛ لما ثبت فی الصحيح عن ابن عمر، قال: «قال رسول اللَّه صلی الله عليه و آله: قدّر اللَّه مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه علی الماء». فهذا صريح فی أنّ التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أوّل خلق القلم، فحديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «أوّل ما خلق اللَّه القلم، فقال له: اكتب، فقال: ربّ: وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلّ شیء»، رواه أحمد والترمذی وصحّحه.

وروی أحمد والترمذی، وصحّحه أيضاً من حديث أبی رزين مرفوعاً: إنّ الماء خُلق قبل العرش». وروی السدی بأسانيد متعدّدة: «أنّ اللَّه لم يخلق شيئاً ممّا خلق قبل الماء».

فيجمع بينه وبين ما قبله، بأنّ أوّلية القلم بالنسبة إلی ما عدا النبوّی المحمدیّ والماء والعرش. انتهی.

وقيل: الأوّلية فی كلّ شیء بالإضافة إلی جنسه، أی أوّل ما خلق اللَّه من الأنوار نوری، وكذا باقيها، أو فی ...

وروی فی كشف الخفاء أيضاً- عن كتاب الأحكام لابن القطّان، فيما ذكره ابن مرزوق، عن علی بن الحسين، عن أبيه، عن جدّه: «أنّ النبیّ صلی الله عليه و آله قال: كنت نوراً بين يدی ربّی قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام». انتهی ما فی المواهب.

ونبّه الشبراملسی: ليس المراد بقوله من نوره ظاهره من أنّ اللَّه تعالی له نور قائم

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۴۹

بذاته؛ لاستحالته عليه تعالی؛ لأنّ النور لا يقوم إلّابالأجسام، بل المراد خُلِق من نور مخلوق له، قيل: نور محمّد، وأضافه إليه تعالی؛ لكونه تولّی خلقه. ثمّ قال:

ويحتمل أنّ الإضافة بيانية، أى خلق نور نبيّه من نور هو ذاته تعالى، لكن لا- بمعنى أنّها مادّة خلق نور نبيّه منها، بل بمعنى أنّه تعالى تعلّقت إرادته بإيجاد نور بلا توسّط شيء في وجوده. قال: هذا أولى الأجوبة، نظير ما ذكره البيضاوى في قوله تعالى: «ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» «۱»

، حيث قال إضافة إلى نفسه تشريفاً وإشعاراً بأنّه خلق عجيب، وأنّ له مناسبة إلى حضرة الربوبية. انتهى ملخّصاً «۲».

وكذا ما رواه أحمد بن حنبل «۳» بسنده عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

وروى سبط ابن الجوزى: «قال أحمد في الفضائل: حدّثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهرى، عن خالد بن معدان، عن زاذان، عن سلمان، قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: كنت أنا وعليّ بن أبي طالب نوراً بين يدى اللَّه تعالى قبل أن يُخلق آدم بأربعة آلاف سنة، فلما خُلق آدم قُسّم ذلك النور جزئين: فجزء أنا وجزء عليّ» «۴»

.وروى العاصمى: «أخبرنا الحسين بن محمّد، حدّثنا عبد اللَّه بن أبي منصور، حدّثنا محمّد بن بشر، حدّثنا محمّد بن إدريس الرازى، حدّثنا محمّد ابن عبد اللَّه بن المثنى، حدّثنا حمدى الطويل، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: خُلقت وعليّ بن أبي طالب من نور واحد يسبّح اللَّه عزّ وجلّ في يمنة العرش قبل خلق الدنيا» «۵»

.وروى القطيعى: «حدّثنا الحسن، حدّثنا أحمد بن المقدام العجلى، حدّثنا الفضيل بن عياض، حدّثنا ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن زاذان، عن سلمان، قال: سمعت

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۵۰

حبيبى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: كنت أنا وعليّ نوراً بين يدى اللَّه عزّوجلّ قبل أن يخلق اللَّه آدم بأربعة عشر ألف عام، فلمّا خلق اللَّه آدم قسّم ذلك النور جزئين: فجزء أنا وجزء عليّ» «۱»

.وروى الخوارزمى: «بسند متّصل إلى زياد بن المنذر، عن محمّد بن على ابن الحسين، عن أبيه، عن جدّه، قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: كنت أنا وعليّ نوراً بين يدى اللَّه تعالى قبل أن يُخلق آدم بأربعة عشر ألف سنة» «۲»

.وروى الگنجى الشافعى: «أخبرنا إبراهيم بن بركات الخشوعى ... عن عكرمة، عن ابن عبّاس: قال النبى صلى الله عليه و آله: خلق اللَّه قضيباً من نور قبل أن يخلق الدنيا بأربعين ألف عام، فجعله أمام العرش، حتّى كان أوّل مبعثى، فشقّ منه نصفاً فخلق منه نبيّكم، والنصف الآخر عليّ بن أبي طالب» «۳»

.وروى ابن المغازلى: «أخبرنا أبو طالب محمّد بن أحمد بن عثمان ... عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي ذرّ، قال: سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: كنت أنا وعليّ نوراً عن يمين العرش، يسبّح اللَّه ذلك النور ويقدّسه قبل أن يخلق اللَّه آدم بأربعة عشر ألف عام، فلم أزل أنا وعليّ في شيء واحد حتّى افترقنا في صلب عبد المطّلب» «۴»

.وروى ابن المغازلى: «أخبرنا أبو غالب محمّد بن أحمد بن سهل النحوى ... عن سعيد بن عبد العزيز، عن جابر بن عبد اللَّه، عن النبيّ صلى الله عليه و آله، قال: إنّ اللَّه عزّوجلّ أنزل قطعة من نور فأسكنها في صلب آدم، فساقها حتّى قسّمها جزئين: جزءً في صلب عبد اللَّه وجزءً في صلب أبي طالب، فأخرجنى نبيّاً، وأخرج عليّاً وصيّاً» «۵»

.وروى الحموينى: «أخبرنى الشيخ الصالح جمال الدين أحمد ... عن العلاء ابن عبد

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۵۱

الرحمان، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه و آله، قال: لمّا خلق اللَّه تعالى أبا البشر ونفخ فيه من روحه، التفت آدم يمنة العرش، فإذا في النور خمسة أشباح سجّداً وركّعاً، قال آدم: هل خلقت أحداً من طين قبلى؟ قال: لا ياآدم، قال: فمن هؤلاء الخمسة الذين أراهم في هيئتى وصورتى؟ قال: هؤلاء خمسة من ولدك، لولاهم لما خلقتك» «... ۱»

.والحاصل: إنّ مضمون هذه القاعدة وهى خلقتهم النورانية وإبداعها قبل كلّ الخلائق- مروية بألفاظ مختلفة عند الفريقين، وبطرق

متعـدّدة فی المصادر الکثیرة، ویـدلّ علی مضـمون هذه القاعدة من الآیات قوله تعالی: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَاشَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ* فِی بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ* رِجَالٌ لَاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكوةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ»، فنورهُ تعالی المضاف إلیه بالإضافة التشـریفیة هو نور السـماوات والأرض، اشـتقّ منه وجودها کما ورد فی أحادیث الفریقین فی أنّه أوّل مـا خلق اللَّه نور النبیّ صـلی الله علیه و آله- وهـذا النور مرتبـط فی ترکیب الآیـات بجملـة «فِی بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ»، وهذه البیوت هی رجالٌ عُصموا عن اللهو بالتجارة والبیع، لا یفترون عن ذکر اللَّه وإقام الصلاة وإیتاء

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۵۲

الزکاة، فهذا النور مرتبط بأرواحهم، فحقیقة معرفة هؤلاء الرجال هو معرفتهم بمبدأ خلقتهم وهو النور.

وبعبارة أُخری: إنّ فی صـدر آیات النور ذکر مبتـدأ، وهو قوله: «مَثَلُ نُورِهِ»، أی النور المضاف إلی اللَّه تعالی بالإضافة الخلقیة، ثمّ بعد ذلک أخبر عنه بأخبار متعدّدة تباعاً، فأخبر عن ذلک النور:

أوّلًا: بتشبیهه بخمسة أُمور «كَمِشْكَاةٍ..».

ثانیاً: تعاقب هذا النور بعد الخمسة وتعدده «نُورٌ عَلَى نُورٍ».

ثالثاً: هدایة اللَّه لنوره من یشاء «يَهْدِی اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ».

رابعـاً: کون هـذا النور فی بیوت معظّمـة مبجّلـة رفعها اللَّه بإذنه، ووصف هـذه البیوت التی فیها النور بعـدّة أوصاف، وإنّ تلک البیوت رجالٌ لا حجر ومدر: «فِی بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ* رِجَالٌ..».

ویتحصّل من هذه الأخبار المتعدّدة عن نور اللَّه، أنّ هذا النور المخلوق للَّه المشـرّف بالإضافة التشریفیة والتکریم إلی الذات المقدّسة، هو فی رجالٍ معصومین عن اللهو، لا یفترون عن ذکر اللَّه وإقام الصلاة وإیتاء الزکاة، أی أنّهم دائماً فی مقام العبودیة والطاعة.

وکون هـذا النور فیهم یعنی أنّه أعلی مرتبـة فی أرواحهم، کما أنّ هـذا النور بمقتضـی الخبر الأوّل، مبتدأه وفی بدوه خمسة أنوار؛ لأنّ التشبیه وقع علی خمسة أشیاء، أی بکلّ من المصباح والزجاجة والمشکاة والکوکب الدریّ والشجرة.

کما أنّ مقتضـی الخبر الثانی تعاقب الأنوار بعـد الأنوار الخمسـة، وهذا المفاد لظهور الآیات متطابق مع ما ورد فی روایات الفریقین فی الخلقة النورانیة من أنّ الخمسة أصـحاب الکساء- هم مبتدأ خلق النور ومن ثم بقیة العترة، ولا ریب أنّ أحد الخمسة وسیّدهم هو النبیّ صلی الله علیه و آله، ولا تکتمل عدّة الخمسة الذین فیهم

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۵۳

النبیّ صـلی الله علیه و آله إلّابالخمسة الذین وقعت بهم المباهلة، وهم أصحاب الکساء الذین نزلت فی حقّهم آیة التطهیر بنصّ روایات الفریقین.

والعمـدة التفطّن إلی أنّ تعدّد التشبیه فی الآیة إلی خمسة لیس جزافاً وزخرفاً فی الکلام، بل المغزی منه الإشارة إلی أنّ هناک خمسـة مشبّهین بخمسـة أُمور مشبّه بها، وأنّ لکلّ مشبّه وجه شبه فی المشبّه به الموازی له، وقـد ورد فی نصوص الفریقین مسائلة النبی عن تلک البیوت، وأنّ بیت علیّ وفاطمة منها؟

فقال صلی الله علیه و آله: «نعم، من أفاضلها» «۱»

.ونصّ الحدیث فی السیوطی، وأخرجه عن ابن مردویه، عن أنس بن مالک وبرید: «قال: قرأ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله هذه الآیة: «فِی بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ»، فقام إلیه رجل فقال: أیّ بیوت هذه یا رسول اللَّه؟ قال: بیوت الأنبیاء. فقام إلیه أبو بکر فقال: یا رسول اللَّه، هذا البیت منها، بیت علیّ وفاطمة؟ قال: نعم، من أفاضلها».

ولا يخفى أنّ هـذه الروايـة فيها دلالـة على أنّ أبا بكر قـد اختلـج فى نفسه أنّ بيت علىّ وفاطمة ومقام علىّ وفاطمة عند اللّه فى الحجّية والاصـطفاء والطهارة لا يقتصـر عن مقام الأنبياء، ومقتضى جواب النبىّ صلى الله عليه و آله إثبات هذا المعنى، بل مقتضى الجواب علوّ مقامهما وأرفعيته وأنّه أعلى.

وممّا ورد فى كون هـذه البيوت منطبقـة على المساجـد أيضاً فى الآيـة الكريمـة وبضـميمة مفاد هـذه الروايـة، تبيّن أنّ مراقـدهم عليهم السـلام هى بيوت لهم أيضاً، وهى أفضل شـرفاً وعظمة من المساجد، ولذلك نقل السـمهودى فى وفاء الوفاء: إجماع أهل سنّة الخلافة بأنّ ما ضم الأعضاء الشريفة له صلى الله عليه و آله أعظم فضلًا من مكّة

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۵۴

المكرّمـة. وحُكى هذا الاجماع عن القاضـى عياض، والقاضـى أبو وليد الباجى، وأبو اليمن بن عساكر، بل نُقل عن التاج السـبكى، عن ابن عقيل الحنبلى: أنّ تلك البقعة هى أعظم من العرش. «۱»

وتوهّم بعض الرواة أنّ المراد من البيوت هو البيت الطينى الـذى يحلّ فيه أهل البيت، مع أنّ المراد بحسب ظهور الآيـة- من البيوت هو نفس الرجال المطهرون، كما هو مفاد قول الإمام الباقر عليه السلام فى ذيل الآية الكريمة.

ويعضد مفاد الخلقة النورية لهم عليهم السـلام المستفادة من آيات سورة النور- ما فى قوله تعالى فى سورة البقرة: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هؤُلآءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» «۲»

.ومقتضـى مفاد هذه الآيات أنّ السبب فى تأهّل آدم للخلافة الإلهية هو معرفته بعلم الأسـماء الجمعى، وبه تشـرّف لمقام سجود وطاعة وتبعية الملائكة له، ولم يكن جميع الملائكة عالمين بتلك الأسماء.

ويستفاد من هذا الاستعراض القرآنى لهذه الواقعة أُمور:

الأوّل: إنّ تلك الأسـماء موصوفـة بغيب السـماوات والأرض، وفى الآيـة التاليـة من تلك الآيات نرى أنّ الملائكـة لم تكن تعلم بتلك الأسـماء، مع أنّ الملائكـة تملأ السـموات والأرض، فلو كـانت كينونـة تلـك الأسـماء فى السـموات أو فى الأرض لعلمتها الملائكة ولأحاطت بها خُبراً، بل إنّ تنبّه الملائكة لها بعد عرضها

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۵۵

عليهم- ليس علم إحاطة بالأسـماء، وإنّما هو علم إنبائى، لا كعلم آدم علم لـدنى، والعلم اللـدنى منه ما يكون عيانى، بخلاف الإنبائى فإنّه حصولى.

الثانى: إنّ هذه الأسـماء ليست أصوات متموّجة وكلمات لسانية، بل هى موجودات حيّة شاعرة عاقلة؛ لقوله تعالى: «عَرَضَهُمْ» حيث إنّ الضـمير (هم) لا يُستعمل إلّافى ذلـك؛ ولقوله تعالى: «بِأَسْمَاءِ هؤُلَآءِ» فإنّ اسم الإشارة (هؤلاء) لا يُسـتعمل إلّافى ذلك أيضاً؛ ولقوله تعالى ...: «فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ» فيُعلم أنّ هـذه الموجودات الحيّة الشاعرة العاقلـة، هى سـنخ موجودات كينونتها فى الغيب الذى هو باطن السـماوات، أى فى نشأة ما وراء السـماوات وما وراء نشأة الملائكـة، وهـذا ينطبق على المخلوقات النورية، ولا ريب فى كون نور النبىّ هو أحدها، لأنّه سيّد الكائنات والمخلوقات، كما فى قوله تعالى: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى* فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» «۱»

، وقوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ» «۲»

.فتحصّـل مـن هـاتين الطـائفتين الإشـارة الواضـحة إلى الخلقـة النوريـة المتقدّمـة على خلـق السـماوات والأـرض باعتبـار وصـفها غيب السماوات والأرض.

وهنـاك آيات أُخرى تتعرّض لخلقتهم النورانيـة، لسـنا فى صـدد بسط الدلالـة حولها، ونكتفى بالإشارة فى الموضع المناسب لها، نظير

قوله تعالى: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» «۳»

، وقوله تعالى: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۴»

.الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۵۶

والمهم الالتفات إلى أهميّة هذه القاعدة في الاعتقادات والمعرفة الدينية؛ حيث إنّ لها موقع الأُمومة والأصل لكثير من المعارف والقواعد والمسائل الاعتقادية، وقد مرّ نماذج من ذلك في الروايات، حيث إنّهم عليهم السلام يستدلُّون على بقية مقاماتهم بذكر هذا الأصل المعرفي.

وهذه الأُمور لهذه القاعدة تقتضيها القواعد الحكمية والعقلية؛ إذ للصادر الأوّل والصوادر الأُولى في الإبداع الوجود الأشرف، بالقياس إلى سائر أقسام الخلقة، فلابدَّ من توفّرها على سائر الكمالات التي تكون فيما دونها من الخلقة، فإذا تقرّر أنّ النور المُبدَع له الأسبقية، في الخلقة فلا- بدَّ أن تكون له كلّ كمالات ما دونه وزيادة، كما لا بدّ أن يكون له الإشراف والهيمنة على ما دونه بإذن واقدار اللَّه تعالى.

وعلى هذا التقرير لمعرفتهم بالخلقة النورانية معرفتهم بالنورانية- يتّضح تطابق هذه القاعدة مع القاعدة المتقدّمة: نزّلونا عن الربوبية وقولوا فينا ما شئتم، ولن تبلغوا كنه ما جعله اللَّه لنا.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۵۷

الفصل الخامس: فهرست المناهج التي اعتمدها الإمامية ... ص: ۵۷

اشارة

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۵۹

: فهرست المناهج التي اعتمدها الإمامية ... ص: ۵۹

المنهج الأوّل: عبارة عن إثبات كبرى الإمامة بالأدلّة النقلية، ثمّ إثبات المصداق، بمعنى تشخيصه لا أصل وجوده؛ وإلّا فأصل وجوده قد دلّ عليه بنفس الكبرى.

وهذه الكبرى إمّا قرآنية أو روائية أو عقلية أو شهودية قلبية.

المنهج الثاني: إثبات النصوص الخاصّة الواردة بأسمائهم عليهم السلام، وهي على أنحاء: تارة بأسماء كلّ واحدٍ منهم، وأُخرى في خصوص عليّ والحسن والحسين، وذرّية الحسين عليهم السلام.

وغير ذلك من أنحاء التسمية.

المنهج الثالث: إثبات الأدلّة العقلية على الكبرى وضرورة وجود المعصوم عليه السلام وهذه الأدلّة تُثبت تارةً بالعقل العملي وأُخرى بالعقل النظري.

المنهج الرابع: إثبات إمامتهم عليه السلام عبر معاجزهم العلمية، ببسط البيان في موارد انعطاف الأُمّة الإسلامية إلى انحرافات هدّامة لولا- الهداية العلمية التي قام بها آل البيت عليهم السلام. أو ببيان دقائق أسرارهم في العلوم والمعارف التي بثّوها والتي تتحدّى المضمار العلمي إلى يومنا في العصر الحديث، مع ما كانت عليه الجزيرة العربية من البداوة وندرة العلوم، وإحاطتهم باختلاف المذاهب، وتعدّد شؤون علومهم الروحية والحكمية والمادّية، وكذلك لجوء المخالفين بالرجوع إلى أهل

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۶۰

البيت عليهم السلام «۱ ...» وتراثهم العلمى فى شتّى العلوم ماثل بين يدى البشرية يفوق ويتحدّى فى الحلبة العلمية علم أىّ عالم وأىّ حاضرة علمية، كيف لا وهم أعدال الكتاب الذى له هذه الصفة أيضاً!

المنهج الخامس: مقارعة الدول المعاصرة لهم بكلّ طاقاتها وقواها، واستعانتها ببقية الدول البشرية على ذلك، مع ما كان يدّعيه آل محمّد صلى الله عليه و آله من الكمال وعدم الإعياء فى العلم ممّا يثير نائرة التحدّى معهم، فقد تحدّوهم في العلوم والفنون ومختلف المهارات، حتّى فى الفروسية والطبّ وعلوم الشعبذة، وغيرها.

المنهج السادس: إثبات خصوص إمامة علىّ عليه السلام أو الحسنين، أو إمامة المهدى (عج)، أو بهما معاً مع ضمّ ضمائم أُخرى، من قبيل تنصيص علىّ عليه السلام على من بعده، أو استلزام إمامة الثانى عشر عليه السلام لإمامة من قبله.

المنهج السابع: زيادتهم وسبقهم جميع البشر من عاصرهم ومن لم يعاصرهم- فى تمام الكمالات والفضائل، وفى شتّى الصفات الفضيلية والكمالية الروحية والعقلية والنفسية والبدنية.

المنهج الثامن: الآيات البينة التى هى معاجز غير المعاجز العلمية، مثل قلع باب خيبر، وتكلّمهم بكلّ لسان وعلمهم بلغة الحيوانات.

المنهج التاسع: الملاحم الإخبارية التى أنبأوا بها، كخطبة البيان وأخبار آخر الزمان وما أخبروا عن أحوال معاصريهم. وقد دوّن الفريقان فصولًا فى كتبهم التاريخية وكتب السير ونحوها من إخبارات علىّ عليه السلام عن الملاحم.

المنهج العاشر: تنصيص الكتب السماوية السابقة عليهم.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۶۱

المنهج الحادى عشر: معرفتهم التامّة لفظاً ومعنىً وشؤوناً بالكتب السابقة وبالشرايع السابقة وبتواريخها الخفية ومنظومة الأولياء.

المنهج الثانى عشر: تطابق السنن الجارية على الأنبياء المسطورة فى القرآن مع ما جرى لهم وعليهم فى شؤونهم الفردية وشؤونهم العامّة مع الناس. كما فى هارون عليه السلام وعلىّ عليه السلام، وغيبة الحجّة عليه السلام وموسى عليه السلام، ونظير الرضا عليه السلام ويوسف عليه السلام، ونظير يحيى عليه السلام والجواد عليه السلام، وعيسى وإدريس والياس والخضر عليهم السلام مع الحجّة (عج)، ومريم عليها السلام وفاطمة عليها السلام.

المنهج الثالث عشر: وهو إثبات إقدار اللَّه عزّوجلّ لهم على خوارق العادات والمعجزات، باعتراف خصومهم، حيث أسموا ذلك بأنّه سحر من بنى هاشم، بدءاً من قريش فى العهد المكى، إلى العهد المدنى وعهد التابعين وتابعيهم إلى بداية الغيبة.

المنهج الرابع عشر: إثبات العلم اللدنى لهم عليهم السلام، من تراجم كتب رجال وحديث العامّة، وذلك بواسطة الروايات التى روتها العامّة عنهم، المتضمّن مفادها لدعواهم عليهم السلام بعدم استقاء علمهم من غيرهم، وأنّ علمهم لا يعى عن إجابة المسائل المختلفة، مضافاً إلى تلّمذ علماء المذاهب على أيديهم دون غيرهم.

وهناك غير ذلك من المناهج، يستطيع الباحث الوقوف عليها فى كتب الإمامية المستفادة من الكتاب والروايات والعقل والفطرة السليمة.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۶۳

نبذة فى تطويف الآيات القرآنية الدالّة على الإمامة ... ص: ۶۳

اشارة

ولنستعرض جملة يسيرة من تلك الطوائف لا على سبيل الاستقصاء:

الأُولى: آيات الثقلين، وهى جملة من الآيات تفيد عين مفاد حديث الثقلين.

الثانية: آيات الهداية والصراط، وهى جملة من الآيات فى السور الدالّة على أنّ هداية الأمّة هى على عاتق أئمّة هداة يقومون مقام النبىّ صلى الله عليه و آله.

الثالثة: آيات الاستخلاف، ومفادها بيان السنّة الإلهية فى جعل الخليفة فى الأرض مزوّداً بالعلم اللدنى والعلم الأسمائى الجامع.

الرابعة: آيات التبليغ، وهى المتضمّنة للأمر الإلهى بإبلاغ الإمامة والولاية.

الخامسة: آيات الولاية، وهى المتضمّنة للفظ وعنوان الولاية، وأنّها لثلّة من هذه الأُمّة خاصّة.

السادسة: آيات الاصطفاء لذرّية إبراهيم عليه السلام، ومن هذه الأُمّة.

السابعة: آيات الإمامة، المتضمّنة للفظ وعنوان الإمامة.

الثامنة: آيات الأنفال والفيء والخمس لذى القربى.

التاسعة: آية التسليم على آل ياسين (آيات أولياء الدين وحججه).

العاشرة: آيات شهادة الأعمال، المتضمّنة لوجود ثلّة من هذه الأُمّة تشهد أعمال الأُمّة فى كلّ عصر إلى يوم القيامة، وهم الأشهاد.

الحادية عشر: آيتا التطهير.

الثانية عشر: آية الأشهر الإثنى عشر.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۶۴

الثالثة عشر: آيات التولّى والتبرّى.

الرابعة عشر: آيات الكتاب المبين والمكنون.

الخامسة عشر: آيات ربانى هذه الأُمّة.

السادسة عشر: آيات الوسيلة والسبيل.

السابعة عشر: آيات النور.

الثامنة عشر: آيات ليلة القدر، وصاحبها ولىّ الأمر النازل فى تلك الليلة.

جدولة مصادر الطوائف ...: ص: ۶۴

الطائفة الأُولى: آيات حديث الثقلين: آل عمران: ۷، الواقعة: ۷۷- ۸۱، الرعد:

۳۹ و ۴۳، النحل: ۶۴ و ۸۹، القيامة: ۱۶ ۱۹، الأنعام ۳۸ و ۵۹، يس: ۱۲، النحل: ۴۰ و ۷۵، البروح: ۲۲، ص: ۲۲، يونس: ۶۱، فاطر: ۳۲، الحجر: ۷۵ ۷۶، يوسف:

۱۱۱، العنكبوت: ۴۷، الحج: ۵۴، سبأ: ۶، البقرة: ۱۲۱، الأنعام: ۱۵۴ ۱۵۵، الأعراف: ۱۴۴.

الطائفة الثانية: آيات الهداية والصراط: الرعد: ۷، سورة الحمد، يونس: ۳۵ و ۱۳۱، الأعراف: ۱۸۱ و ۱۸۴، الأنبياء: ۷۳، السجدة: ۲۴، الجن: ۱۶، طه: ۸۲ و ۱۳۵، التوبة: ۱۱۹، الأنعام: ۱۵۳، الاسراء: ۱۵۸، النمل: ۷۵، المؤمنون: ۷۳ ۷۴، النور: ۵۵، الملك: ۲۲، الحج: ۵۴، الفرقان: ۲۷، يونس: ۱۸۰، غافر: ۶ و ۱۰، مريم:

۶ ۷، محمد: ۱۷، الكهف: ۲۴، العنكبوت: ۶۹، المائدة: ۶۷، البقرة: ۱۸، يس:

۸۲، إبراهيم: ۲۲.

الطائفة الثالثة: آيات الاستخلاف: البقرة: ۳۰، النمل: ۶۲، ص: ۲۶، وهى متطابقة مع حديث: خلفائى اثنا عشر من قريش.

الطائفة الرابعة: آيات التبليغ: المائدة: ۳ و ۶۷.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۶۵

الطائفة الخامسة: آيات الولاية: النساء: ۵۹، المائدة: ۵۴ ۵۶، الأحزاب: ۶، آل عمران: ۶۳، النور: ۵۴ و ۵۵.

الطائفة السادسة: آيات الاصطفاء لذرّية إبراهيم: آل عمران: ۳۳ ۳۴، الحج:

۷۵ ۷۸، البقرة: ۲۳۷، النساء: ۵۴ و ۵۸، آل عمران: ۶۸، الزخرف: ۲۶– ۲۸، الأنبياء: ۷۳، البقرة: ۱۲۷ ۱۲۸، آل عمران: ۱۶۴.

الطائفة السابعة: آيات الإمامة: البقرة: ۱۲۴، النساء: ۱۵۴، هود: ۱۷، الأحقاف: ۱۲، يس: ۱۲، الأنبياء: ۷۳، السجدة: ۲۴، القصص: ۵.

الطائفة الثامنة: آيات الأنفال والخمس والفيء والقربى: الحشر: ۷، الروم:

۳۸، الأنفال: ۴۱، الشورى: ۲۳، الاسراء: ۲۶.

الطائفة التاسعة: أولياء الدين وحججه، وآيات الأشهر الحرم: آل عمران:

۶۱، الصافات: ۱۳۰، البراءة: ۳۶.

الطائفة العاشرة: آيات شهادة الأعمال: البراءة: ۱۰۵، النحل: ۸۹، البقرة:

۱۴۳، الحج: ۷۸، الرعد: ۴۳، آل عمران: ۱۴۰، المطففين: ۲۱، الواقعة: ۱۱، النساء: ۴۱، الأعراف: ۴۶.

الطائفة الحادية عشر: آيتا التطهير: الواقعة: ۷۹، آل عمران: ۴۲.

الطائفة الثانية عشر: التولّي والتبرّي: الأعراف: ۳، الممتحنة: ۴، الزخرف:

۲۶، البقرة: ۱۶۶ و ۱۶۷، البراءة: ۱۱۴، المجادلة: ۲۲، الشورى: ۲۳، محمّد: ۲۹.

الطائفة الثالثة عشر: آيات الكتاب: الواقعة: ۷۹، البروج: ۲۱ ۲۲، آل عمران:

۷ و ۷۹، النساء: ۵۴، المائدة: ۴۴ و ۴۸، الأنعام: ۳۸ و ۵۹ و ۱۱۴، البراءة: ۳۶، يونس: ۶۱، هود: ۱ و ۶، الرعد: ۳۱ و ۳۹ و ۴۳، الحشر: ۲۱، النحل: ۸۹، الكهف:

۴۹، طه: ۵۲، الحج: ۷۰، الشعراء: ۲، النمل: ۱ و ۷۵، سباء: ۳، الدخان: ۲، الزخرف: ۲ ۴، فاطر: ۱۱، الشورى: ۵۲، المطففين: ۱۸ ۲۰، يس: ۱۲.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۶۶

الطائفة الرابعة عشر: آيات الوسيلة: التكاثر: ۸، البقرة: ۲۱۱، المائدة: ۳۵، الاسراء: ۵۸، الفرقان: ۵۷، سباء: ۴۷، الشورى: ۲۳.

الطائفة الخامسة عشـر: آيات مقامهم النورى: النور: ۳۵ ۳۶، البقرة: ۳۱ ۳۴ و ۳۷، النساء: ۱۷۱، البقرة: ۱۲۴، الكهف: ۱۰۹، لقمان: ۲۷، التحريم: ۱۲، الأنعام:

۱۱۵، الأعراف: ۱۵۸، الأنفال: ۷، الشورى: ۲۴، آل عمران: ۳۹ و ۴۵، إبراهيم: ۲۴، الزخرف: ۲۸، التغابن: ۸، البراءة: ۳۲، الزمر: ۶۹.

أما الطائفة الأولى: تفصيل آيات الثقلين وهى على أنماط:

الأوّل: سورة الحمد.

الثاني: سورة آل عمران.

الثالث: الواقعة: ۷۸، الأحزاب.

الرابع: سورة الأنعـام: ۳۸ و ۵۹ و ۱۵۴، الدخان: ۱ ۲، فاطر: ۳۲، العنكبوت: ۴۷ ۵۰، البقرة: ۱۲۱، النمل: ۴۰، الرعد: ۳۱ و ۳۹ و ۴۳، البروج: ۲۲، الأعراف: ۱۴۵، يوسف: ۱۰۱، الاسراء: ۱۲ و ۱۴، المائدة: ۴۸، يونس: ۶۱.

الخامس: النحل: ۸۹.

السادس: القيامة: ۱۷، النحل: ۶۴.

السابع: سباء: ۶، الحج: ۵۴.

الثامن: النساء: ۸۳، محمّد: ۱۶.

التاسع: المائدة: ۴۴. وهی تتطابق مع طائفة آیات ربانیو الأمة.

العاشر: الشوری: ۲۳، الأنعام: ۹۰، یوسف: ۱۰۴، سباء: ۴۷.

الطائفة السادسة عشر: آیات لیلة القدر وصاحبها ولیّ الأمر النازل فیها، وهی تتطابق مع قالب آیات حدیث الثقلین: سورة القدر، سورة الدخان: ۱ ۳، النحل: ۱، غافر: ۱۵، الشوری: ۵۲.

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۶۷

النصوص القرآنیةالدالّة علی إمامة أهل البیت علیهم السلام ... ص: ۶۷

اشارة

القسم الأوّل: آیات الثقلین: وهی طوائف:

الطائفة الأولی: الراسخون فی علم الکتاب ... ص: ۶۷

«هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتَابَ مِنْهُ آیَاتٌ مُحْکَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِیلِهِ وَمَا یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ» «۱»

.إنّ الظهور الأوّلی الإجمالی لهذه الآیة الشریفة، هو الإعلان عن وجود قسمین من آیات الکتاب الکریم: محکم ومتشابه. کما أنّها تقسّم المکلّفین إلی أقسام:

راسخون فی العلم، وغیر راسخین. وغیر الراسخین إلی قسمین: قسم یتّبع المتشابه، وهم الذین قد زاغت قلوبهم عن الصراط المستقیم وعن الحقّ. والقسم الآخر لا یتّبع المتشابه، ولکنّها ترشد إلی لزوم اتّباع الراسخین فی العلم؛ کی یهدوهم إلی تأویل المتشابه بالمحکم. کما أنّ الآیة تُعلم بأنّ المحکمات لها مقام الأُمومة فی آیات الکتاب، ممّا یعنی أنّ المتشابهات کفروع لها، والتأویل لغةً: من الأوْل، أی الرجوع والأوب، وانتهاء

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۶۸

شیء إلی شیء، من آل شیء إلی آخر، أی انتهی إلیه.

وتأویل المتشابه، إمّا بمعنی الانتهاء إلی المعنی الحقیقی المراد منه، أو بمعنی انتهاء المتشابه إلی أصله وهو المحکم، وهو یتّحد مع المعنی السابق أیضاً؛ إذ برجوع المتشابه إلی المحکم یوجب کشف المعنی المراد من المتشابه، وأنّه منسجم ومتلائم معه.

وبمقتضی النقطة الأخیرة وما تقدّم، یستلزم أنّ الإحاطة بالمحکم إحاطة تامّة، غیر مقدور علیها لغیر الراسخین فی العلم؛ وذلک لأنّ الإحاطة التامّة بالمحکم تستلزم العلم بتأویل المتشابه؛ إذ المفروض فی المحکم أنّ له الأُمومة والهیمنة والمرجعیة لتفسیر بقیة الآیات، فعدم العلم بحقیقة المتشابه ناشئ من عدم فرض الإحاطة التامّة بالمحکم، إذ لا تشذ آیة فی المتشابه عن حیطة المحکمات وقیمومة معانیها علی تلک الآیات، فلا تکون متشابهة عند المحیط خبراً بالمحکمات.

وهذا یدلّ علی أنّ المتشابه وصف نسبی إضافی بالإضافة إلی غیر الراسخین، وأمّا الراسخون فلا تشابه لدیهم فی الآیات، وإن کان التقسیم إلی المحکم الأمّ وإلی الآیات الفرعیة وصف حقیقی غیر إضافی لنفس الآیات فی نفسها.

وکلّ ذلک لا یلزم منه تعطیل الکتاب أو تجمیده أو فقده لصفة الإعجاز بتوهّم أنّ آیاته المحکمات لا یحاط بها للکلّ، والمتشابه لا یؤخذ به بنفسه لإجمال المراد منه، یزیغ من یتابعه من دون مفسّر معتبر صحیح، والمحکم لا یحاط؛ وذلک لأنّ الآیة فی صدد بیان کیفیة الأخذ واشتراطه باتّباع الراسخین بالعلم ومعونتهم وإرشادهم.

فيتبين أنّ الأخذ الذى لا بدّ منه المفترض فى تلك الآية والتمسّك بالكتاب اللازم يجب أن يكون مقروناً بالتمسّك بأولى العلم الراسخين، لا أنّها فى صدد

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۶۹

حجب الكتاب عن التمسّك به، بل غاية دلالتها أنّ التدبّر بالقرآن والتمسّك به يجب أن يكون مقروناً وبمعيّة الراسخين فى العلم.

عين ما يقال من أنّ كلّاً من الكتاب والسنّة مصدر للشريعة؛ فإنّ معنى الاثنينيّة فى الحجّية ليس بأن يكون كلّ منهما مستقلّ عن الآخر، ولا بأن يكون أحدهما معطّلًا للآخر، وكونه فاعلًا أو غير فاعل، بل أن يكون هناك معية بينهما، وتشاهد وتعاضد وتكافل، ومن ثمّ لا يستلزم تعطيل أحدهما ولا فقد الكتاب المجيد لإعجازه؛ لأنّ ادراك المعجزة فيه لا يتوقّف على الإحاطة بكلّ محكماته فضلًا عن متشابهاته، بل يكفى فى ذلك معرفة البعض.

وكون الراسخين فى العلم ثلّة من هذه الأُمّة الإسلامية لا خصوص فرد واحد، وكون هذه المجموعة باقية سلسلتها ما بقيت حجّية القرآن فى هذه النشأة، وأنّها لا تُرفع إلّابرفع الكتاب يوم القيامة، كلّ ذلك لأنّ الكتاب لا يؤخذ به بنحو تامّ إلّا بهم.

ويستفاد من الآية أنّ التمسّك بالكتاب على انفراد لا يتحقّق بصورة صحيحة كاملة تامّة إلّابهم، كما لا يتحقّق التمسّك بهم إلّابالتمسّك بالكتاب؛ لأنّهم هادون إلى محكماته وتأويل متشابهاته. وهو مفاد حديث الثقلين.

وإنّ علم الراسخين فى العلم ليس من العلم الكسبى؛ لأنّه لا يؤهّل إلى ذلك مهما بلغ الإحاطة بدرجة من محكمات الكتاب؛ إذ من الضرورى أنّ الكتاب المجيد الحجّة لكلّ هذه النشأة، لا تنتفى حقائقه ولا تحصى محكماته المحيطة بتطاول هذه النشأة، بل وبالنشآت السابقة واللاحقة، فالعلم التامّ بكلّ الكتاب الذى أثبتته هذه الآية للراسخين فى العلم لا يكون إلّامن سنخ العلم اللدنى؛ إذ الكتاب المبين الذى يستطرّ فيه كلّ شىء وما من غائبة فى السموات والأرض إلّا فيه- هو من لدن الغيب، والعلم التام به من سنخه.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۷۰

ولا سيما وأّن الآية قد قرنت تشريفاً- الراسخين فى العلم باللّه تعالى، ونفت العلم بالكتاب كلّه عن الجميع، وحصرته فى الذات الإلهية ومن بعده بالراسخين فى العلم، ممّا يعطى شرافةً وتعظيماً للراسخين فى العلم كحجج اللّه على خلقه، ووهبهم ذلك النمط اللدنى من العلم.

ومقتضى حجّية الكتاب وحجّية الراسخين فى العلم، أنّ حجّيته مرهونة بحجّيتهم، وحجّيتهم مرهونة بحجّيته أيضاً، فالحجّتان من سنخ واحد، ممّا يدلّ على عصمتهم؛ وإلّا لو جاز عليهم الخطأ لانسدّ باب العلم فى الكتاب ولزم التعطيل.

ويشير إلى مقام حجّيتهم ذيل الآية: «وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ» «۱»

، إشارة الآية إلى مثل هذه المضامين إنّما يتفطّن إليها ذو اللبّ، لا ذو الذهنية القشرية الذى لا يبصر إلّاالقشور. وكذلك الآية اللاحقة «رَبَّنَا لَاتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» «۲»

، أى أنّ ذوى الألباب بتفطّنهم بحجّية الراسخين فى العلم بمعية الكتاب العزيز، يكونون قد اهتدوا إلى كيفية التمسّك بالكتاب والأخذ به من دون زيغ قلوبهم عن الحقّ؛ إذ من تفرّد بالأخذ بالكتاب من دون التمسّك بالراسخين بالعلم، قد حكمت عليه الآية بزيغ قلبه، فلذلك اتّبع المتشابه، وأنّ اتّباعه للمتشابه طلباً لفتنة الناس عن الحقّ وعن الدين، وطلباً لتأويل الكتاب وعطفه على ما يوافق أهوائهم وجهالتهم.

كما أنّ جملة «يقولون آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» «۳»

المجعولة صفة للراسخين فى العلم على تقدير الواو عاطفة، أو خبر على تقدير كون الواو استئنافية، فإنّ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۷۱

الجملة الدالّة على علم الراسخين بالعلم بالتأويل حيث إنّ الضمير عائد إلى التأويل، وتعلّق الإيمان به يستلزم العلم به بنحو ما، لا سيما

وأنّه قد وصف بإضافته إلى أنّه من عند اللّه، والتوصيف يستلزم التعيين، كما أنّ وصفهم بالراسخين بالعلم أيضاً مشعرٌ بذلك، وكذا إرداف ذكرهم للمستثنى وهو البارى تعالى، وكذا قولهم بعدم مخالفة المتشابه للمحكم؛ لأنّ كلّ منهما من عند اللّه تعالى، أى وحدتهما فى ذلك دالّ على معرفتهم بكيفية رجوع المتشابه إلى المحكم، أى تأويله به.

مضافاً إلى أنّه لو لم يكن ثلّة من هذه الأُمّة بعد الرسول صلى الله عليه و آله تعلم متشابه القرآن وكيفية تأويله بالمحكم، لكان يلزم منه تعطيل الكتاب بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله. وهذا هو مفاد حديث الثقلين.

وبذلك تدلّ الآية على اختصاص علم الكتاب بهم بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله، دون غيرهم من الأُمّة.

ثمّ إنّ مقتضى إحاطتهم بعلم الكتاب هو إحاطتهم بناسخه ومنسوخه، وعامّه وخاصّه، ومطلقه ومقيده، وموارد نزوله، وعزائمه، من رخصه، ومغايرة متشابهه من محكمه. وهذه الحجّية لهم بمعية حجّية الكتاب كما تقدّم فى تبين كيفية العمل بالكتاب، وتنفى الاستقلالية، أى استقلالية غيرهم بالفهم للاستفادة من الكتاب، فحينئذٍ يعمل بموازين الدلالة المقرّرة فى علوم الأدب بضميمة الاستعانة بالثقل الآخر.

مضافاً إلى وجوه التشاهد الآتية بين هذه الآية وبقية آيات الثقلين الدالّة على إحاطة الراسخين فى العلم فى هذه الأُمّة بالكتاب كلّه.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۷۲

الطائفة الثانية: من عندهم بيان تبيان الكتاب لكلّ شىء ... ص: ۷۲

وهم كما فى قوله تعالى: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» «۱»

.وقوله تعالى: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ* وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» «۲»

.و «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» «۳»

و «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ» «۴»

.أما الآية الأولى الدالّة على الثقل الأوّل بل الثقلين معاً- فقد فُسِّر (تبياناً لكلّ شىء) بأنّه تبيان لكلّ أُمور الدين، أى العلوم الدينية. والتفسير الآخر أنّ فيه تبياناً لكلّ شىء من أُمور الدين وغيره، فيشمل العلوم الدينية وغير الدينية، لا سيما أنّ معارف الدين محيطة بكلّ الحقائق الكونية.

وتقريب الاستدلال فى الآية يتمّ على كِلا القولين، وقد وقع المفسّرون من العامّة فى حيص وبيص فى تفسير معنى الآية فلاحظ كلماتهم، وإن كان الثانى هو الصحيح؛ لما فى قوله تعالى: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «۵»

؛ وقوله تعالى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۷۳

إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «۱»

؛ وقوله تعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» «۲»

؛ وقوله تعالى: «يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» «۳»

، وغيرها من الآيات الدالّة على إحاطة الكتاب بكلّ صغيرة أو كبيرة. مضافاً إلى ما سيأتى فى الطائفة الثالثة.

ثمّ إنّ شمولية الكتاب أوسع من التوراة، كما دلّت عليه الآيات فى سورة الأعراف، وهى قوله تعالى: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ

شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ» «۴»

.وهذا هو الثقل الأوّل، بل فى الآيهٔ إشارهٔ إلى الثقل الثانى أيضاً، حيث تُبيّن وجود شاهد فى كلّ أُمّهٔ، والأُمّهٔ الجيل من الناس أو القرن، أى وجود شاهـد فى كلّ قرن يشـهد على الناس أعمالهم، ويكون هـذا الشاهـد من نفس أُمّـهٔ ذلك القرن، ويكون الرسول شاهداً على هؤلاء.

قال الفخر الرازى فى ذيل الآيـهٔ: اعلم أنّ هذا نوع آخر من التهديدات المانعهٔ للمكلّفين عن المعاصـى، واعلم أنّ الأُمّهٔ عبارهٔ عن القرن والجماعـهٔ، إذا ثبت هـذا فنقول: فى الآيـهٔ قولان: الأوّل: إنّ المراد أنّ كلّ نبىّ شاهـد على أُمّته. والثانى: إنّ كلّ جمع وقرن يحصل فى الدنيا فلابدّ وأن يحصل فيهم واحد يكون شاهداً عليهم، أمّا الشـهيد على الذين كانوا فى عصر رسول اللَّه صلّى اللَّه عليهم وآله وسلّم، فهو الرسول؛ بدليل قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» «۵»

.وثبت أيضاً أنّه لابدّ فى كلّ زمان بعد زمان الرسول من الشهيد.

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۲، ص: ۷۴

فتحصل من هذا أنّ عصـراً من الأعصار لا يخلو من شـهيد على الناس، وذلك الشـهيد لابدّ وأن يكون غير جائز الخطأ؛ وإلّا لافتقر إلى شهيـد آخر، ويمتـدّ ذلك إلى غير نهايـهٔ، وذلك باطل، فثبت أنّه لابدّ فى كلّ عصـر من أقوام تقوم الحجّهٔ بقولهم، وذلك يقتضـى أن يكون إجماع الأُمّهٔ حجّهٔ. «۱»

أقول: مـا تبيّن من دلالـهٔ الآيـهٔ هو الحقّ من لزوم شاهـد غير جـائز الخطـأ، ولكن تطبيق ذلـك على إجماع الأُمّـهٔ واهى غايته؛ فإنّ الأُمّهٔ منقسمهٔ فى أكثر أمرها، فأين الشاهد فى ما اختلفت فيه.

وحيث أنّ الشاهد لابدّ أن يكون عالماً بأعمال العباد، كما يشير إليه قوله تعالى:

«وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» «۲»

، فيرى أعمال العباد حين صدورها.

ومن الواضح أنّ علم كلّ ذلك كان لدى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، إذ ما كان ينزل عليه شىء إلّاكان يعلمه ويعلّمه غيره، لكن لا يحيط بكلّ تعليمه إلّاالأُذن الواعيهٔ، كما قال تعالى: «لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ» «۳»

، وهى أُذن علىّ عليه السلام كما جاء فى أحاديث الفريقين. «۴»

وقد قال تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» «۵»

، وقال تعالى:

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۲، ص: ۷۵

«وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ» «۱»

، وقال تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» «۲»

.وكيف يبيّن ما لم يعلمه، وكيف يفرض أنّ علمه عنـد غير رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله؟ مع أنّ بيانه على عهـدهٔ ووظيفهٔ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، بيان كلّ الكتاب.

ثمّ إنّ عمليـهٔ إنزال حقـائق الكتـاب لتبيـان ما فيه لم ينقطع ويرتفع بموت رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله؛ إذ هو باقٍ لتنزّله كلّ عام ليلهٔ القـدر إلى يوم القيامـهٔ، فعلمه فى كلّ الكتاب لابـدّ أن يكون باقياً فى ثلّهٔ من هـذه الأُمّـهٔ، وهو الثقل الثانى، وهو الذى تشـير إليه الآيهٔ الثانيـهٔ من قوله تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ* بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ» «۳»

، و (بـل) للإضـراب إمّـا عمّـا سبق فى الآيات عليها، أو عن كون علم الكتاب أى كون الآيات بينات فى صـدور من عـدا الـذين أوتوا

العلم. وعلى كلا التقديرين تدلّ على حصر علم وبيان ما في الكتاب بالذين أوتوا العلم، والضمير (هو) عائد إلى الكتاب المجيد، بمقتضى السياق ومقتضى توصيفه بالآيات.

ثمّ إن الذين أُوتوا العلم قد ذُكروا في آيات أُخر، كقوله تعالى: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» «۴»

، وقوله تعالى: «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» «۵»

، وقوله تعالى: «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ» «۶»

، وقوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۷۶

وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» «۱»

، وقوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ» «۲»

، وقوله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» «۳»

، وقوله تعالى: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» «۴»

.وهذه الآيات تصفهم بصفات التحلي بالعلم اللدني والعلم بالكتاب كما في قولهم: «لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ» «۵»

، حيث بمقتضى علمهم بالكتاب المحيط بالنشأتين لا يجهلون كيفية أحكام النشأة الأخرى.

كما أنّ الآيات آنفة الذكر أثبتت لهم رؤية ومعاينة الذي أُنزل إلى النبيّ صلى الله عليه و آله من الوحي.

ويُستفاد من سورة النحل أنّ الذين أُوتوا العلم هم المعصومون؛ إذ أُبعد عنهم مطلق الخزي، كما أنّ إثبات التكلّم في مواطن من يوم القيامة والبعث دالّ على رفعتهم ومكانتهم وكونهم ذوي صلاحيات من المقام المحمود، وأنّهم لا تأخذهم أهوال يوم القيامة ولا أهوال البعث، وقد وصف اللّه تعالى مشاهد ذلك اليوم بقوله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَايَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۷۷

صَوَابًا» «۱»

.وأيضاً قد أطلق على القرآن في سورة القصص: «طَسم* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» «۲»

، وكذا في سور اخرى «۳»، وكذا ما مرّ في الطائفة الثانية من وصف الكتاب بأنّ فيه تبيان كلّ شيء، وقد نُعت الكتاب المبين في القرآن بأنّ ما من غائبة في السماء ولا في الأرض إلّافيه، وأنّه فيه مفاتح الغيب وما في البرّ والبحر وكلّ شيء. وكذا ما مرّ في الطائفة الأُولى من وصف الآيات المحكمات للكتاب بأنّها أُمّ الكتاب، وقد ذُكر في آيات هذه الطائفة، أنّ كلّ ما يمحى ويثبت في المشيئة الإلهية هو في أُمّ الكتاب. فمحكمات الكتاب هي أُمّ الكتاب.

ويتحصّل حينئذٍ: إنّ القرآن الكريم يشتمل على جميع مسائل علوم الدين والعلوم الأُخرى، وهذا يعزّز عموم مفاد الطائفة الثانية من أنّ في الكتاب تبيان كلّ شيء، ويدعم ذلك أنّ القرآن قد وصف أنّه مهيمن على الكتب السابقة، كما في قوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ» «۴»

، والهيمنة هي الإحاطة، مع أنّه قد وصفت بعض الكتب السماوية المتقدّمة باحتوائها على غير علوم الدين، كقوله تعالى: «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي» «۵»

، فإنّ المجیء بعرش بلقیس بقدرة علم من الکتاب لیس ممّا یرتبط بالأحکام، وکذا قوله تعالی: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا» «۶»

، فقوله تعالی: «يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۷۸

وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» «۱»

دالّ علی أنّ حقیقة القرآن تشمل وتحوی المشیئات الإلهیة، وهما مشیئة المحو ومشیئة الإثبات، فضلًا عن القضاء والقدر الإلهیین.

کما أنّ فی الکتاب علم بکافة الکائنات والمخلوقات الأرضیة والسماویة، بمقتضی قوله تعالی: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «۲»

، وقوله تعالی: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «۳»

، وقوله تعالی: «عَالِمِ الْغَيْبِ لَايَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «۴»

، هذا کلّه فی الثقل الأوّل وهو الکتاب الکریم.

أمّا الثقل الثانی، فمضافاً إلی الآیات فی الطائفتین السابقتین حیث بیّنت أنّ تأویل کلّ الکتاب والإحاطة بمحکماته هو عند الراسخین فی العلم، وأنّ مجموع القرآن الکریم آیات بینات فی صدور الذین أوتوا العلم، وهم الراسخون فی العلم المشار إلیهم، وهم المطهرون فی آیة التطهیر الذین یمسّون الکتاب المکنون، کما فی قوله تعالی: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» «۵»

.وهم المعبّر عنهم بمن عنده علم الکتاب فی قوله تعالی: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» «۶»

، وهذه الآیة آخر سورة الرعد المکّیة نزولًا، ولم یکن قد أسلم یومئذٍ فی مکّة من أهل الکتاب أحد، فالمراد بها هو أحد المسلمین التابعین لرسول اللّه صلی الله علیه و آله ممّن شرّف بهذا العلم.

فقد ذکرت أقوال فی المراد من الآیتین المتقدمتین.

أحدها: إنّه هو اللّه، کما عن الحسن والضحّاک وسعید بن جبیر والزجاج،

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۷۹

واستُدلّ له بقول ابن عبّاس إنّه کان یقول: ومن عند اللّه علم الکتاب. «۱»

وثانیها: إنّ المراد به أهل الکتاب، منهم: عبد اللّه بن سلام وسلمان الفارسی وتمیم الداری، کما نسب إلی ابن عبّاس وعبد الملک بن عمیر وجندب، وغیرهم. «۲»

ومقتضی ذلک أن تکون مدنیة، کما عن ابن مردویه وابن الزبیر والکلبی ومقاتل. وکلا القولین کما تری فی الضعف والسقوط؛ فإنّ ظاهر الآیة اثنینیة الشهادة والشاهدین، والسورة کلّ آیاتها مکّیة، والآیة الأخیرة مذکورة فی سیاق نتیجة للآیات السابقة، فکیف یفکّک النزول بینها فتکون سابقتها مکّیة وهی خاصّة مدنیة؟ ولیس هذا إلّا تعصّب وعناد ممجوج، وسیأتی بسط الحدیث فی ذلک أکثر بعد الطائفة الثالثة.

ثم إنّه یستفاد من الطائفة الثانیة أُمور:

الأمر الأوّل: إنّ هذه الطائفة بمجموع الآیتین دالّة علی لزوم الرجوع إلی ثلّة معصومة فی مقام التمسّک بالکتاب العزیز، وعند إرادة تبیّن الأحکام الشرعیة والمعارف من الکتاب العزیز، نظیر ما تقدّم فی الطائفة الأُولی.

الأمر الثانی: تدلّ أیضاً علی استمرار بقاء تلک الثلّة ببقاء القرآن وبقاء هذا الدین، حیث إن هذه الملحمة القرآنیة فی الآیة الأُولی- وهی دعوی بیان حکم وعلم کلّ شیء فی القرآن- علی مرّ الأزمان والعصور محتاجة إلی من یبیّن ذلک من القرآن.

الأمر الثالث: إنّ حجّية هؤلاء الثلّة- عدل حجّية القرآن، وإنّ هذه الحجّية

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۸۰

بنحو معى، ومن الواضح اقتضاء ذلك عصمة تلك الثلّة علماً وعملًا؛ وإلّا لاختلّ وانسدّ باب الرجوع فى الكتاب إلى كلّ شىء.

أمّا العصمة العلمية؛ فلأنّ الآية الثانية تدلّ على أنّ مجموع القرآن هو بيّن فى صدورهم، والمفروض أنّ القرآن فيه تبيان لكلّ شىء، مضافاً إلى أنّه مع فرض الجهل العلمى فى تلك الثلّة يستلزم حصول العجز لكافة الأُمّة عن الوصول إلى كلّ ما يحتاجونه من أحكام الكتاب ومعارفه.

وأمّا فى صورة عدم العصمة العملية؛ فلأنّه سوف تُفقد الأمانة والوثوق فى الرجوع إلى أقوالهم.

الأمر الرابع: إنّ هذه الطائفة تعضد الاستثناء فى الطائفة الأُولى من أنّ الذى يعلم متشابه القرآن إنّما هو اللَّه والراسخون فى العلم حيث؛ إنّ فى هذه الطائفة دلالة على أنّ آيات القرآن بيّنة عندهم غير متشابهة.

الأمر الخامس: إنّ العلم الذى بتوسّطه صار مجموع القرآن بيّن لهم، هذا العلم إيتائى وهبى عطائى من اللَّه تعالى، لا تسبيبى (كسبى)، أى أنّه علم لدنى. وقد أشار إليه القرآن الكريم فى آيات عديدة، كما فى سورة الكهف حيث قوله تعالى:

«فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» «۱»

، وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» «۲»

، وقوله تعالى: «قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» «۳»

، وقوله تعالى: «وَلَقَدْ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۸۱

آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ» «۱»

.الأمر السادس: إنّ علمهم لدنىّ، علمٌ تالى لعلم النبىّ صلى الله عليه و آله وتابع للنبوّة؛ حيث إنّ ذلك العلم متعلّق ببيان كلّ الكتاب، كما فى آية العنكبوت المتقدّمة، أو تأويل كلّ الكتاب، كما فى قوله تعالى فى آل عمران: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ» «۲»

، وهو تأويل الكتاب المنزّل على النبىّ صلى الله عليه و آله، فعلمهم متأخر رتبة عمّا أُنزل على النبىّ صلى الله عليه و آله، ومن ثمّ أُطلق على علمهم أنّه وراثة عن النبىّ صلى الله عليه و آله، وليست هذه الوراثة هى وراثة معهودة بل هى وراثة نورانية، أى أنّ تلقّيها لدنىّ من اللَّه تعالى وبوساطة نبويّة.

الطائفة الثالثة: الذين يحيطون بالكتاب المبين ... ص: ۸۱

قوله تعالى: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۳»

، وقوله تعالى: «عَالِمِ الْغَيْبِ لَايَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۴»

، وقوله تعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ» «۵»

، وقوله تعالى:

«وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ..» «۶»

، وقوله تعالى: «يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» «۷»

، وقوله تعالى: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ* إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» «۸»

، وقوله تعالی: «كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۸۲

وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» «۱»

.والآیات الأُولی الدالّهٔ علی استطار کلّ شیء فی الخلقهٔ فی الکتاب، فکلّ غائبهٔ وکلّ رطب وکلّ یابس لم یفرط فی تدوینه فی الکتاب، وکل ما یُمحی ویُثبت فی عالم الخلقهٔ فی الکتاب. وقد وصف القرآن بالکتاب المبین أی بأنّ القرآن هو ذلک الکتاب المبین-، کما فی سورهٔ الدخان من قوله تعالی: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» «۲»

، وقوله تعالی: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ» «۳»

، وقوله تعالی: «طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ» «۴»

، وقوله تعالی: «هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» «۵»

، وقوله تعالی: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «۶»

، مع أن إستطار کلّ شیء فی الکتاب المبین صرّح به فی إحدی الآیات «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «۷»

، وقوله تعالی:

«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «۸»

. وهذه الطائفهٔ مع کونها دالّهٔ بالاستقلال علی الثقلین بضمیمهٔ قوله تعالی

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۸۳

فی الرعد: «كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» «۱»

فالحریّ بنا أن ننقّح الحال فی کون الآیهٔ مکّیهٔ فی قبال القولین السابقین اللذین مرّا فی الآیهٔ وأنّها مدنیهٔ.

وهذا القول یستلزم کون الآیهٔ مدنیهٔ؛ لأنّ هؤلاء وهم عبد اللّه ابن سلام أو سلمان الفارسی أو تمیم الداری- أسلموا بعد الهجرهٔ، وکلا القولین بعیدین عن الحقیقهٔ والصواب.

أمّا القول الأوّل، فإنّ ما نُسب إلی ابن عبّاس فمع کون النسبهٔ غیر مسندهٔ، فتکون القراءهٔ شاذّهٔ لا یجب التعویل علیها فی قبال المتواتر من قراءهٔ الآیهٔ، أی أنّ (مَنْ) اسم موصول لا حرف جرّ.

أمّا القول الثانی، فیردّه شواهد عدیدهٔ:

الأوّل: کون الآیهٔ مکّیهٔ کما عن النحاس عن ابن عباس، وممّن ذهب إلی أنّها مکّیهٔ سعید بن جبیر والحسن وعکرمهٔ وعطاء وجابر ابن زید. «۲»

الثانی: إنّ سیاق السورهٔ من أوّلها إلی آخرها سیاق واحد فی المحاججهٔ مع الکفّار، مثل قوله تعالی: «وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» «۳»

، وقوله تعالی: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ* وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» «۴»

، ومن الظاهر أنّ هذا اللحن لحن دعوهٔ الرسول صلی الله علیه و آله فی مکّهٔ مع کفّار قریش کبقیهٔ السور المکّیهٔ، لا أُسلوب المواجهة بالقوّهٔ والتهدید بالقتال، وکذلک هو لحن الطرف الآخر وهم الکفّار- لحن المطالبهٔ بالمعجز أی الحجاج المنطقی، وهی مرحلهٔ متقدّمهٔ فی عهد مکّی من الرسالهٔ تختلف عن العهد المدنی من أُسلوب المواجههٔ مع الرسول

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۸۴

القائد لدولته التی أنشأها فی المدینة.

ثمّ إنّ السورة تتابع آیاتها بنفس السیاق والأُسلوب، کقوله تعالی: «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَایَسْتَجِیبُونَ لَهُمْ بِشَیْءٍ إِلَّا کَبَاسِطِ کَفَّیْهِ إِلَی الْمَاءِ لِیَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْکَافِرِینَ إِلَّا فِی ضَلَالٍ* وَلِلَّهِ یَسْجُدُ مَنْ فِی السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَکَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ* قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» «... ۱»

، وکذلک الآیات اللاحقة: «وَیَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ یُضِلُّ مَنْ یَشَاءُ وَیَهْدِی إِلَیْهِ مَنْ أَنَابَ» «۲»

، وکذا قوله تعالی:

«کَذَلِکَ أَرْسَلْنَاکَ فِی أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَیْهِمُ الَّذِی أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ وَهُمْ یَکْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّی لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَإِلَیْهِ مَتَابِ* وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُیِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ کُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَی بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِیعًا» «۳»

.وأجمع المفسّرون وأصحاب السیر: أنّ الآیة الأخیرة نزلت فی مکّة لمطالبة قریش النبیّ صلی الله علیه و آله بهذه الأُمور الخوارق، ومن الواضح أنّ السیاق لا یمکن تفکیکه بل هو تابع مع مبتدأ السورة، فمن الغریب ما نُسب إلی بعضهم قوله أنّ السورة مکیة وخصوص هذه الآیة مدنیة، مع أنّ هذه الآیة کما یلاحظ بالتدبّر فی السورة متّصلة النظم وهی فی مقام الجواب عن حجج الکافرین، فکیف یصحّ إقحام هذه الآیة المدنیة بعد فرض کون الآیات السابقة جمیعاً مکیة؟

وهکذا فی استرسال بقیة الآیات کقوله تعالی: «وَلَقَدِ اسْتُهْزِیءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِکَ فَأَمْلَیْتُ لِلَّذِینَ کَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کَانَ عِقَابِ» «۴»

، والإمهال کان فی مکّة، وقوله تعالی: «بَلْ زُیِّنَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مَکْرُهُمْ» «... ۵»

، وکذا قوله تعالی: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۸۵

رُسُلًا مِنْ قَبْلِکَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّیَّةً وَمَا کَانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِکُلِّ أَجَلٍ کِتَابٌ» «۱»

، و «یَمْحُواْ اللَّهُ مَا یَشَاءُ وَیُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْکِتَابِ» «۲»

، و «وَإِمَّا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِنَّمَا عَلَیْکَ الْبَلَاغُ وَعَلَیْنَا الْحِسَابُ» «۳»

، و «أَوَلَمْ یَرَوْا» «... ۴»

، و «وَقَدْ مَکَرَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَکْرُ جَمِیعًا یَعْلَمُ مَا تَکْسِبُ کُلُّ نَفْسٍ وَسَیَعْلَمُ الْکُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَی الدَّارِ» «۵»

، و «وَیَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ کَفَی بِاللَّهِ شَهِیدًا بَیْنِی وَبَیْنَکُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتَابِ» «۶»

.فتجد أنّ مخاطبة الکفّار فی هذه الآیة الأخیرة هی عین مخاطبتهم السابقة وبنفس اللحن من الحجاج المنطقی، بل إنّ مضمون هذه الآیة الأخیرة ملخّص وحاصل لجمیع الآیات السابقة، بل فی هذه الآیة تصریح وتعرّض لرفض مقترحات الکفّار والتی طلبت فی الآیات السابقة، کما فی قوله تعالی: «وَیَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ یُضِلُّ مَنْ یَشَاءُ وَیَهْدِی إِلَیْهِ مَنْ أَنَابَ» «۷»

، ومقترحهم بتسییر جبال مکّة وتکلیم الموتی رفض بقوله تعالی: «قُلْ کَفَی» ... أی إنهاء للمحاجة وقطع للحجّة بشهادة اللَّه وشهادة من عنده علم الکتاب، وهذا دلالة علی مکّیة الآیة الأخیرة.

الثالث: لم یوصف علماء الیهود والنصاری والأحبار عدا أنبیائهم ورسلهم

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۸۶

وأوصیائهم بهذه الصفة من العلم بالکتاب، فهم فی قوله تعالی: «قَالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتَابِ أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ فَلَمَّا رَ آهُ مُسْتَقِرًّا» «... ۱»

، هو وصف لآصف بن برخیا وصـی سلیمان، وقد بیّنت هذه الآیهٔ أنّ خاصّیهٔ علم الکتاب القدرهٔ التکوینیهٔ الخارقهٔ کالتی کانت حاصلهٔ لدی آصف، وقد أشارت إلیه سورهٔ الرعد نفسـها فی قوله تعالی: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى » «۲...»

ومن الواضح أنّ هذه الخاصّـیهٔ والصـفهٔ إنّما تُعطی لذوی المناصب الإلهیهٔ کالأوصیاء والرسل، ومن ثمّ وصف بعلم الکتاب أکثر أنبیاء اللَّه.

کما أنّ آیات الثقل الأوّل فی هذه الطائفهٔ مبیّنهٔ لاحتواء الکتاب بکلّ المشیئات الإلهیهٔ وبکلّ غائبهٔ فی السماوات والأرض وکلّ صغیرهٔ وکبیرهٔ ورطب ویـابس، فالإحاطـهٔ بمثـل هـذا العلم لم یکن لـدی من أسـلم من الیهود والنصاری کما زُعِم، کعبـداللَّه بن سـلام وتمیم الـداری وغیرهما، فمع خطورهٔ هـذا المقام وعظمهٔ شأن هذه الصـفهٔ یمتنع أن یکون مصداقها هؤلاء، وذلک دلیل بیّن علی کون نزولها فی مکّهٔ وأنّ مصداقها هو من یکون وصیاً للنبیّ صلی الله علیه و آله.

الرابع: إنّ شهادهٔ من عنده علم الکتاب أمر اُردف بشهادهٔ اللَّه تعالی للدلالهٔ علی أنّها تتلوها فی السنخ، وبعبارهٔ اُخری: إنّ إدلاء الشاهد بالشـهادهٔ یسـتلزم تحمّـل الشاهـد عیاناً للأمر المشـهود به، ممّا یعنی أنّ الشاهـد لـدیه إدراک حضوری عیانی لعملیـهٔ إنباء النبیّ ونزول الـوحی علی قلبه الشـریف، ونزول الـوحی علی قلب النـبیّ صـلی الله علیه و آله أمر غیـبی لیس من عـالم الشـهادهٔ والحسّ، فلاـ یتیسّـر للشاهد الشـهادهٔ إلّاأن یشهد بقلبه کیفیهٔ نزول الوحی علی النبیّ صلی الله علیه و آله، وکیف لا یتیسّر له ذلک وعنده علم الکتاب الذی استطرّ فیه کلّ شیء.

وهذا ما یشیر إلیه قول علی علیه السـلام فی الخطبهٔ المعروفهٔ بالقاصـعهٔ ...: «ولم یجمع بیت واحد فی الإسلام غیر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وخدیجهٔ وأنا ثالثهما، أری نور الوحی

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۸۷

والرسالهٔ وأشمّ ریح النبوّهٔ، ولقد سمعت رنّهٔ الشیطان حیث نزل الوحی علیه صلی الله علیه و آله فقلت: یارسول اللَّه ما هذه الرنّهٔ؟ فقال: هذا الشیطان قد أیس من عبادته إنّک تسمع ما أسمع وتری ما أری إلّاأنک لست بنبیّ، ولکنّک لوزیر وإنّک لعلی خیر». «۱»

ویشیر إلی ذلک قوله تعالی: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ» «۲»

، فإنّه قد أثبت الرؤیهٔ لا الرأی، وقد وصف القرآن الذین أوتوا العلم بأنّ مجموع القرآن آیات بیّنات فی صدورهم.

وأمّا قوله تعالی: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ» «۳»

، وهـذا وإن کـان شـهادهٔ ممّن أسـلم من بنی إسـرائیل علی مثـل القرآن من الکتب السابقـهٔ المنزّلـهٔ، إلّاأنّه فی الحقیقـهٔ لیس الاعتـداد بشـهادتهم الصـادرهٔ منهم من جهـهٔ أشخاصـهم، وإنّمـا هی فی الحقیقـهٔ شـهادهٔ الکتب السابقـهٔ علی نبوّهٔ النبیّ الخـاتم وحقّانیـهٔ القرآن المنزّل، فالشهادهٔ إذن لصدق النبوّهٔ وصدق القرآن هی بشاهد غیبی، وهو الکتب المنزّلهٔ السابقهٔ مسانخ ومن نمط المشهود له.

الخامس: إنّ لفظ (الکتاب) فی الآیـهٔ لم یُقیّـد بقیـد الـدالّ علی إرادهٔ الکتب السابقهٔ المنزّلهٔ، مضافاً إلی أنّ (ال) إمّا جنسـیهٔ أو عهدیهٔ، والجنسـیهٔ هو ما یراد به اللوح المحفوظ واُمّ الکتاب، وقد تقدّم أنّه لا یحیط به من أسـلم فی المدینهٔ من أهل الکتاب، ولا ادَّعی ذلک ولا ادُّعی فیهم ذلک، وإنّما الذی ادّعی ذلک فی الاُمّهٔ الإسلامیهٔ هم خصوص عترهٔ النبیّ صلی الله علیه و آله.

وأمّـا إن کـانت عهدیـهٔ، فالعهـد الـذهنی والعهـد الـذکری واللفظی فی السورهٔ إنّما هو القرآن الکریم، فالعالم بالکتاب المراد به العالم بتمام القرآن.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۸۸

فتحصّل حینئذٍ:

إنّ من عنده علم الکتاب المقرونهٔ شـهادته بشـهادهٔ اللَّه تعالی هو ممّن أسـلم مع النبیّ صلی الله علیه و آله فی مکّهٔ، وممّن قد زُوِّد بعلم

أُمّ الكتاب، أى ممّن له علماً لدنياً بتمام حقائق القرآن الكريم. ومن البيّن أنّ صلة الموصول فى الآية دالّة على حجّية شهادته، وأنّ منشأ تلك الحجّية هو إحاطته بالكتاب المسطرّ فيه المغيّبات، إذ من يكون بهذه المنزلة هو الذى يتمكّن من تحمّل تلك الشهادة والإحاطة بصدق المشهود بها، وهذا وجه حجّية شهادته.

وحيث احتجّ اللّه تعالى بشهادته فلابدّ من علم قريش ومعرفتهم لهذه الصفة التى فيه وإن جحدوا لساناً، سواء حصلت معرفتهم بذلك- وباتّصاف هذا الشاهد بهذه الصفة- سابقاً، أو بتوسّط نفس الاحتجاج بأن يكون فى وصف اللّه أنّ الشاهد هو بتلك الصفة تنبيهاً للكفّار على منشأ حجّية شهادته، وأنّ ذلك المنشأ وتلك الصفة بإمكانهم التحقّق من وجودها والفحص عن ثبوتها فى الشاهد.

وهذا ما تشير إليه المصادر التاريخية من وقيعة قريش فى بنى هاشم بأنّهم بيت سحر والعياذ باللّه- وأنّه طالما رؤى منهم السحر. ووقيعتهم تلك كانت شاملة لعلىّ عليه السلام، ممّا يدلّل على مشاهدة قريش خوارق العادات من بنى هاشم ومن علىّ عليه السلام، إلّاأنّهم يجحدوها بلسانهم ويصفوها بأنّها سحر.

ويشير إلى ذلك قول علىّ عليه السلام فى الخطبة القاصعة عندما طلبت قريش من رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يظهر لهم معجزة الشجرة فى حركتها وتكلّمها، فأظهر لهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله ذلك، فقال علىّ عليه السلام: «فقلت أنا لا إله إلّااللّه إنّى أوّل مؤمن بك يارسول اللّه، وأوّل من أقرّ أن الشجرة فعلت ما فعلت بإذن اللّه تعالى تصديقاً بنبوّتك وإجلالًا لكلمتك، فقال القوم كلّهم: بل ساحر كذّاب عجيب السحر خفيف فيه، وهل يصدقك فى أمرك إلّامِثلُ هذا يعنوننى- وإنّى لمن قومٍ لا تأخذهم فى اللّه لومة لائم، سيماهم سيماء

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۸۹

الصدّيقين وكلامهم كلام الأبرار، عُمّار الليل ومنار النهار، يتمسّكون بحبل القرآن، يحيون سنن اللّه وسنن رسوله، لا يستكبرون ولا يعلون ولا يضلّون ولا يفسدون، قلوبهم فى الجنان وأجسادهم فى العمل» «۱»

.وعدم استجابة قريش للأمر فى القرآن بأنّ عليهم الاكتفاء بشهادة اللّه وشهادة من عنده علم الكتاب، أى أنّهم لم يستشهدوا بمن عنده علم الكتاب، كما لم يستشهدوا بالقرآن على صدق نبوّته صلى الله عليه و آله.

فيتحصّل من هذه الطائفة أُمور:

الأوّل: اشتمال القرآن على لوح التشريع والتكوين، أى بتمام كلّ من اللوحين.

الثانى: إحاطة من عنده علم الكتاب وهم المطهّرون الذين يمسُّون مكنون القرآن كما سيأتى فى الطوائف اللاحقة- وهم الراسخون فى العلم كما فى الطائفة الأولى- والذين يعلمون تأويله ومتشابهه وهم الذين أوتوا العلم فمجموع آيات القرآن بيّنات فى صدورهم كما فى الطائفة الثانية-.

وإرادة الجمع من اسم الموصول (من عنده علم الكتاب) متعارف فى مثل الأسماء الموصولة، ولذلك فَسّر الجمع أيضاً- من زعم أنّ الآية مدنية، وطبّقها على مَنْ أسلم من اليهود والنصارى.

الثالث: مقتضى قوله تعالى: «قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا» «۲»

، وقوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا» «۳»

، إنّ خاصّية علم الكتاب هو إقدار اللّه تعالى لصاحب ذلك العلم على إحياء الموتى والتصرّف

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۹۰

بخوارق العادات، مع أنّ آصف بن برخيا الذى أُشير إليه فى الآية الأُولى كان عنده بعض علم الكتاب؛ لمكان (من) التبعيضية، لا سيما أنّ الآية الثانية فى نفس سورة الرعد ومورد نزولها هو اقتراح الكفار باتساع أرض مكّة بإزالة الجبال وتسوية الأرض وتكليم الموتى، من دون تقييدهم وقوع ذلك بالقرآن الكريم- تتضمّن جوابه تعالى بإمكان القدرة على ذلك بتوسّط القرآن، بياناً لعظمة القرآن

التكوينيـة وشؤونه فى الآفاق الخارجيـة، نظير قوله تعالى: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَـذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِـعًا مُتَصَـدِّعًا مِنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» «۱»

.الرابع: تتوضّح مفاد هذه الطائفة مع مفاد الطائفتين السابقتين بأمور مستنتجة، وذلك مثل ضرورة وجود ثلّة عالمة بالكتاب وما فيه؛ وإلّا لزم تعطيل الكتاب الـذى جمعت فيه حقائق الكون والتشـريع، والذى فيه بيان كلّ شـىء، وأنّهم عليهم السـلام فى علمهم هذا بالكتاب تالين تابعين لرسول اللَّه؛ لأنّ علمهم متعلّق بما أُنزل على النبىّ صلى الله عليه و آله.

وكـذا تلازم وجود القرآن ووجودهم بـأنّهم حينئـذٍ الوسـيلة للوصول إلى تمـام حقائق القرآن التشـريعية والتكوينيـة، وما به من هـداية المكلّفين مما تضطرّهم إليه الحاجة.

الطائفة الرابعة: المطهّرون والكتاب المكنون واللوح المحفوظ ... ص: ۹۰

قوله تعـالى: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ* إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* أَفَبِهَذَا

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۹۱

الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ* وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» «۱»

.وقوله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» «۲»

.وقوله تعالى: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ* وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ* بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ* فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» «۳»

.ومقتضى القسم فى الآية كون المقسوم عليه جملة خبرية لا جملة إنشائية؛ إذ القسم لأجل توثيق الأخبار بالمقسوم عليه، كما أنّ القسم فى الآيـة موصوف بالعظمـة لبيان عظمـة المخبر به، والمخبر به كرامـة القرآن، وقد فُسـرت كرامته باكتنانه فى كتاب غيبى لا يصل إليه إلّاالمطهّرون من الذنوب ومن الضلال، وفى ذلك بيانٌ لعزّة القرآن وقداسته عن أن يكون مبتذلًا لغير المطهرين.

فمن الواضح حينئذٍ- عدم إرادة القرآن فى وجوده فى رسم المصـحف الشـريف، بل المراد من الوجود وجوداً أسمى مكنوناً، محفوظاً فى لوح غيبى لا يناله ولا يصل إليه إلّامن كان على ارتباط بـذلك الغيب واطّلاع بالمغيبات. وهذا الوجود للقرآن ليس فيه متشابه؛ لأنّ المتشابه وصف للقرآن المنزّل، أى فى وجوده النازل على صورة آيات وسور، ومنه محكم؛ وإلّا فهو فى وجوده الغيبى كتاب كلّه مبين كما تقدّم وصـفه بذلك فى الطائفة الرابعة آنفة الذكر. وهذا سـبب كون القرآن بتمامه آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم حيث إنّهم مطهرون يطّلعون على الوجود الأرفع للقرآن أى الغيبى وهو معنى مسّهم للكتاب المكنون..

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۹۲

إذن هنـاك تشاهـد جلى بين هـذه الطائفـة والطوائف المتقدّمـة، كمـا أنّ للقرآن فى وجوده النزولى أوصافاً كما فى رسم المصـحف الشريف، ففى وجوده المكنون أوصاف أُخرى، فبعض الأوصاف للوجود الأوّل، وبعض الأوصاف للوجود الثانى.

وهـذا التعـدّد فى الأوصـاف راجع إلى تعـدّد مراتب وجود ونزول القرآن نفسه، وهو مقتضـى التعبير المتكرّر فى الآيات والسور بإنزال القرآن ونزوله، المستلزم لتواجد القرآن فى رتبةٍ عالية ثمّ أُنزل إلى النشأة الأرضية.

كمـا أنّ الآيـة تحصر الواصـل لحقيقـة القرآن الغيبيـة ب (المطهرين)، ولاـ تكون الطهـارة إلّابعـدم اقـتراف الـذنب، وهى المعبّر عنها بالعصـمة، وهى شاملة للبعد عن الضـلال، وقد وصِف الضـلال والشكّ والريب بالرجس فى القرآن الكريم، كما فى قوله تعالى: «وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ» «۱»

، وقوله تعالى: «كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ» «۲»

.بل قد أطلق القرآن الكريم الرجس على الجهل والجهالة، كما فى قوله تعالى:

...«وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ» «۳»

. كما أطلق الرجس على المعاصى المُرتكبة بالجوارح، كما فى قوله تعالى: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» «۴»

.فيُعلم من ذلك أنّ المطهرون هم الواجدون للطهارة عن جميع أنواع الرجس، فلا يرتابون ولا يشكّون قطّ، كما أنّهم لا يجهلون ولا يقعون فى جهالة قطّ، مستكملى العقل.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۹۳

فالطهارة قسمان: منها عن الرذائل العملية، وأُخرى عن رذائل الجهالات، فهم على كمال فى العلم والعمل بدرجة يتميزون بها، تؤهّلهم للاتّصال بالغيب والكتاب المكنون واللوح المحفوظ. فالآية دالّة على وجود هؤلاء المطهّرين فى الأُمّة. ومن البيّن أنّ وجود هؤلاء المطهّرين لازم لبقاء القرآن؛ وإلّا للزم تعطيل حقائق وأسرار القرآن، وقد عيّنت وشخّصت آية التطهير مصداق المطهّرين، وهم أهل البيت عليهم السلام؛ لقوله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» «۱»

، ولا يخفى الفرق اللغوى بين المطهّر والمتطهّر.

ويتحصّل مما مرّ أُمور:

الأوّل: معية الثقلين، وهم الكتاب والمطهّرون من عترة النبىّ صلى الله عليه و آله.

الثانى: تصريح الآية باطّلاع الثقل الثانى على مكنون القرآن الغيبى الذى هو من أنماط العلم الغيبى، والذى يمتازون به دون الأُمّة.

الثالث: طهارتهم وعصمتهم علماً وعملًا، وأنّ ذلك سبب تأهّلهم للإحاطة بحقائق القرآن الغيبية.

الرابع: إنّ المطهّرين هم المجموعة المعصومة المعدودة من عترة النبىّ صلى الله عليه و آله.

الخامس: إنّ للقرآن حقائق غيبية تكوينية وراء وجود رسم المصحف.

الطائفة الخامسة: وراثة الكتاب والعصمة فى التدبير ... ص: ۹۳

قوله تعالى: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۹۴

لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» «۱»

.وقوله تعالى: «وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ* ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» «۲»

، وقوله تعالى: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ» «۳»

.من الواضح أنّ الكتاب فى الآية الثانية هو القرآن الكريم بحسب السياق، كما أنّ هذا التوريث المشار إليه فى الآية ليس توريثاً مادّياً بالأسباب المتعارفة، نظير ما ورد فى قوله تعالى: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى» «۴»

، و «وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ» «۵»

، وقوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ» «۶»

، فالتوريث هذا توريث إلهى من سنخ الملكوت والعلم اللدنى؛ بقرينة تخصيص هذه الوراثة للكتاب ب (المصطفين)، والاصطفاء بالاصطلاح القرآنى قد خُصّ بالأنبياء والرسل والملائكة ونحوهم من المعصومين والمطهّرين.

وأمّا تقسيم الآية فى الذيل: فمنهم ظالم ومنهم مقتصد ومنهم سابق، فالضمير عائد إلى (عبادنا) أنّهم منقسمون إلى ثلاث فئات،

بخلاف التوريث؛ فإنّه قد خُصّ ب (المصطفين)، نعم قد عُرّف المصطفون بأنّهم بعض من عبادنا، و (من) للتبعيض هنا لا بيانية، ويدلّ على كون التوريث من سنخ العلم اللدنى الغيبى ذكر (السابق بالخيرات)، فإنّه عُرّف فى سورة الواقعة بالمقرَّب، وعُرّف المقرَّب فى سورة المطفّفين بأنّه يشهد الأعمال وكتاب الأبرار، وهو قوله تعالى: «كَلَّا إِنَّ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۹۵

كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ* كِتَابٌ مَرْقُومٌ* يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» «۱»

، فالسابق هو المقرّب وهو الشاهد على أعمال الأبرار، فهو مهيمن على مقام العلّيين الذى يُدوّن فيه كتاب الأبرار، وهو مقام غيبى، وهو الذى أُصطفىَ وورث الكتاب بوراثة لدنية، وقد تقدّم فى الطائفة الثالثة أنّ الذى عنده علم الكتاب يحيط بالكتاب المبين الذى يستطرّ فيه كلّ شىء ومنها أعمال الأبرار.

محصّل مفاد الآية «۲»: إنّ السابق هو الذى اصطُفى من العباد، والعباد ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: ظالم ومقتصد وسابق بالخيرات.

أما الآية الأولى «۳» فهى دالّة على أنّ المفزع والمصدر فى الأُمور هو الرسول وأُولى الأمر، وأنّ الواجب على المسلمين إذا انتابهم أمر يمسّ حياتهم الاجتماعية الرجوع والردّ إلى الرسول صلى الله عليه و آله وأولى الأمر للبتّ فى شأنه؛ وذلك لإحاطة تلك الثلّة باستنباط واستخراج ما هو الحقّ فى تدبير ما ألمّ بهم من أمر.

فالآية دالّة على أنّ تدبير الرسول صلى الله عليه و آله وأُولى الأمر ليس اجتهادياً ولا ظنّياً كما ذهب إليه أكثر أهل سنّة الجماعة، بل هو تدبير عن علم وإحاطة بالأُمور بأقدارٍ من اللَّه عزّوجلّ. فهذا الاستنباط هو استخراج صُراح الحقّ كما هو أصل معنى الاستنباط لغةً دون المعنى المصطلح عليه المتأخّر فى العلوم الدينية، وليس إعمال الموازين الظاهرية التى قد تخطأ أو تصيب، كما لا مجال للخطأ فى استخدام الموازين فى تدبير الأُمور العامّة من قِبل الرسول وأُولى الأمر.

نعم، قد يوهم إسناده إلى الرسول صلى الله عليه و آله وأُولى الأمر من ناحيتين:

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۹۶

الأُولى: إنّ الجهاز الحاكم فى حكومة الرسول وأُولى الأمر غير معصوم، وقد يرتكب الأخطاء أو المعاصى، فينسب ذلك بعضهم إلى الرسول صلى الله عليه و آله وأُولى الأمر، على أنّ هذا الإسناد ليس فى حقيقته متّصل بالرسول صلى الله عليه و آله، بل يُنسب إلى أعضاء حكومته صلى الله عليه و آله، نظير ما صنعه خالد بن الوليد فى فتح مكّة حيث غدر ببنى الأجلح فتبرّأ النبىّ صلى الله عليه و آله من فعله بقوله: «اللهمّ إنّى أبرأ إليك ممّا فعله خالد» «۱»

وكان معيّناً من قبل النبىّ صلى الله عليه و آله على إحدى الفرق العسكرية المرسلة، ثمّ انتدب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عليّاً عليه السلام ليسترضيهم ويعطى الدية لمن قُتل منهم.

وكذا ما صنعه أُسامة بن زيد حينما قتل مَن أظهر الإسلام شبهةً وظنّاً منه أنّ إظهار الشهادتين لا يحقن الدم مع الريبة.

الثانية: إنّ الميزان الظاهرى الشرعى الموظّف العمل به أن يكون ظاهرياً، أى قد يخطئ وقد يصيب، نظير البيّنة والحلف فى القضاء كما فى قوله صلى الله عليه و آله: «إنما أقضى بينكم بالبينات والأيمان، وبعضكم ألحن بحجّته من بعض، فأيّما رجل قطعت له من مال أخيه شيئاً فكأنّما قطعت له قطعة من النار» «۲»

.فتحصّل: أنّ تدبيره صلى الله عليه و آله وأُولى الأمر كذلك- فى الحكم بمقتضى مفاد الآية الشريفة هو العصمة عن الزلل والخطأ، وأنّه إن شوهد ما يوهم ذلك فى سيرته صلى الله عليه و آله فإنّ ذلك عند التدبّر راجع إلى أعضاء جهازه الحكومى من ولاة وغيرهم، أو إلى كون الميزان الشرعى الموظّف فى التدبير حيث إنّه ظاهرى، فقد لا يصيب الواقع فى بعض الموارد، ولكن جملة تدبير الرسول وتدبير أُولى الأمر فى النظام السياسى قائم على استخراج الحقيقة والواقع، كما هو مفاد هذه الآية.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۹۷

ثمّ إنّ هذه الآية «۱» دالّة على وجود ثلّة هم ولاة الأمر مقرونة ولايتهم بولاية الرسول صلى الله عليه و آله، وأنّ لهم عصمة فى التدبير وهى متقوّمة بالعصمة العلمية والعملية، وأنّ هذه الثلّة باقية ما بقيت الأُمّة وما بقى القرآن الكريم؛ لأنّ هذه الآية خطابٌ إلى كلّ المكلّفين إلى يوم القيامة، وأنّ الواجب عليهم ردّ وإيكال ما يعتريهم فى أُمورهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وغير ذلك بايكاله وردّه إلى أُولى الأمر العالمين بحكمه من خلال قدرتهم على استنباط واستخراج الحقّ والواقع فيه.

ومن البيّن أنّ هذا الاستنباط الموصّل إلى العلم بحقائق الأُمور، مستقى من الكتاب الكريم لا بلحاظ ما فيه من تشريع فقط؛ فإنّ ذلك لا يؤمّن بمفرده العصمة فى التطبيق والتدبير، بالإضافة إلى ذلك ما فى الكتاب من استطارَ كلّ شىء فيه من غائبة فى الأرض أو فى السماء أو رطب أو يابس، فى رتبة حقائقه العالية من الكتاب المكنون الذى هو الكتاب المبين والذى لا يمسّه إلّاالمطهّرون، وهو وصف أُولى الأمر المعصومين، الأمر الذى يتنزّل عليهم فى ليلة القدر بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله، هذا الأمر الذى فيه يفرق ويقدّر كلّ شىء إلى العام القابل، ويفصّل مقادير جميع الأشياء، ومن ثمّ يحيط أُولى الأمر وأصحاب الأمر المتنزّل فى ليلة القدر بكلّ الحوادث الخارجية وملابساتها ويحكمون تدبيرها وإصلاحها.

ويستحصل من هذه الطائفة أُمور:

الأوّل: إنّ توريث الكتاب بالاصطفاء ليس من نمط الوراثة البشرية المعتادة، وإنّما هو عبر اصطفاء الشخص المورّث للمقام الغيبى والمنصب الإلهى اللدنى، أى أن الوراثة من سنخ ملكوتى لا ملكى مادّى نظير ما تشير إليه الطوائف السابقة

من كون آيات الكتاب كلّها بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وهو علم الكتاب، وهم الراسخون الذين يعلمون تأويل متشابهه الذين يمسّون الكتاب المكنون.

ويشير إلى ذلك قوله تعالى: «وَوَرِثَ سُلَيمانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ» «۱»

، فإنّه كالعطف التفسيرى لبيان أنّ هذه الوراثة لدنية وهبية إلهية، كما هو الحال فى علم منطق الطير وأسباب القدرة التى أوتيت لداود وسليمان، وإن لم تنحصر الوراثة فى الآية بالوراثة التكوينية وشملت الوراثة الاعتبارية القانونية، أو أنّ شمولها للاعتبارية بالأولوية القطعية، ولذلك أحتجّت بالآية الصدّيقةُ الزهراء عليها السلام للمطالبة بإرثها من فدك، ويتم احتجاجها عليها السلام بكلا المعنيين كما يتبين بالتدبّر.

الثانى: إنّ تدبير الرسول صلى الله عليه و آله للحكم وشؤونه السياسية والعسكرية وغيرها وأُولى الأمر الذين تقدّم وصفهم فى الأمر الأوّل، هو تدبير بعلمٍ معصوم عن الخطأ، وهذا يخالف ما ذهب إليه أهل سنّة الجماعة من حصر عصمته صلى الله عليه و آله فى تبليغ الأحكام.

الثالث: الآية دالّة على أن لا اعتصام للمسلمين فى نظامهم الاجتماعى والسياسى- عن الخطأ والزلل والضعف والوهن إلّابردّ شؤونهم العامّة إلى الرسول وأُولى الأمر، والتمسّك بذيلهم من أجل الاعتصام بحبل اللّه الممدود لهم.

الرابع: إنّ هذه الطائفة دالّة على أنّه ما دام للمسلمين حوزة واجتماع، وما داموا مكلّفين بكتاب اللّه وأحكامه، فإنّ هناك ثلّة مصطفاة فى الأُمّة الإسلامية باقية وهم ولاة الأمر، ولهم وراثة الكتاب اللدنية، وأنّهم معصومون علماً وعملًا، ومن ثمّ كان تدبيرهم للحكم بصواب وعلم لا يخالطه جهل؛ إذ لو كان استنباطهم للأمر

فى التدبير العام بموازين ظنّية، لما صدق إطلاق الجزاء (لعلمه) بإطلاق الشرط (لو ردّوه) فى الجملة الشرطية لمخالطة الجهل.

فهذه الطائفة دالّة على أنّ هناك اصطفاء لثلّة من الأُمّة الإسلامية، كما أنّ الطوائف السابقة دالّة على أنّ هناك ثلّة مطهّرة فى

المسلمين. وقد استُخدم لفظ الاصطفاء والتطهير فى آيات الكتاب العزيز فى الأنبياء وأولياء اللّه الحجج، كقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» «۱»

، فمن هذه الأُمّة الإسلامية من يجتبيه اللّه عزّوجلّ ويطهّره من النقائص العلمية والعملية، وهى المعبّر عنها بالعصمة، فقد وقع الاصطفاء من بين هذه الأُمّة كما قد وقع التطهير، ووقع إيتاء العلم علم الكتاب لأُولئك المعنيين من بين هذه الأمّة.

الخامسة: إنّ فى ذيل هذه الآيات وصف توريث الكتاب للمصطفين وسبقهم للخيرات بإذن اللّه، إنّه فضل كبير كما يصفه تعالى، ليس بلحاظ النعم والعطاءات فى دار الدنيا، بل مطلقاً، أى أخروياً أيضاً؛ إذ لم يصف اللّه بهذا الوصف إلّافى حقّ الرسول صلى الله عليه و آله كقوله تعالى: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْکَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَکَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْکَ عَظِيمًا» «۲»

، فقد وصف اللّه تعالى إنزال الكتاب على النبىّ صلى الله عليه و آله وإيتاءه الحكمة والعلم اللدنى، ووصفه بالفضل العظيم، وهو موافق إطلاق الفضل الكبير على توريث الكتاب المصطفين وسبقهم للخيرات.

وكذا قوله تعالى: «وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْکَ ثُمَّ لَاتَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا* إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْکَ كَبِيرًا» «۳»

، حيث أطلق الفضل الكبير

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۰۰

على وحى الكتاب بتمام حقائقه ومعرفة بطونه، وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ* ذَلِکَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ» «۱»

، فهو اطلاق على عطاء دار الآخرة لا عطاء دار الدنيا، مضافاً إلى أنّ السياق يشهد بإرادة ذوى القربى.

وفى مقابل ذلک لم ينصّ القرآن على إعطاء فضل كبير وعظيم لأحدٍ من الأنبياء غير الرسل، كقوله تعالى حكاية عن سليمان: «وَوَرِثَ سُلَيمانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ» «۲»

، فأطلق عليه أنّه فضل مبيّن، أى ظاهر غير خفى، ولم يصفه بالعظمة وكونه كبيراً.

وكذا قوله تعالى: «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا» «۳»

، وقوله تعالى: «وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ» «۴»

، وقوله تعالى على لسان داود وسليمان عليهما السلام: «وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ» «۵»

، وقوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا» «۶»

.ذكر اللّه تعالى الفضل بصورة التنكير؛ للدلالة على أنّه نوع من الفضل، ولم يوصف بالعظمة والكِبر. فمجموع هذه الشواهد دالّ على أنّ توريث الكتاب للمصطفين من هذه الأُمّة هو توريث من سنخ الوحى بالقرآن، أى لدنياً وإن لم يكن نبوّة، وأنّ هذا الفضل قد خصّ بصيغة الكِبر والعظمة بخلاف الفضل الذى

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۰۱

اعطى لبقية النبيين والمرسلين فانه لم يوصف بذلک. ونظير الدلالة على هذا الامتياز ما تقدّم فى سورة الواقعة أنّهم فى هذه الأُمّة، وهم أهل البيت عليهم السلام بنصّ آية التطهير، وهم الذين يمسّون القرآن المحفوظ فى كِنْ «۱» الكتاب المحفوظ، والمتنزّل من ذلک المقام الغيبى وهو المصحف الشريف الذى بين الدفّتين.

السادسة: إنّ فى تقييد وصفهم (السابقون للخيرات) بإذن اللّه، يتوافق ويتشاهد مع قوله تعالى: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ» «۲»

، الدالّة على أنّ فعلهم وسبقهم للخيرات هو بإذنٍ من اللَّه، والمراد بالإذن الإيحاء الذى هو أعمّ من الوحى الاصطلاحى كالوحى التسديدى والإلهامى أى هو العلم اللدنى لا الوحى النبوى.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۰۳

قراءات جديدة فى آيات وحديث الغدير ... ص: ۱۰۳

القراءة الأُولى النبىّ وأهل بيته أولياء لدين اللَّه)

إنّ مفهوم الولاية قد انطبع فى الأعصار الأخيرة بحدود ضيّقة تقتصر على صلاحية الحكم السياسى بمصطلحاته الثلاثة: القضائية والتنفيذية والتشريعية، وكذلك الحال فى مفهوم حقّ الطاعة. بينما مفهوم الولاية فى أصل الوضع اللغوى والاستعمال القرآنى والروائى أعمّ من ذلك، أى هو فى معنى يساوى الدين والديانة، كما يقتضيه التدبّر فى الشواهد الآتية.

وعلى ضوء ذلك، فالولاية تمتدّ بامتداد سعة دائرة الدين وأبوابه، وبعبارة أُخرى: الولاية تسنّم وتقلّد صلاحية كلّ شىء بحسبه، ومن ثمّ يقال: ولاية التنفيذ وولاية القضاء وولاية التشريع وولاية الإفتاء وولاية إبلاغ الرسالة، كما سيأتى فى الاستعمال القرآنى. وكذلك يقال: الولاية التكوينية، وهو القدرة على التصرّفات بإذن اللَّه تعالى.

وفى لسان العرب: ولى فى أسماء اللَّه تعالى؛ الولى هو الناصر، وقيل: المتولّى لأُمور العالم والخلائق والقائم بها، ومن أسمائه عزّ وجلّ: الوالى، وهو مالك الأشياء جميعها المتصرّف فيها.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۰۴

قال ابن الأثير: وكأنّ الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع ذلك فيها لم يطلق عليها اسم الوالى ... وعن ابن السكيت: الوِلاية بالكسر- السلطان.

وقال سيبويه: الوَلاية بالفتح- المصدر، والوِلاية بالكسر- الاسم، مثل: الإمارة والنقابة؛ لأنّه اسم لما تولّيته وقمْت به.

وروى ابن سلام عن يونس، قال: المولى له مواضع فى كلام العرب: منها المولى فى الدين وهو الولىّ، وذلك قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَامَوْلَى لَهُمْ» «۱»

، أى لا ولىّ لهم، ومنه قول سيّدنا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«من كنت مولاه فعلىّ مولاه» أى من كنت وليّه وروى أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله قال: «من تولّانى فليتولّ عليّاً»، معناه من نصرنى فلينصره «۲».

وقال الفرّاء فى قوله تعالى: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ» «۳»

، أى تولّيتم أُمور الناس والخطاب لقريش- قال الزجّاج والفرّاء: إن تُوُلِّيتُم أى وَلِيكُم بنو هاشم «۴»، وقوله صلى الله عليه و آله: «اللهمّ والِ من والاه» أى أحبب من أحبّه وانصر من نصره.

ثمّ قال: وقد تكرّر ذكر المولى فى الحديث، وهو اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو الربّ والمالك والسيّد والمنعم والمعتق والناصر والمحبّ والتابع والجارّ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۰۵

وابن العم والحليف والعقيد والصهر والعبد والمُعْتَق والمنعم عليه، قال: وأكثرها قد جاءت فى الحديث، فأضاف كلّ واحد لما يقتضيه الحديث الوارد فيه، وكلّ من ولى أمراً أو قام به فهو مولاه ووليه.

قالوا: وقد تختلف مصادر هذه الأسماء، فالوَلاية بالفتح فى النسب والنصرة والعتق، والوِلاية بالكسر فى الإمارة، والولاء فى المُعتق الموالاة من والى القوم.

قال ابن الأثير: وقوله صلى الله عليه و آله: «من كنت مولاه فعلىّ مولاه» يحمل على أكثر الأسماء المذكورة. وقال الشافعى: يعنى بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَامَوْلَى لَهُمْ» «۱»

. قال: وقول عمر لعلىّ: أصبحت مولى كلّ مؤمن، أى ولىّ كلّ مؤمن «۲».

وقال النيسابورى فى وجوه القرآن: إنّ الولى على ثمانية أوجه، وذكر أنّ أحدها بمعنى الآلهة، كقوله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ» «۳»

، وقوله تعالى: «أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ» «۴». «۵»

هذا وإنّما أطلنا فى نقل كلام اللغويين روماً فى إثبات أنّ معنى الولاية معنىً عام إذا أُضيف إلى الدين شمل كلّ من الإمارة وبقية الصلاحيات والمناصب فى الدين.

وبعبارة أُخرى: إنّ للولاية معنىً جامع وأصل فارد يستعمل فى الموارد العديدة، وهو الذى تنبّه إليه ابن الأثير فيما تقدّم من قوله: (إنّ الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل)، أى أنّ المعنى الجامع مفاده التمكين والقدرة على التصرّف، فإذا تقرّر ذلك يتبيّن من خلال ما مضى وسيأتى من شواهد عديدة أنّ الولاية

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۰۶

المجعولة فى الأدلّة لعلىّ عليه السلام والأئمة عليهم السلام هى ولاية كلّ الدين، بما فى ذلك من الإمارة والحكومة والقيام بالأُمور السياسية فى النظام الاجتماعى وكذا الولاية فى التشريع والقيمومة على الدين ووساطتهم فى التدين بالدين، وغير ذلك من الشؤون.

وهذه الآية ملحمة قرآنية لقريش بأنّها ستتولّى الأُمور وتكون سيرتها ما ذكرته الآية. وفى القراءة الثانية إن تولّت بنو هاشم الأُمور ستعاديهم قريش فتضمّنت الملحمة القرآنية نبوءة مستقبلية قد جاء بتصديقها ما وقع فى الصدر الأوّل للأُمّة الإسلامية.

فالولاية من معانى الولاية فى جميع أبواب الدين، ومن تلك الأبواب الإبلاغ عن اللّه تعالى ممّا أبلغه النبىّ صلى الله عليه و آله عن اللّه لهم خاصّة، سواء فى نشأة حياته الدنيا أو حياته الأُخرى، ولا ـ زال النبىّ صلى الله عليه و آله يبلّغ الإمام القائم بالأمر (عج) عن اللّه تعالى، وهذه هى السفارة الإلهية وإن لم تكن من سنخ النبوّة أى السبب المتّصل بين الأرض والسماء، قال الشيخ الصدوق فى الاعتقادات: وقد فوّض اللّه تعالى إلى نبيّه صلى الله عليه و آله أمر دينه، فقال عزّوجلّ: «مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» «۱»

، وقد فوّض ذلك إلى الأئمّة عليهم السلام. «۲»

فالولاية الواردة لهم عليهم السلام فى الآيات والأحاديث كحديث الغدير- هى ولاية كلّ الدين عدا النبوّة، فكلّ ما كان للنبىّ صلى الله عليه و آله فهو ثابت لهم، وكذا وساطتهم عن اللّه، غاية الأمر بتوسّط النبىّ صلى الله عليه و آله.

وليست ولايتهم مقصورة على الولاية السياسية والرئاسة وقيادة النظام الاجتماعى، وإن كانت هذه الولاية إحدى شعب ولايتهم فى الدين، وبعبارة

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۰۷

أُخرى، إنّ الإمامة كما تقرّر فى معناها ليست مقتصرة على الرئاسة العامّة وحفظ الدين فى جانب الحاكمية والتدبير، بل حدودها ومعناها أوسع من ذلك بنحوٍ يتناول الهداية التشريعية الارائية فى طول النبوّة والهداية الإيصالية للنفوس إلى الكمالات الحقيقية بتدبير ملكوتى

وكلّ من الهدايتين هى من موقع تكوينى لنفس وروح الإمام المعصوم، نظير ما ذكره المتكلّمون فى تعريف النبوّة والنبىّ من أنّها كون النفس البشرية بحيث تسمع كلام اللّه، أى أنّه مقام تكوينى للروح النبويّة، فكذلك الحال فى الإمامة فإنّها مقام تكوينى كمالى وإن اختلفت سنخاً عن النبوّة، ويتقرّر من ذلك أنّ الولاية بمعناها الوسيع الشامل تتطابق «۱» مع ماهية الإمامة.

ويجدر هاهنا الإشارة إلى جملة من الشواهد على سعة معنى الولاية بالإضافة إلى الدين وأبوابه ومقاماته:

أوّلًا: قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا* وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا» «۲»

، مفاد الآيـة يقرّر أنّ الدعوة إلى اللّه وهى الهداية الأرائية هى صـلاحية وولاية يعطيها اللّه عزّوجلّ، وهذا مؤدّى قوله (بإذنه)؛ إذ إعطاء الإذن إنّما هو فى حقل الولايـة والملكيـة والقـدرة والسـلطنة. فيظهر من الآيـة أنّ إحـدى محطّات الولايـة وشـعبها هى الـدعوة إلى اللّه والهدايـة التشـريعية، ونظير هـذا المفاد قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالًا قُلْ ءآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» «۳»

.حيث أوضحت الآية التقابل بين الفريّة من جانب والفتيا بالإذن من جانب

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۰۸

آخر، مع أنّ المتبادر فى بـدو النظر أنّ المقابل للافتراء هو الصدق والمقابل للفتيا بالإذن هو الفتيا بغير إذن، فجَعْل المقابلة فى الآية بين الافتراء والفتيا بالإذن يقتضـى كون التحليل والتحريم وبيان الأحكام الإلهيـة متوقّفاً على الإذن ممّن له الولايـة، وأنّها أُمور مولوية، وأنّ جهة التشريع من شعب ولايته تعالى.

وثانياً: إنّ الجعل التشـريعى قوامه بالمولويـة ومولويـة المولى؛ لأنّ الحكم التكليفى قوامه بالطلب المولوى، والمولويـة هى ولاية البارى تعالى، كما أنّ قوام الحكم الوضـعى هو بالحكم التكليفى، فيكون قوام الأحكام التشـريعية بولايـة المولى، والتقنين ينقسم إلى سـنخين من الحكم الوضـعى والتكليفى، أى ينقسم التقنين إلى قـانون يقرّر المعـانى كالملكيـة والحقوق والعقود، وإلى قانون فيه اقتضاء الفعل والإلزام به، وكلّ من الحكمين أصـيل فى التشـريع إلّاأنّ مآل الحكم الوضـعى فى التشـريع إلى الحكم التكليفى، ولـذلك أفرط بعض علماء الأُصول فى نفى تأصيل الحكم الوضعى فى التشريع، وقالوا إنّه منتزع وتابع لحدود الحكم التكليفى.

وعلى أىّ تقـدير، فـإنّ الحكم الوضـعى الـذى هو تقرير لمعـانى الأشـياء كمؤدّى اعتبارى قانونى، إنّما يشـرّع ويقنّن لتنظيم أفعال أفراد المجتمع، أى فيؤول الحكم الوضعى وغايته الحكم التكليفى الذى يتعلّق بفعل الفرد مباشرةً، هذا من ناحية.

ومن ناحيةٍ أُخرى فإنّ قوام الحكم التكليفى هو بمولوية الشارع، والمولوية قوامها بولاية المولى وحقّ الطاعة له، وبذلك يكون التشريع وصلاحيته وليدة ولاية المشرّع والمقنّن على المتدين لذلك الشرع والمتّبع لذلك التقنين.

ويعضد ذلك أنّ فقهاء الشـريعة وفقهاء القانون الوضـعى فى اسـتنباطهم وقراءتهم للنصوص الشـرعية والقانونية، إنّما يسـتنبطون الحكم ولو كان وضعياً فيما إذا كان الشارع يعمل جهة المولوية فى إنشائه للحكم، أى لا يكون بداعى

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۰۹

الإرشاد، أى لابدّ أن يكون المقنّن من جهة سيادته وسيادة القانون يقرّر ذلك النصّ القانونى لا من باب النصيحة، والإرشاد منه، وهذا ممّا يـدلّل على أنّ الحكم الوضـعى فى تشـريعه يستند إلى ولايـة الشارع وسيادته، وبالتالى يتّضـح لنا أنّ الولايـة تتشـعّب إلى الولاية التشريعية كما تتشعّب إلى ولاية القضاء والتنفيذ والتدبير.

ثالثاً: إنّ مفهوم الـدين والديانـة هو الخضوع بالطاعـة فى اتّجاه من له الولايـة، ومن ثمّ كانت الديانـة هى الطاعـة، والمطاع هو الـدائن، وكذلك فى مفهوم الإسـلام الذى هو من التسليم والخضوع. ومن ذلك يتقرّر المطلوب من أنّ ولاية النبىّ صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام، أى وجوب طاعتهم تتّسع لكلّ حدود ودائرة الدين والديانة فى طول وتبع ولاية اللّه تعالى وطاعته، ومن ثمّ تتبلور القراءة الصـحيحة لقوله تعـالى: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» «۱»

، وقـوله تعـالى: «إِنَّمَـا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا الَّذِينَ يُقِيمُـونَ الصَّلاـةَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» «۲»

.بأنّ وجوب طاعـة الرسول صـلى الله عليه و آله والأئمّـة عليهم السـلام وولايتهم ليست مقتصـرة على الحاكمية السياسـية، بل هى ولاية وقيمومـة على هـذا الـدين، كمـا هو الحـال فى وجوب طاعـة اللّه وولايـته، حيث إنّهـا غير مقتصـرة على الحاكميـة السياسـية والقضائية والتشـريع السياسـى، بـل هى ولايـة عامّـة بحـدود سـعة الـدين والديانـة، حتّى فى الأبواب العباديـة، بمعنى أنّ رسم العبادة للّه‌تعالى هو بتوسّط سنن وأوامر

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۱۰

نبويـة وسـنن وأوامر ولويـة كما هى مشـتملة على فرائض وأوامر إلهيـة فقصـد الأمر المأخوذ فى العبادة هو إمتثال الأمر الشامل للأقسام الثلاثة من الأوامر، فبطاعتهم يُعبد اللّه تعالى.

وإلى ذلك يشير ما رواه الكلينى والمفيد والطوسى فى الصحيح عن محمّد بن زيد الطبرى، قال: «كنت قائماً على رأس الرضا علىّ بن موسـى عليه السـلام بخراسان وعنده جماعة من بنى هاشم منهم إسـحاق بن العبّاس بن موسـى، فقال له عليه السـلام: يا إسحاق، بلغنى أنّكم تقولون: إنّا نقول: إنّ الناس عبيد لنا، لا وقرابتى من رسول اللّه صـلى الله عليه و آله ما قلته قطّ ولا سـمعته من أحد من آبائى، ولا بلغنى عن أحدٍ منهم قاله، لكنّا نقول: الناس عبيد لنا فى الطاعة، موالٍ لنا فى الدين، فليبلغ الشاهد الغائب» «۱»

.وما ورد فى الروايات من زيارة الإمام الرضا عليه السلام:

«اللّهمّ صلِّ على أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عبـدك وأخى رسولك الـذى انتجبته بعلمك وجعلته هادياً لمن شـئت من خلقك، والدليل على من بعثته برسالاتك، وديّان الدين بعدلك، وفصل قضائك بين خلقك، والمهيمن على ذلك كلّه» «۲»

.وورد وصف ديان الدين فى الصـلاة على الحسنين وعلى على بن الحسين فى الزيارة المزبورة التى ورد فيها: «اللهمّ صلِّ على علىّ ابن موسى الرضا المرتضى عبدك وولىّ دينك» «۳»

، كما ورد أيضاً فى زيارة آل ياسين فى الناحية «السلام عليك يا باب اللّه وديّان دينه» «۴»

، ومنها قوله تعالى تلقيناً لنبيّه صلى الله عليه و آله: «إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۱۱

الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ» «۱»

، فإنّ إنزال الكتاب وإن كان وصـفاً لاسم الجلالة، إلّا أنّ الوصف ذكر للمناسـبة مع عنوان الولى، كما هو مطّرد فى الاستعمال والأدب القرآنى، وإلّا لذكر وصف آخر غير إنزال الكتاب.

رابعاً: ما يظهر من دلالـة العديـد من أدلّة ولايتهم عليهم السـلام أنّها قيمومة على مجمل الدين فى طول وتبع قيمومة الرسول وفى طول قيمومة وتبع اللّه عزّوجلّ، فالولاية على الدين هى بالأصالة للّه‌عزّوجلّ، كما قال تعالى: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ» «۲»

، وقوله تعالى: «وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» «۳»

، وقوله تعالى: «الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» «۴»

، فإن خلوص الدين للّه‌من قبل العبد يقتضـى أن لا يخضع العبد لغير اللّه، ولا يدين بولاية وطاعة غير اللّه تعالى، أى يقتضـى أنّ الولاية والطاعة فى الدين فى كلّ شعبها مبدأها ومنتهاها وأصلها وغايتها وأقسامها واختلاف ضروبها هى للّه‌تعالى:

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْكَافِرِينَ» «۵»

، و: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» «۶»

، وغيرها من الآيات المتظافرة الدالّـة على ولايـة الرسول فى قيمومته على دين اللّه التابع لولايـة اللّه فى كلّ شـعبها وضـروبها وأقسامها، فهى ثابتة للرسول صـلى الله عليه و آله تبعاً لولاية اللّه، سواء فى ولاية التشـريع والحكم والقضاء والتصـرّف والبيان والترخيص والنسخ والإقرار وأنّ طاعتهم باب العبادة للّه‌تعالى...

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۱۲

وغيرها من ضروب أنماط الولاية وحقّ الطاعة فى أبواب الدين الكثيرة المتعدّدة، التى يكون ولاية الحكم السياسى بقواه الثلاثة باباً من أبوابه؛ إذ الدين دائرته وملاكاته أوسع من النشأتين فضلًا عن أن ينحصر بأحكام النظام السياسى فى النشأة الدنيا.

فتحصّل: أنّ ولايتهم الواردة فى الأدلّة المتعدّدة هى الولاية على كلّ الدين فى جميع أبوابه وروافده، وهذا أصل من أُصول الشريعة فى المعرفة تنشعب منه قواعد عديدة من المعارف.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۱۳

توحيد اللّه فى العبادة بولايتهم وطاعتهم ... ص: ۱۱۳

اشارة

قال تعالى: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَنْ لَاتَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ* وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» «۱»

، فأطلق على الطاعة للشيطان أنّه عبادة له، وهذا يقتضى أنّ عبادته تعالى لا تتقوّم حقيقة بمجرّد السجود والركوع وأشكال النسك، بل لانطوائها واحتوائها وتضمّنها لطاعة اللّه فحينئذٍ تكون عبادة له تعالى، وهذا الاستعمال للعبادة فى الطاعة يقتضيه المعنى اللغوى؛ لأنّ قوام العبادة بالخضوع.

والخضوع هو الطوعانية والأئتمار والانقياد لإرادته تعالى، فذلك هو روح وجوهر العبادة، وأمّا أشكال النسك والطقوس العبادية فهى قشر ولباس وثوب وبدن العبادة، وأمّا اللباب والروح فهى الطاعة وعبودية الانقياد والخضوع والانقهار أمام إرادته تعالى والتسليم والضعة والإخبات لمشيئته تعالى، فإنّما صارت العبادة النسك والطقوس- عبادة بالطاعة.

ونظير ذلك قوله تعالى: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ» «۲»

، فأطلق تعالى على طاعة الجنّ وتولّيهم وموالاتهم عبادة لهم وقال

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۱۴

تعالى: «وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ» «۱»

، أى الذين يعبدون الطاغوت، وقد فسّر بطاعتهم للأحبار والطاغوت كلّ من أطيع فى معصية اللّه، ويعضد هذا التفسير قوله تعالى: «إِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» «۲»

، وقوله تعالى: «وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» «۳»

، وفى صحيح أبى بصير عن أبى عبد اللّه عليه السلام فى قول اللّه تعالى: «إِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» قال: «واللّه ما صلّوا لهم ولا صاموا ولكن أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالًا فاتّبعوهم» «۴»

.وفى رواية أُخرى، قال عليه السلام: «واللّه ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم ما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالًا، فعبدوهم من حيث لا يشعرون» «۵»

.وفى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر عليه السلام ...: «وأمّا قوله أحبارهم ورهبانهم فإنّهم أطاعوهم وأخذوا بقولهم واتّبعوا ما أمروهم به ودانوا بما دعوهم إليه، فاتّخذوهم أرباباً بطاعتهم لهم وتركهم أمر اللّه وكتبه ورسله، فنبذوه وراء ظهورهم، وما أمرهم به الأحبار والرهبان اتّبعوه وأطاعوهم وعصوا اللّه، وإنّما ذُكر هذا فى كتابنا لكى يُتّعظ به» «۶»

.وروى الثعلبى بإسناده عن عدى بن حاتم قال: «أتيت رسول اللّه صلى الله عليه و آله وفى عنقى صليب، فقال لى: يا عدى اطرح هذا

الرق (الوثن) من عنقك. قال: فطرحته ثمّ انتهيت إليه

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۱۵

وهو يقرأ من سورة براءة هذه الآية: «إِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» حتّى فرغ منها، فقلت له: إنّا لسنا نعبدهم. قال: أليس يحرّمون ما أحلّه اللَّه فتحرّمونه ويحلّون ما حرّم اللَّه فتستحلونه؟ قال: فقلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم» «۱»

.فإذا تقرّر ذلك يتبيّن أنّ قوام العبادة بالطاعة، وهى روحها وجوهرها، ولا ريب أنّ الطاعة للَّهلا تُعرف إلّابدلالة منه عزّوجلّ، إذ لا يصيب العقل البشرى مواطن رضا اللَّه وإرادته ومشيئته، ولا- يميزها عن مواطن سخطه ونقمته، إلّاالنزر القليل، ممّا تقضى به الفطرة البشرية من المحاسن وتدركه من القبائح، فمن ثمّ تتبلور ضرورة وجود الدليل على طاعته والهادى إلى إرادته ومشيئته، ومن ثمّ كانت بعثة الأنبياء ونَصبُ الأوصياء من بعدهم ضرورة ملحّة للوقوف على مواطن طاعة اللَّه.

وبمعرفة طاعة اللَّه يصيب المسلم والمؤمن حقيقة العبادة، وبجهله بطاعة اللَّه يخفق عن إقامة عبادته، فالتوحيد فى العبادة هو بالطاعة التى هى الركن الركين، وطاعته تعالى لا طريق لها إلّابطاعة نبيّه ورسوله وحججه المنصوبين من قِبله خلفاء فى أرضه.

المنهج السلفى وعبادة إبليس ...: ص: ۱۱۵

أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فى استعراضه لقصّة إبليس مع آدم فى أكثر من سبع سور «۲»، إذ قال تعالى فى سورة ص: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ* فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ* قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ* قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۱۶

وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ* قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ* وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ* قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ* قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ* قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ* لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» «۱»

.وقال فى سورة البقرة: «إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» «۲»

.قد بيّنت الآيات الكريمة أنّ الخضوع والانقياد لآدم توحيد للَّهفى العبادة، لأنّه خليفة اللَّه، وأنّ ترك الانقياد له شرك وكفر فى العبادة وإن أتى بصورة السجود للَّه كما ورد فى الأحاديث.

ففى الخطبة القاصعة لأمير المؤمنين عليه السلام قال: «ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين؛ ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: «إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ* فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ»، اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه وتعصّب عليه لأصله، فعدو اللَّه إمام المتعصّبين وسلف المستكبرين ... وكان قد عبد اللَّه ستّة آلاف سنة، لا يُدرى أمن سنى الدنيا أم من سنى الآخرة من كبرٍ ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على اللَّه بمثل معصيته؟» «۳»

.وكالذى رواه الراوندى بإسناده إلى الصدوق بسنده الصحيح: «عن هشام، عن الصادق عليه السلام قال: أُمر إبليس بالسجود لآدم، فقال: يا رب، وعزّتك إن أعفيتنى من السجود لآدم لأعبدنّك عبادة ما عبدك أحد قطّ مثلها. قال اللَّه جلّ جلاله: إنّى أُحبّ أن أُطاع من حيث أُريد» «۴»

. ورواه القمّى فى تفسيره بسنده، إلّاأنّ فيها: «لا حاجة لى إلى عبادتك؛ إنّما

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۱۷

أَريد أن أَعبد من حيث أَريد لا من حيث تريد» «۱»

.وكذا فی تفسير علی بن إبراهيم كما نقله المجلسی فی البحار. «۲»

وروى الطبرسی فی الاحتجاج فی جواب مسائل الزنـديق، عن أبی عبداللَّه عليه السـلام، أنّه سُـئل: «أيصـلح السـجود لغير اللَّه؟ قال: لا. قال: فكيف أمر اللَّه الملائكة بالسجود؟

فقال: إن من سجد بأمر اللَّه فقد سجد للَّهفكان سجوده للَّه؛ إذ كان عن أمر اللَّه. ثمّ قال عليه السلام:

فأمّا إبليس فعبدٌ خلقه..» «۳»

.وروى الشوكانی فی فتح القدير، قال: «وقد أخرج ابن أبی حاتم عن ابن عبّاس، قال: كانت السـجدة لآدم والطاعة للَّه. وأخرج ابن أبی حـاتم عـن أبی الحسـن، قـال: سـجدوا كرامـة من اللَّه أكرم بهـا آدم. وأخرج ابن عسـاكر عن إبراهيم المزنی، قـال: إنّ اللَّه جعـل آدم كالكعبة» «۴»

.وقال تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِی كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَـدَى اللَّهُ» «۵»

.والآيـة الكريمة من ملاحم الآيات فی تبيان حقيقة العبادة والقبلة والصـلاة، حيث بيّن تعالى أنّ غاية جعل القبلة السابقة فی الصـلاة هو اتّباع الرسول وطاعته، وليحصل التمحيص بين المطيع وبين من ينقلب على عقبيه، ولا يخفى ما لصـعوبة هـذا الامتحان، حيث تمّ تبديل القبلـة من البيت الحرام إلی بيت المقـدس، أی إلی قبلـة اليهود والنصـارى، وشُرّعت بعـدما كان البيت الحرام فی بـدء الشـريعة النبوية أوائل البعثة فی مكّة- هو القبلة، وهو من الخطورة بمكان؛ حيث إنّ القبلة فی

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۱۸

العبادة والدين من النواميس العظيمة.

ولا سيما وأنّ قبلة البيت الحرام قد توارثتها قريش من ملّة إبراهيم وإسماعيل الحنيف، وكان البيت الحرام هو محور النسك والمناسك المختلفة العبادية فی الصلاة والطواف والذبائح والقرابين، وتبديل القبلة حينئذٍ- التی هی معلم رئيسی فی الدين يدلّ على مدى موقعية الرسول وولايته وطاعته فی الديانـة، وأنّ الديانة وطريق العبودية للَّهتعالى هو باتّباع وطاعة الرسول صـلى الله عليه و آله، وأنّ قوام القبلة والعبادة باتّباع الرسول وطاعته، فكانت محنة هذا الامتحان عظيمة جدّاً ليتقرّر معنى الديانة والدين.

ومن ثمّ قـال تعـالى: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِـاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآـخِرِ وَالْمَلَائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ» «۱»

، وقال تعالى:

«أَجَعَلْتُمْ سِـقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْـجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِی سَبِيلِ اللَّهِ لَايَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَايَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» «۲»

، وقال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَیِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِّ وَلَـا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِـكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَاتَشْـعُرُونَ* إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْـدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» «۳»

.فتبيّن من الآيات: إنّ روح العبادة ولبّ التوجّه فی القبلة إلی وجه اللَّه، هو الاتّباع والطاعة للنبیّ صلی الله عليه و آله، وإنّ حقيقة عبادته تعالى كامنة فی طريق طاعة واتّباع

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۱۹

النبیّ صلی الله علیه و آله، لا مخالفته والجرأة علیه.

فتبیّن من ذلک: إنّ جوهر العبادة لیس بشکل وهیئة رسوم العبادة، بل جوهر العبادة الطاعة والطوعانیة والخضوع والانقیاد؛ إذ لو کان مدار التوحید فی العبادة علی نفی الواسطة المنصوبة من قبله تعالی ونفی الوسیلة، لکان إبلیس إمام الموحّدین، ولکان قدوة الموحّدین فی نفی العقیدة الشرکیة فی العبادة؛ لأنّه عرض علی اللَّه أن یعبده عبادة من دون واسطة خلیفة اللَّه آدم، وهذا العرض بحسب الصورة الظاهرة- أبلغ فی دعاء اللَّه وحده بلا شریک،

بینما نری الباری تعالی قد حکم بأنّ ما فعله إبلیس بنفی الواسطة الإلهیة کفر، بل وحکم بأنّ رغبة إبلیس فی عبادته مباشرةً شرک، وقد فسّر أمیر المؤمنین وأئمّة أهل البیت علیهم السلام ذلک: بأنّ رفض إبلیس للواسطة الإلهیة وطلبه للسجود مباشرةً للَّه من دون الانقیاد لآدم علیه السلام ینطوی فی الحقیقة علی تکبّر علی اللَّه؛ لأنّه لم یسلّم لربّ العزّة فی قضائه وأمره.

والکبر: انفساخ عن العبودیة وبروز لفرعونیة الذات، فرأی فی نفسه الاستقلال عن باریه فردّ علیه أمره، ورأی تقدّم رأیه علی حکم اللَّه وحکمته، وکلّ ذلک ینطوی علی إنکار مقامات ربوبیته تعالی وصفاته الکمالیة بنحو مستبطن، فاعتدّ إبلیس بذاته بأنّ له شأن الارتباط والتلقّی مباشرةً عن الباری، وهذا یؤول إلی الاستخفاف بعلوّ مقامات الربوبیة وإنکار عزّ الشؤون الإلهیة.

وسنّة إبلیس هذه قد ارتکبنها أغلب الأُمم التی کفرت بأنبیائها وأوصیائها، کما قال تعالی: «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ* كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ* بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً» «۱»

، فبیّن أنّ سبب إنکارهم

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۱۲۰

لدعوات الأنبیاء استطالتهم لیکون کلّ واحد منهم نبیّاً، فالتکبّر والاستعلاء علی الواسطة الإلهیة ینطوی علی الکفر بالمقامات الإلهیة، وبالتالی إلی جحد وإباء للواسطة الإلهیة.

وقال تعالی أیضاً: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» «۱»

، فدعاوی نفی الوسائط الإلهیة والوسیلة إلیه تعالی تحت ذریعة الارتباط مباشرةً به، هی هتک للحجب الإلهیة وتجرّی علی حرمات الشؤون الإلهیة، وهو ناشئ حقیقةً- عن عدم التسلیم بعظمة الصفات الإلهیة، وعدم التوحید فی المواطن المختلفة. فالإباء والرفض للتوجّه إلی الواسطة والوسیلة المنصوبة من قبله تعالی تحت شعار لزوم الطلب مباشرة من اللَّه لا من الواسطة ولا التوبة الی الواسطة، ینطوی علی التکبّر الإبلیسی والاستخفاف بالمقام الربوبیّ.

ومن ثمّ نجد أنّ القرآن الکریم یشیر إلی أنّ شرک عبدة الأوثان ناشئ من اختیار الوثنیین تلک العبادة من عند أنفسهم دون إذنٍ من اللَّه تعالی حکم منه، لا من جهة ضرورة الواسطة والوسیلة بین المخلوق الذی لیس من المقرّبین إلی الساحة الربوبیة وبین الخالق؛ فإنّ الواسطة والوسیلة ضرورة تکوینیة وسنّة إلهیة، بل شرک الوثنیین وعبدة الأوثان هو من جهة إقتراحیة الواسطة والوسیلة، أی کون تعیینها من قبل أنفسهم، والخلط بین الأمرین غالط به الکثیر باب التوحید، والوجه الذی إلیه یتوجّه الأولیاء، فشرک الوثنیین فی الواسطة هو من حیث: هم یریدون ویختارون لا من حیث: یرید اللَّه ویختار، ومن حیث هم یشاؤن لا من

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۱۲۱

حیث یشاء اللَّه.

فیجعلون لأنفسهم حقّ التصرّف فی تحدید العلاقة بینهم وبین ربّهم، ویجعلون لأنفسهم السلطان المقدّم علی سلطانه تعالی ومن ثمّ یجعلون أنفسهم أرباباً بدل أن یکونوا عبیداً له تعالی.

فمن ذلک یتبیّن أنّ الوثنیة وشرک عبدة الأصنام ینطوی علی الاستکبار والکفر الذی هو سنّه إبلیس اللعین، لا من جهة ضرورة أصل الواسطة والوسیلة، کما یشیر إلی ذلک قوله تعالی: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

نَصِيرٍ» «۱»

، وقال تعالى: «أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ» «۲»

، فالآيتان يشير مفادهما إلى أنّ المحذور، وهو عدم الإذن وهو السلطان من اللّه فى تعيين مصداق الواسطة والوسيلة، لا كون المحذور فى ضرورة الوسيلة. وكذا قوله تعالى على لسان إبراهيم الحنيف فى محاجّته لعبدة الأصنام: «وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» «۳»

، وقوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» «۴»

، وقوله تعالى فى مشركى قريش فى معركة أُحد: «سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ» «۵»

، وقوله تعالى على لسان يوسف النبىّ عليه السلام: «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ* مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ» «۶»

، قابلت

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۲۲

بين توحيد الحكم وتوحيد العبادة من جهة، وبين عبادة الأرباب من دون اللّه من جهةٍ أُخرى؛ لكونها بدون سلطان وأمر منه تعالى، ممّا يقتضى أنّ مدار الشرك فى العبادة فى قبال التوحيد فى العبادة يدوران مدار وجود الأمر الإلهى وعدمه.

فتؤكّد هذه الآيات على أنّ شرك الوثنيين وعبدة الأصنام ليس بسبب وجود الواسطة بين البشر والبارى، ولا بسبب وجود الوسيلة، بل إنّما شرك الوثنيين هو بسبب استقلالهم باتّخاذ الواسطة من عند أنفسهم، وتقديم اختيارهم وإرادتهم على اختيار اللّه وإرادته. ففى الآيات تقرير لضرورة الوسيلة والواسطة، فأمّا الوثنيون فأشركوا إرادتهم ومشيئتهم مع إرادة اللّه ومشيئته، ونازعوه فى سلطانه.

ومن ثمّ تكرّر التعبير فى هذه السور والآيات لعنوان عدم السلطان لهم بذلك من اللّه، فجعلوا لأنفسهم سلطاناً يشاركون فيه سلطان اللّه فى تعيين الواسطة والباب إليه تعالى، كما فعل إبليس عندما اقترح على اللّه نفى الواسطة المنصوبة من قبله تعالى، مقابل أن يعبده كما هو يريد لا كما يريد اللّه وكان هذا حال مشركى العرب وعبدة الأصنام الذين عبدوا اللّه من حيث يريدون لا من حيث أراد اللّه.

فالعقيدة الشركية ليست فى الانقياد لواسطة البارى، وإنّما فى إشراك إرادة العبد فى العبادة مع إرادة المعبود، ومن ثمّ كان سجود الملائكة لخليفة اللّه آدم توحيد، وإباء إبليس عن الانقياد للواسطة شرك وكفر؛ لأنّ سجود الملائكة لآدم كان بأمرٍ من اللّه وسلطانٍ منه، كما قال الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير سجود الملائكة له: «إنّ من سجد بأمر اللّه فقد سجد للّهفكان سجوده للّهإذ كان عن أمر اللّه» «۱»

.فالشرك يدور مدار إشراك العبد سلطان نفسه فى العبادة وكيفيتها مع سلطان البارى، لا فى وجود الواسطة من حيث هى واسطة والوسيلة من حيث هى وسيلة.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۲۳

كيف! وهى ضرورة، كما أنّ مدار التوحيد هو فى التسليم لأمر اللّه وسلطانه ولو عبر واسطة ووسيلة، لا فى نفى الواسطة والحجاب والباب فى البين.

ولك أن تقول: إنّ ما قرّره علماء الكلام والمعرفة من العلوم الأُخرى فى تعريف الشرك بأنّه الخضوع لغير اللّه بما أنّ الخاضع عبد والمخضوع له ربّ، هو الآخر يرجع إلى تحديد سلطان اللّه والقول بسلطان الغير وتقديمه على سلطان اللّه.

وبعبارة أخرى: إنّ الشرك باعتباره من أقسام الكفر يقابل التوحيد في مقامات عديدة، فكما أنّ التوحيد يُقرّر في مقام الذات الإلهية كذلك الشرك في مقام الذات- يكون عبارة عن القول بتعدّد الذات الإلهية الواجبية.

فكما أنّ التوحيد في الصفات، هو عبارة عن وحدة الصفات الكمالية مع الذات الأزلية، وأنّ تلك الصفات الكمالية الواجبية لا يتّصف بها أحد غير الباري، فكذلك الشرك في الصفات يُقرّر بتعدّد وتغاير ذوات الصفات عن الذات الإلهية، أو باتّصاف غيره تعالى بتلك الصفات. وكما يُقرّر التوحيد أيضاً في الأفعال بأن تُسند الأفعال إلى الباري تعالى وأنّ لا مؤثّر في الوجود إلّاهو من دون استلزام ذلك الجبر في أفعال المخلوقين، فكذلك الشرك في الأفعال يُقرّر بأسناد الأفعال لغيره بنحو الاستقلال.

كذلك التوحيد في العبادة، هو الخضوع له تعالى بما أنّه واجب الوجود وأنّ له حقّ الطاعة وسلطان الولاية، والشرك في العبادة يُقرّر بالخضوع لغير اللّه باعتبار أنّ الغير مستقلّ الذات أو الفعل أو مستقلّ الولاية والسلطان ومستقلّ في حقّ الطاعة، فالشرك في العبادة لا ينحصر في النمط الأوّل أي الشرك في الذات- كما قد يوهمه التعريف الدارج.

بل أنّ مشركي العرب في الجزيرة وعبدة الأصنام من غيرهم لا يعتقدون في

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۲۴

الأصنام والأوثان الاستقلال في وجود ذواتها ولا أزليتها ولا الأرواح الكلّية المزعوم تعلّقها في الأصنام، وإنّما شركهم كما تقدّم- لقولهم بحقّ الطاعة لتلك الأصنام والأرواح من دون إذن ولا أمرٍ من اللّه، ويشير إلى ذلك قوله تعالى:

«وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» «۱»

، فاتّضح أنّ الشرك في العبادة لا- يتحقّق بمجرّد الخضوع لغير اللّه تعالى، بل فيما كان بغير أمر اللّه وسلطانه، كما أنّ التوحيد في العبادة لا يتحقّق بمجرّد صورة الخضوع للّه تعالى، بل إنّما يتحقّق فيما كان بأمر اللّه وسلطانه.

فالشرك في العبادة يدور مدار معنى العبودية من الخضوع والطوعانية لولاية وسلطان المعبود، فإذا جُعل الخضوع لمبدأ سلطان غير اللّه فيقع الشرك في العبادة، فتعريف العبادة التي هي عبودية التأليه وربوبية المعبود، كما أشار إلى ذلك الشيخ الكبير كاشف الغطاء في رسالته منهج الرشاد لمن أراد السداد: (إنّها الامتثال والانقياد للعظيم في ذاته، المستوجب للطاعة لا بواسطة أمر غيره» «۲» أي يستوجب الطاعة بذاته. ولك أن تقول بأنها الطاعة والامتثال والخضوع والانقياد للعظيم في ذاته، المستوجب للطاعة لا بأمر غيره، أي المستوجب للولاية بذاته لا بتولية غيره، فالعبادة هي الطوعانية من العابد للمعبود بما له من ولاية ذاتية.

وهذا هو المعنى المصطلح لعبادة التأليه في قبال عبادة الخدمة وعبادة الطاعة بأمر الغير.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۲۵

صورية الطاعات بدون الولاية ... ص: ۱۲۵

الإيمان شرط في قبول الأعمال ... ص: ۱۲۵

إنّ قبول الأعمال والجزاء عليها هي من السنن الإلهية التي تتبع شروطاً تكوينية خاصّة، والشرط المهم في ذلك هو الإيمان؛ لأنّ العمل إذا لم ينل النور والصفاء عن طريق الإيمان والنية السليمة فهو سراب بقيعة، قال تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» «۱»

، فالآية تقرّر أنّ الأعمال مهما بلغت من العظمة- التي يراها الناس- إذا لم تقترن بالإيمان باللّه فهي جميعاً عبث وهباء وخيال كالسراب.

وقال تعالى فى آية أخرى: «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَايَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ» «۲»

، وقال تعالى: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» «۳»

تشير إلى أنّ المجازات على الأعمال فى الآخرة مشروط بالبقاء على الإيمان، وقال تعالى: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» «۴»

.الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۲۶

فهذه الآيات الكريمة تبين لنا الموقف من قبول الأعمال أو رفضها من البارى عزّ وجلّ. ونستطيع أن نعبّر أنّه يشترط فى قبول الأعمال الحُسن الفاعلى؛ لأنّ كلّ عمل له بعدان أو حيثيتان فى جهات الحسن والقبح، فتارةً يُلحظ العمل بما هو موجود فى الخارج فيحكم عليه بالحسن أو القبح، وتارةً يُلحظ العمل من حيث صدوره من الفاعل وبما ينطوى عليه من دوافع لذلك العمل.

كما جاء فى الحديث النبوىّ: «إنّما الأعمال بالنيات»، فوزن وقوام الأعمال والعمل هو بالنيات والنية، والثواب والعقاب على الأعمال يلحظ فيه جانب الحسن الفاعلى، قال تعالى: «الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» «۱»

، فلم يقل عزّ وجلّ: (أكثركم عملًا) حتّى يكون المدار على الحسن الفعلى، بل قال «أيّكم أحسنُ عَملًا»؛ وإلّا لو كان الحسن الفعلى هو المدار لعُوقب المجبور والمضطرّ على صدور المحرّم أو ترك الواجب.

ولهذا يُلاحظ أنّ بعض الأعمال قد أعطى اللَّه سبحانه وتعالى الثواب عليها لبعض الناس ولم يعط لآخرين قاموا بأعمال هى فى الظاهر أكثر، كما فى تصدّق الخاتم من أمير المؤمنين عليه السلام إلى الفقير حال الركوع فنزلت بحقّه الآية المباركة:

«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» «۲»

، وقوله تعالى: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَانُرِيدُ مِنْكُمْ» «... ۳»

، فإنّ القيمة ليست للخاتم التى بسببها نزلت الآية، بل من جهة قيمة خلوص العمل، وهكذا قضية تصدّق الزهراء عليها السلام بأقراص الشعير.

وهكذا الأعمال تقاس بهذا المنظار، فالزكاة مع الرياء، أو الجهاد وفتح البلدان

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۲۷

بغير خلوص هو سراب يصبّ فى نزوات الهوى وجمع الثروات والتوسّع فى اللذائذ والشهوات.

فالإيمان باللَّه واليوم الآخر شرط أساسى فى قبول الأعمال؛ لأنّ الحسن الفاعلى كما قلنا- لا يمكن أن يتحقّق بدون عقيدة الإيمان؛ لأنّ العمل بدون الإيمان باللَّه سبحانه وتعالى لا يكون إليه، وإنّما يكون للأنا وللذات ونزعاتها السفلية، وهو فارغ عن الغاية التى يريدها اللَّه من الأعمال؛ فإنّ روح الأعمال هو الإخلاص، «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» «۱»

.أمّا العمل بدون الخلوص فهو فى حقيقته تمرّد وتكبّر على البارى، كما هى أعمال إبليس التى أوصلته إلى الهلاك والكفر وحبط الأعمال.

فقصّة إبليس الواردة فى القرآن الكريم نموذج على ما آلت إليه أعماله التى هى فى ظاهرها منتهى العبودية، فإنّه لعنه اللَّه- كان قد سجد سجدة واحدة ستّة آلاف سنة، وكان يقرّ للَّهبالوحدانية، وأنّه مخلوق من مخلوقاته، وكان يقرّ بيوم المعاد وبنبوّة آدم بنصّ القرآن الكريم: «خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» «۲»

و «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» «۳»

، فهذا اعتراف وإقرار منه باللَّه تعالى وأنّه مخلوق من مخلوقاته، وأمّا إقراره بيوم المعاد والآخرة: «قَالَ أَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» «۴»

، ولكن لم ينفعه كلّ ذلك العمل وذلك الإقرار، صار لعيناً مرجوماً كافراً، «وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» «۵»

.وعليه، فالإيمان شرط فى قبول الأعمال، وهذه حقيقة مسلّمة عند جميع المسلمين، إنّما الكلام يقع حول أجزاء الإيمان، فهل تقتصر على التوحيد والنبوّة

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۲۸

والمعاد؟ أم تشمل معرفة الإمام والولاية له وممّا يقرّر ذلك؟ وأنّ ولاية أهل البيت شرط فى قبول الأعمال...

عدّة وجوه قرآنية وحديثية وعقلية:

ولاية أهل البيت عليهم السلام شرط لقبول الأعمال ... ص: ۱۲۸

الدليل الأوّل: الآيات القرآنية:

الآية الأُولى: قوله تعالى: «قُلْ لَاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى» «۱»

، ذكر علماء المسلمين من الخاصّة والعامّة، من رواة ومؤرّخين ومفسّرين متواتراً:

أنّ كلمة القربى هى خاصّة بأُناس قد عيّنهم النبيّ صلى الله عليه و آله، وعندما يستعرض الباحث للسيرة النبويّة الشريفة يرى أنّ النبيّ لم يكن يدع فرصة أو مناسبة صغيرة كانت أو كبيرة إلّاويؤكّد لهم من خلالها على تحديد قُرباه، من حديث الكساء والأحاديث الأُخرى:

«عليّ منّى وأنا من عليّ»، «فاطمة بضعة منّى»، «... حسين منّى وأنا من حسين»، وهكذا توجد أحاديث كثيرة بهذا المضمون.

ولابدّ أن يكون هناك خطب كبير يترتّب على هؤلاء القُربى مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالرسالة التى بعث بها النبيّ صلى الله عليه و آله.

والآية المباركة هى من ملاحم الآيات القرآنية التى تبيّن حقيقة الرسالة الخاتمة الكاملة التى جاء بها، والتى تشمل جميع الأعمال، من اعتقادات بالتوحيد والنبوّة والمعاد، وعبادات من صلاة وصيام وحجّ وزكاة ... الخ.

وبعبارة أُخرى: من فروع وأُصول، فإنّها جميعاً وقعت طرف معاوضة وتعادل فى قبال محبّة أهل البيت، ومقتضى التعادل والمعادلة بين العوض والمعوّض هو

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۲۹

كون العوض بدرجة قيمة المعوّض، ولا ريب أنّ عمدة وثقل الرسالة هى فى أُصول الدين وأركانه، لا مجرّد الفروع، فإذا كان فى المعوّض والتى هى الرسالة جملة أُصول الدين، فلابدّ أن يكون العوض هو أيضاً من أُصول الدين؛ بمقتضى الموازنة والمعادلة.

وجعل العوض فى قبال جملة أُصول الدين فى المعوّض دالّ على كون مودّة القربى وولايتهم هو مفتاح لمعرفة بقية أُصول الدين.

وهذا يدلّ ويقضى بالترابط بين مجموع هذه الأُصول وأنّ الباب والمفتاح لبقية حقائق أُصول الدين يمرّ بولايتهم.

فمن أراد مدينة الإيمان فلابدّ عليه أن يأتيها من بابها، فمغزى إفراد الولاية والمودّة للقربى فى كفّة وطرف المعاوضة فى قبال جملة بقية أُصول الدين فى طرف آخر، هو إشارة لهذا المعنى وبيان لهذا الترابط العضوى فى محاور أُصول الدين، وأنّ الوصول إلى حقائق الإيمان لا مجرّد ظاهر الإسلام هو بولاية القربى ومودّتهم؛ لأنّها الهداية إلى بقية الأُصول، والعاصمة عن الضلال، كما هو مؤدّى حديث الثقلين حيث اشترط فى العصمة من الضلال اشترط لزوم التمسّك بالكتاب والعترة.

وهذا ممّا يفيد أنّ صحّة التوحيد وصحّة الإيمان بالنبوّة والمعاد لا بدّ فى تحققهما من ولاية ومودّة ذى القربى فضلًا عن الثواب والجزاء عليها، فإذا كان هكذا الحال فى أُصول الدين ففى فروعه أوضح؛ حيث إنّها فى الرتبة الثانية من أجزاء الرسالة.

فتبين من مفاد هذه الآية الشريفة: أنّ مودّة القربى شرط فى تحقّق أُصول الدين فضلًا عن الثواب عليها، ناهيك عن أعمال الفروع والثواب عليها.

وبالتالى، فولاية القربى شرط فى صحّة الأعمال فضلًا عن قبولها، وأنّ المراد

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۳۰

بتلک الأعمال ما یشمل الاعتقاد لا صرف أفعال الجوارح، وهذه قراءة عمیقة لقاعدة شرطیة الولایة فی صحّة الأعمال.

الآیة الثانیة: وهی قوله تعالی: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَرَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلَامَ دِینًا» «۱»

النازلة بعد قوله تعالی: «یَا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکَافِرِینَ» «۲»

، ومن الواضح من الآیتین أنّ الرسول صلی الله علیه و آله قد أُمر من قِبله تعالی بإبلاغ أمر بالغ الخطورة والأهمیّة، بحیث لولا إبلاغه لما کانت هناک أیة جدوی فی إبلاغ التوحید والنبوّة والمعاد وأرکان الدین فضلًا عن تفاصیل الفروع؛ إذ عمدة اسم الرسالة قد طُبّق علی الأُصول والأرکان.

وکان ذلک الأمر المأمور بإبلاغه شدید الوقع علی نفوس المسلمین؛ إلی درجة کان الرسول یتخوّف تمرّدهم عن الطاعة والتسلیم. وکلّ هذا المفاد یجده المتمعّن اللبیب فی أجواء ألفاظ الآیتین، وقد ذکر المفسّرون ورواة الحدیث نزولهما فی إبلاغ النبیّ صلی الله علیه و آله لإمامة وولایة علیّ علیه السلام من بعده فی غدیر خم «۳».

ومفاد الآیتین یتناغم بشدة مع مفاد آیة المودّة؛ حیث یشیر إلی التقابل بین جملة الرسالة والدیانة فی طرف، وما أُبلغ فی ذلک الیوم فی طرف آخر، کما مرّ ذلک فی مفاد آیة التبلیغ، حیث علّق رضاه تعالی بمجمل الرسالة والدین علی ذلک الأمر، أی علّق رضاه بالتوحید والنبوّة والمعاد وأرکان الدین علی ذلک الأمر، فقبولها موقوف علیه، بل فی الآیة دلالة علی توقّف صحّتها علیه حیث علّق إکمال الدین علیه.

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۱۳۱

ژوالإکمال یغایر الإتمام الذی فی النعمة، حیث إنّ کمال الشیء یغایر تمامه؛ إذ کمال الشیء هو بصورته التی هی قوام هویته، وأمّا تمام الشیء فهی نعوته الطارئة بعد تحقّق هویته، فمفاد هذه الآیة یدلّ علی ما تقدّم استنتاجه واستظهاره فی آیة المودّة من أنّ أُصول الدین وأرکانه فضلًا عن الفروع مشروطة بالولایة، کما أنّ المشروط فی الأعمال بالولایة هو صحّتها فضلًا عن قبولها.

الآیة الثالثة: وهی قوله تعالی: «إِذْ قَالَ رَبُّکَ لِلْمَلَائِکَةِ إِنِّی خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِینٍ* فَإِذَا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِینَ* فَسَجَدَ الْمَلَائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِیسَ اسْتَکْبَرَ وَکَانَ مِنَ الْکَافِرِینَ* قَالَ یَا إِبْلِیسُ مَا مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ أَسْتَکْبَرْتَ أَمْ کُنْتَ مِنَ الْعَالِینَ* قَالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ* قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّکَ رَجِیمٌ* وَإِنَّ عَلَیْکَ لَعْنَتِی إِلَی یَوْمِ الدِّینِ» «۱»

، وقد تقدّم دلالة الآیات المتعرّضة لقصّة آدم وإبلیس علی المطلوب إجمالًا، حیث إنّ إبلیس کان مقرّاً بالتوحید والمعاد حینما قال: «رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلَی یَوْمِ یُبْعَثُونَ» «۲»

، وکذا کان مقرّاً بنبوّة لآدم علیه السلام حینما قال: «أَرَأَیْتَکَ هَذَا الَّذِی کَرَّمْتَ عَلَیَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَی یَوْمِ الْقِیَامَةِ» «۳»

.ولکنّه لم یکن یأتمّ بآدم ویتولّاه ویتابعه ویطیعه، حیث إنّ السجود عنوان لکلّ ذلک فالإباء عن السجود عبارة عن ذلک، ومع کلّ إقراره بالثلاثة من الأُصول، ولکنّه استحقّ الطرد والرجم والذمّ من اللَّه تعالی. وظاهر هذه الأحکام هو عدم صحّة صور ما أقرّ به من توحید ومعاد ونبوّة، إذ حُکم علی صورة إیمانه بالکفر مضافاً إلی العقوبة؛ فلیس التولّی لولیّ اللَّه والائتمام به مجرّد شرط لقبول بقیة

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۱۳۲

الاعتقادات، بل هو شرط صحة لها. فالأُصول الاعتقادیة عبارة عن نسیج مترابط کلّ منها دخیل فی صحّة الآخر.

ویظهر من مفاد هذه الآیات ما ظهر من مفاد الآیات السابقة من کون ولایة خلیفة اللَّه وحجّته شرط فی صحّة الأعمال لافی مجرّد قبولها فقط، وشرط فی صحّة الاعتقادات لامجرّد أعمال الجوارح.

وهناک طوائف أُخری من الآیات الواردة فی ولایتهم علیهم السلام دالّة علی ذلک، لکن نکتفی بهذا القدر من الإشارة فی المقام.

الدليل الثانى: الأحاديث النبويّة والقدسيّة المستفيضة الواردة عند الفريقين:

«لو أن عبداً عمّره اللَّه ما بين الركن والمقام، يصوم النهار ويقوم الليل حتّى يسقط حاجباه على عينيه ثمّ ذُبح مظلوماً كما يُذبح الكبش، ثمّ لقى اللَّه بغير ولايتهم عليهم السلام، لكان حقيقاً على اللَّه عزّوجلّ أن يكبّه على منخريه فى نار جهنّم» «۱»

.وفى الحديث القدسى: «ثمّ لقينى جاحداً لولاية علىّ لأكببته فى سقر» «۲»

.بل فى بعضـها: «إنّ للَّهفى وقت كلّ صلاة يصلّيها هذا الخلق لعنة. قال: قلت: جُعلت فداك ولم؟ قال: بجحودهم حقّنا وتكذيبهم إيّانا» «۳»

.وعن أمير المؤمنين عليه السلام فى جواب الزنديق مدّعى التناقض فى القرآن، قال: «..

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۳۳

وأمّا قوله: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ» «۱»

. وقوله:

«وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» «۲»

، فـإنّ ذلـك كلّه لاـ يغنى إلّـامع الاهتـداء، وليس كلّ من وقع عليه اسم الإيمان كان حقيقاً بالنجاة ممّا هلك به الغواة، ولو كان ذلك كـذلك لنجت اليهود مع اعترافها بالتوحيـد وإقرارها باللَّه، ونجا سائر المقرّين بالوحدانيـة، من إبليس فمن دونه فى الكفر، وقد بيّن اللَّه ذلك بقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْم أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» «۳»

، وبقوله: «الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ» «۴».

وللإيمان حالات ومنازل يطول شرحها، ومن ذلك: إنّ الإيمان قد يكون على وجهين:

إيمان بالقلب وإيمان باللسان، كما كان إيمان المنافقين على عهد رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، لمّا قهرهم السـيف وشملهم الخوف فإنّهم آمنوا بألسـنتهم ولم تؤمن قلوبهم، فالإيمان بالقلب هو التسـليم للربّ، ومن سـلّم الأمور لمالكها لم يستكبر عن أمره، كما استكبر إبليس عن السـجود لآدم، واسـتكبر أكثر الأمم عن طاعـة أنبيائهم، فلم ينفعهم التوحيد كما لم ينفع إبليس ذلك السـجود الطويل، فإنّه سجد سـجدة واحدة أربعة آلاف عام لم يرد بها غير زخرف الدنيا والتمكين من النظرة، فلذلك لا تنفع الصلاة والصدقة إلّامع الاهتداء إلى سبيل النجاة وطريق الحقّ» «۵»

.وفى بعض الروايـات عن الإمـام الصـادق عليه السـلام: «فلـو كـان لـك بـدل أعمالـك هـذه عبـادة الـدهر من أوّله إلى آخره، وبـدل صـدقاتك والصدقـة بكلّ أموال الـدنيا، بل بملء الأرض ذهباً، لما زادك ذلك [بدون ولاية أهل البيت عليهم السـلام] من رحمة اللَّه إلّابُعداً، ومن سخط اللَّه إلّا

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۳۴

قرباً» «۱»

.ونُقل عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «رجلٌ حضر الجهاد فى سبيل اللَّه فقُتل مقبلًا غير مدبر والحور العين يطلعن إليه، والخزّان يتطلّعون ورود روحه عليهم، وأملاك الأرض يتطلّعون نزول حور العين إليه والملائكة وخزّان الجنان فلا يأتونه، فتقول ملائكة الأرض حوالى ذلـك المقتول: ما بال الحور العين لا ينزلنّ إليه، وما بال خزّان الجنان لا يردون عليه، فيُنادَون من فوق السـماء السابعـة: يا أيّتها الملائكـة، انظروا إلى آفاق السـماء ودوينها، فينظرون فإذا توحيـد هـذا العبـد وإيمانه برسول اللَّه صـلى الله عليه و آله وصـلاته وزكاته وصـدقته وأعمـال برّه كلّها محبوسات دوين السـماء قـد طبّقت آفاق السـماء كلّها كالقافلـة العظيمـة قـد ملأت ما بين أقصـى المشارق والمغارب ومهاب الشـمال والجنوب، تنادى أملاك تلك الأثقال الحاملون لها الواردون بها: ما بالنا لا تفتـح لنا أبواب السـماء لنـدخل إليها بأعمال هذا الشهيد»....؟

وفى تتمّـة الروايـة أنّه يُأمر بتلـك الأعمـال فتوضع فى سواء الجحيم؛ لأنّ ليس لـذلك الرجـل موالاـة علىّ والطيبين من آله، ومعـاداة أعـدائه، ويُقلّب اللّه تلـك الأثقـال من الأعمـال أوزاراً وبلايـا على فاعلها؛ لمّا فارقها عن مطاياها من موالاة أمير المؤمنين عليه السـلام؛ ولموالاته لأعدائه. «۲»

قراءة ثالثة للقاعدة: العبادة من دون الولاية عصيان وعدوان، والأعمال بدون الولاية آثام ... ص: ۱۳۴

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۳۵

ومضـمون هذه الروايات يتضـمّن ما تقدّم من أنّ الولاية شـرط فى الصحّة فضلًا عن القبول، وشرط فى أُصول العقائد فضلًا عن الفروع. ويزيـد ويمتـاز بمعنى ثالث، وهو أنّ تلك الأعمال التى صورتها إيمان وطاعـة هى فى حقيقتها كفر ومعصـية، وهـذا المعنى يثقل على السامع تصوّره فضـلًا عن تصـديقه فى الوهلة الأُولى، وتمجّه النفوس وتنفر منه الأذهان وتتلّكأ عنده الألسن، لكن الحقيقة إذا اتضـحت معالمها لا مفرّ من الأخذ بها واتّباعها، وإذا حصـحص الصبح انقشعت غياهب الظلمة، وليكن تقرير مفاد هذه الروايات هو تقرير الدليل العقلى كما ترشد إليه الروايات بل والقرآن أيضاً، فالأحرى فى المقام تقريره.

الدليل العقلى: ويقرّر بأنحاء:

الأوّل: قد مرّ أنّ حقيقة وروح ومخ وقوام العبادة هو بالطوعانية والضـراعة والخضوع والتذلّل للبارى، والتسـليم والسلم والانقياد له، وهو جوهر العبادة والعبوديـة وقلب ومركز وقطب معناها، فمع خلوّها عنه لا تعـدوا أن تكون قشور خاويـة اللب وبـدن جائف ميتة بلا روح، فهو قوام القربة والتقرّب، فالعبادة والعبودية هى الطاعة والطوعانية، والطاعة هو الانقياد لإرادة اللّه والخضوع لها.

وأمّا تحكيم إرادة النفس على إرادة الربّ فهو تجرّى واستكبار على العظيم- عزّ وجلّ- وعصيان له.

وإرادة اللّه لا يهتـدى إليها البشـر من نفسه، ومن ثمّ احتاج إلى بعثـة الرسل، وبمجملات الشـريعة ومتشابهاتها لا يحيط البشـر بتفاصـيل إرادة الربّ من قبل أنفسـهم، ومن ثمّ اضـطرّوا إلى الحجّة والإمام الراسخ فى العلم الذى تكون إرادته ومشـيئته هى مظهر مشيئة وإرادة اللّه. فمن ثمّ امتنع الاطّلاع على إرادات الربّ من دون حجّته وخليفته فى أرضه، ومن ثمّ اضـطرّ البشر إلى ولاية خليفة اللّه والمطهّر من عترة نبيّه لكى يطّلع على مواطن إرادات اللّه ورضاه.

وإلّا امتنع عليهم عبادة اللّه، وكانوا فيما يمارسونه من طقوس وصور عبادية هى معاصـى وتجرّى على اللّه؛ بتحكيمهم إراداتهم وميولهم وأهوائهم على إرادة

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۳۶

اللّه، وكـانوا يطيعونه من حيث تريـد أنفسـهم ولا يطيعونه من حيث يريـد، ولأجل ذلك احتاجوا فى تحقّق عبادتهم للّه‌تعالى إلى دلالة وهداية الإمام والحجّة المنصوب من قبله.

ومن ذلـك يتبيّن أنّ السـجود الطويل من قبل إبليس حيث لم يكن منطوياً على الخضوع للّه؛ لعـدم خضوع إبليس لمن أمره اللّه تعالى بـالخضوع له وهو خضوعه لآـدم وتوليّه له، فلم يكن إبليس فى صورة طـاعته مقيم على الطاعـة ولاـ خـاضع لإـرادة الربّ، بـل كان فى سجوده مقيم على الجموح والطغيان والتعدّى على الربّ وتحكيم إرادته على إرادة اللّه وكان سـجوده الصورى حقيقته معصية وطغيان واستكبار وعدوان على ساحة القدس الإلهى.

وبـذلك يتبين أنّ صورة العبادات من دون طاعـة اللّه بولايـة وليه هى عـدوان وعصـيان، وترك للمواطن الحقيقيـة لعبادة اللّه، وانتهاج لمناهـج عباديـة تتطاول فيها إرادة العبـد على إرادة المعبود. وبهـذا البيان العقلى يتبين المعنى الثالث للقاعـدة وهى شـرطية الولايـة فى العبـادات والأعمـال أن بـدونها تكون تلـك الأفعـال هتوك واجتراءات على المولى العزيز يؤزر فاعلها ويأثم بها بـدل أن يُثاب، لا أن يُحرم من مجرّد الثواب.

هـذا تقرير لهـذا الوجه فى الأعمال، وأمّا تقريره على صـعيد الإيمان والاعتقادات فبيانه أنّ الإيمان عمل كلّه وطاعـة كلّه، فليس الطاعة والعمـل مخصوصـين بأعمال الجوارح بل يعمّان أعمال الجوانـح، كما يعمّان أعمال القلوب من الإيمان بالأصول الاعتقاديـة، ولـذلك ورد أنّ أوّل الفرائض التى افترضـها اللَّه على العباد هو التوحيـد والمعرفة بمعنى الإيمان والإذعان والإخبات والتسـليم، وكذلك الإقرار القلبى ببعثة الرسل والمعاد والكتب وكذلك بأوصياء الرسل وهم الأئمّة المستخلفين بعدهم كما مرّ فى مفاد آية المودّة الدالّة على أنّ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۳۷

تـولّى العـترة المطهّرة هو من أصول الديانـة، وكـذلك هو مفـاد آيـتى المائـدة النـازلتين فى بيعـة الغـدير، وغيرهـا من طوائف الآيـات والأحاديث النبويّة الدالّة على ذلك.

فإذا تقرّر أنّ الإيمان بأُصول الـدين فريضـة وطاعـة وعمل بل هو من أكبر الفرائض وأعظم الطاعات والأعمال- يتبين أنّ الإيمان أيضاً لابدّ فيه من الإخبات والخضوع والانقياد والتسـليم ونحو ذلك، بخلاف ما إذا امتزج بجموح واستكبار وعناد وجرأة على ساحة البارى، فإنّه لن يعود طاعة وعملًا عبادياً، بل سيكون معصية وطغياناً وفرعنة وصنمية للنفس، وعبادة للطاغوت لا عبادة للَّه.

فالإباء والاسـتكبار عن الإخبات والتسـليم والإيمان بولىّ اللَّه وخليفته يـدلّ على انقلاب حقيقـة الإيمان إلى طغيان وكفر، أى يدلّ على صوريـة الإيمـان بالتوحيـد والمعـاد؛ إذ مقتضـى الإقـرار بالتوحيـد هو الإقـرار بكـلّ الصـفات الكماليـة للبارى، وأنّه الغنىّ المطلق، وأنّ المخلوقـات هى عيـن الفقر المحض والافتقـار إليـه تعـالى، وأنّ لـه الملـك وهـو مالـك جميـع الأشـياء، فله ملـك ذوات المخلوقـات ووجوداتها وأفعالها، وله مالكية الخضوع والطاعة.

فالتمرّد عليه فى أُمّهات الطاعات اسـتكبار وإنكار لهذه المالكية، فيرجع إلى الخلل فى الإيمان بالتوحيد، وبالتالى يتّضح أنّ عصيان اللَّه فى التولّى لوليه هو كفر بمالكيـة اللَّه واسـتحقاقه للطاعـة، نظير الخلـل الواقع فى الإيمـان بالمعـاد أو بالرسالـة، فإنّه يؤول إلى الخلل فى التوحيد أيضاً فيكون هناك غاية وراء اللَّه، فتكون والعياذ باللَّه- ذاته محدودة.

وكـذلك الحال فى إنكار الرسالـة، فإنّه يرجع إلى إنكار كون صـلاحية الحكم والتشـريع للبارى، وبالتالى يؤول إلى عـدم الإقرار بعلم البارى النافذ ولا بحكمته ولا بإحاطته بخفيات وعواقب الأُمور.

فالإقرار والإيمان بالتوحيد بمنزلة الإقرار المبهم المجمل الذى لا يتمّ تفصيله

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۳۸

وكمـاله إلّابالإـقرار بالتوحيـد فى مقامات أُخرى، فالإيمان بالمعاد هو مقام آخر من مقامات التوحيـد وهو التوحيـد فى الغايـة- كما أنّ أصل التوحيـد هو توحيـد فى مقام المبـدأ والأوّلية، ولا يكمل التوحيد بالاعتقاد بأنّه أوّل من دون الاعتقاد بأنّه آخر، كذلك الحال فى الاعتقاد بالرسالة وببعثة الرسل والكتب المنزّلة، هو اعتقاد بالتوحيد فى مقام التشريع «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ».

ونفس الشـىء يقال فى الولايـة والإمامـة، هو اعتقاد بالتوحيـد فى مقام الطاعـة والولايـة، فهـذه مقامات وأركان للتوحيـد لا يتمّ صـرح الاعتقاد بالتوحيد إلّابها. وفى تفسـير القمّى عنه عليه السلام حينما سئل عن التوحيد قال: «هو لا إله إلّااللَّه، محمّد رسول، علىّ ولىّ اللَّه، إلى‌ها هنا التوحيد» «۱»

.وفى البصائر والتوحيد: عن الصادق عليه السلام فى بيان فطرة التوحيد، قال عليه السلام:

«فطرهم على التوحيد، ومحمّد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وعلىّ أمير المؤمنين عليه السلام» «۲»

.وبـذلك يتبيّن أنّ الاعتقـاد ببعض الأُصـول والتخلّف عن البعض الآـخر، هو كالاعتقـاد ببعض الصـفات الإلهيـة وإنكار البعض الآخر، ويؤدّى إلى القول بمحدودية الذات وتركيبها وتجزّئها، ومن ثمّ ورد قوله تعالى: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» «۳»

.الثانى: قـد تقدّم فى الأدلّة القرآنية والروائية السابقة أنّ الأعمال تحبط، وهى حابطة بدون الإيمان، وهذا غير مختصّ بالفروع بل شامل للأُصول أيضاً، والحبط الأخروى للعمل والاعتقاد وإن لم يكن فى الاصـطلاح الفقهى ملازماً لعدم صـحّة العمل والاعتقاد، كذلك فى

المصطلح الكلامی الدارج، وأنّه فساد بلحاظ الثواب

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۳۹

الأخروی والقبول، لا بلحاظ ماهیهٔ العمل.

إلّا أنّ الحبط وفق نظریهٔ تجسّم الأعمال أنّ الجزاء هو عین العمل وحقیقته الباقیهٔ، ویکون موجب الحبط کاشفاً عن دخالهٔ ذلک الشیء فی الوجود البقائی للعمل والاعتقاد. وبعبارهٔ أُخری عندما لا یکون للعمل أجر وثواب فذلک یعنی أنّه لیس للعمل حقیقهٔ باقیهٔ فی الأبد الأخروی، فلیس هناک إلّاصورهٔ العمل لا حقیقته، ویستلزم ذلک کون الموجب للحبط دخیلًا فی حقیقهٔ العمل وبقائه، وکذلک دخیلًا فی حقیقهٔ الاعتقاد وبقائه.

ویتبیّن صوریهٔ الاعتقاد والأعمال بدون الإیمان، ولیس المقصود من صوریهٔ الاعتقاد مجرّد الإقرار اللسانی، بل إنّ عقد القلب هو علی الصورهٔ لا علی الحقیقهٔ، فما رواه الفریقان من حبط الأعمال والاعتقادات من دون حبّ علی علیه السلام وولایته کما مرّت الإشارهٔ إلی المصادر- وکذلک ما رواه الفریقان أنّه قسیم الجنّهٔ والنار، وأنّ حبّه إیمان وبغضه نفاق، دالّ علی حبط الاعتقاد فضلًا عن العمل بدون ولایته.

روی الصدوق فی الأمالی بإسناده عن ابن عبّاس قال: «قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله:

المخالف علی علیّ بن أبی طالب بعدی کافر، والمشرک به مشرک، والمحبّ له مؤمن، والمبغض له منافق، والمقتفی لأثره لاحق، والمحارب له مارق، والراد علیه زاهق، علیّ نور اللّه فی بلاده، وحجّته علی عباده، وعلی سیف اللّه علی أعدائه ووارث علم أنبیائه، علیّ کلمهٔ اللّه العلیا، وکلمهٔ أعدائه السفلی، علیّ سیّد الأوصیاء ووصیّ سیّد الأنبیاء، علیّ أمیر المؤمنین وقائد الغرّ المحجّلین وإمام المسلمین، لا یقبل اللّه الإیمان إلّا بولایته وطاعته» «۱»

.الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۴۱

القراءهٔ الثانیهٔ (ولایهٔ علیّ فی الشرائع السابقهٔ ...) ص: ۱۴۱

اشارهٔ

النقطهٔ الأولی:

فکما قد أخذ اللّه تعالی علی النبیّین والرسل المیثاق بالإقرار بنبوّهٔ خاتم الأنبیاء وبُعثوا بالبشارهٔ بها لأقوامهم، أخذ علیهم وعلی أُممهم الإیمان والتصدیق بها:

«وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِیثَاقَ النَّبِیِّینَ لَمَا آتَیْتُکُمْ مِنْ کِتَابٍ وَحِکْمَةٍ ثُمَّ جَاءَکُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَکُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَی ذَلِکُمْ إِصْرِی قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَکُمْ مِنَ الشَّاهِدِینَ* فَمَنْ تَوَلَّی بَعْدَ ذَلِکَ فَأُولَئِکَ هُمُ الْفَاسِقُونَ* أَفَغَیْرَ دِینِ اللَّهِ یَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِی السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَکَرْهًا وَإِلَیْهِ یُرْجَعُونَ* قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَیْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَی إِبْرَاهِیمَ وَإِسْمَاعِیلَ وَإِسْحَاقَ وَیَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِیَ مُوسَی وَعِیسَی وَالنَّبِیُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَانُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* وَمَنْ یَبْتَغِ غَیْرَ الْإِسْلَامِ دِینًا فَلَنْ یُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِی الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِینَ» «۱»

.فأخذ اللّه المیثاق علی النبیّین فی مقابل إیتائهم وبعثهم بالکتاب والحکمهٔ والنبوّهٔ، وشرط علیهم الإیمان بخاتم الأنبیاء ونصرته، وکان ذلک المیثاق مشدّداً مغلّظاً وقد أخذ فیه إقرارهم بذلک وأشهدوا علیه تغلیظاً.

ولا یخفی أنّ الآیهٔ مشحونهٔ بالدلالات علی هیمنهٔ مقام النبیّ صلی الله علیه و آله علی جمیع

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۴۲

الأنبياء:

منها: التعبير عنهم بالنبوّة والتعبير عنه بالرسالة؛ فإن وصف الرسالة أعلى من مقام النبوّة، وفيه إشارة إلى توسّطه صلى الله عليه و آله بين اللَّه تعالى وبين الأنبياء بالرسالة.

ومنها: التعبير عنه (بمصدّق)، والتعبير عنهم بأنّهم (يؤمنون) به، فإنّ ذلک يقتضی اتّباعهم له دونه؛ فإنّه يوثّق نبوّاتهم.

ومنها: التعبير عنه صلى الله عليه و آله بأنّ تصديقه أسند إلى ما معهم ممّا قد أُوصی لهم، وهذا يغاير التعبير بأنّه (مصدّق لهم)، بينما التعبير عنهم عليهم السلام بأنّهم (يؤمنون به صلى الله عليه و آله)، أی: جعل متعلّق إيمانهم به صلى الله عليه و آله، وفيه بيان لعلوّه عليهم فی المقامات الإلهية.

ومنها: قد أخذ عليهم نصرته دونه، ولم يؤخذ ذلک عليه صلى الله عليه و آله. ثمّ بين تعالى أنّ الإيمان بنبوّة خاتم الأنبياء هو دين اللَّه الذی هو الإسلام، وهو دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبيّين.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى على لسان نبيّه عيسى عليه السلام: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِی إِسْرَائِيلَ إِنِّی رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِی مِنْ بَعْدِی اسْمُهُ أَحْمَدُ» «۱»

، وكذا قوله تعالى فی قضية بنی إسرائيل:

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» «۲»

، فبيّن تعالى أنّ اليهود كانوا قبل بعثة النبیّ صلى الله عليه و آله يستبشرون به ويستظهرون ببعثته وملكه على المشركين؛ لمعرفتهم ذلک فی توراتهم: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِی يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِی التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۴۳

وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِی كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۱».

النبوّة والولاية ... ص: ۱۴۳

وكما قد أُخذ نبوّة النبیّ صلى الله عليه و آله والإيمان بها على الأنبياء السابقين وأُممهم؛ لكونها قوام دين الإسلام الذی هو دين جميع الأنبياء، فكذلک قد أُخذت ولاية علیّ عليه السلام وإمامته على الأنبياء السابقين وأُممهم لأخذها فی قوام دين الإسلام الذی هو دين جميع الأنبياء والرسل السابقين. ولبيان ذلک لابدّ من الالتفات إلى نقطتين:

قاعدة أديانية: وحدة الدين وتعدّد الشرايع ... ص: ۱۴۳

الأُولى: إنّ هناک تعدّد بين معنى الدين والشريعة، فإنّ الدين واحد وهو الإسلام الذی قد بُعث به جميع الأنبياء والرسل ولا نسخ فيه، وهو مجموعة أُصول العقائد والمعارف وأركان الفروع وأُصول المحرّمات والواجبات فی الفروع، وهذا بخلاف الشريعة فإنّ لكل رسول شريعة وهی ناسخة لشريعة النبیّ والرسول الذی قبله، والشريعة هی تفاصيل التشريعات فی الفروع.

ويشير إلى هذا التغاير قوله تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» «۲»

، فالـدين عنـد اللّه واحد وهو الإسـلام، ولم يبعث الأنبياء بأديان مختلفة، وإنّما الذى أحدث اختلاف الأديان هم أتباعهم، حيث حرّفوا الدين

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۴۴

الواحد وهو دين الإسلام بغياً.

ويشـير إلى ذلـک أيضاً قوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْکَ الْکِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَـدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَـدَيْهِ مِنَ الْکِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْکُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَکَ مِنَ الْحَقِّ لِکُلٍّ جَعَلْنَا مِنْکُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» «۱»

، فبيّن تعالى تعدّد شرائع ومناهج الأنبياء بخلاف الدين فإنّه واحد، وسيأتى تفصيل هذه النقطة وبسطها.

ونسـتخلص من هـذه النقطـة فى المقام أنّ الأُصول الاعتقاديـة وأُصول الإيمان هى من مساحـة الـدين، ومن مقوّمات دين الإسـلام غير القابلة للنسخ والتبدّل والتغيّر، فلا تكون من أجزاء الشريعة ولا من تفاصيل الفروع.

وهـذا المبحث والقاعـدة الأديانيـة ينبع منها مناهل عذبة فى بحوث المعرفة الدينية واختلاف المذاهب، ويتبّه إلى هذا التغاير بين الدين والشريعة، ووحدة الدين وتعدّد الشرايع ما رواه الشيخ المفيد فى الاختصاص، من (مسائل عبد اللّه بن سلام) للنبىّ صلى الله عليه و آله:

...«قال: صدقت يامحمّد فأخبرنى إلى ما تدعو؟ قال صلى الله عليه و آله: إلى الإسلام والإيمان باللّه.

قال: ما الإسـلام؟ قال صـلى الله عليه و آله: شـهادة أن لا إله إلّااللّه وحـده لاشـريک له، وأنّ محمّـداً عبده ورسوله، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيهـا، وأنّ اللّه يبعث من فى القبور. قال: صـدقت يا محمّـد فاخبرنى کم دين لربّ العالمين؟ قال صـلى الله عليه و آله: دين واحد واللّه واحد لا شريک له. قال:

وما دين اللّه؟ قال صلى الله عليه و آله: الإسلام. قال: وبه دان النبيّون من قبلک؟ قال صلى الله عليه و آله: نعم. قال:

فالشرائع؟ قال صلى الله عليه و آله: کانت مختلفة وقد مضت سنّة الأوّلين. قال: صدقت يامحمّد..» «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۴۵

ولاية علىّ عليه السلام أصل فى الدين لا من فروع الشريعة ...: ص: ۱۴۵

النقطـة الثانيـة: إنّ جملـة مـا ورد من آيات قرآنيـة فى ولايـة علىّ وولـده عليهم السـلام وإمامتهم، وکـذلک ما ورد من أحاديث نبويّة متواترة ومسـتفيضة فى ذلـک، دالّ على أخـذ ولايـتهم وإمـامتهم أصـلًا إيمانيـاً قوامیـاً فى الاعتقـاد، کمـا أشـبع ذلـک علمـاء الإمـامية ومتکلّميهم فى کتبهم، وهذا يقتضـى أخذ ولايتهم وإمامتهم رکناً فى الدين الحنيف وهو الإسـلام، لا أنّها فريضة فى تفاصـيل الشـريعة بمقتضى ما تبين فى النقطة الأُولى السابقة.

ويعزّز هـذه الحقيقـة قـوله تعـالى فى آيـة الغـدير: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ کَفَرُوا مِنْ دِينِکُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِينَکُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْکُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَکُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «۱»

، وبيان الآية وإن کان له مقام آخر سيأتى، إلّاأنّ مفادها إجمالًا: إنّ الذى بلغه النبىّ صـلى الله عليه و آله فى ذلک اليوم من أخذ البيعة لعلىّ عليه السلام فى غدير خم من المسلمين، بها يتحقّق کمال الدين وهو الإسلام وهو الرکن الرکين لرضا الربّ لدين الإسلام، فبيّنت الآية أنّ ولايته وولاية ولده عليهم السلام مأخوذة رکناً فى الدين، لا فريضة فرعية فى تفاصيل الشريعة.

وسـيأتى ثمّة وجه التعبير بأنّها (کمال الدين) ولم يعبّر أنّها (تمام الدين أى الفرق بين الکمال والتمام کما يعزّز هذه الحقيقة قوله تعالى فى آية الغدير الثانية وهى: «يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْکَافِرِينَ» «۲»

، حيث جعل البارى تعالى تبليغ النبىّ صلى الله عليه و آله لبقية أجزاء الدين وللشريعة فى طرف، وتبليغه لما أمر به فى يوم

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۴۶

الغدیر من حجّهٔ الوداع فی سورهٔ المائدهٔ فی طرف آخر، وهذا ممّا یقضی بکون ولایته وإمامته هی بتلک المکانهٔ فی الشأن والأهمیّهٔ فی الدین، أی من الأُصول الاعتقادیهٔ، فهی من الأرکان فی الدین الحنیف، لا من التفاصیل الفرعیهٔ فی الشریعهٔ.

وهذا هو مفاد آیهٔ المودّهٔ أیضاً فی قوله تعالی: «قُلْ لَاأَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّهَٔ فِی الْقُرْبَی» «۱»

، حیث جعل الباری تعالی مودّتهم فی کفّهٔ والرسالهٔ فی کفّهٔ أُخری، سواء رجع ضمیر (علیه) إلی الدین أو إلی جهده صلی الله علیه و آله فی تبلیغ الدین فإنّ المآل واحد، حیث إنّ قیمهٔ العمل وأجرته هی بقیمهٔ نتیجهٔ العمل وهو الدین، فإذا قوبلت مودّتهم ببقیهٔ أجزاء الدین برمّتها اقتضی ذلک کون مودّتهم هی الرکن الرکین فی الدین، وعلیه یظهر أنّ ولایته علیه السلام وولده المطهرین هی تتلو نبوّهٔ خاتم الرسل فی الموقعیهٔ فهی من الأرکان الثابتهٔ فی الدین الحنیف وهو الإسلام.

وقد تبیّن ممن مضی ان الدین واحد وهو الذی بعث به جمیع الأنبیاء والرسل) وهو أمر لا نسخ فیه ولا تبدیل، کما قال تعالی: «شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ مَا وَصَّی بِهِ نُوحًا وَالَّذِی أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ وَمَا وَصَّیْنَا بِهِ إِبْرَاهِیمَ وَمُوسَی وَعِیسَی أَنْ أَقِیمُوا الدِّینَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِیهِ کَبُرَ عَلَی الْمُشْرِکِینَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَیْهِ اللَّهُ یَجْتَبِی إِلَیْهِ مَنْ یَشَاءُ وَیَهْدِی إِلَیْهِ مَنْ یُنِیبُ* وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیًا بَیْنَهُمْ» «۲»

، فبیّن تعالی أنّ الدین الذی بُعث به الأنبیاء وأُولو العزم واحد، لم یتفرّقوا فیه، وإنّ تفرق أتباعهم لیس من الدین فی شیء، وإنّما هو لبغی الأتباع والأقوام. ویتّضح من ذلک أنّ جمیع الأنبیاء والرسل بُعثوا علی الإقرار برسالهٔ خاتم النبیّین ومحبّهٔ قرباه وولایهٔ أهل بیته.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۴۷

القواعد الثلاث الأُمّ المحیطهٔ فی معرفهٔ مقاماتهم ... ص: ۱۴۷

اشارهٔ

القاعدهٔ الأولی:

من شرائط قبول التوبهٔ التوسّل والتوجّه بهم إلی اللّه بعد المعرفهٔ والتصدیق بولایتهم.

القاعدهٔ الثانیهٔ:

إنّ شرط صحّهٔ العبادهٔ وقبولها بل صحّهٔ الإیمان باللّه وبرسوله وبولایتهم هو التوجّه بهم إلی اللّه بعد التصدیق بولایتهم.

القاعدهٔ الثالثهٔ:

إنّهم علیهم السلام باب اللّه الأعظم الذی منه یُؤتی للقرب والزلفی ونیل کلّ مقام، وإنّ دعاء العبد والعباد لا یستجاب إلّابعد أن یطلب النبیّ صلی الله علیه و آله من اللّه تعالی ویسأله إجابهٔ طلبهم، وهو معنی شفاعته ووسیلته عند اللّه تعالی کما سیتبین من الآیات.

أما القاعدهٔ الأولی: وهی شرطیهٔ التوسّل والتوجّه بهم إلی اللّه تعالی فی صحّهٔ وقبول التوبهٔ بعد التصدیق بولایتهم، فقد ذکر جملهٔ من المتکلّمین والمفسّرین والمحدّثین وفقهاء الإمامیهٔ: أنّ ولایتهم علیهم السلام من جملهٔ شروط قبول وصحّهٔ التوبهٔ؛

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۴۸

لقوله تعالی: «وَإِنِّی لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَی» «۱»

، حیث اشترطت الآیهٔ فی التوبهٔ الهدایهٔ علاوهٔ علی أصل الإیمان والعمل الصالح، وهی المشار إلیها فی آیات عدیدهٔ، کقوله تعالی: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِیمَ* صِرَاطَ الَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ غَیْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ وَلَا الضَّالِّینَ» «۲»

، وقوله تعالی: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِکُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» «۳»

، وقوله تعالی: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّهًٔ یَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَیْنَا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرَاتِ» «۴»

.وغيرها من الآيات فضلًا عن الروايات المستفيضة المشيرة إلى وجه دلالة الآيات على ذلك. إلّاأنّ مقتضى جملة من الآيات والروايات إضافة شرط آخر وهو التوسّل والتوجّه بهم عليهم السلام إليه تعالى، ويدلّ عليه جملة من الآيات:

منها: قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» «۵»

، فذكرت الآية ثلاثة شروط لحصول التوبة:

الأوّل: مجيء مذنبي الأُمّة إلى الرسول. والمراد: الالتجاء والتوسّل والتوجّه به إلى اللَّه تعالى، فجعل تعالى ذكره التوجّه أوّلًا إلى نبيّه الذي هو الوسيلة، لكي يتمّ التوجّه من بعد إليه، كاستقبال المصلّي أوّلًا الكعبة متوجّهاً بها إلى اللَّه تعالى، فهذا

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۴۹

الشرط الأوّل من ناموس أدب الدعاء في القرآن الكريم.

ودعوى السلفية بشركية التوجّه فيالدعاء إلى النبيّ وأهل بيته ردّ لهذه السنّة القرآنية العظيمة في أدب الدعاء، بل إنّ الآية ناصّة بكل وضوح على أنّ دعاء أي داعي لا يستجاب إلّابطلب النبيّ صلى الله عليه و آله من اللَّه تعالى، فلا بدّ من سؤال النبيّ صلى الله عليه و آله من ربّه كي يستجاب طلب الداعي

الثاني: إعلان التوبة والاستغفار من الذنب.

الثالث: استغفار الرسول صلى الله عليه و آله لهم بعد ذلك، وهو عبارة عن شفاعته لهم، فأيّ مذنب في هذه الأُمّة إلى يوم القيامة لا يغفر اللَّه له ذنبه إلّابشفاعة النبيّ صلى الله عليه و آله، فهذه الآية الكريمة هي من الآيات المتعرّضة لشرائط التوبة، حيث اشترطت لحصولها الشرائط الثلاثة الآنفة الذكر، وقد حكى الآلوسي في روح المعاني عن ابن عطاء في تفسير قوله تعالى: «لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» «۱»

، أي: لو جعلوك الوسيلة لديّ لوصلوا إليّ «۲».

هذا وقد وردت عن أهل البيت عليهم السلام روايات مستفيضة تفيد أنّ الدعاء من الأوّلين والآخرين مطلقاً وبدون استثناء- محجوب حتّى يصلّي الداعي على محمّد وآل محمّد، كصحيح صفوان الجمال عن أبي عبد اللَّه عليه السلام، قال: «كلّ دعاء يُدعى اللَّه عزّ وجلّ به محجوب عن السماء حتّى يصلّي على محمّد وآل محمّد» «۳».

ومثلها: صحيح هشام بن سالم «۴»، ومثلها: رواية الخزار بسندٍ متّصل عن أبي ذر، عن النبيّ صلى الله عليه و آله، ومثلها: ما رواه الصدوق عن حارث الأعور عن أمير المؤمنين عليه السلام «۵».

وفي موثقة السكوني عن أبي عبد اللَّه عليه السلام، قال: «من دعا ولم يذكر النبيّ صلى الله عليه و آله رفرف الدعاء على رأسه، فإذا ذكر النبيّ صلى الله عليه و آله رُفع الدعاء» «۶». وغيرها من الروايات.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۵۰

ومن الواضح أنّ التوبة والاستغفار من الذنب دعاء، فلا يرفع ولا تفتح له أبواب السماء إلّابالتوجّه بالنبيّ وآله، وسيأتي أنّ هذه الروايات تشير إلى مضمون عدّة من الآيات، فلابدّ من الالتفات إلى ذلك.

ويصبّ في مضمون قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا» «۱»

قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ» «۲»

، لكنّ الآية السابقة صريحة في الشرطية، وأمّا الآية الثانية فغاية دلالتها أنّ التوسّل والتوجّه بالنبيّ في التوبة والتسليم والخضوع والتعظيم لرسول اللَّه من مفاتيح الوفادة على اللَّه تعالى، ومن علائم الإيمان، والاستكبار عن التوجّه بالنبيّ من صفاة النفاق والمنافقين.

التوجّه إلى النبيّ صلى الله عليه و آله بالدعاء ... ص: ۱۵۰

وهذه الآيات القرآنية هی الأخری تدلّل علی أنّ من سنن ناموس الدعاء فی القرآن التوجّه أوّلًا إلی النبیّ صلی الله علیه و آله والطلب منه للتوسّط عند اللَّه لقضاء الحاجة، ولیس من الأدب الإلهی فی دعاء العبد أن یتوجّه بالدعاء والطلب إلی اللَّه تعالی مباشرة ویصدّ عن التوجّه إلی النبیّ صلی الله علیه و آله تحت شعار الابتعاد عن الشرك والتفویض والغلوّ کما یدّعیه السلفیة- فإنّ هذا عین الاستکبار والنفاق، کما صرحت به هذه الآیة الکریمة، وهو عین المرض الذی ابتلی به إبلیس؛ حیث أبی أن یتوجّه بآدم کالملائکة فی عبادته وسجوده حیث توجّهت لآدم لتتوجّه بعد به إلی اللَّه تعالی

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۵۱

وکانت الملائکة بذلك موحِّدین، بخلاف إبلیس؛ فإنّه وصِفَ بالکفر، بل إنّ الآیة تحصر استجابه دعاء کلّ داعی بأن یطلب النبیّ صلی الله علیه و آله من اللَّه تعالی حاجة العبید کی یستجیب. وهو معنی إستغفاره صلی الله علیه و آله وسؤاله، أی لابدّ من طلب النبیّ صلی الله علیه و آله.

ومنها: قوله تعالی: «إِنَّ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیَاتِنَا وَاسْتَکْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا یَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّی یَلِجَ الْجَمَلُ فِی سَمِّ الْخِیَاطِ وَکَذَلِكَ نَجْزِی الْمُجْرِمِینَ» «۱»

، فاشترطت الآیة لفتح أبواب السماء التصدیق بآیات اللَّه والخضوع لها، والمراد من آیاته تعالی حججه المصطفون، کما فی قوله تعالی: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْیَمَ وَأُمَّهُ آیَةً» «۲»

؛ وذلك لأنّ التکذیب فی مقابل التصدیق، وهما فی حقّ الحجة المنصوب الذی یخبر عن اللَّه تعالی، خلاف الآیات التکوینیة فی الآفاق مثلًا، فإنّه إلیها یقال غافلون عنها ولا یسند التکذیب.

فاشترط فی الآیة المبارکة أمران:

الأوّل: التصدیق والإیمان بالآیات.

والثانی: الخضوع لها والتوجّه إلیها؛ لأن التعبیر ب (استکبروا عنها) متضمّن لمعنی الصدّ، فمقابله الخضوع للآیات والتوجّه إلیها.

وممّا یدلّل علی أن المراد من الآیات الحجج المصطفون، ورود التعبیر بنفس الشاکلة فی إباء إبلیس عن التوجّه بآدم فی عبادة ربّه، کما فی قوله تعالی: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِکَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِیسَ أَبَی وَاسْتَکْبَرَ وَکَانَ مِنَ الْکَافِرِینَ» «۳»

.فشاکل التعبیر بالإباء الاستکبار؛ إذ الإباء هو الجحود القلبی، والاستکبار هو فی جانب العمل والصد، فی مقابل الخضوع والتوجّه.

ومن الواضح أنّ فتح أبواب السماء لابدّ منه فی التوبة لقبول دعاء الاستغفار. ثمّ إنّ الآیة جعلت هذین الشرطین من شروط دخول الجنّة، وأکّدت استحالة ذلك

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۵۲

أی فتح أبواب السماء ودخول الجنّة من دون الإیمان بآیات اللَّه الحجج المنصوبین من قبله تعالی، ومن دون الخضوع والتوجّه بهم إلیه تعالی، أی أنّه وإن حصل الإیمان بحجج اللَّه المصطفین لا یُفتح باب السماء للدعاء ولا یُدخل الجنّة من دون التوجّه إلیهم والتوسّل بهم؛ لیحصل بذلك التوجّه إلی اللَّه تعالی، ولا یخدعنّك استکبار إبلیس حیث أبی أن یتوجّه لآدم ویجعله قبلة فی سجوده؛ لیحصل بذلك التوجّه إلی اللَّه تعالی کما فعلته کلّ الملائکة الموحّدین، بخلافه حیث أراد التوجّه مباشرة إلی اللَّه تعالی استکباراً وصدّاً عن خلیفة اللَّه تعالی ووسیلة فما یقوله السلفیة وتفویض وغلو هی مقوله إبلیس وقد رد القرآن مقولته.

ثم إنّ هذه الآیة لا تقتصر فی الدلالة علی القاعدة الأُولی، بل هی تدلّ علی القاعدة الثانیة؛ حیث إنّ فتح أبواب السماء لیس فقط فی مقام الاستغفار والتوبة، ولا یقتصر علی مطلق الدعاء، بل هو فی مطلق التوجّه والنیة فی مقام العبادة للإقبال والوفود علی الحضرة الإلهیة، وفی صعود الأعمال والعقائد وقبولها، کما فی قوله تعالی: «إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ یَرْفَعُهُ» «۱»

، فإنّ صعود الکلم الطیب وهو المعتقد ورفع العمل الصالح لا یتمّ إلّابفتح أبواب السماء، ومفاتیح أبواب السماء هی أوّلًا: التصدیق

بحجج اللَّه المصطفون الذین اصطفاهم بالطهارهٔ، وثانیاً: الخضوع لهم بالتوجّه بهم إلی اللَّه تعالی، لا الاستکبار والصدّ عنهم.

ومعنی التوجّه بهم إلیه تعالی: هو التوجّه إلیهم لکی یحصل التوجّه إلیه تعالی ولهـذا أمر تعالی الملائکهٔ بالتوجّه لآدم فی السـجود کی یحصل التوجّه إلیه تعالی،

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۵۳

وکما هو الحال فی التوجّه فی العبادهٔ إلی الکعبـهٔ لیتوجّه إلی الباری تعالی ولهـذا ابتـدأت الآیتان السابقتان بذلک «وَإِذَا قِیلَ لَهُمْ تَعَالَوْا یَسْتَغْفِرْ لَکُمْ رَسُولُ اللَّهِ» «۱» و «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوکَ..» «۲»

، فالمجیء إلی الحضـرهٔ النبویّهٔ أوّلًا هو التوجّه للنبیّ صـلی الله علیه و آله أولًا لیطلب لهم من اللَّه تعالی ولیحصل لهم التوجّه إلیه تعالی مآلًا، بـل إنّ هـذه الآیـهٔ تـدلّ علی القاعـدهٔ الثالثـهٔ، وتقریب دلالتهـا أنّ التعبیر بـأبواب السـماء وفتحها وهو تعبیر عن مسیر الوفادهٔ إلی الحضرهٔ الإلهیهٔ، وبیان لمسافهٔ القرب والزلفی إلی الساحهٔ الربوبیهٔ، فهو بیان للاستقبال والتوجه إلی الحضرهٔ الربانیهٔ، فکما تُستقبل القبلهٔ ویُتوجّه بهـا إلی اللَّه فکـذلک لابـدّ فی الاسـتقبال والتوجّه القلبی من التصـدیق بآیاته وحججه والخضوع لطاعتهم والتوجّه بهم إلیه فی مطلق المقامات القُربیهٔ والزلفیهٔ، فیمتنع علی المستخفّین بحجج اللَّه والمسـتهینین بهم الصادّین عن التوجّه إلیهم وبهم إلی اللَّه أن تفتح لهم أبواب القرب الإلهی.

کما طُرد إبلیس من درجهٔ القرب وحُرمت علیه الرحمهٔ الإلهیهٔ، وأُسقط من مقام الزلفی إلی حضیض البعد وهاویهٔ الیأس وقعر الحرمان واللعنهٔ؛ لاسـتکباره علی خلیفهٔ اللَّه وإباءه عن اسـتقبال آدم فی السجود والتوجّه به إلی اللَّه، فهو بذلک لم یقصّر فی آداب العبودیهٔ مع الحضـرهٔ الربوبیهٔ فقط، بل امتنع علیه الوفود إلیه تعالی، وإلی ذلک تشیر الآیهٔ الکریمهٔ: «قَالَ مَا مَنَعَکَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُکَ قَالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ* قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا یَکُونُ لَکَ أَنْ تَتَکَبَّرَ فِیهَا فَاخْرُجْ إِنَّکَ مِنَ الصَّاغِرِینَ» «۳»

، فمن أُصول السنن الإلهیهٔ فی أدب التوجّه واللقاء

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۵۴

والقرب هو الخضوع لآیاته وأصفیاءه الذین نصّبهم حججاً علی خلقه، بالتوجّه إلیهم لیتّخذهم وسیلهٔ إلی اللَّه.

حقیقهٔ ابتغاء الوسیلهٔ هو قصدها ...: ص: ۱۵۴

ومنها: قوله تعالی: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَیْهِ الْوَسِیلَهَ وَجَاهِدُوا فِی سَبِیلِهِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ» «۱»

والآیهٔ یمکن أن یذکر فی إعرابها احتمالان:

الأوّل: أن یکون قوله (ابتغوا) قـد أُسـند إلی کـلّ من (إلیه) و (الوسـیلهٔ)، فیعمـل فعل (ابتغوا) فی کلّ من الجار والمجرور والاسم وهو الوسیلهٔ، وعلی ضوء هذا التقدیر فی الإعراب یکون الابتغاء- وهو القصد والتوجّه- قد جعل متعلّقاً بکلّ من الجار والمجرور والوسیلهٔ.

وحاصل المعنی حینئذٍ أنّه فی مقام القصد یتوجّه إلی کلّ من الساحهٔ الربوبیهٔ ویتوجّه إلی الوسیلهٔ، غایهٔ الأمر یکون التوجه إلی الوسیلهٔ مقدّمهٔ للتوجّه إلی الساحهٔ الربوبیهٔ.

الثـانی: أن یکون فعـل (ابتغوا) أُسـند إلی (الوسـیلهٔ) فقـط، أی أنّه یعمـل فی هـذه اللفظـهٔ فقـط، ویکون مفعول به للفعـل، وأمّـا الجـار والمجرور فهو متعلّق بنفس الوسـیلهٔ، والذی یعمل فی الجار والمجرور هو لفظ (الوسـیلهٔ) بما اشـتمل من معنی الحذف، فیکون حاصل المعنی حینئذٍ- أنّ القصد والتوجّه والابتغاء هو إلی الوسـیلهٔ ابتداءً وحصراً، غایهٔ الأمر أنّ الوسیلهٔ التی یتوجّه إلیها هی تلک التی بذاتها تُوصّـِل وتُسلک بالـذی یتوجّه إلیها وبها إلی الساحـهٔ الربوبیـهٔ، ویعضـد هـذا المعنی وهو کون ابتغاء الوسـیلهٔ هو بالتوجّه إلی الوسـیلهٔ وقصدها لیحصل التوجّه إلی اللَّه

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۱۵۵

تعالى مآلًا ومنتهىً جملة من الشواهد:

منها: إنّ اتّخاذ الوسيلة المأذون بها من قِبله تعالى مقتضاه أنّ مقام الإقبال والارتياد للقرب لا يُطوى إلّابالوسيلة؛ لأنّ الوسيلة هى ما يُتوسّل به ويُعالج به لبلوغ غاية. فإذاً كان القصد إليه تعالى والتوجّه إليه كمنتهى الغايات يتوقّف على الوسيلة، مع أنّ البارى تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد من جانبه، لكنّه ليس قرباً مكانياً كقرب جسم من جسم يستلزم قرب أحد الطرفين قرب الطرف الآخر، بل قربه تعالى منّا قرب قدرة وهيمنة وقيمومة، وهو كمال سيطرته وقاهريته على عباده.

وأمّا من طرف العباد، فمسيرهم إلى شاهق الساحة الربوبية ذو مسافة بعيدة؛ لبعدهم وقصورهم عن الكمال المطلق، فلا يتسنّى لكلّ وارد أن يهتك الحجب.

ومنه يظهر أنّ الآية فى بيان سنّة إلهية دائمة دائبة فى كلّ المخلوقات للتوجّه إلى الحضرة الإلهية.

ومنها: إنّ الآيات وسيلة لمعرفة الربّ عند القلب والعقل؛ فإنّ البارى تعالى من عظمته لا يُكتنه ولا يُكتنف ولا يُحاط به، كما لا يملس ولا ـ يجبه ولا ـ يمسّ ولا ـ يجسّ؛ إذ ليس هو بجسم وليس بروح وليس بعقل، فلا ـ يجسّم ولا ـ يشبّه بأحد من خلقه، إلّاأنّ نفى التشبيه بمراتبه لا يستلزم التعطيل، بل إنّ فعله دالّ عليه، ولا سيما عظائم خلقه وهى آياته الكبرى، ومنها يتعرّف العقل ويهتدى إليه تعالى وإلى عظيم صفاته، كما هو محرّر مبسوط فى مباحث المعرفة التوحيدية.

فبين نفى التشبيه ونفى التعطيل إقامة التوحيد، تتحقّق بدلالة الآيات، كما أشارت إلى ذلك الصدّيقة الزهراء فاطمة عليها السلام فى مستهل خطبتها، حيث قالت:

«وأحمد اللّه الذى لعظمته ونوره يبتغى من فى السموات والأرض إليه الوسيلة، ونحن

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۵۶

وسيلته فى خلقه، ونحن خاصّته ومحلّ قدسه، ونحن حجّته فى غيبه» «۱»

.فتعلّل سلام اللّه عليها- ضرورة الوسيلة وابتغاءها بشدّة عظمة اللّه، وحيث إنّ التعطيل مفروغ من بطلانه، فتحتّمت ضرورة الوسيلة فالبرهان المتقدّم مستفاد من كلامها عليها السلام.

ويُستفاد البرهان المتقدّم أيضاً من قول أمير المؤمنين عليه السلام: «اللّه عزّ وجلّ حامل العرش والسماوات والأرض «... أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» «۲»

...وبعظمته ونوره ابتغى من فى السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة..» «۳»

ومثلها عن الإمام أبى الحسن موسى عليه السلام «۴».

فاذا كانت معرفة العقل هى بوسيلة الآيات والتوجّه إليها والتدبّر فيها يحصل التوجّه مآلا إليه تعالى، ومعرفة العقل والقلب هى الإيمان وهى عبادة العقل والقلب؛ لأنّ الإيمان إخبات وتسليم وإذعان وخضوع وانقياد وهو معنى العبادة، ومن ثمّ أُشير فى تفسير قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» «۵»

، أى (ليعرفون) ففُسّرت العبادة بالمعرفة، كما فى النصوص المستفيضة وتفاسير الفريقين؛ لأنّ المعرفة والإيمان من العقل، يعنى عدم إباءه وعدم جحوده وعدم تمرّده وطوعانيته وخضوعه للحقّ، وهو حقيقة العبادة المتصوّرة من جوهر العقل، فإذا كانت معرفة التوحيد والعبادة التوحيدية فى العقل لا تقام إلّابالتوسّل

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۵۷

بالآيات والتوجّه إليها وقصدها ليحصل إليه تعالى فهى بابه الأعظم الذى منه يُؤتى، فبماذا يلهج هؤلاء السلفية وأنّى يُصرفون عن التوجّه إلى الوسيلة ويزعمون أنّهم يتوجّهون مباشرة إليه تعالى؟ وهل وجدوا من أنفسهم أنّهم أقرب الخلق إليه تعالى، وإذا كان هذا حال العقل فكيف بمن دونه؟

فالعبادة لا تقتصر على بدن الإنسان وحركاته، ولا على النفس وأفعالها الجانحية من النية والقصد، بل يعمّ عبادة أفعال العقل والقلب والروح، وإذا كانت هذه الثلاثة التى هى أقرب إلى اللّه تعالى تحتاج فى عبادتها بل مطلق قصدها وتوجّهها إلى اللّه تعالى إلى التوجّه إلى الآيات وقصدها، فكيف بما دونها، وإذا كان للآيات أخطر دور فى علاقة العبد بالبارى وهو مقام المعرفة وأنّ معرفتها معرفته تعالى والتوجّه إليها توجّه إليه تعالى، يتّضح أنّ آياته الكبرى هى بابه الأعظم الذى منه يُؤتى ومنه الوفاد إلى الحضرة الإلهية.

وبذلك يتّضح ما ورد «بنا عُبد اللّه وبنا عُرف» «۱».

ومنها: تعاضد دلالة آية الوسيلة مع السابقة الدالّة على كون الآيات مفتاح أبواب السماء ومفتاح دخول الجنّة، حيث دلّت على أنّ الآيات الإلهية ممّا يتوجّه بها إليه تعالى، وأنّها مفتاح التوجّه والسير إليه عزّ شأنه، والآية هى العلامة الدالّة، فيتطابق معناها مع الاسم؛ لأنّ الاسم من الوسم وهو العلامة أيضاً.

فتكون الآيات الإلهية هى أسماءه الحُسنى التى قال عنها تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» «۲»

فأتى فى الآية بلفظ الجمع، ممّا يدلّ على كثرتها، مع أنّ اللّه هو الواحد الأحد، فالأسماء كثرة لكن المسمّى هو الواحد الأحد، فهى دوال عليه.

وهذه الدلالة هى حقيقة الآيات؛ إذ العبادة للمسمّى الواحد الأحد، لا للكثرة ولا للأسماء ولا للآيات الدالّة عليه، كما يستفاد هذا البيان العقلى من قول الإمام الصادق عليه السلام، من صحيحة هشام بن الحكم أنّه سأل أبا عبد اللّه عليه السلام عن أسماء اللّه

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۵۸

واشتقاقها: «اللّه ممّا هو مشتقّ؟ فقال: يا هشام، اللّه مشتقّ من إله وإله يقتضى مألوهاً، والاسم غير المسمّى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد، أفهمت ياهشام؟

قال: قلت: زدنى. قال: للّهتسع وتسعون اسماً، فلو كان الاسم هو المسمّى لكان كلّ اسم منها إلهاً، ولكن اللّه معنى يدلّ عليه بهذه الأسماء وكلها غيره. يا هشام، الخبز اسم للمأكول، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحرق، أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به أعدائنا المتّخذين مع اللّه غيره؟ قلت: نعم. فقال: نفعك اللّه به وثبّتك يا هشام.

قال: فواللّه ما قهرنى أحد فى التوحيد حتّى قمت مقامى هذا» «۱».

فإذاً، تبيّن أنّ الأسماء الحُسنى التى يُدعى بها الربّ ويُتوجّه إليها وبها إليه، وهى الأبواب التى منها يُقصد وهى الآيات الكبرى التى أُمر العباد بتصديقها والخضوع لها والتوجّه بها، وأُنذروا عن التكذيب بها والاستكبار عنها، وهى حججه المصطفين، وهى كلماته التامّات.

كما أُطلق لفظ الآية والكلمة على عيسى، فى قوله تعالى: «وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا» «۲»

وكما فى قوله تعالى فى وصف يحيى أنّه مصدّق بعيسى، خطاباً لزكريا: «أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ» «۳»

، فأطلق على عيسى أنّه الكلمة التى يُصدق بها، نظير الأمر بتصديق آيات اللّه وعدم التكذيب بها، كما ورد فى وصف مريم: «وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ» «۴»

،

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۵۹

فغاير بين الكلمات والكتب، فجعلت الكلمات مقابل الكتب، وأنّها عليها السلام صدّقت بالكلمات.

فيظهر من ذلك: إنّ الكلمات التى يُصدّق بها وكذا الآيات التى لا يصدق بها ولا يكذّب بها، لأنّ التكذيب والتصديق للخبر، فالآية التى توصف بذلك هى ذات مؤدّى خبرى وهو الحجّة المنصوب من قبله تعالى يخبر عنه، فالحجج المصطفون هم الآيات التى لا

يُكذّب بها ولا ـ يُستكبر عنها، كما قد أطلقت على النبيّ عيسى ليتبين أنّ المراد بها هم الحجج الذين اصطفاهم اللَّه، كما أنّهم هم الأسماء الحسنى التى يُتوسّل بها ويتوجّه، ويُدعى الربّ بها، بعد ما تبين تطابق معنى الاسم والآية والكلمة فى أصل المعنى لغةً بمعنى العلامة الدالّة.

ثمّ إنّ الآية الأُولى، وهى قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» «۱»

، دالّة على القاعدة الثانية والثالثة، ولا تقتصر دلالتها على القاعدة الأُولى.

إنحصار إجابة الدعاء بطلب النبيّ صلى الله عليه و آله منه تعالى ...: ص: ۱۵۹

وذلك لأنّه إذا كان التوسّل والتوجّه بالنبيّ شرط فى التوبة لكلّ من أذنب من هذه الأُمّة، بل اشترط علاوة على ذلك فى قبول التوبة تشفّع وشفاعة الرسول ووساطته، والتوبة من العبد هى الأوبة والإياب والرجوع إلىالساحة الإلهية بتوطين النفس على الطاعة والانقياد وترك التمرّد والإعراض، فماهية التوبة ذاتياً الخضوع العبادى والانقياد القربى، وبالتالى فهذان الشرطان، وهما: التوجّه بالنبيّ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۶۰

وشفاعة النبيّ صلى الله عليه و آله دخيلان فى قبول هذه العبادة؛ إذ توبة اللَّه على العبد التى هى معنى (لوجدوا اللَّه تواباً رحيماً) هو قبول البارى لهذه العبادة وإقباله على العبد بالرحمة وفيض الكمالات والعطاء بالمنح والهبات والفضل العميم والمنّ الكثير.

والأوبة من العبد فى حقيقتها هى حالة وصفة الانقياد السارية فى حقيقة كلّ العبادات؛ لأنّ كلّ عبادة هى نمط من الانقياد والخضوع وقوامها بذلك، فإذا كانت السنّة الإلهية فى الانقياد هى اشتراطه بالتوجّه والتوسّل بالنبيّ صلى الله عليه و آله وليس مجرّد ذلك فقط، بل لابدّ من قيام النبيّ صلى الله عليه و آله بالشفاعة والتشفّع لدى اللَّه فى قبول عبادات أُمّته كى يقبلها البارى.

فلا ـ يكفى الحُسن الذاتى لعبادة العبد وهو ما يعرف بالحسن الفعلى – ولا يكفى ضمّ الحُسن الفاعلى أيضاً وهو انقياد العبد إلى اللَّه وإلى نبيه بالتوجّه إليهما والتوسّل برسوله – بل لابدّ من ضمّ وساطة الرسول وشفاعته وتشفّعه لدى اللَّه فى قبول عبادات أُمّته، والعبادات أعظم أعمال الأُمّة، ولابدّ من تشفّعه صلى الله عليه و آله لدى البارى كى يقبل عبادات وأعمال الأُمّة، وهذا وجه قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ» «۱»

.فوصف تعالى نبيه بالرحمة الواسعة العظيمة الشاملة لكلّ العالمين والعوالم؛ إذ العالم هو اسم جمع، فكيف بجمع الجمع؟ وكيف مع دخول (ال) للاستغراق؟

فمن ثمّ كان صاحب الشفاعة الكبرى والوسيلة العظمى، كما ورد فى روايات الفريقين.

وهو وجه قوله تعالى: «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ» «۲»

، وصلاته على الأُمّة دعاءه وتشفّعه لدى اللَّه فى حق أمته ومثله قوله تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۶۱

أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» «۱»

، فخلع تعالى عليه خلعة ربانية عظيمة، وهى وصفين من الأسماء الحُسنى: الرؤوف والرحيم «۲»، وقال تعالى فى وصفه صلى الله عليه و آله: «أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» «۳»

.فكرّر تعالى فى وصفه صلى الله عليه و آله بأنّه: الرحمة الإلهية والأمان للمؤمنين. وقال: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» «۴»

، فاشترط تعالى لحصول محبّته لعباده اتّباع نبيّه.

حقيقة التوسّل والتوجّه بالنبيّ صلى الله عليه و آله تقديمه أمام التوجّه والطلب من اللَّه تعالى، وهو معنى الوفادة به على اللَّه ...: ص: ۱۶۱

فيُعلم من ذلك أنّ الأُمّة فى وفودها على باريها بعباداتها وأعمالها لابدّ عليها من أن تأتى إلى باب اللَّه الأعظم الذى منه يُؤتى، وهو سيّد أنبياءه، ومع كلّ ذلك لابدّ لكى يعود الربّ تعالى بالرحمة على هذه الأُمّة، ولكى يقبل وفادتها إليه، أن تفد بنبيّها وتقدّمه بين يدى اللَّه، وبعبارة أُخرى: إنّ التوجّه بالشىء لغةً عبارة عن جعله وجهاً وأماما وإماماً، فالتوجّه بالنبيّ عبارة عن جعله الوجه المتقدّم للوفود على

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۶۲

الساحة الربوبية، وكذلك معنى التوسّل بالنبيّ صلى الله عليه و آله لغةً فان معنى الوسيلة هو بالتوجّه إليها أوّلًا ليمهّد ويوطّد ويهيّئ له الوصول إلى الشىء الآخر، وليس معنى التوسّل بالوسيلة الإعراض عن التوجه إليها بالتوجّه مباشرة إلى الغاية والمنتهى؛ فإنّ هذا ترك للأخذ بالوسيلة.

ولابدّ فى كلّ ذلك من أن يشفع لهم النبيّ صلى الله عليه و آله لدى البارى تعالى، ويطلب منه ويسأله فى قضاء حوائجهم، وشفاعته وبابيته ووساطته لا تقتصر على محو ذنوب الأُمّة، بل وكذلك تشمل فى نيل الدرجات والمقامات، بل لا يقتصر ذلك على هذه الأُمّة، بل تعم جميع الأُمم من الأوّلين والآخرين.

وساطة النبيّ وشفاعته فى نيل جميع الأنبياء والمرسلين للنبوّة والمقامات ...: ص: ۱۶۲

بل تعم جميع الأنبياء والمرسلين، كيف لا؟ ولم يعطِ البارى تعالى نبوّة لنبيّ من الأنبياء إلّابعد تسليمهم لولاية النبيّ وطاعته والخضوع له، وأخذ فى ذلك عليهم العهد المغلظ الشديد، ولم يكتفِ بذلك، بل أشهدهم على ذلك، وأشهد عليهم ذاته الأزلية، وهذا مفاد قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» «۱»

، فالميثاق الذى أخذه اللَّه على النبيّين هو على ولما أتاهم من نبوّة وحكمة، وفى مقابل ذلك شرط عليهم وأخذ العهد على أن يؤمنوا ويتدينوا بنبوّة سيد الرسل، وبأن يلتزموا بمناصرته وطاعته وموالاته، ثمّ أخذ تعالى بعد ذلك الميثاق، أخذ الإقرار والالتزام والتعهّد منهم بتلك المشارطة والمعاوضة، ثمّ فى‌المرتبة الثالثة شدّد عليهم عهده، وغلّظ، وبيّن عظمته، ثمّ فى المرتبة الرابعة أشهد عليهم.

فلم يستحصل الأنبياء على النبوّة والكتاب والحكمة فضلًا عن بقية المقامات الغيبية إلّابالموالاة والطاعة والخضوع لسيد الأنبياء، والتوجّه به إلى اللَّه، فشفاعته صلى الله عليه و آله يضطرّ إليها جميع الأنبياء والمرسلين فضلًا عن جميع الأُمم، فنيل

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۶۳

كلّ مقام للأصفياء المصطفين لا يتمّ لهم إلّابالتوجّه إلى باب اللَّه الأعظم، وهو سيد الأنبياء.

ويشير إلى توسّل الأُمم السابقة بسيد الأنبياء ما فى قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» «۱»

، والآية نازلة فى اليهود، حيث كانوا يؤمنون بمجىء خاتم الأنبياء من قبل، وكانوا فى حروبهم مع الكفّار يستفتحون بالنبيّ ويتوسّلون به إلى اللَّه؛ لكى ينزل النصر عليهم، فلمّا جاءهم النبيّ صلى الله عليه و آله الذى يعرفونه وكانوا يتوسّلون به كفروا به، فمفاد الآية أنّ مقتضى الإيمان بخاتم الأنبياء هو الاستفتاح به.

والاستفتاح هو طلب الفتح لكلّ باب من أبواب البركة والنصر والخير والسعادة والنعيم والنصر، وكلّ فوز عظيم وغنم جزيل،

فالاستفتاح ينطوى على معنى طلب الفتح والمفتاح، وقد تقدّم قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ» «۲»

، حيث بينت هذه الآية أنّ الإيمان بآيات اللّه والتصديق والإقبال والتوجّه إليها وتعظيمها هو المفتاح الذى تُفتح به أبواب السموات، أى أنّه الباب الذى يفتح منه كلّ باب، فهو باب الأبواب وباب اللّه الأعظم، وقد أقرّ البارى تعالى استفتاح أهل الكتاب بالنبىّ، وأنّ ذلك من تشريع اللّه لهم فى الديانة التى بعث بها أنبيائهم فى جميع الشرائع السماوية السابقة، أى أنّ التوسّل والتوجّه بسيد الرسل صلى الله عليه و آله كان من الدين الواحد المتّفق الذى بُعث به جميع الأنبياء على اختلاف شرائعهم.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۶۴

كيف لا يكون سيد الأنبياء استفتاح لكلّ شىء بعد اسم اللّه مع أنّ كلّ شىء يستفتح ب (بسم اللّه الرحمن الرحيم)، إلّاأنّ فتح هذا الاستفتاح لابدّ أن يقرن باسم الحبيب المصطفى، فهو صلى الله عليه و آله استفتاح لكلّ خير ولنيل كلّ مقام وفضل وكمال وإسعاد، كيف لا يكون ذلك وقد تقدّم قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ..» «۱»

، إن جميع الأنبياء استأهلوا النبوّة بشرف الإقرار بولاية النبىّ صلى الله عليه و آله وولاية علىّ عليه السلام كما سيأتى.

وقد روى الفريقان: أنّ آدم لمّا اقترف الخطيئة ما كان اللّه ليغفر له لولا توسّله وتوجّهه إليه تعالى بسيد الأنبياء وأهل بيته «۲»، وهى الكلمات التى تلقّاها فى قوله تعالى: «فَتَلَقَّى ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ» «۳»

، بل ورد أنّ هذه الكلمات هى الكلمات التى امتحن بها إبراهيم فأُعطى مقام الإمامة، كما فى قوله تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ..» «۴»

، ويُشاهد أنّ التعبير ورد (بكلمات) لا بكلمه، أى بصيغة الجمع.

وقد تقدّم أنّ الكلمة أُطلقت على النبىّ عيسى، وتصديق مريم بالكلمات أُطلقت على أولياء اللّه الحجج فى مقابل التصديق بكتبه، وأنّ (الكلمة) متطابقة مع (الآية)، وقد أطلقت (الآية) على النبىّ عيسى. فظاهر التعبير بالجمع فى الكلمات التى تلقّاها آدم، والتى قد رويت فى طرق أهل سنّة الجماعة أنّه النبىّ صلى الله عليه و آله-

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۶۵

والجمع يقتضى أنّه سيد الأنبياء، وكذا أهل بيته الذين قُرنوا معه فى آية التطهير وأُشركوا معه فى إرادة الربّ بتطهيرهم، كما قُرنوا معه صلى الله عليه و آله فى احتجاج اللّه بهم على أهل الكتاب، أى أنّهم حجّة للّهعلى أهل الكتاب والأُمم إلى يوم القيامة، كما شهد لهم القرآن بأنّهم يعلمون الكتاب المكنون فى اللوح المحفوظ الذى لا يمسّه إلّا المطهّرون كما ورد فى سورة الواقعة- فهم أصحاب وصف التطهير فى هذه الأمة بتخصيص القرآن.

كما يعطى امتحان إبراهيم بتلك الكلمات أنّ أُولئك الحجج الذين امتُحن بهم النبىّ إبراهيم هم ممّن نال مقام الإمامة بالتوجه بهم إلى اللّه والتصديق والإقرار والتسليم بولايتهم.

وقد مرّت دلالة آية الميثاق على النبيّين أنّهم لم ينالوا مقام النبوّة إلّابالتصديق والتسليم لولاية سيد الأنبياء، كما قد تقدّم فى المقالات السابقة من هذا الفصل أنّ جملة من الآيات القرآنية فى السور المتعدّدة دلّت على أخذ ولاية علىّ عليه السلام فى أُصول الدين الواحد، وهو الإسلام الذى بُعث به جميع الأنبياء من آدم إلى النبىّ عيسى، وإن اختلفت شرائعهم.

ومنها: قوله تعالى: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» «۱»

وهذه الآية وإن خصّها جمع من مفسّرى الفريقين فى الشأن العام السياسى، ولكنّ الصحيح كما بسطنا الكلام فيه فى ما تقدّم- أنّها فى مطلق شؤون الدين؛ إذ طاعة اللّه لا تُحدّ بحدود، بل هى بسعة الدين كلّه، فكذلك طاعة الرسول وأُولى الأمر، لا سيما أنّ الأمر المراد منه هو الأمر المتنزّل فى ليلة القدر، كما فى سورة القدر والدخان والنحل وغافر، وغيرها من السور.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۶۶

معنى شرطية الولاية فى صحّة العبادات ...: ص: ۱۶۶

فالأمر فى (أولى الأمر) عالم الأمر من الملكوت، وكما فى سورة الشورى:

«رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا» «۱»

، فأصحاب وأولياء الأمر هم أصحاب روح القدس الأمرى، هؤلاء طاعتهم بتبع طاعة الرسول، وطاعته صلى الله عليه و آله بتبع طاعة اللَّه تعالى، وهى فى كلّ دائرة الدين، ومنها أبواب العبادات، فكما يتعلّق الأمر الإلهى بالعبادات كالصلاة وغيرها، فكذلك الأمر النبوّى والأمر الولوى قد تعلّق برسم حدود العبادات وأجزاءها وشرائطها، ولذلك فقد اشتملت العبادات على فرائض إلهية وسنن نبوية وسنن ولوية، والقرب العبادى للَّهتعالى فى العبادة وإن لم يذكر فى علم أُصول الفقه لا يتمّ إلّابطاعة الأصناف الثلاثة من الأوامر فى العبادات، فالطاعات الثلاث هى التى تحقق القرب العبادى للَّهتعالى، وهذا بيان آخر لكون التوجّه بهم يحقّق القرب إلى البارى تعالى وبدونه لا يتحقق.

وبعبارة أُخرى، أنّه قد حُرّر فى مبحث التعبّدى والتوصّلى فى علم أُصول الفقه: قوام العبادية فى العبادات بنية القربى، وأنّ نية القربى هى قصد للمسبّب لا تحصل إلّابنية وقصد السبب، وهو قصد امتثال الأمر الإلهى المتعلّق بالصلاة والصوم والحجّ وغيرها من العبادات، حيث إنّ قصد المكلّف كونه ماثلًا أمام الإرادة الإلهية وخاضعاً وطائعاً للأمر الإلهى، يوجب الزلفى والاقتراب من الساحة الإلهية.

وما ذكره علماء الأُصول وإن كان متيناً، إلّاأنّهم لم يستوفوا تمام أطراف البحث، فإنّ العبادات كما قد تعلّق بها الأمر الإلهى ك: (أقيموا الصلاة) و (آتوا الزكاة) و (كتب عليكم الصيام) و (قاتلوا فى سبيل اللَّه) وغيرها من الأوامر الإلهية

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۶۷

المتعلّقة بالعبادات، فكذلك قد تعلّق الأمر النبوىّ بتلك العبادات؛ فإنّ جملة عديدة من أجزاء العبادات إنّما هى سنن نبويّة بأمر منه صلى الله عليه و آله، نظير السبع الركعات التى أمر بها صلى الله عليه و آله فى الفرائض، كما روى ذلك الفريقان، ومن الواضح حينئذٍ، أنّ صحّة الصلاة اليومية مثلًا متوقّفة على امتثال أمر الرسول صلى الله عليه و آله أيضاً.

فقصد امتثال الأمر يعمّ كلّ من أمر اللَّه تعالى وأمر رسوله فى العبادات، والامتثال والطاعة هى شاملة لكلّ من امتثال وطاعة أمر اللَّه وأمر رسوله.

وكذلك الحال لأُولى الأمر المتنزّل فى ليلة القدر، فإنّ جملة غفيرة من الشرائط والموانع وتفاصيل الأجزاء إنّما هى بأوامر أئمّة أهل البيت عليه السلام ومنهاجهم وهديهم، فالعبادة والصلاة والصوم والزكاة وغيرها لابدّ أن يؤتى بها على صورة منهاجهم وهديهم وطريقتهم، وذلك بامتثال أوامرهم المتعلّقة بالعبادات.

فيتّضح بذلك أنّ قصد الأمر المحقّق لنية القربى فى العبادات الذى ذكره علماء الفقه والأُصول لابدّ أن يعمّ الأوامر الثلاثة، وأنّ الامتثال والطاعة فى عبادية العبادة هى لكلّ من أمر اللَّه وأمر رسوله وأمر أولياء أمره.

وبذلك تتحقّق العبادة الخالصة للَّهتعالى وحده من دون استكبار النفس، وهو الذى أخفق فيه إبليس اللعين حينما ترك التوجّه بآدم فى العبادة. ويتّضح عموم آية الطاعة للعبادات ولدائرة الدين، وأنّ هذا المعنى قراءة جديدة لمعنى أخذ ولايتهم عليهم السلام فى صحّة العبادات.

ثمّ إنّه قد اتّفقت كلمات فقهاء الإمامية على رجحان دعاء التوجّه قبل تكبيرة الإحرام فى الصلاة، بل جملة كلمات المتقدّمين والمتأخّرين على رجحانه بعد تكبيرة الإحرام قبل قراءة الحمد، وهى فتوى بالنصّ المأثور «وجّهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض، على ملّة إبراهيم ودين محمّد صلى الله عليه و آله ومنهاج علىّ، حنيفاً مسلماً

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۶۸

وما أنا من المشركين» «۱»

.وفى النصّ الآخر بعد ومنهاج علىّ «والائتمام بآل محمّد حنيفاً مسلماً» «۲»

.وفى بعض النصوص «وهدى علىّ أمير المؤمنين عليه السلام» «۳»

.وفى مصباح المتهجّد للشيخ الطوسى: «اللهمّ ربّ هذه الدعوة التامّة والصلاة القائمة بلّغ محمّداً صلى الله عليه و آله الدرجة والوسيلة والفضل والفضيلة، باللّه استفتح وباللّه أستنجح، وبمحمّد رسول اللّه صلى الله عليه و آله أتوجّه، اللهم صلّى على محمّد وآل محمّد، واجعلنى بهم عندك وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقرّبين» «۴».

وقد اتّفقت أيضاً- كلمة جمهور مذاهب المسلمين على رجحان التسليم على النبىّ صلى الله عليه و آله بلفظ: «السلام عليك أيّها النبىّ ورحمة اللّه وبركاته» وذلك قبل التسليم المُخرِج من الصلاة، أى أنّ التسليم على النبىّ صلى الله عليه و آله يأتى به المصلّى ولمّا يخرج بعد من الصلاة.

ومؤدّى هذا التسليم من المصلّى وهو فى صلاته أنّه زيارة من المصلّى إلى النبىّ صلى الله عليه و آله من كلّ الأُمّة، من كلّ مؤمن ومسلم، فى اليوم خمس مرّات، بل فى كلّ صلاة يأتى بها، كما أنّ هذه الزيارة والتسليم للنبىّ ينطوى على مخاطبة النبىّ ب (كاف) الخطاب، كما ينطوى على نداء النبىّ ومخاطبته صلى الله عليه و آله ب (ياء) النداء القريب:

«أيّها».

وهذا كلّه من التسليم والزيارة للنبىّ صلى الله عليه و آله ومخاطبته بالنداء القريب والمصلّى فى صلاته ونجواه لربّه وخطابه مع بارئه، ففى محضر الوفادة الربانية والضيافة

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۶۹

الإلهية يتوجّه المصلّى بالالتفات لنبيّه؛ إذ هو باب اللّه الأعظم، فكما بدأ صلاته بالإقرار بالرسالة للنبىّ صلى الله عليه و آله بعد الإقرار بالتوحيد فى الأذان والإقامة وتوجّه به فى بدو الصلاة، عاود التوجّه إليه وبه إلى اللّه، فهذه الصلاة التى هى عمود الدين ومعراج المؤمن إلى ربّه ونجواه مع خالقه يزدلف إلى ربّه بالولاية لنبيّه والتعظيم له وتوقيره.

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۱»

، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَاتَشْعُرُونَ* إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ* إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ» «۲»

.فترى ما أوجب تعالى من التعظيم والمهابة لنبيّه أن افترض عدّة من السنن والآداب والخضوع فى محضر النبىّ، جعل جزاء الإختلال بها ولو كرفع الصوت- حبط جميع الأعمال، وأنّ تعظيم النبىّ وإجلاله هو من تقوى القلوب، وأنّ الذين يستخفّون بمقام النبىّ ليس لهم شعور ولا عقل، أى من زمرة البهائم.

وكلّ هذا التعظيم الإلهى بمراسم ورسوم فى سنن الآداب الإلهية لنبيّه لم يرد فى حقّ نبىّ من الأنبياء، فهذا المحلّ من القدس من البارى هداية منه تعالى إلى الباب الذى منه يُؤتى، وجعل تعالى الصدّ عن هذا الباب الأعظم وعن الالتجاء إليه

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۷۰

من صفات المنافقين، حيث قال: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ» «۱»

.كما قرن تعالى رضاه برضى رسوله، فقال: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ» «۲»

، فجعل باب رضاه رضى رسوله، كما قرن حبّه بحبّ رسوله، فقال: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» «۳»

، فجعل محبّة الرسول باب لمحبّته، فلم يقتصر تعالى على حبّ العبد له، ولا على مجرّد حبّ الأعمال الصالحة، بل اشترط أن يُقرن بحبّ الرسول، كما اشترط في الهجرة إلى اللَّه الهجرة إلى الرسول، فقال تعالى: «وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» «۴»

، فجعل باب الهجرة إليه تعالى بابها الهجرة إلى الرسول والهجرة سفر وقصد وتوجّه.

والتوجّه بالنبيّ صلى الله عليه و آله شرط زائد على شرطية الإيمان به، كما مرّ في قوله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا» «... ۵»

، هو الإقرار بولاية النبيّ والإخبات والخضوع لها، إذ الولاية مجموع كلّ من التصديق والطاعة، حيث تضمن الميثاق على النبيّين، «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ» «۶»

، وقد عُبّر عن الاستفتاح به صلى الله عليه و آله أيضاً بقوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ» «۷»

أي أنّه صلى الله عليه و آله يستمطر به كلّ رحمة لكلّ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۷۱

عالم من العوالم والنشآت، فهو باب اللَّه الأعظم الذي تجري منه الرحمة الإلهية، وقد قرن اللَّه تعالى ولايته بولايته، فقيّد جلّ آيات الأمر بطاعة اللَّه بطاعة النبيّ صلى الله عليه و آله، فجعل التمرّد على ولاية النبيّ صلى الله عليه و آله عين التمرّد على ولاية اللَّه وطاعته.

كما قرن طاعته وطاعة رسوله بطاعة أُولي الأمر، حيث قال تعالى: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» «۱»

، فجعل باب النبيّ هو أهل بيته، وباب طاعة النبيّ طاعة أهل بيته، وباب حبّ النبيّ صلى الله عليه و آله حبّ أهل بيته، وباب الهجرة إلى النبيّ الهجرة إلى أهل بيته، وباب رضا النبيّ رضا أهل بيته، وقد أوضح أصحاب هذا الأمر أنّهم الذين يتنزّل عليهم الأمر في ليلة القدر في كلّ عام إلى يوم القيامة، حيث قال تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» «۲»

وقال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ* رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» «۳»

، وقال تعالى: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» «۴»

.فالأمر هذا هو روح القدس، وأصحابه هم الذين يتنزّل عليهم هذا الروح في ليلة القدر، كما سيأتي تفصيله في الفصل السابع. وأنّهم أصحاب علم الكتاب المطهّرون في هذه الأُمّة بشهادة آية التطهير وهم أهل البيت عليهم السلام.

فقرن طاعتهم عليهم السلام بطاعته صلى الله عليه و آله، وولايتهم عليهم السلام بولايته صلى الله عليه و آله، يقتضي إرادتهم من لفظ الآيات في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۷۲

أَبْوَابُ السَّمَاءِ» «... ۱»

.تبيّن ممّا مرّ أنّ التصديق بالآيات والتوجّه والخضوع لها عبارة عن التسليم لولايتهم؛ لأنّ مقتضى كلّ من كون التسليم لولاية الآيات مفتاح أبواب السماء، مع جعل النبيّ استفتاحاً في شرائع الأنبياء يُستفتح به، وإطلاق الآية على النبيّ عيسى هذه الأُمور الثلاثة وغيرها من

الشواهد المتقدمة نظير ما مرّ من أن الآية التى يصدق بها هو صاحب المنصب إلالهى الذى يخبر عن اللّه تعالى، لا الآية التكوينية فإنّه التعبير عنها ورد وهم عنها غافلون، وكذا ما تقدّم من اطلاق الكلمات على النبىّ وأهل بيته، كلّ ذلك يقتضى إرادة سيد الأنبياء من تلك الآيات وولاية أهل بيته الذين قرنت ولايتهم بولايته، وأنّ أهل البيت هم الباب لسيد الأنبياء.

وقد ورد فى أحاديث الفريقين أنّ علياً باب مدينة الرسول: «أنا مدينة العلم وعلىّ بابها» «۲»

، وقد نزّلت آية المباهلة علياً بمنزلة نفس النبىّ صلى الله عليه و آله، ذلك فى قوله تعالى: «وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ» «۳»

.فحقيقة الطاعة للرسول وأُولى الأمر الخضوع والتسليم والانقياد والتعظيم له ولهم سلام اللّه عليهم، وقد تقدّم أنّ الكلمات التى تلقّاها آدم من نصوص الفريقين منها اسم النبىّ صلى الله عليه و آله.

فيتبيّن من ذلك أنّ هناك أسماء أُخرى توجّه بها آدم ليتوب اللّه بها عليه، كذلك فى الكلمات التى امتحن بها إبراهيم لنيل مقام الإمامة، الامتحان كان بكلمات، لا بكلمة واحدة، وأنّ هناك جناس فى لفظ (الكلمات) فى قصّة آدم وإبراهيم عليهما السلام، فهناك أسماء مقرونة مع اسم النبىّ، وولايتها مقرونة بولاية النبىّ صلى الله عليه و آله، فعسى من تكون تلك الأسماء غير أهل بيته الذين قُرنوا به فى جملة المقامات الإلهية، كآية

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۷۳

الطاعة والولاية، وآية التطهير، وآية الاحتجاج فى المباهلة، وآية شهادة الأعمال فى قوله تعالى: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» «۱»

، فهؤلاء الشهداء على جميع الناس هم من نسل إبراهيم وعلى ملّة أبيهم إبراهيم، وقُرنوا مع النبىّ فى الشهادة، إلّاأنّ النبىّ شاهد عليهم. وهم الذرّية كما دعا إبراهيم ربّه أن تكون الإمامة فى ذرّيته: «إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» «۲»

، فهم المقصودون من قوله تعالى: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» «۳»

، فيتوجّه بهم إلى رسول اللّه وإلى اللّه تعالى، كما يتوجّه بالرسول إلى اللّه، وقد قال تعالى: «قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى» «۴»

، وقال تعالى: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ» «۵»

، وقال تعالى: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» «۶»

.فبيّن تعالى أنّ مودّتهم وتولّيهم وولايتهم نفعها عائد إلى الأُمّة نفسها؛ وذلك لأنّ مودّة وولاية أهل البيت السبيل والوسيلة إلى اللّه تعالى، فهذه الآيات بمنزلة مفاد آية الوسيلة مع تعيين لهوية الوسيلة، ومن ثمّ ورد فى الزيارة الجامعة: «ومن وحّده قبل عنكم، ومن قصده توجّه بكم» «۷»

وهذه الفقرة إشارة إلى القواعد الثلاثة.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۷۵

بقاء جميع الكتب السماوية بهم عليهم السلام دعاته تعالى إلى كتبه ... ص: ۱۷۵

إنّ إحدى مقاماتهم عليهم السلام فى الديانة الإلهية هو كونهم دعاة اللّه إلى جميع كتبه وصحفه السماوية المُنزّلة، وهم حفظة تلك الودائع؛ إذ قد تبيّن من المقالة السابقة «۱»: إنّ الدين عند اللّه واحد وهو الإسلام «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» «۲»

، وهو الذى بُعث به جميع الأنبياء والرسل من آدم عليه السلام إلى النبىّ الخاتم صلى الله عليه و آله، وإنّ الاختلاف بين بعثات الأنبياء إنّما هو فى الشرائع، حيث قال تعالى: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» «۳».

والدين عبارة عن مجموعة من العقائد الحقّة وأركان الفروع وأُصول الواجبات والمحرّمات. وأمّا الشريعة، فهى تفاصيل التشريعات

الفرعيـة. وإذا تبيّنت هـذه النقطـة تبيّن لک أنّ الصـحف والکتب السـماوية المنزّلة بما أنّ جملة وعمدة ما اشـتملت عليه هو فی العقائد وأرکان الفروع وشطر يسير منها فی الشريعة وتفاصيل الفروع.

فيتبيّن من ذلک أنّ الجملـة الغالبـة ممّا اشـتملت عليه تلک الکتب غير منسوخ بل ثابت وماضٍ إلی يوم القيامـة؛ لأنّه لا نسخ فی الدين ودائرته وهو الإسلام، وإنّما

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۷۶

النسـخ فی شـرائع الأنبياء السابقين، وبالتالی يلزم الإيمان والتصـديق بتلک الکتب والتقيّد بما فيها ممّا کان من دائرة الدين، لا من دائرة الشريعة المنسوخة، کما قال تعالی: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ کُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِکَتِهِ وَکُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» «۱»

، قـال تعـالی: «يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا آمِنُوا بِـاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْکِتَـابِ الَّذِی نَزَّلَ عَلَی رَسُولِهِ وَالْکِتَـابِ الَّذِی أَنْزَلَ مِنْ قَبْـلُ وَمَنْ يَکْفُرْ بِـاللَّهِ وَمَلَائِکَتِهِ وَکُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» «۲».

لکن لا النُّسَخ المحرّفة عند أتباع وأُمم الأنبياء، بل النُّسَخ المصونة عن التحريف المُودعة کمواريث عند الأوصـياء وهـم أهل بيت النبوّة عليهم السـلام، کما سـيتبيّن من الآيات الآتيـة، ومن ثمّ يتجلّی بقاء قدسـية الکتب والصـحف السـماوية غير المحرّفـة لوحدة الدين عند أصحاب الکتب، وهم الأنبياء والرسل المبعوثون بها.

غايـة الأمر أنّ بين الکتب السـماوية تمايز من جهة أُخری، وهو أنّ المعارف العقائدية فی کلّ کتاب دائرتها بحسب مقام ودرجة ذلک النبیّ، قال تعالی: «تِلْکَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَی بَعْضٍ» «۳»

، وقال تعالی: «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَی بَعْضٍ» «۴»

، وقال تعالی: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْکَ الْکِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْکِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ» «۵»

، فالعقائـد والمعارف الواردة فی الکتب الإلهيـة وإن لم يکن فيها تبـدّل أو تغيير، ولا هی قابلة للنسخ، إلّاأنّ کلّ نبیّ وکلّ کتاب يُبعث به يمتاز عن الآخر فی سعة ما يُنبئهُ وضيقه وعمقه وتوسّطه، بحسب مقام ذلک النبیّ ودرجة کتابه الذی تلقّاه عن اللَّه تعالی.

فخاتم الأنبياء حيث کان سيدهم کان کتابه أُمّ الکتب الإلهية والجامع لما فيها

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۷۷

والمهيمن عليها، إلّاأنّ کلّ ذلک لا يسلب ولا يفقـد الکتب الإلهيـة غير المحرّفـة الأُخری قدسـيتها وحقانيتها ولا درجات مواقعها التی هی فيهـا، ومن ثمّ نجـد إشـادة القرآن الکريم ومـديحه لها، کما قال تعالی: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَکَّی* وَذَکَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَـلَّی* بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَی* إِنَّ هَذَا لَفِی الصُّحُفِ الْأُولَی* صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَی» «۱»

، وقال تعالی: «وَکَيْفَ يُحَکِّمُونَکَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُکْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِکَ وَمَا أُولَئِکَ بِالْمُؤْمِنِينَ* إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًی وَنُورٌ يَحْکُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ کِتَابِ اللَّهِ وَکَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِی ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْکُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِکَ هُمُ الْکَافِرُونَ» «۲»

، وقال تعالی فی سياق ما سبق: «وَقَفَّيْنَا عَلَی آثَارِهِمْ بِعِيسَـی ابْنِ مَرْيَمَ مُصَـدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَـدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُـدًی وَنُورٌ وَمُصَـدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًی وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ* وَلْيَحْکُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْکُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِکَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ* وَأَنْزَلْنَا إِلَيْکَ الْکِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَـدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَـدَيْهِ مِنَ الْکِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْکُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَکَ مِنَ الْحَقِّ لِکُلٍّ جَعَلْنَا مِنْکُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» «۳»

، وقال تعالی: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» «... ۴»

، «قُـلْ يَـا أَهْلَ الْکِتَابِ لَسْـتُمْ عَلَی شَـیْءٍ حَتَّی تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ وَلَيَزِيـدَنَّ کَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ

رَبِّکَ» «۵»

، وقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۷۸

وَالْقُرْآنِ» «۱»

...وغيرها من الآيات.

ومع هذه الموقعية للكتب والصحف المنزلة السابقة، وتأكيد البارى تعالى على الإيمان بها، فلا يمكن أن تذهب سدى أدراج الرياح، بل لابدّ أن تكون محفوظة مودعة عند من أودع علم القرآن عندهم، حيث إنّ الكتب والصحف المنزلة السابقة كلّها كأجزاء متنزّلة من الكتاب المبين الذى هو أصل حقيقة القرآن، وقد أسند القرآن الكريم علم الكتاب كلّه والكتاب المبين إلى أهل البيت المطهّرين.

فها هنا نقطتان لابدّ من بيانهما:

الأُولى: كون الكتب والصحف المنزلة السابقة هى أبعاض وأجزاء متنزّلة من الكتاب المبين المكنون، فقد قال تعالى فى شأن موسى عليه السلام: «وَإِذْ ءاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» «۲»

، وقال تعالى فى شأن عيسى عليه السلام: «وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ» «۳»

، وقال تعالى فى شأن عموم الأنبياء: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ» «۴»

، فجعل الكتاب مقابل الفرقان والتوراة والإنجيل، وكذلك فى مقابل الحُكْم والنبوّة، مع أنّ عنوان الكتاب قد أُطلق على التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب المنزلة، كما قال تعالى: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ» «۵»

، وقال تعالى:

«ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه» «۶».

ولقد أُطلق على أتباع موسى وعيسى عنوان أهل الكتاب وعنوان الذين أُوتوا

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۷۹

الكتاب كراراً فى مواضع كثيرة فى السور القرآنية، والذى أوتوه هو التوراة والإنجيل، فأُطلق اسم الكتاب عليهما، نظير ذلك قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ» «۱»

، وفى مواضع أُخرى من القرآن قد وصف الفرقان أو التوراة أو الإنجيل بأنّه بعض الكتاب لا ـ كلّه، كما فى قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا» «۲».

وكرّر هذا التعبير فى سورة النساء مرّتين «۳»، ووصفت التوراة فى قوله تعالى:

«وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» «۴»

، فلم يكتب فيها كلّ شىء، بل من كلّ شىء، وقال تعالى عن وصى سليمان آصف بن برخيا: «قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» «۵»

، فوصف علمه الذى ورثه من سليمان بأنّه علم من بعض الكتاب.

وقال تعالى فى شأن الإنجيل وعيسى عليه السلام: «قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» «۶»

، أنّ فيه بيان بعض ما يختلف فيه بنو إسرائيل، لا بيان كلّ ما يختلفون فيه، مع أنّ القرآن قد وصف بأنّه بيان لكلّ شىء، فقال تعالى:

«وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكَلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» «۷».

فتحصّل أنّ الكتب والصحف المتنزّلة السابقة وإن كانت هى من الكتاب، إلّا أنّها أبعاض وأجزاء له لاتمامه، بخلاف القرآن الكريم حيث يقول البارى:

«وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ»، وقال تعالى: «وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۸۰

الْعَالَمِينَ» «۱».

والكتاب والكتاب المبين والكتاب المكنون هو وجود علوى غيبى قد وصف بأوصاف عديدة، كما فى قوله: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» «۲»

، فالقرآن النازل هو تنزيل للكتاب المبين، وقال تعالى: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» «۳»

، فالقرآن المتنزّل فى الصورة العربية هو إنزال للكتاب المبين، والقرآن له وجود علوى الذى هو أُمّ الكتاب.

قال تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «۴»

، فوصف القرآن بوجود علوى فى الكتاب المكنون، وأنّ القرآن النازل هو تنزيل لذلك الوجود العلوى، وقال تعالى: «طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ» «۵»

، وقال تعالى: «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ» «۶»

، وقال تعالى ...: «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۷»

، وقال تعالى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۸».

النقطة الثانية: بيّن تعالى فى القرآن الكريم أنّ أهل البيت عليهم السلام يمسُّون الكتاب المكنون كما مرّ فى الآية فى سورة الواقعة؛ إذ هم أهل آية التطهير المطهّرون دون سائر الأُمّة، وفرقٌ بين المطهّر ذاتاً وخلقةً والمتطهّر بالوضوء

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۸۱

والغسل. وكذا أشار إليه تعالى فى سورة الرعد: «كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» «۱»

، وهى السورة المكّية التى نزلت فى علىّ، وكذا قوله تعالى:

«بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» «۲»

، وقال تعالى: «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ» «۳»

، فبيّن تعالى أنّ فى هذه الأُمّة ثلّة تعلم تأويل الكتاب كلّه؛ لعلمهم بمحكمات الكتاب التى هى أُمّ الكتاب، فيعلمون أُمّ الكتاب فضلًا عن الكتاب المبين، والقرآن بتمامه آيات بيّنات فى صدورهم، فلا يشكل عليهم شىء منه، ولا يكون شىء منه متشابهاً عليهم، ولأجل ذلك يعلمون الذى تشابه على غيرهم من الكتاب، وهو لديهم بيّن.

وقد دلّت سور الرعد والأحزاب والواقعة على أنّ أهل بيت النبوّة هم المطهّرون الذين يمسّون الكتاب المكنون الذى هو حقيقة القرآن العلوية، وهو الكتاب المبين، فمن ثمّ لديهم علم الكتاب كلّه لا علم بعض من الكتاب، كما أشارت إلى ذلك سورة الرعد النازلة فى على عليه السلام، وغيرها.

وإذا تبيّنت هاتـان النقطتـان، يتبيّن أنّ أهـل بيت النبوّة حيث يحيطون بالكتـاب والكتـاب المبين علمـاً، فهم يحيطون علمـاً بكـلّ الكتب والصـحف المنزلـة السابقـة، وهـم حفظتهـا، فهـم الـدعاة إلى كتب اللَّه المنزلـة، كما جاء فى الزيارة الجامعـة التى رواها ابن طاووس فى مصـباح الزائر: «أشـهدُ أنكم أبواب اللَّه ومفاتيـح رحمته ومقاليـد مغفرته وسـحائب رضوانه ومصابيـح جنانه وحملـة فرقانه وخزنة علمه وحفظة سرّه

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۸۲

ومهبـط وحيه، وعنـدكم أمانـات النبوّة وودائع الرسالـة، أنتم أُمنـاء اللَّه وأحبّاؤه وعباده وأصـفياءه، وأنصار توحيـده، وأركان تمجيـده، ودعاته إلى كتبه، وحرسة خلائقه وحفظة ودائعه».

وفى زيارة الإمام الكاظم عليه السلام ...: «وحامل التوراة والإنجيل»....

وقال أمير المؤمنين عليه السـلام فى نهج البلاغة فى صفة آل محمّد: «هم موضع سرّه ولجأ أمره وعيبة علمه وموئل حكمه وكهف كتبه وجبال دينه».

وفى صـحيح هشـام بن الحكم فى حـديث بريه: «أنّه لمّـا جاء معه إلى أبى عبـداللَّه عليه السـلام فلقى أبا الحسن موسـى بن جعفر عليه السلام، فحكى له هشام الحكاية، فلمّا فرغ قال أبو الحسن عليه السلام لبريه: يا بريه كيف علمك بكتاب اللَّه؟ قال: أنا به عالم. ثمّ قال: كيف ثقتك بتأويله؟ قال: ما أوثقنى بعلمى فيه. قال: فابتدأ أبو الحسن عليه السلام يقرأ الإنجيل. فقال بريه:

إياك كنت أطلب منذ خمسين سنة أو مثلك ... قال أبو عبداللَّه عليه السـلام: ذرّية بعضها من بعض واللَّه سميع عليم. فقال بريه: أنّى لكم التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء؟ قال: هى عنـدنا وراثة من عندهم نقرؤها كما قرؤوها ونقولها كما قالوا، إنّ اللَّه لا يجعل حجّة فى أرضه يُسئل عن شيء فيقول لا أعلم» «۱».

وينبّهنا إلى ما تقـدّم من الآيات ونسق الارتباط فى دلالتها الموصل إلى تلك النتيجـة ما رواه الشـيخ المفيد فى الاختصاص، من مسائل عبداللَّه بن سلام للنبىّ صلى الله عليه و آله ...: «صدقت يا محمّد فاخبرنى إلى ما تدعو؟ قال: إلى الإسلام والإيمان باللَّه.

قال: وما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلّااللَّه وحده لا شريك له ... قال: وما دين اللَّه؟ قال:

الإسلام. قال: وبه دان النبيّون من قبلك؟ قال: نعم. قال: فالشرائع؟ قال: كانت مختلفة وقد مضت سنّة الأوّلين. قال: صدقت» «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۸۳

والرواية صـريحة بأنّ الدين واحد، من آدم عليه السـلام إلى النبىّ الخاتم صـلى الله عليه و آله، وأنّما التغاير فى الشـرائع والمنهاج وهى تفاصـيل الفروع، كمـا أنّهـا تشير إلى أنّ الشـهادتين همـا من أُمّهات أُصول الديانـة الإسـلامية التى بُعث بها الأنبياء، وأنّ الإقرار بخاتم النبيّين يتلو التوحيـد فى أُصول الديانـة الواحدة بين النبيّين، والترتيب فى أُصول الدين لا يختلف ولا يتخلّف بين نبىّ وآخر؛ لأنّ الدين واحد كمااتّضح.

وأُصول المعرفـة الدينية ليست إلّاحقائق واقعية يؤمن بها الإنسان، بل يجب أن يؤمن بها؛ فسلسـلة مراتب أُصول الديانة تنبئ عن موقعية كلّ أصل وأهمّيته وخطورته فى الدين الواحد. فمن ثمّ الترتيب فى أُصول دين الإسـلام الذى بُعث به خاتم النبيّين هو بعينه قد بُعث به جميع الأنبياء والمرسـلين، ومن ثمّ فسيادة خاتم النبيّين على الرسل أصل إيمانى فى الـدين الواحـد قـد أُخـذ الإقرار به فى الدين الذى بُعث به جميع الأنبيـاء، كما يشير إلى هـذه الحقيقـة قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَـةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» «۱».

وفى رواية عبد الحميد بن أبى الديلم، عن أبى عبداللَّه عليه السـلام قال: «أوصـى موسى عليه السلام إلى يوشع بن نون، وأوصى يوشع بن نون إلى ولـد هـارون، ولم يوصِ إلى ولـده، ولا إلى ولـد موسـى؛ إنّ اللَّه تعالى له الخيرة يختار من يشاء ممّن يشاء. وبشّر موسـى

ويوشع بالمسيح عليهم السلام.

فلمّا أن بعث اللَّه عزّوجلّ المسيح عليه السلام قال المسيح لهم: إنّه سوف يأتى من بعدى نبىّ اسمه أحمد، من ولد إسماعيل عليه السلام، يجيء بتصديقى وتصديقكم وعذرى وعذركم،

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۸۴

وجرت من بعده فى الحواريين فى المستحفظين، وإنّما سمّاهم اللَّه المستحفظين؛ لأنّهم استحفظوا الاسم الأكبر، وهو الكتاب الذى يُعلم به علم كلّ شيء، الذى كان مع الأنبياء صلوات اللَّه عليهم، يقول اللَّه تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ» «... ۱ ...»، «وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ» «۲».

الكتاب: الاسم الأكبر، وإنّما عُرف ممّا يُدعى الكتاب التوراة والإنجيل والفرقان، فيها كتاب نوح وفيها كتاب صالح وشعيب وإبراهيم عليهم السلام، فأخبر اللَّه عزّوجلّ: «إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى* صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى» «۳»

، فأين صحف إبراهيم؟ إنّما صحف إبراهيم الاسم الأكبر، وصحف موسى الاسم الأكبر، فلم تزل الوصية فى عالم بعد عالم حتّى دفعوها إلى محمّد صلى الله عليه و آله..» «۴».

وفى الرواية دلالة واضحة على أنّ الكتاب العلوى ذا الوجود الغيبى الذى هو الاسم الأكبر، يتوفّر على جميع الكتب السماوية المنزلة، وأنّها متنزّلة منه، غاية الأمر أنّ إحاطة كلّ نبى وأوصيائه تختلف عن إحاطة النبىّ الآخر وأوصيائه، ومن ثمّ اختلفت الكتب المنزلة عليهم، وحيث كانت إحاطة الرسول الخاتم صلى الله عليه و آله أتمّ إحاطة بالكتاب المبين والكتاب المكنون، كان الكتاب المنزل على النبىّ صلى الله عليه و آله هو الكتاب المهيمن على جميع الكتب، ففى جملة من الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ عيسى بن مريم عليه السلام أُعطى حرفين كان يعمل بهما، وأُعطى موسى أربعة أحرف، وأُعطى إبراهيم ثمانية أحرف، وأُعطى نوح خمسة عشر حرفاً، وأُعطى آدم عليه السلام خمسة وعشرين حرفاً، وإنّ اللَّه تعالى جمع ذلك كلّه لمحمّد صلى الله عليه و آله، وإنّ اسم اللَّه الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً، أُعطى لمحمّد صلى الله عليه و آله اثنين وسبعين حرفاً وحُجب عنه حرف

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۸۵

واحد» «۱».

ومن كلّ ما تقدّم يظهر: شطط ما قيل: «كان مذهب جماهير السلف والأئمّة أنّ شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ومن حكم بالشرع المنسوخ فلم يحكم بما أنزل اللَّه فى القرآن وفيه الناسخ والمنسوخ، فهكذا القول فى جنس الكتب، قال تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ... مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» «۲»» «۳».

حيث لم يفرّق بين دائرة الدين الواحد الذى بُعث به جميع الأنبياء والذى لا نسخ فيه بل تكامل وزيادة بيان، وبين الشريعة والمنهاج الذى هو محلّ النسخ، وتخيل أنّ ما تضمّنته الكتب السماوية المنزلة يقتصر على الشريعة، فهل التوحيد الذى تضمّنته الكتب السماوية قابل للنسخ؟ وكيف حال المعاد كذلك، وكذلك نبوّة الأنبياء؟ مضافاً إلى ما بشّرت به بنبوّة الخاتم صلى الله عليه و آله، وما أنبئت به من الآخرة والجنّة والنار والعوالم ومطلق المعارف الاعتقادية، هل هو قابل للنسخ؟!

لكن لا عجب فى الوقوع فى مثل هذا الخلط لمن ترك التمسّك بالثقلين اللذين أمر بهما النبىّ صلى الله عليه و آله، ولا يخفى أنّ هذا القائل قد أسقط فى استشهاده تمام الآية؛ لأنّه مناقض لدعواه، إذ لفظها: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا»، فأسقط وصف «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ»، وليس فى الآية لكلّ منكم جعلنا ديناً، بل قال تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» «۴»

، فلاحظ ما تقدّم فى صدر المقالة.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۸۷

العصمة النوعية الولاية والإمامة النوعية ... ص: ۱۸۷

اشارة

المعروف لـدى مذاهب الصوفية القول بالإمامة النوعية، سواء على صـعيد المقام الباطنى وهى الإمامة الملكوتية، أو على صـعيد الإمامة فى مقام الظاهر وهى الإمامة السياسـية، ويسـتدلّون لكون الولاية المطلقة نوعية لعموم أفراد الحقيقة الإنسانية، وكون الباب مفتوحاً لكلّ سالـك واصـل، أنّه يؤهّـل لمقـام الخلافـة العظمى الإلهيـة إذا طوى منـازل السـائرين إلى اللَّه، ويسـتدلّون لـذلك بوجوه نقليـة وعقلية وكشفية:

أمّا النقلية فبالعمومات الواردة فى الكتاب والسنّة، مثل قوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ ويُعلّمُكُمُ اللَّهُ» «۱»

، وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا» «۲»

، وقوله تعالى: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» «۳»

، وقوله تعالى: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمحْسِنِينَ» «۴»

، وقوله تعالى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» «۵».

ومن السنّة قوله صلى الله عليه و آله: «اتّقوا فراسة المؤمن؛ فإنّه ينظر بنور اللَّه» «۶»

. وما ورد فى الحديث: «إنّ اللَّه جلّ جلاله قال: ما يتقرّب إلىّ عبد من عبادى بشىء أحبّ إلىّ ممّا

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۸۸

افترضتُ عليه، وأنّه ليتقرّب إلىّ بالنافلة حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سـمعه الذى يسـمع به وبصـره الذى يبصـر به ولسانه الذى ينطق به ويده التى يبطش بها، إن دعانى أجبته وإن سألنى أعطيته» «۱».

وكذلك حديث قرب الفرائض..

وكذلك قوله صلى الله عليه و آله: «من أخلص للَّهأربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» «۲».

فكـلّ هـذه الآيـات والأحاديث دالّـة على أنّ أبواب السـلوك والسير والمقامات مفتوحـة لجميع أفراد البشـرية، كمقام الإحسان ومقام التقوى وباب الحكمة والعلم والفرقان، وغيرها من أبواب ولاية اللَّه، فمن أدّى الفرائض وأقامها بحدّها كان عين اللَّه وسـمع اللَّه وجنب اللَّه ولسـان اللَّه ... فضـلًا عن مقـام قرب النوافل، بـل يسـتطيع الوصول إلى مقام الخلافـة الإلهيـة العظمى فيكون خليفـة اللَّه فى أرضـه وصاحب الولاية المطلقة.

أمّـا الـدليل العقلى: فلأنّ العقل لا يحيل وقوع الكمالات الممكنـة للماهيـة الإنسانيـة فى أىّ فرد من أفرادها بعـد إمكان توفّر الشـرائط الحاصلة بالإرادة الاختيارية، وأنّ فيض الذات الأزلية على استواء مع الذوات القابلة الإمكانية.

أمّا دليل الكشف فيُقرّر بوجوه:

منهـا: فلأنّ الأسـماء الإلهيـة تطلب الظهور من خلال مظاهر ومجالى، وقـد قُرّر فى محلّه أنّ مجمع الأسـماء هو الحقيقـة الإنسانيـة، وهو مظهر الاسم الجامع وصراط الحقيقة الإنسانية، هو السبيل لظهور جميع الكمالات الأسمائية، ومن ثمّ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۸۹

استحقّ أن يكون خليفة دون بقية الممكنات.

ومنها: إنّ كلّ موجود له إضافـة من الجهـة التى تلى الربّ، كما قيل إنّ الطرق إلى اللَّه بعدد أنفاس الخلائق، فكلّ ممكن وإن كان فى

سلسلة التجلّيات والظهورات والصدور والإفاضة يتوسّط بينه وبين الذات الربوبية الوسائط الإمكانية، إلّاأنّ هذا من الجهة التى تلى الخلق، لا ـ من الجهة التى تلى الربّ، فلكلّ موجود ظهر وبطن، وظهره وإن كان محجوباً بوسائط إلّاأنّ بطنه لا ـ حجاب بينه وبين الواجب.

وأمّا مذهب الإمامية فإنّ عقيدتهم أنّ الإمامة محصورة فى العدد الاثنى عشر، والولاية المطلقة محصورة بهم بعد خاتم النبيّين، وكذلك الخلافة الإلهية، استدلّوا على ذلك بالنصوص المتظافرة القرآنية والأحاديث النبوية، وملأوا فى ذلك أسفاراً من الكتب.

إلّا أنّنا نذكر نبذة ممّا له صلة خاصّة فى المقام ممّا نُصّ فيه على أنّ هذه المقامات الخاصّة الإلهية ليست كسبية فى دار الدنيا وغيرها من النشآت، بل هى وهبية اصطفائية فى هذه الدار، وأنّها محصورة بذلك العدد.

أمّا الدليل النقلى، كقوله تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» «۱»

، فدلّت الآية كما بسّط ذلك علماء الإمامية فى كتب التفسير والكلام- أنّ الذى تقع منه المعصية ظالم لنفسه فى بدء كتابة التكليف عليه أو فى طول عمره ونهايته، لا يتأهّل لإعطاء الإمامة ولا تكون له قابلية لنيل هذا العهد الإلهى، فلابدّ أن تكون ذاته مطهّرة معصومة من البدو إلى الختم، وهذه القابلية فى الذات لا تكون كسبية.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۹۰

وكقوله تعالى: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِى مِنْ دُونِ اللَّهِ» «۱»

، فتنفى الآية قابلية الفرد البشرى لحمل النبوة أو الإمامة أو الحجّية على الخلق إذا لم تكن ذاته مأمونة عن الوقوع فى الزيغ والانحراف. فالتعبير فى الآية الكريمة ليس ما كان ليؤتيه النبوّة، أى ليست فى صدد نفى السنّة الإلهية والإفاضة منه تعالى، بل التعبير فى صدد نفى الإمكانية والقابلية (ما كان لبشر).

وكذلك هنا طائفة من الآيات تُدلّل على أنّ الإمامة فى نسل إبراهيم وذرّيته وعقبه باقية إلى يوم القيامة، كقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» «۲»

، وقوله تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ* وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۹۱

الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ* أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» «۱».

فمجموع هذه الآيات تدلّ على دعاء إبراهيم فى أن تكون الإمامة فى ذرّيته، وعلى استجابة ذلك الدعاء، وبقاء أُمّة مسلمة فى ذرّيته لم تنجسّهم الجاهلية بأنجاسها وأرجاسها، ولم تلبسهم من مدلهمات ثيابها، وأنّ إمامتهم هى وصية إبراهيم فى بنيه وهى اصطفاء اللّه لهم.

وممّا يشير إلى توارث الإمامة بالإرث الإلهى فى خصوص نسل وعقب إبراهيم فى هذه الأُمّة دون غيرهم قوله تعالى: «وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ

حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَمْ فِى الـدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكَمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» «۲»

، فتشير الآيـة إلى أنّ من نسـل إبراهيم عليه السـلام أُمّـة تكون شـهداء على النـاس والرسول عليهم شـهيداً، ومقام الشـهادة على الناس أجمعين لاـ يمكن أن يرقى إليه إلّامن تحلّى بالعصـمة علماً وعملًا؛ وإلّا فغير المعصوم من الزلل والخطل والجهل والضـلال حقيقٌ أن يُشهد عليه لا أن يشهد على الناس.

فهـذه الأُمّـة المسـلمة الموحِّـدة المعصومـة الشاهـدة على الناس، أبوها إبراهيم وهى من ذرّيته، وهى المشار إليها فى قوله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» «۳»

، أى أُخرجت من عقب إبراهيم عليه السلام،

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۹۲

وكذلك قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» «۱».

وليس المراد بالأُمّة الوسط الأُمّة الإسـلامية جمعاء؛ فإنّ فيها من لا تُقبل شهادته على بقلة خضار، فكيف يشهد على جميع أعمال الناس يوم يقوم الأشـهاد؟ ومن أين له العلم والإحاطـة بأعمال الناس كى يقوم بأداء الشـهادة يوم الحساب؟ فهـذه الأُمّة الوسط هى التى أُشـير إليهـا فى آخر سورة الحـجّ فى قوله تعـالى: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْـلُ وَفِى هَـذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَـهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» «۲»

، وهى الذرّية التى دعى إبراهيم بأن تكون مسلمة فى قوله:

«رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً» «۳»

، والتى دعى ربّه أن يجعل الإمامة فيها فى قوله تعالى: «قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى» «۴»

، وهى التى دعى إليهـا إبراهيم فى قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَـدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَعْبُـدَ الْأَصْـنَامَ* رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَـلْ أَفْئِـدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْـكُرُونَ* رَبَّنَـا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَـىْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ* الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ* رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ» «۵»

، وهذه الذرّية هى التى سلّم اللَّه عليها فى قوله تعالى: «سَلَامٌ عَلَى إِلْ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۹۳

يَاسِينَ» «۱»

، أى آل محمّد صلى الله عليه و آله؛ لأنّ ياسين اسم للنبىّ صلى الله عليه و آله سمّاه به القرآن الكريم فى سورة يس، وهم الذين نزلت فيهم آية التطهير فى قوله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً» «۲».

وقوله تعـالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» «۳»

، والآية باتّفاق جمهور المفسّرين ونصوص الفريقين «۴» نزلت فى علىّ عليه السلام، وهى نصّ فى حصر الولاية المطلقة فى اللَّه تعالى، ثمّ الرسول صلى الله عليه و آله، ثمّ علىّ عليه السلام.

وهـذا ينافى أو يتنافى مع نظرية الصوفية من دعوى الولاية والإمامة النوعية، فإنّه على وفق تلك النظرية لا وجه للحصـر فى أىّ زمن من الأزمان، حتّى زمن النبىّ صـلى الله عليه و آله والزمن الـذى يليه. وبعبارة أُخرى: إنّه على نظرية الإمامة النوعية لا حصـر لها على صـعيد

النظريـة والتنظير، وإن كان القطب أو قطب الأقطاب ذو الولاية العامّة يتعاقب على هذا المقام واحد تلو آخر، وأمّا على صـعيد الإمكان والتنظير أو التعاقب الزمنى فلا حصر بل هو شرعة لكلّ وارد، واحد بعد آخر.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۹۴

وكـذلك قوله تعـالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» «۱».

وكـذا قوله تعـالى: «مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَايَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» «۲».

فإنّ تخصـيص الفيء وضـريبة الخمس بـذوى القربى أى ملكيـة التدبير والتصـرّف لهم؛ لموضع اللام فى الآية، حيث أُضـيفت إلى اللَّه ورسوله وذوى القربى دون الموارد الثلاثـة الأُخرى؛ لبيـان أنّ ملكيـة ولايـة التـدبير لهم عليهم السـلام خاصّـة إلى يوم الإشـهاد، وأنّ الموارد الثلاثة الأخيرية موارد للصرف، وهذا الحكم ثابت إلى يوم القيامة. ولا يخفى أنّ ذلك يعنى أنّ القدرة المالية المطلقة فى دين الإسـلام وأُمّـة المسـلمين إلى يوم القيامـة هى لـذوى القربى؛ لأنّ الفىء كما مرّ هو مطلق المنابع الماليـة والخمس الذى يعنى ۲۰٪ من مجموع أموال المسـلمين، كلّ ذلك يشـكّل سـلطة وأُسـطول مالى لا نظير له، وقد علّل هذه الصلاحية لهم عليهم السلام؛ لأجل إرساء العدالـة فى الأُمّة الإسـلامية «كَيْ لَايَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ»؛ لأنّ سـلطة المال يتمكّن بها من إرساء العدالة، ليس فقط فى المجال المالى، بل كذلك فى المجال السياسى والقضائى والحقوقى والأمنى، وغيرها من الحقول.

الوجه النقلى فى الأحاديث النبويّة ...: ص: ۱۹۴

هم الذين قال فيهم النبىّ صلى الله عليه و آله فى الحديث المتواتر: «إنّى تارك فيكم الثقلين:

كتاب اللَّه وعترتى أهل بيتى، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدى أبداً؛ فإنّهما لن يفترقا

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۹۵

حتّى يردا علىّ الحوض» «۱»

، فبيّن صلى الله عليه و آله بهذا الحديث أنّ وراثة حقيقة القرآن إلى يوم القيامة والإمامة هى فى العترة دون غيرها.

ومثله حديث السفينة: «مثل أهل بيتى فيكم كسفينة نوح من ركبها نجى، ومن تخلّف عنها هلك» «۲»

، ومفاده حصر النجاة بولايتهم، كما كان حصر طريق النجاة من الطوفان منحصراً بركوب سفينة نوح.

وكـذلك قول النبىّ صـلى الله عليه و آله فى الحـديث المتواتر: «لن يزال هـذا الـدين عزيزاً منيعاً ظاهراً على من ناواه حتّى يملك اثنى عشر كلّهم من قريش» «۳»

، وكذا قوله صلى الله عليه و آله:

«النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهبت ذهبوا، وأهل بيتى أمان للأرض، فإذا ذهب أهل بيتى ذهب أهل الأرض» «۴».

وهذا الحديث مفاده انحصار النجاة والولاية العامّة بأهل البيت عليهم السلام، كما أنّ الحديث يشير إلى تأبيد حصر الأمان بهم إلى يوم القيامة؛ لمكان تشبيههم بالنجوم لأهل السماء، فإنّ أمان أهل السماء دوامه بدوام النجوم، وهذا موضع آخر لوجه التشبيه.

وكـذا قوله صـلى الله عليه و آله فى حـديث النور الـذى تقـدّم: «كنت أنا وعلىّ نوراً بين يدى اللَّه تعالى من قبل أن يُخلق الخلق بأربعة عشر ألف عام، فلمّا خلق اللَّه تعالى آدم سلك ذلك

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۹۶

النور فى صلبه، فلم يزل اللَّه تعـالى ينقله من صـلب إلى صـلب حتّى أقرّه فى صـلب عبـد المطّلب، ثمّ أخرجه من صـلب عبـد المطّلب

فقسّمه قسمين، فجعل نورى فى صلب عبد اللَّه، ونور علىّ فى صلب أبى طالب، فعلىّ منّى وأنا منه، لحمه لحمى ودمه دمى، فمن أحبّه فيحبّنى أحبّه فمن أبغضه فيبغضنى أبغضه» «۱»

والحديث الشريف يدلّ على تخصيص الولاية العامّة والإمامة بالذوات النورية المخلوقة بخلق النبىّ صلى الله عليه و آله، وهم أهل بيت النبىّ صلى الله عليه و آله، وأنّ هذا المقام لابدّ أن يسبقه اصطفاء فى العوالم السابقة من عالم النور والميثاق والذرّ والأصلاب والأرحام، فليس يُنال بالكسب الدنيوى المجرّد.

وكذا قوله صلى الله عليه و آله: «أنا مدينة العلم وعلىّ بابها، فمن أراد المدينة فليقصد الباب» «۲».

الحديث السابع فى قوله صلى الله عليه و آله ضمن حديث تبليغ سورة البراءة: «لا يؤدّى عنّى إلّا أنا أو علىّ» «۳»

، وتقريب الدلالة فى مفاد هذا الحديث والحديث الذى سبقه هو ما تقدّم فى آية حصر الولاية: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۹۷

الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» «۱»

من حصر هذه المقامات بعلىّ والعترة، ولا ينسجم مع الولاية والإمامة النوعية فى جميع الأزمان.

أمّا الدليل العقلى والكشفى:

فنقول:

إنّ مسألة كون العصمة وهبية إلهية أو كسبية اختيارية أو جبرية هى من المسائل والقواعد المعرفية الحسّاسة الهامّة، إلّاأنّه بعد إلقاء الضوء على هذه المسألة يتّضح عدم كون العصمة المعهودة للمقامات المتقدّمة ممّا يمكن أن تُكتسب فى دار الدنيا، فلا تكون كسبية دنيوية.

وتوضيح ذلك: إنّ العصمة لها جهات اختيارية وإن كان لها أيضاً جهات غير اختيارية. فمن تلك الجهات الاختيارية الأفعال الصادرة عن العصمة، فإنّها اختيارية؛ حيث إنّها تصدر عن علم وقدرة؛ إذ العلم اللدنى الخاصّ الاصطفائى والقدرة المتولّدة منه تستتبع صدور الأفعال عنها، وكلّ فعل يصدر عن علم وقدرة فهو اختيارى.

ومن الجهات الاختيارية فى العصمة هى أصل العصمة كملكة أو جوهر نورانى من سنخ العلم فى الذوات المطهّرة، ومعنى الاختيارية فى أصل العصمة ليس بمعنى إمكان اكتسابها فى دار الدنيا بعد أن لم تكن، بل بمعانٍ أُخرى:

منها: ما أُشير إليه فى صدر دعاء الندبة الشريف، عند قوله عليه السلام: «اللّهمّ لك الحمد على ما جرى به قضاؤك فى أوليائك الذين استخلصتهم لنفسك ودينك، إذ اخترت لهم جزيل ما عندك من النعيم المقيم الذى لا زوالَ له ولا اضمحلال، بعد أن شرطت عليهم الزهد فى درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها، فشرطوا لك ذلك، وعلمت منهم

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۱۹۸

الوفاء فقبلتهم وقرّبتهم وقدّمت لهم الذكر العلىّ والثناء الجلىّ، وأهبطت عليهم ملائكتك وكرّمتهم بوحيك ورفدتهم بعلمك، وجعلتهم الذريعة إليك والوسيلة إلى رضوانك» «۱».

فبيّن عليه السلام أنّ العصمة المعطاة لهم والتى عبّر عنها عليه السلام بقوله: «فقبلتهم..

وجعلتهم»، أى إهباط الوحى والملائكة عليهم، والإرفاد بالوحى اللدنى وتقديم الذكر العلى، وغيرها من شؤون العصمة الوهبية، إنّما أعطاها البارى لهم منذ بدو نشأتهم؛ لعلمه تعالى بخصوصية فى ذواتهم، وهى اشتراطهم وتعهّدهم بطاعة اللَّه من بدو تولّدهم إلى منتهى عمرهم فى دار الدنيا، وزهدهم فى كلّ درجات الدنيا وزخرفها وزبرجها.

وهذا نظير المعلّم الذى يتفرّس فى بعض تلاميذه النبوغ والأهلية والقابلية والجدّ والاجتهاد منذ أوائل حقبة التعليم، فيولّيه عناية خاصّة

تزید علی بقیة الطلاب؛ لاستحقاق ذلک التلمیذ وتأهّله بقابلیة تفوق البقیة، فیکون من الحکمة والجود أن یولّی المعلّم مزید اهتمام ورعایة وتفقّد وتعلیم لذلک التلمیذ دون الآخرین، وذلک مثل الزارع إذا کانت له أنواع من قطع الأرضین، فواحدة خصبة حیّة منتعشة طیبة، وأُخری متوسّطة معتادة الأوصاف، وثالثة سبخة أقرب إلی المیتة، فإنّه والحال هذه یخصّ الأرض الخصبة بالبذر الثمین المنتج والمثمر ویولّیها مزید من الخصائص، کالماء العذب وتقلیب التربة ونحو ذلک، دون القطعتین الأُخرتین، بل الثالثة لا- یُزرع فیها إلّاالعشب وما تقتاده الحیوانات.

ومنها: من الجهات الاختیاریة فی أصل وجود صفة العصمة ما أُشیر إلیه فی خطبة الصدّیقة وزیارتها علیها السلام:

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۱۹۹

...«وأشهد أنّ أبی محمّداً عبده ورسوله، اختاره قبل أن یجتبله، واصطفاه قبل أن یبتعثه، وسمّاه قبل أن ینتجبه، إذ الخلائق بالغیب مکنونة وبستر الأهاویل مصونة وبنهایة العدم مقرونة، علماً منه بمآل الأُمور وإحاطة بحوادث الدهور ومعرفة منه بمواقع المقدور، وابتعثه إتماماً لعلمه وعزیمة علی إمضاء حکمه وإنفاذاً لمقادیر حقّه» «۱».

وکذلک ما ورد فی زیارتها: «یا ممتحنة امتحنک اللّه الذی خلقکِ قبل أن یخلقکِ، فوجدکِ لما امتحنکِ صابرة» «۲»

، فإنّ الامتحان فی رتبة العلم الربوبی والاصطفاء والاختیار والانتجاب فی أُفق العلم الإلهی قبل خلق النبیّ صلی الله علیه و آله وقبل خلق الزهراء علیها السلام، یدلّ علی وقوع العلم الإلهی علی خصوصیة فی تلک الذوات المطهّرة التی حباها اللّه بختم النبوّة والحجّیة علی الخلق.

ونظیر ذلک ما یصنعه الزارع، فإنّه یرجع فی انتخاب البذر والزرع إلی علمه بخصائص البذور وأنواع ثمارها وصالحها من طالحها، ثمّ یختار أَنفَسها جودةً وطیبة، ویُسمّی هذا بالامتحان فی مقام العلم قبل الإیجاد والوجود الخارجی.

ومنها: ما وقع من امتحانات فی العوالم السابقة، کعالم الذرّ المشار إلیه بقوله تعالی: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَی أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّکُمْ قَالُوا بَلَی شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا یَوْمَ الْقِیَامَةِ إِنَّا کُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِینَ» «۳»

، ومثله: عالم المیثاق، وخلق الطینة، وعالم الأصلاب والأرحام والنطفة، وغیرها من العوالم السابقة علی نشأة الإنسان فی دار الدنیا، فإن فی تلک العوالم سنخ امتحان واختبار یختلف عن سنخ الامتحان والاختبار فی دار الدنیا، ولا یُؤهّل للمقام الخاصّ من

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۲۰۰

النبوّة والإمامة والحجّیة علی الخلق إلّامن قد فاز فی تلک الامتحانات وانتُجب واصطُفی هاهناک. فمن ثمّ لا تکون کسبیة فی دار الدنیا.

ومنها: لا یمکن أن تتحقّق فیمن یفترض فیه إمکان الزلل، أی فیمن یفترض فیه عدم الأمان من الوقوع فی المعصیة، ولأجل خفاء تلک الامتحانات فی تلک العوالم عن الخلق وخفاء قابلیات البشر وخفاء معادنهم وطینتهم، کان من الضروری فی البدیهة التکوینیة والعقلیة أن یکون تعین صاحب مقام النبوّة أو الرسالة أوالإمامة والولایة المطلقة والحجّیة علی الخلق هو باطّلاع اللّه تعالی معرفة ذلک بالنصّ الإلهی الوحیانی والمعجزة، وإلی ذلک یشیر تعالی: «وَرَبُّکَ یَخْلُقُ مَا یَشَاءُ وَیَخْتَارُ مَا کَانَ لَهُمُ الْخِیَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَی عَمَّا یُشْرِکُونَ* وَرَبُّکَ یَعْلَمُ مَا تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا یُعْلِنُونَ» «۱».

ولأجل ذلک، أطبقت الإمامیة علی ضرورة المعجزة والنصّ الإلهی علی صاحب الإمامة والولایة المطلقة والحجّیة علی الخلق، وأنّها تستحیل أن تکون کسبیة فی دار الدنیا. وهذا بخلاف نظریة الصوفیة وبعض العرفاء؛ حیث زعموا أنّ مقام الولایة المطلقة مفتوح بابه لکلّ وارد وسالک للطریقة، ویتحقّق بالحقیقة.

وقد عرفت أنّ الوجوه التی تشبثّوا بها من الآیات والأحادیث غایة مفادها هو إمکان الوصول إلی المقامات المعنویة العامّة، کمقام استجابة الدعوة بنحوٍ محدود، أو نیل شیء من الحکمة وبعض درجات التقی والصدق والإحسان والعبودیة وغیرها، لا بنحو الاستیفاء

التامّ بكلّ درجاتها لتبلغ المقامات الخاصّة كالولاية المطلقة والإمامة والحجّية على الخلق.

ومن ثمّ لم يتجرّوا على دعوى بلوغ النبوّة التشريعية أو مقام إبلاغ الرسالة

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۰۱

الإلهيـة، مع أنّ التفرقة لا وجه لها، إلّاقاعدة الاصـطفاء والاختيار الإلهى التى هى مفاد نظرية النصّ الإلهى على أصحاب هذه المقامات الخاصّة، من دون فارق بين النبوّة والرسالة والإمامة والولاية المطلقة والحجّية على الخلق والخلافة الإلهية الكبرى.

وخير شاهـد على بطلاـن زعمهم: مـا يلاـحظه المتتبع المـدقّق المحقّق فى كتبهم وكلمات روادهم فى تفسير الآيات والمعارف، وباب التأويل للآيات التنزيلية والتكوينية، وباب الآداب والسـنن، وغيرها من أبواب المعارف ... فيلاحظ كم لهم من رأى ونظر قد تبيّن- فى التحقيقات العلميـة والحكمية والمشاهدات- بطلانها وقصورها عن الإحاطة بتمام الواقع، وضـحالة نابعة من البيئة العلمية والمذهبية التى ترعرع ونشأ فيها ذلك الصوفى والعارف.

فبون بين مـا يفسّـِرونه من معـارف وتأويلاـت، وبين مـا يشاهـده المحقّق الحكيم السالـك فى المعارف المأثورة عن بيت النبوّة، وأين الثرى من الثريا؟

حتّى أنّ بعض الأكابر من الصوفيـة يعتقـد بالهيئـة البطليميوسـية ويرتّب عليها مزاعم من المكاشـفات، أو تراه يبنى على الجبر الأشـعرى والمسلك الأشعرى فى الحسن والقبح، أو يقول أنّ الولى وإن كان تابعاً فى علم التشريع والأحكام للنبىّ، إلّا أنّ النبىّ قد يكون تابعاً له فى المعارف والعلوم الحقيقية، ثمّ اعتمد فى ذلك على قصّة أُسارى بدر المُختلَفة، وحديث تأبيرالنخيل الموضوع.

وقد ردّ عليه السيد حيدر الآملى بقوله: فكيف يخطئ فيها من هو موصوف بأنّه «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى» «۱»

، وكذلك من هو موصف ب:

«مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» «۲»

. فالشيخ ابن عربى والشارح

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۰۲

الكاشانى لو كانا عالمين بأُصول أهل البيت عليهم السلام لما قالا هذا، ولما نسبا الرسول المعصوم من الخطأ إلى الخطأ، ولما نسبا غيره إلى الصواب «۱».

ثمّ قال: فنسبة مثل هذا من الشيخ الحاتمى إلى النبىّ والشراح- سوء أدب وإهمال من جانبه صلى الله عليه و آله.

وأما الشارح الثالث، وهو داود القيصـرى وكان تلميـذ لعبـد الرزّاق الكاشانى المـذكور فهو قـد أخـذ بطرف النقيض والتعصّب وقال:.. وأمثال هذه المهملات من غير تمسّك إلّابقول الشيخ- لا يُعتد بها. ثمّ نقل قول ابن عربى فى كون علماء الظاهر من الأئمّة الأربعة لهم الوراثة فى التشريع، وأنّ الوراثة لباطن الشرع مخصوصة لعلماء الباطن العالمين بأسرار الحقيقة.

فردّ عليه السـيد حيدر بقوله: وقط ما التفت فى ذلك إلى ذكر أهل البيت عليهم السلام وعترة النبىّ صلى الله عليه و آله وأمير المؤمنين والمهدى عليهم السلام، الذين هم ورثته حقيقةً من غير خلاف كما سبق ذكره من قول اللّه وقول النبىّ، والحال أنّ الأئمّة الأربعة ليسوا بقائلين لأنفسـهم العلوم الإرثيـة بل الاجتهادية الكسبية، كما أشار إليه الشـيخ (الحاتمى) أيضاً. وبناءً على هذا كيف يصدق اسم الإرث على الكسب، وبالعكس؟

هـذا بحسب العلوم الظاهرة ونسـبتها إلى الأئمّة الأربعة. وأمّا بحسب العلوم الباطنة ونسـبتها إلى العارفين، فهم أهل البيت عليهم السـلام أولى وأقـدم وأليق وأنسب كما بيّنا انتساب جميع العلوم إليهم قبل هـذا، وكـذلك المشايخ والعارفون فإنّهم بأسـرهم- منسوبون إليهم صورةً ومعنى. وبالجملة، فكل من يكون علمه حاصلًا بالكسب من الأُستاذ والشيخ بطريق التعليم والتعلّم فليس بإرثٍ أصلًا، وكلّ من

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۰۳

يكون علمه حاصلًا بالكشف والشهود.

والعجب كلّ العجب أنّ أمثال هؤلاء يدّعون الكشف والعرفان ويحصل منهم مثل هذا الكلام. أمّا القيصرى فقد عرفت خبطه ومهملاته، وأمّا الشيخ (الحاتمى) فإنّه حيث كان يعرف أنّ عيسى عليه السلام ينزل فى آخر الزمان ويحضر عند المهدى، ويكون تابعاً له ولجدّه فى النبوّة والولاية، فنقول: كيف حكم أنّه خاتم الولاية المطلقة مع وجود علىّ عليه السلام بما ثبت (أى الذى ثبت) له استحقاق هذه الصورة نقلًا وعقلًا وكشفاً وبقوله أيضاً؟ وحيث كان عارفاً بحال المهدى عليه السلام إلى هذه الغاية التى ذكرها وخصّ به الختمية للولاية المقيّدة المحمّدية، كيف كان ينسبها إلى نفسه ويجزم بذلك بعقله. والعجب أنّه يثبت هذا المقام لنفسه بحكم النوم، وقد ثبت هذا لغيره بحكم اليقظة بمساعدة النقل والعقل والكشف، وأين النوم من اليقظة، و (أين) القياس من الدلائل العقلية والشواهد النقلية التى تطابق الكشف الصحيح «۱»؟!

وقال السيد حيدر فى الكتاب المتقدّم فى معرض الردّ على دعوى بعض العُرفاء بأنّه خاتم الولاية المطلقة-: وهذا أمر جليل وشأن عظيم لا يستحقّه إلّا الخاتم للولاية المطلقة الذى هو علىّ بن أبى طالب صلوات اللَّه عليه فلينظر العاقل إلى هذا المنصب الرفيع ويحكم بما يرى فيه، والحقّ جلّ ذكره ما اكتفى بهذا حتّى قال: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» «۲»

؛ لأنّ «أُولِى الْأَمْرِ» فى الدين لا يجوز (إلّا) أن يكون (من) الأولياء قائماً بأوامر دين اللَّه وإجراء أحكام نبيّه شريعةً وطريقةً وحقيقةً، ولا يجوز أن يكون (مثل هذا الولى) إلّا معصوماً فى نفسه منصوصاً (عليه) من عند اللَّه؛ لأنّ متابعته ومطاوعته كمطاوعة

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۰۴

اللَّه تعالى ومطاوعة رسوله، ومطاوعتهما واجبة شرعاً وعقلًا، فتكون مطاوعة أولى الأمر كذلك، وكلّ من يأمر الحقّ بمطاوعته على سبيل الوجوب لو لم يكن فى نفسه معصوماً ومنصوصاً (عليه) من عند اللَّه سبحانه يلزم أن يكون هو سبحانه آمراً بمطاوعة من يكون جائز الخطأ، وهذا غير جائز عقلًا؛ لأنّ الأمر بالقبيح قبيح «۱».

وقال: فلم يبق إلّاأن يكون المراد (بأولى الأمر) الإمام المعصوم الذى لا تصدر عنه صغيرة ولا كبيرة من الصغر إلى الكبر؛ لئلّا يلزم الإخلال منه تعالى بالواجب ومن نبيّه صلى الله عليه و آله. ومع ذلك، فمعنا تقسيم عقلى وقانون كلىّ نرجع إليهما.

ثمّ استدلّ على لزوم كونه معصوماً معلوماً معيناً أى منصوصاً عليه. «۲» وقال:

وأعظم الدليل على ذلك علمه (أى المهدى) بالقرآن على ما هو عليه، وليس للشيخ (ابن عربى) ولا لغيره هذا، حتّى قالوا (إنّه) لا يقرأ القرآن على ما هو عليه إلّا المهدى إذا ظهر، وقوله صلى الله عليه و آله: «كتاب اللَّه وعترتى» يشهد بذلك، لأنّه جعلهما توأمين، وقال: «لا يفترقا حتّى يردا علىّ الحوض»، وقال بعبارة أُخرى: «إنّ أولى الناس بكتاب اللَّه: أنا وأهل بيتى من عترتى»، وعند التحقيق: «وَمَا يَعْلَمُ تَاوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ» «۳»

إشارة إليه (أى إلى المهدى عليه السلام) وإلى أجداده المعصومين عليهم السلام.

وقول النبىّ صلى الله عليه و آله: «من أراد علوم الأوّلين والآخرين فعليه بالقرآن» يشهد بصدق هذا كلّه، وليس الشيخ (ابن العربى) وإن كان عالماً عارفاً فى هذا المقام، أعنى بأن يكون له الاطّلاع على أسرار القرآن على ما هو عليه فى نفس الأمر، وإن قال أنا

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۰۵

القرآن والسبع المثانى وروح الروح لا روح الأوانى «۱».

وقال بعض العلماء فى قوله تعالى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ» «۲»

الآية، فالظالم هاهنا من العباد هو الذى ما أعطى حقّ كتاب اللَّه تعالى وما حكم به، والمقتصد هو الذى أعطى حقّه وأقرّ به وقام بما فيه بقدر وسعه، والسابق بالخيرات هو الإمام المعصوم المنصوص (عليه) المخصوص بهذا المقام، فافهم جيداً واسمع قوله جلّ ذكره: «وَمَنْ

لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» «۳»

، ومن جملة ما أنزل اللّه قوله تعالى: «قُلْ لَاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» «۴»

، وأنت لا تعطى عوض المودّة إلّاالمبَغَضَة، فكيف حكمت بالقرآن؟ وأقلّ المبغضة أنّك تنسب مرتبتهم وإمامتهم إلى الغير بغير حق، لا جرم صرت مستحقّ أن يُقال فيك:

«وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» «۵»

، وأن يقال: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» «۶»

، ويقال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ* خَالِدِينَ فِيهَا لَايُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ» «۷»

، هذا مضى وتلك شقشقة هدرت ثمّ قرّت «۸» أمراً.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۰۷

القراءة الجديدة الثالثة فى حديث الغدير ولايتهم السياسية المدنية ... ص: ۲۰۷

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا» «۱».

فبيّن تعالى أن الانقياد والطاعة والتبعية السياسية فى النظام الاجتماعى السياسى لا تجوز ولا تحلّ لغير الرسول صلى الله عليه و آله وأولى الأمر المعصومين عليهم السلام، وكلّ مُطاع ومُنقاد له فى النظام السياسى دونهم- بحيث لا يؤول إليهم- فهو طاغوت أُمر بالكفر به، وإن كانت الآية غير خاصّة بالنظام السياسى، بل تعمّه وغيره كما مرّ أنّه الصحيح من عموم مفاد الآية.

فالانتماء السياسى إلى أىّ جهة لا- تنتسب إليهم عليهم السلام، يُعد ذلك انتماءً إلى الطاغوت، فعلى صعيد الولاء السياسى واتّخاذ الهوية فى الانتساب إلى أى نظام سياسى دونهم عليهم السلام غير منتسب إليهم، يُعدّ ذلك الانتماء ركون إلى حاكم الجور وتحاكم إلى الطاغوت، وقد قال تعالى: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۰۸

اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى» «۱».

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» «۲»

، فإنّ الولوج فى الانتماء السياسى إلى غير جماعة الحقّ التابعين لولاء اللّه تعالى وولاء رسوله وولاء المؤمنين وهم أولى الأمر الذين أُمرنا بطاعتهم أصحاب الأمر المتنزّل ليلة القدر، وهم الذى يرون أعمال العباد ويشهدونها كما فى قوله تعالى: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» «۳»

، وهذه الآية قد ذُكرت فى سياق نفس الآية فى سورة البراءة. ومن الظاهر أنّهم ليسوا عموم المؤمنين، بل خصوص أئمّة المؤمنين.

ومن ثمّ قُرّر فى النصوص المستفيضة والمتواترة الواردة فى الفقه وكذا فى الفتوى باباً بعنوان البغى والبغاة، المستمد من التشريع القرآنى والسنّة القطعية، وعُنون فى الفقه لدى كافّة المذاهب، فهو من الأبواب المتأصّلة فى الفروع، وقد اتّفقوا على تعريفه بأنّه: الخروج عن طاعة الإمام العادل وهذه مرتبة من مراتب ولاية إمام الحقّ.

وقد روى الفريقان بطرق عديدة: «إن من مات ولم يبايع إمام زمانه مات ميتةً جاهلية»، وفى بعض الروايات «من مات وليس فى عنقه

بيعة إمام مات ميتةً جاهلية»، وقد روى بألفاظ أخرى أيضاً.

ولا ـ ريب أنّ مفاده لا ينطبق إلّاعلى إمام الأصل وهو المعصوم علماً وعملًا؛ لأنّه لا يُتصوّر أن يكون شخصاً غير المعصوم له من الطاعة السياسية وغيرها ذات هذا

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۰۹

الشأن بحيث لا يموت المسلم والمؤمن على صفة الإسلام ويكون موته ميتةً جاهلية، فطاعته هى الحدّ الفاصل بين الإسلام والكفر بلحاظ الأثر الأخروى، فهذا الشأن لا ـ يكون إلّالمن اصطفاه اللّه وطهّره من الأرجاس والذنوب، لا ـ من يكون فى معرض اقتراف المعاصى والكبائر ولا يؤمن من الوقوع فى سخط اللّه وغضبه.

فمفاد الحديث النبوىّ يقرّر أنّ تولّى الإمام سياسياً وطاعته فى الحكم والانتماء إليه فى الهوية السياسية دخيل فى الإيمان وصحّته والخروج عن حدّ الكفر القلبى الأُخروى، هذا فضلًا عن معرفة ذلك الإمام والاعتقاد والإيمان بإمامته فالطاعة والولاء لحاكميته هى بهذا الشأن، فأىّ انتماء وتحرّك وحركة وهوية سياسية لا تستند إلى إذن الإمام وأمره يكون خروج عن طاعته وتدبيره وبغياً على ولايته السياسية. وهذا المفاد للحديث النبوىّ يطابق مفاد الآية السابقة من لزوم إطاعة أُولى الأمر وحرمة التحاكم إلى غيرهم من الطواغيت.

وقد وردت الروايات المستفيضة بهذا المضمون، الدالّة على أنّ المسلم والمؤمن يجب عليه أن ينتمى ويعيش فى ظلّ النظام السياسى المدبَّر من قبل المعصوم، سواء كان ذلك النظام السياسى بصورة الحكومة المعلنة رسمياً، كما فى عهده صلى الله عليه و آله وعهد وصيّه عليه السلام وسبطه المجتبى عليه السلام، أو بصورة الحكومة غير الرسمية فى ظل النظام الإيمانى، وهو نظام الطائفة الإمامية الاثنى عشرية الاجتماعى الذى بُنى بيدهم عليه السلام.

ويندرج فى هذا المقام عدّة أبواب فى النظام السياسى، كباب الجهاد من:

حرمة الجهاد مع إمام لا يُؤمّن على الحكم ولا ينفذ فى الفىء أمر اللّه عزّوجلّ، وكباب القضاء من: حرمة التحاكم إلى حكام الجور، وهو كلّ حاكم لم يستمد صلاحية قضائه من المعصوم، وكباب الفتوى أيضاً؛ وذلك لأنّ التقاضى والقضاء وصلاحية بيان القوانين الشرعية هما من شُعب سلطات النظام السياسى، واللازم

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۱۰

فيه هو الانتظام فى المنظومة التابعة والمنقادة للمعصوم وتدبيره، وبالتالى يتحقّق العيش فى ظلّ حكومته وحاكميته ولو بصورة نظام اجتماعى للطائفة والمذهب، وإن لم يكن بصورة نظام الدولة الرسمية.

وحينئذٍ يكون ذلك تمسّكاً وأخذاً بحجزتهم وعيشاً فى كنفهم ومكثاً فى ظلّهم السياسى وتأديةً لحقوقهم، ومن ثمّ أشارت الآية السابقة إلى التناقض والتهافت بين دعوى الإيمان بما أنزل اللّه، وبين العيش والانتماء السياسى فى ظلّ الكيانات الجائرة التى لا ـ تستمدّ مشروعيتها من اللّه ورسوله صلى الله عليه و آله.

وكذلك قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» «۱»

، وقوله تعالى: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» «۲»

، وقوله تعالى: «فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» «۳»

، وهذه الآية فى ذيل الآية الأُولى.

فتبين الآيات الكريمة أنّ الإيمان لا ـ يتمّ إلّابالولاء السياسى فى كلّ شعبه، من القضاء والتشريع والتدبير إلى من أعطت السماء له الصلاحية، ولا يكفى مجرّد المعرفة والإقرار بالقلب.

وهذا مقامٌ خطير من مقامات ولاية اللّه وولاية رسوله وأُولى الأمر المطهّرين الذين أُمرنا بطاعتهم. ويتّضح بذلك أنّه يحتمل فى قوله

تعالى فى آية الغدير:

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» «۴»

أنّ إكمال الدين حصل بالبيعة السياسية لأمير المؤمنين عليه السلام فى غدير خمّ؛ وإلّا ففرض

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۱۱

الإقرار بإمامته ومعرفته بالإمامة وأخذ ذلك فى حصول الإيمان القلبى قد حصل فى يوم الدار عند نزول هذه الآية: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» «۱»

المعروف بحديث الدار فى الآيات والسور المكّية «۲» فضلًا عن المدنية. فالتدرّج هو فى بيان رسول اللّه صلى الله عليه و آله لشعب الولاية ومراتبها؛ وإلّا فأصل الولاية قد أُخذ ركناً فى الإيمان والدين منذ أوائل البعثة، كما فى سورة الشعراء، وجعل آدم خليفة أى إماماً، ومقام الإمامة فى السور المكّية.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۱۳

تلوّن الفقه بولايتهم عليهم السلام موقعية الإمامة فى بقية أركان الدين ... ص: ۲۱۳

اشارة

قراءة جديدة فى حديث:

«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهلية»

قد روى الفريقان بنحوٍ مستفيض أو متواتر حديث النبى صلى الله عليه و آله: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» «۱»

. وألفاظ الحديث فى بعض الطرق:

«من مات وليس فى عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية» «۲».

والمتبادر من فقه هذا الحديث وجود أئمّة فى هذه الأُمّة ولهذا الدين، بهم يتقوّم الإيمان، وبمعرفتهم النجاة، وأنّ معرفتهم على حدّ معرفة بقية أُصول الدين فى كونها موجبة لحصول حقيقة الدين والديانة، وعدم تلك المعرفة موجب الخروج من حدّ الإيمان وحقيقة الإسلام إلى حدّ الكفر الأُخروى.

وأمّا مفاد الحديث على اللفظ الآخر وهو البيعة والتى بمعنى الطاعة السياسية، فله معنى يتناول المعنى السابق وزيادة، حيث يبيّن الحديث على اللفظ الثانى (البيعة): أنّ الطاعة السياسية والقانونية للإمام دخيلة فى تحقّق الإيمان، ومن ثمّ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۱۴

ينفتح مسار آخر لقراءة الحديث بنحو أعمق، ألا وهو البحث فى العلاقة بين الإمامة وبقية أركان الدين، ولك أن تعبّر موقعية الإمامة فى الأبواب الفقهية وفصول التشريع، كى نلاحظ ونتتبع لون الولاء السياسى والقانونى للمعصوم عليه السلام.

فلو أراد الباحث تصفّح التشريع فى الأبواب:

فأوّلًا: فى باب الاجتهاد والتقليد، فإنّ منصب الإفتاء والفُتيا للمجتهد والفقيه منشعبة صلاحيته من إذن وتخويل الإمام المعصوم، ويرشد إلى هذه الحقيقة أنّ الفُتيا ليست مجرّد إخبار محض كما هو الحال فى نقل الراوى للرواية، بل هى سلطة تشريعية لا بمعنى الصلاحية فى تشريع الأحكام، بل بمعنى أنّ الفهم التخصّصى لاستنباط واستنتاج الأحكام هو قدرة فى معرفة الأحكام وبيانها، وبالتالى فهى قدرة فى الخطاب القانونى المؤثّر فى المجتمع.

ومن ثمّ اعتُبرت السلطة القانونية إحدى سلطات الحكم السياسى الاجتماعى، ذات نفوذ وامتداد فى المجتمع. ومن ثمّ كان منصب

الفتوى والذى هو أحد المناصب المرجعية الدينية- هو مسند ولاية نيابية ينوب فيها الفقيه والمجتهد عن المعصوم، ضمن مجال محدود بالقياس إلى علم المعصوم اللدنى، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» «۱»

، حيث جعلت الآية موقعية الفقيه فى طول بنيابته عن المعصوم فى حدود ما يتلقّاه عنه، فلا يُعقل إسناد هذا المنصب لغير المؤمن وغير العادل، وليس هو وزان الرواية حيث يُقبل فيها خبر الموثّق وإن لم يكن عادلًا، وبعبارة أُخرى لا يستتيب الإمام المعصوم من لا يأتمّ به ولا يعتمد إمامته فى هذا الدور من المنصب الخطير

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۱۵

فى الدين.

وكذلك الحال فى منصب القضاء والمناصب الأُخرى التى يقوم بها نيابة عن المعصوم فى ضمن مجال محدود، بالقياس إلى صلاحيات المعصوم بسبب العصمة العلمية والعملية، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» «۱»

، حيث جعل الأحبار وهم العلماء، فى‌طول الربانيين وهم الأوصياء المستحفظون ينوبون عنهم فى بعض حدود الصلاحيات.

فيُعلم من ذلك أنّ صلاحيات نيابة الفقيه أو المجتهد كلّها منشعبة ومتعلّقة بالمعصوم وإمامته، فهذا الباب مرتبط عضوياً بشؤون الإمام المعصوم، فمن الغفلة بمكان بتر صلة هذا الباب الذى هو باب الفتوى والقضاء وباب الحكم وباب الحدود ونحوها، عن الصلة بشؤون المعصوم، بدعوى أنّ الفتوى إخبار محض.

أو أنّ القضاء ليس بتنصيب نيابى بل هو عبارة عن قاضى التحكيم، أى بتراضٍ من الخصمين، وأنّ صلاحية نفوذ القضاء ناشئة من التزام وتوافق طرفى النزاع فى الخصومة، أو أنّه ناشٍ من قاعدة الحسبة التى مؤدّاها استكشاف الجواز وإن لم يكن إذناً ولائياً ونيابة، بل هو جواز تكليفى محض وليس مؤدّىً حقوقياً، وبالتالى يكون التمسّك بقاعدة الحسبة تجاوز على ضرورة امتداد ولاية المعصوم إلى هذه المواقع، والحدّ من أياديه وشؤون تصرّفه وصلاحيات تصرّفه.

وكذلك ما يقال من تفسير صلاحية الحكم للفقيه والمجتهد الناشئة من

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۱۶

انتخاب الأُمّة بمقتضى قاعدة الشورى بالمعنى المقلوب لها، بمعنى سلطة الأكثرية؛ لأنّ المعنى الأوّل الصحيح لها هو بمعنى المداولة الفكرية والاطّلاع والفحص المعلوماتى، واتّباع منهج الفحص العلمى الخبروى والفرق الاستشارية التخصّصية فى كلّ مجال، وكذلك ما يقال من تفسير صلاحية الفقيه والحاكم من أنّها ناشئة من العقد والتعاقد بين الأُمّة والحاكم المسمّى بالبيعة. وكلّ هذه المبانى تصبّ فى بتر الصلة مع المعصوم، وتحديد صلاحياته وولايته أو تجميدها، وبالتالى هذه التنظيرات الفقهية تؤول إلى حسر المعصوم عن ولايته الفعلية وتجميدها، وتصوير المبنى على تصوّر خاطئ، وهو عدم التصدّى الفعلى من قبل المعصوم للأمور، وبالتالى يؤول الأمر إلى تصوّرات اعتقادية خاطئة خطيرة فى معرفة الإمام والإمامة، وإن كان هذا التلازم بين هذا التنظير الفقهى وهذه اللوازم الأُخرى هو تلازم نظرى خفى مغفول عنه.

وقال الشيخ المفيد فى المقنعة «۱» فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

(فأمّا إقامة الحدود: فهو إلى سلطان الإسلام المنصوب من قبل اللّه تعالى، وهم أئمّة الهدى من آل محمّد عليهم السلام، ومن نصّبوه لذلك من الأمراء والحكّام، وقد فوّضوا النظر فيه إلى فقهاء شيعتهم مع الإمكان، فمن تمكّن من إقامتها ... ويجب على إخوانه من المؤمنين معونته على ذلك إذا استعان بهم، ما لم يتجاوز حدّاً من حدود الإيمان، أو يكون مطيعاً فى معصية اللّه تعالى به، لم يجز

لأحد من المؤمنين معونته فيه، وجاز لهم معونته بما يكون به مطيعاً للّه‌تعالى من إقامة حدّ وإنفاذ حكم على حسب ما تقتضيه الشريعة، دون ما خالفها من أحكام أهل الضلال ... وليس لأحد من فقهاء الحقّ ولا من نصّبه سلطان الجور منهم للحكم أن

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۱۷

يقضى فى الناس، بخلاف الحكم الثابت من آل محمّد عليهم السلام، إلّاأن يضطرّ لذلك للتقية والخوف على الدين والنفس ... ومن لم يصلح للولاية على الناس لجهلٍ بالأحكام أو عجز عن القيام بما يُسند إليه من أُمور الناس، فلا يحلّ له التعرّض لذلك والتكلّف، فإن تكلّفه فهو عاصٍ غير مأذون له من جهة صاحب الأمر الذى إليه الولايات، ومهما فعله فى تلك الولاية فإنّه مأخوذ به محاسب عليه ومطالب فيه بما جناه، إلّاأن يتّفق له عفو من اللّه تعالى، وصفح عمّا ارتكبه من الخلاف له، وغفران لما أتاه). انتهى.

ثانياً: فى باب العبادات، فإنّ مشهور علماء الإمامية بنوا على شرطية الإيمان والمعرفة بالأئمّة فى صحّة العبادات، وقد ساقوا فى ذلك أدلّة قرآنية وروائية «۱»، وهى الآيات التى تدلّ على حبط العمل من دون الإيمان، نظير ما وقع فى قصّة إبليس اللعين، حيث حبطت عبادته الطويلة الأمد بتركه ولاية ولىّ اللّه وخليفته.

وكذا قوله تعالى: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» «۲»

، وقوله تعالى: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» «۳»

، وقوله تعالى: «وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» «۴»

، وقوله تعالى فى وصف حال الذين فى قلوبهم مرض: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ» «۵»

، وقد فسّر البارى المرض فى القلوب بالضغينة حينما قال: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ» «۶»

، وهى فى قبال مودّة القربى المفترضة، إلّاأنّ بعض متأخّرى هذا العصر احتملوا أنّ غاية مفاد تلك الأدلّة هى نفى القبول والثواب

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۱۸

الأُخروى، لا صحّة العمل بلحاظ سقوط العقوبة، وإن لم يعتمدوا على مجرّد هذا الاحتمال فى صحّة نيابة غير المؤمن فى‌العبادة

ولا يخفى أنّ هذا البحث شامل للاعتقاديات أيضاً، من الأيمان بالتوحيد والنبوّة والمعاد، كما أشرنا إليه فى مقالة سابقة.

فيتأتّى القولان فى ذلك أيضاً، وإن كان فى تسمية الاحتمال الثانى قولًا مسامحةً، فعلى قول المشهور لا يكون ذلك الاعتقاد بأُصول الدين من دون الولاية لخليفة اللّه سالماً صحيحاً، بل منطوياً على نمط من الشرك والكفر، كالذى حصل لإبليس مع إقراره بالربوبية والمعاد، حيث طلب الإنظار إلى يوم البعث، وكذلك كان مقرّاً بنبوّة آدم وتفضيله عليه إلّاأنّه حيث كان غير منقاد لولاية خليفة اللّه، لم يكن إيمانه صحيحاً، ولم ينجه من مصير الخلود فى النار.

وأمّا على القول الآخر، فيكون الإقرار متحقّقاً، ولا يُعاقب على التوحيد والنبوّة والمعاد، وإن عوقب على ترك الإقرار والإيمان بالولاية، لكنّه لا يُثاب على ما قد أقرّ به من التوحيد والنبوّة والمعاد من أُصول الدين.

ومحصّل الفرق بين القولين: إنّه على قول المشهور يبطل جميع أعمال التارك للولاية والإيمان، سواء البدنية أو القلبية الاعتقادية، فيعاقب على تركها، لأنّه قد أتى بها بنحو فاسد خاطئ، وبالعكس على القول الآخر، فإنّه لا يعاقب على ما أقرّ به من أُصول الدين، بل غايته أنّه لا يثاب عليها، وغاية ما يعاقب عليه على هذا القول يقتصر على ترك ولاية ولىّ اللّه.

فبين القولين جهات من الفرق واضحة، فعلى القول الثانى تضعف شدّة لون ولاية الإمام فى الأعمال، بخلافه على القول الأوّل؛ فإنّ التركيز فيه واضح، وباب العبادات أحد الأقسام الأربعة لمجموع الفقه.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۱۹

الضريبة المالية ...: ص: ۲۱۹

ثالثاً: الخمس، وهو وإن كان من العبادات، إلّاأنّ الكلام فيه من حيثية أخرى، وهى جواز التصرّف فيه بإيصاله إلى المصارف الشرعية. وقد اختلفت التخريجات فى ذلك، فمن تخريج أنّه من باب مجهول المالك، ومن ثمّ يحتاط بالتصدّق به عنه (عج) عند صرفها فى المصارف الشرعية.

فيكون مستند جواز التصرّف حكم مجهول المالك، لا المأذونية المنشعبة من ولاية الإمام عليه السلام.

وقيل: بجواز التصرّف والإيصال إلى المصارف الشرعية من باب أنّ الخمس هو لمقام الحاكم والحكومة، وإن كان بعض مصارفه الذرّية من بنى هاشم زادهم اللّه شرفاً- وعلى ذلك فكلّ من يتصدّى للحكم الشرعى يسوغ له التصرّف، وإن كانت صلاحية حكمه قد انبثقت من ولاية الأُمّة على نفسها، وبالتالى فلا يكون التصرّف فى الخمس بأذنٍ منه عليه السلام، بل ولا تكون ولايته على الخمس فعلية حينئذٍ.

وقيل: تخريج الجواز المزبور من باب الحسبة؛ إذ الأصل عدم ثبوت ولاية نيابية للمجتهد من قبل المعصوم. إلى غيرها من التخريجات التى تبتنى على عدم استفادة الجواز من المأذونية منه (عج) باعتبار ولايته على الخمس.

فهى إمّا تعطّل ذات الولاية التى له (عج)، أو تعطّل آثار الولاية، مع أنّ جعل الخمس بنصّ الآية وكذلك الفىء هو لذى القربى المعصومين؛ لمكان التعليل فى آية الفىء بإقامة العدالة المالية فى المجتمع، قال تعالى: «كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» «۱»

حيث إن إرساء العدالة يتوقّف على العلم اللدنى التامّ المحيط بنظم المال والنقد والاقتصاد، وغيرها من المنابع والحقول المالية وموارد البيئة

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۲۰

الأُخرى لتداول المال، كما يتوقّف على علوم الإدارة والتدبير الثاقبة، وعلى الأمانة البالغة لدرجة العصمة العملية.

فالولاية للخمس والفىء خاصّة به (عج)، وولايته فعلية غير معطّلة إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها، وكلّ صلاحية ومأذونية يجب أن تكون من قبل شخصه الشريف، نظير التوقيع الشريف: «أمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا»، ونحو ذلك مما يستشفّ منه المأذونية.

وقد يُظنّ أنّ قاعدة الحسبة أوفق بالاحتياط، حيث إنّها مبتنية على عدم ثبوت النيابة للمجتهد من قبل المعصوم، وإنّ ما يتصدى له المجتهد من الأُمور العامّة إنّما هو من باب الجواز التكليفى المحض، لا المأذونية النيابية، وفى الحقيقة فإنّ قاعدة الحسبة فى أصلها مبنية- كما هى لدى جمهور أهل سنّة الجماعة- على عدم وجود المنصوب للولاية العامّة بالنصّ الإلهى، فيتمسّك لجواز التصرّف بتقرير مقدّمات الحسبة، فمؤدّى الحسبة فى الحقيقة مبنية على عدم لزوم تولّد الجواز من قبل إذنه (عج)، وبالتالى عدم انحصار انشعاب المأذونية من ولايته.

السلطة فى النظام العالمى ...: ص: ۲۲۰

رابعاً: الجهاد الابتدائى فإنّه قد أطبقت الإمامية على اختصاص هذا المقام بالإمام المعصوم عليه السلام، حيث إنّ الجهاد الابتدائى فى لغة القانون الوضعى الحديث يوازى ويعادل الوصاية على المجتمعات البشرية، والنظام المدنى العالمى الموحّد لإرساء العدالة العالمية فى جميع أرجاء الكرة الأرضية، فى نظام موحّد عالمى، ويكون بيده القرار الأوّل فى مصير البشرية. وهذا مقام حسّاس خطير لا يتأهّل له غير المعصوم، فمن الغريب بعد ذلك التمسّك بذيل قاعدة الحسبة وتقرير مقدّمات لتصوير جواز التصدّى لغير المعصوم لهذا الشأن والمقام الخطير.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۲۱

النظام الإيماني في‌النظام المدني ...: ص: ۲۲۱

خامساً: باب النكاح مع أهل الخلاف. فقد ذهب كثير من المتقدّمين إلى عدم جواز نكاح المؤمنة من غير المؤمن لا- سيما غير المستضعف، كالمعاند. وذهب المتأخّرون إلى الكراهة أو إلى تقيّد المنع إذا خِيف على إيمانها، وفي بعض ما ورد في ألسن الروايات كراهة تزويج المؤمن بغير المستضعفة، ونظير ذلك ورد في باب الذبائح من التفصيل بين ذبيحة المستضعف وبين ذبيحة المعاند.

المشاركة في الأنظمة الوضعية ...: ص: ۲۲۱

سادساً: باب الولايات في الأنظمة الوضعية. فقد ورد أنّ تسلّم أحد المناصب في الأنظمة المزبورة مشروط إمّا بالإكراه، وإمّا بغرض خدمة المؤمنين وقضاء حوائجهم.

وفي الحقيقة أنّ هذا الجواز ليس تكليفاً محضاً، وأنّما هو مأذونية منه عليه السلام وبماله من الولاية.

الإمامة والنظام المالي ...: ص: ۲۲۱

ونظير ذلك باب إحياء الموات، من أحيا أرضاً فهي له، فإنّ الجواز هنا مأذونية منهم عليهم السلام لولايتهم. وكذلك باب التعامل المالي في أشكاله المختلفة من المداولات المالية مع الأنظمة الوضعية، كما في شراء المقاسمات والخراج وإجارة الأراضي وقبول المنح، وغيرها، فهو إذن تسهيلي منهم عليهم السلام؛ لكونهم الحكّام الأصليين في الحقيقة، وبيدهم شرعاً زمام الأمور، فلا يكون من مجهول المالك ونحو ذلك. كما ورد عنهم عليهم السلام «لك المهنا وعليهم الوزر»، ومن ثمّ قال الشيخ المفيد في المقنعة: (.. ومن تأمّر على الناس من أهل الحقّ بتمكين ظالم له

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۲۲

وكان أميراً من قبله في ظاهر الحال، فإنّما هو أمير في الحقيقة من قبل صاحب الأمر الذي سوّغه ذلك وأذن له فيه، دون المتغلّب من أهل الضلال) «۱».

وقد تقدّم أنّ الصلاحية في باب القضاء وإقامة الحدود والقصاص وغيرها من أبواب إقامة الحكم، هي نيابية لا بالأصالة، ناشئة من المأذونية منه (عج)، لا من تراضي المتنازعين في باب الخصومات، ولا من تولية الناس والأُمّة، ولا من باب قاعدة الحسبة التي مؤدّاها جواز التكليف المحض وتطاول على ولايته في هذه الأبواب من الحكم والحكومة، كما ورد قول أمير المؤمنين لشريح القاضي: «قد جلست مجلساً لا يجلسه إلّانبيّ أو وصيّ نبيّ أو شقي» «۲».

والمراد من الحصر في كلامه عليه السلام: الحصر في مقام الصلاحية التي هي بالأصالة، فلا تنافي الصلاحية التي هي بالنيابة بالإذن من قبلهم عليهم السلام، حيث يكون فيها الفقيه تابعاً لنظام القضاء عندهم عليهم السلام.

والحاصل، إنّ أزمّة وزمام عقال الأبواب الفقهية تتناهى إلى ولايتهم عليهم السلام، التي هي تابعة إلى ولاية الرسول، وبالتالي إلى ولاية اللَّه، والتركيز على هذا اللون والحيثية والجهة في الأبواب الفقهية، يضبط سلامة النتائج في التفاصيل؛ بسبب استقامة البنية الأصلية في قواعد الأبواب المحكّمة فيها.

هذا فضلًا عن حجّية أقوال وفعل وتقرير المعصوم عليه السلام كمصدر في الأدلّة الشرعية الأصلية، فالحجّية في إبلاغ الشريعة والأخذ بالأحكام الشرعية عنهم عليهم السلام؛ لدورهم وصلاحيتهم التشريعية التابعة لسنن النبي صلى الله عليه و آله التابعة لفرائض اللَّه تعالى، حيثية تغاير حيثية ولايتهم عليهم السلام في نظام القانون والفقه بما هم ولاة أمر

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۲۳

وحكّام من قبل الرسول صلى الله عليه و آله، ومن قبله تعالى عزّ اسمه، فلا يكفى فى البحث الفقهى الالتفات إلى إحدى الحيثيتين وهى الحجّية مع الغفلة عن الحيثية الأُخرى وهى ولايتهم فى الحكم والحكومة، بل اللازم الالتفات إلى تمام الحيثيات التى لهم عليهم السلام فى الأبواب الفقهية، لا الاقتصار على الاثنين فضلًا عن الاقتصار على الواحدة منهما.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۲۵

حرمة طاعة حكام الجور والطواغيت ... ص: ۲۲۵

قال بعض: إنّ مثل معاوية ويزيد والحجّاج طاعتهم لازمة، وتولّى الجائرين واجب بالعنوان الثانوى، ويستدلّ على ذلك بضرورة حفظ النظام وأنّه لابدّ للناس من أمير برّ أو فاجر، والدليل أجنبى عمّا يتديّن به القائل من طاعة حكّام الجور وتولّيهم، وبيان ذلك بوجوه:

الأوّل: إنّ ضرورة الفعل وهو النظم لا تدلّ على مشروعية فاعلية الفاعل، نظير السجّان الذى يسقى المحبوس لديه المشرف على الهلاك ماءً غصبياً لا يدلّ على إباحة الماء؛ لأنّ شرب الماء للسجين المظلوم لا يوجب حسناً فاعلياً للفاعل، بل يوجب سوءً فى فاعلية الفاعل. ولهذا الأمر أمثلة عديدة ذكرها علماء الأُصول، نظير من يتوسّط الدار الغصبية فإن خروجه ضرورة بحكم العقل، ولكنّ ذلك لا يعنى عدم العقاب للفاعل على الخروج مع كونه بضرورة العقل. ونظير ذلك قوله تعالى: «فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ» «۱»

، فإنّه تعالى أحلّ الميتة عند الضرورة لأكلها، واستثنى من يتعمّد إلقاء نفسه فى الهلكة، كأن يسلك طريقاً صحراوياً من دون مؤونة فيضطرّ إلى أكل الميتة، فإنّ مثل هذا الشخص الذى يوقع نفسه فى هذا الاضطرار أكله ضرورى بحكم العقل، ولكن تلك الضرورة لا ترفع عنه العقاب وسوء فاعليته.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۲۶

وكذلك من يذهب بنفسه إلى مجلس يعلم بأنّه سيُكره على الفعل الحرام كالزنا والفاحشة وشرب الخمر، فإنّه بعد ذهابه إلى ذلك المجلس يكون إتيانه للفعل ضرورة؛ لوقوعه فى الإكراه، ولكنّ ذلك لا يكون عنواناً ثانوياً رافعاً لحرمة الفعل.

ومن ثمّ قال علماء الأُصول: إنّ التسبّب للوقوع فى الاضطرار للضرورات لا يرفع الحرمة، وإن كان رافعاً لفاعلية (خطاب الحكم) ومحرّكية حرمة الفعل المسمّاة بخطاب الحرمة.

الثانى: إنّه بمقتضى تمسّكه بوجوب حفظ النظام المدنى من الأموال والأعراض والنفوس، يجب تولّى الحاكم الكافر والاستعمار الأجنبى على حسب كلام هذا القائل- وإطاعته، ويلزم مشروعية حكومته؛ للضرورة المزبورة حسب ذلك الزعم.

الثالث: إنّ ضرورة حفظ النظام أىّ علاقة لها مع مشروعية حكم الحاكم الجائر ومشروعية تولّيه والركون إليه قلباً وقالباً، بل غاية لزوم حفظ النظام هو لزوم الكفّ عمّا يسبّب المزيد من الفساد والهرج والمرج إذا كان أهل الحقّ لا قدرة لهم على إزالة الجائر، ولزوم إعتماد جانب التقية (سياسة الأمن)، لا الموالاة للظالم الجائر، وكم البون بعيد بين الأمرين.

الرابع: إنّ حفظ النظام هو الذى يوجب إزالة النظام الجائر فى جملة من الصور والموارد، كما إنّ حفظ النظام يقتضى دوام إنكار المنكر، وهو على درجات: بدءاً من القلب وهو لا يسقط بحال، ثمّ اللسان (المعارضة الإعلامية)، فاليد (المعارضة التغييرية)؛ وذلك لأنّ الجور يتعدّى على أوّليات الحقوق الأوّلية فى النظام الاجتماعى، فكيف يُتوهّم أنّ حفظ النظام يقتضى ترك إنكار المنكر فضلًا عن اقتضائه التولّى والذوبان فى الجور وولاء الظلم.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۲۷

الخامس: قوله تعالى: «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ» «۱»

و:

«يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» «۲»

و: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لَاانْفِصَامَ لَهَا» «۳»

، تبين هذه الآيات حرمهٔ الركون إلى الظالم الجائر والطاغوت بل يجب الكفر به والتمرّد عليه، كما قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلّاً لحرام أو تاركاً لعهد اللَّه ومخالفاً لسنّهٔ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فعمل في عباد اللَّه بالإثم والعدوان، ثمّ لم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على اللَّه أن يدخله مدخله» «۴».

السادس: إنّ ملف سيرهٔ الغاصبين لخلافهٔ أهل البيت عليهم السلام، وبدعهم وضلالاتهم، يبرهن إمتناع مشروعيهٔ خلافتهم تظلّ مع منكر أفعالهم؟ فهل مع هذا الملف من الضلالات تبقى مشروعيهٔ خلافتهم تحت عنوان ضرورهٔ حفظ النظام؟

وهل ضرورهٔ حفظ النظام تستلزم الضلالات والبدعهٔ والظلم في الحكم؟

السابع: إنّ العنوان الثانوى كما حُرّر في علم الأُصول لا يرفع واقع الحكم وملاكه من المصلحهٔ أو المفسدهٔ في الفعل، وإنّما يرفع العقوبهٔ والمؤاخذهٔ، بشرط أن لا يكون الإقدام على الاضطرار بسوء الاختيار، وإلّا فلا ترتفع العقوبهٔ أيضاً.

الثامن: ما قام به أمير المؤمنين عليه السلام من الامتناع على أصحاب السقيفهٔ في

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۲، ص: ۲۲۸

مؤامرتهم، وكذلك مواجهه الصدّيقهٔ الزهراء لأبي بكر، وكذلك مقاطعهٔ الحسن لمعاويهٔ ومواجهه الحسين عليه السلام ليزيد، وهم أهل بيت التطهير الذين أذهب اللَّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وهم الثقل الثاني الذين أُمرنا بالتمسّك بهم، بل كلّ أئمّهٔ أهل البيت من الحسن المجتبى والسجّاد وبقيهٔ الأئمّهٔ عليهم السلام، كانوا على حرب مقاطعهٔ مع سلطات بني أُميهٔ وبني العبّاس، ومجانبهٔ للحكم الجائر، ولذلك قُتلوا وسُبوا وشُرّدوا عن أوطانهم.

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۲، ص: ۲۲۹

أبواب المعرفهٔ

الفصل السادس: أقسام الصلاحيات المفوّضهٔ لهم عليهم السلام ... ص: ۲۲۹

اشارهٔ

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۲، ص: ۲۳۱

أقسام الصلاحيات المفوَّضهٔ لهم عليهم السلام

والغرض من الخوض في بحث التفويض (الصلاحيات المفوّضهٔ) ليس بسط الكلام فيه ولا استعراض أدلّهٔ وجوه البطلان في أقسامه أو الصحيحهٔ منه، بل الغايهٔ من ذلك التنبيه على تعدّد أقسامه وتكثّرها وتباينها عن بعضها البعض، وأنّ جملهٔ من أقسام الصلاحيات المفوّضهٔ ليست تفويضاً عُزْلياً بعزل قدرهٔ وهيمنهٔ الباري تعالى، كما يتوهّمه غير المتضلّع في علوم المعارف، بل هي من باب إقداره تعالى، وهو أقدر فيما أقدر غيره على ذلك الشيء.

الأقوال في التفويض ...: ص: ۲۳۱

قال الشيخ المفيد قدس سره: (التفويض: هو القول برفع الحظر عن الخلق في الأفعال والإباحهٔ بما شاؤا من الأعمال، وهذا قول الزنادقهٔ وأصحاب الإباحات، والواسطهٔ بين هذين القولين أنّ اللَّه أقدر الخلق على أفعالهم، ومكّنهم من أعمالهم، وحدّ لهم الحدود في ذلك، ورسم لهم الرسوم، ونهاهم عن القبائح بالزجر والتخويف والوعد والوعيد، فلم يكن بتمكينهم من الأعمال مجبراً لهم عليها، ولم يفوّض لهم الأعمال لمنعهم من أكثرها، ووضع الحدود لهم فيها وأمرهم بحسنها ونهاهم

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۳۲

عن قبيحها، فهذا هو الفصل بين الجبر والتفويض) «۱».

قال المجلسی فی البحار: (وأمّا التفويض: فيطلق على معانى بعضها منفى عنهم عليهما السلام وبعضها مثبت لهم.

فالأوّل: التفويض فی الخلق والرزق والتربيـة والإماتة والإحياء، فإنّ قوماً قالوا إنّ اللَّه تعالى خلقهم وفوّض إليهم أمر الخلق فهم يخلقون ويرزقون ويميتون ويحيون...

ثمّ ذكر لهذا القول وجهين، حكم بأنّ أحدهما كفر صريح، والآخر دلّت الأخبار على المنع عنه، ثمّ قال:

الثانى: التفويض فی أمر الدين وهذا أيضاً يحتمل وجهين:

أحـدهما: أن يكون اللَّه فوّض إلى النبىّ والأئمّة عليهم السـلام عموماً أن يحلّوا ما شاؤا ويحرّموا ما شاؤا من غير وحى وإلهام، أو يغيّروا مـا أُوحى إليهم بـآرائهم، وهـذا باطـل لا يقول به عاقل؛ فإنّ النبىّ صـلى الله عليه و آله كان ينتظر الوحى أياماً كثيرة لجواب سائل ولا يجيبه من عنده وقد قال تعالى: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» «۲».

وثانيهما: أنّه تعالى لمّا أكمل نبيّه صلى الله عليه و آله بحيث لم يكن يختار من الأُمور شيئاً إلّا ما يوافق الحقّ والصواب ولا يحلّ بباله ما يخالف مشيئته تعالى فی كلّ باب، فوّض إليه تعيين بعض الأُمور، كالزيادة فی الصلاة، وتعيين بعض النوافل فی الصلاة والصوم وطعمة الجدّ، وغير ذلك ممّا مضى، وسيأتى إظهاراً لشرفه وكرامته عنده، ولم يكن أصل التعيين إلّابالوحى، ولم يكن الاختيار إلّابالإلهام،

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۳۳

ثمّ كان يؤكّـد ما اختاره صـلى الله عليه و آله بالوحى، ولا فساد فی ذلك عقلًا، وقـد دلّت النصوص المسـتفيضة عليه ممّا تقدّم فی هذا الباب وفی أبواب فضائل نبيّنا صلى الله عليه و آله.

ولعـلّ الصـدوق إنّما نفى المعنى الأوّل حيث قال فی الفقيه: وقـد فوّض اللَّه عزّوجلّ إلى نبيه صـلى الله عليه و آله أمر دينه ولم يفوّض إليه تعدّى حدوده وأيضاً هو رحمه اللَّه قد روى كثيراً من أخبار التفويض فی كتبه ولم يتعرّض لتأويلها.

الثـالث: تفويض أُمور الخلق إليهم من سياسـتهم وتـأديبهم وتكميلهم وتعليمهم، وأمر الخلق بإطـاعتهم فيمـا أحبّوا وكرهوا وفيما علموا جهة المصلحة فيه وما يعلموا، وهذا حقّ لقوله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» «۱»

وغير ذلك من الآيات والأخبار، وعليه يحمل قولهم عليهم السـلام: «نحن المحلّلون حلاله والمحرّمون حرامه»، أى بيانهما علينا ويجب على الناس الرجوع فيهما إلينا، وبهذا الوجه ورد خبر أبى إسحاق والميثمى.

الرابع: تفويض بيـان العلوم والأحكام بما رأوا المصـلحة فيها بسـبب اختلاف عقولهم أى عقول الناس- أو بسـبب التقيـة، فيفتون بعض الناس بالواقع من الأحكام وبعضـهم بالتقية، ويبيّنون تفسير الآيات وتأويلها، وبيان المعارف بحسب ما يحتمل عقل كلّ سائل، ولهم أن يبيّنوا ولهم أن يسـكتوا، كمـا ورد فی أخبـار كثيرة «عليكم المسألـة وليس علينـا الجواب»، كـلّ ذلك بحسب ما يريهم اللَّه من مصالح الوقت، كما ورد فی خبر ابن أشيم «۲» وغيره.

وهو أحد معانى خبر محمّد بن سنان فی تأويل قوله تعالى: «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ» «۳»

، ولعلّ تخصـيصه بالنبىّ صـلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السـلام لعدم تيسّـِر هذه التوسـعة لسائر الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، بل كانوا مكلّفين بعدم التقية فی بعض الموارد، وإن

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۳۴

أصابهم الضرر والتفويض بهذا المعنى أيضاً ثابت وحقّ بالأخبار المستفيضة.

الخـامس: الاختيار فی أن يحكموا بظاهر الشـريعة أو بعلمهم وبما يلهمهم اللَّه من الواقع ومـخّ الحقّ فی كلّ واقعـة، وهـذا أظهر محامل خبر ابن سنان، وعليه أيضاً دلّت الأخبار.

السادس: التفويض فى العطاء فإن اللّه تعالى خلق لهم الأرض وما فيها وجعل لهم الأنفال والخمس والصـفايا وغيرها، فلهم أن يعطوا ما شاؤوا ويمنعوا ما شاؤوا كما مرّ فى خبر الثمالى وسيأتى فى مواضعه. وإذا أحطت خبراً بما ذكرنا من معانى التفويض سهل عليك فهم الأخبار الواردة فيه وعرفت ضعف قول من نفى التفويض مطلقاً ولمّا يحط بمعانيه. «۱»

وقال الحكيم الفقيه الشاه آبادى فى كتابه رشحات البحار:

(المطلب الثالث عشر فى الولاية التشريعية، وهى قسمان:

الأوّل: معرفـة النبىّ والولىّ بأنّهم المقرّبون الواقعون فى مرتبـة الإطلاق والمشـيئة، بحيث لم يكن بينهم وبين اللّه أحد، وهى من العقائد اللازمـة فى الشـريعة، ومعرفتهم بالنورانيـة؛ لأنّـهم أوليـاء النعم، حيث إنّ نعمـة الوجود وكمالاـته تحصل بمشـيئته وهم صاروا مشـيئته، والفرق بينهم وبين الوجود المطلق هو المشـيئة، إنّ النقطـة قد أخذت القرب من غير اختيار وهم أخذوها.. بالاختيار والامتحان وليسـت الحقيقة الإطلاقية إلّاأمراً واحداً، والأفراد عين الطبيعة المطلقة، فتدبّر فيه.

الثانى: الاعتقاد بأنّهم ولاة الأمر وأنّهم أولى بالأنفس، كما قال صلى الله عليه و آله فى الغدير:

«ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى. فقال صلى الله عليه و آله: من كنت مولاه فهذا على مولاه»، كما

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۳۵

رواه العامّة فى أزيد من ثمانين طريقاً، والخاصّة أزيد من أربعين طريقاً واصلًا إلى النبىّ صلى الله عليه و آله، بداهة أنّ الولىّ فى المقام لا يمكن أن يكون معناه إلّاالسيد والأولى بالأمر؛ لعدم مناسبة سائر المعانى من استنطاقه صلى الله عليه و آله وإقرارهم له صلى الله عليه و آله بأولويّته على الأنفس، كما لا يخفى على المنصف غير المتعصّب.

مضافاً إلى أن هذه الولاية والأولويّة من توابع الولاية الأوّلية فالتشـريع على طبق التكوين، يعنى فكما أنّهم توابع لهم وجوداً وتحقّقاً فى الواقع، وهم تحت لوائهم ذاتـاً واصـلًا، فلابـدَّ وأن يكونوا لهم طوعاً وتبعاً فى الظاهر حتّى يطابق الظاهر الباطن، اللّهمّ اجعلنا ممّن اعتقد بولايتهم ظاهراً وباطناً وممّن يواليهم ظاهراً وباطناً..) انتهى كلامه قدس سره.

أقسام التفويض ...: ص: ۲۳۵

ولنبسّط الكلام فى أقسام صـلاحياتهم وما خُوّل إليهم فى شؤون الدين الحنيف بترتيب آخر، سواء فى التبليغ أو التشريع أو إقامة الشرع الحنيف:

القسم الأوّل: فى كونه صـلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السـلام هم الباب والـدلائل على شـرع اللّه تعالى، وهو ما يعبّر عنه فى علم القانون الحـديث بالناطق الرسـمى لإمضاء ونفوذ القانون، فلا يؤدّى عن اللّه تعالى إلّاهو صـلى الله عليه و آله، وأهل بيته عليهم السـلام عنه.

وبعبارة أُخرى: إنّ التشـريع فى مرحلته الإنشائية لا يكون نافذاً ولا مدوّناً وثابتاً فى منظومة التشـريع إلّابعد أن يُصوّب انفاذه، فما لم يبرز إنشاء التشريع عبر القناة المخوّلة لذلك لا يكون ذلك التشريع إلّافى مرحلة الأطوار البدائية للحكم غير الواصل إلى مرحلة البلوغ التامّ.

وهذه المراحل فى الحكم الإنشائى وأطواره مغايرة لمرحلة تطبيق التشـريع فى الخارج على الموضوعات، أى ما يسـمى بالحكم الفعلى الجزئى.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۳۶

فقناة التبليغ والمبلّغ لهما تمام الموضوعيـة فى رسـمية القانون والتشـريع المبرم المحكم، وفى الحقيقة مقتضـى ما حُقّق فى علم الأُصول من أنّه ليس هنـاك إنشـاء محض خـالى عن الإخبـار، بـل كـلّ من الإنشـاء والإخبـار ممتزج ومتـداخل مع الآـخر غايـة الأمر أحـدهما بالمطابقة والآخر بالدلالة الالتزامية. ففى الإخبار المُخبِر وإن لم يكن يُنشـئ المخبر به بل يحكيه ويدلّ عليه، إلّاأنّ الحكاية والدلالة أمر

ينشأ فيُوجد، فالمخبر به وإن لم يكن إنشائياً إلّاأنّ الإخبار نفسه كفعل أمر إنشائى بضرب من ضروب الإنشاء، بل هناك دلالة إنشائية أُخرى فى الإخبار أيضاً وهى إنشاء المخبر للشهادة بمضمون الإخبار، ويتعهّد ويلتزم بصدق ما يخبر به هذا فى الإخبار.

أما فى الإنشاء فهو وإن كان بالمطابقة إيجاد اعتبارى للمعنى المُنشأ، إلّاأنّ فيه مداليل خبرية أيضاً، منها: إخبار عن وجود إرادة جدّية له بمضمون الإنشاء. ومنها:

الإخبار عن وجود مصلحة أو مفسدة فيما يأمر به أو ينهى عنه فى موارد إنشاء الطلب والتشريع والتقنين. ومنها: الإخبار عن وجود داعى للإنشاء، وهذا فى جميع الأقسام الثمانية أو التسعة من أبواب الإنشاء، وغير ذلک من المداليل الأُخرى.

وإذا اتّضحت هذه المقدّمة، يتبيّن عدم وجود إخبار محض فى بيان الأحكام عن اللَّه تعالى، بل هو مندمج ومشوب بضرب من الإنشاء، ومن ثمّ كان النطق الرسمى فى القنوات الوضعية فى الأنظمة السياسية فى الدول إنشاء تفعيلى للتشريع، فإبراز وإيصال الأحكام من قبل الناطق عن السماء منصبٌ تشريعىّ يرسم فعلية التشريع، ومن ذلک يتبين الغفلة السطحية فى حسبان أنّ الائمّة عليهم السلام قناة تبليغية معتادة كالرواة، أو عملية خبروية معتادة كالفقهاء والقانونيين فى إيصال الأحكام.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۳۷

وفى ظلّ هذا القسم يتبيّن دخالة موقعية الرسول صلى الله عليه و آله فى التشريعات الصادرة من البارى تعالى، عطية منه لنبيّه صلى الله عليه و آله، فالمخبر بالقرآن والمبلّغ لكلّ ما فيه عن اللَّه إنّما هو النبىّ صلى الله عليه و آله. وكذلک الحال فى بقية فرائض اللَّه فى الأحاديث القدسية، وهذه المرتبة الخطيرة فى شؤون التشريع من المصادقة على تشريعات السماء، فضيلة منه تعالى حباها لنبيّه صلى الله عليه و آله، وهذا الموقع فى شؤون الدين ثابت فى الجملة للأئمّة عليهم السلام فيما يبلّغونه عن الرسول عن اللَّه تعالى، فى تلک الموارد التى لم يتلقّاها الناس عن النبىّ صلى الله عليه و آله وإنّما أدّاها النبىّ صلى الله عليه و آله ولا زال يؤدّيها إلى خاصّة عترته، بحسب ما لديه ولديهم من ارتباط لدنى غير مقصور على حال الحياة.

ومن أمثلة هذا القسم: تبليغ سورة البراءة، ويشير إلى هذا القسم قوله تعالى:

«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْکَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» «۱»

، وقوله تعالى: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ» «۲»

، وغيرها من الآيات المتضافرة فى هذا الشأن له صلى الله عليه و آله.

وأما الآيات المتعرّضة لإثبات هذا الشأن لهم عليهم السلام، فقوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْکَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» «۳»

، بضميمة قوله الآخر:

«وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِکَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ* بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ» «۴»

، فدلّت الآيتان على وجود مجموعة فى هذه الأُمّة قد أُودعوا الكتاب مُبيّناً كله فى صدورهم، ومع دوام وأبدية حاجة الناس إلى الكتاب الذى لا تنفذ كلماته وبحور

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۳۸

علومه فتدوم الحاجة لوجود هذه المجموعة الذين شهد لهم القرآن بالقدرة على بيان الكتاب كلّه إلى يوم القيامة، ونظيره قوله تعالى:

«فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ* إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «۱»

، بضميمة قوله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكَمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً» «۲»

وغيرها من الآيات التى سنستعرضها فى الأبحاث اللاحقة.

أما الروايات فهى ما رواه الفريقان عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا يبلّغ عنّى إلّاأنا أو رجل منّى أو قال من أهل بيتى» «۳»

، وهـذا الحـديث النبوىّ أصله حـديث قدسـىّ جاء به جبرئيل للنبىّ صـلى الله عليه و آله: «لا يبلّغ عنك إلّاأنت أو رجل منك»، ونقل أيضاً فى حديث..

قال ثمّ بعث أبا بكر بسورة التوبة فبعث عليّاً عليه السلام خلفه فأخذها منه، قال: «لا يذهب بها إلّارجل منّى وأنا منه» «۴».

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۳۹

والظاهر أنّ مفاد صـدور هذا الحديث فى عدّة مواطن، منها: إبلاغ سورة البراءة كما تقدّم، ومنها: فى عام حجّة الوداع حيث قال صـلى الله عليه و آله: «إنّ عليّاً منّى وأنا من على، وهو ولىّ كلّ مؤمن بعدى، لا يؤدّى عنّى إلّاأنا أو علىّ» «۱».

ومفاد هـذا الحديث وحديث البراءة وإن كان سـيأتى بسط دراية معناه لاحقاً، إلّا أنّه تجدر الإشارة إلى المعنى الظريف فى مفاده، وهو تعبيره تعـالى: «لاـ يؤدّى عنـك إلّـا أنت أو رجـل منـك»، لا يخلو من ظرافـة بلاغيـة ومعرفيـة اسـتعمل فيها التجريـد، حيث افترض فى الحديث القدسـىّ والنبوىّ أداء النبىّ صـلى الله عليه و آله عن نفسه، وهو لا يتمّ تصوّره إلّابتجريد مرتبة ومقام عالى للنبىّ صلى الله عليه و آله يؤدّى عنه، أى عن تلك المرتبـة منه تؤدّى المرتبـة النازلـة منه، أى يؤدّى المرتبة الجسـمانية النفسانية منه عن المرتبة النورية منه القلبيـة، وهـذا يقتضـى أنّ عليـاً عليه السـلام يتحمّـل عن المرتبـة النوريـة من النبىّ صـلى الله عليه و آله ويبلّغ عنه بلحـاظ ذلـك المقام النورى، لا عن الجسمانى فقط، لا سيّما وأن أحد مواطن صدور الحديث هو فى إبلاغ سورة من القرآن إلى أسماع

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۴۰

البشرية تبليغاً عن السماء فى أوّل نطق رسمى بهذه السورة.

القسم الثـانى: التفويض فى بيـان تأويـل الكتـاب وبطونه قـال تعالى: «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ» «۱»

، فـأجزاء الشـريعة جلّها فى بطون الكتاب وتأويله، وإن كانت أُصولها فى ظاهر الكتاب، سواء ذلك فى المعارف والأُصول الاعتقاديـة، أو فى الأحكام والفروع، ومن ثمّ كان بطون الكتاب سبعين بطناً وظاهره واحد، مع أنّ السبعين كناية عن الكثرة التى لا تُحصى، كقوله تعالى: «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» «۲».

وكـذلك الحال فى التأويل فإن التأويل للكتاب لا يقف على موارد النزول، بل يدور مدار العصور والدهور، بل يعمّ النشأتين والنشآت وما فوقها من العالم الربوبى، وقد قال تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» «۳»

، وقال تعالى: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ» «۴»

، وقال تعالى:

«لَاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» «۵»

، وقال تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» «۶»

، وقال تعالى: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» «۷».

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۴۱

أمّا الروايات «۱» فقد عقد فى ملحقات إحقاق الحقّ «۲» باباً بعنوان: أنّ عليّاً يقاتل على تأويل القرآن كما قاتل رسول اللّه صلى الله عليه و آله على تنزيله، وأورد فى الباب ما يقرب من ستّة أحاديث وأخرج لكلّ حديث عدّة طرق من مصادر العامة.

منها: ما رواه الحافظ أحمد بن حنبل فی مسنده «۳»، قال: «حدّثنا عبد اللَّه، حدّثنی أبی، حدّثنی وکیع، حدّثنی قطر عن إسماعیل بن رجاء، عن أبیه، عن أبی سعید، قال: قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: إنّ منکم من یقاتل علی تأویله کما قاتلت علی تنزیله قال: فقام أبو بکر وعمر «۴»، فقال: لا، ولکن خاصف النعل، وعلیّ یخصف نعله».

ومنها: ما رواه النسائی فی الخصائص بسنده إلی أبی سعید الخدری، قال:

«کنّا جلوساً ننتظر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فخرج إلینا قد انقطع شسع نعله، فرمی به إلی علیّ علیه السلام فقال: «إنّ منکم رجلًا یقاتل علی تأویل القرآن کما قاتلت علی تنزیله. قال أبو بکر: أنا. قال: لا. قال عمر: أنا. قال: لا. ولکن خاصف النعل» «۵».

ومنها: ورواه الحاکم النیسابوری فی المستدرک «۶» «ألا أنّ منکم من یقاتل علی تأویل القرآن کما قاتلت علی تنزیله. واستشرف لها القوم وفیهم أبو بکر وعمر ... الخ».

وبسط الکلام فی هذا القسم من مقاماتهم علیهم السلام، وإن کان سیأتی لاحقاً فی الأبواب القادمة، إلّاأنّه ینبغی التنویه بذکر نبذة من ذلک، وهو أنّه لابدّ من تبیّن

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۲۴۲

وبیان لتأویل الکتاب العزیز، کما تقدّم ذلک فی مفاد الآیات، وقد عُیّن هذا الدور الخطیر بعد الرسول صلی الله علیه و آله وأُوکل إلی علیّ وولده علیهم السلام، کما صرّحت بذلک الآیات، کآیة التطهیر ومسّ المطهّرین للکتاب المکنون.

وکذلک نصّت علی ذلک الأحادیث النبویّة، نظیر الحدیث المتقدّم: «تقاتل علی تأویل القرآن کما قاتل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی تنزیله»، وهذا ممّا یقتضی إسناد مقام إلهی إلی علیّ وأهل البیت علیهم السلام مؤازراً لمقام النبوّة. وإنّ علم تأویل الکتاب کلّه لدی علیّ وأهل بیته علیهم السلام وراثةً عن النبیّ صلی الله علیه و آله بوراثة لدّنیة لا کسبیة.

فتبیّن: أنّ علیّاً وولده هم الراسخون فی العلم الذین یعلمون تأویل القرآن، وأنّ الأُمّة إلی یوم القیامة مضطرّة ومحتاجة إلیهم ما بقیت الأُمّة محتاجة إلی الکتاب العزیز، وما بقی دین الإسلام خالداً للبشر، لکلّ البیئات والعصور المختلفة.

والجدیر بالإشارة أنّه قد قُرن فی مفاد الروایات بین دور الرسول صلی الله علیه و آله وبین دور أمیر المؤمنین علیه السلام، وأنّ الدور الثانی عدل للأوّل، نظیر ما فی حدیث الثقلین من عدلیة أهل البیت علیهم السلام للکتاب، إلّاأنّ هاهنا قد جُعلت القیمومة علی تنزیل القرآن للنبیّ صلی الله علیه و آله، والقیمومة علی تأویله مهمّة علی عاتق أمیر المؤمنین وولده المعصومین علیهم السلام وراثة من قیمومة النبیّ صلی الله علیه و آله علی التأویل.

وکما أنّ دور النبیّ صلی الله علیه و آله فی التنزیل هو انتداب من الغیب إلی الشهادة، فکذلک الحال فی دورهم فی التأویل، فالحدیث یدلّ علی المشاطرة بین التنزیل والتأویل فی اکتمال بیان حقیقة القرآن، وبالتالی مشاطرتهما فی تألیف مجموع الشریعة ومشارکتهما فی مجموع أبواب الدین.

القسم الثالث: صلاحیته صلی الله علیه و آله فی سنّ الأحکام والتشریعات المتنزّلة من أُصول تشریعیة قد شرّعها اللَّه عزّوجلّ، وهذا ما یعبّر عنه فی علم القانون بالتشریعات المستمدّة من الأُصول القانونیة، والظاهر أنّ کلّ تشریعات الرسول هی من هذا

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۲۴۳

القبیل، وقد أُطلق علیها فی الشریعة عنوان واسم السنّة (أی السنّة النبویة) «۱»، فی مقابل الفریضة.

وقد أُشیر إلیه فی متواتر الروایات الآتیة «۲» نظیر صحیحة الفضیل بن یسار قال:

«سمعت أبا عبداللَّه علیه السلام یقول لبعض أصحاب قیس الماصر: إنّ اللَّه عزّوجلّ أدّب نبیّه فأحسن أدبه، فلمّا أکمل له الأدب قال: «وَإِنَّکَ لَعَلَی خُلُقٍ عَظِیمٍ» «۳»

، ثمّ فوّض إلیه أمر الدین والأُمّة؛ لیسوس عباده، فقال عزّ وجلّ: «مَا آتَاکُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» «۴»

، وأنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان مسدَّداً موفَّقاً مؤيَّداً بروح القدس، لا يزلّ ولا يخطأ فى شىء ممّا يسوس به الخلق» «۵»

ثمّ ذكر عليه السلام جملة من سنن النبىّ صلى الله عليه و آله المضافة إلى فرائض اللَّه تعالى وستأتى تتمّة الحديث فى المقالات اللاحقة.

وظاهر الروايات أنّ كلّ تشريعات الرسول صلى الله عليه و آله التى بمعنى إنشاء الحكم الجديد هى من هذا القبيل، وكذا الحال فى تشريعاتهم عليهم السلام فإنّها فى طول الأُصول القانونية القرآنية والنبويّة.

ولابدَّ من الالتفات إلى أنّ الأُصول التشريعية القانونية ليست على مرتبة واحدة، فبعضها فوقانى جدّاً يُعدّ فى الصدارة والمرتبة الأُولى من التشريعات الأديانية، نظير المراتب فى المواد الدستورية، وبعضها متوسّطات، وبعضها الآخر

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۴۴

مراتب منشعبة، والتنظير بين منظومة التشريعات فى الدين ومنظومة التشريعات الدستورية ليس من كلّ وجه؛ لأنّ مجموعة القوانين الدستورية هى لنظام الدولة الذى هو أحد الأبواب العديدة فى التشريع الدينى، وإنّما التشبيه هو من جهة عموم بحث مراتب التشريع وكيفية ترامى المراتب نزولًا وصعوداً.

وبعبارة أُخرى: كما للمجالس النيابية دور تشريع فى طول وتبع للأُصول والمواد الدستورية إلّاأنّ هذه التبعية لا تلغى ما لتلك المجالس من دور وصلاحية تشريع، كما أنّ تلك الولاية والسلطة المفوّضة للتشريع لتلك المجالس النيابية لا يُنفى تبعيتها لأُصول الدستور، وكذلك الحال فى التشريعات الوزارية فإنّها تبع لتشريعات المجالس النيابية من دون تنافى بين التبعية و تفويض صلاحية التشريع، وهذا المثال لبيان ظاهرة تنزّل التشريعات والاشتقاق القانونى والاستخراج الذى هو ليس عملية تطبيق محض كالكلّى والفرد، بل استخراج وانشعاب وتنزّل وتولّد، نظير تولّد نظام النقد العادل من أجل إرساء العدالة الاجتماعية، وهذه الظاهرة القانونية بديهية فى علم القانون.

وعلى ضوء هذه القاعدة فى أُصول التشريع يتّضح أنّ الأُصول التشريعية النبويّة حيث إنّها تنزيل وتنزّل للأُصول التشريعية من قبله تعالى، يتّضح المراد من فوقية الأُصول التشريعية الإلهية على الأُصول التشريعية النبويّة، بمعنى ضرورة نُشوء الأصل التشريعى النبوىّ من أصل تشريعى إلهى، لا بمعنى فوقية مجموع الأُصول التشريعية الأُولى على الأصل التشريعى الثانى. فقد يكون الأصل النبوىّ هو فوق أصل تشريعى إلهى آخر، وفى الحقيقة أنّ الأصل التشريعى الأوّل الذى استمدّ منه الأصل التشريعى النبوىّ هو فوق الأصل التشريعى الآخر، ومن ثمّ يعرض متشابه القرآن على محكم كلّ من القرآن والسنّة النبويّة، كما يعرض متشابه السنّة على محكم كلّ منهما.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۴۵

القسم الرابع: صلاحية الخيار لهم فى البيان والعمل بين الحكم الواقعى والظاهرى، بل يمتدّ هذا الخيار فى درجات الحكم الواقعى نفسه، حيث بيّن القرآن الكريم أنّ للحكم الواقعى وللحقّ مراتب، إذ قال تعالى: «وَدَاوُدَ وَسُلَيمانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ* فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيمانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا» «۱»

، فقرّر تعالى أنّ كلّاً من الحكمين حقّ مع اختلافهما.

وكذلك ما قصّه القرآن الكريم عن النبىّ موسى والخضر عليهما السلام، وقد استعرضت سورة الكهف ثلاث قضايا وهى بالتأمّل ليس من قبيل الحكم الواقعى والظاهرى، بل من قبيل الحكمين الواقعيين، أحدهما واقعى أوّلى والآخر تأويلى.

وكذا ما يشير إليه القرآن الكريم من مراتب الهداية، كقوله تعالى: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» «۲»

، وقوله تعالى: «وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى» «۳»

، وقوله تعالى: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» «۴»

، وقوله تعالى: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى» «۵»

، وقوله تعالى: «نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا» «۶»

، فتقرّر هـذه الآيـات أن الهدايـة إلى الحقّ ذات مراتب مختلفـة، ممّـا يقتضـى أنّ للحقّ مراتب ومـدارج وأبـدال على الخيار لهم عليهم السلام، وقد أشاروا إلى ذلك فى قوله تعالى: «هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۷»

، فتقرّر الآية أنّ العطايا اللدنية الإلهية يخيّر فيها المعصوم بين البذل لكلّ مرتبة من تلك المراتب وبين

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۴۶

الإمساك، ويشير إلى ذلك جملة من الروايات سيتمّ استعراضها لاحقاً «۱».

القسم الخامس: صلاحية بيان المعارف والعلوم المختلفة، فقد قال تعالى:

«لَاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» «۲»

، وقوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» «۳»

، وقوله تعالى: «لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» «۴»

، وغيرها من الآيات الدالّةً على أنّ بيان القرآن هى من مسؤوليات الشرع، ومن الواضح أنّ القرآن مصدر خالد وهداية للبشرية إلى يوم القيامة، وبالتالى فإنّ الحوادث تسـتجدّ وتتشابه، فيحتاج لهداية القرآن وحكمه الصائب العدل فى تلك الحوادث المسـتجدّة فى كلّ ما ينتاب البشـرية. ومن الواضح أنّ اسـتخراج ذلك من القرآن وتبيانه بعيداً عن الخطأ والجهالة والزلل والظنّ هو السبب فى عدم تفويض اللّه لتلك المسؤولية إلى المسـلمين، وجعلها مسؤولية خاصّة لذاته المقدّسة، أى بتوسّط رسوله صـلى الله عليه و آله، وبعد الرسول لابدَّ من قيام أشخاص بتلك المهمّة يحذون حذوه صلى الله عليه و آله إلى يوم القيامة.

وبعبارة أُخرى: إنّ جعل اللّه تعالى بيان القرآن وظيفـة خاصّـة به تعالى وبرسوله صـلى الله عليه و آله يحمل فى طياته أنّ الإحاطة بتمام معانى القرآن الكريم وحقائقه التى بها تحصل هداية الأجيال البشرية جيلًا بعد جيل- لا سبيل لأحد إليها، بل هى خاصّة به تعالى وبمن يطلعه من أصفياء خلقه، ولا محال أنّ ذلك يستلزم وجود من يخلف رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى هذا الدور التشريعى..

وهذه الإحاطة التامّة اللدنية بكافّة العلوم كذلك؛ فإن الاحاطة بكافّة مسائل علم الرياضـيات مثلًا، أو الطبيعيات كالفيزياء أو الكيمياء أو الأحياء وغيرها، لا يتسنّى

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۴۷

ولا يتأتّى لروّاد العلوم، بل كميـة المجهولات التى لم يهتـدوا إليها ويقرّون بعجزهم عن معرفتها- هى أكثر بكثير من المسائل المعلومة، وهذا دليل على ضرورة وجود من يحيط بهذا العلم بإحاطة لدنية تامّة، فضلًا عن القرآن الكريم الجامع لكلّ العلوم.

القسم السادس: ولايتهم فى تأديب وتزكيـة وتعليم الخلق ومطلق السـياسات التربوية، وقد يوازى هذا القسم التشـريعات فى ظلّ الحكم السياسـى، سواء على نطـاق الأُمـور العامّـة أو على نطـاق الأحوال الشخصـية، وسواء كانت فى جانب الأُمور التنفيذيـة أو فى الجنائيات والعقوبـات، وغيرهـا من أمـور التـدبير العـام، قـال تعـالى: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ» «۱»

، وقـال تعالى: «لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِـهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ» «۲».

ولا يخفى أنّ هـذه الآيات قد تعرّضت إلى عدّة أقسام من مهام الرسول صـلى الله عليه و آله، ورتبه ومواقعه البنيوية الأصـلية فى الدين، حيث إنّ قوله تعالى: «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» إشارة إلى القسم الأوّل وهو النطق والإدلاء بالتنزيل بالقرآن، وقوله تعالى:

«يُزَكِّيهِمْ» بيان لهـذا القسم السادس وللصـلاحية المفوّضـة للحكم السياسـى وتدبير نظام المجتمع، وقوله تعالى: «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ» بيان لصلاحية القسم الثالث، وهو بيان التأويل والبطون، وقوله تعالى: «الْحِكْمَةَ» بيان للقسم الثانى، كما يشمل القسم السادس.

وقال تعالى: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۴۸

وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» «۱»

، وهى تدلّ على أنّ المصدر والمفزع فى الأُمور هو الرسول وأُولى الأمر، وأنّ الواجب على المسلمين إذا انتابهم أمر يمسّ حياتهم فى النظام الاجتماعى هو الرجوع والردّ للبتّ فى شأنه إلى الرسول صلى الله عليه و آله وإلى أولى الأمر؛ وذلك لإحاطة تلك الثلّة باستنباط واستخراج، العلم بما هو الحقّ فى تدبير ما ألمّ بهم من أمر، لا الظنّ بالحقّ؛ لكون التعبير فى‌الآية (لَعَلِمَه) لا (ظنّه)، ولذلك حصر نجاة الأُمّة عن اتّباع الشيطان، بردّ الأُمور إلى الرسول صلى الله عليه و آله وأُولى الأمر، ممّا يدلّ على أنّ الرجوع إلى الرسول صلى الله عليه و آله وإلى أُولى الأمر عاصم للأُمّة عن اتّباع الشيطان.

فالآية دالّة على أنّ تدبير الرسول صلى الله عليه و آله وأُولى الأمر ليس اجتهادياً ولا ظنّياً كما ذهب إليه العامّة، بل هو تدبير عن علم وإحاطة بالأُمور بإقدار من اللّه عزّ وجلّ، فهذا الاستنباط هو استخراج صراح الحقّ، وليس إعمال الموازين الظاهرية التى قد تخطأ أو تصيب، كما لا مجال للخطأ فى استخدام الموازين الآلية فى تدبير الأُمور العامّة من قبل الرسول صلى الله عليه و آله وأُولى الأمر. نعم، قد يوهم إسناد الخطأ إلى الرسول وأُولى الأمر من ناحيتين:

الأُولى: الجسم البشرى فى الجهاز الحاكم فى حكومة الرسول وأُولى الأمر عليهم السلام، هذا الكمّ والحشد البشرى غير معصوم، وقد يرتكبون الأخطاء والمعاصى، فينسب بعضهم ذلك إلى الرسول وأُولى الأمر. لكن هذا الإسناد ليس فى الحقيقة متّصلًا بالرسول صلى الله عليه و آله، بل يسند ويُنسب إلى أعضاء حكومته.

نظير ما ارتكبه خالد بن الوليد يوم فتح مكّة حيث غدر ببنى الأجلح، فتبرّأ

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۴۹

النبىّ صلى الله عليه و آله من فعله بقوله صلى الله عليه و آله: «اللهمّ إنّى أبرأ إليك ممّا فعله خالد»، فقد كان معيّناً من قبل النبىّ صلى الله عليه و آله على إحدى الفرق العسكرية، ثمّ انتدب رسول اللّه صلى الله عليه و آله عليّاً عليه السلام ليسترضيهم ويعطى الدية عن من قتل منهم. وكذا ما ارتكبه أُسامة بن زيد من قتل من أظهر الإسلام اشتباهاً منه فى أنّ إظهار الشهادتين لا يحقن الدم مع الريبة عندما كان يقود سرية.

الثانية: إنّ الميزان الظاهرى الشرعى فى الموضوعات الخارجية، لا فى استكشافه ومعرفته، وقد خلط العامّة بين الميزان الظاهرى فى الموضوعات، وعمّموا ذلك لمعرفة الأحكام فى حقّ النبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام، وهو من الخلط بين المقامين، مع أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله فى مقام العمل والتطبيق والتنفيذ ليس غالب، أدواته بموازين ظاهرية فى الموضوعات، وهذا الذى وظّف اللّه تعالى نبيّه وولاة الأمر عليهم السلام بالعمل به، هو من جملة الموازين الموظّفة شرعاً، فبعضها موازين ظاهرية بضميمة الموازين الواقعية.

وحيث كان بعضها ظاهرياً فالميزان قد يخطى وقد يصيب، نظير البيّنة والحلف فى القضاء، كما فى قوله صلى الله عليه و آله: «إنّما أقضى بينكم بالبينات والإيمان، وبعضكم ألحن بحجّته من بعض، فأيما رجلٍ قطعت له من مال أخيه شيئاً فكأنّما قطعت له قطعةً من النار» «۱».

فتحصّل: إنّ تدبيره صلى الله عليه و آله وأمره فى الحكم السياسى بمقتضى مفاد الآية الشريفة هو العصمة عن الزلل والخطأ، وإنّه إن شوهد ما يوهم ذلك فى سيرته صلى الله عليه و آله، فإنّ ذلك عند التدبّر راجع إلى أعضاء جهازه الحكومى من الولاة والأُمراء وغيرهم، أو إلى كون الميزان الشرعى فى الموضوعات الموظّف العمل به فى التدبير ظاهرياً،

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۵۰

فقد لا يصيب الواقع فى بعض موارده.

ثمّ إنّ هـذه الآية دالّة على وجود ثلّة فى هذه الأُمّة هم ولاة الأمر، مقرونة ولايتهم بولاية الرسول صـلى الله عليه و آله، وأنّ لهم عصـمة فى التـدبير، والعصـمة فى التدبير متقوّمة بالعصـمة العلمية والعملية، وأنّ هذه الثلّة باقية ما بقيت الأُمّة وما بقى القرآن الكريم؛ لأنّ الآية خطـاب إلى كـلّ المكلّفين إلى يـوم القيامـة، وأنّ الـواجب عليهم ردّ وإيكـال مـا ينوبهم ويعـتريهم فى أُمورهـم السياسـية والاجتمـاعية والاقتصادية وغيرها بإيكاله وردّه إلى أُولى الأمر العالمين بحكمه؛ لقدرتهم على استنباط واستخراج الحقّ والرأى الصائب فيه.

ومن البيّن أنّ هذا الاستنباط الموصل إلى العلم بحقائق الأُمور مستقاة من الكتاب الكريم، لا بلحاظ ما فيه من تشريع فقط، فإنّ ذلك لا يوجب بمفرده العصمة فى التطبيق والتدبير، بل لابدّ بالإضافة إلى ذلك معرفة ما فى الكتاب من استطار كلّ شيء فيه من كلّ غائبة فى الأرض أو فى السـماء أو رطب أو يـابس، فى رتبـة حقائقه العاليـة من الكتاب المكنون، الـذى هو الكتاب المبين، والـذى لا يمسّه إلّا المطهرون، وهو وصف أُولى الأمر المعصومين.

القسم السابع: صـلاحيتهم فى بيان النسخ؛ وذلك بأن يُودع رسول اللّه صلى الله عليه و آله الناسخ لديهم إلى حين أوانه فيبرزوه ناسخاً. وقد أثبت هذا القسم جملة من أعلام الإمامية كما سيأتى فى الأبواب تفصيل أقوالهم.

وحقيقـة هـذا البيان للنسخ، لا يخفى أنّه ليس إخبار محض كما هو الحال فى القسم الأوّل الذى مضـى بيانه مفصّـلًا، وأنّه بمثابة الناطق الرسـمى القانونى عن السـماء، أى فى أصل أداء الأحكام عن اللّه، حيث قـد مرّ أنّه لا يخلو هـذا البيان عن ماهيـة الإنشاء، فكيف بإبراز النسخ الذى هو إنهاء لفعلية تشريع ثابت وتفعيل وتشريع جديد، فهو أوغل فى إنشائية التشريع.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۵۱

ويندرج فى هذا القسم نسخ القرآن بالسـنّة القطعية النبويّة، وقد قال بذلك أغلب الخاصّة والعامّة إلّامن شذَّ، ومن أمثلته «۱» تبليغه عليه السـلام سورة البراءة، حيث إنّ مفاد سورة البراءة قـد نسـخ بعض الأحكام السياسـية مع المشـركين المذكورة فى السور السابقة، مع أنّ المبلّغ للنسوخ إلى البشرية هو أمير المؤمنين عليه السلام، وسيأتى بيانه لاحقاً.

القسم الثامن: صـلاحية تفويض القضاء والحكم فيه، وقـد قال تعالى: «فَلَاوَرَبِّکَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوکَ فِيما شَـجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيًما» «۲»

، وقوله تعالى: «وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ» «۳»

، وقوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْکَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاکَ اللَّهُ» «۴»

، وقوله تعالى: «مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَامُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» «۵».

وقـد اسـتظهر من قـوله تعـالى: «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَـا أَرَاکَ اللَّهُ» تخيّره صـلى الله عليه و آله فى الحكم بحسب الموازين الشـرعية بين الظاهريـة والواقعية، بحسب واقع الأمور التى يريها اللّه له صـلى الله عليه و آله، كما قد اسـتفيد من مجموع هذه الآيات وغيرها، وتخيّره صلى الله عليه و آله فى الحكم بين مراتب الحكم الـواقعى. قـال الشـيخ المفيـد رحمه الله: (للإمـام أن يحكم بعلمه كمـا يحكم بظاهر الشهادات، ومتى عرف من المشهود عليه ضدّ ما تضمّنته الشهادة أبطل بذلك شهادة من شهد عليه وحكم عليه بما أعلمه اللّه) «۶».

القسم التاسع: من الصلاحيات المفوّضة ولاية الإمامة السياسية والخلافة،

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۵۲

وإقامة الحكم السياسـى والدولة، وإدارة النظام الاجتماعى والسياسـى، وقد كتب فى هذا المضـمار علماء الإمامية أسفاراً جمّة، وأشبعوا البحث درايةً وبياناً وتفصيلًا» «۱».

القسم العاشـر: من الصـلاحيات المفوّضـة لهم: كونهم الفيصل والمصـدر العلمى الشـرعى المهيمن عند الاختلاف فى معانى ومؤدّيات الأدلّة والأحكام الشـرعية، فضـلًا عن المتشابه فى المعارف والاعتقادات. سواء كان الاختلاف أو التشابه فى ظواهر أدلّة القرآن والسـنّة

النبويّة هو بنحو التعارض أو الإجمال والإيهام، أو تزاحم المقتضيات وغيرها من أقسام الاختلاف، فلزوم الرجوع إليهم عليهم السلام كما هو في الابتداء، كما مرّ في الأقسام السابقة، كذلك في المآل عند وقوع الاختلاف في جميع أقسامه، فهم عليهم السلام بلحاظ هذا القسم بمثابة المحكمة الدستورية لكلّ الدين، لا لخصوص نظام الدولة الذي هو شعبة من فروع الدين، فهم الفيصل عند الاختلاف في تفسير الدين والشريعة وقراءة النصوص، ويشير إلى هذا القسم قوله تعالى: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» «۲»

، و «الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ» بمعنى يستخرجون حقيقة الواقع كما هو معنى الاستنباط لغةً، لا المعنى المتداول عند الفقهاء بمعنى الاستظهار الظنّي، هم الرسول صلى الله عليه و آله وأُولي الأمر من قرباه أهل آية التطهير والمباهلة، كما مرّ بيانه.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۵۳

صلاحية التشريع مبدأ وماهية ومنتهى ... ص: ۲۵۳

تقديم:

إنّ البحث في صلاحية التشريع أو الولاية التشريعية للرسول صلى الله عليه و آله والأئمّة من بعده بعد وضوح أنّ الشارع الأوّل والمهيمن هو الباري تعالى، إلّاأنّه وقع الكلام في ثبوت هذه الصلاحية والمقام له صلى الله عليه و آله ولهم عليهم السلام في مدار محدود تابع لتشريع اللَّه تعالى، وفي ظلّ التشريعات الإلهية، كما قد وقع الكلام في حقيقة وساطته صلى الله عليه و آله بين الباري والناس، أي في حقيقة التبليغ عن اللَّه، وكذلك في حقيقة وساطة الأئمّة عليهم السلام عن اللَّه ورسوله، أي في حقيقة تبليغ الأئمّة عن الرسول صلى الله عليه و آله، وفي ماهية الطرق والمنابع التي يأخذ منها الرسول والأئمّة صلوات اللَّه عليهم أجمعين.

فلابدّ من إقامة البحث في ذلك ليتبين لنا حقيقة صلاحية جعل القوانين وسنّ الأحكام وحقيقة التبليغ، وهل هي على وزان دور سائر الناس في عملية التبليغ والإبلاغ، كما هو الحال في الرواة الذين يكونون وسائط في مجرّد نقل محض اللفظ من دون أن يكون لهم بالضرورة دراية تامّة محيطة بتمام معاني التشريعات وحقائقه؟ وهذه النظرية والنظرة له صلى الله عليه و آله ولهم عليهم السلام يترتّب عليها آثار خطيرة:

منها: عدم اشتراط العصمة في الرسول والإمام لأداء مهمّة التبليغ، بل يكفي الصدق بدرجة العدالة في ذلك، حيث إنّ هذه النظرة مسخ لماهية التبليغ النبوي

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۵۴

والتبليغ الولوي «۱»، وأنّ درجته لا تتطلّب أكثر من ذلك.

ومنها: تساوي النبيّ صلى الله عليه و آله والإمام عليه السلام مع جملة من الأفراد الآخرين الذين يعرفون جملة من ما أُثر عن الرسول صلى الله عليه و آله وعنهم عليهم السلام.

بل قد يكون الأفراد الآخرون في بعض الأحيان والعياذ باللَّه تعالى- أفقه منهم صلوات اللَّه عليهم؛ إذ على هذه النظرية من حقيقة تبليغهم تجري قاعدة ربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه (والعياذ باللَّه)، وهذه النظرة والنظرية هي التي كانت لدى بعض الصحابة «۲»، ولأجل ذلك كان يُكثر من المشاققة والاعتراض على النبيّ صلى الله عليه و آله، يعارضه في القول والفعل، حتّى نزلت الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» «۳».

ومنها: إطلاق الرواة عليهم، وقد ارتكبه جملة في الأعصار المتأخّرة، وبالتالي فعلمهم صلوات اللَّه عليهم منحصر في التنزيل دون التأويل، وبالمحكم دون المتشابه، فقال بعضهم حول صلاحية التشريع وحول ما دلّ من الآيات والروايات على كون النبيّ صلى الله عليه و آله والإمام أولى بالمؤمنين من أنفسهم (وأما ما كان من الأحكام المتعلّقة بالأشخاص بسبب خاصّ من زواج وقرابة ونحوهما،

فلا ـ ريب في عدم عموم الولاية له، وأن يكون أولى بالإرث من القريب وأولى بالأزواج من أزواجهم، وآية: «النبيّ أولى بالمؤمنين» إنّما يدلّ على أولويته فيما لهم أي الأشخاص – الاختيار، لا فيما لهم من الأحكام تعبّداً وبلا اختيار).

وقال آخر: (أي: فوّض إليهم أن يحلّلوا ما شاؤوا ويحرّموا أيضاً ما شاؤوا،

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۵۵

وهذا أيضاً ضروري البطلان؛ فإنّ النبيّ صلى الله عليه و آله ليس شارعاً للأحكام، بل مبين وناقل له، وليس شأنه في المقام إلّاشأن ناقل الفتوى بالنسبة للمقلّدين).

وقال بعضهم: إنّ وصول المعصوم إلى الحكم الشرعي يتمّ في جملة من الأحيان بواسطة مراجعة المعصوم إلى الكتب التي ورثها عن رسول اللَّه، والفحص في أبوابها، وملاحظة المطلق والمقيد والعامّ والخاصّ والناسخ والمنسوخ والمجمل والمبين، تماماً كما يمارس ذلك الفقيه، غاية الأمر الفرق بينهما أنّ المعصوم مسدّد عن الخطاء.

وأمّا قول العامّة باجتهاد الرسول والعياذ باللَّه – فهو إفك جاء به عصبتهم الأوائل، لتبرير معارضة وعصيان الرسول، وتلقّاه أواخرهم بألسنتهم وحسبوه هيناً وهو عند اللَّه بهتان عظيم.

وقد تفشّت هذه المقولة واتّبعت هذه الخطوات في بعض الأقلام المنتحلة..

فأطلقوا التعبير باجتهاد أئمّة أهل البيت، وأنّ هذا فهمهم، وأنّهم رواة عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وأنّ علمهم قائم بالكتب المدوّنة المنفصلة عن أرواحهم، إلى غير ذلك من الأقاويل التي يطلقونها.

وكلّ ذلك ناشئ عن قصور وتقصير في معرفة الرسول صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام، وموقعية وساطتهم في الدين الحنيف والشريعة الغرّاء، وعن الجهل بمصادر علومهم وضروب العلم لديهم وأبوابها، وحقيقة مراحل التشريع والشريعة، وأنّ الإحاطة الواقعية بتفاصيل الأُمور وحقائقها لا ـ يتمّ إلّابالعلم الجمعي اللدني بأُمّهات أُصول الشريعة، فمن ثمّ استدعى البحث في دورهم ومقامهم في منابع علومهم عليهم السلام التي هي مصادر الشريعة.

قال العلّامة الطباطبائي: (إنّهم يقيسون نفوس الأنبياء في تلقّيهم المعارف الإلهية ومصدريتهم للأُمور الخارقة بنفوسهم العادية.

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۵۶

ثمّ ذكر خلطهم من إرادة النبيّ إبراهيم عليه السلام عملية الإحياء بين جانبها الملكوتي وجانبها الحسّي الظاهري ... إلى أن قال.

لكنّ هؤلاء لإهمالهم أمر الحقائق وقعوا فيما وقعوا فيه من أمر الفساد، وكلّما أمعنوا في البحث زادوا بعداً عن الحقّ) «۱».

وقال في موضع آخر: (ومنشأ هذه الشبهة ونظائرها من هؤلاء الباحثين، أنّهم يظنّون أنّ دعوة إبراهيم عليه السلام للطيور في إحيائها، وقول عيسى عليه السلام لميت عند إحيائه:

قم بإذن اللَّه، وجريان الريح بأمر سليمان، وغيرها ممّا يشتمل عليه الكتاب والسنّة، إنّما هو لأثر وضعه اللَّه تعالى في ألفاظهم المؤلّفة من حروف الهجاء، أو في إدراكهم التخيلي الذي تدلّ عليه ألفاظهم، نظير النسبة التي بين ألفاظنا العادية ومعانيها، وقد خفي عليهم أنّ ذلك أنّما هو عن اتّصال باطني بقوّة إلهية غير مغلوبة، وقدرة غير متناهية هي المؤثّرة الفاعلة بالحقيقة) «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۵۷

منابع علومهم عليهم السلام هي مصادر ومتون الشريعة ... ص: ۲۵۷

أقسام الوحي ...: ص: ۲۵۷

«مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى»

قال تعالى: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى» «۱».

والبحث فى هـذه الآيات هو أحـد أُمّهات البحوث فى معرفة النبوّة، وقد اسـتدلّ بها فريق المثبتين لصـلاحيته صـلى الله عليه و آله لدور التشريع التابع لتشريع اللَّه، كما استدلّ بها النافون لهذا الدور والمقام.

وقد اسـتدلّ بها كثير من العامّة لحصـر عصـمة النبوّة فى التبليغ دون بقية الأفعال والشؤون، وهذه الدعوى منهم مبنية على التفكيك بين شخصـية النبوّة فيه صـلى الله عليه و آله، وشخصـية شؤونه الأُخرى، وعلى تعـدّد حيثيات شخصـيته صـلى الله عليه و آله، ومن ثمّ تعـدّد حيثيات شؤونه، وبالتالى انقسام أقواله وأفعاله إلى ما يرتبط بالشريعة، وإلى ما لا صلة له بالشريعة، وهذه النظرة إلى شخصيّة النبىّ صلى الله عليه و آله قد أصبحت عندهم من المسلّمات «۲»، وهى بعيدة تمام البعد عن حقيقة شخصيّة النبىّ؛ فإنّ حقيقة تكوين

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۵۸

وتركيب شخصـيّته ليست بنحوٍ يتصوّر انفكاك فطرته الغريزيـة وفطرته الإنسانيـة والعقلانيـة عن فطرته الوحيانية، وبالتالى هيمنة الفطرة الوحيانية على تمام درجات فطره الأُخرى، وذوبانها فيها، وتبعيتها وانقيادها لها، وانصـباغها وتلوّنها بها، فلا مجال للتفكيك والتفكّك، ولاـ للانفصـال والفصـل، بـل كلّ حركاته وسـكناته خوضه وامساكه قوله وفعله حلّه وترحاله مسيره وخطواته، كلّ ذلك متن وحيانى ونموذج أمثل ركّبته يد القدرة الإلهية؛ ليحتذى به النبيّون والمرسلون والأوصياء والمصطفون، فضلًا عن سائر البشرية.

فالتفكيك فى شخصـيّته بين الشؤون الشـرعية وأُمور الحياة الاعتياديـة نظريـة خاطئة متفشّية فى بحوث المعرفة والعلوم الدينية، ولأجل الوقوف على مفاد الآيات الكريمة السابقة لابدّ من تحرّى المراد من كلّ من العناوين الواردة فيها، من الوحى والنطق والهوى والضـلال والغواية.

أمّا العنوان الأوّل: فالوحى، الذى هو مصدر نطق النبىّ صـلى الله عليه و آله، كما أنّه علّة بثلاث قضايا الأخبار فى الآيات، حيث قد سبق الأخبار عن حصـر مصـدر النبىّ ومعتمـده على الوحى: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى»، قـد سـبقه ثلاثـة إخبارات: الأوّل: «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ»، الثـانى: «وَمَـا غَوَى»، الثـالث: «وَمَـا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى»، فجاء الإخبار الرابع: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» فى مقابل الإخبارات الثلاثـة، أى فى مقابـل المنفى فى الإخبـارات الثلاثـة، فهو بمنزلـة العلـة للنفى فيهـا، فليس هو تعليل للنفى فى الإخبار الثالث فقط كما شاع فى كلمات جملة من المفسّرين وأبحاث العلوم الإسلامية، بل هو تعليل للنفى فى كلّها.

وعلى ذلك، فالضمير فى الإخبار الرابع «إِنْ هُوَ إِلَّا» ... لا يعود إلى النطق، بل

الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۵۹

يعود إلى شـخص النبىّ صـلى الله عليه و آله وهويته والإخبار عن هويته وشخصيّته بأنّها وحىٌ يوحى، وهو من قبيل زيدٌ عدلٌ، أى لبيان اسـتغراق زيـد فى العدالـة فى أفعاله وأقواله ومواقفه وإحجامه وإقـدامه، فكذلك الحال فى الإخبار عن هويته صـلى الله عليه و آله بأنّه وحىٌ يوحى للدلالة على أنّ شخصيّته صلى الله عليه و آله فى تمام أبعادها هى بتركيب وتصوير وهيئة وحيانية.

بـل إنّ فى الإخبـار الرابع عنايـة فائقـة فى تأكيـد ذلـك بأداة الحصـر، أى بحصـر هويته فى الوحى، أى ليس هويته بشـىء من الأشـياء إلّاوحىٌ يوحى. وهـذا مفـاد ما مرّ من أنّ الفطرة والغريزة فيه صـلى الله عليه و آله، والفطرة الإنسانيـة والفطرة العقلانيـة لا اسـتقلال لها مقابل الفطرة الوحيانية التى له صلى الله عليه و آله، فكلّ تلك الفطر قد انقادت وتبعت الفطرة الوحيانية.

بل فى الآيـة تأكيـد آخر، وهو أنّه لم يُجعل الخبر عن هويته صـلى الله عليه و آله الوحى بمفرده، بل جُعل مؤكّداً بنفس العنوان بصـيغة الفعل المضارع المستمر؛ للدلالة على التأكيد والتأبيد والاستمرار والشمولية لكلّ شؤونه صلى الله عليه و آله.

وقـد أُكّـد هـذا المضـمون فى الآية بالقسم الإلهى: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى»، ولا يخفى أنّ القسم الإلهى وقع على مجموع الإخبارات الأربعة وما بعـدها، وهو ممّا يؤكّـد أنّ الضـمير فى «إِنْ هُوَ إِلَّا» غير راجع لخصوص النطق، بل هو إلى حقيقـة وهوية وشخصـيّة النبىّ صـلى الله عليه و آله، وممّا يؤكّد هذا المفاد أيضاً الإخبار الخامس فى الآيات، وهو: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى»، فإنّ الضمير فى (علّمه) راجع إلى النبىّ

صلی الله علیه و آله، متّحد السیاق مع ضمیر (هو)، مع أنّ التعلیم شامل لکلّ شؤون النبیّ لا لخصوص القرآن.

وإلی هذا التقریر من مفاد الآیهٔ یشیر الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام «۱»: «ولقد قرن اللَّه

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۲۶۰

به صلّی اللَّه علیه وآله من لدن أن کان فطیماً أعظم ملک من ملائکته، یَسلُکُ به طریق المکارم ومحاسن أخلاق العالم لیله ونهارهُ».

وفی صحیح الفضیل بن یسار عن أبی عبد اللَّه علیه السلام: «إنّ اللَّه عزّوجلّ أدّب نبیّه فأحسن أدبه، فلمّا أکمل له الأدب قال: «وَإِنَّکَ لَعَلَی خُلُقٍ عَظِیمٍ» «۱»

، ثمّ فوّض إلیه أمر الدین والأُمّهٔ لیسوس عباده، فقال عزّ وجلّ: «مَا آتَاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»، وإنّ رسول اللَّه صلّی اللَّه علیه وآله کان مسدّداً موفّقاً مؤیّداً بروح القدس، لایزلّ ولایخطیء فی شیء ممّا یسوس به الخلق، فتأدّب بآداب اللَّه» «۲».

وما فی ذیل الروایهٔ قد یشیر إلیه الإخبار الخامس فی الآیات: «عَلَّمَهُ شَدِیدُ الْقُوَی»، فإذا تبین أنّ مرجع الضمیر لیس هو النطق والکلام النبویّ بل هو کلّ سلوکیات النبیّ صلی الله علیه و آله وسیرته وهدیه وبسطه وقبضه، ظهر أنّ الوحی فی الآیات الکریمهٔ السابقهٔ لیس هو خصوص الوحی التشریعی، بل یعمّ الوحی التسدیدی، والتأییدی والإلهامی والتوفیقی، وغیرها.

ولکلّ من هذه الأقسام معنیً وسنخ ونمط یختلف عن الآخر، أو وضحت فی محالها.

وقد أُشیر إلی الوحی التسدیدی وغیره فی مواطن عدیدهٔ من القرآن الکریم، نحو قوله تعالی: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّهً یَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَیْنَا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاهٔ وَإِیتَاءَ الزَّکَوهِٔ وَکَانُوا لَنَا عَابِدِینَ» «۳».

حیث إنّ الوحی فی الآیهٔ لیس هو الوحی التشریعی الذی هو عبارهٔ عن الأمر والنهی الإنشائی؛ لأنّ متعلّق الوحی قد جُعل نفس فعل الخیرات، أی أنّها کانت

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۲، ص: ۲۶۱

تصدر عنهم بوحی مقارن بصدور الفعل، کما أشار إلی ذلک العلّامهٔ الطباطبائی فی المیزان، فالآیهٔ تشیر إلی أنّ الموصوفین بجعلهم أئمّهٔ من قبله تعالی مؤیدون بحقیقهٔ أمریهٔ من عالم الأمر، وهو روح القدس الطاهرهٔ، ومسدّدون بقوّهٔ ربانیهٔ ینبعث منهم بتوسّطها فعل الخیرات.

والقرینهٔ الأُخری علی إرادهٔ الوحی التسدیدی فی الآیهٔ المزبورهٔ: «وَأَوْحَیْنَا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرَاتِ»، أنّه لو أُرید الوحی التشریعی لفُصل بین کلمهٔ الوحی وکلمهٔ فعل الخیرات بأنّ ونحوها، کما هو الشائع فی الاستعمال القرآنی واللغوی.

وممّا یعضد استعمال الوحی فی الأعمّ من الوحی التشریعی (الأنبائی) والتسدیدی قوله تعالی: «وَکَذَلِکَ أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتَابُ وَلَا الإِیمَانُ» «۱»

، فإنّ الإیحاء بالروح الأمری (أی من عالم الأمر) المراد به تسدیده صلی الله علیه و آله بذلک الروح لا صرف الأنباء، بقرینهٔ ذکر کلّ من الکتاب والإیمان، فإنّ الإیمان فعل تسدیدی نظیر: «وَأَوْحَیْنَا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرَاتِ»، مضافاً إلی أنّه جعل متعلّق الوحی فی قوله تعالی: «أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا» هو نفس الروح، ممّا یدلّل علی إرساله لیلتحم بروح النبیّ صلی الله علیه و آله.

فیتحصّل فی مفاد الآیهٔ تعلیل هدی النبیّ صلی الله علیه و آله ورشاده صلی الله علیه و آله ونور نطقه بأنّ الباری اصطنعه بید القدرهٔ الربانیهٔ، کما فی قوله تعالی: «وَلِتُصْنَعَ عَلَی عَیْنِی» «۲»

، وقوله تعالی فی شأن النبیّ موسی: «وَاصْطَنَعْتُکَ لِنَفْسِی» «۳»

، بنحوٍ یکون جمیع شؤونه وحیانیهً. ومن ثمّ فرض الباری علی البشریهٔ لزوم التأسّی برسوله فی جمیع شؤونه، حیث قال: «لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَهٌٔ حَسَنَهٌٔ» «۴»

، وأطلق تعالی الأمر بالأخذ بجمیع ما یأتی به النبیّ صلی الله علیه و آله والانتهاء عمّا ینهی عنه، فقال: «مَا آتَاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا».

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۲، ص: ۲۶۲

وما اشـتهر فی كلمات المفسّـرين وجملهٔ من المتكلّمين وعلماء الأُصول، وكثير من بحوث المعرفهٔ الدينيهٔ، من تقييد هذه الآيهٔ وآيهٔ «مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى» وآيهٔ (التأسّی) بالشرعيات والأحكام دون العاديات وأُمور المعاش، فقال بعضهم:

(ويحتجّ بهذه الآيهٔ من لا يرى الاجتهاد للأنبياء، ويُجاب: بأنّ اللّه تعالى إذ سوّغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يستند إليه كلّه وحياً لا نطق عن الهوى) «۱»، فمبنىّ على النظريـهٔ التی سبق تخطئتها من التفكيك فی شخصيّهٔ النبیّ صلی الله عليه و آله بين الفطرهٔ الغريزيهٔ والنفسانيـهٔ والفطرهٔ العقلانيـهٔ والفطرهٔ الوحيانيهٔ. وقد سبق عدم تعقّل خروج درجات النفس النبويّهٔ عن هيمنهٔ الفطرهٔ الوحيانيهٔ، ومن ثمّ وصفه البارى بقوله: «وَإِنَّکَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» «۲»

، وقال تعالى: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ» «۳».

وقال تعالى: «إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» «۴»

، ووصـفه تعالى بالرؤوف الرحيم، مع أنّها من أسـمائه الحسنى، فقال تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» «۵».

ووصفه تعالى بأنّه رحمهٔ للعالمين، فقال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاکَ إِلَّا رَحْمَهً لِلْعَالَمِينَ» «۶»

، وبيّن تعالى استغراق عنايته بنبيّه فی كلّ أحواله ومقاماته بقوله تعالى: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّکَ فَإِنَّکَ بِأَعْيُنِنَا» «۷».

كمـا أنّ نظريـهٔ التفكيک مبنيـهٔ على التفكيک فی سياق الآيات فی سورهٔ النجم، مع أنّه قـد اتّضـحت المقابلهٔ فی الآيات بين الضـلال والغی والهوى من جهه، والتسديد الوحيانی من جههٔ أُخرى.

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۲، ص: ۲۶۳

ومن ثمّ ترى مفسّرى العامّهٔ حيث لاـ يقولـون بالعصـمهٔ المطلقـهٔ للأنبيـاء يرتكبـون التمحّـل فی الآيـات الأُـولى فی سـورهٔ النجم بنحوٍ ممجوج، فيقيدون متعلّق الضـلال بموارد خاصّهٔ، مع أنّ الآيهٔ تنفی مطلق الضـلال عن النبیّ صـلى الله عليه و آله فی كلّ شؤونه، وتثبت الهـدى والهدايـهٔ فی كلّ مقاماته. وكـذلک تمحّلوا فی نفی الغوايـهٔ عنه صـلى الله عليه و آله بتقييدها بموارد خاصّهٔ أيضاً، مع أنّ الآيهٔ تنفی الغوايـهٔ فی كلّ سـلوكه وتثبت الرشاد فی كلّ سيره ومسيرته. ولم يكتفوا بذلک، بل تمحّلوا التقييد فی الآيهٔ الثالثهٔ، فقالوا: إنّه لا ينطق عن الهوى فی تبليغه للقرآن خاصّهٔ.

وبعضـهم قال فی تبليغ الشريعهٔ والشرائع خاصّهٔ دون تدبيره فی الأُمور العامّهٔ فضلًا عن أُموره الخاصّهٔ، مع أنّ الآيهٔ تنفی مطلق النطق عن الهوى، ولم يُقيـد متعلّقها بشـیء، كما أنّهم ارتكبوا التمحّل مرّهً رابعهٔ فی مرجع الضـمير (إن هو إلّا وحی)، فجعلوه القرآن خاصّهٔ تارهٔ، أو قوله فی التبليغ خاصّـهٔ وكـذلک جعلوا هـذه الآيهٔ الرابعهٔ فی مقابل الثانيهٔ فقط، مع أنّه قد مرّ بوضوح أنّ الضـمير راجع إلى شخصـه صلى الله عليه و آله، والمقابلهٔ هی مع الآيات الثلاث السابقهٔ.

ومن ثمّ يتبيّن وجهان آخران فی الآيات، دالّان على كون مفادها هو تقرير العصمهٔ المطلقهٔ للنبیّ صلى الله عليه و آله:

الأـوّل: إنّ فی الآيـات حصـر عقلی، حيث تعرّضت لنفی الضـلال والغوايـهٔ والهوى، وهی مناشـئ الخطـأ والزلل والزيغ فی فعل الإنسان وشؤونه. والضلال:

النقص فی الجانب العلمی، والغوايهٔ: النقص فی صفات النفس العمليهٔ الموجبهٔ للمعصيهٔ، والهوى: فلتان النفس عن السيطرهٔ عليها.

وبعبارهٔ أُخرى: الضـلال هو القصور العلمی والزلل بسـبب ذلک، وأمّا الغوايهٔ فهو الزيغ عن عمدٍ لصـفهٔ عمليهٔ رذيليهٔ للشخص، كما فی إبليس اللعين للاستكبار والعناد واللجاج والعصبيهٔ والحميّهٔ، وفی قبالهما الزيغ بسبب ميل الهوى.

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۲، ص: ۲۶۴

وبهـذا التقريب يتبين أنّ الآيـة الرابعـة «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ..» هى فى مقابـل الآيات الثلاثـة السابقـة، أى أنّ علم النبىّ صـلى الله عليه و آله الشامـل لكـلّ الموارد منبعه الوحى التسديـدى والتأييـدى والإلهـامى والتوفيقى الوفاقى، وغيرها من أقسام الوحى اللـدنى، كما أنّ فعل النبىّ صـلى الله عليه و آله وسـلوكه وإراداته النفسانيـة منبعها الوحى، وهو ذلك الوحى التأييـدى والتسديدى وغيرهما، وكذلك نطقه صلى الله عليه و آله سواء فيما يخبر عنه أو يأمر به وينهى عنه، على صـعيد التشـريع أو التـدبير فى الأُمور الكلّيـة أو الجزئيـة، فكلّ نطقه وأقواله صلى الله عليه و آله نابعة من ذلك الوحى الذى أُويّد وسُدّد به ويشير إلى محصّل ذلك قوله تعالى:

«وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ* صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» «۱».

فلم يجعل أثر الروح الأمرى درايته صـلى الله عليه و آله للكتاب فقط، بل كمال الإيمان ونور الهدايـة، ممّا يؤكّد كون هذا الروح الذى أويّد به رسول اللّه ليس للأنبـاء والدرايـة فقـط، بـل للتسديـد فى العمل والسـلوك أيضاً، ومن ثمّ فرّع عليه تعالى «وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، كما قال فى حقّ عيسى: «إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ» «۲»

، وقال تعالى: «وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» «۳».

فكيف بسيد الرسل وقد تقدم؟ ويأتى أيضاً اختلاف درجات التأييد الإلهى بروح القدس للأنبياء بحسب اختلاف درجاتهم، ويشير إلى هذا المعنى فى الآيةٔ قول الإمام الصادق عليه السلام فى صحيحة أبى بصير عندما سأله عن معنى الآيةٔ؟ قال عليه السلام:

«خلق من خلق اللّه عزّوجلّ أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله يخبره

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۲، ص: ۲۶۵

ويسدّده، وهو مع الأئمّة من بعده» «۱».

وفى روايـةٔ أُخرى، قال: «سألت أبا عبـد اللّه عليه السـلام عن العلم، أهو علم يتعلّمه العالم من أفواه الرجال، أم الكتاب عنـدكم تقرأونه فتعلمون منه؟ قال: الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قول اللّه عزّ وجلّ: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» «۲»» «۳».

وفى روايـةٔ سـعد الاسـكاف قـال: «أتى رجل أمير المؤمنين عليه السـلام يسأله عن الروح أليس هو جبرئيل؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: جبرئيل من الملائكهٔ، والروح غير جبرئيل. فكرّر ذلك على الرجل، فقال له: لقد قلت عظيماً من القول، ما أحد يزعم أنّ الروح غير جبرئيل! فقال له أمير المؤمنين عليه السـلام: إنّك ضالّ تروى عن أهل الضـلال، يقول اللّه تعالى لنبيّه عليه السلام: «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ* يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ» «۴»

، والروح غير الملائكهٔ صلوات اللّه عليهم» «۵».

الثانيةٔ: إنّ الآيات المتقدّمهٔ من سورهٔ النجم لم تكتفِ بنفى الضـلال والغوايهٔ عن النبىّ صـلى الله عليه و آله، بل أثبتت وحصـرت هويته بالدرجهٔ الوحيانيهٔ، وهذا يقتضى العصمهٔ اللدنيهٔ من لدن الوحى التأييدى والتسديدى.

وبيـان ذلـك: إنّ بين نفى الضـلالهٔ والغوايـهٔ والهـوى وبين الـذات الوحيانيـة هنـاك درجـات أُخرى، كالهـدى والرشـد والنطق العقلى والعقلانى أو العرفى الأدبى ونحو ذلك من الدرجات، فلأجل ذلك لم يكتفِ البارى تعالى بنفى الأُمور الثلاثهٔ، بل أثبت منشأ سلوك وسيرهٔ ونطق النبىّ صلى الله عليه و آله أى مجموع أفعاله- هى من الوحى

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۲، ص: ۲۶۶

التأييدى اللدنى، بل حصرها فى ذلك.

وبعبارهٔ أُخرى: عنـدما يقال ما ينطق عن الهوى فقـد يقال ينطق عن العقل أو السـنن العرفيـهٔ المحمودهٔ، وكـذا عنـدما يقال: ما ضلّ فقد يقال هـدى عنـد أحلام البشـر، وكـذا عنـدما يقال: ما غوى فقـد يقال رشـد فى تحسـين أهل المحامـد، بخلاف ما إذا ضمّ إليه منشأيهٔ

الوحی التأییدی، بل حصر المنشأ فی ذلک.

فتحصّل: إنّ الآیة فی بیان العصمة المطلقة فی کلّ أفعاله وأقواله، وأنّها متن الوحی والشریعة، وغایة الأمر الوحی أعمّ من الوحی الإنبائی، أو الوحی التأییدی والتسدیدی وإلالهامی والتوفیقی وإلایتائی واللذانی والبسط فیالعلم والإلقائی، وغیرها من العناوین الواردة فی السور والآیات القرآنیة الشارحة لأنواع الوحی.

ومن ثمّ نقف علی حقیقة هامّة.

حقیقة التشریع النبوی ...: ص: ۲۶۶

وهی: إنّ التشریع منه ما یکون بفرض من اللّه وإنباء لنبیّه صلی الله علیه و آله بتوسّط الوحی الإنبائی، ومنه ما یکون من فعل النبیّ وسیرته وقوله وسننه، وهو قسم آخر من الوحی لیس من قبیل الوحی والإنباء وإرسال الملک، بل هو من الوحی المؤیّد المسدّد به النبیّ بتوسّط روح القدس والروح الأمری، وهو الذی أشار إلیه أمیر المؤمنین فی معنی مجموع الآیات المتقدّمة: أن قد قرن بنبیّه صلی الله علیه و آله أعظم ملائکته من لدن أن کان فطیماً، فلمّا أکمل له الأدب قال له: «إِنَّکَ لَعَلَی خُلُقٍ عَظِیمٍ»، ثمّ فوّض إلیه أمر دینه فقال: «مَا آتَاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» «۱»

، «لَقَدْ کَانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ کَانَ یَرْجُواْ اللَّهَ وَالْیَوْمَ الآخِرَ وَذَکَرَ اللَّهَ کَثِیرًا» «۲»

. أی أنّ کلّ حرکات وسکنات وأفعال وسیرة وهدی الرسول صلی الله علیه و آله هو

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۲۶۷

علی وفق القالب للأدب الإلهی النموذج الذی صاغته الید الربانیة، فیمتنع أن یوجد فی هذا القالب النموذجی أی تفاوت أو فطور، فارجع البصر ینقلب إلیک البصر خاسئاً وهو حسیر.

ثمّ إنّ من ذهب من علماء العامّة إلی اجتهاد النبیّ وعمله بالظنّ تشبّث بوجوه واهیة من التمسّک بأحادیث مدسوسة بیّن علیها علائم الوضع من خلال قرائن لا تخفی علی البصیر، مع أنّه نوع من التمسّک بالمتشابه الوهمی فی مقابل المحکم القطعی.

ویجدر فی نهایة هذه المقالة أن نشیر إلی وهن بعض الأقاویل المتقدّمة:

منها: ما تقدّم من أنّ اجتهاد النبیّ والعیاذ باللّه إذا کان بأمر من الوحی فهو کلّه وحیٌ لا نطق عن الهوی.

ویُجاب: أوّلًا: فإنّه وفق هذه المقولة والنظریة تکون اجتهادات الفقهاء وحی یوحی.

ثانیاً: إنّ عدم النطق عن الهوی بالاستناد إلی موازین الاجتهاد الظنّیة لا یستلزم صدق الوحی علی الحکم الظنّی.

وثالثاً: إنّ لازم تسویغ الاجتهاد من النبیّ صلی الله علیه و آله هو جواز معارضته وعصیانه والاعتراض علیه لمن قطع علی خلاف الحکم الظنّی الذی یحکم به النبیّ صلی الله علیه و آله، کما اجترأ علی ذلک أبو بکر وعمر فی صلح الحدیبیة، ویوم التخلّف عن جیش أُسامة، وغیر ذلک من الموارد «۱».

الامامة الالهیة(۵)، ج۲، ص: ۲۶۸

بل إنّ مغزی القائلین باجتهاد النبیّ صلی الله علیه و آله وهدفهم هو فتح باب الاعتراض والردّ علی النبیّ، ونبذ طاعته وتبریر ما وقع من جمع من الصحابة من الاجتراء علی عصیان الرسول ومشاققته والردّ علیه.

ومنها: وصف النبیّ أو وصف الأئمّة من عترته بأنّهم مجرّد نقلة الأحکام الإلهیة.

فیُردّ علیه مضافاً إلی ما تقدّم:

أوّلًا: إنّ لازم ذلک احتمال أعلمیة المنقول إلیه من الناقل؛ إذ روایة العلم غیر درایته ووعایته؛ فربّ حامل فقه إلی من هو أفقه منه، مع أنّ الباری تعالی قال:

«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» «۱»
، وقال تعالى: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ» «۲»
، وقال تعالى: «لَاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» «۳»
، وقال تعالى: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ» «۴»
. وغيرها من الآيات الدالّة على أنّ بيان القرآن كلّه تنزيله وتأويله عمومه وخصوصه ناسخه ومنسوخه ظاهره وباطنه هو على عهدة النبىّ، مع أنّ الكتاب والكتاب المبين يستطرّ فيه كلّ شىء، وكلّ غائبة فى السماء والأرض.
وكلمات اللَّه تعالى لا تنفذ ولو كان ما فى الأرض من شجر أقلام والبحر مداداً ومن بعده سبعة أبحر، ما نفذت كلمات اللَّه تعالى فى كتابه، فالنبىّ صلى الله عليه و آله الذى يكون على عهده تبيان كلّ ذلك ولو بتوسّط تعليمه جملة ذلك لأهل بيته ليبيّنوا على مرّ العصور والدهور إلى يوم القيامة للأُمّة ما تحتاجه من الكتاب هل يعقل تطرّق
الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۶۹
الظنّ والجهل إلى ساحته المطهّرة بالنور الإلهى؟
هذا مع أنّ روح القدس يتنزّل عليه ليلة القدر وكلّ ليلة كما سيأتى فى الفصل السابع بالقضاء والقدر لكلّ شىء، فكيف تخفى عليه صغيرة وكبيرة وذرّة إلى مجرّة؛ وكيف لا يكون علمه الوحيانى لدنى يؤيّده ويسدّده؟ وكيف لا يكون سيره وسيرته وكلّ نطقه هداية ورشاد وحيانى، وقد جعل اللَّه على عهدته تزكية الأُمّة جمعاً؟ وكيف يعزب عنه باب من الحكمة وقد جعل البارى على عهدته تعليم الكتاب كلّه والحكمة للبشرية أجمع؟
ونظير هذه المقامات قد أسندها البارى إلى عترته المطهّرة فقال تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «۱»
، وقال تعالى: «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ» «۲»
، وقال تعالى:
«وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» «۳»
، وقال تعالى: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» «۴».
وقد روى العامّة، كابن حنبل فى مسنده عن عبد اللَّه بن عمر، قال: «كنت أكتب كلّ شىء عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أريد حفظه، فنهتنى قريش فقالوا: إنّك تكتب كلّ شىء تسمعه من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ورسول اللَّه صلى الله عليه و آله بشر يتكلّم فى الغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: اكتب، فوالذى نفسى بيده ما خرج منّى شىء إلّا الحقّ» «۵».
الامامة الالهية(۵)، ج۲، ص: ۲۷۰
ورووا عنه وزعموا أنّه قال صلى الله عليه و آله: «ما أخبرتكم أنّه من عند اللَّه فهو الذى لا شكّ فيه» «۱»
، وهذه الرواية متدافعة مع الرواية السابقة.
وعن أبى هريرة، عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا أقول إلّاحقّاً. قال بعض أصحابه:
فإنّك تداعبنا يارسول اللَّه؟ قال: إنّى لا أقول إلّاحقاً» «۲».
والملاحظ فى رواية عبد اللَّه بن عمر تصريحه بأنّ الذين كانوا يتبنّون عدم عصمة النبىّ المطلقة هم قريش دون الأنصار، ويُظهر دوافع

قريش من ذلك، وأنّ سياستهم فى تبنى هذه النظرية هو لفتح باب الردّ على النبىّ ومعارضته، وتقليب الأمور فى جانب التشريع والحكم، فيفتح الطريق أمام إحكام قبضتهم على مجمل الأُمور.

وأمّا الرواية الثانية، فلا يخفى تدافعها مع الرواية الأُولى، ويد قريش فى وضعها لائح بيّن؛ إذ هى سياستهم فى تبنّى نظرية التفصيل فى عصمة النبىّ صلى الله عليه و آله.

وأمّا الرواية الثالثة، فهى متطابقة مع الرواية الأُولى، ومتطابقة مع مفاد آيات سورة النجم التى مرّ أنّ ظاهرها هو وحيانية كلّ شخصيّة النبىّ صلى الله عليه و آله وهويته، وأنّ كلّ سلوكه وسيره وسيرته وكلّ نطقه وأقواله وجميع شؤونه حقّاً وحيانياً، إمّا بالوحى التأييدى التسديدى وغيرهما، أو الوحى الإنبائى.

إلى هنا تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث بإذن اللَّه تعالى وهو المستعان وله المنّة والفضل والحمد للَّهأوّلًا وآخرا.

الجزء (۳)

الفصل السابع: ليلة القدر حقيقة الإمامة (أُس المعرفة ...) ص: ۲۷۳

اشارة

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۷۵

ليلة القدر فى أقوال أهل سنة الجماعة ... ص: ۲۷۵

اشارة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَيْلَةِ الْقَدْرِ»: (أجمع المفسّرون على أنّ المراد إنّا أنزلنا القرآن فى ليلة القدر، ولكنّه تعالى ترك التصريح بالذكر؛ لأنّ هذا التركيب يدلّ على عظم القرآن.

للقرآن نزولان ...: ص: ۲۷۵

إن قيل: ما معنى إنّه أُنزل فى ليلة القدر مع العلم بأنّه أُنزل نجوماً؟ قلنا فيه وجوهاً:

أحدهما: قال الشعبى: إبتدأ بإنزاله ليلة القدر؛ لأنّ البعث كان فى رمضان.

والثانى: قال ابن عبّاس: أُنزل إلى سماء الدنيا جملةً ليلة القدر، ثمّ إلى الأرض نجوماً.

معنى القدر ...: ص: ۲۷۵

اختلفوا فى أنّه لِم سُمِّيت هذه الليلة ليلة القدر على وجوه:

أحدها: إنّها ليلة تقدير الأُمور والأحكام. قال عطاء عن ابن عبّاس: إنّ اللَّه قدّر ما يكون فى تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية، ونظيره قوله تعالى: «فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حكيمٍ»، واعلم أنّ تقدير اللَّه لا

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۷۶

يحدث فى تلك الليلة؛ فإنّه تعالى قدّر المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض فى الأزل «١»، بل المراد إظهار تلك المقادير للملائكة فى تلك الليلة، بأن يكتبها فى اللوح المحفوظ «٢».

بقاء ليلة القدر فى كلّ عام ...: ص: ٢٧٦

وهذا القول اختيار عامّة العلماء.. هذه الليلة هل هى باقية؟

قال الخليل: من قال إنّ فضلها لنزول القرآن فيها يقول انقطعت وكانت مرّة، والجمهور على أنّها باقية.

وعلى هذا، هل هى مختصّة برمضان أم لا؟ روى عن ابن مسعود أنّه قال: من يقم الحول يصيبها، وفسّرها عِكرمة بليلة البراءة فى قوله: «إِنّا أَنْزَلْناهُ فى لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ» «٣»

، والجمهور على أنّها مختصّة برمضان، واحتجّوا عليه بقوله تعالى:

«شَهْرُ رَمَضانُ الَّذى انْزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ»، وقال: «إِنّا أَنْزَلْناهُ فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ»، فوجب أن تكون ليلة القدر فى رمضان، لئلّا يلزم التناقض.

ليلة القدر عوض للنبىّ من غصب بنى أُميّة الخلافة ...: ص: ٢٧۶

وقال فى تفسير الآية «۴» بوجوه:

الامامة الالهية(۵)، ج٣، ص: ٢٧٧

منها: روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن، قال:

«قلت للحسن بن علىّ عليه السلام: يا مسوّد وجوه المؤمنين، عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له، يعنى معاوية، فقال: إنّ رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وسلّم رأى فى منامه بنى أُمية يطؤون منبره واحداً بعد واحد، وفى رواية ينزون على منبره نزو القردة، فشقّ ذلك عليه، فأنزل اللَّه تعالى: «إِنّا أَنْزَلْناهُ فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ» إلى قوله: «خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»، يعنى ملك بنى أُمية. قال القاسم فحسبنا ملك بنى أمية فإذا هو ألف شهر».

طعن القاضى فى هذه الوجوه، فقال: ما ذُكر من «أَلْفِ شَهْرٍ» فى أيّام بنى أُمية بعيد؛ لأنّه تعالى لا يذكر فضلها بذكر ألف شهر مذمومة، وأيّام بنى أُمية كانت مذمومة.

واعلم أنّ هذا الطعن ضعيف؛ وذلك لأنّ أيّام بنى أُمية كانت أيّاماً عظيمة بحسب السعادات الدنيوية، فلا يمتنع أن يقول اللَّه: إنّى أعطيتك ليلة هى فى السعادات الدينية أفضل من تلك السعادات الدنيوية.

تنزّل الملائكة على أرواح البشر ...: ص: ٢٧٧

قال فى تفسير قوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فيها»: إعلم أنّ نظر الملائكة على الأرواح، ونظر البشر على الأشباح.. فكذا الملائكة لمّا رأوا فى روحك الصورة الحسنة وهى معرفة اللَّه وطاعته أحبّوك، فنزلوا إليك معتذرين عمّا قالوه أوّلًا، فهذا هو المراد من قوله «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ»، فإذا نزلوا إليك رأوا روحك فى ظلمة ليل البدن وظلمة القوى الجسمانية..

إنّ قوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ» يقتضى ظاهره نزول كلّ الملائكة، ثمّ إنّ الملائكة لهم كثرة عظيمة.. والمروى أنّهم ينزلون فوجاً فوجاً، فمن نازل وصاعد كأهل الحجّ، فإنّهم على كثرتهم يدخلون الكعبة بالكلّية، لكنّ الناس بين داخل

الامامة الالهية(۵)، ج٣، ص: ٢٧٨

وخارج، ولهذا السبب مدّه إلى غاية طلوع الفجر، فلذلك ذكر بلفظ «تَنَزَّلُ» الذى يفيد المرّة بعد المرّة.

والقول الثانی: وهو اختیار الأکثرین، أنّهم ینزلون إلی الأرض، وهو الأوجه؛ لأنّ الغرض هو الترغیب فی إحیاء هذه اللیلة؛ ولأنّه دلّت الأحادیث علی أنّ الملائکة ینزلون فی سائر الأیام إلی مجالس الذکر والدین، فلأن یحصل ذلک فی هذه اللیلة مع علوّ شأنها أولی؛ ولأنّه روی عن علیّ علیه السلام: «أنّهم ینزلون لیسلّموا علینا ولیشفعوا لنا، فمن أصابته التسلیمة غُفِرَ له ذنبه».

من الروح النازل لیلة القدر ...؟ ص: ۲۷۸

وقال: ذکروا فی الروح أقوالًا:

أحدها: أنّه ملک عظیم لو التقمَ السماوات والأرضین کان له ذلک لقمة واحدة.

وثانیها: طائفة من الملائکة لا تراهم الملائکة إلّافی لیلة القدر...

وثالثها: خَلْق من خلق اللّه یأکلون ویلبسون، لیسوا من الملائکة ولا من الإنس، ولعلّهم خدم أهل الجنّة.

ورابعها: یُحتمل أنّه عیسی علیه السلام؛ لأنّه اسمه، ثم إنّه ینزل فی مواقفه الملائکة لیطّلع علی أُمّة محمّد صلی الله علیه و آله.

وخامسها: إنّه القرآن «وَکَذلِکَ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» «۱».

وسادسها: الرحمة، قُرئ: «لا تَیْأَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ» بالرفع، کأنّه تعالی یقول: الملائکة ینزلون رحمتی تنزل فی أثرهم، فیجدون سعادة الدنیا وسعادة الآخرة.

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۲۷۹

وسابعها: الروح أشرف الملائکة.

وثامنها: عن أبی نجیح: الروح هم الحفظة والکرام الکاتبون، فصاحب الیمین یکتب إتیانه بالواجب، وصاحب الشمال یکتب ترکه للقبیح.

والأصحّ أنّ الروح هاهنا جبرئیل، وتخصیصه بالذکر لزیادة شرفه، کأنّه تعالی یقول: الملائکة فی کفّة والروح فی کفّة.

أقول: إذا کان النازل هو جبرئیل علیه السلام کلّ عام، فعلی من یتنزّل جبرئیل علیه السلام بعد النبیّ صلی الله علیه و آله إلی یومنا هذا وإلی یوم القیامة؟!!

ما هی الأُمور التی تتنزّل بها الروح والملائکة ...؟ ص: ۲۷۹

وقال: وأمّا قوله تعالی: «مِنْ کُلِّ أَمْرٍ» فمعناه تنزّل الملائکة والروح فیها من أجل کلّ أمر، والمعنی: إنّ کلّ واحد منهم إنّما نزل لمهمّ آخر ما. ثمّ ذکروا فیه وجوهاً:

أحدها: إنّهم کانوا فی أشغال کثیرة، فبعضهم للرکوع وبعضهم للسجود وبعضهم بالدعاء، وکذا القول فی التفکیر والتعلیم وإبلاغ الوحی، وبعضهم لإدراک فضیلة اللیلة، أو لیسلّموا علی المؤمنین.

وثانیها: وهو قول الأکثرین- من أجل کلّ أمرٍ قُدّر فی تلک السنة من خیر أو شرّ، وفیه إشارة إلی أنّ نزولهم إنّما کان عبادة، فکأنّهم قالوا: ما نزلنا إلی الأرض لهوی أنفسنا، لکن لأجل أمر فیه مصلحة المکلّفین، وعمّ لفظ الأمر لیعمّ خیر الدنیا والآخرة؛ بیاناً منه أنّهم ینزلون بما هو صلاح المکلّف فی دینه ودنیاه، کأنّ السائل یقول: من أین جئت؟ فیقول: ما لک وهذا الفضول؟ ولکن قُل: لأیّ أمرٍ جئت؛ لأنّه حظّک.

وثالثها: قرأ بعضهم «مِنْ کُلِّ أَمْرٍ»، أی من أجل کلّ إنسان، وروی أنّهم لا

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۲۸۰

يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلّاسلّموا عليه، قيل أليس أنّه قد رُوى أنّه تقسّم الآجال والأرزاق ليلة النصف من شعبان، والآن تقولون أنّ ذلك يكون ليلة القدر؟ قلنا:

عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّ اللّه يقدّر المقادير فى ليلة البراءة، فإذا كان ليلة القدر يسلّمها إلى أربابها»، وقيل: يقدّر ليلة البراءة الآجال والأرزاق، وليلة القدر يقدّر الأُمور التى فيها الخير والبركة والسلامة، وقيل: يقدّر فى ليلة القدر ما يتعلّق به إعزاز الدين وما فيه النفع العظيم للمسلمين، وأمّا ليلة البراءة فيكتب فيها أسماء من يموت ويسلّم إلى ملك الموت).

وقال فى سورة الشورى فى ذيل قوله تعالى «وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا» «۱»

: والمراد به القرآن، وسمّاه روحاً لأنّه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر.

وقال فى سورة الدخان فى ذيل قوله تعالى «إِنّا أَنْزَلْناهُ فى لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ» «۲»

، اختلفوا فى هذه الليلة المباركة، فقال الأكثرون: إنّها ليلة القدر، وقال عكرمة وطائفة آخرون: إنّها ليلة البراءة.

وإنّه تعالى قال فى صفة ليلة القدر: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِىَ»، وقال أيضاً هاهنا: «فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكيمٍ»، وهذا مناسب لقوله: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها»، وهاهنا: «أَمْراً مِنْ عِنْدِنا»، وقال فى تلك الآية «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ»، وقال هاهنا: «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ»، وقال فى تلك الآية: «سَلامٌ هِىَ».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۸۱

اشتمال مراتب القرآن على المقدّرات الحادثة فى كلّ عام ...: ص: ۲۸۱

وقال (المسألة الثامنة) فى تفسير مفردات هذه الألفاظ: أمّا قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ» «۱»

فقد قيل فيه: إنّه تعالى أنزل كلّية القرآن، يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة، ويقع الفراغ فى ليلة القدر، فتُدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ونسخة الحروب إلى جبرائيل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا، وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت، انتهى كلامه.

وقال القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن: (فى تفسير قوله تعالى: «إِنّا أَنْزَلْناهُ» يعنى القرآن، وإن لم يجرِ له ذكر فى هذه السورة؛ لأنّ المعنى معلوم، والقرآن كلّه كالسورة الواحدة، وقد قال: «شَهْرُ رَمَضانُ الَّذى انْزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ»، وقال: «حم وَالْكِتابِ الْمُبينِ إنّا أَنْزَلْناهُ فى لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ» «۲»

يريد: فى ليلة القدر.

وقال الشعبى: المعنى إنّا ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر. وقيل: بل نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة فى ليلة القدر، من اللوح المحفوظ، إلى سماء الدنيا، إلى بيت العزّة، وأملاه جبريل على السفرة، ثمّ كان جبريل ينزّله على النبىّ صلى الله عليه و آله نجوماً نجوماً، وكان بين أوّله وآخره ثلاث وعشرون سنة، قاله ابن عبّاس، وقد تقدّم فى سورة البقرة. وحكى الماوردى عن ابن عبّاس قال: نزل القرآن فى شهر رمضان وفى ليلة القدر، فى ليلة مباركة جملة واحدة من عند اللّه، من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين فى السماء الدنيا، فنجّمته السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونجّمه جبريل على النبىّ صلى الله عليه و آله عشرين سنة.

قال ابن العربى: وهذا باطل؛ ليس بين جبريل وبين اللّه واسطة، ولا بين جبريل

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۸۲

ومحمّد عليهما السلام واسطة.

قوله تعالى: «فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ»، قال مجاهد: فى ليلة الحكم. «وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ»، قال ليلة الحكم، والمعنى ليلة التقدير، سمّيت بذلك لأنّ اللّه تعالى يقدّر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة، من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، ويسلّمه إلى

مدبّرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل عليهم السلام.

أُمّ الكتاب في القرآن متضمّنة لتقدير كلّ شيء ...: ص: ۲۸۲

وقال: وعن ابن عبّاس قال: يكتب من أمّ الكتاب ما يكون فى السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حتّى الحاجّ. قال عكرمة: يكتب حجّاج بيت اللَّه تعالى فى ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يغادر منهم أحد ولا يزاد فيهم.

وقاله سعيد بن جُبير، وقد مضى فى أوّل سورة الدخان هذا المعنى. وعن ابن عبّاس أيضاً: إنّ اللَّه تعالى يقضى الأقضية فى ليلة نصف شعبان، ويسلّمها إلى أربابها فى ليلة القدر. وقيل: إنّما سمّيت بذلك لعظمها وقدرها وشرفها، من قولهم:

لفلان قدر، أى شرف ومنزلة) «۱».

ليلة القدر عوض للنبى صلى الله عليه و آله وآله عليهم السلام عن غصب الخلافة ...: ص: ۲۸۲

ليلة القدر عوض للنبى صلى الله عليه و آله وآله عليهم السلام عن غصب الخلافة:

وقال: (وفى الترمذى عن الحسن بن على رضى اللَّه عنهما: أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أرى بنى أُمية على منبره فساءه ذلك، فنزلت «إنّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ»، يعنى نهراً فى الجنّة، ونزلت «إنّا أَنْزَلْناهُ فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۸۳

أَلْفِ شَهْرٍ»، يملكها بعدك بنو أُمية. قال القاسم بن الفضل الحدّانى: فعددناها فإذا هى ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً. قال: حديث غريب.

قوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ» أى تهبط من كلّ سماء، ومن سدرة المنتهى، ومسكن جبريل على وسطها، فينزلون إلى الأرض ويؤمّنون على دعاء الناس إلى وقت طلوع الفجر، فذاك قوله تعالى «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ».

حقيقة الروح النازل ليلة القدر ...: ص: ۲۸۳

وقال: «وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» «۱»

أى جبرئيل عليه السلام، وحكى القُشيرى: أنّ الروح صنف من الملائكة جُعلوا حفظة على سائرهم، وأنّ الملائكة لا يرونهم كما لا نرى نحن الملائكة. وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة وأقربهم من اللَّه تعالى.

وقيل: إنّهم جند من جند اللَّه عزّوجلّ من غير الملائكة، رواه مجاهد عن ابن عبّاس مرفوعاً، ذكره الماوردى، وحكى القُشيرى: قيل هم صنف من خلق اللَّه يأكلون الطعام ولهم أيدٍ وأرجل وليسوا ملائكة.

وقيل: (الروح) خلق عظيم يقوم صفّاً، والملائكة كلّهم صفّاً. وقيل: (الروح) الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة فى هذه الليلة على أهلها، دليله «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» «۲»

، أى بالرحمة، «فِيها» أى فى ليلة القدر، «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» أى بأمره، «مِن كُلِّ أَمْرٍ» «۳»

أمر بكلّ أمر قدّره اللَّه وقضاه فى تلك السنة إلى قابل.

وقيل عنه: إنّها رُفعت يعنى ليلة القدر- وإنّها إنّما كانت مرّة واحدة.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۸۴

بقاء ليلة القدر في كلّ عام ...: ص: ۲۸۴

وقال: (والصحيح أنّها باقية.. والجمهور على أنّها من كلّ عام من رمضان.. وقال الفرّاء: لا يقدّر اللَّه في ليلة القدر إلّاالسعادة والنعم ويقدّر في غيرها البلايا والنقم) «۱».

وقال الطبري في تفسيره في ذيل سورة البروج: «فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» بسنده إلى مجاهد في لوح قال: (في أُمّ الكتاب) «۲».

وقال ابن كثير في تفسيره، بعد ما نقل جملة ممّا ذكره عنه الرازي والقرطبي، والذي مرّ نقله، قال: (اختلف العلماء هل كانت ليلة القدر في الأُمم السالفة، أم هي من خصائص هذه الأُمّة؟ فقال الزهري.. وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأُمّة بليلة القدر. وقيل: إنّها كانت في الأُمم الماضين كما هي في أُمّتنا، ثمّ هي باقية إلى يوم القيامة وفي رمضان خاصّة) «۳».

وقال الزمخشري في الكشّاف بعد ما ذكره جملة ممّا ذكره عنه الرازي والقرطبي، في ذيل قوله تعالى «وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ» «۴» قال: (وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التي ذكرها من تنزّل الملائكة والروح، وفصل كلّ أمر حكيم.

وقال في ذيل قوله تعالى «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» «۵»

، أي تتنزّل من أجل كلّ أمر قضاه اللَّه لتلك السنة إلى قابل.. وروى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة القدر أُعطى من الأجر كمن صام رمضان وأحيى ليلة القدر»، وذكر في هامش المطبوع أنّ الحديث أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بسندهم إلى أُبَيّ ابن كعب.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۸۵

ليلة القدر عوض له صلى الله عليه و آله عن غصب بني أُمية خلافته وتعدد مصادر الحديث لديهم ... ص: ۲۸۵

وقال الآلوسي في روح المعاني: (ويستدلّ لكونها مدنية بما أخرجه الترمذي والحاكم عن الحسن ابن عليّ (رضي اللَّه تعالى عنهما): «أنّ النبي صلى الله عليه و آله اری بني أُمية على منبره فساءه ذلك، فنزلت «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» «۱»

، ونزلت: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» «۲»

.. الحديث». وهو كما قال المزني: حديث منكر، انتهى.

وقد أخرج الجلال هذا الحديث في الدرّ المنثور عن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل أيضاً، من رواية يوسف ابن سعد، وذكر فيه: أنّ الترمذي «۳» أخرجه وضعّفه، وأنّ الخطيب أخرج عن ابن عبّاس نحوه، وكذا عن ابن نسيب بلفظٍ: قال نبي اللَّه: «أُريتُ بني أُمية يصعدون منبري، فشقّ ذلك عليّ فأنزلت «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»»، ففي قول المزني هو منكر تردّد عندي.

وقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام ما رواه الكافي بسنده إلى أبي عبد اللَّه عليه السلام، قال: «أُرى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في منامه بني أُمية يصعدون على منبره من بعده ويضلّون الناس عن الصراط القهقرى، فأصبح كئيباً حزيناً، قال: فهبط عليه جبرئيل فقال:

يا رسول اللَّه مالي أراك كئيباً حزيناً؟ قال: يا جبرئيل إنّي رأيت بني أُمية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلّون الناس عن الصراط القهقرى. فقال: والذي بعثك بالحقّ نبيّاً إنّي ما اطّلعت عليه. فعرّج إلى السماء فلم يلبث أن نزل بآي من القرآن يُؤنسه بها، قال: «أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ* ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ* مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ» «۴»

، وأُنزل عليه: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»، جعل اللَّه ليلة القدر لنبيه صلى الله عليه و آله

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۸۶

خيراً من ألف شهر ملك بنى أُمية) «۱».

وروى الكلينى عن على بن عيسى القمّاط عن عمّه، قال: «سمعت أبا عبد اللَّه يقول: هبط جبرئيل عليه السلام على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ورسول اللَّه كئيب حزين، فقال: رأيت بنى أُمية يصعدون المنابر وينزلون منها. قال: والذى بعثك بالحقّ نبيّاً، ما علمت بشيء من هذا. وصعد جبرئيل إلى السماء، ثمّ أهبطه اللَّه جلّ ذكره بآى من القرآن يعزّيه بها قوله: «أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ* ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ* مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ» «۲».

وأنزل اللَّه جلّ ذكره: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» للقوم، فجعل اللَّه ليلة القدر (لرسوله) خير، من ألف شهر) «۳».

وفى سند الصحيفة السجادية، عن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال: «إنّ أبى حدّثنى عن أبيه عن جدّه عن علىّ عليه السلام: إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أخذته نعسة وهو على منبره، فرأى فى منامه رجالًا ينزون على منبره نزو القردة، يردّون الناس على أعقابهم القهقرى، فاستوى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله جالساً والحزن يعرف فى وجهه، فأتاه جبرئيل عليه السلام بهذه الآية «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا»، يعنى بنى أُمية. قال: يا جبرئيل على عهدى يكونون وفى زمنى؟

قال: لا، ولكن تدور رحى الإسلام من مُهاجرك فتلبث بذلك عشراً، ثمّ تدور رحى الإسلام على رأس خمسة وثلاثين من مهاجِرَك فتلبث بذلك خمساً، ثمّ لابدّ من رحى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۸۷

ضلاله هى قائمة على قطبها ثمّ ملك الفراعنة. قال: وأنزل اللَّه تعالى فى ذلك: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» يملكها بنو أُمية. فيها ليلة القدر.

قال: فأطلع اللَّه عزّ وجلّ نبيّه صلى الله عليه و آله أنّ بنى أُمية تملك سلطان هذه الأُمّة وملكها طول هذه المدّة، فلو طاولتهم الجبال لطالوا عليها حتّى يأذن اللَّه تعالى بزوال ملكهم، وهم فى ذلك يستشعرون عداوتنا أهل البيت وبغضنا. أخبر اللَّه نبيّه بما يلقى أهل بيت محمّد وأهل مودّتهم وشيعتهم منهم فى أيامهم وملكهم» «۱».

وفى تأويل الآيات: «روى عن أبى بصير عن أبى عبد اللَّه عليه السلام، قال: قوله عزّ وجلّ: «خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» هو سلطان بنى أُمية.

وقال: ليلة من إمام عادل خير من ألف شهر ملك بنى أُمية.

وقال: «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» أىّ من عند ربّهم على محمّد وآل محمّد بكلّ أمر سلام» «۲».

وفى تفسير القمّى: بسنده فى معنى سورة «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» فهو القرآن.. قوله: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ».

أقول: تكثير الروايات فى غصب الخلافة من بنى أُمية، وتأذّى النبىّ صلى الله عليه و آله وتعويضه بليلة القدر، وسيأتى معنى تعويضه بليلة القدر، وتسالم كثير من علماء الجمهور بهذه الروايات، هذا الأمر أحد الأدلّة على أنّ الخلافة فى الشريعة الإلهية هى منصب أهل بيت النبىّ صلى الله عليه و آله فتدبّر تبصر.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۸۸

حقيقة النازل الذى نزل فى ليلة القدر ...: ص: ۲۸۸

وقال فى ذيل قوله تعالى «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»: الضمير عند الجمهور للقرآن، وادّعى الإمام فيه إجماع المفسّرين، وكأنّه لم يعتقد بقول من قال منهم برجوعه لجبرئيل عليه السلام أو غيره؛ لضعفه. قالوا: وفى التعبير عنه بضمير الغائب مع عدم تقدّم ذكره تعظيم له،

أى تعظيم لما أنّه يشعر بأنّه لعلوّ شأنه كأنّه حاضر عند كلّ أحد.

جهل الخلق بحقيقة ليلة القدر ...: ص: ٢٨٨

وقال فى ذيل قوله تعالى «وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ» «١»

: لما فيه من الدلالة على أنّ علوّها خارج عن دائرة دراية الخلق، لا يُعلم ذلك، ولا يعلم به إلّاعلّام الغيوب.

حقيقة نزول القرآن جملة واحدة ...: ص: ٢٨٨

ثمّ ذكر جملة فى تعدّد نزول القرآن جملةً واحدةً ونجوماً، وذكر فى ضمنها هذه الرواية عن ابن عبّاس: «أُنزل القرآن جملةً واحدة حتّى وضع فى بيت العزّة فى السماء الدنيا، ونزل به جبريل عليه السلام على محمّد صلى الله عليه و آله بجواب كلام العباد وأعمالهم».. ثمّ نقل الاختلاف بين المفسّرين عندهم فى قوله تعالى: «أَنْزَلْناهُ» من جهة نزول القرآن جملةً واحدة، فهل تضمّن القرآن النازل جملةً واحدة هذه العبارة أم لا؟

فلابدّ من ارتكاب المجاز فى الإسناد؛ لأنّه إخبار عمّا وقع فيما مضى، فكيف يكون هذا اللفظ فى ضمنه؟

الامامة الالهية(۵)، ج٣، ص: ٢٨٩

فذكر قولًا للرازى فى حلّ الإشكال، وللقرطبى وابن كثير، وضعّف قولهم، ونقل عن ابن حجر فى شرح البخارى أنّه أُنزل جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة فى السماء الدنيا، بل حكى بعضهم الإجماع عليه، ثمّ نقل جواباً لحلّ الإشكال عن السيد عيسى الصفوى، ثمّ الاختلاف بين الدوانى وغيره، وأنّه ألّف رسالة فى ذلك فى الجواب عن مسألة الحذر الأصمّ.

ثمّ نقل عن الاتقان قول أبى شامة: فإن قلت «إِنَّا أَنْزَلْناهُ» إن لم يكن من جملة القرآن الذى نزل جملة فما نزل جملة، وإن كان من الجملة فما وجه هذه العبارة؟

قلت: لها وجهان:

أحدهما: أن يكون المعنى إنّا حكمنا بإنزاله فى ليلة القدر، وقضينا به وقدّرناه فى الأزل.

والثانى: أنّ لفظ «إِنَّا أَنْزَلْناهُ» ماضٍ ومعناه على الاستقبال، أى تنزّله جملة فى ليلة القدر.

ثمّ ذكر عدم ارتضائه لهذا القول وعدم حسنه.

ثمّ نقل أقوالًا أُخر، ثمّ قال: والمراد بالإنزال إظهار القرآن من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، أو إثباته لدى السفرة هناك، أو نحو ذلك ممّا لا يشكل نسبته إلى القرآن.

تقدير الأُمور فى ليلة القدر على من تُنزّل ...؟ ص: ٢٨٩

وقال فى معنى ليلة القدر: إنّها ليلة التقدير، وسبب تسميتها بذلك؛ لتقدير ما يكون فى تلك السنة من أُمور. قال: المراد إظهار تقديره ذلك للملائكة عليهم السلام المأمورين بالحوادث الكونية. ثمّ نقل عن بعض تفسير ذلك: هاهنا ثلاثة أشياء:

الأوّل: نفس تقدير الأُمور، أى تعيين مقاديرها وأوقاتها، وذلك فى الأزل.

الامامة الالهية(۵)، ج٣، ص: ٢٩٠

الثانى: إظهار تلك المقادير للملائكة عليهم السلام بأن تكتب فى اللوح المحفوظ، وذاك فى ليلة النصف من شعبان.

الثالث: إثبات تلك المقادير فى نسخ وتسليمها إلى أربابها من المدبّرات، فتدفع نسخة الأرزاق والنباتات والأمطار إلى ميكائيل عليه

السلام، ونسخة الحروب والرياح والجنود والزلازل والصواعق والخسف إلى جبرئيل عليه السلام، ونسخة الأعمال إلى إسرافيل عليه السلام، ونسخة المصائب إلى ملك الموت، وذلك في ليلة القدر.

وقيل: يقدّر في ليلة النصف الآجال والأرزاق، وفي ليلة القدر الأُمور التي فيها الخير والبركة والسلامة. وقيل: يقدّر في هذه ما يتعلّق به إعزاز الدين وما فيه النفع العظيم للمسلمين، وفي ليلة النصف يكتب أسماء من يموت ويسلّم إلى ملك الموت، واللَّه تعالى أعلم بحقيقة الحال.

أقول: إنّ المكتوب في ليلة القدر ويقدّر يُفترض أنّ كتابته وتقديره إنّما يُكتب ويقدّر لتسليمه إلى من يوكّل إليه تدبير الأُمور بإذن اللَّه، كالملائكة الموكّلين، فالتنزّل بكلّ هذه التقديرات والكتابة إلى الأرض إلى من يسلّم؟ ومن هو الذي يطّلع على ذلك من أهل الأرض؟ وما هو التناسب بين نزول ما فيه إعزاز الدين والأُمّة، والحديث النبويّ: «إنّ الإسلام لا يزال عزيزاً إلى اثنى عشر خليفة... كلّهم من قريش» «۱».

أقوال علماء سنّة الجماعة في عوضية الليلة له عن غصب الخلافة ...: ص: ۲۹۰

قال في تفسير (ألف شهر): وقد سمعت إلى ما يدلّ أنّ الألف إشارة إلى مُلك بني أُميّة، وكان على ما قال القاسم بن الفضل: ألف شهر، لا يزيد يوماً ولا ينقص

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۹۱

يوماً، على ما قيل ثمانين سنة، وهي ألف شهر تقريباً؛ لأنّها ثلاثة وثمانون سنة وأربعة أشهر، ولا يعكّر على ذلك ملكهم في جزيرة الأندلس بعد؛ لأنّه ملك يسير في بعض أطراف الأرض وآخر عمارة العرب، ولذا لا يعدّ من مَلَكَ منهم هناك من خلفائهم، وقالوا بانقراضهم بهلاك مروان الحمار.

وطعن القاضي عبد الجبّار في كون الآية إشارة لما ذكر بأنّ أيام بني أُمية كانت مذمومة أي باعتبار الغالب، فيبعد أن يقال في شأن تلك الليلة إنّها خير من ألف شهر مذمومة:

ألم ترَ أنّ السيف ينقص قدره إذا قيل إنّ السيف خيرٌ من العصا

وأُجيب: إنّ تلك الأيام كانت عظيمة بحسب السعادات الدنيوية، فلا يبعد أن يقول اللَّه تعالى: أعطيتك ليلة في السعادات الدينية أفضل من تلك في السعادات الدنيوية، فلا تبقى فائدة.

ليلة القدر مع الأنبياء في ما مضى فهي مع من في ما بقي ...: ص: ۲۹۱

الروح النازل في ليلة القدر قناة غيبية كانت مع الأنبياء، فهي مع من بعد النبيّ الخاتم؟

قال: وما أشير إليه من خصائص هذه الأُمّة هو الذي يقتضيه أكثر الأخبار الواردة في سبب النزول، وصرّح به الهيثمي وغيره. وقال القسطلاني: إنّه معترض بحديث أبي ذر عند النسائي، حيث قال فيه: «يا رسول اللَّه، أتكون مع الأنبياء فإذا ماتوا رُفعت. قال: بل هي باقية». ثمّ ذكر أنّ عمدة القائلين بذلك الخبر الذي قدّمناه في سبب النزول من رؤيته صلى الله عليه و آله تقاصر أعمار أُمّته عن أعمار الأُمم، وتعقّبه بقوله هذا محتمل للتأويل، فلا يدفع الصريح في حديث أبي ذر كما قاله الحافظان ابن كثير في تفسيره، وابن حجر في فتح الباري.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۹۲

وقد اختلف العلماء في ليلة القدر اختلافاً كثيراً، وتحصّل لنا من مذاهبهم في ذلك أكثر من أربعين قولًا، كما وقع لنا نظير ذلك في

ساعة الجمعة، وقد اشتركنا فى إخفاء كلّ منهما ليقع الحدّ فى طلبهما:

القول الأوّل: إنّها رُفعت أصلًا ورأساً، حكاه المتولّى فى التتمّة عن الروافض، والفاكهانى فى شرح العمدة عن الحنفية، وكأنّه خطأ منه، والذى حكاه السروجى أنّه قول الشيعة.

أقول: بل الشيعة الإمامية هم المذهب الوحيد على وجه الأرض القائلون ببقاء الاتّصال بين الأرض والسماء، وأنّ هناك سبب متّصل هو الإمام من عترة النبىّ صلى الله عليه و آله، وإن لم يكن هذا الاتّصال وحياً نبويّاً، وهو الذى يتنزّل عليه الروح الأعظم والملائكة كلّ عام بعد النبىّ صلى الله عليه و آله، بينما المذاهب الإسلامية كلّها حتّى الزيدية، وإن قالوا باستمرار الإمامة السياسية وعدم حصرها بالأئمّة المنصوص عليهم وأنّ الإمامة هى لكلّ من قام بالثورة على الظلم ولا يشترط فيها العصمة، إلّا أنّهم قائلون بانقطاع الاتّصال أيضاً بين الغيب والشهادة، وانقطاع الاتّصال ذهبت إليه اليهود بعد النبىّ موسى عليه السلام، كما ذهبت إليه النصارى بعد النبىّ عيسى عليه السلام.

وقال: وقد روى عبد الرزّاق من طريق داود بن أبى عاصم، عن عبد اللّه بن يخنس: قلت لأبى هريرة: زعموا أنّ ليلة القدر رُفعت، قال: كذّب من قال ذلك.

ومن طريق عبد اللّه بن شُريك قال: ذكر الحجاج ليلة القدر فكأنّه أنكرها، فأراد زر بن حُبيش أن يحصبه فمنعه قوم.

الثانى: إنّها خاصّة بسنة واحدة وقعت فى زمن رسول اللّه صلى الله عليه و آله، حكاه الفاكهانى أيضاً.

الثالث: إنّها خاصّية بهذه الأُمّة، ولم تكن فى الأُمم قبلهم، جزم به ابن حبيب وغيره من المالكية ونقله الجمهور، وحكاه صاحب العدّة من الشافعية ورجّحه،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۹۳

وهو معترض بحديث أبى ذر عند النسائى، حيث قال فيه: قلت: يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله تقاصر أعمار أمّته عن أعمار الأُمم الماضية، فأعطاه اللّه ليلة القدر، وهذا يحتمل التأويل، فلا يدفع التصريح فى حديث أبى ذر. «۱»

ليلة القدر يفصل فيها المقدّرات لأحداث كلّ السنة ...: ص: ۲۹۳

وقال الآلوسى فى روح المعانى فى تفسير قوله تعالى «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» «۲»

: أى من أجل كلّ أمر تعلّق به التقدير فى تلك السنة إلى قابل وأظهره سبحانه وتعالى لهم، قاله غير واحد. ف (من) بمعنى اللام التعليلية متعلّقة بتنزّل، وقال أبوحاتم:

(من) بمعنى الباء، أى تنزّل بكلّ أمر، فقيل: أى من الخير والبركة، وقيل: من الخير والشرّ وجعلت الباء عليه للسببية.

والظاهر على ما قالوا إنّ المراد بالملائكة المدبّرات؛ إذ غيرهم لا- تعلّق له بالأُمور التى تعلّق بها التقدير ليتنزّلوا لأجلها على المعنى السابق، وهو خلاف ما تدلّ عليه الآثار من عدم اختصاصهم بالمدبّرات. «۳»

ليلة القدر يتحقّقها وتتنزّل على من شاء اللّه تعالى من عباده ...: ص: ۲۹۳

جاء فى شرح صحيح مسلم للنووى قوله: (إعلم أنّ ليلة القدر موجودة، وأنّها تُرى ويتحققّها من شاء اللّه تعالى من بنى آدم كلّ سنة فى رمضان، كما تظاهرت عليه الأحاديث وأخبار الصالحين بها، ورؤيتهم لها أكثر من أن تُحصى. وأمّا قول القاضى عياض عن المهلّب بن أبى صُفرة: لا يمكن رؤيتها حقيقةً، فغلط فاحش

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۹۴

نبهتُ عليه لئلّا يُغترّ به) «١».

وقال فی ذيل سورة الدخان فی قوله تعالی «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِی لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» «٢»

: أی الكتاب المبين الذی هو القرآن علی القول المعوّل عليه فی «لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» هی ليلة القدر، علی ما روی عن ابن عبّاس وقتادة.

وفی تحفة المحتاج لابن حجر الهيثمی: «ليس لرائيها كتمها، ولا ينال فضلها أی كمالها إلّامن أطلعه اللّه عليها»، انتهی. والظاهر أنّه عنی برؤيتها رؤية ما يحصل به العلم له بها ممّا خُصّت به من الأنوار وتنزّل الملائكة عليهم السلام، أی نحوٍ من الكشف ممّا لا يعرف حقيقته إلّاأهله، وهو كالنصّ فی أنّها يراها من شاء اللّه تعالی من عباده. ثمّ حكی عن ابن شاهين: إنّه لا يراها أحد من الأوّلين والآخرين إلّا نبيّنا صلی الله عليه و آله.

ثمّ قال: وفی بعض الأخبار ما يدلّ علی أنّ رؤيتها مناماً وقعت لغيره صلی الله عليه و آله، ففی صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر: «إنّ رجالًا من أصحاب النبیّ صلی الله عليه و آله اُروا ليلة القدر فی المنام فی السبع الأواخر، فقال صلی الله عليه و آله: أری رؤياكم قد تواطأت فی السبع الأواخر، فمن كان متحرّياً فليتحرَّها فی السبع الأواخر» «٣».

وحكی نحو قول ابن شاهين عن غيره أيضاً وغلط، ففی شرح صحيح مسلم وابن جُبير ومجاهد وابن زيد والحسن، وعليه أكثر المفسّرين والظواهر معهم..

والمراد بإنزاله فی تلك الليلة إنزاله فيها جملةً إلی السماء الدنيا من اللوح، فالإنزال المنجّم فی ثلاث وعشرين سنة أو أقل كان من السماء الدنيا، وروی هذا عن ابن جرير وغيره، وذكر أنّ المحلّ الذی اُنزل فيه من تلك السماء البيت المعمور، وهو

الامامة الالهية(٥)، ج٣، ص: ٢٩٥

مسامت للكعبة، بحيث لو نزل لنزل عليها.

وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم النخعی أنّه قال: اُنزل القرآن جملةً علی جبرئيل عليه السلام وكان جبرئيل عليه السلام يجیء به بعدُ إلی النبیّ صلی الله عليه و آله.

ليلة القدر فی سورة الشوری والنزول الأول للقرآن ...: ص: ٢٩٥

وقال فی ذيل قوله تعالی: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِی مَا الْكِتَابُ..» «١»

: وهو ما اُوحی إليه عليه الصلاة والسلام، أو القرآن الذی هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياة أبدية. وقيل: أی ومثل الإيحاء المشهود لغيرك، أوحينا أبو القاسم إليك. وقيل: أی مثل ذلك الإيحاء المفصّل، أوحينا إليك، إذ كان عليه الصلاة والسلام اجتمعت له الطرق الثلاث، سواء فُسّر الوحی بالإلقاء، أم فُسّر بالكلام الشفاهی.

وقد ذُكر أنّه عليه الصلاة والسلام قد اُلقی إليه فی المنام كما اُلقی إلی إبراهيم عليه السلام، واُلقی إليه عليه الصلاة والسلام فی اليقظة علی نحو إلقاء الزبور إلی داود عليه السلام. ففی «الكبريت الأحمر» للشعرانی نقلًا عن الباب الثانی من «الفتوحات المكّية»: أنّه صلی الله عليه و آله اُعطی القرآن مجملًا قبل جبرئيل عليه السلام، من غير تفصيل الآيات والسور. وعن ابن عبّاس تفسير الروح بالنبوّة. وقال الربيع: هو جبرئيل عليه السلام.

وعليه، فأوحينا مضمّن معنی أرسلنا، والمعنی: أرسلناه بالوحی إليك؛ لأنّه لا يقال: أوحی الملك بل أرسله.

ونقل الطبرسی عن أبی جعفر وأبی عبداللّه رضی اللّه تعالی عنهما: أنّ المراد بهذا الروح ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول اللّه صلی الله عليه و آله ولم يصعد

الامامة الالهية(٥)، ج٣، ص: ٢٩٦

إلی السماء. وهذا القول فی غاية الغرابة، ولعلّه لا يصحّ عن هذين الإمامين.

وتنوين (روحاً) للتعظيم، أی روحاً عظیماً «۱».. وقال فی ذیل قوله تعالی «وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ» أی الروح الذی أوحیناه إلیک. وقال ابن عطیة: الضمیر للکتاب، وقیل للإیمان ورجّح بالقرب، وقیل للکتاب والإیمان ووحّد؛ لأنّ مقصدهما واحد فهو نظیر «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ» «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۹۷

ليلة القدر فی روايات أهل سنّة الخلافة ... ص: ۲۹۷

دوام ليلة القدر فی كلّ عام إلی يوم القيامة ...: ص: ۲۹۷

۱- فقد روی عبد الرزّاق الصنعانی فی (المصنّف)، بسنده عن مولی معاوية، قال: (قلت لأبی هريرة: زعموا أنّ ليلة القدر قد رُفعت، قال: كذّب من قال كذلك، قلت: فهی كلّ شهر رمضان استقبله؟ قال: نعم.. الحديث) «۱»، ورواه عنه بطريق آخر «۲»، ورواه كنز العمّال أيضاً «۳».

۲- وروی عبد الرزّاق الصنعانی فی المصنّف بسنده عن ابن عبّاس، قال: «ليلة فی كلّ رمضان يأتی، قال: وحدّثنی يزيد بن عبداللّه بن الهاد: إنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله سُئِل عن ليلة القدر، فقيل له: كانت مع النبيّين ثم رُفعت حين قُبضوا، أو هی فی كلّ سنة؟ قال: بل هی فی كلّ سنة، بل هی فی كلّ سنة» «۴».

۳- وروی عن ابن جرير، قال: «حُدّثت: أنّ شيخاً من أهل المدينة سأل أباذر بمنی، فقال: رُفعت ليلة القدر أم هی فی كلّ رمضان؟ فقال أبوذر: سألت رسول اللّه صلی الله عليه و آله فقلت: يا رسول اللّه رُفعت ليلة القدر؟ قال: بل هی كلّ رمضان» «۵».

۴- وروی ابن أبی شيبة الكوفی فی المصنّف فی باب ليلة القدر، بسنده إلی ابن

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۹۸

أبی مرثد عن أبيه، قال: «كنت مع أبی ذر عند الجمرة الوسطی، فسألته عن ليلة القدر، فقال: كان أسأل الناس عنها رسول اللّه صلی الله عليه و آله: ليلة القدر كانت تكون علی عهد الأنبياء فإذا ذهبوا رُفعت؟ قال: لا ولكن تكون إلی يوم القيامة» «۱».

۵- أخرج السيوطی فی الدرّ المنثور: «عن محمّد بن نصر، عن سعيد بن المسيب أنّه سُئل عن ليلة القدر، أهی شیء كان فذهب، أم هی فی كلّ عام؟ فقال: بل هی لأُمّة محمّد ما بقی منهم اثنان» «۲».

أقول وفی هذه الرواية وإن كانت مقطوعة دلالة علی أن لو بقی فی الأرض رجلٌ واحد لكان الثانی هو الحجّة وخليفة اللّه فی الأرض، الذی تنزّل عليه ليلة القدر بمقادير الأُمور، وأنّ ليلة القدر هی من حقائق وخصائص روح الحجّة فی الأرض.

۶- وروی الطبری بسنده عن ربيعة بن كلثوم، قال: «قال رجل للحسن وأنا أسمع:

أرأيت ليلة القدر فی كلّ رمضان هی؟ قال: نعم، واللّه الذی لا إله إلّاهو أنّها لفی كلّ رمضان، وأنّها ليلة القدر فيها يُفرق كلّ أمر حكيم، فيها يقضی اللّه كلّ أجل وعمل ورزق إلی مثلها» «۳».

النزول فی ليلة القدر وحی للأنبياء، واستمراره بعد الأنبياء ...: ص: ۲۹۸

قال ابن خزيمة فی صحيحه «۴»: باب ذكر أبواب ليلة القدر والتأليف بين الأخبار المأثورة عن النبیّ صلی الله عليه و آله، فيها ما يحسب كثيراً من حملة العلم ممّن لا يفهم صناعة العلم أنّها متهاترة متنافية وليس كذلك، هی عندنا بحمد اللّه ونعمته، بل هی

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۲۹۹

مختلفة الألفاظ متّفقة المعنی علی ما سأبيّنه إن شاء اللّه.

قال أيضاً: باب ذكر دوام ليلة القدر فى كلّ رمضان إلى قيام الساعة، ونفى انقطاعها بنفى الأنبياء.

٧- وروى بسنده إلى أبى مرثـد، قال: «قال: لقينا أباذر وهو عنـد الجمرة الوسطى فسألته عن ليلـة القـدر، فقال: ما كان أحـد بأسأل لها منّى، قلت: يارسول اللَّه ليلة القدر أُنزلت على الأنبياء بوحى إليهم فيها ثمّ ترجع؟ فقال: بل هى إلى يوم القيامة..

الحديث» «١»

، ورواه بطريق آخر أيضا فى باب أنّ ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان «٢».

٨- وروى النسـائى، والقسـطلانى، والهيثمى، وابن حجر فى فتـح البارى، وابن كثير فى تفسـيره حـديث أبى ذر فى ليلـة القـدر قال: «يا رسول اللَّه أتكون مع الأنبياء فإذا ماتوا رُفعت؟ قال: بل هى باقية».

٩- وروى أحمد بن محمّد بن سلمة فى شرح معانى الآثار، فى باب الرجل يقول لامرأته أنت طالق ليلة القدر، متى يقع الطلاق؟ بسنده إلى مالـك ابن مرثـد عن أبيه، قـال: «سألت أباذر فقلت: أسألت رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله عن ليلـة القـدر؟ قال: نعم، كنت أسأل النـاس عنها، قال عكرمـة: يعنى أشـبع سؤلًا، قلت: يا رسول اللَّه، ليلـة القـدر أفى رمضان هى أم فى غيره؟ قال صـلى الله عليه و آله: فى رمضان. قلت: وتكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا رُفعوا رُفعت؟ قال: بل هى إلى يوم القيامة» «٣».

١٠- وفى صحيح ابن حبان، قال فى باب ذكر البيان بأنّ ليلة القدر تكون فى العشر الأواخر كلّ سنة إلى أن تقوم الساعة، ثمّ روى بسند متّصل رواية أبى ذر

الامامة الالهية(۵)، ج٣، ص: ٣٠٠

المتقدّمة واللفظ فيها.. «تكون فى زمان الأنبياء ينزل عليهم الوحى، فإذا قُبضوا رُفعت؟

فقال صلى الله عليه و آله: بل هى إلى يوم القيامة» «١».

وروى البيهقى فى فضائل الأوقات روايـة أبى ذر المتقدّمة بإسـناده «٢»، وقال قبل تلك الروايـة: وليلة القدر التى ورد القرآن بفضـيلتها إلى يوم القيامة وهى فى كلّ رمضان ... ثمّ نقل الخبر المزبور. وروى الهيثمى فى موارد الظمآن رواية أبى ذر بسنده «٣».

١١- وروى أحمد بن محمّد بن سلمة فى معانى الآثار، فى باب الرجل يقول لامرأته أنت طالق ليلة القدر، متى يقع الطلاق؟ بسنده إلى سعيـد بن جبير عن ابن عمر، قال: «سُئِل رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله وأنا أسـمع عن ليلـة القـدر؟ فقال: فى كلّ رمضان». ففى هـذا الحديث أنّها فى كلّ رمضان، فقال قوم هذا دليل على أنّها تكون فى أوّله وفى وسطه، كما قد تكون فى آخره. وقد يحتمل قوله صلى الله عليه و آله فى كلّ رمضان هذا المعنى، ويحتمل أنّها فى كلّ رمضان إلى يوم القيامة «۴»، ورواه بطرق اخرى غير مرفوعة.

أقول: هذه الروايات عند العامّة مطابقة لما يأتى من الروايات عند أهل البيت عليهم السلام، من عدّة وجوه، أهمّها:

أوّلًا: ليلـة القدر كانت من لَدُن آدم عليه السـلام، واسـتمرّت إلى النبىّ الخاتـم صـلى الله عليه و آله، وهى مسـتمرّة إلى يوم القيامة نزولًا على خلفاء النبىّ الاثنى عشر.

وثانياً: إنّ هذا الروح النازل فى ليلة القدر هو قناة ارتباط الأنبياء والأوصياء مع الغيب.

وثالثاً: ممّا يدلّل على عموم الخلافة الإلهية: «إِنِّی جَاعِلٌ فِی الْأَرْضِ

الامامة الالهية(۵)، ج٣، ص: ٣٠١

خَلِیفَةً» «١»

من لدن آدم وفى أوصـياء كلّ نبىّ حتّى أوصياء النبىّ الخاتم، وأنّ هذه السفارة الإلهية لم تزل متّصلة ما استمرّ بنو آدم فى العيش على الأرض.

استمرار نزول باطن القرآن فى ليلة القدر إلى يوم القيامة ...: ص: ٣٠١

۱۲- وروى الطبرانى فى المعجم الكبير بسنده: (حدّثنا أحمد بن رشدين، ثنا أبوصالح الحرانى سنة ثلاثة وعشرين ومئتين، حدّثنا حيان بن عبيداللّه بن زهير المصرى أبو زهير منذ ستّين سنة، قال: سألت الضحاك بن مزاحم عن قوله: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» «۲»

، وعن قوله: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» «۳»

، وعن قوله:

«إِنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» «۴»

، فقال: قال ابن عبّاس: إنّ اللّه عزّوجلّ خلق العرش فاستوى عليه، ثم خلق القلم فأمره ليجرى بإذنه، وعُظمَ القلم ما بين السماء والأرض، فقال القلم: بم يا ربّ أجرى، قال: بما أنا خالق وكائن فى خلقى من مطر أو نبات أو نفس أو أثر، يعنى به العمل أو الرزق أو الأجل، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة فأثبته اللّه فى الكتاب المكنون عنده تحت العرش. وأمّا قوله «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فإنّ اللّه وكّل ملائكته يستنسخون من ذلك الكتاب كلّ عام فى رمضان ليلة القدر ما يكون فى الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة، فيعارضون به حفظة اللّه على العباد كلّ عشية خميس، فيجدون ما رفع الحفظة موافق لما فى كتابهم ذلك، ليس فيه زيادة ولا نقصان) «۵».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۰۲

أقول: فى تفسير ابن عبّاس لهذه الآيات عدّة أُمور:

الأوّل: كلّ ما كان وما يكون وما هو كائن فهو مستطرّ مكتوب فى الكتاب المكنون، الذى هو الوجود الغيبى للقرآن الكريم.

والثانى: إنّه يتنزّل منه ليلة القدر ما يتعلّق بكلّ سنة، وهذا يقتضى احتواء القرآن الكريم، وكذا ما ينزل منه ليلة القدر لكلّ تقدير فى الخلق، وقدر كلّ كائن وتكوين.

والثالث: إنّ ما يتنزّل ليلة فى كلّ عام هو ما وراء لفظ التنزيل، فلا تقتصر حقيقة القرآن وباطنه وتأويله على ظاهر لفظ المصحف.

والرابع: إنّ عشية كلّ خميس أى ليلة الجمعة هناك معارضة الكتبة الحفظة على العباد من أعمال، وبين ما نزل من الكتاب المكنون من القرآن فى ليلة القدر.

وهذه الأُمور الأربعة أُشير إليها بنحوٍ مستفيض فى روايات أهل البيت عليهم السلام كما سيأتى، ولا غرو فى ذلك؛ لأنّ ابن عبّاس قد نهل من أمير المؤمنين والحسنين عليهم السلام فعرف منهم هذا المقدار، وإن خفى عليه ما هو أعظم.

فيتحصّل من كلامه:

الخامس: اشتمال القرآن لكلّ علم وجميع العلوم.

السادس: إنّ ما ينزل فى ليلة القدر من كلّ عام إلى يوم القيامة هو من باطن القرآن.

السابع: فباطن القرآن لا زال يتنزّل فى كلّ عام إلى يوم القيامة، وقد ذُكر كلّ ذلك فى روايات أهل البيت عليهم السلام.

الثامن: إنّه يتمّ معارضة أى مطابقة ما ينزل منه ليلة القدر فى كلّ أُسبوع، كما قد حصل للنبىّ صلى الله عليه و آله معارضة ظاهرة التنزيل كلّ عام مع جبرئيل عليه السلام.

۱۳- وروى البيهقى فى فضائل الأوقات بسند متّصل إلى أبى نظير، قال: يفرّق

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۰۳

أمر السنة كلّها فى ليلة القدر، بلائها ورخائها ومعاشها إلى مثلها من السنة «۱».

تباين حقيقة النازل من القرآن فى المرتين تكرّر نزول جملة القرآن مرّتين بل أكثر إلى يوم القيامة ...: ص: ۳۰۳

۱۴- روى الطبرانى فى المعجم الكبير، بسند متّصل إلى ابن عبّاس فى قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ»، قال: أنزل القرآن جملة واحدة حتّى وضع فى بيت العزّة فى السماء الدنيا، ونزّله جبرئيل على محمّد صلى الله عليه و آله بجواب كلام العباد وأعمالهم «۲».

۱۵- وروى ابن أبى شيبة الكوفى فى المصنّف فى باب القرآن متى نزل، بسند متّصل عن ابن عبّاس فى قوله «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ»، قال: رفع إلى جبرئيل فى ليلة القدر جملة، فرفع إلى بيت العزّة، جعل ينزل تنزيلًا «۳».

۱۶- وروى النسائى فى السنن الكبرى بسند متّصل عن ابن عبّاس، قال: نزل القرآن فى رمضان فى ليلة القدر إلى السماء الدنيا، فكان إذا أراد اللّه أن يحدث شيئاً نزل، فكان بين أوّله إلى آخره عشرين.

وروى مثله بخمسة طرق أُخرى كلّها عن ابن عبّاس، وزاد فى بعضها، قال: «وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا» «۴»

، وقرأ:

«وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا» «۵».

وفى طريق آخر منها زاد، وذلك «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ» «۶». «۷»

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۰۴

۱۷- وروى الطبرانى فى المعجم الأوسط، قال: روى نزول القرآن فى ليلة القدر فى شهر رمضان إلى السماء الدنيا جملة ثمّ أُنزل نجوماً، ورواه بطرق أُخرى متعدّدة «۱».

ومقتضى هذه الروايات، أنّ الذى نزل به جبرئيل على النبىّ من القرآن أنّما هو النزول الثانى، أى النزول نجوماً من السماء الدنيا من بيت العزّة إلى النبىّ صلى الله عليه و آله، دون النزول الأوّل الذى هو جملة واحدة، ودون النزول المستمرّ فى كلّ عام فى ليلة القدر، ويقتضيه ظاهر آية سورة الشورى وسورة القدر، كما سيأتى بيانه مفصّلًا، وأنّ النازل بجملة القرآن وفى ليلة القدر من كلّ عام إلى يوم القيامة هو روح القدس، والذى أُطلق عليه فى القرآن «رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا»، وجُعل فى سورة القدر مقابل للملائكة «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ» «۲».

ومن ذلك يُعلم الاختلاف النوعى فى حقيقة التنزيلين، وأنّ النوعية الأُولى من النزول وهى نزول القرآن جملة- هو المستمرّ فى ليلة القدر إلى يوم القيامة، وهو يرتبط بتأويل الكتاب، وتقدير كلّ شىء يقع من المقادير فى الخلق.

نزول القرآن ليلة القدر على آل محمّد عوض غصب الخلافة ...: ص: ۳۰۴

۱۸- وروى البيهقى فى كتاب فضائل الأوقات بسند متّصل إلى يوسف بن مازن، قال: «قام رجل إلى الحسن بن علىّ رضى الله عنه فقال: يا مسوّد وجه المؤمنين. قال الحسن بن علىّ رضى الله عنه: لا تؤنّبنى رحمك اللّه؛ فإنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد رأى بنى أُميّة يخطبون على

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۰۵

منبره رجلًا فرجلًا فساءه ذلك، فنزلت «إِنّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ» «۱»

نهر فى الجنّة، ونزلت «إِنّا أَنْزَلْناهُ فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» «۲»

تملكه بنو أُمية، فحسبنا ذلك ... فإذا هو لا يزيد ولا ينقص» «۳».

۱۹- وروى ابن أبى الحديد، قال: «وقد جاء فى الأخبار الشائعة المستفيضة فى كتب المحدّثين، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله أُخبر أنّ بنى أُمية تملك الخلافة بعده مع ذمّ منه صلى الله عليه و آله لهم. نحو ما روى عنه فى تفسير قوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ» «۴»

، فإنّ المفسّرين قالوا: إنّه رأى بنى أُمية ينزون على منبره نزو القردة، هذا لفظ رسول اللّه صلى الله عليه و آله الذى فسّر لهم الآية به،

فساءه ذلک، ثمّ قال: الشجرة الملعونة بنی أمیة وبنی المغیرة. ونحوه قوله صلی الله علیه و آله: إذا بلغ بنو العاص ثلاثون رجلًا اتّخذوا مال اللَّه دولًا وعباده خولًا. ونحوه قوله صلی الله علیه و آله فی تفسیر قوله تعالی: «لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» «۵»

قال: ألف شهر یملک بها بنو أُمیة».

وورد عنه صلی الله علیه و آله فی ذمّهم الکثیر المشهور نحوه.. وروی المدائنی عن دخول سفیان بن أبی لیلی النهدی، روایة عن الحسن بن علیّ علیه السلام فی تفسیر الآیة، وهی التی قد تقدّم ذکرها «۶».

۲۰- وروی الطبری فی سورة القدر بسنده المتّصل عن عیسی بن مازن، قال:

«قلت للحسن بن علیّ رضی الله عنه: یا مسوّد وجوه المؤمنین، عمدت إلی هذا الرجل فبایعت له یعنی معاویة بن أبی سفیان فقال: إنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أُری فی منامه بنی أُمیة یعلون منبره خلیفة خلیفة فشقّ ذلک علیه، فأنزل اللَّه: «إِنّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ»، و «إِنّا أَنْزَلْناهُ

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۰۶

فی لَیْلَةِ الْقَدْرِ وَما أَدْراکَ ما لَیْلَةُ الْقَدْرِ لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»، یعنی ملک بنی أُمیة». قال القاسم: حسبنا ملک بنی أُمیة فإذا هو ألف شهر».

۲۱- وروی الترمذی فی سننه، والحاکم بسند متّصل إلی الحسن بن علیّ علیه السلام:

«إنّ النبیّ صلی الله علیه و آله أُری بنی أُمیة علی منبره فساءه ذلک، فنزلت «إِنّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ»، ونزلت «إِنّا أَنْزَلْناهُ فی لَیْلَةِ الْقَدْرِ».. الحدیث» «۱».

ورواه السیوطی فی الدرّ المنثور عن جریر والطبرانی وابن مردویه والبیهقی فی الدلائل من روایة یوسف بن سعد، وأخرج الخطیب عن ابن عبّاس نحوه، وکذا عن ابن نسیب، عنه صلی الله علیه و آله: «أُریت بنی أُمیة یصعدون منبری فشقّ ذلک علیّ، فانزلت «إِنّا أَنْزَلْناهُ فی لَیْلَةِ الْقَدْرِ»».

أقول: ومقتضی هذه الروایات أنّ اللَّه تعالی قد عوّض النبیّ وأهل بیته عن غصب الخلافة الظاهریة بإعطائهم لیلة القدر، أن تکون معهم کما کانت مع الأنبیاء السابقین؛ إذ مقتضی جواب الإمام الحسن بن علیّ علیه السلام عن غصب معاویة الخلافة منه، هو أنّ اللَّه تعالی قد عوّض النبیّ وأهل بیته أصحاب الکساء والأئمّة الاثنی عشر سلام اللَّه علیهم بنزول الروح علیهم والملائکة فی لیلة القدر یتبّئونهم بکلّ أمر، وإلّا لما صحّ جواب الإمام الحسن بن علی علیه السلام فی قبال اعتراض السائل، بل ولما کان تعویض للنبیّ صلی الله علیه و آله، فإنّ مساءة النبیّ من نزو بنی أُمیة علی خلافته وغصبهم لها لیس فی زمانه، وإنّما بعد رحیله صلی الله علیه و آله حیث وقعت الفتنة بنصّ الآیة الکریمة: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْیَا الَّتِی أَرَیْنَاکَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِی الْقُرْآنِ» «۲»

، وبنصّ الروایات الواردة فی ذیل الآیة عن النبیّ من طریقهم فضلًا من طرقنا، فهذه الروایات المستفیضة عندهم وعندنا فی ذیل الآیة مع نفس

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۰۷

مضمون الآیة هی أحد ملامح الأدلّة علی إمامة أهل البیت علیهم السلام وغصب أهل السقیفة وبنو أُمیة للخلافة.

کما أنّها دالّة علی أنّ لیلة القدر وما یتنزّل فیها والروح النازل، کلّ ذلک یرتبط ارتباطاً وثیقاً بحقیقة إمامتهم التکوینیة الإلهیة.

وسیأتی لاحقاً فی هذا الفصل والذی یُعدّ أیضاً ارتباط حقیقة لیلة القدر بحکومتهم السیاسیة الخفیة فی النظام الاجتماعی السیاسی، ولکن بنمو تکوینی منظومی.

وهذا النازل فی لیلة القدر لیس وحی شریعة، وإنّما هو علم فی الإدارة والتدبیر والقیادة والإمامة الإلهیة، ومحلّ تقدیر وتدبیر لکلّ شیء فی القضاء والقدر الإلهی إلی السنة المقبلة.

حقيقة القرآن هى الروح النازل ليلة القدر ...: ص: ۳۰۷

۲۲- وروى السيوطى فى ذيل سورة النحل قوله تعالى: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ» «۱»
، قال: أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عبّاس فى قوله تعالى:
«يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ»، قال: بالوحى.
۲۳- وكذلك روى السيوطى فى الموضع السابق عن جملة من المصادر، عن قتادة فى قوله: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ»، قال: بالوحى والرحمة. وأخرج عن جملة، عن الضحّاك فى قوله تعالى: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ»، قال: القرآن «۲».
وروى الطبرى بسنده عن قتادة مثله.
الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۰۸
۲۴- وروى السيوطى فى الدرّ المنثور فى سورة الشورى فى ذيل قوله تعالى:
«وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ» «۱»
، قال: أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عبّاس (رضى اللّه عنهما) فى قوله: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا»، قال: القرآن «۲».

حقيقة الوحى هو نزول الروح كما فى ليلة القدر ومستمرّ إلى يوم القيامة ...: ص: ۳۰۸

أقول: ويُستفاد من مجموع هذه الطائفة من الروايات: أنّ حقيقة القرآن هى الروح الذى يتنزّل فى كلّ ليلة قدر، وأنّ نزوله فى كلّ ليلة قدر نزول للوحى الإلهى، بل إنّ الوحى ليس إلّانزول الروح والملائكة على من يشاء من العباد المصطفون، من الأنبياء والأوصياء، ومن ثمّ عبّر فى سورة الشورى فى قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ» عن إرسال الروح الأمرى بأنّه وحىٌ، فالوحى هو إنزال الروح وإنزال الروح هو وحى، فتصريح القرآن الكريم فى سورة القدر بتنزيل الروح كلّ عام، هو تصريح باستمرار الوحى بعد سيد الأنبياء، غاية الأمر الذى يتنزّل هو من غيب القرآن الذى قد ورّثه النبىّ صلى الله عليه و آله لأوصيائه.

عقيدة البداء وحقيقة ليلة القدر ...: ص: ۳۰۸

۲۵- وروى الطبرى فى سورة الرعد فى ذيل قوله تعالى: «يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» «۳»
بسنده المتّصل عن مجاهد قول اللّه: «يَمْحُواْ اللَّهُ مَا
الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۰۹
يَشَاءُ وَيُثْبِتُ»، قالت قريش حين أُنزل: «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»: ما نراك يا محمّد تملك من شىء، ولقد فُرغ من الأمر، فأُنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم أنّا إن شئنا أحدثنا من أمرنا ما شئنا، ونُحدث فى كلّ رمضان فنمحو ونثبت ما نشاء من أرزاق الناس ومصائبهم، وما نعطيهم وما نقسّم لهم «۱».
أقول: وفى هذه الرواية والروايات التى رويت فى ذيل الآية والتى رواها أهل سنّة جماعة الخلافة والسلطان، دالّة على عقيدة البداء التى هى نوع من النسخ التكوينى الواردة فى روايات أهل البيت، كما تدلّ هذه الروايات على أنّ ما فى أمّ الكتاب الذى هو أصل القرآن وحقيقته العلوية الغيبية، متضمّن لكلّ قضاء وقدر، وليس هو مجرّد ظاهر التنزيل، وهذه الحقيقة للقرآن لا ينالها إلّاالمعصوم الذى ينزّل عليه الروح فى ليلة القدر، ولا يطمع فى نيلها غير المعصوم؛ إذ ليس الأمر بالأمانى والتمنّى، هيهات. وما سيأتى ومضى من رواياتهم لا

يخفى تضمّنه لمعنى النسخ والبداء.

۲۶- وروى الطبرى فى سورة الدخان، بسنده عن ابن زيد فى قوله عزّوجلّ:

«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» «۲»

، قال: تلك الليلة ليلة القدر، أنزل اللّه هذا القرآن من أُمّ الكتاب فى ليلة القدر، ثمّ أنزله على الأنبياء فى الليالى والأيام، وفى غير ليلة القدر «۳».

أقول: هذه الرواية دالّة على أنّ الذى يتنزّل من أُمّ الكتاب الذى هو أصل القرآن وحقيقته الغيبية العلوية، والذى يتنزّل منه، ليس ظاهر التنزيل، بل كلّ المقادير وقضاء الحوادث الكونية وأنّ ذلك التنزّل مستمرّ ليس فى خصوص ليلة القدر،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۱۰

بل على مرّ الليالى والأيام والآناء واللحظات، وأنّه لا زال يتنزّل بعد ذهاب الأنبياء، يتنزّل على الأوصياء خلفاء النبىّ- الاثنى عشر من قريش سلام اللّه عليهم، وهذا المضمون قد ورد فى روايات أهل البيت عليهم السلام.

۲۷- وروى الطبرى فى سورة الرعد، بسند متّصل عن قتادة قوله تعالى:

«وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»، قال: جملة الكتاب وأصله.

۲۸- وروى الطبرى فى الموضع المذكور بسنده إلى الضحّاك فى قوله:

«وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»، قال: كتاب عند ربّ العالمين.

۲۹- وروى الطبرى عن الضحّاك أيضاً فى الموضع المزبور «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»، قال: جملة الكتاب وعلمه، يعنى ما بذلك ما ينسخ منه وما يثبت.

وروى نظيره بسند متّصل عن ابن عبّاس «كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا» «۱».

أقول: مقتضى التعبير بلفظ جملة الكتاب عنده تعالى، أنّ ظاهر التنزيل ليس كلّ درجات حقيقة الكتاب، وأنّ جملته مجموع ما فيه من التأويل والحقائق وكلّ قضاء وقدر، وكلّ ما كان ويكون فهو فى أُمّ الكتاب، وهو الذى ينزل منه كلّ عام فى ليلة القدر بتوسّط الروح، وأنّه لازال ينزل من باطن الكتاب وتأويل كلّ عام فى ليلة القدر إلى يوم القيامة، بل فى كلّ ليلة، وأنّه كما مرّ فى بعض الروايات المتقدّمة.

وكلّ هذا المضمون قد ورد فى روايات أهل البيت كما ستأتى الإشارة إليه، فللكتاب جملة يستطرّ فيها كلّ شىء، ما من غائبة فى السماء والأرض، ولا رطب ولا يابس إلّافى كتاب مبين، فظاهر التنزيل الذى بين الدفّتين وهو المصحف الشريف، لا يحيط ولا يحتوى بما فى أُمّ الكتاب، وإنّما هو ظهر يوقف عليه

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۱۱

للوصول إلى البطون والتأويلات والحقائق، بهداية الراسخين فى العلم الذين هم أهل آية التطهير الذين يمسّون الكتاب المكنون، كما دلّت على ذلك الآيات الكريمة فى السور المختلفة.

بل إنّ من تصريح الآيات بأنّ أهل البيت المطهّرين الذين يمسّون الكتاب المكنون، يُعلم بالتلازم أنّ أهل البيت هم الذين يتنزّل عليهم روح القدس فى ليلة القدر، بما فى أُمّ الكتاب من القضاء والقدر لكلّ سنة، كما أنّ من التلازم فى حديث الثقلين من العترة والكتاب وعدم افتراقهما، يُعلم تلازمهما فى كلّ ما ينزل من الكتاب فى كلّ سنة.

كما أنّ من التعبير بأنّ عنده أُمّ الكتاب الذى هو جملة مجموعه، وأصله وحقيقته التعبير بأنّ هذه الجملة والحقيقة عند اللّه للدلالة على القرب المعنوى بحسب نشأة عوالم الخلقة، فمكانته الوجودية غيبية مكنونة فى لوح محفوظ ذات مجد كونى وتكوينى، وهى الروح الأعظم كما سيأتى فى الروايات.

۳۰- وروى بسنده عن ابن عبّاس أنّه سأل كعب عن أُمّ الكتاب، قال: علم اللّه ما هو خالق ما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً فكان كتاباً.. وقال الطبرى بعد ذلك: وأولى الأقوال بذلك بالصواب قول من قال وعنده أصل الكتاب وجملته؛ وذلك أنّه تعالى ذِكره أخبر أنّه يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، ثم عقّب بذلك بقوله: «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»، فكان بيّناً أنّ معناه عنده أصل المثبت منه والمحو، وجملته فى كتاب لديه.

۳۱- وروى الطبرى فى سورة الدخان بسند متّصل عن ابن زيد فى قوله عزّوجلّ: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» «۱»

، قال: تلك الليلة ليلة القدر،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۱۲

وأنزل اللّه هذا القرآن من أُمّ الكتاب فى ليلة القدر، ثمّ أنزله على الأنبياء فى الليالى والأيام وفى غير ليلة القدر.

۳۲- وروى الطبرى فى ذيل سورة الدخان بسنده عن عمر مولى غفرة، قال:

يقال: ينسخ لملك الموت من يموت فى ليلة القدر إلى مثلها؛ وذلك لأنّ اللّه عزّوجلّ يقول: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ»، وقال: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» «۱»

، قال: فتجد الرجل ينكح النساء ويغرس الغرس واسمه فى الأموات.

أقول: ومقتضى هاتين الروايتين أنّ القرآن النازل فى ليلة القدر- وهى الليلة المباركة- يُسمّى بحسب حقيقته الغيبية بعدّة أسماء، وهى بحسب مراتبه الغيبية:

الكتاب المبين، وأُمّ الكتاب، والكتاب المكنون. كما أنّ مقتضى الرواية الأخيرة هيمنة القرآن والروح النازل فى ليلة القدر على وظائف ملك الموت، وأنّه تابع منقاد للروح، وكذلك ميكائيل الموكّل بالأرزاق، وإسرافيل الموكّل بالأحياء، وجبرئيل الموكّل بالعلم والبطش.

وقال الطبرى فى ذيل سورة الدخان: وقوله: «إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» «۲»

، يقول تعالى ذكره: «إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» رسولنا محمّد صلى الله عليه و آله إلى عبادنا «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» «۳».

وقال: وقوله: «أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» «۴»

، يقول تعالى ذكره: فى هذه

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۱۳

الليلة المباركة يُفرق كلّ أمر حكيم أمراً من عندنا.

أقول: إنّ الإرسال فى الآيات الكريمة فى سورة الدخان مرتبط بإنزال الروح ليلة القدر بتقادير الحوادث كلّها، وهذا الإرسال فى كلّ ليلة قدر من كلّ عام إلى يوم القيامة وإن لم يكن إرسال نبوّة ورسالة، بل هو تزويد لخليفة اللّه فى الأرض، واطّلاعه بإرادات اللّه ومشيئاته للقيام بالمسؤوليات الإلهية الخطيرة التى تعهد إليه من البارى تعالى، والتى تتوقّف على هذا الكمّ الهائل من العلم بالمقدّرات الإلهية المستقبلية.

دوام ليلة القدر من الروايات الحاثّة على فضيلتها فى الصحاح ...: ص: ۳۱۳

قد عقد البخارى ومسلم كلّ منهما باباً بعد كتاب الصوم أُدرج فيه خمسة أبواب:

الأوّل: فى فضل ليلة القدر.

الثانى: التماس ليلة القدر فى السبع الأواخر.

الثالث: تحرّى ليلة القدر فى الوتر من العشر. وأورد فيها البخارى روايات عن النبىّ صلى الله عليه و آله كلّها آمره بالتماس وتحرّى ليلة

القدر، أى طلبها كلّ عام، ممّا يقضى بدوام ليلة القدر إلى يوم القيامة.

وممّا أورده فى تلك الروايات بسنده عن ابن عمر أنّ رجالًا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه و آله أُروا ليلة القدر فى المنام فى السبع الأواخر، فقال صلى الله عليه و آله: أرى رؤياكم قد تواطأت فى السبع الأواخر، فمن كان متحرّيها فليتحرّها فى السبع الأواخر.

أقول: مقتضى هذه الرواية أنّ ليلة القدر حقيقة قد يرى بعضُ آياتها، وبعض لمعانها وأنوارها بعضُ البشر. ومثله فى صحيح مسلم.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۱۵

شهر رمضان إعداد لليلة القدر هى باب عظيم لمعرفة الإمام عليه السلام ... ص: ۳۱۵

اشارة

فكما أن هناك صلة بين شهر رمضان وليلة القدر، فهناك صلة وثيقة بينهما وبين حقيقة الإمام عليه السلام، وكما أنّ شهر رجب وشهر شعبان يوطّئان ويمهّدان لشهر رمضان، فكذلك شهر رمضان يوطئ لليلة القدر، وليلة القدر بدورها توطئ لنزول الروح والملائكة الذى هو نزول لحقيقة القرآن، والروح أنّما ينزل بكلّ أمر على من يصطفيه اللّه من عباده فى كلّ عام وهو الإمام، وتعظيم شهر رمضان أنّما هو لما فيه من ليلة القدر، وعظمة ليلة القدر أنّما هى لما فيها من نزول الروح ونزول القرآن، وهو أنما ينزل على من يشاء من عباد اللّه، مَنْ اصطُفى لذلك.

فشهر رمضان بيئة نورية لليلة القدر، وليلة القدر بيئة أشدّ نوراً لنزول الروح، ونزول الروح أشدّ نوراً بأضعاف عند من يتنزّل عليه الروح. فالانشداد إلى شهر رمضان انشداد إلى ليلة القدر، والانشداد إلى ليلة القدر انشداد إلى الإمام الذى يتنزّل عليه الروح. وإدراك ليلة القدر هو بمعرفة حقيقة القدر وهى نزول الروح على من يشاء اللّه من عباده المصطفين بكلّ أمر يقدّره من حوادث السنةً، فمعرفة ليلة القدر معرفة لحقيقة النبوّة والإمامة وإدراكها هو بهذه المعرفة.

روى الكلينى عن أبى جعفر عليه السلام، قال: «.. فضل إيمان المؤمن بجملة «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» وتفسيرها على من ليس مثله فى الإيمان بها، كفضل الإنسان على البهائم،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۱۶

وإنّ اللّه عزّوجلّ ليدفع بالمؤمنين بها عن الجاحدين لها فى الدنيا لكمال عذاب الآخرة لمن علم أنّه لا يتوب منهم- ما يدفع بالمجاهدين عن القاعدين»، الحديث «۱».

بيئة ليلة القدر شهر رمضان ...: ص: ۳۱۶

إنّ الناظر فى خصائص شهر رمضان وما أحيط به من هالة معنوية وزخم روحى كبير وتركيز مكثّف هو تمهيد لليلة القدر، وإنّ ذلك لا يقتصر على شهر رمضان بل يبدأ من شهر رجب ومن بعده شهر شعبان إلى أن يصل شهر رمضان، شهر اللّه الذى عُظّم من اللّه عزّوجلّ، حيث نُسب إليه تعالى وجُعلت فيه ليلة القدر.

وكذلك كونه شهر ضيافة اللّه عزّوجلّ وأنّه أُنزل فيه القرآن العظيم، حيث قال تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» «۲».

وكلّ هذا التعظيم حلقات مترابطة لتصل إلى ما فى شهر رمضان من أوج العظمة وهى ليلة القدر، حيث إنّ فضائل شهر رمضان فى جانب وفضائل ليلة القدر فى جانب آخر، فإنّ كلّ ما حفّ به شهر رجب الأصبّ الذى تصبّ فيه الرحمة صبّاً، وشهر شعبان الذى تتشعّب فيه طرق الخير، كلّ ذلك قد تضاعف أضعافاً فى خصائص شهر رمضان، وتضاعف ما فى شهر رمضان من خصائص إلى

ثلاثين ألف ضعف فی ليلة القدر.

فليلة القدر هی أوج عظمة الضيافة الإلهية والحفاوة الربّانية، فأوج نصيب حظّ العباد إدراك ليلة القدر، إلّاأنّ هذا الإدراك للّيلة العظيمة ليس بمجرّد الكمّ الكبير من العبادات والأدعية والابتهال والتنفّل؛ فإنّ كلّ ذلك إعداد ضروری لما وراءه من

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۱۷

إدراك آخر لحقيقة ليلة القدر وهو معرفة هذه الليلة، ومعرفتها هو بمعرفة حقيقتها المتّصلة بحقيقة الإمام والإمامة.

فمن ثمّ كان شهر رمضان شهر اللَّه الأغرّ وشهر معرفة الإمام خليفة اللَّه فی أرضه، فكما أنّ شهر رمضان نفخ بالحياة للدين القويم، فإنّ ليلة القدر هی القلب النابض فی هذا الشهر؛ لما لها من صلة بالإمام وتنزّل الروح الأعظم عليه.

فشهر رمضان بوابة لمعرفة ليلة القدر، وليلة القدر بوابة لمعرفة الإمام والارتباط به والانشداد إليه، فجُعل شهر رمضان سيد الشهور كما جاء فی روايات الفريقين، وجُعلت ليلة القدر قلب شهر رمضان كما ورد فی الحديث.

وقد جُعل شهر رمضان أعظم حرمة من الأشهر الحُرُم الأربعة، وهذه العظمة لشهر رمضان أنّما هو لما فيه من تلك الليلة العظيمة، فهو كالجسم وهی كالروح له، مع أنّ شهر رمضان هو كالروح للأشهر الحُرُم الأربعة التی منها شهر رجب.

وكلّ ذلك يرسم مدى العظمة التی تحتلّها ليلة القدر، وقد بيّن الغاية من الصيام فی شهر رمضان فی قوله تعالی: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» «۱».

والصيام على درجات كما كان فی الشرائع السابقة، فلا يقتصر على الإمساك البدنی بل يرتبط بالدرجات الاعتقادية كالإمساك عن الكذب على اللَّه ورسوله، فصيام على مستوى الجانب البدنی وصيام الجوانح وصيام على مستوى الحالات النفسية والخواطر، وهناك صيام على مستوى الحالات القلبية وحالاته وخواطره.

وأعظم المراتب على مستوى الاعتقاد، كما يشير إليه قول الإمام الصادق عليه السلام

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۱۸

فی رواية جراح المدائنی «۱»، فبيّن عليه السلام صوم الصمت كما هو صوم زكريا ومريم، وعُرف بصوم الصمت الداخل، أی الإمساك بحسب كلّ مراتب النفس الباطنية.

فشهر رمضان بيئة عظيمة لليلة القدر، وقد وصف هذا الشهر كما فی خطبة النبیّ صلی الله عليه و آله التی رواها الصدوق بسند معتبر عن الرضا عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«شهر اللَّه ذی البركة والرحمة والمغفرة، شهر، هو عند اللَّه أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالی وساعاته أفضل الساعات، هو شهر دُعيتم به إلی ضيافة اللَّه وجُعلتم به من أهل كرامة اللَّه، أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب.. هذا الشهر العظيم.. ومن تلی فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن فی غيره من الشهور. أيّها الناس، إنّ أبواب الجنان فی هذا الشهر مفتّحة فسلوا ربّكم أن لا يغلقها عليكم، وأبواب النيران مغلّقة فسلوا ربّكم أن لا يفتحها عليكم، والشياطين مغلولة فسلوا ربّكم أن لا يسلّطها عليكم».

فهذا الشهر قد عظّمه الباری وكرّمه وشرّفه وفضّله على الشهور، وافترض صيامه على العباد، وأنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، وجعل فيه ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر.

أوصاف ليلة القدر ...: ص: ۳۱۸

إلّا أنّ كلّ هذه الأوصاف لشهر رمضان بالقياس إلی أوصاف ليلة القدر منه هی

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۱۹

دون الأوصاف التى وصفت بها تلك الليلة؛ فإنّ تلك الأوصاف قد ذكرت لليلة القدر بنحو مضاعف أضعافاً، وكأنّ الشهر توطئة وإعداد للولوج فى تلك الليلة، حتّى أنّ أغلب أدعية ذلك الشهر المأثورة تركّز على الدعاء والطلب لإدراك تلك الليلة، ولطلب حسن ما يقضى ويقدّر من الأمر المحتوم وما يفرق من الأمر الحكيم فى تلك الليلة من القضاء الذى لا يردّ ولا يبدّل.

ومن تلك الأوصاف، أنّها أوّل السنة المعنوية بلحاظ لوح القضاء والقدر. فقد روى الكُلينى عن رفاعة عن أبى عبداللَّه عليه السلام قال: «ليلة القدر هى أوّل السنة وهى آخرها» «۱».

وروى الشيخ فى التهذيب بعدّة أسانيد إلى مولانا الصادق عليه السلام أنّه قال: «إذا سلم شهر رمضان سلمت السنة، وقال: رأس السنة شهر رمضان» «۲».

وروى الكُلينى بسنده إلى أبى عبد اللَّه عليه السلام، قال: «الشهور عند اللَّه اثنا عشر شهراً فى كتاب اللَّه يوم خلق السماوات والأرض، فغرّة الشهور شهر اللَّه عزّوجلّ وهو شهر رمضان، وقلب شهر رمضان ليلة القدر» «۳».

وروى ابن طاووس فى الإقبال بإسناده إلى على بن فضّال من كتاب الصيام، بإسناده إلى ابن أبى عمير، عن هشام بن سالم، عن أبى عبد اللَّه عليه السلام، قال: «شهر رمضان رأس السنة» «۴».

وقال أيضاً فى كتاب إقبال الأعمال بعد ذكر جملة للروايات المتضمّنة لهذا المضمون: (واعلم أنّنى وجدت الروايات مختلفات، هل أنّ أوّل السنة محرّم أو شهر رمضان؟ لكنّنى رأيت من عمل من أدركته من علماء أصحابنا المعتبرين

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۲۰

وكثيراً من تصانيف علمائهم الماضين، أنّ أوّل السنة شهر رمضان على التعيين، ولعلّ شهر الصيام أوّل العام فى عبادات الإسلام، والمحرّم أوّل السنة فى غير ذلك من التواريخ ومهام الأنام؛ لأنّه جلّ جلاله عظّم شهر رمضان، فقال جلّ جلاله:

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» «۱»

فلسان حال هذا التعظيم كالشاهد لشهر رمضان بالتقديم؛ ولأنّه لم يجر لشهر من شهور السنة ذكر باسمه فى القرآن وتعظيم أمره إلّالهذا الشهر شهر الصيام، وهذا الاختصاص بذكره كأنه يتبه- واللَّه أعلم- على تقديم أمره؛ ولأنّه إذا كان أوّل السنة شهر الصيام وفيه ما قد اختصّ به من العبادات التى ليست فى غيره من الشهور والأيام، فكأنّ الإنسان قد استقبل أوّل السنة؛ ولأنّ فيه ليلة القدر التى يُكتب فيها مقدار الآجال وإطلاق الآمال، وذلك منبّه على أنّ شهر الصيام أوّل السنة) «۲».

قال المجلسى قدس سره: قال الوالد العلّامة: (الظاهر أنّ الأوّلية باعتبار التقدير، أى أوّل السنة التى تقدّر فيها الاُمور لليلة القدر، والآخرية باعتبار المجاورة، فإنّ ما قدّر فى السنة الماضية انتهى إليها، كما ورد أنّ أوّل السنة التى يحلّ فيها الأكل والشرب يوم الفطر، أو أنّ عملها يُكتب فى آخر السنة الاُولى وأوّل السنة الثانية كصلاة الصبح فى أوّل الوقت، أو يكون أوّل السنة باعتبار تقدير ما يكون فى السنة الآتية وآخر سنة المقدّر فيها الاُمور) «۳».

ومنها: ما رواه الطبرسى فى مجمع البيان، والاستربادى فى تأويل الآيات. عن ابن عبّاس عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إذا كانت ليلة القدر تنزّل الملائكة الذين هم سكان سدرة المنتهى وفيهم جبرئيل، ومعهم ألوية فينصب لواء منها على قبرى ولواء منها

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۲۱

فى المسجد الحرام ولواء منها على طور سيناء، ولا يدع مؤمن ولا مؤمنة إلّاويسلّم عليه، إلّامدمن خمر وآكل لحم خنزير والمتضمّخ بالزعفران» «۱»

. ونظيره ما روى فى كتاب جعفر بن محمد الدورسترى.

ومنها: يفرق فيها كلّ أمر حكيم، وأنّها مباركة ببركة خاصّة مضاعفة مُمتازة عن بركة شهر رمضان كلّه، حيث قال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» «۲»

، وقوله تعالی: «وَمَا أَدْرَاکَ مَا لَیْلَةُ الْقَدْرِ* لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلَائِکَةُ وَالرُّوحُ فِیهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْرٍ» «۳».

ومنها: أنّها موصوفة بالسلامة، حیث قال تعالی: «سَلَامٌ هِیَ حَتَّی مَطْلَعِ الْفَجْرِ» «۴»

، مع أنّ شهر رمضان کما تقدّم- تُصفد فیه الشیاطین وتُفتح فیه أبواب السماء وأبواب الجنان وتُغلق أبواب النیران، إلّاأنّ فی لیلة القدر یزداد هذا الفتح لأبواب والغلق لأبواب اُخری.

ومنها: یُضاعف العمل ثلاثین ألف ضعف، کما قال تعالی: «خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ». إلی غیر ذلک من الخصائص التی امتازت بها لیلة القدر، إلّاأنّ کلّ ذلک هو تمهید وتوطئة وإعداد لأکبر امتیاز وخاصّیة امتازت بها لیلة القدر، وهو نزول القرآن والروح والملائکة فیها فی کلّ عام.

وروی فی مجمع البیان عن النبیّ صلی الله علیه و آله قال: «إنّ الشیطان لا یخرج فی هذه اللیلة حتّی یضیء فجرها، ولا یستطیع فیها أن ینال أحداً بخبل أو داء أو ضرب من ضروب الفساد، ولا ینفذ فیه سحر ساحر» «۵».

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۲۲

لیلة القدر بیئة لنزول القرآن کلّ عام ...: ص: ۳۲۲

فکلّ الإعداد السابق للمسلم والمؤمن فی بیئة شهر رمضان المبارکة ومحیط أجواء النور فی لیلة القدر وعبادة المؤمن وأعماله فی هذه اللیلة المتضاعفة أضعافاً، تبلغ أجر العمل فی هذه اللیلة من کلّ عام ما یزید علی عمر الإنسان لو قدّر تطاوله إلی ما یزید علی ثلاث وثمانین عاماً.

کلّ هذا الإعداد والرقی الروحی للمؤمن یُکتب له لأجل أن یدرک لیلة القدر، وإدراکها بدرایة (ما لیلة القدر) حیث قال تعالی: «وَمَا أَدْرَاکَ مَا لَیْلَةُ الْقَدْرِ» «۱»

وهو تحضیض وترغیب وحثّ علی درایة ومعرفة لیلة القدر؛ ف «وَمَا أَدْرَاکَ مَا لَیْلَةُ الْقَدْرِ» أی ما أعلمک بلیلة القدر، فإدراکها بدرایتها.

ولیست درایتها ومعرفتها هی بمعرفة وقتها الزمانی لیتخیّل أنّ إدراکها هو بتحدید أی لیلة هی من اللیالی لتوقع الأعمال العبادیة فیها، بل هذا أدنی درجات الإدراک، ومعدّ إلی درجات اُخری لإدراکها بدرایتها ومعرفة الإرهاصات التی تقع فیها، ومن ثمّ قال تعالی عقیب قوله «وَمَا أَدْرَاکَ مَا لَیْلَةُ الْقَدْرِ» بقوله تعالی بخیرّیتها من ألف شهر، وأوج معرفتها بتنزّل الملائکة والروح فیها من کلّ أمر، فالعمدة فی درک ودرایة هذه اللیلة بمعرفة نزول الروح والملائکة فیها من کلّ عام.

ویواجه الباحث هنا عدّة تساؤلات:

الأوّل: ما هی العلاقة بین نزول القرآن فی لیلة القدر ونزول الروح؟ وما هذه الصلة التی یجدها ملحوظة فی سورة القدر؟ حیث إنّ الضمیر فی «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ» یعود إلی القرآن، کما أنّ الضمیر فی سورة الدخان «حم* وَالْکِتَابِ

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۲۳

الْمُبِینِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِی لَیْلَةٍ مُبَارَکَةٍ» یعود إلی الکتاب المبین، وقوله تعالی «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ هُدًی لِلنَّاسِ وَبَیِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَی وَالْفُرْقَانِ» «۱».

الثانی: هل النزول للقرآن یستمرّ باستمرار نزول الروح فی لیلة القدر من کلّ عام؟

الثالث: ما هی الصلة بین الکتاب المبین والقرآن الذی اُنزل فی اللیلة المبارکة لیلة القدر؟ کما فی سورة الدخان التی تقدّمت، وفی سورة الزخرف من قوله تعالی: «حم* وَالْکِتَابِ الْمُبِینِ* إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ* وَإِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتَابِ لَدَیْنَا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ» «۲».

وقد وصفت الآيات المحكمات بأنّهن أُمّ الكتاب فى سورة آل عمران فى قوله تعالى: «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ» «۳».

الرابع: ما هى الصلة بين نزول القرآن ونزول الروح والملائكة، وتقدير كلّ أمر من الحوادث والآجال والأرزاق، وكلّ صغيرة وكبيرة تقع على كلّ شخص وكلّ مجتمع بل كلّ نبات وحيوان وجماد وكون ومكان ودول وجماعات وأحزاب ومنظمات إقليمية وقطرية ومذاهب وطوائف وحرب وسلم وغلاء ورخص وأمن وخوف ومواليد وأموات؟

وتدبير كلّ شىء من عظائم الأُمور وصغائرها، وأحلاف سياسية وعسكرية وأمنية، ومخطّطات ومشاريع، وظواهر اجتماعية واقتصادية، وظواهر فكرية اعتقادية، وانتشار الأمراض والأوبئة المهدّدة للصحّة العالمية البشرية، والسياسات المتبنّاة فى كلّ إقليم، وتوازن القوى الاجتماعية والإقليمية والدولية،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۲۴

وسقوط دول وبروز أُخرى، وتبدّل أعراف ونشوء أُخرى قانونية واجتماعية وأخلاقية، وما سيدور فى الدوائر الأمنية والسياسية والمخابراتية الدولية والقطرية من خلف الكواليس؟ حيث قال تعالى فى سورة الدخان: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» «۱»

، وقال فى سورة القدر: «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» «۲»

، وقوله تعالى: «يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» «۳»

، وقوله تعالى: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ» «۴»

، وقوله تعالى:

«وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً» «۵».

وروى الكُلينى عن أبى عبداللّه عليه السلام قال: «كان علىّ عليه السلام كثيراً ما يقول: ما اجتمع التيمى والعدوى عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهو يقرأ إنّا أنزلناه بتخشّع وبكاء، فيقولان: ما أشدّ رقّتك لهذه السورة؟ فيقول رسول اللّه صلى الله عليه و آله: لِما رأت عينى ووعى قلبى، ولِما يرى قلبُ هذا من بعدى. فيقولان فما الذى رأيت وما الذى يرى. قال: فيكتب صلى الله عليه و آله لهما فى التراب «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ». قال: ثمّ يقول: هل بقى شىء بعد قوله عزّوجلّ: (كلّ أمر) فيقولان: لا..» الحديث «۶».

وروى الكُلينى صحيح محمّد بن مسلم، عن أحدهما، قال: «.. وسُئل عن ليلة القدر فقال: تنزّل فيها الملائكة والكتبة إلى السماء الدنيا، فيكتبون ما يكون فى أمر السنة وما يصيب العباد، وأمره عنده موقوف له وفيه المشيئة، فيقدّم منه ما يشاء ويؤخّر منه ما يشاء» «۷».

وروى فى صحيح الفضلاء فى حديث، فى قوله عزّوجلّ «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۲۵

حَكِيمٍ» قال: يقدّر فى ليلة القدر كلّ شىء يكون فى تلك السنة إلى مثلها من قابل خير وشر وطاعة ومعصية ومولود وأجل أو رزق، فما قدّر فى تلك السنة وقضى فهو المحتوم وللّه عزّوجلّ فيه المشيّة «۱».

الخامس: من هو الذى ينزل عليه الروح والملائكة بعد النبىّ صلى الله عليه و آله فى هذه الأُمّة إلى يوم القيامة؟ حيث إنّ نزول الملائكة والروح بحسب سورة القدر وسورة الدخان كان قطعاً على النبىّ صلى الله عليه و آله، حيث إنّ نزول الروح والملائكة كان إنزالًا للقرآن على النبىّ صلى الله عليه و آله، فلم يكن نزولًا بلا مقصد ينتهى إليه النزول، وكذا قوله فى سورة الدخان: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» «۲»

فالآية تصرّح أنّ مورد النزول هو من يشاء اللّه من عباده، أى يصطفيهم لذلك ليكونوا منذرين، وكذلك سورة غافر فى قوله تعالى:

«يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» «۳».

السادس: هل هذا المتنزّل من الكمّ الهائل من المعلومات عن كلّ ما يحدث فى الأرض والذى ينزل على من اصطفاه اللَّه لذلك وشاء له ذلك بنصّ سورة النحل وغافر والتى هى نظم ومنظومات معلوماتية بالغة الخطورة عن المستقبل فى كلّ الحقول ونظم الاجتماع السياسى والاقتصادى والأمنى، فهل نزولها للترف العلمى ومجرّد اطّلاع من يشاء اللَّه من عباده، أم أنّ ذلك ليقوم بمهام وأدوار خطيرة فى البشرية فى كافّة أرجاء الأرض؟

وعلى كلّ تقدير، فإنّ ظاهر سورة القدر «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ» هو نزول القرآن فى ليلة القدر، كما هو ظاهر قوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۲۶

الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» «۱»

، فإنّ مفادهما كما اعترف بذلك جملة كثيرة من المفسّرين من الفريقين، هو نزول القرآن جملة واحدة فى شهر رمضان، وظاهر الضمير فى سورة القدر عائد إلى القرآن، كما أنّ لفظ الآية فى سورة البقرة كذلك «الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»، حيث إنّ ظاهر (ال) فى المجموع، وكذلك هو مفاد قوله تعالى فى سورة الدخان: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ»، فإنّ الضمير عائد إلى الكتاب المبين برمّته. هذا مضافاً إلى أنّ بعثة الرسالة النبويّة هى فى شهر رجب وهو مبدأ نزول القرآن نجوماً وأنّ أوّل سورة نزلت هى سورة العلق وغيرها من السور، فمن ثمّ حُمل ذلك على استظهار أنّ للقرآن نزولان:

النزول الأوّل: بجملة القرآن.

والنزول الثانى: هو نزول مفصّل تدريجى نجومى بحسب الوقائع والأحداث.

وقد تفطّن إلى ذلك فى دلالة الآيات ببركة ما ورد من روايات أهل البيت عليهم السلام وانتشر من حديثهم، فتبنّاها جملة من طبقات التابعين أخذاً عنهم وإن لم يسندوها إليهم، فقد ورد عنهم عليهم السلام كما فى صحيحة حمران أنّه سأل أباجعفر عليه السلام عن قول اللَّه عزّوجلّ: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ»؟ قال: «نعم، ليلة القدر، وهى فى كلّ سنة فى شهر رمضان فى العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن إلّافى ليلة القدر..» «۲».

وقال على بن إبراهيم فى تفسيره فى معنى «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ»: فهو القرآن نزل إلى البيت المعمور فى ليلة القدر جملة واحدة، وعلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى طول ثلاث وعشرين سنة «وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ». ومعنى ليلة القدر أنّ اللَّه

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۲۷

تعالى يقدّر فيها الآجال والأرزاق، وكلّ أمر يحدث من موت أو حياة أو خصب أو جدب أو خير أو شرّ، كما قال اللَّه تعالى: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» «۱»

إلى سنة، قوله: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» قال: تنزّل الملائكة وروح القدس على إمام الزمان، ويدفعون إليه ما قد كتبوه من هذه الأُمور) «۲».

وروى الكُلينى بسنده عن الحسن بن عبّاس بن جريش، عن أبى جعفر الثانى عليه السلام، قال: «قال اللَّه عزّوجلّ فى ليلة القدر: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» يقول:

ينزل فيها كلّ أمر حكيم، والمحكم ليس بشيئين إنّما هو شىء واحد، فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم اللَّه عزّوجلّ» «۳»

. الحديث.

وروى الكُلينى بسنده إلى أبى عبد اللَّه عليه السلام، قال: «نزل القرآن جملةً واحدة فى شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثمّ نزل فى

طول عشرين سنة. ثمّ قال: قال النبيّ عليه السلام أَنزل القرآن فى ثلاث وعشرين من شهر رمضان» «۴».

وروى الكُلينى بسنده عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه عليه السلام، قال: «نزلت التوراة فى ستّ مضت فى شهر رمضان، ونزل الإنجيل فى اثنتى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان، ونزل الزبور ثمانى عشرة من شهر رمضان، ونزل القرآن فى ليلة القدر» «۵».

مكان نزول القرآن ...: ص: ۳۲۷

ومن ثمّ كان للقرآن نزولان، وكان ما يتلقّاه النبيّ صلى الله عليه و آله فى النزول الأوّل هو حقيقة القرآن التكوينية، وفى النزول الثانى هو معانى القرآن وألفاظه. فالنزول الأوّل: هو نزول جملة القرآن وحقيقته التى فى نشأة الملكوت

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۲۸

التى هى الكتاب المبين، وقد أطلق عليها الروح فى القرآن الكريم، أى أنّه وجود حىّ شاعر عاقل أعظم خلقاً من الملائكة، كما أشارت إليه الآيات والروايات.

والنزول الثانى: هو نزول معانى وألفاظ القرآن، وهو نزول القرآن نجوماً على النبيّ صلى الله عليه و آله، والذى سُمّى القرآن فرقاناً بلحاظه.

وقد ذهب إلى تنوّع النزول أكثر المفسّرين والمحدّثين، ويشير إلى النمط الأوّل من النزول قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ» «۱»

، وقوله تعالى: «نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ» «۲»

، وقوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» «۳»

، وقوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ» «۴»

، وقوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضانُ الَّذى انْزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ» «۵»

. ومن ثمّ اختلف توقيته، توقيت النزول الجملى للقرآن عن بدء البعثة فى رجب التى هى مبدأ لأوّل ما نزل بنحو نجومى متفرّق فرقانى، أو الذى هو من النمط الثانى.

ويشير أيضاً إلى: النمط الأوّل من النزول جملة من الروايات:

منها: ما رواه العياشى عن إبراهيم، عن أبى عبد اللّه عليه السلام، قال: «سألته عن قوله تبارك وتعالى: «شَهْرُ رَمَضانُ الَّذى انْزِلَ فيهِ الْقُرْآنُ» «۶»

، كيف أُنزل فيه القرآن وإنّما أُنزل القرآن فى عشرين سنة من أوّله إلى آخره، فقال عليه السلام: نزل القرآن جملة واحدة فى شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثمّ أُنزل من البيت المعمور فى طول عشرين سنة» «۷».

وفى اعتقادات الصدوق، قال فى نزول القرآن: اعتقادنا فى ذلك أنّ القرآن نزل

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۲۹

فى شهر رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة إلى البيت المعمور، ثمّ نزل من البيت المعمور فى مدّة عشرين سنة، وأنّ اللّه تبارك وتعالى أعطى نبيّه العلم جملة واحدة، ثمّ قال له: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ» «۱»

وقال عزّوجلّ: «لَاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» «۲». «۳»

وما ذكره مضمون جملة من الأخبار والروايات، وفى بعض الزيارات تضمّن الخطاب «أيها البيت المعمور». «۴»

وفى تفسير القمّى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» يعنى القرآن، «فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» وهى ليلة القدر أنزل اللّه القرآن فيها إلى البيت المعمور جملة واحدة، ثمّ نزل من البيت المعمور على رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى طول عشرين سنة.. الحديث «۵». وبنفس هذه الرواية والألفاظ رواها عن

الإمام الصادق علیه السلام فی تفسیر سورة القدر.

فی دلائل الإمامة للطبری بسنده إلی الإمام الصادق علیه السلام فی حدیث أنّه قال علیه السلام:

«ونحن البیت المعمور الذی من دخله کان آمناً» «۶».

وروی الصدوق فی الأمالی صحیحة حفص، قال: قلت للصادق علیه السلام:

«أخبرنی عن قول اللَّه عزّ وجلّ: «شَهْرُ رَمَضانُ الَّذی انْزِلَ فیهِ الْقُرْآنُ» کیف أُنزل القرآن فی شهر رمضان وإنّما أُنزل القرأن فی مدّة عشرین سنة أوّله وآخره؟ فقال علیه السلام:

أُنزل القرآن جملة واحدة فی شهر رمضان إلی البیت المعمور، ثم أُنزل من البیت

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۳۰

المعمور فی مدّة عشرین سنة»، وروی مثله فی کتاب فضائل الأشهر الثلاثة «۱».

وفی دلائل الإمامة للطبری بسنده عن الصادق علیه السلام فی حدیث، قلت: «والبیت المعمور أهو رسول اللَّه؟ قال: نعم، المملی رسول اللَّه والکاتب علیّ» «۲».

وغیرها من الآیات والروایات التی تشیر إلی النمط الأوّل من النزول، الذی هو عبارة عن نزول حقیقة القرآن الملکوتیة لا المعانی والألفاظ، والتی تقدم أنّها روح القدس، وهی خلق أعظم من جبرئیل ومیکائیل.

الروح النازل فی لیلة القدر هو القرآن ...: ص: ۳۳۰

وفی جملة من الروایات المتضمّنة لنزول القرآن فی لیلة القدر الظاهر منها أنّ القرآن النازل فی لیلة القدر هو الروح الأعظم الذی ینزل فی لیلة القدر ویُنزّل به الملائکة.

فقد روی فی الکافی والفقیه بإسنادهما عن حمران أنّه سأل أباجعفر علیه السلام عن قول اللَّه تعالی: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِی لَیْلَةٍ مُبَارَکَةٍ»؟ قال: «هی لیلة القدر، وهی فی کلّ سنة فی شهر رمضان فی العشر الأواخر، ولم ینزّل القرآن إلّافی لیلة القدر، قال تعالی: «فِیهَا یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ» «۳»

..» الحدیث «۴».

وبإسنادهما عن یعقوب قال: «سمعت رجلًا یسأل أبا عبداللَّه علیه السلام عن لیلة القدر، فقال: أخبرنی عن لیلة القدر کانت أو تکون فی کلّ عام؟ فقال أبا عبد اللَّه علیه السلام: لو رُفعت لیلة القدر لرُفع القرآن» «۵».

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۳۱

وبهذا المضمون جملة مستفیضة من الروایات فی ذیل سورة القدر وسورة الدخان، ومقتضاها: أنّ قوله تعالی: «تَنَزَّلُ الْمَلَائِکَةُ وَالرُّوحُ فِیهَا» عطف بیان أو بدل عن الضمیر فی قوله تعالی «أَنْزَلْنَاهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ»، أو أنّ الفعل (تنزّل) الملائکة والروح بدل عن فعل (أنزلناه)، والنتیجة متّحدة مع الاحتمال السابق.

ثمّ إنّ تفسیر البیت المعمور بقلب النبیّ صلی الله علیه و آله کما أشارت إلیه الروایات السابقة- لا ینافی تفسیر البیت المعمور فی جملة أُخری من الروایات بالبیت الظراح المبنی فی السماء الرابعة التی تطوف به الملائکة کلّ یوم، فإنّه من تعدّد معانی التأویل، وقد اطلق البیت فی التعبیر القرآنی بهذا المعنی، کما فی قوله تعالی: «فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَیُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ یُسَبِّحُ لَهُ فِیهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ* رِجَالٌ لَاتُلْهِیهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَیْعٌ» «۱»

، فرجال عطف بدل علی بیوت.

أمّا النمط الثانی من النزول وهو النزول التدریجی والنجومی أی نزول المعانی والألفاظ، فیشیر إلیه جملة من الآیات والروایات، کما

في قوله تعالى: «لَاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» «۲»

، وقوله تعالى: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ» «۳»

، وكذا الآيات التي تشير إلى حدث زماني بخصوصه، نظير قوله تعالى: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» «۴»

، ومثلها قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا» «۵»

، وغيرها من الآيات والسور النازلة بحسب أسباب النزول الحادثة حالًا بحال، فضلًا عن تدريجية نزول الآيات والسور كما في أوّل ما نزل من السور، كما في قوله تعالى:

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۳۲

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ» «۱»

، وغيرها من السور النازلة بحسب سنوات البعثة وسنوات الهجرة الذي عُرف بآخر السور نزولًا.

وبعبارة أُخرى: أنّ ظاهر قوله تعالى «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» «۲»

، وقوله تعالى: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» «۳»

، وقوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» «۴»

، هو نزول القرآن جملة واحدة، أي نزول جملي لحقيقة واحدة غير مفصّل، ثمّ فُصّل تنزيله بحسب موارد نزول السور والآيات المختلفة، ولذلك كان نزول القرآن بنحو مفصّل في بداية البعثة النبويّة الشريفة في آخر شهر رجب بقوله تعالى: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ..»، وكذا بقية السور الأوائل نزولًا، وليس المراد من نزوله في ليلة القدر من شهر رمضان هو ابتداء نزوله.

مما يشير إلى وجود نمطين من النزول للقرآن الكريم: نزول جملي لحقيقة واحدة، ونزول مفصّل، قال تعالى: «لَاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» «۵»

وظاهر مفاد الآية يقتضي أنّ مرحلة جمع مفصّل القرآن وتفصيله غير مرحلة الوحي والقرآن جملة، فهو صلى الله عليه و آله كان عالماً بالقرآن إلّاأنّه نُهي عن الاستعجال به قبل تنزيل قرآنه ونزول الوحي به، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ» «۶»

، حيث (يُقضى) إمّا بمعنى يتمّ أو بمعنى يصل، وعلى كلا التقديرين فظاهر الآية دالّ على علمه بالقرآن قبل إنزاله بالوحي

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۳۳

بنحو التفصيل نجوماً، أمّا على كون (يُقضى) بمعنى (يصل) فملائمته ظاهرة للمفاد المزبور، وأمّا على كونها بمعنى يتمّ فقيل إنّه بمعنى قراءته للقرآن قبل أن ينتهي جبرئيل من الوحي بتحريك لسانه، ولكنّه خلاف الظاهر؛ حيث إنّه يستلزم الاستخدام في الضمير، ويكون المعنى على هذا التقدير لا تعجل ببعض القرآن من قبل أن يتمّ إليك وحي الباقي منه.

وحمل الكلام على الاستخدام يتوقّف على القرينة الخاصّة، بخلاف الحال ما لو جعلنا مرجع الضمير متّحد بلا استخدام، فإنّ تقدير المعنى يكون حينئذٍ: لا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه مرّة أُخرى، أي وحي الإنزال والتنزيل من النمط الثاني وهو نزول القرآن تفصيلًا ونجوماً، فيدلّ على علمه صلى الله عليه و آله به من قبل أن يتمّ الوحي من النمط الثاني.

وممّا يدلّ على تعدّد نزول القرآن أيضاً قوله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «۱»

، فإنّ المطهّرون وهم النبيّ وأهل بيته عليهم السلام عالمون بالكتاب المكنون بمسّ وصول يختلف عن تنزيل القرآن المفصّل، فالكتاب المكنون قد تقدّم أنّه الوجود المجموعي للقرآن بنحو الإحكام والوجود الجملي، وهو الحقيقة الواحدة وهي الروح الأمري

الذی یتجدّد نزوله فی کلّ لیلة قدر فی کلّ عام، وتتنزّل الملائکة به وهو روح أعظم من جبرئیل ومیکائیل.

وممّا یشیر إلی اختلاف النزولین أیضاً قوله تعالی: «کَفَی بِاللَّهِ شَهِیدًا بَیْنِی وَبَیْنَکُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتَابِ» «۲»

، وقد ثبت فی تفسیر الآیة بحسب نزولها المکّی وبحسب وحدة سیاق السورة مع الآیات السابقة علیها وبحسب توسّم

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۳۴

قریش فیبنی هاشم جملة من الصفات والحالات غیر المعتادة لدی قدرات البشر وبحسب نصوص الفریقین وبحسب النصوص الواردة فی ذیلها، أنّ المراد بمن عنده علم الکتاب هو علیّ بن أبی طالب علیه السلام.

والآیة مع کونها مکّیة ولمّا یستتم نزول القرآن التفصیلی المکّی فضلًا عن المدنی- تدلّ علی علم الوصیّ فضلًا عن علم النبیّ بالکتاب کلّه؛ إذ هذا التعبیر یفترق عن قوله تعالی: «قَالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتَابِ» «۱»

، بأنّ التعبیر الأوّل یدلّ علی العلم المحیط بکلّ الکتاب، فالآیة ظاهرة بوضوح فی حصول العلم بجملة الکتاب لدی المطهّرین، وهم النبیّ ووصیه علیهم السلام منذ البدایة، وذلک بتوسّط نزول حقیقة القرآن جملة فی الوحی من النمط الأوّل.

وممّا یدلّ علی ذلک قوله تعالی: «وَکَذَلِکَ أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتَابُ وَلَا الإِیمَانُ وَلَکِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّکَ لَتَهْدِی إِلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیم» «۲»

، فتدلّ الآیة علی درایته صلی الله علیه و آله بالکتاب کلّه، مع أنّ سورة الشوری مکّیة، وکذا قوله تعالی: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَیْکَ الْکِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ» «۳»

، وقوله تعالی: «وَأَنْزَلْنَا إِلَیْکَ الْکِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَیْنَ یَدَیْهِ» «۴»

، وجملة من الآیات التی تضمّنت إنزال الکتاب علیه صلی الله علیه و آله بناءً علی ظهور (ال) فی الاستغراق أو الجنسیة لجملة الحقیقة بجملة الآیات السابقة الدالّة علی علمه صلی الله علیه و آله بجملة الکتاب المبین والمکنون وأُمّ الکتاب واللوح المحفوظ، وکذلک الأئمّة من أهل بیته تلقّوا ذلک عنه، إلّاأنّه صلی الله علیه و آله کان مأموراً باتّباع ما ینزل علیه من الوحی التفصیلی والتنزیل النجومی فیتّبع قرآنه.

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۳۵

وأمّا اشتمال القرآن الکریم علی قوله تعالی: «الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْکُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِیکُمْ ضَعْفًا» «۱»

، وقوله تعالی: «عَفَا اللَّهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» «۲»

، وقوله تعالی:

«قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِی تُجَادِلُکَ فِی زَوْجِهَا وَتَشْتَکِی إِلَی اللَّهِ وَاللَّهُ یَسْمَعُ تَحَاوُرَکُمَا» «۳»

، وغیره کثیر ممّا یشیر إلی تدریجیة نزول القرآن حسب سلسلة أحداث زمانیة ومکانیة طوال البعثة والرسالة الشریفة، فلا یتنافی مع نزول الکتاب جملةً علی الرسول صلی الله علیه و آله قبل ذلک.

اختلاف صفات القرآن فی النزولین ...: ص: ۳۳۵

لأنّ الکتاب بعد تنزیله بالنمط التدریجی تطرأ علیه أوصاف أُخری أشار إلیها القرآن الکریم، کقوله تعالی: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ» «۴»

، وقوله تعالی: «کِتَابٌ أُحْکِمَتْ آیَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ» «۵»

، وقوله تعالی:

«وَمَا کَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ یُفْتَرَی مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَکِنْ تَصْدِیقَ الَّذِی بَیْنَ یَدَیْهِ وَتَفْصِیلَ الْکِتَابِ» «۶»

، وقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» «۷»
، وقوله تعالى: «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» «۸»
، وغيرها من الآيات التى تشير إلى اتّصاف القرآن بأوصاف طرأت عليه عند نزوله، كالتفصيل والعربية وكونه تصديق الذى بين يديه وتشابه بعض آياته والناسخ والمنسوخ والظاهر والباطن والتنزيل والتأويل والجمع والتفريق، وغيرها من الأوصاف الطارئة، فإنّها أوصاف له بعد نزوله نجوماً.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۳۶

وليست أوصافاً له بحسب موقعه فى الكتاب المكنون واللوح المحفوظ والكتاب المبين، وكذلك الحال بالنسبة إلى صورة الألفاظ وما يتبع ذلك من أوصاف، وهى العربية والخطابية والإنشاء والإخبار والبلاغة والفصاحة وغيرها، فهذه ليست أوصافاً له بحسب موقعه المكنون باللوح المحفوظ، وأنّما هى حادثة له بعد النزول، أمّا جملة معارفه وحقائقه وأحكامه فلا يطرأ عليها مثل تلك الأوصاف.
وبكلمة جامعة: إنّ القرآن بمجموع وجوداته اللفظية وتراكيب جمله والمعانىالمدلول عليها فى الظهور الأوّلى فى ظاهر الكتاب هى من نزول القرآن من النمط الثانى؛ إذ النمط الأوّل كما تقدّم- هو من سنخ الحقائق التكوينية والوجودات العينية، وإن لم ينحصر النمط الأوّل بذلك بل يشمل ما يكون من سنخ معانى التأويل.

النمط الثالث للنزول ...: ص: ۳۳۶

وقد تُعدّ درجات بطون القرآن ومعانيه التأويلية من سنخ ونمط تنزّل ثالث سيأتى بسط الحديث عنه فى مقالات لاحقة.
هذا مضافاً إلى متواتر الروايات المتضمّنة للإشارة إلى موارد النزول وتأليف آيات وسور القرآن بوجوده اللفظى. ثمّ إنّ المعانى المتنزّلة من حقيقة القرآن الكلّية وحقائقه الجملية ليست محيطة بها؛ فإنّ المعانى والمفاهيم مهما كانت فى السعة والشمول ليست إلّالمعات يسيرة من أنواع تلك الحقائق، هذا فضلًا عن الألفاظ المشيرة إلى تلك المعانى التى هى تنزّل لفظى لها؛ فإنّ الألفاظ ليست إلّا علامات ودوالّ إشارية على مجمل بحور المعانى، وليست بتلك التى تحيط بها، والنسبة بين الألفاظ والمعانى كالنسبة بين المعانى والحقائق.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۳۷

فالألفاظ مفتاح وأبواب للمعانى، والمعانى لا- تتناهى درجاتها وبطونها وهى بوابات لشعب الحقائق من دون أن تكتنه المعانى، فما يحمله صلى الله عليه و آله من حقائق وحقيقة القرآن لا- يمكن أن تسعه المعانى، كما أنّ المعانى التى تنزّلت من تلك الحقائق لا يمكن أن تسعها الألفاظ.

حقيقة وراثة الأوصياء للنبىّ صلى الله عليه و آله ...: ص: ۳۳۷

ومن ثمّ ورد أنّه صلى الله عليه و آله لم يكلّم أحداً بكنه عقله قطّ، وكذلك الحال فيما تحمّله الوصىّ عليه السلام وولده الأوصياء عن النبىّ صلى الله عليه و آله، عمدته ليس من الألفاظ والمعانى من قبيل الحديث والرواية، بل عمدة ما تحمله عن النبىّ صلى الله عليه و آله هو حقيقة القرآن التى هى الروح الأعظم، وهو أعظم أنماء التحمّل؛ لأنّه اكتناه حضورى للحقائق لا يغيب عنه شىء منها، بخلاف تحمّل المعانى فضلًا عن تحمّل الألفاظ.
ففرق بين الوصاية والفقاهة والرواية، حيث دلّت سورة القدر ونحوها من السور على بقاء تنزّل ذلك الروح كلّ عام على من يشاء من عباده، قال تعالى:

«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ* سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ» «۱»

، وقال تعالى: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» «۲»

، وقال تعالى: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» «۳»

، فكما أنّ تنزّل الروح الأعظم فى ليلة القدر دائم دائب فى كلّ سنة بالضرورة، فكذلك ليلة القدر تعنى وراثة ولىّ اللَّه تعالى لمقام النبىّ صلى الله عليه و آله فى تنزّل الروح عليه.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۳۸

وقد تقدم فى هذه المقالة أنّ ذلك الروح هو حقيقة القرآن، وأنّه عطف بيان وبدل على الضمير فى (أنزلناه) ولو من باب بدل الجملة من جملة، ومن ثمّ قال تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» «۱»

، والمطهّرون بصيغة الجمع وهم أهل آية التطهير، حيث قال تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» «۲».

وتقدّم أنّ الكتاب المكنون ليس لوحاً ونقش صور الألفاظ، بل هو الروح (الذى هو حقيقة القرآن التكوينية)، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» «۳»

، فالروح الأمرى هو الكتاب، والذى يمسّ الكتاب هو الذى يتلقّى تنزّل الروح الأمرى كلّ عام فى ليلة القدر، والمطهّرون الذين يمسّون الكتاب المكنون هم الأئمّة عليهم السلام الذين يتوارثون الكتاب وهو الروح الأمرى، حيث قال تعالى: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» «۴»

، فالهداية الأمرية هى بالروح الأمرى.

وكذلك فى قوله تعالى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» «۵»

، والذين اصطفاهم وأصفاهم أهل آية التطهير، فهذه الآيات تتشاهد لبعضها البعض لتدلّ على أنّ الأئمّة المطهّرون المصفّون الذين يمسّون الكتاب ويرثوه يتلقّون حقيقة الكتاب، وهو الروح الأمرى والذى يتنزّل فى ليلة القدر فى كلّ عام على من يشاء اللَّه من عباده، وقد ذُكر عنوان ورثة الكتاب والذين يمسّونه بصيغة

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۳۹

الجمع؛ للتدليل على أنّهم مجموعة ممتدّة طوال عمر هذا الدين وما بقى القرآن.

قراءة جديدة فى حديث الثقلين وأنّ الأئمّة عليهم السلام هم الثقل الأكبر ...: ص: ۳۳۹

ولكى نبرهن على ذلك لابدّ من توضيح جملة من الأُمور:

الأوّل: إنّهم عين حقيقة القرآن، وهذا معنى عدم افتراق القرآن عن العترة، أى عدم افتراق حقيقة القرآن التكوينية وهو الكتاب المكنون وهو الروح الأعظم- عن ذوات العترة المطهّرة، بل هو أحد أرواحهم الذى يسدّدهم.

قراءة جديدة فى آية ... ص: ۳۳۹

«وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ»:

وهذا معنى تنزيل نفس علىّ عليه السلام منزلهٔ نفس النبى صلى الله عليه و آله فى قوله تعالى: «فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ» «۱»

، كيف لا والروح الأمرى الذى هو الروح الأعظم والذى هو حقيقهٔ القرآن وهو الكتاب المبين الذى نُزّل على قلب النبىّ صلى الله عليه و آله وأُوحى إليه- قد ورثه الوصىّ ويتنزّل عليه وعلى ذرّيته الأوصياء عليهم السلام.

وفى صحيح أبى بصير قال: «سألت أبا عبداللّه عليه السلام عن قول اللّه تبارك وتعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ» «۲»؟ قال:

خلق من خلق اللّه عزّ وجلّ أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله يخبره ويسدّده، وهو مع الأئمّة من بعده» «۳».

وفى صحيحه الآخر قال: «سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّوجلّ «وَيَسْأَلُونَكَ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۴۰

عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى» «۱»

؟ قال: خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وهو مع الأئمّة، وهو من الملكوت» «۲».

وفى صحيح ثالث لأبى بصير بعد وصفه للروح بما تقدّم-: «لم يكن مع أحد ممّن مضى غير محمّد صلى الله عليه و آله، وهو مع الأئمّة يسدّدهم» «۳».

وفى موثّق على بن اسباط عن أبيه أسباط بن سالم زيادة قوله عليه السلام: «منذ أنزل اللّه عزّوجلّ ذلك الروح على محمّد صلى الله عليه و آله ما صعد إلى السماء، وإنّه لفينا» «۴».

وفى رواية أبى حمزة قال: «سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن العلم، أهو علم يتعلّمه العالم من أفواه الرجال، أم فى الكتاب عندكم تقرؤونه فتعلمون منه؟ قال: الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قول اللّه عزّوجلّ: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ..» «۵»

..» الحديث «۶». وهذا المعنى الذى يشير إليه عليه السلام هو ما تقدّم ذكره من أنّ الأوصياء فى تحمّلهم عن النبىّ صلى الله عليه و آله ليس هو تحمّل رواية ألفاظ، ولا مجرّد فهم معانى، بل حقيقة تحمّلهم وعمدته هو تحمّل حقيقة القرآن التى هى روح القدس.

فعمدة ما يتلقّونه بقلوبهم وأرواحهم عليهم السلام هو عن قلب وروح النبىّ صلى الله عليه و آله، وليس العمدة هو عن مجرّد لسانه الشريف وآذانهم الطاهرة، ولا عمدته من كتب يقرأونها كالجامعة ونحوها، فهم بدورهم فيما يبلغونه من ألفاظ مؤدّية إلى طبقات المعانى الموصلة إلى بعض الحقائق التى تلقّوها.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۴۱

قراءة جديدة فى حفظ وبقاء الذكر والقرآن المنزّل ...: ص: ۳۴۱

فمن ثمّ يكون دورهم متمّم ومكمّل لدور النبىّ صلى الله عليه و آله فى هداية البشرية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى فى آية الغدير: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» «۱»

، لبيان خطورة وشدّة دورهم عليهم السلام المتمّم لدور النبىّ صلى الله عليه و آله فى تبليغ الرسالة، وأنّه الأمر الذى يجب أن يُبلّغ لامتداد الرسالة وبقاء القرآن، أى بقاء حقيقته النازلة والمتنزّلة منها درجات فى كلّ عام فى ليلة القدر لابقاء المصحف المنقوش بالخط.

وإلّا لو كان دورهم هو مجرّد النقل السماعى اللفظى عن الرسول كقناة لإيصال الألفاظ والصوت لما كان لسان الآية بهذا اللحن

الشديد والخطب البليغ، كما ان تعليق وتبليغ الرسالة برمّتها على شخص يخلف النبيّ عليهم السلام وهو أمير المؤمنين عليه السلام لابدّ أن يكون فى تحمّله عن النبيّ صلى الله عليه و آله خصوصية لا يشترك معه فيها أحد وإلّا لشاركه آخرون فى القيام بذلك الدور ولَمّا انحصر تبليغ الرسالة بعد النبيّ صلى الله عليه و آله به.

وليست هذه الخصوصية وليدة عن كثرة سماع الوصى لكمية كثيرة من الأحاديث أو لقوّة حافظة علىّ عليه السلام لما يسمعه من الحديث على النمط المألوف، ولا لمجرّد أكثرية ملازمته وإلّا لشاركه الآخرون فى ذلك ولو بدرجة نازلة. وان تفسير خصوصية علىّ والعترة الطاهرة بمجرّد هذه المزايا لا يحسم جدلية السؤال عن وجه تخصيص الدور بهم دون بقية الصحابة والتابعين وسائر فقهاء وعلماء الأُمّة بل لكانت هذه المزايا نظير الترجيح بين الفقهاء فى مسند الفتيا والقضاء وليست عملية إصفاء إلهى بل لما كان فى تقديم المفضول على الفاضل ذلك القبح الشديد المستنكر بل للزم احتياج العترة إلى مشاركة الصحابة والتابعين معهم فى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۴۲

القيام بهذا الدور.

بل خصوصية الإصطفاء الإلهى لهم دون غيرهم هو لحملهم حقيقة القرآن التى هى الروح الأمرى والتى قد تقدّم بيان صفاتها فى الآيات والسور والروايات التى تقدّمت، وتبين أنّ لديهم عليهم السلام علم حقيقة القرآن كلّه، فضلًا عن درجات معانيه غير المتناهية وألفاظه، وهذا التراث والوراثة التكوينية لا يشاركهم فيها غيرهم بأدنى مشاركة، وهذا معنى انحصار باب مدينة علم النبيّ صلى الله عليه و آله بعلىّ عليه السلام، بل ليس لغيرهم مهما بلغت درجته من العلم سوى الوقوف على حدود المعانى الظاهرة وبعض درجاتها التى توصّل إليها بواسطة الألفاظ.

وحيث إنّ الحاجة وبقاء الرسالة قائم بحقيقة القرآن لا بسطوح المعانى المنزّلة من تلك الحقيقة، ولأجل ذلك كان مقدار ما تنزّل من القرآن من المعانى الظاهرة والألفاظ لا يسدّ الحاجة لهداية البشرية إلّابضميمة التأويل، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ» «۱»

، فالتأويل باب مفتوح …

درجات وطبقات المعانى المتنزّلة من الحقائق.

الوجودات الأربعة للقرآن ...: ص: ۳۴۲

ولتوضيح أقسام وجود القرآن ينبغى الالتفات إلى التقسيم الذى ذُكر فى علم المنطق من أنّ لكلّ شىء أربعة وجودات:

الأوّل: الوجود الكتبى للشىء، وهو نقش اسم الشىء على الورق أو نقش رسم

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۴۳

صورته فيما لو كان جسمانياً- كلفظ زيد أو صورته، ويُسمّى الوجود الكتبى لزيد ونقش اسمه.

الثانى: الوجود الصوتى لاسم زيد أو صوته، ويُسمّى بالوجود اللفظى الصوتى لزيد.

وهذان الوجودان يقال عنهما الوجودان التنزيليان لزيد أو الوضعيان، أى أنّهما قرّرا وجودين لزيد أو للشىء بحكم الاعتبار الأدبى، فلولا تبانى البشر وأهل اللسان عن التعبير عن معنى زيد أو عن وجوده بذلك اللفظ أو بذلك الرسم والنقش من الكتابة، لما كان لهما دلالة على معنى زيد أو وجوده، ولما كان له صلة بحقيقة زيد ولا بمعناه، ومن ثمّ يعبّر عنهما وجودان تنزيليان لزيد، فلفظ زيد الصوتى تنزيل لحقيقة زيد، وكذلك نقش كتابة لفظ زيد تنزيل لحقيقة زيد.

الثالث: معنى زيد فى الذهن والصورة التى له فى الذهن، أى التى تنتقش تكويناً فى ذهن الإنسان وفكره، ويُقال عنه الوجود المعنوى

لزيد، وهذا الوجود تكويني وليس من قبيل الأوّلَين، أي ليس وجوداً تنزيلًا اعتباراً، بل هو وجود تكويني لزيد، ولكن لا لحقيقة وجوده بل لحقيقة معناه.

وقد يُطلق عليه تنزيل تكويني لا اعتباري لحقيقة وجود زيد، فهو ليس عين حقيقة الوجود ولكنّه عين حقيقة المعنى، وبين ذات معنى زيد وذات وجوده فرق فارق، بل إنّ لمعنى زيد مراتب: منها صورة بدنه في الذهن، ومنها معنى روحه ونفسه وعقله، أو ماهيته وذاته العقلية.

الرابع: حقيقة وجود زيد وهو وجوده العيني الخارجي، وهو وجود تكويني لزيد، كما أنّه الأصل في أقسام وجودات زيد، فليس هو وجود تنزيلي اعتباري أدبي كالأوّلَين، ولا ـ وجود تكويني كالقسم الثالث، بل هو حقيقة وعين وجود زيد وهذا القسم بدوره أيضاً يشتمل على مراتب: منها الوجود البدني لزيد، ووجود

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۴۴

نفسه وروحه.

فتبيّن أنّ الوجود التكويني هو القسمان الأخيران، وكلّ منهما ذو مراتب، وهذا التقسيم يعمّ جميع الأشياء؛ فإنّ لكلّ شيء من الأشياء وجود لفظي صوتي وكتبي نقشي، ووجودان تكوينان، وهو وجود معانيها في الذهن ووجود عيني خارجي.

فإذا تبيّن ذلك يتبيّن أنّ للقرآن الكريم هذه الوجودات الأربعة، فالتنزيل الذي في المصحف هو وجود كتبي ونقش للوجود اللفظي للقرآن، كما أنّ صوت قراءة القرآن هو وجود لفظي صوتي للقرآن.

ولكلّ من هذين الوجودين أحكام، فإنّه يُحرم لمس خطّ كتابته من دون طهارة، كما أنّ وجود المصحف الشريف المقدّس حرز وأمان، كما أنّه يُستحبّ النظر إليه، والقراءة منه أفضل وأكثر فضيلة من القراءة عن ظهر قلب، كما أنّ قراءة القرآن وهو الوجود الصوتي- يدخل النور في البيت ويطرد الشياطين ويُكثر البركة والرزق، ويُستحب تحسين الصوت وتجويده، كما يُستحب قراءته بخشوع وحزن.

وأمّا معاني القرآن فهو الوجود الذهني للقرآن ومعانيه وهو مصدر الهداية والبصيرة.

ومن أحكامه: لزوم التدبّر، كما قال تعالى: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» «۱»

، فالتدبّر سرح للنظر في المعاني والسير في مدارجها بالتفكّر، قال تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» «۲»

. فلا يقتصر وجود القرآن على النقش الكتبي ولا على حركة ولقلقة اللسان وبديع التجويد وتحسين الصوت، بل كلّ ذلك إلى غاية أهمّ وهو وجود القرآن في أُفق المعنى، والاستضاءة بنور هدايته

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۴۵

من خلال وجوده في أُفق المعنى ورحاب بصيرة تلك المعاني، ومنه تحصل معرفة الدين والشريعة والشرائع. وينقسم إلى معنى ظاهري ومعنى تأويلي، وإلى العلوم جمّة، علوم الحكمة والآداب والأخلاق، وأسرار الفقه والقانون، وحقائق التكوين والمعارف، وعلوم التربية الإنسانية، وبالجملة العلوم العقلية والظواهر الطبيعية، وغيرها من منظومات العلوم.

حقيقة القرآن ووجوده ...: ص: ۳۴۵

والوجود الرابع للقرآن العيني الخارجي هو الذي يشير إليه قوله تعالى:

«وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» «۱»

فربط تعالى بين إنزال الروح الأمري وإحيائها وإرسالها، ومعرفة النبيّ صلى الله عليه و آله بالكتاب كلّه، وقد عبّر عن ذلك بالإيحاء

وهو الإرسال الخفى، وتشير الآية إلى معرفة النبىّ صلى الله عليه و آله بجملة الكتاب دفعةً.

ونفس هذا الترابط بين الروح الأمرى وبين نزول جملة الكتاب نجده فى سورة القدر، حيث قال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ..» «۲»

، نلاحظ أنّ نزول القرآن والروح الأمرى مترابطان، وكذلك فى سورة الدّخان، قوله تعالى: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» «۳»

، والضمير عائد على الكتاب

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۴۶

المبين جملة وإرسال الروح الأمرى.

فيستخلص من جملة هذه الآيات أنّ نزول القرآن جملة هو نزول حقيقته وهو الروح الأمرى، وهذا هو حقيقة الفرق بين تنزيل القرآن نجوماً الذى هو الوجود اللفظى للقرآن، وبين نزوله دفعة.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۴۷

الأمر الثانىإنّ للقرآن درجات ومدارج ... ص: ۳۴۷

اشارة

هناك حقيقة ثابتة مسلّمة بين المسلمين، وهى حقيقة قرآنية من كون القرآن المنزّل ذا تأويل، كما قال تعالى: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» «۱»

، فللقرآن تأويل وبطون، وقال تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ» «۲»

، وقال تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ» «۳»

، فالتأويل والبطون سوى ظاهره المنزّل، بل وتلك البطون التى لا- تنفذ من بحور حقائق القرآن تترقّى وتتّصل بأصل حقيقة القرآن الغيبية التى يُطلق عليها: الكتاب المكنون، والكتاب المبين، أو اللوح المحفوظ، أو أُمّ الكتاب.

وعلى ضوء ذلك، فليست الشريعة والدين تقتصران وتنحصران فى الظاهر المنزّل، بل هما يشملان تلك البطون، فلا ينحصر تبليغ وأداء الشريعة بأداء الظاهر المنزّل وإبلاغ آيات التنزيل، بل يعمّ تلك البواطن.

ولم يقف على تلك البواطن وأُمّ الكتاب إلّاالنبىّ صلى الله عليه و آله وعترته الذين ورثوه بوراثة الاصطفاء، فسنخ ونمط تحمّل النبىّ صلى الله عليه و آله وتبليغه وتحمّل أهل بيته عليهم السلام عنه وتبليغهم ليس سنخ نمط تحمّل وتبليغ الرواة للأخبار الحسّية المسموعة لفظاً التى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۴۸

تحمّلوها ليؤدّوها إلى غيرهم، كى يكون الحال فى هذا التبليغ (رُبّ حامل لا يفقه ما حُمّل أو رُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه)، لأن ما تحمّله النبىّ صلى الله عليه و آله عن اللّه تعالى وتحمّله أهل بيته عليهم السلام عنه هو تحمّل للحقائق المهيمنة والمحيطة بالمعانى

حقيقة تبليغ النبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام ...: ص: ۳۴۸

المنزّلة فى آفاق درجات المعانى الباطنة والظاهرة والألفاظ المقروءة.

فمن ثمّ سُمّى هذا التبليغ والإبلاغ (إنزالًا) و (تنزيلًا)، بينما سُمّى تبليغ الرواة إلى غيرهم (نقلًا) وإيصالًا فى خطّ أُفقى، ونقلًا للحديث

الملفوظ وإسماع الكلام المسموع (وروايـة) للخبر المعلوم بـالحواسّ الظاهرة، فالـذى تحمّلوه هو ألفاظ مسموعة وطبقة من المعانى الظاهرة لأفهامهم من وراء حجاب اللفظ، فهـذا النمط والنوع من التحمّل والتبليغ يتحرّك فى سير أُفقى، ومن ثمّ قد يصعد المنقول إليه ويتصاعد إلى بعض درجات المعانى وغورها، على عكس الناقل الـذى ربّما يكون واقفاً على الألفاظ والدرجة الأُولى لمعانيها، فيكون المنقول والمحمول إليه الخبر أكثر إحاطةً من الناقل والحامل.

وهـذا لا يُتصوّر فى التحمّل الوحيانى والتبليغ النبوىّ، وتحمّل الإمام عن النبىّ وتبليغه لا يكون إلّاعن إحاطة بالحقائق الوجودية، فضلًا عن الإحاطة بكل آفاق المعانى التى هى صور منعكسة متنزّلة عن تلك الحقائق، وأشعة ولمعات يسيره من وهج نور الحقيقة، كيف لا، وتلك الحقائق لا يشذّ عنها رطب ولا يابس ولا غائبة فى السماوات والأرض، ولا ما كان ولا ما يكون وكلّ شىء مستطرّ، وتحيط بكلّ هدى ونور وكلّ فلاح وصلاح وكل سعادة ونجاح، وتبيان لكلّ شىء.

ففيما يبلّغه النبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام لا تقف الرعية بما فيها من الفقهاء والعلماء والحكماء والعارفين- إلّاعلى الألفاظ المتنزّلة والمعانى الظاهرة، وقد

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۴۹

يترقّى الحال فى بعضهم للوصول إلى بعض درجات المعانى أو لمح بعض لمعان أنوار الحقائق، من دون التحقّق بعينية تلك الحقائق فضلًا عن اكتناهها، ولا الإحاطة بجميع مدارج المعانى.

من ثمّ تدوم وتظلّ حاجة الرعية والبشرية قائمة ومستمرّة إلى تواصل بيانات النبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام وهدايتهم وتبليغهم، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: «مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» «۱»

، وقوله تعالى: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» «۲».

وكذلك يشير قول الإمام الصادق عليه السلام فى رواية إسحاق بن عمار، قال: «إنّما مثل علىّ عليه السلام ومثلنا من بعده من هذه الأُمّة كمثل موسى عليه السلام والعالم حين لقيه واستنطقه وسأله الصحبة، فكان من أمرهما ما اقتصّه اللَّه لنبيه صلى الله عليه و آله فى كتابه، وذلك أنّ اللَّه قال لموسى: «إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» «۳»

، ثم قال: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» «۴»

، وقد كان عند العالم علم لم يكتب لموسى فى الألواح، وكان موسى يظنّ أنّ جميع الأشياء التى يحتاج إليها فى تابوته وجميع العلم قد كتب له فى الألواح، كما يظنّ هؤلاء الذين يدّعون أنّهم فقهاء وعلماء وأنّهم قد أثبتوا جميع العلم والفقه فى الدين ممّا تحتاج هذه الأُمّة إليه وصحّ لهم عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعلموه وحفظوه، وليس كلّ علم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله علموه ولا صار إليهم عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولا عرفوه، وذلك أنّ الشىء من الحلال والحرام والأحكام يرد عليهم فيُسألون عنه، ولا يكون عندهم فيه أثر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ويستحون أن ينسبهم الناس إلى الجهل

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۵۰

ويكرهون أن يُسألوا فلا يجيبوا فيطلب الناس العلم من معدنه، فلذلك استعملوا الرأى والقياس فى دين اللَّه وتركوا الآثار ودانوا اللَّه بالبدع، وقد قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: كلّ بدعة ضلالة، فلو أنّهم إذا سُئلوا عن شىء من دين اللَّه فلم يكن عندهم منه أثر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ردّوه إلى اللَّه وإلى الرسول وإلى أُولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم من آل محمّد، والذى منعهم منّا العداوة والحسد لنا.

لا واللَّه ما حسد موسى عليه السلام العالم، وموسى نبىّ اللَّه يُوحى اللَّه إليه حيث لقيه واستنطقه وعرّفه بالعلم، ولم يحسده كما حسدتنا هذه الأُمّة بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على علمنا وما ورثنا عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ولم يرغبوا إلينا فى علمنا كما رغب موسى عليه السلام إلى العالم وسأله الصحبة ليتعلّم منه ويرشده، فلمّا أن سأل العالم ذلك علَم العالم أنّ موسى عليه السلام لا

يستطيع صحبته ولا يحتمل علمه ولا يصير معه، فعند ذلك قال العالم: «وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا» «۱»

؟ فقال موسى عليه السلام له وهو خاضع له يستعطفه على نفسه كي يقبله: «سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْرًا» «۲»

، وقد كان العالم يعلم أنّ موسى عليه السلام لا يصبر على علمه، فكذلك واللَّه- ياإسحاق بن عمار- حال قضاة هؤلاء وفقهائهم وجماعتهم اليوم، لايحتملون واللَّه علمنا ولا يقبلونه ولا يطيقونه ولا يأخذون به ولا يصبرون عليه، كما لم يصبر موسى عليه السلام على علم العالم حين صحبه ورأى ما رأى من علمه، وكان ذلك عند موسى عليه السلام مكروهاً وكان عند اللَّه رضاً وهو الحقّ، وكذلك علمنا عند الجهلة مكروه لا يؤخذ وهو عند اللَّه الحق» «۳».

فإذا التفتّ بنحو الإجمال إلى سنخ تحمّل وتبليغ النبيّ صلى الله عليه و آله عن اللَّه تعالى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۵۱

وتحمّل وتبليغ أهل بيته عليهم السلام عنه، يجدر بالمقام الالتفات إلى كون القرآن ذا حقيقة عينية غيبية، والتى هى الكتاب المبين وأُمّ الكتاب واللوح المحفوظ والكتاب المكنون، كما فى قوله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «۱»

، حيث يشير إلى وجود كينونة للقرآن علوية تُدعى بالكتاب المكنون، أى المحفوظة من أن يصل إليها إلّاالمطهرون من الذنوب والرجس، وأنّ ما بين الدفّتين من القرآن تنزيل ونزول من ذلك المقام العلوى له.

ومثل هذه الإشارة نجدها فى قوله تعالى: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ* فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» «۲»

، فوصف القرآن بالمجد والعظمة لكينونته العلوية، أى أنّ المجد والعظمة وصف لذلك الوجود، ولا يغرق البارى تعالى فى وصف موجود بالعظمة إلّالخطورة موقعيته فى عالم الأمر والخلقة، وتلك الكينونة هى المسمّاة باللوح المحفوظ، والوصف بلفظ المحفوظ مع لفظ المكنون مترادف.

وكذلك نجد الإشارة نفسها فى قوله تعالى: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» «۳»

، فوصف القرآن بأنّ له كينونة فى أُمّ الكتاب وهى وجود علوى لدنى عنديَّ لدى البارى تعالى، وهذا الوجود موصوف بالعلوّ والإحكام فى قبال التفصيل الذى طرأ على القرآن حين النزول، كما يشير إليه قوله تعالى: «وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» «۴».

وكذلك قوله تعالى: «الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۵۲

خَبِيرٍ» «۱»

، وكذلك قوله تعالى: «وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «۲»

، فالقرآن النازل تفصيل ونجوم للكتاب العلوى، ويشير إلى الوجود العلوى للقرآن قوله تعالى: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» «۳»

، أى أنّ القرآن متنزّل من الكتاب المبين، وقد وصِفَ الكتاب المبين بعدّة أوصاف:

منها: قوله تعالى: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۴»

، وقال تعالى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۵»

، وقوله تعالی: «.. وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَلَا فِی السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِکَ وَلَا أَکْبَرَ إِلَّا فِی کِتَابٍ مُبِينٍ» «۶»

، وقوله تعالی: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ إِلَّا عَلَی اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا کُلٌّ فِی کِتَابٍ مُبِينٍ» «۷».

ثمّ إنّ هناک تعدّداً أيضاً بين مقام وموقع القرآن الکريم بحسب الکتاب المبين واللوح المحفوظ وأُمّ الکتاب، وبين إنزاله جملةً واحدة، وبين تنزيله مفصّلًا مفرّقاً بحسب الزمان، فهناک ثلاثة مقامات ومواقع ومراحل رئيسية للقرآن الکريم لا يسع المقام الخوض فی تفصيلها، إلّاأنّ المحصَّل ممّا مرّ أنّه صلی الله عليه و آله عالم بالکتاب المبين واللوح المحفوظ.

وکذلک أهل بيته المطهّرون، کما أنّه صلی الله عليه و آله قد أُنزل إليه القرآن جملة وهی

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۵۳

المرحلة الثانية، کما تنزّل عليه القرآن نجوماً مفصّلًا أو تفصيلًا وهی المرحلة الثالثة، کما تبيّن أنّ حقائق القرآن العينية موجودة بوجود علوی، وأنّ المعانی وطبقاتها متنزّلة من تلک الحقائق معاکسة وحاکية لها، وأنّ ألفاظ التنزيل ثوب وصورة.

قراءة فی معنی إکمال الدين بعلیّ ...: ص: ۳۵۳

للمعانی المتنزّلة ودرجاتها إلی درجة المعنی الظاهر.

فالکتاب لا يقتصر علی التنزيل والظاهر، بل له بطون لا تُحصی من المعانی، ولبطونه بطون هی حقائق مهيمنة، وأنّه لا يحيط بکلّ ذلک إلّاالنبیّ صلی الله عليه و آله بما أوحاه اللَّه إليه، ومن بعده أهل بيته عليهم السلام عنه، وبالتالی لا يمکن الاقتصار علی التنزيل والظهور فی الوصول إلی معرفة الدين القويم ونيل الهداية الإلهية من دون وجود الشخص المبين لتلک البطون والکاشف عن حقائق التنزيل؛ لحاجة البشرية إلی الکتاب کلّه ولکلّ درجاته علی نحو التدريج بحسب مرّ الزمان والعصور.

فمن ثمّ اتّفقت الإمامية أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام- علی أنّ الدين لم يکمل بالتنزيل إلّابعد أن نصّب اللَّه عليّاً إماماً وهادياً لدينه وکتابه من بعد الرسول صلی الله عليه و آله، کما ينادی بذلک قوله تعالی: «الْيَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِينَکُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْکُمْ نِعْمَتِی وَرَضِيتُ لَکُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» «۱»

، فإکمال الدين وإتمام النعمة لم يحصل بمجرّد التنزيل، بل بنصب قيّم بعد النبیّ صلی الله عليه و آله مبيناً لبطون القرآن وحقائقه، ومن بعد علیّ أولاده المعصومين، وفی هذا الزمان ولده الحجّة الإمام المنتظر سلام اللَّه عليه.

وقد روی الکلينی بسنده إلی الحسن بن العباسی بن الحريش عن أبی جعفر

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۵۴

الثانی عليه السلام قال: «قال أبو عبد اللَّه عليه السلام: بينا أبی عليه السلام يطوف بالکعبة إذا رجل معتجر قد قيض له فی حديث مسائلة الياس النبیّ عليه السلام للباقر عليه السلام- وما قاله له: اخبرنی عن هذه العلم الذی ليس فيه اختلاف من يعلمه؟

قال أبو جعفر عليه السلام: أما جملة العلم فعند اللَّه جلّ ذکره، وأمّا ما لابدّ للعباد منه فعند الأوصياء. ففتح الرجل عجيرته واستوی جالساً وتهلّل وجهه وقال: هذه أردت ولها أتيت زعمت أنّ علم ما لا اختلاف فيه من العلم عند الأوصياء، فکيف يعلمونه؟

قال: کما کان رسول اللَّه صلی الله عليه و آله يعلمه، إلّاأنّهم لا يرون ما کان رسول اللَّه صلی الله عليه و آله يری؛ لأنّه کان نبيّاً وهم محدَّثون بالفتح- وأنّه کان يفد إلی اللَّه عزّوجلّ فيسمع الوحی وهم لا يسمعون. فقال صدقت يابن رسول اللَّه...

فإن قالوا لک: فإنّ علم رسول اللَّه صلی الله عليه و آله کان من القرآن فقل: «حم* وَالْکِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِی لَيْلَةٍ مُبَارَکَةٍ إِنَّا کُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا کُنَّا مُرْسِلِينَ» «۱».

فإن قالوا لک لا يرسل اللَّه عزّوجلّ إلّاإلی نبیّ فقل: هذا الأمر الحکيم الذی يفرق فيه هو من الملائکة والروح التی تنزّل من سماء إلی سماء أو من سماء إلی أرض.

فإن قالوا: من سماء إلى السماء، فليس في السماء أحد يرجع من طاعة إلى معصية.

فإن قالوا من سماء إلى أرض وأهل الأرض أحوج الخلق إلى ذلك فقل: فهل لهم بد من سيد يتحاكمون إليه؟

فإن قالوا: فإنّ الخليفة هو حكمهم فقل: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» «۲»

لعمرى ما في الأرض ولا في

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۵۵

السماء ولى للّهعزّ ذكره إلّاوهو مؤيد، ومن أيد لم يخطّ وما في الأرض عدوّ للّهعزّ ذكره إلّا وهو مخذول، ومن خذل لم يصب، كما إنّ الأمر لابدّ من تنزيله من السماء يحكم به أهل الأرض كذلك لابدّ من وال. فإن قالوا: لا نعرف هذا فقل: (لهم) قولوا ما أحببتم، أبى اللّه عزّوجلّ بعد محمّد صلى الله عليه و آله أن يترك العباد ولا حجّة عليهم» «۱».

ويتبيّن من ذلك أنّ إنكار أحد أئمّة أهل البيت عليهم السلام أى إنكار اتّصال سلسلة إمامتهم أعظم كفراً من إنكار أحد المرسلين السابقين، أى من إنكار سلسلة اتّصال رسالات المرسلين السابقين؛ وذلك لأنّ إنكار سلسلة اتّصال إمامة أهل البيت تعنى إنكار بقاء حجّية القرآن، للقول بتعطيل الكتاب بتعطيل نزول تأويله في كلّ عام.

وإنكار القرآن أعظم جحوداً من إنكار أحد الكتب المنزّلة السابقة، وقد عرفت أنّ ليلة القدر قد كانت منذ أوّل نبىّ بعثه اللّه عزّوجلّ واستمرّت مع جميع الأنبياء إلى قائم الأنبياء إلى خاتم الأنبياء، وكانت مع أوصياء الأنبياء، وهى مع الأوصياء من أهل البيت عليهم السلام بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله وذلك لأنّها من أبرز قنوات الاتّصال مع الغيب، وبتوسّطها ينزل تأويل الكتب السماوية في من سبق، وتأويل القرآن على النبىّ صلى الله عليه و آله وعلى أهل بيته من بعده.

ومن ثمّ ورد أنّه لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن كما مرّت الإشارة إليه، فليلة القدر تمثّل وحدة السبب الاتّصالى بين الأرض والسماء، وأنّ إنكارها بإنكار أحد الأئمّة من أهل البيت هو في الحقيقة إنكار لطبيعة هذا الاتّصال الواحد الموحّد لدى السفراء الإلهين، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۵۶

وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» «۱»

، وقوله تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۲»

، فلم يكتفِ البارى عزّوجلّ في الإيمان بالرسول صلى الله عليه و آله فقط، وإنّما قرن معه بالنور النازل معه والذى هو الروح الأمرى روح القدس، الذى هو حقيقة الكتاب الذى وصف بالنور بأنّه مع من اصطفاه اللّه من العباد بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله وذلك لقوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» «۳».

وروى الكلينى بسند معتبر عن أبى جعفر عليه السلام قال: «لقد خلق اللّه عزّوجلّ ذكره ليلة القدر أوّل ما خلق الدنيا، ولقد خلق فيها أوّل نبىّ وصىّ يكون، ولقد قضى أن يكون في كلّ سنة ليلة يهبط فيها بتفسير الأُمور إلى مثلها من السنة المقبلة من حجّة ذلك، فقد ردّ على اللّه عزّوجلّ علمه لأنّه لا يقوم الأنبياء والرسل والمحدّثون أيضاً بأنّهم جبرئيل أو غيره من الملائكة عليهم السلام.

قال: أمّا الأنبياء والرسل صلى الله عليه و آله فلا شكّ ولابدّ لمن سواهم من أوّل يوم خلقت فيه الأرض إلى آخر فناء الدنيا أن تكون

على أهل الأرض حجّة ينزل ذلك فى تلك الليلة إلى من أحبّ من عباده.

وأيم اللَّه لقد نزل الروح والملائكة بالأمر فى ليلة القدر على آدم وأيم اللَّه ما

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۵۷

مات آدم إلّاوله وصىّ وكلّ من بعد آدم من الأنبياء قد أتاه الأمر فيها ووضع لوصيه من بعده، وأيم اللَّه إن كان النبىّ ليؤمر فيها يأتيه من الأمر فى تلك الليلة من آدم عليه السلام إلى محمّد صلى الله عليه و آله أن أُوحى إلى فلان، ولقد قال اللَّه عزّوجلّ فى كتابه للولاة من بعده محمّد صلى الله عليه و آله خاصّة «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَايُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» «۱»

يقول: «استخلفكم لعلمى ودينى وعبادتى بعد نبيّكم، كما استخلف وصاة آدم من بعده حتّى يُبعث النبىّ الذى يليه، يعبدوننى بإيمان لا نبىّ بعد محمّد صلى الله عليه و آله، فمن قال غير ذلك فأولئك هم الفاسقون، فقد مكّن ولاة الأمر بعد محمّد بالعلم ونحن هم، فاسألونا فإن صدّقناكم فأقرّوا وما أنتم بفاعلين، أمّا علمنا فظاهر، وأمّا إبان أجلنا الذى يظهر فيه الدين منّا حتّى لا يكون بين الناس اختلاف، فإنّ له أجلًا من ممرّ الليالى والأيام، إذ أتى ظهر وكان الأمر واحداً.

وأيم اللَّه لقد قُضى الأمر أن لا يكون بين المؤمنين اختلاف، ولذلك جعلهم شهداء على الناس ليشهد محمّد صلى الله عليه و آله علينا، ولنشهد على شيعتنا ولتشهد شيعتنا على الناس. أبى اللَّه عزّوجلّ أن يكون فى حكمه اختلاف، أو بين أهل علمه تناقض.

ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: فضل إيمان المؤمن بجملة (إنّا أنزلناه) وبتفسيرها على من ليس مثله فى الإيمان بها كفضل الإنسان على البهائم، وإنّ اللَّه عزّوجلّ ليدفع بالمؤمنين بها» «... ۲».

وقد ورد من طرق الفريقين عنه صلى الله عليه و آله قوله لعلىّ عليه السلام: «أنا أقاتل على التنزيل وعلىّ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۵۸

يقاتل على التأويل» «۱»

، ومنه ظهر أنّ سنخ تبليغ النبىّ صلى الله عليه و آله عن اللَّه وأهل بيته عليهم السلام عنه لا يقف على حدّ التنزيل والألفاظ، بل يتّسع إلى ما لا يُحصى من مدارج المعانى وبيان الحقائق، فالحاجة إلى تبليغهم وأدائهم عن اللَّه ووساطتهم بين اللَّه وخلقه تمتدّ إلى يوم القيامة فى دار التكليف ونشأة الامتحان، ما دام البشر يحتاجون فى كل بيئة إلى رؤية كونية عقائدية أعمق للحقائق والمعارف، ويحتاجون إلى هداية من الشريعة إلى أطوار نظامهم الاجتماعى السياسى وحقوله.

فتلخّص، أنّ ما تسالم عليه المسلمون من وجود الظهور والبطون فى الكتاب العزيز وكون علومه وحقائقه وكلماته لا تتناهى، يستلزم دوام الحاجة إلى تبليغ النبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام من بعده، وعدم سدّ الحاجة بخصوص الظاهر بعد كون الإيمان بباطن القرآن على حذو الإيمان بظاهره.

ويشير إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» «۲»

، فإنّ توقّف تبليغ مجمل الرسالة على نصب علىّ عليه السلام فى الغدير بحيث لو لم يُنصّب لم تُبلّغ الرسالة من رأس وهذا المفاد فى الآية، مؤشّر واضح على أنّ ما حمل النبىّ صلى الله عليه و آله من الرسالة بالوحى مُعظَمه لا يقتصر على التنزيل، بل جُلّه فى البطون وحقيقته العلوية التى لا يشذّ عنها شىء، وهذا لم يؤدّه النبىّ إلّا

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۵۹

لعلىّ وأهل بيته خاصّة، وتأديته صلى الله عليه و آله لأهل بيته لم تقتصر على النمط الحسّى ولا هو عمده الطريق لتلقّيهم عليه السلام

عنه صلى الله عليه و آله.

فمن ثمّ كان إبلاغ النبيّ صلى الله عليه و آله التنزيل للناس من دون نصب عليّ نفى لإبلاغ وبلاغ جلّ الرسالة، وأنّ ما عند الناس من الدين والشريعة والرسالة هو أقلّ من قليل، إلّاباتّباعهم لأهل بيت النبيّ صلى الله عليه و آله وأخذهم عنهم ما أدّاه النبيّ إلى أهل بيته من حقائق القرآن والشريعة، ويشير إلى ذلك ما روته العامّة فى الصحاح وغيرها كما ذكره السيوطى فى تاريخ الخلفاء «۱»: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثنى عشر خليفة كلّهم من قريش».

وفى رواية: «إنّ هذا الأمر لا ينقضى حتّى يمضى له فيهم اثنى عشر خليفة كلّهم من قريش» «۲»

، وفى رواية عن أبى داود: «لا يزال هذا قائماً حتّى يكون لكم إثنى عشر خليفة» «۳»

. فإنّ التعبير بأنّ الدين قائم بهم أى أنّه ينقضى بزوالهم ويزول بمضيهم، وأنّ عمر هذا الدين وصلاحه مرهون عند اللّه عزّوجلّ بالخلفاء الاثنى عشر.

وهذا المفاد للحديث النبوىّ المستفيض يقتضى بأنّ ما وصل بأيدى الناس من ظاهر التنزيل من المصحف الشريف وروايات السنّة النبويّة بمجرّده لا يكفى فى بقاء الدين، ممّا يدلّ على أنّ معظم الدين وقوامه موجود لدى الاثنى عشر سلام اللّه عليهم دون غيرهم، وكذا لا يمكن الاكتفاء بظاهر التنزيل والروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام والاستغناء عن المهدى (عج).

حيث قال تعالى: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۶۰

كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا» «۱»

، وقال تعالى: «وَلَوْ أَنَّمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «۲»

، ليس المراد من الكلمات التى لا تنفد الألفاظ الصوتية أو المنقوشة المدوّنة أو المعانى المفهومة المتصوّرة؛ إذ إطلاق الكلمة والكلمات على هذين الموردين إطلاق مجازى عند العقل، إذ الكلمة هى الشىء الدالّ بذاته تكويناً على أمر آخر، ومن ثمّ يُطلق على وجودات الأشياء المخلوقة لا سيّما الشريفة- أنّها كلمات اللّه؛ لدلالتها على صفات البارى تعالى.

ومنه يُعرف الترادف عند العقل بين الكلمة الحقيقية والآية، ومن ثمّ ورد إطلاق كلّ منهما على النبيّ عيسى عليه السلام، وقال تعالى فى بشارة الملائكة لمريم: «إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» «۳»

، فجعل تعالى وجود نبيّه كلمة منه تعالى وتكلّمٌ منه، وجعل عنوان المسيح عيسى ابن مريم اسم للكلمة، كما أطلق تعالى الآية على عيسى ابن مريم حيث قال: «وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا» «۴».

فهذه الكلمات الوجودية والتى قد تعرّضت جملة من الآيات لنعوتها وصفاتها والتى لا تنفد، كلّها مجموعة فى الكتاب المبين؛ إذ الكتاب هو ما يتألّف من كلمات، فالكتاب المبين متكوّن من وجود جملى لكافّة الكلمات الوجودية بالوجود الملكوتى، ومن ثمّ نعت الكتاب المبين بأنّه مفاتح الغيب كما فى الآية المتقدّمة: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۶۱

مُبِينٍ» «۱».

تلقى النبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته للكلمات والكلام الإلهى بوجوده التكوينى لا الاعتبارى ...: ص: ۳۶۱

إنّ ما يتلقّاه النبيّ صلى الله عليه و آله من وحى لا ينحصر فى الوحى الإنبائى، كما أنّ سنخ الوحى الإنبائى لا ينحصر فى إلقاء المعانى أو الأصوات، بل إنّ عمدة أنواع وأنماط الوحى هو ما يكون من قبيل تلقّى حقائق الأشياء بحقيقتها التكوينية بكينونة تفوق الكون

المادّى، وهو ما يعبّر عنه بنشأة الملكوت فى القرآن الكريم، قال تعالى: «فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» «۲».

وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود كينونة للأشياء فى نشأة الملكوت فقال تعالى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۳»

، وقال تعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» «۴»

، وقال تعالى: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۵»

، وقال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُبِينٍ» «۶»

، وغيرها من الآيات التى تدلّ على أنّ فى نشأة الكتاب المبين وهى نشأة تحيط بغيب السماوات والأرض يستطرّ فيها كلّ شىء بحسب ملكوته، قال تعالى: «وَكَذَلِكَ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۶۲

نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» «۱»

، فأثبت تعالى للسماوات والأرض ملكوت، فإحاطة وهيمنة الملكوت على كلّ الأشياء وصف مقرّر للكتاب المبين، وتقرّر الأشياء بحسب ملكوتها فيه ليس تقرّر معانيها ومفاهيمها، بل تقرّر كينونة وجودية ملكوتية، بل أنّ هناك أوصافاً ونعوتاً قرآنية أُخرى للكتاب المبين تفوق ذلك.

والقرآن جملة وهو جملة حقيقية، فحقيقة القرآن ليست بلفظ عربى أو أعجمى كما أنّه ليس بمعنى بل هو الروح الأعظم، حيث عبّر عنه فى سورة النحل قوله تعالى: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» «۲»

، والآية الكريمة فى نفس السورة التى صدرها: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ» «۳»

، فبين الآيتين فى السورة الواحدة ارتباط، وأنّ ذلك الروح الذى ينزل به الملائكة هو روح القدس، وهو الروح النازل فى ليلة القدر بجملة الكتاب، ويعضد هذا الارتباط بين الآيتين فى سورة النحل توسّط آية أُخرى فى السورة وهى قوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» «۴»

، ومن الواضح فى هذه الآية إرادة جملة الكتاب وحقيقته، لا

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۶۳

النزول النجومى ولا تنزيل القرآن بوجوده اللفظى؛ لأنّ الذى فيه تبيان كلّ شىء هو حقيقة القرآن الذى يعبّر عنه بالكتاب المبين والمكنون واللوح المحفوظ، إلى غيرها من الأوصاف الآتى استعراضها لهذا الوجود الرابع.

وكذلك سيأتى استعراض روايات أهل البيت عليهم السلام الكاشفة لتفسير كلّ ذلك من ظاهر ألفاظ الآيات الكريمة. وتقدّم الكلام فى أنّ القرآن اسم حقيقة لروح القدس، النازل على النبىّ جملة فى النزول الدفعى الجملى للقرآن كما فى آخر سورة الشورى، وأنّه ملتحم مع روح النبىّ صلى الله عليه و آله ومن بعده مع أرواح الأوصياء من أهل بيته صلى الله عليه و آله.

ولا يخفى أنّ لفظة الكتاب شأنها فى أقسام الوجود شأن ما تقدّم من الوجودات الأربعة لكلّ شىء، فإنّ الكتاب يُطلق على وجود النقش والرسوم المكتوبة، وهو الذى يُستعمل فيه كثيراً، كما يُطلق الكتاب أيضاً على أصوات الألفاظ المجموعة فيقال قراءة الكتاب، ويُطلق على وجود المعانى فيقال حفظتُ كتاباً كاملًا، ويُطلق على الوجود العينى الخارجى الجامع للكلمات التكوينية.

وبعبارة أُخرى: إنّ الكتاب الذى هو مجموع الكلمات والكلمة بدورها له أربع وجودات:

الأوّل: الكلمة المكتوبة المنقوشة.

الثانى: الكلمة الملفوظة المصوّتة.

الثالث: الوجود الذهنى فى الفكر للكلمة.

الرابع: الوجود العينى الخارجى لشيء دالّ على شيء آخر.

كما أطلق تعالى القرآن على عيسى عليه السلام فى قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» «۱»

، وقوله تعالى: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ» «۲»

، وهذا الإطلاق ليس مجازياً، بل حقيقياً؛ لكون الأصل فى معنى الكلمة هو الشيء الموجود لأجل الدلالة على المعنى الخفى، وأى دلالة أعظم على صفات اللَّه من أنبيائه ورسله والأوصياء والحجج، والكلمة مقاربة فى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۶۴

معناها لمعنى الآية، حيث إنّ معناها العلامة الدالّة على معنى ومدلول ما، وقد أُطلق لفظ الآية على الوجودات التكوينية فى كثرة كاثرة من الموارد فى القرآن الكريم.

منها: قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً» «۱»

، وقوله تعالى: «وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا» «۲»

، وقوله تعالى: «فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ» «۳»

، فأطلق على النبىّ عيسى عليه السلام كلّاً من (الكلمة والآية)، ويقرب لفظ (الاسم) من هذا المعنى من لفظ (الكلمة والآية) وإطلاقهما على الوجود التكوينى، حيث إنّ معناه من السمة وهو العلامة أيضاً الدالّة على شيء أو معنى ما. فهذه الألفاظ الثلاثة هى بدورها أيضاً- لها أربع وجودات، الأُوليان اعتباريان وهما الصوت الملفوظ والنقش المرسوم على الورق، والأُخريان تكوينيان:

الثالث: وجودها فى أُفق المعنى والفكر والذهن ومدارج المعانى.

الرابع: الوجودات العينية.

وعلى ضوء ذلك، فالكتاب الذى هو مجموع الكلمات أيضاً هو بدوره له أربع وجودات، اثنان اعتباريان وهما المنقوش والملفوظ، واثنان تكوينيان وهما الوجود فى أُفق الفكر والذهن والوجود العينى الخارجى.

وإذا كان عيسى بن مريم عليه السلام بما له من روح نبوّية كلمة من هذا الكتاب وآية من آياته، فكيف بك فى بقية الكلمات والآيات؟ بل ما هو الحال فى جملة الكتاب مع أنّه تعالى يقول فى عيسى بن مريم عليه السلام- الذى هو كلمة من هذا الكتاب- «وَآتَيْنَا

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۶۵

عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» «۱»

، فعبّر تعالى بتأييده بروح القدس، ممّا يفهم أنّ روح القدس أعظم من روح النبىّ عيسى عليه السلام؛ حيث قال تعالى فى عيسى عليه السلام: «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» «۲»

، وقال تعالى: «اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ» «۳»

، ومن ثمّ لم يكن للنبىّ عيسى العلم بالكتاب كلّه كما كان لسيد الأنبياء صلى الله عليه و آله؛ لقوله تعالى فى عيسى: «قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» «۴»

، تبيّن الآية أنّه عليه السلام يبيّن بعض اختلاف بنى إسرائيل لا كلّه.

وكذلك الحال فى موسى عليه السلام حيث قال تعالى: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» «۵»

فما كُتب لموسى ليس كلّ شيء وإنّما من كلّ شيء، بخلاف القرآن الكريم حيث وصف بالمهيمن وأنّه تبيان كلّ شيء.

فهذا الارتباط بين كون عيسى كلمة وآية وبين كونه مؤيد بروح القدس، لا أنّ عيسى هو روح القدس.

کما أنّ الارتباط والصلهٔ التی تشیر إلیها سورهٔ القدر والدخان والشوری والنحل وغافر کما تقدّم استعراض آیات السور- بین الروح الأمری وروح القدس وبین نزول الکتاب المبین، یدلّ بوضوح أنّ الکتاب المبین حقیقته هو روح القدس، والذی یعبّر عنه فی بعض الروایات بالروح الأعظم، فهذا الروح الذی هو حقیقهٔ وجود الکتاب المبین هو الذی أُوحی به إلی النبیّ صلی الله علیه و آله فی قوله تعالی: «وَکَذَلِکَ أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتَابُ..» «۶»

، فدرایهٔ الکتاب کلّه هو بإرسال هذا الروح إلی روح النبیّ، ومقتضی درایهٔ النبیّ صلی الله علیه و آله بالکتاب کلّه هو

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۳، ص: ۳۶۶

التحام الروح فی ضمن روحه صلی الله علیه و آله، وکذلک تنزّل هذا الروح فی اللیلهٔ المبارکهٔ وهی لیلهٔ القدر والذی هو تنزّل لحقیقهٔ الکتاب علیه صلی الله علیه و آله.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۳، ص: ۳۶۷

نعوت حقیقهٔ الکتاب وهی روح القدس ... ص: ۳۶۷

اشارهٔ

منها: قوله تعالی: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُیِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ کُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَی بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِیعًا» «۱»

، فوصف القرآن بأنّه یسیّر به الجبال وتقطّع به الأرض ویُحیی به الموتی، ومن الواضح أنّ هذه الخواص لیست للکتابهٔ المنقوشهٔ التی هی بین الدفّتین للمصحف المقدّس، بل هی لحقیقهٔ القرآن الموجودهٔ فی الغیب وهی روح القدس.

ومنها: قوله تعالی: «یَمْحُواْ اللَّهُ مَا یَشَاءُ وَیُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْکِتَابِ» «۲»

، ومن الواضح أنّ لوح المحو والإثبات وما فوقه من أُمّ الکتاب لیس فی المصحف الورقی، بل هو فی نشأهٔ الغیب.

ومنها: قوله تعالی: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَی جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْیَهِٔ اللَّهِ وَتِلْکَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ» «۳»

، ومن الواضح أنّ المصحف المقدّس المنقوش بین الدفّتین لو وُضع علی جبل ما رأیناه ینهدّ متصدّعاً، إذن، المراد بذلک هو نزول روح القدس علی ملکوت الجبل؛ لأنّ لکلّ شیء ملکوت کما قال تعالی: «فَسُبْحَانَ الَّذِی بِیَدِهِ مَلَکُوتُ کُلِّ شَیْءٍ» «۴»

،

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۳، ص: ۳۶۸

فملکوت الجبل لیست له تلک القابلیهٔ والظرفیهٔ لنزول روح القدس علیه، بل لم تکن تلک القابلیهٔ فی الأنبیاء أُولی العزم کما تقدّمت الإشارهٔ إلیه، بل هی خاصّهٔ بالنبیّ صلی الله علیه و آله وأهل بیته المطهّرین، کما سیأتی بیان ذلک.

ومنها: قوله تعالی: «وَنَزَّلْنَا عَلَیْکَ الْکِتَابَ تِبْیَانًا لِکُلِّ شَیْءٍ وَهُدًی وَرَحْمَهً وَبُشْرَی لِلْمُسْلِمِینَ» «۱»

، ومن الواضح أنّ تبیان کلّ شیء لیس فی ظاهر المصحف المنزّل، وإنّما فی الکتاب المبین فی النشأهٔ الغیبیهٔ أی روح القدس، ومن ثمّ تکرّر التعبیر المشابه للوصف فی سورهٔ النحل وفی سورهٔ الشوری، ونظیر هذا الوصف فی قوله تعالی: «وَمَا یَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّهٍٔ فِی الْأَرْضِ وَلَا فِی السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِکَ وَلَا أَکْبَرَ إِلَّا فِی کِتَابٍ مُبِینٍ» «۲»

، فذکر أنّ فیه کلّ مغیّبات السماء والأرض وتقدیر الحوادث، کما ذکر ذلک فی سورهٔ القدر والدخان، ونظیره قوله تعالی: «وَمَا مِنْ دَابَّهٍٔ فِی الْأَرْضِ إِلَّا عَلَی اللَّهِ رِزْقُهَا وَیَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا کُلٌّ فِی کِتَابٍ مُبِینٍ» «۳»

، وقوله تعالی: «وَمَا مِنْ غَائِبَهٍٔ فِی السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِی کِتَابٍ مُبِینٍ» «۴»

، وقوله تعالی: «عَالِمِ الْغَیْبِ لَایَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِی السَّمَوَاتِ وَلَا فِی الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِکَ وَلَا أَکْبَرُ إِلَّا فِی کِتَابٍ مُبِینٍ» «۵»
، وکذلک قوله تعالی: «مَا فَرَّطْنَا فِی الْکِتَابِ مِنْ شَیْءٍ» «۶»
، وقوله تعالی: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَیْبِ لَایَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَیَعْلَمُ مَا فِی الْبَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا یَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِی ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا یَابِسٍ إِلَّا فِی کِتَابٍ مُبِینٍ» «۷».
ومن الظاهر أنّ هذه الإحاطة بتفاصیل کلّ الأشیاء لیست فی تفاصیل ظاهر
الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۶۹
التنزیل، وأنّما هو نعت للنشأة الغیبیة لحقیقة الکتاب، ومن ثمّ هذا الوصف بیّن ظرفه فی أرواح الذین أوتوا العلم فی قوله تعالی: «بَلْ هُوَ آیَاتٌ بَیِّنَاتٌ فِی صُدُورِ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ» «۱»
، وهذا ممّا یدلّ علی التحام روح القدس مع من یتنزّل الروح علیه لیلة القدر، وهم الذین یؤتون علم الکتاب کلّه.
ونعوت الوجود التنزیلی للقرآن وصفت فی الآیات العدیدة أنّه بلسان عربی مبین، کما فی قوله تعالی: «هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتَابَ مِنْهُ آیَاتٌ مُحْکَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» «۲»
، فالتشابه وصف لظاهر التنزیل، بینما المبین کلّه وصف للکتاب المکنون؛ وإلّا لو حُملت النعوت علی مرتبة واحدة من وجود القرآن وهو ظاهر التنزیل لتناقض الوصفان، فکیف یکون فیه متشابه ویکون مبیناً کلّه وتبیاناً لکلّ شیء؟
ومنها: وصفه بالکنّ والمجد، کقوله تعالی: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ* فِی کِتَابٍ مَکْنُونٍ» «۳»
، وقوله تعالی: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِیدٌ* فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» «۴»
، فوصف الکرامة قریب من وصف المجد، ووصف المکنون قریب من وصف المحفوظ، ومعنی اللوح قریب من الکتاب.
ومن ثمّ وصف أیضاً «لَایَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» «۵»
أی لا یصل إلیه إلّامن طهّره اللّه، لا المتطهّر بالوضوء والغسل. ومن ثمّ وصف أیضاً بتنزیل من ربّ العالمین أی له وجود علوی.
الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۷۰

الثقل الأکبر هو القرآن الناطق ...: ص: ۳۷۰

إذا تبینت الأُمور الثلاثة المتقدّمة من أنّ حقیقة القرآن هی روح القدس وتلک الحقیقة هی عین ذواتهم علیهم السلام، وأنّ للقرآن مدارج ودرجات، وأنّ المصحف هو أنزل درجات، فهو القرآن النازل وهو تنزیل القرآن، وأمّا الدرجات العلیا فهی حقیقة القرآن وهی أکثر عظمة وقدسیة وبهاءً وسموّاً، وأنّ تلک الحقائق هی الثقل الأکبر، إذ کیف یکون الوجود النازل وهو المصحف أکبر من أُمّ الکتاب ومن الکتاب المبین الذی یستطرّ فیه کلّ شیء، ومن اللوح المحفوظ والکتاب المکنون الذی لا یمسّه إلّاالمطهرون.
وتلک الحقائق الغیبیة التی هی روح القدس مرتبطة وملتحمة مع أرواح الأئمّة علیهم السلام حقیقةً لا تنزیلًا واعتباراً، فالارتباط الحی الحیوی بروح القدس هو ذات الإمام علیه السلام، فالثقل الباقی بعد النبیّ صلی الله علیه و آله الأکبر لا محالة یکون الإمام والمصحف هو الأصغر، وعلی ذلک جملة من الشواهد:
الأوّل: ما ورد بنحو مستفیض ومتواتر أنّهم علیهم السلام القرآن الناطق والمصحف هو القرآن الصامت، ولا ریب أنّ القرآن الناطق هو الثقل الأکبر؛ إذ الناطق أعظم شرافة من الصامت، بل أنّ ملحمة صفّین الکبری تُسطّر ملحمة عقائدیة للأئمّة أنّ القرآن الناطق هو علیّ علیه السلام، وأنّ المصحف قرآن صامت.
کما أنّ تلک الروایات المستفیضة فی کونهم القرآن الناطق دلالة واضحة علی هیمنة حجّیتهم علی حجّیة المصحف الشریف، أی حجّیة ذواتهم الناطقة لا کلامهم المروی فی الکتب الذی هو إمام صامت.

وفى الكافى روى فيما هو كالموثق عن مسعدة عن أبى عبد اللَّه عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام فى حديث: «ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق لكم أخبركم عنه ان فيه علم ما مضى وعلم ما يأتى إلى يوم القيامة وحكم ما بينكم وبيان ما أصبحتم فيه

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۷۱

تختلفون فلو سألتمونى عنه لعلمتكم» «۱».

الثانى: ما رواه الشريف الرضى فى كتابه خصائص الأئمّة بسند صحيح عن أبى موسى الضرير البجلى وهو عيسى ابن المستفاد وهو وإن ضُعّف من النجاشى إلّا أنّه مستند فى ذلك إلى تضعيف ابن الغضائرى المتسرّع، والحال أنّ مضامين رواياته عالية المعارف. عن أبى الحسن عليه السلام فى خطبة الرسول صلى الله عليه و آله التى خطبها فى مرضه، قال: «يا معاشر المهاجرين والأنصار ومن حضر فى يومى هذا وساعتى هذه من الأنس والجنّ، ليبلغ شاهدكم غائبكم، ألا وأنّى قد خلّفت فيكم كتاب اللَّه فيه النور والهدى والبيان لما فرض اللَّه تبارك وتعالى من شىء حجّة اللَّه عليكم وحجّتى وحجّة وليّى، وخلّفت فيكم العلم الأكبر علم الدين ونور الهدى وضياءه وهو علىّ بن أبى طالب، ألا- وهو حبل اللَّه «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» «۲».

أيّها الناس، هذا علىّ، من أحبّه وتولّاه اليوم وبعد اليوم فقد أوفى بما عاهد عليه اللَّه، ومن عاداه وأبغضه اليوم وبعد اليوم جاء يوم القيامة أصمّ وأعمى لا حجّة له عند اللَّه..

وكلّ سُنّة وحديث وكلام خالف القرآن فهو زور وباطل، القرآن إمام هادٍ، وله قائد يهدى به ويدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة وهو علىّ بن أبى طالب عليه السلام» «۳».

ودلالة الرواية على أنّهم الثقل الأكبر فى مواضع:

منها: وصف النبىّ صلى الله عليه و آله لعلىّ عليه السلام بأنّه العلم الأكبر، علم الدين فى مقابل المصحف الشريف، مع تكراره صلى الله عليه و آله للأوصاف التى ذكرها لنعت القرآن كأوصاف

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۷۲

لعلىّ أيضاً.

ومنها: تخصيصه صلى الله عليه و آله حبل اللَّه بعلىّ مع أنّ المصحف الشريف حبل اللَّه، كما فى الأحاديث الأُخرى إلّاأنّ هذا التخصيص فى هذه الرواية للتدليل على أنّه الحبل الأكبر.

ومنها: وصفه الكتاب بأنّه حجّة اللَّه على الناس وحجّة الرسول وحجّة الوصىّ، فجعل المصحف الشريف حجّة لما هو مقام أعظم وهو مقام اللَّه ورسوله ووليه.

ومنها: وصف علىّ عليه السلام بأنّه قائد للقرآن وأنّه الهادى به، مع أنّ القرآن إمام وهاد، فجُعلت القيمومة لعلىّ على المصحف.

الثالث: إنّ المقابلة ليست بين كلام اللَّه تعالى وكلام المعصوم؛ إذ لا ريب أنّ كلام الخالق فوق كلام المخلوق، بل هى بين كلامَى الخالق، أى الكلام النازل وهو تنزيل الكتاب وكلامه تعالى فى الكتاب المكنون واللوح المحفوظ وأُمّ الكتاب.

ولك أن تقول: إنّ المقارنة ليست بين المصحف وكتب الحديث وروايات السنّة النبويّة وسنّة المعصومين؛ إذ لا- ريب فى عظمة المصحف على كتب الحديث فالحديث يُعرض على الكتاب، وإن كان متشابه المصحف يُعرض على محكمات كلّ من الكتاب والسنّة، فمتشابه السنّة يُعرض على محكمات الكتاب والسنّة، وكذلك الحال فى متشابهات العقل فى القضايا النظرية تُعرض على محكمات الكتاب والسنّة وبديهيات العقل.

فليس المقارنة بين الكتاب والمصحف العزيز وكتاب الحديث، وإنّما المقارنة هى بين المصحف وذات الإمام المعصوم نفسه عليه السلام، وقد وصف المصحف العزيز بأنّه القرآن الصامت أى الذى لا ينطق بنفسه فى مقام التطبيق وتفاصيل الوقائع ولا متشابه الأُمور،

بخلاف ذات المعصوم فإنّها وصفت بالقرآن الناطق؛ لأن ذات

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۷۳

المعصوم تلتحم بذات الكتاب وأُمّ الكتاب والكتاب المبين.

فدرجات القرآن العليا التی هی جزء ذات المعصوم قرآن ينطق، فيرفع المتشابه فی الأُمور، ويكون تلاوة للكتاب حقّ تلاوته، أی يتلو الآية ويطبّقها وينزل تطبيقها فی حقّ المورد التی يجب أن تطبّق فيه.

وكذلك الحال فی المقارنة بين ذات الإمام وكتب الحديث، فإنّ ذات الإمام إمام ناطق وكتب الحديث إمام صامت، ومن ثمّ لا يُستغنی بتراث حديث النبیّ وأهل بيته عليهم السلام عن وجود الإمام المهدی (عج).

وبهذا يتّضح أنّ المقارنة ليس بين كلام اللَّه وكلام المعصوم، بل المقارنة بين كلامَی اللَّه، فإنّ ذات المعصوم هو كلام اللَّه حقيقة، ألا تری الإشارة فی قوله تعالی:

«إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» «۱»

، وقوله تعالی: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ..» «۲».

فأطلق علی عيسی عليه السلام أنّه كلمة اللَّه. وأيضاً لاحظ التعبير فی قوله تعالی لزكريا:

«أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ» «۳»

، أی مصدّقاً بعيسی بن مريم، والتعبير فی قوله تعالی فی شأن مريم: «وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ» «۴»

، فقوبل هنا بين الكلمات والكتب.

رابعاً: قد يُعترض علی جعل أهل البيت الثقل الأكبر فی مقابل المصحف الكريم، بأنّه مخالف للحديث النبویّ المستفيض وهو الوصية بالتمسّك بالثقلين، فإنّ الحديث وإن كان متواتراً إلّاأنّ ما ورد فيه بلفظ الأكبر والأصغر هو فی جلّ الطرق لا كلّها.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۷۴

منها: ما رواه الشيخ المفيد فی المجالس بسنده عن أبی جعفر عليه السلام، عن رسول اللَّه صلی الله عليه و آله: «يا أيّها الناس، إنّی تارك فيكم الثقلين.. سببٌ طرفه بيد اللَّه وطرف بأيديكم تعملون فيه.. ألا وهو القرآن والثقل الأصغر أهل بيتی. ثمّ قال: وأيم اللَّه إنّی لأقول لكم هذا ورجالٌ فی أصلاب أهل الشرك أرجی عندی من كثير منكم» «۱».

وروی فی البحار أيضاً عن تفسير القمّی وغيره قول النبیّ صلی الله عليه و آله: «أما وأنّی سائلكم عن الثقلين كتاب اللَّه الثقل الأكبر، طرفٌ بيد اللَّه وطرفٌ بأيديكم فتمسّكوا به» «۲».

وروی أيضاً فی البحار عن تفسير العياشی: «قال صلی الله عليه و آله: الثقل الأكبر كتاب اللَّه سبب بيد اللَّه وسبب بأيديكم فتمسّكوا به لن تهلكوا أو تضلّوا، والآخر عترتی، وأنّه قد نبّأنی اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتّی يردا علیّ الحوض» «۳».

وروی فی البحار أيضاً عن كتاب النشر والطی، عن رسول اللَّه صلی الله عليه و آله: «أيّها الناس، إنّی تارك فيكم الثقلين: الثقل الأكبر كتاب اللَّه عزّوجلّ طرفٌ بيد اللَّه تعالی وطرفٌ بأيديكم فتمسّكوا به، والثقل الأصغر عترتی أهل بيتی؛ فإنّه قد نبّأنی اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتّی يردا علیّ الحوض، كاصبعی هاتين وجمع بين سبابتيه ولا أقول كهاتين وجمع بين سبابته والوسطی- فتفضل هذه علی هذه» «۴».

وروی فی بصائر الدرجات عن النبیّ صلی الله عليه و آله، قال: «الثقل الأكبر كتاب اللَّه سببٌ طرفه بيد اللَّه وسببٌ طرفه بأيديكم» «۵».

وروی فی الخصال عنه صلی الله عليه و آله قوله: «أمّا الثقل الأكبر فكتاب اللَّه عزّوجلّ سببٌ ممدود

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۷۵

من اللَّه ومنّی فی أيديكم، طرفه بيد اللَّه والطرف الآخر بأيديكم، فيه علم ما مضی وما بقی إلی أن تقوم الساعة، وأمّا الثقل الأصغر فهو

حليف القرآن وهو عليّ بن أبي طالب وعترته، وأنّهما لن يفترقا حتّي يردا عليّ الحوض» «۱».

وتوضيح دفع الاعتراض:

أوّلًا: إنّ كلّ هذه الروايات قد وصفت الكتاب أو القرآن بالثقل الأكبر، فلم تأت بلفظ المصحف والكتاب، القرآن كما يطلق على المصحف يطلق على أُمّ الكتاب وعلى الكتاب المبين وعلى اللوح المحفوظ وعلى روح القدس، كما تقدّم ذلك مفصّلًا في استعمالات آيات السور والاستعمال الروائي، فالكتاب أو القرآن ذو درجات ومقامات متعدّدة.

ثانياً: القرينة على إرادة تلك المقامات العالية من لفظ الكتاب والقرآن في طرق حديث الثقلين الموصوف بالثقل الأكبر، وأنّه ليس المراد به مجرّد المصحف الشريف، وصف صلى الله عليه و آله القرآن بأنّه سببٌ أحد طرفيه بيد اللَّه والطرف الآخر بيد الناس، ومثله توصيفه بأنّه حبل ممدود من السماء إلي الأرض، ممّا يدلّل على أنّ الموصوف بالثقل الأكبر هو الدرجات الغيبية، كروح القدس وأُمّ الكتاب، وهي الطرف الذي بيد اللَّه، فتكرار هذا الوصف بأنّ له طرفان تأكيد على كون أنّ وصف الأكبرية هي بلحاظ الطرف الذي بيد اللَّه.

ثالثاً: إنّه ورد في عدّة طرق من ألفاظ الحديث الشريف أنّهما لن يفترقا كاصبعي هاتين وجمع صلى الله عليه و آله بين سبابتيه، وليس كهاتين وجمع صلى الله عليه و آله بين سبابته والوسطى، وعلّل صلى الله عليه و آله ذلك لئلّا يفضل أحدهما على الآخر ممّا يقضي بالتساوي، وأنّ الأكبرية هي بلحاظ الطرف الذي بيد اللَّه.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۷۶

رابعاً: إنّه قد ورد في ألفاظ الحديث وصف مجموع الثقلين بأنّه حبل اللَّه الممدود بينه وبين خلقه، ممّا يقضي بأنّ مجموع الثقلين هما حبل واحد باطنهما متّحد كحبل نوري واحد.

وقد تقدّم دلالة الآيات المتعرّضة لحقيقة ليلة القدر وإنزال روح القدس على العترة المطهّرة وتأييد أرواحهم به، كما في قوله تعالى: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» «۱»

، وغيرها من الآيات.

ففي ما رواه النعماني في الغيبة من قوله صلى الله عليه و آله: «ألا وأنّي مخلّف فيكم الثقلين: الثقل الأكبر القرآن، والثقل الأصغر عترتي أهل بيتي، هما حبل اللَّه ممدود بينكم وبين اللَّه عزّوجلّ، ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا، سببٌ منه بيد اللَّه وسببٌ بأيديكم، إنّ اللطيف الخبير قد نبّأني أنّهما لن يفترقا حتّي يردا عليّ الحوض كاصبعي هاتين- وجمع بين سبابتيه- ولا- أقول كهاتين وجمع بين سبابته والوسطى فتفضل هذه على هذه» «۲»

وصفٌ في لفظ هذا الطريق لكلٍّ من الثقلين بأنّهما حبل اللَّه الممدود، كما وصف صلى الله عليه و آله أنّ كلّاً من الثقلين طرف منه بيد اللَّه وطرف منه بيد الناس، كما أنّه صلى الله عليه و آله قرنهما بجمع السبابتين لا بجمع السبابة والوسطى؛ لئلّا تفضل هذه على هذه.

فكلّ ذلك يؤكّد أنّ الأكبرية هي بلحاظ الطرف الغيبي في كلّ من المصحف والعترة ممّا ينتهي إلى يد اللَّه وقدرته، ويزيدك وضوحاً في هذا المعنى أنّه قد ورد مستفيضاً وصف عليّ والعترة بأنّهم حبل اللَّه، نظير ما رواه النعماني أيضاً وبسنده عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: «كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ذات يوم جالساً ومعه أصحابه في المسجد، فقال: يطلع عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنّة يسأل عمّا يعني. فطلع رجل طوال يشبه برجال مضر، فتقدّم وسلم على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقال: يا رسول اللَّه، إنّي

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۷۷

سمعت اللَّه عزّوجلّ صلى الله عليه و آله يقول فيما أنزل: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» «۱»

، فما هذا الحبل الذي أمرنا اللَّه بالاعتصام به وأن لا نتفرّق عنه؟ فأطرق رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ملياً ثمّ رفع رأسه وأشار بيده

إلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام وقال: هذا حبل اللّه الذى من تمسّك به عُصم فى دنياه ولن يضلّ به فى آخرته. فوثب الرجل إلى علىّ عليه السلام فاحتضنه من وراء ظهره وهو يقول: اعتصمت بحبل اللّه وحبل رسوله، ثمّ قام فولّى وخرج» «۲»

.وقد عقد النعمانى باباً خاصّاً «۳» فى ذلك، كما روى غيره من المحدّثين من الخاصّة والعامّة مثل ذلك. «۴»

وهذه الأحاديث المستفيضة أو المتواترة شاهدة على أنّ وصف الحبل فى حديث الثقلين هو لمجموع الثقلين، والحبل كناية أنّ الثقلين لهما امتداد ممدود من عند اللّه فى النشأة الغيبية إلى أن يصل ممتدّاً إلى ما هو ظاهر بين يدى الناس وهو المصحف والعترة، كما أنّ توصيف جملة من الأحاديث فى الثقل الأصغر كالذى رواه فى العدد القوية من قوله صلى الله عليه و آله: «معاشر الناس، أنّ عليّاً والطيبين من ولده هو الثقل الأصغر، والقرآن هو الثقل الأكبر» «۵».

ومثل ما رواه ابن طاوس فى اليقين عن علىّ عليه السلام قوله: «يا ابن عبّاس، ويلٌ لمن ظلمنى ودفع حقّى وأذهب عنّى عظيم منزلتى، أين كانوا أولئك وأنا أُصلّى مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله صغيراً لم يكتب علىّ صلاة، وهم عبدة الأوثان وعصاة الرحمن ولهم يوقد

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۷۸

النيران؟! فلمّا قرب إصعار الخدود واتعاس الجدود أسلموا كرهاً وأبطنوا غير ما أظهروا؛ طمعاً فى أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم، وتربّصوا انقضاء أمر رسول اللّه وفناء مدّته، لمّا أطمعوا أنفسهم فى قتله ومشورتهم فى دار ندوتهم قال اللّه عزّوجلّ: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» «۱»

و: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» «۲».

ولولا اتّقائى على الثقل الأصغر أن يُبيد فينقطع شجرة العلم وزهرة الدنيا وحبل اللّه المتين وحصنه الأمين ولد رسول ربّ العالمين»... الحديث «۳».

وروى ابن طاوس فى التحصين بسنده.. قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «يا معاشر الناس، أمرنى جبرئيل عليه السلام عن اللّه تعالى.. أن أعلمكم أنّ القرآن الثقل الأكبر، وأنّ وصيىّ هذا وابناى ومن خلفهم من أصلابهم حاملًا وصاياهم الثقل الأصغر، يشهد الثقل الأكبر للثقل الأصغر، ويشهد الثقل الأصغر للثقل الأكبر، كلّ واحد منهم ملازم للآخر..» «۴».

وأخرج فى البحار عن ... بسنده عن الكاظم، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، عن النبىّ صلى الله عليه و آله فى حال مرضه، قال ...: «أصحاب الكساء الخمسة، أنا سيدهم ولا فخر، عترتى أهل بيتى السابقون المقرّبون يسعد من اتّبعهم ... اسودّت وجوه قوم وردوا ظماء مظمّئين إلى نار جهنّم، مزّقوا الثقل الأوّل الأعظم وأخّروا الثقل الأصغر، حسابهم على اللّه» «۵».

وما روى المجلسى فى البحار ... «قال أمير المؤمنين: يا كميل نحن الثقل الأصغر والقرآن الثقل الأكبر وقد أسمعهم رسول اللّه..» «۶».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۷۹

وكذلك روى المجلسى فى البحار: «ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر وركزت فيكم الإيمان؟» «۱».

وهذا النمط من ألفاظ حديث الثقلين هو الآخر فيه جملة من القرائن الدالّة على أنّ نعت الأكبر أو الأعظم هو ليس مقتصر على المصحف الشريف، بل هو نعت للكتاب والقرآن، وهو اسمان كما تقدّم- صادقان فى الدرجة الأولى على الوجود الغيبى للقرآن، وهو أُمّ الكتاب والكتاب المبين واللوح المحفوظ وروح القدس، ومن مراتبه النازلة المصحف الشريف، وهذه المراتب العالية كما هى متنزّلة فى ألفاظ المصحف الشريف بنحو الوجود اللفظى وفى معانيه بطور عالم المعانى، فهو متنزّل أيضاً أى روح القدس- بحقيقته ووجود التكوينى لا الاعتبارى على العترة كما تقدّم مبسوطاً فى دلالة الآيات والروايات من الفريقين على ذلك.

وهذا التنزّل يجعل من العترة قرآناً ناطقاً، بينما المصحف الشريف قرآناً صامتاً يستنطق أى فى مقام التطبيق للإرادات الإلهية فى الموارد والحوادث الواقعة حين بعد حين إلى يوم القيامة، وهو أحد معانى التأويل، ويكون تطبيق العترة بنطق قرآنى وإشراف من روح القدس

الذی هو حقیقة القرآن، بخلاف المصحف الشریف فإنّ أخذ الأمّة به لتطبیقه من دون العترة استنطاق منهم ظنّی، وتطبیق ظنّی أیضاً. فنعت الأکبر صفة للحبل الممدود من اللّه، طرفه بیده وتنزّله منشعب إلی المصحف والعترة الطاهرة. ومن القرائن التی تقدّمت من الروایات أیضاً أنّ أمیر المؤمنین مع وصفه للعترة بالثقل الأصغر إلّاأنّه وصفهم أیضاً بشجرة العلم وحبل

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۸۰

اللّه المتین، وهو تأکید علی أنّ التسمیة بالثقل الأصغر هو فی مقابل الکتاب فی درجاته العالیة، کأُمّ الکتاب واللوح المحفوظ وروح القدس، ولأجل تنزّله علیهم وراثةً عن رسول اللّه وصفوا بأوصاف الثقل الأکبر، وهو کونهم حبل اللّه المتین، مع أنّ الحبل ذو طرفین کما مرّ. وکذلک وصفهم بشجرة العلم فإنّه للدلالة علی الامتداد من الأرض إلی سماء الغیب، فالنعت بالأصغر بلحاظ أنّهم أوعیة لنزول القرآن، وهم قرآن ناطق بلحاظ أنّ النازل علیهم هو الأکبر.

ومن القرائن أیضاً: أنّ الثقل الأوّل الأعظم الذی مزّق لیس المراد منه مجرّد المصحف الشریف، إنّما یُراد منه عدم العمل بالکتاب، وقد تقدّم أنّ التطبیق الوحیانی للکتاب إنّما یحصل بتوسّط العترة بتنزّل روح القدس. نعم، یبقی لتطبیق المصحف بحدود دائرة المحکمات فی حال کون الموارد والحوادث بیّنة الوجه أنّه تطبیق یقینی.

روی العیاشی عن إسحاق بن عمّار عن أبی عبد اللّه علیه السلام، قال: «إنّما مثل علیّ علیه السلام ومثلنا من بعده من هذه الأُمّة کمثل موسی علیه السلام والعالم حین لقیه واستنطقه وسأله الصحبة، فکان من أمرهما ما اقتصّه اللّه لنبیّه صلی الله علیه و آله فی کتابه، ذلک أنّ اللّه قال لموسی: «إِنِّی اصْطَفَیْتُکَ عَلَی النَّاسِ بِرِسَالَاتِی وَبِکَلَامِی فَخُذْ مَا آتَیْتُکَ وَکُنْ مِنَ الشَّاکِرِینَ» «۱»

، ثمّ قال: «وَکَتَبْنَا لَهُ فِی الْأَلْوَاحِ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِیلًا لِکُلِّ شَیْءٍ» «۲»

، وقد کان عند العالم علم لم یُکتب لموسی فی الألواح، وکان موسی یظنّ أنّ جمیع الأشیاء التی یحتاج إلیها فی تابوته وجمیع العلم قد کُتب له فی الألواح، کما یظنّ هؤلاء الذین یدّعون أنّهم فقهاء وعلماء وأنّهم قد أثبتوا جمیع العلم والفقه فی الدین ممّا تحتاج هذه الأُمّة إلیه وصحّ لهم عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله وعلموه وحفظوه.

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۸۱

ولیس کلّ علم رسول اللّه صلی الله علیه و آله علموه ولا صار إلیهم عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله ولا عرفوه؛ وذلک أنّ الشیء من الحلال والحرام والأحکام یرد علیهم فیُسألون عنه ولا یکون عندهم فیه أثر عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله، ویستحون أن ینسبهم الناس إلی الجهل، ویکرهون أن یُسألوا فلا یجیبوا فیطلب الناس العلم من معدنه.

فلذلک استعملوا الرأی والقیاس فی دین اللّه، وترکوا الآثار ودانوا اللّه بالبدع، وقد قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: کلّ بدعة ضلالة، فلو أنّهم إذا سُئلوا عن شیء من دین اللّه فلم یکن عندهم منه أثر عن رسول اللّه ردّوه إلی اللّه وإلی الرسول وإلی أُولی الأمر منهم، لعلمه الذین یستنبطونه منهم من آل محمّد صلی الله علیه و آله.

والذی منعهم من طلب العلم منّا العداوة والحسد لنا. لا واللّه ما حسد موسی علیه السلام العالم، وموسی نبیّ اللّه یوحی اللّه إلیه حیث لقیه واستنطقه وعرفه بالعلم، ولم یحسده کما حسدتنا هذه الأُمّة بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله علی ما علمناه وما ورثناه عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله، ولم یرغبوا إلینا فی علمنا کما رغب موسی علیه السلام إلی العالم وسأله الصحبة لیتعلّم منه ویرشده، فلمّا أن سأل العالم ذلک علم العالم أنّ موسی علیه السلام لا یستطیع صحبته ولا یحتمل علمه ولا یصبر معه، فعند ذلک قال العالم: «کَیْفَ تَصْبِرُ عَلَی مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا» «۱».

فقال موسی علیه السلام له وهو خاضع له یستعطفه علی نفسه کی یقبله «سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِی لَکَ أَمْرًا» «۲»

، وقد کان العالم یعلم أنّ موسی علیه السلام لا یصبر علی علمه، فکذلک واللّه یا إسحاق بن عمّار حال قضاة هؤلاء وفقهائهم وجماعتهم الیوم لا یحتملون واللّه علمنا، لا یقبلوه ولا یطیقونه ولا یأخذون به ولا یصبرون علیه کما لم یصبر موسی علیه السلام علی

علم العالم حين صحبه ورأى ما رأى من علمه، وكان ذلك عند

الامامة الالهية(۵)، ج٣، ص: ٣٨٢

موسى عليه السلام مكروهاً وكان عند اللّه رضاً وهو الحقّ، وكذلك علمنا عند الجهلة مكروه لا يؤخذ وهو عند اللّه الحقّ» «١».

يشير الإمام عليه السلام في هذه الرواية إلى أنّ العلم بالكتاب المبين ليس هو مجرّد العلم بالمصحف الشريف كي يظنّ من ألمّ بالمصحف الشريف أنه قد استغنى عن علم أهل البيت عليهم السلام، مع أنّ الإحاطة بكلّ المصحف ومحتملاته وتناسبات الآيات مجموعها ضمن منظومة مترامية لا تقف عند حدٍّ مفاداً وعدداً.

وبعبارة أُخرى: أنّه وصف القرآن في أمّ الكتاب وفي اللوح المحفوظ والكتاب المبين وروح القدس بأوصافٍ تختلف عن أوصاف المصحف الشريف، ومن ذلك يتبيّن أنّ نعت الأكبرية للثقل إنّما هي بلحاظ الكتاب المبين وأمّ الكتاب واللوح المحفوظ، لا بلحاظ مجرّد المصحف الشريف.

ومن الواضح أنّه لا- سبيل للناس في الوصول إلى ما في الكتاب المبين وأُمّ الكتاب واللوح المحفوظ إلّاعن طريق أهل البيت الذين يحيطون بذلك ويمسّونه، لا الاقتصار على مجرّد المصحف الشريف، وقد ذكر في المصحف الشريف أوصاف الكتاب المبين كما ذكر نعت من يحيط به علماً.

أمّا النعت الأوّل كقوله تعالى: «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» «٢»

، ممّا يدلّ على إحاطة الكتاب بكلّ شيء، وهذا وصف القرآن بالكتاب المبين. وكذلك قوله تعالى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «٣»

، وقوله تعالى: «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

الامامة الالهية(۵)، ج٣، ص: ٣٨٣

السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «١».

وقوله تعالى: «يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» «٢»

، وقوله تعالى:

«وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً» «٣»

، وقوله تعالى: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» «۴»

، وقوله تعالى: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» «۵»

، وأثر التصدع إنّما هو نعت لذلك الوجود من القرآن الكريم، وقوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى» «۶»

، فنعت قدرة تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى وصف للقرآن بلحاظ ذلك الوجود، ومن الواضح أنّ نعت الأكبر مناسب وأنسب لهذا المقام من القرآن، وأنّ المصحف الشريف والعترة الطاهرة هما السبب الذي بيد الناس من الحبل المتين الممدود، والطرف الآخر من هذا الحبل الذي بيد اللّه هو أُمّ الكتاب والكتاب المبين واللوح المحفوظ وروح القدس، والنعت بالأكبر هو بلحاظ الطرف الذي بيد اللّه، وبالأصغر الطرف الذي بيد الناس، ومن المعلوم تنزّل هذا الأكبر بنحوٍ ينطق في الحوادث، ويكون نزولًا وتنزيلًا لكلّ مورد وحدث بنحو وحياني لدني لا- يحتمل الخطأ والزلل، إنّما هو بتوسّط العترة، وإن كانت محكمات المصحف باقية على وصف أنّها تنزّل لأُمّ الكتاب.

أمّا النعت الثاني وهو ورود القرآن بنعت من يحيط بأُمّ الكتاب والكتاب المبين واللوح المحفوظ وروح القدس، كما في قوله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۸۴

مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «۱»

، والمطهّرون الذين شهد لهم القرآن بالطهارة وهم أهل آية التطهير «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً» «۲»

، وعرّفهم تعالى فى آية أُخرى حيث قال:

«بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» «۳».

وهذه الآية تفسّر قوله تعالى المتقدّم: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ» «۴»

، حيث إنّ الآية الكريمة تصرّح بأنّ الكتاب بجملته آيات بينات فى صدورهم، مع أنّ المصحف الشريف نعت بأنّ منه آيات محكمات وأُخر متشابهات، بينما وصف الكتاب الذى فى صدورهم بأنّه بتمامه آيات بينات.

وروى الكلينى بسند معتبر عن الحسن بن العبّاس بن الحريش، عن أبى جعفر الثانى عليه السلام، قال: «قال أبو عبد اللَّه عليه السلام: بينا أبى عليه السلام يطوف بالكعبة إذ رجل معتجر قد قيض له».

ثمّ ذكر مسائلة إلياس النبىّ للإمام الباقر عليه السلام عن حقيقة علم سيد الأنبياء وعلم أوصياءه، وحقيقة العلم المتنزّل ليلة القدر من أُمّ الكتاب والكتاب المبين، وأنّه يتنزّل على الوصىّ حجّة اللَّه فى أرضه، حيث قال الباقر عليه السلام: «أبى اللَّه عزّوجلّ بعد محمّد صلى الله عليه و آله أن يُترك العباد ولا حجّة عليهم، قال أبو عبد اللَّه عليه السلام: ثمّ وقف فقال:ها هنا يا ابن

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۸۵

رسول اللَّه بابٌ غامضٌ، أرأيت إن قالوا: حجّة اللَّه القرآن؟ أى المصحف قال: إذن أقول لهم إنّ القرآن ليس بناطق يأمر وينهى، ولكن للقرآن أهلٌ يأمرون وينهون، وأقول: قد عرضت لبعض أهل الأرض مصيبة ما هى فى السنّة والحكم الذى ليس فيه اختلاف وليست فى القرآن- أى المصحف- أبى اللَّه لعلمه بتلك الفتنة أن تظهر فى الأرض وليس فى حكمه رادّ لها ومفرّج عن أهلها، فقال:ها هنا تفلجون يا ابن رسول اللَّه الفتنة أن تظهر فى الأرض ... أشهد أنّ اللَّه عزّ ذكره قد علم بما يصيب الخلق من مصيبة أو فى أنفسهم من الدين أو غيره فوضع القرآن دليلًا قال فقال الرجل هل تدرى يا ابن رسول اللَّه دليل ما هو قال أبو جعفر عليه السلام نعم فيه جمل الحدود وتفسيرها عند الحكم فقال أبى اللَّه أن يصيب عبداً بمصيبة فى دينه أو فى نفسه أو فى ماله ليس فى أرضه من حكمه قاض بالصواب فى تلك المصيبة قال فقال الرجل أما فى هذا الباب فقد فلجتهم بحجة الا أن يفترى خصمكم على اللَّه فيقول ليس للَّهجلّ ذكره حجة» «۱».

فبين عليه السلام أنّ حجّية المعصوم الناطق مهيمنة رتبةً على حجّية المصحف.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۸۷

على مَنْ يتنزّل الروح والملائكة فى ليلة القدر ...؟ ص: ۳۸۷

اشارة

لا ريب أنّ ليلة القدر كانت تتنزّل على خاتم الأنبياء، كما هو نصّ القرآن الكريم فى قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ» «۱»

، أى أنزلنا القرآن، وكذا سورة الدخان من قوله تعالى: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» «۲»

، وقوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» «۳»

، وهو النزول لجملة القرآن وحقيقته كما تقدّم بيانه، والذى هو الروح النازل ليلة القدر روح القدس، كما أنّه بمقتضى روايات

الفريقين التى مرّ استعراضـها كانت تتنزّل على الأنبياء السابقين منذ آدم عليه السـلام إلى نبيّنا صـلى الله عليه و آله، وهو مقتضـى الأدلّة العقليـة، حيث إنّ عالم ولوح القضاء والقـدر وإمضائه فى عالم الـدنيا ونشأة الأرض وعالم المادّة الغليظـة لابدّ أن يطوى هذه المراحل، فهـذه السلسـلة التكوينيـة من العوالم كما هو محرّر فى مباحث الحكمة الإلهية لا يختصّ بزمان دون آخر، بل هو من السـنن الإلهية فى عوالم الخلقة، فمقتضاها الاسـتمرار من بدء الخلقة البشرية إلى يوم القيامة، فهذا الدليل العقلى يقضى باستمرار وجود من تتنزّل عليه ليلة القدر إلى يوم القيامة بعد سيد الأنبياء، وهذا المعنى هو الذى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۸۸

نشاهـده بوضوح من دلالـة النصّ والسور القرآنيـة العديـدة كحقيقـة قرآنيـة بيّنة، وكذلك فى روايات الفريقين كما مرّت الإشارة إلى ذلك.

أمّا الآيات القرآنية الدالّة على الاسـتمرار، فمضافاً إلى الضـرورة بين المسـلمين على استمرار ليلة القدر، يقع الكلام فى معرفة من تتنزّل ليلة القدر عليه بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟ فهنا جانبان من البحث:

الأوّل: فى استمرار ليلة القدر.

الثانى: على من تتنزّل ليلة القدر بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟

والآيات تفيـد كلا الجانبين، كقوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَـةِ الْقَـدْرِ* وَمَا أَدْرَاکَ مَا لَيْلَـةُ الْقَـدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَـهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» «۱»

، فالتعبير بتنزّل- جملـة فعليـة بالفعل المضارع الدالّة على الاسـتمرار، وكذا قوله فى سورة الدخان: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» «۲»

، بنفس التقريب المتقـدّم، فإنّه قـد وصف الليلـة المباركـة التى يتنزّل فيها بالجملـة الفعليـة بالفعل المضارع، وإنّ شأن هـذه الليلـة على الدوام أن يُفرق فيها كل أمر حكيم، وأن يُرسل فيها الروح إلى من يصطفيه اللّه من عباده فى الأرض.

نزول الروح وحىٌ ربانى ...: ص: ۳۸۸

وأمّا الثانى: كما أنّ نزول الروح والملائكة من كلّ أمر أى بكلّ أمر يقتضـى وجود من تُرسل إليه تقادير الأُمور، إذ لا يعقل إرسال من دون مرسل إليه بعد تصريح سورة الدخان وغيرها بإنّه إرسال كما هو إنزال، وتصريحها بالمرسل به

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۸۹

والمرسل، فلابدّ من وجود مرسل إليه، مع أنّ الآيات الأُخرى صرّحت بالمرسل إليه.

وبعبـارة أُخرى: إنّ نزول الروح فى اسـتعمال القرآن هو نمـط من الوحى الإلـهى فى القرآن الكريم ومصـطلح قرآنى دالّ على الوحى، وإن كانت أقسام الوحى الإلهى فى القرآن الكريم غير منحصـرة بالوحىّ النبوى، كما فى مورد مريم وأُمّ موسـى وذى القرنين وطالوت وصاحب موسـى الخضـر- وغيرها من الموارد، ويشـير إلى ذلك قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ» «۱»

، فلم يخصِّص التكليم الإلهى بالأنبياء والرُسل، بل عمّم إلى المصـطفَين والحجـج من البشـر، كما هو الحال فى مريم وأُمّ موسـى، وقد عبّر عن الوحى بنزول الروح فى قوله تعالى:

«قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ» «۲»

، وقوله تعالى: «نَزَلَ بِهِ أَلرُّوحُ أَلْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِکَ» «۳»

، وإن كانت هـذه الآيـة تشـير إلى النزول الثانى للقرآن وهو تنزيل المعانى والألفاظ، لكنّه تعبير عن الوحى، وكـذا قوله تعالى: «قُلْ مَنْ

کَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِکَ بِإِذْنِ اللَّهِ» «۴»

، فنزول الروح اصطلاح قرآنی للوحی وإن لم یکن وحیاً نبویاً.

وهـذا یعنی أنّ فی لیلـة القـدر من کـلّ عـام یقع هـذا الوحی الإلـهی والنزول، ومن ثمّ عـبّر تعـالی فی سورة الـدخان: «حم* وَالْکِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَکَةٍ إِنَّا کُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا کُنَّا مُرْسِلِينَ» «۵»

بالإرسال، أی أنّ هذا الروح الأمری مرسل من قبله تعالی إلی مُرسَل إلیه من

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۹۰

البشر، کما فی ذیل آیة الشوری من قوله تعالی: «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ» «۱»

، فسورة الـدخان أیضاً تـدلّ علی أنّ فی لیلة القدر هناک وحی إلهی عبّرت عنه بالقول: «إِنَّا کُنَّا مُرْسِلِينَ»، وکذلک فی قوله تعالی فی سورة النحل: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِکَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ» «۲»

، فصرّحت الآیة الکریمة بأنّ نزول الروح هو علی من یشاء اللَّه أی من یصطفیه لذلک من العباد من دون التقیید بالنبوّة.

فهـذا النزول للروح هو وحی وهو نازل علی من یشاء ویصـطفیه من عباده، وکذا قوله تعالی فی سورة غافر: «ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» «۳»

، وإلقاء الروح الأمری عبارة عن نزوله وإرساله، نظیر التعبیر بقوله تعالی: «وَکَذَلِکَ أَوْحَيْنَا إِلَيْکَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا» «۴»

وجعل فی الآیة الملقی إلیه الروح هو من یشاء ویصـطفی من عباده من دون التقیید بعنوان النبوّة والرسالة والاصطفاء، فقد تعلّق بمریم، کما تعلّق بطالوت الإمام غیر النبیّ فی سورة البقرة فی قوله تعالی: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْکُمْ» «۵».

قوله تعـالی: «وَکَـذَلِکَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـکَ رُوحًـا مِنْ أَمْرِنَـا مَا کُنْتَ تَـدْرِي مَا الْکِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَکِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْـدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» «۶»

الضـمیر فی (جعلناه نوراً) الظاهر عوده إلی الروح الأمری؛ إذ لو کان یعود إلی الروح الذی هو مبتدء الکلام فی الآیة ویکون المراد أنّ الروح الأمری یجعله اللَّه نوراً ویوحی ویهدی به من یشاء من عباده ویصطفیهم لذلک فیحصل لهم العلم ودرایة الکتاب والإیمان.

والحاصل: أنّ تعمیمه تعالی إلی من یوحی إلیه الروح الأمری غیر النبیّ صلی الله علیه و آله

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۹۱

یـدلّ علی عموم ظرف الإیحاء للحجـج المصـطفین من العبـاد الإیحـاء والوحی به، وقـد قرّر فی روایـات الفریقین کما هو ظاهر سورة القـدر والـدخان أنّ هـذا الوحی غیر مرتبط بوحی النبوّة والرسالة، وإنّما هو وحی إلهی مرتبط بتقدیر الأُمور وقضائها وإبرامها الذی هو من تأویـل الکتـاب، وقـد عبّر فی سورة النحـل بأنّ هـذا النزول والوحی الإلهی غیر النبویّ هو علی من یشاء من عباده، فعبّر بلفظ عباده ولم یؤت بلفظ أنبیائه أو رسله؛ للدلالة علی العموم عموم المصطفَین الذین اختارتهم المشیئة الإلهیة لذلک.

ومقتضـی ذلک وجود ثلّة فی هـذه الأُمّة بعد رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله تتنزّل علیهم الروح لیلة القدر، وقد أُشـیر إلیهم فی سورة الواقعة والأحزاب حیث قال تعالی: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِيمٌ* فِي کِتَابٍ مَکْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «۱»

، فأخبر أنّ القرآن الذی فی الکنّ محفوظ کما فی سورة البروج من قوله تعالی: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ* فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» «۲»

، فـأخبر تعـالی أنّ القرآن الـذی فی اللوح المحفوظ والکتـاب المکنون لاـ یمسّه ولاـ یصـل إلیه إلّـاالمطهّرون، لا المتطهّرون بالوضوء والغسل بل المطهّرون من قبله تعالی بنصّ آیـة التطهیر فی سورة الأحزاب: «إِنَّمَا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُـذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُکُمْ تَطْهِيراً» «۳».

فیتبیّن من ضمّ الآیـات بعضـها إلی بعض أنّ من یتنزّل علیه الروح الأـمری من یشـاء اللَّه ویصـطفیه من عباده کما فی سورة النحل وهم أهل آیة التطهیر، فإنّهم یمسّون الکتاب فی لیلة القدر فی اللیلة المبارکة.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۹۲

نسب النبیّ صلی الله علیه و آله وأهل بیته هو سورة القدر ...: ص: ۳۹۲

حیث یتبیّن ممّا مضی أنّ روح القدس الذی هو القرآن الکریم کما هو ملتحم بروح النبیّ صلی الله علیه و آله کذلک ملتحم بروح أوصیاء النبیّ صلی الله علیه و آله من بعده واحد بعد آخر، حیث یتنزّل علیهم الروح لیلة القدر، بل أنّ ظاهر سورة النحل عدم اختصاص التنزّل علیهم بلیلة القدر، وقد أشارت إلی ذلک جملة من الروایات عنهم علیهم السلام، فهذا النزول والوحی بهذا الروح لهم هو المعرّف لهویتهم ونسبهم الروحی لشخصیة ذواتهم ونسب مقام ذاتهم علیهم السلام.

فی صحیحة ابن أُذینة التی رواها الکافی عن أبی عبداللَّه علیه السلام فی صلاة النبیّ صلی الله علیه و آله فی السماء فی حدیث الإسراء، قال علیه السلام: «ثمّ أوحی اللَّه عزّوجلّ إلیه: إقرأ یا محمّد نسبة ربّک تبارک وتعالی: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* أَللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ یَلِدْ وَلَمْ یُولَدْ* وَلَمْ یَکُنْ لَهُ کُفُوًا أَحَدٌ» «۱»

، وهذا فی الرکعة الأُولی ... ثمّ أوحی اللَّه عزّوجلّ إلیه إقرأ بالحمد للَّه، فقرأها مثل ما قرأ أوّلًا، ثمّ أوحی اللَّه عزّوجلّ إلیه إقرأ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» فإنّها نسبتک ونسبة أهل بیتک إلی یوم القیامة» «۲»

، وروی مثله فی علل الشرائع، وغیرها من الروایات.

فهذا التعریف لهویة النبیّ صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام هو نظیر تعریف الإنسان بالنطق الذی هو الروح العاقل، أی تمییز وتعریف الشخص بالمراتب العالیة الوجودیة من ذاته، ونظیر ذلک تعریف القرآن النبیّ عیسی علیه السلام بأنّه کلمة اللَّه وأنّه آیة، لکن لا یخفی أنّ فی آیات خلقة النور فی سورة النور و روایات خلق النور یظهر أن أُصول ذواتهم خلقا ما هو أرفع من روح القدس.

وفی روایة بصائر الدرجات عن محمّد بن سلیمان الدیلمی، عن أبیه، عن أبی

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۳۹۳

عبداللَّه علیه السلام فی حدیث عن ولادة الإمام علیه السلام وما یرافق ذلک من مراسم ملکوتیة وأنّ الإمام علیه السلام یقول بعد ذلک: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِکَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» «۱»

، فإذا قالها أعطاه العلم الأوّل والعلم الآخر، واستحقّ زیادة الروح فی لیلة القدر «۲».

وروی عن الحسن بن عبّاس بن حریش، قال: «قال أبوعبداللَّه علیه السلام: إنّ القلب الذی یعاین ما ینزل فی لیلة القدر لعظیم الشأن. قلت: وکیف ذاک یا أبا عبد اللَّه؟ قال: یُشق واللَّه بطن ذلک الرجل ثمّ یؤخذ ویکتب علیه بمداد النور ذلک العلم، ثمّ یکون القلب مصحفاً للبصر، ویکون الأذن واعیةً للبصر، ویکون اللسان مترجماً للأذن، إذا أراد ذلک الرجل علم شیء نظر ببصره وقلبه فکأنّه ینظر فی کتاب».. الحدیث «۳».

والمراد من شقّ البطن أی انفتاح نوافذ الروح، وقریب من ذلک ما روی فی معانی الأخبار بسنده إلی الأصبغ بن نباتة، قال: قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «یا علی، أتدری ما معنی لیلة القدر؟ فقلت: لا یا رسول اللَّه، فقال: إنّ اللَّه تبارک وتعالی قدّر فیها ما هو کائن إلی یوم القیامة، وکان فیما قدّر عزّوجلّ ولایتک وولایة الأئمّة من ولدک إلی یوم القیامة» «۴»

. وروی مثلها بإسناده المتّصل عن المفضّل بن عمر عنه علیه السلام.

فکون الروح النازل وهو روح القدس وهو أحد أرواحهم علیهم السلام یبیّن هویة ولایتهم والتی هی الکتاب المبین، وقد تقدّم نعوت الکتاب المبین وآثار القدرة والولایة التکوینیة له، ووصفه بالمجد فی سورة البروج والکرامة فی سورة الواقعة، إشارة إلی آثار القدرة لحقیقة الکتاب التی هی روح القدس.

وفی صحیحة جابر الجعفی، قال: قال أبوعبداللَّه علیه السلام فی حدیث عن أصناف

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۳، ص: ۳۹۴

الخلق: «فالسابقون هم رسول اللَّه وخاصّهٔ اللَّه من خلقه، جعل فيهم خمسهٔ أرواح: أيدهم بروح القدس فبه عرفوا الأشياء، وأيدهم بروح الإيمـان فبه خـافوا اللَّه عزّوجـلّ، وأيـدهم بروح القـوّهٔ فبه قـدروا على طاعـهٔ اللَّه، وأيـدهم بروح الشـهوهٔ فبه اشـتهوا طاعـهٔ اللَّه عزّوجلّ وكرهوا معصيته، وجعل فيهم روح المدرج الذى به يذهب الناس ويجيئون» «۱».

وفى روايـهٔ أُخرى لجـابر عن أبى عبـداللَّه عليه السـلام، قال: «سألته عن علم العالم؟ فقال لى: يا جابر، إنّ فى الأنبياء والأوصـياء خمسـهٔ أرواح: روح القـدس وروح الإيمان وروح الحياهٔ وروح القوهٔ وروح الشـهوهٔ، فبروح القدس يا جابر عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى. ثمّ قال: يا جابر، إنّ هذه الأربعهٔ أرواح يصيبها الحدثان إلّاروح القدس فإنّها لا تلهو ولا تلعب» «۲».

وفى روايـهٔ المفضّـل بن عمر عن أبى عبـداللَّه عليه السـلام: «سـألته عن علم الإمام بما فى أقطار الأرض وهو فى بيته مرخى عليه ستره؟ فقال: يا مفضّل، إنّ اللَّه تبارك وتعالى جعل فى النبىّ صـلى الله عليه و آله خمسـهٔ أرواح ...: وروح القـدس فبه حمل النبوّهٔ فإذا قُبض النبىّ صـلى الله عليه و آله انتقل روح القـدس فصار إلى الإمام، وروح القـدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو والأربعهٔ الأرواح تنام وتغفل وتزهو وتلهو، وروح القدس كان يُرى به» «۳».

وهـذه النعوت لروح القدس المذكورهٔ فيهم وهو النازل عليهم ليلهٔ القدر، بل وفى غيرها أيضاً كما هو مقتضـى سورهٔ النحل «۴» وسورهٔ غافر «۵»، حيث لم يقيّد إنزاله بوقت خاصّ، وروح القدس النازل الملتحم بأرواحهم المتّصل بها كما هو

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۳، ص: ۳۹۵

معنى الوحى فى الحكمهٔ والعلوم العقليهٔ، قد عرّف وطوبق فى سورهٔ الدخان بالكتاب المبين: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» «۱»

، فجُعل الكتاب المبين هو الروح النازل فى ليلهٔ القدر.

وقد تقدّم وصف الكتاب المبين بأنّه يُسـتطرّ فيه كلّ شـىء وكلّ غائبهٔ فى السماوات والأرض وكلّ صغيرهٔ وكبيرهٔ، وهو القرآن الكريم فى الكتـاب المكنون والقرآن المجيـد فى اللوح المحفوظ، وهـذا معنى قوله عليه السـلام: «فبه حمـل النبوهٔ»، وقوله عليه السـلام: «كان يُرى به»، أى ما فى أقطار الأرض وما فى عنان السماء وما دون العرش وما تحت الثرى، وقوله عليه السلام: «فبه عرفوا الأشياء».

روح القدس وراثتهم عليه السلام للكتاب وعلوم النبىّ صلى الله عليه و آله ...: ص: ۳۹۵

فقوله عليه السـلام فى الروايـهٔ السابقـهٔ للمفضّل عن أبى عبـداللَّه عليه السـلام: «إذا قُبض النبىّ صـلى الله عليه و آله انتقل روح القـدس فصار إلى الإمام»، هو معنى وراثتهم عليهم السـلام للكتاب أى لحقيقهٔ الكتاب الذى هو مكنون ولوح محفوظ، لا للمصـحف الشـريف الـذى هو الوجود المنقوش للقرآن الكريم، فقوله تعالى: «وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَـدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِـيرٌ* ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْـطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» «۲»

يشـير إلى الوراثـهٔ التكوينيهٔ لحقيقهٔ الكتاب بوجوده الوحيانى فى عالم الوحى، لا الكتاب بوجوده المنقوش فى المصـحف، من هنا فإنّ تخصيص الوراثهٔ بالمصطفَين من العباد، فإنّ الإصطفاء هو الطهارهٔ الروحيهٔ الخاصّهٔ اللدنيهٔ

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۳، ص: ۳۹۶

التى يتأهّـل بهـا المصـطفون من العباد للوحى الإلهى الأعمّ من الوحى النبوىّ وغيره، كما فى تأهّل مريم لمحادثـهٔ الملائكـهٔ لها ووحى اللَّه لها مباشرهٔ، كما فى سورهٔ آل عمران.

ومن ثمّ ترى نسق التعبير والتركيب فى الآيـهٔ الكريمـهٔ على نسق التعبير فى سورهٔ النحـل: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ» «۱»

، فـالتعبير فيهـا على من يشاء من عباده أى من يختار ويصـطفى، فوراثـة الكتاب نزول الروح وهى وحى حقيقـة الكتاب، كما فى سورة الشورى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ» «۲»

، وكـذلك يتنـاغم التعبير بين كلّ من آيـة فاطر وآيـة النحل وآيـة الـدخان وآيـة غافر حيث ذكر مع نزول الكتاب المبين ونزول روح القـدس فى ليلة القدر وغيرها حصول الإنذار والإرسال، وقد أسـند فعل الإنذار إلى غير الأنبياء وغير الأوصـياء ممّن يجوز عليهم الخطأ فى موارد من القرآن الكريم، كما فى آية التفقّه فى سورة البراءة «۳»، فكيف يستبعد إطلاقه على كلام الأوصياء.

فإرسال الروح وحصول الإنـذار لا يختصّ بالوحى النبوىّ، بل يعمّ الوحى غير النبوىّ وراثة بعد الأنبياء، كما تعلّق البعث الإلهى بطالوت الإمام مع عدم كونه نبيّاً فى قوله تعالى على لسان نبىّ من بنى إسرائيل: «قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» «۴».

وأمّا التعبير بالآية: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» «۵»

فالضمير ليس عائد إلى الذين اصطفينا بل إلى عبادنا، أى أنّ عبادنا بعضٌ ظالم

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۹۷

لنفسه وبعضٌ مقتصد وبعضٌ سابق بالخيرات، كما أنّ الذين اصـطفيناهم بعضٌ من عبادنا، فلفظ (من) التى تكرّرت أربع مرّات فى الآية بمعنى بعض؛ وإلّا كيف يصطفى اللَّه الظالم لنفسه؟

ومنه يُعرف أنّ المراد من السـابق بـالخيرات هم الـذين اصـطُفوا من العباد، وأنّهم الأئمّـة، وأنّ الإمامـة وهى وراثـة الكتاب هى الفضـل الكبير، والتعبير بالسابق بالخيرات بإذن اللَّه يقرب من التعبير فى سورة الأنبياء فى قوله تعالى:

«وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» «۱»

، فكما جعل فى آيـة فاطر السـبق بإذن اللَّه اصـطفائى لدنى، فكذلك فى آية الأنبياء جعل إبراهيم وإسـحاق ويعقوب أئمّة يهدون بأمر اللَّه، وأنّ فعـل الخيرات منهم بوحى تسديـدى من اللَّه، وأنّ هـذا الأـمر ليس أمراً إنشائيـاً بل هو أمر تكوينى الـذى أُشـير إليه فى سورة النحل بقوله تعالى: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» «۲».

وكذلك فى سورة القدر قوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» «۳»

وكذلك فى سورة الشورى قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ» «۴»

، وهذا ممّا يشير أنّ روح القدس من عالم الأمر الملكوتى الابداعى.

وقد ذُكر عالم الأمر فى قوله تعالى «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» «۵»

، وقوله تعالى: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» «۶»

،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۹۸

وقوله تعالى: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» «۱»

، أى أنّه من عالم الإبـداع لا الخلق التقـديرى، ومن ثمّ ورد أنّ تقـدير السـماوات والأرض أى عالم الملك والمادة أى ما يشـمل عالم الدنيا وعالم البرزخ- كلّ ذلك قد قُدّر فى ليلة القدر.

وقد مرّ فى الروايات أنّ تقدير ولاية أمير المؤمنين عليه السلام فى مقامها التكوينى قد قدّر فى ليلة القدر، فقد روى الصدوق فى معانى الأخبار بإسـناده إلى المفضّل بن عمر، قال: «ذكر عند أبى عبد اللَّه عليه السلام إنا أنزلناه فى ليلة القدر، قال: ما أبين فضلها على السور. قـال: قلت: وأى شـىء فضـلها؟ قال: نزلت ولايـة أمير المؤمنين عليه السـلام فيها. قلت: فى ليلـة القـدر التى نرتجيها؟ قال: نعم، هى ليلة قدّرت فيها السماوات والأرض، وقدّرت ولاية أمير المؤمنين عليه السلام فيها».

ولا يخفى التعريض فى كلامه عليه السلام بين تقدير السماوات والأرض وتقدير ولاية أمير المؤمنين من الناحية الكونية التكوينية، ودور روح القدس، وتناسب سجود الملائكة كلّهم أجمعين، أى طاعتهم لخليفة اللّه فى الأرض كما فى سورة البقرة وغيرها من السور، سواء ملائكة الأرض أو ملائكة السماوات أو ملائكة الجنّة والنار.

وقد ورد أيضاً أنّ روح القدس أعظم خلقاً، ففى صحيح أبى بصير، قال:

«سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه تبارك وتعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ» «۲»

؟ قال: خلق من خلق اللّه عزّوجلّ أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله يخبره ويسدّده، وهو مع الأئمّة من بعده» «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۳۹۹

وفى صحيحه الآخر قال: «سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّوجلّ «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى» «۱»

؟ قال: خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهو مع الأئمّة وهو من الملكوت» «۲».

وفى معتبر أسباط بن سالم عنه عليه السلام: «منذ أنزل اللّه عزّوجلّ ذلك الروح على محمّد صلى الله عليه و آله ما صعد إلى السماء وإنّه لفينا» «۳».

وفى صحيح سعد الإسكافى، قال: «أتى رجلٌ أميرَ المؤمنين عليه السلام يسأله عن الروح أليس هو جبرئيل؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: جبرئيل عليه السلام من الملائكة والروح غير جبرئيل، فكرّر ذلك على الرجل، فقال له: لقد قلتَ عظيماً من القول ما أحد يزعم أنّ الروح غير جبرئيل، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إنّك ضالّ تروى عن أهل الضلال، يقول اللّه تعالى لنبيّه صلى الله عليه و آله: «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ* يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ» «۴»

، والروح غير الملائكة صلوات اللّه عليهم» «۵».

وحيث كانت ليلة القدر وراثة الكتاب بنزول روح القدس الذى هو حقيقة الكتاب، ورد عن أبى جعفر عليه السلام قال: «يا معشر الشيعة خاصموا بسورة «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» تفلحوا؛ فواللّه إنّها لحجّة اللّه تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وأنّها لسيدة دينكم وأنّها لغاية علمنا، يا معشر الشيعة خاصموا ب «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» «۶»

، فإنّها لولاة الأمر خاصّة بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله» «۷».

ولا يخفى أنّ فى كلامه عليه السلام محطّات للتدبير والغور، منها: وصفه لسورة القدر

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۰۰

أنّها سيدة دينكم إى‌حقيقتها مرتبطة بالإمامة الالهية، وفيه إشارة لكون الامام الناطق ثقل أكبر مهيمن على حجّته المصحف.

ومنها: قوله (وأنّها لغاية علمناه) أى أنّ عمده ما ورثوه من العلم عن النبيّ صلى الله عليه و آله هو بتوسّط روح القدس، لا الطرق السماعية والرواية.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۰۱

حاضر المعرفة

الفصل الثامن: معتقدات الإمامة والمهدى (عج ...) ص: ۴۰۱

اشارة

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۰۳

المقالهٔ الاولی العلم اللدنی والولایهٔ الشریعهٔ بحسب الظاهر وسنن النظام الکونی ... ص: ۴۰۳

العلم اللدنی المقوّم لماهیهٔ الإمامهٔ ...: ص: ۴۰۳

وقبل الخوض فی ذلک یجدر الإلفات إلی النقاط التالیهٔ:

۱- البحث یرتبط بصلهٔ وثیقهٔ بالفصول السابقهٔ من الجزء الأوّل من کتاب الإمامهٔ.

۲- غالب البحث سیکون ذا طابع قرآنی، وذلک بعد التنبّه إلی نکات الظهور بتوسّط روایات أهل البیت علیهم السلام.

۳- تذکیر بنقاط مستخلصهٔ ممّا سبق:

أ- تعریف الإمامهٔ: والذی تقدّم مفصّلًا فی الفصل الثالث من الجزء الأوّل- باختصار: إنّ ما ذکره باقتضاب واختزال المتکلّمون- حتّی الشیعهٔ منهم فی تعریف الإمامهٔ- موهم أنّ مقام الإمامهٔ عبارهٔ عن الزعامهٔ والرئاسهٔ الاعتباریهٔ الاجتماعیهٔ فقط؛ لخلوّه من التنویه إلی ارتباط المعصوم بمقام الغیب، ومن ثمّ أوهم التعریف المزبور أنّ الإمام کأیّ عالم آخر، سوی أنّه فی درجهٔ متقدّمهٔ، ممّا أوقع الکثیر فی شبهات حول الإمامهٔ..

وذکرنا فی الفصول السابقهٔ المفهوم الذی اخترناه لمعنی الإمامهٔ، وأنّ ما ذکره المتکلّمون وبعض الحکماء من الإمامیهٔ فی تعریف الإمامهٔ لا یستوعب جمیع

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۰۴

جوانب الإمام. فالمتکلّمون اقتصروا علی الرئاسهٔ الدینیهٔ والدنیویهٔ، وهذا قصر للإمامهٔ علی الزعامهٔ السیاسیهٔ والولایهٔ التشریعیهٔ، بل إنّ البعض اقتصر علی حفظ الدین، ومن الواضح أنّ هذا التعریف وأمثاله أهمل الإشارهٔ إلی مقام الإمام ومنبع علمه هل هو القناهٔ الحسیّهٔ أم أُخری غیبیهٔ یمتاز بها عن بقیهٔ البشر، وهذا الإهمال وقصر حقیقهٔ الإمامهٔ علی الشأن الدنیوی هو الذی أوقع کثیر من المتأخّرین فی العدید من الإشکالات التی لم یجدوا لها جواباً شافیاً علی هذا التفسیر للإمامهٔ.

ومن هنا حدّدنا فی الفصول السابقهٔ الأرکان والمحاور الأساسیهٔ التی تبتنی علیها حقیقهٔ الإمامهٔ وماهیتها، وهی:

۱- الهدایهٔ الإرائیهٔ: ویقصد بها التبلیغ والتشریع وإراءهٔ الطریق للمؤمنین، وهذه تعتمد علی أنّ للإمام علم لدنی وقناهٔ غیبیهٔ یستقی منها علومه، وهی لیست من سنخ النبوّهٔ، بل هی وحی بالمعنی الأعمّ، کما ورد عنهم علیهم السلام فی الزیارات ما مضمونه: «إنّ الإمامهٔ سفارهٔ إلهیهٔ».

۲- الهدایهٔ الإیصالیهٔ: وهی حیثیهٔ ولائیهٔ مولویهٔ وقدرهٔ، وقد عرّفها العلّامهٔ الطباطبائی فی المیزان فی ذیل آیهٔ «وَإِذِ ابْتَلَی إِبْرَاهِیمَ رَبُّهُ» «۱» ، «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» «۲».

قیادهٔ المعصوم للنفوس وإیصالها إلی المنازل المعنویهٔ الکمالیهٔ، وهاتان النقطتان من المحاور الأساسیهٔ فی حقیقهٔ الإمامهٔ، وقد مثّلنا لهما بقوّهٔ العقل النظری والعملی فی الإنسان الصغیر، وبمقتضی التطابق بین الإنسان الصغیر والکبیر یمکن معرفهٔ کثیر من خصائص الإمامهٔ فی مقام الهدایهٔ الإرائیهٔ والإیصالیهٔ.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۰۵

فالهدایهٔ الإرائیهٔ تتمّ عبر قناهٔ التبلیغ، وعبر قناهٔ الاتّصال...

والهدایهٔ الإیصالیهٔ للمعصوم تتمّ کما فی قوّهٔ العقل العملی «۱» من دون إلجاء وإجبار، حیث یشوّق ویحثّ ویجذب من دون قهر لقوی الإنسان الأخری، فالهدایهٔ الإیصالیهٔ تتمّ من دون أن یکون هناک سلب للإرادهٔ والاختیار.

۳- إنّ الأصل الاشتقاقى للإمامة هو من أمّ يؤمّ، وهى تتضمّن خاصّية المتابعة من المأموم للإمام، وهى تتضمّن استمرارية السير والحركة الشعورية الدائمة، وعدم التوقّف والجمود، فلا يكون صرف الإراءة محقّقاً للإئتمام، بل هى والإيصالية.

۴- لابدّ للسير والحركة من غاية، وبدون هذه الغاية لا تتحقّق ماهية الإمامة.

وكلّ هذا ممّا حدا بالمحدّثين والمفسّرين والفلاسفة لدفع الإيهام فى تعريف المتكلّمين بالإلفات إلى أنّ الإمامة سفارة إلهية..

ومن ثمّ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا سفير السفراء» «۲»

، وكذا عبّر الإمام الهادى عليه السلام فى زيارته لجدّه أمير المؤمنين عليه السلام يوم الغدير: «يا أمين اللَّه فى أرضه

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۰۶

وسفيره فى خلقه»، وفى زيارته عليه السلام ليلة المبعث ويومه أوردها المفيد وابن طاووس والشهيد: «وعيبة علم اللَّه وسفير اللَّه فى خلقه»، وفى البحار: «سفير السفراء»، وفى زيارة الإمام الحسين عليه السلام الرجبية: «السلام عليك يا سفير اللَّه وابن سفيره»، رواه المفيد وابن طاووس والشهيد.

فإنّها عبارة عن: الهداية الإرائية والإيصالية.

ومنبع الإرائية: الوحى والغيب، ولكنّه بالمعنى الأعمّ، وليس على حدّ النبوّة..

ومنبع الإيصالية: القدرة والولاية، كما ذكر ذلك الطباطبائى فى ذيل آية: «إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» «۱»

، و «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً» «۲»

، أنّه: قيادة المعصوم للنفوس وإيصالها إلى المنازل المعنوية والكمالية..

علماً أنّه اقتصر على هذا البعد فى تعريفها، مع أنّ الصحيح أنّها هداية إرائية أيضاً؛ استناداً إلى مجموعة أدلّة سبقت الإشارة إليها.

وقال المحقّق الأصفهانى فى نهاية الدراية فى تعريف الإمامة: الرئاسة المعنوية الكبرى فى الدين والدنيا المنبعثة عن كمال نفسه المقدّسة التى من شؤونها الروحانية وساطتها للفيض وكونها مجرى الفيض النازل من سماء عالم الربوبية، وعليه ينطبق كمال الانطباق قولهم: «مجارى الأُمور بيد العلماء باللَّه» دون الفقيه الذى هو بما هو فقيه- عالم بأحكام اللَّه لا باللَّه «۳».

وجعل قدس سره هذا التعريف من الرئاسة المعنوية، أى الروحية والتكوينية فى قبال الرئاسة الاعتبارية المجعولة تشريعاً من اللَّه تعالى فى أُمور الدنيا والدين، وأنّها من المناصب المجعولة الاعتبارية «۴»، بخلاف المعنى الأوّل، فإنّه من المعانى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۰۷

التكوينية. وجعل التقابل بين هذين المعنيين نظير التقابل بين معنى النبوّة، فإنّ المعنى التكوينى لها عبارة عن:

أوّلًا: إنّها من الصفات الواقعية ومرتبته عالية من الكمالات النفسانية، وهو تلقّى المعارف الإلهية والأحكام الدينية من المبادئالعالية بلا توسّط بشر، وصيرورة نفسه المقدّسة مجلى المعارف والأحكام معنى بلوغها درجة النبوّة.

ثانياً: إنّها معنى إعتبارى من المناصب المجعولة، بمعنى جعله مخبراً ومبلّغاً عن اللَّه تعالى وسفيراً تشريعاً- إلى خلقه «۱».

هذا ويلاحظ على تعريفه قدس سره إنّما جعله منشأ الرئاسة التكوينية، كمال نفسه المقدّسة ووساطته للفيض على النفوس والأرواح ومجارى الأُمور هو الأولى أن يجعل أصلًا فى التعريف، وبجعل رئاسته التكوينية وقدرة تصرّفه فى الخارج شأن من شؤون حقيقة الإمامة فضلًا عن الرئاسة الاعتبارية القانونية فى الدين والدنيا، كما أشار هو قدس سره إلى خطأ جعل الرئاسة الاعتبارية هى الأصل فى تعريف الإمامة. كما أنّ هناك فارقاً آخر بين الإمام المعصوم والفقيه مضافاً إلى ما ذكره من الفارق الأول هو أنّ الفقيه لا يحيط بأحكام اللَّه تعالى فى اللوح المحفوظ بتمامها، كما أنّ علمه بأحكام اللَّه هو من وراء حجاب عالم دلالات الألفاظ وبتوسط تركيب الدلالة وتناسباتها، ومن ثمّ قد يصيب فى تأليف الدلالة باستكشاف الواقع وقد يخطئ، بل فى جملة من المواضع يغيب عنه شطر واسع من النصوص اللفظية، فهو لا يحيط بالأحكام الظاهرية فضلًا عن منظومة الأحكام الواقعية، بل قد يكون ما قد توصّل إليه حكماً تخيّلياً

لا ظاهرياً كما نبّه على ذلك علماء الأصول فى مبحث الأجزاء، إلى غير ذلك من الفوارق.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۰۸

هذا وسيأتى فى كلام البياضى فى (الصراط المستقيم) وهو من علماء القرن التاسع ما يظهر منه التفطّن إلى هذه الجهات فى تعريف الإمامة الإلهية.

وقد مثّلنا هاتين الهدايتين بالعقل النظرى والعلمى، فالإمام هو العقل النظرى للإنسان الكبير وعالم التكوين، وهو العقل العملى كذلك.. وكلّما تدبّرنا فى خصوصيات العقلين نجدها فى الإمام، بما فى ذلك أنّهما لا يقهران الإرادة ولا يسلبان الاختيار، كذلك الإمام لا يقهر الإرادة ولا يسلب الاختيار، وإنما يُعلِّم ويشوّق فقط..

بل إنّ العقل مرتبط بالعلم الحصولى والإنسان يمتلك علماً آخر وهو العلم الحضورى، والذى ذكرت له مراتب تبدأ بالقلب فالسرّ والخفى والأخفى..

كذلك الإمام هو هادى فى رتبة العلم الحضورى أيضاً، علماً أنّ الهدايتين فى هذه المرتبة تندّكان بوجود واحد بسيط..

وعندما نرجع إلى اللغة حيث إنّ الأصل الاشتقاقى للإمامة هو من أمّ يأمُ نلاحظ أنّ الإمامة فى الوقت الذى تستبطن الخصوصيتين (الإراءة والإيصال)، تستبطن الحركة والسير والمتابعة للإمام نحو غاية ما عن شعور واختيار..

ومن ثمّ لم يكن صرف الإراءة محقّقاً للإئتمام، وصرف الإيصال كذلك؛ لأنّه سيكون لا عن شعور..

ب- البطون والتأويل فى تعريف جديد: إنّ السائد فى فهم البطون وتفسيره: أنّه التأويل الذى لا يمكن الوصول إليه عبر منصّة الظاهر ومن خلال موازين الظهور..

إلّا أنّ الاتّجاه المعاصر أخذ ينحو منحىً آخر فى فهم وتعريف البطون تبعاً للآيات وكثير من الروايات، وهو: المعنى الذى لا يمكن للذهن العادى غير المعصوم الوصول إليه بنفسه عبر منصّة الظهور.. أى أنّ البطون هو قسم من

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۰۹

الظهور لكن لا يهتدى بغير المعصوم إلى تأليف موازين اللفظ والدلالة من مختلف القرائن والمناسبات ونضد المقدّمات الدقيقة لتحصيل مفاده من منصّة الظهور الأوّلى.

وهو يعنى أنّه ليس هناك باطن غير ظاهر، سوى أن استنطاقه من النصّ غير متاح لكلّ أحد، وإنّما هو خاصّ بالمعصوم..

وعلى ضوء هذا يفهم قول الصادق عليه السلام: «قد ولدنى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأنا أعلم كتاب اللّه وفيه بدء الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة وفيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر الجنّة وخبر النار وخبر ما كان وخبر ما هو كائن أعلم ذلك كما أنظر إلى كفى ان اللّه يقول: «تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» «۱»» «۲».

ويفهم حثّه عليه السلام أصحابه كما فى موثق أبى الجارود قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إذا حدّثتكم بشىء فاسألونى من كتاب اللّه، ثمّ قال فى بعض حديثه: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال، فقيل له: يا ابن رسول اللّه أين هذا من كتاب اللّه؟ قال: إنّ اللّه عزّوجلّ يقول: «لَاخَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ» «۳»

وقال: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً» «۴»

وقال: «لَاتَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ» «۵»

» الحديث «۶».

وهذا طبيعى بعد أن كان مصحف الكتاب العزيز نسخة من لوح التكوين وتنزيلًا له..

فيوجد تعريفان للباطن:

أحدهما: هو الذی يعتبر من التأويل الذی لا يمكن الوصول إليه عبر منصّة

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۱۰

الظاهر وموازينه، وهذا هو التعريف المشهور على ألسنة الكثير من المحقّقين.

والثانی: هو نحو من الظهور الذی لا يمكن للأذهان العادية الوصول إليه إلّا عبر تعليم المعصوم، فهو ليس فی قبال الظاهر، بل هو قسم من الظاهر، وهو غير ممتنع على أحد بل هو مفتوح، إلّاأنّ الوصول إليه يتمّ عبر مناسبات وتأليف للمقدّمات الدقيقة العميقة التی لا تهتدی الأذهان العادية إلی الوصول إليها، وهذا لا يجعله خفياً بل يكون حاله حال علم الرياضيات الذی يعتمد على الأوّليات البديهية ومع ذلک ما زالت ما لا تحصی من المسائل الرياضية متعسّرٌ على الذهن العادی حلّها، وهو لا يخرجها عن حدود علم الرياضيات.

والذی نختاره هو المعنى الثانی؛ لأنّا نراه أقرب إلی مسلک الأئمّة عليهم السلام، حيث كانوا يحثّون أصحابهم على استنطاق القرآن الكريم بإرشادهم إلی أوجه الدلالة، وترغيبهم فی السؤال عن مصدر الحكم، والإشارة إلی المناسبات المتعدّدة والقرائن التی تكون محفوفة بالآيات، وتجميع الآيات المتفرّقة بنحو برهانی، وما استدلال الإمام بالقرآن على روايات الطينة إلّامن هذا القبيل. وبناءً على هذا نقول:

أ- إنّ روايات الأئمّة عليهم السلام فی ذيل الآيات لا- تكون أمراً مستقلّاً عن الآيات ومخالفة للظاهر، بل يجب اعتمادها كملاحق وتبصرات للأُصول القانونية ولأُسس المعارف، وهذا من الناحية العلمية له فوائد جمّة.

ب- إنّ التعامل مع الروايات الواردة فی تفسير الآيات لا يكون على أساس مجرّد التعبّد فقط، بل يكون على أساس الإرشاد والإشارة أيضاً إلی كيفية سلوک موازين الظاهر، وإيجاد المناسبات للوصول إلی البطون. وهذا التفسير فی كلّ آية آية لا يمكن للعقول الاهتداء إليه إلّابهداية المعصوم، ومن ثمّ التنبّه إلی إعمال الموازين الدلالية فی الوصول إليه.

وهذه الطريقة هی التی يجب اتّباعها فی استخلاص هذه البطون، وسوف

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۱۱

تكون مرتبة من مراتب الظهور، وسوف يكون هذا المنهج برهاناً دلالياً لمذهب أهل البيت عليهم السلام، وقد ورد عنهم عليهم السلام: «من أخذ دينه من كتاب اللّه وسنّة نبيّه صلی الله عليه و آله زالت الجبال قبل أن يزول» «۱».

د- إنّ الطريقة التی نريد تطبيقها فی فهم الآيات القرآنية تعتمد على الظهورات الابتدائية للآيات، وتكون نقطة الانطلاق فی أیّ فهم آخر.

ه- إنّ الإعتماد على القرائن العقلية يكون تامّاً بشرط أن تعتمد على العقل البيّن، وكلّما أمكن تقليل الاعتماد على العقل النظری يكون أجدر وأصحّ.

وهذا لا- يعنی أنّه على التفسير الأوّل للباطن يتمّ التسليم بتهمة الباطنية أو عدم وجوب الإيمان به؛ لأنّه ليس من الظاهر؛ وذلک لأنّ الإيمان بالظاهر دون الباطن الذی هو الغيب والتأويل- كفر، والإيمان بالباطن دون الظاهر هو كفر أيضاً، بل يجب الإيمان بهما معاً. وعليه، فإنّ الذی يقع مورد الثواب والعقاب هو الشريعة الظاهرة ومدی العمل بواجباتها ومحرّماتها، وعدم الالتزام بها والالتفات إلی الباطن فقط زيغ. ومن الجهة الثانية أيضاً إن الاقتصار على الظاهر فقط يكون تركاً للتأويل الحقّ الذی هو الباطن الخفی، ويصبح من الشاذّ والنادر مع مرور الزمن، فلذا يجب الالتزام بهما معاً، والدمج بينهما.

ومن ثمّ تجد أنّ المعصوم عليه السلام فی أخبار الطينة الغامضة يستنطقون فيها ألفاظ القرآن، وبالتأمّل نلحظ أنّ القرآن ظاهر فی ذلک لنكات كانت خفية علينا، لا أنّه من باب الجری وذكر المصداق..

بل ظاهرة البطون أی المعانی الغامضة المعقّدة الخفية- ليست خاصّة بالمعارف الدينية، بل نجد ذلک فی مثل علم الرياضيات، فإنّه فی حين كونه

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۱۲

بـدیهیاً وتقـلّ إن لم تنعـدم- فیه الفرضـیات، إلّاأنّه مـا زالت هنـاک مجهولاـت لم یوفّق لحلّها کبار العلماء مع قبولهم وجود الحلّ فی داخل البـدیهیات الریاضـیهٔ، سوی أنّهم لم یتمکّنوا من التفطّن لکیفیهٔ تنظیم المعادلات بحیث یتوصّل بها لحلّ المجهول «۱»، وکذلک نجـدها فی مسابقـات الأدب، فإن مهرهٔ الأدب یخوضون فی التحلیل الأدبی إلی درجات عمیقـهٔ فی النصّ یعجز کثیر من أبناء اللغـهٔ بل بقیهٔ

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۱۳

الأدباء فی الوصول إلیها، نظیر ترسیم شخصّیهٔ صاحب النصّ وبیئته وخلفیته العلمیهٔ وخلقه وتاریخه، إلی غیر ذلک من العوامل والبیئات التی ترتبط بصاحب النصّ، کلّ ذلک من خلال مقطوعـهٔ لفظیهٔ یدرسـها ویحلّلها الأدیب البارع. ولقد کانت المسابقات الأدبیهٔ معهودهٔ عند عرب الجاهلیهٔ حیث کانوا یتعاطون فی سوق عکاظ حول القصائد الشعریهٔ والمقطوعات النثریهٔ عند من برز نجمه فی الأدب.

والنتیجهٔ: أنّ الروایات التفسـیریهٔ لیست مجرّد تعبّدیهٔ إجمالیهٔ محضهٔ، بل مدلّلهٔ مُبیّنهٔ علی التفسیر الثانی للبطون التأویلی الخفی لأنّ فیها إرشـاداً إلی کیفیـهٔ الاسـتفادهٔ من الظهور القرآنی، بخلاـفه علی المعنی الأوّل؛ فإنّها لا تعـدو التعبّـد بمعنی الـذی لا نعرف موازینه ولم نتعرّف علیها..

فی حین أنّها علی الفهم الثانی للبطون سـتکون شـرحاً وتفصـیلًا للقرآن الذی هو بمثابهٔ الدستور کما ذکر السید البروجردی تبعاً لمنهج العلّامهٔ المجلسی فی البحار.

وبهـذا الفهم یتمّ القضاء علی الشـبههٔ الموجّهـهٔ للشـیعهٔ الإمامیـهٔ بأنّها فرقـهٔ باطنیهٔ غنوصـیّهٔ لا تعلن عن أفکارها ومتبنیاتها؛ إذ عرفت أنّ الشیعهٔ لا تعتقد ولا تتبنّی فکرهٔ إلّاوهی ظاهرهٔ مآلًا من القرآن والسنّهٔ «۱».

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۱۴

وعلی أساس هذا الفهم یمکن الدعوهٔ إلی تأسـیس تفسـیر جدید یعتمد الکشف عن خفایا الظهور ومعادلاته وتناسـباته بتوسّط روایات أهل البیت علیهم السلام بإضافهٔ الاعتماد علی العقل البدیهی، وإن کانت نقطهٔ الانطلاق هی من الظهورات الابتدائیهٔ للآیات.

وستظهر النتیجهٔ فی واحدهٔ من صورها بالشکل التالی: «من عرف حقّنا من الکتاب زالت الجبال ولم یزل إیمانه».

ج- وغایـهٔ البحث فی هـذا الرافـد: أنّ القرآن ینوّه ویشیر إلی حجـج غیر الأنبیـاء والرسل، وأنّهم یقومون بـدورهم فی الأرض بتوسّـط وبرکهٔ العلم اللدنی کالأنبیاء والرسل، مع بیان لحدود هذا العلم بحیث یفرزه عن علم النبوّهٔ والرسالهٔ.

د- (منهج البحث) خطوط البحث: سیتمّ الحدیث فیما سیأتی ضمن التسلسل التالی: بعد التذکیر أنّ سمهٔ الحدیث ستکون قرآنیهٔ:

۱- استعراض الآیات المستعرضهٔ لنماذج الإمامهٔ والأئمّهٔ الذین قاموا بدورهم

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۱۵

الملقی علی عاتقهم فی الأرض بعلمهم اللدنی.

۲- إرسال الرسول یؤدّی إلی ثمرهٔ وهی الإمامهٔ، وأنّ القرآن یثبت أنّ الغایهٔ هی الإمامهٔ الثابتهٔ لجملهٔ من الرسل وأبنائهم؛ فإنّ جملهٔ من الأنبیاء کانوا أئمّهٔ أیضاً:

«وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَیْنَا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرَاتِ» «۱»

، وقوله تعالی:

«إِنِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَامًا..» «۲»

، وکذلک الحال فی سید الرسل، بل هو صلی الله علیه و آله إمام الأئمّهٔ.

۳- اسـتعراض الآیات المبینـهٔ للسـیرهٔ النبویّـهٔ فی إمامهٔ المجتمع البشـری، أو السـیرهٔ الإلهیهٔ التی أمر اللَّه تعالی نبیّه بها فی الحکم وقیادهٔ

الناس وأنّها تقتضى مقام الإمامة له صلى الله عليه و آله، وهو يغاير مقام النبوّة.

۴- الشرح القرآنى لماهيات المناصب الإلهية وأقسام الحجج الإلهية.

۵- بيان القرآن للمعاد والسير إلى اللَّه واستلزامه لوجود منصب الإمامة.

ه- (فوارق النبوّة والإمامة): قبل الدخول فى صلب البحث، لابدّ من الوقوف على حقيقة العلم اللدنى المقوّم لماهية الإمامة وما ينتج عن هذا من معرفة حقيقة الشـريعة فى مقابل ظاهر الشريعة، وهو ما قد يعبّر عنه بالشريعة التكوينية والسنّة الإلهية الكونية، كما ذُكر فى قصّة الخضـر عليه السـلام مع موسـى عليه السلام فى سورة الكهف، وكقضاء داود من غير بيّنة، وكحكومة سليمان وذى القرنين عليه السلام بتوسّط الأسباب اللدنية.

وقـد يعبّر عن الشـريعة التكوينيـة والسـنّة الإلهيـة الكونيـة بالولايـة الشاملـة للطريقـة والحقيقـة، كما جاء فى تفسير قوله تعالى: «وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۱۶

مَاءً غَدَقًا» «۱»

بأنّ الطريقة هى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وعن الشريعة الظاهرة بالنبوّة، وإن كان سيد الأنبياء صلى الله عليه و آله قد جمع أعظم مقامات الولاية والنبوّة.

ولابـدّ من الالتفات إلى أنّ الشـريعة واحـدة حدوداً وموازيناً، إلّاأنّ الفرق هو آلة التطبيق، ولا يخفى أنّ البطون والباطن يطلق على عدّة معـانٍ كالتأويـل والغيب، وفى مقابـل ذلـك قـد يطلق على التخليط والخبط والنزوع الروحى والنفسانى والإيحائى، أو الغرائب مع عـدم التقيّد بالموازين والأدلّة والحجج ونحو ذلك. وقد يطلق على المعانى الغامضة الخفية أو الحقائق المستورة، والمراد فى المقام ما يقرب من المعنيين الأخيرين، والتفرقـة بينه وبين العلم المقوّم لماهية النبوّة (الوحى)، وما ينتج عنه من الشـريعة الظاهرة.. فوارق مع التنبيه على أنّ النبىّ صـلى الله عليه و آله هو إمام الأئمّـة أيضاً إلّاأنّ الكلام فى بيان الفارق بين مقامه من حيث النبوّة ومقامه من حيث الإمامة- فى تميّز المراد من العلم اللدنى.

من الأُـمور المهمّـة التى يجب تسـليط الضوء عليهـا قبل الشـروع فى بيان أصل البحث، هو المائز بين العلم اللـدنى والعلم النبوّى، أو ما يمكن تسميته الفرق بين الشريعة الظاهرة والشريعة التكوينية (أى السنّة الإلهية الكونية)، ويمكن إيجاز الفرق فى أُمور:

۱- إنّ تطبيق وتنفيـذ أحكـام العلم النبوىّ هو من سـنخ الاعتبـارات الكلّيـة الإنشائيـة القانونيـة تُبنى على العلم الحصولى، بينما فى العلم اللدنى هى من سنخ تكوينى وتعتمد على العلم الحضورى.

ومن الأمثلة على ذلك: أنّ القرآن الكريم والروايات تثبت أنّ للملائكة أوامر

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۱۷

إلهية متوجّهة إليهم وهم لا يعصونه، وهذه الأوامر هى ليست من سـنخ الاعتبارات والأحكام الظاهرية، فهى من سنخ آخر مع المحافظة على أنّها موجودات شاعرة مختارة، فهـذه الأوامر إرادات إلهيـة تكوينيـة من سـنخ الشـريعة التكوينيـة والسـنّة الإلهية الكونية، حيث إنّ الملك مزوّد بالعلم اللدنى، وتصوير الأوامر والإرادات التكوينية لا ينافى إختيارية الملك.

۲- إنّ الأحكام الواقعية فى الشـريعة الظاهرة نابعة من أغراض وملاكات، وتحقيق الأحكام لهذه الأغراض يكون غالبياً لا دائمياً، أمّا فى العلم اللدنى فالإصابة تكون دائمية كلّية ولا تحتمل الخطأ.

۳- إنّ الشـريعة الظـاهرة لها موازين خاصّـة بها، حيث إنّها تعتمـد فى تطبيقها على العلم الحسّـى الحصولى، بخلاف الشـريعة التكوينية والسنّة الإلهية الكونية، فهى لها موازين خاصّة من حيث اعتمادها على علم القضاء والقدر.

ويجب التنبه إلى عدم الخلط بين الموازين، فاسـتخدام موازين الشـريعة التكوينية والسـنن الإلهية الكونية فى الشـريعة الظاهرة قد تؤدّى

إلى الخروج عن الدين، أو العكس بأن يستخدم موازين الشريعة الظاهرة فى الشريعة التكوينية والسنّة الإلهية الكونية، وكثير من الإشكالات والشبهات تنشأ من الجهل والغفلة بين هذه الموازين، حيث يستخدم موازين الظاهر فى فهم مفادات هى من سنخ الشريعة والسنّة الإلهية الكونية.

ولهذا السبب وبسبب الغفلة والخلط نشأت الفرق المنحرفة عن خطّ أهل البيت، فهى من هذا القبيل، حيث إنّهم أَسْرَوا وعمّموا أحكام الشريعة والسنّة الإلهية الكونية التى اطّلعوا عليها على الشريعة الظاهرة التى هم مخاطبون بها أيضاً، فيجب التنبّه إلى وضع هذا الحاجز بين الموازين فى كلا الدرجتين من الشريعة، درجة الظاهر ودرجة السنّة الإلهية الكونية.

ومن صور الخلط الذى يحصل: إلغاء الشريعة الظاهرة بحجّة الوصول إلى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۱۸

أهداف وأغراض الشريعة بدعوى السفارة والنيابة، الأخبار والرواية عنه مع انقطاع الطريق الرسمى بيننا وبينه (عج).

وإحدى التفسيرات لما ورد من أنّ صاحب الأمر عليه السلام عند ظهوره سوف يأتى بدين جديد أنّه سوف تقترن موازين الشريعة الظاهرة بالسنن الإلهية الكونية، وهو ليس من باب النسخ، بل هو من باب أنّ الشريعة هى الظاهرة إلّاأنّ تطبيقها سوف يكون بموازين الشريعة والسنّة الإلهية الكونية.

وليتنبّه إلى أنّ عموم الناس غير مكلّفين إلّابالشريعة الظاهرة، ولا يمكن لهم العمل بالدرجة الخفية، كما أنّه ليس هناك شريعتان، بل شريعة واحدة لا تختلف وإنّما تطبيقها تارةً بموازين الظاهر وأُخرى بآليات تصيب الواقع ولا تخطئه، وهى موازين خفية باطنة، وسيأتى بيان حقيقة الشريعة بحسب السنن الإلهية الكونية.

ومن هنا نعرف كيف يتمّ الملائمة بين معرفة الإمام بأنّه سوف يُقتل على يد ابن ملجم، وأنّ الإمام الحسين عليه السلام يعلم أنّه مقتول لا ـ محالة، وذلك عن طريق العلم اللدنى طبقاً لموازين الشريعة والسنّة الكونية، لا بتوسّط العلم من الأسباب العادية طبقاً لموازين الشريعة بحسب الدرجة الظاهرة. بل إنّ موازين الظاهر فى باب التزاحمات تطبّق على الأحكام الفعلية، أمّا فى الشريعة والسنّة الإلهية الكونية فإنّها تلاحظ بما لها من لوازم ومصالح حتّى فى الحقب التاريخية التالية، فلا يقصر الحدث على أهمّيته فى حقبة زمنية معينة، بل يلاحظ عموم التاريخ، ومن هنا فإنّ أثر شهادة الحسين عليه السلام على حفظ الدين والشريعة والتزام الناس على مرّ الزمان، وعدم الرضوخ للظلم والطغيان، وسنّ هذه السنّة هى إحدى الملاكات التى نشأت من شهادته عليه السلام، والتى ما كان لها أن تظهر لو قصرنا النظر فى حادثة الاستشهاد على الفترة الزمنية الخاصّة.

ويمكن بيان الفوارق كالتالى:

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۱۹

الفارق الأوّل: إنّ النبوّة لإبلاغ الأحكام الإعتبارية الإنشائية القانونية، بما يشمل الآداب والعلوم الحصولية كالمعارف، فى حين أنّ نفس تلك الشريعة للإمام من سنخ تكوينى لا ـ اعتبارى ومعلومة حضوراً لا حصولًا، وشاملة كالأولى، ومن الأمثلة على ذلك أنّ القرآن الكريم والروايات تثبت أنّ للملائكة أوامر إلهية متوجّهة إليهم وهم لا يعصونه.

الفارق الثانى: إنّ إصابة الشريعة الظاهرة أى الأحكام الاعتبارية القانونية الواقعية للواقع أى الملاكات والمصالح والمفاسد وللأغراض- غالبية لا كلّية دائمية، نظير الحكم الظاهرى الأُصولى بالنسبة للحكم الواقعى، وإن كان بين النسبتين فرق جلى، كما أنّ هناك فرق فى المعنى بين الشريعة الظاهرة والحكم الظاهرى، بينما الإصابة فى الشريعة بحسب الدرجة الواقعية والسنّة الكونية دائمية كلّية.

الفارق الثالث: إنّ تطبيق الشريعة الظاهرة يرتكز على العلم الحسّى وموازين هذه النشأة، نشأة الظاهر «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» «۱»

، وتطبيق الشريعة بحسب السنّة الكونية الإلهية يرتكز على علم القضاء والقدر والمشيئة والإرادة وآثار الأفعال بحسب النشآت الأُخروية.

علماً بأنّ الكثير من الخلط والشبهات والجهالات نشأت نتيجة الخلط بين نحوين من مفادات القرآن والسنّة، حيث إنّ قسماً منها مفاده الأوّل، والآخر الثانی.

وواحدة من عوامل الانحراف فی هذا المضمار: وزن الظاهر بموازين السنن الكونية أو العكس، فالخطابية والمغيرية حكّمت موازين السنن الإلهية الكونية على الظاهر، وقد مرّ أن إحدى التفسيرات لما ورد من أنّ صاحب الأمر المهدی

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۲۰

(عج) يأتی بدين جديد أنّه سوف تقترن موازين الشريعة بحسب الدرجة الظاهرة بالسنّة الكونية، وهو ليس من باب النسخ، بل هو من باب تطبيق الشريعة الظاهرة بموازين الشريعة التكوينية «۱».

فالتساؤل المتوهّم حول الشجاعة فی مبيت علیّ عليه السلام فی فراش النبیّ صلى الله عليه و آله، هل هی مع علمه أنّه لا ـ يقتل؟ ثمّ كيفية كونها منقبة عظيمة مدحه بها القرآن المجيد، وكيف يقدم الإمام عليه السلام على الصلاة فی جامع الكوفة أو دخول الإمام الحسين عليه السلام فی معركة كربلاء مع علمه بقتله؟ يرجع التساؤل إلى معالجة التكوين بموازين الظاهر، بل إنّ موازين الظاهر فی باب التزاحمات تطبّق على الأحكام الفعلية، أمّا فی الشريعة بحسب السنّة الكونية الإلهية- فإنّها تلاحظ بما لها من لوازم ومصالح

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۲۱

حتّى فی الحقب التاريخية التالية، فلا يقصر الحدث على أهميته فی حقبة زمنية معينة، بل يلاحظ بحسب عموم التاريخ.

ومن هنا فإنّ أثر شهادة الحسين عليه السلام على حفظ الدين والشريعة إلتزام الناس على مرّ الزمان وعدم الرضوخ للظلم والطغيان، وقد سنّ (صلوات اللّه عليه) هذه السنّة فی الدين التی هی إحدى الملاكات المتولّدة من شهادته عليه السلام، والتی ما كان لها أن تظهر لو قصرنا النظر على زمن الحادثة والاستشهاد فی تلك الفترة الزمنية الخاصّة، وكذلك الحال فی جملة سيرة الرسول صلى الله عليه و آله وسيرة أمير المؤمنين عليه السلام.

الفارق الرابع: النسخ فی الشريعة بحسب الدرجة الظاهرة اعتباری، علاوة على وجود مرتبة الظاهر الكاشف عن الدرجة الظاهرة التی هی واقعية بحسبها، وظاهرة التقييد بالمعنى العامّ من تخصيص وحكومة وورود- وتقييد الأدلّة والدلالة على الشريعة الظاهرة لا فی متنها.. بينما النسخ فی الولاية والشريعة بحسب السنن والنظام الكونی تكوينی وهو المعروف بالبداء، وبمعرفة الناسخ تتفاوت مراتب الأولياء والحجج..

الفارق الخامس: لم يُستثن أحد من التكليف بالشريعة الظاهرة، فالتدين بها فی عهدة الجميع من جنّ وإنس بما فی ذلك الأولياء والحجج، أمّا فی الشريعة الكونية فهی وظيفة خاصّة بحجج اللّه وملائكته.

ومن ثمّ ينبثق سؤال: إنّ ما عدا المذكورين- وهم غير المعصوم- قد يصلون بالرياضات الشرعية إلى مقامات عالية حيث تتفتّح قلوبهم على عوالم الغيب، فلم لا يكونون مكلّفين بالولاية وبالشريعة الكونية الإلهية بعد أن تمّ وصولهم إلى أسافل تلك المنازل؟

الجواب: إنّ رقيهم هذا محمود حيث يزيد من علمهم وإيمانهم، ولكنّهم لم يُكلّفوا إلّابالشريعة الظاهرة؛ لعدم حجّية ما يتلقّونه بقنواتهم الروحية لعدم

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۲۲

عصمتهم.

الفارق السادس: (حقيقة الشريعة الإلهية الكونية). إنّ أحكام الشريعة الكونية بحسب الدرجة الواقعية والتكوينية لا تعدو كونها إلّاتطبيقاً للشريعة الظاهرة وسوى أنّه تطبيق بعلم لدنی لا بوسيلة الحسّ والعلم الحصولی؛ لأنّ الشريعة واحدة لا تختلف بحسب الظاهر الواقعی ولا ـ الكونی ولا ـ حدودها وأحكامها، كما استعرض القرآن الكريم لنا قصّة الخضر مع موسى التی كانت يُتراءى فيها فی بادئ الأمر الخلاف، ثمّ آل الأمر إلى الوفاق بعد وضوح رجوع التأويل إلى تطبيق خفی لظاهر الشارع، وهذا التعريف أضبط وأصلح التعريفات

للشريعة الإلهية في النظام الكوني.

وتوضيح ذلك يتمّ بالالتفات إلى هذه الزاوية: أشرنا في الفصول السابقة إلى أنّ أصل الولاية للّه‌تعالى «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» «۱» و «هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» «۲»

أعمّ من التشريع والحكم القضائي والحكم التنفيذي، وعندما نطالع القرآن نجد أنّه يلفت إلى الأصل المذكور وتفاصيله، بل في الآيات المرتبطة بالمسائل العامّة الحكومية كآيات الجهاد والأنفال وأمثالها، هي تشريعية بلحاظ تنظيرها الكلّي، وحكم تنفيذي ولوي بلحاظ مواردها التطبيقية الجزئية، وهذه قراءة ثانية لأسباب النزول، لا يقرّ بها ولا يتفطّن إليها أهل سنّة الخلافة وجماعة السلطان، لعدم تصويرهم لولاية اللّه تعالى السياسية في الأحكام التنفيذية الجزئية زيادة على ولايته تعالى في التشريع الكلّي.

وكذلك في القضاء كما يلحظ ذلك بوضوح في حكومة الرسول صلى الله عليه و آله التي يستعرض لنا القرآن الكريم سيرتها، فإنّ في المنعطفات الخطيرة في الأحداث

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۲۳

السياسية أو القضائية أو العسكرية والمالية نرى في الآيات أنّ الحاكم الأوّل هو الباري تعالى في تلك الأحداث، والحاكم الثاني هو الرسول صلى الله عليه و آله، وأهل سنّة الخلافة وجماعة السلطان يخشون هذا التصوير لحاكمية اللّه تعالى السياسية على البشر؛ لأنّهم لا يمكنهم تصوير ذلك بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله على ما ذهبوا إليه من انقطاع الاتّصال بالغيب وعدم إمكان إستعلام الإرادة الإلهية الجزئية في الأحداث.

ومن ثمّ فالولاية في هذا المضمار للرسول صلى الله عليه و آله ومن بعده للمعصومين عليهم السلام هي في طول ولاية اللّه تعالى وبإذنه، وليست مستقلّة، خلافاً لإطروحة المعتزلة وغيرهم من المذاهب الأُخرى، ومن قبل اليهود حيث قصروا ولاية اللّه تعالى على التشريع دون مباشرة القضاء وسلطة التنفيذ حينما قالوا: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ..» «۱»

.فالرئيس والحاكم السياسي الأوّل والمشرّع الأصلي والقاضي الفعلي هو اللّه سبحانه وتعالى، ومَن ثبتت له الولاية وهو الرسول صلى الله عليه و آله والإمام، فهي في ظلّ تلك الدولة والولاية المباشرة للّه‌تعالى لا بالاستقلال عنها، فكلّ ما يصدر عنهم فهو يصدر عن اللّه حقيقة.

بل تلك الحاكمية تجلّت بوضوح في القرآن الكريم بمعنى الحكم المسند إليه تعالى خاصّة من دون نسبته إلى الرسول صلى الله عليه و آله أو الإمام «۲» على صعيد التنفيذ والفصل القضائي والحكم التنفيذي، وبالتالي يصحّ القول بأنّ حكم وحاكمية اللّه تعالى ليست بالقوّة في عهد حكومة المعصومين عليهم السلام، بل هي حكومة فعلية للّه تعالى في الجوانب الثلاثة. أمّا أمثلة التشريع الصادرة مباشرة منه تعالى فكثيرة، وهكذا في القضاء فينشئ تعالى حكماً فاصلًا للنزاع كما في قصّة البقرة في بني

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۲۴

إسرائيل، وموارد أُخرى استعرضها القرآن الكريم في الحكم الولوي (التنفيذي)، نظير أوامر الجهاد النازلة في موارد معينة وإن استفيد منها تشريعاً كلّياً أيضاً، وكحكمه تعالى بزواج النبيّ صلى الله عليه و آله من زينب وزواج عليّ عليه السلام من فاطمة عليها السلام، إذ حكمه تعالى الولوي شامل للوظائف العامّة للدولة والأُمور الخاصّة للبشر.

وهذا النمط ثابت طولًا للمعصومين عليهم السلام، وهذا أحد تفاسير قوله تعالى: «.. أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ..» «۱»

، وهذا معنى كون حكومة المعصوم إلهية أي لا- يقتصر في أحكامها وتشريعاتها على كلّيات الأحكام في الدين، بل إنّ الحاكمية بالفعل في الجوانب الثلاثة هي للّه‌سبحانه، وهذا غير متوفّر في غير حكومة المعصوم وإن كانت بالرسم الديني، وسيأتي توضيحه مبسوطاً في سيرة الرسول على صعيد الدولة في القرآن الكريم.

وبضمّ هذا الفرض إلى ما ذكرناه في الأُصول والفصول السابقة من أنّ الحكم التنفيذي تطبيق للحكم التشريعي فهو حكم جزئي

وذلك كلّى يتبلور: أنّ أحكام الشريعة الكونية الإلهية بحسب الدرجة الواقعية التكوينية ليست إلّاأحكاماً تطبيقية للشريعة الظاهرة بعلم لدنى على حدّ الحكم الولوى «۲»، وأنّ الولاية إقامة وتحقيق وإنجاز لأغراض النبوّة.

الفارق السابع: إنّ منظومة إقامة أحكام الشريعة بحسب المنظومة الظاهرة تخضع للأسباب الطبيعية الظاهرية، وفى باب ومقام الولاية والواقع الخفى الباطن، وشريعة السنّة الإلهية الكونية تخضع للّه تعالى وتتسلسل تبياناً وبلاغاً

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۲۵

وتطبيقاً وتنفيذاً وإقامةً وتشييداً إلى الأوصياء والملائكة، وقد يستعان بغير المعصوم بشكل قسرى لا جبرى.

ويمكن بيان الفوارق الأخيرة بصياغة أُخرى:

*- إنّ العلم اللدنى والشريعة الكونية خاصّة بأولياء اللّه- حججه وملائكته- وليست هى وظيفة عموم البشر الآخرين مهما بلغوا من العلم، وحتّى لو استطاعوا الوصول إلى نفحة ورشحة يسيرة من بحار محيطات العلوم والشريعة.

*- يوجد فى الشريعة الظاهرة نسخ هو نسخ اعتبارى وهو المبحوث عنه فى الأُصول، بينما فى الشريعة الكونية الإلهية يوجد نسخ تكوينى وهو البداء المعروف، وتختلف مراتب أصحاب العلم اللدنى فى ذلك، فبعضهم له علم بالمنسوخ فقط وبعضهم له علم بالناسخ والمنسوخ.

*- ذكرنا فى الفصل الثانى أنّ الولاية المطلقة للّه‌سبحانه وتعالى، ومنها تتفرّع إلى النبىّ الخاتم ومن ثمّ للمعصومين من ولده، فولايتهم فى التشريع والقضاء والتنفيذ هى متشعّبة عنه جلّ وعلا، إلّاأنّ هذا لا يعنى عدم تدخّله المباشر فى صياغة كلّ منها فى بعض الأحيان. وبالتالى لابدّ من القول إنّ حكومة اللّه ليست بالقوّة الشأنية فى زمن حكومة المعصومين، بل هى حكومة فعلية للّه‌تعالى، فهو يكون مشرّعاً ويكون حاكماً، ويكون مصدراً للحكم الولوى (التنفيذى) فى زمن حكومة المعصومين، وهذا يجعل حكومته فعلية.

ومن أمثلة التشريع كثير، إذ فى كثير من الأحيان يصدر التشريع منه مباشرة، ولا يكون الاعتبار صادراً من الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وهكذا فى القضاء إذ يحكم هو كما فى قصّة البقرة. وموارد أُخرى يكون الحكم والفصل فيها للّه‌سبحانه، وفى الحكم الولوى كذلك كما فى آيات الجهاد، وزواج النبىّ من زينب وزواج علىّ من الزهراء سلام اللّه عليهما، ويفترق الحكم الولوى هنا عن غيره بأنّه ليس فى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۲۶

وظائف الدولة العامّة بل فى الأُمور الخاصّة، وهذا النمط ثابت للّه‌والمعصومين دون النوّاب من الفقهاء.

فالحقّ تعالى يتصرّف مباشرةً فى التطبيق بموازين العلم الإلهى، أى تطبيق الشريعة الظاهرية بما له من موازين العلم الإلهى، ولن يكون التطبيق بموازين ظنّية حسّية، والعلم اللدنى يختلف درجاته، وبالنسبة للّه‌المحيط له أعلى الدرجات، فهو: «أَصْدَقُ قِيْلًا»، وهو «أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ»، فعندما يقال إنّ حكومة المعصوم إلهية لا يعنى أنّ أحكامها وتشريعاتها دينية فقط، بل يعنى أنّ الحاكمية هى للّه‌سبحانه بالفعل، وهذا غير متوفّر فى حكومة غيرهم وإن كانت دينية. وبناءً عليه نقول: إنّ الشريعة الكونية الإلهية هى عبارة عن تطبيق للشريعة الظاهرة بعلم لدنى، فتطبيق اللّه تعالى دوماً يكون بالعلم اللدنى، أمّا فى تطبيق المعصوم فهو فى الجملة لا بالجملة بحسب الوظيفة المأمور بها.

أمّا الشريعة الظاهرة فهى التنظير فى الأُمور الكلّية، والتطبيق يكون بالشريعة الكونية «۱».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۲۷

*- إنّ منظومة الشريعة الظاهرة والارتباطات بين حلقاتها خاضع لآليات النشأة الدنيوية أى الأسباب الظاهرية، أمّا فى منظومة الشريعة الباطنة من اللّه عزّوجلّ والنبىّ والرسل والأوصياء، فهم مزودون بالعلم اللدنى، وقد يستعان بغير المعصوم كما فى تسخير الآخرين ويكون الفاعل بالقسر والفاعل بالجبر، وآلياته تكون غير ظاهرية، وقد تكون ظاهرية.

بعد استعراض هذه المقدّمات ندخل فى صلب البحث وذلک باستعراض مجموعهٔ من النماذج القرآنية:

۱- استعراض الآيات المرتبطهٔ بالحجج الذين قاموا بدورهم الملقى على عاتقهم فى الأرض بالعلم اللدنى.

۲- بيان غايهٔ إرسال الرسل، وسنرى أنّ القرآن يثبت أنّ الغايهٔ هى الإمامهٔ.

۳- استعراض الآيات المبينهٔ للسيرهٔ النبويّهٔ، أو السيرهٔ الإلهيهٔ التى أمر اللَّه تعالى بها.

۴- الشرح القرآنى لماهيات المناصب الإلهيهٔ.

۵- بيان القرآن للمعاد والسير إلى اللَّه.

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۲۹

الأمر الأول استعراض نماذج الإمامهٔ فى القرآن ... ص: ۴۲۹

اشارهٔ

ونستعرض فيها قائمهٔ لأولياء اللَّه الحجج، وكيفيهٔ توفّرهم على العلم اللدنى وتصرّفهم على طبقه، ومنه سوف ينكشف لنا جوانب هذا العلم.

النموذج الأوّل: قصّهٔ الخضر وموسى ... ص: ۴۲۹

والتى تناولها القرآن الكريم فى سورهٔ الكهف من الآيهٔ ۶۰ وحتّى الآيهٔ ۸۲.

وقبل استعراض الآيات يجب أن نلقى الضوء على الجوّ العامّ الحاكم على سورهٔ الكهف، فالآيات التى ابتدأت بها السورهٔ تستعرض حرص الرسول الكريم صلى الله عليه و آله على قومه لعدم استجابتهم وأسفه عليهم لعنادهم، حيث قال تعالى:

«فَلَعَلَّکَ بَاخِعٌ نَفْسَکَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا» «۱»

، فنزلت هذه السورهٔ لتسليهٔ فؤاده صلى الله عليه و آله من خلال استعراض ثلاث وقائع هى: أصحاب الكهف، الخضر وموسى، ذو القرنين، وكأنّها تسلّى قلب النبىّ الخاتم صلى الله عليه و آله بأنّ الإرادهٔ الإلهيهٔ لا تتخلّف، وأنّ الهدايهٔ الإيصاليهٔ تتحقّق، وأنّ هناک منظومهٔ من رجال الغيب الذين يقومون بحمايهٔ الشريعهٔ من الانحراف والأخذ بيد الناس فى أحلک الظروف والمحن بتدبير النظام العامّ بنحوٍ خفى.

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۳۰

استعراض تفصيلى للآيات ...: ص: ۴۳۰

اشارهٔ

«وَإِذْ قَالَ مُوسَى» «... ۱»

أى واذكر أيضاً قصّهٔ موسى، ممّا يدلّل على ما ذكرناه من أنّ القصص الثلاث أتت فى سياق واحد ومن أجل هدف واحد.

وفى أسباب النزول: أنّ موسى عندما أنزل اللَّه عليه الألواح رجع إلى بنى إسرائيل وصعد المنبر وأخبرهم أنّ اللَّه قد أنزل عليه التوراهٔ

وكلّمه، فقال فى نفسه:

ما خلق اللّه خلقاً أعلم منّى، فأوحى اللّه إلى جبرئيل أدرك موسى فقد هلك، واعلمه أنّ عند ملتقى البحرين عند الصخرة رجلًا أعلم منك، فسر إليه وتعلّم منه.

أى أنّ للخضر علم مغاير لعلم موسى، وهذا مع التسالم على أنّ موسى أفضل من جميع من سواه فى عصره.

«لَاأَبْرَحُ» «... ۲»

ظاهر فى وجود أمر بالمجىء إلى هذا المكان وبالتالى وجوده فيه ضرورة.

«ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ» «۳»

يدلّ على تحديد المكان بالعلامة. والآيات اللاحقة تبين أنّ موسى قد لقى الخضر نائماً ولم يلتفت إلى أنّه هو الذى يجب أن يتبعه فسار قليلًا، فارتدّا على آثارهما بعد أن التفتا إلى ذلك.

«فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» «۴»

، وهذه الآية تبين لنا صفات الخضر:

أ- الإضافة التشريفية للّهجلّ وعلا، حيث عبّر عنه أنّه من عبادنا، ممّا يدلّ على الحظوة والانتساب.

ب- إنّ التتبع فى استخدامات (عبادنا) يفيد أنّه لم يُستخدم إلّافى الأنبياء

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۳۱

والمرسلين والأولياء، ولم يستخدم هذا التعبير لجميع العباد.

ج- إنّه مشمول بالرحمة الخاصّة.

د- إنّه متّصل بالغيب من خلال العلم الذى أوتى من الذات المقدّسة، وإنّ هذا العلم من لدن العليم الخبير، ففيه إشارة إلى عدم كون علمه كسبياً بل إفاضياً، وأنّه علم يفاض من لدن الذات.

«قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا» «۱»

، يذكر الشهيد الثانى فى منية المريد جملة دلالات فى هذه الفقرة على التواضع، إنّ فى هذه الجملة الوجيزة اثنى عشر فائدة من فوائد الآداب، منها: التواضع فى الطلب، فقوله: (هل) تفيد الاستيذان منه قبل الالتحاق به، والتعبير ب (أتّبعك) ولم يقل أرافقك أو أماشيك، ممّا يفيد معنى التبعية وما فيه من معنى المتابعة المطلقة، وهى الإتيان بمثل فعل الغير لأنّه فعله، لا لوجه آخر، ولا يخفى ما فيها من الخضوع للخضر، وهو فى هذه المتابعة مأمور بالكون معه، وفى هذه كمال التواضع والتفخيم للخضر، والتعبير (على أن تعلّمنى) أى لا ـ يشترط أن تعلّمنى، فيدلّ على الرجاء، والتعبير بتعلّمنى ولم يقل أعلم، والتعبير (ممّا علمت)، أى ليس هو كلّ ما عُلّمت وهو تفخيم ودليل أنّه تعليم إلهى.

وهذا خضوع وتواضع من قبل النبىّ موسى للخضر عليه السلام مع أنّه من أولى العزم ومن الأئمّة، حيث إنّ بعض الأنبياء من غير أولى العزم وصفوا بأنّهم أئمّة، فكيف بأولى العزم، مضافاً إلى أنّه كان حاكماً على بنى إسرائيل، والحكومة من شؤون الإمامة لا من شؤون النبوّة، لكنّ الإمامة لها درجات مختلفة فى الكمال والفضيلة الكونية كاختلاف النبوّة فى الدرجات.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۳۲

كما أنّ هذا التواضع ليس من باب الخلق الحسن، بل هو من باب ما يقتضيه حقيقة العلم الذى يمتلكه الخضر والذى امتاز به عن النبىّ موسى.

الواضح من هذه الآيات أنّ العلم الذى كان لدى الخضر هو من الشريعة الكونية والسنن الإلهية فى نظام التكوين؛ وذلك لأنّه لو كانت من الظاهرة لعلم بها موسى، وإنّما سميت شريعة لأنّ فيها أوامر وإرادة إلهية كونية، وعدم تزويد موسى بها دليل على أنّها خاصّة

بالبعض.

والعامّة لجمودهم وابتعادهم عن بيت الوحى والعصمة تراهم وقعوا فى حيص وبيص فى كيفية تصوير اختلاف العلم الذى لدى الخضر مع العلم الـذى لـدى نبىّ اللّه، وهل هو من سـنخ النبوّة أم غير ذلك؟ وما ذلك إلّالأنّهم لم يـذعنوا بالإمامـة والعلم اللدنى ولم يعترفوا بمقام الولايـة الـذى يطّلع على المشـيئة الإلهية والإرادات الإلهية، والذى يعرّف الشـريعة بحسب السـنن الإلهية التكوينية، وجمدوا على منصّة الشريعة الظاهرة.

«قَالَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» «۱»

، دلالـة على أنّ الصبر يتصوّر مع العلم، وأنّ العلم التشـريعى والنبوّة لم يُحيطا إحاطـة تامّـة، وأنّه لابـدّ أن يزوّد الحجّـة بـالعلم اللـدنى والشـريعة الكونية وهى الولاية؛ إذ لو كانت ظاهرة لما افتقدها موسى عليه السلام وشريعته عامّة، وهو وإن كان إماماً أيضاً إلّاأنّ الإمامة درجات، وكذلك اختلاف العلم اللدنى الذى يزوّد به الإمام.

ويـدلّ هذا المقطع على اختصاص الشـريعة بحسب الدرجة الواقعية الكونية بالأولياء المصـطفين المعصومين، حيث لم يزوّد بها بتمامها حتّى موسى عليه السلام فضلًا عن عموم المكلّفين.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۳۳

«قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَکَ أَمْرًا» «۱»

، إشـارة إلى نظير وما فعلته عن أمرى، الـدالّ على أنه أمر إلهى وارادة كونيـة، إلّاأنّه ليس من الشـريعة الظاهرة، وهو إشارة إلى ما يأتى من قول الخضر.

«قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَکَ مِنْهُ ذِكْرًا» «۲»

ففيه أيضاً- إشارة إلى تأدّب الخضر مع النبىّ، فلم يأمره بالاتّباع بل علّقه على مشيئته وإرادته، كما أنّ الاستعلام العلمى عن حكمة فعل من الأفعال لا ينافى الائتمام؛ وذلك لأنّ التبعية ليست معلّلة أو موقوفة على حكمة الفعل.

إنّ هـذه الآداب بين الحجـج تشير إلى مطلب مهم وهو اعتقادهم بالمناصب الإلهية لكلّ منهما، وقد ورد فى حديث المعراج: أنّ النبىّ فى أحد المواقف تقدّم على الأنبياء وأمّهم للصلاة، ولم يكن لديه خشية وخوف مع إذعان جميع الأنبياء لهذا التقدّم.

وقـد أثار علماء المعارف مـدى الارتباط بين الفروع والعقائـد، وأنّ الأفعال لها مناشـئ وعلل خلقيـة، ففى قوس النزول نرى أنّ العقيدة تولّد صفات وهى تكون مصدراً لعدد من الأفعال، بينما فى قوس الصعود الأفعال تولّد صفات وهى تولّد ملكات جوهرية أى عقائد.

كما يدلّ هذا المقطع على أنّ المأموم تابع لإمامه إمامةً تعبّدية، فلا يحقّ له تعليق تبعيته على معرفة الحكمة والمصـلحة فى أوامر إمامه، نعم، له الحقّ أن يسأل إمامه عن وجه الحكمـة، ولكن كما ذكرنا أنّ منشأ المتابعـة ليس معرفة الحكمة وإنّما الإمامة، فالآداب المتبادلة بين الخضر وموسى ذات منشأ وبذر عقائدى.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۳۴

«لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا» «۱»

، اعتراض من موسى بحسب الشريعة الظاهرة؛ لأنّ خرق السفينة تصرّف فى ملك الغير.

«قَالَ لَاتُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا» «۲»

، ليس المقصود من النسـيان المعنى المصـطلح وهو المنفى عن مقام العصـمة للنبىّ، كما سيتّضح ذلك فى الآيات القادمة، بل إنّ عدم اعتراض موسـى سوف يكون نقصاناً فى علمه النبوىّ، وإنّ من الكمال لموسـى هو الاعتراض، فالمعنى المراد من النسـيان هاهنا ضـرب من المعنى لا ينافى العصمة، نظير المعنى المجازى فى قوله تعالى: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» «۳»

، إذ النسـيان هو بحسب مقام الولايـة الـذى كان عند الخضـر المطّلع على الشـريعة بحسب الواقع الكونى، وهو لا ينافى عصـمة موسـى

بحسب الشريعة الظاهرة، كيف والنسيان ليس أسوأ من عدم علمه بما يعلمه الخضر، ومع ذلك لم ينافِ عصمته.

والمفاد المطابقى لكلام النبىّ موسى عليه السلام ليس كلاماً واستفهاماً وإنّما هو اعتراض بمقتضى الشريعة الظاهرة واستنكار للفعل. نعم، يقتضى بالتلازم العقلى الدفاع والجواب من الخضر، فمحور التجاذب فى الكلام هو عمّا لم يطلع عليه موسى، ومن ثمّ كانت إجابة الخضر: «قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» «۴»

، وهو يشير إلى ما قاله لموسى فى بدء لقائهما: «وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا» «۵»

، أى ما لم تعلمه، ومن ثمّ لم يقل له إنّك لم تفِ بما تعهّدت به، فالموازين بحسب الشريعة الظاهرة هى السبب فى اعتراضه الموجب لترك الشرط فيما بينهما، إذ الشرط لا يغير الحكم الأوّلى عمّا هو عليه.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۳۵

«فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا» «۱»

، وهذه هى الحادثة الأولى، والتى رأى فيها موسى تصرّفاً فى ملك الغير وتعريض الآخرين للغرق، كما يُلاحظ أنّ موسى استخدم تعبير (إمراً) أى مستقبح، بينما فى قتل الغلام كما سترى- يستخدم نكراً وهى أشدّ من الأولى؛ لشدّة قباحة الفعل ظاهراً.

«فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا» «۲»

، وهو قتل الخضر للطفل الصغير الذى لم يبلغ الحلم، وفى هذا تعدّيان فى نظر موسى: أحدهما هو القتل من دون سبب مجوّز له، والآخر أنّه ما زال صغيراً ولا يؤاخذ بما يفعل فضلًا عمّا لم يأت به.

«فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا» «۳»

، فالفعل هنا ليس كسابقه؛ إذ ليس فيه تعدّى، بل عمل تبرّعى محض لمصلحة الآخرين، كما يظهر أنّ إقامة الجدار قام بها الخضر بنفسه من دون موسى، وأنّه كان دفعياً بنحو التصرّف التكوينى لا تدريجياً، لذا كان اعتراض موسى عليه بعد انتهاء العمل.

«قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِکَ سَأُنَبِّئُکَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» «۴».

إنّ هذه الآية الكريمة توضّح لنا أنّ للخضر نوع من العلم الذى ليس لدى النبىّ موسى؛ وذلك لأنّ العلم النبوىّ هو العلم بإرادات اللّه التشريعية، وهذا بخلاف العلم اللدنى الذى يكون لدى أولياء اللّه الحجج، ونحن فى نفس الوقت نثبت أنّ كلّ نبىّ من حيث نبوّته قد يكون مطّلعاً على العلم اللدنى من بعض جوانبه.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۳۶

ومن امتيازات الشريعة فى تطبيقها بدرجتها فى سنن نظام الكون والعلم اللدنى، أنّ الواجبات والأحكام يمكن تطبيقها فى دائرة واسعة زمنية، أى يقع التزاحم بين الفعلى والمستقبلى حيث يعلم به، وكذا تشخّص الأهمّية فى الملاك بعد ملاحظة تداعياته وما يترتّب عليه. وهذا هو سرّ الفرق بين حكومة المعصوم عليه السلام وحاكميته بتوسّط ما يتنزّل عليه كلّ عام فى ليلة القدر من مقدّرات كلّ شىء، وبين حكومة غير المعصوم وحاكميته حيث يجهل كلّ ذلك، بل فى حكومة المعصوم يُتفادى ذات التزاحم نفسه، لما فيه من التفريط ببعض المصالح الشرعية، بخلاف حكومة غير المعصوم فإنّه لعدم إحاطته بتداعيات الأحداث والحوادث يفرط وينفرط عليه زمام الحفظ للملاكات والحدود الشرعية، ويقع فى سلسة من التفويت للأغراض الشرعية تحت ضغط ظروف التزاحم المفاجئ والتدافع التى تفرض عليه بسبب عدم قدرته على الإحاطة بخفايا الأُمور الراهنة والمستقبلية.

وعلى ضوء ذلك تتبلور فظاعة الطغيان والكفر، كما فى مَن أحيا نفساً فقد أحيا الناس جميعاً، كما ورد عن الصادق عليه السلام: «ذلك تأويلها الأعظم» «۱»

الإحياء بالمعرفة..

وهو قد ينطبق ويلتئم مع تداعيات الفعل فى سلسلة ممتدّة، كما فى إعزاء كلّ ذنوب الأمّة إلى الأوّل والثانى.

وهناك مقولة تقول: إنّ الفقه بمعنى الكلمة- مَنْ يتوصّل إلى أغراض الشرع بدون تزاحم، ومن بعد الدرجة اللاحقة مَنْ يصل إليها بالتزاحم، ولا تصل النوبة إلى التعارض، ومن بعد مَنْ يتوصّل إليها بالجمع العرفى، فالتعارض هو الخيار الأخير لمن يعجز عن الإحاطة بالدرجات السابقة.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۳۷

وهذه المقولة تؤشّر على أنّ كثيراً من التزاحمات المتصوّرة هى وهم تزاحم لا- حقيقة، ومع تحقّقه فلا- طريق إلّاالتعامل مع الملاك بشكل مقطعى، وهذا ليس إلّا لفقدان الوسيلة، لا لاختلاف التزاحم بين الشريعة بحسب درجة تطبيقها فى النظام الكونى والظاهرة.

نعم، لا يحيط غير المعصوم بالإرادات الكلّية حضوراً، وإنّما هو مختصّ بمن له الهداية فى الإراءة، كما أنّه لا قياس ولا مقارنة بين علم المعصوم بالشريعة الظاهرة وما يتوصّل إليه الفقيه بالظنّ القاصر عن الإحاطة بكلّ الشريعة الظاهرة، بل القاصر عن الوصول إلى متن الشريعة، بل من وراء حجاب دلالة الألفاظ مع عدم إحاطته أيضاً بكلّ الدلالة ولا بكلّ تناسباتها، فمن ثمّ يقع الخطأ حتّى فى هذا المقدار المحدود من النزر اليسير، فضلًا عن عدم إحاطته بتنزّلات الإرادات الكلّية ومنظوماتها.

وبالجملة لا محلّ لقياس الثرى من الثريا والتراب من فلك عالم الإمكان، وقد روى العياشى عن إسحاق بن عمّار، عن أبى عبد اللَّه عليه السلام، قال: «إنّما مثل علىّ عليه السلام ومثلنا من بعده من هذه الأُمّة كمثل موسى عليه السلام والعالم حين لقيه واستنطقه وسأله الصحبة، فكان من أمرهما ما اقتصّه اللَّه لنبيّه صلى الله عليه و آله فى كتابه، وذلك أنّ اللَّه قال لموسى: «إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» «۱»

، ثمّ قال: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» «۲»

، وقد كان عند العالم علم لم يُكتب لموسى فى الألواح وكان موسى يظنّ أن جميع الأشياء التى يحتاج إليها فى تابوته وجميع العلم قد كتب له فى الألواح، كما يظنّ هؤلاء الذين يدّعون أنّهم فقهاء وعلماء وأنّهم قد أثبتوا جميع العلم والفقه فى الدين ممّا تحتاج هذه الأُمّة إليه وصحّ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۳۸

لهم عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعلموه وحفظوه، وليس كلّ علم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله علموه ولا- صار إليهم عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولا- عرفوه، وذلك أنّ الشىء من الحلال والحرام والأحكام يرد عليهم فيُسألون عنه ولا يكون عندهم فيه أثر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ويستحيون أن ينسبهم الناس إلى الجهل، ويكرهون أن يُسألوا فلا يجيبوا فيطلب الناس العلم من معدنه، فلذلك استعملوا الرأى والقياس فى دين اللَّه، وتركوا الآثار ودانوا اللَّه بالبدع وقد قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: كلّ بدعة ضلالة.

فلو أنّهم إذا سُئلوا عن شىء من دين اللَّه فلم يكن عندهم منه أثر عن رسول اللَّه ردّوه إلى اللَّه وإلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم من آل محمّد صلى الله عليه و آله، والذى منعهم من طلب العلم منّا العداوة والحسد لنا، لا واللَّه ما حسد موسى عليه السلام العالم وموسى نبىّ اللَّه يوحى اللَّه إليه، حيث لقيه واستنطقه وعرفه بالعلم، ولم يحسده كما حسدتنا هذه الأُمّة بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على ما علمنا وما ورثنا عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ولم يرغبوا إلينا فى علمنا كما رغب موسى عليه السلام إلى العالم وسأله الصحبة ليتعلّم منه ويرشده، فلمّا أن سأل العالم ذلك علم العالم أنّ موسى عليه السلام لا يستطيع صحبته ولا يحتمل علمه ولا يصبر معه، فعند ذلك قال العالم: «وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا» «۱»

، فقال موسى عليه السلام له وهو خاضع له يستعطفه على نفسه كى يقبله: «سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» «۲».

وقد كان العالم يعلم أنّ موسى عليه السلام لا- يصبر على علمه فكذلك- واللَّه يا إسحاق بن عمار- حال قضاة هؤلاء وفقهائهم

وجماعتهم اليوم لا ـ يحتملون واللّه- علمنا ولا يقبلونه ولا يطيقونه ولا يأخذون به ولا يصبرون عليه، كما لم يصبر موسى عليه السلام على علم العالم حين صحبه ورأى ما رأى من علمه وكان ذلك عند موسى عليه السلام مكروهاً وكان عند

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۳۹

اللّه رضاً وهو الحقّ، وكذلك علمنا عند الجهلة مكروه ولا يؤخذ وهو عند اللّه الحقّ» «۱».

والهداية الإيصالية شيء وراء الوساطة في الفيض في قوس الصعود أو هي، ومع كونها هي هل هي مختصّة بالمؤمن أو تعمّ الكافر حيث إنّ الوساطة لم يُستثن منها أحد؟

بل هي مع خصوصيات تذكر في محلّها، والوساطة لم يُستثن منها أحد سوى أنّ الكافر لا فيض إليه وإنّما حرمان، فالوساطة وساطة في الحرمان من تحصيله على كمالات، والواسطة في مثل هؤلاء أئمّة الشرّ والضلال كإبليس والجبت والطاغوت.

وباختصار: إنّ السورة المباركة (الكهف) في صدد بيان قصّة الإمامة، وإنّها ظاهرة مستمرّة لا تنقطع، وإنّ إكمال الدين ليس بالنبوّة المجردة عن الولاية والإمامة، فإنّها ليست الغرض الأقصى، وإنّما التمام بالهداية الإيصالية، والمتمثّلة بإمام له الولاية وإدارة جماعة خفية مهمّتهم حفظ أغراض الشريعة الظاهرة بتحقيقها سواء المرتبطة بنظام المجتمع أم المرتبطة بالفرد.

ثمّ إنّ الظاهر أفضلية موسى على الخضر من بعض الجهات؛ بقرينة تبعية الثاني لشريعة الأوّل، المستفاد من بيانه لشرعية أفعاله بموازين شريعة التوراة، وإن كان يمتاز على موسى بالعلم اللدني للوصول إلى أغراض الشريعة.

وبيانه بشكل مفصّل يعتمد الالتفات إلى هاتين النقطتين:

النقطة الأولى: يذكر في علم أصول الفقه أنّ القضية الشرعية الحقيقية التي ينشأها الشارع ويعتبرها، لها بعد تكويني وهو الإرادة التشريعية، وحقيقة هذه الإرادة تكوينية تتعلّق باعتبار الحكم الذي هو فعل الشارع.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۴۰

والإرادة التكوينية هذه كلّية من جهة أنّ متعلّقها هو الاعتبار الكلّي. بل العراقي ومن قبل النهاوندي افترضا أنّ حقيقة الحكم هي هذه الإرادات والإنشاء والاعتبار مجرّد وسيلة تخبر عن حكم اللّه الذي هو الإرادة.

ومن ثمّ سواء قلنا إنّ حقيقة الحكم الاعتبار والإرادة مبدأه كما هو الحقّ، أم قلنا إنّ حقيقته الإرادة والاعتبار مبرز وكاشف ومخبر، فالنتيجة المتوخاة واحدة، وهي أنّ التكوين ذو صلة بالاعتبار، وأنّ غطاء الاعتبار أو محكيه هو الإرادات الإلهية التكوينية الكلّية، وهذه الإرادات بحكم نظام الوسائط تتنزّل حتّى تنتهي بنفس الوحي ومن قبل النبيّ.

هذا ويذكر في علم الأُصول أيضاً أنّ الحكم الكلّي ينحلّ عقلًا إلى أحكام جزئية شرعية اعتبارية، وكذا الإرادات الكلّية تنحلّ إلى إرادات جزئية تكوينية، وقد نبّه إلى ذلك العرفاء أيضاً، وهو الحقّ.

النقطة الثانية: إنّ تنزّل الأمر والشأن منه تعالى على عالم مثل الدنيا يتمّ عبر مراحل ولوائح تكوينية ونشآت متعدّدة، وكلّما كان العالم والنشأة أكثر علوية كلّما كانت المتنزّلات أكثر بساطة، وكلّما توغّل في التنزّل كلّما كان أكثر تقديراً ومحدودية وتضيّقاً.

وعلى هذا الأساس نقول: إنّ النبيّ الحامل لشريعة الظاهر تتلقّى نفسه الشريفة التشريع في لوائح عالية في النشآت الغيبية، فهو يعلم بالاعتبارات وموجبها وهي الإرادات الكلّية التكوينية.

وأمّا حامل الولاية والشريعة في السنن الكونية فيتلقّى الإرادات الإلهية التكوينية الجزئية في نشآتها النازلة، كما يتلقّى الإحاطة بالإرادات الكلّية عن المقام الروحي للنبيّ عن مقامه الغيبي ومن ذلك يظهر استحالة النبوّة مجرّدة عن الولاية كاستحالة تجرّد الحكم الاعتباري الشرعي وانفكاكه عن الإرادة الشرعية،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۴۱

فكما أنّ الحكم الشرعي من دون إرادة إلهية مستبطنة خلفه محال، فكذلك استحالة النبوّة والرسالة من دون تعقّبها بما يليها في المقام

الغيبى وهى الولاية والإمامة.

ومنه يتّضح أنّ الشريعة لو اقتصر فيها على سطح العلم الظاهر من فقه المعارف والأحكام وهو العلم الحصولى الكسبى بالشريعة الظاهرة من دون عمق العلم اللدنى بالحقائق والإرادات الإلهية التكوينية وهو الولاية والإمامة الإلهية، لكان ذلك من قيام الاعتبار من دون نشأة الحقيقة التكوينية، وكان خيال وسراب محض، ولكن مثل الخضر عليه السلام من أقسام الولى الحجّة، وكذا مريم عليها السلام.

كما تقدّم له الهداية الإراءية فهو محيط بالإرادات الكلّية حضوراً فكيف كان موسى أفضل منه؟ فهو باعتبار أنّ الولى الحجّة مع النبيّ صلى الله عليه و آله المتبوع له يتلقّى فى القنوات الروحية عن ذلك النبيّ يتبعه، فالزهراء عليها السلام تتلقّى فى الباطن الروحى عن المقام الروحى لسيد الأنبياء صلى الله عليه و آله. وعلى أساس هذا الفرق يتبين أكملية النبيّ حامل الشريعة الظاهرة على التابع له الولى الحجّة الحامل للولاية وللشريعة بحسب الدرجة فى النظام الكونى.

ثمّ إنّنا نلحظ فى قضية الخضر أدباً إلهياً بعد الالتفات إلى أنّه أسند الأفعال تارةً إلى نفسه فى: «أَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا» لا إلى اللّه تعالى، وأُخرى إلى اللّه فى: «فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا» «۱»

، وسرّ الاختلاف كما تبينه الرواية عن الصادق عليه السلام أنّ فى القول الأوّل حيث كان الفعل معبّراً عن نقص فلم ينسب إليه تعالى تأدّباً، بخلاف الثانى، فلمّا لم يكن إلّاأمراً خيرياً نسب إلى اللّه تعالى.

وبهذا يمكن أن نفهم الفرق بين موسى والخضر وأكملية الأوّل على الثانى من

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۴۲

بعض الجهات.

كما يمكن على هذا الأساس أن نسجّل تعريفاً دقيقاً لكلّ من شريعة الظاهر ونظام التكوين، فالأُولى هى الإرادات الكلّية التكوينية الإلهية المتعلّقة بأفعال المختار بتوسّط تعلّقها بفعل الشارع، وهو الأمر والإنشاء والاعتبار، والثانية هى الإرادات الجزئية المنحلّة من الإرادات الكلّية.

وهذه القضية فى واقعها أحد أوجه الفرق بين العلم النبوىّ والعلم اللدنى والتى سبق أن أشرنا إليها، وهى أنّ العلم اللدنى له مجال أوسع؛ إذ يشمل أولياء اللّه الحجج وهو نوع من الاصطفاء، ويكون مقاماً أعمّ من الإمامة وأعمّ من النبوّة، فيشمل الزهراء عليها السلام ومريم عليها السلام التى لها نوع من الولاية، وبقية أولياء اللّه الحجج التى تشير إليهم الآيات القرآنية، لذا فهو يشمل النبىّ والإمام والحجّة الولى.

أمّا العلم النبوىّ فإنّه يختصّ بالأنبياء، وهذا لا يعنى التقاطع بينهما، بل إنّ النبوّة تلازم وجود شعبة من العلم اللدنى للنبيّ دون العكس، ومن هنا قيل إنّ كلّ نبىّ ولىّ وليس كلّ ولىّ نبىّ؛ إذ لا- يمكن للنبىّ أن يصل لنبوّته من دون أن تكون له شعبة من شعب العلم اللدنى، ومن هنا قيل إنّ ولاية النبىّ أرفع من نبوّة نفس ذلك النبىّ، ويدلّلون فى علوم المعارف أنّ الولاية هى غيبية دائماً وتكوينية، والنبوّة وإن لم تكن ظاهرية تماماً، إلّاأنّها بالإضافة إلى ولاية ذلك النبىّ تعتبر ظاهراً.

وبتعبير آخر: أنّ النبىّ بولايته يتلقّى من البارى ويعلم بالإرادات التكوينية ثمّ فى تنزّلها تكون ظاهراً ورسالة، وهذا العلم اللدنى هو المنشأ للظاهر ولا يشمل كلّ الإرادات التكوينية، كما يأتى الإشارة مفصّلًا فى حقيقة التشريع.

أمّا التأويل الوارد ذكره فى الآية الكريمة؛ فإنّ التأويل عموماً ورد فى القرآن بعدّة استعمالات:

۱- فى سورة يوسف، تأويل الأحاديث والرؤيا، وأنّه لديه علم التأويل، وهذا

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۴۳

لا يخصّ الرؤيا كما قد يبدو لأوّل وهلة، بل يعمّ كلّ ما يرتبط بالنشأة ما قبل الدنيا.

۲- فى قوله تعالى: «يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ» «۱»

بلحاظ نفس الوجود الخارجى لحقيقة القرآن.

۳- التأويل بلحاظ الوجودات والنشآت المختلفة، ومنه ما ورد أنّ الآخرة تأويل للدنيا.

۴- التأويل الوارد فى آية المحكم والمتشابه.

۵- التأويل الوارد فى هذه السورة، وهو تأويل ببيان الشريعة بحسب السنن الكونية الإلهية.

والتأويل مأخوذ من الأول والأوب وهو الرجوع والانتهاء، والغايـة تأويل المغيا، وغايـة الغايـة تأويل الغايـة، وهذا هو المعنى الجامع بين هـذه المعـانى، وهو مـا يعنى تعـاقب النشـآت لبعضـها البعض وجعل التاليـة غايـة للسابقـة، فما قبل النشأة الـدنيا غايتها النشأة الدنيويـة، والبرزخ والآخرة هى غايـة للـدنيا، وعليه لا تكون التأويلات محصورة بل تتعـدّد بتعـدّد النشآت، وقـد يحظى الأولياء الحجج ببعض أو كلّ هذه التأويلات حسب مقاماتهم.

فى تفسير الخضر أفعاله لموسى، وقبل ذلك نعرض لنقطتين:

النقطة الأولى: على صعيد التعليلات التى ذكرها الخضر لموسى يجب التوجّه إلى:

أ- إنّ مقام التعليل الغرض منه هو إقناع الطرف الآخر، ولذا يجب أن يذكر فيه علّة مشتركة على مبنى المتكلّم والسامع.

ب- إنّ فعل الخضر كان على أساس مقام الولاية من الشريعة بحسب السنن

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۴۴

الإلهية الكونية، واعتراض موسى كان على أساس الشريعة الظاهرة من مقام النبوّة، ممّا يعنى وجود مشترك بين درجتى الشريعة بحسب الظاهر ونظام التكوين؛ وإلّا لما كان تعليل الخضر مفهوماً لموسى، مع أنّا نلحظ أنّ موسى اقتنع بل انجلى له فظاعة ما تقدّم.

ج- يستنتج من هاتين النقطتين أنّ ما علّل به الخضر هو القاسم المشترك بين الشريعة الظاهرة والشريعة فى السنّة الإلهية الكونية.

د- إنّ موسى اقتنع بما ذكر له الخضر وانجلى له صحّة الأفعال التى قام بها الخضر حتّى على مستوى الشريعة الظاهرة.

ه- ومن هنا نستنتج حقيقـة مهمّـة فى النسبة بين درجتى الشـريعة، وهى أنّ السـنّة الإلهية الكونية تطبيق للظاهرة، وأنّ النظام الكونى لا يلغى الظاهر بل هما متلاحمان، وأنّ الولاية إنجاز لأغراض النبوّة.

ومن هذه النتيجة يمكن أن نؤشّر على ظواهر انحرافية هى تلك التى ألغت الظاهر بالنظام الكونى الإلهى، أو افترضت أنّ السنن الكونية لا تفهم بالظاهر أبداً ولو بتوسّط المعصوم، أو أنكرت العلاقة بينهما وأنّها مفترضة أجنبية ومغايرة، بل ناسـخية الشريعة الكونية للظاهرة، وأنّ الولاية فى الإمامة ناسخة للنبوّة بتوهّم أنّها نبوّة أُخرى، وأنّ كلّ مقام غيبى فهو نبوّة.

النقطـة الثانيـة: من القواعـد المهمّـة الـتى تحكم الشـريعة الظـاهرة والتى تحتـاج من الفقيه إلى تـدبّر وتمعّن فى الموازنـة بين الأحكـام الظاهريـة، هى حالـة التصادم بين الأحكام المختلفـة وأى حكم يجب تقـديمه فى هذا المقام، وهو المعروف بين الفقهاء بالتزاحم، وقد ذكرنـا مفصّلًا فى بحـث علـم أصـول الفقه الـتزاحم فى الملاكـات وفى مقـام الامتثـال والضوابـط الـتى يجب مراعاتهـا فى تقـديم أى الملاكين، وقد أشرنا هناك إلى أنّ ما ذهب إليه العامّة من بحث المصالح المرسلة

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۴۵

وسـدّ الـذرائع مـا هو إلّانوع من التطبيق لمبـدأ التزاحم، واختلافنا معهم فى كيفيـة اسـتكشاف الملاكات وفى طريقـة التقـديم، فهم قد اكتفوا بالملاكات الظنّية والتقديم الظنّى أو جعلوا ذلك ضابطة للتشريع الثابت.

وسوف نلاحظ أنّ الأفعال التى قام بها الخضـر هى من باب التزاحم والسعى إلى حفظ الملاكات الواقعية التى خفيت عن النبىّ موسى، والتى لو كان قد علم بها لما اعترض عليه:

أوّلًا: خرق السفينة ... ص: ۴۴۵

وهاهنا سؤالان:

الأول: كيف ينسجم التعليل مع موازين الظاهر؟

الثانى: مع الانسجام ما هو الواقع فى السنن الإلهية الكونية الذى اختصّ به الخضر؟

ففى هذا الفعل كان هناك ملاكاً مهمّاً سعى الخضر إلى المحافظة عليه؛ وهو حفظ مال المساكين من سطوة الحاكم الظالم، وهذا لم يكن موسى على علم به، ثمّ فى مقام التطبيق كان الأمر يدور بين عطب السفينة وبين تعييبها؛ إذ فى كلاهما يتحقّق الغرض، ومن الواضح أنّ المحافظة على الكلّ أولى من المحافظة على البعض، فالخضر عمل بقاعدة التزاحم وهذا من موازين الظاهر أيضاً، لكنّه اختصّ بعلم وجود مصاديق التزاحم من اغتصاب الملك الظالم لكلّ سفينة.

ثمّ فى كيفية التصرّف الذى قام به الخضر من دون إذن أصحابها، فيمكن القول فيه: إنّ التصرّف العقدى يحتاج إلى إذن صريح ورضا بالإنشاء، أمّا التصرّف المجرّد غير العقدى كالأكل والشرب- فلا يحتاج إلى ذلك بل يكتفى فيه بالعلم بطيب النفس وإن لم يكن المالك ملتفتاً، ومن هنا تظهر النكتة فى أنّ إذن الفحوى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۴۶

لا يحتاج إلى إبراز إنشائى، ومن الواضح أنّ المالك لو خير بين تلف العين أو صفة العين فإنّه سوف يختار الثانى.

فنلاحظ أنّ الخضر بالعلم اللدنى علم أنّ الملك سوف يأخذ كلّ سفينة غصباً، فهو إعمال للعلم اللدنى فى تطبيق الشريعة الظاهرة، وهذا هو الحدّ الذى تعطيه الآية فى العلقة بين الشريعتين، أو بتعبير أدق بين درجتى الشريعة، أى أنّ الشريعة بحسب السنّة الإلهية الكونية ومقام الولاية تسعى إلى التحفّظ على الملاكات فى الشريعة الظاهرة ومقام النبوّة بنحوٍ لا يقبل الخطأ، وتكون مصيبة دائماً.

ثانياً: قتل الغلام ... ص: ۴۴۶

والإشكال فيه كما ذكرنا سابقاً من جهة الاقتصاص قبل الجريمة، وكونه غلاماً لم يبلغ الحلم.

والجواب عنه نقضاً وحلّاً:

أمّا النقض فبوجود موارد يوجد فيها جواز للقتل من دون جرم، كما فى حالات تترّس الكفّار بالمسلمين فى الحرب فيجوز عند استهداف الكفّار للقتل حينئذٍ قتل المسلمين. وكما فى حالات الدوران- على بعض الأقوال الفقهية وإن لم يكن تامّاً عند المشهور المنصور من الرأى الفقهى- بين حفظ النفس ونفس أُخرى أهمّ ملاكاً من الأُولى، فيرفع اليد عن وجوب حفظ أحد النفسين، ويحافظ على النفس الأهمّ.

أمّا الحلّ: إنّ قوانين التزاحم التى تحكم الشريعة الظاهرة هى مختصّة فى الحكمين الفعليين، أمّا فى شريعة السنن الإلهية الكونية فإنّ التزاحم يطبّق حتّى فى موارد الشىء الفعلى والآخر المستقبلى، وهذا ما يحدث فى العلم اللدنى حيث يرى أنّ الملاك الأهمّ بمراتب وإن كان ليس بفعلى يتصادم مع الملاك

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۴۷

الفعلى، وهذا وإن لم يكن ميزاناً فى ظاهر الشريعة لعدم حصول العلم بالشىء المستقبلى لاسيما إذا كان متمادياً فى طول الزمان.

والروايات تشير إلى أنّ اللّه أبدلهما ببنت تزوّج منها نبىّ من أنبياء اللّه وتسلسل منه سبعون نبيّاً، فلو بقى هذا الغلام لكان سبباً فى كفر الأب، وبالتالى انقطاع النسل النبوىّ، وهذا لا يمكن استعلامه بالشريعة الظاهرة، بل يتمكن منه من أُوتى العلم اللدنى.

ثالثاً: الجدار ... ص: ۴۴۷

إنّ إشكال موسى هنا لم يكن فى مؤاخذة إلزامية، بل كان لترك ما هو الأولى والأرجح.

ويلاحظ من التعليل الوارد فى هذه الآية الشريفة أمران:

أ- إنّ الإرادة الإلهية ليست من سنخ إرادة اللّه (كن فيكون)، بل إرادة فى واقعها تتحقّق بالاختيار البشرى، وبتوسّط البشر لا بتوسّط الملك أو مخلوقات أُخرى.

ب- إنّ الملاك الأهمّ الذى أراد اللّه عزّوجلّ حفظه هو ملاك ندبى، وهو كون أبيهما صالحاً، فأراد الحقّ تعالى إكراماً لهذا الأب الصالح أن يحفظ بصلاحه ذرّيته.

وهنا ننتقل للقول بأنّ الإرادة الإلهية كان لها هذا الدور من خلال هذه المنظومة فى حفظ هذه الأغراض التى ليس لها تلك الأهمّية الإلزامية وتتّصف بالشخصية، فكيف بتلك الأغراض الجادّة المهمّة التى تؤدّى إلى انعطافات مهمّة فى الدين والشريعة، فهذا يدلّنا على وجود مجموعة من الأولياء ورجال الغيب الذين لهم تلك الخصوصية من الاطلاع على العلم اللدنى وتكون وظائفهم حفظ الأغراض التى يوليها الشارع تلك العناية، وأنّ الحقّ تعالى لا يوكل الأمر إلى مجموع

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۴۸

الاختيار البشرى، بل إنّ هذه المجموعة هى التى تسعى بالمجموع للوصول إلى مقاصد الشريعة.

والأمر المهمّ الذى نستفيده من هذه التعليلات أنّ الشريعة الكونية والسنن الإلهية التكوينية تطبيق للشريعة الظاهرة، وأنّ الهداية الإيصالية فى الشريعة الكونية هى إقامة خفية للشريعة الظاهرية، فلا يُكتفى بالهداية الإرائية، بل تكون إلى جنبها الهداية الإيصالية، وأن لا تترك الأُمور إلى الصدف، بل تكون هناك يد غيبية لأجل المحافظة على تحقيق الأهداف والأغراض.

وقوله تعالى «عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا»، يؤكّد أنّ الخضر ليس وحيد سنخه، وإنّما هنالك منظومة من الأبدال والأوتاد والأولياء قد زوّدوا بالعلم اللدنى، وأنّ من جملة وظائفهم تحقيق الأغراض التى هى الملاكات وغايات الشريعة الظاهرة.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۴۹

فوائدالفائدة الأُولى: حقيقة التشريع ... ص: ۴۴۹

اشارة

إنّ قضية الخضر مع النبىّ موسى وما اختصّ به كلّ منهما من الكمالات يستدعى التعمّق قليلًا فى بيان حقيقة التشريع السماوى الذى أوتيه النبىّ موسى عليه السلام وحقيقة العلم الذى أوتيه الخضر، وأنّ هذه القصّة لا تدلّ على أفضلية الخضر على النبىّ موسى من كلّ جهة، بل هو تابع له فى شريعته السماوية.

لقد سعى الأصوليون خلال سنين متعدّدة إلى تركيز النظر فى حقيقة الحكم الشرعى والمراحل التى يمرّ بها، وإذا كان تسليط الضوء على أحكامه فى الفترة التى تعقب صدوره من الناحية المقدّسة عن طريق الرسول صلى الله عليه و آله، فإنّ المراحل التى تسبق مرحلة الإنشاء كانت أيضاً محلّ بحث وتأمّل بين العلماء، وكان السؤال الذى دار فى أذهانهم ما هو الارتباط بين عالم الاعتبار وعالم التكوين؟ وهل هما منفصلان بعد المفروغية من أنّ الاعتبار يستتبعه التكوين والفعل الخارجى لكنّ الكلام فى المرحلة السابقة؟

* فذهب جمهرة من الأصوليين إلى أنّ الإرادة الإلهية التكوينية هى الأساس لهذا التشريع والاعتبار، بمعنى أنّ وراء الاعتبار إرادات تكوينية متعلّقها ليس الفعل الخارجى، بل متعلّقها إنشاء الحكم واعتباره، وهى بالتأكيد تسبق الاعتبار والحكم التشريعى، وكلّيتها متعلّقها هو الاعتبار والإنشاء أو جعل حكم كلّى.

وذهب المحقّق النهاوندى فى تشريح الأصول إلى أنّ الأحكام الشرعية ليست

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۵۰

أحكاماً اعتباريـهٔ، بـل هى إرادات تكوينيـهٔ تشـريعيهٔ، ومتعلّقـهٔ بفعـل المكلّف، وتبعه المحقّق العراقى. وأنّ الأحكام الشـرعيهٔ التكليفيهٔ إرادات تكوينيهٔ سابقهٔ على النشأهٔ الأرضيهٔ، والإنشاء مجرّد وسيلهٔ تخبر عن حكم اللَّه الذى هو الإرادهٔ.

وعلى كلّ حال، فسواء جعلنا الإرادهٔ التكوينيهٔ هى منشأ الشـريعهٔ الظاهرهٔ أو أنّها هى، فإنّ هذه الإرادات ليست حالهٔ فى الذات، بل هذه الإـرادات بحكم نظام الوسائط تتنزّل من اللوح والقلم. حتّى تصل إلى نفس النبىّ أو الوصـىّ أو الولىّ الحجّـهٔ، وأن إراداتهم هى إرادهٔ اللَّه ومشيئاتهم مشيئات اللَّه.

* نبّه الأـصوليون إلى أنّ الأحكام قسـمان: الشـرعيهٔ الاعتباريـهٔ والأحكام التكوينيـهٔ. فالأُولى تكون على صـيغهٔ القضايا الحقيقيـهٔ، وهى تنحلّ إلى قضايا جزئيـهٔ فى موارد عديـدهٔ، وبالمقابل فى الأحكام التكوينيهٔ، أى أنّ الأحكام التكوينيهٔ الكلّيهٔ تنحلّ إلى أحكام تكوينيهٔ جزئيهٔ تكون وراء كلّ حكم شرعى جزئى، وقد نبّه أهل المعرفهٔ على ذلک.

* وقـد أشـارت الروايـات وفسّرها أهل المعرفهٔ والحكمـهٔ- إلى أنّ الأمر والشأن من اللَّه فى تنزّله إلى العوالم السـفليهٔ يتمّ عبر مراحل، ويعبّرون أنّها تتمّ عبر لوائـح تكوينيـهٔ وأقلام تكوينيـهٔ، وكلّما كانت النشأهٔ أكثر علويـهٔ كانت الإرادات الإلهيـهٔ فيها كلّيـهٔ، وكلّما تنزّلت هذه الأوامر الإلهيهٔ فى اللوائح النازلهٔ كلّما ضيّقت وقدّر وصارت ليلهٔ القدر أى ليلهٔ التحديد.

* إذا التفتنا إلى النكات السابقـهٔ نسـتطيع معرفـهٔ الفارق المحورى بين الشـريعهٔ فى الدرجهٔ الظاهرهٔ والكونيهٔ ونظام التكوين، وبين مقام صاحب الشريعهٔ بالدرجهٔ الظاهرهٔ، وبين مقام صاحب شريعهٔ السنن الكونيهٔ الإلهيهٔ.

فإنّ النفس النبويّهٔ تتلقّى الإرادات الكلّيهٔ التشـريعيهٔ الإلهيهٔ فى لوائح ونشآت عاليهٔ، ويكون لها علم بتلک الإرادات التكوينيهٔ الكلّيهٔ، أمّا صاحب النفس الولويهٔ

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۵۱

والشريعهٔ الكونيهٔ فإنّه يتلقّى الإرادات الإلهيهٔ الجزئيهٔ التكوينيهٔ فى اللوائح والنشآت النازلهٔ.

وبناءً عليه نرى أنّ الـذى يطّلع على تلک الإرادات الكلّيـهٔ يكون أفضل مقاماً من الـذى يطّلع على الإرادات الجزئيـهٔ فقط، ولا يكون له اطّلاـع على تلـک الكلّيـات إلّا من خلال الإرادات التشـريعيهٔ الواردهٔ عن طريق النفس النبويّـهٔ، ومن هنا نقول إنّ هؤلاء الأولياء الحجج يكونون تـابعين لصـاحب الشـريعهٔ النبىّ الـذى فى زمانهم؛ وذلک لأنّ تلک الإرادات الكلّيـهٔ تكون عن طريق تلک النفس النبويّـهٔ فى عهده.

ومن ثمّ إنّ النبىّ الخاتم صـلى الله عليه و آله يكون واسـطهٔ فى تلقّى الأئمّـهٔ عن طريق الملكوت والأرواح التى هى مرتبطـهٔ بعالم الأمر والملكوت، لا عن طريق الحسّ والظاهر.

وبتفاوت النبوات وأفضـليتها تتفاوت مقامات التابعين والأولياء، ويمكن أن نفهم الفرق بين موسـى والخضـر وأكمليهٔ الأوّل على الثانى، مع عدم علم موسى ببعض ما عند الخضر.

كمـا يظهر تعريف آخر للشـريعهٔ الظاهرهٔ: أنّها الإرادات الكلّيـهٔ الإلهيـهٔ ومتعلّقها أفعال المكلّفين المختارين بتوسّط تعلّقها بفعل الشارع وهو الأمر والإنشاء والاعتبار. والشريعهٔ فى السنن الإلهيهٔ الكونيهٔ: أنّها الإرادات الجزئيهٔ المنحلّهٔ من تلک الإرادات الكلّيهٔ «۱».

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۳، ص: ۴۵۲

كمـا يعلـم الحـال فى غير المعصـومين وأنّ فقهـاء الشـريعهٔ إنّمـا يصـلون إلى الحكـم الظـاهرى فى الشـريعهٔ الظـاهرهٔ عن طريـق الطرق والإمارات الشـرعيهٔ، بينما النبىّ يكون له اطّلاع مباشر على الإرادات التكوينيهٔ الكلّيهٔ، أمّا الفقيه فلا يحيط بذلک فضلًا عن الاطّلاع على الإرادات الجزئيـهٔ، ويفهم من ذلک أنّ مجرّد الحصول على الملكـهٔ الكسبيـهٔ لا يعنى الاطّلاع والوصول إلى تلک الإرادات الكلّيـهٔ ولا الجزئيهٔ، فلابدّ أن يكون تابعاً إلى صاحب الولايهٔ.

الفائدة الثانية ...: ص: ۴۵۲

وتتضمّن تحليل أدبى لغوى فلسفى لأدب من الآداب الإلهية، أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام فى رواية ذكرها صاحب نور الثقلين، وهى تتعلّق بملاحظة طريقة تفسير الخضر لأفعاله واختلاف نسبة الأفعال فى الوقائع الثلاث، ففى قصّة السفينة قال: «فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا»، وفى قضية القتل قال: «فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا* فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا» «۱»

، وفى واقعة الجدار قال: «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا»....

فنلاحظ أنّه تارةً يسنده إلى نفسه، وتارةً للمجموع، وثالثةً للّهعزّوجلّ، والملاحظ أنّه فى الأفعال الخيرة يسند الفعل للّهعزّوجلّ، وفى الأفعال التى ظاهرها النقص يسندها إلى نفسه أو إلى من هو مثله. فالإعابة والقتل والخشية من أفعال الآدميين، والإرادة والإبدال هى من أفعال اللّه عزّوجلّ، فمع أنّ الكلّ من عند اللّه عزّوجلّ إلّاأنّه فى مقام التأدّب معه تعالى لا يسند ما ظاهره النقص له

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۵۳

تعالى.

أمّا المجموع فى (فخشينا) فلا يمكن أن يريد الخضر نفسه، والجمع بلحاظ التفخيم؛ وذلك لأنّ الخضر لا يفخّم نفسه فى قبال اللّه تعالى، ولا أيضاً فى قبال موسى، مضافاً إلى أنّه فى الشريعة للسنن الكونية الإلهية يُراعى دقّة الحقائق لا المجازات، وإذا أخذنا فى عين الاعتبار ما ورد فى صدر القصّة من عبادنا، فنعلم أنّ المراد من الخشية هنا هو مجموع رجال الغيب، وهى مجموعة تسالمت المذاهب المختلفة على وجودها وإن اختلفت تسميتها من الأبدال والأوتاد والسياح والأركان، وأنّ هذا العلم لا يختصّ بالخضر بل إنّ تلك العلوم يزوّد بها رجال هذه المنظومة، فهم وإن كانوا غير موكّلين كلّهم بهذه المهمّة إلّاأنّ العلم بهذا العلم يولد خشية لدى الجميع، وإن كان التنفيذ مختصّاً بواحد منهم، وكأنّه ينوب عنهم فى تأدية هذا الفعل.

إنّ هذا الأدب الإلهى الذى أشرنا إليه فيما مضى أيضاً فى طلب موسى من الخضر وإجابة الخضر له، إنّما يدلّ على جذر عقائدى يدعم ويولّد تلك المعرفة التى يكون تلفّظ الإنسان بها وخطابه مع الذات المقدسة بما يتلاءم مع مقام الذات وتنزّهها عن المعايب والنواقص، وقد أشار علماء المعرفة إلى هذه النكتة فى موارد عدّة، مثلًا فى صفة الكرم يرجعونها إلى أنّ الاعتقاد بحسب الفطرة بأنّ فيض وجود اللّه عزّوجلّ وكمالاته غير متناهية، فالرزق والعطاء لا يكون محدوداً، ومنه ينشأ صفة الكرم.

وهكذا صفة الشجاعة فهى تعود إلى مقام توحيدى بالاعتقاد بأنّ القدرة الحقيقية كلّها ترجع إليه سبحانه، وبالتالى لا يكون هناك أحد مالكاً للقدرة إلّا بإقدار منه، فينشأ من هذا الاعتقاد عدم خشية الإنسان من أحد، وإذا شاهدنا أمثال هذه الصفات من أحد فإنّها تنمّ عن مقدار من التوحيد بنحو الإجمال البسيط فى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۵۴

فطرته، بل ما ورد فى سورة البلد يدلّ على أنّ الصفات الحميدة دالّة على الإيمان:

«فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ* يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ* ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» «۱».

ولا يخفى أنّ هذا الأدب ليس مجرّد مجاملات شكلية، وإنّما يعتمد أساساً على قاعدة تمّ مراعاتها من قبل الخضر، وهو ما أشار إليه القرآن من نسبة السيئة إلى العبد ونسبة الحسنة إلى اللّه مع كون كلّ منهما من عند اللّه.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۵۵

المقالة الثانية التصدّى الفعلى الخفىّ للإمام فى عصر الغيبة لإدارة وتدبير النظام الاجتماعى البشرى ... ص: ۴۵۵

اشارة

وهذا التصدّى الفعلى الخفى السرىّ المستتر ليس خاصّاً بعصر الغيبة وليس خاصّاً بالإمام المهدى (عج)، بل هو من لدن إمامة آدم عليه السلام وأوصيائه، وإمامة نوح وإبراهيم إلى إمامة سيد الأنبياء صلى الله عليه و آله قبل بعثته وأثناء حكومته الظاهرية، وأمير المؤمنين عليه السلام قبل حكومته الظاهرية وأثناءها أيضاً، وكلّ الأئمّة عليهم السلام إلى عهد إمامة المهدى (عج) فى عصر غيبته، ونلحظ هذه الحقيقة فى شؤون الإمامة الإلهية من خلال نموذج الخضر.

فنلحظ أنّ الخضر قد نسب ثالثة الفعل إلى المجموع فى قوله (فخشينا، فأردنا)، وهو ينسجم مع قوله: «عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا» الظاهر فى أنّ الخضر واحد من مجموعة قد زوّدوا بالعلم اللدنى وكُلّفوا للمحافظة على أغراض الشريعة الظاهرة بتطبيقها، فالخشية هى خشية المجموع، وإرادة الجميع تدلّ على أنّ ما قام به الخضر واجب كفائى قد انبرى الخضر لأدائه.

بعد كلّ هذا. يمكن أن يسجل هذا السؤال معترضاً على فكرة الولاية و (النزعة الملكوتية والخفاء) فى الإمامة، وفكرة الجماعة المزوّدة بالعلم اللدنى الموظّفة بما ذكرناه والتى يديرها الإمام عليه السلام، وفكرة أنّ قوام الإمامة المقوّم لها هو الهداية الإيصالية.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۵۶

والسؤال: إنّ ما ذكر لا يظهر من الكتاب والسنّة المستفيضة، وهو لا يعدو تنظير الصوفية، والذى خلاصته: تشابك الأرواح والنفوس على شكل منظومة هرمية تستبطن عدة خلايا ترتبط جميعها بالإمام، والذى اختلفت تعبيراتهم عنه بين القطب والغوث والإمام.

وقد جاء ما يوازى هذا الفهم فى تعبير الفلاسفة والذى برهنوه عقلًا- بسلسلة الارتباط العلى الوجودى.

ومعه لا يمكن أن تأخذ هذه الأُطروحة مجالها فى الفكر الشيعى ما لم تصبغ بصبغة دينية وتكون ذات غطاء قرآنى روائى، وهو مفقود.

ومن ثمّ لابدّ من الاقتصار على أنّ الإمامة منصب إلهى يعنى المرجعية الدينية (الهداية الإرائية) والزعامة السياسية، مع قبول ارتباطه بالغيب وتزويده بالعلم اللدنى؛ فإنّ هذا القدر هو الظاهر من القرآن والسنّة.

والجواب: إنّ الموجود عند الصوفية لا- يتجاوز بذوره ومبدأ نشأته القرن الثالث، بل بلورته كنظرية جاءت فى أواخر القرن السابع وبدايات القرن الثامن، مع أنّ الروايات فى هذا المجال أسبق بكثير من هذا التاريخ فضلًا عما فى القرآن وكلمات الرسول صلى الله عليه و آله والأمير عليه السلام وبقية الأئمّة عليهم السلام بل إنّ معظم ما لدى الفرق الصوفية والعرفاء هو طفيل ووليد عن فرق الغلاة الشيعية التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن الأوّل وفى القرن الثانى والثالث الهجرى، بينما فرق الصوفية متأخّرة زمناً عن فرق الغلاة، بل إنّ سلسلة مشايخ الصوفية جلّها تنتهى إلى غلاة الشيعة وجملة من هؤلاء الغلاة لا كلّهم- كانوا أصحاب سرّ فى المعارف لدى أئمّة أهل البيت عليهم السلام- غاية الأمر لم يحالفهم الحظ أن يبقوا على الاستقامة، كما حصل مع بلعم بن باعورا حيث آتاه البارى تعالى بعض حروف الاسم الأعظم: «آتَيْنَاهُ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۵۷

آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا» «۱».

فلم يكن خلاف الحكمة الإلهية إعطاءه الآيات من الاسم الأعظم مع علم البارى فى الغابر أنّه لن يستقيم، ولكن الإعطاء الغيبى من البارى لبلعم بن باعورا حجّة عليه بعد استحقاقه فى ظرف الاستقامة للعطية الغيبية الإلهية، وفى ذلك حكم أُخرى منه تعالى، مثل تنبيه البشر على أنّ من يتّق اللّه يجعل له فرقاناً، واتّقوا اللّه يعلمكم، أى تنبيههم على وجود علوم غيبية ليست فى متناولهم.

وأنّ نشأة الغيب نشأة لا تنزف ولا تنفد كما ورد فى الحديث القدسى:

«لأعطين الحكمة من زهد فى الدنيا، فأمّا المؤمن فهى حجّة له، وأمّا الكافر فهى حجّة عليه» «۲».

هذا وغيره هو وجه الحكمة فى تربية أهل البيت عليهم السلام بعض أصحاب السرّ أيام الاستقامة مع علمهم بما سيؤول حال أولئك الأصحاب، هذا مع أنّ جملة كثيرة أُخرى من أصحاب السرّ بقوا على الاستقامة، كسلمان الفارسى وكميل بن زياد النخعى وميثم التمّار ورشيد الهجرى وحبيب بن مظاهر وجابر بن يزيد الجعفى ويونس بن عبد الرحمن وذريح المحاربى، وغيرهم.

وعلى أى تقدير، فما عند الصوفية من سمن إذا فصل عن الغثّ، أو صواب أسرار المعرفة فإنّما تلقوا وأخذوا جذوره من فرق الشيعة، ومن ثمّ قالت أهل سنّة الخلافة وجماعة السلطان عن الصوفية والتصوّف إنّه قنطرة التشيع.

وبالإضافة إلى أنّ الصوفية لا يعدون ذلك من مبتدعاتهم أو ما ثبت لهم بالمكاشفة فقط، وإنّما ينسبون ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۵۸

وبالتالى فما ذكرناه لا يمثّل اختراقات الفكر الصوفى السنّى للفكر الشيعى، وإنّما هو تأثيرات الفكر الشيعى على الفكر السنّى المتمثّل بهذه الطبقة.

ومن ثمّ نفهم الحسّاسية البالغة عند فقهاء السنّة ومحدّثيهم من صوفيتهم، حيث تجرّ أطروحة الصوفيين الفكر السنّى إلى الفكر الشيعى، وتجعل من مبدأ الإمامة الشيعى ضرورة، فحاولوا الطعن عليهم بأنّهم متأثّرون بالاتّجاه الباطنى وهو الشيعة، مستهدفين بذلك تجريد الأُطروحة من الدليل والشرعية.

فقد جاءت الباطنية فى كلماتهم فى سياق الذمّ وأنّها منقصة، ومن ثمّ نسبوها إلى أئمّة أهل البيت، حتّى قال بعضهم: إنّ نسبة الباطنية إلى عليّ عليه السلام لها وجه، وأمّا نسبتها إلى جعفر بن محمّد فلا ريب فيها.

وقد غفل هؤلاء عن أنّ ما ذكر مديح للأمامية بأنّهم يؤمنون بالغيب، وأنّ فكرة الباطنية بمعنى الاعتقاد بعالم ونشأة الغيب والارتباط به واشرافه على عالم الشهادة من دون التنكّر لعالم الغيب، كما هو مذاق المادّيين الحسّيين، هى أطروحة الشيعة لا من مستورداتهم، سوى أنّ هذه الفكرة قبلتها الشيعة بالشكل الذى مرّ، وهو حفظ التوازن بين البطون والظهور وعدم تغليب أحدهما على حساب الآخر، وبين التأويل كحقيقة قرآنية بيد الراسخين فى العلم وهم أهل آية التطهير وبين ظهور الكتاب وبين تنزيل الكتاب فى المصحف الشريف بين الدفّتين وبين القرآن المجيد فى نشأة اللوح المحفوظ والكتاب المكنون الذى لا يمسّه إلّا المطهّرون والكتاب المبين الذى يستطرّ فيه كلّ شىء الذى هو حقيقة قرآنية يجب الإيمان بها على حدّ الإيمان بالمصحف بين الدفّتين، وإلّا لكان من الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر.

فالباطن والبطون هو الغيب الذى ليس منالًا لكلّ أحد كما يدّعيه الصوفية، بل هو فى موقعه القطبى المركزى خاصّ بعترة النبىّ المطهّرة، فالإيمان بالظاهر دون الباطن كالإيمان بعالم الشهادة والكفر بعالم الغيب ومن الإيمان بالحسّ والإنكار

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۵۹

بما وراء الحسّ كما يصنع أصحاب مدرسة الحسّ والمادّة، غاية الأمر أنّ البطون وورود هذه العوالم الغيبية لا تتسنّى إلّالمن شهد له القرآن بالقدرة على ذلك، وهم المطهّرون أهل آية التطهير، وأمّا غيرهم فلابدّ من إقامة البرهان وميزان الدلالة فى الوصول إلى بعض المعانى المحدودة اليسيرة من التأويل.

وأمّا دلالة الكتاب والسنّة على ما ذكر من معنى الإمامة الإلهية مضافاً إلى ما تقدم فى الفصل الثالث من الجزء الأوّل من شواهد قرآنية من الكتاب والسنّة القطعية والأدلّة العقلية والفطرية، نشير إلى شواهد أُخرى على هذا التوسّع والإضافة فى معنى الإمامة الإلهية الذى نحن بصدده فى هذا الفصل.

الشاهد الأوّل: قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّکَ لِلْمَلَائِکَةِ إِنِّی جَاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِیهَا مَنْ یُفْسِدُ فِیهَا وَیَسْفِکُ الدِّمَآءَ»... «۱»

، فإنّ الخليفة عنوان من عناوين الإمام المدبّر المتصرّف فى الأرض وبجعل تكوينى إلهى، كما تقدّم فى الفصل الثالث شرح هذه الآيات مبسوطاً. وموضع الاستشهاد فى المقام يتبين عبر النقاط التالية:

الأولى: هو أنّ أوّل تعريف ذكره البارى للخليفة هو ذكر اعتراض الملائكة (الافساد فى الأرض، وسفك الدماء) بمثابة الجنس والفصل لتعريف الخليفة، فما هى الصلة الوثيقة بين تعريف الخليفة والإمام فى الأرض وبين هذين الاعتراضين؟ فلابدّ ثمّة من ارتباط وثيق بينهما أراد أن ينبّه البارى تعالى عليه حيث إنّ القرآن الكريم فى مقام تعريف الخليفة والإمام.

الثانية: إنّ اعتراض الملائكة بالإفساد فى الأرض وسفك الدماء لابدّ أن يراد منه المقدار الغالب من الافساد وسفك الدماء بمقدار أكثرى؛ وذلك لأنّ الفساد الأقلّ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۶۰

فى مقابل الإصلاح والصلاح الأكثر ليس مذموماً بل راجح، كما أنّ سفك الدماء القليل بالقياس إلى مجموع عدد البشرية الكبير وبنحو مانع عن انقراض النسل ليس قبيحاً، بل حسن، فلابدّ أن يكون مصب الاعتراض هو بالفساد الكثير وسفك الدماء الأكثر، أى الشرّ الكثير فى مقابل الخير القليل، لا الاعتراض بالشرور القليلة فى مقابل الخيرات الكثيرة، فهذا المعنى هو الذى اعترض به الملائكة على جعل الخليفة.

الثالثة: إنّ من الواضح أنّ المجىء بالاعتراض الملائكى والمحذور الذى تخوّف منه الملائكة فى أصل سياق تعريف خليفة اللّه فى الأرض هو لبيان أنّ هذا الخليفة من أبرز خواصه ومهامه وآثاره أنّه بوجوده دارئ ممانع عن وقوع هذا المحذور، وذلك عبر عملية استخلافه وتصرّفه من قبل اللّه أى قيامه بالتدبير فيما استخلف فيه، فبتدبيره وتصرّفه فى الأُمور يحول دون انفراط النظام الفطرى الإلهى للنظام الاجتماعى البشرى، وبذلك يحول دون وقوع الفساد والإفساد فى الأرض فى كلّ المجالات، سواء البيئى والصحّى والزراعى والاقتصادى والأخلاقى والأمنى والعسكرى والتجارى، وكذلك يحول دون وقوع سفك الدماء الغالب المبيد للنسل البشرى.

فهو بتدبيره فى النظام العام يقوم بمهمّة الاستخلاف وهى حكومة النظام العالمى البشرى فى ضمن حكومة موحّدة تدفع بالنظم البشرية فى البلدان إلى تقارب نظام عالمى موحّد على أساس الفطرة البشرية والرعاية الإلهية والعناية السماوية، ومن ذلك يظهر سرّ نزول كلّ ملفّات التقدير والقضاء سنوياً فى ليلة القدر على صاحب الأمر، والذى قد تقدّم مفصّلًا بيانه فى الرافد الخامس، فإنّ هذا الكم المعلوماتى الهائل عن وضع البشرية السنوى فى كل عام الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّاأحصاها فى جدول إحصائى لسياسات الحكومة الإلهية يقوم

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۶۱

برئاستها ولى الأمر فى ليلة القدر.

من ذلك يتّضح أنّ الملف القرآنى لليلة القدر بمجموع السور والآيات المتعرّضة لحدث ليلة القدر فى كلّ عام وما يتنزّل فيها هو دليل مستقلّ برأسه على هذه المهمّة الخطيرة الموكلة لولىّ الأمر الإمام المعصوم عبر الاستخلاف الإلهى، إذ إرسال هذا الحجم الخطير من المعلومات الحسّاسة عن الوضع البشرى فى كلّ شؤونه لكلّ سنة مستقبلة فى ليلة القدر هو عمل من الاستراتيجيات الأوّلية فى الحكم والحكومة للنظام البشرى، وبنية ضرورية أساسية من أركان الحكومة فى منظومة الاجتماع البشرى.

وبتوسّط ذلك الملف من المعلومات وعبر المنظومة الخفية لجهاز الحكم يتمّ إنجاز وإنقاذ السياسات الإلهية فى حكم والحكومة على النظام البشرى بحيث يحول دون وقوع الفساد والإفساد الغالب فى شتّى مجالات النظم البشرية.

وربما يُطرح فى المقام تساؤلان:

الأوّل: إنّنا نرى ونشاهد فى طيلة التاريخ البشرى مظاهر وأنظمة من الفساد والافساد فى الأرض وأنواع الظلم العاتى والحروب المبيدة للنسل البشرى، وفى عصرنا الراهن البشرية فى شتّى البلدان قابعة تحت أنظمة الظلم والجور والعدوان، إضافة إلى تحريف الأديان

وابتداع المذاهب والسنن الباطلة، وتفشّى الزيغ والأهواء، فأين هذا الحائل، وأين الطامس لآثار الزيغ والعدوان وأين المبيد للظلمة وأين صاحب راية الهدى؟

الثانى: إنّه على ضوء وجود مثل هـذا التصـدّى من قبله (عـج) لتدبير أُمور البشـرية فما الفرق بين التدبير الخفى فى الغيبة وبين حكومته المباركة بعد الظهور، لاسيما أنّ ظهوره بعد أن تُملئ الأرض ظلماً وجوراً، وذلك يعنى وقوع المحذور الذى تخوّفت منه الملائكة ولو فى برهة من الزمن؟ كما أنّه مع وجود هذا التدبير

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۶۲

الخفى من قبل جميع الأئمّـة عليهم السـلام فأى معنى لإزوائهم عن سدّة الحكم والتصـرّف فى الأُمور؟ ولماذا لم يسـتطيعوا بهذا التدبير الخفى إرجاع الأُمور إلى نصابها؟

والجواب: إنّما يُلاحظ فى تاريخ البشـرية إلى عصـرنا الحاضـر رغم كلّ سلسـلة الطغيان وسفك الدماء والعدوان والجور فى المجالات العديدة والبقاع المختلفة، إلّا أنّه لم يكن بطابع الحالة المسـتمرّة، بل نرى الإصـلاح ينقض عليه وإن كان نسبياً فلا يبقيه، كما لا يدع له مجالًا لأن يكون غالباً، وكذلك الحروب التى اصطلت بها البشرية ما كانت تتمادى لتفنى النسل البشرى.

بل إنّ سلسـلة وقافلة ومسار الرقى الفطرى البشرى وحاكمية القيم الفطرية على العقل والوعى البشرى آخذة فى الازدياد جيلًا بعد جيل، وإن كانت ممارسة أصـحاب القدرة والحكومات الوضـعية يزداد بها المارد الشـيطانى عتوّاً وفساداً ويعيثون فى الأرض عدواناً وفجوراً، وبـذلك نلحظ أنّ الفسـاد ليس هو الأـغلب؛ فقـد مرّت البشـرية فى عصور مظلمـة مدلهمـة لكن لاـ يتمّ لها الإصـلاح والتطوّر الشامل الكامل والمدينـة الفاضـلة المثاليـة إلّابتسـلّم خليفـة اللّه فى أرضه زمام كافّة مقاليد القدرة والإدارة فى كلّ مراتبها وشؤونها ولا تقتصـر على المرتبة الخفية، وستأتى الإشارة فى الروايات المروية من الفريقين إلى ذلك وتتمّة إيضاح لهذا الأمر.

الشاهد الثانى: مجموع السور والآيات التى سـبق استعراضها فى الفصل السابق حول ما ينزل فى ليلة القدر، والتى ينزل فيها ملفّات تدبير للنظام البشـرى وصـلة ذلك فى التدبير الخفى لولى الأمر فى النظام البشرى الذى تتنزل عليه الروح والملائكة كلّ عام، كما ألمحنا إلى ذلك فى الشاهد الأوّل.

الشاهد الثالث: قوله تعالى للنبىّ إبراهيم عليه السلام: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۶۳

فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» «۱»

، وصـريح الآيـة هو أنّ الجعـل فعلى منه تعـالى للإمامـة الفعليـة لإـبراهيم، مع أنّه فى الظاهر المعلن من التاريـخ لم يتقلّـد النبى إبراهيم حكومة معلنة وسـلطة رسـمية فى بلد من البلدان، فهذه الإمامة للبشر لابدّ أن يكون تدبيرها الفعلى للنظام البشرى لا يقتصر على السلطة الرسـمية المعلنـة، بل يشـمل التدبير السياسـى الاجتماعى الخفى، مضافاً إلى هداية الأرواح والنفوس لإيصالها إلى المنازل المعنوية فى الكمال، وكـذلك قوله تعالى: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ* وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ» «۲»

، وقوله تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ» «۳».

فهذا الوصف للجعل الإلهى الفعلى لإمامتهم بالفعل إمامة إسحاق ويعقوب- مع أنّهم لم يتقلّدوا زمام أى سلطة رسمية فى التاريخ، وقد ورد فى روايات الفريقين حول حياة النبىّ إبراهيم من لقائه أولياء اللّه فى شتّى أقطار الأرض، وأنّه كان على اتّصال وارتباط معهم.

هـذا مضافاً إلى النقلـة الحضاريـة التى أحـدثها النبىّ إبراهيم فى الخطّ الأديانى والقانونى للبشـر فى العراق وبلاد الشام وأرض الحجاز ومصر، كما هو الحال فى دور أئمّة أهل البيت عليهم السلام فى إرساء رحى عقائد الإيمان ومعالم الدين وما نشروه

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۶۴

وشيدوه من معارف وأحكام الدين والتى كانت مجهولة لدى المسلمين فى عصر النبىّ صلى الله عليه و آله، حيث لم يتلقّها عن النبىّ إلّاالعترة بالعلم اللدنى لا مجرّد السماع الحسى.

الشاهد الرابع: قصّة الخضر فى سورة الكهف والتى تقدّم بيان جملة من شؤونها، وتأتى تتمّة ذلك.

الشاهد الخامس: جملة النماذج القرآنية الأُخر التى سيتمّ استعراضها لاحقاً، وموضع الاستشهاد فيها من إحدى زواياها المبينة لنحو التدبير الخفى لنماذج الإمامة فى النظام البشرى وتأثيرهم فى المنعطفات الحضارية فى المسار البشرى.

أمّا الشواهد الروائية فنذكر نبذة من الروايات يتفطّن منها المتتبع للوقوف على جملة وافرة متكاثرة متضمّنة لنفس المعنى:

منها: ما ورد فى دعاء رجب الذى رواه الشيخ الطوسى، من التوقيع من الناحية المقدّسة على يد الشيخ الكبير أبى جعفر محمّد بن عثمان أبى سعيد (رضوان اللَّه تعالى عليه)، حيث فيه: «صلّى على محمّد وآله وعبادك المنتجبين وبشرك المحتَجِبين وملائكتك المقرّبين والبهم الصافين الحافين..» «۱»

، فوصف أنّ هناك جماعة من البشر مُحتَجبين ومستترين عن الأنظار، بمعنى أنّ الناس لا تعرفهم.

ومنها: ما رواه الشيخ فى المصباح فى دعاء أُمّ داود: «صلّ على الأبدال والأوتاد والسياح والعباد والمخلَصين» «۲».

ومنها: ما ورد فى زيارته (عج) فى سرداب الغيبة: «اللّهمّ صلّى عليه وعلى خدّامه وأعوانه على غيبته، ونأيه واستره ستراً عزيزاً، واجعل له معقلًا حريزاً» «۳».

ومنها: ما ورد فى دعاء زيارة العسكريين عليهما السلام فى زيارة الإمام أبى محمّد الحسن العسكرى فى الدعاء عقبها، حيث فيه: «وأتوسّل إليك يا ربى بإمامنا ومحقّق

زماننا اليوم الموعود والشاهد المشهود والنور الأزهر والضياء الأنور المنصور بالرعب والمظفر بالسعادة ... اللّهمّ واحشرنا فى زمرته واحفظنا على طاعته واحرسنا بدولته وأتحفنا بولايته وانصرنا على أعدائنا بعزّته» «۱».

فيشير الدعاء إلى طلب الحراسة الفعلية منه تعالى من قبل كلّ مؤمن وذلك بتوسّط الدولة الفعلية الخفية له (عج)، وطلب النصرة على الأعداء بتوسّط عزّته، أى بطلب قدرته الفعلية.

ومنها: الدعاء المعروف للحجّة (عج): «اللّهمّ كن لوليك الحجّة بن الحسن العسكرى صلواتك عليه وعلى آبائه فى هذه الساعة وفى كلّ ساعة، وليّاً وحافظاً وقائداً وناصراً ودليلًا وعيناً، حتّى تسكنه أرضك طوعاً وتمكّنه فيها طويلًا» «۲»

. فإنّ الدعاء بالنصرة فى هذه الساعة الفعلية وطوال فترة الغيبة حتّى الظهور يقضى بوجود كيان فعلى يتجاذب مع القوى الراهنة فى الأنظمة البشرية، وكذلك الدعاء بالقيادة الإلهية يقضى بوجود حركة فعلية تحتاج إلى الدلالة الإلهية.

ومنها: ما رواه المجلسى فى البحار عن مؤلّفات أصحابنا، بسنده عن المفضل بن عمر فى حديث قال: قال الصادق عليه السلام: «أحسنت يا مفضل فمن أين قلت برجعتنا؟

ومقصرة شيعتنا تقول معنى الرجعة أن يردّ اللَّه إلينا ملك الدنيا وأن يجعله للمهدى (عج)، ويحهم متى سُلبنا الملك حتّى يردّ علينا.

قال المفضل: لا واللَّه وما سلبتموه ولا تسلبونه لأنّه ملك النبوّة والرسالة والوصية والإمامة» «۳».

ومنها: ما رواه فى البحار من زيارة طويلة لأئمّة البقيع وفيها: «اللهمّ صلِّ على

الإمام الوصىّ والسيد الرضى والعابد الأمين، علىّ بن الحسين زين العابدين إمام المؤمنين ووارث علم النبيين، اللهم اخصصه بما خصصت به أوليائك ... وسلك بالأُمّة طريق هداك، وقضى ما كان عليه من حقّك فى دولته، وأدّى ما وجب عليه فى ولايته، حتّى انقضت أيّامه وكان لشيعته رؤوفاً وبرعيته رحيماً» «۱».

ومنهـا: ما رواه الصـدوق فى الفقيه فى اسـتحباب الجماع ليلـة الجمعـة من الحـديث النبوىّ: «وإن جامعتها فى ليلـة الجمعـة بعـد العشاء الآخرة فإنّه يرجى أن يكون الولد من الأبدال إن شاء اللّه تعالى» «۲».

ومنها: ما رواه الصدوق فى عيون أخبار الرضا بسـنده عن عمر بن واقد فى حديث استشـهاد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ووصيته للمسيب بن زهير ومجىء الإمام الرضا عليه السـلام لتغسـيل والـده من المدينـة إلى بغـداد بطىّ الأرض، قال: «فواللّه لقد رأيتهم بعينى وهم يظنّون أنّهم يغسلونه أى السـندى بن شاهک وجماعته من جلاوزة النظام العباسـى- فلا تصل أيديهم إليه، ويظنّون أنّهم يحنّطونه ويكفّنونه وأراهم لا يصنعون به شيئاً، ورأيت ذلک الشـخص أى الإمام الرضا عليه السـلام- يتولّى غسـله وتكفينه وتحنيطه وهو يظهر المعاونـة لهم وهم لاـ يعرفونه، فلمّـا فرغ من أمره قـال لى ذلـک الشـخص: يـا مسـيب مهما شـككت فيه فلا تشـكنّ فىّ؛ فإنّى إمامک ومولاک وحجّة اللّه عليک بعد أبى، يا مسيب مثلى مثل يوسف الصديق عليه السـلام ومثلهم مثل أخوته حين دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون. ثم حُمِل عليه السلام حتّى دفن فى مقابر قريش» «۳».

ونظير ذلک ورد فى الإمام المهدى (عج) أنّه يقوم بدوره فى تدبير الأُمّة

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۶۷

والبشـرية كما كان يقوم يوسف عليه السلام بذلک من حيث لا يعرفونه، ممّا يدلّل على وجود التدبير الخفى عند الأئمّة عليهم السلام، وأنّ هذا التدبير مصـيرى فى بقاء نظام الملّة والدين والأُمّة، فقد روى النعمانى بسند قريب من الاعتبار عن سدير الصيرفى، قال: سمعت أبا عبد اللّه الصادق عليه السلام يقول: «إنّ فى صاحب هذا الأمر لشبهاً من يوسف ۷. فقلت: إنّک لتخبرنا بغيبة أو حيرة؟ فقال: ما ينكر هـذا الخلق الملعون أشباه الخنـازير من ذلـک أنّ أُخوة يوسف كـانوا عقلاـء ألبّـاء أسـباط أولاـد أنبيـاء، دخلوا عليه فكلّموه وخـاطبوه وتاجروه وراودوه، وكانوا أخوته وهو أخوهم لم يعرفوه حتّى عرّفهم نفسه وقال لهم: أنا يوسف، فعرفوه حينئذٍ.

فما تنكر هـذه الأُمّة المتحيّرة أن يكون اللّه جلّ وعزّ يريد فى وقت من الأوقات أن يستر حجّته عنهم؟ لقد كان يوسف إليه ملک مصـر وكان بينه وبين أبيه مسـير ثمانية عشـر يوماً، فلو أراد أن يعلّمه بمكانه لقدر على ذلک، واللّه لقد سار يعقوب وولده عند البشارة تسـعة أيام من بـدوهم إلى مصـر، فما تنكر هذه الأُمّة أن يكون اللّه يفعل بحجّته ما فعل يوسف، وأن يكون صاحبكم المظلوم المجحود حقّه صاحب هذا الأمر يتردّد بينهم ويمشـى فى أسواقهم ويطأ فرشـهم ولا يعرفونه حتّى يأذن اللّه له أن يعرّفهم نفسه، كما أذن ليوسف حين قال له أخوته: إنّک لآت يوسف؟ قال: أنا يوسف» «۱».

ومنها: ما روى فى قصّـة شـقيق البلخى المعروفـة مع الإمام موسـى بن جعفر عليه السـلام، حيث شاهـد منه العجائب فلمّا رأى منه ذلک قال: «إنّ هذا الفتى لمن الأبدال، لقد تكلّم على سرّى مرّتين» «۲».

وهذا يدلّل على أنّ مقولة الأبدال والأوتاد حقيقة مسلّمة فى أذهان المسلمين،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۶۸

مصدرها الأحاديث النبويّة، وقد أطلق عنوان الأبدال والأوتاد فى الروايات على الأئمّة المعصومين عليهم السـلام، ولكن الإطلاق بمعنى آخر، بمعنى أنّهم عليهم السـلام بـدل الأنبياء إذ رفع الأنبياء وختمهم محمّد صـلى الله عليه و آله، كما جاء فى الحديث عن الرضا عليه السـلام، روى فى الاحتجاج عن خالد بن الهيثم الفارسـى، قال: «قلت لأبى الحسن الرضا عليه السلام: إنّ الناس يزعمون أنّ فى الأرض أبـدال، فمن هم هؤلاء الأبـدال؟ قال: صـدقوا، الأبدال هم الأوصـياء جعلهم اللّه فى الأرض بدل الأنبياء، إذ رفع الأنبياء وختمهم محمّد صلى الله عليه و آله» «۱».

وعلّق عليهـا المجلسـى رحمه اللّه بـأنّه يظهر من دعـاء أُمّ داود فى النصف من رجب مغايرة الأبـدال للأئمّـة عليهم السـلام، وقال: ليس بصريح فيها فيمكن حمله على التأكيد، ويحتمل أن يكون المراد به فى الدعاء خواصّ أصحاب الأئمّة عليهم السلام، والظاهر من الخبر نفى ما تفتريه الصوفية من العامّة كما لا يخفى على المتتبع العارف بمقاصدهم عليهم السلام «۲».

ويشير قدس سره إلى اقتباس الصوفية هذا المعنى ممّا ورد فى أئمّة أهل البيت عليهم السلام وزعمهم هذه المقامات لأنفسهم، كيف لا وهم متأخّرين عن أهل البيت عليهم السلام ورواياتهم بقرون.

ومنها: قال الشيخ الكفعمى رحمه اللَّه فى هامش جنّته عند ذكر دعاء أُمّ داود:

قيل إنّ الأرض لا ـ يخلو من القطب وأربعة أوتاد وأربعين أبدالًا وسبعين نجيباً وثلاثمائة وستّين صالحاً. فالقطب هو المهدىّ عليه السلام، ولا يكون الأوتاد أقلّ من أربعة؛ لأنّ الدنيا كالخيمة والمهدى كالعمود وتلك الأربعة أطنابها، وقد يكون الأوتاد أكثر من أربعة والأبدال أكثر من أربعين والنجباء أكثر من سبعين والصلحاء أكثر من ثلاثمائة وستّين، والظاهر أنّ الخضر والياس من الأوتاد؛ فهما ملاصقان

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۶۹

لدائرة القطب.

وأمّا صفة الأوتاد فهم قوم لا يغفلون عن ربّهم طرفة عين، ولا يجمعون من الدنيا إلّاالبلوغ، ولا تصدر منهم هفوات الشرّ، ولا يشترط فيهم العصمة من السهو والنسيان بل فى فعل القبيح، ويشترط ذلك فى القطب، وأمّا الأبدال فدون هؤلاء من المراقبة، وقد تصدر منهم الغفلة فيتداركونها بالتذكّر، ولا يتعمّدون ذنباً.

وأمّا النجباء فهم دون الأبدال، وأمّا الصلحاء فهم المتّقون الموفون بالعدالة، وقد يصدر منهم الذنب فيتداركونه بالاستغفار والندم، قال اللَّه تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» «۱»

، جعلنا اللَّه من القسم الأخير؛ لأنّا لسنا من الأقسام الأُول، لكن ندين اللَّه بحبّهم وولايتهم، ومن أحبّ قوماً حشر معهم.

وقيل: إذا نقص أحد من الأوتاد الأربعة وضع بدله من الأربعين، وإذا نقص أحد من الأربعين وضع بدله من السبعين، وإذا نقص أحد من السبعين وضع بدله من الثلاثمائة وستّين، وإذا نقص أحد من الثلاثمائة وستّين وضع بدله من سائر الناس «۲».

ومنها: ما رواه ابن شهرآشوب فى المناقب بسند عن على بن أبى حمزة، قال:

كان يتقدّم الرشيد إلى خدمه إذا خرج موسى بن جعفر من عنده أن يقتلوه، فكانوا يهمّون به فيتداخلهم من الهيبة والزمّع «۳». فلمّا طال ذلك أمر بتمثال من خشب وجعل له وجهاً مثل وجه موسى بن جعفر، وكانوا إذا سكروا أمرهم أن يذبحوها بالسكاكين، وكانوا يفعلون ذلك أبداً، فلمّا كان فى الأيام جمعهم فى الموضع وهم

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۷۰

سكارى وأخرج سيدى إليهم، فلمّا بصروا به همّوا به على رسم الصورة، فلمّا علم منهم ما يريدون كلّمهم بالخزرية والتركية، فرموا من أيديهم السكاكين ووثبوا إلى قدميه فقبّلوهما وتضرّعوا إليه وتبعوه إلى أن شيّعوه إلى المنزل الذى كان ينزل فيه، فسألهم الترجمان عن حالهم، فقالوا: إنّ هذا الرجل يصير إلينا فى كلّ عام فيقضى أحكامنا ويرضى بعضنا من بعض ونستسقى به إذا قحط بلدنا وإذا نزلت بنا نازلة فزعنا إليه، فعاهدهم أنّه لا يأمرهم بذلك فرجعوا «۱».

ومنها: ما رواه العامّة بطرق مستفيضة أو متواترة، وهو الحديث النبوىّ قوله صلى الله عليه و آله: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثنى عشر خليفة كلّهم من قريش وفى ألفاظ الحديث الأُخرى- لا يزال هذا الأمر عزيزاً، يُنصَرون على من ناواه ... وفى الأحاديث: لا يزال أمر أُمّتى قائماً حتّى يمضى اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش ... وفى البعض الآخر: لا يزال هذه الأُمّة مستقيماً أمرها ظاهرة على عدوّها حتّى يمضى منهم اثنى عشر خليفة كلّهم من قريش ... وفى بعضها: لا يزال أمر الناس ماضياً. وبعضها: لا يضرّهم عداوة من عاداهم» «۲».

والملاحظ فى هذا الحديث النبوىّ المتواتر أنّه مضافاً إلى تحديد خلافته صلى الله عليه و آله بالاثنى عشر وأنّهم كلّهم من قريش بل فى بعضها من بنى هاشم، ولا ينطبق إلّا على العترة المطهّرة، فإنّ فى دلالتها مقطع آخر هامّ جدّاً وهو آثار خلافة هؤلاء الاثنى العشر،

فقد ذكر في الحديث بطرقه المختلفة والظاهر تكرّره من النبيّ صلى الله عليه و آله في مواضع شتّى بتعدّد الرواة والمشاهد:

الأوّل: إنّ دين الإسلام والذى هو ميراث جميع الأنبياء والمرسلين لاسيما

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۷۱

سيدهم خاتم النبيّين صلى الله عليه و آله لا يتمّ حفظه عن الاندراس والزوال والصيانة عن التحريف إلّابهؤلاء الاثنى عشر ومن الواضح أنّ هذا الحفظ لا يتمّ إلّابأسباب علمية وعملية، أمّا العلمية فلكون علمهم لدنيا كما مرّ- لا ينزف، يحيطون باللوح المحفوظ والكتاب المبين والكتاب المكنون، وأمّا الأسباب العملية فلا ريب أنّه بتوسّط الأسباب والمسببات سواء من عالم الملك والملكوت وهو يستبطن التدبير الخفى.

الثانى: إنّ عزّة الأُمّة الإسلامية بتوسّط خلافة الاثنى عشر، أى قيادتهم وإمامتهم لنظام الأُمّة، ومن الواضح أنّ ذلك لم يكن إلّابالإدارة الخفية بتوسّط منظومات بشرية متسترّة، وإن كان حفظ العزّة لهذه الأُمّة أمر نسبى لا يصل إلى كماله إلّابظهور المهدى وقيام دوله الرجعة للأئمّة عليهم السلام.

الثالث: حفظ أمر نظام عموم الناس والبشرية بهم عليهم السلام وهو أيضاً لا يتمّ إلّا بالتدبير والإدارة الخفية بتوسّط مجموعات بشرية مخترقة للأنظمة المعلنة الظاهرية، ومفاد ألفاظ الحديث يقارب ما استظهرناه من قوله تعالى: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» «۱»

كما مرّ، ولفظ الحديث «أمر الناس»، وليس (أمر الأُمّة) ممّا يقتضى التعميم ويعضد إرادة العموم ما تكرّر فى الأحاديث أن لولا الاثنى عشر لكان الهرج والمرج، وهو عامّ فى جميع البشرية؛ إذ هو اصطلاح فى الحديث مِن قبيل قيام الساعة لجميع أهل الأرض.

والحاصل: إنّ هذا الحديث النبوىّ المتواتر دالّ بالتدبّر والتأمّل على آثار وجود الخلفاء الاثنى عشر، وهى لا تتحقّق إلّابتصرّفهم عليه السلام من مقام صلاحية خلافتهم فى الأرض، وتدبيرهم بما أوتوا من أسباب لدنية وعلوماً من لدنه تعالى. روى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۷۲

الشيخ الطوسى بسنده إلى جابر الجعفى، قال: قال أبوجعفر عليه السلام: «يبايع القائم بين الركن والمقام ثلاثمائة ونيف عدّة أهل بدر، فيهم النجباء من أهل مصر، والأبدال من أهل الشام، والأخيار من أهل العراق، فيقيم ما شاء اللَّه أن يقيم» «۱»

، ورواه فى الاختصاص، إلّا أنّ فيه و (عصائب العراق) «۲».

وروى الشيخ المفيد بسنده إلى محمّد بن سويد إلى جعفر بن محمّد عليه السلام، قال له: «كيف الحديث الذى حدّثنى عن أبى الطفيل- رحمه اللَّه- فى الأبدال؟ فقال فطر «۳»:

سمعت أبا الطفيل يقول: سمعت عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام يقول: الأبدال من أهل الشام والنجباء من أهل الكوفة يجمعهم اللَّه لشرّ يوم لعدوّنا» «۴».

فى النهاية لابن الأثير فى مادّة (بدل).. فى حديث علىّ رضى الله عنه: «الأبدال بالشام هم الأولياء والعباد، الواحد بدل كحمل وأحمال، وبدل كجمل، سُمّوا بذلك لأنّهم كلمّا مات واحد أُبدِل بآخر» «۵».

وروى ابن الفتّال فى روضة الواعظين عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى اختار من كلّ شىء أربعة... واختار من أُمّة محمّد أربعة أصناف: العلماء والزهّاد والأبدال والغزاة» «۶».

وقال البياضى فى الصراط المستقيم: (غاية طعن المنكرين لولادته متعلّقة بنفى مشاهدته. قلنا قد أسلفنا مشاهدة قوم من أوليائه، على أنّ نفى رؤيته لا يدلّ على نفى وجوده، ولا يقدح فيه قول المنحرف عنه بجحوده، إذ ليس طرق العلم محصورة فى المشاهدة، فإذا دلّت البراهين على إمامته ووجوده لم تكن غيبته عن الأبصار مانعة عن تولّده، وأكثر المواليد إنّما تثبت بالشياع وهى حاصلة هنا من

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۷۳

الشيعة، وكيف ينكر وجوده لعدم مشاهدته؟ والأبدال موجودون ولا يشاهدون.

قال [ابن] ميثم فى شرحه للنهج: قد نقل أنّهم سبعون رجلًا، منهم أربعون بالشام وثلاثون فى سائر البلاد. وفى الحديث عن علىّ عليه السلام: الأبدال بالشام والنجباء بمصر والعصائب بالعراق يجتمعون فيكون بينهم حرب..) «۱».

ومنها: ما روى فى التفسير المنسوب للإمام العسكرى عليه السلام، عن أبى محمّد الحسن بن علىّ عليه السلام فى حديث عن فتح مكّة «۲» «.. فلما حُتم قضاء اللَّه بفتح مكّة واستوسقت له- [أى للنبىّ]- أمّر عليهم عتاب بن أسيد، فلمّا اتّصل بهم خبره قالوا: إنّ محمّداً لا يزال يستخف بنا حتّى ولّى علينا غلاماً حدث السنّ بن ثمانى عشرة سنة، ونحن مشايخ ذوى الأسنان وجيران حرم اللَّه الآمن وخير بقعة على وجه الأرض.

وكتب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لعتاب بن أسيد عهداً على مكّة، وكتب فى أوّله: من محمّد رسول اللَّه إلى جيران بيت اللَّه الحرام وسكّان حرم اللَّه، أمّا بعد، فمن كان منكم باللَّه مؤمن وبمحمّد رسوله فى أقواله مصدّقاً وفى أفعاله مصوّباً ولعلىّ أخى محمّد رسوله نبيه، صفيّه ووصيّه وخير خلق اللَّه بعده موالياً، فهو منّا وإلينا. ومن كان لذلك أو لشىء منه مخالفاً فسحقاً وبعداً لأصحاب السعير، لا يقبل اللَّه شيئاً من أعماله وإن عظم وكبر، يصليه نار جهنّم خالداً مخلّداً أبداً.

وقد قلّد محمّد رسول عتّاب بن أسيد أحكامكم ومصالحكم، وقد فوّض إليه تنبيه غافلكم وتعليم جاهلكم وتقويم أود مضطربكم وتأديب من زال عن أدب اللَّه منكم؛ لما علم من فضله عليكم من موالات محمّد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ومن رجحانه فى التعصّب لعلىّ ولىّ اللَّه، فهو لنا خادم وفى اللَّه أخ ولأوليائنا موالياً ولأعدائنا معادٍ، وهو لكم سماء

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۷۴

ظليلة وأرض زكية وشمس مضيئة، قد فضّله اللَّه على كافّتكم بفضل موالاته ومحبّته لمحمّد وعلىّ والطيبين من آلهما، وحكّمه عليكم يعمل بما يريد اللَّه فلم يخلّيه من توفيقه، كما أكمل من موالاة محمّد وعلىّ شرفه وحظّه، لا يؤامر رسول اللَّه ولا يطالعه بل هو السديد الأمين، فليطمع المطيع منكم بحسن معاملته شريف الجزاء وعظيم الحياء، وليتوقّ المخالف له شديد العذاب وغضب الملك العزيز الغلّاب، ولا يحتجّ محتجّ منكم فى مخالفته بصغر سنّه؛ فليس الأكبر هو الأفضل، بل الأفضل هو الأكبر، وهو الأكبر فى موالاتنا وموالاة أوليائنا ومعادات أعدائنا، فلذلك جعلناه الأمير عليكم والرئيس عليكم، فمن أطاعه فمرحباً به، ومن خالفه فلا يبعد اللَّه غيره.

قال: فلمّا وصل إليهم عتاب وقرأ عهده ووقف فيهم موقفاً ظاهراً نادى فى جماعتهم حتّى حضروه، وقال لهم: معاشر أهل مكّة، إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله رمانى بكم شهاباً محرقاً لمنافقكم، ورحمة وبركة على مؤمنكم، وإنّى أعلم الناس بكم وبمنافقكم.. ففعل واللَّه كما قال وأعدل وأنصف وأنفذ الأحكام مهتدياً بهدى اللَّه غير محتاج إلى مؤامرة ولا مراجعة» «۱».

وفى الرواية مواضع للإستشهاد:

قوله صلى الله عليه و آله: «يعمل بما يريد اللَّه فلم يخلّيه من توفيقه، كما أكمل من موالاة محمّد صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام شرفه وحظّه، لا يؤامر رسول اللَّه ولا يطالعه بل هو السديد الأمين»، فإنّه دالّ على أنّ تصرّفات عتاب بن أسيد لم تكن عن طريق توصيات ووصايا قولية وأوامر لفظية من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، بل كانت عبر تسديد الإلهام من النبىّ صلى الله عليه و آله، كما هو الحال فى الأبدال والأوتاد، وكما ورد نظير ذلك فى النوّاب الأربعة فى الغيبة

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۷۵

الصغرى، حيث إنّهم كانوا سفراء لا رواة، وكما ورد نظير ذلك فى أصحاب الإمام المهدى الثلاثمائة والثلاثة عشر فى كيفية تلقّيهم برامج وأنشطة الحكم الذى يزاولونه.

ويعضد هذا المفاد قوله فى آخر الرواية: «ففعل واللَّه كما قال وأعدل وأنصف وأنفذ الأحكام مهتدياً بهدى اللَّه غير محتاج إلى مؤامرة ولا مراجعة»، وهذا تكرار فى التصريح أنّ إنفاذه للأحكام لم يكن بأوامر لفظية ولا مراجعة قولية سماعية، وهذا من خواصّ منظومة الحكومة الخفية، حكومة الأبدال والأوتاد والنقباء والأركان، وقد بيّن صلى الله عليه و آله أنّ وصول عتاب لهذا المقام هو بسبب

الدرجة الخاصّة التى وصل إليها من موالاة ومحبّة النبىّ ووصيّه وآلهما عليهم السلام، ومعادات أعدائهم، وأنّه فاق فى ذلک كلّ أهل مكّة آنذاک، ومن ثمّ حظى بهذا المقام الخاصّ كما ورد نظيره فى النواب الأربعة. وعتاب مع صغر سنّه خاطب أهل مكّة كما حكى عليه السلام قوله تقريراً له: «وأنّى أعلم الناس بكم وبمنافقكم».

ونموذج عتاب بن أسيد يدلّل على أنّ الحكومة الخفية السرّية تظلّ قائمة موجودة فى ضمن الحكومة المعلنة، بل إنّ عتاب بقى أميراً على مكّة فى عهد خلافة أبى بكر، ممّا يشير إلى اختراق الحكومة الخفية للأنظمة الأُخرى.

ومنها: ما رواه الصدوق فى الأمالى بسنده عن الأعمش، عن الصادق عليه السلام، قال:

«لم تخل الأرض منذ خلق اللّه آدم من حجّة للّهفيها، ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجّة للّهفيها، ولولا ذلک لم يُعبد اللّه.

قال سليمان: فقلت للصادق عليه السلام: فكيف ينتفع الناس بالحجّة الغائب المستور؟ قال:

كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب» «۱».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۷۶

ولا يخفى دلالة الرواية على أنّ الغيبة بمعنى التستّر والخفاء والسرّية، لا الزوال والذهاب والابتعاد والإقصاء، كما أنّ التشبيه بالشمس إذا سترها السحاب صريح فى ذلک فى أنّه يقوم بكلّ أدواره إلّاأنّه بنحو متستّر خفى.

ونظير هذه الرواية ما رواه الصدوق فى إكمال الدين، والطبرسى فى الاحتجاج عن الكلينى عن إسحاق بن يعقوب أنّه ورد من الناحية المقدّسة على يد محمّد بن عثمان: «.. وأمّا وجه الانتفاع بى فى غيبتى فكالانتفاع بالشمس إذا غيّبها عن الأبصار السحاب..» «۱».

ونظير ما رواه الصدوق فى إكمال الدين أيضاً بإسناده عن جابر بن عبداللّه الأنصارى، عن النبىّ صلى الله عليه و آله فى حديث عن الأئمّة الاثنى عشر عليهم السلام وأنّ آخرهم المهدى ويغيب عن شيعته وأولياءه: «.. قال جابر يا رسول اللّه فهل ينتفع الشيعة به فى غيبته؟ فقال صلى الله عليه و آله: اى والذى بعثنى بالنبوّة أنّهم يستضيئون بنوره وينتفعون بولايته فى غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن جلّلها السحاب» «۲».

ومنها: ما ورد فى التوقيع الشريف من الناحية المقدّسة للشيخ المفيد الذى رواه الطبرسى فى الاحتجاج: «.. فإنّا نحيط علماً بأنبائكم ولا يعزب عنّا شىء من أخباركم، ومعرفتنا بالذلّ (بالزلل) (بالإذلال) الذى أصابكم مذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً، ونبذوا العهد المأخوذ منهم وراء ظهورهم، كأنّهم لا يعلمون.

إنّا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلک لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء، فاتّقوا اللّه جلّ جلاله وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۷۷

عليكم، يهلک فيها من حمّ أجله، ويُحمى عنها من أدرک أمله، وهى إمارة لأزوف حركتنا ومباثّتكم بأمرنا ونهينا، واللّه متمّ نوره ولو كره المشركون، اعتصموا بالتقية..» «۱»

ثمّ ذكر الحجّة (عج) سلسلة من الأحداث المستقبلية وكيفية التدبير فيها.

ومفاد التوقيع الشريف ناصّ على تصدّيه (عج) لتدبير الأُمور بنحو خفى، وتمام مراقبته للأحداث صغيرها وكبيرها والبرامج المتّخذة فيها، وأنّه لولا هذه الإدارة والتدبير الخفى لاستأصل الأعداء كيان المؤمنين.

وفى التوقيع الثانى ابتدأ نسخته: «من عبد اللّه المرابط فى سبيله إلى مُلهَم الحقّ ودليله»، وقد تضمّن قوله (عج): «.. ويأتيک نبأ منّا بما يتجدّد لنا من حال، فتعرف بذلک ما نعتمده من الزلفة إلينا..»، ثمّ ذكر (عج) جملة من الحوادث وكيفية التدبير فيها، وقال: «وآية حركتنا من هذه اللوثة حادث بالحرم المعظّم من رجس منافق مذمّم مستحلّ للدم المحرّم، يعمد بكيده أهل الإيمان ولا يبلغ بذلک

غرضه من الظلم لهم والعدوان؛ لأنّنا من وراء حفظهم بالدعاء الذى لا يحجب عن ملك الأرض والسماء، فليطمئنّ بذلك من أوليائنا القلوب، وليثقّوا بالكفاية منه وإن راعتهم بهم الخطوب، والعاقبة بجميل صنع اللَّه سبحانه تكون حميدة لهم ما اجتنبوا المنهى عنه من الذنوب.. ولو أنّ أشياعنا وفّقهم اللَّه لطاعته على اجتماع من القلوب فى الوفاء بالعهد عليهم لما تأخّر عنهم اليمن بلقائنا» «۲».

ومفاد التوقيع الشريف نظير سابقه فى رصده (عج) للأحداث وتدبيرها قبل وقوعها، ولا سيما صدر التوقيع حيث عبّر (عج) عن نفسه الشريفة بالمرابط فى سبيل اللَّه الدالّ على قيامه (عج) الشريف فى رأس الهرم للتصدّى لتدبير

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۷۸

الأحداث، إذ الرباط هو الجهاد فى سبيل اللَّه لحفظ الثغور عن أن ينفذ منها الأعداء.

وفى حديث رواه النعمانى فى غيبته بسنده عن أبى جعفر محمّد بن على، عن أبيه علىّ بن الحسين عليهم السلام فى تفسير هذه الآية:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا» «۱»

، قال عليه السلام: «سيكون ذلك ذرّية من نسلنا المرابط..» الحديث «۲».

ومنها: صحيحة معاوية بن وهب، قال: «سمعت أبا عبداللَّه عليه السلام يقول: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنّ عند كلّ بدعة تكون من بعدى يكاد بها الإيمان ولياً من أهل بيتى موكّلًا به يذبّ عنه، ينطق بإلهام من اللَّه ويعلن الحقّ وينوّره، ويردّ كيد الكائدين، يُعبّر عن الضعفاء، فاعتبروا يا أولى الأبصار، وتوكّلوا على اللَّه» «۳».

ومنها: ما ذكره الوحيد البهبهانى فى تعليقته على منهج المقال فى ترجمة على بن المسيب عن بعض الكتب المعتمدة، أنّه أُخذ من المدينة مع الكاظم عليه السلام وحبس معه فى بغداد وبعد ما طال حبسه واشتدّ شوقه إلى عياله قال عليه السلام له:

«اغتسل فاغتسل، فقال: غمّض فغمّض، فقال: افتح ففتح فرآه عند قبر الحسين عليه السلام فصلّيا عنده وزارا، ثمّ قال: غمّض وقال افتح فرآه معه عند قبر الرسول صلى الله عليه و آله، فقال: هذا بيتك فاذهب إلى عيالك وجدّد العهد وارجع إلىّ، ففعل فقال: غمّض وافتح، قال فرآه معه فوق جبل قاف وكان هناك من أولياء اللَّه أربعون رجلًا، فصلّى وصلّوا مقتدين به، ثمّ قال غمّض وقال افتح، ففتح فرآه معه فى السجن» «۴»

. وهذه الرواية تشير وتعزّز أنّ الحكومة الخفية كانت لدى جميع المعصومين يديرونها.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۷۹

وهناك إشكال أثارته العديد من مدارس المعرفة الحديثة ضدّ أبناء الإمامية حول تعريف الإمامة الإلهية، وهو يوجّه إلى وجود مثل هذه المنظومات الغيبية التى تقوم بالهداية الإيصالية فى مراتبها المختلفة، وحاصله أنّ هذا البيان لحقيقة الإمامة ولهذه المنظومة يقترب من عقائد الصوفية والعرفاء، حيث إنّهم يعتقدون بوجود سلسلة من المراتب المترتّبة على هيئة هرم له مركز فى الأعلى هو القطب، وقد يقال له الغوث أو الإمام، وإنّ عالم الأرواح والنفوس متشابك ومترابط وجوداً على هذه الهيئة الهرمية.

وبعبارة أُخرى: يهدف المستشكل إلى القول بأنّ هذا الاعتقاد بحقيقة الإمامة هو من تأثير الصوفية.

والجواب: إنّ الموجود عن الصوفية لا يتجاوز بذوره عن القرن الثالث، بل إنّ بلورته كنظرية جاءت فى أواخر القرن السابع وبدايات القرن الثامن، والروايات الواردة فى ما نذكره بل الآيات فى هذا المجال أسبق بكثير من هذا التأريخ، وقد أشرنا إلى أنّ حقيقة الإمامة إنّما نهتدى إليها من الآيات والروايات، فلا يكون من التأثير الصوفى على الفكر الشيعى، بل هو من تأثير الحكمة الشيعية على الفكر الصوفى كما تقدّم.

هذا وعندما نتأمّل فى كتاب الإحياء للغزالى الذى تأثّر به كثيراً ابن عربى، نلاحظ ذلك أنّه بالروايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام من مصادر الحديثية للشيعة، وأنّ فى جملة المباحث يحاول أن يستقى ويبنى نظرياته على ضوء ما يستظهره من تلك الروايات المفصلية فى بحوثهم، هى روايات أهل البيت، وأنّهم على أساس هذا خالفوا الجمهور فى الكثير من متبنياتهم الكلامية..

بالإضافة إلى كلّ ما تقدّم: وجود الروايات المتواترة وبألسنة متعدّدة وطوائف متنوّعة- كما ذكر العلّامة فی مقالات تأسيسية- تثبت الهداية الإيصالية

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۸۰

للإمام عليه السلام، من قبيل ما ورد فی ذيل آية: «فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» «۱».

ومن ثمّ نفهم الحسّاسية البالغة عند فقهاء السنّة ومحدّثيهم من صوفيتهم حيث تجرّ أُطروحاتهم إلى الفكر الشيعی وتقترب منه، وتجعل من مبدأ الإمامة الشيعی ضرورة، فحاولوا الطعن عليهم بأنّهم متأثّرون بالاتّجاه الباطنی وهو الشيعة، مستهدفين بذلك تجريد الأُطروحة من الدليل والشرعية.

فقد جاءت الباطنية فی كلماتهم فی سياق الذمّ وأنّها منقصة، ومن ثمّ نسبوها إلى الأئمّة، حتّى قال بعضهم: إنّ نسبة الباطنية إلى علیّ عليه السلام محتملة، وأمّا نسبتها إلى جعفر بن محمّد عليه السلام فلا ريب فيه.

وقد غفل هؤلاء عن أنّ ما ذُكر إقرار بأصالة الفكرة لدى الإمامية وإنّ فكرة الخفاء والباطنية هی أُطروحة الشيعة لا من مستورداتهم، سوى أنّ هذه الفكرة قبلتها الشيعة بالشكل الذی مرّ، وهو حفظ التوازن بين البطون والظهور وعدم تغليب أحدهما على حساب الآخر.

وعندما نتأمّل كلمات الغزالی وابن عربی نلحظ أنّ المقاطع المفصلية فی بحوثهما مأخوذة من روايات أهل البيت عليهم السلام، وقد يستعملان نفس العبائر فی كثير من الأحيان، ولذا خالفا الجمهور فی التنظير لمتبنّياتهما الكلامية مع وجود تحفّظات على كثير ممّا ذهبا إليه.

كما ذكر العلّامة فی مقالات تأسيسية فی إثبات الهداية الإيصالية للإمام فی كثير من الآيات، من قبيل: «فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» «۲»

من أنّ الإمام يشهد أعمال أُمّته وهو واضح فی الهداية الإيصالية، بل تدلّ على وجود المنظومة

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۸۱

الهرمية، ومن قبيل «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» «۱»

الدالّ على أنّ دور الهادی هو الهداية الإيصالية، ومن قبيل الروايات الدالّة على أنّ الإمام يحضر على الصراط فی الحشر والنشر.

ويوافق هذا اضطراب الأُطروحة الصوفية فی الإمامة والولاية، مع ضمور ما انتهوا إليه بالقياس إلى ما ورد فی الروايات ممّا يشفّ عن أنّهم ليسوا أصحاب النظرية.

ولابدّ من التنبه إلى أنّ واحدة من ألوان الاختراق الفكری هی مسخ المفاهيم عن حقيقتها واستبدالها بمحتوى آخر، ويأخذ هذا اللون من الاختراق طابع الثبات فی الذهنية العامّية فی بعض حالاته، فتقع الأُمّة فی شرك التحريف من دون أن تشعر؛ وذلك لأنّ عملية المسخ لم تأت معلنة وإنّما متلبّسة بصورة الحقّ، حيث استغلّ القائمون بهذه المهمّة فكر العلاقات بين المعانی والمعانی وبين ألفاظها مع المعانی كذلك أو وحدها، بعد التفاتهم إلى أنّ اللفظ يكتسب حسناً من معناه الحسن نتيجة العلقة الوطيدة بين اللفظ والمعنى، والكناية والاستعارة والمجاز العقلی مرتبط كلّه بهذا المجال الذی ذكرناه، وهو معبّر عن بعد إيجابی فی اللغة.

ولكن البعض قد يستفيد من لفظ محبّب إلى القلوب أو ذی قداسة وحرمة لمحبوبيّة أو حرمة محتواه، بتفريغه من محتواه واستبدال المعانی بمعانی أُخر، فضلًا عن تقنيع المعانی بألفاظ أُخرى ووضع محتوى جديد له لا يمتّ إلى الدين بصلة، كاستعمال العدالة فی الظلم الخاصّ، ومن ثمّ قيل: من أجل تحريف الدين يكفی مسخ المعانی دون التلاعب بالألفاظ «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۸۲

كما يمكن أن يكون ذلك واحدة من حِكَم ومبرّرات حرمة التعرّب بعد الهجرة، وهو يشمل استيطان بلاد الكفر وما يسمّى بالمهجر مطلقاً، وهو الوقوع فی عملية مسخ فی محتوى الدين. وعلى هذا الأساس كانت أوّل مهمّة لابدّ أن ينجزها الباحث هی التأكّد من ضبط

معنى اللفظ قبل أن يدخل فى التفاصيل.

وواحدة من الألفاظ التى تعرّضت لهذا النوع من المسخ للمعنى كلمة الباطن و (الغيب)، حيث أصبحت تعبّر عن اتّجاه منحرف فاقد للشرعية، فوصمت اللفظتين بهذا الطابع السلبى، ومن هنا فإنّ فكرة البطن فى الفكر الشيعى وإن كانت حقيقة لكون أئمّة أهل البيت هم المطّلعين على اللوح المحفوظ والكتاب المبين والكتاب المكنون، ولكن بالمعنى الذى مرّ، تحديده مع العلاقة التى ألفتنا إليها بين البطن والظهر.

الفائدة الرابعة ...: ص: ۴۸۲

إنّ القضايا التى تعرّض لها موسى مع الخضر قد وقعت بنفسها له من قبل، فوضع أُمّه له فى اليم يشبه خرق السفينة من جهة تعرّضها للغرق ولم تغرق..

وقتله للقبطى وهو لم يكن مقصوداً يشبه قتل الخضر للغلام، واستسقائه لبنات شعيب وعدم أخذه الأجرة مع جوعه وضناه الشديد على ذلك كإصلاح الحائط

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۸۳

من دون أخذ الأجرة مع جوعهما. فهذه الأُمور الثلاثة التى حصلت للخضر كانت قد حصلت له مثيلاتها ممّا يكشف عن موازاة بين ما وقع لكلّ منهما.

وهذا مصداق لما قيل فى بحوث المعرفة من أنّ كلّ إنسان فى كلّ حادثة تقع له تكون مورداً لاستغرابه قد وقعت له حادثة شبيهة لها من قبل ولم يستغرب منها؛ لأنّه كان عارفاً بأسبابها آنذاک، ولكنّه غفل عنها عند الاستغراب الآن، بل كلّ ما سيقع للإنسان فى مستقبل أيامه وفى البرزخ وعرصات يوم القيامة كلّها يندرج فى قوله تعالى: «هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا» «۱».

وقد ظهرت تفسيرات متعددة لهذه الموازاة:

أوّلها: تفسير أهل المعنى والذوق: أن يُرى اللّه تعالى عباده أنّ سرّ القدرة هو تكرّر ما يجرى فى السابق على أساس وحكمة.

وثانيها: تفسير المفسّرين: لأجل إعلام موسى أنّ علمه محدود وأنّ الإحاطة الكلّية محجوبة عنه. وهذا التفسير مقبول على شرط أن لا يتنافى مع العصمة.

ولكن كلا التفسيرين ناقصان، ومن ثمّ نقدّم تفسيراً ثالثاً مقتبساً من القرآن متمّماً لهما وهو:

إنّ هناک تطابقاً بين عالم القضاء والقدر والإرادات التكوينية، أى بين السنن الكونية الإلهية، وبين الشريعة بحسب الظاهر، وأنّهما جميعاً تسعيان لغاية واحدة ولا تتخلّف فى الجميع.

ومن ثمّ يفهم قوله تعالى: «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» «۲»

وقوله تعالى: «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» «۳»

،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۸۴

ورتّب على ذلک ما فى قوله تعالى: «لَايَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» «۱»

. إذ يتصوّر هؤلاء أنّهم نقضوا إقامة الشريعة الظاهرة بمكرهم ودسائسهم، فأجابهم القرآن بأنّ عملهم هذا وإن كان رأس فتنة الشرّ ومكرهم تكاد تزول الجبال منه كما هو الحال فى شر إبليس، إلّاأنّه فى مجموع نظام الخلقة يصبّ فى تحقيق أغراض الشريعة الظاهرة من دون أن يشعروا، إذ الإرادات التكوينية تأخذ مجالها نحو غايتها، وهى فى نفسها غاية الشريعة بحسب الدرجتين، وهذا لا يعنى نفى

شرّيـة عملهم ولاـ نفى شـرّية إبليس ولاـ مشـروعيته، إلّاأنّ البـارى تعـالى يوظّفه فى منظومـة الخير كمـا هو الحال فى العقرب والأفعى والذئب.

وهـذا العـالم هو عالم القضاء القـدر والإرادات التكوينيـة قـد يعبّر عنه بعالم الملائكـة كما فى لغـة القرآن، وقـد يعبّر عنه بعالم العقول والنفوس الكلّيـة كما فى لغـة الاصـطلاح الفلسـفى، حيث جعل العقل الأخير والعقول التى قبله تعبيراً عن القضاء، والنفس الكلّيـة تعبيراً عن لوح القدر، وقد يعبّر عنه بعالم الأنوار والأرواح والنفوس، مع مغايرة الثالث للثانى بأنّه أدنى درجة، كما اسـتقرّ عليه الاصطلاح عند أهل المعرفة، أخذاً له من الشرع وهو عالم الولاية.

وهذا العالم ذو درجات متسلسلة تكويناً وقد عبّر عنه الفلاسفة بالنظام العلىّ والعلمى ونظام الوجوب والعلم، مع استثناء لوح القدر حيث لا يكون مبرماً.

وقـد لوحظ على الحكماء بأنّ فهمهم وإحاطتهم بهـذه العوالم محـدودة، ومن ثمّ لـم يعكسوا لنا إلّاصورة نظام جامد يفتقد الحياة، ومن ثمّ لم يتفاعل الناس معهم كما تفاعل مع الأنبياء والأوصـياء ومن بعـدهم أهل المعنى، حيث قـدّموا صورة مفعمة بالحياة لتلك العوالم، وأعطوا صورة عنها بأنّها موجودات حية مختارة، مع

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۸۵

حفظ الفارق أيضاً بين تصوير العرفان والدين، فى حين لم يتمكّن الحكماء إلّا بتقديم كلّيات تؤمن حالة من المعرفة من بعيد لا أكثر. والمتكلّم اعتمد على الحسن والقبح وفيه حيوية العقل العملى، ومن ثمّ كان واحداً من امتيازاته.

وبعبـارة أُخرى: إنّ الفلاسـفة وإن قبلـوا أنّ الملائكـة موجودات حيّـة مختـارة، ولكنّهم فى الوقت نفسه قـالوا بأنّهـا أسـباب تكوينيـة لا تتخلّف، مع تركيزهم على هذه الزاوية فى عموم كلماتهم، ومن ثمّ فسّروا الأمر فى: «لَايَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ» «۱»

و «هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» «۲»

والأمر بالسـجود لآدم، بأنّها ليست أمراً اصـطلاحياً، وإنّما بالأسـباب التكوينية التى لا تتخلّف، وهى لفتة صـحيحة وغير صـحيحة بمعنى آخر:

فهى صحيحة: من جهة أنّه ليس هناك أوامر اعتبارية وإنشاءات وشريعة ظاهرة.

وهى غير صـحيحة: من جهة أنّها أوامر حقيقية، فلا مبرّر لتأويلها بالسـبب الموهم لانعدام الاختيار وإن كان الفلاسفة لا ينفون الاختيار، وإنّما هى شـريعة كونيـة فى الإرادات الإلهيـة التكوينيـة، وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام: «إنّ حكم اللَّه فى أهل السـماء والأرض واحد» «۳»

، فهم مختارون حقيقة، وإمكان المخالفة موجودة وباب التكامل مفتوح، فقد ورد أنّهم يزدادون بعبادتهم لربّهم علماً.

نعم: المخالفـة لاـ تكون بالمعصـية؛ فـإنّ القرآن صـريح فى أنّهم لاـ يعصون، كمـا أنّهم لم يتوفّروا على داعى المعصـية- كمـا جاء فى الحديث الشهير- وهى الشهوة

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۸۶

والغرائز الحيوانية، وإنّما تتحقّق المخالفة بترك الأولى الناشـئ من محدودية العلم بسبب محدودية وجودهم، فيقعون فى مخالفة الواقع الأوّلى.

وتصوير إمكان المخالفـة فى عالم النفوس الكليّة أوضح، حيث إنّها تحتاج إلى تأمّل وروية فى أخذ قرار العلم، بالإضافة إلى محدودية الوجود واختلافها فى درجة العلم مع الملائكة التى من سنخ العقول.

وبهذا العرض يمكن أن نفهم اعتراضهم (أتجعل فيها)، وقضية فطرس وعشرات الروايات التى يظهر منها تخلّف الملائكة عن الصواب، لكن بنحو ترك الأولى لا المعصـية، بل إنّ الموجود كلّما تجرّد كلّما كان أقوى وجوداً وصـفة ومنها الاختيار والحياة، فالملائكة أشـدّ

اختياراً وحياةً، ومع تصوير القدرة البشرية لابدّ أن تكون هذه القدرة موجودة هناك وبنحوٍ أرقى وأشدّ.

وبعد كلّ هذا يتّضح أنّ فكرة الأمر والنهى متصوّرة فى عالم الملائكة بشقّيه العقلى والنفسى، فلا داعى للتأمّل، بل بهذا العرض يتبين الوساطة فى الفيض، وفى قوس النزول أيضاً علّة اختيارية، ما به الوجود لا ـ ما منه الوجود؛ فإنّه خاصّ به تعالى. وقد قرّر ذلك فى مباحث الفلسفة أيضاً، إلّاأنّ نمط البحث العقلى النظرى لا يترقّى فى تصويره إلى بيان أنّ نظام الأسباب فى حين كونه نظام وجوب؛ فهو بأفعال اختيارية تنفيذاً للأمر الإلهى.

ويتّضح أنّ المطلب الذى أوقع البحث العقلى فى التقريب الناقص للموضوع وإلى حدّ قد ينعكس منه الجبر وأنّ القضية ذات نظام ذاتى لا يمكن الخروج عنه، نظير ما قالته اليهود من أنّ يد اللّه مغلولة، هو اعتمادهم على لغة العقل وحده منفصلًا عن النقل.

والمؤسف أنّ البعض لم يرض بالنقلة الإيجابية التى خطاها صدر المتألّهين فى حكمته حيث طعّمها بالقرآن والسنّة، آخذاً عليه أنّه خروج عن منهج البحث

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۸۷

الفلسفى الذى يتطلّب التمحّض فى العقليات.

ولا ـ نقصد بذلك التفكيك فى العمل بالنقل بمعزل عن العقل، وأنّما الغرض هو التنبيه على عدم الجمود على القواعد الفلسفية والعرفانية والكلامية مع ضرورة الخوض فيها، وأنّها بدونها تكون عملية التفقّه فى العقائد سطحية، لكن اللازم الترقّى بالتوغّل أكثر فى روايات أهل البيت لاكتشاف المعارف التى قصرت المناهج عن الوصول إليها، مع أنّها مدلّلة بنكات بينة فى الروايات، لكن لم يحصل التنبه إليها فى العلوم العقلية، بل جملة كثيرة مترامية من المسائل لم تعنون فى البحوث العقلية.

وبعد كلّ هذا، اتّضح نظام عالم الملائكة وأنّه مختار ومتكامل ومعصوم، ووقوع المخالفة لإرادة المولى بنحو ترك الأولى بسبب الجهل الممكن تلافيه، ومن ثمّ أمكن تعقّل الأمر والنهى الحقيقيين فيه، وأنّه لا ـ يختلف عن البشر إلّافى قضية الشهوة والغرائز، ويشترك معه فى باقى الخصوصيات. وهذا ما يستفاد من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى بيان أمراللّه الملائكة بالسجود لآدم وإباء ابليس: «فمن ذا بعد إبليس يَسلَمُ على اللّه بمثل معصيته؟ كلّا، ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً، إنّ حُكمَه فى أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بين اللّه وبين أحد من خلقه هوادة فى إباحة حِمىً حرّمه على العالمين» «۱» فصريح كلامه عليه السلام أنّ الأحكام الإلهية بحسب دائرة الدين واحدة لأهل النشأة الأرضية والنشآت الأُخرى، فدين اللّه واحد فى العوامل وليس يخصّص بدار الدنيا، وكلامه عليه السلام يشير إلى قوله تعالى: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا» «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۸۸

ومن ثمّ نقول: إنّ هذا النظام الملائكى قد كلّف بشريعة مطابقة لشريعة السنن الإلهية الكونية والظاهرة، بعد التذكير بأنّنا قد انتهينا من تصوير الشريعتين الظاهرة والكونية فى نظام التكوين، بأنّها شريعة واحدة والوسيلة فى التلقّى والتطبيق مختلفة، بيان ذلك:

إنّ الشريعة الظاهرة عبارة عن صفحة نازلة قد دوّن فيها كلّ ما فى عالم التكوين فى قوس الصعود والنزول ونشأة الدنيا وهى الواقعة بين القوسين، نهاية الأوّل وبداية الثانى، وبهذا التصوير يفهم قوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» «۱»

، فإنّه يدلّ بوضوح على عدم وجود شرعة أجنبية عن شرعة الظاهر.

وبهذا نصل إلى نتيجة وهى: إنّ القضايا التكوينية التى واجهها موسى قبل لقائه بالخضر المشابهة للقضايا التى شاهدها مع الخضر، أيضاً مطابقة لشريعة الظاهر بنفس البيان، سوى أنّ القضايا التى واجهها موسى أوّلًا حديث ضمن المسار التكوينى، والتى واجهها ثانياً مع الخضر حدثت على أساس الشريعة الكونية.

الفائدة الخامسة ...: ص: ۴۸۸

إنّ الأئمّة عليهم السلام يطبّقون الشريعة الكونية فى السنّة الإلهية التكوينية ويعملون بموازينها جنباً إلى جنب عملهم بالشريعة بدرجة الظاهرة.

وبتعبير آخر: إنّ الأئمّة فى تطبيقهم للشريعة الظاهرة يستخدمون كلتا الوسيلتين: العلم اللدنى والعلم الحسّى، ويشهد لذلک تعليلهم لبعض القضايا بعلم القضاء والقدر، مثل: «شاء اللَّه أن يراهنّ سبايا».

وشاهد آخر: إقدامهم على ما يعلمون، كالإقدام على القتل، فإنّ تفسيره

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۸۹

الصحيح هو العلم اللدنى، حيث كان استشهادهم بعد إجراء قانون التزاحم بين الملاكات الكاملة أولى «۱».

وظهر أيضاً: أنّ مهمّة الهداية الإيصالية لا- تخصّ الملائكة- كما يظهر ذلک من العامّة- بل تعمّ قسماً من البشر الذين يتمتّعون بمواصفات خاصّة، بل يظهر من القرآن أنّهم أكمل من الملائكة..

وظهر كذلک أنّ الإمامة غاية النبوة وأنّ الهداية الإيصالية غاية الهداية الإرائية.

وهذه النكتة هى المحور الأصلى فى القصّة، بقرينة أسى النبى الذى ورد فى أوّل السورة: «لَعَلَّکَ بَاخِعٌ نَفْسَکَ عَلَى آثَارِهِمْ» «۲»

، فكانت قصّة الخضر وغيرها لتطمين النبيّ صلى الله عليه و آله بأنّ الهداية الإيصالية موجودة وبواسطتها ستتحقّق الأغراض المجموعية والفردية للشريعة الظاهرة.

فإنّ الإرادة الإلهية لمّا كانت تعنى بالتحفّظ على أغراض الشريعة الكلّية فى الجزئيات التفصيلية بالنسبة إلى عموم المجتمع، وبالأغراض التى تعدّ استراتيجية بالنسبة إلى الشريعة الظاهرة، كما نلحظ ذلک فى قضية الخضر، فإنّه يدلّ بالأولوية

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۹۰

على أنّ الإرادة الإلهية والهداية الإيصالية لا تهمل ما كان بالغ الأهمّية فى الشريعة الظاهرة كالشؤون المرتبطة بالدولة والحكم وهداية المجموع.

الخلاصة: استعراض لأهمّ المحاور التى وردت فى هذه الآيات الكريمة:

المحور الأوّل: وجود تشكيلة من أولياء اللَّه الذين اختارهم اللَّه حججاً على عباده يقومون بدور وظّفوا له ومن وراء الستار، وقد جاء فى سورة الكهف «۱» ذكر مواصفاتهم.

المحور الثانى: إنّ الإمامة غاية النبوّة، وقد جاءت القصّة لتؤكّد هذا الأمر وطمأنة للنبيّ صلى الله عليه و آله بأنّ الهداية الإيصالية ستتكفّل تحقيق أغراض الشريعة الظاهرة والهداية الإرائية التى قام بها الرسول الأعظم على أكمل وجه.

المحور الثالث: هناک قسم آخر من الحجج وراء الرسالة والنبوّة والإمامة، والذى تمثّله الزهراء عليها السلام ومريم عليها السلام والخضر عليه السلام مع حفظ الفارق، وقد أشارت الروايات «۲» إلى هذا القسم.

المحور الرابع: وجود شريعتين ظاهرة وكونية فى الإرادات ومن دون بينونة بينهما.

المحور الخامس: الملاک والحكم فى الشريعتين أو درجتى الشريعة واحد، إنّما الاختلاف فى وسيلة الإحراز والإنفاذ.

المحور السادس: التزاحم الملاكى ظاهرة غالبة فى الشريعة الكونية، وحلّه هو ترجيح أحد الملاكين الأهم، يتمّ بواسطة العلم اللدنى بعد مقايسة بين الملاكين ولكن لا بحدود ضيقة مقطعية.

المحور السابع: إنّ الملائكة فى قوس النزول مخاطبون ومكلّفون بالدين

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۹۱

والشريعة فى السنن والإرادات الإلهية الكونية، بعد أن كانت لهم إرادة واختيار وتكامل ممّا يمكن به تعقّل التكليف والطاعة والمخالفة، مع قبول عصمتهم وأنهم لا يعصون اللّه ما أمرهم، مع الالتفات إلى تبعيتهم فى الدين للأنبياء والرسل الذين لهم مقام الإمامة وخلافة اللّه فى الأرض، كما أسجدهم البارى تعالى لآدم والذى يهدف إلى خضوعهم وتبعيتهم لخليفة اللّه فى أرضه، هذا بعد أن كانت شرائع الأنبياء مشتملة على قوس النزول والصعود والفروع. وبعبارة أُخرى: أنّ الشرائع التى بُعث بها الأنبياء وإن كانت مختصّة بأهل الأرض من الإنس والجنّ لكنّ الدين المتّحد بين الأنبياء فهو عامّ لأهل السماء والملائكة، كما أنّه عامّ لكلّ النشآت والخلائق.

المحور الثامن: ولاية كلّ نبىّ ورسول مقام أرفع من نبوّته وإمامته، ولكنّ النبىّ أرفع مقاماً من الولىّ الحجّة المعاصر له؛ حيث كان الأوّل محيطاً بالإرادات الكلّية والثانى بالجزئية، فهو تابع للأوّل.

المحور التاسع: إلفتنا لأقسام التأويل وفرق الباطن عن الظاهر وفرق الشريعة الكونية عن الظاهر، ولمّا كان الأوّل مأخوذاً فيه الانتهاء والرجوع أمكن أن نضع إصبعنا على الجامع بين الأقسام: إنّ كلّ عالم سابق له تأويله فى اللاحق.

ونضيف: أنّ هناك عكس التأويل، فعالم الذرّ والميثاق يفسّران العديد من الظواهر التى تجرى لأشخاص فى النشأة، وبتعبير أوضح: كما أنّ النشأة اللاحقة تأويل للسابقة، كذا السابقة لها نوع تفسير للّاحقة، وهذا هو الذى أشارت له أخبار الطينة: «لو علم الناس كيف خلق اللّه تبارك وتعالى هذا الخلق لم يلم أحدٌ أحداً» «... ١»

وكذا روايات الذرّ والميثاق.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۹۲

المحور العاشر: إنّ الهداية الإيصالية هداية المجموع والجميع؛ فإنّها كما تعنى بالأغراض المرتبطة بالمجموع البشرى كذا تعنى بأغراض كلّ فرد بل حتّى الواسطة.

النموذج الثانى القرآنى: قصّة ذى القرنين ... ص: ۴۹۲

سيتمّ الإلفات إلى المحاور التالية:

١- مرتبة ذى القرنين.

٢- القوّة التى مُنحت له.

٣- التدبير الإلهى لجزئيات وتفاصيل المجتمع البشرى فى قصّة ذى القرنين.

۴- ربط القصّة بالمحور الأصلى فى سورة الكهف.

«وَيَسْأَلُونَكَ»، ظاهر فى أنّ قصّة ذى القرنين شائعة لدى الأقوام، وأنّ الرجل وقصّته حقيقة تاريخية عاشتها البشرية.

«سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا»، ظاهر فى أنّ القرآن لا يروى كلّ تفاصيل القصّة، وإنّما يقتصر على بعض ملامحها.

«إِنَّا مَكَّنَّا» تعريف بشخصيّة الرجل كما فى قصّة الخضر حيث ابتدأت بالتعريف به، وهذا التمكين هبة وأنّ التمكين هاهنا تمكين لدنى. والتمكين لا يطلق على الملك اليسير وإنّما على الملك الواسع العظيم، ومن ثمّ ذكر ذلك فى سورة يوسف والآيات الواردة فى نشأة المهدى عليه السلام فى جانب الخير، وفى عاد ونمرود فى جانب الشرّ.

«وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا».

لا سبب كلّ شىء، ولكن مع كون (من) تبعيضية إلّاأنّها دخلت على (كلّ شىء)، ومن ثمّ شكّل هذا الإعطاء ميزة وخصوصية لذى القرنين؛ لأنّ (كلّ) تفيد

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۹۳

العموم، ومدخولها فی غایة الإبهام والعمومیة.

«سَبَبًا» لم یستعمل القرآن فی غیر ذی القرنین، نعم ذکرت منفیة عن غیره، «فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ» «۱»

، «لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ» «۲»

، «وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ» «۳»

. والسبب فی اللغة: کلّ شیء یقتدر به علی شیء آخر، سوی أنّه فی القرآن استعمل فی الوسیلة غیر المتعارفة.

وهـذا الإعطاء حبوة إلهیة ومنحة وهی القدرة اللدنیة، بقرینة أنّه لم یذکر لغیره، وأنّه أردف الإتیان بالسبب، وأنّ ذا القرنین من الأولیاء الحجج کما سیأتی، وأنّه قد استعملت فیه نفس التعبیرات المستعملة فی سلیمان.

ثمّ إنّ المراد من السبب فی عالمنا- کما یظهر من الروایات وجاء فی کلمات الحکماء والمتکلّمین- المعدّ، لا سیما فی عالم المادّة، لا الفاعل ومعطی الوجود؛ فإنّه منحصر به تعالی، فهو ما منه الوجود وغیره ما به الوجود.

ویترتّب علی ذلک أنّ کلّ المعادلات والقوانین فی هـذا العالم لا ضـرورة بتّیة فیها بعد أن لم تکن الظواهر من الأسـباب سوی معدّات تعدّ القابل وتهیئه لاستقبال الفیض الإلهی، بل لیس معدّات عالم الطبیعة هی تمام المعدّات، بل توجد معدّات أُخری ملکوتیة فضلًا عن الأسباب الفاعلیة، لا سیما أنّ بعض الأسماء الإلهیة تقتضی بعض المعدّات التی لا نعلم بها.

وبه یمکن تفسیر جملة من التخلّفات مثل: «قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ» «۴»

، «وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ..».

والواو فیها استئنافیة، فیکون المفاد أنّه بالإضافة إلی تمکینه- الذی قید (فی

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۴۹۴

الأرض)- الإیتاء وهو المنسجم مع عمومیة التعبیر الـذی سـبقت الإشارة إلیه، وهو الظاهر من الروایات حیث ذکرت أنّها من أسباب السماوات والأرض، بل الظاهر من الروایات أنّه أوتی ملکوت السماوات والأرض، حیث جاء التعبیر ب «کشط له».

«فَأَتْبَعَ سَبَبًا» من تلک الأسباب.

«حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ» سـار بالأسـباب التی زوّد بهـا، وقـد ذکرت الروایات أنّه کان یسیر فی فتوحاته بالزئیر. (مغرب الشـمس) إشارة إلی أقاصـی الأرض، وقد یقال بأنّ رحلته فضائیة فی السماء کما مرّ إشارة الروایات إلی أنّ الأسباب التی أوتیها سماویة وأرضیة وأنّه «کشط له».

«قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ»، خطاب مباشـر منه تعالی لـذی القرنین، ومن ثمّ قیل إنّه نبیّ، ولکنّه خلاف ظاهر القرآن حیث لم یصـفه بالنبوّة ولا بالبعثة والرسالة، مع أنّه فی مقام الإجابة عن التساؤل عن الغموض فی حال ذی القرنین.

وهـذا هو الظاهر من الروایات أنّه محـدّث، کما یلاحظ ذلک فی أجوبـة الأئمّـة علیهم السـلام عنـدما کانوا یُسألون عن علمهم فکانت الإجابـة أنّه کصـاحب موسـی وذی القرنین، أی لیست علـومهم بنبوّة، ولکنّه علم لـدنی معصوم، والوحی المباشـر لاـ یعنی النبوّة وإنّما التشـریف والحظوة فی الاصطفاء، نظیر: «يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ* وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا مِنَ الصَّالِحِينَ* قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» «۱».

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۴۹۵

«إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا»، تـدلّ علی أنّ الحاکمیـة- القیادة السیاسـیة والقوّة التنفیذیـة- أوّلًا وبالـذات هی للّه‌تعالی، وکلّ حاکم عداه سواء کان نبیاً أو وصیاً أم غیرهما من الحجج المصطفین، فحاکمیته فی طول حاکمیة اللّه تعالی.

حیث یظهر من الآیة أنّ هذا التخییر الإجرائی والتدبیر السیاسـی التفصـیلی منحه اللّه لذی القرنین، ممّا یدلّ علی أنّ الحکومة السیاسـیة

التنفيذية بيده تعالى، ولم تفوّض للبشر بمعزل عن اللّه كما عليه أهل سنّة الخلافة وجماعة السلطان. والقيادة السياسية شعبة من شعب الهداية الإيصالية كما سيأتى توضيحه.

«حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ»، والحديث الحديث، مع دلالتها على أنّ ذا القرنين كان معنياً بتدبير عدّة مجتمعات وفى مجالات متعدّدة.

«لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا»، ممّا يكشف أنّهم كانوا فى تخلّف مدنى حتّى على مستوى الضروريات والأولويات، وقد كُلّف ذو القرنين برفع هذا التخلّف.

والروايات أيضاً تدلّ على أنّ من مهام الإمام والولى الحجّة هو رفع هذا النمط من التخلّف، كما فى تصدّى الإمام الباقر عليه السلام فى حساب المسافة فى قضية البريد وصكّ النقود، وتصدّى أئمّة أهل البيت لتأسيس جملة من العلوم، كما هو شأن الأنبياء السابقين حيث جاءوا للبشرية بأُسس العلوم «۱»، وهذا مقتضى العناية الإلهية بعد أن كانت لضروريات العيش مدخلية فى التكامل الروحى للأُمّة.

«كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا» يدلّ على إحاطة الربّ تعالى بتفاصيل ما يجرى وأنّها محور عنايته واهتمامه، فكان كلّ ما يجرى تحت نظره.

وبعد اتّضاح الصورة فى ملامح ذى القرنين يمكن أن نخرج ببعض النتائج التالية، وهى:

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۹۶

أوّلًا: إنّ تمكينه فى الأرض لأجل استصلاح المجتمعات البشرية وإيصالها إلى الكمال المنشود ببناء حضارتهم ومدنيتهم بالقدر اللازم، وإرساء العدل وإفشاء الصلاح ورفع الظلم عنه، كما يبدو ذلك من النماذج التى تعرّض لها القرآن من حياته.

والقرآن كما ذكرنا سابقاً يتناول التعريف بالحياة الشخصية للرجالات والأُمم السابقة كسنن إلهية، ويركّز على المحاور ذات العبرة التى تساهم فى رسم العقيدة والشريعة، والروايات حدّثتنا عن جملة من الأبعاد الشخصية لهؤلاء.

وما ذكر من ملك ذى القرنين الذى مُكّن منه مع النماذج التدبيرية التى قام بها، تلحظ أنّها وثيقة الصلة فى سورة الكهف بالمحور الأصلى وهى طمأنينة الرسول بأنّ الهداية الإيصالية وهى مقام الإمامة وأنّها هى التى ستحقّق أهداف الرسالة والهداية الإرائية التى هى مقام النبوّة.

«لَايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا»، تخلّفهم أكثر من القوم الذين التقى بهم سابقاً.

ثانياً: «فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ»، مع أنّ ذا القرنين أوتى كلّ ما سبق وأنّه منصوب من قبل اللّه تعالى وفى الوقت الذى زوّد بتلك القدرة اللدنية وقد ملك فيها الدنيا، إلّا أنّه يطلب الإعانة، ممّا يعنى أنّ الغرض الإلهى لا يتحقّق بالإلجاء، وإنّما لابدّ للأُمّة أن تنهض بمسؤوليتها، فى الوقت الذى منّ اللّه عليها بالهداية الإيصالية أى بنصب الإمام لهم.

ومن هنا أمكن أن نفهم توجيه الخطاب بالحكم ووظائف الدولة للأُمّة، وأنّه لا يعنى أنّ الولاية بيد الأُمّة كما فهمه البعض، كما لا يعنى أنّ الأُمّة مرفوع عنها المسؤولية تماماً فى هذا المجال، وإنّما تعنى أنّ هناك مسؤولية ملقاة على عاتق الأُمّة تجاه الحكم والوالى، وهى الإعانة والتجاوب والطاعة، حيث لم تكن سنة اللّه الإلجاء وكن فيكون فى نشأة الدنيا، وبالتالى اليد الواحدة- يد الوالى- لا

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۹۷

تصفّق كما فى المثل، فنصب الإمام من اللّه للناس لا يعنى إسقاط التكليف عن الأُمّة بنصرته وتمكينه وإقداره من قبلهم، فهناك تكليف مُلقى على عاتق الإمام كما أنّ هناك تكليف مُلقى على عاتق المأمومين وهم الأُمّة.

ثمّ تستعرض الآيات تفصيل بناء السدّ للدلالة على أنّ الأولياء يعملون بالأسباب الظاهرية، على العكس من توقّع الناس أن يكون سيرة ولى اللّه فيهم كلّها بالإعجاز وخرق الأسباب.

«رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى» فى حال أنّ بناء السدّ كان من خلال الأسباب الطبيعية، ولكن لم تكن تلك الأسباب مكتشفة آنذاك، ومن ثمّ كان رحمة، حيث اطّلعوا على بعض أسرار الطبيعة.

فتلخّص: أوّلًا: إنّ هناك قدرة لدنية، زوّد بها ذو القرنين، وملكاً عريضاً، ربما كان أوسع من ملك سليمان.

وثانياً: وكان برنامجه استصلاح الأقوام البشرية المغلوبة والمتخلّفة والمتناحرة، فأفشى العدل فى قوم، وهيّأ ضروريات المدنية لآخرين، وبنى السدّ لثالث.

وثالثاً: وبأسباب طبيعية كشفت لهم.

ورابعاً: مع نفى الإلجاء وحفظ دور الأُمّة ومسؤوليتها.

وقد ألفت القرآن إلى كلّ هذا فى حياة هذا الولى؛ لرفع أسى النبىّ صلى الله عليه و آله وطمأنته بأنّ الأغراض التى على أساسها كان التشريع ستحقّق من خلال الهداية الأمرية فى إمامة الأُمّة، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاة» «۱».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۹۸

النموذج الثالث القرآنى: قصة أصحاب الكهف ... ص: ۴۹۸

وهذه السورة متميزة ببحث الإمامة بنحو مركّز جدّاً، ولو سمّيت بسورة الإمامة لكان حرياً، لا سيما وأنّه ذكر نموذج رابع فيها وهو استخلاف آدم كخليفة للّهفى الأرض وإطواع جميع الملائكة له، وهذه الواقعة برمتها عنوان كبير لمعتقد الإمامة، فسلسلة البحث فى كلّ هذه السورة يدور حول الوصول إلى أهداف الرسالة وغاياتها بتوسّط الإمامة، وأصحاب الكهف وإن لم يكونوا حججاً مصطفين، إلّاأنّ الحديث عنهم له صلة بالإمامة من جهة صلة هدايتهم بالهداية الإيصالية، وهى الإمامة عبر قناة الروح لا عبر قناة الهداية الإرائية وهى النبوّة الظاهرة والسماع بالحسّ.

«إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ»، بيان أنّ عالمنا عالم الإمتحان، فلا إلجاء ولا جبر كما فى قوله تعالى: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ» «۱»

، وإنّما اختيار واختبار، كما فى قوله تعالى: «الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ» «۲».

وقد توسّطت هذه الآية بين آية «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ..» وقصّة الكهف؛ للتنويه على أنّ الهداية الإيصالية وإن كانت متحقّقة فى إمامة الإمام إلّاأنّ المسؤولية ما زالت قائمة على الأُمّة، ولابدّ أن تخطو باختيارها نحو الكمال ومن اللّه التسديد والتأييد.

ثمّ إنّ سورة أهل الكهف مكّية نزلت إثر محاولة قريش إحراج النبىّ صلى الله عليه و آله عندما استعانت بثلاثة أرسلتهم إلى نجران للتوفّر على مسائل معقّدة يعجز عن الإجابة عليها، فكانت أهل الكهف وصاحب موسى وذو القرنين. وقد قال علماء نصارى ويهود نجران: إنّ محمّداً إن أجاب عنها فهو نبىّ وإلّا فلا، ثمّ طلبوا سؤاله برابعة إن

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۴۹۹

أجاب عنها فهو ليس بنبىّ، وهو: عن الساعة ومتى هى؟

وتذكر الرواية أنّ الرسول أوعد بالإجابة غداً من دون تعليق وعده على المشيئة الإلهية فحُبس عنه الوحى أربعون يوماً، فاغتمّ وحزن كثيراً، وكذا حزن عمّه أبوطالب عليه السلام حتّى نزل الوحى بالإجابة.

والملفت للنظر ترابط هذه القصص الثلاث فى فكرة الهداية الإيصالية التى هى حقيقة الإمامة، مع أنّ اليهود اختاروها على أساس من المسائل الصعبة لا أكثر.

«أَمْ حَسِبْتَ»، لا دلالة فى السورة على أنّ أصحاب الكهف أولياء وحجج، وإنّما هم من القسم الخامس وهو الأولياء غير الحجج، وقد شُرّفوا بمقام أوجب ذكرهم.

«الرَّقِيم» فى الروايات أنّ أسماءهم مرقومة فى لوح من رصاص، رقّمها الملك الكافر الذى كان يريد قتلهم، أو الذى عرفهم بعد

إفاقتهم فرقّم أسماءهم على هذا اللوح ووضعه على قبورهم بعد موتهم.

«أَمْ حَسِبْتَ» تدلّ على أمرين:

الأوّل: البعث والمعاد كما سنبين.

والثانى: إنّ الغلبة للّه‌تعالى، وإن أغراضه ستتحقّق، فهؤلاء مجموعة غلبت على أمرها من رواد الباطل وعلى رأسهم الملك آنذاك، إلّاأنّ الدائرة دارت عليهم فانقرضوا وبقيت تلك المجموعة المستضعفة خالدة تشكّل نبراساً للحقّ.

وارتباط هذا البعد بالمحور الأصلى واضح، وأنّه مهما حصل وفعل أهل الباطل، ومهما قويت شوكتهم فلن يعيق تحقّق الغرض الإلهى، فإنّ المغلوب ظاهراً غالب باطناً، أى فى الخفاء والمآل.

ومن ثمّ يفهم السرّ فى ترديد الرأس الشريف المقطوع للحسين عليه السلام المشال على رأس الرمح لهذه الآية المباركة وهو يُطاف به فى بلدان أُمّة الإسلام.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۰۰

والروايات تشير إلى هذا المضمون.

«الْفِتْيَة» أشرنا ويأتى تفصيل أنّ هؤلاء ليسوا من الأولياء الحجج، وقصّتهم معجزة.

ومن ثمّ نفهم أنّ المعجزة ذات طابع الرحمة تكشف عن شرف من تقوم فيهم وعلوّ مقامهم.

هذا فى المعجزة الرحمة، والعكس بالعكس، فالمعجزة العذاب كالقمل والضفادع والدم تعبّر عن ذلّة من قامت فيه المعجزة وخسّتهم.

كما أشرنا إلى أنّ هؤلاء الفتية صاروا عظة وعبرة وقدوة للبشرية، ممّا يؤكّد أنّ مقامهم وإن لم يصل حدّ الحجّية إلّاأنّه مقام رفيع ومكانة مرموقة فى مجال التكامل المعنوى، ومن هنا جاء فى الدعاء: «اللهم إنّى أسألك بكلّ عبد امتدحته فيه»، أى فى القرآن.

ولم يقتصر القرآن فى ذكر هذا النمط من البشر على أصحاب الكهف، وإنّما ذكر آخرين كمؤمن آل فرعون.

«إِذْ أَوَى»، ظاهر فى نوع الإلجاء والاستجارة، ويؤكّد ذلك طلبهم الرحمة الخاصّة من اللّه تعالى، ممّا يكشف عن عمق محنتهم.

«أَيُّ الْحِزْبَيْنِ»، عبّرت عن كلا الطرفين بالحزب، مع أنّ أهل الكهف قلّة جدّاً، ممّا يدلّ على التفخيم، وأنّهم يمثّلون خطّاً هو خطّ الهداية.

«ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ»، النوم نوع من التوفّى كما أشار إليه القرآن الكريم، ونظير البعث الإيقاظ من النوم للتعريف بالأطول بقاءً، والتدليل على أنّ الهداية الإيصالية لا تتخلّف، وهذا هو البعد المرتبط بالمحور الأصلى.

وفى الروايات بيّن هدف بعثة أصحاب الكهف من رقدتهم بأنّه: دحض دعوى الكافرين حيث كانوا ينكرون المعاد، كما يشير إليه قوله تعالى: «لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۰۱

اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيهَا» «۱».

«إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ»، هذه الآية تتعرّض لمجمل عقائدهم التوحيدية الرفيعة وحكمتهم العملية، من دون أن توجد دلالة فى الآيات على تعريفهم بواحدة من الديانات المعروفة، ممّا يعنى أنّ إيمانهم هذا بدافع من فطرتهم السليمة.

«وَزِدْنَاهُمْ هُدًى»، وهى هداية خاصّة مُنحوا إياها علاوة على إيمانهم، ممّا يدلّ على رفعة مكانتهم.

«فَأْوُواْ إِلَى الْكَهْفِ» بداية لإنشاء مجتمع توحيدى منفصل ومستقلّ عن مجتمع الكفّار؛ لوجود التقاطع بين المجتمعين، ممّا يفرض وجود دارين: الإيمان والكفر.

«وَتَرَى الشَّمْسَ..»، النوم وما جرى عليهم فى أثنائه أُمور غير اختيارية إلّاأنّها ممزوجة باختيارهم، وبها كانوا آية من آيات اللّه تعالى.

«مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ..»، لباب القصّة وحلقة الوصل مع المحور الأصلى فى السورة، والهداية من دون قرينة يقصد منها

الإيصالية في قبال النذارة، وذيل الآية قرينة على الإيصالية؛ لظهور الولاية في ذلك، والإرشاد وإن كان إراءة إلّاأنّه ليس إراءة كلّية كما في نذارة النبوّة، بل هداية تفصيلية متولّدة من الإرادة الكلّية النبويّة في التشريع، ومن ثمّ لم يستعمل نعت الإرشاد للنبيّ صلى الله عليه و آله من جهة مقام النبوّة.

ومرّة أُخرى نلفت إلى أنّ محور الخلاف مع العامّة هو أنّهم اقتصروا على ضرورة الإراءة والتنظير من دون الإيصال إلى المطلوب.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۰۲

«لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا»، عناية إضافية حفظاً لهم عن التلف.

«وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا..»، واحدة من الأدلّة القرآنية على مشروعية التقية.

«وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ..»، واحدة من الغايات، وهي- على الظاهر- نصر المؤمنين في الدين وقدرة البارى تعالى على بعث الأموات.

«وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَارَيْبَ فِيهَا»، غاية أُخرى: وهي المعاد وهو امتداد الهداية الإيصالية، فإنّه يعني السير إلى اللّه تعالى واللقاء به، وهو لا يتمّ إلّابواسطة الهداية الإيصالية والإيصال إلى المطلوب.

ومن ثمّ كان المعاد واحداً من الأدلّة على الإمامة، فالآية تدلّ على أنّ الهداية الإيصالية تحقّق وتوفّر بلوغ الغاية في الدنيا والآخرة.

«لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا..»، فيه تقرير لجواز اتّخاذ المساجد على القبور، وجعله مكاناً موجباً للعبرة كأصحاب الكهف، والقرينة على ذلك هي تذكير القرآن بهذا الاقتراح من بين الاقتراحات المطروحة من القوم حول أهل الكهف الذين فارقوا الحياة.

«وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا..»، مرتبط بما ذكرناه في سبب نزول السورة ووعد النبيّ صلى الله عليه و آله إجابة الأسئلة من دون تعليق ذلك على المشيئة.

«اللَّهُ أَعْلَمُ..»، لعلّه ظاهر في أنّ سنّة اللّه أن يُبقي الولاية والهداية الإيصالية محاطة بشيء من الغموض و الخفاء، فلا تكون معروفة في حينها للجميع، كما لا يتمّ التعريف بكلّ جنباتها، خاصّة النوع الأوّل والثاني المتمثّل في أصحاب الكهف والخضر.

«مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ..»، فهو الذي يتولّى البشر ويهديهم، والولاية مفهوم قد استبطن فيه القدرة، فالإمامة هي نافذية حكم اللّه من دون إشراك..

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۰۳

«أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ..» للدلالة على بالغية إحاطة اللّه تعالى بمجريات الأُمور ومقدّراتها على صعيد الأفراد والمجموع البشري.

وبهذا ينتهي الحديث في هذه القصّة، وأهمّ ما جاء فيها:

۱- وجود هداية إرائية وإيصالية حتّى فيمن لم يتوفّر على هداية الرسول الظاهر.

۲- وجود قسم من الأولياء وذوي الشأن وراء الوليّ الحجّة، وقد وصل بعضهم إلى مقام ضرب المثل والآيتية والقدرة، كما في أصحاب الكهف، ولعلّ نظيرهم: «جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى» «۱».

۳- إنّ المأخوذ في ماهية الهداية الإيصالية نوع من القدرة والتصرّف التكويني، ولكن من دون إلجاء، بقرينة مرشداً التي تعني الهداية الإرائية والتبعية.

۴- إنّ النصرة والظفر في الدنيا من سنن اللّه التكوينية، ومن ثمّ يستتبّ الأمر أخيراً لحزب اللّه النجباء.

۵- وجود ارتباط وثيق بين الإمامة وبين المعاد، وعلى أساسه يمكن فهم فكرة الشفاعة، الحضور عند الاحتضار، شهادة الأعمال، قسيم الجنّة والنار.

۶- حكمة اللّه اقتضت كتمان بعض زوايا الهداية الإيصالية، ومن ثمّ قد توجب نوعاً من الاستغراب والتعجّب عند من لم يطّلع على الأُمور ويتعامل معها بشكل سطحي، وإلى حدّ قد تصل الحالة إلى تفسير بعض الظواهر بالعبث.

۷- «وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا»، يدلّ على أنّ الذى يحقّق الأغراض هو تعالى، فلا تنحصر القضية حينئذٍ بالهداية الإرائية.

۸- مقتضيات الفطرة هى البنية التحتية للأُصول والفروع.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۰۴

والآيات اللاحقة تحوم حول هذه الأفكار:

أ- غايات اللّه لا مبدّل لها، فلابدّ أنّ تتحقّق: «وَاتْلُ مَا أُوحِيَ..».

ب- الدعوة للتمسّك بالهداية الإرائية والتى هى الخطوة الأُولى فى السير والاهتداء بالهداية الإيصالية: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ..».

ج- أعمال الكفّار هباء وأعمال المؤمن مثمرة وإن استقلّتها الأعين:

«وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا».

د- كلّ سير وسلوك تحت قدرة اللّه جلّ وعلا: «مَثَلُ الْجَنَّةِ».

ه- سلسلة المنظومة الطبيعية ذات غايات: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا».

و- عدم النظرة المقطعية ودعوة إلى نظرة طولية: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ».

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ..»، أذكر أيها الرسول استخلاف آدم وقد تقدّم تبيانه فى الفصول السابقة وأنّ ظاهر ألفاظ آياتها كما هو مفاد الروايات هو لأجل تبيان الإمامة، واتّضح فيها أنّ رائد منظومة الهداة فى الإيصال إلى المطلوب هو الإنسان الكامل، وأنّ التدبير فى هذا المجال لا يختصّ بالملائكة كما يتوهّم ذلك أهل سنّة الخلافة وجماعة السلطان. هذا وأنّ سورة الكهف اقتصرت على هذا المقطع من القصّة وهو ذو الارتباط بالمحور الأصلى فى القصّة.

سورة الكهف سورة الإمامة ...: ص: ۵۰۴

إلفاتة: وبعد كلّ ما تقدّم من قصّة أصحاب الكهف، بعد عرض كلّ من قصّتى موسى مع الخضر، وذى القرنين، أصبح من المناسب الإلفات إلى زاوية التناسب بين القصص الثلاث:

حيث يطالعنا القرآن فى سورة الكهف فى القصّة الأُولى على نموذج لم يكن نصيبهم من الهداية الإرائية أكثر من قضاء الفطرة وحكم العقل، وكأنّهم كانوا فى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۰۵

زمن الفترة بين الرسل فلم يوَفّقوا لمعرفة الإمام والوصى الخفى آنذاك، ولكن لم يمنعهم ذلك من الاستجابة لفطرتهم وعقولهم، وإن كانت محدودة بالعمومات والأُسس العامّة الفطرية الأوّلية الإجمالية، فلم يحرموا من الهداية الإيصالية بالقدر الموازى لما عرفوه.

فى حين نلحظ فى القصّة اللاحقة أنّ دائرة ورقعة الهداية الإرائية أوسع من العقلية حيث اقترنت معها هداية تشريعية، فالخضر كان تابعاً لموسى ومتديناً بشريعته، سوى أنّ الهداية الإيصالية كانت خفية وبشكل غير رسمى.

فى الوقت الذى نلحظ أنّ ذا القرنين زُوّد بالهداية الإيصالية الكاملة:

«وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ».

فالأنواع والدرجات التى أَلفتَ إليها القرآن فى الهداية الإرائية الثلاث، وبما أنّ اللّه بالغ أمره فى من اتّبعها، فتكون الهداية الإيصالية لكلّ درجة متناسبة معها.

وعندما ندرس خطوات الأنبياء نلحظ أنّها متدرّجة بالشكل الذى سلسلته سورة الكهف، حيث إنّ أوّل خطوة يخطوها الرسول فى طريق الدعوة إلى اللّه بإراءة الأُمور الكلّية الفطرية ثمّ التشريعية فى مرتبة ترافقها الهداية الإيصالية ذات الطابع السرّى غير المعلن، ثمّ تصل

الذروة كما نشهده فى قصّة موسى حيث أقام الدولة، وكذا سليمان والنبىّ صلى الله عليه و آله فى بقعة من الأرض، وتُختم جميعاً بدولة المهدى عليه السلام «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»، والذى كان نموذج ذى القرنين مثالًا له.

ولم يكتف القرآن بذلك كى يتبهنا أنّ المجتمع البشرى دوماً فى حالة تقلّب وتغيّر فى هذه الأدوار الثلاثة.

ثمّ إنّ الآيات لا تشير إلى انتماء أهل الكهف إلى شريعة خاصّة، وكما فى قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۰۶

بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ» «۱»

، على الفترة لا يعنى خلوّ الأرض من حجّة كما قد يتوهّم خصوصاً من تعبيره بالفاء فى الآية الدالّة على التراخى، وإنّما فى كلّ عصر يوجد شريعة وهداية إيصالية، سوى أنّ هناك فترات يكون فيها المعصوم مخفياً، وإلّا فبم نفسّر نبوّة آدم وكيف نكيفها مع الفترة مع الانسياق للتوهّم؟

وهناك روايات «۲» تدلّ على أنّ الهداية الإرائية موجودة ومتوفّرة، وهى ما يحكم به العقل والفطرة العقلية فى الإنسان وأنّه منجّز وأنّ الإنسان يؤاخذ عليها ويحتجّ بها عليه.

وقصّة أهل الكهف شاهد من بين شواهد كثيرة على أنّ التجاوب مع هذه الهداية الإرائية يوصل إلى الهداية الإيصالية، فلا يحرم التسديد الإلهى فى الوصول إلى الكمالات المنشودة والأغراض التى أراد اللَّه من عبيده تحقيقها.

وللتذكير والإيقاظ: نلفت إلى أنّ أحكام العقل لا تغنى عن الشرع؛ لمحدوديتها وعموميتها ممّا يجعلها بحاجة إلى الشرع فى تنزّلها وتفصيلها، ومن ثمّ لا نلحظ فى ما حدّثنا القرآن عن معارف أولئك الفتية والتزامهم أكثر من الأُسس العامّة التى وفّرها الرسول الباطن لهم، كالتوحيد وبعض الفروع الواضحة التى لا تخفى على العقل كقبح الكذب، كما أنّ القرآن لم يحدّثنا عن توفّرهم على الهداية الإيصالية أوسع مدى من هدايتهم الإرائية.

النموذج الرابع القرآنى: قصّة طالوت ... ص: ۵۰۶

وتبدأ من آية ۲۴۶ البقرة وتنتهى بآية ۲۵۳.

فى البداية نذكّر مرّة أُخرى: إنّ منهجنا فى التفسير يعتمد على الروايات التى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۰۷

وردت فى ذيل الآيات مفسّرة لها، والتى يصنّف قسم كبير منها فى حقل التأويل، والآخر لمعالجة الظهور الابتدائى.

وبما أنّ التأويل له صلة بمنصّة الظهور وقد أَلفتَ الكثير من الروايات إلى كيفية ذلك- صرنا فى صدد التعرّف على الظهور الثانى بتوسّط الظهور الأوّل ببركة الروايات.

وهناك رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام تلفت إلى أنّ قصّة طالوت التى قصّها القرآن هى لضرب المثل للإمامة، وأنّها فيمن ولمن وممّن تكون.

ونبدأ الحديث بعرض سردى لقصّة طالوت وتجميع مفرداتها ثمّ ننتقل إلى دراستها محورياً.

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ..»، الملأ لغة: وجوه القوم وأعيانهم، فإنّه بهم تملأ العين، أو مجلس البلد وندوته.

«مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى..»، فى الروايات بعده خمسمائة سنة.

«نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ..»، جالوت القبطى كما فى الروايات وما يأتى فى الآيات، حيث كان مستعمِراً لبعض أراضى بيت المقدس، ويبدو

من الآية أنّهم كانوا يفتقدون الملك القوى المدبّر.

«لِنَبِيٍّ لَهُمُ..» ظاهر فى أنّه رسول؛ حيث يفترق النبىّ عن الرسول فيما إذا كان قد تبّأ لنفسه أو لأهله، وأمّا إذا كان مبعوثاً لأُمّة فهو رسول، هكذا ورد فى الروايات، ومثله فى الآيات: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ» «۱»

، نعم ليس شرطاً فى الرسول أن يكون صاحب شريعة؛ إذ يمكن أن يكون تابعاً لشريعة رسول قبله، والاصطلاح القرآنى فى جملة من استعمالاته

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۰۸

فى القرية والمدينة ليس بالعمران والحضارة المادّية وإنّما المدنية والتحضّر بالمعرفة الأديانية.

«ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا..»، ظاهره فى أنّه مغاير للنبوّة، حيث طلبوه من النبىّ، وأنّه غير انتخابى، وإنّما مجعول من اللّه تعالى، وأنّه أرفع منزلة من ذلك النبىّ؛ وإلّا لما أمكن أن يحكم المفضول الفاضل.

ثمّ إنّنا نؤكّد مرّة أُخرى على أنّ الإمامة وإن كانت تستبطن الإيصال وأنّ لطف اللّه تعالى بالبشر ونعمته عليهم يتمّ بها فهى ضرورة، إلّاأنّها ليست بالإلجاء الإعجازى التكوينى، ومن ثمّ كان على المجتمع- كما ذكرنا فى قصّة ذى القرنين- أن يبادر ويتحرّك تحت راية الإمام من أجل تحقيق الأغراض الإلهية المرتبطة بعموم المجتمع.

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا..»، فهذا الملك عهد إلهى خاصّ، وعبّر عنه القرآن الكريم ببعثة إلهية، فالإمامة بعثة إلهية أيضاً؛ لما تشمل من مقام غيبى لدنى، والمبعوث من اللّه تعالى إماماً بالتالى يكون سفيراً وله سفارة إلهية تغاير سفارة النبوّة والرسالة.

فكون الإمامة سفارة إلهية وبعثة أصل قرآنى، وليس بالانتخاب والتعيين من البشر، وطالوت من سلالة بنيامين أخ يوسف عليه السلام ومن ثمّ كان محور اعتراضهم؛ حيث كانوا يرون أنّ الملك منحصر فيهم وهم أبناء لاوا الأخ الأكبر ليوسف، وقد صاغ القرآن اعتراضهم: «أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ»، وكان جواب النبىّ لهم: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ..» فالأمر بيده تعالى، لا أنّه يخضع للمقاييس العادية التى يتصوّرونها هم، وإنّما هو نصب إلهى لا ملك دنيوى، ومن ثمّ ستذكر الآيات اللاحقة معجزة هذا الملك، والآية والمعجز دليل على أنّ النصب تشريعى إلهى، فلابدّ أن يستجيب له البشر

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۰۹

باختيارهم؛ وإلّا حقّ عليهم العذاب.

«وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ»، يدلّ على أنّ المشيئة التكوينية أيضاً اقتضت أن يكون طالوت ملكاً، وكلتا المشيئتين مرتبطتان بالهداية الإيصالية، والتدبير الإلهى للأُمور الإجتماعية العامّة.

«قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ..»، إخبار السماء لنبيّنا صلى الله عليه و آله باعتراض اليهود على نصب السماء شخصاً فكيف بنصب شخص ليس منهم، لبيان واحدة من أسرار عداء اليهود للإسلام، كما فى الرواية عن الإمام علىّ عليه السلام.

«وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ»، ... تبين الآية المباركة ضرورة المعجزة فى الإمامة- مع الالتفات إلى أنّ القرآن لم يعبّر عن المعجز إلّابالآية والبينة ونحوهما، والتعبير بالعجز اصطلاح كلامى- وأنّ النصّ لا يكون وحده فى السنّة الإلهية، بل مع المعجزة والآية. وعندما نطالع تاريخ الشيعة مع أئمّتهم نلحظ أنّهم كانوا يتحرّون عن المعجز العلمى والعملى كشىء إضافى للنصّ.

«سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ..»، فى الروايات: ريح من الجنّة لها وجه كوجه الإنسان، أو روح مخلوق من اللّه يتكلّم، كانوا إذا اختلفوا فى شىء كلّمهم وأخبرهم.

«وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ»، يدلّ على أنّ الإمام وارث من سبقه، والتركة وإن كانت مادّية إلّاأنّ لها سنخ ارتباط بالغيب، كعصى موسى وخاتم سليمان وقميص إبراهيم ويوسف، كما أنّ الآية تشير إلى أنّ الوراثة فى بيوت الأنبياء، وأنّها ليست وراثة كسروية ترابية بل وراثة اصطفائية كما فى قوله تعالى:

«ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ..». «تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ»، الحفظ الغيبى يدلّ على خطورة وعظم هذا المقام وعظم وخطورة مواريث الأنبياء، والتى هى الآن جميعها عند أهل بيت النبوّة عند خاتمهم المهدىّ (عج).

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۱۰

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ..»، فلا إلجاء جبرى تكوينى، من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

«فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ»، فارق طالوت وجنوده المكان.

«إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ»، يكشف عن علمه اللدنى وإبلاغه إرادات اللَّه التفصيلية لا بتوسّط النبىّ، فيدلّ على إمامته وأنّ الإمام يحيط علماً بالمشيئة والإرادة الإلهية التفصيلية، لا سيما وأنّ الإرادة منسوبة إلى البارى صرفاً، كما يكشف عن أنّ التدبير يُباشر من قبل اللَّه تعالى، فالحاكم الأوّل هو تعالى، بل فى جملة من مواقع حكومة الرسول صلى الله عليه و آله يسند إليه تعالى الحكم التفصيلى ولا يسند إلى الرسول، أى وإن كان بتوسّط الرسول صلى الله عليه و آله، كما ألفتنا إلى ذلك مراراً-.

«فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي»، ظاهر فى أنّ الغاية من هذا الامتحان هو التولّى وعدمه، واستعراض القرآن له للإلفات إلى أنّ التولّى لصيق بالاعتقاد بالإمامة، بل هو فى درجاته الأُولى، والوجه الآخر للإذعان والإيمان بالإمامة كما أوضحناه فى الفصل الثالث من الجزء الأوّل.

فالأُمّة الواحدة وحدتها على أساس التولّى وعدمه، فالملأ كانوا على شريعة موسى، إلّاأنه لم يكف ذلك حتّى صُنّفوا إلى صنفين، من اتّبع الإمامة، ومن لم يتّبعها.

ولا يخفى أنّنا لحدّ الآن لاحظنا جملة من مقوّمات الإمامة وأبرز معالمها، وليكن تجميعها وضبطها بالشكل التالى:

أ- إنّ الإمامة بالنصب والبعثة الإلهية: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ».

ب- إنّها اصطفاء: «اصْطَفَاهُ».

ج- ذو علم متميز لدنى: «بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ».

د- التكامل الجسدى والقدرة اللدنيان: «وَالْجِسْمِ».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۱۱

ه- من شأنه المعجزة: «آيَةَ مُلْكِهِ».

و- وارث من سبقه: «وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ».

ز- التولّى هو الوظيفة المطلوبة من الأُمّة بالنسبة لإمامها: «فَإِنَّهُ مِنِّي».

«فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا»، هو المتولّى، وبقانون لتركبنّ طبقاً عن طبق تعرف النتيجة فى عالمنا الإسلامى، كذا ذكر القرآن الذى هو معجزة الإسلام، قرينة على أنّ ما حصل آنذاك سيحصل بعد.

«فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ»، عرف المتولّى لطالوت بالذين آمنوا، وهذا هو الذى يدّعيه الشيعة من أنّ قضية الإمامة من أُصول الدين الإيمانية.

خاصّة مع الإلفات إلى أنّ الشرائع متطابقة فيما بينها على مستوى المعارف، بل هذا ليس محلّ للنسخ؛ لأنّه من أجزاء الدين الواحد للأنبياء لا من الشريعة التى يعرضها النسخ، نعم تتفاوت بينها بالإجمال والتفصيل.

«وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ»، المقام الذى كان لطالوت أُعطى لداود، ولم تبين هذه الآية نبوّته، وإنّما اقتصرت على: «آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ»، ويظهر من الآية أن شجاعة وبأس داود فى اللَّه أهّلته لهذا المنصب، فإنّ ذكر الأوصاف قبل المنصب يدلّ على الأقلّ على التناسب بين الأمرين.

«وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ»، سنّة إلهية أن يُدفع غىّ البعض بالبعض، وله مراتب أقصاها القتل، وقد طبّقت لدفع طالوت وجنوده لجالوت،

وهو يعنى أنّ صلاح الأرض يتحقّق بالإمامة، وبعبارة أدقّ: إنّ بالإمامة التى هى خلافة اللّه تعالى فى الأرض- صلاح الأرض وتطهيرها من الغى والشرّ.

ثمّ يلحظ من مجموع الآيات المرتبطة بطالوت أنّ الإمامة لم تُعرَف إلّابالملك، (ملك التصرّف فى الأُمور العامّة) كذا فى آية: «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۱۲

وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» «۱»

.وعندما نراجع الروايات نراها تلفت إلى أنّ إبراهيم أحد الأربعة الذين بُعثوا بالسيف، إلّاأنّه لم يعهد منه الإمارة، كذا بعض من جاء ذكرهم فى الآية، ومن ثمّ كان التعبير: «وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» مورداً للتساؤل، وجوابه: أنّ الملك باصطلاح القرآن ذو جنبتين:

الأوّلى: تكوينية كالاصطفاء والعلم الخاصّ والسكينة وفصل الخطاب والمواريث، وهذه متوفّرة مكّن من الملك الظاهر فى العلن أو لم يُمكّن، لكنه متمكّن من التصرّف فى النظام الاجتماعى البشرى بصور خفية متستّرة.

الثانية: التشريعية وهو الأخذ بزمام الأُمور، وهذا البعد قد أُلقى تنفيذه على عاتق الأُمّة، بأن تمارس دورها بإقدار الإمام وإيصاله سدّة الحكم الظاهر فى العلن.

وقد عبّر عن الملك الذى مُنح لداود فى آية أُخرى بالخلافة فى الأرض: «إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ» «۲»

.وقد جاء فى آية أُخرى أنّ الخلافة فى الأرض سنّة إلهية ما دامت البشرية، كما نلحظ ذلك فى آية من آيات سورة البقرة: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»، والذى طُبّق على آدم. وبالتالى سنخرج بنتيجة، هى أنّ الإمامة قانون تكوينى إلهى وضعه اللّه للبشرية ما دامت فى هذا العالم.

«وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ» من بعد الرسل، ممّا يدلّ على وجود سنّة إلهية، وهى سنّة الاقتتال بين أتباع الرسول بعضهم مع البعض الآخر، ومن ثمّ استشهد أمير المؤمنين عليه السلام فى حرب الجمل بهذه الآية.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۱۳

«فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ» «۱»

، تبين سرّ الاقتتال وخلفيته، وهو أيضاً «مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ»، ومن هنا نعرف أنّ الاختلاف الحادث لا ينسجم مع اجتهاد كلّ من الفريقين وإصابته؛ وإلّا لا معنى لتصنيف أحدهما فريق الإيمان والآخر فريق الكفر.

وبالإضافة إلى أنّه اختلاف مع البينة، فلا معنى للتأويل والاجتهاد.

النموذج القرآنى الخامس: قصّة مريم ... ص: ۵۱۳

آل عمران من آية ۴۱ إلى ۴۷.

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ»، وفى بعض القراءات كما فى الروايات: وآل محمّد.

«ذُرِّيَّةً»، والتوارث فى الاصطفاء من باب التوارث الروحى المعنوى لا المادّى، والمعبّر عنه: بالخيرة بعد الخيرة، والنجباء بعد النجباء.

«إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ»، عرض لقصّة ومصداق للذرّية المصطفاة.

«إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي»، كان فى شريعة بنى إسرائيل أنّ للأب مُلكية ابنه المطلقة، ومن ثمّ كان يستطيع إيقافه على المسجد.

«وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى»، إمّا نقل كلام امرأة عمران أو كلام اللّه، وعلى الحالين يدلّ على عدم المساواة بين الجنسين على صعيد الوظائف والقانون فى الدنيا، وإن أمكن للمرأة الترقّى فى مجال التكوين والمعنى إلى حدّ الاصطفاء، وهذا عموم فوقانى من نوع

الجعل الدستوری، وإن صحّ التعبير عنه فهو أصل قانونی من أَسس التشريع ومقصد من مقاصد الشريعة، وبالتالی فالتشريعات التی نحتمل

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۱۴

أنّها وظيفة خاصّة بأحدهما لمناسبة متميزة فی أحد الجنسين لا يمكن التمسّك بعمومها.

«وَإِنِّی أُعِيذُهَا..»، كما يظهر من الروايات أنّه دعاء بالعصمة، ومع قرينة الاصطفاء وما يأتی من أنّه تعالی تقبّلها بقبول حسن، دليل العصمة واستجابة الدعاء.

«وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا»، النبت يعنی النمو، والآية ظاهرة فی أنّ التنشئة المادّية للمصطفی تختلف عن غيره، من قبيل تهيئة اللقمة الحلال..

«زَكَرِيَّا»، زوج خالتها..

«أَنَّی لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، نوع من التكريم والحبوة الإلهية والاعتناء الخاصّ مع أنّها ليست نبيّاً ولا إماماً، وهذه الآية تكشف عن نوعٍ ارتباط غيبی بين مريم وبين اللَّه تعالی، والروايات دلّت علی أنّ ملكاً كان يأتی لها بالطعام.

«هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا..»، بعد أن شاهد مريم وكرامتها..

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ..»، تصريح بارتباطها بالغيب، والاصطفاء الأوّل كما فی الروايات هو الاختيار، والاصطفاء علی النساء هو الحجّية عليهنّ.

وقد ظهر لحدّ الآن:

أ- ارتباط مريم بالغيب ونوعٍ من الاتصال من دون وساطة نبیّ كما سيأتی فی عين تبعيتها لشرائع الأنبياء.

وهذا ليس غلوّاً فی مريم، وبعدما عرفت أنّها لم توصف بالنبوّة، ومعه لا نستغرب إذا كان لفاطمة عليها السلام مصحف فيه تأويل الكتاب.

ب- اختصاص ولیّ حجّةٍ بخطاب إلهی خاصّ، وقد يُكلّف بتكاليف خاصّة كما سيأتی لا يعدو مقام التطبيق، لا أنّه خارج عن عموم شريعة موسی كما فی

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۱۵

المثال.

والظاهر من بعض الروايات وإن كان أنّ مريم محلّ للحجّية والمعجزة والآية، إلّا أنّها ليست محلّاً ساذجاً كتكلّم الشجرة وشقّ القمر، وإنّما هی متمّمة للإعجاز ودخيلة فيه، حيث بينت الحجّة والمعجزة فی إشارتها إليه، وإحضارها للمعجز فی وسط بنی إسرائيل كما سيأتی مفصّلًا، فهی شريكة عيسی فی تبيان معجزته، ومن ثمّ جاء فی القرآن: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً» «۱»

.«يُبَشِّرُكَ»، ... نوع من الإنباء بالغيب المستقبلی، حيث كانت البشارة بنبیّ وباسمه المجعول من قبله تعالی ووجاهته الدنيوية ومكانته الغيبية (قرباً منه تعالی) ومعجزته..

وهذا مجانس لما تعتقده الشيعة فی مصحف فاطمة، فإنّه مجموعة إنباءات غيبية مستقبلية «ما كان وما يكون إلی يوم القيامة»، وهو تأويل للكتاب المبين الذی يستطرّ فيه كلّ غائبة فی السماء والأرض.

«قَالَتْ رَبِّ..»، كانت تخاطبها الملائكة إلّاأنّها خاطبت ربّها مباشرة، والظاهر أنّ الجواب «قَالَ» ليس بواسطة الملائكة، وإن كان قد يستفاد أنّه بواسطة جبرئيل بقرينة الآيات الواردة حول مريم فی سورة مريم، حيث تمثّل لها جبرئيل بشراً سوياً، وأخبرها أنّ اللَّه أمره أن يهب لها غلاماً، فقالت له: أنّی يكون لی غلام؟ فأجابها جبرئيل..

ولكن ما ذكر لا يصلح قرينة بعد الالتفات إلی أنّ الحوار مع جبرئيل حوار آخر حصل بعد مدّة من الحوار الأوّل المذكور فی سورة آل عمران عندما انتبذت مكاناً قصياً، وقرينة ما ذكرنا إجابة جبرئيل الظاهرة فی أنّ اللَّه تعالی قد أجابك من قبل

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۱۶

عن هذا التساؤل والاستغراب: «قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا» «۱»

.وحيث إنّ الخطاب مع مريم لم يكن بواسطة رسول، فهو إمّا من قسم الوحى المباشر، أو من وراء الحجاب بموجب الحصر المذكور فى الآية: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ» «۲»

.والترتيب المذكور فى الآية معنوى علاوة على كونه ترتيباً ذكرياً كما فى الروايات، ومن ثمّ كان التكليم من وراء حجاب فضلًا عن الوحى أرفع ممّا كان بواسطة الرسول، ممّا يعبّر عن سموّ مكانة مريم.

وعندما نرجع إلى النماذج التى سبق الحديث عنها لا نلحظ هذا الارتباط المباشر مع اللَّه فيها، وعلى الأقلّ لا صراحة فى ذلك، على العكس من مريم فإنّ الآية صريحة فى الخطاب المباشر.

«وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً..» «۳»

، سبق أن ألفتنا إلى دلالة الآية على شراكة مريم فى الإعجاز والحجّية، وهو تقرير لعقيدة النصارى فى مريم أنّها من أركان العقيدة ولكن لا بما هى محرّفة من التأليه.

كما أنّ مدلول الآية أعمّ من اصطفائها على نساء العالمين المدلول لآية أُخرى.

بالإضافة إلى أنّ الآية ليست لخصوص أبناء الشريعة المسيحية، وإنّما لكلّ البشر بما فى ذلك أبناء الشريعة المحمّدية، بعد أن كانت واحدة من عقائدنا الإيمان بآيات اللَّه، ومن ثمّ كان علينا بعد إخبار القرآن الإيمان بمقام السيدة مريم،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۱۷

كما كان من الضرورى الإيمان بنبوّة عيسى.

ويظهر أيضاً أنّه ليس بدعاً فى شرائع السماء أن تأخذ امرأة هذا المقام وأن يكون الإيمان بها جزءاً من أُصول الدين.

بالإضافة إلى أنّها ضربت مثلًا كما فى سورة التحريم. وإلى القاعدة القرآنية أنّ القرآن لا يذكر إلّاما فيه العبرة فى حياة المسلمين، والروايات الكثيرة الدالّة على أنّه يجرى فى حياة المسلمين ما جرى على الأُمم السابقة حذو القذّة بالقذّة.

من هنا أصبحت الفرصة مواتية للحديث عن الزهراء عليها السلام شيئاً ما، حيث يمكن لنا أن نفهم ما قيل فى حقّها أو على تقدير كونه رواية، من قبيل: «نحن حجج اللَّه وفاطمة حجّة علينا»، و «وأنّها برزخ بين النبوّة والإمامة»، و «أنّها رفع عنها حجاب النبوّة»، وكثير غيرها، ممّا يمكن أن يستشهد له بطوائف أُخرى متواترة معنوياً، من قبيل روايات ترتّب خلقة أنوارهم عليهم السلام، ومن قبيل روايات أنّ أحد مصادر علوم الأئمّة مصحف فاطمة عليها السلام، ومن قبيل أنّها أوّل مصاديق القُربى الذين لهم ولاية الفىء والأنفال، وأنّها الشاهد شهادة لدنية بصدق النبوّة فى آية المباهلة لمشاهدتها عياناً حقيقة النبوّة ... وغير ذلك من الآيات والروايات مفادها أنّ الزهراء وإن لم تكن نبيّاً وإماماً إلّاأنّها حجّة وواسطة علمية للأئمّة عليهم السلام من ذريتها، أى أنّها مصدر من مصادر علومهم.

بالإضافة إلى أنّ إدانتها موقف السقيفة لا يقلّ دلالة فى الحجّية عن قول الرسول صلى الله عليه و آله فى يوم الغدير، ويشهد لذلك قبول السنّة ذلك كبروياً، ومن ثمّ ركّزوا إنكارهم للصغرى أى وقوع الإدانة منها للسقيفة.

فهى كمريم فى أنها شريكة النبىّ صلى الله عليه و آله فى الآيتية على مذهب الحقّ والإمامية، حيث لم يكن بعد النبىّ صلى الله عليه و آله مصدر حجّية يرجع إليه بعد جحودهم لدلالة الكتاب على الإمامة وجحودهم حجّة علىّ عليه السلام، لم يكن إلّاالزهراء، ومن ثمّ يفهم ما ورد

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۱۸

فى وصية النبىّ صلى الله عليه و آله: «يا علىّ انفذ لما أمرتك به فاطمة، فقد أمرتها بأشياء أمر بها جبرئيل عليه السلام» «۱»

، وكذا يفهم من احتجاج الأمير بالزهراء.

وآية التطهير تدلّ على الاصطفاء والحجّية للزهراء بإرادة إلهية مشتركة في الخمسة أصحاب الكساء.

وسورة الدهر تثبت مقاماً أرفع من مقام الأبرار لأهل البيت عليهم السلام، وبضميمة سورة المطفّفين فإنّهم المقرّبون الذين يشهدون كتاب الأبرار.

كلّ هذا وأمثاله من الآيات والروايات «۲» يملي الاعتقاد بمقام الصدّيقة الزهراء.

فإنّها وجود تنزيلي للنبيّ صلى الله عليه و آله، فهي لها الحجّية على المسلمين في إثبات الإمامة، والبعد التقديسي لها من اللَّه ورسوله معلول مقامها السامي.

«فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا..»، جبرئيل الذي عبّر عنه في آية أُخرى بالروح الأمين، ولتُلتفت إلى أنّه لم يصرّح في آيات آل عمران بنوع الملائكة الذين حدّثوها، بينما صرّح به في آيات سورة مريم، ممّا يكشف عن أن التكليم بواسطة الرسول ذو درجات ومراتب..

وفي الروايات أنّ التمثّل الذي حصل لمريم أحد أنماط نزول الوحي عليه صلى الله عليه و آله، ونمط آخر أن يسمع من دون رؤية، وثالثة أن يراه ومن معه..

«فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا..»، خاصّية الوارد الرحماني- الهاتف والمكاشفة- التي بها يختلف عن الأنواع الأُخرى كالشيطاني- أنّه ذو هيبة وسكينة ووقار ويدعو إلى الخير بأتمّ أشكاله..

«قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا..»، في الوقت الذي كان الوارد

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۱۹

رحمانياً، إلّاأنّ مضمون الرسالة كان شديداً غايته على مريم، وتفرّ منه لارتباطه بعرضها وناموسها، ومن ثمّ اعترضت مرّة أُخرى حين قالت:

«أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا»، ويلحظ في المحادثة السابقة في سورة آل عمران أنّه لم تعتر مريم حالة الاستيحاش كما ظهر هنا، وربما لأنّها كانت تسمعهم هناك من دون أن تراهم.

«قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ»، تذكير مريم بما دار من حوار وحياني سابق.

قد يقال: كيف ينسجم هذا الاعتراض من مريم مع ما لها من مقام سامٍ، ثمّ هل نست الوحي السابق كي تعيد الاعتراض ثانية؟

والجواب: لم تنس مريم، ولكن صعوبة الموقف حيث إنّ القضية مرتبطة بالعرض «وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا»، وبه يفسّر قولها: «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا».

وفي الروايات: أنّ الأنبياء والرسل يتحمّلون البلاء إلّاما يرتبط بالعرض.

«وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا»، وفي آل عمران: «إِذَا قَضَى أَمْرًا»، الظاهر في التعليق، ومن ثمّ يصلح قرينة إضافية على أنّ ما جرى في السورتين حواران اثنان وحيانيان.

«فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا»، لها دور رعاية وكفالة لصاحب الشريعة وباختيارها، وهو يوافق ما يظهر من ثنايا زيارة فاطمة بنت أسد من أنّ رعايتها للرسول صلى الله عليه و آله كسبها مقام صفة بأنّها صدّيقة.. فإنّ لها إسهاماً في التمهيد لظهور النبيّ والمعجز.

ودور مريم وإن كان يحتوي على مخاطر لارتباطه بالعرض فهو سنّة قرآنية للجهاد بالعرض، إلّاأنّه كان لكشف دجل وزيف علماء اليهود المقيمين على تحريف الديانة، ولم يتغلّب على فضحهم النبيّ زكريا ولا يحيى، وهو نظير ما

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۲۰

ورد في حرم وعيالات سيد الشهداء عليه السلام: «شاء اللَّه أن يراهنّ سبايا».

ونظير تصدّى السيدة الزهراء حتّى عصرت بين الحائط والباب- لكشف الزيف والدجل المتلوّن بالدين والديانة، ونظير نقل إبراهيم

هاجر إلى البرية تمهيداً لظهور حكمة اللّه ومعجزته.

«فَنَادَاهَا..»، استمرار التواصل الغيبي مع مريم ورعايتها وتسديدها.

ووجود أوامر كُلّفت بها مريم مباشرة من دون وساطة نبيّ، مع خطورة بعض هذه الأوامر كارتباطها بصرح الشريعة المسيحية وأصل نبوّة عيسى ونسخ الشريعة الموسوية، بحيث لو أخلت مريم عصياناً لما تحقّقت المعجزة.

«مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ..»، عرّضوا بها بأبشع تهمة، وقد كانت هذه الظاهرة المثيرة سبباً في الانشداد إلى المعجز والالتفات إليه وكشف قناع الزيف عن علماء اليهود، كما حصل ذلك من السيدة الزهراء حيث عرّت نفاق السقيفة على المكشوف والسيدة زينب حيث كانت سبباً في الانتباه إلى افتضاح مسار السقيفة وأنّه هو مسار الأحزاب وبني أُمية.

«فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ»، نقلتهم من التركيز على شيء دنيء للغاية إلى خطير للغاية.

وبهذا ينتهي الحديث عن آيات مريم في سورة مريم.

وهناك ما رود في سورة التحريم، حيث أُشير فيها إلى أنّ مريم مثل يضربه تعالى، والمثل ليس لخصوص قوم دون قوم وإنّما لسائر البشرية ولهذه الأُمّة الإسلامية.

كما أشير إلى أنّها صدّيقة: «وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ»، فقابل بين الكلمات والكتب، وأنّها «كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ»، وتشريفها ب: «فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا..»..

والخلاصة: إنّه بالتدبّر في مجمل الآيات الواردة في مريم، ينبثق هذا السؤال،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۲۱

وهو: كيف ارتبطت بالتكليم الإلهي، وكيف وثقت أنّه من عند اللّه مع أنّها ليست نبيّاً ولا وصيّ نبيّ، كما لم يتمّ ذلك بتوسّط نبي زمانها، بل تمّ ذلك من دون وساطة رسول أصلًا، وكيف صدّقت بنبوّة نبيّ آت وبشريعته المقبلة، وكيف قامت ببدايات أعباء الرسالة قبل عيسى حتّى جعلها القرآن في درجة عيسى، كما يظهر من قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ»، و «يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ»، و «كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ»، و «كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ..» «۱»

، الدالّة جميعاً على أنّ مريم كانت في مصاف الرسالة ومن أصول الدين، خاصّة مع الالتفات إلى أنّ المخاطب به مثل زكريا- على فرض حياته- ويحيى وأنبياء زمانها؟ لا جواب على هذا السؤال سوى أنّها معصومة مصطفاة، وأنّ لها مقاماً لا يقلّ عن مقام النبوّة.

ومع كلّ هذا، لا عجب أن تكون فاطمة عليها السلام (شافعة للأنبياء)، كما في الرواية المنقولة، كيف لا وهي من أهل آية التطهير الذين شهد القرآن أنّهم يمسّون الكتاب المكنون كلّه، ولديهم العلم بالكتاب المبين العلويّ كلّه، بينما لم ينعت القرآن الأنبياء أولي العزم فضلًا عن غيرهم بأنّهم يعلمون الكتاب كلّه، بل قال في حقّ موسى عليه السلام مثلًا: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» «۲»

، فما اوحي لموسى هو (من كلّ شيء)، وفي حقّ عيسى عليه السلام: «قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» «۳»

، فكان ما جاء به بعض العلم، بينما وصف القرآن أنّه مهيمن على ما بين يديه من الكتب التي بعث بها الأنبياء السابقين، وأنّه تبياناً لكلّ شيء.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۲۲

أو: «على معرفتها دارت القرون الأولى»، بل يمكن أن نسجّل جملة امتيازات قرآنية للسيدة الزهراء على مريم عليهما السلام.

الامتياز الأوّل: افتراق في نوعية التطهير بين فاطمة الزهراء عليها السلام وبين مريم، حيث إنّ الذي ورد في مريم التعبير بصيغة الفعل الماضي، وهو دالّ على وقوع التطهير فيما سبق وإلى حدّ درجة من العصمة، بينما الذي ورد في فاطمة عليها السلام هو إذهاب الرجس عنها، أي توقيتها عن أن يقترب إليها وإلى أصحاب الكساء الرجس، وعبّر عن التطهير بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرار وأكّد

بالفعل المطلق (تطهيراً)، مضافاً إلى أنّ هذا التطهير الخاصّ المستمرّ هو من نمط خاصّ بسيد الأنبياء وأهل بيته أصحاب الكساء، فأين ذاک من ذا؟

الامتياز الثانی: إنّ لفاطمة علم الكتاب دون مريم عليها السلام؛ لأنّ فاطمة عليها السلام من المطهّرين فی أُمّة النبیّ الخاتم صلی الله عليه و آله، وقد وصف المطهّرون من هذه الأُمّة بقوله تعالی: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِی كِتَابٍ مَكْنُونٍ» «۱»

، وهو وصف للقرآن، ثمّ أردف ب:

«لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» «۲»

، فشهود حقيقة القرآن والكتاب كلّه بتلك الدرجة من الكرامة فی كنانة الكتاب وهو ذو المجد القرآن المجيد فی حفظ اللوح المحفوظ، ولفاطمة عليها السلام حيث إنّها من المطهّرين فی آية التطهير علم الكتاب الموصوف فی القرآن بأوصاف متعدّدة: «وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِی كِتَابٍ مُبِينٍ» «۳»

، و «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» «۴»

، وغيرها من الأوصاف.

وهذا العلم شهودی لدنی، بينما لم يكن للمطهّرين فی الشرائع السابقة حتّی الأنبياء هذا المقام؛ إذ إنّهم لم يشهدوا إلّاما تنزّل عليهم، بينما مريم سلام اللّه عليها

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۲۳

وصفت بأنّها صدّقت بالكتب وهو غيب بالنسبة إليها، وبهذه الآيات يتبين أحد دلالات القرآن بأفضلية خاتم الأنبياء وأهل بيته علی سائر الأنبياء.

الامتياز الثالث: وهو وليد للامتياز السابق وهو شهادة الأعمال لارتباطه بالكتاب المكنون، وقد حفل ملف آيات الإشهاد فی القرآن الكريم علی جميع الناس من الأوّلين والآخرين أنّ هؤلاء الأشهاد من هذه الأُمّة وأنّ سيد الأنبياء هو الشاهد علی الأشهاد وأنّ هؤلاء الأشهاد هم من ذرّية إبراهيم وإسماعيل كما أشارت إليه آخر سورة الحج، ودعاء إسماعيل وإبراهيم فی سورة البقرة، وكذا فی سورة الدهر حيث بينت أنّ عباد اللّه الذين يطعمون الطعام للمسكين واليتيم والأسير هم الذين يسقون الأبرار من عين الكافور، فلهم الإشراف علی الأبرار وأعمالهم كما فی سورة المطفّفين أيضاً، وهذا المقام لم تُنعت به مريم عليها السلام فی القرآن الكريم.

الامتياز الرابع: آية المباهلة.. لا بتقريبها السطحی وهو أنّه صلی الله عليه و آله لم يباهل إلّا بأعزّ ما لديه، وإنّما بما يستبطنه هذا التقريب من معنی دقيق وهو: أنّ المباهلة نوع من الدعاء والملاعنة والقسم والحلف لإثبات الحقّ وتوثيقه، فالآية تدلّ علی أنّ الدين فی بعده الغيبی مرتبط بهؤلاء الخمسة، بعد الالتفات إلی أنّ الذی كان يستهدفه الرهبان من هذه العملية إطفاء برهان النبیّ صلی الله عليه و آله الذی يمثّل رمز الدعوة وحربتها، فضمّ النبیّ تلك الصفوة معه فی هذه العملية للتدليل علی رمزيتهم وأنّهم أصحاب الدعوة أيضاً وشركاؤه، فمن قبله فبها، ومن ثمّ قال تعالی:

«فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَی الْكَاذِبِينَ» «۱»

، فی مقابل الصادقين، فكان التعبير بالجمع لا بالمفرد (علی من كان كاذباً)، فهی شهادة بالشركة علی أنّ نبوّته خاتمة وهی دين

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۲۴

الإسلام، ونبوّته خاتمة النبوّات وأنّ المسيح عبداللّه ورسوله، خاصّة مع وجود قرابة آخرين له ولفيف من الصحابة وبعضهم يُزْعَم له شأن فی الإسلام، إلّا أنّه صلی الله عليه و آله لم يشركهم فی العملية.

أضف إلی ذلك أنّ تعيين هؤلاء كان من اللّه سبحانه وتعالی وليس من النبیّ، ممّا يؤكّد أنّ القضية ليست بحكم المعزّة والقرابة.

ولو أبيت عن قبول دلالة القصّة علی فكرة كونهم أصحاب الدعوی شراكة بنحو الطولية والتبعية، وأنّها لا تعنی إلّاالتوثيق وقد حصل

بهؤلاء، فنقول: إنّ التوثيق عادة يكون بالثقل، وإنّ هؤلاء عليهم السلام أثقل المسلمين، ومن ثمّ تمّ اختيار اللَّه لهم للوقوف إلى جانب النبىّ صلى الله عليه و آله فى هذه العملية، فهم وثيقة للدين كما هو صلى الله عليه و آله، وعندما نستذكر زيارة الرضا عليه السلام نلحظ فيها أنّ كلّ إمام فى عصره آية حقّانية للنبىّ ومعجزة صدقه.

النموذج القرآنى السادس: قصّة أُمّ موسى ... ص: ۵۲۴

سورة القصص من آية ۱ إلى ۱۳.

فى المقدّمة نشير إلى مدلول آية «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ..»، فإنّ الواضح منها الاستمرار وبيان السنّة الإلهية وقاعدة القضاء والقدر، وإلّا لو كانت خاصّة بالأُمم السابقة لجاء التعبير (وأردنا) بصيغة الماضى لا بصيغة المضارع الدالّ على الاستمرار.

«وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى»:

أ- يلحظ الشبه الكبير بين خفاء ولادة موسى وخفاء شخصه وظفره، وبين خفاء ولادة صاحب الزمان (عج) وخفاء شخصه وظفره.

ب- لم ينصّ فى الآية على أنّ الوحى كان بتوسّط نبىّ أو رسول أو وصىّ، بل

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۲۵

فى الروايات أنّها نوديت وأنّه مباشرة، فى الوقت ذاته لا دلالة فى الآية على أنّه من أىّ قسم من الأقسام الثلاثة للوحى.

«أَنْ أَرْضِعِيهِ..»، سلسلة من الأوامر فى كيفية التعاطى مع الوليد الجديد بشكل يحفظه مع إخبار الغيب المستقبلى: «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»..

مثل هذه الأوامر التفصيلية من اللَّه تعالى هى لخواصّ من هو حجّة، مصطفاة من القسم الرابع الذى يتجسّد فيه إعمال الحقّ تعالى ولايته مباشرة، ومن دون توسيط نبىّ تلك الأُمّة.. ولكن من دون خروج عن الشريعة الظاهرة آنذاك بالشكل الذى بيّناه فى قصّة الخضر، ولهذه الأوامر دلالة على أنّ الوحى فى الآية ليس هو الوحى الفطرى كما قد يتصوّر أنّه من قبيل «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ..» «۱»

بعد الالتفات إلى أنّ متعلّقات الأوامر المذكورة ليست ممّا تدركه الفطرة، يضاف إلى ذلك الإخبارات بالغيب التى رافقت الأوامر، واطمينان أُمّ موسى بالوحى المذكور دليل مقامها وسموّ مكانتها، وإلّا لتلكّأت لاحتمال أن يكون نفث الجنّ أو مكاشفة وإلقاءات شيطانية. وبتعبير آخر: أنّ الوحى المباشر، وقبولها له لا يعقل إلّامع كون القناة معصومة، وإلّا لم تكن تستوثق منه.

هذه القصّة وسابقاتها تدفع الإنكار على مقولة الشيعة بأنّ الإمام كيف يرتبط بالوحىبعد وضوح معتقدهم أنّه ليس وحى نبوّة، علماً أنّ القرآن لم يحدّثنا عن حجّية أُمّ موسى بدائرة أوسع من حجّيتها على نفسها فى ما يرتبط بطبيعة التعامل مع الوليد.

«وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»، فقد آمنت أُمّ موسى برسالته قبل أن يُرسل، كما

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۲۶

آمن الأنبياء السابقون بنبوّة محمّد صلى الله عليه و آله قبل أن يولد، وكما نصّت الزهراء البتول بإمامة الأئمّة حيث دوّنوا فى اللوح الأخضر الذى نزل من السماء.

«إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ»، توضّح عن رابطة الأُمّ بطفلها، وأنّها امتحنت بأصعب شىء كما امتحنت السيدة مريم بكرامتها وعرضها وعفّتها وهى سيدة العفّة فى زمانها.

لولا أن جاء التسديد الإلهى لمثل هؤلاء البشر الذين اختاروا تنفيذ الإرادة ولو على حساب أعزّ ما لديهم: «لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا».

النموذج القرآنى السابع: قصة لقمان ... ص: ۵۲۶

وهـذا النموذج وإن لم يكن نموذج للإمامـة ولا للحجّية المصـطفاة، إلّاأنّه نموذج على الهبة اللدنية الإلهية، وهى ليست مقام نبوّة أيضاً. نعم الحجّية فى الحكمة هو فى ذاتها ومقالاتها حيث إنّها منطوية على الدليل والبرهان، وهاهنا نقاط يُلفت إليها:

۱- تشـير الروايـات إلى أنّ لقمـان لم يصـل إلى مقام الحكمـة إلّابعـد أن واظب على جملـة من السـنن، منها أنّه لم يكن يتكلّم إلّاعند الحاجة.

۲- وتشير أيضاً إلى أنّه قبل أن يُمنح هذا المقام خيّر بين النبوّة والحكمة فاختار الحكمة، على العكس من داود.

۳- وتشـير أيضاً إلى أنّ سـلمان المحمـدى أعظم حكمـة من لقمان، وفى زيارته والروايات الواردة فى شأنه إشارة إلى مقامات خاصّة، من قبيل أنّه (باب علم الوحى) و (أدرك علم الأوّلين والآخرين).. بل فى الروايات يستشـهد الصادق عليه السـلام بكلمات سلمان وهو دليل حكمة سلمان.

۴- وفى الروايات: مَن أخلص للّهأربعين صباحاً جرت ينابيع الحكمة على

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۲۷

لسانه.

۵- يظهر من سورة لقمان وممّا ورد فى سـلمان أنّ هذا المقام والمنزلة مفتوح لكلّ مَن يجاهد نفسه، ومثل مقامات أُخرى كالصدّيقين. وفى رواية فى كفاية الأثر للخزّاز وغيره يشرح الصادق عليه السلام هذه المقامات ويذكر الطريق إليها.

۶- يظهر أنّه مقام لدنى كالنبوّة بحكم التخيير.

«وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ..»، وقد وردت الحكمة فى آل إبراهيم وآيات أُخر منها: «مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» «۱»

، ويظهر من الآية أنّها علم إلهى خاصّ يغاير النبوّة والمقامات الأُخر فى الجملة، وهذا العلم لدنى ويمنح وليس فطرياً؛ بقرينة: «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»، فإنّ تعلّم الكتاب ليس فطرياً.

وقـد عُرِّفت الحكمـة بتعريفات متعـدّدة أشـرنا إليها فى كتاب العقل العملى، والحقّ أنّها العلم الذى يتلقّاه العقل العملى فيتمّ الإذعان به والتصديق، فهى ليست صفة عملية بحتة ولا علمية بحتة.

«أَنِ اشْـكُرْ لِلَّهِ..»، الظاهر من (أن) أنّها تفسـيرية، وبالتالى الظاهر من الآية تفسـير الحكمة بالشـكر، ممّا يعبّر عن أنّ رأس الحكمة شـكر اللَّه.

وقـد أخـذ قبال الشـكر فى القرآن الكفر: «إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا»، كما قابلت الروايات بين الجهل والعقل، ممّا يعنى كلّ ذلك أنّ هذه الصـفات ليست إدراكيـة محضة، وإنّما عملية، من ثمّ كان الشـغل الشاغل للأنبياء هو العقل العملى الذى هو تحت اختيار الإنسان، وأمّا الإدراك والعلم فالفطرى منه موجود من دون اختيار.

ثمّ لا ريب أنّ العلم الـذى مُنـح للقمان والذين نُعتوا بالحكمة وإن لم يندرج تحت واحد من الأقسام الحجج، إلّاأنّ علم الحكم حجّيته منطوية فيه لانطواء

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۲۸

البرهان والدليل فى أقضيتها.

ويستفاد من هذه نتيجتان مفصليتان بعد الالتفات إلى النقاط التالية:

۱- إنّ لقمان ليس نبيّاً باتّفاق الجميع.

۲- إنّ المسـتعرض لحكمـة لقمـان فى القرآن هو اللَّه تعـالى، أى لم تُعرض حكمته فى القرآن على لسـان نبىّ وإنّمـا على لسـان الحقّ تعالى.

۳- إنّ استعراض الحقّ تعالى لحكمته كاستعراضه لكلام الأنبياء.

۴- بل استعراضه يمتاز عن سنن بعض الأنبياء من جهة أنّ شرائعهم منسوخة ولا يفهم أبديتها إلّابالقرينة «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» «۱»

، بينما الظاهر من حكمة لقمان أبديتها، بنكتة كونها كلّيات فوقانية، فهى البنية التحتية للشرائع، أو لأنّها حكمة، أو لأنّها فطرية عقلية مستوسعة، والكلّ واحد تقريباً. نعم، تمتاز سنن الأنبياء عن الحكمة بأنّها تنزل الهداية للتفاصيل ولدائرة أوسع بكثير من الحكمة، بينما الحكمة هى فى دائرة الكلّيات.

۵- لم يذكر حجّية حكمة لقمان من جهة عرضه على نبىّ أو من جهة إقرار القرآن لها، وإنّما حجّيتها من جهة تضمّنها للدليل والبرهان.

۶- إنّ حجّية الحكمة هى من حجّية العقل، وحجّية العقل تلازم حكم الشرع؛ لأنّه كلّ ما حكم به العقل البديهى أو النظرى المبدّه حكم به الشرع، فهو لا يختلف روحاً عن التشريع الظاهر، وإن كان تشريعاً باطناً كما يسمّى العقل بالرسول الباطن.

من ثمّ وبعد أن عرفنا أنّ طبيعة الحكمة ليست إلّاعلماً خاصّاً أُودع من قبل اللَّه تعالى فى فطرة لقمان بنحو البسط، فهى لا تختلف عن العلوم الفطرية التى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۲۹

يمتلكها البشر جميعاً من هذه الزاوية، إلّافى أنّها أوسع نطاقاً من الآخرين، فحينئذٍ أمكن أن نفهم:

أوّلًا: ما ورد فى الروايات أنّ العقل رسول باطن وحجّة باطنة ومنزّل منزلة قناة الوحى، الظاهر فى أنّ كلّ إنسان مرتبط بعلم اللَّه تعالى وإرادته فى دائرة البديهيات أو النظريات المبدّهة.

وبهذا يكون ردّاً على الأشاعرة والسلفيين والظاهريين قبلهم أصحاب السفسطة حيث أنكروا العقل أو حجّيته.

حيث عرفت أنّ هذا النمط من العلم موجود ويوجب اليقين والجزم، وأنّه قد استوسع للقمان، وفى الروايات إشارة إلى أنّ مصدراً من مصادر علومهم عليهم السلام هذا النمط من العلم وهو الحكمة، لكن بدائرة تفوق كلّ من أوتى الحكمة.

ثانياً: النقض على أهل سنّة الخلافة وجماعة السلطان؛ حيث أنكروا وجود مصدر للحجّية والارتباط بالسماء غير النبوّة، مع أنّا لاحظنا وجود قنوات أُخرى لها، وجود ضامر فى كلّ إنسان وأنّها قد توسّع للبعض لا بتوسّط نبىّ، فالحال فى الإمام الذى هو خليفة اللَّه تعالى فى أرضه المعلّم علم الأسماء كلّها أوضح.

بل إنّ أهل سنّة الجماعة إذا ارتضوا العقل كالمعتزلة، متجاوزين المسلك الأشعرى ولو فى مساحة محدودة فلا بدع فى سنّة اللَّه فى الإمامة بعد أن كان العقل قناة إلى جنب قناة النبوّة، فيمكن للَّهتعالى أن يفتح قناة ثالثة أو يوسّع من قناة العقل والفطرة، وتكون ملزمة وحجّة.

والملفت أنّ القرآن لم يذكر جملة من الأنبياء، أو ذكر جملة أُخرى منهم ولم يذكر لهم قولًا، فى الوقت الذى تعرّض فيه لجملة من المؤمنين مع عرض كلماتهم، كمؤمن آل فرعون ومؤمن آل ياسين وزوجة فرعون، بالإضافة إلى النماذج التى سبقت الإشارة إليها بمَن فيهم لقمان.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۳۰

وليس ذكر مثل هؤلاء إلّاللعبرة، وليس ذكر كلماتهم إلّاللاحتجاج فى أنّ الحجّية الذاتية لا تنحصر بالنبوّة، إذ قد تكون من خلال علم فطرى تفتّق، أو علم لدنى خاصّ مُنح من قبل اللَّه تعالى، إلّاأنّ حجّية النبوّة والإمامة دائرتها أوسع بلا مقايسة مع دائرة حجّية العقل الفطرى البديهى.

«أنِ اشْكُرْ..»، وجوب الشكر فى الحكمة العملية يوازى فى الحكمة النظرية وجوب وجوده تعالى.

«فَإِنَّمَا يَشْكَرُ لِنَفْسِهِ»، بدليل: «إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ»، وحميد فيها إشعار إلى أنّه يشكر مَن شكره: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكَمْ»، أو يعنى جامع الكمالات.

«إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»، فى هذه الآية وعموم الآيات القرآنية يلاحظ الترابط بين البعد النظرى والعملى، فالشرك أعظم غلطة وكذباً وجهلًا على مستوى الإدراك، والظلم العظيم أعظم قبحاً فى العقل العملى.

«يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ..»، المداقّة فى الحساب- وكما ورد فى سورة الزلزلة- ممّا لا يدركه العقل لوحده، كذا باطن الفعل فى الملكوت بمقتضى الآية المبين فيها، حيث إنّ إتيان اللّه به يوم الحساب دليل بقائه وثباته.

«فِي السَّمَوَاتِ»، إمّا كناية عن الإحاطة الإلهية، أو إشارة إلى وجود جزاء لأهل السماء مجهول الكيفية لنا، كما يبدو من آيات وروايات متعدّدة، مثل:

«سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا»، وقول أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة حول الملائكة: «إنّهم يزدادون بعبادتهم لربّهم علماً»، و.. الكاشف عن وجود ظاهرة العمل والجزاء فى الملائكة.

«يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ»، بعد أن فرغ من توحيد اللّه ومعاده ودخل فى استعراض كلّيات الشريعة، وفيه دلالة على أنّ الصلاة ثابت فى كلّ شريعة، حيث كانت فطرية، وأنّ الأمر بالمعروف فطرى، وهو وإن كان فى الفقه الاصطلاحى يقابل

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۳۱

الجهاد والقصاص والديات والقضاء، إلّاأنّه بالمعنى الأعمّ شامل لها، بل شامل لكلّ معروف بعد أن كان الإتيان به يستبطن الدعوة لإقامته.

والصبر يكشف عن أنّ الأُمور العملية فيها عناء ولا يتمّ إلّابالصبر.

«وَلَا تُصَعِّرْ»، فعل جارحى ناتج عن الكبر.

«مَرَحًا» الزهو، وهو الترف والفرح للمادّيات المذموم فى القرآن.

«إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ»، إنباء لقمان عن المحبّة الإلهية، والتى على أساسها أمكنه العلم بالمحبوبات، وعلى أساس ذلك أمكنه النسبة.

ويعرّف أيضاً: أنّ الحكمة ليست علماً صرفاً، وإنّما هى التى تستوجب العمل.

وبه يمكن الردّ على من يقول إنّ حكم العقل منجّز فقط، حيث ظهر أنّه يلازم حكم الشرع بل يمكن نسبته إليه تعالى.

«إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ»، فيه دلالة على إلمامه الواسع بالخليقة، وإن كان قد ورد أنّ المراد بذلك صوت بعض أصحاب التابوت فى قعر جهنّم.

النموذج القرآنى الثامن: قصّة آصف بن برخيا صاحب سليمان ...: ص: ۵۳۱

وتبدأ من آية ۳۵ إلى آية ۴۱ من سورة النحل.

«قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ..»، إنّما كان سليمان حريصاً على السرعة الخاطفة فى إحضار عرش بلقيس لإظهار مقام آصف وأنّه وصيّه والإمام من بعده، كذا جاء فى الروايات عنهم عليهم السلام، ويعاضده سياق الآيات.

والإتيان بالوصف «عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ» مشعر بالعلّية، وأنّ الوصف هذا هو الذى أهّله للقيام بهذا العمل.

وآصف ليس نبيّاً بالاتّفاق، فتدلّ الآية على توفّر غير الأنبياء أيضاً على علم لدنى وهو خاصّ، وصنّف هذا العلم بعلم الكتاب وهو علم مرتبط بالأديان،

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۳۲

وبالدقّة: علم السنن الإلهية الكونية والشريعة بحسب التكوين.

وقد جاءت أوصاف العلوم اللدنية فى الروايات متنوّعة: علم الكتاب، فصل الخطاب، علم الوصايا، علم الأصلاب، علم شهادة الأعمال، علم المنايا والبلايا، علم التأويل، علم تأويل الأحاديث، منطق الطير، وغيرها..

كما ألفت القرآن إلى علم الكتاب فى مواضع متعدّدة:

أ- «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا..» «۱»

، وقد نزلت الآية فى كفّار قريش الذين طالبوا الرسول صلى الله عليه و آله بأن يقوم بتسيير الجبال المحيطة بالبيت الحرام بعيداً، ويقطّع الهضاب فى مكّة كى تصير الأرض سهلة زراعية كأرض الشام وتذهب حزونتها، ويحيى لهم موتاهم ممّن مضى، إلّاأن القرآن ذكر أنّ المطلوبات ثلاثة لو أُنجزت بالقرآن لا بالمصحف الشريف المقدّس لما آمنوا، فهذه الآية دالّة على أنّ هذه الأُمور ممّا يمكن تحقّقها بحقيقة القرآن إلّاأنّه تعالى لم يأذن لنبيّه صلى الله عليه و آله بتحقيقها وإيجادها بتوسّط ما لديه من حقيقة القرآن؛ لأنّ مشركى قريش لاـ يفون بشرطهم باستجابتهم للإيمان، ممّا يكشف عن أنّ هـذه الأُمور تحصل بالقرآن، سوى أنّه لم يحصل لأنّه لا يؤدّى إلى وفائهم وإيمانهم.

ب- «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» «۲»

، فالخشية ههنا عظيمة، ومن ثمّ جاء: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»، ومن الواضح أنّ نفس المصحف الشريف لو وضع على جبل لاـ يوجب تصدّعه، فمن الواضح أنّ المراد هو نزول حقيقة القرآن على الذات الحقيقية الخفية للجبل، حيث يثبت القرآن الكريم للأشياء الجامدة ذاتاً خفية وراء أجسامها، كقوله تعالى:

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۳۳

«أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» «۱»

، و «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» «۲»

، ممّا يثبت أنّ لذوات الأشياء إدراك وشعور.

ج- وفى آيات أُخرى: «آتَانِىَ الْكِتَابَ» «۳»

وما أشبه، دالّة على مؤهّلات النبىّ الظاهرة فى أنّ إيتاء الكتاب غير جعل النبوّة، وإنّما هو مقام غيبى آخر وعلم لدنى قد يقترن بالنبوّة.

د- قوله تعالى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۴»

، وقوله تعالى: «مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۵»

، الدالّ على أنّ كلّ شىء مستطرّ فى الكتاب والكتاب المبين، فالذى لديه علمه يحيط بذلك أو لديه بعضه فيحيط بقدر منه.

والقرآن هو الكتاب كما ورد فى الواقعة وهى قوله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ» «۶»

، وكذا فى سورة الدخان وهى قوله تعالى: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ..» «۷»

، وغيرها من السور الدالّة.

وقد منح شطر من العلم المزبور لآصف بن برخيا.

ونرجع دفّة الكلام إلى أصل القصّة وبدايتها من قوله تعالى: «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ* قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ* قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۳۴

أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ» «۱»

.والمفاد الأوّلى لهـذه الآيـة: أنّ جليس سـليمان لم يصـفه القرآن بأنّه نبىّ ولا مرسل، بل لديه علم من الكتاب، فى حين يثبت له القرآن الكريم علم غير كسبى.

ثمّ يستفاد من الآية أُمور:

أوّلًا: إنّ جليس سـليمان الذى هو آصف بن برخيا- والذى عليه الفريقان- لم يكن نبيّاً ولا مرسـلًا مع ذلك زوّد بعلم لدنى غير كسبى، ممّا يعنى أن هذا العلم لا يختصّ بنبىّ ولا رسول، بل تعلّق بغيرهما، ولكونه حجّة من الحجج الإلهية.

ثانياً: إنّ علمه لدنى غير كسبى، ودليل ذلك:

۱- وصـفه القرآن الكريم بأنّه علم من الكتاب توطئة لبيان القدرة على المجىء بعرش بلقيس، والوصف دخيل فى العلّية، حيث وصف علمه بعلم الكتاب، فالعلّة والسبب لهذا الفعل هو العلم غير الكسبى بل اللدنى كما يقال فى علم البلاغة والبيان الوصف مشعر بالعلّية.

۲- إنّ آصف بن برخيـا مؤهّل لهـذه المهمّـة الإلهيـة التى تُعـدّ إحـدى المقامات العاليـة التى لا ينالها إلّاأهلها، ممّا يعنى أنّ آصف بن برخيا فى درجة من الطاعة والعبودية يستحقّ عندها الاصطفاء لهذه الحبوة الكريمة.

على أنّ الكتـاب المشـار إليه فى الآيـة لم يكن هـو الكتـاب الخطّى المنقـوش، بـل هـو الكتـاب الحقيقى الملكوتى الـذى يهيمن على النشآت الأُخرى، لذا ورد لفظ الكتاب فى القرآن الكريم فى عدّة موارد مشيراً إلى هذه الحقيقة، كما فى قوله تعالى: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۲»

، وقد أشارت إلى ذلك سورة الواقعة فى قوله تعالى: «فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۳۵

الْمُطَهَّرُونَ» «۱»

، وفى سورة الرعد وصف لهذا الكتاب: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا..» «۲»

، وكما فى سورة الحشر قوله تعالى: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» «۳»

، فالإـنزال المشـار إليه هو إنزال ملكوتى حقيقى، وليس هـذا المصـحف المنقوش بـل بوجوده اللـدنى الملكوتى. ومن آثار هـذا العلم اللـدنى إمكانيـة حامله بإتيان عرش بلقيس قبل أن يرتـدّ الطرف، وهى قدرة خارقة عجيبة حاز عليها آصف بن برخيا بتحمّله هذا العلم الإلهى الذى هو بعض ذلك العلم، لتنكير كلمة (علم) الواردة فى الآية ولفظة (من) ممّا يشير إلى أنّ آصف حُبى ببعضه فقط.

كما يجب التنويه إلى أنّ وجود علم الكتاب عنـد غير الأنبياء دليل تشـريك فى المسؤوليـة والحجّيـة بينهم وبين مَن عنـده علم الكتاب وهم الحجج.

وبانتظام ومطابقة بين علم الكتاب فى سورة الرعد وعلم الكتاب فى سورة الواقعة يُتنبه إلى حقائق:

الأُولى: إنّ سوراً عديدة تفسّر الكتاب المبين بالقرآن، كما هو عليه سورة الدخان فى قوله تعالى: «حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» «۴»

، والتنزيل إشارة إلى أنّ المنزّل هو ذلك القرآن الذى وصفته الآية بالكتاب المبين، وكما فى سورة الواقعة عند قوله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ» «۵»

، وقوله تعالى فى سورة النمل: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» «۶»

، ممّا يعنى أنّ الكتاب المشار هو القرآن الكريم.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۳۶

الثانيـة: إنّ الكتاب تارةً يُطلق على جنس الكتاب، وتارةً يُطلق على الكتاب العهـدى للّام العهدية، والمقصود من الكتاب هنا هو القرآن الكريم لورود اللام العهديـة فى تعريفه، وأنّ للقرآن مواقع ومنـازل كونيـة ملكوتيـة، وأنّ المصـحف الشـريف هو أنزل تلـك المواقع والمنازل، ومن ثمّ وصف فى الآيات بأنّه تنزيل الكتاب، أى الدرجة والموقع النازل من الكتاب لا المواقع المكنونة الغيبية القدسية ذات المجد والكرامة.

الثالثـة: إنّ القرآن الكريم وصـفه اللّه تعـالى بـأنّه مهيمن على الكتـاب، وهـذه الصـفة تعنى الإحاطـة، فمـا نزل على الأنبياء من الحقائق العلمية والتى أودعت فى كتب مثل التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى فهى مودعة مثلها فى القرآن الكريم.

والخلاصة:

إنّ ما كان عند آصف بن برخيا هو بعض علم الكتاب أى بعض من القرآن؛ إذ الكتاب هو القرآن الشامل لكلّ الكتب التى أسلفنا.

وتبين عنـد ذلك أنّ الكتاب له وحـدة واحدة وهو القرآن، أى: أنّ المعارف السـماوية وحقائقها كلّها أودعت فى القرآن الكريم، وإذا كـان آصـف بن برخيـا قـد علِم بعض حقـائق القرآن فكيـف بمَن أُحيـط بعلمه كلّه ظـاهراً وباطنـاً وهو رسول اللّه صـلى الله عليه و آله وأوصيائه الحجج المعصومين من أهل بيته الطاهرين (صلوات اللّه عليهم أجمعين)؟

النموذج القرآنى التاسع: قصّة عزير ... ص: ۵۳۶

قوله تعالى: «أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۳۷

اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ» «۱»

، على اختلاف الروايات عند الفريقين فإنّ الذى مرّ على قرية هل هو إرميا النبىّ أم هو عزير الذى هو أحد الحجج الإلهية؟

وعلى كلا الوجهين فإنّ الـذى يهمّنا هو أنّ الكلام الإلهى المقصود فى الآية كونه إسـناداً مباشـراً إلى اللّه تعالى فهذا الوحى والخطاب الإلهى خوطب به الذى مرّ على القرية.

وعلى فرض أنّ المقصود هو عزير- وهو المشـهور بين الفريقين- فإنّ عزير لم يكن نبيّاً، بل هو حجّـة من حجـج اللّه تعالى، ومع ذلك فقـد حصـل على مقام التكليم مع اللّه تعالى مباشـرة، ممّا يعنى أنّ التكليم الإلهى ليس من مختصّات مقام النبوّة فقط، بل يشترك معها مقام الحجج الإلهية كذلك.

ولسائـل أن يقول: إذا كـان نبىّ اللّه إبراهيم قـد سـأل اللّه تعالى بنفسه ما سأل عزير حين قال حكايـة عن إبراهيم: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى» «۲»

، فكان ذكره فى مقام مدح وثناء، بينما كان تساؤل عزير فى مقام ذمّ واستياء كما يفيد ظاهر الآيتين وسياقهما.

وقد ذهب المفسّـرون أنّ إبراهيم كان فى تساؤله طلباً واستفهاماً وغايته الاطمئنان القلبى، فى حين كان تساؤل عزير استنكاراً لقدرة اللّه تعالى، وأنّ إبراهيم إسـتعمل أدباً خاصّاً فى طرحه لهذا التساؤل الاستفهامى، لذا فإنّ الإحياء الذى وقع لإبراهيم كان فيه كرامة فى حين كان الإحياء لدى عزير واقعاً فى نفسه حيث كان محلّاً لقدرة اللّه تعالى.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۳۸

إضاءة حول الرجعة ...: ص: ۵۳۸

وفى قوله تعالى: «كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ».

فالمحاورة التى جرت بين اللّه تعالى وبين عزير كانت على مستوى الروح وليس على مستوى البدن؛ لأنّ بدن عزير لم يتمّ إنشاء إعادته أثناء المحاورة، فلا سمع بدنى عندئذٍ ولا لسان ولا جوارح أُخرى تُقدِره على ذلك.

كما أنّ طبيعة النفس الإنسانية إذا وجدت فى نشأة بعد نشأة أُخرى فإنّها تكون فى حالة غيبوبة، ولدى النفس إقبال على النشأة الجديدة وذهول عن النشأة السابقة كما فى قوله تعالى: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا* يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا* نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا» «۱»

، وهذا ممّا يؤيّد ما تذهب إليه الإمامية فى الرجعة، وذلك أنّه لو أُشكل بأنّ القول بالرجعة ينافى كون الدنيا دار امتحان وذلك بسبب إبطال الامتحان فيما سبق من النشآت، ممّا يعنى أنّ أهل جهنّم عندما يرجعون إلى دار الدنيا قبل يوم القيامة بسبب ما ذاقوه من عذاب البرزخ سوف يتوبون وأنّ أهل الحقّ سوف يزدادون فى أعمال الخير وهذا خلاف حكمة الامتحان فى دار الدنيا.

والجواب: إنّ النفس عندما تقبل على نشأة أُخرى جديدة فإنّها تنسى النشأة السابقة وتعيش فى نشأة جديدة.

ونفس الجواب يُجاب به لمن أشكل من فلاسفة المسلمين من الخاصّة حيث يستشكلون فى عالم الذرّ من أنّ فرض وجود روح والمخاطبة فى عالم لو كان كذلك لما نُسى عالم الذرّ فى عالم النشأة اللاحقة، وكما أشكل ملّا صدرا إضافة إلى ما سبق- بقوله: ولكنّا معطّلين الوجود فى عالم الذرّ أى لو كانت النفس غير

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۳۹

حادثة بحدوث البدن، بأن كانت أسبق منه فى الخلق، واستدلّ بأنّا لا نتذكّر أنّا كنّا فى حركة وتأثير وفعّالية، ومن ثمّ اختار وأسّس نظريته أنّ النفس جسمانية الحدوث وروحانية البقاء، ورفض كون النفس روحانية الحدوث وروحانية البقاء. والجواب عن كلّ ذلك هو أنّ انبعاث النفس إلى نشأة جديدة وانشدادها إليها ينسيها مشاهد النشأة السابقة والنشآت السابقات، كما يقصّه لنا القرآن الكريم حول نسيان النفوس نشأة البرزخ.

علماً أنّ السؤال الفطرى فى عالم الذرّ لا ينافى النسيان فى النشأة اللاحقة.

وقوله تعالى: «فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ».

إنّ بدن عزير فى الظاهر قد بُلى، أمّا الطعام والشراب لم يبلَ، وهو نوع إعجاز، والقدرة الإعجازية هنا تعلّقت بالطعام والشراب الذى لابدّ من فساده ولم يفسد وإحياء ما قد بُلى وهو عزير.

وهذا شاهد قرآنى على طول عمر الإمام الحجّة (عج)؛ فإذا أمكن إبقاء قابلية الطعام والشراب على البقاء ففى قدرته تعالى على إبقاء الإمام الحجّة (عج) أولى.

وقوله تعالى: «وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ»، أى: معجزة للناس، ولم يكن عزير نبيّاً ولا رسولًا.

إنّ كون الشيء آية لعموم النوع والجنس مثل خلق الإنسان، فلا تكون الحجّية لكلّ واحد من الناس بخصوصه فى خلقته، فى حين لو كان الإعجاز لشخص معين من حيث هو فعل اللّه تعالى لشخص من باب التكريم والرحمة، فإنّ هذه الكرامة هى قدرة اللّه تعالى تظهر فى الشخص الذى هو فى مقام الحجّة الإلهية.

على أنّ الذى يُحبى بالمعجزة الإلهية لا يمكن أن يكون غير حجّة؛ لأنّ ذلك سيكون تغريراً بالمكلّفين، نعم، فيما إذا كانت المعجزة لا من باب التكريم بل من باب النقمة، فإنّ الذى تقع عليه المعجزة عندئذٍ ليس بحجّة، كما حدث لفرعون

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۴۰

وأمثاله من الظالمين.

كما أنّ أغلب موارد غير الحجّة لا يُعبّر عنها بالجعل، بل يُعبّر عنها بغير ذلك، نحو: (ليكون آية)، «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ

خَلْفَکَ آیَةً» «۱»

، فی حین موارد الحجّیة أغلبها عبّر عنها القرآن الکریم «بالجعل»، کما فی قوله تعالی:

«وَلِنَجْعَلَهُ آیَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً» «۲»

، وقوله تعالی: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْیَمَ وَأُمَّهُ آیَةً» «۳»

، وهذا ما یؤیّد حجّیة عزیر، فقوله تعالی: «وَانْظُرْ إِلَی حِمَارِکَ وَلِنَجْعَلَکَ آیَةً لِلنَّاسِ» «۴»

، والآیة هنا آیة تکوینیة.

قوله تعالی: «قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ».

وهذا أحد مؤیّدات حجّیة عزیر؛ لأنّ العلم هنا إشارة إلی العلم اللدنی لا الاکتسابی، ومن القرائن المؤیّدة أنّ عزیر له مقام الحجّة، ذکر فی دعاء أُمّ داود فی النصف من رجب، حیث ورد ذکره فی سیاق الحجج کلقمان وخالد بن حنظلة وغیرهما.

قوله تعالی: «قَالَتِ الْیَهُودُ عُزَیْرٌ ابْنُ اللَّهِ»، إنّ الیهود ادّعوا أنّ العزیر ابن اللّه لا علی سبیل البنوّة، بل تشریفاً، کقوله تعالی: «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» «۵»

، أی: اتّخاذ تشریفی لا حقیقی علی سبیل البنوّة. لذا فإنّ النبیّ صلی الله علیه و آله حین حاجج الیهود- کما فی روایة الطبرسی فی الاحتجاج- وسألهم عن سبب اتّخاذهم هذه الدعوی، وکون عزیر هو ابن اللّه، فقالوا: لأنّه أحیی التوراة فأقرّهم النبیّ صلی الله علیه و آله علی أنّه أحیی التوراة ولکن لم یؤیّدهم علی دعواهم الفاسدة أنّه ابن اللّه.

وهذه بنفسها قرینة علی أنّ الإحیاء للتوراة لا یکون إلّامن قبل وصی.

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۵۴۱

وفی روایة ابن عبّاس أنّ اللّه تعالی ألقی التوراة فی قلب عزیر، فهو إلهام لدنی، ولکنّ بعض المفسّرین قالوا: إنّ الإحیاء هو جمع أوراق التوراة ولیس هو إلقائها، إلّا أنّ الروایات متّجهة إلی الرأی الأوّل وهو إلقاء التوراة من قبل عزیر.

وفی روایاتنا أنّ أمیر المؤمنین علیه السلام استنسخ التوراة وتوارثها أهل البیت علیهم السلام، وهو ما یسمّی بالجفر الذی یشمل التوراة وصحف موسی وغیرها، ففیها ما هو کائن.

والقرآن الکریم لم یُخطّئ الیهود فی تعظیم عزیر ومقام الحجّیة لدیه، بل یخطّئهم فی دعواهم أنّ العزیر ولد اللّه، سبحانه عما یصفون.

کما یُلاحظ فی قصّیة عزیر نکتة هامّیة وهی أنّ إحیاؤه للتوراة وحفظه للرسالة دلیل علی أنّ عزیر نفسه مؤهّل أن یُفاض علیه ما أفاض اللّه تعالی علی النبیّ موسی علیه السلام، وهذا دلیل علی کونه حجّة من حجج اللّه تعالی.

النموذج القرآنی العاشر: الحواریون ... ص: ۵۴۱

قوله تعالی: «وَإِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی الْحَوَارِیِّینَ أَنْ آمِنُوا بِی وَبِرَسُولِی قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ» «۱»

، وظاهر الآیة هو وحی وإحیاء اللّه لهم مباشرة لا بتوسّط النبیّ عیسی، کما ورد فی الروایة عن أبی جعفر الباقر علیه السلام فی تفسیر العیاشی أنّهم:

أُلهموا، وقولهم استجابة لهذا الوحی تخاطباً مع اللّه عزّوجلّ، أی اشهد یا اللّه.

وقد ورد عن الإمام الرضا علیه السلام: «أنّ عدّتهم اثنا عشر، وأنّهم سمّیوا بالحواریین لأنّهم مخلصین فی أنفسهم ومخلّصین لغیرهم من أوساخ الذنوب» «۲»

، وکذلک عن

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۴۲

الإمام الرضا عليه السلام: «إنّ عدّتهم اثنا عشر وكان أفضلهم الوقا» «۱»

، وفى احتجاج الرضا عليه السلام على جاثليق النصارى فى مجلس المأمون، قال عليه السلام: «أنا مقرّ بنبوّة عيسى وكتابه وما بشّر به أُمّته وأقرّت به الحواريون» «۲»

. أى بشارته لأُمّته بسيد الأنبياء وهو الذى أقرّت به الحواريون، فيظهر من كلامه عليه السلام أنّ الحواريين هم من الحجج المنصوبين، حيث احتجّ بإقرارهم. وفى رواية عن أبى جعفر عليه السلام: «ثمّ إنّ اللَّه أرسل عيسى بن مريم إلى بنى إسرائيل خاصّة، فكانت نبوّته فى بيت المقدس، وكان من بعده الحواريون اثنى عشر، فلم يزل الإيمان يستسر فى بقية أهله منذ رفع اللَّه عيسى عليه السلام، وأرسل اللَّه تعالى محمّداً صلى الله عليه و آله إلى الجنّ والإنس عامّة، وكان خاتم الأنبياء وكان من بعده الاثنا عشر الأوصياء عليهم السلام» «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۴۳

القائمة الثانيةمن النماذج القرآنية ... ص: ۵۴۳

اشارة

وهو ما حبى اللَّه تعالى به من الأنبياء والرسل كما فى القرآن الكريم من مقامات ومناصب إلهية، لا ترتبط وحيثية النبوّة، إلّاأنّ أهل سنّة الجماعة فسّروا هذه المقامات بأنّها من باب الإعجاز، إلّاأنّ القرآن الكريم وصفها بأنّها مناصب إلهية وليس هى لغرض الإعجاز فقط.

وجواب آخر لهذا التوهّم وهو أنّ المعجزة يكفى فيها وقوعها بنحو دفعى فقط فيما كانت من الأفعال، أما استمرارها فلا حاجة إليه، فالمعجزة كالبارقة الغيبية لإثبات الإعجاز، والحال أنّ هذه المقامات الموهوبة لهم مستمرّة طيلة أعمارهم الشريفة.

وجواب ثالث: إنّ هذه القدرات والمناصب لا ترتبط بحيثيات النبوّة، والشاهد على ذلك أنّ عصمة الأنبياء لو كانت فى دائرة التبليغ فقط دون مقام حكومتهم لاستلزم التدافع عقلًا بين عدم العصمة فى حكومتهم والقول بأنّ نصبهم من اللَّه تعالى؛ وذلك لأنّ أمر اللَّه تعالى بطاعتهم المطلقة يتناقض مع فرض إمكان خطئهم.

فيتبين من ذلك أنّ منصب الحاكمية والحكومة والإمامة الثابت لسيد الرسل ولمن قبله فى جملة من الرسل هو مقام لهم لدنى زائد على مقام النبوّة، وهذا ممّا يدلّل على أنّ المقامات الإلهية لا تختصّ بالنبوّة والرسالة فقط، بل تشمل الحاكمية وهى الإمامة وغيرها، كما فى مقام الحجّية فى دائرة محدودة كما فى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۴۴

مريم وأُمّ موسى، ومن ثمّ فإنّ أهل سنّة الجماعة يذعنون للنبىّ صلى الله عليه و آله بالعصمة فى حكومته ولكن يتحاشون من التصريح بذلك؛ خوفاً من لوازمها، ويشهد لإذعانهم الخفى بذلك أنّهم يقرّون بلزوم التوفّر على الفضائل فى من يخلف النبىّ صلى الله عليه و آله ولابدّ أن يكون صاحب فضائل يفوق غيره.

وهذه الفضائل والمناقب التى يذعنون بلزومها فيمن يخلف النبىّ إذا أمعن النظر فى معانيها وحقيقتها يتّضح أنّها هى حقيقة العصمة، وأنّهم اضطرّوا إلى دعوى أنّ الخلفاء الثلاثة هم أفضل الخلق لأجل ذلك، فهذا إقرار خفى منهم بأنّ المفضول لا يقدّم على الفاضل، وبذلك أذعنوا إلى حقيقة مهمّة وهى أنّ من يتولّى منصب الإمامة والخلافة لابدّ من عصمته، إلّاأنّهم يحاولون الاجتناب عن التصريح بذلك.

إذن فهناك حبوات ملكوتية تُعطى للأنبياء ليس على سبيل الإعجاز فقط، بل هى عناوين ومناصب إلهية أخرى غير النبوّة.

ومعنى ذلك أنّ هـذه المقامات لـدى الأنبياء لا بما هم أنبياء، بل بما هم أولياء، فهذه الجهات مجعولة من قبل اللّه تعالى بما هم حجج أولياء؛ لغرض الهداية الإيصالية، فالقرآن نبّه على هذه المقامات بما هم حكام أولياء لا بما هم رسل أنبياء.

النموذج الأول لهذه القائمة: آدم عليه السلام ... ص: ۵۴۴

قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّکَ لِلْمَلَائِکَةِ إِنِّی جَاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِیهَا مَنْ یُفْسِدُ فِیهَا وَیَسْفِکُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَنُقَدِّسُ لَکَ قَالَ إِنِّی أَعْلَمُ مَا لَا

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۴۵

تَعْلَمُونَ» «۱»

، والآية مطلقة فى الجعل الكلّى للخلافة والإمامة، والخلافة هى ولاية مطلقة، والنيابة هى ولاية متوسّطة، والوكالة هى ولاية ضعيفة.

والقرآن الكريم لا يستعرض بصراحة نبوّة آدم بل صرّح بخلافته، لذا أنكر بعض المنحرفين نبوّة آدم لعدم التصريح بذلك فى الآيات.

قوله تعالى: «أَتَجْعَلُ فِیهَا مَنْ یُفْسِدُ فِیهَا وَیَسْفِکُ الدِّمَآءَ»، فاعتراضهم من جهة ولاية آدم وليس فى تبليغه كنبىّ.

قوله تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ کُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِکَةِ»، وتعليم الأسماء ليس فيه بعثٌ لآدم فى مقام النبوّة، فهى ليست شريعة ولا منهاجاً، بل حقائق مقامات تكوينية مرتبطة بأصل الديانة والولاية الإلهية.

والآية بينت أنّ ولاية آدم ليست مختصّة فى الأرض، بل هى شاملة على الملائكة والإنس والجنّ، فالكلّ تُفترض عليه طاعة آدم.

وفى قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِیمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِینَ* ذُرِّیَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ» «۲»

، والاصطفاء لا يختصّ بالنبوّة، بل يعمّ سائر المقامات والفضائل والكمالات اللدنية الوهبية، هـذا الاصطفاء كالجنس العامّ للمقامات الغيبية؛ وذلك لدخول مريم عليها السلام فى آل عمران مع كونها غير نبىّ بل كونها حجّة، فالاصطفاء إذن هو اجتباء للطهارة والعصمة وللمقام من المقامات الغيبية.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۴۶

النموذج الثانى: إبراهيم عليه السلام ... ص: ۵۴۶

قوله تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّیَّتِی قَالَ لَایَنَالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ» «۱»

، إنّ أصل الإمامة ليس هو مجرّد منصب اعتبارى، بل هو منصب تكوينى غيبى، وجعل إبراهيم إماماً إحدى درجاته النازلة هو الإدارة الظاهرة المعلنة أو الخفية لشؤون البشر، وتزويده بالعلم اللدنى وجعله إماماً هو مقام غيبى يغاير مقام النبوّة.

وإذا كانت الهداية الإراءية أى بقاء الشرائع والتى هى من مهام الأنبياء غير منقطعة فى أى حقبة من حقبات البشر، فإنّ الهداية الإيصالية التى هى من مهام الإمامة غير منقطعة كذلك، ومعنى ذلك أنّ الإمامة لا يمكن أن تنقطع أبداً، فمنصب الإمامة يؤكّده القرآن كسنّة إلهية، وليس هو بدعاً فى العقيدة بل عقيدة قرآنية راسخة.

قوله تعالى: «تِلْکَ حُجَّتُنَا آتَیْنَاهَا إِبْرَاهِیمَ عَلَى قَوْمِهِ» «۲»

، ومعنى الإيتاء هنا هو الإيتاء بالعلوم اللدنية والمقامات الإلهية التى ليست زائدة على شؤون النبوّة وحيثياتها.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَیْنَا بَنِی إِسْرَائِیلَ الْکِتَابَ وَالْحُکْمَ وَالنُّبُوَّةَ» «۳»

، فإيتاء الكتاب والحكمة يغاير النبوّة، بشهادة سياق التعداد لبيان تنوّع النعم والمنن على بنى إسرائيل، فكيف يُدّعى أنّ إيتاء الكتاب والحكمة هى النبوّة؟ ويعلم من الآية الكريمة أنّ الذى عنده علم الكتاب ليس بالضرورة أن يكون نبيّاً كما هو الحال فى آصف بن برخيا صاحب سليمان كما تقدّم. بل القرآن فيه موارد متعدّدة تدلّل على أنّ الإيتاء غير النبوّة.

قوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۴۷

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» «۱»

، فالكتاب والحكمة وإيتاء الملك العظيم ليس يتعلّق بحيثيات النبوّة، والملك سنخ ملكوتى لدنى وليس سنخ اعتبارى، ومن هنا يُفسّر الملك العظيم كما فى الروايات بأنّه الإمامة.

لأنّ الملك مصحوب بالقدرة نظير عنوان الخلافة، كما فى آدم زوّد بالأسماء ثمّ سجدت له الملائكة، فقدرته نابعة من الأسماء التى علّمها اللَّه تعالى إيّاه.

ودُعّم هذا المعنى بنفس الآية فى قوله تعالى: «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ»، وهذا هو الملك العظيم الذى هو القدرة وطاعة وخضوع جميع الملائكة فى السموات والأرضين وائتمارهم للخليفة فضلًا عمّن هو تحت سيطرة الملائكة.

قوله تعالى: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» «۲»

، يُعبّر عن الإمامة بتعابير مختلفة، فمرّة يُعبر عنها بالملك، وأُخرى يُعبّر عنها بالخليفة والإمامة، ورابعاً يُعبّر عنها بالكلمة، وإلى غير ذلك.

وذهب بعض أهل سنّة الخلافة بأنّ الكلمة هى كلمة التوحيد، أى مجرّد قول لا إله إلّااللَّه على اللسان، وهذا غير موافق لظاهر الآية؛ لأنّ إطلاق الكلمة قرآنياً لا يقتصر على الكلمة لفظياً، فقد أطلق على عيسى بكلمة اللَّه، فالحجج الإلهية هم كلمات اللَّه تعالى، والكتاب التكوينى هو الذى تجمع فيه الكلمات جميعاً، أمّا هذا الكتاب الذى بين أيدينا فهو كتاب اعتبارى جُمعت فيه الكلمات الاعتبارية.

وقوله تعالى: «يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» «۳»

أى يقيم الحقّ بكلماته، بيان للقائمين بالهداية الإرائية والإيصالية، والكلمات هم الحجج الذين يتولّون مهام

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۴۸

الهداية الإرائية، ومن ثمّ مهام الهداية الإيصالية كذلك.

وفى قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» «۱»

وإراءة الملكوت مقام زائد على مقام النبوّة، ومن ثمّ امتاز به إبراهيم على جملة من بقية الأنبياء، والملكوت هو الجانب الأمرى والسلطة على كلّ مخلوق والذى هو بيده تعالى.

النموذج الثالث: إسحاق ويعقوب عليهما السلام ... ص: ۵۴۸

قوله تعالى: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» «۲»

، فالجعل هنا كالتعريف لبيان حدود المعنى للإمامة، إذ هناك منصب آخر غير النبوّة وهو منصب الإمامة كما ورد فى القرآن الكريم، والهداية المعبّر عنها بقوله تعالى:

«يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» هى هداية أمرية وهى هداية ملكوتية فى مقابل الهداية الملكية، وقد تقدّم شطر من بيان معنى الأمر من الكلام فى الفصل السابق فى مباحث ليلة القدر والفصول السابقة أيضاً، وأنّ الأمر هو الروح الأمرى وهو روح القدس الذى يتنزّل ليلة القدر وينزل

الملائكة معه.

وقوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ..»، ممّا يدلّ على أنّ الإمامة هى وحى تسديدى وليس من الوحى النبوى.

وقوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ»، ولم يكن التعبير: (وأوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات) والفرق بين التعبيرين أنّ فى التعبير الأوّل متعلّق الوحى ذات فعل الخير تكوينياً، وأمّا فى التعبير الثانى متعلّق الوحى ليس هو ذات الفعل وإنّما هو الأمر التشريعى والطلب الإنشائى للفعل، وهو دليل على أنّ الأئمّة عليهم السلام لديهم

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۴۹

العصمة الفعلية، كما أنّ منصب الإمام ليس هو مجرّد منصب تشريعى اعتبارى، بل منصب تكوينى لدنى.

فهناك عصمة علمية وعصمة عملية لقوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ»، ممّا يدلّ على أنّ أفعالهم حجّة إلهية، فضلًا عن أقوالهم صلوات اللّه عليهم أجمعين.

وقوله تعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ» «۱»

، والآية تدلّ على وجود الهداية الإيصالية فى الإمامة لقوله تعالى: «وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ»، أى هناك حيثية إيصالية فى هدايتهم لبيان الغاية والعاقبة.

وقوله تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ» «۲»

، وهنا تبين أنّ الإمامة سنخ غيبى غير سنخ النبوّة، فالأمر الإلهى فى القرآن هو جانب الملكوت. والإيقان هو التسليم والمعرفة التامّة، فالإمام لديه اليقين التامّ، أى أنّ الملكوت أمامه دائماً، والروح الأمرى وهو غيب عن عالم السماوات وعن عالم الملائكة، لذا فهو يهدى بالهداية الإيصالية.

وقوله تعالى: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّی أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» «۳»

، إنّ التعبير «إِنِّی أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» دليل على أنّ العلم هذا ليس علماً كسبياً، بل هو علم لدنى أوتى به يعقوب غير مرتبط بالنبوّة، هو من غير قناة النبوّة، بل هو من باب الولاية الاصطفائية.

قوله تعالى: «وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِی عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۵۰

شَیْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِی نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» «۱»

، وهذا هو العلم الذى عُلّم به يعقوب، غير مرتبط بالنبوّة، بل مرتبط بتدبير الأُمور على نحو التفصيل فى الشؤون المعاشية المرتبط بالولاية، والتعبير لما علّمناه هو تأكيد آخر على كونه علماً لدنياً غير كسبى.

النموذج الرابع: يوسف عليه السلام ... ص: ۵۵۰

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِی الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ» «۲»

، إيتاء علم تأويل الأحاديث ليوسف ليس كسبياً بل هو لدنى، وليس هو من شؤون النبوّة؛ إذ ليس مرتبطاً بالتشريع أو المسائل الاعتقادية. فما المقصود بتأويل الأحاديث؟

إنّ تأويل الأحاديث ليس هو تأويل الرؤيا وحده، بل هو أحد مهامه إذ تأويل الأحاديث أعمّ من ذلك، حيث إنّ كلّ نشأة تأويل للنشأة السابقة، فعالم الأصلاب هو تأويل لعالم الذرّ وعالم الأرحام تأويل لعالم الأصلاب وهكذا، إذ التأويل من الأوْل أى الرجوع، فكلّ نشأة راجعة إلى النشأة السابقة، فالتأويل هو منتهى الشيء والمآل له.

ونبيّ اللّه يوسف عليه السلام ليس لديه تأويل الرؤيا فحسب، بل لديه علم معرفة مآلات أحداث الدنيا أى عواقب تلك الأحداث الدنيوية.

هذا على مستوى نطاق نبوّة يوسف عليه السلام، فكيف بنبيّ اللّه الخاتم صلى الله عليه و آله وأوصيائه المعصومين؟ فقد حُبوا أكثر وأعظم مما حُبى به يوسف عليه السلام، وذلك لقوله تعالى:

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۵۱

«وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» «۱»

، والضمير فى تأويله عائد إلى كلّ الكتاب، وتأويل كلّ الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ولا رطب ولا يابس ولا غائبة فى السماء والأرض إلّاأحصاها، ومعلوم أنّ الراسخين فى العلم فى هذه الأُمّة هم صلوات اللّه عليهم أجمعين؛ وذلك بشهادة آية التطهير، وأنّ أهل البيت هم المطهّرون فى هذه الأُمّة، وقد قال تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «۲»

.وأما قوله تعالى: «هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» «۳»

، فالظاهر أنّ ذلك إشارة إلى ما أنعم اللّه عليه من معرفة تأويل الأحاديث، ومنه تفسير الرؤيا الذى عرف به مآل مستقبل أهله وإخوته. وهذا نوع من أنواع العلم اللدنى الذى حُبى به يوسف عليه السلام، ولا ربط له بالرسالة بل بعلوم الولاية. وتأويل الأحاديث أعمّ من تعبير الرؤيا إلّاأنّه أخصّ من تأويل القرآن؛ لأنّ تأويل القرآن تأويل لكلّ النشآت السابقة واللاحقة للنشآت الأُخروية، فالذى يحيط بعلم تأويل القرآن هو أعلم ومهيمن على علم من يحيط بتأويل الأحاديث، ومن هذا القبيل قوله تعالى: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» «۴»

، إشارة إلى أنّ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۵۲

الاستنباط بالمعنى القرآنى لا- بمعنى الاجتهاد الظنّى؛ إذ هو لا- يورث العلم ولا- يوقى عن اتّباع الشيطان فى تدبير النظام الاجتماعى السياسى؛ إذ يتوقّف ذلك علاوة على العلم المحيط بالتشريعات الإلهية، على العلم اللدنى المحيط بالموضوعات فى الشؤون المختلفة وعلم الأحداث الذى يزوّد به ولىّ الأمر فى ليلة القدر، حيث يتنزّل عليه تفاصيل كلّ الأحداث المستقبلية صغيرها وكبيرها وقد تقدّم شطر وافر من الكلام فى الفصل السابع من مباحث ليلة القدر، وقرينة على إرادة هذا المفاد من الآية هو التعبير ب (لَعَلِمَه) الظاهر فى حقيقة العلم لا الظنّ، لا سيما قد وصف هذا العلم بأنّه يوقى بنحو دائم بات عن اتّباع الشيطان، وهو أشرف من علم تأويل الأحاديث.

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ* وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» «۱»

، إنّ الآية تبيّن أنّ التمكين بيد اللّه تعالى فزمام الأُمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكلّ دقائق الحياة- كما سيأتى بيانه مفصّلًا- موكول أمره إلى اللّه تعالى.

وتمكين يوسف فى الأرض مقاماً غير النبوّة، بل هو مقام حاكمية من قبل اللّه تعالى، وهى إحدى الحبوات التى حُبى بها يوسف عليه السلام.

وإنّ ما عمله أُخوة يوسف عليه السلام هو بنفسه يصبّ فى الغرض الإلهى وإن كان معصية من قبلهم، وهذه سنّة لا تتخلّف من أنّ كلّ ما يعمله الظالمون والمفسدون فإنّه غير غالب لتدبير اللّه تعالى، بل اللّه تعالى غالب على أمره قد جعل اللّه لكلّ شىء قدراً «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» «۲»

فإنّه أخيراً سيصبّ فى الغرض الإلهى، ولا- يعنى هذا حسن عمل السوء، فالقبيح يبقى قبيحاً، وعمل السوء يحيق بصاحبه: «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» «۳»

، ولا يضرّ اللَّه شيئاً

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۵۳

وهو ما تؤكّده الآية التالية- نظير عمل إبليس، فإنّ دخول الشرور فى منظومة الخلقة الإلهية لا يخرج الأمر عن تدبيره تعالى، ولا يعيق قيد شعرة الخطّة الإدارية التكوينية عن الوصول إلى الغايات الكمالية.

قوله تعالى: «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ» وهذا تأكيد على أنّ كلّ مجريات العالم بدقائقه وكلّياته مرتبطة بإرادته تعالى، وهذا خلاف ما ادّعته اليهود بأنّ يد اللَّه مغلولة فأجابهم اللَّه تعالى بقوله: «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ»، فالإرادات التكوينية للمخلوقين لا يمكن أن تتخطّى إرادة اللَّه تعالى، لا- بمعنى إلجائهم بنحو يفقدهم الاختيار إلى الجبر، بل بمعنى إنّ ما يفعلوه من أفعال الشرّ يستثمره البارى تعالى بلطيف قضاءه وقدره ومكنون حكمته فى تحقيق الغايات الكمالية الإلهية، ففعلهم شرّ، إلّاأنّ فعله تعالى فى تدبير القضاء والقدر لاستثمار ذلك خير تامّ بالغ، فكيف نتصوّر بعد ذلك أنّ اللَّه تعالى قد رفع اليد عن الأُمور الاجتماعية وأهمّها قيادة المجتمع الذى يمثّله تعيين الإمام الخليفة بعد النبىّ صلى الله عليه و آله.

قوله تعالى: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ»، أى: لا يعلمون أنّ كلّ حدث يجرى ويصبّ هو فى الإرادة الإلهية.

وبالتدبّر فى سيرة حكومة النبىّ صلى الله عليه و آله فى القرآن، وتصرّف وإرادات اللَّه تعالى فى حكومة النبىّ صلى الله عليه و آله المستعرضة فى القرآن واضحة جلية، فهل يعقل انقطاع تصرّف الإرادات الإلهية فى تدبير النظام البشرى بعد وفاة النبىّ صلى الله عليه و آله لعدم تعيين الخليفة الذى تتنزّل عليه المشيئة الإلهية والإمام من قبل اللَّه تعالى؟

فالقول بعدم تعيين الإمام من قبل اللَّه تعالى تعطيل محض لإرادات اللَّه تعالى وحكمه وحاكميته فى تدبير النظام البشرى.

قوله تعالى: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ»، فإيتاء العلم والحكمة جزاء لمن وصل إلى مقام الإحسان؛ لقوله تعالى: «وَكَذَلِكَ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۵۴

نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ»، ولا علاقة لهذا الإيتاء بالنبوّة.

فالعلم اللدنى هنا لمقام المحسنين وليس للنبوّة، وهو ما يتوفّر لدى الأئمّة عليهم السلام الذين آتاهم اللَّه تعالى علماً لدنياً بسبب مقامات عدّة ليس لها علاقة بمقام الرسالة، بل لكونهم حججاً مصطفين.

قوله تعالى: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ»، فصرف السوء والفحشاء ليس لكونه نبيّاً فقط، بل لكونه من عباده المخلَصين، وقد عبّر تعالى بقوله: «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ»، أى نمنع عنه السوء والفحشاء، ولم يقل ونصرفه عن السوء والفحشاء، أى نبعد السوء عن أن يقترب إليه، وليس إبعاد يوسف عن أن يقترب إلى السوء والفحشاء؛ إذ لم يكن من قبل النبىّ يوسف إقبال على الفحشاء والسوء كى يُبعد عنه، بل الفحشاء فى فعل زليخا حيث أرادت أن تقبل على يوسف فصُرفت عنه، فهذه دلالة على عصمة يوسف ذاتاً بل وعصمته عن أن يُخترق حريم عصمته من البيئة المعاشة.

وبذلك يظهر دلالة قوله تعالى الذى هو بنفس التعبير والتركيب: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» «۱»

على عصمتهم الذاتية وعلى عصمتهم عن أن يخترق الرجس حريم عصمتهم، كما يشير إلى ذلك أيضاً ما فى زيارة سيد الشهداء عليه السلام: «ولم تنجّسك الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمّات ثيابها»، وهذا دليل على أنّ يوسف عليه السلام لم يهمّ بها بل هى همّت به.

لذا فإنّ لدى المعصوم شعاع من العصمة يمنع السوء عن المعصوم فضلًا عن عصمته الذاتية. وفي سورة الدهر أكّدت أنّ أهل البيت عليهم السلام من عباد اللّه المخلصين حيث أخلصوا مع اللّه تعالى فانتجبهم واجتباهم، وحيث جعلوا فوق مقام الأبرار

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۵۵

فهم يسقون الأبرار من عين الكافور فيمزجون شرابهم منه.

قوله تعالى: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ* قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ* وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» «۱»

.وهذه المرتبة حيثية أُخرى غير النبوّة يمكن أن تجعل النبيّ حاكماً في الأرض، والشرائط الشرعية في كونه حاكماً أن يكون حفيظاً عليماً، وهي بعينها شرائط الإمامة، وهي كونه تتوفّر لديه العصمة العلمية (عليم)، فضلًا عن العملية (حفيظ)، بخلاف من قال بتقديم المفضول على الفاضل كما ذهبت إليه المعتزلة.

وفي الآية مفهوم من أقوى المفاهيم، وهو مفهوم التعليل حيث علّلت العلم علّة لمنصب الحاكمية والجاهل ليس له ذلك، وهذا ما تلتزم به الإمامية من كون الإمام والخليفة لابدّ أن تتوفّر لديه العصمة العلمية فضلًا عن العملية، فيكون عليماً بنظم التدبير في النظام الحاكم في مجالاته المختلفة، ولا يجهل أوفق البرامج الموصلة إلى المثل العليا في الكمال في الأنظمة الاجتماعية في الميادين المختلفة، ويكون حافظ لهذه الأمانة في الحاكمية فلا- يميل به الهوى ولا تستولي عليه العصبية ولا يغلبه التجبّر ولا يقعده الجبن، إلى غير ذلك من الصفاة المانعة من حفظ الأمانة.

قوله تعالى: «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» «۲»

وهي إشارة إلى أنّ الأُمور لدى الأنبياء فضلًا عمّن دونهم كلّياتها وجزئياتها تجري وفق التدبير الإلهي

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۵۶

وضمن مسارات الإرادة الإلهية، فأخذ يوسف أخاه في دين الملك لم يكن بتدبير يوسف منعزلًا عن الإرادة الإلهية والمشيئة الربّانية.

قوله تعالى: «اِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ» «۱»

، فخاصّية قميص يوسف أنّه إذا أُلقي على أبيه يرتدّ بصيراً، فكيف ببدن يوسف عليه السلام، لذا فإنّ اللّه تعالى يكرّم أولياءه بخاصّيات تكوينية.

قوله تعالى: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» «۲»

وهذا أيضاً تأكيد على أنّ ما أُوتي من مقامات لا ترتبط بمقام النبوّة والرسالة بل بمقام الولاية.

النموذج الخامس: موسى عليه السلام ... ص: ۵۵۶

قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ* قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّافَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ* قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ* قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَاذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَاشِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ* وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَاتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» «۳»

.الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۵۷

إنّ البقرة هنا لها خاصّية إحياء الموتى على يد موسى عليه السلام فكيف بالنبيّ أو الوصيّ عليهما السلام، وليس فى ذلك غلوّ أو خلاف الحقّ، بل القرآن ينصّ على خصائص تكوينية لأجسام الأنبياء والأوصياء.

ثمّ إنّ الآية وهى فى منازعة قضائية جنائية تؤكّد أمراً مهمّاً وهو متابعة اللّه تعالى للمجتمع الإسرائيلى الذى أسّسه موسى عليه السلام فى كلّ صغيرة وكبيرة، وهذا يعنى أنّ اللّه تعالى يباشر حكومة هذا المجتمع عن طريق موسى فى السياسات الكلّية والجزئية ممّا يؤكّد أنّ اللّه تعالى يمارس الحاكمية بشكل تفصيلى بكلّ دقائق الأُمور وكلّياتها.

إنّ التوجّه السائد لدى أهل سنّة الجماعة والخلافة- وللأسف- أنّهم يُبعدون الذات المقدّسة عن ساحة الأحداث، وهو لازم قولهم إنّ خلافة النبيّ صلى الله عليه و آله أمر دنيوى لا دخل للحاكمية والولاية الإلهية التفصيلية فيه، أى تعطيل الدور الإلهى وإزوائه، والإرادة الإلهية التفصيلية والمشيئة التنفيذية لا تتنزّل على أحد إلّاعلى نبيّ أو وصى معصوم، وهو ما دفع أهل سنّة الجماعة- على ما يبدو- إلى عدم الالتزام بهذه الحقيقة القرآنية العظيمة وهى حاكمية اللّه وسلطته التنفيذية فى تفاصيل تدبير النظام البشرى السياسى والاجتماعى.

قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» «۱»

، والآية صريحة فى عقيدة الإمامية من كون الحكم بالشريعة فى النظام الاجتماعى السياسى هو للأنبياء، وهو منصب يختصّون به، والمرتبة الثانية أنّ الحكم للربّانيين وهم الأولياء المصطفون، والرتبة الثالثة الحكم للأحبار أى

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۵۸

العلماء وهذه الطولية فى جعل الحكم هى لمغايرة الربّانيين للأحبار.

والربّانى هو المنسوب إلى الربّ وهى صيغة مبالغة وهذه الصيغة تدلّ على شدّة القرب للّه‌تعالى فهو لابدّ أن يكون معصوماً، والربانية هى مرتبة اصطفائية وهم الأئمّة عليهم السلام وقرينة أُخرى على المراد بهم الأوصياء بقوله تعالى: «بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ»، فالذى يكون شهيداً على الكتاب كلّه لابدّ أن تكون إحاطته بالكتاب لدنية أى نظير تعبير بمن عنده علم الكتاب، كما تدلّ هذه القرينة على أنّ الربّانى لا تخلو منه الأرض، لأنّه الحافظ لإقامة كتاب اللّه فى النظام البشرى فقد استحفظ وكان على ذلك شهيداً، فلا يستقلّ الأحبار فى الحكم النيابى عن الربّانى وعن هيمنة وإشراف الوصى المعصوم فى كلّ الأزمان.

قوله تعالى: «إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا» «۱»

، وجعل الملك فى بنى إسرائيل من قبل اللّه تعالى دليل على كونه جعلًا إلهياً وعهداً منه، وأنّ سنخ جعل الملك كما هو فى جعل النبوّة، كما فى قصّة طالوت حيث جعله اللّه ملكاً بغضّ النظر عن اختيار الناس له، والملك هنا ملك تصرّف فهو لا يقتصر على الاعتبار التشريعى، بل الملك هنا أعمّ كما فى قوله تعالى فى آل إبراهيم: «وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» «۲»

، فهو منصب إلهى غير منصب النبوّة؛ إذ إنّ موسى عليه السلام جعل الملك نعمة وحبوة، وهى غير مختصّة ببنى إسرائيل فتعمّ كلّ الأمم، والأُمّة الإسلامية هى أولى فى جعل الملك لديها وهى الإمامة، ففى آيات عدّة عُرّف حدّ الإمامة بالملك وولاية التصرّف.

وقوله تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا» «۳»

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۵۹

فمع كون النقباء غير أنبياء إلّاأنّ التعبير ورد (وبعثنا)، فبعث النقباء كبعث الأنبياء عهد إلهى ملكوتى تكوينى، وقد ورد التعبير بعينه إيضاً فى طالوت حيث قال تعالى على لسان نبيّ بنى إسرائيل: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» «۱»

كذلك.

والنقابة هى معرفة أحوال القوم وخفاياهم، فالنقيب من نقّب عن أحوال قومه، ولذا فقد ورد فى صفاة الإمام معرفته لأحوال وأسرار أُمّته، حيث ورد فى الروايات إنّ عليه السلام له عمود نور يرى بواسطته أعمال الناس، وهو مفاد قوله تعالى: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» «۲»

، فالمؤمنون ههنا خصوص الأئمةّ الشهداء على أعمال البشر يرون الأعمال حين صدورها من الإنسان، وهو معنى الشهادة والرؤية لها فى سياق رؤية اللَّه تعالى ومن بعده رسوله صلى الله عليه و آله ومن بعده المؤمنون المعنى بهم ما ذكرهم تعالى فى آخر سورة الحجّ: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» «۳»

، فهم من نسل إبراهيم الخليل من قريش، فالإمام نقيب بما فيه من التأهيل لمعرفة أحوال البشر.

كما أنّ العدد اثنى عشر له دلالة على الإمامة الاثنى عشر، فالعدد هذا ليس اعتباطى بل سنّة إلهية فى الأُمم؛ إذ ورد أنّ أوصياء كلّ نبىّ اثنا عشر، كما ورد أنّه يجرى فى هذه الأُمّة ما جرى فى بنى إسرائيل، وورد فى الحديث النبوىّ «۴» المتواتر: «أنّ خلفائى اثنى عشر كلّهم من قريش من هذا البطن من بنى هاشم».

قوله تعالى: «وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۶۰

لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» «۱»

، تدلّل الآية على أنّ الشريعة الموسوية فيها حاكمية وإمامة إلهية؛ لأنّ موسى عليه السلام استخلف هارون عليه السلام فى قومه حاكماً فترة غيابه والتى وهى أربعون ليلة، فكيف لا يستخلف النبىّ عليه السلام إماماً وخليفة بعد وفاته؟ مع أنّ أهل سنّة الجماعة أقرّوا أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله استخلف فى حياته على المدينة المنوّرة عند خروجه فى الغزوات.

قوله تعالى: «وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» «۲»

، والأُمّة هى المجموعة ذات الهدف الواحد، و (من) تبعيضية أى بعض قوم موسى يقومون بالهداية ويقيمون العدل بالحقّ، ودوام الصفة وإطلاقها يدلّ على العصمة العلمية والعملية؛ إذ الصفة أوتى بها بصيغة جملتين من الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والشمولية، والتعبير فى الجملة الأُولى يدلّ على دوام الفيض العلمى اللدنى لديهم، والتعبير فى الجملة الثانية يدلّ على دوام البسط والتمكين الإلهى لهم لأسباب إقامة العدل، وهم أئمّة وذلك بهديهم وإمامتهم للناس، فكيف فى أُمّة محمّد صلى الله عليه و آله، إذن لا يكون هناك أُمّة منهم أئمّة هدى؟

قوله تعالى: «وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا» «۳»

، فاختيار موسى للميقات هو اختياره لهم إلى مقام تشريفى، إلّاأنّ اللَّه تعالى لم يرتضِ أهلية هؤلاء؛ لأنّ فيهم السفهاء وهم جهلاء ظالمون، فلا يكونوا مؤهّلين لسماع الوحى والتكليم الإلهى، لقوله تعالى لإبراهيم فى إمامة ذرّيته: «لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ»، وكما أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله كلّف أبا بكر تبليغ سورة براءة، إلّاأنّ الوحى استدرك وأمره أن لا يبلّغ إلّا

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۶۱

أنت أو رجل منك، وهذه سنّة إلهية ثابتة.

فالاختيار والاصطفاء إذن من اللَّه تعالى، فلو كان مع موسى غير سفهاء لكانوا مؤهّلين لسماع الوحى مع أنّهم غير أنبياء، فما تعتقده الإمامية من أنّ علىّ بن أبى طالب عليه السلام إستمع الوحى ورآه لقوله صلى الله عليه و آله: «يا علىّ، إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى» «۱»

، سنّة قرآنية أصيلة، ومن ثمّ أمر اللَّه نبيّه فى آية المباهلة انتداب علىّ لشهوده الوحى ومسؤوليته لهذه الشهادة هو وزوجه البتول وشبليه

سيدا شباب أهل الجنّة، حيث كانوا أصحاب الكساء يشاهدون الوحى عياناً، فحمّلهم اللَّه تعالى مسؤولية الشهادة فى المباهلة كشركاء تابعين للنبىّ صلى الله عليه و آله فى الحجّة الإلهية كما فى قوله تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» وهو الوحى النازل، «وَيَتْلُوهُ» أى يتبعه وتابع له، «شَاهِدٌ» أى يشهد الوحى عياناً ويشهد البينة من الربّ، «مِنْهُ» أى من أهله وبمنزلة نفسه كما فى «أَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ».

وقد يُعترض بأنّ كلّ مؤمن يشهد بوحدانية اللَّه وبرسالة النبىّ صلى الله عليه و آله، فلماذا خصوص الأمر الإلهى فى آية المباهلة بأهل البيت عليهم السلام بأن يشهدوا للنبىّ والرسالة دون غيرهم؟ أليس قد شهد خزيمة بن ثابت للنبىّ صلى الله عليه و آله بما لم يره عندما نازع الأعرابى النبىّ صلى الله عليه و آله فى عين مال فأمضى النبىّ شهادته عن بينة بمنزلة شهادة رجلين؟ وذلك ليقين خزيمة بصدق النبىّ صلى الله عليه و آله.

وللإجابة عن هذا الاستفسار: أنّ شهادة المؤمن حيث كانت تستند إلى إدراك المعجزة الإلهية على نبوّة النبىّ صلى الله عليه و آله فهى إخبار قطعى لا ظنّى، بل هى إخبار عن عيان؛ لأنّ المعجزة كما هو الصحيح عندنا عيان للقدرة للغيبة يتكشّف شىء من ستار الغيب، فإدراك المعجزة عيان لبروز القدرة الغيبية الإلهية.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۶۲

لا كما عرفها المتكلّمون من أنّها برهان فكرى فى الاستنتاج الذهنى ومن نمط العلم الحصولى، بل هى علم حضورى فى الأساس، وإن كانت معجزة علمية أو تكوينية تستند إلى الحسّ فى مقدّماتها وإلى المعانى الذهنية، إلّاأنّ أبصار الإعجاز المترتّب عليها هو عيان وجدانى للقدرة الخارقة الغيبية، ومن ثمّ تكون مسؤولية المؤمن الإقرار والشهادة والإخبار القطعى بما أدركه عياناً، إلّاأنّ هذا الإدراك لمّا كان محدوداً وبنحو إجمالى كانت المسؤولية الملقاة على كاهل المؤمن هى متناسبة بقدر ذلك من افتراض الإيمان عليه والتسليم والطاعة، بل والقيام فى الواجبات فى الشريعة.

وهذا بخلاف من يحمل أن يكون قوله وشهادته سنداً بنفسه يقينياً قطعياً لحجّية نفس الرسالة والنبوّة ليضاهى قوله وشهادته المعجزة فى إثبات الرسالة، فإنّ مثل ذلك الشخص والأشخاص لا ريب ولابدّ أنّهم يتمتّعون بعيان حضورى لكلّ تفاصيل الوحى، ويشاكلون ويشاركون النبىّ صلى الله عليه و آله مع تبعيتهم له فى العلم والعيان لما ينزل على النبىّ صلى الله عليه و آله، ومن ثمّ خُصّوا بهذه المسؤولية دون غيرهم، وكانت لهم أهلية ذلك دون بقية كبار الصحابة ودون زوجات النبىّ، كما تقدّم فى اختصاص علىّ بتبليغ سورة براءة دون أبى بكر؛ بأمر اللَّه النازل: لا يبلّغ عنك إلّا أنت أو رجل منك، فكانوا على درجة من الصفات توجب اليقين من شهادتهم على حذو اليقين الحاصل من المعجزة.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا» «۱»

، فالوزارة للنبوّة جعل إلهى، لذا فقوله صلى الله عليه و آله: «أنت منّى بمنزلة هارون من موسى»، بمعنى الخلافة والوزارة والإمامة، وكون هارون وزيراً غير كونه نبيّاً.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۶۳

النموذج السادس: سليمان وداود عليهما السلام ... ص: ۵۶۳

قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ* أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ» «۱»

، فهذه المقامات المذكورة والنعم الموصوفة هى غير مقامات النبوّة، بل هى مقامات إمامة وولاية.

وقوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيمانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ» «۲»

، وهى كسابقتها من الآيات إذ الأعطيات التى استوجبت الحمد من قبل داود وسليمان لمكان الحبوة التى حُظيا بها من اللَّه تعالى، لا لمقام النبوّة منهما، بل لحجّيتهما وإمامتهما.

قوله تعالى: «وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ» «۳»

، فقد وصف اللَّه تعالى داود أنّه عبد فى هذه الآية والمقام ولم يذكر وصف النبوّة، ممّا يدلّل- بمقتضى أنّ الوصف مشعر بالعلّية- على أنّ هذه الحبوات إنّما أُعطيت له بمقتضى درجة العبودية التى وصل إليها، والتى هى معنى الولاية كما فى الخضر حيث قال تعالى «فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» «۴».

فبيّنت الآية أنّ العلم اللدنى والرحمة الخاصّة التى هى من مقامات الولاية وأُعطيت للخضر استحقّها بالعبودية بدرجة خاصّة، فهذه المقامات أُعطيت لداود بسبب مقاماته فى العبودية، وهى الولاية؛ لأنّ العبودية هى الجانب الذى يلى من العبد تجاه مولاه، لا بما لداود من مقام النبوّة.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۶۴

فالآيات المتقدّمة تشير إلى حقيقة مهمّة وهى أنّ الحبوات التى حصل عليها الأنبياء لا لمجرّد كونهم أنبياء بل لكونهم حججاً أولياء وأئمّة، فالنبوّة وإن كانت تحتاج إلى المعجزة، إلّاأنّ المعجزة لا ضرورة لدوامها واستمرارها بنحو ممتدّ، بل يكفى وقوعها وحدوثها لإيجابها واستلزامها الثبات على نحو الدوام، أى أنّ وجودها وإن كان دفعياً إلّاأنّ حجّيتها ووصف الحجّية لها مستمرّ؛ إذ هى فى حدود تصديق نبوّة النبىّ.

فإذا تمّ الغرض انتفت الضرورة لاستمرار وجودها، وإن كان بعض المعاجز كالقرآن الكريم- معاجز مستمرّة الوجود، بينما هذه الحبوات والمقامات ثابتة لحجج اللَّه تعالى وأوليائه، وهو ما حدث وما يحدث لأئمّة آل البيت عليهم السلام من الحظوة بالمقامات الإلهية التى حازوا عليها وأكرمهم اللَّه تعالى بحبواته، فلا مجال إذن لإنكار هذه الحقيقة المعرفية القرآنية تحت ذريعة وغطاء التفويض والغلوّ كما توهّم البعض.

فإيتاء الملك لداود هى الإمامة. ولولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض، إشارة إلى التدبير الاجتماعى الذى يديره داود فى بنى إسرائيل، فإيتاء الملك يختلف عن إيتاء النبوّة، فهو منصب خاصّ من قبل اللَّه تعالى، فالإمامة أهلية خاصّة غير أهلية النبوّة.

قوله تعالى: «أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ» «۱»

، فتوريث الأرض للعباد الصالحين لا لكونهم أنبياء، بل لكونهم عباداً صالحين، وهذا وعد إلهى.

إنّ أحد حدود الإمامة هى العبودية بدرجة فائقة للَّهتعالى وهى ولاية ولى اللَّه الإمام وتولّيه لربّه تعالى، وقد روى هارون بن الفضل، قال: «رأيت أبا الحسن علىّ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۶۵

بن محمّد فى اليوم الذى توفّى فيه أبو جعفر عليه السلام فقال: إنّا للَّهوإنا إليه راجعون، مضى أبو جعفر عليه السلام. فقيل له: وكيف عرفت؟ قال: لأنّه تداخلنى ذلّة للَّهلم أكن أعرفها» «۱».

وفى رواية أُخرى أنّه عليه السلام سُئل عن كيفية علمه بوفاة أبيه قال: «قد دخلنى من إجلال اللَّه ما لم أكن أعرفه قبل ذلك، فعلمت أنّه قد مضى» «۲».

فالإمامة ولاية ملكوتية غيبية وليست ولاية ملك مادّى فقط، بل ولاية عبودية للَّه تعالى. والولاية أعلى رتبة من النبوّة، وذلك أنّ الولاية هى جهة القرب والارتباط باللَّه تعالى، فولاية كلّ نبىّ هى أعلى وأشرف من نبوّته؛ لأنّها جهة عبودية النبىّ للربّ تعالى، فلذلك الولاية أعظم من النبوّة، أى ولاية ولى اللَّه الإمام وتولّيه لربّه.

قوله تعالی: «قَالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ* إِلَّا عِبَادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ» «۳»

، إنّ غوایة إبلیس وإضلاله لا تشمل المخلَصین- بالفتح- فهم معصومون عن غوایة إبلیس علی صعید العمل وعلی صعید العلم.

وإنّ سورة الصافات فی أربع مواضع ذکرت (عباد اللَّه المخلصین).

۱- قوله تعالی: «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ» «۴».

۲- قوله تعالی: «فَانْظُرْ کَیْفَ کَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِینَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ» «۵».

۳- قوله تعالی: «فَکَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ» «۶».

۲- قوله تعالی: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا یَصِفُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ» «۷».

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۵۶۶

فوصف اللَّه تعالی هؤلاء العباد بأنّهم مخلَصین لا تقع منهم معصیة ولا یراودهم شکّ أو شبهة، فهم مخلِصین للّهفی عبادتهم، ومخلَصین من أی ذنب أو قبیح.

لذا فإن قوله تعالی: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا یَصِفُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ»، حیث نزّه اللَّه تعالی عن کلّ وصف إلّاتوصیف عباد اللَّه المخلَصین، وهی أعلی مقامات المخلَصین التی تعنی المعرفة الحقّة له تعالی.

فالصلاح الذاتی وما یترتّب علیه من صفات لم یکن کسبیاً، بل هو منصب إلهی اصطفائی جعلی؛ وذلک لقوله تعالی: «وَکُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِینَ» «۱»

.ومثله الرشد الذاتی اللدنی حیث لم یکن عادیاً کسبیاً، بل هو إلهی جعلی یمنّ علی خاصّة عباده؛ لقوله تعالی: «وَلَقَدْ آتَیْنَا إِبْرَاهِیمَ رُشْدَهُ» «۲».

المشارکة فی الحجیة ...: ص: ۵۶۶

قوله تعالی: «وَلَقَدْ آتَیْنَا مُوسَی وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِیَاءً وَذِکْرًا لِلْمُتَّقِینَ» «۳»

، فهذه مشارکة بین موسی وهارون فی الحجّیة، فنزول الفرقان لم یختصّ به موسی، بل شارکه هارون کذلک. وهذا مفاد حدیث المنزلة، إذ کونه علیه السلام من النبیّ الخاتم صلی الله علیه و آله بمنزلة هارون من موسی، یشیر إلی جنبة مشارکة ما ینزل علی النبیّ صلی الله علیه و آله، شرکة تابع له کما فی قوله تعالی: «أَفَمَنْ کَانَ عَلَی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَیَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» «۴»

.أی یتلو النبیّ صلی الله علیه و آله ویشهد الوحی عیاناً وهو البینة من الربّ وهو رجل من النبیّ من نفسه.

الامامة الالهیة(۵)، ج۳، ص: ۵۶۷

فقد ورد عنه صلی الله علیه و آله: «أنا مدینة العلم وعلیّ بابها» «۱»

، وغیرها من الموارد التی تشیر إلی المشارکة، کآیة المباهلة وآیة التطهیر.

النموذج السابع: عیسی علیه السلام ...: ص: ۵۶۷

قوله تعالی: «إِذْ قَالَ اللَّهُ یَا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ اذْکُرْ نِعْمَتِی عَلَیْکَ وَعَلَی وَالِدَتِکَ إِذْ أَیَّدْتُکَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُکَلِّمُ النَّاسَ فِی الْمَهْدِ وَکَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُکَ الْکِتَابَ وَالْحِکْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِیلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ بِإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِیهَا فَتَکُونُ طَیْرًا بِإِذْنِی وَتُبْرِئُ الْأَکْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِی وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَی بِإِذْنِی وَإِذْ کَفَفْتُ بَنِی إِسْرَائِیلَ عَنْکَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَیِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

مُبِينٌ» «۲»

.فهذه المناصب بعضها لا ربط لها بالنبوّة بما هى نبوّة، وكونه رسولًا هو أحد مناصبه صلى الله عليه و آله، وقوله «أَخْلُقُ لَكُمْ..» بمعنى الخلقة والتكوين وليس هو تشكيل الطين على هيئة الطير فقط.

إنّ شبهة كون الخلقة التى يتولّاها عيسى عليه السلام هو تشكيل فقط دخلت على العامّة، محتجّين بها على كون الخلق لا يمكن أن يقوم به غير اللَّه تعالى، فى حين نقول إنّ الخلقة بأمر اللَّه تعالى ولا مانع من أن يقوم بها أحد عباده المصطفين الذين اصطفاهم اللَّه لهذه المهمّة.

وإنّ تشكيل المادّة لا يقال لها خلقة، بل الخلقة هى حالة إيجاد وتكوين بأقدار اللَّه تعالى وإرادته، مع إمكان تفويض ذلك إلى خاصّة عباده كما هو الحال فى عيسى عليه السلام، تفويضاً غير عزلى أى من دون أن يكون البارى تعالى معزولًا ولا النبىّ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۶۸

عيسى عليه السلام ونحوه من الأولياء مستقلّاً فى فعله كما هو الحال فى غير ذلك من الأفعال، لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين.

ويُستدلّ على ذلك بقوله تعالى:

«فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا» «۱»

، فالنفخ هنا خلق كما فى نفخ الصور، فالنفخ هنا ليس تشكيل، إذ الخلق للطير متفرّع على نفخ عيسى عليه السلام.

ثمّ إحياء الموتى ليس هو كخلق الطير، بل إحياء الموتى هو تزويج الروح بالبدن.

وقوله تعالى: «وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ»، فالإبراء وإن كان إحياء وخلق لكن خلق حال وليس إعادة لحياة الذات، وهذا ما يمكن تصوّره فى أولياء اللَّه المصطفين كالأئمّة عليهم السلام؛ إذ إمكان إعطائهم هذه الحبوة كما أُعطيت لعيسى ليس تفويضاً عزلياً باطلًا تعزل فيه قدرة اللَّه تعالى وهيمنته وقاهريته وقيوميته، كما هو الحال فى أفعال الإنسان لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، ولا فرق فى تمكين وإقدار البارى للمخلوق على الفعل بين فعل النملة وفعل عزرائيل وميكائيل وأعاظم الملائكة والأرواح؛ فإنّه بقانون واحد لا- جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، ومن لا يميز بين التفويض العزلى الباطل وبين التفويض بمعنى الإقدار والتمكين فى حين قدرته تعالى من انحسار لقدرته فيما أقدرهم عليه، يحصل لديه الخلط بينهما، كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة.

قوله تعالى: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» «۲»

، إنّ أُصول الدين لا تُنسخ، بل النسخ يكون فى الفروع، كما أنّ أركان الفروع غير منسوخة، فأُصول المحرّمات هى واحدة فى كلّ الشرائع كحرمة الزنا

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۶۹

والكذب والغشّ وغيرها، وكذلك أُصول الواجبات.

فالنسخ لا يكون فى المعارف ولا إلغاءً لها، بل الحال فيها حالات تكامل وتوسّع وتعمّق، وكذلك الكتب الإلهية فى نسخها الأصلية غير المحرّفة والتى هى عند الإمام المهدى (عج) لكونه وارث الأنبياء والمرسلين كذلك، وشرائعها السابقة لها قدسيتها فى القرآن الكريم وفى كلام أهل البيت عليهم السلام.

فمع أنّ عيسى عليه السلام قد نسخت شريعته، فهو مع ذلك سيكون له دور مهمّ فى شريعة الإسلام، إذ سيؤدّى دوره المقدّر من قبل اللَّه تعالى حيث نزوله من السماء والتحاقه بالإمام المهدى المنتظر (عج).

على أنّه تجدر الإشارة إلى أنّ غيبة الإمام (عج) لا تعنى أكثر من خفاء هوية وليس تغييباً لوجوده ولا إبعاده عن مسرح الأحداث ولا مزايلة عن تدبير الأوضاع البشرية، ولذلك الاعتقاد أدلّة قائمة قد مرّ الإشارة إليها. وظهور الإمام (عج) يعنى ظهور هويته المغيبة أى

المخفية المسترة، وليس بداية لحضور وجوده الشريف، بل وجوده حاضر بيننا نعيشه بوجداننا وأعماقنا.

وكلمة (متوفّيك)، أى قابضك، فهو قبض له حتّى يبعثه اللَّه إلى حيث يوجّهه لمناصرة وليه الإمام المهدى (عج) ومؤازرته.

قوله تعالى: «وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» «۱»

، فروح القدس حبوة إلهية لعيسى عليه السلام، وهى ليست من خصائص النبوّة كما أنّ روح القدس قد تقدّم الحديث عنه مبسوطاً فى الفصل السابع فى مباحث ليلة القدر، وهو نور كما فُسّر بلحاظ الهيمنة العلمية، فهو مع الأئمّة عليهم السلام، وهو بلحاظ المناصب الأُخرى غير النبوّة.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۷۰

قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» «۱»

، ومضافاً إلى كون عيسى عليه السلام رسول اللَّه فقد وُصِف أيضاً بأنّه كلمته وأنّه روح اللَّه. والكلمة هى الشىء التكوينى الدالّ على معنى بدلالة تكوينية لا فرض اعتبارى أدبى، وهذا المعنى هو الأصل فى معنى ومصداق الكلمة حقيقة، وأمّا الكلمة التى تتداول فى الكلام المحاورى فهى اعتبارية يعتبرها ويفترضها المتكلّم والمخاطب فيما بينهم، فعيسى هو كلمة اللَّه وهو اسمه أيضاً؛ لأنّ الاسم فى اللغة يعنى السمة والعلامة، وهو نفس معنى كلمته وهو آية من آيات ربوبيته كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً» «۲»

، وقال تعالى: «وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا» «۳»

، والآية فى اللغة العلامة والسمة أيضاً، وعليه تكون الآية والكلمة والاسم بمعنى واحد، أو مشتركة فى أصل معناها.

وكونه روح اللَّه يعنى بوجوده وولادته وحالاته الملكوتية خروجه من الغيب مقاماً، فأضيفت إلى الذات الإلهية تشريفاً لمقامها.

وقد قام الدليل على أنّ الأئمّة كلمات اللَّه كما فى قوله تعالى: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ» «۴»

، ولعلّ الإشارة فى كلمات الصدق وتمامية الكلمات صدقاً هو للمرسلين، وتمامية الكلمة عدلًا هو لجعل اللَّه تعالى للأئمّة الهادين بأمره الذين يوحى إليهم فعل الخيرات وإقامة العدل، ولا ريب أنّ من كلمات اللَّه فى عموم هذه الآية هو النبىّ عيسى عليه السلام، فالمراد من الكلمات هم الحجج المصطفين.

وقد ورد من طريق الفريقين فى قوله تعالى: «فَتَلَقَّى ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۷۱

عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» «۱»

، فقد روى الحاكم فى مستدركه: «أنّ آدم لمّا اقترف الخطيئة قال: يا ربّى أسألك بحقّ محمّد لما غفرت لى. فقال: يا آدم كيف عرفت؟ قال: لأنّك لمّا خلقتنى نظرت إلى العرش فوجدتُ مكتوباً فيه: لا إله إلّااللَّه محمّد رسول اللَّه فرأيت اسمه مقروناً مع اسمك فعرفته أحبّ الخلق إليك» «۲».

وقد تقدّمت الإشارة فى قوله تعالى حول مريم: «وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ» «۳»

، أنّ مقتضى المقابلة بين الكلمات والكتب قرينة على إرادت الحجج المصطفين الذين منهم النبىّ عيسى عليه السلام، كما ورد عين هذا التعبير فى قوله تعالى لزكريا «أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ» «۴»

، أى مصدّقاً بالنبىّ عيسى، نظير التعبير بمريم: وصدّقت بكلمات ربّها، فكلمات اللَّه وكلمة الربّ تطلق على كلّ من اصطفاه اللَّه من أولياءه الحجج، سواء جعله نبيّاً رسولًا أو جعله إماماً للناس خليفة له فى أرضه، فلا مجال للإنكار ولا للتنكّر عن هذه المعارف القرآنية؛ إذ عيسى حُبى بهذه الحبوة وهو كونه كلمة، وهذه الحبوة ليست من مناصب خصوص النبوّة ولا- من حالاتها، وإنّما هى من شؤون عموم الاصطفاء والجعل الإلهى.

قوله تعالى: «إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* قَالُوا

نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ* قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» «۵»

، طلب عيسى من اللّه سبحانه أن يُنزّل مائدةً من السماء اطمئناناً

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۷۲

لقلوب الحواريين وقد استجاب اللّه لسؤاله وأكرمه بنزول المائدة، فكانت تلك المائدة كرامةً لعيسى بن مريم عليه السلام، علماً أنّ هذه الكرامة ليس لخصوص منصب كونه نبيّاً ورسول اللّه، بل لكونه حجّة إلهية، وبذلك فقد ألقى اللّه حجّته على الحواريين بحجّية عيسى بن مريم، على أنّ الحجّية كلّما اشتدّت كلّما اشتدّت العقوبة واشتدّ تنجيزها.

قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ» «۱»

، قد تفسّر البينات بالمعجزة، إلّاأنّ المعجزة مشتركة مع جميع الأنبياء، فلا يبعد أن تكون البينات منزلة إلهية غير أصل معجزة النبوّة، والقرينة على ذلك هو مجيئه بالحكمة، فهو إشارة إلى خصوصية اختصّ بها عيسى إضافة لنبوّته.

والعامّة لا يثبتون للنبيّ من وراء نبوّته مقاماً آخر، وهذه مشكلة تُضاف إلى الأذهان لتتبلّد عن معرفة النبوّة ومقاماتها الإلهية وكراماتها من اللّه تعالى.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۷۳

القائمة الثالثة معجزات الأنبياء ... ص: ۵۷۳

إنّ الهدف من المعجزات هو التصديق والإذعان والإخبات لنبوّة النبيّ الذى يأتى بالمعجزة.

فإتيان موسى عليه السلام بتسع آيات أى معجزات فكلّما أتى بمعجزة ورأوا العذاب قد حلّ بساحتهم، سألوا موسى أن يرفع اللّه عنهم ما أصابهم حتّى يؤمنوا لمّا شاهدوا من الحقّ، فإذا رُفع عنهم العذاب رجعوا إلى ما هم عليه من التكذيب والبهتان. وهكذا تستمر المعجزة باستمرار الحاجة فى التصديق وإلقاء الحجّة على القوم الذين يأتيهم إنذار من اللّه تعالى. والمعجزة من سنخ الهداية الإيصالية لا الإرائية المحضة.

وهكذا فى جميع الأنبياء تُلاحظ حالات الإعجاز المتواترة المستمرّة. كما أنّ المعجزة ليست إلّاما عجزت جميع البشرية عن إتيان مثلها، فتحدّى صالح عليه السلام قومه بإتيان ناقة من الجبل لا يعنى تحدّ لقوم صالح وحدهم، بل إنّ التحدّى هذا مستمرّ على مدى استمرار البشرية قاطبة وإلى أبد الآبدين.

فالخطاب والتحدّى عام شامل، فالمعجزة هو التحدّى لإقرار ادّعاء منصب إلهى.

كما أنّ المعجزة شرطها مقام التحدّى فضلًا عن كونها حبوة، إلّاأنّ الإعجاز استمراره قائم إلى اليوم، وسرّ ذلك أنّ آيات اللّه باقية حتّى اليوم والكلام فى المقام

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۷۴

هو كون البينات والآيات المتولّدة من المعجزة سواء كانت علمية أو تكوينية استمرارها وقابلية تحدّيها إلى اليوم.

وخصائص القرآن الإعجازية أنّه علمى، أى أنّ المعجزة القرآنية فى عين أنّه علم فهو قدرة إعجازية غيبية.

ثمّ هل أنّ التصديق من سنخ الهداية الإيصالية أم الهداية الإراءية؟

والهداية الإراءية معرفة المطلب وتشخيصه والتنجيز وإقامة الحجّة، أما الإيصالية فهى الإيصال إلى الهدف. والإمامة هى هداية إيصالية، والذى يدلّل على أنّ الأنبياء المرسلين كلّهم اشتملوا على مقام آخر وهو كونهم أئمّة هداة:

«وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» «۱»

، هو إتيان الأنبياء للمعاجز، إذ هو دالّ على أنّ هناك غرض إلهى وهو الهداية الإيصالية، فالهداية الإيصالية هى محطّ غرض إلهى وهى الإمامة، وحينئذٍ فإنّ هذه المعاجز هى فى صدد الهداية الإيصالية، وبمعنى آخر: فإنّ المعاجز لا يقتصر غرضها على الإرادة والهداية الإراءية وإقامة الحجّة فقط كما اشتهر عند المتكلّمين.

بل إنّ غرضها هو الهداية الإيصالية، كذلك هى الإمامة، وممّا يعزّز ذلك ما أشرنا إليه فى مواضع متعدّدة من أنّ المعجزة ليست مجرّد برهان من العلم الحصولى كما اشتهر عند المتكلّمين، بل هى برهان عيانى من العلم الحضورى؛ إذ فى المعجزة يدرك ويلمس من يُحتجّ عليه بها لمعان الغيب ويشهد رفع الستار عن وجه من القدرة الغيبية، ومن ثمّ صحّ ممّن احتجّ عليه بالمعجزة أن يشهد ويتشهّد بمؤدّى المعجزة، أى بالأمر الذى أُريد إثباته بالمعجزة، كما يتشهّد المؤمن بالشهادتين وبالشهادة الثالثة، حيث إنّ ذلك التشهّد ليس استعمالًا مجازياً

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۷۵

ولا إقراراً لسانياً كلقلقة محظة، بل هو إخبار قطعى وإنباء عمّا أدركه شهوداً.

ولا سبيل للمؤمن لشهود التوحيد والنبوّة والإمامة والمعاد إلّابعيان الأدلّة الإعجازية سواء العلمية أو الآيات الخارجية: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» «۱»

. ومن ثمّ أجاز النبىّ صلى الله عليه و آله شهادة خزيمة بن ثابت فسُمىّ بذى الشهادتين.

وعلى ضوء ذلك فإنّ من شأن المعجزة الجذب والهداية الموصلة إلى المطلوب من دون إلجاء، فدور النبوّة هو الاحتجاج بتوسّط التعريف بالغرض والغاية، فى حين أنّ الإمامة هى إيصال للغرض، كما فى قوله تعالى: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» «۲»

، فالمنذر هو معرّف للغرض، والهادى هو الموصل بالهداية الإيصالية إلى الغرض. ومعنى ذلك أنّ الإراءة والبيان من صنع اللَّه تعالى، أمّا الإيمان- أى التصديق- فهو من فعل البشر، فالنبىّ الباطن هو العقل النظرى، إلّا أنّ العامّة ترى أنّ النبوّة هى مجرّد إراءة وبيان وليس أكثر من ذلك.

فالمعاجز دالّة على أنّ أصحابها لهم مقام الإمامة والتى هى هداية إيصالية دائمة متواجدة، وكونها أحد الأغراض الإلهية الهامّة فى بعثة الأنبياء.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۷۷

القائمة الرابعة مؤدّى السنّة الإلهية فى معاجلة العذاب للأمم ... ص: ۵۷۷

وهو مسلسل العذاب والعقوبات التى تطال الأُمم فى دار الدنيا، وهذا المسلسل يطالعنا فيه القرآن الكريم فى موارد عدّة، مثل قوم لوط وعاد وقوم ثمود وصالح وموسى.

ومسلسل هذا العذاب فى صوره العديدة التى يحكيها القرآن الكريم قد رُفِع عن أُمّة محمّد صلى الله عليه و آله سواء كان المسخ أو غيره، إلّاأنّ بعض صوره الأُخرى تراودها وتعاقب بها، من قبيل الأمراض والفتن وغيرها، فضلًا عن الكوارث الطبيعية كالفيضانات والزلازل وغيرها.

وإنّ الإرادة التشريعية الإلهية للأُمم لم يكتفِ اللَّه تعالى بتنظيرها اعتباراً، بل أراد تحقّقها فى النشأة الدنيوية، واللَّه تعالى يعالج بعضهم بالعذاب والغرض منه إنجاز الهداية الإيصالية، والقرآن يصرّح فى سورة الفجر بهذه الحقيقة بقوله تعالى:

«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ* وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ* وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ* الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» «۱»

، أى أنّ استمرار المراقبة والرقابة الإلهية المستمرّة لمنع الفساد والطغيان فى الأرض.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۷۸

وكـذا فى سورة الحشـر فى إجلاء أهل الكتاب: «وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» «۱»

، فعلّل معاجلة العذاب لهم فى الدنيا بمشاققتهم للّهولرسوله، وأنّ هذا سنّة إلهية، وهذا نظير اعتراض الملائكة على اللّه تعالى عند خلق الإنسان بأنّه يريد هلاك الحرث والنسل وسفك الدماء، ولكن البارى عزّوجلّ أنبأهم بالواقع وبخلاف ما ظنّوه وهو خلاف ما اعتقدوه؛ إذ من هذا البشر سيكون أولياء وأنبياء وصلحاء، يهدون إلى الخير والوصول إلى الهداية الإيصالية فضلًا عن الهداية التشريعية.

وإنّ الهدايـة الإيصاليـة هى من غايات الهدايـة التشـريعية وأن يكون المجتمع البشـرى مجتمعاً فاضـلًا تكاملياً وإصـلاحياً لجميع البشـر، والوصول إلى الحقيقـة وهى العبوديـة الخالصـة للّهعزّوجـلّ والوصول إلى الأهـداف والأـغراض المطلوبـة، هـذا مضافاً إلى أنّ فريضـة الإيمـان بالمعـاد الغرض منها هو التحرّك والحركـة إلى الهدايـة الإيصاليـة فإنّ الإيمان بالمعاد هو لغرض الوصول إلى الغايـة الحقيقية وهو الهداية الإيصالية، فكون المعاد ضرورة، بمعنى أنّ الأُمور ليست من دون علّة غائية وغرض نهائى.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۷۹

القائمة الخامسة مسلسل سيرة حكومة النبىّ صلى الله عليه و آله فى القرآن ... ص: ۵۷۹

إنّ هذا المسـلسل فى سيرته صـلى الله عليه و آله- خصوصاً فى السور المدنية حيث نلاحظ سـلوكياته وتصـرّفاته السياسية والاجتماعية وغيرها- هى من نمط الهداية الإيصالية التى هى من نمط الإمامة.

فجانب منها فى القضاء، كما فى قوله تعالى: «وَإِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ» «۱»

، وقوله تعالى: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۲»

.وجـانب آخر فى تـدبيره للأموال العامّـة، كقوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» «۳»

وقوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى» «۴»

.أمّا الجانب السياسى والتنظيم الحربى فلقوله تعالى: «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» «۵»

، وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» «۶»

، وقوله تعالى: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۸۰

لَهَا» «۱»

، وقوله تعالى: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ» «۲».

وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا اخِذَ مِنْكُمْ» «۳»

، وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» «۴»

، وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ» «۵»

، وقوله تعالى: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ» «۶».

أمّا الجانب الاجتماعى والتقنين الأُسرى فلقوله تعالى: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَايَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ» «۷».

وفى الجانب الأمنى قوله تعالى: «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ» «۸».

فضلًا عن الآيات التی تحدّثت عن إقامة أحكام الحدود مثل الزنا والسرقة وغيرها.

كما أنّ الولاية العامّة وغيرها ليست مرتبطة بالنبوّة، بل بإمامته وولايته صلى الله عليه و آله؛ لقوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» «۹»

، بيان صلاحيته صلى الله عليه و آله فی إقامة المعاهدات مع أهل الكتاب أو قتالهم وحقوق المسلمين وما يتعلّق بشؤونهم.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۸۱

إذن فالموارد التی مارسها النبیّ صلى الله عليه و آله وأقام فی حكومته بإجراءاتها وتنفيذ الإرادة الإلهية فيها، أشار إليها القرآن بذكر بعض تفاصيلها فضلًا عن الإشارة إلى أحكامها.

وإنّ أوامر اللَّه تعالى للنبیّ صلى الله عليه و آله التی وردت فی القرآن الكريم كانت بمستوى التنفيذ والتنجيز لا- التنظير الكلّی فقط، وهی تشريعات لإقامة الدولة، حتّى أنّ المسلم ليشعر أنّ الإسلام له دخل فی كلّ تفاصيل حياته اليومية فضلًا عن كلّيات أحكامها، والنبیّ صلى الله عليه و آله كان أوّل مصداق فی تطبيق هذه العلاقة القرآنية.

وبعبارة أُخرى: أنّ أسباب النزول فی التشريعات القرآنية فی دولة الرسول وحكومته ليس مفاد سبب النزول وثمرته التی هی بيان المعنى الكلّی للتشريع وتوضيحه فقط، بل هناك بعد هام بالغ الخطورة أيضاً فی معنى سبب النزول لتلك التشريعات القرآنية: هو أنّ تلك الموارد لأسباب النزول تصدّى من اللَّه تعالى لتدبير الحكم السياسی فی المجالات المختلفة بإرادة إلهية لا بإرادة نبويّة.

فمن ثمّ التصرّف الحكومی والحاكمی يسند إليه تعالى، فالحاكم الأوّل فی حكومة الرسول صلى الله عليه و آله لم يكن النبیّ صلى الله عليه و آله، بل هو اللَّه تعالى يتصدّى فی المنعطفات الخطيرة السياسية والعسكرية والاقتصادية والأمنية وغيرها فی دولة وحكومة الرسول صلى الله عليه و آله، والحاكم الثانی هو الرسول صلى الله عليه و آله، وكذلك الحال فی حكومة أمير المؤمنين عليه السلام فإنّ الحاكم الأوّل فی المنعطفات الخطيرة هو الباری تعالى ثمّ الرسول صلى الله عليه و آله، عبر ارتباط أمير المؤمنين بالغيب بالعلم اللدنی، والحاكم الثالث هو أمير المؤمنين كما فی الأمر بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين فی برنامج حكومته عليه السلام، وكذلك فی حكومة الحسنين عليهما السلام على العراق، وكذلك فی حكومة الإمام المهدی (عج)، وحكومة سائر الأئمّة، فيستشهد بسيرة دولة الرسول فی آيات القرآن على أنّ الحاكمية السياسية فی التفاصيل الخطيرة كانت بعهدة الباری تعالى.

وذلك أنّ ممارسة القضاء وإدارة السياسات المالية والاجتماعية وغيرها هی من قبل اللَّه تعالى وثانياً النبیّ صلى الله عليه و آله؛ إذ ولاية الرسول صلى الله عليه و آله التی من خلالها يمارس صلاحياته فی الحكم والقضاء هی فرع ولاية اللَّه تعالى، فالحكم الجزئی التنفيذی الإجرائی فضلًا عن الكلّی هو من قبل اللَّه تعالى.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۸۲

ففی دولة الرسول الحاكم المباشر لا بمعنى التجسيم والتشبيه، بل بمعنى أنّ إرادته تعالى تتنزّل على رسوله صلى الله عليه و آله فينفّذها من دون أن يكون التصرّف الحكومی منبعثاً من إرادة الرسول صلى الله عليه و آله، فإرادة اللَّه تعالى متنزّلة فی القرارات الجزئية التفصيلية من معاهدات وحروب وعلاقات كذلك.

والإمامية تستشهد بذلك على الإمامة، وهل أنّ اللَّه تعالى يعمل حاكميته السياسية فی فترة معينة دون غيرها من الفترات بغضّ النظر عن ولايته تعالى التكوينية؟

فإذا كان المصدر الرئيسی للأحكام الجزئية التنفيذية التفصيلية فی المنعطفات الخطيرة وممارستها من قبل اللَّه تعالى، فهل هذه الممارسة هی لفترة محدودة تقتصر على الحقبة النبويّة المباركة- أی من خلال وجوده الشريف فقط- دون فترة ما بعد رحيله الشريف، ثمّ تنقطع بعد ذلك ولاية اللَّه تعالى فی الإشراف السياسی وتلغى؟ أم لابدّ لولاية اللَّه تعالى من الاستمرار والدوام والبقاء؟

فإن قلنا بالأوّل- وهو انقطاع ولايته تعالى عند وفاته صلى الله عليه و آله- ألزمنا أنفسنا بالتعطيل وانحسار إرادته تعالى، ومن ثمّ عجزه-

والعياذ باللَّه– عن الأمر، وبالتالى عزل إرادته عن الحاكمية على خلقه، تعالى اللَّه عن ذلك علوّاً كبيراً، وقد قال تعالى: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» «۱»

، وأنكر على اليهود قولهم: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» «۲»

، فيد تصرّفه تعالى مبسوطة لا مغلولة.

وإذا أخذنا بالقول الثانى وهو استمرار ولايته وبقاؤها فعن أى طريق تمرّ وتتنزّل إرادته وولايته تعالى، ومن أى قناة ستكون؟ إذ هو تعالى لا يُحسّ ولا يُجسّ ولا يُجبه.

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۸۳

فالقول بولايته تعالى فى الحاكمية السياسية فى النظام البشرى إذن يلزم منه القول بوجود المعصوم فى كلّ وقت وفى كلّ زمان، وهو معنى قوله تعالى بنحو دائم كلّى عام: «إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً» «۱»

، وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الأرض لا تخلو من حجّة»، فالحجّة هنا هى القناة المعصومة التى من خلالها إمرار ولايته تعالى وإنفاذها على الخلق، وهو ما يدعو إلى القول بوجود الإمام المعصوم فى كلّ آن من آنات الخلق، فهو سفير اللَّه فى خلقه.

ولذلك يطالعنا القرآن الكريم بسيرته صلى الله عليه و آله، ويضيف إلى ذلك سيرة الأنبياء الباقين فى تأسيس الدولة، كما فى سيرة موسى وسليمان وداود وطالوت وذى‌القرنين، فقد أقاموا دولهم وشكّلوها بأمر إلهى صرف استعرض بعض جوانبها القرآن الكريم.

فمباشرة اللَّه تعالى للتفاصيل السياسية فى حاكمية التدبير لجزئيات الأُمور نصّ عليها القرآن الكريم، كما فى قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ»، إذ هذا الاختبار لأصحاب طالوت ليس باختياره، بل هو بأمر اللَّه تعالى كما فى غيرها من موارد أحكام الأنبياء، إلّاأنّ سيرة النبىّ صلى الله عليه و آله تلاحظ بشكل أكثف وأكبر تركيزاً على مستوى آيات القرآن الكريم.

وهنا تنبيه يجدر الإشارة إليه: وهو أنّ بعض المفسّرين لم يبلوروا ويميزوا بين التشريع والتنزيل، وبين مورد النزول ومورد التنزيل، إذ جعلوا مورد النزول والتنزيل مجرّد شاهد ومبيّن لمعنى التنزيل الكلّى أى التشريع العام لا- أكثر من ذلك، وهذا بخس فى حقيقة التنزيل.

فالمفسّرون فهموا أنّ التنزيل دوره تفسيرى إيضاحى للآية دون أن يكون له

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۸۴

دور آخر، فى حين أنّ التنزيل هو نوع ممارسة فعلية لحاكمية اللَّه تعالى السياسية فى الجزئيات التفصيلية وسلطته السياسية، وهذا مفاده غير مفاد التشريع، وقد ذهب أهل سنّة الجماعة إلى هذه الشبهة التى تؤول إلى ما اعتقده اليهود من أنّ اللَّه تعالى شرّع فقط ولم يمارس الحاكمية والسلطة السياسية التفصيلية فى تدبير النظام السياسى الاجتماعى والحكم التنفيذى، وهو قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» «۱»

، فالتعطيل الذى تصوّرته اليهود فى حقّه تعالى، قد انجرّ إلى بعضهم حتّى عطّلوا إرادته؛ إيهاماً منهم بأنّ اللَّه تعالى لم يمارس ولايته إلّافى حدود التشريع فقط، أى فى السلطة التشريعية دون السلطة السياسية التنفيذية والقضائية.

فى حين أنّ متابعة سريعة لآيات القرآن الكريم يجد من خلالها الباحث أنّ وقائع قرآنية سواء التشريعية أو المالية أو السياسية أو القضائية وغيرها لم تنفرد فيها إرادة النبىّ صلى الله عليه و آله دون إرادة اللَّه تعالى.

فالتنزيل إذن ليس هو تنزيل لألفاظ التشريع الكلّى فقط لا غير، بل هو أحد جهاته، والتنزيل حقيقة هو إعمال ولايته تعالى السياسية المباشرة على جميع الدقائق والجزئيات التفصيلية الخطيرة فى منعطفات الحياة الاجتماعية السياسية.

كما أنّ التنزيل هو تطبيق التشريع الكلّى على مصاديقه، أى استمرار حاكمية اللَّه تعالى السياسية التفصيلية فى كلّ الموارد.

ثم إنّ التنزيل والتأويل كلّ منهما انطباق الحكم الكلّى على مصاديقه، إلّاأنّ الفرق بينهما أنّ التنزيل هو بدء نزول الأحكام، والتأويل

هو استمرار نزول الأحكام.

فحاكمية اللَّه تعالى هو تنزيل إرادته فى تفاصيل الجزئيات الخطيرة، إذ لا تستند

الامامة الالهية(۵)، ج۳، ص: ۵۸۵

إلى النبىّ أو الوصىّ عليهما السلام، وهذه موجودة فى كلّ دول الأنبياء كما فى دول موسى وسليمان وداود، إذ هم محطات، وطالوت، وهذه الإرادة الإلهية تمارس من قبل المعصوم عليه السلام، وحيث ورد أنّهم أوعية لمشيئات اللَّه تعالى، ممّا يعنى أنّ الإرادة الكلّية تتوزّع وتتفصّل على كلّ الإرادات الجزئية، وهذا هو التأويل أى أوْل الإرادات الجزئية إلى الإرادة الإلهية الكليّة، أى رجوع كلّ الإرادات إلى الإرادة الإلهية وطريقها المعصوم عليه السلام الذى تمرّ من خلاله إرادات اللَّه تعالى.

هذا هو تفسير نظرية الإمامة حيث تظهر من خلالها أهمّ مظاهر التوحيد وهو التوحيد فى الولاية، فالاعتقاد بالنبوّة والرسالة توحيد فى التشريع والاعتقاد بالإمامة توحيد فى الولاية، فأصول الدين كلّها أبواب للتوحيد حتّى الإيمان بالمعاد توحيد فى الغاية «إنا للَّهوإنا إليه راجعون»، فالإمامة توحيد فى السلطة والحاكمية فى النظام السياسى الاجتماعى، وذلک من خلال إرجاع كلّ الجزئيات التفصيلية الخطيرة فى تدبير النظام البشرى لإرادة واحدة تمثّل وحدة المرجع الربوبى عن طريق قناة معصومة يمثّلها الإمام، ممّا يعنى أنّ هناک منصب غير منصب النبوّة يتمّ من خلاله تدبير الشؤون الكلّية والجزئية، وهى نوع إعمال للإرادة الإلهية القاهرة.

كان النبىّ صلى الله عليه و آله له ذلک المنصب وهو الإمامة، ولابدّ من استمراره من بعده إلى يومنا هذا، بل إلى يوم القيامة؛ لضرورة استمرار ولاية اللَّه تعالى فى الحاكمية والسلطة السياسية على البشر، وفى زماننا هذا هو الإمام المهدى (عج)، حيث يدبّر ويدير النظام البشرى عبر خفاء الغيبة وسريتها إلى أن يئنّ آن الإعلان والظهور.

إلى هنا تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع بإذن اللَّه تعالى وهو المستعان وله المنّة والفضل والحمد للَّهأوّلًا وآخراً.

الجزء (۴)

تقديم ... ص: ۵

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ أحد أبواب عبادة اللَّه تعالى نظير الصلاة والصوم والدعاء والذكر ونحوها من أنواع وأجناس وأصناف العبادات وهو التوسّل إليه تعالى بأصفيائه وبالذين أخلصهم بقرباه.

فإن التوسّل إليه بهم، نحو زلفى وقربى إليه تعالى، فإن المتوسل يعطف بزمام قلبه إلى وجه اللَّه تعالى، وإن كان «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ* وَكَذَلِکَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ* قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِکَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّکَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ* وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَکَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّکَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ* الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۶

وَهُمْ يَعْلَمُونَ* الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ* وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» «۱».

فإن القبلة ليست إلّاوسيلة للتوجه بها إليه تعالى، «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ» «۲».

«وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» «۳».

فالقبلة ليست هى المعبود وإنما هى وجهة يتوجّه بها إليه تعالى، ومن ذلك صار آدم صفىّ اللَّه قبلة للملائكة وسجودهم للَّه‌تعالى فى قوله تعالى: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِادَمَ» «۴»

ومن ذلك صارت بيوت موسى كليم اللَّه تعالى قبلة لبنى إسرائيل فى صلاتهم للَّه‌تعالى «وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» «۵»

ومن ذلك قوله تعالى: «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ» «۶»

، «فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۷

ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ* وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاىَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا» «۱».

«لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» «۲».

وقد روى النسائى والترمذى فى حديث الأعرابى أن النبى صلى الله عليه و آله علّمه قول:

«يا محمّد إنى توجّهت بك إلى اللَّه» «۳».

وروى الترمذى وابن ماجة حديث عثمان بن حُنيف، إن رجلًا ضرير البصر أتى النبى صلى الله عليه و آله فقال: ادع اللَّه أن يعافينى، فقال النبى صلى الله عليه و آله:

«إن شئت صبرت فهو خير لك، وإن شئت دعوت»، قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ ويدعو بهذا الدعاء: «اللهمّ إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى ليقضيها، اللهمّ شفّعه فىّ». ورواه النسائى وصححه البيهقى، وزاد: فقام وقد أبصر «۴».

ومن ذلك يتبين أن التوجّه بالنبى صلى الله عليه و آله والاستشفاع به والاستعانة به إليه تعالى وتقديمه بين يدى الحاجة إليه تعالى، وتوسيطه هى عناوين موازية للتوسل به صلى الله عليه و آله إلى اللَّه تعالى، وقد قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۸

الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) «۱»

، وقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» «۲».

فأمر بابتغاء الوسيلة إليه تعالى، وقد عيّن تلك الوسيلة وهى التوجّه فى الاستغفار والتوبة والأوبة بالرسول صلى الله عليه و آله وأن استغفار النبى صلى الله عليه و آله وتشفعه دخيل فى توبة اللَّه تعالى عليهم ورحمته لهم.

وقال تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» «۳»

فجعل دعاء النبى صلى الله عليه و آله لهم دخيل فى حصول السكينة والإيمان والطهارة لهم، وقوله تعالى: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ» «۴»

، وهذا نظير ما قاله تعالى فى قصّة اخوة يوسف عليه السلام «قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ* قَالَ لَاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ

الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» «۵»

وقوله تعالی: «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ* قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّی إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» «۶»

، وقوله تعالی فی شأن قوم موسی علیه السلام: «فَادْعُ لَنَا رَبَّکَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ» «۷»

، وقوله تعالی فی شأن قوم فرعون مع النبیّ موسی علیه السلام: «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّکَ بِمَا عَهِدَ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۹

عِنْدَکَ» «۱»

، وقوله تعالی فی شأن النبیّ عیسی علیه السلام: «اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِی الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ» «۲»

، وقوله تعالی فی شأن النبیّ موسی علیه السلام:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» «۳».

والوجیه فی اللغة والمعنی هو ذو الحظوة والقرب مما یتوجّه به إلی اللَّه تعالی ویتوسّل به إلیه.

وقال اللَّه تعالی: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيکَ رَبُّکَ فَتَرْضَى» «۴»

، المفسَّر بمقام الوسیلة والشفاعة، کما فی الدعاء المأثور «اللهمّ ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمداً صلی الله علیه و آله الوسیلة والفضیلة وابعثه المقام المحمود الذی وعدته وارزقنی شفاعته یوم القیامة».

ومن ذلک ینجلی أن الإیمان بمقام الشفاعة له صلی الله علیه و آله یلازم الایمان بالتوسل، لأن التوسّل به صلی الله علیه و آله ینطوی علی تشفّعه بقضاء الحاجة لدیه تعالی، فالاعتقاد بالشفاعة دلیل رجحان التوسّل «لَايَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» «۵»

، «لَايَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» «۶»

، فإذنه تعالی فی الشفاعة متطابق مع أمره تعالی، «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» «۷»

، أی بالتوسل إلیه تعالی بالوسائل الشافعة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۰

لدیه، فالتوسل والاستشفاع به صلی الله علیه و آله إلی اللَّه هو دعاؤه تعالی، والوسائل التی أذن تعالی أن یدعی بها هی أبواب لدعوته جلّ وعلا، لا دعوة من دونه.

وروی الحاکم فی مستدرکه أن آدم لما اقترف الخطیئة قال: یا ربی أسألک بحق محمّد صلی الله علیه و آله لمّا غفرت لی، فقال: یا آدم کیف عرفت؟ قال: لأنک لما خلقتنی نظرت إلی العرش فوجدت مکتوباً فیه: لا إله إلّااللَّه محمّد رسول اللَّه، فرأیت اسمه مقروناً مع اسمک، فعرفته أحبّ الخلق إلیک «۱».

وروی البخاری، عن أنس أن عمر بن الخطاب کان إذا أقحط الناس استسقی بالعباس فقال: اللهم إنا نتوسل إلیک بنبیک فتسقینا، وإنا نتوسل إلیک بعمّ نبیک، ونستشفع إلیک بشیبته، فسُقوا. «۲»

وروی أحمد بن حنبل أن عائشة قال لها مسروق: سألتک بصاحب هذا القبر ما الذی سمعت من رسول اللَّه؟ یعنی فی حق الخوارج قالت: سمعته یقول: إنهم شرّ الخلق والخلیقة، یقتلهم خیر الخلق والخلیقة، وأقربهم عند اللَّه وسیلة. «۳»

وروی فی کنز العمال عن علیّ علیه السلام أن یهودیاً جاء إلی النبیّ صلی الله علیه و آله فقام بین یدیه وجعل یحدّ النظر إلیه، فقال: یا یهودی ما حاجتک؟ فقال: أنت أفضل أم موسی؟

فقال: له: إنه یکره للعبد أن یزکی نفسه، ولکن قال اللَّه تعالی: «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ» «۴»

، إن آدم لما أصابته خطیئته التی تاب منها کانت توبته: «اللهمّ انی

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۱

أسألك بمحمـد وآل محمد لمّا غفرت لى»، فغفر له. «۱» ويشير صلى الله عليه و آله إلى قوله تعالى: «فَتَلَقَّى ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» «۲».

وقد أطلق القرآن الكلمة على المقربين عنده تعالى، كما فى قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» «۳» ، وقال تعالى: «أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ» «۴».

وكيف لا يكون آل محمد عليه السـلام وسائل الدعاء إلى اللَّه تعالى وقد حباهم اللَّه تعالى بالزلفى، واجتباهم وحظاهم بأنعمه الخاصة، وجعلهم السبيل إليه تعالى، فقال: «قُلْ لَاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) «۵»، وقال: (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ» «۶» ، وقال: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» «۷».

فمودّتهم سبيـل إليه، وهم الوسيله للتوجه إليه تعـالى، وقـد أبان قربهم إليه من بين الأمـة ومزيـد عنايته بهم، حيث قال: «إِنَّمَا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً» «۸».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۲

ثم لاـ يخفى أن التوسّـل والاستشـفاع بالمقربين إلى البارى تعالى، هو من آداب الـدعاء والتوجّه إلى الحضـرة الإلهيـة، فإننا كما نتوجه بجسمنا فى الصلاة إلى المسجد الحرام والكعبة بقصد التوجّه الحقيقى بقلوبنا إلى اللّه تعالى، فليست الكعبة إلّاوسيلة للتوجه إليه تعالى، ومن شرائط عبادته تعالى، فهذا يفصح عن دور الوسيلة والوسائل فى التوجّه والدعاء، مع أن الشأن أينما تولّوا فثمّ وجه اللّه، لكن ذلك لا ينفى خصيصة المسـجد الحرام والكعبة المشرّفة، ألا ترى أن البارى تعالى جعل آدم صـلى الله عليه و آله قبلة لسـجود الملائكة مع كون السـجود هو للّه تعالى، ولم يقبل من إبليس اللعين السـجود للّهتعالى من دون أن يتّخـذ آدم قبلة يتّجه بها إليه تعالى، وكرّر تعالى هـذه الواقعة فى سـبع سور قرآنية، كل ذلك لأجل أن يبين تعالى أن من آداب عبادته تعالى ودعائه التوجّه إليه بأوليائه المقربين، وأن هـذا الأـدب اللازم هو نمـط من التعظيم للّهتعـالى، كمـا هو الشـأن فى الكعبـة المشـرّفة والبيت الحرام، فقـد جعـل تعـالى لهمـا حرمة وتقديس، وجعل حرمتهما وتعظيمهما من حرمته وتعظيمه، وقال تعالى: «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» «۱».

ولا يخفى على الفطن اللبيب أن مقتضى قوله تعالى: «قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ* وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَـهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَـةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ* قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۳

وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَـطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ* وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ* الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ* وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا» «۱».

وقوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» «۲».

إن فعله تعالى وخلقته وجهاً وآيـة له تعالى، فإن مخلوقية ما فى الشـرق وما فى الغرب، أى ما فى الكون أجمع آيات تتجه بالمتدبّر فيها إلى اللّه تعـالى، فهى وجه له تعـالى، والقبلـة ما يقابل عنـد الاتجاه، وتوليـة الوجه جهـة القبلـة المقابلـة بما هى رمز لوجهه تعالى، فكأنا نسـتقبل بتولية وجوهنا تجاه القبلة وجهه تعالى، إذ الاسـتقبال والمقابلة إنما تحصل بتوجه المسـتقبِل بالكسر بوجهه تجاه وجه المستقبَل بالفتـح- فآياته الكبرى سبحانه وجه له تعالى، وكذلك كلماته التامات هى آياته، وهى وجهة له تعالى يتجه بها إليه، كما مرّ أن النبىّ عيسى عليه السـلام كلمته وآيته «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى الدُّنْيَا

وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» «۳»

، كما وصف بذلك النبيّ موسى عليه السلام «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۴

وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» «۱»

. فوجهه تعالى ليس ما يذهب إليه المجسمة الزائغة عن التوحيد من اثبات الجسم والأعضاء، تعالى اللَّه عن ما يقوله الظالمون علواً كبيراً، بل هو آيات خلقته التامة الدالة على عظمته وكماله.

وإن التوجّه إلى أشرف مخلوقاته هو تولية لشطر الوجه نحو وجهه الكريم، وفى رواية الصدوق فى أماليه فى قصّة الشاب النبّاش للقبور، حيث كان يبكى على شبابه بكاء الثكلى على ولدها واقفاً على باب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فأُدخل فسلّم فردّ صلى الله عليه و آله، ثم قال: ما يبكيك يا شاب؟ قال: كيف لا أبكى وقد ركبت ذنوباً إن أخذنى اللَّه عزّ وجلّ ببعضها أدخلنى نار جهنم ولا أرانى إلّاسيأخذنى بها، ولا يغفر لى أبداً، فأخذ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يسائله عن نوع معصيته، هل هى الشرك أو قتل النفس أو غيرها، إلى أن أقرّ الشاب بجنايته، فتنفّر نبى الرحمة من فظاعة جرمه، فذهب الشاب إلى جبال المدينة وتعبّد فيها، ولبس المسوح، وغلّ يديه جميعاً إلى عنقه ونادى: يا ربّ، هذا عبدك بهلول بين يديك مغلول، يا رب، أنت الذى تعرفنى، وزلّ منى ما تعلم يا سيدى، يا رب، إنى أصبحت من النادمين، وأتيت نبيّك تائباً فطردنى وزادنى خوفاً، فأسألك باسمك وجلالك وعظمة سلطانك أن لا تخيب رجائى سيدى، ولا تبطل دعائى، ولا تقنطنى من رحمتك، فلم يزل يقول ذلك أربعون يوماً وليلة، وتبكى له السباع والوحوش، فأنزل اللَّه تبارك وتعالى على نبيه صلى الله عليه و آله آية فى توبته «الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» «۲»

،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۵

ويقول عزّ وجلّ: أتاك عبدى يا محمد تائباً فطردته فأين يذهب وإلى من يقصد، ومن يسأل أن يغفر له ذنباً غيرى، ثم قال عزّ وجلّ: «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ* أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» «۱».

فجعل البارى الإتيان إلى نبيه وقصده إتيان إلى بابه تعالى وقصد إليه، ومن ثم قال تعالى فى آية أخرى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» «۲».

اللهمّ إنا نسألك ونتوجّه إليك بنبيك نبى الرحمة، وإمام الهدى، وآله المطهّرين الذين أذهبت عنهم الرجس، وافترضت علينا مودتهم فى كتابك، صلواتك عليه وآله، يا رسول اللَّه، يا رسول اللَّه، إنّا توجّهنا واستشفعنا بكم إلى اللَّه، فاشفعوا لنا عند اللَّه، فإنكم وسيلتنا إلى اللَّه، وبحبّكم نرجو النجاة، فكونوا عند اللَّه رجانا. عشّ آل محمّد عليهم السلام/ ۱۴۲۶ ه

محمّد سند

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۷

المقدمة ...: ص: ۱۷

الحمد للَّهربّ العالمين والصلاة والسلام على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم وأهل بيته الطيبين الطاهرين.

إن هذا الكتاب يعدّ محاولة جادّة لدراسة عقيدة التوسّل ونظرية التوسيط، التى كانت ولا زالت مثار جدل دينى وبشرى دائر بين ثنائية القبول والجحود.

والـذى يطالع المسيرة التاريخيـة لهـذه المسألة جيّداً يجد أن الفكر البشـرى- الذى خاض صـراعاً مريراً بين قوى الشرّ المتمثلة بالطغاة والجبـابرة المسـتكبرين وبين قوى الخير التى قاد مسيرتها الأنبياء والأوصـياء المصـلحين آمن واعتقـد بكافـة أطيافه ومكوناته بضـرورة التوسّـل، وهكـذا اتخـذت البشـرية لنفسـها وسائـط تربطهـا بربّهـا العلى العظيم، الـذى لاـ يمكن الارتباط به ارتباطاً جسـمانياً حسّـياً ولا مواجهته مواجهة نفسية أو عقلية لعلوّه وعظمته تبارك وتعالى ولكن وللأسف نرى أن القرآن الكريم بعد أن أرّخ تلك الملحمة صرّح بـأن البشـرية حـادت عن طريق الصواب عنـدما حكّمت إرادتهـا على الإـرادة الإلهيـة والسـلطان الإـلهى، فأخطـأت الأـفراد والمصاديق الحقيقيـة لمتعلّق تلك العقيـدة الفطريـة، حيث آمنت تحكيماً لسـلطانها بوسائل ووسائط موهومـة اقترحتها من لـدن ذاتها، محكّمـة فى ذلك هواها على سلطان الربّ وإرادته.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۸

قال تعالى: «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ» النجم: ۲۳.

وفى الـوقت ذاته نجـد أن الآيـات القرآنيـة كمـا سـيتضح فى فصول الكتـاب- أكّـدت ودعت وألزمت الخلق باتخـاذ الوسائـط الإلـهية والآيـات البينـات والعلامات الشارعات والحجـج الباسـقات التى نصـبها اللَّه عزّوجلّ لمخلوقاته وأمرهم بالتمسّك والتوسّل والتوجّه بها واللواذ واللجوء إليها والارتماء فى أحضانها وحضـرتها المشـرّفة، من أجل التوصّل إلى بصيص عظمة اللَّه تعالى ونيل القرب منه وقبول وتحقّق العقيدة الصحيحة وارتفاعها بالعمل وتفتّح أبواب السماء لها بالآيات والحجج.

ولكن مع ذلـك كلّه يُلاحـظ أن كلاماً من هنـا وهنـاك قـد يطلقه بعض مَن لم يـدرك حقيقـة الأمر تقنيعاً لجحوده وتشويهاً لعقيـدة التوسّل، حيث نجد أن أفراداً عندما جحدوا تلك العقيدة حاولوا أن يلصقوا تهمة الشرك وعبادة غير اللَّه تعالى بالمسلمين الذين آمنوا بعقيدة التوسّل وتعاطوا الوسائط وتوجّهوا إلى اللَّه تعالى بآياته وحججه الكبرى فى عقيدتهم ودعائهم وعباداتهم.

ثمّ تفاقم الأمر حتى بلغ الحال ببعضـهم أن حكم بكفر طوائف من المسـلمين واسـتحلّ دماءهم لتوسّـلهم وتوجّههم واستجارتهم بأنبياء اللَّه ورسله وخلفائه فى الأرض.

واسـتمرت مسيرة الانحرف المقنّعة بشـعارات التكفير حتى اتخذت لنفسها أثواباً جديدة تتناسب ومتطلبات العصر، حيث وصفوا عقيدة التوسّل بالتسوّل والاستجداء، وقالوا إن التوسّل بالأنبياء والرسل والأوصياء صنمية

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۹

وغلوّ فى الأشـخاص، وقد تناسوا أن هذه مقالة إبليس عندما أبى واسـتكبر بنفسه عن السجود إلى خليفة اللَّه وجعْله واسطة فى نيل رضا الربّ عزّوجلّ، وأصبح بذلك مذموماً مدحوراً مطروداً عن ساحة الرحمة الإلهية.

خطّة البحث ...: ص: ۱۹

لا يخفى على القارئ الكريم أن هذا الكتاب هو مجموع الأبحاث التى ألقاها على جمع من طلبة العلم سـماحة الاستاذ المحقّق آية اللَّه الشيـخ محمّد السند، حيث قام بتسليط الضوء على عقيدة التوسّل وبيان مساحتها ودائرتها ومنزلتها ودورها فى منظومة العقيدة الإسلامية على ضوء البيانات القرآنية المعتضدة بالعقل والسنّة النبويّة ومنهاج أهل البيت عليهم السلام.

وقد وفّقنى اللَّه تعالى لتقرير هذه الأبحاث القيّمة فجاءت على أربعة فصول وخاتمة.

أمـا الفصـل الأـول: فقـد تركّز البحث فيه على بيان حقيقـة التوسّل فى اللغـة والاصـطلاح، ثم إعطاء التصورات الصـحيحة حول عقيـدة التوسّـل ودور الوسائـط والوسائـل والتوجّه إليها والتوسّل بها فى العقيـدة التوحيديـة، وبعـد ذلك تمّ التعرّض للأدلّـة العقليـة والتحليلية والتاريخية التى تنصّ على ضرورة التوسّل بحسب الدائرة الكونية والأدبيات الدينية وتأريخ الأديان وأعراف العقلاء وشرعياتهم.

وأمـا الفصل الثانى: فقـد تمحور البحث فيه على الأدلّـة والآيات القرآنيـة التى نصّت على التشـريع الإلهى لعقيـدة التوسّل، حيث ميّزت

الآيات القرآنية الوسائط والوسائل المستنكرة عن غيرها، وإن الشرك بالتوجّه إلى الوسيلة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۰

المقترحة والمخترعة من سلطان العبد ذاته، وأن التوحيد التامّ بالتوسّل والتوجه إلى آيات اللَّه وحججه التى أمر العباد باتخاذها وسيلة، والإعراض عن هذه الوسائط والاستكبار والصدّ عنها غلق لأبواب السماء وحبط للأعمال وطرد وإبعاد عن رحمة اللَّه تعالى.

وأما الفصل الثالث: فقد تمّ التعرّض فيه إلى ضرورة وشرطية ولا بدّية التوسّل فى صحة العقيدة وسائر العبادات وكذا شرط فى نيل المقامات الإلهية والمنح الربّانية، واستدللنا على ذلك بالآيات الصريحة التى تنصّ على أن التوسّل والتوجّه بالحجج الإلهية ليس أمراً راجحاً بيد العبد فعله أو تركه، بل هو أمر حتمى وضرورى لابدّ منه، ومن دونه تكون أبواب السماء مقفلة بوجه العقيدة والعبادة ونيل المقامات ودرجات القرب.

وفى الفصل الرابع: تم التعرّض لأهم الشبهات التى ذُكرت حول التوسّل مع الإجابة عنها.

وأما فى الخاتمة: فقد ذكرنا بعض الروايات التى وردت فى مجامع أهل سنة الجماعة، التى تنصّ على مشروعية التوسّل وضرورته، وكذا ذكرنا بعض كلمات أعلام السنّة حول التوسّل.

وختاماً أتوجّه إلى اللَّه عزّوجلّ بنبيه الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم وأهل بيته الطاهرين أن يحفظ شيخنا الاستاذ وأن يتقبّل منه ومنّا هذه البضاعة إنه نعم المولى ونعم النصير.

الشيخ قيصر التميمى

۲۵/ ذى القعدة/ ۱۴۲۶ ه

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۱

الفصل الأوّل ... ص: ۲۱

اشارة

۱- تمهيد ۲- التوسّل فى اللغة والاصطلاح ۳- التوسّل عبادة توحيدية ۴- الأدلّة العقلية والتاريخية ۵- الأدلّة التحليلية

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۳

تمهيد ... ص: ۲۳

إنّ مبدأ التوسّل والدعاء وطلب الشفاعة والاستغاثة بالنبيّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام من المبادئ الأصيلة والأساسية فى الدين التى دلّ على مشروعيتها وضرورتها صريح العقل والقرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام.

ولقد آمن بهذه العقيدة فى الإسلام عموم المسلمين بكافّة فرقهم وطوائفهم، حيث أن سيرتهم جارية على اللجوء إلى ساحة النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام.

ولكن حاول البعض تبعاً لمنهج الجحود والجاحدين بذريعة وغطاء وقناع التكفير والمكفّرين- أن يُلصق تهمة الشرك والكفر بهذه العقيدة الإسلامية، حيث تحايل لجحوده بأن ادّعى أن التوسّل من أصناف الشرك فى العبادة، وزعم أن الآيات والروايات دالّة على ذلك.

ونحن قبل الشروع فى ذكر ما استعرضوه من أدلّة وشبهات والإجابة عنها، لابدّ من بيان ما هو الحقّ فى المسألة، وذلك عن طريق إعطاء التصوّرات

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۴

الصحیحة والبراهین القاطعة الدالّة علی مشروعیة بل ضرورة التوسّل بأصفیاء اللَّه تعالی، لأجل نیل القرب منه عزّ وجلّ وقبول الطاعات والعبادات وفتح أبواب السماء لاستجابة الدعاء وقضاء الحاجات، وأن المنکرین والجاحدین للتوسّل بأولیاء اللَّه یجعلون التوسّل بهم من التوجّه إلی غیر اللَّه تعالی لیفرّقوا بین اللَّه ورسله قال تعالی: «إِنَّ الَّذِینَ یَکْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَیُرِیدُونَ أَنْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَیَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَکْفُرُ بِبَعْضٍ وَیُرِیدُونَ أَنْ یَتَّخِذُوا بَیْنَ ذَلِکَ سَبِیلًا* أُولَئِکَ هُمُ الْکَافِرُونَ حَقًّا» «۱».

وذلک کلّه استناداً إلی الأدلّة العقلیة والتحلیلیة والتاریخیة والقرآنیة والروائیة الناصّة علی ذلک.

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۵

***

التوسّل فی اللغة والاصطلاح ... ص: ۲۵

۱- التوسّل لغة ...: ص: ۲۵

قال الفراهیدی فی کتابه اللغوی «العین»:

وسل: وسّلت إلی ربّی وسیلة، أی عملت عملًا أتقرّب به إلیه، وتوسّلت إلی فلان بکتاب أو قرابة، أی تقرّبت إلیه «۱».

وقال الجوهری فی الصحاح:

الوسیلة: ما یتقرّب به إلی الغیر، والجمع الوسیل والوسائل، والتوسیل والتوسّل واحد، یقال: وسّل فلان إلی ربّه وسیلة وتوسّل إلیه بوسیلة، أی تقرّب إلیه بعمل «۲».

ومثله ما فی النهایة فی غریب الحدیث لابن الأثیر «۳».

وقال ابن منظور فی لسان العرب:

الوسیلة: المنزلة عند الملک، والوسیلة: الدرجة، والوسیلة القربة، ووسّل فلان إلی اللَّه وسیلة إذا عمل عملًا تقرّب به إلیه، والواسل الراغب إلی اللَّه.

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۶

وتوسّل إلیه بوسیلة إذا تقرّب إلیه بعمل.

والوسیلة الوصلة والقربی، وجمعها الوسائل «۱».

والذی یتحصّل من کلمات اللغویین أن التوسّل والوسیلة:

هی ما یجعله العبد من الواسطة بینه وبین ربّه لأجل التوصّل بها إلی تحصیل المقصود وهو القرب منه عزّ وجلّ، أو مطلق ما یوسّطه الشخص للتقرّب به إلی الغیر من عمل أو کتاب أو قرابة أو غیرها.

۲- التوسّل اصطلاحا ...: ص: ۲۶

التوسّل فی الاصطلاح قریب جدّاً من المعنی اللغوی، بل هو عینه والاختلاف فی تحدید المصادیق التی نصبها اللَّه تعالی للتوسّل والتقرّب بها إلیه عزّ وجلّ.

وسیأتی مزید إیضاح لبیان حقیقة التوسّل اصطلاحاً عند استعراض الأدلّة القرآنیة حول التوسّل فی الفصل اللّاحق.

***

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۷

التوسّل عبادة توحيدية ... ص: ۲۷

دور الوسائط الإلهيّة وضرورة التوسّل بها ...: ص: ۲۷

إنّ الحقيقة التي نريد أن ندّعيها تحت هذا العنوان، هي: إن نفي الوسائل والوسائط الإلهيّة والإعراض عنها في حال توجّه العبد إلى اللَّه هو الشرك بعينه.

وإنّ توسّل العبد بالآيات الإلهيّة وتوجّهه وتشفّعه بالوسائط، التي نصبها اللَّه عزّ وجلّ من أجل قضاء حوائجه أو قبول توبته وأوبته وعبادته ونيله للحظوة والقرب من اللَّه تعالى، هو التوحيد الحقيقي والتام المرضي عند اللَّه عزّ وجلّ.

توضيح المدّعى ...: ص: ۲۷

من أجل إعطاء تصوّرات صحيحة حول ما ادّعيناه آنفاً نقول: إن الوسائل والوسائط إذا كانت مجعولة ومنصوبة من قبل اللَّه عزّ وجلّ، فإن التوسّل والتوجّه بها واللجوء إليها والاستغاثة والاستجارة بها إلى اللَّه تعالى هو التوحيد التام، وفي الوقت ذاته يكون الإعراض عنها والاستكبار عليها والتوجّه إلى اللَّه تعالى بالمباشرة شركاً واستكباراً على اللَّه عزّ وجلّ ومبارزة له في سلطانه.

وأما إذا لم تكن تلك الوسائط مجعولة ولا منصوبة من قبل اللَّه تعالى، فإن

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۸

التوسّل بها والتزلّف إلى اللَّه عن طريقها يكون شركاً وصنمية ووثنية وعبادة لغير اللَّه تعالى، سواء كان صنماً قرشياً في الجاهلية أو وثناً عصرياً.

بيان الأدلّة ...: ص: ۲۸

ولهذه الدعوى التي ذكرناها أدلّتها المتنوعة، ونحاول أن نشير في هذا الفصل إلى الأدلّة العقلية والتاريخية والتحليلية، وأما الأدلّة القرآنية فسيأتي ذكرها في الفصل اللّاحق.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۹

الأدلّة العقلية والتاريخية ... ص: ۲۸

۱- الدليل العقلي ...: ص: ۲۹

اشارة

هنالك بيانات متعدّدة للدليل العقلي الدالّ على مشروعيّة وضرورة التوسّل، نستعرض فيما يلي بعض تلك البيانات العقلية:

البيان الأول: (التوسّل بالوسائط الإلهيّة تحكيم لسلطان اللَّه على سلطان العبد ...) ص: ۲۹

إنّ نصب الوسائط والأبواب من قبل المخلوقين والعبيد باقتراحهم واختراعهم يُعدّ تصرّفاً فی سلطان اللَّه عزّ وجلّ، ونوع من تحكيم إرادة العبد وهواه على إرادة ربّه، ويكون هذا الفعل من العبد شركاً وندّية ووثنية جاهليّة.

فالعبد هو الذی ينادد ربّه فی جعله الوسائط واختراعها، سواء من ناحية العمل كاتّخاذ الأحجار والأصنام وجعلها واسطة بين العبيد وبين ربّهم، أم كان من ناحية الفكر والمعتقد وذلك كاتّخاذ العقل الذاتی البشری ربّاً وزعم عدم محدوديته وأنّه يتّسع فی الحكم والبتّ فی الحقائق بلغ ما بلغ، فإن هكذا توسيط من قبل البشر وباقتراحهم يُعدّ مغالاة وشركاً فی سلطان اللَّه؛ لأنّها تكون مناددة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۰

للَّه تعالى وصنمية للعقل، بدعوى (إن الحكم إلّاللعقل).

فمن يجعل لنفسه وسيطاً لم ينصبه اللَّه عزّ وجلّ ولم يأذن به فهذه هی الصنمية، والتزلّف والتقرّب بتلك الوسائط غير المأذون بها هو الشرك الناقض للإيمان، لأنّه منازعة للَّه‌تعالى فی سلطانه، سواء كانت أصنام العرب أم غيرها من الجهالات والجاهليات الحديثة.

وأما التوسّل والتوجّه بالوسائط التی جعلها اللَّه عزّ وجلّ ونصبها لخلقه فهو التوحيد التامّ، والإعراض عن تلك الحجج والأبواب الإلهيّة التی نصبها اللَّه عزّ وجلّ وترك التوجّه إليها هو الشرك الناقض للإيمان أيضاً؛ لأنّه استكبار على إرادة اللَّه تعالى وسلطانه.

فالتوحيد التامّ إنما يكون بالانصياع والخضوع أمام الأبواب والوسائط التی جعلها اللَّه عزّ وجلّ، وذلك بالتوسّل بها وتوسيطها بين العبد وربّه.

والسرّ فی شرك المشركين والإنكار الإلهی لعقيدتهم الصنمية ليس لأصل شعورهم بالحاجة إلى الوسائل والوسائط والشفعاء، بل كان شركهم فی اقتراحهم الوسائط والتدخّل فی سلطان اللَّه تعالى وتحكيم إرادتهم وسلطانهم، من دون الانصياع والطوعانية لإرادة اللَّه عزّ وجلّ.

فمصبّ إنكار الباری تعالى عليهم ليس هو إنكار نظرية ضرورة الوسائط، بل فی كون الوسائط مقترحة من قبلهم.

والقرآن الكريم أيضاً كما سيأتی- لا- يستنكر على المشركين نظرية ومقالة الأبواب والوسائط، بل على العكس؛ إذ القرآن يقرّها ويثبتها، وإنما تخطئته للمشركين بالصنميّة فی اقتراحهم الوسائط والوسائل من قبل أنفسهم، ويحتّم

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۱

على المشركين أن تكون الوسائط بسلطان الربّ وإرادته.

والقرآن الكريم كما سيأتی أيضاً- يقرّر نظرية الوسائط بأنها أمر فطری وضروری لابدّ منه.

وبعبارة اخرى: لا يكفی فی نفی الشرك وتحقّق التوحيد التام من العبد نفيه الوسائط المخترعة والمقترحة من قبل البشر، بل عليه أن يتوسّل بالوسائل والحجج التی نصبها اللَّه عزّ وجلّ؛ وذلك لأن من يقف عند إنكار الوسائط المقترحة فقط كمن قال: (لا إله) وسكت من دون أن يذكر المستثنى، حيث أنه يوجب الكفر لا التوحيد.

خصوصاً وأن كلمة (لا إله إلّااللَّه) ليست كلمة للتوحيد فی الذات والصفات والأفعال فحسب، وإنما هی توحيد أيضاً فی مقام العبادة والخضوع والتوجّه والدعاء، فلا عبادة ولا خضوع ولا توجّه إلّاللَّه‌تعالى، ومعنى ذلك نفی الوسائط والشفعاء الذين لم يأذن بهم الباری تعالى، فلا إله ولا وله ولا تشفّع ولا تقرّب إلّابما أثبته اللَّه تعالى، ولا يكفی نفی ونبذ الوسائط المقترحة، بل لابدّ من إثبات الوسائط التی جعلها ونصبها اللَّه عزّ وجلّ.

والنبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله والمعصومون عليهم السلام وسائط وأبواب منصوبة من قبل اللَّه تعالى.

والحاصل: إن الشريعة الإسلامية جاءت لنبذ الصنمية القديمة منها والحديثة والمغالاة فی الأشخاص الذين لم ينصبهم اللَّه تعالى والتوجّه إليهم.

وأما من نصبهم اللَّه عزّ وجلّ وجعلهم وسائط وأبواب، فلابدّ من التوجّه إليهم والتوسّل بهم والانشداد إليهم؛ لأن التوجّه والانشداد إلى

الآيات

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۲

والعلامات إنشداد وتوجّه إلى من له الآيات، وكلّما تنمّر الشخص فى الانشداد إليهم وأخلص فى الولاء لهم كلما ازداد توحيده وازداد ولاؤه وانشداده إلى اللَّه تعالى، والعكس بالعكس، نظراً لشدّة قربهم إلى البارى، فالاقتراب منهم اقتراب منه والابتعاد عنهم ابتعاد عنه تعالى، فإن الآية والعلامة كلّما كانت كبيرة وعظيمة فى حكاية ذى الآية فهى نظير المرآة الشديدة زيادة فى المعرفة لهوية الحقيقة التى تحكيها المرآة؛ لأنّ طبيعة المرآة والآية عبورية واستطراقية توصّل إلى الحقيقة، والإيصال صفة ذاتية لها لا تنفكّ عنها، وهذه خاصية الآيات والوسائل المنصوبة من قبله تعالى.

البيان الثانى: الاختلاف فى المراتب الوجودية ... ص: ۳۲

وهو بيان عقلى فطرى استند إليه آدم عليه السلام فى توسّله إلى اللَّه عزّ وجلّ بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله؛ لكونه أحبّ الخلق إلى اللَّه تعالى، وكذلك استند إليه إبراهيم عليه السلام فى استغفاره لعمّه آزر، وهو الحفاوة والحظوة والزلفى عند اللَّه تعالى.

بيان ذلك: هناك ضرورة عقليّة ذكرها الفلاسفة، وهى أن اللَّه تعالى وإن كان هو الخالق لكلّ شىء ولا خالق سواه، ولكن إيجاد المخلوقات من قبله تعالى ليس على رتبة واحدة، بل هى ذات مراتب متعدّدة مشكّكة، وهذه ضرورة لابدّ منها، وليس ذلك لعجز فى قدرة البارى، تعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ إذ هو على كلّ شىء قدير، وإنما النقص والعجز فى طرف القابل والمخلوق؛ وذلك لأنّ شيئيّة الأشياء لا تتقرّر ولا يمكن أن تفرض متحقّقة إلّابعد إمكانها، فمع عدم إمكانها لا شيئيّة لها، والموجودات والمخلوقات النازلة فى الرتبة الوجودية،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۳

كالموجودات المادّية مثلًا أو البرزخية، لابدّ لها من سلسلة إعدادات ومخلوقات سابقة، تكون مجارى فيض اللَّه عزّ وجلّ، والمخلوق السابق فى الرتبة الوجودية يكون سبباً لتقرّر إمكان المخلوق اللّاحق، وليس ذلك إلّالعجز القابل والمخلوق النازل فى الرتبة عن التلقّى من اللَّه تعالى بالمباشرة، فلابدّ له من واسطة ومجرىً فى الفيض الإلهى لأصل ذاته وكمال صفاته؛ ولذا الانسان ببدنه المادّى مثلًا لا يتقرّر له إمكان إلّابعد خلق المعدّات له وتسخير الأرض والسماء والماء والهواء والمخلوقات الحيّة وغيرها، ففى الخلقة المادية توجد إعدادات كثيرة أعدّها اللَّه تعالى وسخّرها للانسان، لكى يعيش حياة ممكنة فى هذا الكون، قال تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» «۱».

ومن هنا ورد من طرق الفريقين أن أوّل ما خلق اللَّه تعالى العقل، أو أوّل ما خلق اللَّه تعالى نور النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله «۲»، ولا تنافى بينهما.

وورد أيضاً أن اللَّه تعالى أبى أن يُجرى الأمور إلّابأسبابها «۳»، فسنّة الخلقة فى هذا العالم الإمكانى عن طريق الأسباب والمسبّبات، بجعل المخلوق السابق سبباً لأن يخلق اللَّه تعالى المخلوق اللّاحق بنحو التقدّم والتأخّر الرتبى.

ولا شك أن التقدّم فى الرتبة الوجودية بين المخلوقات معناه أن المخلوق الأسبق رتبة أشرف وأكرم وأقرب إلى اللَّه تعالى من المخلوق اللّاحق، وهو مجرى سيب البارى عزّ وجلّ إليه، وسبب لتفتّح أبواب السماء لتلقّى الفيض.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۴

إذن أصل فكرة الوساطة والسببية والوسيلة سنّة إلهية تكوينية سنّها اللَّه عزّ وجلّ فى خلقة الممكنات، وحينئذٍ نقول: إنه مما اتفقت عليه طوائف المسلمين وفرقها أن السنّة التشريعية لا تخالف السنّة التكوينية، فالشريعة تتناسب وتتلاءم مع الخلقة والفطرة التكوينية، كما قال

تعالى: «فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» «۱».

وهـذا بيـان عقلى واضـح دالّ على ضـرورة التوجّه والتوسّـل بـالمقرّبين وبالمخلوقات الكريمـة على اللَّه تعالى، وهـذه هى الحفاوة التى استند إليها آدم وإبراهيم عليهما السلام فى استغفارهما إلى اللَّه تعالى.

وبعبارة أخرى: إن من المعانى والحقائق الذاتيـة للقرب والمقرَّب أن الاقتراب إلى المقرّب (بالفتـح) يُقرِّب؛ لأنّه مقتضـى قربه، كما أن الابتعاد عنه ابتعاد عمّن هو قريب إليه بمقتضـى قربه أيضاً، وهـذه القاعـدة غير مختصّـة بالقرب والبعـد المكانى، بل هى مطّردة فى كلّ أنماط القرب والبعد على الصـعيد المعنوى، من كمالات الوجود من العلم والقدرة والحياة والنور، وعلى ضوء ذلك يكون بيان الشـرع لكون شىء مقرّب هو بنفسه تحضيضاً وتشريعاً للتوسّل به والتقرّب إلى اللَّه بالتوجّه إليه، وهذه الدلالة بديهية فطرية يدركها عامّة البشر بفطرتهم، فـإن إعطـاء المالـك وذو القـدرة والعظمـة والعزّة لشـىء القرب واتخـاذه مقرّبـاً يلاـزم إعطـاءه مقـام الشـفاعة، فيلازم الإذن بالاستشـفاع والتوسّـل به، كمـا أن إنكـار الإـذن بالتوسّل والاستشـفاع به إنكاراً لكونه مقرّباً، وبالتالى يسـتلزم الإنكار تكـذيب المالك والاعتراض عليه فى اتخاذه ذلك الشىء مقرّباً، وكذلك الحال

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۵

فيما إذا أخبر من له السلطان والقدرة بأن شخصاً وجيهاً عنده، أى ذو حظوة وزلفى لديه وحبيباً له، فإنه إذن وإعطاء المقام الشفاعة له، ويلازم الإذن بالاستشفاع والتوسّل به، فجحود التوسّل به جحود لوجاهته وزلفاه.

البيان الثالث: وجوب الاحترام والتعظيم ... ص: ۳۵

وهو أيضـاً شـرح وبيان للحفاوة والأقربيـة ومعتمـد على أصول فطريـة جبلّيـة، وذلك أن الأسـلوب الجارى والمتّبع فى شـرعيّات البشـر وأعرافهم وآدابهم العقلائيـة والاجتماعيـة عند بعضـهم البعض، هو أن طريقة الوفود على شـخص يجب أن تكون بالاستئذان من الباب والحُجّاب والشفعاء والوسائل التى تؤدّى إليه، وأن يكون ذلك بمنتهى الأدب والاحترام.

وبعبارة اخرى: إن الشـخص عنـدما يتوسّل بشـخص آخر للدخول على عظيم يُعدّ نوعاً من أنواع الاحترام والتعظيم والتأدّب، وزيادة فى إبـداء الحرمة والاحترام، فأنت مثلًا عندما تتّخذ المقدّمات والاجراءات اللّازمة وتأتى عن طريق الحُجب والأبواب صيانة لحرمة مَنْ تفد عليه، فـإن فى ذلـك مزيـد الأدب والاحترام وإن لم يكن ذلك الطرف محجوباً فى نفسه، ولو لم تُراع تلك الاجراءات فكأنك تكون قد هتكت حريمه.

وقد ذمّ اللَّه عزّ وجلّ الذين ينادون النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله من وراء الحجرات، وأمر بإتيان البيوت من أبوابها، وأن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأذنوا فيُؤذَن لهم.

قال تعالى: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۶

الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «۱».

وقال أيضاً عزّ وجلّ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» «۲».

وقال تبارك وتعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» «۳».

وجاء فى الحديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أنا مدينة العلم وأنت يا علىّ بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها» «۴».

ونجد أن هذا الأدب الإلهى قد قرّره الشارع المقدّس فى الوفود على بيت اللَّه الحرام، فجعل الإحرام مقدّمة للتهيّؤ وباباً للتعظيم.

لا يقال: أن الجارى فى هذه الأعراف أمور متواضع عليها ولا ربط لها بالحقائق.

فإنه يقال: إن من المقرّر فى محلّه أن الاعتبارات العقلائيـة ليست أموراً جزافية، بل لها مناشـئ حقيقية ورابطة تكوينية، وقد أمضـى اللّه تعالى تلك الاعتبارات.

ثم إن اللّه عزّ وجلّ نصب أبواباً ووجهاء مقرّبين يتوجّه بهم إليه من باب التأدّب مع اللّه تعالى، ولـذا عنـدما يريـد الشـخص المسـلم أن يطلب حاجته من اللّه تعالى فى الدعاء وفى غيره، لابدّ من تقديم الثناء على اللّه عزّ وجلّ وشكره

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۷

وحمده، ثم يطلب حاجته بعد ذلك، كما هو مذكور فى كتب الفريقين «۱».

وكما جـاء ذلـك فى سورة الحمـد، التى يقرؤها الفرد المسـلم فى اليوم والليلـة عشـر مرات على الأقلّ، حيث قُدّم فيها المـدح والثناء والشكر والحمد للّه‌تعالى، ثم بعد ذلك يطلب المصلّى والقارئ للحمد حاجته من الهداية وعدم الغواية والضلال.

إذن التوسّـل بمن يكون وجيهاً عنـد اللّه من التـأدّب والتعظيم للّه‌عزّ وجـلّ، والوفود على اللّه مباشـرة من قبل الأفراد العاديين الـذين لا يحرز كون وجوههم مقبولـة عنـد اللّه تعالى، بل قـد يكون مطروداً من ساحـة العظمـة بسبب ما يقترفه من الـذنوب- يعـدّ من الكبرياء والجفـاء والجفوة مع اللّه تبارك وتعالى والعتو عليه، وهـذا على خلاف الفطرة التوحيديـة، بل إن اللّه عزّ وجلّ ذمّ الـذين يصـدّون عن الوسائط ويطلبون الارتباط المباشـر بالسـماء، بما بيّناه فى هـذا الوجه، قال تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا» «۲».

فنحن المـذنبون المقصّـرون القاصـرون عن نيل المقامات الرفيعـة يجب أن لا نطلب الحاجـة إلى اللّه تعالى إلّابعـد تقـديم المقـدّمات، والتوسّل بالمقربين والوجهاء المرضيين عند اللّه عزّ وجلّ، وهذا هو معنى قوله تعالى: «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ».

والحاصل: إن التوسّل من مبادئ الأصول الفطرية والأخلاقية، وهو مقتضى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۸

التواضـع والخضوع فى التوجّه والوفود على اللّه تعـالى، وفيه زيـادة ورفعـة فى التوحيـد؛ لأنّ التواضع حالـة توحيديـة خالصـة، ورفض التوسّل استكبار ورعونة لا تناسب الأدب التوحيدى، ويستنكره العقل ويشجبه العقلاء فى تعاملهم.

ولابـدّ من التنبيه على أن الآيات القرآنية كما تقدّم ويأتى فى الفصل اللّاحق لا تثبت أن الوفود على اللّه تعالى من دون التوسّل بالآيات الإلهيـة مخلّاً بالأدب مع الحضـرة الربّانيـة فحسب، بل هى تصـرّح بامتناع الوفود عليه عزّ وجلّ من دون آياته وحججه، وامتناع التوصّـل إلى ذاته المقدّسة؛ لقصور فى القوابل والاستعدادات.

۲- الدليل التاريخى (السيرة ...): ص: ۳۸

لا ريب أن هناك ضـرورة إسـلامية وقرآنية تؤكّد على أن فصل الشـهادة الثانية وهى شهادة أن محمّداً رسول اللّه- عن الشهادة الأولى وهى شهادة لا إله إلّا اللّه- وإنكارها يُعدّ شركاً، وخروجاً عن دائرة التوحيد التام، الذى جاءت به الشريعة الإسلامية الخاتمة.

وعنـدما نرجع إلى القرآن الكريم نجـده يحكم بالشـرك والوثنيـة على الطقوس والمناسـك العباديـة التى يـأتى بها أهل الكتاب، وإن كانوا يدّعون أنهم على دين موسى أو عيسى عليهما السلام.

وفى الوقت ذاته اعتبر القرآن الكريم عبادة قريش وحجّهم ومناسكهم وصلاتهم تجاه الكعبة من الشرك والجاهلية وعبادة الأوثان.

فالطقوس العبادية القرشية التى يزعمون أنها على ملّة إبراهيم عليه السلام، كالصلاة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۹

إلى الكعبـة وحـجّ بيت اللّه الحرام والاتيان بمناسـكه كالطواف والسـعى والوقوف بعرفات والمزدلفـة وسَوق الهـدى، كلّها حكم عليها

القرآن الكريم بالوثنية والشرك والعبادة لغير اللَّه تعالى، وليس ذلك إلّالعدم الرجوع إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقطع الصلة به والابتعاد عنه والتخلّي عن ولايته، وعدم الخضوع والطاعة له، وعزل الشهادة الثانية وفصلها وبترها عن الشهادة الأولى.

فإنّ ذلك كلّه يجعل العبادات والمناسك بأجمعها شركاً ووثناً وجاهليّة، كالطواف حول الكعبة مثلًا يعتبر شركاً وطاعة وعبادة لغير اللَّه عزّ وجلّ فيما إذا افتقد الشهادة الثانية والتولّي لنبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله.

والفرق بين حجّ المشركين وحجّ المسلمين، هو أن المشركين يأتون بالمناسك من دون الخضوع والتسليم والتولّي لخليفة اللَّه تعالى، وأما المسلمون فهم يأتون بمناسك الحجّ مع خضوعهم لولاية النبيّ صلى الله عليه و آله وإقرارهم بالشهادة الثانية، ولذا كان حجّهم طاعة وعبادة خالصة للَّهعزّ وجلّ.

وقريش إنما خرجت من مغبّة الشرك والوثنية ودخلت الإسلام بإقرارها بالشهادة الثانية وتولّيها للنبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله والأخذ عنه والخضوع لطاعته وأوامره.

فليس التوحيد بالاتجاه مباشرة إلى اللَّه تعالى والانقطاع عن الوسائط، ولا الشرك بجعل الواسطة بين العبد وربّه، بل الوثنية والشرك في منطق القرآن الكريم رفض التسليم لولاية خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله؛ وذلك لأن الوثن والوثنية طاعة غير اللَّه عزّ وجلّ، والعبد إذا أنكر الواسطة التي نصبها اللَّه تعالى بينه وبين عبيده، لا يبقى له مجال وطريق لاستعلام أوامر اللَّه ونواهيه وإراداته وشريعته الحقّة، التي يريد من عبده السير على خطاها.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۴۰

وحينئذٍ لا يكون لذلك العبد المنكر للوسائط إلّاإرادته وهواه وميول نفسه وسلطان ذاته، وهذه هي الوثنية؛ إذ يكون وثنه هواه، كما قال تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ» «۱».

فالهوى وسلطان النفس وثن من الأوثان وإله من الآلهة وإن لم يكن من الأحجار؛ إذ لا يشترط في الوثن والصنم أن يكون من الحجارة، فإن المسلمين يتوجّهون في عبادتهم إلى أحجار الكعبة ومع ذلك هم موحّدون ومطيعون للَّه تعالى؛ لكون ذلك عن أمره وإرادته وسلطانه.

والحاصل: إن أي عبادة من العبادات إذا إنقطعت عن الخضوع لولاية سيّد الرسل وفقدت تواصلها مع الشهادة الثانية تدخل حيز الشرك والوثنية الجاهليّة، كما جاء ذلك في قوله تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا» «۲»

، حيث حكم اللَّه تعالى في هذه الآية المباركة بشرك ونجاسة ما يأتي به غير المسلمين من العبادات والمناسك في المسجد الحرام.

ثمّ إن من يجحد ولاية أهل البيت عليهم السلام بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يكون حاله كحال من جحد ولاية النبيّ صلى الله عليه و آله، إذ من بعده صلى الله عليه و آله كيف يستعلم العبد إرادة ربّه وأوامره؟!

ومن ثمّ يقول الإمام الباقر عليه السلام في حجّ من لا يؤمن بمودّة وولاية أهل البيت عليهم السلام: فعال كفعال الجاهلية، حيث ورد عنه عليه السلام أنه نظر إلى الناس يطوفون

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۴۱

حول الكعبة، فقال: «هكذا كانوا يطوفون في الجاهليّة، إنما أُمروا أن يطوفوا بها ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم ومودّتهم، ويعرضوا علينا نصرتهم، ثم قرأ هذه الآية «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِم»» «۱».

وهذا برهان تاريخي وأدياني يؤكّد ضرورة الواسطة في صحّة العبادة وقبولها.

والواسطة هي الطاعة لوليّ اللَّه تعالى، بكلّ ما للطاعة من معنى وتداعيات ومعطيات ومقتضيات تقتضيها تلك الطاعة وعلى جميع مستوياتها، فكما أن بدء التوحيد متوقّف على الشهادتين كذلك بقاؤه في كلّ الأبواب الاعتقادية والعبادية، متوقّف على بقاء

الشهادتين إلى آخر المطاف.

***

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۴۳

الأدلّة التحليلية ... ص: ۴۳

اشارة

نرمی فی استعراض هذه الأدلّة تحلیل بعض المفاهیم الدینیة والاعتقادیة ویکون ذلک بدوره دالّاً علی مشروعیة التوسّل وضرورته.

۱- مفهوم العبادة: (مفهوم العبادة ینفی الوسائط المقترحة ...) ص: ۴۳

یمکننا عن طریق تحدید المفهوم الاصطلاحی للعبادة وبیان العبادة الخالصة للّه تعالی والعبادة غیر الخالصة استکشاف مشروعیة نظریة الوسائط، وأن المستنکر منها هی الوسائط المقترحة فحسب، وذلک بالبیان التالی:

ذُکر للعبادة فی اللغة معانٍ متعدّدة، أهمّها: أنها بمعنی الطاعة والخضوع.

والقرآن الکریم أیضاً استعمل مفهوم العبادة فی عدّة معان، منها ما یلی:

۱- مملوکیة المنفعة.

کقوله تعالی: «عَبْدًا مَمْلُوکًا لَایَقْدِرُ عَلَی شَیْءٍ» «۱».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۴۴

وقوله تعالی: «وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَیْرٌ مِنْ مُشْرِکٍ وَلَوْ أَعْجَبَکُمْ» «۱».

۲- سیادة الطاعة، وإن لم تکن أصالة للمطاع.

کقوله تعالی: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یَا بَنِی آدَمَ أَنْ لَاتَعْبُدُوا الشَّیْطَانَ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ» «۲».

۳- الطاعة والخضوع والانقیاد للمعبود علی وجه التعظیم والتقدیس، وأنه الغنی بالذات ومصدر جمیع الخیرات والنعم والکمالات مبدءاً وإصالة.

کقوله تعالی: «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِکَ بِهِ إِلَیْهِ أَدْعُوا وَإِلَیْهِ مَآبِ» «۳».

وقوله تعالی: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ» «۴».

وکقوله تعالی لموسی علیه السلام: «إِنَّنِی أَنَا اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِی وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِکْرِی» «۵».

وقوله تعالی: «وَلِلَّهِ غَیْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَیْهِ یُرْجَعُ الْأَمْرُ کُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَکَّلْ عَلَیْهِ وَمَا رَبُّکَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» «۶».

إلی غیر ذلک من الآیات القرآنیة المبارکة، الدالّة علی إرادة الانقیاد إلی المعبود علی وجه التعظیم وأنه الغنی بالذات من مفهوم ومعنی العبادة.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۴۵

وهذا هو المعنی الاصطلاحی لمفهوم العبادة.

وإذا کان هذا هو المعنی الاصطلاحی للعبادة، فکیف کان توجّه المشرکین إلی الوسائط شرکاً، مع أنهم لا یتوجّهون إلیها بما هی مصدر الخیرات أصالة بل بما هی شفیعة ووسیطة؟ وکیف تتحقّق العبادة لغیر اللّه تعالی؟ وکیف تتحقّق العبادة للّهعزّ وجلّ؟

والجواب هو ما تقدم، من أن الانکار لیس إنکاراً للوسیلة بما هی وسیلة، بل بما هی مقترحة ومخترعة من قبل العبید، وأما إذا کانت

الواسطة بجعل من اللَّه تعالى وإرادته وتحكيماً لسلطانه، فلا محالة يكون التوسّل والخضوع لتلك الوسيلة طاعة للبارى تعالى، لأنه يكون انقياداً له تعالى على وجه الرغبة والخضوع وأنه مصدر الخيرات مبدءاً وأصالة، فأى فعل يكون منطلقه من أمر اللَّه عزّ وجلّ لا يكون شركاً، وإن كان ذلك الفعل بالتوجّه والتوسّل بالوسائط، ومن ثمّ يكون سجود الملائكة لآدم كما سيأتى- عبادة للَّهلا لآدم؛ لأنه خضوع للَّه تعالى وامتثالًا لأمره بما أنه مصدر الخيرات.

إذن المدار فى تحقّق العبادة وعدمه ليس على ارتباط الطقوس العبادية بغير اللَّه وعدم الارتباط بغيره، بل المدار فى العبادة الخالصة وقوام التوحيد فى العبادة على وجود الأمر الإلهى والإرادة الإلهية، وقوام الشرك فى العبادة ليس على تعلّق الفعل العبادى بغير اللَّه، بل الشرك فى العبادة يتقوّم بعدم وجود الأمر والإرادة الإلهية، وإنما باقتراح من العبد نفسه.

ومن ثمّ لا يكون التوجّه بالكعبة إلى اللَّه عزّ وجلّ فى الصلاة شركاً، بل هو شعار التوحيد.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۴۶

فنحن فى صلاتنا نتوجّه إلى الكعبة الشريفة، مع أنها حجر ومع ذلك تكون عبادة للَّهتعالى، وفى صلاة الطواف نتوجّه إلى مقام إبراهيم عليه السلام، وكذا فى الطواف نتوجّه إلى الكعبة ونتبرّك بالحجر الأسود ونتمسّح به، مع أن ذلك كلّه لم يجعل من الكعبة صنماً ولا من الحجر الأسود وثناً يُعبد من دون اللَّه، كلّ ذلك لوجود الأمر الإلهى بالصلاة والطواف حول الكعبة والتمسّح بالحجر الأسود، فيكون الامتثال تحكيماً لسلطان اللَّه تعالى على إرادة العبيد، وذلك بخلاف أصنام الوثنيين.

وهذا ممّا اتفق عليه علماء الأصول، حيث قرّروا أن العبادة لا تتحقّق إلّا بقصد امتثال الأمر وكون العبد ماثلًا طيّعاً أمام مولاه.

فإن وُجد الأمر تحقّق التوحيد فى العبادة ولو مع الواسطة، وإن فقد الأمر كان الاتيان بالفعل شركاً ولو مع نفى الواسطة.

٢- القول بالتجسيم من أسباب جحود التوسّل ...: ص: ۴۶

إنّ انكار التوسّل ورفض الوسائط ناتج إما من القول بالتجسيم أو القول بالنبوءة والتنبّى.

وأما من لا يدّعى النبوءة لنفسه وينكر الجسمية فى البارى عزّ وجلّ، فلا محالة له من قبول الوسائط والوسائل فى كلّ العوالم والنشئآت.

وقبل البرهنة على هذا المدعى لابدّ من بيان بعض الأمور:

الأول: ليس المقصود من دعوانا أن انكار التوسّل ناتج من التجسيم أو دعوى النبوءة هو أن يكون القائل بذلك قد قال بأحدهما عنواناً وقولًا، بل قد يكون فى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۴۷

واقعه متبنّياً لحقيقة التنبّى أو التجسيم من دون أن يُسمّيه تنبّياً أو تجسيماً؛ وذلك لأنهما لا يدوران مدار العنوان والشعار، فالحقائق أو الأمور العدمية الباطلة تدور مدار واقعها، سواء واقعها العدمى فى الأمور الباطلة أو واقعها الوجودى فى الأمور الوجودية، فمن ينفى الوسائط فهو لا محالة إما يبنى على التجسيم أو يدّعى التنبّى كما سيتّضح، وهذا نظير ما ذكره الفقهاء فى بحوث المعاملات، من أن الشخص ربّما يقصد ماهية معاملية معيّنة ويسمّيها باسم تلك الماهية المقصودة، ولكنها فى واقعها قرض ربوىّ أو بالعكس.

الثانى: إن هناك دعاءاً يؤكّد مضمون ما نريد الخوض فيه، وهو من الأدعية المأثورة لتعجيل الفرج، وهو: «اللّهمّ عرّفنى نفسك فإنك إن لم تعرّفنى نفسك لم أعرف رسولك، اللّهمّ عرّفنى رسولك فإنك إن لم تعرّفنى رسولك لم أعرف حجّتك، اللّهمّ عرّفنى حجّتك فإنك إن لم تعرّفنى حجّتك ضللت عن دينى» «۱».

ومفاد هذا الدعاء هو أن منظومة المعارف إنما تصحّ وتكون صائبة مع صوابية وحقّانية معرفة الانسان بربّه، وأن الخلل الناشئ فى معرفة الأنبياء والرسل منبعه الخلل فى معرفة اللَّه تعالى الصحيحة والتامة، كما أن الخلل فى معرفة الحجج والأوصياء والأئمّة منشأه الخلل فى معرفة الرسول، وبالتالى يكون ناشئاً من الخلل والنقصان فى المعرفة المتعلّقة باللَّه تعالى، كما تشير إلى هذه الحقيقة مجموعة من

الآيات القرآنية، منها:

قوله تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۴۸

شَيْءٍ» «۱»

، فإنكار الرسل وعدم الإيمان بهم ناشئ من جهلهم بقدر البارى وقدرته وعظيم حكمته وتدبيره، ومن خلل المعرفة فى أفعال اللَّه عزّ وجلّ.

ومن ثمّ هذا يؤكّد أن الذى ينفى الوسائط والوسائل والرسل والحجج، منشأ نفيه نقصان معرفته باللَّه تعالى، إما بالقول بالتجسيم أو القول بالتتبّى.

والغريب من أصحاب هذه المقالة، قولهم بأن التجسيم باطل فى النشأة الدنياوية فقط، وأما فى الآخرة فنلاقيه والعياذ باللَّه بصورة شابّ أمرد، ويستدلّون على ذلك، بقوله تعالى: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ» «۲»

و «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» «۳»

و «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» «۴»

، فيصوّرون الفوقية على العرش فوقية مكانية، لا فوقية قدرة وهيمنة.

فهم يفترضون إن اللَّه عزّ وجلّ فى الآخرة جسم، وهذا ناتج ضعفهم وقصورهم فى المسائل العقلية والاعتقادية؛ إذ لم يلتفتوا إلى أن قولهم هذا يلزم منه كون اللَّه تعالى مادّياً، وكلّ أمر مادّى قابل للانقسام، فله أجزاء متولّدة من جسمه، وهو منافٍ لما نصّت عليه سورة التوحيد التى نفت التولّد والانقسام والتجسيم والمادّية.

ثم إن الجسم محدود، وهو تعالى خالق الجسم ومهيمن عليه لا يحدّه حدّ.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۴۹

وأهل البيت عليهم السلام يثبتون الرؤية القلبية للَّهعزّ وجلّ، وهو ما أكّدته الآيات القرآنية، كقوله تعالى: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» «۱»

، وهم عليه السلام ينفون الرؤية البصرية، التى يشترط فيها المحاذاة والمقابلة الجسمانية، واللَّه عزّ وجلّ منزّه عن الجسم والجسمية فى جميع النشآت.

لقاء اللَّه يوم الحساب بآياته وحججه ...: ص: ۴۹

وحيث أن حشر الخلائق بأجسامهم، فإن ملاقاة العباد لربّهم تكون بالوسائط والوسائل والآيات، وإلّا للزم أن تكون المقابلة والملاقاة جسمية، أى أن البارى والعياذ باللَّه يلاقى أجسام الخلائق بجسمه وهو باطل بالضرورة.

فإياب الخلائق وحسابهم لابدّ أن يكون عبر الوسائل والوسائط والآيات، وإلّا فإن اللَّه عزّ وجلّ معنا أينما كنّا.

وذلك ديدن قرآنى فى الإسناد، كإسناد الإماتة إلى اللَّه عزّ وجلّ وإلى ملك الموت وإلى الرسل التى يديرها ملك الموت، فإياب الخلق وحسابهم على اللَّه عزّ وجلّ، ولكن عبر آياته ووسائطه، قال تعالى: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» «۲»

وقال تعالى: «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» «۳».

فإذا ثبت أن اللَّه عزّ وجلّ ليس بجسم، ونحن أجسام فى شطر من ذواتنا وشطر من إدراكاتنا، التى تتحقق عبر الارتباط بالأجسام، سواء فى الدنيا أو

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۵۰

البرزخ أو الآخرة، فلا يمكن الارتباط مباشرة بربّ العزّة والجلال، وحيث أن الارتباط باللَّه عزّ وجلّ فى الدنيا أو البرزخ أو فى الآخرة

ليس منقطعاً تماماً، لأن معناه التعطيل فى قدره البارى تعالى، وحيث ثبت بطلان التعطيل، وأنه لا تعطيل لمعرفة ذاته تعالىولا لصفاته ولا لأفعاله ولا لعبادته ولا للقائه عزّ وجلّ، فلابدّ من القول إما بالوسائط أو النبوءة.

والمجسّمة قالوا بالتجسيم؛ لأنهم أنكروا الوسائط وخافوا من الوقوع فى التعطيل أو دعوى النبوءة، فلا محيص لهم عن القول بالتجسيم، هذا كلّه على المستوى التحليلى لما ادّعيناه أولًا.

وأما الدليل القرآنى على ذلك، فهو قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ» «۱».

فقوله تعالى: «لِبَشَرٍ» للإشارة إلى الجسم والخصوصيات الجسمانية.

وقوله تعالى: «إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ» بمثابة البرهان والاستدلال على مضمون الآية المباركة.

وقوله تعالى: «مَا كَانَ» لنفى الشأنية والامكان، لا لبيان عدم الوقوع فقط، وإلّا لكان حقّ التعبير أن يقال: إن اللَّه لا يكلّم أحداً إلّابالطرق الثلاثة المذكورة فى الآية.

ومعنى الآية الكريمة أنه لا توجد أى مجابهة جسمانية بين اللَّه عزّ وجلّ وبين البشر، المحكومين بأحكام المادّة والجسمية، فتكليمه عزّ وجلّ للبشر إما وحياً، أى عن طريق جانب الروح فى البشر، أو من وراء حجاب، أى عن طريق خلق الصوت وإيجاده فى الأمور المادّية، كما فى تكليم اللَّه عزّ وجلّ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۵۱

لموسى عليه السلام، أو يرسل رسولًا أى إرسال الملائكة أو الأنبياء والحجج، بل وكذا الملائكة التكلّم معهم عن طريق الوحى، كما فى قوله تعالى: «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا» «۱»

، إذن لا وجه للمواجهة الجسمانية مطلقاً، سواء فى الدنيا أو البرزخ أو فى الآخرة.

ثم قال تعالى: «إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ» أى متعال أن يكون جسماً محاطاً ومحدوداً، فإن العلو يستلزم نفى الجسمية، وهو عزّ وجلّ حكيم، أى غير معطّل، فمن حكمته أن يرسل رسلًا ويقيم أئمة ويوسّط وسائط، فلا تجسيم ولا تعطيل.

وهذه الآية ليست دلالتها مقصورة على دار الدنيا فقط، بل هى بلحاظ كلّ النشآت الوجودية والتكوينية، فهو تعالى علىّ متعال على الجسمية ومقابلة الأجسام، وحكيم غير معطّل بينه وبين خلقه عن طريق الوسائط والرسل، فهو عزّ وجلّ يُعرف برسله وأدلّته وحُججه.

وبعضهم حيث أنكر التجسيم وفرّ من مغبّة التعطيل ورفض الوسائط، بدعوى أنها صنمية منافية لروح التحرّر، وقع فى القول بالتنبى، ولجأ إلى الإيمان بقدسية العقل وسعة مدياته وحدوده وأنه يصيب كلّ صغيرة وكبيرة، كما هى مقالة بعض المتعلمنين من الإسلاميين.

وحيث أن التنبى والإيحاء إلى الجميع باطل بنصّ القرآن الكريم، وثبت أن التشبيه والتجسيم وكذا التعطيل باطل، فلابدّ من الإيمان بالوسائط والوسائل، ويكون إنكار ولىّ اللَّه وحجته تجسيماً أو تعطيلًا أو استكباراً وإكباراً للنفس وصنميّة للعقل، وهى النبوءة المرفوضة فى الكتاب والسنّة.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۵۲

إذن الوسيلة والواسطة أمر برهانى وضرورى فى كلّ النشئات، ولذا ورد فى الروايات أن الذى بُعث فى عالم الذرّ بين اللَّه تعالى وبين باقى الأنبياء هو النبىّ محمّد صلى الله عليه و آله.

وهذا هو ما قلناه من أن الشهادة الأولى كما أنها مطلوبة فى جميع النشئات، كذلك الشهادة الثانية وأن محمّداً رسول اللَّه صلى الله عليه و آله باقية فى كلّ النشئات أبديّة وأزلية، فوصف النبىّ صلى الله عليه و آله بالرسالة ليس خاصاً بالدنيا فقط، وإنما النبىّ صلى الله عليه و آله رسول فى إنزال القرآن، وآياته غير مختصّة بالدنيا، بل تحكى كلّ النشئات وعالم الربوبية والصفات وعالم الذات، بما لم يُنبّئ به نبىّ من الأنبياء، وهذا معنى واسطته صلى الله عليه و آله فى كلّ العوالم والنشئات.

والحاصل: إن لم يكن فى البين تشبيه ولا تعطيل، فلابـدّ من النبوءة أو قبول الوسائط والحجج، وحيث أن التتبئ للكلّ باطل، فلابدّ من الإيمـان والاـقرار بالوسائـط بين اللّه تعـالى وبين مخلوقـاته فى كلّ العوالم، فاللّه عزّ وجلّ لا يُتوجّه إليه باتجاه جسـمانى، بل يُتوجّه إليه بالمعانى والآيات والحجج.

ومن ذلک کلّه یعلم عظم مکانـهٔ الآیـهٔ والحجّهٔ الإلهیهٔ، وأن إنکارها فى الحقیقهٔ بمنزلهٔ إنکار البارى عزّ وجلّ، کما ورد ذلک فى قوله تعالى: «فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» «۱»

، فإنكار خلافـهٔ خليفـهٔ اللَّه فى الأرض ليس ينصبّ على الوسـيلهٔ بما هى هى، بل يرجع إلى الكفر باللَّه تعالى «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» «۲»

وذلک لأن

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۵۳

الـذات المقدّسـهٔ إذا لم يكن بينهـا وبين المخلوقـات أى ارتباط معناه التعطيل، وهو بمنزلـهٔ الإنكار للّهعزّ وجلّ لأنه إنكار لقـدره تعالى وقدرته وتدبيره.

فعظمـهٔ الوسائـط والحجـج والآيـات بعظمـهٔ ذى الآيـهٔ، التى اضـيفت إليه، ويكون الاسـتخفاف بهـا اسـتخفافاً باللَّه عزّ وجلّ، فلابـدّ من تعظيمها وإجلالها.

ووظيفهٔ الخليفهٔ هى الواسـطهٔ والوساطهٔ فى تدبير شؤون العباد، وهذا النظر والاعتقاد الحقّ مما امتاز به مذهب أهل البيت عليهم السلام، وهو أن العوالم بجميع نشآتها لا تخلو عن حجّهٔ وخليفهٔ وواسطهٔ.

والنقطـهٔ الأـخرى التى ينبغى الإشـارهٔ إليهـا فى المقـام، هى أن التوسّـل والشـفاعهٔ والتوسّط والوسـيلهٔ تحمل فى داخلها عـدم المحوريهٔ الذاتيهٔ للشـفيع والوسـيط، أى ليس للوسـيط والشـفيع والوسيلهٔ أى استقلاليهٔ عن اللّه عزّ وجلّ، وذلك لأن الواسطهٔ معناه أن النظرهٔ إليها آليهٔ وحرفيهٔ، ليس لها من ذاتها إلّاالفقر والحاجهٔ إلى سلطان اللَّه وإرادته.

ولـذا نجـد أن الوسائط التى اتخـذت من دون اللَّه عزّ وجلّ أخفقت فى وساطتها ووجاهتها وكانت شـركاً باللَّه عزّ وجلّ؛ لأنها اسـتقلّت عن سلطانه وإرادته وإذنه.

والغريب فى هـذا المجال هو أن أصـحاب هـذه المقالهٔ والجاحدين للتوسل آمنوا بأن الشـفاعهٔ والتشـفّع بالنبىّ صـلى الله عليه و آله فى الآخرهٔ ليس شـركاً وكـذا التشـفّع بالنبىّ صـلى الله عليه و آله حال حياته، وأما التشـفّع به صـلى الله عليه و آله حال موته فزعموا أنه من الشرك الأكبر.

ويرد عليهم السؤال التالى: إن دائرهٔ الشـرك من أين نتجت؟ هل من حدّ معنى الشـفاعهٔ والواسـطهٔ، أو من حدّها التعبّدى، أو من خلال المعنى العقلى؟

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۵۴

فـاذا كـان المعنى عقلياً فالغيريـهٔ إذا أوجبت الشـرك، فإنهـا توجبه فى كـلّ نشـأهٔ، سواء نشـأهٔ الـدنيا أو الآخرهٔ، وإذا لم توجب الغيريهٔ الشرك لجهـهٔ الوساطهٔ، فما هو الفرق بين أنواع التشفّع فى الدنيا والآخرهٔ، أو حال الموت وحال الحياهٔ؟!

لا سيما وأن الشرك الأكبر «۱» معنىً عقلى يدركه العقل، ونفيه وإثباته فى متناول الأحكام العقليهٔ، وهى لا تقبل التخصيص والاستثناء، لا سيما وأنها من الأحكام التى تقرب من البداههٔ.

وبعبـارهٔ أخرى: إن الوسـيلهٔ والوساطـهٔ تعنى تقوّم الواسـطهٔ والوسـيلهٔ بـاللَّه، وكونها مظهر فعله وظهوره، وهـذا عين التوحيـد فى الأفعال والصفات، فكيف يُجحد تحت قناع أنه الشرك الأكبر، وتسميهٔ ذلك الجحود بأنه توحيد؟!

فإن ذلك من التلبيس لأحد العنوانين مكان الآخر، خصوصاً وأنه قد مرّ أن إنكار الوسـيلهٔ والتوسّل بل يؤول إلى إنكار الشـهادهٔ الثانيهٔ؛

لأنه يؤول إلى إنكار ركنية ودخالة رسالة ومقام خاتم الأنبياء في التوحيد.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۵۵

الفصل الثاني: الأدلّة القرآنية ... ص: ۵۵

اشارة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۵۶

۱- حقيقة التوسّل في أربع طوائف قرآنية

۲- قصة آدم مع إبليس

۳- الآيات البيّنات في المسجد الحرام

۴- التوجه إلى القبلة طاعة للنبي صلى الله عليه و آله

۵- المودة لذرية إبراهيم عليه السلام من شرائط الحجّ وغاياته

۶- الولاية من شرائط المغفرة

۷- الوفود على ولي اللَّه من شرائط الحجّ

۸- الأنبياء مصدر البركة

۹- البقعة المباركة

۱۰- وجوب تعظيم الأنوار الإلهية

۱۱- بناء المساجد على قبور الأولياء

۱۲- حبط الأعمال وقبولها

۱۳- آيات القسم بشخص النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله

۱۴- الآيات الآمرة بالتوسل بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله

۱۵- آيات التوسّل بمخلوقات كريمة أُضيفت إلى الأنبياء والأولياء عليهم السلام

خاتمة في:

أ- الروايات الواردة في مشروعية التوسّل.

ب- آراء أعلام السنّة في التوسّل

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۵۷

الأدلّة القرآنية ... ص: ۵۷

۱- (حقيقة التوسّل في أربع طوائف قرآنية ...): ص: ۵۷

اشارة

إنّ الآيات القرآنية المباركة الدالّة على أنّ الإنكار على المشركين مُنصبّ على الوسائط المقترحة دون الوسائط الإلهيّة على طوائف

متعدّدة:

الطائفة الأولى: وهى ما كانت بلسان استنكار الأسماء المقترحة من قبل العبيد ومن سلطانهم وهوى أنفسهم.

۱- قوله تعالى: «أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» «۱».

وهذا الكلام يسجّله اللّه عزّ وجلّ فى قرآنه الكريم على لسان نبيّه هود عليه السلام، حيث يحاجج عاداً قومه وينكر عليهم الوسائط المقترحة من عند أنفسهم والتى لم ينزل اللّه عزّ وجلّ بها سلطاناً.

وقد تقرّر فى علم أصول الفقه أن النهى أو النفى إذا ورد على طبيعة مقيّدة بقيد، فإنما يقع ذلك النفى أو النهى على القيد لا على ذات المقيّد، كقولك: لا رجل طويل فى الدار، فإنّ النفى فى هذا المثال متوجّه إلى القيد وهو الطول،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۵۸

وليس المراد نفى أصل وجود الرجل فى الدار، وبالنتيجة يكون المنفى الصنف والقيد وهو الرجل الطويل، لا ذات الطبيعة المقيّدة وهو عموم الرجل.

كذلك فى المقام، فالآية فى قوله تعالى: «مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» تنفى صنفاً خاصّاً من الوسائط والوسائل، وهى الوسائط التى لم ينزّل بها اللّه تعالى سلطاناً، والأسماء المقترحة والمجعولة من قبل أنفسهم وآبائهم.

فمصبّ الإنكار والتقريع والتخطئة هو كون تلك الأسماء والوسائط مقترحة من غير إذن وسلطان إلهى.

ولم تنفِ الآية المباركة أصل وجود الوسائط والوسائل، وإلّا فلو كان أصل الوساطة والتوسيط أمراً مستنكراً فلا معنى لذكر القيد، بل يكون ذكره لغواً ومخلّاً بالغرض والمراد.

مع أن الآية ركّزت على ذكر القيد، وأكّدت على أنّ الأسماء المستنكرة هى التى «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» لا مطلق طبيعة الأسماء والوسائط.

فليس الاشكال فى أصل الاسم والوساطة، بل الاشكال فى كونها مقترحة منهم ومسندة إليهم، من دون أن يُسمّها اللّه عزّ وجلّ أو يجعلها واسطة بينه وبين خلقه.

وفى الآية المباركة إشارة لطيفة، حيث لم يطلق فيها الاسم على ذات البارى عزّ وجلّ، بل أطلق على ذات الواسطة بينه تعالى وبين عبيده، أى واسطة فى النداء ووسيلة فى التوجّه، فالإسم الذى يُدعى به هو الوسيلة أو الواسطة التى يتوسّل بها إليه.

۲- قوله تعالى: «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۵۹

سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ» «۱».

وتقريب الاستدلال بهذه الآية الكريمة بنفس ما تقدّم فى الآية السابقة، حيث أنها تجعل مركز التخطئة والاستنكار هو التصرّف الاقتراحى من العبيد فى سلطان اللّه تعالى، وليست التخطئة لأصل مقالة الحاجة والضرورة إلى الوسائط.

الطائفة الثانية: وهى ما كانت بلسان حصول الشرك بغير اللّه عزّ وجلّ، بسبب الوسائط التى لم تكن بسلطان اللّه وحكمه وإرادته.

۱- قوله تعالى: «سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ» «۲».

۲- قوله تعالى: «وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» «۳».

۳- قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» «۴».

فسبب الشرك الذى وقعوا فيه هو تحكيم سلطانهم ورغبتهم وهواهم وإرادتهم على إرادة اللّه تعالى وسلطانه، لا أن أصل الوساطة هو المرفوض فى منطق القرآن الكريم.

الطائفة الثالثة: وهی ما كانت بلسان العبادة من دون اللّه تعالی، وأن التوسّل

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۶۰

بالوسائط والشفعاء بغير سلطان وإذن من اللّه عزّ وجلّ يوجب عبادة مَنْ هو دونه، وهی الوسائط المقترحة.

۱- قوله تعالی: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ» «۱».

۲- قوله تعالی: «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» «۲».

لا- يقال: إذا كانت العبادة المرفوضة هی عبادة المعبود الذی لم ينزّل اللّه به سلطاناً، فهل هذا يعنی أن العبادة لغير اللّه تعالی تكون جائزة فيما إذا نزّل به اللّه عزّ وجلّ سلطاناً؟!

لأننا نقول: العبادة لغير اللّه تعالی ممنوعة مطلقاً، والباری تبارک وتعالی لا يأمر بعبادة غيره، ومضمون هذه الطائفة من الآيات عين المضمون الذی تقدّم فی الطوائف السابقة من الآيات، وهو أن العبادة من دون اللّه تعالی تتحقّق فيما إذا كانت الوسيلة بإرادة العبيد واقتراحهم، وأما إذا لم تكن كذلک فلا تكون عبادة من دون اللّه، بل هی عبادة للّه‌عزّ وجلّ، كما جاء ذلک فی سجود الملائكة لآدم، فهو سجود وطاعة للّه‌تعالی، وامتثالٌ لأمره، لا أن السجود لآدم بنحو الاستقلال، لكی يكون عبادة وخضوعاً له من دون اللّه عزّ وجلّ.

فهذه الطائفة من الآيات تبيّن أن العبادة من دون اللّه تعالی إنما تتحقّق فيما إذا كان التوجّه إلی الوسائط المقترحة من قبل العبيد، من دون أن ينزّل بها اللّه

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۶۱

سلطاناً، وأما إذا كانت الوسائط منصوبة من قبل اللّه عزّ وجلّ وبسلطان منه والتوجّه إليها بإرادته وأمره، فحينئذٍ يكون التوجّه إلی الوسائط انقياداً وامتثالًا للأمر الإلهی وعبادة للّه‌تبارک وتعالی؛ لأنّه تحكيم لسلطانه وانصياع لأوامره.

فالذی يأتمر بأوامر اللّه تعالی بالانقياد مطلقاً بالوسائط أو بغيرها هو الموحّد التامّ فی مقام العبودية والطاعة، وفی غير ذلک يكون قد تجرّأ واستكبر علی الباری تعالی وكفر بربوبيّته، كما فعل إبليس عندما استكبر وكان من الكافرين.

الطائفة الرابعة: ومضمونها هو أن أخذ التشريع من غيره تعالی يُعدّ شركاً فی التشريع إذا كان من دون إذن اللّه عزّ وجلّ.

۱- قوله تعالی: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ» «۱».

۲- قوله تعالی: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» «۲».

نتيجة الطوائف الأربع ...: ص: ۶۱

إنّ الإنكار علی الوثنية والمشركين ليس فی فكرة الوسائط، بل باقتراحهم من الوسائط ما لم ينزّل اللّه بها سلطاناً، فشركهم بمنازعة سلطانهم لسلطان اللّه تعالی.

إذن فمشركو الجاهلية مع أنهم توسّلوا وتشفّعوا بالأصنام والأوثان بُغية الزلفی والتقرّب إلی اللّه تعالی، وهم يعلمون أن الأصنام ليست غنية بالذات،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۶۲

وإنما هی وسائط وشفعاء إلی اللّه عزّ وجلّ، مع ذلک كلّه اعتبرهم اللّه تعالی من المشركين، وليس ذلک إلّالكون محطّ الإنكار عليهم ليس فی نظرية وعقيدة الحاجة إلی الوسائط، بل لكون الوسائط والشفعاء التی تشفّعوا بها لم يأذن بها اللّه تعالی، ولم تكن بإرادته وسلطانه، وإنما هی من تحكيم سلطانهم علی سلطان اللّه تعالی.

وهذه الطوائف من الآيات مفسّرة لكلّ آيات الإنكار علی المشركين والوثنيين عبدة الأصنام وغيرهم، وأين هذا من المعنی الذی

يتوخّاه المنكرين لأصل التوسيط والوساطة، إذ جهة الزيغ والانحراف ليس فى أصل فكرة الوسائط والوسائل والاحتياج إليها، بل من جهة كونها بإرادة العبيد وتحكيمها على إرادة الربّ وسلطانه.

۲– قصة آدم مع إبليس ... ص: ۶۲

اشارة

إنّ هذه الملحمة تعدّ من أوضح الأدلّة على ضرورة التوجّه إلى الوسائط والحجج الإلهيّة، لطلب الزلفى والقرب من اللَّه عزّ وجلّ.

وهذه الواقعة تضفى بلونها على جميع أصول الدين، إذ هى جاءت لتعيين مصير ومعالم مسار البشرية فى مبدأ وفاتحة الخليقة، وذلك واضح لمن تتبع الآيات التى استعرضت هذه الواقعة.

ونحن هنا نتعرّض إلى ما له صلة بالمقام:

وفيما يلى نذكر بعض السور والآيات التى استعرضت القصة:

۱– قوله تعالى: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۶۳

وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» «۱».

۲– قوله تعالى: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ* فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ* قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ* قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ* قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ* وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» «۲».

۳– قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ* قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ* قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» «۳».

۴– قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ* فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ* قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ* قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ* قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ* وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» «۴».

۵– قوله تعالى: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۶۴

الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» «۱».

هذه بعض الآيات التى تعرّضت للواقعة التى هى محلّ البحث.

وقد احتوت هذه القصّة على دلالات متعدّدة تنصّ على أسس المعارف الاعتقادية، وأحد تلك الجوانب المهمّة فى القصّة هى أمر اللَّه تعالى الملائكة بالسجود لآدم، وذلك ضمن عدّة تعابير تبيّن شدّة الأمر بالانقياد والخضوع لآدم عليه السلام، كقوله تعالى: «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ» «۲»

، حيث احتشدت فيها الدوالّ التأكيدية ك (هم) و (أجمع) و (كلّ) و (الملائكة) وغيرها، وكقوله تعالى: «فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» فهو أمر بالوقوع للسجود مباشرة بلا فصل، ولا يخفى ما فى التعبير بالوقوع من شدّة الخضوع والطوعانية وانقياد الملائكة لآدم عليه السلام.

وعلى ضوء مقالة أصحاب الشبهات المتقدّمة الجاحدين للتوسّل يكون امتناع إبليس من السجود عين التوحيد، فحيث أن إبليس أبى جعل الواسطة يكون أكبر موحّد؛ لكونه متقيّداً ومتشدّداً في العقيدة التوحيديّة وأول رائد لدعوة التوحيد ونفي العقيدة الشركيّة التي تورّط بها الملائكة بحسب زعم الجاحدين للتوسّل، ويكون إبليس على هذا صاحب تحرّر وانفتاح وشفّافية في العبادة لرفضه الواسطة.

ويكون انقياد الملائكة وخضوعهم للواسطة هو الشرك الأكبر، ويكونون

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۶۵

بذلك مغالين في آدم، قد خلقوا منه صنماً والعياذ باللّه لتقديسه وتعظيمه، بينما القرآن الكريم يقرّر الحقيقة على خلاف ذلك، حيث يعتبر الملائكة موحّدون مطيعون، وأصبحوا بسجودهم في غاية القرب للّه‌تعالى؛ لامتثالهم وطوعانيتهم للأوامر الإلهيّة، وفي الوقت ذاته حكم على إبليس بالكفر، حيث عبّر عنه بأنّه كافر مستكبر مدحور ملعون مطرود عن ساحة الرحمة الإلهيّة.

ولا يستقيم معنى كفر إبليس وتوحيد الملائكة في القرآن الكريم، إلّاعلى الضابطة التي ذكرناها، وهي أنّ المدار في الطاعة والعبادة وتوحيد اللّه تعالى على وجود الأمر الإلهي، فمع مخالفة الأمر الإلهي يتحقّق الكفر والشرك، وإن كان مضمون المخالفة هو رفض الوسائط، وذلك ما صنعه إبليس فأصبح مذؤوماً مدحوراً، وأما الملائكة الذين انقادوا وخضعوا للأمر الإلهي، فهم الموحّدون المطيعون، ولو كان ذلك عن طريق الواسطة والسجود لآدم عليه السلام، سواء فُسّر السجود بمعنى جعل آدم قبلة لهم، أو بمعنى الاحترام والتعظيم والانقياد لآدم والخضوع له.

إذن أصبح إبليس في غاية البعد من اللّه عزّ وجلّ واستحقّ الطرد من رحمة اللّه تعالى؛ لاستكباره على طاعة الأمر الإلهي؛ ولأنّه أراد أن يُحكّم إرادته وسلطانه على إرادة الباري تعالى وسلطانه، كما جاء ذلك في الحديث القدسي، قال إبليس: (ربّ اعفني من السجود لآدم وأنا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، فقال جلَّ جلاله: لا حاجة لي في عبادتك، إنما عبادتي من حيث أريد لا من حيث تريد) «۱»، وليس ذلك إلّالكون عبادته التي يزعمها مع رفضه السجود لوليّ اللّه وواسطته- تكبّراً وتجبّراً على اللّه عزّ وجلّ وتحكيماً لسلطانه

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۶۶

على سلطان اللّه تعالى، وهذا ينافي مضمون حقيقة العبادة، التي هي الخضوع والطوعانية للأوامر الإلهية؛ إذ ليس مدار العبادة على وجود الواسطة وعدمها كما سبق.

فإبليس في حقيقة الأمر كان عابداً لهواه، والعابد أصبح هو المعبود لنفسه؛ إذ لم تكن عبادته خاضعة للأوامر الإلهية.

ثم إن مقام السجود والخضوع والانقياد لآدم عليه السلام لم يكن من مختصّاته، بل إن ذلك مقام الخلافة الإلهيّة، فكلّ من يتحلّى بهذا المقام ويتسنّم منصب الخلافة يكون مسجوداً للملائكة والجنّ وغيرهم ممّا خلق اللّه عزّ وجلّ.

إذن فالخطاب والأمر بالسجود شامل لكلّ خلفاء اللّه تعالى، خصوصاً وأن بعض الخلفاء الإلهيّين أعلى وأشرف منزلة من آدم عليه السلام في مقام الخلافة.

وعلى ذلك صحّ أن يقال: أن الآيات والأمر الإلهي بالسجود شامل وعام، أي اسجدوا لمحمّد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وهارون وداود وأوصياء الأنبياء عليهم السلام، الذين هم خلفاء اللّه في الأرض بنحو أشدّ وأكثر خضوعاً ممّا كان لآدم عليه السلام.

ومعنى ذلك أن اللّه عزّ وجلّ يُطوع جميع مخلوقاته ويأمرهم بالخضوع إلى خليفته ويأمرهم بالسجود له، أي يفترض عليهم ولايته وطاعته، بمعنى أن يتوجّهوا في عباداتهم إلى اللّه تعالى بالخليفة الذي جعله واسطة بينه وبينهم.

وهذا هو معنى جعل وليّ اللّه قبلة يتوجّه به إلى اللّه تعالى.

وقد ورد التعميم في حكم السجود والخضوع لمطلق الخليفة في قوله تعالى: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۶۷

مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِینَ» «۱»

، فالبشر الذی خلقه اللَّه تعالی من طین وشرّفه بروح منه وهو روح القدس، لابدّ من السجود والخضوع والانقیاد له فی التلقّی عن اللَّه تعالی.

ملحمة إباء إبلیس وسجود الملائکة لا زالت راهنة مستمرّة فی هذا العصر ... ص: ۶۷

وإذا عرفت هذا وتمعّنت فیه یتّضح لک أن الملائکة وسائر الموجودات المخلوقة لا زالت ساجدة خاضعة منقادة لولیّ اللّه وخلیفته فی أرضه، ولا زال إبلیس وأعوانه وأتباعه وأشیاعه من الجنّ والإنس یستکبرون علی خلیفة اللَّه، وینکرون وساطته ویرفضون الخضوع له والتوجّه إلیه والتوسّل به إلی اللَّه تبارک وتعالی.

وهذا الذی ذکرناه کما ینطبق علی النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله کذلک یصدق علی الأوصیاء الأصفیاء والأئمّة والخلفاء من بعده من أهل بیته علیهم السلام.

وهذا أیضاً نداء قرآنی للمسلمین وکافّة البشر بالانقیاد لمحمّد صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام بمعنی الخضوع لهم والتوجّه بهم إلی اللَّه عزّ وجلّ فی مقام العبادة، وهذا هو النمط الثانی لفرض ولایتهم وطاعتهم علیهم السلام، مضافاً إلی النمط الأول وهو معرفتهم والإیمان بهم.

والحاصل: أن ما اقترحه إبلیس علی اللّه عزّ وجلّ من السجود المباشر من دون توسیط ولیّ اللَّه تعالی وهو آدم علیه السلام عین الشرک والکفر؛ لأنّه تکبّر وتجبّر

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۶۸

وتمرّد علی اللَّه عزّ وجلّ، وهو ینافی العبادة والعبودیة التی مدارها علی الطوعانیة والانصیاع.

والملائکة فی سجودهم لآدم موحّدون فی العبادة؛ لکونهم خاضعین منقادین لأمر اللَّه عزّ وجلّ، وهو معنی العبادة والاستسلام لإرادة الباری عزّ وجلّ.

وکان سجودهم وخضوعهم وانقیادهم لآدم عبادة للَّه‌تعالی وطاعة له؛ لکونها ناشئة عن أمره عزّ وجلّ، ولذا ورد فی الحدیث عن أمیر المؤمنین علیه السلام، قال فی سجود الملائکة: «لم یکن سجودهم عبادة له، وإنما کان سجودهم طاعة لأمر اللَّه عزّ وجلّ» «۱».

وهذا هو الفارق الأساس الذی یفصل بین التوجّه لأحجار الکعبة الشریفة وبین التوجّه للأصنام، مع أن کلّ منهما حجر، فهذا شرک وذاک توحید، ومداره وجود الأمر الإلهی وعدمه.

ثمّ إنّ السجود لآدم والسجود تجاه الکعبة والتبرّک بالحجر الأسود وغیر ذلک لیس عبادة لها، بل هی عبادة لصاحب الأمر، وهو اللَّه عزّ وجلّ، فهو الذی أمر بذلک، والعباد منقادون مطیعون لأمره تبارک وتعالی.

الإمامة رکن التوحید ...: ص: ۶۸

ومن المعالم المهمّة أیضاً، والتی استعرضتها الآیات القرآنیة فی قصّة آدم هی الولایة والخلافة، فالتوحید فی العبادة لا یکون إلّابالانصیاع والتذلّل لخلیفة

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۶۹

اللَّه تعـالى المنصوب من قبله عزّ وجلّ، فإبليس الـذى اسـتكبر على الخلافـة والإمامـة فى الأرض كافر بنصّ القرآن الكريم، والملائكة الذين خضعوا وسجدوا لخليفة اللَّه تعالى موحّدون فى العبادة.

فالإمامة معلم من معالم توحيد اللَّه تعالى فى الطاعة، والمطيع والخاضع لولىّ اللَّه ووسـيلته، هو الموحّد الحقيقى، وبذلك يكون الكون بأجمعه مأموراً بالطاعـة والانقياد لمقام الخلافـة والإمامـة فى الأرض، بما فيهم كبار الملائكة المقرّبين، حيث أخذ اللَّه عزّ وجلّ الولاية للإمام والخليفة على جميع الملائكة، فمن يأبى ذلك يندرج تحت قوله تعالى: «أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

ولا شكّ أن الإيمان بهـذه العقيـدة من مختصّات المذهب الإمامى، الذى آمن بأن السـبب المتّصل بين الأرض والسـماء لم ينقطع بعد وفاة النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله، وأن الولاية الفعلية للَّه‌تعالى والحاكمية السياسـية والقضائية والتنفيذية والتشريعية، لا زالت قائمة بعد النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، فولاية اللَّه تعالى فى تدبير النظام الاجتماعى بشكل مطلق غير معطّلة.

وبذلك كلّه نخلص إلى: أنّ إنكار الواسطة المنصوبة من اللَّه عزّ وجلّ هو ما قام به إبليس، حيث يدّعى التوحيد فى العبادة، لكن باطن دعواه الشـرك، فلابدّ أن يُلتفت إلى أن العبادة فى جوهرها وروحها ليست بهيئة السـجود أو الركوع أو تحريك اللسان أو بالقصد إلى بيت اللَّه الحرام فيما إذا كان المكلّف يحمل فى طيّات نفسه الإباء والاستكبار على ربّه، فإن هذا هو محطّ الكفر والصنمية والفرعنة.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۷۰

ضابطة العبادة ...: ص: ۷۰

ومن هنا قد ينبثق إشكال أشرنا إليه سابقاً وأجبنا عنه إجمالًا نحاول أن نجيب عنه بشىء من التفصيل.

وحاصل الاشكال: هو أن البحث انتهى بنا إلى أن المدار فى العبادة على قصد الأمر وعدمه، فلو كان كذلك فهل يعقل أن البارى يأمر بعبادة غيره؟!

فإذا كان ذلك غير معقول فلا يكون المدار على وجود الأمر وعدمه، بل المدار على تخصيص العبادة باللَّه تعالى وعدم تخصيصها به.

وبعبارة أخرى: لو كان المدار على وجود الأمر وعدم الأمر لكان من المعقول أن اللَّه تعالى يأمر بعبادة غيره، والحال أن القرآن الكريم فى آيات عديدة ينهى عن الكفر والشرك وعبادة غير اللَّه تعالى.

وحينئذٍ يكون المـدار على ذات الفعـل وذات الخضوع، فـإن كـان لغير اللَّه فلا يعقل أن يؤمر به من قبل اللَّه عزّ وجلّ، وإن كان للَّه‌عزّ وجلّ فهو العبادة التوحيدية، فالخضوع والفعل العبادى لا يقبل التوسيط، بل لابدَّ من توجيهه وتخصيصه وإضافته إلى اللَّه عزّ وجلّ، ولا يعقل أن يتوجّه إلى غير اللَّه عزّ وجلّ فى الفعل.

فالضابطـة ليس على وجود الأـمر فقط، بل على اسـناد الفعل أيضاً، فإذا تمحّض الفعل فى الإضافـة إلى اللَّه عزّ وجلّ يكون توحيـداً فى العبادة، وإذا امتزج الفعل فى الإضافة إلى غير اللَّه تعالى يكون شركاً، فالمدار على إثبات الواسطة ونفيها.

والجواب: هو أن المدار على وجود الأمر لا غيره، والذى يُحقّق كون العبادة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۷۱

والخضوع مضافتين إلى اللَّه عزّ وجلّ دون غيره هو نفس وجود الأمر وامتثاله.

وذلك كما ذكرنا فى الفارق بين التوجّه إلى الكعبة وهى أحجار وبين التوجّه إلى الأصنام من قبل الوثنية، وهو وجود الأمر وعدمه.

وبعبارة أخرى: مع وجود الأمر الإلهى لا يكون الخضوع والعبادة للواسـطة، بل لأمر اللَّه محضاً، ومع عدم وجود الأمر لا يكون الخضوع للَّه‌وإن نفيت الواسطة، بل يكون خضوعاً لهوى النفس واستكبارها.

فإن العبادة بتسالم علماء الإسلام ليس تحقّقها بالهيئة فقط، وإنما جوهر العبادة وروحها بالخضوع والطوعانية والسلم والاستسلام.

ومن الواضح أن الهيئات والأفعال البدنية، من السجود والركوع وألفاظ الدعاء، من درجات العبادة النازلة فی القوی الإنسانية، وأما درجات ذات الانسان العالية كقوة عقله وقلبه فإن عبادته بالتسليم والانقياد والإذعان، وهی المعرفة الإيمانية، ومن ثم ورد أن «الأعمال بالنيات» أی أن قيمة العبادة بلحاظ النية، والنية هی التوجّه القلبی المتولّد من الإيمان.

وعليه فما اشتهر من تقسيم التوحيد إلی توحيد الذات والصفات والأفعال وتوحيد العبادة لا يخلو من مسامحة، لأن التوحيد فی مقام المعرفة هو توحيد عبادة أيضاً، حيث أن إذعان القلب والعقل والروح وتسليمها بتوحيد الذات والصفات والأفعال خضوع للباری تعالی، وإخبات وتسليم، فهی عبادة للّهمن العقل والقلب والروح، ولا يمكن أن يكون للبدن والنفس عبادة للّهولا يكون للعقل والقلب والروح عبادة للّهبالإيمان والإذعان والتسليم والإخبات وعدم الجموح والتمرّد علی اللّه تعالی، إذ أن جوهر العبادة هو التسليم والإنقياد

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۷۲

والطاعة والطوعانية وكون العبد طيعاً مطاوعاً.

فإذا أمر الباری تعالی بهيئة معينة فی العبادة فطاعة ذلک الأمر هو العبادة التوحيدية، وإن كان لهيئة العبادة المأمور بها علاقة وإضافة إلی وسيلة وواسطة معيّنة، فقوله تعالی: «فَلَنُوَلِّيَنَّکَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» «۱».

إنما هو جعل إلهی للواسطة والوسيلة وهی الكعبة، وهذا لا يعنی أن اللّه تعالی يأمر بعبادة الكعبة والسجود والخضوع لها، بل إنما السجود والخضوع له تبارک وتعالی، وباب التوجّه إليه عزّ وجلّ هی الكعبة، فهی وجه اللّه عزّ وجلّ، حيث أطلق الباری علی الكعبة والمسجد الحرام بأنه وجه اللّه؛ لأنه تعالی قال:

«وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» والوجوه إنما يقابلها وجه يكون واسطة بين العبد والمعبود، ثم بعد ذلک يُعقّب اللّه عزّ وجلّ بأننی عندما أقول توجّهوا إلی الكعبة واجعلوها قبلة ووجهاً لا يعنی انحصار الوجه الإلهی بالكعبة، بل «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» «۲»

، وإنما الوجه الأساس الذی جعل فی التوجّه إلی اللّه عزّ وجلّ فی الصلاة هو الكعبة الشريفة.

فإذا كانت الكعبة تستحقّ أن تكون وجهاً للّهتعالی، فكيف لا يكون سيّد الرسل صلی الله عليه و آله وجهاً من وجوه اللّه عزّ وجلّ، بل أعظم الوجوه للّهتعالی؟!

مع أن الكعبة المشرّفة عبارة عن أحجار.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۷۳

نعم المجسّمة يقولون إن وجه اللّه تعالی هو العضو الجسمانی منه، وهو قول باطل بالضرورة؛ إذ لا وجه ولا يد ولا رجل للّهعزّ وجلّ بمعنی أنه عين ذاته، نعم يده من مخلوقاته بمعنی القدرة والتصرّف، ووجهه بمعنی التوجّه إليه تعالی بآياته، التی هی علامات ودلالات مخلوقة للّهتعالی لابدّ من الاستدلال بها علی ذی الآية.

وحينئذٍ فالمدار علی وجود الأمر، وهو الذی يخصّص الخضوع بكونه للّه تعالی لا لغيره وإن أضيف إلی الواسطة، إذ ليست هی إضافة خضوع وعبادة، بل إضافة وسيلة وتوجّه بحسب ما هو الأمر الإلهی، والأمر هو مقام الآمرية والمولوية للّهعزّ وجلّ، وإعمال سلطنة علی العبد، وانقهار العبد واستسلامه لإرادة مولاه يُعدّ عبادة لمولاه لا لغيره، فمع وجود الأمر لا يعقل أن تكون العبادة لغير اللّه، لأن العبادة التی هی الطاعة لغير اللّه لا- يتحقّق معناها مع وجود الأمر من اللّه تعالی، ومع عدم وجود الأمر لا يكون الإتيان بالفعل طاعة وعبادة للّهوإن حذفت الوسائط، بل يكون شركاً وطاعة لهوی النفس وتكبّراً واستكبار علی آيات اللّه تعالی وحججه.

والحاصل: إن المدار فی العبادة ليس علی هيئة الأفعال والطقوس فحسب، كما تسالم علی ذلک علماء المسلمين من فقهاء ومحدثين ومتكلّمين ومفسّرين، فإن اللّاعب الرياضی قد يتخذ هيئة خاصة كالسجود والركوع وغيرهما، ولكن قصده الرياضة من شدّ عضلات

الظهر أو الركبتین أو غیرها، وكـذا دفع الخمس أو الزكاة بقصـد الرشوة أو السـمعة والریاء، فإن ذلک كلّه لیس من العبادة، وإن كانت هیئته هیئة عبادیة، ولیس ذلک إلّالكونه خارجاً عن إطار

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۷۴

الأوامر الإلهیة.

ولـذا كـان امتثـال الأـمر الإلهی بالسـجود أو الركوع إلی الكعبـة والاعتكاف فی المسـجد والوقوف بعرفـة والسـعی بین الصـفا والمروة والازدلاف إلی منی والطواف حول البیت الحرام لیس عبادة للكعبـة أو المسـجد أو عرفـة أو غیرها، وإنما إضافة تلک الهیئات العبادیة إلیها إضافة امتثال وطاعة وتوسّل وتوجّه إلی اللَّه تعالی انقیاداً لأمره، ولا یعنی ذلک صنمیة أو عبادة لتلک البقاع الطاهرة؛ إذ مع وجود الأـمر الإلـهی یكون الامتثـال انقهـاراً واستسـلاماً من العبـد لربّه، ولاـ یمكن أن تكون عبادته عبادة لغیر اللَّه تعالی، بل قـد تكون أفعال ونسـک الحـج والصـلاة إلی الكعبـة شـركاً، كما كان فی عهـد الجاهلیـة قبل الإسـلام، وتكون توحیـداً إذا كانت بولایـة ولی اللَّه وهو الرسول كما فی أفعال الحج بعد الإسـلام، فالسجود والخضوع لمن أمر اللَّه عزّ وجلّ بالخضوع له طاعة للَّهبالأصالة، ولیس المسجود له إلّاواسطة فی العبادة، وآیة فی المعرفة والانقیاد.

۳- الآیات البینات فی المسجد الحرام ...: ص: ۷۴

اشارة

قـال تعالی: «إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَ مُبَارَكًا وَهُـدًی لِلْعَالَمِینَ* فِیهِ آیَاتٌ بَیِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِیمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعَالَمِینَ» «۱»

، فالآیـة تتحدّث عن بناء البیت الحرام وأنه أوّل بیت وأشـرف بیت وضع للناس لأجل عبادة اللَّه تعالی، فهو إمام المساجد وأوّلها، ومنه تتشعّب بقیّة بیوت اللَّه تعالی، التی وضعت للعبادة، ففی

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۷۵

الآیة الكریمة مزج بین حقیقتین:

الأولی: أن البیت الحرام هو أوّل بیت وضع للعبادة وللحجّ.

الثانیة: ما یحویه هذا البیت المبارک من آیات بیّنات، وهی مقام إبراهیم ومن دخله كان آمناً.

فعنـدما أراد اللَّه تعـالی أن یبیّن حقیقـة بیته المبـارک وأنه وضع للعبادة والتوحیـد والتطهیر من الشـرک والهدایـة للعالمین، ذكر سـبب ذلک، وهو أنه فیه آیات بیّنات.

إذن الركن الركین فی ماهیـة البیت الإلهی وفی كونه هدایـة للعالمین ومحلّاً للعبادة والتوحیـد ونفی الشـرک هو كونه فیه آیات بیّنات، فالـذی یُعظّم شأنه ویجعل العبادة فیه عبادة توحیدیـة توفّره علی تلک الآیات البیّنات، والعطف فی الآیة المباركة عطف بیان، فالآیات المقصودة فی الآیـة المباركـة هی مقـام إبراهیم علیه السـلام أوّلًا، ومن دخله كان آمناً ثانیاً، وهاتان الآیتان فی البیت الحرام ذُكرا علی سبیل التمثیل لا الحصر؛ ولذا جاء التعبیر فی الآیة بلفظ الجمع وهو (آیات بیّنات).

فالبیت الـذی وضع للناس من أجل العبادة والهـدی ونفی الشـرک میزته التی جعلته كـذلک هی أنه فیه آیات بیّنات، والحجّ الذی هو شرعـاً القصـد إلی بیت اللَّه الحرام للوفود علی اللَّه تعـالی جُعل مقروناً بالآیات، وهی مقامات الأنبیاء وقبورهم ومناسـكهم؛ لیكون دلیلًا وشاهداً علی أن التوجّه والسیر إلی اللَّه عزّ وجلّ لا یتمّ إلّابالتوجّه بأنبیائه وأصفیائه والتوسّل بهم إلی اللَّه تعالی.

فلا ينفكّ توحيد اللّه وعبادته عن التمسّك بالآيات البيّنات، كما مرّ ذلك فى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۷۶

سورة الأعراف، وهو قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ» «۱»

، حيث ربطت بين التمسّك بالآيات وبين استجابة الدعاء والتقرّب وقبول الأعمال والنجاة من النار.

وفيما يلى نحاول استعراض بعض هذه الآيات البيّنات الموجودة فى البيت الحرام، وهى:

۱- مقام إبراهيم عليه السلام.

۲- الأمن والأمان بالنسبة إلى داخليه من الحجّاج والمعتمرين وغيرهم.

۳- المستجار أو الملتزم.

۴- حجر إسماعيل وقبره وقبر امه وقبر سبعين نبىّ.

۵- الصفا والمروة.

۶- الحجر الأسود.

۷- مشاعر الحجّ ومناسكه، كالمزدلفة ومنى والجمرات وعرفة.

مقام إبراهيم ...: ص: ۷۶

هذه الآية الإلهية من أبرز معالم وآيات المسجد الحرام، وقد نصّت على ذلك الآية التى هى محلّ البحث، وقد ورد فى سورة البقرة أيضاً قوله تعالى:

«وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۷۷

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» «۱»

، والتعبير ب (مقام) فى كلا الآيتين للدلالة على التفخيم والتعظيم لذلك المكان وهو حجر من الأحجار كما فى قوله تعالى: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ» «۲»

وقوله تعالى:

«عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا» «۳»

، وليس ذلك إلّالكونه لامس بدن إبراهيم عليه السلام، حيث كان يقف عليه عند بنائه للبيت الشريف.

فهذا الحجر عظّمه اللّه تعالى وفخّمه وسمّاه مقاماً، وأمرنا أن نتّخذه مصلّى، أى نتّخذه قبلة بالاتجاه إليه وإلى الكعبة أثناء صلاة الطواف وغيرها فى شعيرة الحجّ والعمرة، التى هى القصد والتوجّه إلى اللّه عزّ وجلّ، فالحاج عندما يريد أن يقصد ويتوجّه إلى ربّه بعمرة أو حجّ فى الطواف وفى بيت التوحيد ومعقله، لابدّ له من التوجّه بالحجج والوسائط والآيات إلى اللّه تعالى، وهو مقام إبراهيم والكعبة المشرّفة، وليس ذلك كلّه إلّالتبرّك الحجر بملامسة بدن إبراهيم عليه السلام، فيتوجّه به إلى اللّه فى الصلاة، فلا يستطيع المسلم أن يتجنّب أو يستبعد آيات اللّه وحججه فى أبرز معالم التوحيد وهو الحجّ.

وإذا كان الحجر بملامسته بدن إبراهيم عليه السلام هذه حاله، فكيف بك بنفس النبىّ إبراهيم؟ ألا يتوجّه به إلى اللّه عزّ وجلّ بالأولوية، فيقال: يا وجيهاً عند اللّه اشفع

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۷۸

لنا عند اللَّه؟!

وقد جاء فى دعاء الندبة ما يقرب من هذه المضامين.

والحاصل: إن هناك رمزاً آخر بالاضافة إلى رمزية الكعبة، لابدّ من التوجّه إليه واستقباله فى الصلاة، ومن لم يصلِّ صلاة الطواف إلى‌المقام والكعبة معاً فصلاته باطلة، وبالتالى يكون نُسكه باطلًا وقصده إلى البارى تعالى لم يتحقّق، لعدم إتيان البيوت من أبوابها.

بيان آخر للآية الكريمة ...: ص: ۷۸

ثبت فى علم الأصول أن الحكم معلول لموضوع نفسه ولا يمكن أن يكون علّة له، ففرض الموضوع سابق ومتقدّم على فرض الحكم، والحكم فى قوله تعالى، «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» هو وجوب اتخاذ المقام مصلّى، والموضوع هو مقام إبراهيم عليه السلام، ومتعلّق الحكم هو استقبال مقام إبراهيم عليه السلام فى الصلاة.

وحيث أن الموضوع سابق على الحكم سبق العلّة على معلولها، فلابدّ من فرض المفروغية عن جعل سابق لتحقّق الموضوع فى نفسه، وهو كون مقام إبراهيم عليه السلام محلّ للقربات والتعبّد والبركة والقداسة، وحينئذٍ وبعد الفرغ عن ذلك يأتى المحمول، وهو وجوب اتخاذه مصلّى باستقباله فى الصلاة إلى جهة الكعبة.

فالحكم دالّ على أن للموضوع أسبقية فى القداسة وكونه معلماً من معالم الدين، وليس المقام المذكور إلّاصخرة لامست قدمى إبراهيم عليه السلام فتقدّست بذلك وأصبحت ذات حرمة يتولّد منها وجوب اتخاذه مصلّى، بأن يجعل قبلة مع الكعبة، فيستقبل فى صلاة الحجّ والطواف فى بيت اللَّه الحرام، ويتقرّب بالاتجاه به إلى اللَّه تعالى.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۷۹

فالمثابة إلى بيت اللَّه الحرام من دون اتخاذ مقام إبراهيم مصلّى يكون وثناً وشركاً كعمل المشركين ومناسكهم.

ومن ذلك يتّضح أن البيت الحرام إنما يجب أن يقصد بشرط، وهو أن تُقرن العبادة التوحيدية للحجّ بولىّ اللَّه إبراهيم عليه السلام، والمقامات المقدّسة والمشاهد المشرّفة، التى حلّ فيها أو لامست بدنه المبارك، فالمسلم يقصد فى حجّه إلى اللَّه عزّ وجلّ الوصول إلى آثار الأنبياء ومقاماتهم؛ لكونها مواطن شعّرها اللَّه عزّ وجلّ وجعلها أسباباً ووسائط لنيل القربى والزلفى إليه تعالى.

وإذا كانت صخرة لامست قدمى إبراهيم عليه السلام لها تلك القداسة والعظمة والبركة، فكيف بك بمشاهد النبىّ الأعظم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام، الذين هم أفضل وأعظم من إبراهيم وجميع الأنبياء عليهم السلام، حيث نصّ القرآن على كون على عليه السلام بمنزلة نفس النبى صلى الله عليه و آله، وهذا مقام لم يحظَ به أحد من الأنبياء والمرسلين، وكذلك قرنهم اللَّه تعالى بنبيّه فى مواطن عديدة كما سيأتى بيانه، إختصهم بذلك دون بقية الأنبياء والمرسلين، كما نعتهم بأنهم أوتوا علم الكتاب كلّه فى قوله:

«لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» «۱»

وهم أهل آية التطهير، وكذا ما فى قوله تعالى:

«قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» «۲»

بينما لم يثبت اللَّه تعالى علم الكتاب كلّه لأحد من الأنبياء، ففى النبى عيسى عليه السلام قال تعالى على لسانه: «وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» «۳»

وفى شأن النبى موسى عليه السلام:

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۸۰

«وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً» «۱»
فلم يكن من مقامهما عليهما السلام أن يبيّنا كلّ ما يختلف فيه بنى إسرائيل ولم يكتب فى ألواح موسى عليه السلام كلّ شيء، بل من كل شيء؟! وعلى هذا كلّه ألا تكون مشاهدهم والأماكن التى حلّوا فيها محلّاً للبركة والقداسة وموجبة للزلفى إلى اللَّه عزّ وجلّ؟!
إذن هذه الآية المباركة تفيد عموم التبرّك بمواضع الأنبياء والأولياء وأنه من صميم التوحيد ونبذه من صميم الوثنية والجاهلية.
وليس ذلك إلّالكونها من شعائر اللَّه، فيجب تعظيمها تعظيماً للَّهتعالى، فهذه الآية الكريمة دالّة بالنصّ على تشعير مواطن الأنبياء والمصطفين للقربى والعبادة.
ثم إنه لا يخفى ما فى التعبير ب (المقام) فى الآية المباركة من الدلالة على ما تقدّم؛ لأن التعبير ب (مقام) له دلالة شرعية أديانية بكون ذلك المكان محلّاً يتبرّك به.
وهكذا إضافة المقام إلى إبراهيم مُشعر بالعليّة، فليس ذلك الحكم حكماً لكلّ حجر، بل الحجر المنتسب إلى إبراهيم عليه السلام.
بل قد حكى القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء أن مقام إبراهيم الحج كلّه، وعن عطاء أنه عرفة ومزدلفة والجمار وقاله الشعبى، النخعى: الحرم كلّه مقام إبراهيم، وقاله مجاهد «۲»، فعلى هذه الأقوال فى تفسير
الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۸۱
مقام إبراهيم يتّضح جليّاً أن الحج والحرم كلّه قد مُلأ ببصمات وإضافات منتسبة إلى النبى إبراهيم عليه السلام وأنه لأجل ذلك استأهلت تلك الأماكن أن تكون مواطن لعبادة اللَّه، وأن الحج جعل عبادة توحيدية عظيمة بوسيلة التوجه بأنبياء اللَّه فى الأعمال والنسك التى يؤتى بها، حيث أضيفت إليهم عليهم السلام، وسيأتى مزيد من الإيضاح لذلك فى بقية مقامات الحج.
ولأجل ذلك كلّه ورد الحثّ عن أهل البيت عليهم السلام لأصحابهم بالتواجد فى الأماكن التى شهدها النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وتشرّفت بحلوله صلى الله عليه و آله فيها.
من ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال لعبد الأعلى: «إذا مررت بوادى محسّر فاسعَ فيه، فإن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سعى فيه» «۱».
وعن عقبة بن خالد قال: سألت أبا عبد اللَّه عليه السلام إنا نأتى المساجد التى حول المدينة فبأيها أبدأ؟ فقال: «ابدأ بقبا فصلِّ فيه وأكثر، فإنه أوّل مسجد صلّى فيه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى هذه العرصة، ثم إئت مشربة أم إبراهيم فصلِّ فيها، فإنها مسكن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ومصلّاه» «۲».
كذلك عن أبى عبد اللَّه عليه السلام قال لمعاوية بن عمّار: «لا تدع إتيان المشاهد كلّها، مسجد قبا فإنه المسجد الذى أسّس على التقوى من أوّل يوم، ومشربة أمّ إبراهيم، ومسجد فضيخ، وقبور الشهداء ومسجد الأحزاب وهو مسجد الفتح» «۳».
والروايات فى هذا المجال كثيرة جدّاً نكتفى منها بهذا المقدار.
هذه هى الآية الأولى من الآيات البيّنات فى المسجد الحرام.
الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۸۲

حجر إسماعيل ...: ص: ۸۲

لقد ورد فى الروايات أن حجر إسماعيل يضمّ قبره وقبر أمه هاجر وقبر سبعين نبيّاً أو تسعة وتسعين.
ففى الكافى عن معاوية بن عمّار قال: «سألت أبا عبد اللَّه عليه السلام عن الحجر أمن البيت هو أو فيه شيء من البيت؟ فقال: لا ولا قُلامة ظفر، ولكن إسماعيل دفن أمه فيه فكره أن توطأ، فحجّر عليه حجراً، وفيه قبور أنبياء» «۱».

وقال السيوطى فى الدرّ المنثور: (وتوفّى إسماعيل بعد أبيه فدفن داخل الحجر مما يلى الكعبة مع امه هاجر) «۲».

وأخرج القرطبى فى تفسيره، عن عبد اللّه بن ضمرة السلولى: (ما بين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيّاً) «۳».

وفى الطبقات لابن سعد، عن أسامة بن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: (لما بلغ إسماعيل عشرين سنة توفيت أمه هاجر وهى ابنة تسعين سنة فدفنها إسماعيل فى الحجر) «۴».

وأخرج أيضاً عن أبى جهم بن حذيفة بن غانم قال: (أوحى اللّه على إبراهيم عليه السلام أن يبنى البيت وهو يومئذٍ ابن مائة سنة وإسماعيل يومئذٍ ابن ثلاثين سنة فبناه معه، وتوفّى إسماعيل بعد أبيه فدفن داخل الحجر مما يلى الكعبة مع

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۸۳

أمه هاجر) «۱».

وفى كتاب فضائل مكّة للحسن البصرى، عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «إن حول الكعبة قبر ثلثمائة نبىّ، وما بين الركن اليمانى والركن الأسود قبر سبعين نبيّاً» «۲».

ثم إن من طاف حول الكعبة بإخراج حجر أسماعيل فطوافه باطل، وقد نصّ على ذلك الفقهاء من الفريقين، أما فقهاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام فهو واضح، وقد صرّحت بذلك روايات أهل البيت عليهم السلام، وأما فقهاء أهل سنّة الجماعة، فقد صرّحوا بهذه الحقيقة أيضاً، ففى مواهب الجليل للرعينى، قال: (وقال ابن مسدى فى منسكه: وأما قولنا ويطوف من وراء حجر إسماعيل فهو الاجماع، ثم اختلفوا، فقال أصحاب الرأى: يطوف من وراء الحجر استحباباً، وقال جمهور العلماء بالوجوب إلى أن قال- ثم اتفقوا على أن من طاف ببناء البيت الظاهر ولم يُدخل الحجر فى طوافه أنه يعيد الطواف ما دام بمكّة، ثم اختلفوا، فقال أبو حنيفة ومن تبعه: يعيد استحباباً، وقال جمهور العلماء: يعيد وجوباً؛ لأنه كمن لم يطف، فإن لم يذكر حتى انصرف إلى بلاده، فقال ابن عباس: هو كمن لم يطف، وإليه ذهب مالك والشافعى وأبو ثور وأحمد بن حنبل وإسحاق وداود وغيرهم من أهل العلم، وقالوا: عليه أن يرجع من حيث كان، يطوف من وراء الحجر) «۳».

وقال الشافعى: (وإكمال الطواف بالبيت من وراء الحجر ووراء شاذروان

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۸۴

الكعبة، فإن طاف بالبيت وجعل طريقه من بطن الحجر أعاد) «۱».

وعن ابن عباس: (من طاف بالبيت فليطف من وراء الحجر) «۲».

وليس ذلك إلّالكون الحجر من تلك الآيات التى عرّف اللّه عزّ وجلّ بيته المبارك بها، والطواف فيه نوع من المدارية والمحورية للكعبة الشريفة، فحينما يتمحور الحاج ويدور ويطوف حول الكعبة التى تشرّفت بحجج اللّه وآياته، فإن ذلك معناه أن تلك الآيات هى الأبواب إلى اللّه عزّ وجلّ وبها يعبد ويقصد ويتوجّه إليه.

فإسماعيل وهو نبىّ من الأنبياء على ملّة أبيه إبراهيم حنيفاً مسلماً، ويعلم أن الكعبة أوّل بيت وضع للناس كافّة ولجميع الأجيال مناراً للعبادة والطهارة والتوحيد، مع ذلك قام ببناء قبر لأمّه، وهى وليّة من الأولياء، مع سبعين نبياً من الأنبياء، وجعل الطواف كما هو طواف بالكعبة طواف بقبر أمه وكذا قبره وقبر سبعين أو أكثر من الأنبياء.

والقرآن يأتى بعد ذلك ويقرّ هذه الحقيقة ويجعلها من الأمور التربوية للمسلمين، فيقول إن هذا البيت معرفته وشرفه أنه فيه آيات بيّنات، هى قبور الأنبياء والأولياء.

ففى تشريع الملّة الحنيفية أن قبور الأنبياء تقصد ويتوجّه إليها ويطاف بها، وهذا من التوحيد التام، لا سيما وأن اللّه عزّ وجلّ أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهير

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۸۵

البيت من الشرك والمشركين، قال تعالى: «وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» «۱»
ومن تشريعات الملّة الحنيفية، التى توجب الطهارة من الشرك والتشرف بمعالم التوحيد ويكون ذلك البيت أعظم وأطهر مسجد فى الأرض يُعبد فيه اللّه تعالى، هى الآيات البيّنات، قبر إسماعيل وهاجر وعدد كبير من الأنبياء، ويكون الطواف كما هو طواف بالكعبة طواف بالقبور والآيات، التى بها كان البيت طاهراً من الشرك ومباركاً وهدى للعالمين.
إذن الطواف الذى هو صلاة لابدّ أن يتوجّه فيه إلى القبور، ولابدّ من الدخول إلى البيت من أبوابه وإلّا كان الطواف باطلًا، ولم يكن البيت هدى للعالمين، هذه هى الملّة الحنيفية.

المستجار أو الملتزم ...: ص: ۸۵

هذه هى الآية الثالثة من آيات المسجد الحرام، وهذه الآية الإلهية فى نفس جدار الكعبة مما يقرب من الركن اليمانى ويقابل من جهته الأخرى باب الكعبة، الذى يقرب من الحجر الأسود، وفى نصوص الفريقين يستحب التزام الكعبة وأن يستجير الداعى باللّه تعالى فى ذلك المكان.
أما الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام فهى كثيرة جدّاً:
فعن معاوية بن عمّار قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام: «إذا فرغت من طوافك وبلغت مؤخّر الكعبة وهو بحذاء المستجار دون الركن اليمانى بقليل فابسط يديك وألصق بدنك وخدّك البيت، وقل: اللّهمّ البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مكان

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۸۶

العائذ بك من النار، ثم أقرّ لربّك بما عملت، فإنه ليس من عبد مؤمن يقرّ لربّه بذنوبه فى هذا المكان إلّاغفر اللّه له إن شاء اللّه» «۱».
كذلك عنه عن أبى عبد اللّه عليه السلام قال: «لما طاف آدم بالبيت وانتهى إلى الملتزم، قال له جبرئيل: يا آدم أقرّ لربّك بذنوبك فى هذا المكان- إلى أن قال- فأوحى اللّه إليه يا آدم قد غفرت لك ذنبك، قال: يا ربّ ولولدى أو لذريتى، فأوحى اللّه عزّ وجلّ إليه: يا آدم من جاء من ذريتك إلى هذا المكان وأقرّ بذنوبه وتاب كما تبت ثم استغفر غفرت له» «۲».
وغيرها من الروايات فى هذا المجال.
وقال الشربينى فى مغنى المحتاج: (الدعاء يستحبّ فى خمسة عشر موضعاً بمكة: فى الطواف، والملتزم، وتحت الميزاب، وفى البيت، وعند زمزم، وعلى الصفا والمروة، وفى السعى، وخلف المقام، وفى عرفات، ومزدلفة، ومنى، وعند الجمرات الثلاث) «۳».
وفى حواشى الشروانى، أخرج ذلك عن الحسن البصرى «۴».
والمضمون ذاته جاء فى مواهب الجليل للحطّاب الرعينى «۵».
وقال الشافعى: (وأُحبّ له إذا ودّع البيت أن يقف فى الملتزم، وهو بين الركن والباب، فيقول: اللّهمّ إن البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمتك،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۸۷

حملتنى على ما سخّرت لى من خلقك، حتى سيّرتنى فى بلادك وبلّغتنى بنعمتك، حتى أعنتنى على قضاء مناسكك، فإن كنت رضيت عنّى فازدد عنّى رضاً، وإلّا فمن الآن قبل أن تنأى عن بيتك دارى) «۱»، وقال النووى بعد ذكره لهذا الدعاء: (واتفق الأصحاب على استحبابه) «۲».
وقال النووى أيضاً عندما ذكر الملتزم: (سمّى بذلك لأن الناس يلزمونه عند الدعاء) «۳».
وقال أيضاً: (قال القاضى أبو الطيّب فى تعليقه: قال الشافعى فى مختصر كتاب الحجّ: إذا طاف للوداع استحبّ أن يأتى الملتزم فيلصق

بطنه وصدره بحائط البيت ويبسط يديه على الجدار، فيجعل اليمنى مما يلى الباب واليسرى مما يلى الحجر الأسود، ويدعو بما أحب من أمر الدنيا والآخرة إلى أن قال وعن ابن عباس: أنه كان يلتزم ما بين الركن والباب، وكان يقول ما بين الركن والباب يُدعى الملتزم، لا يلزم ما بينهما أحد يسأل اللّه عزّ وجلّ شيئاً إلّاأعطاه إيّاه) «۴».

وأخرج البيهقى فى سننه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه: (رأيت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يُلزق وجهه وصدره بالملتزم) «۵».

وكذا أخرج الطبرانى عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه و آله قال: «ما بين الركن والمقام

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۸۸

ملتزم ما يدعو به صاحب عاهة إلّابرأ» «۱».

فالمستجار والملتزم معلم من معالم الطواف والكعبة، وهو الموضع الذى انشقّ الجدار منه لفاطمة بنت أسد رضوان اللّه عليها، عندما أخذها الطلق بسيّد الأوصياء عليه السلام، حيث استجارت بالكعبة الشريفة من ذلك الموضع، فانشقّ لها الجدار ودخلت الكعبة وولدت أمير المؤمنين عليه السلام فيها، كما نصّت على هذه الملحمة التأريخية كتب الحديث والسير والتواريخ من الفريقين:

أخرج الصدوق فى علل الشرائع بسنده عن سعيد بن جبير قال: (قال يزيد بن قعنب كنت جالساً مع العباس بن عبد المطلب وفريق من عبد العزّى بإزاء البيت الحرام، إذ أقبلت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام وكانت حاملة به تسعة أشهر، وقد أخذها الطّلق، فقالت: ربّ إنى مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإنى مصدّقة بكلام جدّى إبراهيم الخليل عليه السلام وإنه بنى البيت العتيق، فبحقّ الذى بنى هذا البيت وبحقّ المولود الذى فى بطنى لما يسّرت علىّ ولادتى، قال يزيد بن قعنب فرأينا البيت وقد انفتح عن ظهره، ودخلت فاطمة وغابت عن أبصارنا والتزق الحائط، فرمنا أن ينفتح لنا قفل الباب فلم ينفتح، فعلمنا أن ذلك أمر من اللّه تعالى، ثم خرجت بعد الرابع وبيدها أمير المؤمنين عليه السلام إلى آخر القصة-) «۲».

وقال الحاكم النيسابورى فى مستدركه: (تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۸۹

ولدت أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم اللّه وجهه فى جوف الكعبة) «۱».

وقال ابن الصباغ المالكى: (ولد علىّ عليه السلام بمكة المشرّفة بداخل البيت الحرام إلى أن قال: ولم يولد فى البيت الحرام قبله أحد سواه، وهى فضيلة خصّه اللّه تعالى بها إجلالًا له وإعلاءً لمرتبته وإظهاراً لتكرمته) «۲».

وهذه آية آخرى وشعيرة أخرى من شعائر البيت الحرام، حيث يتأسّى الطائف ويتوسل ويتبرّك بموضع له صلة بأمير المؤمنين وأمه فاطمة بنت أسد، من أجل قبول الدعاء وغفران الذنوب.

السعى بين الصفا والمروة ...: ص: ۸۹

قال اللّه عزّ وجلّ: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» «۳»

، والصفا والمروة محلّ هبوط آدم وحوّاء ولبركة هبوطهما جُعلا من شعائر اللّه وآياته، وسمّيا بهذين الاسمين، لهبوط آدم وحوّاء عليهما، حيث ورد فى الروايات أن آدم لما نزل على الصفا وهو صفىّ اللّه تعالى سُمّى الصفا، ولما نزلت حوّاء على المروة سُمّيت مروة؛ لأنها مرأة فاشتقّ منها مروة.

وأما فى تشريع السعى بين الصفا والمروة فورد أن هاجر سعت بين الصفا والمروة لاستطلاع وجود الماء سبع مرات فشرّع كذلك.

وإليك بعض تلك الروايات:

عن أبی عبد اللَّه الصادق علیه السلام قال: «إن آدم علیه السلام لما هبط إلی الأرض أَهبط علی

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۹۰

الصفا ولذلک سُمّی الصفا؛ لأن المصطفی هبط علیه، فقطع للجبل اسم من اسم آدم، یقول اللَّه عزّ وجلّ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَی آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِیمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَی الْعَالَمِینَ» «۱»

، وأُهبطت حوّاء علی المروهٔ، وإنما سُمّیت المروهٔ لأن المرأهٔ هبطت علیها، فقطع للجبل اسم من اسم المرأهٔ، وهما جبلان عن یمین الکعبهٔ وشمالها» «۲».

کذلک عن أبی عبد اللَّه علیه السلام قال: «إن إبراهیم علیه السلام لما خلّف إسماعیل بمکّهٔ عطش الصبی، وکان فیما بین الصفا والمروهٔ شجر، فخرجت امه حتی قامت علی الصفا، فقالت: هل بالوادی من أنیس؟ فلم یجبها أحد، فمضت حتی انتهت إلی المروهٔ، فقالت: هل بالوادی من أنیس؟ فلم یجبها أحد، ثم رجعت إلی الصفا، فقالت کذلک حتی صنعت ذلک سبعاً فأجری اللَّه ذلک سنّهٔ» «۳».

وعن ابن عباس فی حدیثه عن هاجر أم اسماعیل قال: (ثم جاء بها إبراهیم علیه السلام وبابنها إسماعیل وهی ترضعه، حتی وضعهما عند البیت ولیس بمکّهٔ یومئذٍ أحد ولیس بها ماء، فوضعهما هنالک ووضع عندهما جراباً فیه تمر وسقاء فیه ماء، ثم قفی إبراهیم منطلقاً إلی أن قال:

فجعلت أم إسماعیل ترضع إسماعیل وتشرب من ذلک الماء، حتی إذا نفذ ما فی السقاء عطشت وعطش ابنها وجاع، وجعلت تنظر إلیه یتلوّی أو قال: یتلبّط فانطلقت کراهیهٔ أن تنظر إلیه، فوجدت الصفا أقرب جبل فی الأرض یلیها، فقامت علیه ثم استقبلت الوادی تنظر هل تری أحداً، فهبطت من الصفا حتی إذا

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۹۱

بلغت الوادی رفعت طرف درعها، ثم سعت سعی الانسان المجهود، حتی جاوزت الوادی، ثم أتت المروهٔ فقامت علیها فنظرت هل تری أحداً فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلک سبع مرات، قال النبیّ صلی الله علیه و آله: فلذلک سعی الناس بینهما) «۱».

إذاً بسبب الأنبیاء والأصفیاء والأولیاء، کآدم وإسماعیل وحوّاء وهاجر جعل منسک السعی بین الصفا والمروهٔ من مناسک الحجّ والتوحید.

والباری تعالی عبّر عن هذه الآیهٔ بأنها من شعائر اللَّه، وهو ذات التعبیر بکونها آیات بیّنات، أی محلّ هدایهٔ للعالمین وآیهٔ وعلامهٔ وشعیرهٔ بیّنهٔ من معالم التوحید.

فالمسجد الحرام والبیت الشریف بورک به وکانت له تلک المنزلهٔ الرفیعهٔ؛ لما حلّ فیه من الوسائل والوسائط والآیات والشعائر الهادیهٔ إلی التوحید، وهم الأنبیاء والأصفیاء ومقاماتهم، التی أصبحت أقرب الوسائل إلی اللَّه عزّ وجلّ ببرکتهم؛ لکونهم کلمات اللَّه وأسمائه التی یتوجّه بها إلیه عزّ وجلّ.

بئر زمزم ...: ص: ۹۱

من الأمور التی سنّها اللَّه عزّ وجلّ بعد طواف الحجّ الشرب من ماء زمزم، الذی نبع ببرکهٔ هاجر وإسماعیل علیه السلام، فأصبح من أعمال الحجّ الندبیهٔ.

فهو من توابع البیت الحرام وآیهٔ من آیاته؛ لما له من الصلهٔ بهاجر وإسماعیل.

أخرج البخاری عن ابن عباس فی معرض حدیثه عن هاجر أمّ إسماعیل:

(فإذا هی بالملک عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه- حتی ظهر

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۹۲

الماء فجعلت تحوضه، وتقول بیدها هکذا، وجعلت تغرف من الماء فی سقائها عیناً معنیاً، قال: فشربت وأرضعت ولدها) «۱».

وأما من طرقنا فقد أخرج القمی فی تفسیره، أن هاجر لما سعت سبعة أشواط: (فلمّا کان فی الشوط السابع وهی علی المروة نظرت إلی إسماعیل وقد ظهر الماء من تحت رجله، فعادت حتی جمعت حوله رملًا، فإنه کان سائلًا فزمّته بما جعلته حوله؛ فلذلک سُمّیت «زمزم») «۲».

أعمال الحجّ ومناسکه ...: ص: ۹۲

لا ریب أن من لاحظ روایات الفریقین یجدها متّفقة علی أن أعمال الحجّ کلّها لها صلة وثیقة فی تشریعها بأنبیاء اللَّه ورسله، فسُمّیت عرفة بهذا الإسم لاعتراف النبیّ آدم وإبراهیم علیه السلام بذنوبهما «۳»، وما یأتی به الحجّاج فی یوم عرفة تأسّیاً بما جاء به الأنبیاء، کآدم وإبراهیم علیه السلام، وکذا سمّیت المزدلفة بذلک؛ لأن آدم وإبراهیم ازدلفا من عرفات لیقترّبا إلی البیت الحرام ویکون ذلک قُرباً حسّیاً کنایة عن القرب المعنوی، ومنی أیضاً سُمّیت بهذا الاسم، إما لدعاء آدم وإبراهیم علیهما السلام وطلبهما لما یأملان، أو لأجل طلبهما التطهّر من الأمانی الباطلة،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۹۳

کذلک الجمرات جعلت منسکاً لرمی آدم وإبراهیم علیهما السلام الشیطان فی تلک المواضع.

إذن الحجّ بکلّ أجزائه ومناسکه ومواطنه متعلّق ومتلوّن بأفعال الأنبیاء والأولیاء وأسمائهم، فهم أبواب بیت اللَّه وآیاته البیّنات وشعائره الباسقات، فإذا أراد الحاج والموحّد أن یسلک السبیل إلی اللَّه عزّوجلّ لابدّ أن یسلک ما سلکه أنبیاء اللَّه ورسله ویحاذی فی فعله سیرهم وسلوکهم، ویتوسل إلی اللَّه عزّ وجلّ فی تلک المواضع التی سُمّیت بأسماءالأنبیاء وأفعالهم، تذکیراًبهم وإحیاءاً لأمرهم وتأکیداً علی أن القصد والتوجّه إلی اللَّه عزّ وجلّ لا یُسلک إلّا بحجج اللَّه ورسله.

والحاصل: أن الحجّ بمجموعه آیة بیّنة علی أن العبد لا یمکنه أن یفد علی اللَّه تعالی إلّابالتوسل بذوات الأنبیاء وأفعالهم وما یتصل بهم؛ لکونهم شعائر اللَّه وأبوابه، التی لا سبیل للقصد إلی اللَّه عزّ وجلّ إلّابها.

فائدة ...: ص: ۹۳

مما ذکرنا سابقاً من ضرورة التمسّک بالآیات والحجج، لحصول البرکة والطهارة والهدایة والوفود علی اللَّه تعالی، یظهر المعنی المراد من الروایات، التی نصّت علی أن زیارة النبیّ صلی الله علیه و آله وزیارة المعصوم والإقرار بالولایة له بعد إتمام مناسک الحجّ هی الطهارة العظمی، وأن قضاء التفث له معنی تأویلی غیر المعنی التنزیلی هو لقاء الإمام المفروض الطاعة والإقرار له بالولایة، وذلک لأنه باب اللَّه الذی منه یؤتی والآیة البیّنة التی لا یقبل عمل إلّابالتوسل بها.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۹۴

أخرج الصدوق بسنده عن عبد اللَّه بن سنان عن ذریح المحاربی، قال: «قلت لأبی عبد اللَّه علیه السلام: إن اللَّه أمرنی فی کتابه بأمر فأحبّ أن أعلمه، قال علیه السلام: وما ذاک؟ قلت: قول اللَّه عزّ وجلّ: «ثُمَّ لْیَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْیُوفُوا نُذُورَهُمْ» «۱»

قال: «لْیَقْضُوا تَفَثَهُمْ» لقاء الإمام «وَلْیُوفُوا نُذُورَهُمْ» تلک المناسک» «۲».

قال عبد اللَّه بن سنان: «فأتيت أبا عبد اللَّه عليه السلام فقلت: جعلت فداك قول اللَّه عزّ وجلّ: «ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ»؟ قال عليه السلام: أخذ الشارب وقص الأظفار وما أشبه ذلك، قال: قلت: جعلت فداك فإن ذريحاً المحاربى حدّثنى عنك أنك قلت له: «ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ» لقاء الإمام «وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ» تلك المناسك؟ فقال: صدق ذريح، وصدقت، إن للقرآن ظاهراً وباطناً، ومن يحتمل ما يحتمل ذريح؟» «۳».

فلابدّ من الورود على الإمام المعصوم المفروض الطاعة، للطهارة من الشرك والهداية إلى التوحيد.

۴- التوجّه إلى القبلة طاعة للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ...: ص: ۹۴

قال تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ» «۴».

فإن هذه الآية المباركة صريحة فى أن استقبال الكعبة المكرمة أو بيت

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۹۵

المقدس، لم يكن الغرض منه نفس بيت المقدس أو الكعبة بما هى، بل من أجل استعلام الطوعانية والانصياع إلى سيّد الرسل صلى الله عليه و آله، وهى بدورها تؤدّى إلى طاعة اللَّه تعالى.

إذن لابدّ من توسيط ولاية النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وطاعته فى قبول العبادة، والاستكبار عليه وعدم الانصياع إلى أوامره بالاعتراض على القبلة التى يأمر بالتوجّه إليها فى العبادة اعتبرته الآية المباركة كفراً وارتداداً وانقلاباً على الأعقاب، كما فعلت ذلك قريش عندما اعترضت على النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله بجعله بيت المقدس قبلة يتوجّه إليها فى العبادة، واتهمته بأنه هوّد فتيان قريش.

۵- المودّة لذريّة إبراهيم ۷ من شرائط الحجّ وغاياته ...: ص: ۹۵

اشارة

قال تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ* رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» «۱».

هذه الآية المباركة من آيات الحجّ، التى تتعرّض لبيان ركن هامّ من أركان مناسك الحجّ أو العمرة.

بيان ذلك:

إن هذه الآيات القرآنية المباركة نصّت على أن إبراهيم عليه السلام جاء بذريّته

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۹۶

وأسكنها البيت الحرام بكلّ ما أحاط بذلك الإسكان من ملابسات وعناء ومشقّة ووحشة وغربة وجوع وعطش بلا أنيس أو كفيل لتلك الذريّة الطاهرة سوى اللَّه تعالى امتثالًا لأمر اللَّه عزّ وجلّ؛ لغايتين إلهيتين شريفتين، اقتضتهما الحكمة الإلهية من ذلك الإسكان، إحداهما غاية متوسّطة والأخرى غاية قصوى ونهائية تترتب على إسكان الذريّة إلى جنب المسجد الحرام:

الغاية الأولى: قول إبراهيم عليه السلام: «رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ»، والمراد من ذلك عمارة المسجد الحرام وتشييد معالم الدين وأركان

التوحيد، وذلك بإقامة الصلاة والطواف والسعى وبقيّة مناسک الحجّ وكافّة العبادات وجميع الشعائر الإلهية، والصلاة إنما ذكرت فی الآية المباركة مثالًا لهذه الغاية.

وحاصل هذه الغاية هو جعل المركزية للكعبة المشرّفة فی التوجّه إلی اللَّه تعالی لإقامة الدين ومناسک العبادة.

ولكن هذه الغاية غير كافية ولا مقبولة عند اللَّه عزّ وجلّ ما لم تتحقّق الغاية النهائية، التی أراد اللَّه تعالی تحقّقها من ذلک الإسكان.

الغاية الثانية: قول إبراهيم عليه السلام: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَيْهِمْ» «۱»

فإن الفاء فی قوله عليه السلام «فَاجْعَلْ» للتفريع، وذلک لبيان أن لعمارة المسجد الحرام وإقامة الصلاة والحجّ وشعائر الدين غاية أخرى لابدّ من تحقّقها، وهی أن تهوی القلوب تلک الذريّة الطاهرة، التی أسكنها عند المسجد الحرام.

إذن لابـدّ أن يكون التوجّه إلی اللَّه تعالی فی العبادات والشعائر الدينيـة بالكعبة المشرّفة، التی جعل إبراهيم عليه السلام لها المركزية والمحورية، بإسكان ذريّته فيها

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۹۷

لإقام الصلاة، وكذا بالذريّة الطاهرة عن طريق هوىّ القلب ومحبّتهم ومودّتهم والرجوع إليهم.

فالنـاس إذا توجّهوا إلی بيـت اللَّه الحرام وجعلوه قبلـة ومركزاً ومحـوراً فی مناسـكهم العباديـة، لابـدّ أن يتوجّهـوا أيضـاً إلی الـذريّة ويستعرضوا لهم المودّة والنصرة والطاعة والموالاة.

ومن ذلک يتضـح أن هـذه الآية المباركة من آيات المودّة فی القربی، ولا يمكن فصل هذه الآية الكريمة عن الآيات التی ترسم ماهية الحجّ، فغاية الحجّ ومركزية مكّة لمعالم الدين محبّة تلک الذريّة وولايتهم، والمحبّة والولاية من شـرائط الحجّ الغائية وكذا من شـرائط استقبال الكعبة وقبول العبادات، فالولاية ركن من معالم الدين.

وإن عزل الحج عن مبدأ الولاية والمودّة فی القربی يكون وثناً من الأوثان وشركاً من فعال الجاهلية.

والحاصل: إن الغايـة من إسـكان الذريّـة المباركـة فی البيت المحرم جعل المحورية والمركزية إلی مكّة المكرمة والذريّة الطاهرة، فلا صلاة ولا حجّ من دون التوجّه إلی الكعبة، ولا قيمة للتوجّه إلی الكعبة ما لم يعقبة الإزدلاف إلی الذريّة والمودّة فی القربی.

من هم الذريّة الذين تهواهم أفئدة الحجاج والطائفين والركّع السجود ...؟ ص: ۹۷

بعـد أن تبين من الآيـة المـذكورة أن مودّة وولاية الذريّة التی أسـكنها إبراهيم عند المسـجد الحرام ركن من أركان الدين وشـرط فی قبول العبادات، لابدّ من

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۹۸

التعرّف علی تلک الذريّة لكی يحرز الشخص دينه وعبادته بالتوجّه إليها ومودّتها.

وفی هذا المجال نقول:

إن هذه الذريّة من نسل إسـماعيل، وهی الأمة المسـلمة، التی جعلها اللَّه عزّ وجلّ كلمة باقية فی عقب إبراهيم وإسماعيل عليه السلام لا تشرک باللَّه عزّ وجلّ طرفة عين فی كلّ زمان.

قال تعالی: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَکَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّکَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» «۱»

، ولا شک أن هذه دعوة مستجابة من إبراهيم وإسـماعيل عليه السلام تكشف عن وجود بعض من ذريتهما وهی الأمة المسلمة بدرجة من الإسـلام والتسـليم التی نالها إبراهيم وإسماعيل، وهی ذرية باقية فی عقبهما لا تشرک باللَّه تعالی أبداً، معصومة لها الولاية والإمامة

على الناس؛ لأنها هى الذريّة الإبراهيمية التى طلب إبراهيم عليه السلام لها الإمامة، كما فى قوله تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» «۲».

وهذه الأمة المسلمة هى التى يُبعث فيها خاتم النبيين، الذى هو دعوة إبراهيم وإسماعيل، حيث قالا: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۹۹

أخرج ابن المغازلى فى كتابه المناقب، بإسناده إلى عبد اللّه بن مسعود، قال:

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «أنا دعوة أبى إبراهيم»، قلت: يا رسول اللّه وكيف صرت دعوة إبراهيم أبيك؟ قال: أوحى اللّه عزّ وجلّ إلى إبراهيم «إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» فاستخفّ إبراهيم الفرح، فقال: يا ربّ ومن ذريتى أئمة مثلى؟ فأوحى اللّه عزّ وجلّ إليه: أن يا إبراهيم إنى لا أُعطيك عهداً لا أفى لك به، قال: يا ربّ ما العهد الذى لا تفى لى به؟ قال: لا أعطيك عهداً لظالم من ذريتك، قال: يا ربّ ومن الظالم من ولدى الذى لا ينال عهدك؟ قال: من سجد لصنم من دونى لا أجعله إماماً أبداً ولا يصلح أن يكون إماماً، قال إبراهيم: «وَاجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ* رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ» «۱»

قال النبيّ صلى الله عليه و آله: فانتهت الدعوة إليّ وإلى أخى عليّ لم يسجد أحدنا لصنم قطّ، فاتخذنى اللّه نبيّاً واتخذ عليّاً وصيّاً» «۲».

وأخرج العياشى فى تفسيره عن أبى عمرو الزبيرى عن أبى عبد اللّه الصادق عليه السلام، قال: «قلت له: أخبرنى عن أمة محمّد عليه الصلاة والسلام مَن هم؟

قال: أمة محمّد بنو هاشم خاصّة، قلت: فما الحجّة فى أمّة محمّد أنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟

قال: قول اللّه: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» «۳»

، فلما أجاب اللّه إبراهيم

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۰۰

وإسماعيل وجعل من ذريّتهم أمة مسلمة وبعث فيها رسولًا منها، يعنى من تلك الأمة، يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ردف إبراهيم عليه السلام دعوته الأولى بدعوته الأخرى، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام ليصح أمره فيهم ولا- يتبعوا غيرهم، فقال: «وَاجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ* رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «۱»

، ففى هذه دلالة على أنه لا تكون الأئمة والأمة المسلمة التى بعث فيها محمّداً صلى الله عليه و آله إلّامن ذرية إبراهيم لقوله: «اجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»» «۲».

ولذا قال الإمام الباقر عليه السلام فى قوله تعالى: «إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ»: «نحن منهم، ونحن بقية تلك الذريّة» «۳».

ويشير إلى الذرية أيضاً قوله تعالى: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» «۴»

فهذه الأمة التى هى بعض من ذرية إبراهيم وإسماعيل التى بعث فيها خاتم النبيين وهم على صلة منه وقد سمّاهم النبى إبراهيم وإسماعيل قبل ولادتهم بالمسلمين.

والحاصل: إن الآيات والروايات تصرّح بأن ذريّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام طائفة خاصّة طهّرها اللّه عزّ وجلّ وأذهب عنها الرجس وجعل فيها الإمامة، وطلب إبراهيم عليه السلام لهذه الذريّة المودّة والمحبّة وهوىّ الإفئدة إليها، وهذه

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۰۱

الذريّة هم الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام، فبهم يتقرّب ويتوسل إلى اللّه عزّ وجلّ، وبمودّتهم وولايتهم تقبل الطاعات، ومحبّتهم ركن ركين فى الدين، لا يعرض عنه إلّاكافر أو مشرك، ومن هنا جعل النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله عدل الرسالة وأجرها المودّة فى القربى كما فى قوله تعالى: «قُلْ لَاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» «۱».

ومن ذلك كلّه يتضح أن من تمام الحجّ وسائر العبادات لقاء الإمام وإظهار المودّة والنصرة والتولّى له، وإلّا فلا حجّ ولا طواف ولا صلاة مقبولة عند اللّه تعالى، فالتوحيد فى العبادة هو الإقرار بولاية أهل البيت عليهم السلام.

ومن هنا أيضاً يتضح المراد من قول الإمام الباقر عليه السلام: «تمام الحجّ لقاء الإمام» «۲».

وكذا قول الإمام الصادق عليه السلام: «ابدؤوا بمكّة واختموا بنا» «۳».

وقول الإمام الباقر عليه السلام: «إنما أمروا أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرتهم» «۴».

وكذا قال عندما رأى الناس يحجّون بمكّة: «فعال كفعال الجاهلية، أما واللّه ما أمروا بهذا، وما أمروا إلّاأن يقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم فيمرّوا بنا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرتهم» «۵».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۰۲

۶- الولاية من شرائط المغفرة ...: ص: ۱۰۲

اشارة

قال تعالى: «وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» «۱»

، فلا تحصل المغفرة ولا التوبة ولا الإيمان ولا يقبل العمل الصالح إلّابشرط الهداية، والمراد من الهداية فى هذه الآية المباركة مقام الإمامة؛ لأنها تعنى الإيصال إلى المطلوب، وهى مرحلة بعد مقام النبوّة الذى هو إراءة الطريق فقط.

فإن مجرّد إراءة الطريق شأن النبىّ والرسول، قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ» «۲».

وأما مقام الإمامة فنجد أن القرآن الكريم كلّما تعرّض إليه تعرض معه لذكر الهداية بياناً وتفسيراً، قال تعالى: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ* وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» «۳»

، وقال أيضاً عزّ وجلّ: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ» «۴»

، فوصف اللّه عزّ وجلّ الإمامة بالهداية وصف بيان وتعريف وتفسير، هذا فى إمامة الحقّ.

كذلك فى إمامة الباطل والكفر، فإن فرعون الذى هو من أئمة الكفر، قال تعالى فى حقّه: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» «۵»

، فإمامة الكفر أيضاً فيها

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۰۳

هداية وإيصال، ولكن إلى الضلال وخلاف المقصود من الكمال الإنسانى؛ ولذا قال تعالى: «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى» «۱».

فإمامة الحقّ هى الهداية والإيصال إلى المطلوب وولاية على الناس فى أعمالهم بأمر ملكوتى من اللّه عزّ وجلّ، كما يستفاد من قوله تعالى: «يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا».

وإمامة الباطل أيضاً هداية وإيصال، ولكن إلى الضلال وخلاف المقصود.

والحاصل: أن مقام الهدایة الإلهیة الحقّة بقول مطلق یساوق مقام الإمامة والخلافة الربّانیة.
وهـذا یعنی أن هناک مقاماً ثالثاً غیر الشـهادة الأولی والشـهادة الثانیة لابدّ أن یعتقد به المسـلم، لکی یکون مهتدیاً مؤمناً، فقوله تعالی: «آمَنَ» إشـارة إلی الشـهادة الأولی والثانیـة، وقوله «وَعَمِلَ صَالِحًا» إشارة إلی الإیمان والعمل بالشـریعة الـذی هو مقام النبوّة، وقوله: «ثُمَّ اهْتَدَی» إشارة إلی ذلک المقام الثالث والشهادة الثالثة، وهی الولایة والإمامة.

سورة الحمد وإمامة أهل البیت علیهم السلام ...: ص: ۱۰۳

وإذا لم یعتقـد بها الشـخص ولم یجعلها واسـطة بینه وبین ربّه لا یتحقّق منه الإیمان ولا العمل الصالـح، فولایة وإمامة أهل البیت علیهم السـلام واسـطة ووسیلة یتوسل بها العبد إلی اللَّه عزّ وجلّ لقبول عقیدته وعبادته، وهذا ما صرّحت به سورة الحمد، التی یقرؤها المسلم فی الیوم واللیلة عشر مرّات علی أقل تقدیر.
فإن سورة الحمد تعرّضت للشهادة الأولی والشهادة الثانیة والشهادة الثالثة،
الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۱۰۴
فقوله تعالی: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِینَ* الرَّحْمَنِ الرَّحِیمِ» «۱»
إشارة إلی الشهادة الأولی، وهی کلمة (لا إله إلّااللَّه)، وقوله تعالی: «مَالِکِ یَوْمِ الدِّینِ» «۲»
إشارة إلی أصل المعاد، الذی هو من أصول الدین، وقوله تعالی: «إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَإِیَّاکَ نَسْتَعِینُ» «۳»
إشارة إلی مقام التشریع والنبوّة؛ لأن العبادة لا تتحقّق إلّابالسیر علی خطی النبوّة والرسالة.
وقوله تعالی: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِیمَ* صِرَاطَ الَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ غَیْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ وَلَا الضَّالِّینَ» «۴»
، إشـارة إلی مقـام الإمامـة فی الأمـة، فهنـاک مجموعـة فی الأمـة الاسـلامیة نـدعو اللَّه عزّ وجـلّ فی الیوم واللیلـة أن یهـدینا صـراطهم المستقیم، المنزّه عن الغضب فی العمل وعن الضلال فی العلم، أی صراط المعصومین علماً وعملًا، وهؤلاء الهداة الهادون إلی الصراط المستقیم وصفهم اللَّه تعالی بثلاثة نعوت:
الأول: أنهم منعم علیهم بنعمة خاصّة دون بقیة الأمة وسائر البشر، نظیر ما أنعم اللَّه علی النبیین.
الثانی: أنهم لا یغضب اللَّه علیهم قطّ، وإلّا لما کانت لهم صلاحیة الهدایة لجمیع الأمة.
الثالث: أنهم لا یضلّون قط، وإلّا لم یکونوا هداة هادین لکل الأمة.
ولم یحدّثنا القرآن عن ثلّة عن هذه الأمة قد خصصوا بنعمة وحظوة وحبوة
الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۱۰۵
إلهیة خاصة دون بقیة الأمة إلّاأهل البیت علیهم السلام کما فی ولایة الفیء فی قوله تعالی:
«مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَی رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَی فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِی الْقُرْبَی» «۱»
وکما فی ولایة الخمس فی قوله تعالی: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِی الْقُرْبَی» «۲»
، وکذا التطهیر فی قوله تعالی: «إِنَّمَا یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرُکُمْ تَطْهِیراً» «۳»
والمودّة والولایة فی قوله تعالی: «قُلْ لَاأَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی» «۴»
وقوله تعالی: «إِنَّمَا وَلِیُّکُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَیُؤْتُونَ الزَّکَاةَ وَهُمْ رَاکِعُونَ» «۵»
وعلم الکتاب فی قوله تعالی: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ* فِی کِتَابٍ مَکْنُونٍ* لَا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» «۶»
وغیرهـا من الآیات المخصـصة لهم علیهم السـلام بمقامات دون سائر الأمـة إلی یوم القیامـة، فلا توجـد مجموعـة فی الأمـة الإسـلامیة

معصومـة عن الغضب والضـلال سوى أهل البيت عليه السـلام، الـذين أنعم اللّه عزّ وجلّ عليهم بالطهارة من الرجس والغوايـة فى العلم والعمل، كما قال تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً» «۷».

ويتحصّـل من ذلك: أن سورة الحمـد اشـتملت على أصول الـدين من التوحيـد والمعاد والنبوّة والإمامـة، وقارئ الحمـد يطلب من اللّه تعالى الهداية إلى الصراط

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۰۶

المستقيم وأن يجعل له هـداة وأئمـة يهتـدى بهم، وهـذا يعنى أن ضمّ الشـهادة الثالثة بالإمامة إلى الشـهادة الثانية بالرسالة والنبوّة للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله يوجب الخروج عن الشرك وقبول الإيمان والعبادة.

ومن ذلك كلّه يتضح المراد من قول الإمام الباقر عليه السلام لسدير وهو مستقبل البيت: «يا سدير إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها ثم يأتونا فيعلمونا ولايتهم لنا، وهو قول اللّه: «وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» «۱»

ثم أومأ إلى صدره إلى ولايتنا» «۲».

إذن تمام الحجّ وسائر العبادات بالهداية إلى ولاية أهل البيت عليهم السلام والتوسّل والتوجّه بهم إلى اللّه عزّ وجلّ.

۷- الوفود على ولى اللّه من شرائط الحجّ ...: ص: ۱۰۶

قال تعالى: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَاتُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود* وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» «۳».

فهـذه الآيـة المباركـة تنصّ على أن اللّه عزّ وجـلّ جعـل مكـان البيت مبوّءاً وسـكناً لإبراهيم عليه السـلام، وأن إبراهيم عليه السـلام هو المتكلّم الأوّل والناطق الرسـمى عن اللّه تعالى فى الندبة إلى الحجّ، فهو يأمر الناس بحجّ بيت اللّه الحرام كما نصّت على ذلك روايات الفريقين.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۰۷

ثم إن التعبير الآـخر فى الآيـة المباركـة بعـد الأـذان فى النـاس بالحـجّ «يَأْتُوكَ رِجَالًا» فالمجىء ليس إلى البيت ولا إلى اللّه عزّ وجلّ مباشرة، بل المجىء أوّلًا إلى إبراهيم عليه السلام.

فالإتيان إلى الحـجّ تلبيـة وإجابـة للنداء الإلهى إنما يتمّ بالوفادة على ولىّ اللّه، ويكون الحجّ الذى هو القصد إلى اللّه عزّ وجلّ بواسـطة الإتيـان إلى إبراهيم عليه السـلام، الـذى هـو وجيه عنـد اللّه تعـالى، يتوجّه إليه ويقصـد لإقامـة الصـلاة والطواف وسـائر مناسـك الحجّ العبادية، فلابدّ من الوفود على إبراهيم عليه السلام ومحبّته وهوىّ الأفئدة إليه.

وهذه الآية المباركة تتوافق فى المضمون مع ما تقدّم من قوله تعالى:

«رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ» «۱»

، فـإبراهيم عليه السـلام وذرّيته أسـكنهم اللّه عزّ وجـلّ الـبيت الحرام وبوّأهم فيه لإقامـة الصـلاة وتشـييد الـدين وتطهير البيت للطـائفين والقائمين والرّكع السجود، والإيـذان فى الناس بالحـجّ، ولكن لا قيمة للحجّ ولا مقبولية عند اللّه عزّ وجلّ إلّابالمجىء إلى إبراهيم عليه السـلام وذريّته من ولـد إسـماعيل عليه السـلام، وهـوىّ القلوب والأفئـدة إليهم ومحبّتهم ومودّتهم وتولّيهم وإبراز الطاعـة لهم وجعلهم واسطة فى القصد إلى اللّه تعالى.

فتبوى اللّه عزّ وجلّ لإبراهيم البيت، وإسـكان إبراهيم ذريته فيه من أجل الوفود عليهم ومودّتهم، هو الـذى جعل من البيت الحرام مكاناً ومقصداً لإقامة العبادة فيه، والأحجار بما هى أحجار لولا ذلك تكون وثناً يعبد من دون اللّه

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۰۸

عزّ وجلّ، كما كان الحجّ فى الجاهلية.

ولذا ورد أن من المستحبّات عند الدخول إلى البيت الحرام إلقاء التحيّة والسلام على سيّد الأنبياء محمّد صلى الله عليه و آله ثم السلام على النبىّ إبراهيم عليه السلام «۱».

فعن أبى عبد اللّه عليه السلام قال: «فإذا انتهيت إلى باب المسجد فقم وقل: السلام عليك أيها النبىّ ورحمة اللّه وبركاته، بسم اللّه وباللّه ومن اللّه وما شاء اللّه، والسلام على أنبياء اللّه ورسله والسلام على رسول اللّه، والسلام على إبراهيم والحمد للّه‌رب العالمين» «۲».

فالمجىء إلى النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ثم إلى إبراهيم عليه السلام مجىء وإتيان وقصد إلى اللّه عزّ وجلّ، وكذا أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم الذريّة والأمة المسلمة الذين دعا إبراهيم والنبىّ الأكرم إلى مودّتهم ومحبّتهم.

إذن الأنبياء والأوصياء هم أبواب اللّه التى يتّجه إلى اللّه تعالى بها، ولولا ذلك لا يكون الحجّ حجّاً إبراهيمياً بل حجّ الجاهلية.

۸- الأنبياء مصدر البركة ...: ص: ۱۰۸

قال تعالى حكاية عن قول عيسى عليه السلام: «وَجَعَلَنِی مُبَارَکًا أَیْنَ مَا کُنْتُ وَأَوْصَانِی بِالصَّلَاةِ وَالزَّکَوةِ مَا دُمْتُ حَیًّا» «۳».

وهذا يعنى أن عيسى عليه السلام جعله اللّه عزّ وجلّ مصدر البركة والتبرّك أين ما حلّ؛ ولذا كان ببركته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن اللّه تعالى، فهو

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۰۹

وجيه وواسطة فى قضاء الحوائج فى كلّ مكان حلّ فيه، فما بالك بخاتم الأنبياء عليه السلام وأهل بيته الأطهار ومن يصلّى عيسى خلفه عند نزوله ويكون وزيراً له؟!

وكذا ورد فى الآيات المباركة أن الماء مصدر البركة والخيرات كما فى قوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَکًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِیدِ» «۱»

، فإذا كان اللّه تعالى ببركة الماء المنزل من السماء ينبت الجنان ويحيى الأرض بعد موتها، فكيف بك بأنبياء اللّه ورسله وخلفائه الأوصياء؟!

۹- البقعة المباركة ...: ص: ۱۰۹

وهى الطائفة من الروايات التى تعرّضت لذكر البقعة المقدّسة والمباركة التى كلّم اللّه عزّ وجلّ فيها موسى عليه السلام:

كقوله تعالى: «وَهَلْ أَتَاکَ حَدِیثُ مُوسَی* إِذْ رَأَ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْکُثُوا إِنِّی آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَی النَّارِ هُدًی* فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِیَ یَا مُوسَی* إِنِّی أَنَا رَبُّکَ فَاخْلَعْ نَعْلَیْکَ إِنَّکَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًی» «۲».

وقوله تعالى: «هَلْ أَتَاکَ حَدِیثُ مُوسَی* إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًی» «۳»

. وكذا قوله تعالى: «وَاذْکُرْ فِی الْکِتَابِ مُوسَی إِنَّهُ کَانَ مُخْلَصًا وَکَانَ رَسُولًا نَبِیًّا* وَنَادَیْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَیْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِیًّا» «۴».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۱۰

وقوله عزّ وجلّ: «فَلَمَّا قَضَی مُوسَی الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْکُثُوا إِنِّی آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ* فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِیَ مِنْ شَاطِیءِ الْوَادِی الْأَیْمَنِ فِی الْبُقْعَةِ الْمُبَارَکَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ یَا مُوسَی إِنِّی أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِینَ» «۱».

وقد أقسم اللّه عزّ وجلّ بهذه البقعة المباركة، لعظمتها بالإضافة إلى بقع ثلاث أخرى، وذلك فى قوله تعالى، «وَالتِّینِ وَالزَّیْتُونِ* وَطُورِ

سِينِينَ* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» «۲»

، وهـذا قسم من اللّه عزّ وجلّ ببلـد التين وهو المدينـة، وبلـد الزيتون وهو بيت المقـدس، وطور سـينين الكوفة، والبلد الأمين وهو مكّة، كمـا ورد ذلك عن الإمام الكاظم عليه السـلام، حيث قال: «واختار من البلـدان أربعـة فقال عزّ وجلّ: «وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ* وَطُورِ سِـينِينَ* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» «۳»

فالتين المدينة والزيتون بيت المقدس وطور سنين الكوفة وهذا البلد الأمين مكّة» «۴».

هذا من طرقنا.

وكـذلك من طرق السـنّة، ولكن بتفسير التين بالبيت الحرام، وتفسير الطور بأنه الجبل الذى كلّم اللّه عزّ وجلّ فيه موسـى عليه السـلام «۵»، ولا تنافى فى ذلك إذ لعلّ ذلك هو الوادى المقدّس بين جبل طور والكوفة، كما ذكر ذلك بعض

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۱۱

المفسّرين.

وقد ورد فى الحديث أن محلّ قبر أمير المؤمنين عليه السلام أوّل طور سيناء، عن أبى جعفر الباقر عليه السلام قال: «كان فى وصيّة أمير المـؤمنين عليه السـلام: أن أخرجـونى إلى الظهر [أى ظهر الكوفـة] فـإذا تصوّبتْ أقـدامكم واسـتقبلتكم ريـح فـادفنونى، وهو أوّل طور سيناء، ففعلوا ذلك» «۱».

والحاصل: إن القرآن يؤكّـد أن هناك بقعـة مقدّسـة مباركـة، فيها هبطت الملائكة بالوحى على موسـى عليه السـلام، ولابدّ أن تقدّس وتُعظّم ويُتقرّب فيها إلى اللّه عزّ وجلّ ويكلّم اللّه تعالى فيها الأنبياء.

قال القرطبى فى تفسيره: (قوله تعالى: «إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى» «۲».

المقـدّس: المطهّر، والقـدس: الطهارة، والأرض المقدّسة أى المطهّرة إلى أن قال: وقد جعل اللّه تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض، كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض) «۳».

وهذا يعنى أن هناك أماكن مقدّسة فيها ينزل الوحى وتفتح أبواب السماء، وفيها يزداد الأجر ويقبل الدعاء ويتوجّه إلى اللّه عزّ وجلّ.

۱۰- وجوب تعظيم الأنوار الإلهيّة: خلقة الأنوار الخمسة لأصحاب الكساء فى سورة النور ... ص: ۱۱۱

اشارة

قـال تعـالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْـكَاةٍ فِيهَا مِصْـبَاحٌ الْمِصْـبَاحُ فِى زُجَاجَـةٍ الزُّجَاجَـةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَـدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۱۲

شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ* فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُـذْكَرَ فِيهَـا اسْـمُهُ يُسَـبِّحُ لَهُ فِيهَـا بِالْغُـدُوِّ وَالآصَالِ* رِجَالٌ لَاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» «۱».

إن هـذه الآيـة المباركة تنصّ على وجود بيوت خاصّة أذن اللّه أن ترفع وتعظّم ويذكر فيها اسـمه، وفى تلك البيوت يسبّح للّهعزّ وجلّ وتقبل العبادة ويسـمع الذكر، وتحت قبّتها يرفع الدعاء وتفتّح أبواب السـماء وتحصل القربة إلى اللّه تعالى، فهى بيوت مباركة ومقدّسة جعلها اللّه تبارك وتعالى وسيلة وواسطة ومحلّاً لقبول العبادة والذكر والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار.

ومن الجدير بالذكر أن تلك البيوت بيوتاً خاصّة وهى مهبط الوحى والقداسة والطهارة.

والشاهد على ذلك أن الجار والمجرور فى قوله تعالى: «فِی بُيُوتٍ» متعلّق بذلك النور الذى ضربه اللّه عزّ وجلّ مثلًا للناس، فالنور فى بيوت أذن اللّه أن ترفع، وقد ذكرت الآية المباركة أن هذا النور نور السماوات والأرض، أى محيط بهما ومهيمن عليهما وأشرف منهما فى الخلقة والرتبة الوجودية.

ثمّ إن ذلك النور مخلوق من مخلوقات اللّه تعالى، أُضيف إليه عزّ وجلّ فى الآية إضافة الفعل إلى فاعله، وهو عبارة عن أنوار خمسة شامخة، ضرب اللّه تعالى لكلّ واحد منها مثلًا حسّياً لتقريب الفكرة وتنزيل الحقيقة إلى رقيقة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۱۳

يفهمها البشر، وليس هذا النور عين الذات الإلهية، لأنها أحدية المعنى لا تعدّد ولا تكثّر فيها، والنور المذكور فى الآية المباركة متعدّد منشعب إلى خمسة أنوار، مستقل بعضها عن البعض الآخر.

والأنوار الخمسة التى ضُربت مثلًا هى:

أولًا: المشكاة.

ثانياً: المصباح.

ثالثاً: الزجاجة.

رابعاً: الكوكب الدرىّ.

خامساً: الشجرة المباركة.

ثم تقول الآية الكريمة بعد ذلك: «نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ».

وفى اللغة العربية يقول علماء البلاغة كل تشبيه جملة مستقلة برأسها، وتفيد معنىً ومغزىً مستقلًا، فالآية بصدد التعرض إلى خلقة النور، وأن أحد مراحل الخلقة الإلهية هى المخلوقات النورية، وهى أنوار خمسة، تعظم فى الخلقة الملائكة والروح والجنّ والإنس ومطلق الموجودات الأخرى، وهى أنوار مشتقّ بعضها من بعض، ومرتبط بعضها بالبعض الآخر كما هو ظاهر الآية المباركة.

وهذه الأنوار المباركة المحيطة بالسماوات والأرض، هى الأسماء والكلمات التى لم تعلم بها الملائكة، مع أن الملائكة ملأت أركان السماوات والأرض؛ لأنها هى التى تدبّرها وتدير شؤونها، وهو المشار إليه فى تعليم آدم الأسماء وعرض اللّه تعالى لها على الملائكة، فلم يعلموا بها، فأنبأهم آدم بها،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۱۴

ووصفها اللّه بأنها غيب السماوات والأرض «۱»، وكما ورد هذا المعنى فى روايات الفريقين «۲».

ولو كانت تلك الأسماء من عالم السماء والأرض لعلمت بها الملائكة، ومن ذلك يعلم أن الأسماء التى علّمها اللّه عزّ وجلّ آدم وجهلتها الملائكة، كانت مخلوقات محيطة بعالم السماوات والأرض.

وهذا نوع من أنواع التشاهد بين الآيات القرآنية، فالأنوار الخمسة المذكورة فى سورة النور هى الأسماء التى خفيت عن الملائكة وعلّمها اللّه تعالى آدم، وهى كما سيأتى موجودات حيّة عاقلة شاعرة من عالم النور، كما عبّر عنها فى سورة البقرة بضمير (هم) واسم الاشارة (هؤلاء) وهما لفظتان لا تستعملان فى الذوات الجامدة، بل فى الذوات الحيّة الشاعرة العاقلة.

ويتحصّل من ذلك وجود مخلوقات خمسة نورية محيطة بالسماوات والأرض، أفضل من الملائكة ولا تحيط الملائكة بها علماً، بل إن اللّه تعالى شرّف آدم على جميع مخلوقاته، بما فيهم المقرّبين من كبار الملائكة، كجبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل بفضل تلك الأنوار، وبفضلها أيضاً استحقّ مقام الخلافة الإلهية، وسجد له الملائكة كلّهم أجمعون.

ومن ذلك يتضح أن هذه الأنوار الخمسة هى باطن (غيب) وملكوت السماوات والأرض؛ لأن نور كلّ شىء بمنزلة الروح له، ومن

دونه يكون ظلمانياً، والنور فى المقام ليس هو النور الحسّى الذى يظهر الصفات العارضة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۱۵

على الشىء، بل هو نور الخلقة الذى يوجد الشىء ويكوّنه ويظهره من كتم العدم إلى الوجود، فنور السماوات والأرض أى ملكوتهما وباطنهما ومظهرهما من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وهو اسم اللّه الأعظم الذى هو غير المسمّى، يفوق فى القدرة والعظمة كافّة المخلوقات فى السماوات والأرض.

وسيأتى أن تلك الأنوار الخمسة المباركة- وهى الأسماء التى علّمها اللّه تعالى آدم وتاب بفضلها عليه من خطيئته، وابتلى بها إبراهيم لنيل مقام الإمامة- هم خمسة أصحاب الكساء وأهل آية المباهلة، محمّد صلى الله عليه و آله وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فهم أهل البيت، وهم النور الإلهى الذى حلّ فى بيوت أذن اللّه أن ترفع، لتكون محلّاً للذكر والتسبيح والعبادة والتوجّه إلى اللّه عزّ وجلّ وتشييد معالم الدين.

ولذا أخرج السيوطى فى الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن أنس ابن مالك وبريدة، قال: «قرأ رسول اللّه صلى الله عليه و آله هذه الآية «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ» فقام إليه رجل فقال: أى بيوت هذه يا رسول اللّه؟ قال: بيوت الأنبياء، فقام إليه أبو بكر، فقال: يا رسول اللّه هذا البيت منها؟ وأشار إلى بيت علىّ وفاطمة عليهم السلام، قال:

نعم من أفاضلها» «۱».

وعن أبى بصير قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ» قال: «هى بيوت النبىّ صلى الله عليه و آله» «۲».

كذلك عن جابر عن أبى جعفر الباقر عليه السلام، فى قوله: «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۱۶

تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» قال: «هى بيوت الأنبياء، وبيت على منها» «۱».

وقد تقدّم رواية الحاكم فى المستدرك أن من الكلمات التى تاب اللّه بها على آدم، وهى الأسماء التى شُرّف آدم بها على الملائكة كخليفة، لأن الكلمات أعظم مقاماً من آدم؛ إذ بها تاب اللّه عليه، أن من أعظم تلك الكلمات والأسماء هو خاتم النبيين صلى الله عليه و آله، وقد ورد فى المستدرك أنه لولاه لما خلق آدم ولا الجنة ولا النار «۲» ويتشاهد هذان الحديثان النبويان على أن أوّل الأنوار الخمسة والأسماء التى تعلّمها آدم وتوسّل بها هو خاتم النبيين صلى الله عليه و آله.

هذا بالنسبة إلى الأنوار الخمسة المباركة.

الأئمة التسعة من ولد الحسين عليه السلام فى آية النور ...: ص: ۱۱۶

وأما قوله تعالى: «نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» فهو إشارة إلى استمرار وديمومة قانون الإمامة والخلافة الإلهية بعد تلك الأنوار الخمسة إلى يوم القيامة، نور على نور يهدى اللّه لنوره من يشاء و (على) أى على إثر وعقب لغة فى أحد المعانى المستعملة فى لفظ (على) بالتضمين لمعنى الإثر.

والشاهد على ذلك ما تقدّم من أن الهداية هى الإيصال إلى المطلوب، وقد جاء ذكر الهداية تفسيراً وبياناً لمقام الإمامة والولاية، كما فى قوله تعالى:

«وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا»، فالتعبير بالهداية فى الآية المباركة يراد منه الإمامة وهو مقتضى معنى النور أيضاً؛ إذ هو الهادى إلى صراط اللّه تعالى.

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۴، ص: ۱۱۷

ولـذا ورد عن الإمام محمّد بن على بن الحسين عليه السـلام فى قوله تعالى: «نُورٌ عَلَى نُورٍ» قال: «يعنى إماماً مؤيّداً بنور العلم والحكمهٔ فى إثر إمام من آل محمّد صلى الله عليه و آله، وذلك من لدن آدم إلى يوم القيامهٔ» «۱».

وعن الفضيل بن يسار عن أبى عبد اللّه الصادق عليه السلام، قال: (قلت: «نُورٌ عَلَى نُورٍ»؟ قال: «الإمام فى أثر الإمام» «۲».

وورد أيضاً عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى قوله تعالى: «يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» قال: «يهدى لولايتنا من أحبّ» «۳».

بيان آخر للآيهٔ المباركهٔ ... ص: ۱۱۷

هناك بيان آخر للآيهٔ الكريمهٔ التى نحن بصدد الاستدلال بها، أدقّ وأعمق وأدلّ على المطلوب من البيان الأول، وهو:

بعد أن تبيّن أن قوله تعالى: «فِى بُيُوتٍ» متعلّق بالنور، وأن النور فى بيوت أذن اللَّه أن ترفع، نقول:

إن الآيـهٔ الثالثهٔ التى ذكرناها فى المقام، وهو قوله تعالى: «رِجَالٌ لَاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاهْ وَإِيتَاءِ الزَّكَوهْ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» هـذه الجملـهٔ من المبتدأ والخبر كلّها بدل من قوله تعالى ذكره «فِى بُيُوتٍ»، أى أنها فى محلّ جرّ بدل من البيوت.

ويكون المعنى على ذلك! أن البيوت رجال لا تلهيهم تجارهٔ، وليست هى

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۴، ص: ۱۱۸

بيوت حجارهٔ ولا طين.

والشواهد على ذلك من نفس الآيات المباركهٔ كثيرهٔ نشير إلى‌بعضها:

أ- قوله تعالى: «رِجَالٌ لَاتُلْهِيهِمْ» ليس فاعلًا لقوله عزّ وجلّ «يُسَبِّحُ» وذلك طبقاً لقراءهٔ أهل البيت عليه السـلام، حيث أن قراءتهم لكلمهٔ (يسبَّح) بفتـح الباء مبنى للمجهول، وبناءً على هذا لا تكون كلمهٔ «رِجَالٌ» فاعلًا ل (يسبَّح) وإنما تكون مبتدءاً والجملهٔ التى بعدها خبر، والجملـهٔ بتمامها عطف بـدل على بيوت، فالبيوت هى رجال لا تلهيهم تجارهٔ ولا بيع، وإلى ذلك يشـير قول الإمام محمّد بن علىّ الباقر عليه السلام إلى قتادهٔ البصرى فقيه أهل البصرهٔ عندما سأله قائلًا:

(أصلحك اللَّه، واللَّه لقد جلست بين يدى الفقهاء، وقدّام ابن عباس، فما اضطرب قلبى قدّام واحدٍ منهم ما اضطرب قدّامك؟

فقال أبو جعفر عليه السـلام: «ويحك أتـدرى أين أنت؟ أنت بين يدى «بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْـمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ* رِجَالٌ لَاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاهْ وَإِيتَاءِ الزَّكَوهْ» فانت ثَمَّ، ونحن أولئك»، فقال له قتادهٔ: صـدقت واللَّه جعلنى اللَّه فداك، واللَّه ما هى بيوت حجارهٔ ولا طين» «۱».

وكـذلك ما ورد عن أبى عبـد اللَّه الصادق عليه السـلام، حيث قال: «إنّه من أتى البيوت من أبوابها اهتـدى ومن أخذ فى غيرها سـلك طريق الردى، وصل اللَّه طاعهٔ ولىّ أمره بطاعهٔ رسوله صـلى الله عليه و آله وطاعهٔ رسوله بطاعته، فمن ترك طاعهٔ ولاهٔ الأمر لم يطع اللَّه ولا رسوله، وهو الإقرار بما نزل من عنـد اللَّه «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْـجِدٍ» والتمسوا البيوت التى أذن اللَّه أن ترفع ويذكر فيها اسـمه، فإنه

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۴، ص: ۱۱۹

أخبركم أنهم «رِجَالٌ لَاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاهْ وَإِيتَاءِ الزَّكَوهْ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ»» «۱».

ثم إن تلك القراءهٔ بفتح الباء فى (يسبَّح) قرأ بها أيضاً ابن عامر وأبو بكر وابن شاهى عن حفص «۲».

إذن يتحصّل أن النور فى بيوت هى رجال لا تلهيهم تجارهٔ ولا بيع.

أهل البيت عليهم السلام معصومون بأعالى درجات العصمة ...: ص: ۱۱۹

ب- قوله عزّ وجلّ: «لَاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَام الصَّلاهْ وَإِيتَاءِ الزَّكَوهْ» فإن هـذا المقطع من الآيـهٔ المباركـهٔ يشـير إلى أن هؤلاء الرجال معصومون بأعلى درجات العصـمهٔ، وهى عصـمهٔ السـرّ التى هى فوق عصـمهٔ الجوارح، إذ لا يلهون برهـهٔ من حياتهم عن ذكر اللَّه، فهم فى ذكر دائم، وهـذا يعنى أن أولئك الرجال ثلّهٔ خاصهٔ فى الأمهٔ الإسـلاميهٔ يتميّزون عن بقيّهٔ المسـلمين وأصـحاب النبىّ صلى الله عليه و آله، الـذين انفضّ أكثرهم من حوله وتركوه قائماً عنـدما سـمعوا بالتجارهٔ، كما نصّت على هذه الحادثهٔ سورهٔ الجمعهٔ، وذلـك فى قـوله تعـالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَهً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَهِْ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» «۳».

ففى الروايات لم يبقَ مع النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله إلّاإثنى عشر أو ثمانيهٔ رجال،

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۴، ص: ۱۲۰

وانفضّ الباقون إلى اللّهو والتجارهٔ «۱».

وفى بعض الروايات لم يبقَ إلّاعلى عليه السلام «۲».

ولا شك أنه لا يوجـد ثلّـهٔ معصومـهٔ فى هـذه الأمهٔ غير أهل آيهٔ التطهير، الذين أذهب اللَّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فنالوا بذلك أعلى درجات العصمهٔ والطهارهٔ.

وهـذا يعنى أن تلك الأنوار الخمسهٔ المباركهٔ فى بيوت وأبدان طاهرهٔ، وهم رجال معصومون من الغفلهٔ عن ذكر اللَّه عزّ وجلّ، يقيمون الصلاهٔ ويؤتون الزكاهٔ.

وتلك البيوت والرجال أذن اللَّه أن يرفع ذكرهم، كما قال اللَّه تعالى لنبيّه:

«وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ»، ولاـ شـك أن معنى ذلـك هو وجوب التعظيم والطاعـهٔ لهم والإنقيـاد لولايتهم والتوجّه بهم إلى اللَّه تعالى فى العبادهٔ، كما أمر اللَّه عزّ وجلّ الملائكهٔ بالخضوع والسجود لآدم، وجعل الخضوع واسطهٔ للإنقياد إلى الأوامر الإلهيهٔ.

إذن لا يقبل اللَّه عزّ وجلّ من العباد الطاعـهٔ، إلّابرفع تلك البيوت وتعظيم أولئك الرجال، والإتيان بالطاعات امتثالًا لأمر اللَّه وأمر رسوله وأمر اولى الأمر من هذه الأمهٔ.

قال تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۴، ص: ۱۲۱

التَّوْرَاهِْ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۱».

وعن الأصبغ بن نباتهٔ، قال: كنت جالساً عند أمير المؤمنين عليه السلام فجاء ابن الكوّا، فقال: ياأمير المؤمنين مَنْ البيوت فى قول اللَّه عزّ وجلّ: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» «۲»

؟

قـال علىّ عليه السـلام: «نحن البيوت التى أمر اللَّه بهـا أن تؤتى من أبوابهـا، نحن باب اللَّه وبيوته التى يؤتى منه، فمن تابعنا وأقرّ بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها ومن خالفنا وفضّل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها» «۳».

ج- قوله تعالى: «يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ».

وقـد بيّن القرآن الكريم فى آيـات أخرى الـذين يخافون من ربّهم، كما فى سورهٔ الـدهر، قال تعالى: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ

شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا* وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيما وَأَسِيرًا* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَانُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا* إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا* فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا» «۴».

فقد روى الفريقان أن هذه الآيات نزلت فى أهل البيت عليهم السلام، وقصة هذه الآيات المباركة مفصّلة تعرّضت لها كتب التفاسير «۵».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۲۲

وهذا يكشف عن حقيقة أولئك الرجال الذين اختصّهم اللَّه عزّ وجلّ بنوره، وهم أهل بيت العصمة والطهارة، والبيوت التى أذن اللَّه أن ترفع وتعظّم ويتوسل بها إلى اللَّه عزّ وجلّ، ويذكر فى حضرتها اسمه، ويسبّح له بالغدو والآصال.

لا يتبادر إلى الذهن أن من أهل البيت فاطمة عليها السلام، فكيف تكون من الرجال المقصودين فى الآية المباركة؟

فإن الجواب عن ذلك واضح؛ لأن كلمة الرجل والرجال فى الآية المباركة بمعونة القرائن والشواهد التى احتفّت بها يراد منها الشخصية العظيمة، الثابتة الأقدام فى المقامات الشامخة، فيراد من الرجال فى الآية المباركة تلك الشخصيات التى تسنّمت بأرجل القدرة المقامات العالية والدرجات الرفيعة فى مجال العصمة والتقوى، وقد جاء التعبير القرآنى بالرجل عن الأعم من الذكر فى آيات عديدة، كقوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» «۱»

، فالمراد فى هذه الآية الكريمة الإقدام بأرجل الإيمان إلى دعوة إبراهيم عليه السلام للحجّ أعم من كون القادم ذكراً أو أنثى، ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى: «رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» «۲»

فوصفهم بالرجولية هنا للثبات والاستقامة والصدق.

ولا شك أن هذا كلّه مع القرينة لا مطلقاً، والقرائن الدالّة على إرادة الأعمّ من

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۲۳

الذكر والأنثى فى الآية التى هى محلّ بحثنا كثيرة جدّاً، منها ما ذكرناه سابقاً من القرائن الدالّة على أن المقصود بالرجال فى الآية هم أهل البيت عليهم السلام ومنهم فاطمة الزهراء عليها السلام.

خلقة أهل البيت عليهم السلام النورية ...: ص: ۱۲۳

ونختم الحديث فى هذه النقطة بذكر بعض الشواهد الدالّة على أن اللَّه تعالى خلق أهل البيت أنواراً مضافاً إلى ما تقدّم فى آية النور:

الأول: قوله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه و آله: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» «۱»

، فهذه الآية المباركة صريحة فى أن اللَّه عزّ وجلّ أوحى إلى نبيّه الأكرم صلى الله عليه و آله نوراً وهو الروح من أمره، ولا شك أن الإيحاء الخفىّ إنما هو إلى ذات وحقيقة النبىّ الأكرم المباركة، فيتّحد ذلك النور بشخص النبىّ صلى الله عليه و آله؛ ولذا قالت الآية المباركة أن من آثار ذلك النور «نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» ثم جعلت ذلك الأثر بعينه لخاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله، حيث قالت:

«وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» وهذا صريح فى اتحاد الذات النبويّة الطاهرة مع ذلك النور فى الحقيقة والأثر.

وإذا كانت ذات النبىّ الأكرم نوراً يهدى إلى صراط مستقيم، فكذلك أهل بيته عليهم السلام الذين هم نفس النبىّ صلى الله عليه و آله بنصّ آية المباهلة وآية التطهير، بل وبنص نفس هذه الآية المباركة فى المقام، حيث ذكر فيها أن هذا الروح الأمرى الذى أوحى إلى النبى صلى الله عليه و آله يهدى به اللَّه ويوحيه إلى من يشاء ويجتبيه من عباده، فلم

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۲۴

يخصص ذلك بالأنبياء أو بكونهم أنبياء أو رسل، ونظير ذلك قوله تعالى: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» «۱» فذكر لفظ العباد ولم يخصص بلفظ الأنبياء أو الرسل ويدلّ على أن الذين يشائُهم اللَّه وتتعلّق مشيئته بهم ويجتبيهم لذلك غير منحصر بالأنبياء والرسل، بل يعم من يصطفيهم للعصمة والطهارة والوصاية، وهكذا الأحاديث المتواترة فى كون فاطمة عليها السلام بضعة منه صلى الله عليه و آله «۲»، وكون الحسن والحسين عليهما السلام من النبيّ صلى الله عليه و آله وهو منهم «۳»، وكذا قوله صلى الله عليه و آله: «علىّ منى وأنا منه» «۴».

الثانى: قول النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «كنت أنا وعلى بن أبى طالب نوراً بين يدى اللَّه قبل أن يخلق آدم بأربعة آلاف عام، فلما خلق اللَّه آدم قسم ذلك النور جزئين، فجزء أنا وجزء علىّ بن أبى طالب» «۵».

الثالث: الروايات المتضافرة التى دلّت على أن النبيّ صلى الله عليه و آله كان نوراً يتنقل من الأصلاب الشامخة إلى الأرحام المطهّرة، وقد أضاء منه صلى الله عليه و آله نوراً عند ولادته ملء الخافقين، كما نقلت ذلك آمنة بنت وهب (سلام اللَّه عليها) أم النبيّ صلى الله عليه و آله حين ولادته، قالت: (إنّى رأيت حين ولدته أنه خرج منى نور أضاءت منه قصور بصرى من أرض الشام) «۶».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۲۵

إلى غير ذلك من الشواهد الدالّة على الخلقة النورية للنبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام.

۱۱- بناء المساجد على قبور الأولياء معالم الدين ...: ص: ۱۲۵

كما فى قوله تعالى فى قصّة أصحاب الكهف: «وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» «۱».

ذكر المفسرون: أن أصحاب الكهف لما بعثوا بأحدهم إلى المدينة بورقهم لجلب الطعام عثر عليهم أهل المدينة وعلموا بأمرهم جاءوا إلى الكهف، فلما دخل الذى هو من أصحاب الكهف دعا اللَّه تعالى مع أصحابه أن يميتهم لئلا يكونوا فتنة للناس، فأماتهم اللَّه تعالى، وخفى على أهل المدينة مدخل الكهف، فلم يهتدوا إليه، فقال المشركون: نبنى عليهم بنياناً ونحوطهم بجدار نجعلهم وراءه، وقال المسلمون: بل نحن أحقّ بهم، هم منّا، نبنى عليهم مسجداً نصلّى فيه ونعبد اللَّه فيه «۲».

وقال المفسّرون أيضاً: إن قوله تعالى: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» دلّ على أن الغلبة كانت للمؤمنين بقرينة ذكر اتخاذ المسجد «۳».

ثم إن القرآن الكريم فى استعراضه لهذه الواقعة أقرّ المؤمنين على رأيهم، ولم يفنّد اتخاذهم المسجد على قبور أصحاب الكهف من أجل التبرّك والعبادة،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۲۶

خصوصاً وأن القرآن الكريم إنما عرض لنا قصّة أصحاب الكهف، لأجل تعميق مبدأ الإيمان والتوحيد، والقرآن يذكر القصّة فى ضمن بيان مآثر ومعالم أهل الكهف المشيدة والخالدة، وأنهم بُنى على قبورهم مسجداً لإظهار معجزتهم، وليبقى ذكرهم خالداً فى أذهان البشر ويكون ذلك موعظة للمؤمنين، فلو كان بناء المسجد على قبورهم والتبرّك بهم والتعبّد عندهم شركاً ووثناً من الأوثان، لكان ذلك على خلاف المطلوب، ومنافياً للحكمة التى أرادها اللَّه عزّ وجلّ من سرد القصّة.

إذن قبور الأولياء وبناء المساجد عليها والتبرّك بها وجعلها واسطة فى التوجّه إلى اللَّه عزّ وجلّ فى العبادة من المبادئ القرآنية الصريحة والشعائر الإلهية، التى يوجب تخليد ذكرها تخليد الدين ومعالم التوحيد، التى شيّدوها بسيرتهم المباركة ونهجهم التوحيدى، وهذا عين الأمر الإلهى باتخاذ مقام إبراهيم مصلّى، فإن تشعير مقام إبراهيم وتخليد ذكره بذلك، يكون سبباً لخلود التوحيد وباعثاً

للناس على التمسّك بهديه.

ومن ذلك أيضاً قول النبیّ صلی الله علیه و آله: «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنّة» «۱»

فإن ذلك تشعيراً لقبره صلی الله علیه و آله وجعله محلّاً للعبادة ونيل القربان والمقامات عند اللَّه تعالى.

وذلك كلّه يعنى أن مقامات الأنبياء والأولياء والحجج من الحرىّ بها أن تعمّر وتشعّر محلّاً للعبادة والتقرّب إلى اللَّه تعالى.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۲۷

ولا شك أن الآيات والوسائط علامات على عظمة الصفات الإلهية، ففعل الذات العظيمة عظيم أيضاً، فلابدّ أن يعظّم، وتعظيمه تعظيماً للَّهعزّ وجلّ، والذى يحقّر آيات اللَّه ويهينها بكلّ نوع من أنواع الإهانات يكون قد هتك الحرمة والحريم الإلهى، ولذا قال اللَّه عزّ وجلّ: «ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» «۱».

والحاصل: أن ترك تعظيم ولىّ اللَّه والإعراض عن التوسّل والتوجّه به إلى اللَّه تعالى إخفاق فى عقيدة التوحيد.

۱۲- حبط الأعمال وقبولها ...: ص: ۱۲۷

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَاتَشْعُرُونَ* إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» «۲».

هذه الآية المباركة صريحة أيضاً فى أن الخضوع للنبىّ الأكرم والإقبال عليه والتوجّه إليه وتوقيره وتعظيمه وحفظ الأدب فى حضرته سبب وواسطة فى قبول الأعمال، وموجب لتحقّق التقوى والمغفرة والقرب من اللَّه تعالى ونيل الأجر العظيم؛ وذلك لأن الخضوع للنبیّ صلی الله علیه و آله تعظيم له بما هو آية كبرى من آيات اللَّه عزّ وجلّ وشعيرة من شعائره ومعلماً من أعلام دينه، وقد سبق قوله تعالى:

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۲۸

«ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ».

وأما الذين لا يخضعون للنبیّ الأكرم صلی الله علیه و آله ولا يحافظون على التزام الآداب فى ساحة الحضرة النبويّة، برفعهم الأصوات فوق صوته، والتعامل معه كأحدهم، فقد توعّدهم اللَّه تعالى بحبط أعمالهم؛ لأن ذلك يوجب الإعراض عن الآيات الإلهية والوسائط الربانية التى نصبها لعباده والاستكبار عنها، فلا يكون لأعمالهم حينئذٍ وزن عند اللَّه تعالى، بما فى ذلك العقيدة، التى هى عمل من الأعمال الجوانحية.

۱۳- آيات القسم الإلهى بشخص النبىّ الأكرم صلی الله علیه و آله ...: ص: ۱۲۸

لقد وردت آيات عديدة يُقسم فيها اللَّه تعالى بالنبیّ صلی الله علیه و آله نذكر بعضاً منها:

۱- قوله تعالى: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» «۱»

، والقسم بعمر النبیّ الأكرم صلی الله علیه و آله من قبل اللَّه تعالى يدلّل على تعظيمه وتشريفه، خصوصاً وأن المفسّرين ذكروا أن البارى تعالى لم يقسم بعمر أحد فى القرآن الكريم، سوى القسم بعمر خاتم الأنبياء وسيّد المرسلين صلی الله علیه و آله.

۲- قوله تعالى: «لَاأُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ» «۲»

، قال بعض المفسّرين أن (لا) فى قوله تعالى: «لَاأُقْسِمُ» أصلية نافية، والمعنى هو أن اللَّه تعالى لا يقسم بمكّة والنبىّ حلّ وحالّ فيها وذلك تعظيماً له صلی الله علیه و آله، وأنه مع وجوده فى مكّة هو الأحرى أن يقسم به دون غيره، ذكر

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۲۹

ذلک أبو البقاء العکبری فی إملائه، حیث قال:

(وقیل: لا أقسم به وأنت حلّ فیه، بل أقسم بک) «۱».

وفی فتح القدیر للشوکانی قال: (وقیل: المعنی لا أقسم بهذا البلد وأنت حالّ به ومقیم فیه وهو محلّک، فعلی القول بأن «لا» نافیة غیر زائدة یکون المعنی لا أقسم به وأنت حالّ به، فأنت أحقّ بالإقسام بک) «۲».

والبعض الآخر من المفسّرین قال إن (لا) أصلیة أیضاً، ولکن المعنی هو: لا أقسم بهذا البلد وأنت لا حرمة لک فی هذا البلد، یستحلّون دمک وقتالک، وفی ذلک دلالة واضحة علی عظمة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله؛ وذلک لأن القسم لأجل عظمة المقسوم به والنبیّ صلی الله علیه و آله له عظمة فوق ذلک، فهو صلی الله علیه و آله موضع قسم أیضاً؛ إذ لو کان ما هو دونه من موارد القسم ولا یقسم به لعظمة النبیّ صلی الله علیه و آله، فکیف بک بذات النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله، الذی هو أعظم من الکعبة؟ وعلی هذا یکون فی هذه الآیة مدیح له صلی الله علیه و آله بأنه أکرم الخلق علی اللَّه تعالی.

ذکر هذا المعنی عدد وافر من المفسّرین:

منهم: علی بن إبراهیم القمّی، حیث قال فی تفسیره: («وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ» کانت قریش لا یستحلّون أن یظلموا أحداً فی هذا البلد، ویستحلّون ظلمک فیه) «۳».

ومنهم: الطبرسی فی مجمع البیان، قال: (وقیل: معناه لا أقسم بهذا البلد وأنت حلّ فیه، منتهک الحرمة، مستباح العرض، لا تحترم، فلم یبن للبلد حرمة،

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۱۳۰

حیث هتکت حرمتک، عن أبی مسلم، وهو المروی عن أبی عبد اللَّه علیه السلام قال:

کانت قریش تعظّم البلد، وتستحلّ محمّداً صلی الله علیه و آله فیه، فقال: لا أقسم بهذا البلد، وأنت حلّ بهذا البلد، یرید أنهم استحلّوک فیه، فکذّبوک وشتموک ... فاستحلّوا من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ما لم یستحلّوه من غیره، فعاب اللَّه ذلک علیهم) «۱».

ومنهم: ابن الجوزی فی زاد المسیر، حیث ذکر لقوله تعالی: «لَاأُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ» ثلاث معانٍ، قال: (والثالث: أنت حلّ عند المشرکین بهذا البلد یستحلّون إخراجک وقتلک ویحرّمون قتل الصید، حکاه الثعلبی) «۲».

وبعض ثالث قال إن (لا) زائدة، ولکن مع ذلک هی دالّة علی أفضلیة النبیّ صلی الله علیه و آله علی الکعبة، وأن شرفها لحلول النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله فیها، والقسم بها لأجل ذلک، فإذا کان القسم بها لأجل حلول النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله فیها یکون القسم بذات النبیّ صلی الله علیه و آله أولی وأدلّ.

وقد ذکر هذا المعنی أیضاً کثیر من المفسّرین:

منهم: الشیخ الطوسی، حیث قال بعد تصریحه بأن (لا) زائدة: (وقیل: معناه أنت حلّ بهذا البلد أی أنت فیه مقیم وهو محلّل، والمعنی بذلک التنبیه علی شرف البلد بشرف من حلّ فیه من الرسول الداعی إلی تعظیم اللَّه وإخلاص عبادته المبشِّر بالثواب والمنذر بالعقاب) «۳».

ومنهم: الشوکانی فی فتح القدیر، قال: (وعلی القول بأنها زائدة، یکون المعنی: أقسم بهذا البلد الذی أنت مقیم به تشریفاً وتعظیماً لقدرک؛ لأنه قد صار

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۱۳۱

بإقامتک فیه عظیماً شریفاً وزاد علی ما کان فیه من الشرف والعظم) «۱».

کذلک ذکر بعض المفسّرین أن قوله تعالی: «وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ» المقصود منه إبراهیم والولد هو النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله، قال

ابن الجوزى: (والثانى: أن الوالد إبراهيم وما ولد محمّد، قاله الحسن أبو عمران الجونى) «۲».

وهذا قسم آخر بالنبىّ صلى الله عليه و آله، كما نصّ على ذلك القاضى عياض «۳».

ثمّ إن هذه الآية المباركة دالّة على أن إنكار ولاية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وكونه واسطة ووسيلة بينهم وبين اللَّه تعالى مع تعظيم الكعبة من عمل المشركين، وأن تعظيم البيت الحرام بضمّ تعظيم النبىّ الأكرم وببركة وجوده فيه.

۳- قوله تعالى: «ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ» «۴».

۴- قوله تعالى: «ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» «۵».

۵- قوله تعالى: «يس* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» «۶».

۶- قوله تعالى: «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ» «۷».

۷- قوله تعالى: «طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ» «۸».

وقد ورد عن الإمام السجّاد عليه السلام فى الصحيفة السجّادية بأن كلّ قسم فى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۳۲

القرآن الكريم بالقرآن والكتاب يسبقه اسم فهو من أسماء النبىّ صلى الله عليه و آله، قال عليه السلام فى دعائه: «وقلت جلّ قولك له حين اختصصته بما سمّيته من الأسماء «طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى» وقلت عزّ قولك: «يس* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» وقلت تقدّست أسماؤك: «ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ» وقلت عظمت آلاؤك: «ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» فخصصته أن جعلته قسمك حين أسميته وقرنت القرآن به، فما فى كتابك من شاهد قسم والقرآن مردف به إلّاوهو اسمه، وذلك شرف شرّفته به، وفضل بعثته إليه، تعجز الألسن والأفهام عن وصف مرادك به» «۱».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «يس اسم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله» «۲».

ذكر بعض المفسّرين أن صاد وقاف وغيرهما من أسماء النبىّ صلى الله عليه و آله.

وقال ابن الجوزى: (والثالث: أن معناها جيسرج يامحمّد، قاله ابن الحنفيّة والضحّاك) «۳».

كانت هذه هى بعض الموارد التى أقسم اللَّه عزّ وجلّ بنبيّه الأكرم صلى الله عليه و آله تعظيماً له، وتبياناً لعلوّ مقامه ومكانته عند اللَّه عزّ وجلّ، وأنه أكرم مخلوقاته.

والقسم بالشىء نحو توسيط له؛ وذلك لأن القسم نوع من الذمّة والتوثيق، وهو نحو من أنحاء الشفاعة، لأن أحد أشكال القسم هو قسم المناشدة كما فى المقام، وفى المناشدة يُذكر القسم لأجل التشفّع وجعل الشفيع والوسيط، فإذا صحّ القسم بذات النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، فيقسم على اللَّه تعالى به فى قضاء الحوائج فى الدنيا والآخرة، إذاً القسم كما يستخدم للاستيثاق من الخبر، يستخدم أيضاً

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۳۳

فى الاستيثاق من التشفّع والتوسّل كما لو كان القسم على إنشاء، كقولك: (واللَّه لتفعلنّ كذا)، وإذا صحّ التشفّع به صلى الله عليه و آله بالقسم صحّ التوسّل به والتشفّع مطلقاً، وهذا نوع من الاستدلال بالدلالة الالتزامية البيّنة.

۱۴- الآيات الآمرة بالتوسل بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وسائر الأنبياء والأوصياء ...: ص: ۱۳۳

الآيات القرآنية الواردة فى هذا المجال عديدة نشير إلى بعضها:

۱- قوله تعالى «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» «۱».

فإن هذه الآية المباركة ناصّة وصريحة فى أن التوجّه إلى اللَّه عزّ وجلّ والإقبال عليه بالاستغفار والتوبة والأوبة لابدّ أن يكون عن طريق التوجّه والمجىء إلى الباب الذى نصبه اللَّه تعالى لذلك، وهو النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث قال تعالى: «جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا

اللَّهَ» أى يأتونك ويتوجّهون إلى اللَّه بك، فالمجىء إلى النبىّ صلى الله عليه و آله مجىء إلى اللَّه تعالى.

إذن استغفارهم لأنفسهم عند اللَّه تعالى لا- يغنيهم عن التوجّه بالنبىّ صلى الله عليه و آله، ومعنى ذلك أن للمجىء عند النبىّ ثم الاستغفار موضوعية فى حصول المغفرة.

ولا شك أن الاستغفار وطلب المغفرة عبادة من العبادات ونوع خاص من أنواع الدعاء وحالة من الارتباط بين العبد وربّه، وللكون عند النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والمجىء عنده دخالة فى قبول تلك العبادة وتوثيق الدعاء والارتباط بين العبد

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۳۴

وربّه والإقبال على اللَّه تعالى.

وهذا هو معنى أن للَّهعزّ وجلّ مواضع ومواطن مشرّفة يُقبل الدعاء بالكون فيها والمثول تحت قبّتها، كما فى الكون فى عرفة وتحت الميزاب وعند الملتزم والمستجار وغيرها، وكما ورد من أن الصلاة فى البيت الحرام تعدل كذا ألف ركعة، وهذا يعنى أن للكون فى البيت الحرام دخالة فى توثيق الارتباط بين العبد وبين اللَّه تبارك وتعالى.

والحاصل: إن اللَّه عزّ وجلّ يخاطب المذنبين الظالمين لأنفسهم أن تكون عبادتهم فى طلب المغفرة بالقصد إلى النبىّ صلى الله عليه و آله والمجىء عنده، لأن ذلك من مواطن استجابه الدعاء وتفتّح أبواب السماء وقبول التوبة وتحقّق المغفرة، وهذا نوع من أنواع التوسّل والتشفّع به صلى الله عليه و آله إلى اللَّه عزّ وجلّ، فمجيئهم عند النبىّ والاستغفار فى حضرته نوع من أنواع التوسّل، واستغفار النبىّ صلى الله عليه و آله بعد توسلهم به نوع من أنواع الشفاعة؛ ولذا قال عزّ وجلّ: «وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ»، وبعد التوسّل والشفاعة قال تعالى: «لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا».

۲- قوله تعالى: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ» «۱».

وهذا أمر من اللَّه عزّ وجلّ لنبيّه الأكرم صلى الله عليه و آله بأن يتشفّع للمؤمنين ويكون وسيلة وواسطة لهم فى المغفرة.

۳- قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ» «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۳۵

إن فى هذه الآية المباركة أمر إلهى لعصاة هذه الأمة، بأن يأتوا إلى النبىّ صلى الله عليه و آله ويتوسلون به ليستغفر لهم اللَّه عزّ وجلّ.

والبارى تعالى يقول إن الإباء عن المجىء عند النبىّ صلى الله عليه و آله صدود واستكبار على اللَّه تعالى، وهو نفس الجرم الذى وقع به إبليس عندما أبى عن السجود لولىّ اللَّه وخليفته آدم، حيث قال تعالى: «أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ»، كذلك الفسق وصَفَ به اللَّه عزّ وجلّ المنافقين كما وصف به إبليس، وليس ذلك إلّا لأنهم لوّوا رؤوسهم وأبوا زيارة النبىّ صلى الله عليه و آله وتوسيطه والتوجّه به إلى اللَّه تعالى فى الاستغفار، وذلك سواء قبل وفاة النبىّ صلى الله عليه و آله أو بعدها؛ لأن الرسول الأكرم حىّ بالآيات وبروايات الفريقين، تُعرض عليه الأعمال ويسمع السلام ويردّه وهو شهيد على جميع الأمم.

۴- قوله تعالى: «وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» «۱».

وفى هذه الآية المباركة والآيات التى سبقتها تأكيد على أن هذه الأمة لا ترحم إلّا بنبيّها صلى الله عليه و آله، وهو شفيع هذه الأمة ووسيلتها، وإن اللَّه عزّ وجلّ أمره بذلك وأمر الأمة بالرجوع إليه لنيل الرحمة والمغفرة.

۵- قوله تعالى حكاية لكلام إبراهيم عليه السلام مع عمّه آزر: «قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا» «۲».

وهذه الآية المباركة صريحة فيما نحن بصدد اثباته؛ إذ أن النبىّ إبراهيم عليه السلام يعلّل شفاعته ووساطته فى الاستغفار بأن اللَّه كان به حفيّاً، فالحفاوة والحظوة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۳۶

والحبوة والوجيه والوجاهة التى يوليها اللَّه عزّ وجلّ لإبراهيم عليه السلام وسيلة وباباً ووجهاً يتوجّه به إلى اللَّه عزّ وجلّ، كما تقدم

ذلـك فى الآيات التى صرّحت بأن موسى وعيسى عليهما السلام وجيهان عند اللَّه تعالى ومن المقرّبين، فكلّ مقرّب ووجيه وحبيب لدى اللَّه ومن له كرامهٔ وعزّهٔ عنده عزّوجلّ يتوجّه ويتوسّل به إلى اللَّه ويجعل شفيعاً فى قول القائل: «إنّا توسّلنا وتوجّهنا واستشفعنا بك إلى اللَّه يا وجيهاً عند اللَّه اشفع لنا عند اللَّه».

والتعليل المذكور فى هذه الآيهٔ الكريمهٔ عامّ، وقد أقرّ اللَّه تعالىإبراهيم عليه، فيكون هذا التعليل دليلًا عامّاً على أن كلّ من كان له حفاوهٔ وقرباً عند اللَّه عزّ وجلّ يتوسل به ويتشفّع به عند اللَّه تعالى.

وهذه هى الملّهٔ الإبراهيميهٔ الحنيفيهٔ التى نحن عليها، «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ» «۱».

۶- قوله تعالى حكايهٔ لقول موسى عليه السلام: «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» «۲».

فالنبيّ موسى عليه السلام فى هذه الآيهٔ المباركهٔ يستغفر لنفسه ويتوسّط فى طلب الاستغفار لأخيه هارون عليه السلام، وهذا معناه أن الوسيلهٔ والشفاعهٔ قد تكون أيضاً من الولىّ الذى هو أقرب وأكثر حظوهٔ عند اللَّه تعالى للولىّ الذى هو دونه فى القرب، كما ورد ذلك فى شفاعهٔ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله لبقيّهٔ الأنبياء بل ولخصوص الأئمهٔ الاثنى عشر من أهل بيته عليهم السلام فى الكينونهٔ معه فى مقامه.

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۴، ص: ۱۳۷

وإذا كان النبىّ موسى عليه السلام واسطهٔ ووسيلهٔ رحمهٔ وغفران بين هارون النبى وبين اللَّه تعالى وهو نبىّ من الأنبياء فكيف ظنّك بسائر البشر؟!

۷- قوله تعالى حكايهٔ عن قول يعقوب عليه السلام وولده: «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ* قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» «۱».

وهذا توسّل من أبناء يعقوب بأبيهم عليه السلام، ونفس فعلهم هذا هو توبهٔ وندامهٔ وأوبهٔ وإنابهٔ إلى اللَّه عزّ وجلّ، ففى التوبهٔ التى هى من العبادهٔ للَّه‌تعالى توجّهوا إلى أبيهم؛ لحفاوته عند اللَّه تعالى، والنبىّ يعقوب عليه السلام أقرّهم على فعلهم هذا، وقال لهم: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» فقوله هذا شفاعهٔ منه عليه السلام لأبنائه عند اللَّه تعالى، وقولهم وتوجّههم إليه توسّل منهم بأبيهم وتوسيط له بينهم وبين اللَّه عزّ وجلّ؛ وذلك بحسب ما تقدّم ويأتى أيضاً من الرابطهٔ الوثيقهٔ بين التوسّل والشفاعهٔ، وجاء فى ذيل سورهٔ يوسف قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ» «۲»

أى أن ما ذكر فى الآيات عبرهٔ لمن يقرأ القرآن ليتخذها سنّهٔ ينتهجها.

۸- قوله تعالى: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» «۳».

وهذه الآيهٔ المباركهٔ تبيّن وساطهٔ حملهٔ العرش فى غفران الذنوب، وقد روى الفريقان أن حملهٔ العرش يوم القيامهٔ ثمانيهٔ، أربعهٔ من الأولين وأربعهٔ من

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۴، ص: ۱۳۸

الآخرين، أما الأولون فهم الأنبياء أولو العزم، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وأما الآخرون فهم النبىّ صلى الله عليه و آله وثلاثهٔ من هذه الأمهٔ، وهم الامام علىّ عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام، أخرج الكلينى فى الكافى عن يحيى بن سليمان المازنى عن أبى الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامهٔ كان على عرش الرحمن أربعهٔ من الأولين وأربعهٔ من الآخرين، فأما الأربعهٔ الذين هم من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وأما الأربعهٔ من الآخرين فمحمّد وعلىّ والحسن والحسين صلوات اللَّه عليهم» «۱».

وسواء كان حملهٔ العرش من الملائكهٔ أم من الأنبياء والأوصياء، فإنهم شفعاء ووسيلهٔ يستغفرون للذين آمنوا.

۹- قوله تعالى على لسان بنى إسرائيل: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ» «۲».

فإن سؤال بنى إسرائيل فى هذه الآية المباركة لم يكن بالخطاب فى الدعاء مباشرة للّهتعالى، وإنما سألوا اللّه تعالى وتوجّهوا إليه بنبيّه، وموسى عليه السلام أجابهم على ما سألوا بقوله: «فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ» ولم ينكر عليهم توسيطه فى قضاء الحاجة وطلب ونيل المقصود، وكذلك اللّه عزّ وجلّ لم ينكر عليهم ذلك فى القرآن الكريم، وإنما أنكر عليهم استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير.

۱۰- قوله تعالى على لسان نبيّه سليمان عليه السلام: «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۳۹

بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ* قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ* قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ» «۱»

، حيث توسّل النبىّ سليمان عليه السلام للإتيان بعرش بلقيس بمن عنده علم من الكتاب، وهو وصيّه آصف بن برخيا.

والحاصل: إن هذا الوجه القرآنى الذى ذكرناه بطوائفه المتعدّدة من الآيات، حصيلته أن هناك أمراً إلهياً للنبىّ صلى الله عليه و آله بأن يكون وسيلة وشفيعاً لهذه الأمة، وأمر الناس بأن يأتوه ويقصدوه ويزوروه طلباً للشفاعة وقضاءً للحوائج، وأن مجرّد الندامة والتوبة لا تكفى، بل لابدّ من التوجّه إلى الواسطة، كما فعل أولاد يعقوب، الذين كان فى قصصهم عبرة لهذه الأمة، وهذه كلّها أوامر تعظّم مبدأ التوسّل وتحثّ عليه وتهدّد من يستكبر عليه، وأن مصيره يكون كمصير إبليس.

۱۵- آيات التوسّل بمخلوقات كريمة أضيفت إلى الأنبياء والأولياء ...: ص: ۱۳۹

اشارة

هناك آيات عديدة تنصّ على مشروعية التوسّل بغير الأنبياء والرسل من المخلوقات الكريمة على اللّه تعالى، والتى أُضيفت إلى الأنبياء والأولياء، فهى توجب تحقيق المقصود وإنجاح بعض الحوائج، نشير إلى بعضها:

۱- ما هو مذكور فى قصة يوسف عليهما السلام، حيث أمر إخوته أن يُلقوا قميصه على وجه أبيه ليرتدّ بصيراً ببركة ذلك القميص، وذلك فى قوله تعالى: «إِذْهَبُوا

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۴۰

بِقَمِيصِى هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ* وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ* قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ* فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» «۱»

، فالمشافى فى هذه الآيات المباركة نبىّ كبير من الأنبياء، وهو يعقوب عليه السلام، والشفاء حصل بتوسّط قميص لامس بدن يوسف عليه السلام، وهذا نوع من التوسّل والتوسيط فى إفاضة الشفاء من اللّه عزّ وجلّ، فإن الشفاء حقيقة من اللّه تعالى والفيض كلّه منه تعالى؛ لأنه الخالق الحقيقى لكلّ الممكنات بما فيها الشفاء والاستشفاء، كما فى قول إبراهيم عليه السلام: «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» «۲»

إلّاأن ذلك لا يمانع جعل الوسائط وأن يتوسل الشخص بوسيلة منصوبة من اللّه عزّ وجلّ ومجعولة لإفاضة الشفاء منه تعالى، كالأشياء

المضافة إلى الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، والسرّ فى ذلك أن اللَّه عزّ وجلّ جعل عالم الخلقة محكوماً بقانون الأسباب والمسببات، لتكون مواطن ومجارى فيضه إلى المراتب النازلة من الوجود.

إذن إذا كان نبىّ من الأنبياء يتوسل بجاه نبىّ آخر من الأنبياء، وهو ابنه يوسف عليه السلام، وذلك ببركة قميصه بجعله واسطة فيض فى الشفاء، فكيف بنا نحن؟

ثم إنه ليس فى المورد وهو القميص خصوصية، بل ذلك شامل لكلّ ما له نسبة وإضافة إلى نبىّ من الأنبياء أو وصىّ من الأوصياء بما يوجب حصول

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۴۱

البركة فيه، وذلك لأن الفعل يحمل فى طيّاته الطبيعة العامة والسنّة الإلهية الشاملة؛ ولذا قال اللَّه عزّ وجلّ فى نفس سورة يوسف: «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ» «۱»

، وقال تعالى أيضاً فى السورة ذاتها: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى» «۲».

إذن آية الاستشفاء ومشروعيته عامّة والمورد لا يخصّص الوارد.

هل الآية دليل على مشروعية الاستشفاء فقط ...؟ ص: ۱۴۱

لابدّ من التنبيه هنا على أن الاستشفاع والتوسّل والاستغاثة والتبرّك والاستشفاء كلّها من باب واحد، وتندرج تحت طبيعة واحدة وإن تعدّدت عناوينها، فهى أصناف لطبيعة واحدة عامّة، وهى توسيط الواسطة لنجح المسؤول ونيل المطلوب.

فالتبرك مثلًا هو طلب البركة، أى طلب الحاجة بواسطة ما جعله اللَّه عزّ وجلّ من الحظوة والبركة فى ذوات الأنبياء والأولياء المقدّسة أو ما يتعلّق بهم وينتسب إليهم.

وكذا الاستغاثة طلب قضاء الحاجة بواسطة المستغاث به فى حالة خاصة، وهكذا بقيّة العناوين الأخرى كما ستأتى الإشارة إلى بعضها عند ذكر الفرق بين التوسّل والاستشفاع والشفاعة فى الفصل الرابع.

وبناء على هذا يكون الاستشفاء بقميص يوسف عليه السلام المذكور فى الآية

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۴۲

المباركة توسيط وتبرّك وتوسّل بالقميص إلى اللَّه عزّ وجلّ.

وتكون هذه الآية الكريمة دالّة على مشروعية مطلق التوسيط بكلّ أصنافه، وليست الآية خاصة بالاستشفاء فقط، وهذا من الاستدلال على مشروعية النوع أو الجنس بمشروعية الصنف أو النوع.

هذا تمام الكلام فى هذه الآية.

۲- قصة البقرة، الواردة فى قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» «۱»

، فإن هذه القصة تتحدّث عن إحياء شخص من بنى إسرائيل، قتل ظلماً واختلفوا فى قاتله فأمرهم اللَّه تعالى للكشف عن قاتله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها، لتعود إليه الحياة ويتكلّم بذكر قاتله، قال عزّ وجلّ: «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» «۲»

، فهنا البارى تعالى مع كون الإحياء من فعله وليس هو بالأمر الهين، بل هو من الأمور العظيمة والكمالات الأولية لا الثانوية، مع ذلك جعل الوسيلة إليه الضرب بلحم بقرة مذكّاة، فكيف بك بالأنبياء والأوصياء، ألا يستدرّ بهم رحمة اللَّه عزّ وجلّ؟!

ويجدر الاشارة إلى أن البقرة لم تكن بقرة عادية، بل كانت محلّ العناية الإلهية، وقد ذُكرت لها أوصافاً خاصّة فى الآيات المباركة، وإن كان الاستقرار عليها بعناد من بنى إسرائيل.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۴۳

والفرق بين ما هو مذكور فى هذه الآيات المباركة وبين تقديس البقر وعبادتها، هو وجود الأمر الإلهى وعدمه، وقد جعل اللّه عزّ وجلّ البقرة سبباً من الأسباب الإلهية وموضعاً من مواضع قدره وإبرام قضائه فى القصة المذكورة.

ويشهد على ما ذكرنا قوله تعالى فى ذيل الآية الكريمة: «وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

ومعنى ذلك أن اللّه عزّ وجلّ جعل البقرة آية وواسطة لاحياء الموتى بإذنه ومشيئته.

۳- قصة التابوت، التى وردت فى قوله تعالى: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» «۱».

فالتابوت الذى فيه سكينة وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون جُعل آية معجزة لمُلك طالوت وإمامته، فتلك التركة بسبب علقتها بآل موسى وآل هارون واكتسابها البركة لإضافتها إليهم تصل إلى درجة الاعجاز والآية البيّنة لاثبات مطالب حقّة، وهى إمامة طالوت وتوجب بروز ظواهر خارقة للعادة للتابوت تكوّن منه معجزة، كما ورد فى روايات الفريقين.

فهذه الواسطة تجاوزت حدّ الكرامة والبركة لتصل إلى درجة الحجّية

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۴۴

والإعجاز؛ ولذا قال اللّه عزّ وجلّ فى ذيل الآية الكريمة: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» وذلك لبيان أن التابوت آية وعلامة وواسطة يتوسّط ويتوسل بها لإثبات مُلك طالوت وإمامته.

۴- قصة السامرى صاحب العجل، التى وردت فى قوله تعالى فى بنى إسرائيل عندما ذهب موسى عليه السلام إلى ربّه: «قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِىُّ* فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِىَ» «۱»

إلى أن قال اللّه عزّ وجلّ حكاية عن لسان موسى عليه السلام: «قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِىُّ* قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى» «۲»

، والرسول فى الآية الكريمة كما فى بعض الروايات هو جبرئيل عليه السلام، عندما هبط وتمثّل على حصان ليستنقذ موسى عليه السلام وبنى إسرائيل من فرعون وجنوده ويرشدهم إلى الطريق، من أجل العبور من مصر إلى الطرف الآخر، فكان على حصان نورىّ تمثّلى، وكان السامرى من خواصّ النبىّ موسى عليه السلام، فلاحظ أن حافر حصان جبرئيل عليه السلام عندما كان يخطو الحصان ينبت الزرع دفعة واحدة من تحته، فقبض قبضة من أثر حصان الرسول فنبذها فى العجل فإذا هو له خوار.

وقد وردت هذه القصة فى روايات الفريقين:

ففى تفسير القمى عن أبى جعفر عليه السلام قال: (وكان السامرى على مقدّمة موسى يوم أغرق اللّه فرعون وأصحابه، فنظر إلى جبرئيل وكان على حيوان فى صور

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۴۵

رمكة «۱» فكانت كلّما وضعت حافرها على موضع من الأرض تحرك ذلك الموضع، فنظر إليه السامرى وكان من خيار أصحاب موسى، فأخذ التراب من تحت حافر رمكة جبرئيل وكان يتحرك، فصرّه فى صرّة، وكان عنده يفتخر به على بنى إسرائيل، فلما جاءهم

إبليس واتخذوا العجل قال للسامری هات التراب الذی معک، فجاء به السامری فألقاه إبليس فی جوف العجل، فلما وقع التراب فی جوفه تحرک وخار) «۲».

وفی جامع البيان للطبری قال: (وقوله: فقبضت قبضة من أثر الرسول، يقول: قبضت قبضة من أثر حافر فرس جبرئيل) ثم أخرج عن ابن عباس قوله: (لما قذفت بنو إسرائيل ما كان معهم من زينة آل فرعون فی النار وتكسّرت، ورأى السامری أثر فرس جبرئيل عليه السلام فأخذ تراباً من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار فقذفه فيها، وقال: كن عجلًا جسداً له خوار، فكان للبلاء والفتنة) وفی‌حديث آخر عنه أيضاً: (فألقى القبضة على حُليّهم فصار عجلًا جسداً له خوار).

وأخرج أيضاً عن مجاهد فی قول اللَّه تعالى: «فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا» قال: (من تحت حافر فرس جبرئيل، نبذه السامری على حلية بنی إسرائيل فانسبک عجلًا جسداً له خوار) «۳».

فإذا كان أثر التراب الذی لامس حافر فرس جبرئيل عليه السلام له ذلک التأثير مع أن السامری استخدمه فی طريق الضلالة والغواية فما بالک بمن هو أشرف من جبرئيل عليه السلام؟! ألا تكون المواضع التی وقف فيها الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وقبره

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۴۶

والمواطن التی لامست بدنه الشريف ذات بركة وتأثير خارق لما هو المعتاد، لا سيما إذا كان فی طريق الهداية والانصياع للأوامر الإلهية؟!

۵- عصا موسى عليه السلام، حيث كانت وسيلة وواسطة للعديد من المعاجز الإلهية كانقلابها أفعى، وضرب البحر بها فكان كلّ فرق كالطود العظيم، وضرب الحجر بها فانفجرت إثنتا عشرة عيناً، كلّ ذلک لكونها مضافة إلى موسى عليه السلام، فهی مباركة ببركة موسى عليه السلام وواسطة للكثير من المعاجز، فكيف بک بنفس موسى ومن هو أفضل من موسى، ألا يكون واسطة ووسيلة لقضاء الحوائج التی هی لا تصل فی العظمة والخطورة إلى حدّ المعجزة؟!

۶- البيت الحرام حيث جعله اللَّه عزّ وجلّ مباركاً تُطلب فيه البركة ويدعى فيه لقضاء الحوائج، وهو نوع توسيط لأجل طلب البركة، وذلک ما جاء فی قوله‌تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ» «۱».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۴۷

الفصل الثالث / شرطية التوسّل وضرورته فی مقامات ثلاث ...: ص: ۱۴۷

اشارة

/ قبول التوبة/ وقبول العبادات/ ونيل المقامات الإلهيّة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۴۸

الدليل الأول: معطيات الشهادة الثانية

الدليل الثانی: التوسّل ضرورة عقلية

الدليل الثالث: عموم وجوب طاعة اللَّه ورسوله وأولی الأمر.

الدليل الرابع: اقتران اسم النبیّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام بأعظم العبادات.

الدليل الخامس: ابتغاء الوسيلة ضرورة قرآنية.

الدليل السادس: شرطية الاستجارة بالنبیّ صلى الله عليه و آله فی طلب المغفرة.

الدليل السابع: التوسّل بالنبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام ميثاق مأخوذ على الأنبياء.

الدليل الثامن: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِم».

الدليل التاسع: الاستكبار والصدّ عن آيات اللَّه تعالى موجب لحبط الأعمال.

الدليل العاشر: خضوع الملائكة لولىّ اللَّه وخليفته.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۴۹

شرطية التوسّل وضرورته فى مقامات ثلاث ... ص: ۱۴۹

اشارة

نريد أن نبيّن تحت هذا العنوان دور التوسّل وشرطيته فى مقامات ثلاث، وهى كالتالى:

المقام الأول: إن من شرائط التوبة وقبولها التوسّل بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام.

المقام الثانى: إن من شرائط قبول وصحة الإيمان (العقيدة) والعبادات مطلقاً التوسّل والتوجّه بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام.

المقام الثالث: إن أى توجّه إلى الحضرة الربوبية فى صدد نيل مقام من المقامات الإلهية أو حظوة عند اللَّه تعالى لابدّ فيه من التوجّه بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام والتوسّل بهم.

فإن فقهاء الإمامية وغيرهم أيضاً ذكروا أن ولاية أهل البيت عليهم السلام شرط فى تلك المقامات الثلاث، بمعنى معرفتهم والإيمان بإمامتهم.

وليس هذا ما نريد إثباته هنا؛ إذ هو مع وضوحه خارج عن محلّ البحث.

إذن ما نريد بيانه هنا هو شرطية التوسّل بالنبىّ الأعظم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام فى تلك المقامات الثلاث.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۵۰

ولأجل اشتراك ما ادّعيناه فى المقامات الثلاث فى طبيعة الأدلّة نستعرضها ببيان واحد، يكون صالحاً لإثبات المدّعيات الثلاثة فى المقامات المذكورة.

وإليك فيما يلى استعراض الأدلّة:

الدليل الأول: معطيات الشهادة الثانية ... ص: ۱۵۰

إن المعرفة والعقيدة والإيمان الذى هو من العبادات، بل أعظم الفرائض الإلهية؛ لأنه إذعان وإخبات وتسليم وخضوع وانقياد للَّه‌تعالى، وهذه المعرفة الإيمانية للعقل والقلب هى عبادتهما وطوعانيتهما للَّه‌نوع توجّه ولقاء للَّه‌تعالى ووفود على الحضرة الربوبية وزلفى وقرب بتوسّط الإيمان القلبى، وهذه العبادة القلبية العظيمة ممتنعة بلا واسطة، وذلك لعظمة اللَّه عزّ وجلّ، فلا اكتناه ولا إحاطة ولا مماسّة ولا ملامسة ولا مواجهة جسمية أو عقلية أو نفسية؛ إذ لا يُجابه الجسم إلّاما يماثله فى الجسمية، ولا يُجابه النفس أو العقل إلّاما يماثلهما، واللَّه تعالى منزّه عن كونه جسماً أو نفساً أو عقلًا؛ لكونها من الممكنات المحدودة بحدود الماهية والفقر والحاجة.

إذن لابدّ من الوسيلة والواسطة فى الإيمان، الذى هو أعظم العبادات وأعظم أنواع التوجّه إلى اللَّه تعالى، والواسطة هى الإيمان بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والإقرار بالشهادة الثانية فى مقام الإدلاء بالشهادة التوحيدية المقبولة عند اللَّه تعالى، والموجبة للخروج من حظيرة الشرك إلى التوحيد الإسلامى الخالص؛ لأنه أعظم آية للحقّ سبحانه.

وإذا كان للوسيلة هذا الدور الخطير فى المعرفة وأن التوجّه إليها فى المعرفة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۵۱

توجهاً إلى اللَّه تعالى، والمعرفة أعظم شأناً من سائر العبادات، فكيف لا يكون التوجّه فى عبادة البدن والنفس إلى اللَّه تعالى بالوسيلة؟! وكيف لا يسوغ التوجّه فى الخطاب الكلامى بألفاظ الدعاء إلى الوسيلة، ويكون دعاؤها دعاء بها إلى اللَّه تعالى؟!

ففى حاقّ وعمق عبادة الإيمان والتوجّه القلبى لابدّ من التوجّه بالنبيّ صلى الله عليه و آله للوفود على اللَّه عزّ وجلّ، فلا يتحقّق التوحيد ولا- يكون المرء مؤمناً، إلّاإذا توجّه بقلبه إلى اللَّه تعالى بالشهادة الأولى والشهادة الثانية، ومن ينفى أى إسم أو واسطة مع اللَّه تعالى عند التوجّه إليه فهو واقع فى مغبّة الشرك والوثنية من حيث يشعر أو لا يشعر، نظير وثنية قريش، حيث كانوا لا يدينون اللَّه تعالى بطاعة وولاية نبيّه الأكرم صلى الله عليه و آله.

وإذا كان الإيمان والمعرفة كذلك فكيف بباقى العبادات التى هى أقلّ شأناً وخطورة؟!

والحاصل: أن المعرفة والإيمان والتوحيد الذى يتضمّن الدين بأجمعه لا يحصل إلّابالتوسل بآيات اللَّه الكبرى، ومزاوجة الشهادة الثانية بالشهادة الأولى، وهذا يعنى أن أى شأن من الشؤون الدينية كالتوبة أو العبادة أو نيل مقام من المقامات الإلهية لا يمكن أن يتحقّق إلّابالمحافظة على الشهادة الثانية، والإقرار بها وبمعطياتها وتداعياتها ومقتضياتها فى كافّة أصول وفروع المعارف التوحيدية، ولا شك أن الإيمان بالشهادة الثانية توجّه قلبى بالنبيّ الأكرم للَّهعزّ وجلّ، إذ الإيمان كما أسلفنا طلب للقرب والزلفى ولقاء اللَّه تعالى، وهذا القرب إنما يتحقّق بتوسيط الشهادة الثانية، وهى شهادة أن محمّداً رسول

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۵۲

اللَّه ووليّه وخليفته فى أرضه.

فالإسلام يدعو إلى التوجّه بالنبيّ صلى الله عليه و آله فى الإيمان والاعتقاد وهو أفضل عبادة، فضلًا عن بقيّة العبادات الأخرى، والإباء عن التوجّه فى العبادة بخاتم الأنبياء إنكار للشهادة الثانية، ودعوة إلى الشرك باسم التوحيد، وهذا ما أخفق فيه السلفيون، حين جحدوا التوسّل بالنبى صلى الله عليه و آله، فلا تراهم يقرنون لون الشهادة الثانية ومؤداها ومعطياتها بلون الشهادة الأولى فى رسم بناء التوحيد فى أدبيات كتبهم، فيقتصرون على تفسير الشهادة الأولى فى التوحيد، من دون أن يهتدوا إلى كيفية ركنية مؤدّى الشهادة الثانية فى أركان التوحيد، وكيفية ضرورة الربط والارتباط بين مؤدّى كل من الشهادتين فى رسم أصل التوحيد، ومنه يظهر أن التوسّل والتوجّه بالنبى صلى الله عليه و آله ضرورة وليس مجرد خيار مشروعية.

الدليل الثانى: التوسّل ضرورة عقلية ... ص: ۱۵۲

اشارة

على الرغم من أن هناك من أعلام السنّة من أكّد على رجحان التوسّل ومشروعيّته، كالقاضى عياض فى كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى والسُبكى فى شفاء السقام والسيف الصقيل والسمهودى فى وفاء الوفا وتقى الدين الحصنى الشافعى فى كتابه دفع الشبه عن الرسول والرسالة وغيرهم.

إلّا أن ما نرمى إليه فى هذه الأبحاث أبعد من ذلك؛ إذ أن الرجحان والمشروعية لا يثبتان سوى التخيير وكون التوسّل أمراً مرغوباً فيه يجوز للمكلف تعاطيه وله تركه أيضاً، وما نريد التأكيد عليه هنا هو أن مبدأ التوسّل أمر ضرورى يحكم العقل بلابدّيته وعدم إمكان المحيص عنه، وذلك لأن نفى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۵۳

الواسطة والوسيلة بين العبد وبين ربّه فى مقام التوجّه إليه تعالى لا يخرج عن أحد فروض ثلاثة كلّها باطلة:

الأول: فرض المجابهة والمواجهة المباشرة للّه‌تعالى حين التوجّه إليه فى الدعاء والعبادة، وبطلان هذا الفرض واضح، إذ يلزم منه التشبيه للذات الإلهية، وقد ثبت بطلانه فى الأبحاث العقائدية؛ لتنافيه مع الصفات الكمالية اللّامتناهية لواجب الوجود.

بيان الملازمة ...: ص: ۱۵۳

إن مجابهة ومواجهة البشر العاديين المباشرة للذات الإلهية المقدّسة إما أن تكون حسّية جسمانية أو نفسانية روحية أو عقلية، وهذه الأقسام الثلاثة من المجابهة المباشرة هى التشبيه الباطل بعينه، وذلك لأن الارتباط المواجهة الجسمية إنما تفرض مع ما هو جسم، لقانون التضايف بين المتجابهين، وهكذا التوجّه المواجهة الروحية والقلبية لما هو روح والمواجهة العقلية لما هو عقل أيضاً، فكلّ هذه الأقسام المفروضة للمواجهة المباشرة للّه‌تعالى لم تخرج عن دائرة التشبيه للذات المقدّسة بكونها جسماً أو روحاً أو عقلًا، وهو الشرك بعينه، لكونه موجباً لسلب واجب الوجود عن واجبيّته وكماله المطلق اللّامتناهى، ووصفه بصفات المخلوق المحدود بحدود الإمكان والماهية والفقدان والاحتياج والافتقار.

وحاصل هذا الفرض هو مواجهة البشر العاديين المباشرة للّه‌تعالى، وهو فرض التشبيه الباطل بكلّ مراتبه.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۵۴

الثانى: القول بالتعطيل وعدم السبيل إلى اللّه تعالى ومعرفته والتوجّه إليه، وهو باطل، لأن معرفة اللّه تعالى واجبة والتى هى نوع لقاء للّه‌عزّ وجلّ وتوجّه إليه وزلفى.

الثالث: دعوى أن الناس بأجمعهم لهم ارتباط مباشر مع اللّه تعالى فوق الجسم والروح والقلب والعقل بما لا يستلزم التشبيه، وهذا باطل بالوجدان، وقد رفض القرآن الكريم أيضاً الإيحاء والوحى إلى جميع البشر واستنكر ذلك على المشركين، كما فى قوله تعالى: «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً» «۱».

وردّ اللّه عزّ وجلّ فى آيات أخرى على هذه المقالة الباطلة، حيث قال: «وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ» «۲».

ومع بطلان هذه الفروض الثلاثة تكون النتيجة ضرورة الإيمان بالوسائل والوسائط والآيات، والرجال المؤهّلين للإرتباط باللّه تعالى، وهم الأنبياء والأولياء والمصطفين، الذين اصطفاهم اللّه عزّ وجلّ وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه فى كلّ ما يحتاج الخلق إليه وفى كلّ توجّه وطلب ودعاء وزلفى إلى اللّه تعالى، سواء كان على مستوى التوبة أو سائر العبادات أو نيل مقام من المقامات الإلهية، وليس ضرورة التوسيط إلّالعظمة اللّه عزّ وجلّ وعلوه عن التجسيم

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۵۵

والتشبيه والتعطيل.

ثم إن آيات اللّه الكبرى وأسمائه العظمى التى جعلها واسطة فى التوجّه إليه هى أيضاً لا تتوجّه إلى اللّه عزّ وجلّ بالمباشرة ولا تجابهه إلّابذواتها، فتوجّه الوسائط أيضاً إلى اللّه تعالى إنما يكون بذواتها التى هى آية لمعرفة اللّه عزّ وجلّ، ولا توجد أى مجابهة بالمباشرة لأىّ مخلوق من المخلوقات.

التوسّل فى كل النشآت ولأصناف المخلوقات ...: ص: ۱۵۵

والحاصل: أن اللّه تعالى لعظمته وعظيم صفاته لا ـ يجابه ولا يواجه إلّا بالوسائل والآيات، ولا يستثنى من ذلك القانون وتلك السنّة الإلهية التكوينية أى مخلوق من المخلوقات فى كلّ شأن من شؤونه المعرفية والعبادية فى هذه النشأة وفى جميع النشآت، ولذا قالت الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام فى مستهل خطبتها المعروفة فى هذا المجال: «فاحمدوا اللّه الذى بعظمته ونوره ابتغى من فى السماوات ومن فى الأرض إليه الوسيلة، فنحن وسيلته فى خلقه، ونحن آل رسوله، ونحن حجّة غيبه وورثة أنبيائه» «۱».

وكذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وبعظمته ونوره ابتغى من فى السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة» «۲».

إذن قانون ومبدأ التوسّل ضرورة يدركها العقل ويُقرّ بها، لعظمة اللّه تعالى، وليس التوسّل أمراً تخييرياً ولا مشروعاً فحسب.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۵۶

الدليل الثالث: عموم طاعة اللّه ورسوله وأولى الأمر ... ص: ۱۵۶

اشارة

إن ضرورة المسلمين قائمة على أن جميع العبادات فيها ما هو فرائض قرآنية إلهية ومنها ما هو سنن نبويّة، كما فى الصلاة والصيام والحجّ والزكاة والجهاد وغيرها، إذ هى فرائض إلهية فى أصل وجوبها فى الدين، وأما تفاصيلها وأجزائها وشرائطها وأقسامها فهى سنن نبويّة وصلتنا عن طريق أمر النبىّ صلى الله عليه و آله لكلّ المسلمين بتلك التفاصيل والتشريعات الخاصة، ومن أمثلة ذلك ما ورد فى روايات الفريقين من أن الصلوات كان فرضها من اللّه تعالى ركعتين لكلّ صلاة وما زاد عليها فى كلّ صلاة كان من سنّة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأمره وفرضه «۱» وهكذا بقيّة التفصيلات والتشريعات القانونية النبويّة ضمن الفرائض الإلهية، وكتب الحديث مليئة بالأوامر النبويّة فى مجمل الأبواب الفقهية وغيرها.

إذن فيكون الإتيان بالصلاة والزكاة والحجّ وغيرها طاعة لأمر اللّه وأمر رسوله صلى الله عليه و آله، ولا تُستعلم طاعة اللّه عزّ وجلّ من دون طاعة الرسول الأكرم فى أوامره ونواهيه، فهو صلى الله عليه و آله باب طاعته تعالى؛ لأنه هو الدالّ والمبيّن والناطق الرسمى عن أوامر اللّه عزّ وجلّ ونواهيه.

وهذا ما كنّا نُعبّر عنه بتداعيات ومقتضيات الشهادة الثانية؛ إذ هى تستدعى الإتيان والالتزام بجملة الدين طاعة للّهورسوله.

وهذا ما تكاثرت ودلّت عليه جملة من الآيات القرآنية، كما فى قوله تعالى:

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۵۷

«قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ» «۱».

وقوله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» «۲».

ثم إن اللّه عزّ وجلّ حذّر المسلمين من المخالفة لأوامر الرسول الأكرم، وبيّن فى آيات عديدة العواقب الوخيمة التى تترتب على مخالفة النبىّ صلى الله عليه و آله فى أوامره:

كما فى قوله تعالى: «لَاتَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» «۳».

وكذا قوله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا» «۴».

وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ» «۵».

وقوله عزّ وجلّ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» «۶».

إلى غير ذلک من الآيات القرآنيـة التی جاءت فی ضـمن السـلک العام والسـنّة الإلهيـة الشاملة لطاعة الرسل کافّة، کما فی قوله تعالی: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ» «۷»

، ومن الجدير بالإلتفات أن تتمة هذه الآية المبارکة هو قوله

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۵۸

عزّ وجلّ: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» «۱»

والتی سيأتی الاستدلال بها علی شرطية التوسّل فی المقامات الثلاث المتقدّمة.

والحاصـل: أن أوامر النبیّ صـلی الله عليه و آله اقترنت بـأوامر اللَّه وفرائضه فی مجمـل أحکـام الـدين الإسـلامی، وقـد أکّـدت الآيـات القرآنيـة علی وجوب اقتران طاعـة اللَّه تعالی بطاعـة رسوله صـلی الله عليه و آله، وهـذه طاعـة عامّة کطاعة اللَّه عزّ وجلّ فی کلّ أبواب الدين برمّته بلا استثناء لأیجانب من جوانب الشريعة الإسلامية والدين الإسلامی، ومعنی ذلک أن نيّة القربة إلی اللَّه تعالی وطاعته فی جميع العبـادات إنما تتحقّق بتوجّه العبـد إلی ربّه بطاعـة نبيّه، ففی کلّ عبادة إنما يتوجّه العبـد إلی اللَّه تعالی للتقرّب إليه بطاعته وطاعة رسوله.

فذلکة صناعية لأخذ التوسّل فی نية القربة ...: ص: ۱۵۸

ولا شک أن حقيقـة العبادات بالنيّـة القربيّـة، والنيّـة القربيّـة إنما تحصل بالسـبب المؤدّی إلی القربة، والقربی غاية مسـبّبة سـببها الطاعة لأوامر للَّهتعالی، وطاعـة اللَّه عزّ وجلّ لا تتحقّق إلّاإذا کانت مقترنـة بطاعة رسوله صـلی الله عليه و آله، إذ أن النيّة التی هی روح العبادة إنما تحصل بوسـيلة وواسـطة طاعة النبیّ، ومن لم ينوِ القربة بهذا النحو فی العبادة تکون عبادته شـرکاً باللَّه تعالی، لعدم التوجّه إلی اللَّه عزّ وجلّ بأبوابه التی أمر بتوسيطها وطاعتها وامتثال العبادات انقياداً لأوامرها.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۵۹

ومن يريـد أن يفصل فی صـلاته وحجّه وصومه طاعة اللَّه عن طاعة الرسول يکون علی الوثنية الجاهلية التی يشـنؤها اللَّه عزّ وجلّ وعبّر عنهـا فی قرآنه الکريم بالشـرک والنجس، وطاعـة کـلّ من لم يأمر اللَّه بطاعته وثن من الأوثان، بل حتی صـلاته تصـبح وثناً إذا کانت صادرة عن طاعـة غير من أمر اللَّه بطاعته، وإن کان ذلک المطاع هو الهوی وتحکيم سـلطان الذات علی سـلطان اللَّه عزّ وجلّ، کما فی الوثنية القرشية التی ذمّها القرآن الکريم.

ومن ذلـک يتّضـح أن أی عبـادة من العبادات أو قربـة من القربات أو نيل مقام من المقامات القربيـة أو الفوز بحظوة عنـد اللَّه تعالی لا يمکن أن تتحقّق من دون توسيط طاعة النبیّ الأکرم صلی الله عليه و آله فی تلک العبادة أو ذلک المقام.

ففی مقام التقرّب والنيّـة والقصـد جُعلت القبلة المعنوية طاعة النبیّ صـلی الله عليه و آله والتدين بولايته والخضوع له، الذی هو خضوع للَّهعزّ وجلّ، کخضوع الملائکة لآدم لأنه باب اللَّه تعالی.

هذا کلّه فی مقتضيات الشهادة الثانية وضرورة اقترانها بالشهادة الأولی.

کذلک أکّدت الآيات القرآنية علی ضرورة الشهادة الثالثة واقترانها بالشهادة الثانية تبعاً للشهادة الأولی.

والشـهادة الثالثـة عبـارة عن طاعـة أولی الأـمر، الـذين أمر اللَّه بطـاعتهم فی قوله تعالی: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِی شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَی اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِکَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» «۱»

، حيث قرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله صلی الله عليه و آله.

وقد بيّن اللَّه تبارک وتعالی فی قرآنه الکريم المراد من أولی الأمر الذين تجب

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۶۰

طاعتهم، بعد أن بيّن تعالى المقصود من الأمر الذى هم أولياؤه، وأنه أمر ملكوتى من عالم كن فيكون، كما فى قوله تعالى: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» «۱»

، وقوله تعالى: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» «۲»

، وكذا قوله عزّ وجلّ: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا» «۳»

، وقوله تعالى: «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» «۴»

، ثم أفصحت الآيات القرآنية عن كون الأمر عبارة عن تدبير السماوات والأرض، قال تعالى: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» «۵».

إذن أولو الأمر هم الذين يتنزّل عليهم الأمر فى ليلة القدر وفيها يفرق كلّ أمر حكيم، قال تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ* سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ» «۶»

، وقال عزّ وجلّ فى وصف ليلة القدر: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ* رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» «۷»

، ثم بيّن اللّه عزّ وجلّ أن شريعة النبىّ الأكرم من ذلك الأمر الحكيم الذى يفرق فى ليلة القدر، حيث قال عزّ وجلّ مخاطباً نبيّه الأكرم صلى الله عليه و آله: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۶۱

مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ» «۱».

وقد صرّحت آيات أخرى بأن الأمر الملكوتى يتنزّل على عباد اللّه من دون أن تخصّص من لهم الأمر بالأنبياء والرسل، قال عزّ وجلّ: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ» «۲».

وحاصل ما ذكرناه من الآيات: أن الأمر من عالم الملكوت والغيب، وأنه مرتبط بتدبير السماوات والأرض وغير مختصّ بالشؤون الدنيوية المادّية، وأن الشرائع وهداية الناس وإنذارهم مرتبطة به، وأنه شامل لأولياء اللّه الأصفياء المجتبين وليس خاصّاً بمقام النبوّة والرسالة، وذلك لارتباطه المباشر بمقام الهداية والإيصال إلى المطلوب وهو مقام الخلافة والإمامة كما تقدم؛ ولذا قال تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ» «۳»

، والصبر واليقين للأئمة من أولى الأمر فى هذه الآية المباركة إشارة إلىالعصمة فى مقام العلم والعمل.

ولا- يوجد أولو أمر فى هذه الأمة بعد رسول اللّه تجب طاعتهم غير أهل بيته صلى الله عليه و آله، الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

ولا- يمكن اقتصار الأمر الإلهى على السياسة والأمور الاجتماعية، بل هو أمر ملكوتى من عالم الغيب لهداية الأمة وتدبير السماوات والأرض يتنزّل فى ليلة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۶۲

القدر على أولياء اللّه وأصفيائه، وهؤلاء هم أوصياء رسول اللّه صلى الله عليه و آله والأئمة من بعده الدالّون على أوامره والذين أوكل لهم البيان الشرعى والقانونى للأوامر الإلهية والنبويّة، فكما أن الدالّ على أوامر اللّه ونواهيه هو النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله بأمره ونهيه، كذلك الدالّ على أوامر الرسول الأكرم ونواهيه أولو الأمر من بعده بأمرهم ونهيهم، فالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أمر ونهى فى ضمن إطار الفرائض الإلهية، وأولو الأمر أيضاً يأمرون وينهون فى ضمن دائرة السنن النبويّة المباركة، بما يشبه الحالة التراتبية فى التنزّل القانونى الوضعى فى الأدوار والصلاحيات، فهم الدالّون على طاعة الرسول صلى الله عليه و آله كما كان هو دالّا على طاعة

ربّه.

وبعبارة أخرى: إن أصول تشريع اللّه تعالى وفرائضه يتبعها تشريعات النبىّ صلى الله عليه و آله تفصيلًا وبياناً، ويتبعها تشريع أولى الأمر على نحو التنزّل القانونى، الذى هو الفتق بعد الرتق، والتفصيل بعد الإجمال، والبسط بعد القبض للتشريعات، وهذه لغة قانونية جعلها اللّه تعالى جسراً لإيصال أحكامه على ما جرى عليه البشر، كالتشريع للفقه الدستورى ثم النيابى ثم الوزارى، على نحو التبعية بلا منافاة، وهذا برهان قانونى على التشريعات التى لابدّ من طاعتها، فالرتق يُفسَّر ويفتق فتقاً قانونياً تابعاً له.

ويتجلّى ذلك المعنى أكثر إذا علمنا أن معظم بيان تشريع الشرائط والموانع وتفاصيل الأجزاء هى من تشريعات أئمة أهل البيت عليهم السلام، فلا تستعلم تلك الأمور مع تركهم والإعراض عنهم وعدم الطاعة لأوامرهم.

إذن الطاعة فى الدين بطاعة اللّه، وطاعة اللّه بطاعة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأولى الأمر، فالولىّ بعد اللّه تعالى رسوله صلى الله عليه و آله وبعد الرسول أولى الأمر، الذين لهم حقّ استنباط الدين وبيانه وتفصيله، قال تعالى: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۶۳

أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ» «۱».

والذى يتّضح مما ذكرناه أن طاعة أولى الأمر على حدّ طاعة رسول اللّه مقترنة بها وشاملة للدين كلّه، كما أن ولاية اللّه تعالى وطاعته كذلك غير مختصّة ببعض الشؤون السياسية أو الاجتماعية.

فالإتيان بجميع العبادات والطقوس الدينية طاعة لأمر اللّه وأمر رسوله وأولى الأمر من بعده وهم أهل بيته عليهم السلام، فالعبد ينقاد ويفد على اللّه تعالى ويتقرّب ويتوجّه إليه بطاعة الرسول وطاعة أولى الأمر، وهذا يعنى أن الشهادة الثانية والثالثة مأخوذتان واسطتين فى حاقّ عبادة اللّه تعالى بما فيها عبادة المعرفة، التى هى أعظم العبادات.

ومن ثمّ كان الدين عبارة عن ولاية اللّه وولاية الرسول وولاية أولى الأمر والطاعة لهم، قال اللّه تعالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» «۲».

والولاية والطاعة أصالة للّهوبالتبع للنبىّ وأولى الأمر بإذن وأمر من اللّه تعالى، كما أخضع اللّه عزّ وجلّ ملائكته ومن خلق من الجنّ وغيرهم لولىّ اللّه وخليفته آدم، بما هو النموذج والمصداق لخليفة اللّه فى الأرض، فكلّ من يتسنّم مقام الخلافة الإلهية لابدّ من الإنقياد والخضوع والطاعة له.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۶۴

وحيث أن التوجّه والقربة والزلفى لا تحصل إلّابالطاعة للّهوللرسول، كذلك لا تحصل إلّابطاعة أولى الأمر مقترنة مع طاعة اللّه ورسوله، فلا يمكن قصد القربة فى العبادة ولا يحصل القرب إلى اللّه تعالى فى العبادات إلّابالخضوع والطاعة لولىّ الأمر والإتيان بالعبادة امتثالًا لأمره، تبعاً لأمر اللّه والرسول صلى الله عليه و آله، حيث يستعلم أمرهما بأمره.

واتّضح من ذلك البيان أيضاً أن جميع العبادات فرائض من اللّه تعالى وسنّة من نبيّه ومنهاج وهدى من أهل بيته عليهم السلام وعلى جميع المستويات الاعتقادية والعبادية.

كذلك تبيّن أن من يعبد اللّه من دون التوجّه بحجّة اللّه ووليّه، بطاعته وامتثال أمره عمله هباء؛ إذ لا تتحقّق منه القربة لعدم الطاعة فى مقاماتها الثلاث وعدم ضمّ الشهادات الثلاث إلى بعضها البعض، فلا يُصار إلى التوجّه إلى اللّه تعالى إلّا عن طريق آياته وبيّناته، وهم الوسيلة إليه فى المقامات الثلاث التى ذكرناها فى صدر البحث، بل فى الدين كلّه.

ولو كان إقحام اسم النبىّ صلى الله عليه و آله وذكره والتوجّه القلبى إليه وإلى أولى الأمر موجباً للشرك لَما قرن اللّه تعالى طاعته بطاعتهم، فليس إنكار التوسّل والواسطة إلّا دعوة إلى التفريق بين اللّه ورسوله وأولى الأمر، وفصل الشهادات الثلاث وبتر بعضها عن البعض الآخر، وهذه هى عبادة الشرك التى آمن بها إبليس، الذى أراد أن يفرّق بين طاعة اللّه وطاعة خليفته، بخلاف الملائكة أهل

عبادة التوحيد الذين خضعوا للّهولوليّه آدم عليه السلام.

ثم إن مورد هذه الآية وهى آية «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۶۵

مِنْكُمْ» «۱»

التى حكمت بوجوب الطاعة هو الدين كلّه، فكما أن طاعة اللَّه عزّ وجلّ فى الدين كلّه، كذلك ما اقترن بها من طاعة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وأولى الأمر من أهل بيته عليهم السلام.

وما ورد من قوله تعالى: «إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً» لبيان أن محلّ بدن الخليفة هو الأرض، ولكن خلافته ليست خاصّة بالأرض، ومن ثمّ أطوع له جميع الملائكة فى جميع النشآت، والشاهد على ذلك أيضاً تقديم الجار والمجرور (فى الأرض) على الخليفة، فالدين الذى هو معرفة اللَّه تعالى عامّ لا يستثنى منه أحد فى جميع النشآت، ومن ثمّ تكون جميع المخلوفات مكلّفة بالطاعة لأولى الأمر؛ ولذا أمر اللَّه تعالى الملائكة بالسجود بما فيهم إبليس وهو من الجنّ، فخلافة وطاعة أولى الأمر وولايتهم لا تحدّ بالجنّ والإنس ولا بأمر سياسى أو اجتماعى، والكلّ يبتغى إلى اللَّه الوسيلة ويخضع لولى اللَّه فى توجّهه إلى خالقه، والتوجّه إلى اللَّه من دون التوجّه إليه بطاعة نبيّه ووليّه نجس وشرك ووثنيّة قرشية.

ونيّة القربة إذا لم تكن على هذا المنوال فى العبادة لا تقبل؛ لعدم تفتّح الأبواب بالآيات.

وبذلك كلّه يتمّ ما ذكرناه من شرطية التوسّل والتوجّه فى المقامات الثلاثة المتقدّمة، استناداً إلى وجوب الطاعة فى مراتبها الثلاث.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۶۶

الدليل الرابع: إقتران اسم النبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته: بأعظم العبادات ...: ص: ۱۶۶

لقد رفع اللَّه عزّ وجلّ ذكر النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وقرنه باسمه فى مجمل العبادات، التى تقع فى مصافّ أسس الدين وأركان الإيمان، من حيث محوريتها فى المنظومة الدينية، ونشير فيما يلى إلى بعض تلك الشواهد فى هذا المجال:

الشاهد الأول: الإتيان باسم النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فى تشهّد الصلاة، حيث إن الصلاة على النبىّ وأهل بيته راجحة بإجماع المسلمين «۱»، وهى شرط واجب فى الصلاة عند بعض المذاهب الإسلامية، كمذهب أهل البيت عليهم السلام «۲» وبعض فقهاء المذاهب الأخرى «۳»، تمسّكاً بما روته عائشة من الوجوب، حيث روت عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنه قال: «لا يقبل اللَّه صلاة إلّابطهور والصلاة علىّ» «۴».

وقد بيّن النبىّ الأكرم الصلاة عليه عندما سُئل عن كيفيّتها، فقال: «قولوا: اللّهمّ صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد» «۵»

، كذلك يستحبّ الصلاة على النبىّ محمّد صلى الله عليه و آله وآله بعد القنوت فى الصلاة، جزم بذلك النووى تبعاً للغزالى فى المُهذّب ونسبه إلى الجمهور «۶».

ولا شك أن ذكر الصلاة على النبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام نوع دعاء لهم وتحيّة وسلام، ونوع توجّه لهم بالمحيى والدعاء.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۶۷

وهذا يعنى أن المصلّى فى صلاته التى هى الركن الركين فى العبادات، والموجبة للعروج والقربان من اللَّه تعالى، إن قبلت قبل ما سواها وإن رُدّت رُدّ ما سواها على النبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام يتوجّه بالدعاء وإلقاء التحيّة والسلام، لكى تقبل صلاته وتوجب مزيداً من القرب إلى اللَّه تعالى، فالصلاة التى هى من دعائم الدين مقرونة بالوسائط والأبواب الإلهية، لكى تكون صحيحة مقبولة عند اللَّه تعالى أو موجبة لمزيد القرب منه، وإذا كانت الصلاة كذلك فكيف بباقى العبادات الأخرى؟!

ولو كان إقحام اسم النبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام فى الصلاة والتوجّه إليهم بالقلب موجباً للشرك لما كان الأمر فيها على هذه الحال، فالفرق بين صلاة المشركين وصلاة الموحّدين فى أن صلاة المشركين تفتقد لذكر النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فيها، بخلاف صلاة المسلمين، حيث يقرن فيها إسم النبىّ الأكرم إلى جانب ذكر اللّه تعالى.

وقد قرن وجوب أو استحباب بعض العبادات الأخرى غير الصلاة باستحباب الصلاة على النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، كاستحباب الصلاة على النبىّ صلى الله عليه و آله إذا فرغ الحاج من التلبية فى الحجّ «۱»، واستحباب الصلاة على النبىّ صلى الله عليه و آله عند ذبح الهدى أو الأضحية «۲»، وقد جعلت الصلاة على النبىّ صلى الله عليه و آله أحد أركان الخطبة فى صلاة الجمعة «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۶۸

كذلك من أركان صلاة الميّت الصلاة على النبىّ صلى الله عليه و آله وآله عليهم السلام «۱»، ويستحبّ أيضاً الصلاة على النبىّ وآله قبل الأذان والإقامة وبعدهما، كما نصّ على ذلك عبد العزيز الهندى نقلًا عن النووى فى شرح الوسيط- فى كتابه الفقهى فتح المعين «۲»، إلى غير ذلك من الموارد التى لا تحصى فى الفقه، والتى قرنت فيها جملة وافرة من العبادات باسم النبىّ المبارك صلى الله عليه و آله وأهل بيته الطاهرين، وليس ذلك إلّاتوجّه وتوسّل بهم عليهم السلام لقبول العبادة وحصول القرب من اللّه تعالى، ولفتح أبواب السماء لصعود العمل.

وهذا ما ورد النصّ عليه فى روايات عديدة ومتضافرة من طرقنا وطرق السنّة، حيث نصّت على أن الدعاء محجوب عن السماء ما لم يصلِّ على النبىّ وآله:

منها: ما ورد عن الإمام على عليه السلام قال: «الدعاء محجوب عن السماء حتى يُتبع بالصلاة على محمّد وآله» «۳».

ومنها: ما ورد عن أبى ذرّ عن النبىّ صلى الله عليه و آله قال: «لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلّى علىّ وعلى أهل بيتى» «۴».

ومنها: ما جاء عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «قال رسول

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۶۹

اللّه صلى الله عليه و آله: صلاتكم علىّ إجابة لدعائكم وزكاة لأعمالكم» «۱».

ومنها: ما ورد أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال: «إن رجلًا أتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال: يارسول اللّه، إنى جعلت ثلث صلاتى لك، فقال له خيراً، فقال له:

يارسول اللّه إنى جعلت نصف صلاتى لك، فقال له: ذاك أفضل، فقال: إنى جعلت كلّ صلاتى لك، فقال: إذن يكفيك اللّه عزّ وجلّ ما أهمّك من أمر دنياك وآخرتك، فقال له رجل: أصلحك اللّه كيف يجعل صلاته له؟ فقال أبو عبداللّه عليه السلام: لا يسأل اللّه عزّ وجلّ إلّابدأ بالصلاة على محمّد وآله» «۲».

ومنها: ما رواه فضالة بن عبيد، حيث قال: (سمع رسول اللّه صلى الله عليه و آله رجلًا يدعو فى صلاته لم يمجّد اللّه تعالى ولم يصلِّ على النبىّ صلى الله عليه و آله، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«عجّل هذا»، ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلّى أحدكم فليبدأ بتحميد ربّه عزّ وجلّ والثناء عليه، ثم يصلّى على النبىّ، ثم يدعو بعد بما شاء» «۳».

وعن ابن مسعود قال: (إذا أراد أحدكم أن يسأل فليبدأ بالمدحة والثناء على اللّه بما هو أهله، ثم ليصلِّ على النبىّ صلى الله عليه و آله، ثم ليسأل فإنه أجدر أن ينجح) «۴»، قال الهيثمى فى زوائده: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح «۵».

ومنها: ما عن جابر بن عبداللّه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «لا تجعلونى كقدح

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۷۰

الراكب، فإن الراكب إذا أراد أن ينطلق علّق معالقه، وملأ قدح ماء، فإن كانت له حاجة فى أن يتوضّأ توضّأ، وأن يشرب شرب، وإلّا

أهراق، فاجعلونى فى وسط الدعاء وفى أوّله وفى آخره» «۱».

ومنها: ما أخرجه القاضى عياض عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «كلّ دعاء محجوب دون السماء، فإذا جاءت الصلاة علىّ صعد الدعاء» «۲».

ومن الروايات التى من طرقنا أيضاً ما فى موثقة السكونى عن أبى عبداللَّه عليه السلام قال: «من دعا ولم يذكر النبىّ صلى الله عليه و آله رفرف الدعاء على رأسه، فإذا ذكر النبىّ صلى الله عليه و آله رفع الدعاء» «۳».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إذا كانت لك إلى اللَّه حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على النبىّ صلى الله عليه و آله ثم سل حاجتك، فإن اللَّه أكرم من أن يُسأل حاجتين فيقضى إحداهما ويمنع الأخرى» «۴».

كذلك عن أبى عبداللَّه عليه السلام قال: «إذا دعا أحدكم فليبدأ بالصلاة على النبىّ، فإن الصلاة على النبىّ مقبولة، ولم يكن اللَّه ليقبل بعض الدعاء ويردّ بعضاً» «۵».

وعن الإمام الحسن بن على العسكرى عن آبائه عليهم السلام عن النبىّ صلى الله عليه و آله قال: «إن اللَّه سبحانه يقول: عبادى من كانت له إليكم حاجة فسألكم بمن تحبّون أجبتم

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۷۱

دعاءه، ألا فاعلموا أن أحبّ عبادى إلىّ وأكرمهم لدىّ محمّد وعلىّ حبيبى ووليىّ، فمن كانت له حاجة إلىّ فليتوسل إلىّ بهما، فإنى لا أردّ سؤال سائل يسألنى بهما وبالطيبين من عترتهما، فمن سألنى بهم فإنى لا أردّ دعاءه، وكيف أردّ دعاء من سألنى بحبيبى وصفوتى ووليىّ وحجّتى وروحى ونورى وآيتى وبابى ورحمتى ووجهى ونعمتى؟ ألا-وإنى خلقتهم من نور عظمتى، وجعلتهم أهل كرامتى وولايتى، فمن سألنى بهم عارفاً بحقّهم ومقامهم أوجبت له منّى الاجابة، وكان ذلك حقّاً علىّ» «۱».

وهذه الروايات بمجموعها والأحكام التى سبقت للصلاة على النبىّ وآله فى الصلاة وغيرها من العبادة كاشفة عن اقتران اسم النبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته الطاهرين بأعظم العبادات بل معظمها، وهذا يعنى أن اللَّه عزّ وجلّ جعل تلك الأسماء المباركة واسطة لفيضه وشرطاً حقيقياً للتوسل إليه فى التوبة وسائر العبادات القربية والمقامات الإلهية، وأن أبواب السماء مغلقة إلّاعن سبيلهم عليهم السلام وطريقهم، الذى نصبه اللَّه تعالى مناراً لعباده ومحجّة واضحة لخلقه.

هذا كلّه فى الشاهد الأوّل وهو اقتران الصلاة على النبىّ وأهل بيته بالصلاة وغيرها من العبادات.

الشاهد الثانى: وهو كذلك اقتران اسم النبىّ صلى الله عليه و آله المبارك بالصلاة، وذلك بالإتيان به فى جزء التسليم من الصلاة، وهو قول المصلّى: السلام عليك أيها النبىّ ورحمة اللَّه وبركاته، فإن التسليم الذى هو جزء من أجزاء الصلاة ولا تتمّ الصلاة إلّابإتمامه والفراغ منه جُعل شطر منه التسليم على النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۷۲

فقبل إتمام الصلاة وفى حاقّها يستحبّ للمصلّى أن يسلّم على نبىّ الإسلام باتفاق فرق المسلمين.

ولا شك أن هذا التسليم بالكيفية المذكورة نوع زيارة للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وخطاب ونداء عن قرب ب (أيها) وتوسّل واستغاثة وتوجّه إليه وبه إلى اللَّه عزّ وجلّ؛ وذلك لأن اللَّه تعالى عندما شرّع التسليم والتحيّة للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فى الصلاة، التى شُرّعت لذكره عزّ وجلّ والتقرّب منه والعروج إليه، فإن ذلك يعنى أن ذكر النبىّ ذكر للّهتعالىونداءه نداء للبارى عزّ وجلّ، وليس ذلك إلّالكون النبىّ صلى الله عليه و آله الآية العظمى والوسيلة المحمودة بين اللَّه وبين خلقه فى الصلاة، التى هى من عظيم العبادات والقربات عند اللَّه تعالى.

إذن طبيعة الزيارة والنداء والندبة والاستغاثة والتوجّه بالنبىّ لنيل مقامات القرب فى الصلاة التى هى قربان كلّ تقى موجودة فى نفس الصلاة التى هى أكبر العبادات التوحيدية ويمارسها الفرد المسلم فى يومه عدّة مرّات.

والحاصل: إذا كانت الصلاة التى هى من دعائم الدين مقرونة بذكر النبىّ صلى الله عليه و آله لنيل مقامات القرب عند اللّه تعالى فكيف هو الحال بباقى العبادات والقربات الأخرى فى الدين؟!

وعلى هذا كيف يقال: إن ذكر غير اللّه تعالى فى التوجّه إليه عزّ وجلّ شرك؟!

وهل هذا إلّاطمس لمعالم الشهادة الثانية؟!

الشاهد الثالث: اقتران اسم النبىّ صلى الله عليه و آله باسم اللّه عزّ وجلّ فى الأذان، الذى هو عبادة من العبادات، ويُعدّ بوابة للصلاة التى إن قبلت قبل ما سواها وإن ردّت ردّ ما سواها، كذلك فى الإقامة، حيث أن الفرد المسلم كما يشهد أن لا إله إلّااللّه

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۷۳

كذلك يشهد أن محمّداً رسول اللّه، وليس ذلك إلّالكون إسم النبىّ صلى الله عليه و آله باب اللّه الأعظم، وأن الصلاة التى هى الركن الركين فى العبادات ومعراج المؤمن إلى ربّه مفتاحها وباب الولوج إليها إسم النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله مقروناً باسم اللّه تعالى.

ولو كان اسم النبىّ صلى الله عليه و آله وذكره والتوجّه القلبى إليه أثناء العبادة موجباً للشرك لما أمكن تشريع الأمر على هذا الحال، ولما أمر اللّه عزّ وجلّ بالتوجّه إليه بنبيّه.

الشاهد الرابع: الهجرة التى هى من العبادات العظيمة عند اللّه تعالى، وأكّدت عليها الآيات القرآنية فى مواطن عديدة، لا يمكن أن تحصل إلّابالهجرة إلى اللّه ورسوله، فلكى تصحّ عبادة الهجرة لابدّ أن يتوجّه فيها إلى اللّه وإلى رسوله صلى الله عليه و آله.

قال اللّه عزّ وجلّ: «وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» «۱».

والذى يتحصّل من هذه الشواهد وغيرها أن إسم النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وكذا أهل بيته عليهم السلام إقترن باسم اللّه تعالى فى أعظم العبادات كالصلاة والحجّ وغيرهما، هذا فضلًا عمّا دونها من العبادات، وهو اقتران واجب فى بعض موارده كما تقدّم فى الصلاة، ومعنى ذلك شرطية التوسّل والواسطة فى العبادات كما ادّعيناه فى بداية البحث.

وقد أحصى بعضهم فى هذا المجال جملة من المواطن العبادية التى تقرن باسم النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والصلاة عليه وعلى آله.

منها: فى التشهّد الأول والثانى فى الصلاة وآخر قنوت الصلاة وفى صلاة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۷۴

الجنائز وخطبة العيدين والجمعة والاستسقاء وبعد إجابة المؤذن وعند الإقامة وعند الدعاء وعند دخول المسجد وعند الخروج منه، وعلى الصفا والمروة وعند الفراغ من التلبية وعند استلام الحجر وعند الوقوف على قبره الشريف، وعقيب ختم القرآن الكريم، وعند الهمّ والشدائد وطلب المغفرة وعند تبليغ العلم، وعقب الذنب إذا أراد أن يكفّر عنه وبعد الفراغ من الوضوء وفى كلّ موطن يُجتمع فيه لذكر اللّه، وعند طلب قضاء الحاجة وعقيب الصلوات فى سائر أجزاء الصلاة غير التشهّد، إلى غير ذلك من المواطن.

وقد ذكر أيضاً للصلاة على النبىّ صلى الله عليه و آله، فوائد كثيرة جدّاً، منها:

۱- أنها سبب لغفران الذنوب.

۲- أنها تُصاعد الدعاء إلى عند رب العالمين.

۳- أنها سبب لشفاعته صلى الله عليه و آله.

۴- أنها سبب كفاية العبد ما أهمّه.

۵- أنها سبب لقرب العبد منه يوم القيامة.

۶- أنها سبب لقضاء الحوائج.

۷- أنها سبب لتبشير العبد قبل موته بالجنّة.

۸- أنها سبب للنجاة من أهوال يوم القيامة.

۹- أنها سبب لتذكّر العبد ما نسيه.

۱۰- أنها سبب لطيب المجلس.

۱۱- أنها سبب لنفى الفقر.

۱۲- أنها سبب لنفى البخل.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۷۵

۱۳- أنها ترمى صاحبها على طريق الجنّة وتخطى بتاركها عن طريقها.

۱۴- أنها تُنجى من نتن المجلس.

۱۵- أنها سبب لوفور نور العبد على الصراط.

۱۶- أنه يخرج بها العبد من الجفاء.

۱۷- أنها سبب لابقاء اللَّه سبحانه الثناء الحسن للمصلّى عليه بين أهل السماء والأرض.

۱۸- أنها سبب للبركة فى ذات المصلّى وعمله وعمره وأسباب مصالحه.

۱۹- أنها سبب لنيل رحمة اللَّه له.

۲۰- أنها سبب لدوام محبته للرسول وزيادتها وتضاعفها.

۲۱- أنها سبب لمحبّته صلى الله عليه و آله للعبد.

۲۲- أنها سبب لهداية العبد وحياة قلبه.

۲۳- أنها سبب لعرض اسم المصلّى وذكره عنده، إلى غير ذلك من الفوائد والثمرات.

الدليل الخامس: ابتغاء الوسيلة ضرورة قرآنية ... ص: ۱۷۵

اشارة

إن حقيقة هذا الدليل الخامس عبارة عن مزيد إيضاح وتعميق ونظرة أدقّ لما تقدم من قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «۱».

وفى المقدّمة لابدّ من التنبيه على أن التدبر فى الآية الكريمة يفيد أن الابتغاء

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۷۶

المأمور به جعل متعلّقاً لكلّ من الوسيلة وذى الوسيلة وهو اللَّه عزّ وجلّ.

فجعل الابتغاء والقصد والتوجّه إلى كلّ من الوسيلة والذات الإلهية المقدّسة، فكلّ منهما أُمرنا بقصده والتوجّه إليه، إلّاأن القصد والتوجّه إلى الوسيلة ابتداءً هو الذى يؤدّى وينتهى بنا إلى قصد اللَّه تعالى، فالغاية القصوى هو اللَّه عزّ وجلّ، إلّاأن الذى يقصد ابتداءً هو الوسيلة بداعى القصد إلى منتهى الغاية والأمل وهو اللَّه تبارك وتعالى.

بل لعلّ التدبّر الأعمق والنظر الأدقّ فى الآية المباركة يكشف عن أن لفظ «وابتغوا» أُسند إلى الوسيلة فقط، وأن لفظ «إليه» مرتبط بالوسيلة، لا ب «ابتغوا»، أى أن الوسيلة هى إليه، فالابتغاء متوجّه إلى الوسيلة فقط، وصفة الوسيلة أنها إليه.

وبعبارة أخرى:

إن فعل «وابتغوا» عمل فی لفظ «الوسیلة» کمفعول به، وأما لفظ «إلیه» فلیس متعلّقاً ب «ابتغوا» وإنما الذی یعمل فی الجار والمجرور هو لفظ «الوسیلة»؛ إذ فیها معنی المصدر والحدث، وأن التوسّل والوسیلة هو إلی اللَّه تعالی، فالابتغاء من جهة الترکیب الإعرابی یعمل فی الوسیلة فقط ویتعلّق بها، والوسیلة تتعلّق بلفظ إلیه وتعمل فیه، وعلیه فیکون الابتغاء والتوجّه والقصد بحسب ظاهر الدلالة متعلّقاً بالوسیلة، فهی التی یتوجّه إلیها النداء والرجاء والخطاب، وحیث أن صفتها الذاتیة أنها تؤدّی إلی اللَّه تعالی فیکون التوجّه إلیها توجّهاً إلی‌اللَّه عزّ وجلّ ونداؤها نداءً بها إلیه تعالی، وقصدها قصد بها إلیه جلّ ثناؤه، کما فی التوجّه إلی الکعبة واستقبالها، فإنه توجّه بها إلی اللَّه تعالی.

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۱۷۷

ومن ذلک یظهر أن مقتضی مفاد الآیة هو أن الإلتجاء وتوجیه الخطاب إنما یکون إلی الوسیلة، کقول الداعی والمتوسل: یامحمّد یانبیّ الرحمة إنی أتوجّه بک إلی اللَّه ربی وربک لقضاء حاجتی، فیوجّه الخطاب والنداء إلی النبیّ صلی الله علیه و آله ویکون ذلک منه ابتغاءً للنبیّ صلی الله علیه و آله کوسیلة إلی اللَّه عزّ وجلّ، وإلّا فإن جعل الخطاب للَّه‌تعالی فقط من دون التوجّه إلی النبی صلی الله علیه و آله فی الخطاب کوسیلة، لا یکون ابتغاءً وطلباً وتوجهاً إلی الوسیلة، بل ابتغاء مباشری للَّه‌تعالی من دون ابتغاء الوسیلة.

وعلی کلا البیانین لدلالة الآیة الشریفة تکون الآیة نصّ فی الدلالة علی الأمر بالتوجّه والنداء ودعاء الوسیلة وأنه دعاء للَّه‌تعالی.

ثم إن صیغة الأمر فی الآیة الکریمة یفید ضرورة التوسّل بالنبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله.

حیث أن هذه الآیة المبارکة لیست فی مقام بیان مشروعیة التوسّل فحسب، بل الآیة المبارکة ترمی إلی بیان حتمیة ولابدّیة التوسّل، وأنه أمر تعیینیّ عینیّ، وذلک لأن المقصود من ابتغوا الوسیلة أی اقصدوها وتوجّهوا إلیها فی مقام توجّهکم إلی اللَّه عزّ وجلّ، ومعنیّ (ابتغوا) أیضاً فی الآیة المبارکة أن هناک بُعداً بین العبد والباری تعالی وأن هناک مسافة لابدّ أن تطوی بابتغاء الوسیلة والحضور عندها، ولو کان هناک قُرباً تلقائیاً من طرف العبد إلی ربّه فلا حاجة إلی الوسیلة حینئذٍ للإقتراب من اللَّه تعالی؛ لکونه تحصیلًا للحاصل ولا یکون معنی للوسیلة وابتغائها ولو بنحو التخییر أیضاً.

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۱۷۸

قرب اللَّه وقرب العبد ...: ص: ۱۷۸

فالأمر بابتغاء الوسیلة وقصدها معناه أن هناک بُعداً بین العبد وبین اللَّه تعالی، وهو بُعد من جهة العبد فقط لا من طرف الباری عزّ وجلّ، لأن اللَّه تعالی قریب أقرب إلی العباد من حبل الورید، کما قال تعالی ذکره: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» «۱»

، لکن العبد من طرفه یحتاج إلی الوسیلة لبُعده؛ لأن قرب اللَّه تعالی إلی العبد لیس قرباً جسمانیاً جغرافیاً، لکی یکون هناک تلازم تضایفی بین العبد وربه فی القرب والبُعد، وکذا لیس من نوع القرب العقلی أو الروحیّ لیحصل التجانس أو التماثل فی القرب؛ وذلک لما تقدّم من کون اللَّه تعالی منزّه عن التضایف والتقابل الجسمانی أو العقلی أو الروحی، لأنه تشبیه باطل مناف لعظمة ذات الباری تعالی.

إذن القرب الإلهی تجاه العبد قرب القدرة والسلطنة والهیمنة والإحاطة، فالمقتدر والمهیمن والمحیط کلّما کانت قدرته، وهیمنته وإحاطته أشدّ کلّما کان أقرب من المحاط به، وعلی العکس یکون الطرف المقابل الضعیف، فهو یزداد ضعفاً کلّما کان طرفه المقابل أشدّ قوة واقتداراً، کذلک کلّما ازداد المهیمن إحاطة ازداد الطرف الآخر مُحاطیّة وبُعداً عن أن یحیط بالمحیط، فالقویّ قریب محیط والضعیف بعید محاط، ویبعد کلّما ازداد القویّ قوّة وهیمنة؛ لأن الضعیف حینئذٍ بعید من حیث افتقاده للصفات والکمالات اللّامتناهیة

شدّة وعدّة، التى للقوىّ المحيط.

والحاصل: إن هناك نمطاً من التعاكس فى القرب والبُعد، فطرف يكون قريباً

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۷۹

والآخر بعيداً، كلّما ازداد البارى قرباً وإحاطة من حيث الصفات كلّما ازداد المخلوق بعداً من طرفه بالنسبة إلى اللَّه تعالى، وذلك من حيث التعاكس فى الصفات.

ومن ثمّ لابدّ من ابتغاء الوسيلة التى هى أشدّ كمالًا وأقرب إلى البارى تعالى، لكى يطوى المخلوق شيئاً من ذلك البُعد وينال درجة من درجات القرب برقيّه فى مدارج الكمال عن طريق الواسطة والوسيلة.

والوسيلة هى الأقرب إلى اللَّه تعالى من حيث الكمالات، إذ كلّما تكامل المخلوق فى الصفات ازداد قربه من الحضرة الربوبية، وكلّما عظم المخلوق صفة وكمالًا كلّما كان أقرب من الخالق لازدياد علمه ومعرفته بصفاته تعالى والعلم درجة من درجات القرب والوصول، إذ طالما تجلّت فى المخلوق صفات الخالق أكثر عرف ذلك المخلوق بتلك الكمالات والصفات، صفات الخالق عزّ وجلّ؛ ولذا يكون أكمل المخلوقات أعرفهم بربّه وأقربهم منه وأكثر دلالة عليه وأشدّهم آية وعلامة ترشد إليه وتقرّب منه؛ لأن ما يتجلّى فيه من بديع الكمالات آيات لكمال البارى عزّ وجلّ، على العكس من ذلك ما لو قلّت فى المخلوق الكمالات، فإنه تقلّ فيه الآيات الدالّة على عظمة اللَّه تعالى وقلّت بالطبع معرفته.

ومن هنا كان المخلوق الذى يتّسم بالضعف والفقر والحاجة والبعد عن اللَّه تعالى بحاجة إلى الوسيلة، التى هى أقرب صفة وكمالًا من اللَّه عزّ وجلّ، كى تكون سبباً يقرّبه إلى ربّه.

فالوسيلة والوسائط هى أعاظم المخلوقات، وهى آيات اللَّه وأسمائه

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۸۰

وعلاماته الدالّة عليه، والتى يستدلّ الخلق بعظمتها على عظمة البارى، فتزداد المعرفة ويحصل القرب بنيل الكمالات.

ولا شك أن الخطاب الوارد فى الآية المباركة الكاشف عن ضرورة الوسيلة بالبيان المتقدم عامّ وشامل للتوبة ومطلق العبادات وللمعرفة والإيمان أو التوجّه إلى الحضرة الإلهية لنيل مقام أو حظوة عند اللَّه تعالى.

الوسيلة معنى الشفاعة ...: ص: ۱۸۰

فللعلاقة بين العبد وربّه ولقطع مسافة البُعد لابدّ من الوسيلة، سواء فى المعرفة والإيمان أو فى قبول التوبة أو العبادات أو نيل المقامات، وقد أُطلق عن مثل هذا المقام فى لسان الشارع بالشفاعة؛ لأن الشفع فى الأصل بمعنى الزوج والاقتران، وهو فى المقام اقتران الذات الربوبية بالآيات والأسماء الإلهية.

ثم إنه سبق أن الآيات العظمى والكلمات التامّات هم النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام، وقد وصف اللَّه تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه و آله بالعظمة، وذلك فى قوله تعالى: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» «۱»

، فهم عليهم السلام الأسماء الحسنى التى أمر اللَّه أن يُدعى بها وتاب بها على آدم وامتحن بها إبراهيم عليه السلام لنيل مقام الخلافة والإمامة، وهذا البيان الذى ذكرناه، من ضرورة الواسطة والوسيلة لعظمة اللَّه تعالى هدى إليه أمير المؤمنين عليه السلام عند بيانه لقوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۸۱

مَحْذُورًا» «۱».

حيث بيّن أمير المؤمنين عليه السلام ضرورة الوسيلة، وأن اشتباه وخطأ المشركين إنما هو في اتخاذهم وسيلة اقتراحية غير مأذون بها، حيث طبّقوا الوسيلة الأعظم كمالًا على غير المصداق والفرد الحقيقي لها، فذمّهم اللَّه عزّ وجلّ على ذلك.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال: «فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين، وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون، وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة، بالأعمال المختلفة والأديان المشتبهة، فكلّ محمول يحمله اللَّه بنوره وعظمته وقدرته لا يستطيع لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً» «۲»

.فإن الأعمال المختلفة والأديان المشتبهة ناتج اتخاذ الخلق الوسيلة إلى اللَّه تعالى، بسبب عظمته ونوره وتعاليه عزّوجلّ.

ومن ذلك كلّه يتّضح أن من ينكر التوسّل أسوء حالًا من قريش، التي آمنت بالوسيلة وأخطأت المصداق، حيث جعلوا وسائط باقتراحهم من غير سلطان أتاهم؛ لشعورهم بالفطرة التي خلقهم اللَّه عليها بعظمته تعالى عن أن ينال أو يدرك بلا واسطة.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۸۲

ترامي الوسائل وتعاقبها ...: ص: ۱۸۲

ثم إن الآيات الكبرى تتفاوت فيما بينها، فأهل البيت عليهم السلام شفيعهم ووسيطهم إلى اللَّه تعالى النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله في نيل المقامات، وبالنسبة للنبيّ ذاته فهو بذاته آية وعلامة عظمى على صفات اللَّه تعالى، فتكون نفسه من حيث هي مخلوقة وفعل للَّه‌تعالى وسيلة لنفسه، نظير ما ورد في الروايات: (خلق اللَّه المشيّة بنفسها ثم خلق الأشياء بالمشيّة) «۱».

فالنبيّ صلى الله عليه و آله مرآة الكمالات والصفات الإلهية له ولغيره في جميع جهات الإرتباط باللَّه تعالى كقبول التوبة أو بقيّة العبادات أو مطلق نيل مقامات القرب من اللَّه عزّ وجلّ فهو صلى الله عليه و آله أمينه على وحيه وعزائم أمره.

الدليل السادس: شرطية الاستجارة بالنبيّ صلى الله عليه و آله في طلب المغفرة ... ص: ۱۸۲

هنا أيضاً نريد التعرّض لبيان أدقّ وأعمق ودالّ على المطلوب في المقام لقوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَّلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» «۲».

لقد نصّت هذه الآية المباركة على ثلاثة شروط لقبول التوبة والاستغفار من هذه الأمة، وهي:

۱- المجيء إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله.

۲- ابراز الاستغفار من اللَّه عزّ وجلّ.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۸۳

۳- امضاء النبيّ صلى الله عليه و آله لذلك الاستغفار، واستغفاره للتائبين.

فهذه الآية من ضمن مجموع الآيات التي تعرّضت لذكر شرائط التوبة، وأوّل شرط لقبول توبة المذنب والظالم لنفسه ليس إظهار الندامة من العبد أمام اللَّه تعالى مباشرة، بل الشرط الأوّل هو المجيء إلى الحضرة النبويّة والالتجاء إليه، واللّواذ والاستعاذة والاستجارة به صلى الله عليه و آله، فأولًا لابدّ أن يأتي العبد إلى النبيّ صلى الله عليه و آله ويلوذ به، ثم بعد ذلك يُظهر الندامة والاستغفار؛ إذ الترتيب للشروط في الآية المباركة ترتيب رتبي ترتيبي، حيث أخذت المراتب بعين الاعتبار، لا أنه ذكرى فقط بقرينة العطف بالفاء.

والمجيء إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله هو عين التوجّه إليه والتوسّل به في قبول التوبة.

وهذه الآية كشفت النقاب عن شرطية التوسّل بالنبيّ صلى الله عليه و آله في أكبر خطر مصيريّ يُحدق بالإنسان وهو الذنب والمعصية، التي قد تؤدّي بالعبد إلى الهلاك والسقوط في الهاوية، في مثل هذا الأمر الخطير جعل اللَّه تعالى الملاذ والملجأ هو النبيّ صلى الله

عليه و آله، فلابدّ من الكينونة فى الحضرة النبوية ثم إظهار عبادة الاستغفار، لأنه صلى الله عليه و آله باب اللّه تعالى الذى منه يؤتى، فيكون اللّواذ باللّه عزّ وجلّ باللّواذ بنبيّه الأكرم صلى الله عليه و آله؛ ولذا بعد الاستجارة بالنبيّ صلى الله عليه و آله قال تعالى: «لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا».

إذن الاستعاذة والاستجارة واللجوء إلى اللّه بنبيّه أُخذ شرطاً فى أخطر موقف للعبد مع ربّه وهو التوبة وغفران الذنوب.

ومن الواضح أيضاً أن الظلم المذكور فى الآية المباركة ليس مختصّاً بالذنوب

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۸۴

الفردية التى بين العبد وربّه، وإنما هو شامل للظلم الاجتماعى السياسى أو النظام الاقتصادى المعاشى أو التعدّى على المنظومة الحقوقية والأخلاقيّة، ومعنى ذلك أن استعلام ومعرفة تلك الأمور الفردية والاجتماعية لا يمكن أن يتحقّق إلّاعن طريق الإلتجاء واللّواذ بالنبيّ صلى الله عليه و آله، فكلّ حيف أو زيغ يحصل من الفرد أو المجتمع فى تلك الأمور لابدّ من الرجوع فيها إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وفى مقابل تعدّد أنواع الظلم يتعدّد أنواع اللجوء والتولّى والتوجّه للنبى صلى الله عليه و آله.

ثم إن ذكر التوبة والاستغفار فى الآية المباركة لا لخصوصية فيها، وإنما ذكرت بما هى عبادة من العبادات، لكونها أوبة ورجوع إلى اللّه تعالى واقتراب منه وقصد وتوجّه إليه، فليست الآية فى ذكرها لشرطية التوسّل بالنبيّ صلى الله عليه و آله خاصّة بالتوبة، بل هى شاملة فى ذلك لكلّ العبادات.

خصوصاً وأن التوبة هى الأوبة، من آب يؤوب، والأوبة الرجوع إلى اللّه تعالى، أى الاقتراب والزلفى منه عزّوجلّ، ولا شك أن العبادات بمجموعها طلب الأوبة والقرب والزلفى إلى اللّه تعالى، فهى نوع من أنواع التوبة، وبناءً على ذلك لا تكون التوبة عملًا منحازاً ومنفصلًا عن سائر العبادات كالصلاة والحجّ وغيرهما، بل هى عمل عام وشامل لكافّة العبادات.

كذلك التوبة نوع من أنواع الدعاء، لأنها طلب المغفرة من اللّه تعالى ودعاء بالغفران، فمضمون هذه الآية المباركة مشترك مع ما تقدم من الروايات الدالّة على أن الدعاء وطلب العبد القرب من اللّه تعالى لا يرتفع إلى السماء ولا تُفتّح له الأبواب ما لم يقترن بذكر النبيّ صلى الله عليه و آله بالصلاة على محمّد وآل محمّد، وإذا كان كذلك فإن الدعاء وطلب القرب من اللّه عزّ وجلّ شامل للمقامات الثلاث التى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۸۵

ذُكرت فى صدر البحث، وهو قبول التوبة والعبادة ونيل مقامات القرب، وهو لا يقبل إلّاباللّواذ بالنبيّ صلى الله عليه و آله والتوجّه إليه والاستعاذة والاستجارة والتوسّل به، بالمجىء فى حضرته المباركة.

وهذه الآية الكريمة الدالّة على شرطية التوجّه التوسّل وضرورته فى جميع المقامات ليست خاصّة بحياة النبيّ صلى الله عليه و آله؛ إذ ليس المراد من المجىء الحضور الفيزيائى لبدن المذنب عند النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله فقط، بل المجىء الفيزيائى والبدنى المكانى أحد المصاديق المقصودة فى الآية المباركة، والتعبير بالمجىء كنائى، يراد به مطلق الاستغاثة والتوسّل والتوجّه القلبى إلى النبيّ صلى الله عليه و آله، والشواهد على ذلك عديدة، منها:

۱- إن هذه الآية المباركة جاءت لبيان ماهية التوبة وشرائطها العامة، التى يشترك فيها كافّة المسلمين وفى جميع الأزمنة، فلا يمكن أن تكون مختصّة بالفترة التى عاشها النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله أو بمن زامن وعايش تلك الفترة، فالمراد من المجى مطلق الارتباط بالنبيّ صلى الله عليه و آله، بالتوجّه إليه والكينونة فى حضرته المباركة، ثم الاتيان بعبادة الاستغفار، وهذا المضمون متطابق مع مفاد قوله تعالى: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»، إذ معنى ذلك أن حضرة الأنبياء ومحضرهم مشاعر شعّرها اللّه تعالى ليتقرّب بها إليه.

ويتّضح هذا الشاهد أكثر إذا علمنا أن النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله بُعث رحمة للعالمين، وهذه من الرحمات العامة للنبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله على هذه الأمة، وغير مختصّة بمن حضر الحضور الفيزيائى البدنى عند النبيّ صلى الله عليه و آله.

۲- إن نفس التعبير بقوله تعالى «جَاءُوكَ» يتضمّن معنى اللّواذ واللجوء

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۸۶

والاستغاثة والتوسّل والتوجّه القلبى، وليس فيه دلالة على الاختصاص بالحضور الجسمانى.

۳- استغفار آدم عليه السلام وتوبته أيضاً كما مرّ- كانت بالمجىء للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، ولكن كان مجيئه إليه فى أفق القلب والقصد، فقد ورد فى روايات الفريقين أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «لما اقترف آدم الخطيئة، قال: ياربّ أسألك بحقّ محمّد لما غفرت لى، فقال: ياآدم وكيف عرفت محمّداً ولم أخلقه؟ قال: ياربّ لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلّااللَّه محمّد رسول اللَّه، فعلمت أنك لم تُضف إلى اسمك إلّاأحبّ الخلق إليك، فقال: صدقت ياآدم إنه لأحبّ الخلق إلىّ، ادعنى بحقّه فقد غفرت لك، ولولا محمّد ما خلقتك» «۱»

وغيرها من الروايات الدالّة على أن مجىء آدم إلى النبىّ صلى الله عليه و آله ولواذه به كان بالتوجّه القلبى به إلى اللَّه تعالى.

وفى هذه الرواية الأخيرة التى نقلناها إشارة أخرى إلى اقتران اسم النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله باسم اللَّه عزّ وجلّ فى أعظم عبادة وأشرف كلمة فى الإسلام، وهى كلمة التوحيد.

۴- إن المسلمين فى سيرتهم منذ الصدر الأول فهموا من هذه الرواية الشمول والعموم وعدم الاختصاص بالفترة الزمنية التى عاشها النبىّ صلى الله عليه و آله، وهذا دليل على عموم المعنى المستعمل فى ارتكاز أبناء اللغة، ولذا كانوا يتوجّهون إلى النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فى طلب المغفرة ويأمرون الآخرين بذلك حتى بعد وفاة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، والشواهد الروائية والتاريخية على ذلك كثيرة جدّاً:

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۸۷

منها: ما أخرجه النووى عن العتبى قال: «كنت جالساً عند قبر النبىّ صلى الله عليه و آله فجاء أعرابى، فقال: السلام عليك يارسول اللَّه، سمعت اللَّه تعالى يقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» «۱»

وقد جئتك مستغفراً من ذنبى مستشفعاً بك إلى ربّى، ثم أنشأ يقول:

ياخير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال: ثم انصرف، فحملتنى عيناى فرأيت النبىّ صلى الله عليه و آله فى النوم، فقال لى:

ياعتبى، إلحق الأعرابى فبشّره بأن اللَّه تعالى قد غفر له» «۲».

ومنها: ما أخرجه السيوطى عن أبى حرب الهلالىّ قال: (حجّ أعرابى، فلما جاء إلى باب مسجد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أناخ راحلته فعقلها، ثم دخل المسجد حتى دخل القبر ووقف بحذاء وجه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقال: بأبى أنت وأمى يارسول اللَّه، جئتك مثقلًا بالذنوب والخطايا مستشفعاً بك على ربّك، لأنه قال فى محكم كتابه: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» «۳»

وقد جئتك بأبى أنت وأمى مثقلًا بالذنوب والخطايا استشفع بك على اللَّه ربّك أن يغفر لى ذنوبى وأن يشفع فىّ) «۴».

ومنها: ما روى عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام أنه قال: «قدم علينا أعرابى بعد ما دفنّا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر النبىّ صلى الله عليه و آله

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۸۸

وحثا من ترابه على رأسه، وقال: يارسول اللَّه قلت فسمعنا قولك ووعيت عن اللَّه فوعينا عنك، وكان فيما أنزل اللَّه عليك: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» «۱»

وقد ظلمت نفسى وجئتك تستغفر لى، فنودى من القبر أنه غفر لك» «۲»

، إلى غير ذلك من الشواهد.

۵- إن القرآن الكريم قد دلّ على حياة النبى صلى الله عليه و آله عند ربّه، كما قال تعالى:

«وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» «۳»

بل وكذا قوله تعالى: «يَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ» «۴»

وغيرها من عشرات الآيات الدالّة على أن النبى صلى الله عليه و آله يرى ويشهد على جميع أعمال العباد إلى يوما لقيامة، فهو حىّ عند ربّه، كيف لا ـ وقد دلّ القرآن على حياة الشهداء فى قوله تعالى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» «۵»

، وقد اتّفقت روايات الفريقين المتواترة أيضاً الدالّة على حياة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، منها ما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام قال: «إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

حيثما كنتم فصلّوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى» «۶».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۸۹

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلّون» قال الهيثمى: رواه أبو يعلى والبزاز ورجال أبى يعلى ثقات «۱».

وقد نقل السقّاف فى كتابه الاغاثة جملة من الروايات وكلمات علماء السنّة التى ادّعى فيها الاجماع والتواتر والعلم القطعى بحياة النبىّ الأكرم فراجع «۲».

وإذا ثبت ذلك ثبت عموم الآية المباركة بالرجوع إلى النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والاستغاثة به.

۶- آيات وروايات عرض الأعمال على الرسول صلى الله عليه و آله، كما فى قوله تعالى:

«قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» «۳»

وهذه الآية متطابقة ومتشاهدة مع آية «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ»، ... وأما الروايات فى هذا المجال فهى كثيرة جدّاً:

منها: ما عن أبى عبد اللَّه الصادق عليه السلام قال: «تعرض الأعمال على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كلّ صباح أبرارها وفجّارها فاحذروها» «۴».

ومنها: ما عن أبى جعفر الباقر عليه السلام قال: «إن الأعمال تعرض على نبيكم كلّ عشية خميس، فليستحى أحدكم أن يعرض على نبيه العمل القبيح» «۵».

منها: ما ورد عن عبداللَّه بن مسعود قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «حياتى خير لكم

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۹۰

تحدّثون وتحدّث لكم، ووفاتى خير لكم تعرض علىّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت اللَّه عليه، وما رأيت من شرّ استغفرت لكم»، قال الهيثمى: رواه البزاز ورجاله رجال الصحيح «۱».

وهذه الرواية وغيرها منسجمة المضمون مع الشرط الثالث فى الآية التى هى محلّ البحث، حيث جاء فيها «وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ»، فالتائب والمستغفر يتوجّه إلى النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ويعرض استغفاره عنده لكى يستغفر له الرسول صلى الله عليه و آله ويشفع له عند اللَّه تعالى فى قبول توبته، فعبادات الأمة لابدّ أن يشفع النبىّ صلى الله عليه و آله عند ربّه فى قبولها، وهو المضمون والغرض والحكمة من عرض الأعمال وأن قبولها مشروط بإمضاء النبىّ صلى الله عليه و آله وشفاعته، فكما أن آيات وروايات عرض الأعمال ذكرت أن سبب العرض هو أن يستغفر النبىّ صلى الله عليه و آله لأمته، كذلك فى الآية المباركة إنما يعرض العبد استغفاره

فی الحضرة النبویّة لکی یستغفر له، وإذا کانت آیات وروایات العرض عامة لحال الحیاة وبعد الممات فکذلک الآیة المبارکة.

وهذا الذی ذکرناه أخیراً هو الشرط الثالث فی الآیة المبارکة وهو استغفار النبیّ صلی الله علیه و آله للمذنب الظالم لنفسه.

۷- أن الأحکام فی الآیات التی أخذ فیها الحکم مرتبطاً بالرسول صلی الله علیه و آله فی الآیات الکثیرة کلّها لا تختص بحیاة الرسول صلی الله علیه و آله کما فی قوله تعالی: «لَقَدْ کَانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» «۲»

وقوله تعالی: «أَطِیعُوا اللَّهَ وَأَطِیعُوا

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۱۹۱

الرَّسُولَ» «۱»

وقوله تعالی: «مَا آتَاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» «۲»

وقوله تعالی: «وَمَا أَرْسَلْنَاکَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِینَ» «۳»

وغیرها من الآیات، فإنه لو توهم اختصاصها بحیاته صلی الله علیه و آله الدنیویة لعُطّل العمل بهذه الآیات، وتقوّضت أرکان الدین.

والذی یتحصّل من الآیة: أن المجیء إلی النبیّ صلی الله علیه و آله والتوجّه إلیه شرط فی قبول التوبة، بل کافّة العبادات ومطلق المقامات القربیة عند اللَّه تعالی.

کما یستفاد من الآیة المبارکة أیضاً أن التوسّل والتوجّه أمر تعیینی ضروری لابدّ منه، ولیس هو أمراً تخییریاً بید العبد فعله أو ترکه.

واتضح أن التوجّه للنبیّ صلی الله علیه و آله فی تلک المقامات لیس خاصّاً بالتوجّه الفیزیائی البدنی، بل شامل للتوجّه القلبی أیضاً.

ثم إن المجیء إلی النبیّ والتوسّل به بمعنی الارتباط به والإنتماء إلیه بکلّ أنحاء الانتماء، کانتماء المواطنة والانتماء الأُسری والوظیفی والتنظیمی، وغیرها من أنحاء الانتماء إلی الرسالة الخاتمة والحاکمیة الإلهیة المتمثّلة بالنبیّ صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام.

کذلک لابدّ أن یعلم أن الآیة الخاصّة فی المقام غیر مختصّة بالرسول الأعظم صلی الله علیه و آله، بل هی سنّة إلهیّة جاریة فی النبیّ صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام فالآیة عامة؛ ولذا نصّت علی هذا العموم آیة عرض الأعمال، حیث شملت الذین آمنوا وهم أولوا الأمر من أهل بیت النبیّ صلی الله علیه و آله، کما نصّ علی ذلک قوله تعالی: «هُوَ اجْتَبَاکُمْ

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۱۹۲

وَمَا جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی الدِّینِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِیکُمْ إِبْرَاهِیمَ هُوَ سَمَّاکُمُ الْمُسْلِمِینَ مِنْ قَبْلُ وَفِی هَذَا لِیَکُونَ الرَّسُولُ شَهِیدًا عَلَیْکُمْ وَتَکُونُوا شُهَدَاءَ عَلَی النَّاسِ» «۱»

إذ هم الأمة المسلمة من ذریة إبراهیم وإسماعیل المجتباة الذین بعث فیهم النبی صلی الله علیه و آله وجعلهم اللَّه شهداء علی الناس وأعمالهم وعقائدهم، ویدلّ علی العموم أیضاً الآیات المتقدّمة التی نصّت علی وجوب المجیء إلی إبراهیم فی الحجّ ووجوب الصلاة عند مصلّاه وهویّ القلوب إلی ذرّیته، وسیأتی من الآیات ما یدلّ علی العموم أیضاً.

إذن التوجّه إلی النبیّ صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام فی التوبة والعبادة ونیل المقامات شرط ومشارطة إلهیة لابدّ من توفّرها لنیل ما یبتغیه العبد.

الدلیل السابع: التوسّل بالرسول صلی الله علیه و آله میثاق الأنبیاء ... ص: ۱۹۲

اشارة

قال تعالی: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِیثَاقَ النَّبِیِّینَ لَمَا آتَیْتُکُمْ مِنْ کِتَابٍ وَحِکْمَةٍ ثُمَّ جَاءَکُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَکُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ

أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكَمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكَمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» «۲»

، فالميثاق المذكور فى هذه الآية المباركة معناه أن هناك تعاقداً بين اللَّه تعالى والأنبياء عليهم السلام، والطرفان اللذان وقع عليهم الميثاق والتعاقد هما النبوّة والمقامات الغيبة التى أعطاها اللَّه تعالى للأنبياء فى مقابل أمر مهمّ وخطير لابدّ أن يؤمنوا به، وهو قوله تعالى: «ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ» فالمقامات الإلهية والمنح

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۹۳

الربّانية إنما تعطى للأنبياء بشرط الإيمان بخاتمهم ونصرته، ولا شك أن الذى يكون ناصراً إنما هو تابع للمنصور والمنصور قائد له، فالأنبياء كلّهم مأمومون والرسول الأكرم إمامهم، والأنبياء سبقوا الناس بالإصطفاء الإلهى الخاصّ وحُبوا بالنبوّة والرسالة والمقامات الغيبيّة بتوسّط إيمانهم بولاية النبىّ صلى الله عليه و آله وتعهّدهم بنصرته ومؤازرته، وهم أسبق الناس شيعة وإسلاماً لخاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله.

الأنبياء على دين النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ...: ص: ۱۹۳

ومن ثمّ فإن هذه الآية المباركة تدلّل على أن دين الأنبياء بعد الايمان باللَّه عزّ وجلّ هو الإيمان بخاتم الأنبياء ومشايعته ومؤازرته، فالأنبياء كانوا على دين النبىّ محمّد صلى الله عليه و آله وهو الإسلام، بيان ذلك:

إن قوله تعالى فى الآية المباركة «مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ» معناه أن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ليس تابعاً للأنبياء، بل تابع للوحى الإلهى جملة، الذى هو فعل اللَّه تعالى؛ ولذا لم يأمر اللَّه عزّ وجلّ نبيّه الأكرم صلى الله عليه و آله بالاقتداء بالأنبياء وإنما بالهدى الذى هم عليه، قال اللَّه تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» «۱».

فالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ليس على هدى نبىّ من الأنبياء وليس هو تابعاً لأحد من الرسل، بل هو على هدى اللَّه عزّ وجلّ، وهو أوّل المسلمين، والفاتح الأول للهدى الإلهى والدين الاسلامى الواحد هو خاتم الأنبياء، ولم يُعبَّر عن نبىّ من الأنبياء فى القرآن الكريم بأنه أوّل المسليمن على الاطلاق سوى النبىّ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۹۴

محمّد صلى الله عليه و آله، وذلك فى قوله تعالى: «قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» «۱»

وقوله تعالى: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاى وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لَاشَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» «۲»

وقوله تعالى: «قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ* وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ» «۳»

، وأما سائر الأنبياء فقد عُبّر عنهم فى القرآن الكريم بأنهم من المسلمين، بما فيهم أنبياء أولى العزم، فقد حكى اللَّه عزّ وجلّ على لسان نوح قوله:

«فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» «۴»

ولم يُعبَّر عنه بأنه أوّل المسلمين، ولا شك أن الدين عند اللَّه عزّ وجلّ واحد، قال تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» «۵»

، ولا يتقبّل من مخلوق من المخلوقات غير الاسلام، قال تعالى: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» «۶»

، فالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أوّل المسلمين وأوّل من نطق بميثاق التوحيد والتسليم للَّهعزّ وجلّ، فكان هو أفضل الأنبياء وهو الإمام المتبوع وهم المأمومون التابعون له فى الدين الاسلامى، فضلًا عن غيرهم من المخلوقين، ولذا ورد فى الحديث عن أبى عبد اللَّه عليه السلام: «أن بعض قريش قال لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۹۵

بأى شـىء سبقت الأنبياء وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟ قال: إنى كنت أوّل من آمن بربّى وأوّل من أجاب حين أخذ اللّه ميثاق النبيين «وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى» فكنت أنا أوّل نبىّ قال بلى، فسبقتهم بالإقرار باللّه» «۱».

وفى الحـديث أيضاً عن النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله فى حـديثه لأصـحابه قال: «فأخـذ لى العهد والميثاق على جميع النبيين، وهو قوله الـذى أكرمنى به جـلّ من قائـل: «وَإِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَـةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَـدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» «۲»

وقـد علمتهم أن الميثاق أخـذ لى على جميع النبيّين، وأنا الرسول الذى ختم اللّه بى الرسل، وهو قوله تعالى: «رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» «۳»

فكنت واللّه قبلهم وبعثت بعـدهم وأعطيت مـا أعطوا وزادنى ربّى من فضـله ما لم يعطه لأحـد من خلقه غيرى، فمن ذلك إنه أخـذ لى الميثـاق على سـائر النبيّين ولم يأخـذ ميثـاقى لأحـد، ومن ذلـك مـا نَبَّأ نبيّـاً ولاـ أرسل رسولًا إلّاأمره بالإقرار بى وأن يبشّـر أمته بمبعثى ورسالتى» «۴».

اذن فالدين دين محمّد صـلى الله عليه و آله وهو فاتح ذلك الصرح العظيم، وإن كانت الفطرة والملّة ملّة إبراهيم عليه السلام وهى غير الـدين، وكذلك للأنبياء شـرائع ومناهج مختلفة وهى غير الدين أيضاً، وإنما هى تفصـيلات وتنزّلات كلّيات ذلك الدين الحنيف وهو الإسلام، ولذا جاء فى دعاء التوجّه فى الصلاة:

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۹۶

«وجّهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً على ملّة إبراهيم ودين محمّد صلى الله عليه و آله وهدى على أمير المؤمنين عليه السلام وما أنا من المشركين» «۱».

إذن الإسلام دين النبىّ والأنبياء على دينه ومن شيعته، ولذا فُسّر قوله تعالى:

«وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ» «۲»

بالنبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله وأن إبراهيم من شـيعته وعلى دينه الحنيف، حيث ورد عن الإمام الصادق عليه السـلام أنه قال: «قوله عزّ وجلّ: «وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ» أى إن إبراهيم عليه السلام من شيعة النبىّ صلى الله عليه و آله» «۳»

وقد اختار هذا القول الكلبى وابن السائب والفرّاء «۴».

فـالنبىّ الأـكرم صـلى الله عليه و آله ليس تابعـاً للأنبياء بل على العكس، فهو على الهـدى الـذى هو هـدى اللّه تعالى، ومصـدّق لما مع الأنبيـاء، أى شاهـد على مـا هم عليه من دينه الحنيف وبإمضائه يُصـدّق ما هم عليه، أما الأنبياء فهم يؤمنون بخاتم الأنبياء «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ» لا أنهم يؤمنون بما معه، فإيمانهم بـذات النبىّ صـلى الله عليه و آله، فهو صـلى الله عليه و آله شاهد مطّلع مصدّق على ما عندهم، وأما هم فيؤمنون به، وهذا يعنى أنه لا يوجد فى مقامات الأنبياء ودرجاتهم عند اللّه تعالى ما هو غيب عن النبىّ صـلى الله عليه و آله، وأما الذى يؤمن بذات النبىّ صـلى الله عليه و آله وهم سائر الأنبياء عليهم السلام فهو يؤمن بأمر غيبىّ، فمقام النبىّ صلى الله عليه و آله بالنسبة إلى بـاقى الأنبيـاء غيب الغيوب، وأما مقامات سائر الأنبياء فالنبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله مطّلع عليها ويعلمها ويشـهد لهم على صـدقها، والأنبياء فى أصل نيلهم لمقام النبوّة إنما استأهلوه بعد أن آمنوا بخاتم الأنبياء قبل سائر

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۱۹۷

الأـرواح فى عـالم الأـرواح وشـرطوا على أنفسـهم نصـرته، ولـذا فـإن النبىّ صـلى الله عليه و آله شـفيع الكلّ، والأنبياء لم ينالوا ما نالوا إلّابالديانة لخاتم الأنبياء، فهو الشفيع لقبول الأعمال، وهو باب رحمة اللّه العامّة «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ» «۱».

ومـن ذلـك كلّه يتّضـح أن هـذه الآيـة المباركـة نصّ فى المقـام الثـالث، وأن التـوجّه إلى اللّه لنيـل أى مقـام أو قربى أو زلفى لاـ يتمّ

إلّابالتوسل بالنبیّ صلی الله علیه و آله والتشفّع به، وبالتشفّع به یعطی للعبد أعظم الأرزاق وهو النبوّة والکتاب والحکمة، فکیف بک بسائر الأرزاق الأخری، التی لا تقاس بمقامات الأنبیاء.

ثم إن الآیة الکریمة رسمت خطورة الأمر فی ضمن تأکیدات مغلّظة، حیث جاء فیها قوله تعالی: «أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَی ذَلِکُمْ إِصْرِی» وبعد أن تم الإقرار والمعاهدة والمعاقدة المشدّدة أشهدهم اللّه تعالی علی ذلک، حیث قال:

«فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَکُمْ مِنَ الشَّاهِدِینَ» «۲»

، وهذا یعنی أن للتوسل والتوجّه دوراً مهمّاً ومحوریة رئیسیة فی رسم معالم الدین.

وإنکار التوسّل فی المسائل الدنیویة غیر الخطیرة لیس إلّاتعظیماً لصغائر الأمور وتصغیراً لما عظّمه اللّه عزّ وجلّ، فإن الإیمان بکون الأنبیاء لم یستحقّوا ما استحقّوه إلّابتوسلهم بالإیمان بالنبیّ صلی الله علیه و آله، وإنکار التوسّل فی بعض الأمور الدنیویّة والحاجات المعاشیة لیس له معنی إلّاالاستهانة بتلک المقامات الشامخة وتعظیم وتهویل ما لیس حقّه ذلک.

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۱۹۸

أهل البیت علیهم السلام شرکاء النبیّ صلی الله علیه و آله فی المیثاق ...: ص: ۱۹۸

ثمّ إن أهل البیت علیهم السلام یشترکون مع النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله فی دائرة المیثاق والدین الحنیف، الذی أخذ علی الأنبیاء الإیمان به ونصرته والدعوة إلیه، وإن کان أهل البیت علیهم السلام تابعین للنبیّ صلی الله علیه و آله وهم یتوجّهون به إلی اللّه تعالی، وبشفاعته یکونون معه صلی الله علیه و آله فی مقامه، وهو مقام الشفاعة الکبری والوسیلة العظمی.

ویدلّ علی اشتراک أهل البیت علیهم السلام مع النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله فی دائرة المیثاق الذی أخذ علی الأنبیاء وجوه عدیدة، وإلیک بعضها:

۱- إن نصرة الأنبیاء للرسول صلی الله علیه و آله لم تتحقّق إلی یومنا الحاضر، وهی إنما تتحقّق بالنصرة لأهل بیته عند ظهور المهدی من آل محمّد، وعند رجعة الأئمة علیهم السلام، کما نصّت علی ذلک الروایات المتضافرة، حیث جاء فیها أن عیسی علیه السلام وإدریس وغیرهما من الأنبیاء سوف یقاتلون بین یدی الإمام المهدی علیه السلام عند قیامه بدولة الحقّ والعدل، هذا من طرق الفریقین، وأما من طرقنا فقد دلّت الروایات المتضافرة أیضاً علی أن جمیع الأنبیاء والمرسلین سوف یقاتلون مع الأئمة علیهم السلام عند رجوعهم وکرّتهم فی دولتهم العالمیة المبارکة.

بل إن بعض الأنبیاء کإلیاس والخضر علیهما السلام علی القول بنبوّة الخضر علیه السلام الآن هم وزراء فی حکومة الإمام المهدی علیه السلام الخفیّة، وهی حکومة خلیفة اللّه فی أرضه، التی لا یمکن أن تفتقدها البشریة فی لحظة من اللحظات، وإلّا لساخت الأرض بأهلها.

ونشیر فیما یلی إلی بعض تلک الروایات التی وردت فی هذا المجال:

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۱۹۹

منها: طوائف الروایات التی دلّت علی أن المسیح عیسی بن مریم علیه السلام ینزل لنصرة المهدی علیه السلام، وإلیک فیما یلی هذه الروایة، ننقلها بطولها لارتباطها بالبحث الذی نحن فیه، قال أبو عبداللّه الصادق علیه السلام: «أتی یهودی النبیّ صلی الله علیه و آله، فقام بین یدیه یحدّ النظر إلیه، فقال: یایهودی ما حاجتک؟ قال: أنت أفضل أم موسی بن عمران النبیّ الذی کلّمه اللّه، وأنزل علیه التوراة والعصا وفلق له البحر وأظلّه بالغمام؟

فقال له النبیّ صلی الله علیه و آله: إنه یکره للعبد أن یزکّی نفسه، ولکنّی أقول: إن آدم علیه السلام لما أصاب الخطیئة کانت توبته أن

قال: اللّهم إنی أسألک بحقّ محمّد وآل محمّد لما غفرت لی فغفرها اللّه له، وإن نوحاً علیه السلام لما رکب فی السفینهٔ وخاف الغرق، قـال: اللّهم إنی أسألک بحقّ محمّـد وآل محمّـد لما نجّیتنی من الغرق، فنجّاه اللّه منه، وإن إبراهیم علیه السـلام: لما ألقی فی النار قال: اللّهم إنی أسألـک بحقّ محمّـد وآل محمّـد لمـا نجّیتنی منهـا، فجعلهـا اللّه علیه برداً وسـلاماً، وإن موسـی علیه السـلام لما ألقی عصاه أوجس فی نفسه خیفـهٔ، قـال اللّهم إنی أسألـک بحقّ محمّـد وآل محمّـد لمـا آمنتنی منهـا، فقـال اللّه جـلّ جلاله: «لَاتَخَفْ إِنَّکَ أَنْتَ الْأَعْلَی» «۱»

یایهودی: إن موسی لو أدرکنی ثم لم یؤمن بی وبنبوّتی ما نفعه إیمانه شیئاً ولا نفعته نبوّته.

یایهودی ومن ذریتی المهدی إذا خرج نزل عیسی بن مریم لنصرته، فقدّمه وصلّی خلفه» «۲».

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۲۰۰

وفی حـدیث آخر: «فیلتفت المهـدی فینظر عیسـی علیه السـلام فیقول لعیسـی: یـاابن البتول صـلّ بالنـاس، فیقول: لک أقیمت الصـلاهٔ، فیتقدّم المهدی فیصلّی بالناس ویصلّی عیسی خلفه ویبایعه» «۱».

ولا شک أن المبایعهٔ لأجل نصـرته علیه السـلام لإقامـهٔ دولهٔ الحقّ، بقرینهٔ تتمّهٔ الروایهٔ حیث ورد فیها أن المسـیح عیسـی بن مریم علیه السلام بعد المبایعهٔ یکون من وزراء المهدی علیه السلام ویخرج لقتال الدجال.

ومنها: الروایات التی دلّت علی أن نصرهٔ الأنبیاء للرسول الأکرم صلی الله علیه و آله إنما تحصل بالنصرهٔ لوصیّه أمیر المؤمنین علیّ علیه السـلام والقتال بین یدیه عند الکرّهٔ والرجعهٔ فی دولهٔ الحقّ، وذلک نظیر ما أخرجه سعد بن عبداللّه القمی عن فیض بن أبی شیبهٔ، قال: سمعت أبا عبـداللّه علیه السـلام یقول، وتلا هـذه الآیهٔ: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِیثَاقَ النَّبِیِّینَ»: «لتؤمننّ برسول اللّه صـلی الله علیه و آله ولتنصـرنّ علیاً أمیر المؤمنین علیه السلام.

قال: نعم واللّه من لـدن آدم وهلمّ جراً، فلم یبعث اللّه نبیّاً ولا رسولًا إلّاردّ جمیعهم إلی الـدنیا حتّی یقاتلوا بین یـدی علیّ بن أبی طالب علیه السلام» «۲».

ومن الواضح أن نصرهٔ أمیر المؤمنین علیه السلام نصرهٔ لرسول اللّه صلی الله علیه و آله وللدین الذی جاء به.

وحاصـل هـذه النقطـهٔ: هو اشتراک أهـل البیت علیهم السـلام مع النبیّ صـلی الله علیه و آله فی المیثاق الـذی أخـذ علی الأنبیاء، إذ أن إیفاءهم بالعهد إنما یکون بنصرتهم لأهل بیت النبیّ صلی الله علیه و آله.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۲۰۱

۲- مرّ بنـا أن الـدین عنـد اللّه الإسـلام وهو واحـد لاـ تعـدّد فیه، وأن جمیع المخلوقـات بما فیهم سائر الأنبیاء عجزوا عن تحمّل الـدین والسبق فی فتـح سبله وبلوغ مقاماته الرفیعـهٔ، سوی الـذات النبویّـهٔ المبارکهٔ التی لها الأهلیهٔ والاسـتعداد لتلقّی ذلک عن اللّه عزّ وجلّ، فکان للنبیّ صـلی الله علیه و آله الأسـبقیهٔ فی الإسـلام والتسـلیم للّه‌تعالی؛ ولـذا کان الـدین دین محمّد صـلی الله علیه و آله، إذن دین الإسـلام الواحـد عبـارهٔ عن تلک المقامات السامیـهٔ والنور الأعظم الـذی لم یتحمّله مخلوق عن اللّه تعالی سوی خاتم الرسل صـلی الله علیه و آله، فأسکن اللّه عزّ وجلّ ذلک النور فی بیوت أذن اللّه أن ترفع ویذکر فیها اسمه، وکان بدن النبیّ الأکرم مسکناً لذلک النور، لأنه أوّل من قال بلی عندما قال اللّه تعالی للبشر: «أَلَسْتُ بِرَبِّکُمْ».

ومن هنا یتّضح أن المیثاق والعهد الذی أخذه اللّه علی أنبیائه هو الإیمان بذات الرسول صـلی الله علیه و آله، والإیمان بمقامه صلی الله علیه و آله هو الدین الذی بعث به جمیع الأنبیاء، وهو بدرجاته العالیهٔ غیب اللّه وسره المکنون الذی أمر الأنبیاء بالإیمان به والتسلیم له، وکان نیل مقامات النبوّهٔ علی قـدر درجـهٔ التسـلیم لـذلک الـدین، وقد مدح اللّه تعالی أنبیاءه لکونهم مسـلمین، قال عزّ وجلّ: «مَا کَانَ إِبْرَاهِیمُ یَهُودِیًّا وَلَا نَصْرَانِیًّا وَلَکِنْ کَانَ حَنِیفًا مُسْلِمًا وَمَا کَانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ» «۱»

، وقد أمر اللّه تعالی أنبیاءه باتخاذ الاسلام دیناً، کما فی قوله لإبراهیم: «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِینَ» «۲».

إذن الدين الواحد هو الميثاق الذى أخذ على جميع الأنبياء التسليم له

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۰۲

والإيمان به ونصرته، وهو دين النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله المتمثّل برسالته ووساطته بين اللَّه وخلقه، فهو دين اللَّه الناطق.

وإذا كان الأمر كذلك فكلّ ما هو داخل فى دائرة الدين يكون من الميثاق الذىأخذ على الأنبياء الإيمان به ونصرته والتسليم له، ومن الدين ولاية أهل البيت عليهم السلام بنصّ القرآن الكريم، وذلك فى قوله تعالى: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» «۱»

حيث نصّت روايات الفريقين على أن هذا المقطع من الآية المباركة نزل عند تنصيب اللَّه عزّ وجلّ أمير المؤمنين عليه السلام لمقام الخلافة والإمامة بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وذلك فى واقعة الغدير «۲».

إذن الولاية والخلافة بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من الدين الذى بعث به جميع الأنبياء، وقد أُكمل بتنصيب أمير المؤمنين عليه السلام بعد حجّة الوداع مضافاً إلى أن جملة الآيات والأدلّة القائمة على إمامة أهل البيت عليهم السلام دالّة على أن إمامتهم وولايتهم من أصول الدين تتلو أصل النبوّة، سيما وأن الأنبياء مخاطبون بآيات الولاية والقربى والمودّة عند رجوعهم للنصرة، فهم مأمورون بطاعة أولى الأمر والمودّة للقربى والتوجّه بهم إلى اللَّه تعالى.

والحاصل: إنه لم يبعث نبىّ من الأنبياء إلّابعد أن آمن وسلّم بالدين الذى هو ولاية النبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته، فالولاية دين اللَّه الذى بتسليمه استحقّ الأنبياء مقام النبوّة كلّ بحسب ما بلغه من درجة التسليم، فإن للولاية والتسليم درجات

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۰۳

وبحسب درجة التسليم لكلّ نبىّ يعطى ذلك النبىّ مقام الحظوة عند اللَّه تعالى ويستحقّ مقام النبوّة، وإذا ازدادت درجة التسليم كان ذلك النبىّ من أولى العزم، فتفضيل الأنبياء الوارد فى قوله تعالى: «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ» «۱»

، كذلك تفضيل الرسل، كما فى قوله تعالى: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ» «۲»

، كلّ ذلك التفضيل بحسب درجة التسليم والتولّى لدين اللَّه عزّ وجلّ، وذلك بالولاية للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته، فالتسليم للنبىّ وأهل بيته والإيمان بولايتهم نوع توجّه قلبى إلى اللَّه عزّ وجلّ بهم، وهو شرط لنيل المقامات العظيمة عند اللَّه تعالى كالنبوّة والرسالة، فضلًا عن غيرها من العبادات وقبول التوبة واستدرار الأرزاق الإلهيّة.

۳- لقد بيّن اللَّه عزّ وجلّ حقيقة الميثاق الذى أخذه على الأنبياء وكيفية إقرارهم وإيمانهم به وثباتهم عليه، كما فى قصة آدم عليه السلام، حيث جاء فيها أن الأمانة والميثاق الذى أقرّ به آدم وتحمّله لنيل منصب الخلافة الإلهية عبارة عن الأسماء الحيّة العاقلة الشاعرة، التى علّمها اللَّه عزّ وجلّ آدم وليست هى من السماوات والأرض، بل هى ملكوتها وباطنها ومحيطة بها ومهيمنة عليها، والأسماء هم الرسول صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام، كما تقدّم فى الأبحاث السابقة كما نصّت عليه روايات الفريقين، وعليه فيكون الميثاق الذى تحمّله آدم وآمن به ونال بواسطته مقام الخلافة هو الولاية للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل البيت عليهم السلام.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۰۴

كذلك الحال فى الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم عليه السلام، فلما أتمّهن نال مقام الإمامة، فهذه الكلمات هى ميثاق إبراهيم عليه السلام لما أتمّها وآمن بها وأسلم بواسطتها للّهربّ العالمين استحقّ مقام الإمامة الإلهية، وسبق أيضاً أن تلك الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم وكان إتمامها سبباً لنيل المقامات العالية هم محمّد صلى الله عليه و آله وآله الطاهرين عليهم السلام.

إذن الميثاق عبارة عن أمتحان وابتلاء لنيل المقامات الرفيعة كالنبوّة والإمامة، والميثاق هو ولاية أهل البيت الذين أذهب اللَّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

نعم النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أعلى مقاماً من أهل بيته عليهم السلام وهم يتوجّهون بالنبىّ صلى الله عليه و آله إلى اللَّه عزّ وجلّ

وبشفاعته ينالون درجة مقامه عند اللَّه.

۴- إن ولايـة أمير المؤمنين عليه السـلام وأهل البيت عليهم السـلام ذكرت تلو ولايـة النبىّ الأكرم فى جملـة من آيات الطاعة والولاية، التى تقـدم ذكرهـا، مما يـدلّل على أن ولايـة المعصومين عليهم السـلام من الـدين الـذى بعث به الأنبياء، إذ الـدين دائرته موحّـدة بين الأنبيـاء، والـذى هو عبـارة عن أصول العقائـد وأصول الواجبـات والمحرّمـات، التى هى أركـان الفروع كأصل وجوب الصـلاة والحجّ والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهـذه كلّها من دائرة الـدين لا الشـريعة المختلفة من نبىّ إلى آخر، وولاية أمير المؤمنين عليه السلام من الدين الذى بعث به جميع الأنبياء والرسل.

كـذلك من الآيات التى قرنت الرسول الأكرم بأهل بيته عليهم السـلام آيات الفىء والخمس، كما فى قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ» «۱»

فإن الآية المباركة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۰۵

تبيّن أن أوليـاء الخمس الـذين لهم الولايـة على اقتصـاد الدولـة الإسـلامية هم اللَّه تعـالى ورسوله وذوى القربى، بقرينـة الاـشتراك ب (اللام) الدالّة على ملكية التصـرف فى أموال الدولة الإسـلامية، وأما اليتامى والمساكين وابن السبيل فهم موارد مصـرف الخمس؛ ولذا تغيّر التعبير فيهم بحذف اللام.

كـذلك بنفس البيـان مـا ورد فى قوله تعـالى: «مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَايَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» «۱»

، فلإقامـة العدالـة الماليـة والاقتصاديـة على الأرض لابـدّ أن تدار الأموال العامة التى ترجع إلى بلاد الإسـلام بولاية اللَّه ورسوله وذوى القربى، وهم قربى الرسول الأكرم الـذين جعلت مودّتهم أجراً وعدلًا لما جاء به النبىّ الأكرم من الدين الحنيف، وذلك فى قوله تعالى: «قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى» «۲».

وهـذا يكشف عن أهميّـة تولّى ذوى القربى وأن ولايتهم مفتاح لسائر أبواب الـدين ومن دون التوسّل بها يخطأ الشـخص ويضلّ طريق التوحيد، فيقع فى مثل الجبر أو التفويض أو غير ذلك، فلابدّ من الولوج إلى الدين عن الطريق والباب الذى نصبه اللَّه عزّ وجلّ لخلقه، ولا يمكن الوقوف على حقيقة الدين إلّا بالإمامة.

فمودّة ذوى القربى أمر عظيم إذا سَلِم سَلِمت بقيّـة أصول الدين، ولا يوجد قربى للنبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله بهذا الشأن الخطير سوى المعصومين من أهل بيته،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۰۶

فولايتهم عاصمة عن الضلال وهى ركن ركين فى الدين الذى بعث به الأنبياء كافّة.

ولاـ شك أن الـدين عام- كما سـتأتى الإشارة إلى ذلك- لا يسـتثنى منه أحـد فى جميع النشآت بنحو الأبـد وعـدم الانقطاع، ومن ثمّ يكون وجوب الطاعـة والولايـة مكلَّف به جميع المخلوقـات بنحو من التأبيـد والخلود، فخلافـة وولايـة أولى الأـمر ووجوب طاعتهم لا تختصّ بالجنّ أو الإنس ولا بالأمور السياسية الدنيوية وليس لأمدها حدّ ولا انقطاع.

وهنـاك أيضـاً آيـات أخرى سـتأتى لاحقـاً قرنت بين النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله وأهل بيته، مما يكشف عن أن مقامات الأنبياء ونيـل الحظوة الإلهيـة لاـ يتم إلّابالتوسـل والتـوجّه بهم إلى اللَّه تعـالى، وأن تولّيهم واسـطة للفيض الإلـهى، ولولاـهم لمـا بعث الأنبيـاء والمرسـلون، فهم الوسـيلة إلى اللَّه تعـالى فى عظـائم الأـمور، فكيف بالقضايـا الأـخرى التى هى أقـلّ شأنـاً ممـا يرتبـط بالأمور الحياتية والمعيشية للناس؟!

وهذا كلّه يصلح بياناً بذاته لتبعية الأنبياء جميعاً لخاتم الأنبياء وأهل بيته عليهم السلام مع سبقهم الزمنى عليهم.

بیان آخر لتوسل الأنبیاء بالرسول الأکرم وأهل بیته فی نیل المقامات: النبی وأهل بیته قدوهٔ للأنبیاء ...: ص: ۲۰۶

مما یشیر إلی کون النبیّ صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام قدوهٔ لجمیع الأنبیاء والمرسلین حتّی أولی العزم منهم، وبالتالی اتّباعهم للنبیّ صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام وسیلهٔ

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۲۰۷

لبلوغهم إلی المقامات العالیهٔ من النبوّهٔ والرسالهٔ والخلّهٔ والإمامهٔ وغیرها، مع أن النبیّ وأهل بیته متأخرین عنهم من حیث الزمان فی النشأهٔ الأرضیهٔ، هو ما دلّت علیه جملهٔ من الآیات والروایات من أن اللَّه تعالی أنبأ آدم ونوح وإبراهیم وموسی وعیسی وغیرهم من الأنبیاء والرسل بالأحوال والحوادث التی تجری علی خاتم الأنبیاء صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام، من المحن والمصائب والابتلاءات والامتحانات والشدائد وکیفیهٔ ثباتهم علیهم السلام فیها وصبرهم ورضاهم وتسلیمهم بقضاء اللَّه وقدره وتنمّرهم فی ذات اللَّه، وأطلعهم علی الکمالات والمقامات الرفیعهٔ التی یکونون علیها، مع عظیم ابتلائهم بتلک الشدائد.

وهذا ما یوجب تربیهٔ روحیهٔ عالیهٔ لهم لیتحلّوا بالکمالات عند مواجهتهم للشدائد والفتن والمحن وبالتالی نیل المقامات التی حظوا بها عند اللَّه تعالی.

وکان فیما أوحی اللَّه عزّ وجلّ لهم عن أحوال النبیّ وأهل بیته بأنماط متعدّدهٔ من الوحی، أی من الوحی الصوری نظیر الرؤیا أو الوحی بالإلهام والمعنی وغیرها من أنماط الوحی.

فکانت سیرهٔ النبیّ صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام تمثالًا منصوباً وشعاراً مرفوعاً لهم یحتذون ویقتدون به، ماثل أمام أعینهم طیلهٔ مسیرهٔ أیام نبوّتهم ورسالتهم.

وهذا أحد معانی اقتداء الأنبیاء والمرسلین بالنبیّ وأهل بیته.

أما الآیات التی تشیر إلی هذا المعنی فهی عدیدهٔ نشیر إلی جانب منها:

۱- ما تقدّم من قوله تعالی: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِیثَاقَ النَّبِیِّینَ لَمَا آتَیْتُکُمْ مِنْ کِتَابٍ وَحِکْمَهٍٔ ثُمَّ جَاءَکُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَکُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ» «۱»

فإنها دالّهٔ

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۲۰۸

علی أن اللَّه عزّ وجلّ أخبرهم عن خاتم الأنبیاء ومقاماته وأن الدین دینه وهو فاتح حصونه، ثم بعد ذلک أمرهم بالتسلیم له والإیمان به ونصرته.

۲- قوله تعالی علی لسان عیسی علیه السلام: «وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ یَأْتِی مِنْ بَعْدِی اسْمُهُ أَحْمَدُ» «۱».

۳- قوله تعالی فی یهود المدینهٔ، قُبیل ولادهٔ النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ کِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَکَانُوا مِنْ قَبْلُ یَسْتَفْتِحُونَ عَلَی الَّذِینَ کَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا کَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُٔ اللَّهِ عَلَی الْکَافِرِینَ» «۲»

، فقد نقل المفسّرون فی ذیل هذه الآیهٔ المبارکهٔ أن الیهود من أهل المدینهٔ وخیبر کانوا إذا قاتلوا من یلیهم من مشرکی العرب من الأوس والخزرج یستنصرون بالنبیّ صلی الله علیه و آله علیهم ویستفتحون به، لما یجدون من ذکره وصفاته وشمائله ومحلّ ولادته فی التوراهٔ، وکانوا یدعون ویتوسلون بحقّه للنصرهٔ علیهم، حیث یقولون: (اللّهم إنّا نستنصرک بحقّ النبیّ الأمیّ إلّانصرتنا علیهم).

وعن ابن عباس قال: (کانت یهود خیبر تقاتل غطفان فکلّما التقوا هزمت یهود خیبر، فعاذت الیهود بهذا الدعاء: اللّهم إنا نسألک بحقّ محمّد النبیّ الأمیّ الذی وعدتنا أن تخرجه لنا فی آخر الزمان إلّانصرتنا علیهم، قال: فکانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان،

فلما بُعث النبیّ صلی الله علیه و آله کفروا به، فأنزل اللَّه وقد کانوا یستفتحون بک یامحمّد علی الکافرین) «۳».

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۰۹

۴- قوله تعالی فی الیهود والنصاری الذین آمنوا بالنبیّ صلی الله علیه و آله: «الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِی التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِیلِ یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَیَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْکَرِ وَیُحِلُّ لَهُمُ الطَّیِّبَاتِ وَیُحَرِّمُ عَلَیْهِمُ الْخَبَائِثَ وَیَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِی کَانَتْ عَلَیْهِمْ فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۱». ۵- قوله تعالی فی معرفة أهل الکتاب بصفات وشمائل النبیّ صلی الله علیه و آله: «الَّذِینَ آتَیْنَاهُمُ الْکِتَابَ یَعْرِفُونَهُ کَمَا یَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِیقًا مِنْهُمْ لَیَکْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ یَعْلَمُونَ» «۲».

إن هذه الأربع آیات الأخیرة صریحة فی إخبار الأنبیاء علیهم السلام أممهم بأحوال خاتم الأنبیاء صلی الله علیه و آله وسیرته، وهذا یکشف عن أن اللَّه تعالی أطلع أنبیاءه علی سیرة النبیّ الأعظم وما یجری علیه من المحن والشدائد.

۶- قوله تعالی علی لسان إبراهیم فی دعائه لذریّته:

«فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ» «۳»

فهی دالّة علی أن إبراهیم کان مطّلعاً علی سیرة ذرّیته الطاهرة، ودعا اللَّه عزّ وجلّ بمودّة الناس لهم وهویّ القلوب إلیهم.

هذا بالنسبة إلی الآیات المبارکة، وهی دالّة علی أن الأنبیاء علیهم السلام کانوا علی اطّلاع بالنبیّ الأکرم وأهل بیته الطاهرین وما یجری علیهم من البلایا.

أما الروایات فی هذا المجال فهی کثیرة جدّاً نشیر إلی شطر منها علی سبیل الاختصار:

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۱۰

۱- ما أخرجه القندوزی الحنفی فی الینابیع، عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال: «یاعباد اللَّه إن آدم علیه السلام لما رأی النور ساطعاً من صلبه، إذ کان اللَّه تعالی نقل أشباحنا من ذروة العرش إلی ظهره، رأی النور ولم یتبیّن الأشباح، فقال: یاربّ ما هذه الأنوار؟ قال: أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع العرش إلی ظهرک، ولذلک أمرت الملائکة بالسجود لک، إذ کنت وعاءً لتلک الأشباح، فقال آدم علیه السلام: یاربّ لو بیّنتها لی.

فقال اللَّه عزّ وجلّ: انظر یاآدم إلی ذروة العرش.

فنظر آدم علیه السلام ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم علیه السلام إلی ذروة العرش، فانطبع فیه صور أنوار أشباحنا التی فی ظهره کما ینطبع وجه الانسان فی المرآة الصافیة، فرأی أشباحنا.

فقال: ما هذه الأشباح یاربّ؟

قال اللَّه تعالی: یاآدم هذه الأشباح أشباح أفضل خلائقی وبریّاتی، هذا محمّد وأنا المحمود فی أفعالی، شققت له اسماً من اسمی، وهذا علیوأنا العلیّ العظیم شققت له اسماً من اسمی، وهذه فاطمة وأنا فاطر السماوات والأرض، فاطم أعدائی من رحمتی یوم فصل القضاء، وفاطم أولیائی مما یبیرهم ویشینهم، شققت لها اسماً من اسمی، وهذا الحسن وهذا الحسین وأنا المحسن المجمل ومنّی الاحسان، شققت اسمیهما من اسمی.

وهؤلاء خیار خلقی وکرائم بریّتی، بهم آخذ وبهم أعطی، وبهم أعاقب وبهم أثیب، فتوسل بهم إلیّ یاآدم، وإذا دهتک داهیة فاجعلهم إلیّ شفعائک فإنی آلیت

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۱۱

علی نفسی قسماً حقّاً لا أُخیّب لهم آملًا ولا أردّ لهم سائلًا» «۱».

فهذه الروایة صریحة فی أن اللَّه تعالی أطلع خلیفته ونبیّه آدم علی حقائق أهل البیت علیهم السلام، لیکونوا له قدوة یقتدی بهم وشفعاء

يتوسل بهم إلى اللَّه تعالى.

۲- روى: أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض لم يرَ حواء، فصار يطوف الأرض فى طلبها، فمرّ بكربلاء فاغتمّ وضاق صدره من غير سبب، وعثر فى الموضع الذى قُتل فيه الحسين عليه السلام حتى سال الدمّ من رجله، فرفع رأسه إلى السماء وقال:

إلهى هل حدث منّى ذنب آخر فعاقبتنى به؟ فإنى طفت جميع الأرض وما أصابنى سوء مثل ما أصابنى فى هذه الأرض.

فأوحى اللَّه تعالى إليه ياآدم ما حدث منك ذنب، ولكن يقتل فى هذه الأرض ولدك الحسين ظلماً، فسال دمك موافقة لدمه «۲».

۳- ما أخرجه المجلسى فى البحار عن صاحب الدرّ الثمين فى تفسير قوله تعالى: «فَتَلَقَّى ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ» «۳»

: (أنه رأى ساق العرش وأسماء النبىّ والأئمة عليهم السلام، فلقّنه جبرئيل، قل: ياحميد بحقّ محمّد، ياعالى بحقّ علىّ يافاطر بحقّ فاطمة، يامحسن بحقّ الحسن والحسين ومنك الإحسان.

فلمّا ذكر الحسين سالت دموعه وانخشع قلبه، وقال: ياأخى جبرئيل فى ذكر الخامس ينكسر قلبى وتسيل عبرتى؟ قال: جبرئيل: ولدك هذا يصاب بمصيبة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۱۲

تصغر عندها المصائب، فقال: ياأخى وما هى؟ قال: يقتل عطشاناً غريباً وحيداً فريداً ليس له ناصر ولا معين) «۱».

۴- ما أخرجه الصدوق عن علىّ بن موسى الرضا عليه السلام، قال: «لما أمر اللَّه تبارك وتعالى إبراهيم عليه السلام أن يذبح مكان ابنه إسماعيل الكبش الذى أنزله عليه تمنّى إبراهيم عليه السلام أن يكون يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام بيده، وأنه لم يؤمر بذبح الكبش مكانه؛ ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الوالد الذى يذبح أعزّ ولده بيده فيستحقّ بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، فأوحى اللَّه عزّ وجلّ إليه: ياإبراهيم من أحبّ خلقى إليك؟ فقال: ياربّ ما خلقت خلقاً هو أحبّ إلىّ من حبيبك محمّد صلى الله عليه و آله، فأوحى اللَّه عزّ وجلّ إليه: ياإبراهيم أفهو أحبّ إليك أو نفسك؟

قال: بل هو أحبّ إلىّ من نفسى، قال: فولده أحبّ إليك أو ولدك؟ قال: بل ولده، قال: فذبح ولده ظلماً على أيدى أعدائه أوجع لقلبك أو ذبح ولدك بيدك فى طاعتى؟ قال: ياربّ بل ذبحه على أيدى أعدائه أوجع لقلبى، قال: ياإبراهيم فإن طائفة تزعم إنها من أمة محمّد صلى الله عليه و آله ستقتل الحسين عليه السلام إبنه من بعده ظلماً وعدواناً كما يذبح الكبش، فيستوجبون بذلك سخطى، فجزع إبراهيم عليه السلام لذلك وتوجّع قلبه وأقبل يبكى، فأوحى اللَّه عزّ وجلّ إليه: ياإبراهيم قد فديت جزعك على إبنك إسماعيل لو ذبحته بيدك بجزعك على الحسين عليه السلام وقتله، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب» «۲».

۵- ما أخرجه ابن قولويه فى كامل الزيارات عن أبى عبداللَّه عليه السلام قال: «إن

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۱۳

إسماعيل الذى قال اللَّه تعالى فى كتابه: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا» «۱»

لم يكن إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام، بل كان نبيّاً من الأنبياء بعثه اللَّه إلى قومه، فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه، فأتاه ملك عن اللَّه تبارك وتعالى فقال: إن اللَّه بعثنى إليك فمرنى بما شئت، فقال: لى أسوة بما يصنع بالحسين عليه السلام» «۲».

وفى حديث آخر عنه عليه السلام قال: «ذاك إسماعيل بن حزقيل النبىّ عليه السلام، بعثه اللَّه إلى قومه فكذّبوه فقتلوه وسلخوا وجهه، فغضب اللَّه له عليهم فوجّه إليه اسطاطائيل ملك العذاب، فقال له: ياإسماعيل: أنا اسطاطائيل ملك العذاب، وجّهنى إليك ربّ العزّة لأعذّب قومك بأنواع العذاب إن شئت، فقال له إسماعيل:

لا حاجة لى فى ذلك، فأوحى اللَّه إليه فما حاجتك ياإسماعيل؟ فقال: ياربّ إنك أخذت الميثاق لنفسك بالربوبية ولمحمّد صلى الله عليه و آله بالنبوّة ولأوصيائه بالولاية، وأخبرت خير خلقك بما تفعل أمته بالحسين بن علىّ عليه السلام من بعد نبيّها، وأنك وعدت الحسين عليه السلام أن تكرَّهُ إلى الدنيا حتى ينتقم بنفسه ممن فعل ذلك به، فحاجتى إليك ياربّى أن تكرّنى إلى الدنيا حتّى أنتقم

ممن فعل ذلک بی، کما تکرّ الحسین علیه السلام، فوعد اللَّه إسماعیل بن حزقیل ذلک، فهو یکرّ مع الحسین علیه السلام» «۳».

۶- عن سعد بن عبداللَّه القمی فی سؤاله للإمام المهدی علیه السلام فی محضر الإمام الحسن العسکری علیه السلام، حیث قال: فأخبرنی یاابن رسول اللَّه عن تأویل «کهیعص»؟ قال علیه السلام: «هذه الحروف من أنباء الغیب، أطلع اللَّه علیها عبده زکریّا، ثم قصّها علی محمّد صلی الله علیه و آله، وذلک إن زکریا سأل ربّه أن یعلّمه أسماء

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۱۴

الخمسة، فأهبط علیه جبرئیل فعلّمه إیاها، فکان زکریا إذا ذکر محمّداً وعلیاً وفاطمة والحسن والحسین، سری عنه همّه، وانجلی کربه، وإذا ذکر الحسین خنقته العبرة، ووقعت علیه البهرة «۱»، فقال ذات یوم: یاإلهی ما بالی إذا ذکرت أربعاً منهم تسلّیت بأسمائهم من همومی، وإذا ذکرت الحسین تدمع عینی وتثور زفرتی؟ فأنبأه اللَّه تعالی عن قصّته» إلی أن قال: «فلما سمع ذلک زکریا لم یفارق مسجده ثلاثة أیام ومنع فیها الناس من الدخول علیه، وأقبل علی البکاء والنحیب، وکانت ندبته: إلهی أتفجع خیر خلقک بولده؟

إلهی أتنزل بلوی هذه الرزیة بفنائه؟ إلهی أتلبس علیاً وفاطمة ثیاب هذه المصیبة؟ إلهی أتحلّ کربة هذه الفجیعة بساحتهما؟

ثم کان یقول: ألّلهم ارزقنی ولداً تقرّ به عینی علی الکبر، واجعله وارثاً وصیّاً، واجعل محلّه منّی محلّ الحسین، فإذا رزقتنیه فافتنّی بحبّه ثم افجعنی به کما تفجع محمّداً حبیبک بولده، فرزقه اللَّه یحیی وفجعه به» «۲».

والروایات فی هذا المجال کثیرة جدّاً، وهی دالّة علی ما أردنا التنبیه علیه من تبعیة الأنبیاء لمحمّد وأهل بیته علیهم السلام، وکونهم قدوة لهم وواسطة فی بلوغ ما وصلوا إلیه من المقامات، وذلک عن طریق استعراض سیرتهم والحوادث التی جرت علیهم علیهم السلام.

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۱۵

آیات أخری فی اقتران أهل البیت علیهم السلام بالنبیّ صلی الله علیه و آله فی الصفات ...: ص: ۲۱۵

۱- قوله تعالی: «إِنَّمَا یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرُکُمْ تَطْهِیراً» «۱»

، حیث قرنت هذه الآیة المبارکة بالنبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله أهل بیته علیهم السلام وجعلتهم شرکاء له تابعون فی الطهارة، وهی تعنی درجة العصمة التی للرسول صلی الله علیه و آله، فهو صلی الله علیه و آله سیّد الأنبیاء ویفوق الکلّ فی درجة العصمة والطهارة، إلّا أن سنخ عصمته صلی الله علیه و آله متقاربة ومتقارنة مع سنخ العصمة التی لأهل البیت علیهم السلام، ففی الوقت الذی قرن اللَّه تعالی بنبیّه صلی الله علیه و آله أهل بیته فی العصمة والطهارة، لم یقرن أحداً من الأنبیاء فی نمط التطهیر والعصمة الذی له صلی الله علیه و آله.

۲- قوله تعالی: «فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَکُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَکُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَی الْکَاذِبِینَ» «۲»

، فلم یُنزَّل أحد کنفس النبیّ صلی الله علیه و آله إلّاعلیّ علیه السلام، وقرن اللَّه تعالی بالنبیّ صلی الله علیه و آله أهل بیته علیهم السلام فی الحجّیة، فالخمسة علیهم السلام معاً حجج علی جمیع الأدیان السماویة والبشریة عموماً إلی یوم القیامة، فهم علیهم السلام شرکاء النبیّ صلی الله علیه و آله فی الرسالة؛ لأن المباهلة نوع محالفة، وفی الحلف لابدّ أن یحلف الأصیل ولا وکالة فی الحلف، وهذا یعنی أنهم علیهم السلام شرکاء فی الرسالة أصالة، ولکنهم تابعون فی ذلک للنبیّ صلی الله علیه و آله وهو سیّدهم وبشفاعته نالوا الأصالة فی الحجّیة.

والحاصل: إن أهل البیت علیهم السلام مقرونون بسیّد الأنبیاء فی المقامات تبعاً له صلی الله علیه و آله، وهذا یعنی أن الإیمان بأهل

البيت والتولّى لهم من الدين الذى أخذ على

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۱۶

الأنبياء الإيمان به ونصرته لأجل نيل المقامات العالية عند اللّه تعالى.

هذا تمام الكلام فى الدليل السابع على عموم شرطية التوسّل بالنبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام لصحّة الإيمان وللتوبة وسائر العبادات ولنيل مقامات القرب.

الدليل الثامن ...: ص: ۲۱۶

«فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ» «۱».

تقدّم أن هذه الآية المباركة دالّة على مبدأ التوسّل، ونشير هنا أيضاً إلى أنها دالّة عموم شرطية التوسّل فى التوجّه إلى الحضرة الإلهية، فلابدّ من التوسّل بالذريّة والتوجّه بهم وصلتهم والمجىء إليهم، وسبق كذلك أن التوجّه نوع دعاء وهو لا يرتفع ولا تفتّح له أبواب السماء إلّابالتوسل بالنبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام وهوىّ القلوب إليهم.

ولذا كانت مودّة أهل البيت عليهم السلام أجر الرسالة الخاتمة، كما فى قوله تعالى:

«قُلْ لَاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى» «۲»

، وقال تعالى: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ» «۳»

، مما يعنى أن مودّة أهل البيت عليهم السلام يعود نفعها للأمة جمعاء، وقال عزّ وجلّ: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» «۴»

، ومعنى ذلك أن مودّتهم عليهم السلام هى السبيل الوحيد والطريق والوسيلة المنحصرة إلى اللّه تعالى، فهم السبيل إليه والمسلك إلى رضوانه.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۱۷

الدليل التاسع: الاستكبار والصدّ عن آيات اللّه تعالى موجب لحبط الأعمال ... ص: ۲۱۷

نريد أن نتعرض هنا فى الاستدلال على المقام بما تقدّم من قوله عزّ وجلّ:

«إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ» «۱»

ونريد أن نضيف على ما تقدم من بيان هذه الآية الكريمة بما له دلالة على المطلوب فى المقام، وذلك بالبيان التالى:

إن الآية المباركة تتعرّض لبعض الأحكام المترتّبة على التكذيب بآيات اللّه تعالى.

والمقصود من الآيات هى الحجج الإلهية، حيث أطلق اللّه عزّ وجلّ لفظ الآية على مريم وعيسى عليهما السلام «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً» «۲»

، وإذا كان عيسى عليه السلام لم ينل ما ناله إلّابولايته وإقراره وإيمانه بسيّد الأنبياء فكيف بنفس النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، فهو أعظم آية للّه‌تعالى؟ وإذا كان عيسى عليه السلام من وزراء الإمام المهدى عليه السلام وتابعاً له فى دولته، فكيف لا يكون أهل البيت عليهم السلام من أعظم آيات اللّه تعالى؟ خصوصاً وأن اللّه تعالى قرن بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أهل بيته عليهم السلام فى الطهارة والعصمة والحجّية والولاية وغيرها من المقامات التى تقدّم التعرّض لها آنفاً، فلا شك أن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله

وأهل بيته عليهم السلام المصداق البارز للآية التى نحن بصدد بيانها، فهم عليهم السلام أوضح وأبرز وأعظم آيات اللَّه تعالى.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۱۸

والذين يكذّبون بآيات اللَّه تعالى ويصدّون ويستكبرون عنها- كما فعل إبليس مع آدم عليه السلام- لا تفتّح لهم أبواب السماء، فلكى تفتّح أبواب السماء لقبول الأعمال والعبادات والعقائد وجميع المقامات، وقد قال تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» «۱»

والكلم الطيب هو العقيدة، فبيّنت الآية أن الإيمان والعقيدة لابدّ له أن يصعد فى مسير قبوله عند اللَّه تعالى، والصعود إلى السماء لابدّ أن تفتّح له أبواب السماء، وقد بيّنت الآية السابقة أن مفتاح أبواب السماء هو كلّ من التصديق بالآيات الإلهية والخضوع لها واللُجأ إليها وعدم الصدّ عنها، ومن أجل الرقى والعروج إلى السماء لابدّ من التوجّه إلى آيات اللَّه تعالى واللجوء إليها والتصديق بها وعدم الصدّ عنها، فالآية صريحة فى أن التوبة والعبادة وأىّ قربى أو زلفى إلى اللَّه عزّ وجلّ تفتقر إلى تفتّح أبواب السماء وأنها لا تفتّح أبداً مع الاستكبار على الآيات الإلهية، فليس الإيمان بآيات اللَّه فحسب كافٍ فى قبول العبادات ورقى المقامات، بل لابدّ من المودّة والصلة والإقبال والتوجّه إلى الآيات والتوسّل بها إلى اللَّه، وعدم الصدّ والإعراض والإستكبار عنها، لأن الآية جعلت شرطين لفتح أبواب السماء ولدخول الجنّة:

الأول: عدم التكذيب، أى التصديق والإيمان والمعرفة بآيات اللَّه الحجج.

والثانى: عدم الاستكبار عنها، وهذا الأمر يتضمّن شيئين:

أحدهما: عدم الاستكبار أى الخضوع والتواضع، وثانيتهما: عدم الصدّ الذى قد ضُمّن فى فعل الاستكبار بقرنية عن، نظير ما ذكرته الآيات فى مسبب كفر إبليس (أبى واستكبر) فالإباء هو الجحود مقابل التصديق، والاستكبار مقابل

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۱۹

الخضوع والاتباع.

ونظير ذلك ما ورد فى سورة المنافقين فى قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ» «۱»

وهذه الآية الكريمة صريحة فى أن الاستغفار وقبول التوبة متوقّف على المجىء إلى النبىّ صلى الله عليه و آله، وأن صفة المنافق الصدّ عن الآيات الإلهية والاستكبار عليها والابتعاد عنها وعدم اللجوء واللواذ إليها، وهذا نوع من التشاهد بين الآيات القرآنية، فالآية تدلّ على أن الأوبة إلى اللَّه تعالى والقرب إليه لابدّ فيه من التوجّه أوّلًا إلى الحضرة النبوّية والتوسّل والاستشفاع بالنبى صلى الله عليه و آله ثم شفاعته.

فالتوسّل خيار حصرى لابدّى شرطى منحصر بالمجىء واللجوء إلى الحضرة النبويّة واللّواذ بها والاستغاثة به صلى الله عليه و آله، ثم إبداء التوبة والاستغفار وإمضاء النبىّ صلى الله عليه و آله له باستغفاره وشفاعته لهم من أجل تحقّق التوبة ومقام المغفرة وقبول العبادة التى منها عبادة التوبة.

ونظير هذه الآيات أيضاً قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» «۲».

ومن الشواهد أيضاً على أن المراد من الآيات هنا هم الأنبياء والخلفاء الأوصياء الحجج هو التعبير ب (كذّبوا) فإنه مقابل التصديق فيما يزعمون من مناصب وفيما لهم من دعوى، وأما الآية الكونية فليس فيها تكذيب أو تصديق، بل إنما يقع الغفلة والإعراض عنها؛ إذ لا يوجد فيها زعم أو دعوى معيّنة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۲۰

كى يصدق فى حقّها التصديق أو التكذيب، فالتصديق أو التكذيب إنما يكون للحجج الإلهية التى تدّعى مقاماً إلهياً وكذا فيما تبلّغه

عن اللَّه تعالى، فالمراد بالآية والآيات فى المقام الحجج الإلهية من الأنبياء والرسل والأصفياء والأوصياء، الذين أَسندت إليهم المقامات الإلهية.

والحاصل: إن هذه الآيات المباركة تبيّن أن مفتاح أبواب سماء الحضرة الربوبية الإقرار بالحجج والآيات والتوجّه إليها والتوسّل والتشبّث بها والإنقطاع إليها لا عنها، وأبرز وأعظم تلك الآيات النبيّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام، فهم مفاتيح أبواب السماء فى قبول وصعود التوبة والعبادة والمعرفة والإيمان والعقيدة ونيل المقامات، فلا ترتفع أى عبادة ولا ينال مقام ولا تتحقّق التوبة مع عدم التصديق بالآيات وصلتها ومودّتها والتوجّه إليها والتوسّل بها، والإعراض عنها يوجب حبط الأعمال وامتناع دخولهم الجنّة فى الآخرة «ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط» «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»، فشرط النجاة يوم القيامة الارتباط بالآيات الإلهيّة والإنتماء إليها والتوسّل بها، لكونها قنوات غيبيّة توجب القرب إلى اللَّه تعالى.

فالتوسل شرط فى تفتّح الأبواب لقبول وصحّة الإيمان والتوبة وقبول الأعمال وسائر المقامات.

الدليل العاشر: خضوع الملائكة لآدم عليه السلام كلّ خليفة اللَّه الباب الأعظم لملائكته ... ص: ۲۲۰

اشارة

لقد سبق ذكر الآيات التى تعرّضت لقصة آدم عليه السلام وأمر الملائكة كلّهم

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۲۱

أجمعين بالسجود له، وقلنا إن الأمر بسجود الملائكة وخضوعهم وانقيادهم ليس خاصّاً بآدم عليه السلام، لأنها معادلة دائمة فى عالم الخلقة لكلّ من يتحلّى بمقام الخلافة الإلهية، فمن يتحلّى بهذا المقام يطوع اللَّه عزّ وجلّ له الملائكة ويدينون بأجمعهم للَّه‌تعالى بطاعته بما فيهم كبار الملائكة المقرّبين، وهم فى كلّ ما يقومون به من أدوار عظيمة فى عالم الإمكان والكون خاضعون لوليّ اللَّه، وهو خضوع حقيقى قائم على أساس العلوّ الرتبيّ التكوينى لخليفة اللَّه تعالى، وحينئذٍ يكون الأمر بالسجود والخضوع للخليفة شامل للأنبياء، وخصوصاً أولى العزم منهم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى والرسول الأكرم وأوصيائه عليهم السلام، فالملائكة المقرّبين وغيرهم بابهم إلى اللَّه تعالى خليفة اللَّه الذى يُنبئهم بالأسماء والمقامات.

ثمّ إن الآيات والروايات ذكرت أن الملائكة عندما اعترضت على جعل خليفة اللَّه فى الأرض وهو من ترك الأولى الناشئ من ضيق الأفق وعدم سعة العلم- آبت وتابت إلى اللَّه عزّ وجلّ بالسجود لآدم عليه السلام.

إذن سنّة اللَّه للملائكة كدين هو الإقبال على وليّ اللَّه، وهو شرط أوبتهم وقبول عبادتهم وحظوتهم بالمقامات العالية.

ففى عالم الغيب الذى هو خال عن نشأة التشريع الأرضى، وليس خالٍ عن الدين الإلهى، كما قال تعالى: «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» «۱»

، افتقرت الملائكة إلى أن يكون بينهم وبين اللَّه تعالى واسطة فى الخضوع والإنباء والمعرفة والعبادة والتقرّب إلى اللَّه تعالى، فما بالك بالنشآت الأخرى؟!

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۲۲

وإذا كان آدم أبو البشر نبيّ الملائكة وقناة الإنباء والفيوضات العلمية وغيرها عليهم من اللَّه تعالى، وهو وليّهم وهم طائعون له لا يتمرّدون عليه ولا ينبغى لهم ذلك، فكيف بسيّد البشر؟! ألا تكون الملائكة منقادة وطائعة له؟!

ومن هنا تكون الملائكة مشمولة بقوله تعالى: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» «۱»

من غير اختصاص بالنشأة الأرضيّة، وهذا لوحدة الدين وشموله لجميع المخلوقات كما سيأتى لاحقاً بيانه.

فالخليفة نبىّ الملائكة وله مقام إنبائهم وتعليمهم؛ لأنه مزوّد بالعلم اللّدنى الأسمائى، فهو نبىّ المعارف وإن لم يكن نبىّ شريعة للناس فى الأرض.

والحاصل: إن المقامات التكوينيّة العالية للملائكة لا يمكن أن تنال إلّابطاعة ولىّ اللّه والإقبال عليه والتوجّه إليه وبه إلى اللّه تعالى.

أخذ ميثاق ولاية أهل البيت عليهم السلام معرفة وتوسّلًا فى جميع النشآت على أصناف المخلوقات ...: ص: ۲۲۲

الدين الذى هو عند اللّه الإسلام لا يختصّ بنشأة من النشآت، بل الكلّ مكلّف بالطاعة للّهوالإسلام له فى أصول معالم دينه، قال تعالى:

«أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» «۲»

، ولـذا كـان الأمـر بالسـجود لآدم غير خـاصّ بالملائكـة، بل شامل لكل النشآت ومن هنا عمّ الأمر إبليس، لأن دين اللّه عزّ وجلّ وهو التسليم دين جميع المخلوقات،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۲۳

فالملائكـة أيضاً مأمورة بالتوحيـد للّهتعالى وطاعـة ولىّ اللّه بالسـجود له، وعلى هـذا فكلّ ما يبيّن فى النصوص القرآنية بأنه من أركان الدين فقد أخذ على جميع الملائكة الإيمان به، ومن تلك الأركان تولّى خليفة اللّه والطاعة له.

وإذا عرفت ذلـك يتّضـح لك ما ورد فى الروايات من أن ولايـة النبىّ صـلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السـلام أُخـذت من جميع الملائكة وسائر الكائنات، وذلك لكونها من الدين غير الخاص بنشأة من النشآت.

إذن فنبوّة خاتم الأنبياء وولاية سـيّد الأوصـياء لا تختصّ بالموجودات الأرضية، وهذا يعنى أن الشهادة الثانية والثالثة لم تؤخذ على أهل هـذه الدنيا فحسب، لأن الإنباء ونيل الفيوضات عموماً يحتاج إلى وجود خليفة اللّه ولابدّ من التوجّه إليه لنيل المقامات وقبول الطاعات فى جميع النشآت؛ لأنه واسطة اللّه وسفيره بينه وبين خلقه فى كلّ المقامات العلمية والتكوينية.

تأييد رسالة الرسول صلى الله عليه و آله ووساطته فى الوحى الإلهى لجميع النشآت ...: ص: ۲۲۳

فمفاد الشـهادةالثانية والثالثة إقرار بالواسـطة الأبدية غيرالخاصة بالنشأة الأرضـية، وهذه هى تداعيات ومقتضـيات الشهادة الثانية والثالثة، التى لا يتمّ التوحيـد بـدونها، ومن دونها لا يتحقّق قرب المخلوق إلى ربّه، ذلك المخلوق البعيـد عن مقامات الربوبية وعظمة الصـفات الإلهية.

جحود التوسّل سنّة إبليس فى الاستكبار ...: ص: ۲۲۳

ومن يأبى ذلك يحصل له العتوّ والاستكبار فى نفسه والتعظيم لها، مع أن

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۲۴

نفسه صـغيرة فقيرة بعيـدة عن ساحـة عظمـة الصـفات الإلهية، فهى أى النفس- محتاجة إلى الواسـطة والسـفارة التى يتوجّه بها إلى اللّه تعالى، كما فى قوله تعالى:

«قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ* قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ*

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّکَ رَجِیمٌ* وَإِنَّ عَلَیْکَ لَعْنَتِی إِلَی یَوْمِ الدِّینِ» «۱».

ویتّضح أیضاً أن معطیات الشهادهٔ الثانیهٔ والثالثهٔ ومؤداهما مرتبطهٔ بالمعارف الدینیّهٔ الأبدیّهٔ الشاملهٔ للملائکهٔ والجنّ والإنس والبرزخ والجنّهٔ والنار والآخرهٔ، فضلًا عن النشأهٔ الأرضیهٔ، کـذلک الوساطهٔ والشهادهٔ الثانیهٔ والثالثهٔ شاملهٔ لعالم العقول والأرواح، ولذا نجد أن مجری الفیض فی تکامل عقول علماء هـذه الأمهٔ ومستویاتها العلمیّهٔ فی الدین هو النبیّ صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام، حیث تمّ بجهودهم المبارکهٔ تشیید المعارف الصحیحهٔ ورفض الجبر والتفویض والتجسیم والتشبیه والتعطیل وغیرها من العقائد الفاسدهٔ، فهم علیهم السلام وسائط الفیض وسفراء الأرواح والعقول.

وهذا بیان عقلی لمعطیات الشهادهٔ الثانیهٔ والشهادهٔ الثالثهٔ یُضاف إلی البیانات السابقهٔ المعتمدهٔ علی الآیات القرآنیهٔ المبارکهٔ.

والحاصل: إن شرطیهٔ التوسّل فی المقامات الثلاث المذکورهٔ تعمّ جمیع الأنبیاء والرسل وکلّ المخلوقات من الملائکهٔ وغیرها.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۲۲۶

الفصل الرابع / شبهات وردود ... ص: ۲۲۶

اشارهٔ

الشبههٔ الأولی: التوسّل عبادهٔ لغیر اللَّه تعالی.

الشبههٔ الثانیهٔ: التوسّل مناف لکلمهٔ التوحید.

الشبههٔ الثالثهٔ: التوسّل مناف للآیات القرآنیهٔ

الشبههٔ الرابعهٔ: الأعمال الصالحهٔ هی الوسیلهٔ.

الشبههٔ الخامسهٔ: التوحید الإبراهیمی یأبی التوسّل بغیر اللَّه.

الشبههٔ السادسهٔ: التوسّل یعنی التفویض وعجز اللَّه تعالی.

الشبههٔ السابعهٔ: إیجاد المخلوقات الامکانیهٔ کلّه ابداعیّ بلا واسطهٔ.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۲۲۷

شبهات وردود ... ص: ۲۲۷

قبل الـدخول فی بیان الشبهات والأجوبـهٔ التفصـیلیهٔ عنها لابـدّ من التنبیه علی نقطهٔ جدیرهٔ بالإلتفات، وهی إننا لا نخطّئ قول أصحاب الشبههٔ فی تأثیر التوسّل ومدخلیته المباشرهٔ فی العقیدهٔ التوحیدیهٔ، وذلک لأن فروع الدین الاعتقادیهٔ، بل کلّ فروع الدین ترجع فی لبّها وجذرها إلی أصول الدین، فإن معنی کونها من فروع الدین أنها تنحدر وتنشعب وتتنزّل من الشجرهٔ المبارکهٔ الطیّبهٔ لأصول الدین.

إذن فعبادهٔ التوسّل توحیدیهٔ، بمعنی أن لها عمقاً توحیدیاً وجذراً تنشعب منه یربطها بأصول الدین الکلّیهٔ.

وهذا هو معنی أن التوحید لا یتمّ بکلمهٔ (لا إله إلّااللَّه)، بل لابدّ من أدبیات ومعطیات الشهادهٔ الثانیهٔ لکی یتمّ التوحید.

والحاصل: إن المسألـهٔ لیست مرتبطهٔ بصورهٔ الفعل الذی یأتی به العبد، بل الأمر یعود إلی لبّ ذلک الفعل وجذره وهو التوحید، ولکن بعـد أن أثبتنا ضـرورهٔ التوسّل فضـلًا عن مشروعیته، بل شـرطیته فی صـحّهٔ العقیدهٔ والأعمال، یکون الأمر علی عکس ما ذکروه من أن التوسّل بغیر اللَّه تعالی یوجب الکفر والخروج

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۲۲۸

عن العقیدهٔ التوحیدیهٔ، بل نقول: إن ترک التوسّل والتوجّه یوجب الجحود والاستکبار والکفر والخروج عن عقیدهٔ التوحید.

كذلك من الجدير بالإلتفات أن ثبوت ضرورة التوسّل بآيات اللّه وكلماته من الأنبياء والأولياء والأوصياء معناه ضرورة الإرتباط بكائن حيّ بشرى يربطنا مع الحيّ القيوم، فلابدّ من استشعار ضرورة وجود نموذج بشرى نرتبط به وله القدرة على أن يكون حلقة الوصل بين اللّه عزّ وجلّ وبين عبيده، وليس ذلك إلّا لعظمة اللّه تعالى وتنزّهه عن التشبيه والتجسيم والتعطيل.

وفى غير هذه الصورة تكون جميع المناسك العبادية كمناسك الحجّ عبارة عن جمادات لا حيوية فيها، وهذا يعطى استشعاراً بأننا نعظّم أحجاراً جامدة لا حيوية فيها ولا تماسّ لها باللّه الذى لا إله إلّاهو الحيّ القيوم.

بعد هذا البيان الموجز نقول:

إن المنكرين لمشروعية التوسّل استدلّوا على دعواهم ببعض الأدلّة، وهى بعد بيان ما هو الحقّ فى المسألة وأن التوسّل ضرورة لابدّ منها تكون شبهات وتلبيسات لابدّ من الإجابة عنها، وهذه عمدتها:

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۲۹

شبهات المنكرين لجواز التوسّل ... ص: ۲۲۹

الشبهة الأولى: التوسّل عبادة لغير اللّه تعالى ... ص: ۲۲۹

اشارة

إن الدعاء عبارة عن النداء وطلب الحاجة، ولا شك أن الدعاء عبادة للمدعو؛ لأن الدعاء فيه نوع من التوجّه والقصد والنيّة، وهذه الأمور هى روح العبادة وقوامها، ولذا ورد فى الحديث «أن الدعاء مخ العبادة وجوهرها».

وبالتالى يكون دعاء غير اللّه تعالى وندبته وطلب الحاجة منه عبادة له، وهو من أوضح أنواع الشرك فى العبادة.

ويعبّر عنه بالشرك الصريح أو الشرك الأكبر، الذى يوجب الرّدة والارتداد عن الدين والمنافاة لأوليّات الدين الاسلامى، والخروج عن المواثيق والعهود التى التزم بها الشخص بالتزامه وتشهّده الشهادتين.

مع العلم أن جميع طقوس العبادة لا تبلغ درجة الدعاء الذى هو قوام حقيقة العبودية، وهو نوع افتقار إلى البارى تعالى.

والحاصل: إن الدعاء والنداء وطلب الحوائج من غير اللّه تعالى من أغلظ أنواع العبادة والتأليه للشخص المدعو، وهو عبارة عن الشرك الصريح أو الأكبر.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۳۰

الجواب عن الشبهة الأولى ...: ص: ۲۳۰

كان خلاصة الشبهة هو أن الدعاء والنداء وطلب الحاجة عبادة لا تجوز لغير اللّه تعالى.

والجواب عن هذه الشبهة اتضح ضمناً سابقاً فى بيان ما هو الحقّ فى المسألة، وأن الدعاء بمعنى النداء، والطلب إنما يكون عبادة للمدعو إذا اعتقد الداعى أن المدعو مستقل بالقدرة غنى بالذات، وأما إذا اعتقد الداعى أن المدعو لا يستقل بالقدرة، بل يستمد القدرة من البارى تعالى وأن الحول والقدرة التى لديه هى من البارى تعالى وأن المدعو إنما حصل عليها لمكان حظوته وقربه عند البارى وأن الداعى إنما يدعوه نظراً لقربه ووجاهته من البارى وأن تكريم اللّه له بالقرب والوجاهة حفاوة منه تعالى وإذن منه للاستشفاع والتوسّل والتوجّه به إليه عزّوجلّ، فإن دعاء ذلك الغير يعدّ حينئذٍ توجّهاً وقصداً إلى الحضرة الإلهية، لأن قصد القريب من

الحضـرة الإلهيـة قصـد للحضـرة، كما أن الصـدّ والإعراض عن القريب ابتعاد عن الحضـرة الإلهيـة، فدعاء ذلك الغير هو دعاء للّهبآياته العظيمة ودعاء له بأسمائه الحسنى التى يظهر بها.

وينقض أيضاً على هذه الشبهة بطلب الحىّ الحاجة من الحىّ، مثل طلب العلاج من الطبيب، وطلب البناء من البنّاء، واصلاح الزراعة من الزرّاع، فإنه لا ريب فى عدم توقّف أحد من المسلمين، بل ولا من البشر عموماً فى ذلك.

ولم يقل أحد أن ذلك يوجب كفراً أو زندقة أو شـركاً، والحال إنه على مقتضى كلامهم لابدّ أن يكون ذلك كفراً وشركاً؛ لأن الحدّ الذى ذكروه لبيان معنى الشرك ينطبق على نداء الحىّ للحىّ وطلب الحىّ الحاجة من الحىّ واستغاثته به، كما

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۳۱

فى قوله تعالى: «فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ» «۱»

وكذا فى التوسّل والتشفّع وتوسيط الحىّ للحىّ، فإنه لم يدّع أحد أن ذلك من الشرك والكفر، مع أن حدّ الشرك الذى زعموه ينطبق عليه تماماً.

لا سيما وأن هـذه المباحث من المباحث العقليـة التكوينيـة وهى لا تقبل التخصـيص، بخلاف المباحث الاعتباريـة الجعليـة التى قـد لا تكون مطّردة فى جميع المصاديق.

ثم إن أصحاب هذه المقالة حاولوا أن يجيبوا عن هذا النقض بجوابين:

الأول: إن سؤال الحىّ الحاضـر بما يقـدر عليه والاسـتعانة به فى الأمور الحسّـية التى يقدر عليها ليس ذلك من الشـرك، بل من الأمور العادية الحياتية الجائزة بين المسلمين.

الثانى: إن الأمور العادية والأسـباب الحسّـية التى يقدر عليها المخلوق الحىّ الحاضـر ليست من العبادة، بل تجوز بالنصّ والاجماع، بأن يسـتعين الإنسان بالإنسان الحىّ القادر فى الأمور العادية، التى يقدر عليها كأن يسـتعين به أو يسـتغيث به فى دفع شـرِ ولده أو خادمه أو كلبه، وما أشـبه ذلك، وكأن يسـتعين الانسان بالانسان الحىّ الحاضـر القادر أو الغائب بواسطة الأسباب الحسّية، كالمكاتبة ونحوها فى بناء بيته أو إصـلاح سيارته أو ما أشبه ذلك، ومن ذلك الاستغاثة التى جرت لأحد بنى إسرائيل عندما استغاث بموسى عليه السلام فى قوله تعالى: «فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ» «۲»

، وكذا استغاثه

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۳۲

الانسـان بأصـحابه فى الجهـاد أو الحرب أو نحو ذلـك، وأمـا الاسـتغاثة بالأـموات والجنّ والملائكـة والأشـجار والأحجـار فـذلك من الشرك الأكبر، وهو من جنس عمل المشركين الأوّلين مع آلهتهم كاللّات والعزّى وغيرهما.

دفع الجوابين: جحود التوسّل يستند إلى التفويض ... ص: ۲۳۲

أما الجواب الأول: فالوهن فيه واضـح؛ لأنه يقول الاسـتعانة بالانسان الحىّ القادر على الأمور العاديـة الحسّـية ليس من الشـرك، وكونه حيّاً أو ميّتـاً لا يؤثّر فى تحقّق الغيريـة مع اللّه عزّ وجلّ، والشـرك- بحسب زعمهـم- قائم بالغيريّـة مع اللّه تعالى، والغيريّـة لغـة وعقلًا لا تختلف سواء جعل مصداق الغير والغيريّة الحىّ أو الميّت، فإن أحد الأجزاء المقوّمة لحصول الشرك كما ذكروا هو ضمّ غير اللّه تعالى إليه، وهذا لا يختلف فى تحقّقه سواء كان الغير حيّاً أو ميّتاً، فالتفريق بلا فارق.

وأمـا مـا ذكروه من التعلّق بالقـادر، حيث قيّـد الجواب بالقـادر، فنقول فيه: إن كـانت القـدرة التى يعتقـدها للحىّ نابعـة من ذاته بلحاظ الاستقلال لا من إقدار اللّه عزّ وجلّ وتمكينه فهو الشرك الأكبر، وقد كرّ هذا المجيب على ما فرّ منه.

وأما إن كان يعتقد أن هذه القدرة من اللَّه تعالى ومضافة إلى المخلوق من قبل الخالق فأى فرق بين الحيّ والميت؟! فكما قد يُقدر تعالى الحيّ يُقدر روح الميّت على ما أقدر عليه الحيّ.

ثم إنه لا معنى للتفريق أيضاً بين الاستعانة بالأمور العادية وغيرها، فهل إن

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۳۳

قدرة اللَّه تعالى تنحسر فى الأمور العادية والحسّية ويكون هناك ندّ فيها لقدرة الربّ عزّ وجلّ وهى قدرة الحيّ الحاضر؟! فإن هذا هو القول بالثنوية، ومعناه أنه فى الأمور غير العادية لابدّ من التوحيد بقدرة الربّ فيها وأما فى الأمور العادية فنؤمن بالثنوية.

وحيث أن الثنوية باطلة وشرك صريح فلابدّ من التوحيد فى جميع الأفعال الإلهية، وأنها كلّها تستند من دون جبر إلى البارى عزّ وجلّ، من دون أى درجة من درجات التفويض، وحينئذٍ يستوى الحال فى الأمور العادية والأمور غير العادية.

جحود التوسّل يستند إلى المذاهب الحسيّة المادية ...: ص: ۲۳۳

ثم ما هو الفرق فى التوسّل فى شفاء مريض على يد طبيب نادرة زمانة وبين التوسّل بأحد أولياء اللَّه تعالى فى الشفاء؟!

فإن مورد الحاجة فى هذا المثال عادى، فهل الكلام فى مورد الحاجة وأنه لابدّ أن يكون من الأمور العادية أو فى السبب المتوسل به؟

وما هو الفرق فى السبب بين العادى وغير العادى إذا كان الأمر بيد اللَّه تعالى وهو على كلّ شيء قدير؟!

مع أن الأدلّة الشرعية والدراسات الحديثة العلمية أثبتت أن طاقات البدن البرزخى لا تقاس بطاقات بدننا المادّى وقدرته، وأن البدن البرزخى يحتوى على طاقات هائلة تفوق قدرة أبداننا المادّية بكثير جدّاً، وعليه كيف نتصور أن الحيّ قادر على قضاء الحوائج بما لا قدرة للميت عليه بروحه وبدنه البرزخى؟!

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۳۴

أضف إلى ذلك كلّه أن تقييد الاستعانة والتوسّل بالأمور الحسّية ناشى من الايمان بأصالة الحسّ والمادّة والتنكّر للعوالم المخلوقة الأخرى التى ما وراء الحسّ والمادّة، وأن كلّ ما غاب عن الحسّ ينكر، وهذا الكلام أشبه بالفلسفات المادّية الحسّية، التى آمنت بأضعف العوالم وأدنى المراتب الوجودية وتنكّرت لبقيّة العوالم العلوية.

هذا بالنسبة إلى دفع الجواب الأول.

تفصيل الجاحدين للتوسّل فى الوسائط ...: ص: ۲۳۴

وأما الجواب الثانى: إن صاحب الشبهة بعد أن استشعر أن الجواب الأوّل غير موزون من الناحية العقلية تشبّث بالنصّ والإجماع وأن توسّل وتشفّع الحيّ بالحيّ فى الأمور العادية الحسّية جائزة بالنصّ والإجماع، وأما الاستغاثة والتوسّل بالأموات فهو من جنس عمل الوثنية.

والتمسّك بالدليل النقلى فى المقام، سواء فى جانب الجواز أو النفى غير تام من وجوه:

الأول: إن بحث الشرك بحث عقلى لا سيما فى الشرك الأكبر، فهو من أوليّات العقيدة التى للعقل فيها دور ومجال واسع، وإذا كان عقلياً يرد عليه ما ورد فى الدفع الأول، من أن حكم العقل وانطباق حدّ الشرك على الحيّ الحاضر والميّت سواء.

الثانى: الاستدلال على التحريم بأن الطلب من الأموات من جنس عمل الوثنيين، تمسّكاً بعموم دليل التحريم، مع أن موضوعه ومصبّه ما لم يأذن به اللَّه

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۳۵

عزّ وجلّ، إذ سبق أن محطّ ومصبّ انكار العقيدة الوثنية فى القرآن الكريم هو التوجّه إلى ما لم يأذن به اللّه تعالى ولم ينزل به سلطاناً، وكونه تحكيماً لسلطان العبيد وإرادتهم على سلطان اللّه وإرادته، ولم يكن المحذور فى أصل الوساطة، وسبق أيضاً أن اللّه عليّ حكيم، متعال عن الجسمية والتجسيم وحكيم غير معطّل، فلابدّ من الوسائط والحجج، والعبادة إنما تتحقّق بالطوعانية للّه‌تعالى وإن كان التوجّه بالفعل إلى الحجر كالتوجّه إلى الكعبة الشريفة، والشرك إنما يتحقّق بالاستكبار على اللّه تعالى حتّى مع نفى الواسطة كما فى إبليس.

الثالث: إذا كان توسيط غير اللّه تعالى شركاً، فكيف يعقل تجويزه بالنصّ؟! فإن اللّه عزّ وجلّ لا يأمر بالشرك.

وهذا يعنى أن توسيط الغير بحدّ ذاته ليس شركاً، فإذا جازت الاستغاثة بالحيّ لقيام النص والاجماع، أى الإذن الشرعى، فلا فرق إذن فى الاستغاثة بين الحيّ والميّت ما دام المجوّز لذلك هو الإذن، إذ يتّضح أن المدار فى الشرك ليس على الغيرية مع اللّه تعالى كما فرضه القائل، بل على الإذن وعدمه وعلى وجود الأمر وعدمه، وقد أذن اللّه عزّ وجلّ بذلك فى كثير من الآيات القرآنية، كما تقدّم فى قصة آدم وغيرها.

الشبهة الثانية: التوسّل خلاف كلمة التوحيد ... ص: ۲۳۵

اشارة

إن التوجّه والقصد والدعاء والنداء لغير اللّه عزّ وجلّ ينافى مقتضى كلمة التوحيد، وهى قول (لا إله إلّااللّه).

بيان ذلك:

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۳۶

اختلف المفسّرون فى بيان قول (لا إله إلّااللّه):

فهل المراد من تلك الكلمة المباركة التوحيد فى الذات أو التوحيد فى الصفات والأسماء أو التوحيد فى الأفعال أو التوحيد فى الخضوع والعبادة؟

وهذا الاختلاف ناشئ من الاختلاف فى تفسير معنى الألوهية (لا إله) وتفسير معنى لفظة (اللّه).

فهل اسم الجلالة علم للذات أو هو اسم مشتقّ من التأليه؟

فإن كان مشتقّاً من التأليه وباقٍ على المعنى الوصفيّ حينئذٍ يكون المعنيان متحدّين أو متقاربين.

وأما إذا كان لفظ الجلالة فى الأصل علماً للذات فيكون على خلاف المعنى الأول وهو الألوهية والتأليه فى مقطع (لا إله).

وكيفما كان؛ فإن لفظ (إله) الذى جاء فى كلمة التوحيد معناه فى اللغة من أله يأله إذا تحيّر، ومعنى ولاه أن الخلق يولهون إليه فى حوائجهم ويضرعون إليه فيما يصيبهم، ويفزعون إليه فى كلّ ما ينوبهم، كما يوله كلّ طفل إلى أمه «۱».

إذاً فالمعنى اللغوى يتضمّن طلب الشيء والتوجّه نحوه.

وأما الإله فى الاصطلاح:

فقد اختلفوا فى بيان معناه؛ فبعض قال: هو بمعنى الاتجاه والقصد، وبعض آخر فسّره بالحبّ والعشق، وثالث قال: وله يأله من عبد يعبد، ورابع قال: وله يأله بمعنى اتخذه ربّاً وخالقاً، وغير ذلك من المعانى التى ذكرت لمعنى (إله).

ولكن اتفقوا على أن التأليه فعل المخلوق، فأله ووله إنما يحكى شأن

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۳۷

المخلوق وهو التوحيد فی العبادة، وأما توحيد الذات أو الصفات أو الأفعال فإنما هو مرتبط بالواقعية ونفس الأمر، وأن هناك ذات واجبة قيّومة غنية الذات لها الأسماء الحسنی والكلمات التامّة وهذا كلّه غير مرتبط بفعل المخلوقات.

ولذلك يقال إن كلمة (لا إله إلا اللّه) تختلف عن التعبير ب (يامن لا هو إلّاهو)، فإن مفاد هذه العبارة غير مرتبط بفعل العبد، بل هو إخبار عن نفی أی ذات مستقلة واجبة الوجود إلّاذات اللّه عزّ وجلّ.

ولكن عندما نقول: (لا إله إلا اللّه) فإن التأليه فيه مادّة مأخوذة من فعل العبد وليس هو وصفاً أو معنیً قائم بذات واجب الوجود.

ومن ثم يقال إن النبیّ صلی الله عليه و آله بعث بكلمة (لا إله إلّااللّه) ولم يبعث ب (يا من لا هو إلّا هو)، إذ أن هذا توحيد الذات، والبشريّة قد أقرّته واعتقدت به، وهی الآن فی خطیً متقدّمة من التوحيد الأفعالی والتوحيد فی العبودية.

والخلاف فی زمن البعثة مع المشركين ليس فی توحيد الذات، بل فی توحيد العبودية وتوحيد الدعاء والطلب والتوسّل والتوجّه أو فی توحيد الأفعال باسنادها إلی اللّه عزّ وجلّ.

فالنبیّ صلی الله عليه و آله بُعث بالتوحيد فی الألوهية والعبادة والخضوع والخشية والوله والتوجّه، فلابدّ من ترك الدعاء والتوسّل والعبادة لغير اللّه تعالی، وهو ما كان عليه مشركی العرب.

والحاصل: أن معنی الشرك الذی حاربه الاسلام بكلمة التوحيد هو جعل أنداد للّه‌تعالی يستغاث ويتوسل بهم، فالتوسل جاهلية جديدة استُبدلت بالجاهلية القديمة.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۳۸

الجواب عن الشبهة الثانية ...: ص: ۲۳۸

كان حاصل هذه الشبهة هو أن مقتضی قول: (لا إله إلّااللّه) هو التوحيد فی العبادة، فإذا دعی غير اللّه عزّ وجلّ كان هذا نوعاً من العبادة والتأليه لغير اللّه عزّ وجلّ.

والجواب عن هذه الشبهة اتضح مما ذكرناه فی الدليل العام وكذلك ما ذكرنا من الجواب علی الشبهة الأولی، وحاصله: أن التوسّل بالوسائط الإلهية التی أمر اللّه عزّ وجلّ بالتوجّه إليها هی عبادة للّه‌تعالی وطاعة وانصياعاً لأوامره وليس هو عبادة للوسائط، بل قلنا إن التوسّل طوعانية للأوامر الإلهية وهو عين التوحيد التام، فالتوسل مقتضی التوحيد فی العبادة وجحوده وإباؤه هو الاستكبار والكفر المنافی لكلمة التوحيد، ونبذ التوسّل جاهلية إبليس الذی أبی واستكبر وكان من الكافرين، فالتوسّل بالوسيلة المنصوبة للّه‌تعالی هو قصد للّه‌والصدّ عن تلك الوسيلة صدّ عن التوجه إليه تعالی؛ لأن المفروض أن تلك الوسيلة والآية والكلمة هی علامة يُهتدی بها إليه تعالی، وتفتّح بها أبواب سماء الحضرة الإلهية، والعلامة سمة ووسم وإسم إلهی يُدعی به، بل إن قول القائل التوسّل باللّه معنی مقلوب غير صحيح، فإنّ الباری تعالی لا يجعل وسيلة إلی غيره؛ إذ ليس وراء اللّه منتهی ولا غاية كی يجعل هو تعالی واسطة إليها، بل هو غاية الغايات، وإلی شموخ عظمته توسّط الوسائط ويتوسّل بالوسائل، وقد تقدّم أن الاعتقاد بضرورة الواسطة والوسيلة إلی اللّه تعالی هو حاقّ حقيقة تعظيم اللّه وتنزيهه، ولم ينكر القرآن علی المشركين هذه العقيدة، وهی ضرورة الحاجة إلی الوسيلة بين العبيد وخالقهم؛ ليقتربوا من خالقهم، لضرورة الحاجة إلی التقرّب والنجاة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۳۹

من البعد من جهة العبيد، وإن كان الباری تعالی قريب من كل مخلوقاته علی السواء، إلّاأن مخلوقاته ليست فی القرب منه علی استواء ولا فی القرب من عظمته ونوره وعلمه وقدرته علی سواسية، فضرورة الحاجة إلی الوسيلة والقيام بالتقرب ضرورة نابعة من العبودية

والفقر إلى الغنى المطلق، وهذا ما لم ينكره القرآن على المشركين، كيف وهى عين التوحيد والتعظيم، بل إنما أنكر عليهم اتخاذ الوسائل والوسائط من قبل أنفسهم ومن قرائحهم ومن فرض إرادتهم فى تعيين الوسيلة على إرادة اللَّه، وهى من تكبّر المعبود على العابد، فالإنكار عليهم نشأ من كونهم توسّلوا بوسائل وأسماء ما أنزل اللَّه بها من سلطان، ومن ذلك يكون الجاحدون لضرورة التوسّل بالوسائط المنصوبة من قبله تعالى أشدّ جاهلية من المشركين؛ لأنهم لا يرجون للَّهوقاراً ولا تعظيماً، فيجعلون البارى تعالى منالًا تحت أيديهم، لأن إنكار الحاجة إلى الوسيلة والوسائل هو إنكار لعظمة اللَّه وكبريائه وعلوّ شأنه ورفعته وعزّته وجبروته وكينونته بالأفق الأعلى، فى حين قاهريته تعالى وهيمنته على تمام مخلوقاته وأنه خبير بصير، إلّاأن الحال من ناحية المخلوق تجاه الخالق هو بُعد المخلوق عن معرفة خالقه وبعده عن مقام الزلفى لباريه وكذا بعده عن حظوة الكرامة عند خالقه، وبعده عن استحقاق الإجابة والمنّ والتفضّل الإلهى، بعد كون المخلوق فى حُجب التقصير والقصور والجهل والجهالة، مما يستحق بها الطرد لا القرب والإبعاد لا الدنو والعقوبة لا الثواب والحرمان لا الإنعام، فكل هذه الحجب المانعة عن القرب يزيلها العبد بوجاهة الوسيلة عند الربّ العظيم، لا سيّما وأن اللجوء إلى الوسيلة التى هى آية للربّ المتعال هو لُجأ إلى الجناب الإلهى،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۴۰

وتعظيمها تعظيم للفعل الإلهى وزيادة خضوع للربّ بالخضوع إلى ما هو بمنزلة صفاته فى مقام الفعل فضلًا عن مقام ذات عزّه تعالى.

الشبهة الثالثة: التوسّل مخالف للآيات القرآنية ... ص: ۲۴۰

اشارة

حاول أصحاب هذه الشبه الاستناد إلى بعض الآيات القرآنية، وادّعوا أنها تدلّ على أن التوسّل والقصد لا يكون إلّاللَّهعزّ وجلّ، وأن التوسّل بغيره شرك وإلحاد، منها الآيات التالية:

۱- قوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» «۱».

فقوله تعالى: «فَادْعُوهُ بِهَا» معناه أنه فى مقام الدعاء والتوجّه لا يُدعى إلّا بأسماء اللَّه عزّ وجلّ، وأما غير الأسماء الإلهية فيشملها قوله تعالى: «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ» أى ينحرفون عنها إلى أسماء المخلوقات، كقول القائل: يا محمّد ويا علىّ ويا فاطمة، فإن هذا- بحسب زعمهم- انحراف وإلحاد فى أسماء البارى تعالى.

۲- قوله تعالى: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» «۲».

۳- قوله تعالى: «وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ» «۳».

۴- قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۴۱

اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» «۱».

۵- قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَدْعُواْ رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا» «۲».

هذه الآيات المباركة لسانها واحد واستدلالهم بها قريب من الاستدلال بالآية الأولى، حيث أن هذه الآيات القرآنية تنهى عن أن يدعو الإنسان مع اللَّه أحداً، أى لا يعبد مع اللَّه مخلوقاً من المخلوقات، وإذا كان الدعاء روح العبادة وقوامها فسوف يكون منهيّاً عنه بمقتضى صريح هذه الآيات الكريمة؛ لكونه من الشرك الصريح.

۶- قوله تعالى: «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» «۳».

۷- قوله تعالى: «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكَمْ وَإِنْ يَخْذُلْكَمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ» «۴».

وهذا اللسان من الآيات القرآنية يؤكّد على أن التوجّه إلى الغير بغية الاستنصار به شرك ومغالاة يوجب الخذلان الإلهى.

۸- قوله تعالى: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَايَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ» «۵».

۹- قوله تعالى: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۴۲

زُلْفَى» «۱».

فهاتان الآيتان دلّتا على وجوب نبذ مقالة المشركين الذين جعلوا أصنامهم شركاء فى الدعاء والتوسّل والتقرّب والتشفّع والوساطة بينهم وبين اللَّه عزّ وجلّ، والإسلام جاء لكسر مثل هذه الأصنام وإبطال عقيدة الصنمية والوثنية والمغالاة والتشفّع والتوسّل بغير اللَّه تعالى، وهو ما ابتلى به مشركو العرب، إذ لم يكن شركهم فى ذات اللَّه تعالى أو صفاته، بل كان شركهم شركاً فى العبادة والدعاء والاستغاثة والتوسّل.

فيُعلم من هذه الآيات أن التوحيد فى العبادة والدعاء والاستغاثة والتوسّل أساس الدين، وهدف الرسالة الإسلامية الخاتمة، وذلك لأن صحة الأعمال والنسك العبادية مشروطة بصحّة العقيدة، فمن يعمل ويعبد وكان فى معتقده الدينىّ شىء من الغلو والصنمية للأشخاص يحبط عمله كلّه، ويستدلّون لذلك بقوله تعالى: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» «۲»

، وقوله تعالى: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» «۳»

، فصحّة العقيدة بالتوحيد شرطاً فى صحة وقبول الأعمال، ولابدّ حينئذٍ من نبذ كلّ ما يوجب الشرك وبطلان العقيدة، كالتشفّع والتوسّل بغير اللَّه تعالى.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۴۳

الجواب عن الشبهة الثالثة ...: ص: ۲۴۳

اشارة

الشبهة الثالثة عبارة عن تمسّكهم ببعض الآيات القرآنية التى زعموا أنها تنهى عن التوجّه والقصد إلى غير اللَّه عزّ وجلّ منها:

قوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ» «۱»

، فلا يجوز التوسّل والدعاء بغير الأسماء الحسنى التى جاءت فى قوله تعالى: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُواْ فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» «۲».

إذن لابدّ من التوحيد فى الدعاء الذى هو مخّ العبادة ولا يجوز القصد والتوجّه فى الدعاء إلى غير اللَّه عزّ وجلّ وأسمائه الحسنى؛ لأنه شرك وإلحاد بالأسماء الإلهية.

الجواب الأول: حقيقة الأسماء الالهية مستند للتوسّل ... ص: ۲۴۳

فى البدء لابدّ من الإجابة عن التساؤل التالى:

ما هو المراد من الأسماء الإلهية الواردة فى الآيات المباركة؟

الاسم فى اللغة عبارة عن السّمة والعلامة.

قال ابن منظور: (واسم الشىء علامته).

(قال أبو العباس: الاسم وسمة توضع على الشيء يُعرف به، قال ابن سيدة:

والاسم اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض لتفصل به بعضه عن بعض، كقولك مبتدئاً: اسم هذا كذا).

(قال أبو إسحاق: إنما جعل الاسم تنويهاً بالدلالة على المعنى) «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۴۴

إذن اسم الشيء سمته وعلامته وصفته الدالّة عليه.

والأسماء والصفات تنقسم إلى ذاتية وفعلية، فللّه تعالى أسماء وصفات ذاتية هى عين ذاته غير زائدة عليها، وله عزّ وجلّ أسماء وصفات فعلية هى عين فعله.

فالقدرة والعلم والحياة صفات ذاتية يُشتقّ منها القادر والعالم والحيّ، وهى أسماء ذاتية غير زائدة على الذات الإلهية المقدّسة.

والخلق والرزق والتدبير والربوبية والحكم والعدل وغيرها صفات فعلية يشتقّ منها أسماء فعلية، هى الخالق والرازق والمدبّر والربّ والحكم والعدل، ولا ريب أن الأسماء الفعلية غير الذات وليست عينها مخلوقة لها مشتقّة من أفعاله عزّ وجلّ.

ولا ريب أيضاً أن جملة وافرة من الأسماء الإلهية هى أسماء فعلية مشتقّة من أفعاله ومخلوقاته تعالى.

والمخلوق يكون اسماً للّهعزّ وجلّ بملاحظة صدوره من خالقه وأنه فقير له متقوّم به ليس له من نفسه شيء، دالّ بسبب افتقاره بما فيه من كمال على كمال خالقه وباريه، فهو سمة وعلامة على صانعه، وما فيه من عظمة وحكمة دالّة على عظمة وحكمة الخالق؛ إذ ليس له من ذاته إلّاالفقر والاحتياج.

الجواب الثانى: الكلمة والآية ...: ص: ۲۴۴

إن الكلمة والآية مع الاسم متقاربة المعنى متّحدة المضمون، فهى وإن لم تكن ألفاظاً مترادفة، إلّاأن مضمونها والمراد منها فى اللغة وفى القرآن الكريم واحد، وهو الدلالة على الشيء والعلاميّة والمرآتية له.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۴۵

ففى لسان العرب:

(الآية العلامة) (وأيّا آية: وضع علامة).

وفيه أيضاً: (وقال ابن حمزة: الآية فى القرآن كأنها العلامة التى يفضى منها إلى غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية) «۱».

كذلك قال فى اللسان:

(كلمات اللّه أى كلامه وهو صفته وصفاته) «۲».

أضف إلى ذلك أن الكلمة فى حقيقتها دالّة على مراد المتكلم وكاشفة عنه.

إذن الأسماء والآيات والكلمات فى شطر وافر منها عبارة عن مخلوقات دالّة بوجودها على وجود صانعها، ودالّة بعظمتها واتقانها وهادفيتها على عظمة وقدرة وحكمة البارى عزّ وجلّ، ومن ثمّ يكون كلّ مخلوق إسماً من أسماء اللّه تعالى وآية من آياته وكلمة من كلماته، ولكن الأسماء والآيات والكلمات على درجات فى الصغر والكبر، فكلّما كان الاسم أعظم والآية أكبر، لما أعطيت من المقامات والكرامات الإلهية كلّما كانت آيتية ذلك المخلوق وإسميته أعظم، لا سيما المخلوق الأول وهو نور النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام.

وقد ورد هذا الاستعمال فى القرآن الكريم فى موارد كثيرة جدّاً، منها:

۱- قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً» «۳».

۲- قوله تعالى: «وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۴۶

آيَةً لِلْعَالَمِينَ» «۱».

۳- قوله تعالى: «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» «۲».

۴- قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» «۳».

۵- قوله تعالى: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ* فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» «۴».

فقد أطلق فی هذه الآيات المباركة على مريم عليها السلام أنها آية، وعلى عيسى عليه السلام أنه كلمة اللَّه وآيته للعالمين.

۶- قوله تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هؤُلَآءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» «۵».

۷- قوله تعالى: «فَتَلَقَّى ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» «۶».

۸- قوله تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۴۷

إِمَامًا» «۱».

۹- «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ» «۲».

فإن هذه المخلوقات العظيمة عند اللَّه عزّ وجلّ أسماء وآيات وكلمات وعلامات للَّه‌تعالى، وحينئذٍ تكون مشمولة لإطلاق قوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ» «۳»

فهذه الآية المباركة وغيرها، التی ذكروها للتدليل على مدّعاهم لا تعنی النهی عن التوجه إلى اللَّه عزّ وجلّ بالوسائط، بل هی توجب وتعيّن التوجّه إلى اللَّه تعالى بأعاظم مخلوقاته وأسمائه الفعلية.

إذن ليست الآية المباركة غير صالحة للاستدلال بها على مدّعاهم فحسب، بل هی تحكمهم وتدينهم بالإلحاد عن أسمائه وتنصّ على ضرورة توسيط الأسماء الإلهية والمخلوقات الوجيهة عند اللَّه تعالى، ولابدّ من عدم الالحاد فيها والاعراض عنها فی الدعاء.

لكن لابدّ من الالتفات إلى أن النظرة إلى الوسائط لابد أن لا تكون نظرة استقلالية وموضوعية وبما هی هی، بل لابدّ أن تكون نظرة آلية حرفية آيتيّة، أی بما هی يُنظر بها إلى اللَّه تعالى، فالتوجّه بها لا إليها بما هی هی.

وبناء على ذلك يكون التعاطی مع الأسماء والآيات والوسائط على ثلاثة مناهج:

الأول: منهج إبليس وهو رفض وساطة الآيات والأسماء والمخلوقات

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۴۸

الوجيهة عند اللَّه عزّ وجلّ وإنكارها والإلحاد بها والصدّ عنها، وهذا شرّ المناهج، وهو الكفر والحجاب الأعظم؛ إذ مع الالحاد فی تلك المخلوقات العظيمة والأسماء الإلهية لا يمكن التوجّه والزلفى إلى اللَّه عزّ وجلّ؛ لأنه ليس بجسم وهو حقيقة الحقائق والمقوّم لها، فلا يجابه ولا يقابل، فلابدّ من التوجّه إلى المظاهر والمجالی والآيات.

الثانی: وهو منهج المغالين الذين ينظرون إلى الأسماء الإلهية بالنظرة الاستقلالية وبما هی هی ويتوجّهون إليها لا بها، وهذا أيضاً من الشرك والحجاب الذی يمنع عن معرفة اللَّه تعالى، ولكنّه أهون من سابقه؛ إذ أصحابه على سبيل نجاة فيما إذا شملهم اللَّه عزّ وجلّ بلطفه ورأوا ما وراء الآية من الحقائق، بخلاف من أعرض عن الآية بالمرّة.

الثالث: التوجّه بالآيات وتوسيطها فی الدعاء، وهذا هو التوحيد التام الذی يوصل إلى معرفة اللَّه تبارك وتعالى.

فالنظرة فی هذا المنهج إلى الأسماء الإلهية الفعلية من حيث هی مخلوقة للباری تعالى ومرتبطة به ومفتقرة إليه ودالّة عليه، وأكرم

المخلوقات وأعظم الآيات هم النبیّ الأعظم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام؛ إذ حباهم اللَّه عزّ وجلّ بالكرامات والمقامات التكوينيـة، الـتی تفضـل جميع الأنبيـاء والمرسـلين والملائكـة المقرّبين، فهم عليهم السـلام الأسـماء الـتی تعلّمهـا آدم وفُضـل بهـا على الملائكـة كلّهم أجمعون، وذلـك بنصّ سورة البقرة فی قوله تعـالی: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَـهُمْ عَلَی الْمَلَائِكَـةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِی بِأَسْمَاءِ هؤُلَآءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» «۱»

، حيث

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۴۹

جاء التعبير فيها ب (عرضهم) ولم يقل: عرضها، وكذا التعبير ب (هؤلاء) ولم يقل:

هـذه، كـلّ ذلـك يـدلّ على أن تلـك الأسـماء موجودات نوريـة مخلوقـة حيّـة شاعرة عاقلـة، أفضل من جميع الملائكـة، ولم يعلم بها الملائكـة ولاـ يحيطون بهـا وهی تحيـط بهم وهی أوّل ما خلق اللَّه تعالی، فهم عباد ليس على اللَّه أكرم منهم، أُسـند إليهم ما لم يسـند إلیغيرهم، ومكّنهم اللَّه عزّ وجلّ ما لم يمكّن به غيرهم بإرادته وإذنه وسلطانه.

والحاصـل: إن تلـك الآيات التی ذكروها لنفی التوسّل تـدلّ على ضـرورة التوجّه والتشـفّع والتوسّل بالآيات الكبری، والأسـماء الفعلية الحسنی والعظمی وهم محمّد صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام- إلی اللَّه عزّ وجلّ، والباء فی قوله تعالی:

«فَادْعُوهُ بِهَا» للتوسيط وجعل الآيات والأسماء واسطة؛ ولذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«يا هشام اللَّه مشـتق من إله، وإله يقتضـی مألوهاً، والاسم غير المسـمّی، فمن عبد الإسم دون المعنی فقد كفر ولم يعبد شـيئاً، ومن عبد الاسم والمعنی فقد أشرك وعبد الإثنين، ومن عبد المعنی دون الإسم فذاك التوحيد، أفهمت يا هشام؟ قال: قلت: زدنی، قال: للَّهتسعة وتسعون إسـماً فلو كان الإسم هو المسمی لكان كل إسم منها إلهاً، ولكن اللَّه معنی يُدلّ عليه بهذه الأسماء وكلّها غيره، يا هشام الخبز اسم للمـأكول والمـاء اسم للمشـروب والثوب اسم للملبوس والنـار إسم للمحرق، أفهمت يـا هشـام فهمـاً تـدفع به وتناضـل به أعـداءنا المتخذين مع اللَّه عزّ وجلّ غيره، قلت: نعم، فقال: نفعك اللَّه به وثبّتك يا هشام،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۵۰

قال: فواللَّه ما قهرنی أحد فی التوحيد حتی قمت مقامی هذا» «۱»

، فبيّن عليه السـلام أن الإسم غير المسـمی وهو الـذات الإلهيـة ومغـاير لها، ولو كان الاسم هو عين الـذات الإلهيـة لكان كل اسم إلهاً ولتكثرت الآلهـة، ولكن اللَّه ذات أحديـة واحدة يُدلّ عليه وله علامات هی هذه الأسـماء المتكثرة المتعدّدة، فالأسـماء آيات وعلامات وكلمات دالّة ووسيلة إلی الذات، فظهر أن قوله تعالی: «لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَی فَادْعُوهُ بِهَا» «۲»

برهان قرآنی على ضـرورة الوسـيلة، وهی الكلمات والآيات الإلهية، بأن يدعی اللَّه بها، فلا يُدعی اللَّه بدونها، بل لابدّ من توسـيطها فی دعـاء اللَّه، وذلـك بـالتوجّه بهـا إليه، فلابـدّ من تعلّق التوجه بهـا كی يتوجّه منهـا إلی اللَّه، ولابـدّ من تعلّق الـدعاء بها ليتحقّق دعاء اللَّه تعالی، وقد جعلت الآية الإعراض عن الأسماء والكلمات والآيات الإلهية إلحاداً ومجانبة وزيغاً عن الطريق إلی اللَّه، ومن ثمّ قد أُكّد فی الآيـة أن الأسـماء الإلهيـة بكثرتها الكاثرة هی برمّتها ملك للَّهتعالی مملوكـة له، فالاسـتخفاف بها اسـتخفاف بالعظمـة الإلهية، وجحود وساطتها اسـتكبار وتمرّد على الشأن الإلهی، ومنه يعرف اتحاد الإسم والوجه وأن الأسـماء هی وجه اللَّه التی يتوجّه بها إليه، وأن من له وجاهة ووجيه عند اللَّه هو وجه للَّهيتوجّه به إليه تعالی، فيكون إسماً وآية وكلمة للَّهتعالی.

نعم بين الأسماء والكلمات والآيات درجات وتفاضل فی الدلالة عليه تعالی

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۵۱

عظمة وكبراً.

وذلك لأن الاسم إذا كان من أسـماء الأفعال يكون مخلوقاً للَّهتعالی وآية من آياته، فالعبادة ليست له، بل لباريه تعالی، ومن ثم يتوجّه

إليه كمرآة وآية يُنظر بها ولا- ينظر إليها؛ ولذا تكون إسماً وعلامة، وأما إذا نظر إلى الاسم بما هو هو، فيكون حينئذٍ صنماً موجباً للشرك والكفر وهو الغلو المنهيّ عنه، ولكن هذا لا يعنى رفض الأسماء والوسائط، فإن ذلك يحجب عن المسمّى أيضاً، فلا يلحد بها ولا ينظر إليها بالاستقلال بل ينظر بها، وذلك لما بيّناه سابقاً من أنه لا تعطيل ولا تشبيه، فالالحاد فى الأسماء تعطيل للبارى بعد عدم كونه جسماً يقابل أو يجابه أو يشابه مخلوقاته وهو نفى الجسميّة، فلا محيص عن التوجّه بالأسماء، لا سيّما الاسم الأعظم وهو أوّل ما خلق اللّه عزّ وجلّ، نور النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام، الذين بواسطتهم وصل آدم إلى ما وصل إليه من الخلافة، عندما علّمه اللّه عزّ وجلّ تلك الأسماء الحيّة الشاعرة العاقلة المجرّدة النوريّة، التى هى أعظم آيات البارى تعالى وأفضل من جميع الملائكة.

الكلمات التامّات:

هناك آيات عديدة تدلّ بمعونة الروايات الواردة فيها- على أن الكلمات التامّات والآيات الكبرى للّهعزّ وجلّ هم النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام منها:

۱- ما تقدّم من قوله تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هؤُلآءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» «۱»

، وقد سبق تقريب الاستدلال بهذه الآية المباركة، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن اللّه تبارك وتعالى كان ولا شىء، فخلق خمسة من نور جلاله، وجعل لكلّ واحد منهم إسماً من أسمائه المنزلة، فهو الحميد وسمّى النبىّ محمّداً صلى الله عليه و آله، وهو الأعلى وسمّى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۵۲

أمير المؤمنين عليه السلام عليّاً، وله الأسماء الحسنى فاشتقّ منها حسناً وحسيناً، وهو فاطر فاشتقّ لفاطمة من أسمائه إسماً، فلمّا خلقهم جعلهم فى الميثاق، فإنهم عن يمين العرش، وخلق الملائكة من نور، فلما نظروا إليهم عظّموا أمرهم وشأنهم ولقّنوا التسبيح فذلك قوله: «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ» «۱»

فلمّا خلق اللّه تعالى آدم صلوات اللّه وسلامه عليه نظر إليهم عن يمين العرش، فقال: يارِبّ مَنْ هؤلاء؟ قال: ياآدم هؤلاء صفوتى وخاصّتى، خلقتهم من نور جلالى وشققت لهم إسماً من أسمائى، قال: ياربّ فبحقّك عليهم علّمنى أسماءهم، قال: ياآدم فهم عندك أمانة، سرّ من سرّى، لا يطّلع عليه غيرك إلّابإذنى، قال:

نعم يارِبّ، قال: ياآدم أعطنى على ذلك العهد، فأخذ عليه العهد، ثم علّمه أسماءهم ثم عرضهم على الملائكة، ولم يكن علّمهم بأسمائهم، «فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هؤُلآءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ» «۲»

علمت الملائكة أنه مستودع وأنه مفضّل بالعلم، وأُمروا بالسجود إذ كانت سجدتهم لآدم تفضيلًا له وعبادة للّه، إذ كان ذلك بحقّ له، وأبى إبليس الفاسق عن أمر ربّه» «۳».

۲- قوله تعالى: «فَتَلَقَّى ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ»، ويمكن تقريب دلالة الآية إجمالًا على كون الكلمات هى النبى وأهل بيته بما تقدّمت الإشارة من

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۵۳

إطلاق الكلمة فى القرآن الكريم على النبى عيسى عليه السلام بما هو حجّة للّهاصطفاه على العباد، فمنه يعرف أن الكلمة فى استعمال القرآن تطلق على حجج اللّه وأصفيائه، ويشير إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا» «۱»

حيث تومئ الآية إلى كون كلمة اللّه تعرف بالصدق والعدالة وهو وصف لحجج اللّه، وهذا الوصف أحرى بالصدق على سيد الأنبياء بعد صدقه على النبى عيسى عليه السلام، وقد وردت بذلك الروايات من الفريقين كما سيأتى معتضداً ذلك بأن الأسماء التى تعلّمها

آدم وشرّف بها على الملائكة قد مرّ أنها عرّفت بضمير الجمع للحى الشاعر العاقل وأشير إليها بإسم الإشارة للجمع الحى الشاعر العاقل، مما يدلُّ على أنها موجودات وكائنات حيّة شاعرة عاقلة، نشأتها فى غيب السماوات والأرض لعدم علم ملائكة السماوات والأرض بها، كما أُشير إلى ذلك بقوله تعالى: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» «۲»

ولا ريب أن أشرف الكائنات بنصوصية الكثير من الآيات وروايات الفريقين هو سيد الأنبياء، كما قد تبيّن أن الكلمات التى بشرفها قُبلت توبة آدم أوّلها وأسماها هو سيد الأنبياء، وحينئذٍ تُبيّن الآيات أن تلك الأسماء والكلمات حيث عبّر عنها بلفظ الجمع يقتضى أن مع سيد الأنبياء حجج آخرين للّه تعالى شُرّف بمعرفتهم آدم وتاب اللّه بهم عليه، ولا نجد القرآن الكريم يُنزّل منزلة نفس النبى أحداً من الأنبياء والرسل، بل نزل على بن أبى طالب منزلة نفس النبى صلى الله عليه و آله وهذه خصيصة اختصّ هو عليه السلام بها، كما لم يُشرك اللّه تعالى فى طهارة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۵۴

النبى وعصمته ونمط حجيّته وعلمه بالكتاب كلّه مع العديد من المقامات الأخرى أحداً من أنبيائه ورسله، لكنه أشرك أهل بيته، وهم على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، كما فى آية التطهير والمباهلة ومسّ الكتاب من المطهرين من هذه الأمة وغيرها من الآيات النازلة فيهم.

فتبيّن أن قرين سيد الأنبياء صلى الله عليه و آله فى المراد من الكلمات والأسماء هم أهل بيته عليهم السلام.

وقد ورد فى كتب الفريقين من السنّة والشيعة أن الكلمات التى تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه هم النبىّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام، فدعا اللّه عزّ وجلّ بواسطة الكلمات فتاب عليه.

منها: ما أخرجه الحاكم فى المستدرك عن عمر قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «لما اقترف آدم الخطيئة، قال: ياربّ أسألك بحقّ محمّد لمّا غفرت لى، فقال: ياآدم وكيف عرفت محمّداً ولم أخلقه؟، قال: ياربّ لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك رفعت رأسى، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلّااللّه محمّد رسول اللّه، فعلمت أنك لم تُضف إلى إسمك إلّاأحبّ الخلق إليك، فقال: صدقت ياآدم إنه لأحبّ الخلق إلىّ، ادعنى بحقّه فقد غفرت لك ولولا محمّد ما خلقتك» «۱»

، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الاسناد.

ومنها: ما أخرجه الحاكم الحسكانى فى شواهد التنزيل عن ابن عباس قال:

«سألت رسول اللّه صلى الله عليه و آله عن الكلمات التى تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، قال:

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۵۵

سأل بحقّ محمّد وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين إلّاتبت على فتاب عليه» «۱».

ومنها: ما أخرجه السيوطى عن الإمام على عليه السلام أنه ذكر أن اللّه عزّ وجلّ علّم آدم الكلمات التى تاب بها عليه وهى: «اللّهم إنى أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد سبحانك لا إله إلّاأنت عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم.

اللّهم إنى أسألك بحقّ محمّد وآل محمّد سبحانك لا إله إلّاأنت عملت سوءاً وظلمت نفسى فتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم، فهؤلاء الكلمات التى تلقّى آدم» «۲».

۳- قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ» «۳».

فالكلمة اطلقت على عيسى عليه السلام، وهذا الإطلاق غير خاص به عليه السلام، بل هو شامل لكلّ الأنبياء لا سيما أولوا العزم منهم ولا سيما خاتم النبيين، فهو أفضل الأنبياء وسيّدهم وأعظمهم، فلا محالة يكون هو الكلمة الأتمّ، وكذا من هم نفس النبىّ صلى الله عليه و آله وهم أهل بيته عليهم السلام.

۴- قوله تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ» «۴»

فإن إبراهيم عليه السلام بلا شک کلمة وآية من آيات اللَّه تعالى؛ لأنه أفضل من عيسى عليه السلام، ومع ذلک امتحنه اللَّه عزّ وجلّ بكلمات تفوقه فی المقام والمنزلة،

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۵۶

ولمّا ثبت فی الامتحان فاز بمقام الإمامة بعد الخلّة والنبوّة والرسالة، فلا محالة تكون الكلمات هم سيد الأنبياء صلى الله عليه و آله وآخرين غير النبی إبراهيم والنبی عيسى وموسى وآدم عليهم السلام.

والكلمات كما جاء فی الروايات- هم خمسة أصحاب الكساء، فإبراهيم نال مقام الخلافة فی الأرض والزلفى عند اللَّه عزّ وجلّ بالكلمات، كما أن آدم فضّل على الملائكة وأصبح مسجوداً لهم لتعلّمه الأسماء الحسنى والآيات العظمى، وهم أهل آية التطهير عليهم السلام.

وكذلک آدم تسنّم مقام الخلافة الإلهية بتوسّط علم الأسماء الحيّة العاقلة النوريّة، التی تحيط بجميع المخلوقات، ولا يحيط بها مخلوق من المخلوقات إلّا بما شاء اللَّه عزّ وجلّ.

عن المفضّل بن عمر عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، قال: سألته عن قول اللَّه عزّ وجلّ: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ» ما هذه الكلمات؟

قال: «هی الكلمات التی تلقّاها آدم من ربّه فتاب اللَّه عليه، وهو أنه قال:

أسألک بحقّ محمّد وعلیّ وفاطمة والحسن والحسين إلّاتبت علیّ، فتاب اللَّه عليه إنه هو التواب الرحيم» «۱».

۵- قوله تعالى: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّکَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ» «۲».

وقد كان المعصومون الأربعة عشر كلّهم عليهم السلام يقرأون هذه الآية عند ولادتهم، فهم الكلمات التامات التی تمّت صدقاً وعدلًا لا مبدّل لكلماته، وقد مرّت الإشارة إلى أن نعت الكلمة بالصدق والعدالة يشير إلى حجج اللَّه فيما

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۵۷

يؤدّونه عن اللَّه وما هی عليه سيرتهم من الصدق والعدل والعدالة، هذا كلّه بالنسبة إلى الجواب الأوّل وتفصيلاته.

الجواب الثالث: الآيات القرآنية

۱- وهو ما جاء فی قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِی سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِکَ نَجْزِی الْمُجْرِمِينَ» «۱».

الاستكبار على الآيات الوارد فی هذه الآية المباركة نظير ما فعله إبليس، حيث أبى واستكبر أن يسجد لآدم، فكذّب بآية من آيات اللَّه تعالى، وذلک عندما قال: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» «۲»

وقد استند فی تكذيبه هذا إلى القياس الباطل وهو لا يعلم حقائق دين اللَّه تعالى، ولا يعلم أن جانباً آخر فی آدم نوریّ يعلو على النار هو الذی أهّله لذلک المقام، وليس الطين إلّا وجوده النازل المادّی.

ثم إن الآية المباركة ذكرت أثراً آخر من آثار التكذيب بالآيات الإلهية والاستكبار عليها، حيث قالت: «لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ»، ومن الواضح أن أبواب السماء إنما تفتّح حين الدعاء والعبادة والتوجّه إلى اللَّه عزّ وجلّ وحين إرادة الزلفى والقرب، وكذلک لتصاعد الإيمان والعقيدة، كما يشير إليه قوله تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ» «۳»

، فهذه الآية المباركة تقول إن الذين يكذّبون بآيات اللَّه تعالى وأسمائه وكلماته ويستكبرون عنها كما فعل إبليس لا

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۵۸

تفتّح لهم أبواب السماء، فلا يمكنهم أن يدعوا اللَّه أو يتقرّبوا إليه، ولا يستجاب لهم دعاؤهم ولا عباداتهم كالصلاة والصوم والحجّ.

والربط بين ترک الآية والاعراض عنها والاستكبار عليها وبين عدم القرب وعدم قبول الدعاء وعدم تفتّح الأبواب هو أن اللَّه عزّ وجلّ

ليس بمادّى ولا بجسم، فلا يمكن أن يقابل أو يجابه فلا زلفى إلّابالآيات والإيمان بها والطاعة والخضوع لها والتوجّه بها إلى اللَّه عزّ وجلّ: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا»، وقد مرّ فى هذا الفصل وفى الفصل الثالث أن الآيات هم الحجج المصطفون، فلابدّ عند إرادة التوجّه إلى سماء الحضرة الإلهية بالدعاء والعبادة والازدلاف من التوجه بهم والتوسّل بهم؛ لأن ذلك مفتاح فتح أبواب السماء، فهذه الآية تتشاهد وتتطابق مع الآية المتقدمة من قوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» «۱»

وأن الأسماء التى يُدعى بها فى مقام الدعاء والفوز على اللَّه هى الآيات التى لابدّ من الإيمان بها والخضوع والإقبال عليها والتوجّه بها إلى الحضرة السماوية.

وهذا المضمون هو ما ورد فى الروايات المتواترة من أن ولاية أهل البيت عليهم السلام شرط فى قبول الأعمال والعقائد، فإمامتهم عليهم السلام مقام من مقامات التوحيد فى الطاعة، وهى شرط التوحيد وكلمة لا إله إلّااللَّه، فمن لا ولاية ولا طاعة له لا يقبل اللَّه عزّ وجلّ له عملًا، كما هو الحال فى إبليس، حيث لم يقبل اللَّه عزّ وجلّ أعماله، ولم يقم له وزناً وطُرد من جوار اللَّه وقربه.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۵۹

إذن من لا يذعن بالواسطة والولاية لا يقبل له عمل، لأنه لا تفتّح له الأبواب، ولا يكون ناجياً يوم القيامة «وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ».

۲- وهو قوله تعالى: «وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ» «۱»

، فهذه الآية جاءت فى سياق واحد مع قوله تعالى:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ* قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ* قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» «۲»

، فالسياق الواحد فى هذه الآيات دالّ على أن ما فعله إبليس كان إنكاراً وظلماً لآية من آيات اللَّه تعالى، ودالّ أيضاً على أن ثقل الميزان والقرب وقبول الأعمال إنما يتمّ بالخضوع للآيات والإيمان بها.

وليست الأصنام إلّاالوسائل والوسائط المقترحة.

۳- قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» «۳»

، وتقريب الاستدلال بهذه الآية كالتقريب الذى تقدّم فى الآيات التى سبقتها، ولا يخفى ما فى التعبير ب (عنها) دون التعبير ب (عليها) من دلالة على الاعراض والإنكار لوساطة الآيات الإلهية، وأنه موجب لبطلان الأعمال والخلود فى النار.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۶۰

الشبهة الرابعة: الأعمال الصالحة هى الوسيلة التوسّل والوسيلة حقيقة العقيدة بالنبوّة والرسالة ... ص: ۲۶۰

اشارة

لقد قام أصحاب هذا الاتجاه المنكر لمبدأ التوسّل بتوجيه قوله تعالى:

«وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» «۱»

، حيث فسّروا الوسيلة فى هذه الآية بالطاعات والقربات والأعمال الصالحة التى يتقرّب بها العبد إلى ربّه.

وقد ورد فى الأحاديث بأن العبد لا يتقرّب إلى اللَّه عزّ وجلّ إلّابالطاعة والعمل الصالح، فطوعانية العبد لربّه هى وسيلته الوحيدة، وليس بين اللَّه وبين خلقه قرابة وقرب إلّابالطاعة «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» فالجنّة يدخلها المطيع ولو كان عبداً حبشياً والنار يدخلها

العاصی ولو کان سیّداً قرشیّاً.

الجواب عن الشبهة الرابعة ...: ص: ۲۶۰

کان حصیلة الشبهة الرابعة هو تمسّکهم بقوله تعالی: «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» حیث فسّروا الوسیلة بالأعمال الصالحة من البرّ والتقوی والورع وسائر العبادات، وأن طوعانیة العبد لربّه هی الوسیلة الوحیدة للنجاة والفوز بالجنة.

وفی المقدّمة نحن لا ننفی کون الأعمال الصالحة وسیلة من وسائل القرب إلی اللّه عزّ وجلّ، ولکن نرید أن نقول هی أحد مصادیق الوسیلة ولیست الوسیلة منحصرة بها، وذلک بمقتضی نفس زعمهم من أن الوسیلة هی الأعمال الصالحة والطاعات، حیث أن أعظم الأعمال الصالحة والطاعات هو الإیمان باللّه ورسوله؛ إذ لا یقاس بالإیمان بقیّة الأعمال من الصلاة والصیام والحج وغیرها،

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۶۱

بل إن بقیة الأعمال لا تقبل ولا یثاب علیها الإنسان إلّابالإیمان، فإذا کان الإیمان أعظمها، والإیمان هو الإیمان باللّه ورسوله والیوم الآخر، بل إن الإیمان بالرسول صلی الله علیه و آله هو الهادی إلی حقیقة التوحید، فیکون الإیمان بالرسول صلی الله علیه و آله من أعظم ما یتوسّل به إلی اللّه عند الدعاء وعند العبادة وعند التوجّه إلی الحضرة الإلهیة، فهذا یقتضی کون الرسول صلی الله علیه و آله أعظم وسیلة، لأن الإیمان إنما حاز هذا الشرف العظیم ومکان الوساطة والوسیلیة إلی اللّه تعالی ببرکة تعلّق الإیمان بالنبی صلی الله علیه و آله، إذ شرف المعرفة بالمعروف الذی تعلّقت به المعرفة، کما أن شرف العلم بالمعلوم الذی تعلّق به العلم، فذات المعلوم والمعروف أشرف من العلم والمعرفة المتعلّقة بهما، ومن شرف ذات المعلوم المعروف ترشّح شرف العلم والمعرفة، فهذا یقضی بالضرورة أن أعظم الوسائل هو النبی الأکرم صلی الله علیه و آله ومن ثم نُعت فی القرآن الکریم بأنه رحمة للعالمین، وهذا ما أشارت إلیه الأدلّة المتضافرة من أنه صلی الله علیه و آله صاحب الوسیلة الکبری والشفاعة العظمی.

ولکی تکون الاجابة واضحة لابدّ من التأمل فی مفاد الآیة المبارکة، وذلک ضمن النقاط التالیة:

النقطة الأولی: ما هو المراد من الوسیلة ...؟ ص: ۲۶۱

لقد جاء التعبیر فی الآیة الکریمة هکذا «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» ولم یقل اللّه عزّ وجلّ (وابتغوه بالوسیلة)، ولیس ذلک إلّاللتنبیه علی أن الذی یُبتغی ویُقصد لطلب الحوائج هو الوسیلة، التی تکون واسطة فی الفیض بین العبد وربّه، ومعنی الآیة المبارکة وابتغوا الوسیلة إلیه، فالابتغاء والقصد والتوجّه بالوسیلة

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۶۲

إلی اللّه عزّ وجلّ، ولا تتحقّق البُغیة إلی اللّه تعالی إلّابالوسیلة؛ ولذا لابدّ من تحدید ما هو المراد من الوسیلة.

إن روایات الفریقین متّفقة علی أن الوسیلة مقام من المقامات المشهودة والسامیة للنبیّ الأعظم صلی الله علیه و آله، وهی علی طوائف متعدّدة:

منها: الطائفة التی فسّرت الوسیلة بالمقام المحمود ومقام الشفاعة المختصّ بالنبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله، وذلک کقوله صلی الله علیه و آله: (سلوا لی الوسیلة فإنها منزلة فی الجنّة لا تنبغی إلّالعبد من عباد اللّه وأرجو أن أکون أنا هو، فمن سأل لی الوسیلة حلّت علیه الشفاعة) «۱»، وقد فهم بعض الشرّاح من هذا الحدیث أن المقصود من الوسیلة فیه هی الشفاعة ذاتها «۲».

ولا شک أن الروایات نصّت علی أن الشفاعة هی المقام المحمود، فالشفاعة التی هی المقام المحمود لا تحلّ علی الشخص إلّابسؤال ذلک الشخص مقام الوسیلة للرسول الأکرم صلی الله علیه و آله.

ومنها: الطائفة التی یظهر منها أن مقام الوسیلة والشفاعة والمقام المحمود مناصب متعدّدة للنبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله، کقوله

صلى الله عليه و آله: «من قال حين يسمع النداء اللّهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمّداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إلّاحلّت له شفاعتى يوم القيامة» «۳»

، وظاهر هذه الرواية تغاير المقامات الثلاثة وهى الوسيلة والمقام المحمود والشفاعة.

ومنها: الروايات التى ذكرت أن مقام الوسيلة منبر من نور ينصب للنبىّ صلى الله عليه و آله،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۶۳

فعن النبىّ صلى الله عليه و آله فى حديث له مع أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إذا جمع اللَّه الأولين والآخرين يوم القيامة وضع لى منبر بين الجنة والنار من نور، لذلك المنبر مائة مرقاة وهى الدرجة الوسيلة، ثم تحفّ بالمنبر النبيّون ثم الوصيّون ثم الصالحون ثم الشهداء، ثم يجاء إلىّ، فيقال لى: يامحمّد قم فارقه، قال: فأرقى حتى أصير فى أعلى مرقاة من المنبر- إلى أن قال صلى الله عليه و آله ثم يقال لك: إرقَ ياعلىّ، فترقى ياأبا الحسن حتّى تصير أسفل منّى بمرقاة، فأناولك يمينى وأقعدك على جنبى الأيمن، وأقول: هذا الموقف الذى وعدنى ربّى أنه يعطنى فيك» «۱».

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «وفوق قبّة الرضوان منزل يقال له الوسيلة، وليس فى الجنّة منزل يشبهه وهو منبر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله» «۲».

ومنها: الروايات التى ذكرت أن مقام الوسيلة مقام حظوة وحبوة للنبىّ صلى الله عليه و آله، ويطول المقام بذكرها فلا حاجة إلى استعراضها، وبعض الروايات المتقدّمة فيها إشارة إلى ذلك.

ولا يوجد أى تنافى بين هذه الطوائف من الروايات، حيث أنها تثبت للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله مقاماً خاصّاً لا يدركه ملك مقرّب ولا نبىّ مرسل، وهذا المقام فى جهة من جهاته يسمّى بالمقام المحمود وفى أخرى يسمّى بالوسيلة وفى ثالثة يسمّى بالشفاعة، وهذا أيضاً لا يتقاطع مع كون مقام الوسيلة منبر من نور؛ لأن التعبير بذلك للدّلالة على حظوة النبىّ صلى الله عليه و آله وحمد مقامه عند اللَّه عزّ وجلّ فى ذلك اليوم العصيب، الذى يكون فيه كلّ الأنبياء على جانب عظيم من الوجل

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۶۴

والشفقة والخشية، والكلّ يستغيث وانفساه، والنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فى تلك الحال وجيه عند اللَّه عزّ وجلّ على منبر من نور صاحب حظوة ومكانة دون باقى البشر، فالمنبر كناية عن الوجاهة والقرب والزلفى والواسطة والشفاعة وأنه يتوسّط به إلى اللَّه عزّ وجلّ ويستغاث به للنجاة من النار، فهو صاحب الشفاعة الكبرى، وهو القائل: «ادّخرت شفاعتى لأهل الكبائر من امتى» «۱».

النقطة الثانية: الرابطة بين الشفاعة والتوسّل ... ص: ۲۶۴

قلنا فى النقطة السابقة أن المقام المحمود هو الشفاعة، كما نصّت على ذلك الروايات «۲»، وأشرنا أيضاً إلى أن الاستشفاع بشفاعة الشفيع والتوسّل بالوسيلة وجهان لمقام واحد، ونريد الوقوف قليلًا عند هذه الحقيقة، فإن تفرقة المتكلمين والفقهاء بين الشفاعة والتوسّل صحيحة من جهة وخاطئة من جهة أخرى، وذلك لأن التوسّل والشفاعة وجهان لحقيقة واحدة لا ينفصلان عن بعضهما البعض، فالتوسل هو فعل صاحب الحاجة عند الشفيع، والشفاعة هى فعل الشفيع بينه وبين المشفوع عنده، فإذا لاحظنا جهة العلاقة والرابطة بين طالب الشفاعة والشفيع يقال توسّل واستشفاع، وإذا لاحظنا نفس العملية ولكن من جهة الرابطة بين الشفيع والمشفوع عنده فيقال لذات تلك العملية شفاعة، فالوسيلة تتلوها الشفاعة والشفاعة يتلوها قضاء الحوائج وغفران الذنوب.

وإذا كان المسلمون قد أجمعوا على ثبوت المقام المحمود والشفاعة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۶۵

الكبرى للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فهو يستلزم اجماعاً آخر وهو جواز التوسّل بالنبىّ صلى الله عليه و آله وإن غفل شرذمة عن

هذا اللازم، فإذا جازت الشفاعة من النبیّ صلی الله علیه و آله وهو فعل یقوم به بالإضافة إلی اللَّه عزّ وجلّ فی حقّ أصحاب الحاجات فبالتالی سوف یکون التوسّل راجحاً ومشروعاً لا محالة؛ لعدم تصوّر انفکاک مشروعیة الشفاعة عن مشروعیة التوسّل؛ لأن التوسّل متعلّقه طلب الشفاعة فإذا کانت الشفاعة مشروعه کیف یکون طلب المشروع غیر مشروع؟!، بل حیث إن معتقد الشفاعة للنبی صلی الله علیه و آله دین من أسس الإیمان فلا محالة یکون التوسّل معتقد دینی من أسس الإیمان أیضاً، بل حیث کانت الضرورة قائمة علی ثبوت مقام الشفاعة للنبی صلی الله علیه و آله فلا محالة الضرورة قائمة أیضاً علی أن التوسّل من أرکان العبادات.

فالذهاب إلی الوسیط وطلب توسیطه فی قضاء الحاجة توسّل وعمل الوسیط شفاعة، والشفع هو الضمّ، فیضمّ الوسیط جاهه إلی حاجة المتوسل فیقضیها المشفوع عنده، فالتوسّل من مقوّمات الدعاء والتوجّه للحضرة الإلهیّة.

إذن دلیل التوسّل القول بمشروعیة وضرورة الشفاعة بقول مطلق.

وبناء علی ذلک یکون عقد بابین مستقلّین للتوسل والشفاعة من المماشاة للغفلة التی وقع فیها أصحاب المقالة الجاحدة لعقیدة التوسّل، وإلّا فإن باب الشفاعة لا یمکن أن ینفک عن باب التوسّل؛ لأن التوسّل هو طلب التشفّع.

النقطة الثالثة: عموم تشریع الشفاعة ... ص: ۲۶۵

حاول أصحاب هذه المقالة تحدید نطاق الأدلّة الدالّة علی تشریع شفاعة النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله، حیث قالوا تارة بأن الشفاعة فی دار الدنیا لا تجوز إلّاإذا کان

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۶۶

النبیّ الأکرم حیّاً فی هذه الدنیا، وأما بعد وفاته فلا مشروعیة للشفاعة إلّایوم القیامة دون الشفاعة فی الدنیا أو البرزخ، وقالوا أخری بأن متعلّق الشفاعة طلب الغفران من الذنوب، ولیس طلب الحاجات الدنیویّة، کشفاء المریض وغیره.

أما المزعمة الأولی: من أن الشفاعة فی الآخرة فقط أو مع حیاة النبیّ صلی الله علیه و آله:

فهی مبتنیة علی أن الشرک بالنصّ وعدم النصّ، مع أن الشرک من مدرکات العقل وأحکامه، وهی غیر قابلة للتخصیص، فإذا کان التشفّع شرکاً فلابدّ أن یکون کذلک فی جمیع النشآت وسواء کان النبیّ صلی الله علیه و آله موجوداً فی دار الدنیا أو بعد وفاته.

فالتفرقة لجوء منهم إلی النصّ وأن الشرک لیس له حدّ عقلی منضبط، وهو خلاف ما علیه علماء المسلمین، من أن الشرک إما بحثه عقلی أو عقلی ونقلی ولیس هو نقلیاً محضاً، هذا أولًا.

وثانیاً: مع فرض أن دلیل مشروعیة الشفاعة نقلی، فلا دلیل علی الاختصاص بیوم القیامة؛ لأن الآیة مطلقة، فقوله تعالی: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ» شامل لما بعد وفاة النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله وهو صلی الله علیه و آله حیّ عند ربّه یرزق، مضافاً إلی قوله تعالی: «قُلِ اعْمَلُوا فَسَیَرَی اللَّهُ عَمَلَکُمْ وَرَسُولُهُ» فالنبیّ صلی الله علیه و آله ناظر للأعمال، والآیة الکریمة مطلقة والمخاطب بها کلّ الأجیال، ولو بنی علی اختصاص الأحکام التی تعلّقت بالرسول صلی الله علیه و آله علی خصوص حیاته فی دار الدنیا ونفی شمولها لحیاته عند ربّه لاستلزم ذلک تعطیل جملة الآیات والأحکام فی الدین الحنیف، ولما قامت للدین قائمة، نظیر قوله تعالی: «مَا آتَاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاکُمْ عَنْهُ

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۶۷

فَانْتَهُوا» «۱»

وقوله تعالی: «إِنَّمَا وَلِیُّکُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِینَ آمَنُوا» «۲»

وقوله تعالی: «فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۳»

وغیرها من الآیات والأحکام، فعلی زعمهم الواهی لابدّ أن تُخصّ هذه الآیات بخصوص حیاته صلی الله علیه و آله فی دار الدنیا دون

حياته فی عند ربّه.

وقـد وردت روايات متضافرة تنصّ على أن الأعمال تُعرض على رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله كلّ يوم أو كلّ يوم خميس أو جمعة، وأنه صلى الله عليه و آله يسمع السلام ويردّه، ويصلّی على من يصلّی عليه.

فما ذكر من الاختصاص بيوم القيامة باطل عقلًا ونقلًا.

وأما المزعمة الثانية: وهی أن متعلّق الشفاعة طلب الغفران لا الحاجات الدنيوية:

فالجواب عنها:

أولًا: ما ذكرناه آنفاً من اطلاق الآية المباركة، فإن متعلّقها شامل للمسائل الدنيوية أيضاً ولا دليل على التخصيص بما ذكروه.

وثانياً: إذا صحّت المقايسة التی زعموها فإن الحاجات الدنيوية أهون على اللَّه تعالى من حاجات الآخرة، فكيف يعقل أن الشفاعة تنفذ فيمـا هو أكثر خطورة وهی الحيـاة الأبديّة، دون مـا هو أقـلّ خطورة وهی الحياة الدنيويـة المنقطعـة؟! وكيف يكون الثانی شـركاً دون الأوّل؟!

ثم إن سيرة المسلمين وكذا الصدر الأول منهم تتنافى مع ما ذكره، حيث

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۶۸

أثبتت كتب المسلمين كما سيأتی- توسّل المسلمين بالنبیّ الأكرم بعد وفاته أيضاً، وسيرتهم إلى يومنا هذا جارية على التوسّل فی طلب حاجاتهم الدنيوية، ولا يقتصرون فی ذلک على طلب الحاجات الأخرويّة فقط.

وكـذا ليس متعلّق الشـفاعة غفران الـذنوب والنجـاة من النار فحسب، بل حتى فی الرقیّ فی المراتب والمقامات، فالشـخص يحتاج إلى الشـفاعة لعدم الأهلية فی عمله للصعود إلى مقام أعلى، كما ورد ذلک فی توسّل الأنبياء بسيّد الرسل صلى الله عليه و آله، بل هو صلى الله عليه و آله يشفع أيضاً للأئمة المعصومين عليهم السلام لرفع مقامهم ودرجتهم إلى مقامه ودرجته صلى الله عليه و آله.

إذن متعلّق الشـفاعة وسـيع يشـمل النجـاة من النـار وغفران الـذنوب ورفع المقامات وقضاء الحاجات وغيرها، فالشـفاعة بإذن اللَّه تعالى متعلّقها مطلق موارد فيض الباری عزّ وجلّ.

وثالثاً: ما ورد من وصف النبیّ موسـى وعيسى عليهما السلام بأنهما وجيهان عند اللَّه عزّ وجلّ، كما فی قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» «۱»

، وكـذا قوله تعالى: «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْـمُهُ الْمَسِـيحُ عِيسَـى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِی الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» «۲»

، وهـذا البيـان ليس خاصـاً بموسـى وعيسـى عليهما السـلام، بل هو شامل على أقل تقـدير لأنبياء أولی العزم، خصوصاً سـيّد المرسـلين وخاتمهم وأفضلهم محمّد صلى الله عليه و آله وأهل بيته الذين أورثوا علم الكتاب

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۶۹

كلّه، بل قد أشـير إلى ذلک فی تشـريع القبلة، وأنها رغم كونها وجهاً للَّه‌تعالى يتّجه إليه المصـلّی فی اتجاه اسـتقباله فی الصـلاة، إلّاأن الغايـة منها هی الإنقياد والخضوع لرسول اللَّه صـلى الله عليه و آله والولايـة له، وهو يؤدّی للأوبة للَّه‌تعالى، حيث قال تعالى: «وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» «۱»

وقال تعالى أيضاً: «أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» «۲»

وقال تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِی كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ» «۳»

، وللتعبير بالوجيه مدلولان التزاميان عقلی ونقلی:

أما العقلی؛ فلأن اللَّه عزّ وجلّ منزّه عن الجسـمية والمقابلـة والمجابهـة المادّية، فلابدّ من وجه يتوجّه به إليه، فالوجيه معناه هو وجه اللَّه

الذى يتقرّب به إليه وآيته الدالّة عليه، التى لابدّ أن تُوسّط وتُشفّع فى التوجّه.

وأما النقلى؛ فهو ما ورد من أن زكاة الوجاهة الشفاعة فى الخيرات.

إذن الشفاعة والوساطة مدلول التزامى عقلى ونقلى لمفهوم الوجاهة، فالوجيه هو الشفيع والوسيلة والواسطة بين العبد وربّه.

ومقتضى إطلاق كون الأنبياء عليهم السلام وجهاء عند اللَّه عزّ وجلّ هو كونهم شفعاء فى الخيرات وقضاء الحوائج الدنيوية والأخروية، ولا تختصّ وجاهتهم وشفاعتهم بغفران الذنوب فقط.

ومعنى ذلك أيضاً أن الأنبياء وجهاء عند اللَّه وشفعاء فى كلّ الأزمان والأدوار، من دون اختصاص بيوم القيامة أو قبل وفاة النبىّ، وذلك لإطلاق الآيات الدالّة

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۷۰

على الوجاهة التى تلزمها الشفاعة عقلًا ونقلًا.

والحاصل:

إن الوسيلة فى الآية التى ذكروها هو مقام الشفاعة الكبرى للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، واتّضح أن الوسيلة والشفاعة وجهان لمقام واحد، واتّضح أيضاً أن الشفاعة والتوسّل ركن من أركان الدين قائم فى الدنيا والآخرة، سواء كان النبىّ حيّاً فى دار الدنيا أو عند ربّه تعالى بعد وفاته صلى الله عليه و آله، وهكذا الشفاعة منصوبة فى ديانة الإسلام لطلب الحوائج الدنيوية وغيرها.

وممّا يبرهن على عموم شفاعة النبى صلى الله عليه و آله لكلّ النشآت والعوالم ولعموم الأمور ما مرّ فى قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» «۱»

، حيث مرّ فى الفصل الثالث أن الآية تبيّن مشارطة اللَّه ومواثقته على النبيين فى إعطائهم مقام النبوة والرسالة والمقامات الغيبية أنهم إنما يستأهلوها ويستحقّوها إذا آمنوا بخاتم النبيّين والتزموا بنصرته واتباعه وأقرّوا على أنفسهم بذلك، فالآية تبيّن أن سيد الأنبياء صاحب الوسيلة لجميع المخلوقات، بل ولأشرف المخلوقات وهم الأنبياء والرسل، وأنهم إنما نالوا المقامات الكبرى الغيبية من النبوّة والرسالة والحكمة بالتوسّل بذيل ولاية سيد الأنبياء وأهل بيته المعصومين، مع أن النبى صلى الله عليه و آله لم يُخلق بدنه حينذاك، وإنما خُلق نوره وأنوار أهل بيته قبل خلق السماوات والأرض وخلق الأنبياء، كما أشارت إلى ذلك

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۷۱

سورة النور والروايات من الفريقين، حسب ما تقدّم فى الفصل الثالث.

فالآية ترصد أعظم ملحمة فى الخلقة والخليقة لأعظم توسّل بأعظم متوسّل به لأعظم حاجة، وكفى بذلك بشارة للمؤمنين بهذا الركن العظيم فى الدين، ونذارة للجاحدين.

وأخيراً نقول:

إذا كانت الأعمال كما قالوا تُزلف وتُقرّب العبد إلى اللَّه عزّ وجلّ وهى فيها ما فيها من عدم الخلوص وخلطها بالصالح والطالح، فكيف ظنك بمقام سيّد الرسل صلى الله عليه و آله؟!

فالعمل موجود مخلوق وكذا النبىّ صلى الله عليه و آله، ولكن لا قياس ولا نسبة بينهما فى الوجاهة والقرب إذا توسّل بهما العبد.

الشبهة الخامسة: التوحيد الإبراهيمىّ يأبى التوسّل بغير اللَّه ... ص: ۲۷۱

اشارة

وذلک ما ورد فی الحدیث أن إبراهیم علیه السلام حین ألقی فی النار (عرض له جبرئیل وهو فی الهواء، فقال: ألک حاجة؟ فقال: أما إلیک فلا وأما من اللَّه فبلی) «۱»، (قال جبرئیل: فسل ربّک، فقال: حسبی من سؤالی علمه بحالی، فقال اللَّه عزّ وجلّ: یانار کونی برداً وسلاماً علی إبراهیم) «۲» فالنبیّ إبراهیم علیه السلام فی هذا الحدیث یحصر التوجّه فی الحاجات إلی اللَّه عزّ وجلّ ویرفض کلّ واسطة ولو کانت بمنزلة جبرئیل علیه السلام، وهذا هو النفس التوحیدی الصحیح من مؤسّس

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۷۲

التوحید ومکسّر الأصنام ومجاهد الوثنیة إبراهیم علیه السلام، إذ لم یوسّط حتی جبرئیل فی طلب حاجته.

إذاً لابدّ من نفی الشرک فی الواسطة وطلب الحاجة؛ إذ لا- حجاب بین اللَّه وبین خلقه، ولم یتّخذ اللَّه تعالی أصناماً ولا أحجاراً ولا أشخاصاً لیتوجّه بها إلیه.

الجواب عن الشبهة الخامسة ...: ص: ۲۷۲

وهو ما یتعلّق بقصة إبراهیم علیه السلام عندما أُلقی فی النار، وما جری بینه وبین جبرئیل، حیث أن جبرئیل علیه السلام تدارک إبراهیم وهو فی حال الهویّ فی النار، وهی حالة عصیبة جدّاً، ولکن مع ذلک عندما عرض جبرئیل علیه السلام علیه قضاء حاجته وتخلیصه من محنته، قال علیه السلام: (علمه بحالی یغنی عن سؤالی)، فقالوا إن نفس عدم سؤال إبراهیم علیه السلام من جبرئیل معناه أن السؤال والاستغاثة بغیر اللَّه تعالی غیر جائزة.

الردّ الأول: إن أی حادثة من الحوادث تتضمّن دائماً ملابسات تحتفّ بها لابدّ من معرفتها؛ لمدخلیتها فی استیضاح سیاق تلک الحادثة، وفی المقام مسائلة جبرئیل علیه السلام للنبیّ إبراهیم علیه السلام من أجل امتحانه وابتلائه وتفقّد رسوخ إیمانه وطمأنینته ورباطة جأشه؛ ولذا قال له: (أما إلیک فلا) لیبیّن له أنه لیس فی مقام طلب الحاجة والخوف والهلع وإنقاذ الموقف وأنه مطمئن النفس ثابت الإیمان متوکّل علی ربّه.

ویعزّز هذه الدعوی قول إبراهیم علیه السلام لجبرئیل علیه السلام: (علمه بحالی یغنی عن سؤالی) مع أن السؤال والدعاء مرغوب فیه ومحبّب عند اللَّه عزّ وجلّ، وقد حثّ

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۷۳

القرآن الکریم فی آیات عدیدة علی السؤال والدعاء وطلب قضاء الحاجة من اللَّه تعالی، وقد توعّد اللَّه تعالی المستکبر علی عبادته ودعائه باللسان والقول.

إذن الدعاء من الأمور المرغوب فیها والمأمور بها، ومن الواضح المتّفق علیه أن الروایة فی المقام لا ترید أن تقول أن الدعاء باللسان أمر مرجوح ومرغوب عنه، بل إن الدعاء وطلب الحاجة بالقول واللسان من الآداب الإلهیة، وقد قال اللَّه تعالی لنبیّه الأکرم صلی الله علیه و آله: «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِی عِلْمًا» «۱»

وحاشا للنبیّ إبراهیم علیه السلام أن یخرج عن أعظم الآداب الإلهیة ولا یتقیّد بها؛ إذ الدعاء أعظم العبادات وروحها.

فهذا شاهد بیّن دامغ علی أن کلام إبراهیم علیه السلام بحسب السیاق فی مقام آخر، وهو مقام الامتحان للثبات علی الإیمان والطمأنینة به.

فأراد إبراهیم علیه السلام باکتفائه بعلم اللَّه عزّ وجلّ بحاله أن یبیّن لجبرئیل علیه السلام أنه لیس علی وجل واضطراب، ویظهر له الثبات والحزم الذی هو علیه فی الحقیقة والواقع.

ودعاؤه علیه السلام فی خصوص ذلک الظرف والمقام قد یکون کاشفاً عن الوجل والتزلزل وعدم الطمأنینة، فهو علیه السلام لکمال ثباته وتوکّله علیاللَّه تعالی أظهر ما هو علیه من رباطة الجأش والحزم وقوّة الإیمان.

فصدر الجواب وذيله فى هذا المقام الذى ذكرناه.

الردّ الثانى:

قد يقال هنا أن إبراهيم عليه السلام لم يستنجد بجبرئيل عليه السلام ولم يسأله لأنه أفضل منه، وذلك إن مقام أنبياء أولى العزم أفضل من مقام الملائكة الذين أسجدهم

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۷۴

وأطوعهم لآدم، وقد ورد فى روايات الفريقين أن جبرئيل عليه السلام فى مواطن عديدة لم يتقدّم على آدم لكونه مسجود الملائكة، ففى هذه الحالة يكون مقام السائل أرفع شأناً من مقام المسؤول، ونحن محلّ كلامنا فيما إذا كان السائل يتقرّب بواسطة المسؤول ويتوسل به إلى اللّه عزّ وجلّ، وإذا كان السائل أقرب مقاماً من المسؤول، فلا معنى للتوسّط والتشفّع والزلفى.

الردّ الثالث: أنه ينقض عليهم بموارد ...: ص: ۲۷۴

منها: أن الجاحدين للتوسّل يقرّون بأن الضرورة قائمة فى الدين- كما تقدّم- على ثبوت الشفاعة الكبرى لسيد الأنبياء يوم المعاد، وأنه يستشفع به صلى الله عليه و آله للنجاة الأبدية، فإذا كان الاستشفاع شركاً- حسب زعمهم- وخلاف منهج التوحيد الذى هو ملّة إبراهيم الحنيف فكيف يسمح البارى بوقوعه يوم القيامة، ويُبشر به نبيّه، وأنه يعدّه البارى مقاماً محموداً؟!

ومنها: ما تقدّم من استشفاع آدم بسيد الأنبياء، فهل يظن بنبى اللّه وصفوته مجانبة طريق التوحيد؟!

الشبهة السادسة: التوسّل يعنى التفويض وعجز اللّه تعالى ... ص: ۲۷۴

اشارة

قد يطرح هنا إشكال حول التوسّل بالوسائط، وهو دعوى أن الاعتقاد بالوسائط والتوسّل بها لاستدرار الفيض الإلهى قد يوجب اعتقاد العجز فى قدرة اللّه تعالى، ومما لاشك فيه أن البارى عزّ وجلّ واجب بالذات وغنى عن العالمين، فلابدّ من رفض الوسائط فى التوجّه إلى اللّه عزّ وجلّ.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۷۵

وبعبارة أخرى: إن السؤال والتوسّل والتوجّه إلى غير اللّه تعالى يستبطن التفويض والغلو وبالتالى يؤدّى إلى الشرك؛ لأن التوسّل يتضمّن إسناد بعض الصلاحيات الإلهية إلى الوسائل، وهو يعنى إثبات العجز إلى قدرة البارى تعالى وهو التفويض والغلو الباطل.

الجواب عن الشبهة السادسة: قصور الجاحدين للتوسّل عن معرفة التوحيد فى الأفعال ...: ص: ۲۷۵

فى مقام ردّ هذه الشبهة نجيب بعدّة أجوبة:

الجواب الأول: إن اللّه عزّ وجلّ إذا أقدر مخلوقاً من المخلوقات على بعض الأمور، فهو لا يعنى سلب القدرة عنه تعالى فى تلك الأمور، ولا يعنى أيضاً عزله عن صفاته التى منها الصفات التى أعزاها إلى كلماته ووسائطه، فلا تجافى ولا عزلة فى البين؛ لأن التجافى والعزلة من أحكام المادّة.

إذن البارى تعالى لا يتجافى ولا ينعزل عن القدرة التى أقدر بعض الموجودات عليها، بل هو أقدر من تلك الوسائط على ما أقدرها عليه.

ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام فى هذا المقام: «إن اللّه تبارك وتعالى لا يطاع باكراه ولا يعصى بغلبة ويهمل العباد فى الهلكة،

ولكنه المالك لما ملّكهم، والقادر لما عليه أقدرهم» «۱».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام فى وصفه للّهعزّ وجلّ: «لا تشبهه صورة ولا يحسّ بالحواس ولا يقاس بالقياس، قريب فى بعده بعيد فى قربه، فوق كلّ شيء ولا

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۷۶

يقال: شيء تحته، وتحت كلّ شيء ولا يقال: شيء فوقه، أمام كلّ شيء ولا يقال له: أمام، داخل فى الأشياء لا كشيء فى شيء داخل، وخارج من الأشياء لا كشيء من شيء خارج، فسبحان من هو هكذا، ولا هكذا غيره، ولكلّ شيء مبتدأ» «۱».

والحاصل: إن أقدار اللّه عزّ وجلّ وكّل عطية إلهية يجود بها علىمخلوقاته ليس تمليكها تمليكاً عزلياً وبنحو التجافى، وإنما هو تمليك قيّومى إحاطى، فهو عزّ وجلّ بكلّ شيء محيط وقيّوم على كلّ شيء، وهو المالك لما ملّكهم والقادر لما عليه أقدرهم، بل إن التمليك بعينه مخلوق من المخلوقات والمُعطى والعطية كلّها قائمة باللّه تعالى حدوثاً وبقاءً، فكيف يستقل المخلوق فى فعله وهو محتاج فى ذاته ومفتقر إلى قيوميّة البارى تعالى؟!

وهذا يعنى أن ذات المخلوق وفعله وتمكينه وتمليكه وإقداره على بعض الأمور كلّها بحول اللّه وقوته، ولا يخرج عن حيطة قيوميّته، فلا- مجال للتفويض العزلى فى عالم الخلقة والامكان، وليست الوسائط إلّامجار لفيض اللّه عزّ وجلّ وقدرته؛ لأجل عجز بعض القوابل عن التلقّى عن اللّه تعالى مباشرة.

الجاحدين للتوسّل بنوا جحودهم على التفويض الأكبر ...: ص: ۲۷۶

الجواب الثانى: إن هذه الشبهة التى ذكروها تستبطن التفويض والغلو فى المخلوق؛ لأنها مبتنية على دعوى أن المخلوق مستقلّ عن خالقه فى الوجود بقاءً، وأن اللّه تعالى عندما ملّك وأقدر بعض الموجودات المادّية على بعض

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۷۷

الأفعال الحياتية اليوميّة، كقدرة الشخص على تحريك أعضائه مثلًا باختياره، انعزلت قدرته عن تلك الأفعال، فإنهم فى شبهتهم المذكورة افترضوا أن إقدار اللّه عزّ وجلّ وتمليكه بعض الأفعال لبعض المخلوقات وأنها استقلال للمملوك عن المالك، كاستدرار الفيض الإلهى عن طريق الوسائط تفويض وغلو فى تلك المخلوقات، وحيث أنه مما لا ريب فيه أن اللّه تعالى- كما هو المشاهد حسّياً والمعلوم وجداناً- أقدر الموجودات المادّية على الكثير من الأفعال التى نراها يومياً، فإنه يقتضى اعتقادهم بمقالة المعتزلة التفويضية المغالية، وهى أن المخلوق محتاج إلى الخالق حدوثاً لا بقاءً، وأن اللّه تعالى بعد أن خلق الموجودات انعزلت قدرته عنها فى البقاء والعياذ باللّه-.

ولا- فرق بين فعل وفعل من الناحية العقلية، فإذا كان التوسّل وجعل الوسيلة والشفاعة لبعض المخلوقات يوجب التفويض العزلى، فكذلك إقدارهم على أفعالهم الحادثة اليومية لابدّ أن يكون أيضاً محكوماً بقانون التفويض العزلى، وأن اللّه تعالى انعزل عن مخلوقاته بعد أن أوجدها وأقدرها وملّكها لأفعالها.

ولا شك أن هذا التفكير مبنىّ على الموازين الحسّية المادّية، ودعوى الفرق بين الأفعال الدنيوية الصغيرة والأفعال التدبيرية الخطيرة، كتدبير السماوات والأرض، وإيصال فيض اللّه تعالى إلى الموجودات المادّية الدانية فى الوجود، حيث آمنوا ببطلان التفويض بجعل وسائط فى الفيض، وصحّحوا مقولة التفويض فى صغائر الأمور والأفعال المادية الدنيويّة غير الخطيرة.

مع أن موازين بطلان التفويض موازين عقلية لا يفرق فيها بين الأفعال الصغيرة والخطيرة؛ لأن التفويض يوجب الشرك وهو باطل على جميع

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۷۸

الأحوال.

ونحن نقول: إن المخلوق لاـ يستقلّ بـذاته وفعله عن البـارى تعـالى حـدوثاً وبقـاءً، ولاـ يفعـل المخلوق فعلًا أيّاً كان حجمه وخطورته إلّابإقدار اللّه وتمكينه وبحوله وقوته بدءاً واستدامة.

ولو كان أصـحاب هذه الشـبهة يرفضون فكرة التفويض مطلقاً ويوحّدون فى الخلقة حدوثاً وبقاءً لما حصـلت لهم هذه الشبهة، لأن اللّه تعـالى لاـ تنحسـر قـدرته عن المخلوق فى أصـل خلقته وبعـد خلقته، فهو دائماً يسـتمدّ وجوده وبقاءه من الفيض والمـدد الإلهى، وهم أرادوا أن ينكروا التوسّـل، وهو فعـل من الأفعـال للزوم التفويض، فوقعوا فيمـا هو أعظم وهو التفويض فى أصـل وجود المخلوقات من حيث البقاء فضلًا عن أفعالها، مع أن اللّه تعالى دائم الفيض على البريّة، والمخلوق فى كلّ آن من آنات وجوده محتاج إلى فيض باريه، لاـ يسـتقلّ عنه فى وجوده ولا يناده فى فعله؛ إذ البارى قيّوم على وجود المخلوق وأفعاله بنحو الأمر بين الأمرين، فلا ننفى المخلوقات وأفعالهـا كمـا فعـل ذلـك بعض جهلـة الصوفيـة، ولا نعزل قـدرة اللّه تعالى عن مخلوقاته كما فعل المفوّضـة، بل نقول كما قال اللّه عزّ وجلّ: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» «۱».

الجواب الثالث: أن الجاحدين للتوسّل حيث كانوا عبّاد المذهب الحسّى المادى من حيث يشعرون أو من حيث تشبّع نفسياتهم وذهنهم بذلك، حيث يبنون على أن كلّ فعل حسّـِى هو فعل للمخلوقات، وكلّ فعل وراء الحسّ فهو فعل لاهوتى إلهى، أو أن الأفعال الصغيرة الحجم هى فعل للمخلوقات أما

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۷۹

الأفعال الكبيرة فهى فعل إلهى، وعلى هذا الميزان يكون إماتة الموتى لا يصح إسـنادها إلى الملك الموكّل وهو عزرائيل عليه السـلام، لا سيما وأن الاماتة لا تقتصـر على بنى البشـر فقط، بل تشـمل جميع بنى الجنّ وجميع النباتات، بل وجملة الملائكة، فهذه القدرة بهذا الحجم كيف تسند وتعزى إلىالملك عزرائيل؟ مع أن قدرة اللّه تعالى أنفذ فيما أقدر عزرائيل عليه، وكذلك ميكائيل الموكّل بتقسيم الأرزاق وتـدبيرها لكلّ الكائنات الحيّـة على وجه الأرض، وكذلك جبرئيل الموكّل بالبطش والنقمة الإلهيّة ونشـر العلم على الكائنات المدركة، وإسـرافيل الموكّل بالإحياء وغير ذلك من عظائم الأفعال، فإنه على منطق هؤلاء الجاحدين تكون قدرة اللّه معزولة عن تلك الأفعال كما توهّمه هؤلاء، وأنّ هذه الأفعال هى صلاحيات إلهيّة لا تقبل الاسناد لغير اللّه.

فتبيّن أن الضابطـة فى كون الفعـل إلهيّاً هو صـدوره عن الفاعل بمعزل عن قـدرته غيره، ومن ثمّ لا يصـحّ توهّم اسـتقلال المخلوق فى الفعل ولو كان حقيراً صغيراً؛ إذ لو استقلّ لكان فاعلًا فعلًا إلهيّاً.

الشبهة السابعة: إيجاد المخلوقات الإمكانية كلّه ابداعىّ بلا واسطة ... ص: ۲۷۹

اشارة

الشبهة السابعة: إيجاد المخلوقات الإمكانية كلّه ابداعىّ بلا واسطة

قالوا فى المقام لِمَ لا يكون فعل اللّه تعالى دائماً إبداعياً بكن فيكون بلا أى واسـطة أو وسـيلة؟ وهذا من مظاهر القدرة والهيمنة الإلهية، بخلاف القول بالأفعال غير الابداعية، فهى تستبطن القول بعجز اللّه تعالى واحتياجه إلى الأسباب فى عملية الخلق والايجاد.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۸۰

الجواب عن الشبهة السابعة ...: ص: ۲۸۰

ويُجاب عن هذه الشبهة بنفس الجواب السابق، ونضيف إليه بعض الأجوبة الأخرى:

الجواب الأول: لا ـ ريب أننا نشاهد في عالم الخلقة الامكانية أفعالًا لبعض المخلوقات بل موجودات مخلوقة غير ابداعية، كما نصّ على ذلك القرآن الكريم في آيات عديدة كما سيأتي - وأن اللّه تعالى كان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، ثم خلق من الأرض النباتات والزرع، ثم خلق من الطين البدن الانساني، وخلق الجنّ من نار السموم، وخلق من الماء كلّ شيء حيّ، وغير ذلك من المخلوقات غير الإبداعية، التي توجد بعملية التوليد والتوالد بين الأسباب والمسبّبات، وبناءً على ما ذكروه من الشبهة، من أن كلّ فعل غير ابداعي، فهو مستبطن للعجز والحاجة إلى الوسيلة والأسباب ويكون اسناد تلك المخلوقات غير الابداعية إلى اللّه تعالى إسناداً للعجز والحاجة إلى اللّه عزّ وجلّ، وإن لم نُسند تلك المخلوقات إلى اللّه تعالى نقع في معضلة الشرك في الخالقية وهو شرك أعظم؛ لأن شطراً وافراً من المخلوقات كالموجودات المادّية في أصل وجودها فضلًا عن أفعالها يتمّ تخليقها عن طريق الأسباب والوسائط لا بنحو الابداع، فإن اسندناها إلى البارى تعالى على زعمهم - يلزم نسبة العجز إلى الخالق، وإن لم نسندها إليه عزّ وجلّ يلزم القول بالشرك في الخالقية وخروج تلك الموجودات عن حيطة قدرته تعالى.

فالصحيح: إن اللّه تعالى خالق كلّ شيء سواء كان بالابداع أو التخليق، والسببيّة لا توجب الشرك ولا نسبة العجز إلى اللّه تعالى؛ لأن المخلوق الذى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۸۱

يكون واسطة ووسيلة في تخليق بعض المخلوقات لا ـ يخرج عن حيطة القدرة الإلهية، فهو بتمام شراشر وجوده مفتقر إلى باريه في الحدوث والبقاء وفي فعله وأصل وجوده، وإذا صار الماء مثلًا واسطة في تخليق كلّ شيء حيّ لا يعنى عجز البارى، لأن الماء بتمام وجوده مفتاق إلى خالقه ولا ـ يستغني في فعله عنه، ففعل الماء فعل اللّه تعالى، والماء مجرى الفيض وسبب إعداديّ لخالقية اللّه عزّ وجلّ.

ثم إن البارئ والمصوّر من أسماء اللّه تعالى، والبَرء عملية تحويل وإيجاد وإيجاب شيء من شيء آخر، ثم بعد البرء تأتي عملية تشكيل الصورة، وهذه كلّها دائرة الموجودات غير الابداعية، وهي تحت هيمنة الأسماء الإلهية، كالبارئ والمصوّر ولا تخرج عن حيطة قدرته عزّ وجلّ.

سبب جحود التوسّل القصور في معرفة كنه ذوات المسبّبات والأسباب ...: ص: ۲۸۱

الجواب الثاني: إن الاحتياج إلى الأسباب والوسائط ليس لعجز في البارى تبارك وتعالى، بل لعجز وعدم قابلية في ذات الممكن، وذلك لأن بعض الموجودات الممكنة لا يمكن أن تفرض لها شيئية إلّابعد وجود موجودات أخرى سابقة عليها، فالجسم مثلًا لا يمكن أن يخرج إلى الوجود إلّامن المادة؛ لعدم قابلية الجسم إلّاأن يكون متقوّماً بالمادّة، واللّه عزّ وجلّ على كلّ شيء قدير، ولا شيئية للجسم قبل المادّة لكي تتعلّق به القدرة؛ إذ اللّاشيئية عدم وبطلان وعجز وفقدان، ولا معنى لأن تتعلق القدرة الإلهية بالعجز والبطلان.

نعم إذا فُرِض كونه شيئاً بواسطة السبب تتعلّق به القدرة حينئذٍ، فالأشياء التي

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۸۲

هي ذوات أسباب ذواتها متقوّمة ذاتياً قوامياً بنيوياً وهوية بتلك الأسباب، فنفي فرض الأسباب نفي لأصل ذواتها، فيرجع إلى التناقض، لا ـ للعجز في قدرة البارى تعالى، كمن يريد أن يفترض الجسم بلا ـ أن يكون له أبعاد ممتدّة، فهؤلاء تخيّلوا أن الأسباب والوسائط منحازة عن أصل ذوات الأشياء المخلوقة في الدرجات المتوسّطة والنازلة من عوالم الخلقة، فيرجع جحودهم للوسائل إلى الجهل بحقائق المخلوقات، ولو كان وجود الأسباب والوسائط يعني العجز لكانت سنّة اللّه تعالى في تدبير الخلقة بتوسّط الملائكة عجز في الساحة الإلهية والعياذ باللّه -، لا سيّما وأن القرآن الكريم يسند جملة أفعال الخلقة وعظائم الأفعال إلى الملائكة.

الجواب الثالث: وهو عبارة عن الشواهد والطوائف القرآنية الدالّة على وقوع التخليق من اللّه تعالى عبر الوسائط من ملائكة ورسل وغير

ذلک، وأن نظام الخلقة على نحوين: إبداعىّ وتخليقىّ، كما قال عزّ وجلّ: «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ» «۱».

وإليک بعض تلک الطوائف:

الطائفة الأولى: آيات الإماتة وتوفّى الأنفس، وقد أسند التوفّى فيها إلى اللَّه عزّ وجلّ وإلى الملائكة وإلى ملک الموت خاصّة:

الاسناد الأول: إسناد توفّى الأنفس إلى الملائكة.

۱- قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِی أَنْفُسِهِمْ» «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۸۳

۲- قوله تعالى: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِی أَنْفُسِهِمْ» «۱».

۳- قوله تعالى: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» «۲».

۴- قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ» «۳».

۵- قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ» «۴».

۶- قوله تعالى: «لَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» «۵».

۷- قوله تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ» «۶».

۸- قوله تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِی غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ» «۷».

وغير ذلک من الآيات المباركة التی نلاحظ فی مجموعها أن اللَّه سبحانه وتعالى قد نسب وأسند وفاة الأنفس إلى الملائكة من باب التوسيط، مع أن

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۸۴

المميت من أسماء اللَّه تعالى ولا منافاة فی ذلک، ولا يلزم منه العجز؛ لأن الملک بكلّ وجوده وأفعاله قائم باللَّه تعالى ومفتقر إليه حدوثاً وبقاءً.

وفی الآيات الثلاثة الأخيرة يسند اللَّه عزّ وجلّ العذاب إلى الملائكة وفی الوقت ذاته ينسب اللَّه عزّ وجلّ العذاب والتعذيب إلى نفسه ولا منافاة فی ذلک لما تقدم.

الاسناد الثانی: وهی الآيات التی يسند اللَّه عزّ وجلّ فيها التوفّی إليه مباشرة:

۱- قوله تعالى: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِی لَمْ تَمُتْ فِی مَنَامِهَا» «۱».

۲- قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِی يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ» «۲».

۳- قوله تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ» «۳».

۴- قوله تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِی شَكٍّ مِنْ دِينِی فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِی يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» «۴».

وكما أسلفنا لا تنافی بين الاسناد الأول والثانی وكذلک الثالث الآتی، وكلّ منها اسناد حقيقی، لأن الملائكة لا حول لهم ولا قوة إلّاباللَّه تعالى.

ويدلّ على هذه الطولية فی الاسناد السياق الواحد فی آيتی سورة النحل المتقدّمتين، حيث أسند فی أحدهما التوفّی إلى اللَّه تعالى وفی الأخرى إلى

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۸۵

الملائكة.

الاسناد الثالث: إسناد التوفّى إلى ملك الموت:

قوله تعالى: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ» «۱».

فإسناد الإماتة إلى ملك الموت والرسل فى وقت واحد يعنى أن بقيّة الملائكة أعوان لملك الموت، تحت هيمنته وقدرته، كما جاء ذلك فى روايات الفريقين.

والحاصل: أن برنامج الإماتة لكلّ ذى روح تحت تدبير وإدارة ملك الموت، وهو يدير ذلك البرنامج التكوينى عن طريق رسله وأعوانه الذين هم تحت إمرته وسلطانه وقدرته، وهو فى‌الوقت ذاته تحت سلطان اللَّه عزّ وجلّ وقدرته، وافتقاره، واحتياجه إلى اللَّه عزّ وجلّ حدوثاً وبقاءً أشدّ من احتياج الملائكة من أعوانه إليه بما لا يقاس.

ومن هذا البيان يتّضح أن إسناد فعل إلى الملائكة لا يعنى عدم إسناده إلى البارى تعالى، وهكذا إسناد فعل إلى الملائكة لا يعنى عدم إسناده إلى ذات أخرى شريفة تهيمن على الملائكة، وتكون الملائكة رسلًا وأعواناً لها وتحت سلطانها، كملك الموت الذى يدبّر الملائكة بإقدار اللَّه تعالى وتدبيره، ووراء ملك الموت مخلوقات أخرى أشرف منه تدبّره وتدير شؤون عالم الإمكان بإذن اللَّه تعالى وهم خلفاء اللَّه تعالى.

الطائفة الثانية: وهى الآيات التى صرحت بإيكال بعض الأفعال والأمور التدبيريّة إلى بعض المخلوقات.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۸۶

۱- قال تعالى: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ» «۱».

۲- وقال عزّ وجلّ: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ» «۲».

وهذا التوكيل المذكور فى الآيتين الكريمتين ليس على نسق إيكال مخلوق إلى مخلوق آخر؛ لأنه فى باب الوكالات الاعتبارية والقانونية هناك نوع من الاستقلال للوكيل عن الموكّل فى الفعل، وفيه نوع من أنواع التفويض العزلى وإن لم يكن تفويضاً واستقلالًا وانعزالًا تاماً؛ لإمكان عزله فى كلّ آن آن، وأما فى توكيل اللَّه تعالى بعض المخلوقات فليس هو توكيلًا وتفويضاً عزلياً تنحسر فيه قدرة البارى عن الفعل الموكّل فيه، لأنها وكالة افتقار وتقوّم فعل الوكيل بالموكّل، فاللَّه تعالى أقدر بعض مخلوقاته وأوكل لهم بعض الأمور بلا انعزال عمّا وكّلهم فيه، بل هو تعالى فيما أقدرهم عليه أقدر بما لا يتناهى من القدرة، لأن وجودهم فضلًا عن فعلهم متقوّم بذات البارى تعالى‌حدوثاً وبقاءً، وهو الحىّ القيّوم الذى به قامت السماوات والأرض.

ثم إن التوكيل الذى ورد فى سورة الأنعام توكيل لدنّى لجماعة من الانس، وهذه من التعابير القرآنية الدالّة على وجود الارتباط اللّدنى بين اللَّه تعالى ومجموعة من البشر، لم يكفروا باللَّه عزّ وجلّ طرفة عين.

الطائفة الثالثة: وهى الدالّة على توسيط بعض المخلوقات فى الخلق:

۱- قوله تعالى: «الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۸۷

مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ» «۱»

، فإخراج الثمرات ليس إبداعىّ بل توسيطىّ، فالبارى تعالى يُخرج بواسطة الماء الثمرات، والخالق هو اللَّه تعالى وليس الماء إلّاوسيطاً فى جريان الفيض الإلهى.

۲- قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ» «۲».

۳- قوله تعالى: «وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» «۳».

۴- قوله تعالى: «وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» «۴».

وقد قرّر الحكماء وجود حياة نباتية، كما أكّدت ذلك العلوم المادّية، وهذه الحياة والإحياء يحصل بواسطة الماء ولو إعداداً، فكيف

يستعظم ذلك على من هو أشرف من الماء وأعظم عند اللّه تعالى؟!

۵- قوله تعالى: «وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ» «۵».

فالطهارة التى هى أمر معنوى ونورى يحصل من اللّه تعالى بواسطة الماء؛ لأنها ليست من الأفعال الإبداعية بل التخليقية.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۸۸

۶- قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» «۱».

والعرش هو القدرة الإلهية، فقدرته تعالى على الماء، والماء واسطة فى فيض القدرة، على الاختلاف فى المراد من الماء فى الآية الكريمة.

فالقوابل محدودة ونشأة الماء هى الواسطة فى تقبّل الفيوضات الإلهية.

۷- قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ» «۲».

۸- قوله تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ» «۳».

۹- قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا» «۴».

۱۰- قوله تعالى: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» «۵».

فالروح الذى هو خلق أعظم من الملائكة سبب وواسطة إلهية لنزول الملائكة وعروجها.

الطائفة الرابعة: إسناد الخلق والتخليق إلى بعض المخلوقات:

۱- قوله تعالى: «أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ» «۶».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۸۹

فأُسند الخلق إلى الأيدى الإلهية وهى القدرة، إذ لا شك أن اللّه تعالى لا يد جسمانية له، فيده قدرته وتصرّفه المخلوق له الخارج عن الذات المقدّسة، وهذه اليد المخلوقة تعمل وتخلق الأنعام بالمباشرة.

۲- قوله تعالى: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى» «۱».

فالتسبيح فى هذه الآية الكريمة أسند إلى الإسم، و (الذى) وصف للمضاف إلى الربّ وهو الاسم، فالإسم هو الذى خلق فسوّى وقدّر فهدى، والإسم غير المسمّى قائم به ومخلوق من مخلوقاته، كما جاء ذلك فى سورة الرحمن فى قوله تعالى: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» «۲»

، فالجلال والإكرام وصف لوجه الربّ لا لنفس الربّ، وهو مخلوق من المخلوقات وآية يتوجّه بها إلى اللّه عزّ وجلّ، والشاهد على المغايرة ما جاء فى آخر سورة الرحمن، حيث جعل وصف الجلال والإكرام صفة للربّ لا للوجه، حيث قال تعالى: «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» «۳»

، وليس المراد من الاسم والوجه فى الآية المباركة جزء الذات الجسمانى، كما توهّم ذلك المجسّمة والحشوية، تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً، بل المراد منه الآية الكبرى الدالّة على عظمة اللّه عزّ وجلّ والقائمة الوجود به، وقد أطلق على البيت الحرام والكعبة أنهما وجه اللّه تعالى الذى يتوجّه به إليه، كما فى قوله عزّ وجلّ: «وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» وقال تعالى أيضاً: «أَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» مما يدلّل على أن البيت الحرام أحد الوجوه والآيات الكبرى التى يتوجّه إلى اللّه عزّ وجلّ بها، وكذلك

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۹۰

الأنبياء، حيث أطلق على موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهين عند اللّه تعالى، كما تقدّم أنهما كلمات اللّه وأسمائه.

۳- قوله تعالى: «وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ» «۱».

۴- قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا» «۲»

، فهنا أسند تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى أى إحيائهم إلى القرآن الكريم.

الطائفة الخامسة: وهى التى عُبّر فيها بالمُلك، وأن اللّه تعالى أملك كثيراً من الأمور لمخلوقاته الشريفة من دون أن يكون هذا التمليك عزلى تفويضى، بل كلّما تلقى المخلوق من باريه فيضاً أكثر ومرتبة أعلى وأشرف فى الوجود كلّما كان أكثر فقراً إلى اللّه عزّ وجلّ من غيره، ومن ثم كان الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أعبد الخلائق إلى اللّه تعالى، لأنه أكثرهم فقراً إلى اللّه عزّ وجلّ، كما أثر ذلك عنه صلى الله عليه و آله حيث كان يقول: (الفقر فخرى)، وإليك بعض تلك الآيات فى المقام:

۱- قوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۹۱

والملك العظيم الذى أعطى لآل إبراهيم هو الإمامة، ولم يُعبّر عن غير الإمامة بالملك العظيم.

۲- قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَايَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي» «۱».

۳- قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا» «۲».

۴- «وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ» «۳».

۵- «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» «۴».

۶- «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» «۵».

والملك فى هذه الآية ليس خاصّاً بالملك الأرضى، بل هو عامّ شامل لمطلق النشآت.

۷- «وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ» «۶»

، فوصف اللّه عزّ وجلّ خازن النيران الملك الموكّل بالنار بمالك؛ لأنه ملّكه القدرة على تدبير النيران.

۸- «وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ» «۷»

، والعرش هو مقام القدرة واللّه تعالى أقدر أربعة من الأوّلين وأربعة من الآخرين

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۹۲

على حمله بلا تفويض.

۹- قوله تعالى: «وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ» «۱».

۱۰- قوله تعالى: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ» «۲».

۱۱- «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ» «۳».

۱۲- «يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ» «۴».

الطائفة السادسة: ما ذكر فيها نسبة الإهلاك إلى نفسه تعالى وإلى بعض مخلوقاته.

۱- قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» «۵».

۲- «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ» «۶».

۳- «وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ» «۷».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۹۳

۴- «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ» «۱».

۵- «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا» «۲».

الطائفة السابعة: إسناد تدبير بعض المخلوقات عن طريق الرياح:

۱- قوله تعالی: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ» «۳».

۲- «اللَّهُ الَّذِی يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا» «۴».

۳- «وَهُوَ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَیْ رَحْمَتِهِ» «۵».

۴- «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ» «۶».

۵- «وَاللَّهُ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا» «۷».

والحاصل: إنّ نظام الخلقـة فی السـنّة الإلهيّـة نظام الأسـباب والمسبّبات، كما نصّ علی ذلک متواتر آيات القرآن الكريم، وما ورد من روايـات الفريقين «أبی اللّه أن يجری الأـمور إلّابأسـبابها»، وذلـک لأـن الأـمور ذواتها متقوّمـة بالأسـباب فی هويتها، فهم يجهلون نظام الخلقة والمخلوقات.

*****

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۹۵

خاتمة فی ...: ص: ۲۹۵

أ- الروايات الواردة فی مشروعية التوسّل والتشفّع والتبرّک ...: ص: ۲۹۵

الروايات فی هذا المجال كثيرة جدّاً، نشير إلی بعض ما ورد منها فی الكتب السنّية:

۱- ما أخرجه البخاری فی صحيحه عن الجعيد بن عبد الرحمن قال:

(سمعت السائب بن يزيد قال: ذهبت بی خالتی إلی رسول اللّه صلی الله عليه و آله، فقالت:

يارسول اللّه إن ابن أختی وجع، فمسح رأسی ودعا لی بالبركة وتوضّأ فشربت من وضوئه) «۱».

۲- كذلک روی البخاری فی صحيحه عن عون بن أبی جحيفة عن أبيه قال:

(رأيت رسول اللّه صـلی الله عليه و آله فی قبّـة حمراء من أدم، ورأيت بلالًا أخـذ وضوء رسول اللّه صـلی الله عليه و آله ورأيت الناس يتبدّرون ذاک الوضوء، فمن أصاب منه شيئاً تمسّح به،

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۲۹۶

ومن لم يصب منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه) «۱».

۳- وأخرج مسلم فی صحيحه عن أنس قال: (لقد رأيت رسول اللّه صلی الله عليه و آله والحلّاق يحلقه وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلّافی يد رجل) «۲».

قال النووی فی شـرحه لصـحيح مسـلم تعليقاً علی مثل هذه الروايات: (وفی هذه الأحاديث بيان بروزه صـلی الله عليه و آله للناس وقربه منهم ... وإجـابته من سـأله حاجـة أو تبريكـاً بمسّ يـده وإدخالهـا فی المـاء كمـا ذكروا، وفيه التبرّک بآثـار الصالحين وبيان ما كانت الصـحابة عليه من التبرّک بآثاره صـلی الله عليه و آله وتبرّكهم بإدخال يده الكريمة فی الآية وتبرّكهم بشعره الكريم وإكرامهم إياه أن يقع شیء منه إلّافی يد رجل سبق إليه) «۳».

إذن هذه الشواهد وغيرها كاشـفة عن أن سـيرة المسـلمين منذ الصدر الأول كانت قائمة علی التبرّک بما يتصل بالنبیّ الأكرم صلی الله

علیه و آله، من دون ردع ونهی، وهـذا دالّ علی مشروعیة ما کان یأتی به الصحابة، وقلنا أن التبرّک یجتمع مع التوسّل والاستغاثة فی ماهیة واحدة وهی التوسیط، فالتبرّک طلب البرکة ونوع توسّل واستشفاع بما یرتبط بالأولیاء والأوصیاء والحجج من أشیاء.

۴- وفی الجامع الصغیر للسیوطی: (غبار المدینة شفاء من الجذام) «۴»، وقال

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۹۷

المناوی فی فیض القدیر بعد نقل مثل هذه الروایات: (قال السمهودی: قد شاهدنا من استشفی به منه وکان قد أضرّ به فنفعه جدّاً) «۱».

۵- أخرج الحاکم فی المستدرک عن عثمان بن حنیف أن رجلًا ضریر البصر أتی النبیّ صلی الله علیه و آله فقال: یارسول اللَّه علّمنی دعاءً أدعو به یردّ اللَّه علیّ بصری، فقال له: قل: «اللّهم إنی أسألک وأتوجّه إلیک بنبیک نبیّ الرحمة، یامحمّد إنی قد توجّهت بک إلی ربّی، اللّهم شفّعه فیّ وشفّعنی فی نفسی» فدعا بهذا الدعاء، فقام وقد أبصر «۲».

۶- روی البیهقی فی خبر صحیح إنه فی أیام عمر جاء رجل إلی قبر النبیّ صلی الله علیه و آله فقال: یامحمّد استسق لأمتک، فسقوا «۳».

۷- أخرج النسائی عن عبداللَّه بن عمرو قال: سمعت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول: «إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما یقول، وصلّوا علیّ، فإنه من صلّی علیّ صلاة صلّی اللَّه علیه عشراً، ثم سلوا اللَّه لی الوسیلة، فإنها منزلة فی الجنّة لا تنبغی إلّا لعبد من عباد اللَّه، أرجو أن أکون أنا هو، فمن سأل لی الوسیلة حلّت له الشفاعة» «۴».

۸- روی مسلم عن عائشة عن النبیّ صلی الله علیه و آله قال: «ما من میّت تصلّی علیه أمة من المسلمین یبلغون مئة کلّهم یشفعون له إلّاشفّعوا فیه» «۵».

۹- روی مسلم أیضاً عن النبیّ صلی الله علیه و آله قال: «ما من رجل مسلم یموت فیقوم علی

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۹۸

جنازته أربعون رجلًا، لا یشرکون باللَّه شیئاً إلّاشفّعهم اللَّه فیه» «۱»

.۱۰- ما أخرجه الطبرانی وغیره عن أبی سعید الخدری، قال: قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «إذا خرج الرجل من بیته إلی الصلاة فقال: اللّهم إنی أسألک بحقّ السائلین علیک وبحقّ ممشای، فإنی لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ریاء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطک وابتغاء مرضاتک، أسألک أن تنقذنی من النار وأن تغفر لی ذنوبی، إنه لا یغفر الذنوب إلّاأنت، وکّل اللَّه عزّ وجلّ به سبعین ألف ملک یستغفرون له، وأقبل اللَّه تعالی علیه بوجهه حتی یقضی صلاته» «۲».

۱۱- کذلک ما أخرجه الطبرانی عن ابن عباس عن النبیّ صلی الله علیه و آله قال: «من سرّه أن یوعیه اللَّه عزّ وجلّ حفظ القرآن وحفظ أصناف العلم، فلیکتب هذا الدعاء فی إناء نظیف، أو فی صحفة قواریر بعسل وزعفران وماء مطر ویشربه علی الریق، ولیصم ثلاثة أیام، ولیکن إفطاره علیه، فإنه یحفظها إن شاء اللَّه عزّ وجلّ، ویدعو به فی أدبار صلواته المکتوبة:

اللّهمّ إنی أسألک بأنک مسؤول لم یُسأل مثلک ولا یُسأل، أسألک بحقّ محمّد رسولک ونبیّک وإبراهیم خلیلک وصفیّک وموسی کلیمک ونجیّک وعیسی کلمتک وروحک، وأسألک بصحف إبراهیم وتوراة موسی وزبور داود وإنجیل عیسی وفرقان محمّد صلی الله علیه و آله، وأسألک بکلّ وحی أوحیته وبکلّ حقّ قضیته وبکلّ سائل أعطیته، وأسألک بأسمائک التی دعاک بها أنبیاؤک فاستجیب لهم، وأسألک باسمک المخزون المکنون الطهر الطاهر المطهّر المبارک المقدّس الحیّ

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۲۹۹

القیّوم ذی الجلال والاکرام، وأسألک باسمک الواحد الأحد الصمد الفرد الوتر الذی ملأ الأرکان کلّها، وأسألک باسمک الذی وضعته علی السماوات فقامت، وأسألک باسمک الذی وضعته علی الأرضین فاستقرّت، وأسألک باسمک الذی وضعته علی الجبال فرست، وأسألک باسمک الذی وضعته علی اللیل فأظلم، وأسألک باسمک الذی وضعته علی النهار فاستنار، وأسألک باسمک الذی

يحيى به العظام وهى رميم، وأسألک بكتابک المنزل بـالحقّ ونورک التام، أن ترزقنى حفظ القرآن وحفظ أصـناف العلم وتثبّتها فى قلبى، وأن تستعمل بها بدنى فى ليلى ونهارى أبداً ما أبقيتنى ياأرحم الراحمين) «۱».

۱۲- أخرج الهيثمى فى مجمع الزوائد عن العباس عن النبىّ صلى الله عليه و آله أنه قال:

«قال داود: أسألک بحقّ آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب» «۲».

۱۳- روى جمال الـدين الزرنـدى الحنفى عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن جدّه عن النبىّ صـلى الله عليه و آله أنه قال: «إذا هالک أمر فقـل: اللّهم صلِّ على محمّـد وآل محمّـد اللّهم إنى أسألک بحقّ محمّـد وآل محمّـد أن تكفينى شـرّ ما أخاف وأحـذر، فإنک تكفى ذلک الأمر» «۳».

۱۴- أخرج الحاكم الحسكانى عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: «لما نزلت الخطيئة بآدم وأُخرج من جوار ربّ العـالمين، أتاه جبرئيل فقال: ياآدم ادع ربّک، قال: ياحبيبى جبرئيل وبما أدعوه؟ قال: قل: ياربّ أسألک بحقّ الخمسـة الـذين تخرجهم من صلبى آخر الزمان إلّاتبت علىّ ورحمتنى، فقال:

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۰۰

حبيبى جبرئيل سـمّهم لى، قال: محمّد النبىّ وعلىّ الوصـىّ وفاطمة بنت النبىّ والحسن والحسـين سـبطىّ النبىّ، فدعا بهم آدم فتاب اللَّه عليه، وذلک قوله: «فَتَلَقَّى ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ» وما من عبد يدعو بها إلّااستجاب اللَّه له» «۱».

۱۵- وأخرج الحاكم النيسابورى فى المسـتدرک عن ابن عباس قال: «أوحى اللَّه إلى عيسى عليه السلام يا عيسى آمن بمحمد وأمر من أدركه من أمتـک أن يؤمنوا به، فلولاـ محمـد مـا خلقت آدم ولولاـ محمـد مـا خلقت الجنـة ولاـ النـار، ولقـد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلّااللَّه محمد رسول اللَّه فسكن» قال الحاكم: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه. «۲»

وقد تقدّمت هذه الرواية عن السـيوطى فى الدرّ المنثور وغيره بألفاظ أخرى فراجع، وقد جاء فيها أن سـبب جعل تلک الكلمات واسطة ووسيلة هو حفاوتهم وكونهم أحبّ الخلق للَّهعزّ وجلّ، كما تقدّم فى قول إبراهيم عليه السلام «إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا».

ب- آراء أعلام السنّة فى التوسّل ...: ص: ۳۰۰

۱- قول مالک للمنصور العباسـى الـدوانيقى عنـدما سأله قائلًا: أسـتقبل القبلة وأدعو أم أسـتقبل رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله؟: (ولِمَ تصرف وجهک عنه وهو وسيلتک ووسيلة أبيک آدم عليه السلام إلى اللَّه تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به) «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۰۱

۲- قال أبو بكر تقى الـدين الحصـنى الدمشـقى الشافعى: (ومن أنكر التوسّل به والتشـفّع به بعد موته وأن حرمته زالت بموته فقد أعلم الناس ونادى على نفسه أنه أسوأ حالًا من اليهود، الذين يتوسلون به قبل بروزه إلى الوجود، وأن فى قلبه نزغة هى أخبث النزغات) «۱».

۳- قـال الحافـظ تقىّ الـدين السُـبكى: (ولم يزل أهل العلم ينهون العوام عن البـدع فى كلّ شؤونهم ويرشـدونهم إلى السـنّة فى الزيارة وغيرها إذا صدرت منهم بدعة فى شـىء، ولم يعدّوهم فى يوم من الأيام مشـركين بسبب الزيارة أو التوسّل، كيف وقد أنقذهم اللَّه من الشـرک وأدخـل فى قلـوبهم الإيمـان، وأول من رمـاهم بالإشـراک بتلـک الوسـيلة هو ابن تيميـة وجرى خلفه من أراد اسـتباحة أموال المسلمين ودمائهم لحاجة فى النفس) «۲».

۴- ما نقله المناوى فى فيض القدير عن السُـبكى مرتضـياً له، حيث قال: (قال السـبكى: ويحسن التوسّل والاستعانة والتشفّع بالنبىّ صلى الله عليه و آله إلى ربّه، ولم ينكر ذلک أحد من السـلف ولا من الخلف، حتى جاء ابن تيمية فأنكر ذلک وعدل عن الصراط المستقيم، وابتدع ما لم يقله عالم قبله، وصار بين أهل الإسلام مثله) «۳».

وهـذه العبارة عن السُـبكى وسابقتها تكشف عن اجماع الطوائف السـنّية على مشـروعية التوسّل، ولم ينكر ذلک إلّاابن تيميـة ومن جاء

بعده.

۵- قال السمهودی فی وفاء الوفا نقلًا عن کتاب العلل والسؤلات لعبداللَّه بن

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۳۰۲

أحمد بن حنبل: (قال عبداللَّه: سألت أبی عن الرجل یمسّ منبر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ویتبرک بمسّه ویقبّله ویفعل بالقبر مثل ذلک رجاء ثواب اللَّه تعالی؟ قال: لا بأس به) «۱».

۶- کذلک عن إسماعیل بن یعقوب التیمی، قال: (کان ابن المنکدر یجلس مع أصحابه وکان یصیبه الصمات، فکان یقوم کما هو ویضع خدّه علی قبر النبیّ صلی الله علیه و آله ثم یرجع، فعوتب فی ذلک، فقال: إنه لیصیبنی خطرهٔ، فإذا وجدت ذلک استشفیت بقبر النبیّ صلی الله علیه و آله) «۲».

نکتفی بهذا المقدار من الأقوال.

*****

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۳۰۳

خلاصهٔ البحث ... ص: ۳۰۳

۱- إنّ التوسّل والتوجّه والتشفّع والتبرّک والتشفّی وطلب قضاء الحاجات کلّها عناوین لطبیعهٔ واحدهٔ، وهی ضرورهٔ الواسطهٔ بین العبد وربّه.

۲- إنّ التوسّل والتوجّه والتشفّع والتبرّک بأسماء وآیات وکلمات اللَّه وبأمر منه تعالی هو خالص التوحید ولیس شرکاً ولا کفراً، بل عدم الانصیاع لأمره تعالی بالتوجّه والتوسّل والتشفع بها لطلب القرب والزلفی إلیه تعالی هو کفر واستکبار لأنه خروج علی أمره تعالی.

۳- الذوبان وتمام الانصیاع للوسائط والوسائل لطلب الزلفی إلی اللَّه تعالی هو عبادهٔ للّهلا للوسائط أو الوسائل لأنه ذوبان وانصیاع فی تفضیل أمر اللَّه تعالی وهو معنی العبادهٔ.

۴- أن التوسّل شرط شرعی فی قبول التوبهٔ وسائر العبادات ونیل المقامات.

۵- أن التوسّل ضرورهٔ عقلیهٔ وتاریخیهٔ وأدیانیهٔ وقرآنیهٔ وروائیهٔ.

۶- أن الوسائط المرفوضهٔ فی القرآن الکریم هی الوسائط المقترحهٔ من قبل العبید دون الوسائط المنصوبهٔ من اللَّه عزّ وجلّ.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۳۰۴

۷- أن من الأسباب المهمّهٔ فی إنکار التوسّل القول بالتجسیم أو نبوءهٔ العقل.

۸- أن الاعراض عن الآیات الإلهیهٔ وترک التوسّل بها موجب لحبط الأعمال والخسران فی الدنیا والآخرهٔ.

۹- لا فرق بین التوسّل والشفاعهٔ إلّاباللحاظ.

۱۰- إن التوسّل والاستغاثهٔ والتبرّک والاستشفاء من وادٍ واحد، وهی مصادیق متعدّدهٔ لماهیهٔ واحدهٔ.

۱۱- إنّ التوسّل توحید اللَّه الأعظم، وهو أبلغ أنواع التعظیم والخضوع للّه تعالی.

۱۲- إنّ جعل شیء وسیلهٔ یتضمّن فی طیّات معناه عدم التألیه وأنّه واسطهٔ لغیره وغیره هو الغایهٔ، وأنما المشرکون أشرکوا لأنهم اقترحوا الوسیلهٔ إلی اللَّه تعالی من ملء إرادتهم وتحکیمها علی إرادهٔ اللَّه، فجعلوا لأنفسهم صلاحیات الألوهیهٔ.

۱۳- إن اللَّه تعالی غایهٔ الغایات ولیس وسیلهٔ کی یتوسّل به مباشرهٔ، فمن یجعل اللَّه وسیلهٔ لغایهٔ غیره یکون مشرکاً.

۱۴- إنّ التوسّل بالوسیلهٔ هو حقیقهٔ معتقد الشهادهٔ الثانیهٔ والثالثهٔ وحقیقهٔ النبوّهٔ والرسالهٔ والولایهٔ.

۱۵- إنّ التوسّل من أعظم أبواب العبادات والقربات إلی اللَّه تعالی.

*****

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۰۵

ثبت المصادر ... ص: ۳۰۵

۱- القرآن الكريم

۲- الصحيفة السجادية

الإمام زين العابدين، مؤسسة الإمام المهدى، ط ۱، ۱۴۱۱ ه ق.

۳- فقه الرضا

على بن بابويه القمى، مؤسسة آل البيت، ط ۱- ۱۴۰۶ ه.

۴- المحاسن

البرقى، دار الكتب الإسلامية.

۵- كمال الدين وتمام النعمة

الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامى، ۱۴۰۵ ه.

۶- التوحيد

الشيخ الصدوق، جماعة المدرسين، ۱۳۸۷ ه.

۷- معانى الأخبار

الصدوق، النشر الإسلامى، ۱۳۶۱ ه.

۸- تفسير القمى

على بن إبراهيم القمى، مؤسسة دار الكتاب، ط ۳- ۹- ۱۴۰۴ ه.

۱۰- تفسير فرات الكوفى

وزارة الثقافة والارشاد الإسلامى، ط ۱- ۱۱- ۱۴۱۰ ه.

۱۲- الهداية الكبرى

الحسين بن حمدان الخصيبى، مؤسسة البلاغ بيروت، ط ۴- ۱۴۱۱ ه.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۰۶

۱۳- كتاب الغيبة

النعمانى، مكتبة الصدوق- طهران.

۱۴- علل الشرائع

الصدوق، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ۱۳۸۶ ه.

۱۵- الكافى

محمد بن يعقوب الكلينى، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط ۳، ۱۳۸۸ ه.

۱۶- التبيان فى تفسير القرآن

الطوسى، دار إحياء التراث العربى، ط ۱، ۱۴۰۹ ه.

۱۷- مجمع البيان فى تفسير القرآن

الطبرسی، مؤسسهٔ الأعلمی، بیروت، ط ۱، ۱۴۱۵ ه.

۱۸- وسائل الشیعهٔ

الحر العاملی، مؤسسهٔ آل البیت لإحیاء التراث، ط ۲، ۱۴۱۴ ه.

۱۹- تفسیر العیاشی

محمد بن مسعود بن عیاش السلمی السمرقندی، المکتبهٔ العلمیهٔ الإسلامیهٔ، طهران.

۲۰- الوسیلهٔ إلی نیل الفضیلهٔ

ابن حمزهٔ، مکتبهٔ المرعشی النجفی، قم، الطبعهٔ الأولی ۱۴۰۸ ه.

۲۱- تأویل الآیات

السید شرف الدین الاسترآبادی، مدرسهٔ الامام المهدی- قم، ط ۱- ۱۴۰۷ ه.

۲۲- المقنع

الصدوق، مؤسسهٔ الإمام المهدی، قم، ۱۴۱۵ ه.

۲۳- الخصال

الصدوق، جماعهٔ المدرسین، قم، ۱۴۰۳ ه.

۲۴- روضهٔ الواعظین

الفتال النیسابوری، منشورات الرضی، قم.

۲۵- تهذیب الأحکام

الشیخ الطوسی، دار الکتب الإسلامیهٔ، ط ۴، ۱۴۰۷ ه.

۲۶- النهایهٔ

الشیخ الطوسی، دار الأندلس، بیروت.

۲۷- کفایهٔ الأثر

الخزاز القمی الرازی، بیدار، قم، ۱۴۰۱ ه.

۲۸- الأمالی

الشیخ الطوسی، دار الثقافهٔ، قم، ط ۱، ۱۴۱۴ ه.

۲۹- الاحتجاج

الطبرسی، دار النعمان، النجف الأشرف، ۱۳۸۶ ه.

۳۰- البرهان فی تفسیر القرآن

السید هاشم البحرانی، مؤسسهٔ الأعلمی، بیروت، ط ۱، ۱۴۱۹ ه.

۳۱- الأمالی

الصدوق، مؤسسهٔ البعثهٔ، ط ۱، ۱۴۱۷ ه.

۳۲- بصائر الدرجات

محمد بن الحسن الصفار، مؤسسهٔ الأعلمی- طهران، ۱۴۰۴ ه.

۳۳- عدهٔ الداعی

ابن فهد الحلی، مکتبة الوجدانی - قم.

۳۴- کامل الزيارات

ابن قولويه، مؤسسة نشر الفقاهة، ط ۱- ۱۴۱۷ ه.

۳۵- مختصر بصائر الدرجات

الحسن بن سليمان الحلّی، المطبعة الحيدرية، النجف، ط ۱، ۱۳۷۰ ه.

۳۶- الغدير

الأمينی، دار الکتاب العربی، بيروت، ۱۳۷۹ ه.

۳۷- شرح احقاق الحق

السيد المرعشی، مکتبة المرعشی النجفی، قم.

۳۸- بحار الأنوار

محمد باقر المجلسی، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط ۲، ۱۴۰۳ ه.

۳۹- عيون أخبار الرضا عليه السلام

الصدوق، مؤسسة الأعلمی، بيروت، ط ۱، ۱۴۰۴ ه.

۴۰- لسان العرب

ابن منظور، دار إحياء التراث، بيروت، ط ۱، ۱۴۰۵ ه.

۴۱- مسند أحمد بن حنبل

دار صادر، بيروت.

۴۲- صحيح البخاری

دار الفکر، بيروت، ۱۴۰۱ ه.

۴۳- صحيح مسلم

دار الفکر، بيروت.

۴۴- مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

محمد بن سليمان الکوفی القاضی، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط ۱، ۱۴۱۲ ه.

۴۵- سنن النسائی

دار الفکر بيروت، ط ۱، ۱۳۴۸ ه.

۴۶- تفسير القرآن العظيم

ابن کثير، دار المعرفة، بيروت، ۱۴۱۲ ه.

۴۷- البداية والنهاية

ابن کثير، دار إحياء التراث العربی، بيروت، ط ۱، ۱۴۰۸ ه.

۴۸- کتاب الدعاء

الطبرانی، دار الکتب العلمية بيروت، ط ۱، ۱۴۱۳ ه.

۴۹- المستدرک علی الصحیحین

الحاکم النیسابوری، دار المعرفهٔ، بیروت، ۱۴۰۶ ه.

۵۰- جامع البیان

ابن جریر الطبری، دار الفکر بیروت، ۱۴۱۵ ه.

۵۱- الدر المنثور

جلال الدین السیوطی، دار المعرفهٔ، بیروت، ط ۱، ۱۳۶۵ ه.

۵۲- الجامع الصغیر

جلال الدین السیوطی، دار الفکر، بیروت، ط ۱، ۱۴۰۱ ه.

۵۳- فیض القدیر

المناوی، دار الکتب العلمیهٔ، بیروت، ط ۱، ۱۴۱۵ ه.

۵۴- شواهد التنزیل

الحاکم الحسکانی، مجمع إحیاء الثقافهٔ الإسلامیهٔ، ط ۱، ۱۴۱۱ ه.

۵۵- السیف الصقیل

الحافظ تقی الدین السبکی، مکتبهٔ زهران.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۴، ص: ۳۱۰

۵۶- الشفا بتعریف حقوق المصطفی

القاضی عیاض، دار الفکر، بیروت، ۱۴۰۹ ه.

۵۷- وفاء الوفا

السمهودی.

۵۸- نظم درر السمطین

الزرندی الحنفی، ط ۱، ۱۳۷۷ ه.

۵۹- کشف الغمهٔ

الأربلی، دار الأضواء بیروت، ط ۲ ص ۱۴۰۵ ه.

۶۰- دفع الشبه عن الرسول والرسالهٔ

تقی الدین الحصنی الدمشقی الشافعی، دار إحیاء الکتاب العربی، القاهرهٔ، ط ۲، ۱۴۱۸ ه.

۶۱- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد

الهیثمی، دار الکتب العلمیهٔ، بیروت، ۱۴۰۸ ه.

۶۲- زاد المسیر فی علم التفسیر

ابن الحوزی، دار الفکر، بیروت، ط ۱، ۱۴۰۷ ه.

۶۳- تحفهٔ الأحوذی فی شرح الترمذی

مبارک فوری، دار الکتب العلمیهٔ، بیروت، ط ۱، ۱۴۱۰ ه.

۶۴- میزان الاعتدال

الذهبی، دار المعرفهٔ، بیروت، ط ۱، ۱۳۸۲ ه.

۶۵- المعجم الكبير

الطبرانى، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.

۶۶- الطبقات الكبرى

ابن سعد، دار صادر، بيروت.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۱۱

۶۷- الجامع لأحكام القرآن

القرطبى، مؤسسة التاريخ العربى، بيروت، ۱۴۰۵ ه.

۶۸- فضائل مكة والسكن فيها

الحسن بن يسار البصرى، مكتبة الفلاح، الكويت، ۱۴۰۰ ه.

۶۹- معجم البلدان

ياقوت الحموى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ۱۳۹۹ ه.

۷۰- الأم

الشافعى، دار الفكر، بيروت، ط ۲، ۱۴۰۳ ه.

۷۱- المجموع فى شرح المهذب

النووى، دار الفكر، بيروت.

۷۲- مغنى المحتاج

الخطيب الشربينى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ۱۳۷۷ ه.

۷۳- مواهب الجليل

الحطّاب الرعينى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ۱، ۱۴۱۶ ه.

۷۴- حواشى الشروانى

عبدالحميد الشروانى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

۷۵- السنن الكبرى

البيهقى، دار الفكر، بيروت.

۷۶- الفصول المهمة

ابن الصباغ المالكى، دار الحديث، ط ۱، ۱۴۲۲ ه.

۷۷- فضائل الصحابة

أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت.

الامامة الالهية(۵)، ج۴، ص: ۳۱۲

۷۸- إملاء ما من به الرحمن

أبو البقاء العكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ۱، ۱۳۹۹ ه.

۷۹- فتح القدير

الشوكانى، عالم الكتب.

۸۰- سبل الهدى والرشاد

الصالحی الشامی، دار الکتب العلمیة، بیروت ط ۱، ۱۴۱۴ ه.

۸۱- کنز العمال

المتقی الهندی، مؤسسة الرسالة، بیروت، ۱۴۰۹ ه.

۸۲- جلاء الأفهام

ابن قیم الجوزیة، تحقیق محیی الدین دیب مستو، دار الکلم الطیب، دار ابن کثیر، الطبعة الثالثة.

۸۳- مناقب أمیر المؤمنین

ابن المغازلی الشافعی.

۸۴- تاریخ مدینة دمشق

ابن عساکر، دار الفکر، ۱۴۱۵ ه.

۸۵- شرح نهج البلاغة

ابن أبی الحدید، دار إحیاء الکتب العربیة، ط ۱، ۱۳۷۸ ه.

۸۶- السقیفة وفدک

أبو بکر الجوهری البغدادی، شرکة الکتبی، بیروت، ط ۲، ۱۴۱۳ ه.

۸۷- فتح العزیز فی شرح الوجیز

عبد الکریم الرافعی، دار الفکر، بیروت.

۸۸- سنن الدارقطنی

علی بن عمر الدارقطنی، دار الکتب العلمیة، بیروت، ط ۱، ۱۴۱۷ ه.

الامامة الالهیة(۵)، ج۴، ص: ۳۱۳

۸۹- روضة الطالبین

محیی الدین النووی، دار الکتب العلمیة، بیروت.

۹۰- فتح المعین

الملیباری الهندی، دار الفکر، ط ۱، ۱۴۱۸.

۹۱- لسان المیزان

ابن حجر العسقلانی، مؤسسة الأعلمی للمطبوعات، بیروت، ط ۲، ۱۳۹۰ ه.

۹۲- شعار أصحاب الحدیث

محمد بن إسحاق الحاکم، دار الخلفاء، الکویت.

۹۳- سنن أبی داود

السجستانی، دار الفکر، بیروت، ط ۱، ۱۴۱۰ ه.

۹۴- کتاب المصنف

أبو بکر عبدالرزاق الصنعانی، المجلس العلمی.

۹۵- الأذکار النوویة

یحیی بن شرف النووی، دار الفکر، ۱۴۱۴ ه.

۹۶- المعجم الأوسط

الطبرانی، دار الحرمین، ۱۴۱۵ ه.

۹۷- الإغاثة بأدلة الاستغاثة

حسن السقاف، مکتبة الإمام النووی، عمان، ط ۱، ۱۴۱۰ ه.

۹۸- عقد الدرر فی أخبار المهدی المنتظر

عبد العزیز الشافعی المقدسی.

۹۹- ینابیع المودة

القندوزی الحنفی، دار الأسوة، ط ۱، ۱۴۱۶ ه.

الجزء (۵)

مقدمة المقرر ... ص: ۵

اشارة

بسم الله الرحمن الرحیم

اللهم صلِّ علی محمدٍ وآل محمد، عدد ما فی علمک، صلاة دائمة بدوام ملکک، وأسألک اللهم أن تبصرنا معرفة ولیک لنبتغی إلیک به الوسیلة فی نجح آمالنا وتحقیق مطالبنا، فإنه لا ینال عرفانک إلا به، ولا یقضی أمرک إلا بوصله..

ما هی الوسیلة؟

قال الراغب الأصفهانی:

الوسیلة: التوصل إلی الشی برغبة، وهی أخص من الوصیلة «۱».

وقال ابن الأثیر:

فی الأصل: ما یتوصل به إلی الشی ویتقرب، وجمعها وسائل «۲».

وعلی ضوء المعنی اللغوی یتبلور المعنی الاصطلاحی للفظ الوسیلة وهو:

الوصلة التی یتوصل بها إلی معرفة اللَّه وقربه وطاعته ومحبته، ولما کان الأولیاء المصطفون هم الوجه الوجیه عند اللَّه تعالی والحبل الممدود بین السماء والأرض، طرف منه غیبی بید اللَّه تعالی، وطرفه الآخر مادی عینی بید الخلق؛ یکونوا بذلک

الامامة الالهیة(۵)، ج۵، ص: ۶

أقوی وأدل وأنجح وأقرب وأسمی الوسائل الدالة علی اللَّه تعالی، وأوسع الأبواب الموصلة إلی نیل عرفانه والاحتظاء بمرضاته تعالی.

ولقد دعانا القرآن الکریم وبصورة مؤکدة بینة إلی ابتغاء الوسیلة واتخاذ الوصلة إلیه تعالی، مرة بلفظ الوسیلة کما فی قوله تعالی: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَیهِ الْوَسِیلَةَ وَجَاهِدُواْ فِی سَبِیلِهِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ» «۱»

، وأخری بالحث علی التلبس بواقع التوسل کما فی قوله تعالی: «وَإِذَا قِیلَ لَهُمْ تَعَالَوْا یَسْتَغْفِرْ لَکُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَیْتَهُمْ یَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَکْبِرُونَ» «۲»

.وقوله تعالی: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوکَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِیمًا» «۳»

.وتشیر الآیة الأخیرة إلی ضرورة اجتماع وترافق وسائل دینیة عدیدة من أجل تأهل الأعمال الصادرة من العبد للصعود إلی اللَّه تعالی، وأول تلک الوسائل هی الحضور طوعانیة عند الحضرة النبویة المعظمة، وثانیها الاستغفار والتوبة والرجوع الذاتی من قبل العبد، وثالثها توجه الرسول صلی الله علیه و آله بالدعاء والاستغفار والطلب والتوسط للعبد لأجل أن ینال الحظوة عند اللَّه تعالی.

ويهدف اجتماع هذه الوسائل- عمل العبد وحضوره عند الرسول صلى الله عليه و آله وتوجه الرسول صلى الله عليه و آله إلى اللَّه- إلى فتح الطريق أمام العبد ومضاعفة خطواته وطى مسيره فى الصعود إلى القرب الإلهى.

وعند هذه النقطة نشير إلى هذا السؤال:

لماذا أقر اللَّه تعالى وأوجب فى القرآن الكريم التعلق بالوسائل، وأمر العبد بابتغائها

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۷

واتخاذها فى التقرب والتصاعد والعروج والتكامل الروحى، وقضاء الحاجات ونيل المطالب؟

الجواب:

إن إلزام المشرع الإلهى الخلق بابتغاء الوسائل إليه تفرضه ضرورات عديدة:

الضرورة الأولى: دونية العبد ... ص: ۷

مما لا شك فيه إن الوجود الإنسانى- على ما فيه من مزايا تكوينيـة فطريـة- وجود دونى سـفلى لحلول تلك المزايا الروحية فى تكوين الإنسان المادى الخلقى.

وقـد أشار أهل المعنى إلى أن الجانب المعنوى فى الإنسان رهين بقيود البـدن الغليظـة، مما يثقل ويشق على الروح تصاعدها إلى عالم المعنى لنيل كل زلفى وحظوة إلهيـة، وقـد شـبهوا أسـر الروح فى قفص البـدن بأسـر الطائر الـذى يحمل فى أصل وجوده القـدرة على التحليق والطيران فى القفص المادى.

وقـد دلت الروايات على هـذه الدونيـة الخلقية التى ولَّدت موانع للإنسان فى طيه للطريق المعنوى، منها: ما فى البحار عن السـيوطى فى الـدر المنثور: عن ابن عبـاس قـال: «خلق اللَّه آدم من أديم الأـرض يوم الجمعـة بعـد العصـر، فسـماه آدم، ثم عهـد إليه فنسـى، فسـماه الإنسان.

قال ابن عباس: فباللَّه ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى أهبط من الجنة.

قال: وإنما سميت المرأة امرأة لأنها خلقت من المرء، وسميت حواء لأنها أم كل حى» «۱»

.وأما عن أبى بصير قال: سأل طاووس اليمانى أبا جعفر عليه السلام: لم سمى آدمُ آدمَ عليه السلام

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۸

قال: «لأنه رفعت طينته من أديم الأرض السفلى» «۱».

فتشـير الروايات إلى العقبات التى طرأت على الروح الإنسانيـة بسـبب تركبها فى البدن المادى، مما يضـطر الإنسان إلى التعلق بالوسائل التى تقوم بوظيفة الارتقاء والتسامى به عن الهبوط، والتسافل الذى يقتضيه البدن المادى.

الضرورة الثانية: دونية العالم الدنيوى ... ص: ۸

وينبه على هذه الحقيقة روايات عديدة، منها ما فى جواب أمير المؤمنين عليه السـلام عن سؤال اليهودى: «وإنما سـميت الدنيا دنيا لأنها أدنى من كل شىء» «۲»

.ومنها جواب النبى صلى الله عليه و آله عما سأله يزيد بن سلام، حيث سأل لم سميت الدنيا؟

فقال عليه السلام: «لأن الدنيا دنية خلقت من دون الآخرة، ولو خلقت مع الآخرة لم يفن أهلها كما لا يفنى أهل الآخرة».

قـال: فـأخبرنى لم سـميت الآـخرة آخرة؟ قـال: «لأنهـا متـأخرة، تجى من بعـد الـدنيا، لا توصف سـنينها، ولا تحصـى أيامها، ولا يموت سكانها» «۳».

قال المجلسی بيان:

قوله فی الخبر الأول «لأنها أدنی من كل شیء» أی أقرب بحسب المكان أو بحسب الزمان، أو أخس وأرذل علی وفق الخبر الثانی... وبالجملة الأدنی والدنيا يصرفان علی وجوه، فتارة يعبر به عن الأقل فيقابل بالأكثر والأكبر، وتارة عن الأرذل والأحقر فيقابل بالأعلی والأفضل، وتارة عن الأقرب فيقابل بالأقصی، وتارة عن الأولی فيقابل بالآخرة، وبجميع ذلك ورد

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۹

التنزيل علی بعض الوجوه.

وقال الجزری: الدنيا اسم لهذه الحياة؛ لبعد الآخرة عنها «۱». انتهی

فإذا كانت الدنيا أدنی وأخس وأحقر العوالم لأنها العالم الخلقی، فأنی للنازل فيها والمتلبس بسفليتها أن يرتبط بالعوالم الأمرية العلية من دون أن يبتغی سلم الوسائل ومدارج الوصائل التی تقوم برفع الإنسان عن دونية المحل الواقع فيه؟! فهبوط العالم الدنيوی وسفليته ونزوله تقتضی ضرورة اتخاذ الوسائل العديدة ليتحقق الصعود والارتفاع لنشأة أسمی وأرفع.

الضرورة الثالثة: طی الطريق ومضاعفة الخطوة ... ص: ۹

من المقرر فی علم الكلام إنه لا حد ولا أمد ولا نهاية للمسافة بين العبد وربه، بمعنی أن كل نقطة قريبة يصعد إليها الإنسان لها ما هو فوقها بشكل غير متناه، فإذا ما لوحظ فی مقابل هذه الحقيقةِ حقيقةٌ أخری تتعلق بقصر أمد عمر الإنسان فی هذه الدنيا، أی أن الوقت الزمنی الجدی الذی يستثمره العبد ويستهلكه فی علاقته المعنوية بخالقه قصير ومحدود بحيث لا يتجاوز مجموعه الإجمالی عشر سنين، فی حين يستهلك العمر الباقی بين نوم ولعب ولهو وأكل ولوازم شخصية، وعلی ضوء ذلك فالسؤال ما هو السبيل لتوسعة ذلك العمر القصير ليكون طريقا لبلوغ أسمی الدرجات وأشرفها فی معرفة الخالق وعبادته؟

والجواب: إنه لا طريق للتصرف فی الزمن المقرر لوجود الإنسان، لكن الطريق مفتوح للتعويض عن محدودية عمر الإنسان فی مضاعفة خطوات سيره إلی اللَّه، وطی المسافة الممكنة بينهما، وهذا الهدف السامی هو ما يتحقق من خلال الوسائل

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۰

العبادية والعقائدية التی تكشف ظلمات الطريق وحجب الغيب، ليتسنی للعبد الارتقاء لنيل الدرجة القريبة الممكنة، ولا أنجع فی هذا الطريق من ابتغاء وسيلة الحضرة النبوية وأهل بيته عليهم السلام، وهذا ما عبر عنه الشيخ الأستاذ المؤلف (حفظه اللَّه) فی واحد من بحوثه المقبلة فی مطاوی الكتاب من أن «النبی وأهل بيته عليهم السلام هم الأبواب والحجب والسدنة».

الضرورة الرابعة: عظمة المعبود ... ص: ۱۰

وتحتل هذه الضرورة موقع الصدارة بين كل الضرورات السابقة، وهی الإبداع الذی يتجلی للقارئ الكريم فی هذا الكتاب، حيث إن الشيخ الأستاذ (دام عزه) خرج بالبحث عن طور الاستدلال علی جواز عقيدة التوسل عقلا وشرعا- كما هی عادة المتكلمين والمفسرين من الفريقين- إلی الاستدلال عقلا وشرعا علی ضرورة التوسل فی نيل كل حظوة وكمال وقرب إلهی، فإذا ما هجر العبد التوسل والتقرب بالنبی وأهل بيته عليهم السلام امتنع عليه الوصول إلی نيل المعرفة باللَّه تعالی، وانسد أمامه باب عبادته وقربه، واستحال عليه إنجاز أی حاجة معنوية أو مادية، والسبب فی ذلك ما بينه الشيخ الأستاذ بما لا مزيد عليه فی هذا الكتاب من أن متاركة التوسل انفراط للركن الركين من التوحيد.

ويمكن تأييد الحقيقة التی وصل إليها الشيخ الأستاذ فی البحث الذی بين يديك بما يذكره أهل المعنی، من أن خطاب اللَّه تعالی لأحد من خلقه بلا واسطة محال، إلا من هم فی مستوی الأنبياء والأولياء عليهم السلام الذين وصلوا إلی الغاية فی التكامل المعرفی

والعبادي.

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۵، ص: ۱۱

وتقريب ذلك بأن يقال:

إن خطـاب اللّه تعـالي بمعناه العام- سواء كان الخطاب المعرفي بإنزال الكتب والصحف والآيات، أو الخطاب التكويني بإنزال الفيض الإلـهي المعنوي والمـادي- يتوقف علي اللياقـهٔ والكفـاءهٔ في المخـاطب، وليس في الوجود أحـد حصل المستوي المطلوب من اللياقهٔ سوي الأنبياء والأولياء عليهم السـلام، وفي مقدمتهم سـيد الأنبياء وأهل بيته الطاهرين عليهم السـلام، وهذا بنفسه بيان لضـرورهٔ التوسـل بهم والتـوجه إليهم واللواذ بحضـرتهم، لكي يخـاطبوا ويواجهوا من قبـل اللّه تعـالي، فيتنزل الفيض بواسـطتهم إلي سـائر الخلق، فـإذا ما سلك العبـد طريق الإباء والتكبر والتعالي علي تلك الوسائل الإلهيـهٔ، انسـد أمامه باب اللّه الذي منه يؤتي، وسبيله الذي منه يقصد، فلا يبقي أمام العبد أي طريق لتحقيق آماله وبلوغ مآربه.

وإلي نفس المفـاد يشـير العلامـهٔ المحقق الخواجوئي في كتـابه مفتاح الفلاح- في ذيل قول الإمام علي عليه السـلام في دعاء الصـباح: «صلِّ اللهم علي الدليل إليك في الليل الأليل» - بقوله: «لما كانت النفوس في الأغلب منغمسهٔ في العلائق البدنيهٔ الحاصـلهٔ بسبب تدبير البدن وتكميله، مكدرهٔ بالكدورات الطبيعيهٔ الناشـئهٔ من القوهٔ الشهويهٔ والغضبيهٔ، وكان ذات المفيض عز اسمه في غايهٔ التنزه عنها، ولم يكن بينهما بذلك مناسبهٔ موجبهٔ لفيضان كمال.

وجب عليهـا في اسـتفاضهٔ الكمالا‌ت واسـتنجاح المطـالب والحاجات من تلك الحضـرهٔ المتنزهـهٔ التوسل إلي متوسط يكون ذا جهتي التجرد والتعلق، ليقبل ذلك المتوسط الفيض منه بتلك الجهـهٔ الروحانيهٔ التجرديهٔ، وتقبل النفس منه بهذه الجهـهٔ الجسمانيهٔ التعلقيهٔ» «۱».

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۵، ص: ۱۲

وفي الختام:

اسأل اللّه عز وجل أن ينفعنا جميعا بعلم أسـتاذنا الكبير آيهٔ اللّه المحقق- الجامع لعلوم دينيهٔ شتي- الشـيخ محمد السـند، واسأل القارئ الكريم الإغماض عن ما في هذا الكتاب من الاشتباهات الصادرهٔ غفلهٔ مني.

حسن العالي

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۵، ص: ۱۳

مقدمهٔ المؤلف ... ص: ۱۳

«دام ظلّه»

الحمـد للّهالـذي لا يكتنه، ولا يحاط به، ولا يحـده حـد، ولا ينتهي إلي مدي، ولا يجانس، ولا يماثل، ولا يشاكل، وهو مع ذلك ظاهر بآياته وهي وجهه الدائم، متجل بفعله، معروف بأسمائه.

والصـلاهٔ والسـلام علي السبيـل الأعظم لمعرفته، والصـراط الأقوم للتقرب إليه، أكبر آياته، وأقرب وسائله النبي المصـطفي، وعلي آله أبوابه ومفاتيح غيبه.

وبعد:

فإنه قد قالت البضعهٔ النبويهٔ الطاهرهٔ سيدهٔ نساء أهل الجنهٔ عليها السلام في خطبتها:

«واحمدوا اللّه الذي لعظمته ونوره يبتغي من في السـموات والأرض إليه الوسـيلهٔ، و نحن وسـيلته في خلقه ونحن خاصـته ومحل قدسـه ونحن حجته في غيبه» «۱».

وهي تشـير إلي أن الطريق الحنيف إلي معرفهٔ التوحيد بعيداً عن التشبيه، وخروجاً عن التعطيل هو منحصر بابتغاء الوسيلهٔ، وأن الإعراض

عن ابتغاء الوسيلة لا محالة يوقع إما في التشبيه أو التعطيل، وكلاهما زوال لمعرفة التوحيد، وإن زعم التمسك به شعاراً وعنوانا من دون حقيقة.

فقولها عليها السلام: «واحمدوا اللَّه» أي صفوه وانعتوه بالكمال، ووحدوه في الإلوهية

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۴

والصفات والأفعال، ثم بينت السبيل إلى ذلك وإلى معرفة التوحيد ببيان البرهان على ضرورة ذلك السبيل وعلى الانحصار به، فذكرت عظمة الخالق وهي تنزهه عن النقص وعدم انتهائه إلى حد، وشدة نوره التي لا تقف عند منتهى، وهو بمثابة ذكر البرهان على استحالة معرفة الباري بالاكتناه والإحاطة والمثل والمشاكلة والحس والجس واللمس والمجابهة والمواجهة والمحاذاة؛ لأن كل ذلك يستلزم محدودية ذات الباري تعالى في الحد والنهاية.

وإذا استحالت معرفته بذلك فامتناع معرفته بقول مطلق هو التعطيل في المعرفة، وهو باطل أيضاً؛ لأن التعطيل يستلزم هو الآخر المحدودية في ذاته تعالى والانتهاء إلى حد لا يظهر تعالى فيما وراءه، وتعالى سبحانه عن أن يكون له ما وراءه شيء غيره، فلم يبق إلا المعرفة بالآيات المخلوقة وهي الوسيلة إلى معرفته وتوحيده.

وكلما كان المخلوق أعظم خلقة كان أعظم آية في العلامية على صفات الباري وعظمته، وبالتالي فإن أعظم المخلوقات على الإطلاق يكون هو أعظم آية على الإطلاق، وتكون بقية الآيات دونه، بل حكاية كل الآيات هي عبر أعظم آية، فهي الوسيلة على الإطلاق لكل الآيات المخلوقة.

وقد ثبت بالضرورة أنه صلى الله عليه و آله أعظم خلق اللَّه تعالى، وقد سمّاه الباري تعالى برحمة للعالمين كل العالمين، وبرءوف رحيم، ومن ذلك يعلم أن أنجح الوسائل وأعظمها هو سيد الكائنات، وقد قرن اللَّه تعالى به أهل بيته في التطهير، والاحتجاج على أهل الكتاب، وعلم الكتاب كله، والولاية، وافتراض الطاعة، ومقامات أخرى اصطفاءاً لهم.

ومن ذلك يعرف خطورة التوسل بالوسيلة وأنه يتوصل به إلى معرفة التوحيد في مقام الذات والصفات فضلًا عما دونه من توحيد الأفعال والعبادات، كما أن التوسل بالوسيلة إقامة للتوحيد في الولاية؛ لأنه تولي ولي ولاية اللَّه تعالى.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۵

بل إن جملة من الآيات والروايات تقتضي شرطية التوسل والتوجه بهم في صحة أو قبول العبادة، فلا تقتصر الشرطية على ولايتهم بمعنى الإيمان بإمامتهم كما هو ظاهر كلمات كثير من الأصحاب، بل لا بد من الالتجاء إليهم والاستشفاع بهم إليه تعالى.

بل إن هذا الشرط شرط في قبول الإيمان باللَّه تعالى ورسوله وأوصياءه كما هو مفاد جملة من الآيات، فإن مقتضاها أن الإيمان ما لم يكن مقرونا بالخضوع والإقبال والتوجه بالحجج المصطفين فإنه لا يصعد إليه تعالى، ولا تفتح له أبواب السماء كما وعظنا القرآن الكريم في سور متعددة في ملحمة آدم عليه السلام وإبليس، فإنه شدد النكير على إبليس من كل من جهة إبائه أي عدم تصديقه، ومن جهة استكباره على خليفة اللَّه في الأرض أي عدم خضوعه له وعدم توجهه به إلى اللَّه تعالى، وكما ندد القرآن بالمنافقين من جهة إبائهم عن اللجوء والالتجاء والاستشفاع والتوسل برسول اللَّه صلى الله عليه و آله وصدهم عنه واستكبارهم عن الخضوع له، وكما في سورة الأعراف حيث حتم سد أبواب السماء والجنة عن كل من كذب بالحجج أو استكبر عليها تدليلا على ضرورة كل من الأمرين وهما الإيمان واللجوء والتوجه أو التوسل بحجج اللَّه تعالى على خلقه.

وفي الحقيقة إن ما جرى من البحث المحتدم من كون الولاية للَّه‌تعالى ولنبيه ولأهل بيته المعصومين عليهم السلام من أصول الإيمان ومن أركان صحة أو قبول العبادات والأعمال لا- يقتصر على الإيمان بل يشمل التولي بمعنى التوجه بهم والاستشفاع واللواذ بهم والعكوف على بابهم وحضرتهم.

وليتنبه أن شرطية توسيطهم والتوجه بهم في صحة الإيمان ليست على حذو ما يعرف من زيادة الإيمان بالأعمال الصالحة والعمل

بالأركان ونقصه بتركها، بل المراد بهذه الشرطية حسب ما دلت عليه الآيات والروايات هو عدم صحته من

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۶

رأس أو عدم قبوله من الأساس بدون هذا الشرط، فهو ليس شرط كمال بل شرط قوام وتقوم.

وبكلمة إن الإثارات المتشددة ضد التوسل بالنبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام هى مبينة لأهمية وخطورة دور التوسل والاستشفاع والتوجه بهم إلى اللَّه تعالى، وكل هذا التحسس من الإقبال على حضرة النبى صلى الله عليه و آله وحضرات أهل بيته عليهم السلام هو لحساسية هذا العمل وموقعيته كشرط لقبول الإيمان، وهذا مما لم نشاهد بلورته فى الكتب والأبحاث الكلامية بجلاء بيِّن.

ولولا هذه المواجهات العنيدة لما حصل التنبه لركن التوسل فى الإيمان، وإذا أراد اللَّه تعالى أن يحيى أمرا قيض له من يعاديه «وَيَأْبَى اللّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ»، ولقد أثلج صدرى ما رقمه- اللوذعى الألمعى الفاحص الباحث عن دقائق المعارف الشيخ حسن العالى دام توقده فى المعرفة- وقرره فى أبحاثنا فى ذلك، والمسير فى درب الحقائق لا يقف عند منزل إلا وتتلوه منازل.

أرجو من البارى الهادى إلى سواء السبيل أن ينفع به لمن تدبره وأمعن النظر فيه روية.

۲۵ رجب الأصب

يوم وفاة الإمام موسى بن جعفر ۱۴۲۶ ه

محمد السند

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۷

مقدّمة البحث وفيها نقطتان ... ص: ۱۷

اشارة

الأدلة القرآنية والأحاديث الشريفة والبراهين العقلية تطلعنا وتبصرنا على أن معرفة توحيد الذات لا يتحقق إلا بالتوسل، فالإيمان بالواحد الأحد والفرد الصمد لا يتحقق فى الحقيقة إلا بابتغاء الوسيلة.

النقطة الأولى: لا توحيد إلا بالتوسل ... ص: ۱۷

لا توحيد إلا بالتوسل، ولا يوحد الموحد ربه إلا بأن يتوسل، وربما يبحث الكثير عن التوسل وإمكانه ومشروعيته، أو يترقى البحث إلى ضرورته، لكن كل ذلك ليس وقوفا على حقيقة ما للتوسل من دور خطير ودعامة كبرى فى الإيمان والتوحيد، فإن الأدلة القرآنية والأحاديث الشريفة والبراهين العقلية تطلعنا وتبصرنا على أن معرفة توحيد الذات لا يتحقق إلا بالتوسل، فالإيمان بالواحد الأحد والفرد الصمد لا يتحقق فى الحقيقة إلا بابتغاء الوسيلة، فشأن التوسل أعظم شأنا من كونه لقضاء حاجة واستجابة دعاء، بل هو يترقى على ذلك إلى تأثيره فى تحقيق وإنجاز أصل العبادة والمعرفة وتوحيد الذات، فخطورته متصاعدة إلى أصل أصول الدين وهو توحيد الذات والصفات والأفعال والأسماء، ولربما كانت هناك مقولة تفسر النبوة والإمامة «الشهادة الثانية والشهادة الثالثة» بأنها من أركان

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۸

التوحيد، وأنها أبواب أخرى للتوحيد ومجال له، فهى بالتالى مراتب للتوحيد وأركان له، وهذه المقولة تعتمد فى تبيان ذلك على تقرير أن حاكمية اللَّه فى التشريع توحيد فى التشريع، وهى مؤدى الشهادة الثانية والاعتقاد بالنبوة، وأن حاكميته تعالى فى الطاعة توحيد فى الولاية، وهو مؤدى الشهادة الثالثة والاعتقاد بالإمامة، إلا أن التوسل يعمق تفسيرا آخر لذلك ويبين أن الاعتقاد بالنبوة

والإمامة يقوم توحيد الذات والصفات لا مجرد أنه يقوم التوحيد فی مقام التشريع ومقام الولاية والطاعة، بل إن إقامة معرفة توحيد الذات والصفات لا سبيل له إلا الوسيلة والتوسل بالآيات وأعظم المخلوقات وأكرم فعل اللّه وخلقه، وذلك لأن التوحيد سبيل الحنيفية المائلة عن التشبيه والتعطيل.

فإن الذات الإلهية الأزلية السرمدية بعد كونها غير متناهية ولا محدودة، لا بحد عقلی ولا بحد روحی ولا بحد نفسانی فضلًا عن الحد الجسمانی والمادی، فعلی ضوء ذلک فلا سبيل للمخلوق إلی إدراک الخالق؛ لأنه بذلک لا يكتنيه أی لا يدرک كنه ذاته، كما إنه لا يجبه لأنه ليس بجسم ليكون فی حيز محدود محاط ومحاصر فيقابل ويجابه، بل ليس فی البين مجابهة علی النمط العقلی أو النفسی فضلًا عن المادی، كما لا يجس ولا يحس ولا يمس، كيف وليس هو محاط كالجسم، وليس بمقهور کی تعمل فيه آلات الحس.

فمع كل ذلک فكيف للعقول أن تناله وأنی للقلوب أن تبصره ولا يصار إلی امتناع معرفته؛ لأنه تعطيل وهو بمنزلة الإلحاد والإنكار، فمن أنكر المعرفة من رأس فقد قال بالتعطيل والإنكار، ومن أثبت المعرفة بالحس أو المس أو الجس أو بالجبه أو بالإكتناه فقد صغر الخالق وحدده ونعته بالمقهورية المحاطة، فلا سبيل إلی معرفة ذاته إلا بآياته، وهی أفعاله من عظائم مخلوقاته وكبير بدائعه ودقائق صنعه وتكوينه، فيتجلی لعارفيه بالآيات والأفعال وهی أسماؤه العظمی، إذ قد

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۹

تسمی بها لأنها أصبحت علامات عليه وسمات لصفاته.

فلا سبيل لمعرفته إلا بأسمائه، وهی آيات خلقه الكبری، وهی أبواب سماء عزه وحجب نوره، وهی الوسيلة إليه.

ومن ثم أمر عز شأنه وجل جلاله بابتغاء الوسيلة، إذ لا ـ سبيل إلی معرفته إلا ـ بها، وليس الأمر بابتغاء الوسيلة عبثاً حاشی وكلا، بل لضرورة قصدها وانحصار الطريق إليه تعالی بالتوجه إليها.

وبهذه الوجيزة يتبين أن الوسيلة ضرورة فی صميم إقامة معرفة الذات والصفات فضلًا عن مقامات التوحيد الأخری، كيف لا ولم تتعرف العقول علی ذاته إلا ـ بمظاهر أفعاله وآياته الكبری التی هی وجهه الدائم الذی لا يبيد، فإن جل أدلة الحكماء والبراهين التی استرشدوها فی معرفة التوحيد هی براهين إنية تنطلق فی المعرفة من المعلول «المعلوم» إلی العلة «المجهول»، ومن المخلوق إلی الخالق، وإن أسموها برهان الصديقين وأدلة لمية، إلا أن نقوض ونقود بعضهم علی بعض شاهدة علی كونها معرفة مسيرها من الآية إلی ذی الآية، وقد أعظم القرآن معرفته تعالی بالآيات، فتری الكتاب المجيد يجلجل منادياً بهذا السبيل، وهو سبيل آياته وهو الوسيلة إلی معرفته.

النقطة الثانية: كل ما يرتبط بالنبی وآله عليهم السلام وزانه وزان الأصول ... ص: ۱۹

وعموما إن كل ما يرتبط بالنبی وأهل بيته عليهم السلام من قصدهم وزيارتهم، وإحياء مجالس ذكرهم، والاحتفال بمواليدهم وتعظيم ذكرياتهم، والعزاء علی مصائبهم وما شابه ذلک، ليس وزانه الاندراج فی فروع الدين فحسب، بل هو مرتبط بأصول الدين أيضا، ألا تری إنهم يذكرون فی أدبياتهم التی يسطرونها فی كتبهم أو يتلونها فی محافلهم أن التوحيد فی العبادة يرتبط بأصول الدين، إذ أن العبادة إما توحيدية

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۰

أو شركية، وهذه المقولة فی إطارها كشعار صحيحة، إذ الفعل وإن كان فی صورته الظاهرية من فروع الدين لكن لبه وجذوره يرجع إلی أصول الدين، إذ الفروع ليست منقطعة عن الأصول، ومن ثم سميت بذلک لتفرعها عليها وانحدارها وانشعابها وتنزلها من شجرتها، فكل غصن من فروع الدين هو انشعاب من الأصول، ونهايته ترتبط بالأصول التی هی جذوره وخلفية مؤداه.

وبنفس التقرير يقال فی الطقوس التی نرتبط عبرها بالنبی وأهل بيته عليهم السلام، فمن الخطأ أن يقتصر فی قراءتها علی أنها فرع من

فروع الدين، بل تعظيمها فى الاكتراث بها والتحفظ عليها غاية التحفظ.

ومن ثم ذكر غير واحد من العلماء بما فيهم بعض علماء الشافعية والمذاهب الأخرى فى مؤاخذتهم على هذه الجماعة «جماعة التكفير» إن مؤدى جفائهم ورفضهم لأشكال الارتباط بالنبى وأهل بيته عليهم السلام من الزيارة والتوسل به والتعلق به عبر صور الآداب المختلفة يحمل فى طياته وطويتهم قطيعة لسيد الأنبياء صلى الله عليه و آله وتمردا وتجرءا على ساحته المقدسة.

فالخطب ليس فى هذه المراسم من جهة أنها صورة فى الفروع، بل فيما تحمله فى طياتها من معان، فكما يتحسسون فى العبادة بزعمهم أنها لابد أن تكون توحيدية مرتبطة بأصول الدين، كذلك هم يخاطبون ويحاجون ويدانون بأن تلك الطقوس التى لا يكترثون لها ويستهينون بها ويستصغرونها هى حاملة فى أسرارها وطياتها معان ترتبط بأصول الدين، ومفادها أن سيد الرسل صلى الله عليه و آله هو رسول رب العالمين، وأنه نبى من الأنبياء، فضلا عن أن الأمم مرتبطة بضرورة معية الشهادتين فى كمال التوحيد، وأنه لا يتم ب «لا اله إلا ـ للّه»، بل إن أى مسلم من المسلمين لو ادعى أن التوحيد يتم ب «لا اله إلا اللّه» من دون بقية الشرائط لكفر؛ لأن دعامة التوحيد بالشهادة الثانية.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۱

وما لنا لا ـ نرى واقع الشهادة الثانية فى أدبيات تلك الجماعة التى تتشدق بحمل راية التوحيد، فهل إن إغفالهم وعدم اكتراثهم بمؤديات الشهادة الثانية وتداعياتها وما تمليه من معان ولوازم وطقوس، هل إغفالهم لكل ذلك وقع غفلة وبشكل عفوى وصدفة غير مقصودة!!

بل إنهم لا ـ يقتصرون على الإعراض عن ذلك، بل هاهم يحاربون كل ما هو من مظاهر الشهادة الثانية وطقوسها، فأين هى معطيات الشهادة الثانية فى أدبياتهم الكتبية التى تنشر وتوزع على المسلمين فى مواسم أداء العبادة؟

وهل إحياء الدين يتم بإعلان كلمة التوحيد «لا اله إلا اللّه» من دون أن يضم إليها الشهادة الثانية، فضلا عن أنهم أخفقوا فى الشهادة الثالثة ويقومون بتأليف ونشر جملة من الكتب بعضها يحمل اسم: «حقوق النبى بين الإجلال والضلال» وكل ما فى هذا الكتاب إزراء بالنبى صلى الله عليه و آله بالتشبه بالتأويلات المتشابهة من الآيات القرآنية مع التنكر للآيات الأخرى والتعامى عنها.

فها نحن نرى سياسة قريش التى حاربت النبى صلى الله عليه و آله منذ القدم مستمرة إلى يومنا هذا، تلك السياسة العدائية السابقة مع خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله التى أرادوا بها أن يخمدوا ويميتوا ركنية النبوة فى التوحيد.

وهاهى السياسة الأموية التى تحاول تشطيب وتهميش دور العترة الطاهرة، والتطاول عليها لغاية النيل من نفس النبى صلى الله عليه و آله وبالتالى الرجوع بالمسلمين إلى المسار الجاهلى السابق.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۳

الفصل الأول وجوه الاستدلال على مسألة التوسل ... ص: ۲۳

اشارة

إن الاقتراب من القريب إلى اللّه اقتراب إلى اللّه، والدنو ممن هو قاب إن الاقتراب من القريب إلى اللّه اقتراب إلى اللّه، والدنو ممن هو قاب قوسين أو أدنى من البارى تعالى هو دنو من اللّه تعالى..

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۵

وجوه الاستدلال على مسألة التوسل ... ص: ۲۵

قد أكثر أتباع بعض المذاهب الإسلامية فى تكفير المسلمين نتيجة استغاثتهم بالرسول صلى الله عليه و آله وندائهم له ب «يا رسول اللَّه» أو «يا أبا القاسم» أو «يا حبيب اللَّه»، أو الاستغاثة بعترته المطهرة بنداء «يا على» أو «يا فاطمة يا بنت رسول اللَّه»، فيرمون غيرهم بالشرك وهم قد وقعوا فيه، وينادون بالتوحيد وهم قد ابتعدوا عنه، إذ لو صدق هذا الشعار الذى يرفعونه واستصوب لكان إبليس رائد التوحيد والملائكة أشرك المشركين، حيث قد رفض التوجه بآدم فى عبادته بربه، بينما توجهت ملائكة الرب كلهم أجمعون فى عبادتهم بخليفة اللَّه فى أرضه وجعلوه واسطة بينهم وبين ربهم، وليس وراء هذه الإثارات إلا إنكار حجية هؤلاء الحجج الإلهيين، والإبعاد عن الارتباط بهم، وقطع الصلة الروحية بالنبى وأهل بيته عليهم السلام.

هذا مع أن الذى يتوجه ويستغيث بالنبى وعترته عليهم السلام إنما يتوجه إليهم ويستغيث بهم بصفة أنهم مقربون عند اللَّه عز وجل، ولهم مقام الشفاعة الكبرى والمقام المحمود، واعتقاد المسلمين أنه صلى الله عليه و آله صاحب الوسيلة والدرجة الرفيعة، فهل ترى أحدا من المسلمين يتوجه إلى الرسول صلى الله عليه و آله وعترته؟ ويتوسل بهم ويستغيث بهم إلا لقربهم من الحضرة الإلهية ولكونهم أبواب سماء الرحمة؟

فالمسلم يجد نفسه بالتوجه إلى النبى وعترته؟ هو متوجه إلى الحضرة الإلهية، وأنه حين يستغيث بهم فقد استغاث والتجأ إليها، وهذا أمر مفطور عليه البشر، ألا ترى أن الذى يلتجئ إلى وزير السلطان يقال إنه قد التجأ إلى ذلك السلطان؟

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۶

فالمتوجه إلى النبى صلى الله عليه و آله إنما يتوجه إليه بتلك الصفة، وهذا معنى بين واضح ومركوز فى ذهن واعتقاد كل مسلم.

فإن الاقتراب من القريب إلى اللَّه اقتراب إلى اللَّه، والدنو ممن هو قاب قوسين أو أدنى من البارى تعالى هو دنو من اللَّه تعالى، كما أن الوصال والاتصال بحبيب اللَّه تحبب إلى اللَّه تعالى، كيف لا وقد وصف البارى نبيه؟ بالرحمة للعالمين؟! وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، فهل التوجه إلى رحمة اللَّه إلا رحمة؟ وهل الصد والبعد عن رحمة اللَّه إلا نقمة وشقاء؟ وهل التعلق بالعترة إلا ركوب فى سفن النجاة؟ إذ هو المغزى من وصفه؟ عترته بسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى، فهو حث منه من الاقتراب من العترة والانشداد إليهم.

فإن الانجذاب إليهم انصهار فى هديهم وتطبع لأخلاقهم وتأثر بأنوارهم ينجر إلى إتباع صراطهم ومنهاجهم، وأما الابتعاد عنهم والنفرة من ذكرهم، والاستيحاش من أسمائهم، والاشمئزاز من الحديث عنهم، ولوى الأعناق عن الاهتمام بشأنهم، لا يورث إلا البعد عنهم، والمتاركة لنهجهم والتخلف عن ركبهم، ونبذ كلامهم وهديهم. وهذا سر تركيز القرآن الكريم على مودتهم، فإنها وإن كانت فعلا عاطفيا وانجذابا نفسانيا وميلانا روحيا وانسيابا قلبيا، إلا أنها مفتاح المتابعة لهم والاقتداء بهم وتولية الوجه شطرهم، إذ كيف يقتدى الإنسان بشخص وهو يبغضه؟ وكيف يقتدى به وعلاقته به جافة بجلافة؟ وكيف ينتهج هديه وهو غض فض معه، ينفر من ذكره واللهج باسمه؟ فأمر اللَّه فى القرآن بمودتهم ينطوى على سر عظيم فى الاهتداء بهديهم والانتهاج بصراطهم والتقيد بوصاياهم، وهل انشداد المسلمين إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعترته إلا لكونه رسولا من رب العالمين، وإلا لكونه داعيا إلى اللَّه بإذنه وسراجا منيرا.

واعلم أن هاهنا قاعدة شريفة هامة عظيمة الأثر فى باب العبادات وآداب

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۷

التقرب إلى الحضرة الإلهية ألا وهى:

«التوجه إليه تعالى بوجهه الكريم» أى «استقبال وجه اللَّه عند التوجه إليه» أى «التوجه إليه تعالى بالوجه بالوجيه عنده».

ويوضح هذه القاعدة الشريفة ويدلل عليها عبر أمور نسوقها فيما يلى من الوجوه.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۹

الوجه الأول: التوجه بالوسائل ضرورة عقلية ... ص: ۲۹

اشارة

إذا بطل التعطيل والتشبيه فلا- يبقى إمكان لمعرفته وإخراج العلاقة معه عن الحدين الباطلين إلا بتوسط آياته الخلقية وأثاره ودلائله، وهو الوجه الذى بقصده وبتوسطه يحصل التوجه إليه تعالى.

اقتضاء التوجه والاستقبال والاتجاه القصد إلى وجه الشى الذى يراد الدنو منه، وليس المراد من هذه المعانى ما يتبادر إلى الذهن فى الوهلة الأولى من الاستقبال الجغرافى الجسمانى كما هو الحال فى استقبال المسجد الحرام حال الصلاة، بل الاستقبال المعنوى لما يتجه به ولما يكون الاتجاه إليه توجه إلى البارى تعالى، وحيث إن ما يتجه به إلى اللَّه يطلق عليه وجه اللَّه، أى إلى جهة يتجه بها إلى اللَّه لا ما يتبادر عند المجسمة والمشبهة «وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً».

إذ الوجه والجهة هما من مادة واحدة فى أصل الاشتقاق، فأطلق على الوجه وجه؛ لأنه الجهة التى يتوجه بها ويواجه بها، وليس وجه اللَّه كما يزعمه المشبهة المجسمة أنه جزء الذات الإلهية، إذ ليست الذات الإلهية تفتقر إلى أجزاء، ولا هى محدودة بأبعاد وأعضاء، تعالى اللَّه عما يقوله الضالون علوا كبيرا، بل وجه اللَّه هو فعله وآياته التى لا تفنى ولا تبيد.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۳۰

ومن هنا أطلق فى القرآن وجه اللَّه على آيات اللَّه المخلوقة؛ لأنها علامات تتجه بالناظر إليها والمتدبر فيها إلى اللَّه تعالى، كما فى قوله تعالى: «وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» «۱»

.فأطلق وجه اللَّه على الآيات فى المشرق والمغرب كما أطلق الوجيه على النبى عيسى والنبى موسى عليه السلام حيث قال تعالى: «اذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخرة وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» «۲»

.وقال اللَّه تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا» «۳».

فأطلق على كل منهما وجيها نظرا لقربهما وجلالة شأنهما عند اللَّه تعالى، فيقال لهما وجه عند اللَّه، أى مما يتجه إليهما فى نجح الحوائج عند اللَّه.

قال الخليل: «والوجه مستقبل كل شيء، والجهة النحو، والوجهة القبلة وشبهها فى كل شيء استقبلته وأخذت فيه» «۴»

. انتهى

وقال ابن منظور: «ووجه كل شيء مستقبله» «۵»

انتهى

فيقال لشخص وجاهة عند آخر ووجيه عنده بمعنى أنه يقصد ويتوجه إليه ويستقبل به لنجح المسئول عند الآخر.

ومن ذلك يطلق على باب البيت أنه وجه البيت، ومن ثم قال تعالى: «وَأْتُواْ

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۳۱

الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» «۱»

.فعلم من ذلك: إن القصد إلى اللَّه تعالى لا بد فيه إن يستقبل وجه اللَّه، أى ما يكون وجيها عند اللَّه يتجه به إليه، وأن المستقبل له يتجه به إلى اللَّه.

فالقصد والاتجاه والسلوك والوصول والتقرب والتوجه يتضمن فيه وينطوى معنى الاستقبال إلى الوجه وهو ما يتوجه به، ولأجل ذلك فرض فى الصلاة كعبادة استقبال المسجد الحرام كقبلة يتوجه إليها لتتوجه بها إلى اللَّه، كالباب الذى يؤتى منه البيت.

فإذا كانت الكعبة- شرفها اللَّه قدرا وعظمها- صلحت أن تكون قبلة يتوجه بها إلى اللَّه فكيف لا يكون من تشرفت به الكعبة وهو سيد

الأنبياء وسيد الأوصياء صلى الله عليه و آله قبلة يتوجه بها إلى اللَّه تعالى؟

وقد قال اللَّه تعالى فى موسى الذى مر وصفه بالوجيه عند اللَّه: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» «۲».

فكانت بيوت موسى وهارون قبلة لبنى إسرائيل، بمعنى أنها قبلة يتعبد فيها ويتجه بها للعبادة.

قصد الشى توجه لوجهه ... ص: ۳۱

ثم إن هناك ضرورة فى مقام التوجه إلى اللَّه تعالى وهى أن يتوجه بشى ويستقبله كى يتوجه به إلى اللَّه تعالى، سواء كانت تلك القبلة جسمانية مادية أو

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۳۲

معنوية مجردة، وهذه الضرورة تنبع بسبب تنزه البارى عن الجسمية وتنزهه عن إحاطة الأذهان والأرواح البشرية بذاته الشريفة، وحيث امتنع ذلك على البارى للزوم النقص إلا أنه لا ينسد الباب لمعرفته وقصده والتوجه إليه، وإلا لزم التعطيل، وإنما امتنع الجسمية عليه والإحاطة بذاته للزوم النقص عليه وهو بطلان التشبيه.

فإذا بطل التعطيل والتشبيه فلا يبقى إمكان لمعرفته وإخراج العلاقة معه عن الحدين الباطلين إلا بتوسط آياته الخلقية وآثاره ودلائله، وهو الوجه الذى بقصده وبتوسطه يحصل التوجه إليه تعالى.

فإقامة المعرفة بتوحيده بعد إبطال التشبيه والتعطيل إلى مقام التنزه والإثبات بآياته وكلماته وهى أسماؤه التى بها يدعى.

وتقريب ذلك ببيان أوضح وأعمق: إن ذات البارى لا محدودة، وكل من صوَّر لها صورة فى عقله أو حسه أو خياله أو وهمه، فالبارى منزه عنها؛ لأن هذه الصورة تبقى محدودة، وهو أجلَ من أن يحد وتنتهى ذاته إلى حد معين، وإلا لعاد ناقصا ومفتقرا إلى ما وراء ذلك الحد سواء كان ذلك الحد جسمانيا أو معنويا مجردا، وحيث إن ذاته لا محدودة فلا يمكن للمخلوق سواء كان جسما أو روحا أو نورا أن يمس أو يحس أو يجس أو يتعلق بذاته أو يكتنيها، فإذا امتنع مثل ذلك الاتصال والارتباط فلا إمكان له إلا عبر المخلوق الذى هو من آياته وآثاره، لكن لا بذلك المخلوق من حيث هو هو، بل من الجهة التى تلى فعل الرب، أى من حيث إنه فعل وأثر للبارى وله دلالة عليه، فلم يكن هناك إمكان لدلالته على ذاته إلا بآياته وهى مخلوقة له، فمن ثم تحتم أن يكون وجه اللَّه هو آياته وآثاره التى تدل عليه وتهدى القاصد إليها التوجه إليه، فهذا يبين ضرورة الأسماء التى هى الآيات المخلوقة، وإنما استحقت أن تكون أسماء إلهية لآيتيتها أى علاميتها على البارى تعالى، ولا يمكن الاهتداء للذات الإلهية إلا عبر الأسماء، والسمة هى العلامة وهو معنى الآية،

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۳۳

ومن ثم فإن الذى ينكر ويجحد الآيات ويستكبر عليها فقد صدَّ عن التوجه إلى اللَّه تعالى وانصرف عن السبيل على اللَّه، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: «انَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ» «۱».

فجعل البارى تعالى آياته أبواب السماء المنتهية إلى عرشه وبالتالى إلى حضرته القدسية.

فالباب إلى السماء هو الوجه الذى يتجه إليه للصعود إلى اللَّه على مستوى العمل والعبادة والدعاء والاعتقاد، فكيف يتجه ويتوجه إليه تعالى بغير آياته؟

وكيف يمكن أن يكون وجهه غير آياته؟ وكيف يدعى بغيرها إذ هى الأسماء والعلامات عليه؟ وقد أشار اللَّه تعالى فى قوله: «وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» «۲»

إلى هـذه الحقيقـة والضـرورة، فكما لا يمكن أن يدعى بغير أسـمائه، إذ كيف يهتدى إليه بغير اسـمه؟ إذ أن المجهول المطلق لا سبيل إليه ولازمه التعطيل، وبأسـمائه عرف وقصـد وتوجه إليه، وكيف يكون الاسم غير الآيات؟ إذ مر أن الـذات لا يحاط بها ولا تكتنه ولا يتعلق بها مباشرة، فلم يبق إلا آثاره ودلائل فعله وهى آياته.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۳۵

الوجه الثانى: النبى وآله أبواب الحضرة الإلهية ... ص: ۳۵

اشارة

فلا ينفع الإقرار بالشـهادة الأولى من دون الشـهادة الثانيـة، ولا بالشـهادتين من دون الإقرار بالشـهادة الثالثـة، وهى إمامـة أمير المؤمنين والأئمة المعصومين عليهم السلام.

قـال تعـالى: «انَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ» «۱»

.ومفـاد هـذه الآيـة الشـريفة أن الوفود على اللَّه والتوجه إليه لا يكون إلا من أبوابه، وأن الطريق إليه تعالى لا يكون إلا منها، وأن تلك الأبواب هى آياته الخلقية وأعظمها أنبياؤه ورسـله كما قال اللَّه تعالى: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ» «۲».

كيف لا وقـد زود الأنبياء والرسل والأئمة بالآيات التى هى المعجزات للدلالة على مقاماتهم الاصـطفائية، وكونهم سـفراء ووسـطاء بين اللَّه وخلقه.

مضافا إلى أن إسناد التكذيب للآية فى مقابل التصديق بها يدل على أن المراد

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۳۶

من الآيـة هى الحجج المصـطفون؛ لأنهم هم الذين يصدق بهم ويتعلق الإيمان بحجتهم ومقاماتهم فى مقابل تكذيبهم، بخلاف الآيات التكوينية فإنها لا يتعلق بها التصديق والتكذيب بذاتها، بل الإعراض أو النظر إليها وإلى دلالتها.

فالمراد بالآيات فى هذه الآية الذين يتعلق بهم التصديق أو التكذيب وهم الحجج الإلهية.

شرطية الإيمان بالآيات فى صعود الأعمال ... ص: ۳۶

وتـدل الآيـة السابقـة على أن أى عمـل للإنسـان وأى عبـادة، ولو كان الفعل من قبيل الإيمان والعقيـدة، لا تصـعد ولا تفتـح لها أبواب السماء للقبول إلا بالخضوع والإيمان بآيات اللَّه، وهو شرط دخول الجنة.

فيسـتفاد منها أن التوجه والتوسل بالحجج شـرط فى صحة الإيمان فضلا عن كونه شرطا فى العبادات وبقية الأعمال، وأن الاقتصار على الإيمـان بـاللَّه ورسوله والأئمـة من دون التوجه والتشـفع بهم إلى اللَّه لا يكون مقبولا ولا تفتـح له أبواب السـماء، بل لا بـد من اقترانه بالتوجه أو التوسل أو التشفع بهم إلى اللَّه تعالى.

ويـدل على اشتراط هـذا الشـرط فى صـحة الإيمان وقبوله ما وقع وصدر من إبليس الغوى من إباء وجحود خلافة آدم، واسـتكباره عن الخضوع والسـجود له، فجعل سـبب كفره كل من الإباء والاسـتكبار أى الجحود وعدم التوجه بآدم، فلم يقتصر على الجحود، بل ظاهر الآيات فى سور عديدة أن كلا من عدم الإيمان بخلافة آدم وعدم التوجه به كلا منهما سـبب مسـتقل موجب لغواية إبليس وطرده عن باب الرحمة الإلهية.

وهذا يؤكد أن الإيمان لا بد أن يكون مقرونا بالتوجه بحجج اللّه إلى اللّه تعالى، والتوسل بهم واللواذ بهم وإلا لما صح الإيمان.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۳۷

ومن الأدلة على هذه الشرطية ما سيأتي في قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ» «۱» من تقرير أنه لم يكتف بإيمانهم بسيد الأنبياء صلى الله عليه و آله، بل أخذ عليهم الانقياد له لأجل إعطائهم مقاما عقائديا يحلونه في العقيدة وهو مقام من النبوة والرسالة والتي هي بنفسها من أصول الاعتقاد.

فإذا كان الانقياد لسيد الأنبياء يورث أصلا اعتقاديا فهو مما يشير إلى خطورة موقعيته وضرورة ضميمته للإيمان.

ومن الأدلة ما سيأتي أيضا في الوجه السادس من قول اللّه تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «۲»

حيث تدل الآية على أن الوصول إلى اللّه معرفة وسيرا ووفودا لا يتم إلا عبر التوسل بالوسيلة والتوجه بها إليه، وبالتالي عدم تحقق الإيمان إلا بذلك وهو المراد من صحة الإيمان.

وعلى ضوء ذلك يتبين أنه كما حرر أن الإيمان ليس مجرد إدراك، بل تصديق وإذعان وجزم، كذلك يضاف هنا أنه ليس مجرد تصديق وإذعان وإخبات، بل تول عملي بالتوجه والانشداد لهم واللواذ بهم.

فلا ينفع الإقرار بالشهادة الأولى من دون الشهادة الثانية، ولا بالشهادتين من دون الإقرار بالشهادة الثالثة، وهي إمامة أمير المؤمنين والأئمة المعصومين عليهم السلام، حيث وصفهم القرآن الكريم بالطهارة وهو معنى الاصطفاء الإلهي، كما نعت المطهرين بعلم الكتاب، ومقتضاه حجيتهم إلى غير ذلك من أوسمة القرآن لهم الدالة

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۳۸

على اصطفائهم وحجيتهم.

مضافا إلى أن التعبير في الآية في المقام هو بالجمع «بآيات اللّه» خطابا لهذه الأمة بالسنة الإلهية الدائمة، فلا ينحصر المراد بسيد المرسلين صلى الله عليه و آله، بل يعم أهل بيته الأطيبين عليهم السلام..

وإن الذي يريد أن يتوجه إلى الحضرة الإلهية من دون أن يخضع ويتولى النبي صلى الله عليه و آله والأوصياء عليهم السلام لا تفتح أبوابها حتى يلج الجمل في سم الخياط.

ولأجل استكبار إبليس عن الخضوع لآدم عليه السلام كما في قوله تعالى: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ» «۱»

عن آية الرحمن فلم يقبل إيمانه، ولم تزك عبادته، وردت عليه؛ لأنه لم يقصد الحضرة الإلهية ولم يتوجه إليها بآدم عليه السلام.

فعلم من هذه الآية أن آيات اللّه هي الأبواب التي من استكبر عنها وصد فقد صد عن التوجه إلى اللّه تعالى.

فإذا كان الباري قد جعل آياته وأولياءه المصطفين أبوابه، فكيف يؤمل من يستكبر عن التوجه بهم إلى اللّه أن يحصل له القرب الإلهي والوصول إلى الزلفى والحضرة الإلهية!! فمفاد الآية الكريمة ضرورة التوجه إليه تعالى بأوليائه المقربين من الأنبياء والمرسلين والأوصياء المطهرين عليهم السلام علاوة على التصديق والإيمان بهم، فهو شرط في الإيمان فضلا عن سائر العبادات والأعمال.

وفي الكتاب المعروف لأمير المؤمنين عليه السلام الذي كتبه إلى أكابر أصحابه، والذي قد رواه الكليني بسنده في كتاب الرسائل، ورواه السيد الرضي عنه أنه قال: «قيل فمن الولي يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال: وليكم في هذا الزمان أنا ومن بعدي وصيي ومن بعد

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۳۹

وصيى لكل زمان حجج اللَّه كيما لا تقولون كما قال الضُّلال من قبلكم فارقهم نبيهم «وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى» «۱»

وإنما كان تمام ضلالهم جهالتهم بالآيات وفهم الأوصياء فأجابهم اللَّه:

«قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى» «۲»

وإنما كان تربصهم أن قالوا نحن فى وسعة عن معرفة الأوصياء حتى يعلن الإمام علمه، فالأوصياء قوام عليكم» «۳».

واستشهاده صلى الله عليه و آله بالآية فى غاية الظهور، حيث إن أهل الضلال يوم القيامة يتعذرون لعدم إتباع الآيات بعدم وجود الرسول، ولا يقبل عذرهم هذا؛ لأن اللازم عليهم الفحص والمعرفة بالآيات لكى يتبعوها، فالحجة قائمة عليهم.

وجه آخر فى شرطية التوجه بهم إلى اللَّه فى صحة العبادات ... ص: ۳۹

ومن الوجوه التى يمكن تقريرها بحسب صناعة الاستدلال على ذلك ما هو مقرر فى مباحث أصول الفقه ومباحث علم الفقه، من أن قوام المغايرة بين العمل التعبدى والعمل التوصلى هو بالنية والقربة، وأن من مقومات النية قصد امتثال الأمر قربة إلى اللَّه تعالى، فنية القربة والزلفى قصدها كغاية مسبب عن قصد آخر بمثابة السبب وهو قصد الأمر، بل فى الحقيقة امتثال الأمر الإلهى، وهذا القالب لنية القربة ولنية سببها مقرر فى جميع العبادات من الصلاة والحج والصوم والزكاة وغيرها، وقوام عبادية العبادة بذلك حيث إن قصد امتثال الأمر المحقق للقربة والزلفى إلى الحضرة الإلهية هو فى الحقيقة طوعانية وطاعة للَّه‌تعالى، فقوام العبادية بالطاعة،

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۴۰

والعبودية والطاعة من باب واحد، كما أن المعبودية والربوبية والمطاع بالذات من باب واحد، وحيث إن جميع شرائط العبادات هى لا تقتصر على فرائض اللَّه بل تشتمل على سنن النبى صلى الله عليه و آله بضرورة الدين عند المسلمين ويكون إتيانها فى العبادات امتثالا لأمر الرسول صلى الله عليه و آله طاعة له بتبع طاعة اللَّه التى هى طاعة ذاتية لتحقيق العبادة للَّه‌تعالى، كان قصد القربة الذى يحقق النية العبادية هو مسبب عن قصد امتثال أمر اللَّه تعالى وأمر الرسول صلى الله عليه و آله، وكذلك الحال فى سنن أوصياء النبى صلى الله عليه و آله فإن جملة من شروط العبادات وبعض موانعها قد سنها الأوصياء من عترة النبى صلى الله عليه و آله وعلى كلا التقديرين فإن إتيانها فى العبادات هو امتثال لأمرهم عليهم السلام، وبالتالى فتكون نية القربة للَّه‌تعالى فى العبادات مسببه عن نية امتثال أوامر اللَّه تعالى وهى فرائضه وأوامر النبى صلى الله عليه و آله، وهى سننه وأوامر الأوصياء وهى هديهم ومنهاجهم وطريقتهم.

وهذا التقرير لبيان عبادية العبادة من مباحث التعبدى والتوصلى فى علم الفقه وأصول الفقه لم يبلور فى الكلمات، ولكن القالب الصناعى لتقرير النية فى التعبدى هو ذلك، وهذا مطابق لعموم قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ» «۱».

فجعل مقرونا بطاعته طاعة الرسول صلى الله عليه و آله وأولى الأمر، مع أن الطاعة هى العبودية، والعبودية خاصة لأُلوهيته تعالى، إلا أن طاعة الرسول صلى الله عليه و آله وأوصيائه عليهم السلام بيان لباب طاعة اللَّه، وبالتالى لعبادته.

كيف لا وهذه الطاعة للَّه‌فى الآية عامة وشاملة لعموم أبواب الدين لا يشذ عنها فصل من فصوله، كذلك طاعة الرسول صلى الله عليه و آله وأولى الأمر؟، وبالتالى فهم أولياء دين اللَّه، هذا فضلا عن عشرات الموارد التى قرن اللَّه بطاعته طاعة رسوله فى السور

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۴۱

القرآنية.

وقد يصعب على البعض تصور هذا المطلب فضلا عن التصديق والإذعان به، أو قد يستغربه البعض الآخر، فلنعد تقريره وبيانه بعبارة أخرى، فإن جملة ما تقدم من الأدلة والآيات دال على شرطية التوسل واللواذ بهم والتشفع بهم إلى اللَّه فى العبادات، وما مر من صيغة

قصد امتثال الأمر ما هو إلا صيغة صناعية كقالب لذلك.

ولك أن تقول: إن الصلاة التى يأتى بها المؤمن صلاة على وفق منهاج ومذهب جعفر بن محمد عليهما السلام، أى أن الصلاة وغيرها من العبادات إنما يؤتى بها بالصورة المأمور بها من قبل الأئمة عليهم السلام المرتبطة بالصورة التى أمر بها اللّه ونبيه صلى الله عليه و آله، ومن ثم تمثيل أوامر الأوصياء كامتثال أوامر النبى صلى الله عليه و آله فى ضمن العبادة التى يؤتى بها امتثالا لأمر اللّه.

فالعبادة هى للّهوحده لا ـ شريك له، إلا ـ أن الباب والمفتاح لإتيان تلك العبادة الخالصة له تعالى لا يتحقق إلا بامتثال أوامر الرسول وأوصيائه عليهم السلام.

ومن ثم يتبين أن العابد فى أثناء أداء العبادة إذا أراد الزلفى والقرب إلى اللّه تعالى، لا بد له من أن يتوسل إلى ذلك بالتوجه بالنبى وأهل بيته عليهم السلام إلى اللّه، وذلك عبر امتثال أمرهم فى ذات العبادة الخالصة لرب العالمين، فامتثال أمرهم نافذ ومتخلل وناخر فى الفعل العبادى الذى يأتى به العابد فى عبادته.

ولا ـ يتوهم أن هذا تقريب نظرى تنظيرى لا صلة له بالواقع العملى فى العبادة، فإن الداعى الارتكازى المحرك فى العبادات مفروض فى البين، وهو المحرك نحو خصوص الصورة الخاصة من العبادة التى هى على طبق أوامرهم؟.

فمحركية أوامرهم فى العبادة والانقياد لها فى الداعى المرتكز فى نية العابد فى عبادته مقرر ومفروض، فليست أوامرهم طريقا محضا لا يلحظ فيه معنى الطاعة والولاية، كيف وقد أكدت الآيات عنوان الطاعة لهم مقرونة بطاعة اللّه تعالى.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۴۲

شرطية التولى والتبرى فى أصل الإيمان ... ص: ۴۲

إن التولى والتبرى يعد فى كلمات علماء الإمامية من أركان الفروع، وقد بينوا الفرق بينهما وبين الإيمان بولاية أهل البيت عليهم السلام التى هى من أصول الإيمان.

إن ولايتهم تارة على صعيد المعرفة والإذعان والإخبات والتسليم القلبى فهى من أصول الديانة الإيمانية، وتارة بمعنى التولى السياسى والانقياد والمتابعة فى التشريع والارتباط السلوكى بهم فى كافة الميادين فجعل من الفروع غاية الأمر من أركان الفروع، إلا أن الأدلة التى استعرضناها فى التوسل والذى يتطابق فى عمومه مع عنوان التولى؛ لأن جعلهم وسيلة يشمل عدة ميادين وأصعدة، من جعلهم وسيلة فى معرفة الأحكام، وجعلهم وسيلة فى الأخذ بأى منهج ومنهاج سياسى واجتماعى، وقد اتضح من الأدلة أنها تفيد شرطيته فى صحة الإيمان.

فعلى ضوء ذلك يكون وقع التولى والتبرى ودوره خطيرا فى أصل الإيمان وقبوله لا مجرد جعله من أركان الفروع.

وإلى ذلك يشير لفظ الحديث النبوى المروى من طرق العامة والخاصة، وهو قوله صلى الله عليه و آله: «ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» «۱».

فإن مفاد هذا الحديث الشريف إن التولى والولاء السياسى لهم؟ دخيل فى أصل الإيمان فضلا عن معرفتهم التى وردت فى طرق أخرى من ألفاظ الحديث.

والتولى والولاء السياسى هو عبارة عن التوسل بهم عليهم السلام واتخاذهم وسيلة بالتوجه إليهم فى النهج السياسى، كما هو شأن الوسيلة فى التوجه إليها أولًا كى يتم التوجه بها إلى اللّه.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۴۳

الوجه الثالث: غواية إبليس لاستكباره عن التوجه بآدم ... ص: ۴۳

اشارة

فاستكبار إبليس عن التوجه بآدم فی عبادته اعتبر كفرا بتوحيد اللّه، وانفراطا للركن القويم للتوحيد بذلك الاستكبار والإباء.

الوجه الثالث فی الاستدلال علی عقيدة التوسل ما جری من قصة آدم مع إبليس، وإليك مجموعة الآيات الحاكية عن تلك القصة:

قال اللّه تعالی: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَی وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» «۱».

وقال تعالی: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِين* قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِی مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ* قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخرج انَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ* قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأن جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ» «۲»

.الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۴۴

وقال تعالی: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَی* فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَی» «۱».

وقال تعالی: «اذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّی خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» «۲».

فبينت الآيات أن سنة اللّه تعالی لملائكته فی التوجه إليه هو أن يتوجهوا إليه فی عبادتهم بصفوة أوليائه، فتوجهوا إليه فی قمة عبادتهم وهی السجود باستقبالهم آدم خليفة اللّه فی أرضه وإمامه علی عباده، فكانت سنة إبليس الاستكبار عن التوجه فی العبادة بخليفة اللّه آدم، بينما سنة اللّه الخالدة لملائكته هی أن التوحيد فی العبادة قوامه بالخضوع للّهعبر التوجه إليه بخليفته، فالاستكبار عن هذا الباب تمرد عن الوفود إلی الحضرة الإلهية.

فاستكبار إبليس عن التوجه بآدم فی عبادته اعتبر كفرا بتوحيد اللّه وانفراطا للركن القويم للتوحيد بذلك الاستكبار والإباء «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۴۵

لا مسرح للاشتباه فی التطبيق العقائدی ... ص: ۴۵

قال البعض: إن الخطأ الصغروی فی العقائد لا يخل بالإيمان والهداية، وإنما هو اشتباه فی التطبيق نظير الخطأ فی بعض العوارض مع إصابة الجوهر، لكن الصحيح ومقتضی التحقيق خطأ هذه المقولة، فإن الخطأ الصغروی فی العقائد لا يختلف عن الخطأ الكبروی إلا فی شدة الجحود والجهل، وإلا لكان مطلق الخطأ فی العقيدة والاعتقادات من قبيل الاشتباه فی التطبيق؛ لأنه ما من نِحلة وملة إلا ويزعم أصحابها فی أساس وخلفية معتقدها تبنی أصلا صحيحا فی نفسه، إلا أنهم يطبقوه علی مدعی باطل ويستدلون به علی نتيجة خاطئة، وهذا كما تری.

هذا مع أنه قد شدد القرآن الكريم النكير علی التكذيب بالآيات والظلم بها، مع أن دورها وشأنها دور الآيات، أی فی مقام ظهور الحق فی المقامات المختلفة، واعتبر إنكار تلك الآيات غيا وضلالا وكفرا، ومن ثم كان جحود ما هو الحق فی أی مسألة اعتقادية هو جحود لظهور الحق فی ذلك المقام، إلا أن كل مقام بحسبه وموقعيته من الخطورة والأهمية كمقام لظهور الحق.

وقد نبهنا غير مرة أن أصول الدين هی أبواب أخری للتوحيد من توحيد الذات وتوحيد الصفات والتوحيد فی التشريع وهو النبوة والتوحيد فی الولاية وهو الإمامة والتوحيد فی الغاية وهو المعاد، غاية الأمر أن الشأن فی تفاصيل الاعتقادات يختلف عن الشأن فی أصول الدين، لكون ظهور الحق أجلی فی الآيات الكبری ودونه فی الآيات الصغری. وبذلك يظهر أن جحود شیء من أصول الدين هو جحود لظهور الحق فی المقامات العظمی، وليس خللا مقصورا علی الصغری.

ومن ثم كان خطأ إبليس فی إنكاره لخيرية آدم عليه، وزعمية خيريته علی آدم- مع إقراره بالذات الربوبية حيث نادی الباری: «قَالَ

فانظِرْنِی إِلَی یَوْمِ

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۴۶

یُبْعَثُونَ» «۱»

. ومع إقراره بالمعاد وإقراره بنبوهٔ آدم فی قوله تعالی: «قَالَ أَرَأَیْتَکَ هَـذَا الَّذِی کَرَّمْتَ عَلَیَّ لَئِنْ أَخرتَنِ إِلَی یَوْمِ الْقِیَامَـهِٔ لأَحْتَنِکَنَّ ذُرِّیَّتَهُ إَلَّا قَلِیلًا» «۲»

. إلاـ أنه جحـد ولایـهٔ آدم- لم یکن ذلـک الخطأ شـأنه حکم مجرد الاشـتباه فی التطبیق، بـل کان ذلک منه جحودا لأصل من أصول الدین وهو ولایهٔ ولی اللّه، وبالتالی جحودا للتوحید فی مقام الولایهٔ.

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۴۷

الوجه الرابع: لا نفی للتعطیل والتشبیه إلا بالتوسل وهو التوحید ... ص: ۴۷

إن أکثر الـذین نفوا الوسائط وقعوا فی شـراک التجسـیم أو الصور المحسوسـهٔ أو المتخیلـهٔ أو الموهومـهٔ لذات الباری، وهذا من القول بالنقص وانتهاء أمد الذات الإلهیهٔ.

إن نفی الوسائط التی یتوجه بها إلی الباری تعالی کآیات وأسـماء له یسـتلزم إما التعطیل وإما التجسیم والتحدید ونحوهما وهو التشبیه الباطل، وإن أکثر الذین نفوا الوسائط وقعوا فی شـراک التجسـیم أو الصور المحسوسهٔ أو المتخیلهٔ أو الموهومهٔ لذات الباری، وهذا من القول بالنقص وانتهاء أمـد الـذات الإلهیهٔ، وهو أشد شـرکا وأوغل فی الکفر من عبدهٔ الأوثان، إذ الوثنیون والمشـرکون ینزهون الذات الإلهیـهٔ عن الجسـمیهٔ، وینزهونها عن أن تکون من الأرواح أو النفوس، ویعتقـدون أن هناک أرواحا کلیـهٔ تتعلق بالأصـنام وتقوم بدور الوساطـهٔ والشـفاعهٔ، واتخـاذهم للواسـطهٔ غیر المـأذون فیهـا وبغیر سـلطان أتـاهم من اللّه هو الـذی أوقعهم فی الشـرک والکفر، لأـنهم یحکمون إرادتهم فی اتخاذ الواسـطهٔ فی الشفعاء علی إرادهٔ اللّه تعالی، کما تشیر إلی ذلک جملهٔ من الآیات القرآنیهٔ، من أن المحذور الذی وقعوا فیه هو أنهم ارتکبوا ذلک بغیر سلطان کما فی العدید من الآیات، ومنها:

قوله تعالی: «مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّیْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُکُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۴۸

بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُکْمُ إِلَّا لِلّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِیَّاهُ ذَلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ وَلَکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لَا یَعْلَمُونَ»».

وقوله تعالی: «قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَیْکُم مِّن رَّبِّکُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِی فِی أَسْـمَاء سَـمَّیْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤکُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُـلْطَانٍ فانتَظِرُواْ إِنِّی مَعَکُم مِّنَ الْمُنتَظِرِینَ» «۲».

وقوله تعالی: «وَکَیْفَ أَخَافُ مَا أَشْـرَکْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّکُمْ أَشْرَکْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ عَلَیْکُمْ سُلْطَانًا فَأَیُّ الْفَرِیقَیْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن کُنتُمْ تَعْلَمُونَ» «۳».

وقوله تعـالی: (قُـلْ إنمـا حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْیَ بِغَیْرِ الْحَقِّ وأن تُشْـرِکُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُـلْطَانًا وأن تَقُولُواْ عَلَی اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» «۴».

وقوله تعالی: «وَیَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَیْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِینَ مِن نَّصِیرٍ» «۵».

وقوله تعـالی أیضـا: «انْ هِیَ إِلَّا أَسْـمَاء سَـمَّیْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُکُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُـلْطَانٍ إِن یَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَی الأنفس وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَی» «۶».

فتبین من مجموع الآیات أن هذه الوسائط التی اتخذوها کأسماء یدعون الرب بها، وکسمهٔ وعلامهٔ وآیهٔ ودلالهٔ وواسطهٔ فی التوجه هی أسماء هم سموها لم یسمها اللّه لهم، أی لم یجعلها وسائط وأبواب یتوجه بها إلیه.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۴۹

وغيرها من الآيات الكريمة الدالة، على أن المحذور ليس في ضـرورة الوسـيلة والواسـطة والاسم والسمة والعلامة والآية التي يتوجه بها إليه تعالى، وإنما المحذور أنهم وسـطوا وسائط واتخذوا أبوابا وأسـماء هى ليست بأبواب ولا وسائل ولا وسائط ولا أسماء ولا علامات ولا آيات يمكنهم عند التوجه إليها التوجه إلى اللَّه تعالى، بل يكون فعلُهم هذا إلحاداً وحياداً وميلاناً وصداً عن سبيل اللَّه.

والوثنيون مع ذلك استشـعروا وأقروا بهذه الضـرورة، وأدركوا أن البارى منزهٌ عن الجسم، وأنه لا تدركه الأبصار ولا تستوعبه الأوهام، فحيث أدركوا ذلـك أحسوا بـالعجز وبضـرورة الواسـطة والاـسم والآيـة، إلاـ أنهم مع ذلك لم يصل بهم الحال إلى التجسـيم والإيهام بصـورة يختلقهـا الوهم، بينمـا هؤلاـء الـذين نفوا الواسـطة والاـسم والعلامـة والوجه الوجيه الـذى يتوجه به وقعوا فى شـراك التجسـيم والتصوير الوهمى لـذات البارى؛ لأنهم حيث لم يتأهلوا للوحى والنبوة فلا محالة اضـطروا إلى القول بالتحديد فى الذات الإلهية والجهة المكانيـة، كى يمكنهم بتخيلهم الوفـود على الحضـرة الإلهيـة، وإلاـ فيلجئهم التنزيه مـع نفى السـفراء والوسائط الإلـهيين والآيـات إلى التعطيل.

فهم يفرون من محـذور ويقعون فى محـذور أكبر ممـا وقع فيه أهل الوثنيـة، حيث إن الوثنيـة نزهوا ذات البارى إلا أنهم جعلوا ما ليس بوسيلة وسيلة، وما ليس بواسطة واسطة، بينما هؤلاء حجموا الذات الإلهية وحددوها إلى أمد مقدارى «۱».

ومن ذلك يتبين أن من ينزه البارى عن التحديد والتجسيم والتصوير وعن

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۵۰

القيود والحـدود الخلقيـة، فلا محالة لأجل أن لا يقع فى التعطيل ويحافظ على التنزيه من دون تشبيه لا مفر له من القول بالآيات الإلهية الكبرى، وأنها وجهه الكريم الذى يتوسل بها إليه، وأنها أسـماؤه التى يدعى وينادى ويتوجه بها إليه، وهذا هو الذى تشير إليه الصديقة فاطمـة عليها السـلام فى مطلع خطبتها بقولها: «واحمـدوا اللَّه الـذى لعظمته ونوره يبتغى من فى السـموات والأرض إليه الوسـيلة، ونحن وسيلته فى خلقه، ونحن خاصته، ومحل قدسه، ونحن محبته فى غيبه، ونحن ورثة أنبيائه» «۱».

فمن يعظم اللَّه لابد أن يبتغى إليه الوسيلة، وإلا اضطر إلى تصغير الرب وتحديده وإنهائه إلى أمد وقدر.

والتعظيم يلجئه ويضطره كى لا يقع فى التعطيل بعد نفيه للتصغير والتشبيه إلى القول بالوسيلة.

ومن هنا نقف على حقيقـة المقام المعرفى والأفق العلمى لأهل البيت عليهم السـلام مع أنهم كانوا يعيشون فى بيئـة جاهليـة متخلفة، بل البشـرية من الحضـارة الهنديـة والحضارة الروميـة والحضارة الفارسـية وإن وصـلوا إلى تنزيه الرب إلا أن منهم من لم يـدرك ضـرورة الوسـيلة كاليونانيين، ومنهم من أدرك ضـرورة الوسـيلة إلا أنه لم يهتد إلى ما هو فى الحقيقة وسـيلة، ويميزه عما هو صد وصدود عن سبيل اللَّه والوسيلة إليه.

وإلى ذلـك أيضـا أشـار أمير المؤمنين عليه السـلام حيث قـال: «فبعظمته ونوره أبصـر قلوب المؤمنين، وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون، وبعظمته ونوره ابتغى من فى السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة والأديان المشتبهة» «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۵۱

ويشير عليه السلام إلى نفس ضرورة الوسيلة والواسطة والآية والعلامة والاسم والسمة اللازمة لعظمته تعالى، وأن من أدرك ذلك من الخلق منهم من أخطأ فى إصابـة الوسـيلة الحقيقيـة فـدان بأديـان مشـتبهة ظنا منه أن تلك الوسائط أسـماء وآيات ودلالات ووساطات موصلة، وجهل أنها صدود عن السبيل إلى اللَّه تعالى والوسيلة إليه.

ومثله قول أبى الحسن موسـى بن جعفر عليهما السـلام كما عن على بن سويد، قال: كتبت إلى أبى الحسن موسـى عليهما السـلام وهو فى الحبس كتابا أسأله عن حاله وعن مسائل كثيرة، فاحتبس الجواب على أشهر ثم أجابنى بجواب هذه نسخته:

الحمـد للَّهالعلى العظيـم الـذى بعظمتـه ونـوره أبصـر قلـوب المـؤمنين، وبعظمته ونـوره عـاداه الجـاهلون، وبعظمته ونـوره ابتغى من فى

السماوات ومن فى الأرض إليه الوسيلة، بالأعمال المختلفة والأديان المتضادة، فمصيب ومخطئ، وضال ومهتد، وسميع وأصم، وبصير وأعمى حيران، فالحمد للّهالذى عرف ووصف دينه محمد صلى الله عليه و آله...

إلى أن قال: فاستمسك بعروة الدين: آل محمد والعروة الوثقى: الوصى بعد الوصى والمسالمة لهم والرضا بما قالوا، ولا تلتمس دين من ليس من شيعتك، ولا تحبنَّ دينهم، فإنهم الخائنون الذين خانوا اللّه ورسوله وخانوا أماناتهم.

وتدرى ما خانوا أماناتهم؟ ائتمنوا على كتاب اللّه فحرفوه وبدلوه، ودلوا على ولاة الأمر منهم فانصرفوا عنهم» «۱».

وقال الإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام عندما سأله أبو قرة المحدث صاحب

الامامة الالهية(۵)، ج‌۵، ص: ۵۲

شبرمة: «فمن أقرب إلى اللّه الملائكة أو أهل الأرض؟ قال أبو الحسن عليه السلام: إن كنت تقول بالشبر والذراع، فإن الأشياء كلها باب واحد هى فعله لا يشتغل ببعضها عن بعض، يدبر أعلى الخلق من حيث يدبر أسفله، ويدبر أوله من حيث يدبر آخره، من غير عناء، ولا ـ كلفة، ولا مؤنة، ولا مشاورة، ولا نصب، وإن كنت تقول من أقرب إليه فى الوسيلة، فأطوعهم له، وأنتم تروون أن أقرب ما يكون العبد إلى اللّه وهو ساجد، ورويتم أن أربعة أملاك التقوا أحدهم من أعلى الخلق، وأحدهم من أسفل الخلق، وأحدهم من شرق الخلق، وأحدهم من غرب الخلق، فسأل بعضهم بعضا، فكلهم قال: «من عند اللّه أرسلنى بكذا وكذا» ففى هذا دليل على أن ذلك فى المنزلة دون التشبيه والتمثيل» «۱».

وهذا بيان واف من الإمام الرضا عليه السلام أن من ينف التجسيم عن اللّه والاقتراب الجسمانى فهو مضطر للقول بالقرب المعنوى، وأن صاحب الوسيلة الذى يستشفع بشفاعته إلى اللّه تعالى ويتوجه به إلى اللّه تعالى هو أقرب الخلق إلى اللّه، وهم محمد صلى الله عليه و آله وأهل بيته الطاهرين الذين ميزهم اللّه مع نبيه صلى الله عليه و آله بالطهارة دون بقية الخلق.

ومنه يظهر أن التوسل بصاحب الوسيلة والقرب والتوجه به إلى اللّه هو من صميم التوحيد القائم على التنزيه ونفى التشبيه والتمثيل والتعطيل، وأن الذى ينفى التوسل والاستشفاع بالشفيع والتوجه بالوجيه يقع فى التشبيه والتمثيل أو التعطيل.

الامامة الالهية(۵)، ج‌۵، ص: ۵۳

الوجه الخامس آيات الأسماء ... ص: ۵۳

اشارة

إن الأسماء الإلهية هى الآيات الدالة عليه تعالى وعلى صفاته العليا، فالمخلوقات العظيمة من جهة دلالتها على عظمة البارى وعظمة صفاته هى آيات وعلامات، وبالتالى هى أسماء إلهية.

قال تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» «۱».

قال تعالى: «قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِى فِى أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ» «۲».

قال تعالى: «وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أسمائه سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» «۳».

قال تعالى: «مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

الامامة الالهية(۵)، ج‌۵، ص: ۵۴

لَا يَعْلَمُونَ» «۱».

قال تعالى: «قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» «۲».

قال تعالى: «اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى» «۳».

قال تعالى: «انْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى» «۴».

قال تعالى: «هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» «۵».

قال تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ» «۶».

قال تعالى: «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» «۷».

وجاء في الرواية عن عبد الأعلى عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «اسم اللّه غير اللّه، وكل شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا اللّه، فأما ما عبرته الألسن أو ما عملته الأيدي فهو مخلوق، واللّه غاية من غاياه، والمغيي غير الغاية، والغاية موصوفة، وكل

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۵۵

موصوف مصنوع، وصانع الأشياء غير موصوف بحد مسمى» «۱».

وخلاصة ما قاله المجلسي:

«بيّن عليه السلام المغايرة بأن اللفظ الذي يعبر به الألسن والخط الذي تعمله الأيدي، فظاهر أنه مخلوق» «۲».

وقوله عليه السلام: «واللّه غاية من غاياه» المراد أن الغاية تطلق على النهاية وتطلق على الآية والعلامة، فكل من كان له مطلب وعجز عن تحصيله بسعيه يتوسل إليه باسم اللّه، والمغيي المتوسل إليه لتلك الغاية غير الغاية.

أو يراد بالغاية النهاية وباللّه الذات لا-الاسم، فالرب تعالى غاية آمال الخلق يدعونه عند الشدائد بأسمائه العظام، والأسماء طرق ومسالك توصل الخلق إلى اللّه في حوائجهم، والعقل يحكم بأن الوسيلة غير المقصود بالحاجة.

أو أن الغاية العلامة فالباري هو ذو العلامة، فأسماؤه علامات عليه.

ومن زعم أنه يعرف اللّه بحجاب الأسماء التي هي حجب بين اللّه وخلقه، ووسائل بها يتوسلون إليه، بأن زعم أنه تعالى عين تلك الأسماء أو الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وبأن زعم أن اللّه تعالى اتحد بهم أو الصفات الزائدة، فإنه حجب عن الوصول إلى حقيقة الذات الأحدية.

أو زعم أنه ذو صورة كما قالت المشبهة، أو بصورة عقلية زعم أنها كنه ذاته وصفاته تعالى، أو بمثال خيالي، أو جعل له مماثلا ومشابها من خلقه فهو مشرك، للزوم تركبه تعالى وكونه ذو أجزاء تعالى اللّه عن ذلك.

وجاء في الرواية الصحيحة الإعلائية عن ابن رئاب وعن غير واحد، عن

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۵۶

أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام قال: «من عبد اللّه بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه، فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته، فأولئك أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام حقاً».

وفي حديث آخر: «أولئك هم المؤمنون حقاً» «۱».

وجاء في الرواية عن إبراهيم بن عمر عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «إن اللّه تبارك وتعالى خلق اسما بالحروف غير منعوت، وباللفظ غير منطق، وبالشخص غير مجسد، وبالتشبيه غير موصوف، وباللون غير مصبوغ، منفي عنه الأقطار، مبعد عنه الحدود، محجوب

عنه حس كل متوهم، مستتر غير مستور، فجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء معا ليس منها واحد قبل الآخر، فأظهر منها ثلاثة أسماء لفاقة الخلق إليها، وحجب واحدا منها، وهو الاسم المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة التى أظهرت، فالظاهر هو اللَّه تبارك وتعالى، وسخر سبحانه لكل اسم من هذه الأسماء أربعة أركان، فذلك اثنا عشر ركنا، ثم خلق لكل ركن منها ثلاثين اسما فعلا منسوبا إليها فهو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، الخالق البارئ، المصور، الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، العليم، الخبير، السميع، البصير، الحكيم، العزيز، الجبار، المتكبر، العلى، العظيم، المقتدر، القادر، السلام، المؤمن، المهيمن «البارئ»، المنشئ، البديع، الرفيع، الجليل، الكريم، الرازق، المحيى، المميت، الباعث، الوارث. فهذه الأسماء وما كان من الأسماء الحسنى حتى تتم ثلاث مائة وستين اسما، فهى نسبة لهذه الأسماء الثلاثة وهذه الأسماء الثلاثة أركان، وحجب الاسم الواحد المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة وذلك قوله تعالى: «قل ادعوا اللَّه أو ادعوا الرحمن

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۵۷

أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى» «۱».

قال العلامة المجلسى بالمعنى: والمراد بالاسم كل ما يدل على ذاته وصفاته تعالى أعم من أن يكون اسما أو فعلا أو جملة، فاللَّه إشارة إلى كل الصفات لكونه موضوعا للذات المستجمعة لكل الصفات الكمالية، وتبارك إلى جميع الصفات الفعلية، وسبحان أو تعالى (على اختلاف النسخ كما فى الكافى) دال على الصفات التنزيهية وسلب النقائص، وهذه الأسماء جعلها ليظهر بها على الخلق، فالظاهر هو الاسم والظاهر به هو الرب سبحانه «۲».

وحكى المجلسى عن أبيه المجلسى الأول فى تفسير الرواية ما خلاصته: إن الاسم الأول هو الاسم الجامع الدال على الذات والصفات، ومعرفة الذات بالكنه محجوبة عن غيره تعالى، فصار الاسم الدال على الذات محجوبا عن الخلق وهو الاسم الأعظم، والدال على مجموع الاسم والصفات اسم أعظم باعتبار آخر، ويشبه أن يكون الاسم الجامع هو «اللَّه» والاسم الدال على الذات فقط هو «هو»، وتكون المحجوبية باعتبار عدم التعيين.

وقال المجلسى الثانى: أو أن الاسم كناية عن مخلوقاته تعالى، والاسم الأول الجامع كناية عن أول مخلوقاته، ثم عن تشعب المخلوقات وتعدد العوالم «۳».

وقد قيل فى سبب نزول قوله تعالى: «قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» «۴»

. إنه حين سمع المشركون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: يا اللَّه يا رحمن، فقالوا: إنه

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۵۸

ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إله آخر.

وقالت اليهود: إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثره اللَّه فى التوراة، فنزلت الآية ردا لما توهموه من التعدد أو عدم الإتيان بذكر الرحمن. وقوله صلى الله عليه و آله: وذلك قوله عز وجل: «قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ» استشهاد بأنه له تعالى أسماء حسنى، وأنه إنما خلقها ووضعها ليدعوه الخلق بها، فقال تعالى قل ادعوه تعالى باللَّه أو بالرحمن أو بغيرهما، فالمشار إليه بالأسماء شىء واحد وهو الرب سبحانه.

ومن الروايات فى الوسيلة ما يلى:

ما رواه جابر بن عبد اللَّه الأنصارى فى تفسير قوله تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ» «۱»

. قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أول ما خلق اللَّه نورى ابتدعه من نوره واشتقه من جلال عظمته، فأقبل يطوف بالقدرة حتى وصل إلى جلال العظمة فى ثمانين ألف سنة، ثم سجد للَّه تعظيما، ففتق منه نور على عليه السلام، فكان نورى محيطا بالعظمة، ونور

على محيطا بالقدرة، ثم خلق العرش واللوح والشمس وضوء النهار ونور الأبصار والعقل والمعرفة وأبصار العباد وأسماعهم وقلوبهم من نورى، ونورى مشتق من نوره، فنحن الأولون، ونحن الآخرون، ونحن السابقون، ونحن المسبحون، ونحن الشافعون، ونحن كلمة اللّه، ونحن خاصة اللّه، ونحن أحباء اللّه، ونحن وجه اللّه، ونحن جنب اللّه، ونحن يمين اللّه، ونحن أمناء اللّه، ونحن خزنة وحى اللّه وسدنة غيب اللّه، ونحن معدن التنزيل ومعنى التأويل، وفى أبياتنا هبط جبريل، ونحن محال قدس اللّه، ونحن مصابيح الحكمة، ونحن مفاتيح الرحمة، ونحن ينابيع النعمة، ونحن شرف الأمة، ونحن سادة الأئمة، ونحن نواميس العصر وأحبار الدهر، ونحن سادة العباد، ونحن

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۵۹

ساسة البلاد، ونحن الكفاة والولاة والحماة والسقاة والرعاة وطريق النجاة، ونحن السبيل والسلسبيل، ونحن النهج القويم والطريق المستقيم، من آمن بنا آمن باللّه، ومن رد علينا رد على اللّه، ومن شك فينا شك فى اللّه، ومن عرفنا عرف اللّه، ومن تولى عنا تولى عن اللّه، ومن أطاعنا أطاع اللّه، ونحن الوسيلة إلى اللّه والوصلة إلى رضوان اللّه، ولنا العصمة والخلافة والهداية، وفينا النبوة والولاية والإمامة، ونحن معدن الحكمة وباب الرحمة وشجرة العصمة، ونحن كلمة التقوى والمثل الأعلى والحجة العظمى والعروة الوثقى التى من تمسك بها نجا» «۱».

وروى فى بصائر الدرجات بسنده عن سلمان الفارسى عن أمير المؤمنين عليه السلام فى قول اللّه تبارك وتعالى: «قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» فقال: «أنا هو الذى عنده علم الكتاب» وقد صدقه اللّه وأعطاه الوسيلة فى الوصية، ولا يخلى أمته صلى الله عليه و آله من وسيلته إليه وإلى اللّه، فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «۲».

وروى الصدوق بإسناده عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «الأئمة من ولد الحسين، من أطاعهم فقد أطاع اللّه، ومن عصاهم فقد عصى اللّه، هم العروة الوثقى، وهم الوسيلة إلى اللّه عز وجل» «۳».

فوروى الحاكم الحسكانى فى شواهد التنزيل بسنده عن عكرمة فى قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ» قال: «هم النبى وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام»».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۶۰

تحقيق فى معنى الاسم فى القرآن ... ص: ۶۰

الاسم فى أصل وضع اللغة إما من الوسم وهو الأثر والعلامة.

والموسوم هو من عليه علامة.

ويقال قد سمت فيه الخير أى رأيت فيه أثر، أو من السمو وهو الارتفاع والعلو، يقال سما إليه بصرى أى ارتفع بصرى إليه.

ويقال سما به أى أعلاه.

ويقال سما لى شخص فلان، أى ارتفع حتى استبنته وسما إليه بصرى، إذا رفع لك شىء من البعيد فاستبنته قلت سما لى شىء.

قال ابن منظور فى لسان العرب: اسم الشى وسمه «بفتح السين وكسرها وضمها» وسماه علامته.

وقال الزجاج: معنى قولنا اسم، مشتق من السمو وهو الرفعة.

وقال الجواهرى: والاسم مشتق من سموت، لأنه تنويه ورفعة.

وإذا نسبت إلى الاسم قلت سموى «بكسر السين وفتح الميم» وسموى «بفتح السين وسكون الميم...»

وقال أبو العباس: الاسم رسم وسمة توضع على الشى فتعرف به.

وقال أبو إسحاق: إنما وضع الاسم تنويها بالدلالة على المعنى؛ لأن المعنى تحت الاسم.

وفی التهذیب: ومن قال إن اسما مأخوذ من وسمت فهو غلط.

وقال الجوهری: سمیت فلانا زیدا، وسمیته بزید بمعنی، وأسمیته مثله، فتسمی به.

وقال سیبویه: الأصل الباء؛ لأنه کقولک عرفته بهذه العلامهٔ ووضحته بها.

وسُئل أبو العباس عن الاسم أهو المسمی أو غیر المسمی، فقال: قال أبو عبیدهٔ:

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۶۱

الاسم هو المسمی.

وقال سیبویه: الاسم غیر المسمی «۱». انتهی

ویتحصل من ذلک:

إن الاسم هو الشی الدال علی مسمی علامهٔ علیه ودلالهً وتنویهاً، وأن السمو والوسم متقارب المعنی من حیث الدلالهٔ والبیان والعلامهٔ علی الشی.

وإذا اتضح ذلک تبین أن الأسماء الإلهیهٔ هی الآیات الدالهٔ علیه تعالی وعلی صفاته العلیا.

فالمخلوقات العظیمهٔ من جهه دلالتها علی عظمهٔ الباری وعظمهٔ صفاته هی آیات وعلامات، وبالتالی هی أسماء إلهیهٔ.

فکلما عظم خلقهٔ المخلوق دل علی عظمهٔ فعل وصفات الباری، فکان اسما أکبر وأعظم، ومن ذلک یظهر أن الکلمهٔ الملفوظهٔ بالصوت التی یتلفظ بها الإنسان الداعی هی مخلوقهٔ له، إنما صح إطلاق اسم اللَّه علیها بلحاظ دلالتها علی المعنی، والمعنی فی الذهن أیضا مخلوق للنفس الإنسانیهٔ، وهو بدوره دال علی الصفات أو الذات الإلهیهٔ، ولکن أین دلالهٔ الصوت الملفوظ عن المعنی فی الذهن من دلالهٔ المخلوق الموجود فی الخارج، فإن دلالهٔ المخلوقات العظیمهٔ تکوینیهٔ بینما دلالهٔ الصوت الملفوظ اعتباریهٔ أدبیهٔ، فصدق الأسماء الإلهیهٔ علی الآیات الخلقیهٔ صدق حقیقی، بینما صدقها علی الأصوات الملفوظهٔ مجاز عقلی، وأین هذا من ذاک «۲».

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۶۲

ومن هنا یتبین معنی الآیهٔ الکریمهٔ: «وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَی» أی الآیات العظمی «فَادْعُوهُ بِهَا» أی فتوجهوا بها إلیه تعالی، وأن معنی قوله تعالی: «وَذَرُواْ الَّذِینَ یُلْحِدُونَ فِی أَسْمَآئِهِ» «۱»

یتطابق مع قوله تعالی: «انَّ الَّذِینَ کَذَّبُواْ بِآیَاتِنَا وَاسْتَکْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء» «۲»

وکلیهما فی سورهٔ الأعراف.

ومنه یتنبه إلی الإشارهٔ فی قوله تعالی: «وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء کُلَّهَا» «۳»

فإن أحد الأقوال فی تفسیر الأسماء هی الأسماء الإلهیهٔ، أی الأسماء الإلهیهٔ کلها، وعلی ذلک یکون قد أطلقت علی مخلوقات عظیمهٔ أعظم من الملائکهٔ ومن آدم علیه السلام، حیث قال تعالی: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَی الْمَلَائِکَهِٔ فَقَالَ أَنبِئُونِی بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن کُنتُمْ صَادِقِینَ» «۴» .فاستعمل ضمیر الجمع للعاقل الشاعر الحی، وکذلک اسم الإشارهٔ للشاعر الحی العاقل «هؤلاء»، مما یدلل علی أن هذه المخلوقات العظیمهٔ حیهٔ شاعرهٔ عاقلهٔ لم تکن الملائکهٔ تحیط بها خبرا ولا علما، حیث «قَالُواْ سُبْحَانَکَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّکَ أَنتَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ» «۵».

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۶۳

وإلی ذلک الإشارهٔ فی قول الإمام الصادق علیه السلام فی الروایات السابقهٔ.

فیتضح أن المخلوقات العظیمهٔ التی لها مقام الزلفی والقرب الإلهی هی أسماؤه تعالی، أسماء وآیات دالهٔ علیه تعالی من حیث إنها آیات وکلمات، ومن ثم أطلق علی عیسی علیه السلام کلمته، وأطلق علیه وجیها فقال تعالی: «اذْ قَالَتِ الْمَلآئِکَهُٔ یَا مَرْیَمُ إِنَّ اللّهَ یُبَشِّرُکِ بِکَلِمَهٍٔ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ وَجِیهًا فِی الدُّنْیَا وَالآخرهٔ وَمِنَ الْمُقَرَّبِینَ» «۱».

وكـذلك موسـى عليه السـلام. قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» «۲».

هذا فضلا عن سيد الأنبياء وأوصيائه الطاهرين عليهم السلام.

ولا بـد أن يتنبه إلى ضـرورة الأسـماء الإلهيـة فى باب المعرفـة بالـذات الإلهيـة وباب التوجه إلى الحضـرة الإلهية، فإن الطلب للمجهول المطلق ممتنعٌ، وإدراك المبهم المتوغل فى الإبهام من كل جهـة محال، وهـذا حال المخلوق مع كنه الـذات الإلهيـة، فلا بد من علامة يهتدى بها إلى الذات الإلهية، وتلك العلامة هى الاسم والأسماء والآيات.

فلولا دلالة الأسماء على المسمى لامتنع الطريق إليه تعالى، وللزم التعطيل فى المعرفة.

ومن ذلك تبين أن الأسماء التى هى الآيات المخلوقة هى الوسيلة إلى معرفته تعالى.

ومن ثم لو أعملنا دقة التحليل فى ألفاظ قوله تعالى: «وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۶۴

فَادْعُوهُ بِهَا» عن المدعو هو اللَّه تعالى، والأسـماء هى الوسـيلة للدعاء والتوجه والقصد إليه تعالى، وأن الإلحاد عن الأسـماء يمنع التوجه إلى الـذات الإلهيـة، وأن حقيقـة الأسـماء هى الآيات العظيمة فى الخلقة الإلهية لا للأصوات الملفوظة والرسوم المنقوشة المكتوبة التى هى نماذج اعتبارية لا تكوينية للأسماء.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۶۵

الوجه السادس: ابتغاء الوسيلة ... ص: ۶۵

إن التوجه إلى اللَّه تعالى يجب أن يكون بشى وهو الوسيلة، ولا يتوجه إليه تعالى بدون وسيلة ووصلة، وهذا هو القاعدة التى ذكرناها.

قال اللَّه تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «۱».

وقـوله تعـالى: «أُولَئِـكَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ يَبْتَغُـونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِـيلَةَ أَيُّهُمْ أقرب وَيَرْجُـونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَـافُونَ عَـذَابَهُ إِنَّ عَـذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا» «۲».

ذكرنـا أن معنى الوسـيلة هو مـا يتوسـل به ويتوجه به، أو مـا يجعل وصـلة للوصول إلى شـيء، وذلك الشـى هو بمثابـة الغايـة المطلوبة بالأصـل، ومن الجـدير بالـذكر أن الآيات السابقـة لا تعبر بلفظ «ابتغوه» وإنما تعبر بلفظ «وَابْتَغُواْ إِلَيهِ» مما يـدلل على أن التوجه إلى اللَّه تعالى يجب أن يكون بشى وهو الوسيلة، ولا يتوجه إليه تعالى بدون وسيلة ووصلة، وهذا هو القاعدة التى ذكرناها.

ومن ثم فـإن القول بـأن الأعمال الصالحـة والقربيـة هى الوسـيلة لا ينافى القول أن هـذه الوسـيلة تحتاج إلى وسـيلة أخرى من أجل أن تصعد وتتأهل للصحة والقبول

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۶۶

الإلهى، فإن الأعمال الصالحة لا تقبل إلا بالولاية مما يدلل على أن لهذه الأعمال الصالحة وسيلة وهى ولاية أهل البيت عليهم السلام، فهى وسيلة فى وسيلة، وسيأتى ما يتعلق بهذا الوجه.

وبيان مفاد الآية بنحو أوضح أن لفظة فعل الأمر «وَابْتَغُواْ» متعلق أولًا وبالذات بلفظة الوسـيلة كمفعول به، أى أن الذى يبتغى ويقصد هو الوسيلة، ولفظة «إِلَيهِ» متعلق ثانٍ، وهو لأجل الوصول إليه تعالى.

فمفاد الآية أن القصد والابتغاء يتوجه أولًا إلى الوسيلة وبها يحصل التوجه إلى اللَّه تعالى.

هذا فضـلا عما لو جعلنا الجار والمجرور متعلق بلفظ الوسـيلة، فيكون الابتغاء متعلق بنحو التمحض بلفظ الوسـيلة، وعلى كلا التقديرين فالقصد متوجه ابتداءً إلى الوسيلة، وعبرها يتم التوجه والوصول إلى اللَّه تعالى.

وهـذه الآيـة نص فى أن هناك مسافة وبعداً بين العباد والرب من طرف العباد اتجاه الرب تعالى، وإن كان الرب تعالى قريب من العباد من جهته هو إليهم علما وسيطرة واستيلاء؛ لأنه لو لم تكن مسافة وبعدٌ من العباد اتجاه الرب من جهتهم إليه تعالى لما كان معنى لطلب الوسيلة ولوجودها بينه وبين خلقه، ولكان الأمر بطلبها منه تعالى لغوا، وهو خارج عن الحكمة الإلهية.

ويستفاد من الآيـة الكريمـة أن الوصول إليه تعالى ولقاءه منحصرٌ طريقه وسبيله بالوسيلة ولا يتم بدونها؛ وذلك لأن الآية تقرر وجود البعـد والمسافـة بين الخلق والخـالق من جهـة الخلق، وذلك بسـبب نقصـهم فى الكمالات عن الكمال الإلهى، فالبعـد ذاتىٌ بينهم وبين الخالق ولا يُطوى من قبل ذاتهم، بل لا بد من أمر آخر خارج عنهم وهو الوسيلة.

كمـا أن الآيـة الثانيـة تبين وتبرهن أن المنـاط فى كون الشـى وسـيلة يـدور مـدار قربه إلى اللَّه تعالى، فكلما كان أقرب كان مقامه فى الوسيلة أعلى وأنفذ.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۶۷

كما أن آيـة الإسـراء تـدلل على أن الغايـة من الوسـيلة هى لأجل القرب منه تعالى، وبالتالى تقررُ وجود البعد بين الخلق واللَّه من جهة الخلق إليه تعالى، ولأجل هذا البعد فلا بد فى طيه من التوسل بالوسيلة والتوجه إليها وقصدها؛ لأن دور الوسيلة الوساطة والتقريب، ومن ثم يكون أقرب الخلق إلى اللَّه هو أعظمهم وسيلة، ويكون صاحب الشفاعة الكبرى، ويكون هو الرحمة الإلهية القصوى.

ولا ريب بضـرورة القرآن والـدين أن أقرب الخلق إلى اللَّه هو سـيد الأنبياء، ومن ثمَّ خُص بالشـفاعة الكبرى، وكان أقربهم وسـيلة إلى اللَّه، ووصفه البارى بأنه رحمة للعالمين، وخَلع عليه من خاصة أسمائه الإلهية وهو الرءوف الرحيم.

وقد قرن اللَّه تعالى بنبيه صلى الله عليه و آله فى جملة من المقامات أهلَ بيته الأطهار عليهم السلام، وجعل الوسيلة إلى القرب من نبيه؟ مسايرةَ أهل بيته عليهم السلام فقال تعالى: «قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى» «۱».

فجعل الوصـلة إلى نبيه صلى الله عليه و آله والباب إليه مودة قرباه، وعظَّم من تلك المودة فجعلها كفوا لجميع الرسالة، تنبيهاً على أنهم الباب الأعظم إلى الرسول صـلى الله عليه و آله والرسالـة والدين والديانة، ثم قال فى سورة أخرى: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىٍ شَهِيدٌ» «۲».

فبين أن نفع مودة قربى النبى صـلى الله عليه و آله عائد للخلق والعباد أنفسـهم؛ لأنهم وسـيلةٌ لهم إلى اللَّه ورسوله صـلى الله عليه و آله، فقال فى سورة أخرى: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» «۳».

فكانوا هم السبيل الأعظم إليه والمسلك إلى رضوانه، فنصت مجموع هذه

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۶۸

الآيات على كونهم الوسيلة والسبيل إلى اللَّه ورسوله صلى الله عليه و آله، وربطت بين كونهم وسيلة وسبيلًا وبين دور ومقام النبى صلى الله عليه و آله، فجعلت مودتهم التى هى سبيل ووسيلة أجراً لجُهد النبى صلى الله عليه و آله فى تبليغ الرسالة، وقد بينت الصديقة فاطمة عليهـا السـلام جملـة هـذه البيانات القرآنيـة من بعـد الخلق عن اللَّه من جهتهم إليه لا من جهته إليهم، واحتياجهم بالتالى إلى الوسـيلة، ودورها فى معرفة التوحيد، وأن تلك الوسـيلة هم النبى وأهل بيته عليهم السلام، كل ذلك فى قولها عليها السلام: «واحمدوا اللَّه الذى لعظمته ونوره يبتغى من فى السموات والأرض إليه الوسيلة ونحن وسيلته فى خلقه».

ويشير إلى هذا المعنى من كونهم عليهم السلام الوسيلة العظمى إلى اللَّه تعالى- أى النبى وأهل بيته عليهم السلام؛ لأن مصطلح القرآن فى عنوان أهل البيت كما فى آية التطهير المراد به النبى وقرباه المطهرين من المعاصـى- ما ورد فى العديد من الزيارات كما فيما رواه ابن قولويه فى كامل الزيارات: «من زار الحسين عارفا بحقه كان كمن زار اللَّه فى عرشه».

كما ورد فى قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا» «۱»

فجعل اللَّه تعالى الاسـتجارة بنبيه صـلى الله عليه و آله وفودا عليه للتوبـة ومجيئا إليه، ونظيره قوله تعالى: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ

رَمَى» «۲»

كما جعل المجى إلى المسجد زيارة إليه تعالى، فكيف بمن جعل اللّه مودتهم سبيلا إليه، وأنها العدل الأعظم لرسالته، ومن باهل به اللّه وجعله حجة من حججه مطهرا، وحججه هى آياته التى يصدق بها، وآياته هى أبواب سمائه ومفاتيح رحمته، كما فى سورة الأعراف التى سبقت.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۶۹

الوجه السابع: وجه الشفاعة ... ص: ۶۹

اشارة

فوجود الأبواب بين المخلوق من جهته إلى الخالق عقيدة قرآنية أصيلة ومعتقد إسلامى أصيل، والتنكر له جحود لعقيدة ركن فى نظام السنة الإلهية.

نبدأ البحث باستعراض آيات الشفاعة، وقد وردت آيات الشفاعة فى القرآن على طوائف عديدة، ومن المهم تصنيفها إلى أصناف تمهيدا لإيضاح رؤية القرآن فيها:

طوائف الآيات ... ص: ۶۹

الطائفة الأولى: آيات نفى الشفاعة ... ص: ۶۹

قال اللّه تعالى: «فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» «۱».

وقال تعالى: «وَاتَّقُواْ يَوْماً لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» «۲».

الطائفة الثانية: آيات نفى الشفعاء ... ص: ۶۹

قال تعالى: «وانذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۷۰

وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» «۱».

وقال: «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وأن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ» «۲»

.وقال: «فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ» «۳».

«وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ» «۴».

الطائفة الثالثة: آيات تحقق الشفاعة مع الإذن الإلهى ... ص: ۷۰

«انَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» «۵».

«وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» «۶».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۷۱

«يَوْمَئِذٍ لَّاتَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِیَ لَهُ قَوْلًا» «۱».

«اللّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَمَا فِی الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِی يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَیْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» «۲».

الطائفة الرابعة: آيات تحقق الشفاعة من قبل المرضى قولا وفعلا ... ص: ۷۱

«لَايَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» «۳».

«يَوْمَئِذٍ لَّاتَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِیَ لَهُ قَوْلًا» «۴».

«وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» «۵».

الطائفة الخامسة: آيات تحقق الشفاعة فی صالح من كان مرضيا ... ص: ۷۲

«يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ» «۶».

والنتيجة على ضوء الجمع بين مفاهيم الطوائف القرآنية السابقة كما يلی:

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۷۲

(۱) استحالة الشفاعة الاستقلالية عن اللَّه من قبل أی مخلوق لآخر.

(۲) بطلان توهم الشفعاء المزعومين من قبل البشر.

(۳) صحة الشفاعة مع صدور الإذن الإلهی بها، والمراد به الإذن التكوينی الذی يعنی إقدار اللَّه لهم على الشفاعة.

(۴) احتياج الشفيع إلى شرائط روحانية وملكوتية استثنائية تؤهله للشفاعة.

(۵) ضرورة توفر المشفوع له على العقائد الصحيحة التی تجعله جديرا باستيعاب الشفاعة له.

الطائفة السادسة: آيات ضرورة تحقق الشفاعة ... ص: ۷۲

الآية الأولى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا» «۱».

الآية الثانية: «وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِی قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ»».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۷۳

بحوث الآية الأولى ... ص: ۷۳

اشارة

قال اللَّه تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا» «۱».

القاعدة الأولى: التوسل شرط فى صحة التوبة ... ص: ۷۳

اشارة

وهـذه الآيـة من المحكمات ذات المفاد الـدائم، ولاسـيما وأن للتوبة أكبر علاقة ورابطة بين العبد وربه، والتوبة مأخوذة من الأوبة وهى الرجوع إلى اللَّه تعالى.

وتبين الآية الأولى أن لتوبته تعالى على البشر شرائط وهى كسنة دائمة أبدية، وأول تلك الشرائط ومبدؤها- أى التى يراعى فى البدء- هو التوجه إلى النبى صلى الله عليه و آله وقصد الحضرة النبوية، وهذا نحو توسل بالنبى صلى الله عليه و آله وتوجه به إلى اللَّه تعالى.

وثانيها استغفار المذنب وهو ندمه وتوبته ورجوعه.

وثالثها اسـتغفار الرسول صـلى الله عليه و آله، أى أن اسـتغفار مذنبى الأمة وتوجههم بالنبى صـلى الله عليه و آله وهما الشرطان الأولان ليسا كافيين فى حصول توبة اللَّه ما لم يتوسط الرسول صلى الله عليه و آله ويتشفع فى نجح سؤال المستغفرين.

وقـد جعـل توسـط الرسول صـلى الله عليه و آله فى نهايـة المطاف للتـدليل على أن ترتب الجزاء وهى التوبـة الإلهيـة إنما يتحقق عقب الدور النبوى فى الشفاعة لجميع الأمة، فى جميع ما تسأل الأمة من ربها.

ويرتسم لنـا من ذلك أن هـذا ليس مخصوصاً بباب التوبـة والاسـتغفار من الـذنوب الـذى هو أعظم حاجيات المخلوقين، بل هو شامل لكل سؤالٍ ودعاءٍ وطلب من الحضرة الربوبية، بل إن حقيقة التوبة هى من الأوب وهو الرجوع

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۷۴

والوفود على الحضرة الإلهية والتوجه إليها وقصدها.

فالبحث فى التوبة فى الحقيقة بحث فى مطلق الزلفى والتقرب والتوجه للحضرة الإلهية.

وقد أُطلق على نوافل صلاة الظهر اسم صلاة الأوابين، لما فيها من الأوبة الخاصة.

فالتوبـة فى الحقيقـة ليست عملاـ منحـازا ومنفصـلا عن حقيقـة العبادات، إذ كل باب من العبادات نوع من الأوبـة إلى اللَّه تعالى، فكل عبادة تصب فى نفس مضمار الاستغفار.

وعلى ذلك فالآية تدل على لزوم شرطين آخرين يجب أن ينضما إلى العبادات:

الأول: هو المجى إلى رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله والوفود على الحضـرة النبوية، بعد كون الآية غير مخصوصة بزمان الحياة الشريفة للنبى صلى الله عليه و آله إذ هى تتعرض لأمر أبدى ولأعظم أمر يخص العبد فى العلاقة بينه وبين اللَّه، فمؤداها سنة إلهية أبدية تشترط فى التوبة المجى للنبى صلى الله عليه و آله.

الثانى: استغفار الرسول صلى الله عليه و آله.

وبصـراحة مرة ننبه على أن الفقهاء أغفلوا فى كتبهم الفقهية وكتبهم الكلامية الشـرط الأول، وإن نبه بعضـهم على أن من شـرائط التوبة الإيمان بولاية النبى وأهل بيته عليهم السـلام، لكنهم أغفلوا هذا الشـرط وهو اللجوء والالتجاء واللواذ بحضرة النبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

وبعبارة أخرى: إن الآية تضيف فى شرائط التوبة- علاوة على أصل الإيمان بالنبى وأهل بيته عليهم السلام- اشتراط التوسل بالنبى صلى الله عليه و آله، فلفظ الآية فى الشرط الأول يعنى اللجوء إلى الحضرة النبوية واللواذ به والاستعاذة والالتجاء، وهو عين التوسل

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۷۵

والتوجه بالنبى صلى الله عليه و آله.

وقد أفتى فقهاء الإمامية وعلماؤهم فى صلاة الفريضة والنافلة باستحباب دعاء التوجه قبل تكبيرة الإحرام بل بعدها أيضا، وهو: «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض، وما أنا من المشركين على ملة إبراهيم ودين محمد وهدى على أو منهاج على» والدعاء الآخر: «باللَّه أستنجح وباللَّه أستفتح، وبمحمد الرسول وآله أتوجه».

مناقشة مع الفخر الرازى ... ص: ۷۵

قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير:

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: أليس لو استغفروا اللَّه وتابوا على وجه صحيح لكانت توبتُهم مقبولة؟ فما الفائدة فى ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم؟

قلنا: الجواب عنه من وجوه

الأول: إن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم اللَّه، وكان أيضا إساءة إلى الرسول صلى الله عليه و آله وإدخالا للغم فى قلبه، ومن كان ذنبه كذلك؛ وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره، فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم.

الثانى: إن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول ظهر منهم ذلك التمرد، فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد، وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه و آله ويطلبوا منه الاستغفار.

الثالث: لعلهم إذا تابوا بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل، فإذا انضم إليها استغفار الرسول صارت مستحقة للقبول واللَّه أعلم «۱». انتهى

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۷۶

أقول: وكل ما ذكره من الوجوه فيه نظر

أما الأول: وفيه مع عدم خصوصية المورد؛ لأن المورد لا يخصص الوارد بل يفسره، إن تفسيره لشرطية استغفار الرسول صلى الله عليه و آله لا ـ ينطبق على تجاوزهم لحق الرسول؛ لأن اللازم أن يكون التعبير حينئذ «وغفر لهم الرسول»، بخلاف التعبير الذى هو من باب الاستفعال؛ فإنه وساطة وتشفع عند اللَّه، والاستغفار هو طلب الرسول صلى الله عليه و آله من اللَّه أن يغفر لهم اللَّه عن حق له تعالى.

وأما الثانى: وفيه أن رجوعهم عن غير تمرد، إنما يكون بالطاعة والانقياد على حسب زعمه، بينما مفاد الآية العام شرطية استغفار الرسول لهم، لا ـ مجرد طلبهم من الرسول صلى الله عليه و آله أن يستغفر لهم، مع أن استغفار الرسول متعلق بما هو حق اللَّه، بينما تمردهم على طاعة الرسول هو بالخضوع له لا الحصر بطلب أن يستغفر لهم.

وأما الثالث: وفيه أن هذا اعتراف بأن توبتهم من دون شفاعة النبى صلى الله عليه و آله مخدوشة وناقصة ومختلة، وهذا هو كر على ما فر منه وتنكر له، مما يبين صراحة الآية فى الشرطية العامة للتوبة من عموم الذنوب، ولو كان الخلل فى توبتهم من جهة فعل هم يقومون به، فكيف يقوم فعل من غيرهم مقام فعلهم؟ مع أن ظاهر الآية تمامية الاستغفار كفعل لهم، وإنما التأكيد على ضرورة ضميمة شفاعة النبى صلى الله عليه و آله لذلك وضميمة الالتجاء والاستشفاع بالنبى صلى الله عليه و آله، ويقرر عموم مفاد الآية «۱».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۷۷

القاعدة الثانية: شرطا الإيمان والعبادة ... ص: ۷۷

اشارة

قد مر في الوجه الثاني أن نبهنا أن آية سورة الأعراف الآتية وغيرها من الآيات التي مرت في الوجوه السابقة دالة على أن التوسل أو التوجه أو التشفع بهم عليهم السلام شرط في حتمية الإيمان باللّه ورسوله وبإمامتهم، فلا يكفي الإيمان بولاية اللّه ورسوله وأولي الأمر من أهل بيته عليهم السلام من دون اللجوء إليهم.

فالمصلي في الصلاة إلى اللّه يتوجه بالنبي صلى الله عليه و آله، ولا يقتصر على الإيمان بالنبي

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۷۸

وأهل بيته عليهم السلام، فما بحثه فقهاء وعلماء الإمامية من أن ولاية أهل البيت عليهم السلام شرط في صحة العبادات، أو شرط في قبولها لا يفي بتمام البحث، إذ كما تلاحظ أن الآية الكريمة تضيف شرطا آخر في صحة العبادة أو قبولها وهو التوجه بهم والتوسل بهم كعمل قلبي قصدي، وهذا الشرط قد دل عليه أيضا قوله تعالى: «انَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ» «۱».

حيث لم تكتف الآية بمانعية التكذيب في صعود الأعمال والدعاء والعبادة والعقيدة، بل جعلت المانع أيضا الاستكبار على الآيات في مقابل الالتجاء إليها والتوجه بها، نظير التعبير الذي ورد في قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ» «۲».

فالاستكبار على الآيات في مقابل الالتجاء والتوجه بها.

وقد استعمل هذا التعبير أيضا في استكبار إبليس عن التوجه بآدم والتوسل به للوصول إلى اللّه تعالى.

فجملة هذه الآيات وغيرها تشترط هذا الشرط زيادة على أصل الإيمان والتصديق بآيات اللّه وحججه وهم النبي وأهل بيته عليهم السلام.

ومن ثم جاء التعبير فيها كشرط أول «جاؤوك» «۳»

، ولم يجعل الشرط الأول الندامة أو الاستغفار أو البكاء، كما لم يجعل الشرط مجرد الإيمان بالنبي وبولاية

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۷۹

أهل بيته عليهم السلام، بل جعلت أول شيٍ يفعله المذنبون هو الالتجاء العملي للحضرة النبوية.

وهذا التعبير بالمجي في الاستعمال العرفي يعني الأمر بالاستجارة بالنبي صلى الله عليه و آله والاستنجاد بحضرته وحماه الذي هو حمى رحمة اللّه تعالى، فيفر مذنبو الأمة من غضب اللّه إلى رحمة اللّه تعالى، فالأمر بالمجي إليه صلى الله عليه و آله نص بحسب الاستعمال العرفي كناية عن الاستجارة، وهي نمط من الاستغاثة نظير ما في قوله تعالى: «وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ» «۱».

فتشترط الآية قبل استغفارهم وندامتهم أي قبل الإتيان بالعبادة- لا خصوص التوبة- أن يلتجئوا إلى النبي وأهل بيته عليهم السلام بالترامي في حضرتهم وتعاليمهم ووصاياهم.

ولا بد أن نتعرف في زمننا هذا من هو الذي يجسد امتداد النبي صلى الله عليه و آله؟ ومن هو الذي بالالتجاء إليه يتحقق الالتجاء بالنبي صلى الله عليه و آله؟ ومن الذي يحل محله في هذا الركن؟ وهو بقية اللّه في الأرضيين الإمام المهدي (عج).

الانتماء الصادق لأهل البيت عليهم السلام ... ص: ۸۰

ثم إنه لا يظن إن المجي إلى الحضرة النبوية وأهل بيته عليهم السلام وللمهدي بقية اللّه في الأرضيين هو المجي الفيزيائي بالبدن، كما

ليس المراد من التوسل بهم هو التوسل بمجرد لفظ دعاء التوسل.

بل المراد من المجى إليهم هو الترامى فى مسار أهل البيت عليهم السلام بكله، والانتماء إليهم مقدما على أى انتماء سواء انتماء المواطنة، فإن المواطنة الأولى هى لأهل

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۸۰

البيت عليهم السلام، أو الانتماء الوظيفى فإن الانتماء الوظيفى الأول هو لهم، أو الانتماء الأسرى أو العشائرى، فكل ذلك لهم أيضا، أو الحزبى والتنظيمى، فإن الانتماء الأول إلى نظام طائفة أتباعهم، فلا بد من تشديد الانتماء لهم ولمناهجهم والتشبع بهديهم وتعاليمهم، وأن يكون هوانا وعوننا ونصرنا لهم، والذوبان فيهم بفكرنا وعملنا وتخطيطنا وممارساتنا، ولابد من الهجرة لهم فى فكرنا، والهجرة لهم فى سلوكنا، وفى منهاجنا وفى ولائنا السياسى والاجتماعى والتشريعى القانونى، ولا يكفى أن نؤمن بهم ونحن لا نلتجئ ولا نتوجه إليهم، ونحن جافون قاطعون مبتعدون عنهم، جاعلون ولاءنا ومودتنا فى من يباينهم، فهم كهف يؤوى إليه فى كل شىء، وباب الرحمة، وموضع العبادة والتقرب.

وقد جُعل هذا التوجه والالتجاء إلى الحضرة النبوية ملجأ يحتمى به من الغضب الإلهى، وعن النقمة الإلهية، وعاصم يعصم من السخط الإلهى.

فالكينونة فى تلك الحضرة والروضة بأبعادها المختلفة أمان عاصم وشفيع مشفع، وإلا فالندامة وحدها والاستغفار وإرادة التوجه المباشر للحضرة الإلهية لا يعصم من سطوته تعالى وعقابه بنص الآية.

فالمجى إلى النبى صلى الله عليه و آله التجاء واستعاذة ولواذ به، كما أشار اللَّه تعالى فى قوله:

«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» «۱».

فمن عجيب الأمر أن يأمر اللَّه تعالى بذلك، بالتمسك بسيد الأنبياء وباللواذ بحضرته صلى الله عليه و آله بينما تلك الجماعة تحادد اللَّه جهارا، وتنهى عن اللواذ بنبيه وأهل بيته عليهم السلام، وتنهى عن الاستغاثة به.

فينهون عن قول «يا محمد يا على» ويسمون هذا التوحيد الجلى فى الآية

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۸۱

الكريمة بالشرك، فهم يحكمون بالشرك بذلك على الملائكة بسجودهم لآدم، ويحكمون بالتوحيد على إبليس، ويجعلون منه الرائد القدوة الذى يتبع فى خطواته.

ثم إن الآية تشترط علاوة على ذلك تشفع النبى صلى الله عليه و آله، وتدلل بذلك على مقام عظيم لسيد الأنبياء من أن جميع عبادة العباد لا تقبل فى الحضرة الإلهية إلا بتشفع النبى صلى الله عليه و آله لقبولها من قبل اللَّه تعالى.

فجميع أعمال العباد- عباداتهم وقصدهم وقرباتهم وتوجههم إلى الحضرة الإلهية- لابد لها من وساطة النبى صلى الله عليه و آله لقبولها فى الحضرة الإلهية.

فلو أهلك عابد نفسه، وعمر ما عمر نوح فى قومه صائما نهاره قائما ليله وصلى بين الركن والمقام لما قبلت عباداته من دون شفاعة سيد الأنبياء صلى الله عليه و آله «۱».

هذا بعد توفر عبادته على الشرط الأول وهو التوجه بالنبى وأهل بيته عليهم السلام.

ولا يخفى الصلة الوثيقة بين هذا المقام وبين ما أثبتته جملة من الآيات فى النبى وأهل بيته عليهم السلام من الشهادة على الأعمال كما فى قوله تعالى: «وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۸۲

وقوله تعالى مخاطباً أهل البيت عليهم السلام: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ

الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِی هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ» «۱»

، وغيرها من الآيات.

فإن مقام شهادتهم لأعمال العباد هو لرعايتهم لتلك الأعمال حتى يتشفعوا لقبولها فی الحضرة الإلهية، فهی لا تأخذ طريق الكمال والبقاء الأبدی من الفيض الإلهی إلا بواسطة النبی وأهل بيته عليهم السلام لمجری هذا الفيض.

كيف لا والنبی وأهل بيته عليهم السلام يتشفعون للأنبياء فی حصولهم على النبوة والكتاب والحكمة وسائر المقامات الغيبية، كما يأتی فی قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِی قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ» «۲».

نزول الفيض الإلهی متوقف على شروط ثلاثة ... ص: ۸۲

إن الشرائط المزبورة فی الآية ليست شرائط فی خصوص التوبة، بل هی شرائط فی عموم العبادة الإلهية بما يشمل العبادة العلمية وهی المعرفة العقلية والقلبية، فحصول الإجابة والفيض الإلهی المعرفی والكمالی مشترطة بالشروط الثلاثة المتقدمة.

وهذه الآية تبين سنة قرآنية عظيمة وشرعية فی كيفية ناموس الدعاء والطلب من الحضرة الإلهية، وهی أنه ينبغی تقديم التوجه إلى الحضرة النبوية على الدعاء

الامامة الالهية(۵)، ج‌۵، ص: ۸۳

والطلب، أو قل يلزم فی ماهية الدعاء تقديم التوجه إلى الحضرة النبوية عليه.

ثم لابد أن يضاف إلى الدعاء مطالبة النبی صلى الله عليه و آله وحمله لذلك الطلب والذهاب به إلى الحضرة الإلهية.

فالآية بيان واضح لسنة إلهية دائمة هی لزوم تشفع النبی صلى الله عليه و آله إلى الرب فی قضاء جميع حوائج الخلق، فالتوسل به صلى الله عليه و آله مقدم على الدعاء من الحضرة الإلهية، ثم يتعقبه الدعاء من الحضرة الإلهية، ثم ذلك يهيئ الأرضية إلى شفاعة النبی صلى الله عليه و آله وتشفعه.

فتبين من ذلك أن الشفاعة ملزومة للتوسل، وأن ما دل على ضرورة الشفاعة دال على ضرورة التوسل، وضرورة اقترانهما بدءاً وختماً للدعاء من الحضرة الإلهية.

ويعاضد الآية السابقة فی نفس المفاد قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ» «۱».

فهذه الآية متطابقة مع مفاد الآية السابقة فی أطراف مفادها وعناصر مكوناته والخصائص المشار إليها، فها هی تبين أن الخطوة الأولى للمذنبين ولصراط الأوابين إليه تعالى هی أن يتوجهوا إلى الحضرة النبوية، وهذا يتطابق مع الشرط الأول فی الآية السابقة مفادًا ورتبة، وهذا الشرط مفادا وتقدما لا يختص بالتوبة من الذنوب، بل هو قوام ودعامة أساسية فی كل أوبة ورجوع وتوجه إلى الحضرة الإلهية، وأن طريق السلوك إليها هو بالتوجه إلى بابها وهی الحضرة النبوية.

كما أن الآية تدل على أن شرط حصول التوبة والأوبة إلى اللَّه تعالى هو باستغفار الرسول صلى الله عليه و آله وتشفعه فی ذلك، وأما استغفار المذنبين فكأنه شرط مطوی

الامامة الالهية(۵)، ج‌۵، ص: ۸۴

مدلول عليه بإرادة المذنبين للأوبة إلى الحضرة الإلهية.

مضافًا إلى أن الآية تتعرض إلى بيان حقيقة وحكم المنكرين للتوسل بالنبی صلى الله عليه و آله والتوجه به إلى اللَّه تعالى والاستشفاع به، وهی أنهم مستكبرون- كحكم إبليس عندما أعرض وأبی عن التوجه بآدم عليه السلام فی عبادته إلى اللَّه أنه استكبر وكان من

الكافرين- وأن هؤلاء صادون عن سبيل اللَّه تعالى، وينطبق عليهم قوله تعالى:

«وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» «۱».

لأنهم أعرضوا عن باب اللَّه الأعظم، وآيته الكبرى، واسمه العظيم الدال على عظمة الذات الإلهية.

فالصادون عن حجج اللَّه تعالى المصطفين مكذبون بهذه الآيات الكبرى، ومستكبرون عليها، وملحدون عنها إلى صراط الغوى.

وبالتالى فالآيـة الكريمة تشير إلى انحصار الطريق إليه تعالى بالتوسل بالنبى صلى الله عليه و آله والتوجه به إلى اللَّه؛ وذلك لأنها كما تشترط طريق الأوبـة والرجوع إلى اللَّه بالتوسـل والتوجه بالنبى صلى الله عليه و آله وقيامه بـدور الشـفاعة، كـذلك تبين حكم الطرف المقابل والحالة المقابلة، بأنه طريق غواية وصد عن سبيل اللَّه واستكبار على آياته.

التوجه بهم ناموس وسنّة إلهية ... ص: ۸۴

فتأكـد بـذلك دلالـة الحصـر عن طريق التقسيم القاطع للشـركة، وبيان المنطوق مع التصـريح بالمفهوم، فتشـير بذلك إلى مفاد الدليل العقلى السابق الدال على حصر الطريق إلى اللَّه بآياته تعالى.

وقد ورد فى الأحاديث الصحاح عن أهل البيت عليهم السلام ما يدل على هذا الناموس

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۸۵

فى السنن الإلهية فى الدعاء ومنها:

صحيح صـفوان الجمـال عن أبى عبـد اللَّه عليه السـلام قال: «كل دعاء يـدعى اللَّه عز وجل به محجوب عن السـماء حتى يصـلى على محمد وآل محمد» «۱».

صحيح هشام بن سالم عن أبى عبد اللَّه عليه السلام قال: «لا يزال الدعاء محجوبا حتى يصلى على محمد وآل محمد» «۲».

معتبرة السـكونى عن أبى عبـد اللَّه عليه السـلام قال: «من دعا ولم يـذكر النبى صـلى الله عليه و آله رفرف الـدعاء على رأسه، فإذا ذكر النبى صلى الله عليه و آله رفع الدعاء» «۳».

وغيرها من الروايات فى نفس الباب.

ومضـامين هـذه الروايـات متطـابق مع الآيـة الكريمـة فى لزوم التوسل بالنبى وآله صـلى الله عليه و آله لأجل حصول النيل الإلهى، وأن التوسل بهم مفتاح لأبواب السماء وتصاعد الدعاء، وأن بدونه لا تفتح أبواب السماء لا للدعاء ولا لغيره، حيث إن فى الصلاة على النبى وآله صلى الله عليه و آله ذكر له ولهم وتشفع بهم وتوجه بهم إلى اللَّه تعالى.

وإليـك طائفـة أخرى من الروايـات ذكرهـا صـاحب الوسائل فى الباب السابع والثلاثين من أبواب الـدعاء وهى تؤكـد دور التوسل فى الدعاء:

عن داود الرقى قال: «إنى كنت أسـمع أبا عبـد اللَّه عليه السـلام أكثر ما يلـح فى الـدعاء على اللَّه بحق الخمسة، يعنى رسول اللَّه، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن والحسين عليهم السلام» «۴».

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: سألت النبى صلى الله عليه و آله عن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه فتاب عليه؟ قال صلى الله عليه و آله: «سأله بحق محمد وعلى وفاطمة والحسن

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۸۶

والحسين إلا تبت على، فتاب عليه» «۱».

عن معمر بن راشد، عن الصادق عليه السلام- فى حديث- قال، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«إنه يكره للعبـد أن يزكى نفسه، ولكنى أقول: إن آدم لمـا أصـاب الخطيئـة كـانت توبته أن قـال: اللهم إنى أسألـك بحق محمـد وآل

محمد لما غفرت لى، فغفرها له، وأن نوحا لما ركب السفينة وخاف الغرق قال: اللهم إنى أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتنى من الغرق، فأنجاه اللَّه منه، وأن إبراهيم لما ألقى فى النار قال: اللهم إنى أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتنى منها، فجعلها اللَّه عليه بردا وسلاما، وأن موسى لما ألقى عصاه وأوجس فى نفسه خيفة قال: اللهم إنى أسألك بحق محمد وآل محمد لما أمنتنى، فقال له اللَّه عز وجل: لا تخف، إنك أنت الأعلى» «۲».

أحمد بن فهد فى «عدة الداعى» عن سلمان الفارسى قال: سمعت محمداً صلى الله عليه و آله يقول: «إن اللَّه عز وجل يقول: يا عبادى، أو ليس من له إليكم حوائج كبار لا- تجودون بها إلا أن يتحمل عليكم بأحب الخلق إليكم تقضونها كرامة لشفيعهم؟ ألا فاعلموا أن أكرم الخلق على وأفضلهم لدى محمد وأخوه على ومن بعده الأئمة الذين هم الوسائل إلى اللَّه، فليدعنى من همته حاجة يريد نفعها أو دهمته داهية يريد كشف ضرها بمحمد وآله الطيبين الطاهرين أقضها له أحسن ما يقضيها من «تستشفعون له» بأعز الخلق إليه» «۳».

الحسن بن على العسكرى عليه السلام فى «تفسيره» عن آبائه، عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إن اللَّه سبحانه يقول: عبادى، من كانت له إليكم حاجة فسألكم بمن تحبون أجبتم دعاءه، ألا فاعلموا أن أحب عبادى إلى وأكرمهم لدى محمد وعلى حبيبى ووليى، فمن كانت له حاجة إلى فليتوسل إلىّ بهما، فإنى لا أرد سؤال سائل يسألنى بهما وبالطيبين من عترتهما، فمن

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۸۷

سألنى بهم فإنى لا- أرد دعاءه، وكيف أرد دعاء من سألنى بحبيبى وصفوتى ووليى وحجتى وروحى ونورى وآيتى وبابى ورحمتى ووجهى ونعمتى؟ ألا- وإنى خلقتهم من نور عظمتى، وجعلتهم أهل كرامتى وولايتى، فمن سألنى بهم عارفا بحقهم ومقامهم أوجبت له منى الإجابة، وكان ذلك حقا على» «۱».

وفى الرواية بيان للتلازم بين قرب المحبوب ودوره فى الشفاعة، وبالتالى دوره فى صيرورته وسيلة وبابا ووجها إليه تعالى، وأن ما يمارس عند البشر من التوسيط للوسائط كوسائل عند من يقصد طلب الحاجة منه وأن المحبوب باب ووجه يتوجه به، أمر فطرى حكيم يمارسه الناس بقضاء فطرتهم.

عن على بن الحسن بن فضال، عن أبيه، عن الرضا عليه السلام قال: «لما أشرف نوح على الغرق دعا اللَّه بحقنا فدفع اللَّه عنه الغرق، ولما رمى إبراهيم فى النار دعا اللَّه بحقنا فجعل اللَّه عليه النار بردا وسلاما، وأن موسى لما ضرب طريقا فى البحر دعا اللَّه بحقنا فجعل يبسا، وأن عيسى لما أراد اليهود قتله دعا اللَّه بحقنا فنجى من القتل فرفعه إليه» «۲».

قال الحر العاملى: أقول والأحاديث فى ذلك كثيرة جدا من طريق العامة والخاصة، أو فى الأدعية المأثورة دلالة على ذلك لأنها مشحونة بالتوسل بهم عليهم السلام «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۸۸

بحوث الآية الثانية ... ص: ۸۸

اشارة

قال اللَّه تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ» «۱».

القاعدة الثالثة: نيل كل كمال بالاستشفاع وشفاعة النبى وأهله عليهم السلام ... ص: ۸۸

اشارة

ومقتضی مفاد الآیهٔ أن آدم ونوح وإبراهیم وموسی وعیسی علیهم السلام کانوا علی دین محمد صلی الله علیه و آله قبل أن یبعث، إذ قد أخذ اللَّه علیهم بعد التوحید الإقرار بنبوهٔ سید الأنبیاء صلی الله علیه و آله، کما هو نص الآیهٔ الشریفهٔ، لا کما یثیره جملهٔ من الباحثین فی علم الکلام والتأریخ والسیرهٔ من أن الرسول صلی الله علیه و آله قبل بعثته کان رسولاً علی دین إبراهیم أو علی دین غیره من الأنبیاء!!

إذ مقتضی الآیهٔ فی سورهٔ الأعراف أن إبراهیم کان علی دین محمد، وکذا عیسی وموسی وآدم لا العکس.

فإذا کان جمیع الأنبیاء من قبل علی دین النبی محمد صلی الله علیه و آله وإن کانوا علی شرائع مختلفهٔ إلا أن دینهم دین واحد وهو دین خاتم الأنبیاء، کما هو مفاد العدید من الآیات الآتیهٔ:

قوله تعالی: «انَّ الدِّینَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ» «۲».

فـوقوله تعالی: «لِکُلٍّ جَعَلْنَا مِنکُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» «۳».

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۸۹

وقوله تعالی: «مَا کَانَ إِبْرَاهِیمُ یَهُودِیًّا وَلَا نَصْرَانِیًّا وَلَکِن کَانَ حَنِیفًا مُّسْلِمًا وَمَا کَانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ» «۱».

والدین عبارهٔ عن مجموع الأصول الاعتقادیهٔ وأرکان الفروع، بخلاف الشریعهٔ التی هی عبارهٔ عن تفاصیل الفروع.

وأما أصول المحرمات والواجبات فإنها داخلهٔ فی الدین کذلک دون الشریعهٔ، والمقصود من أصول المحرمات والواجبات هی أسس التحریم وأسس الواجبات، مثل تحریم الفواحش والربا، والظلم والعدوان ومثل صلهٔ الرحم، وأداء الأمانهٔ والوفاء بالعهد.

والمقصود بأرکان الفروع هی العشرهٔ التی منها الصلاهٔ والزکاهٔ والحج والصوم.

وحیث إن ولایهٔ علی وأهل بیته علیهم السلام هی من نظام الدین لا ـ الشریعهٔ بنص قوله تعالی: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَرَضِیتُ لَکُمُ الإِسْلاَمَ دِینًا» «۲».

حیث جعل تبلیغه صلی الله علیه و آله لولایهٔ علی علیه السلام إکمالا للدین، لا حکما فرعیا فی تفاصیل الشریعهٔ کما هو مفاد قوله تعالی أیضا: «یَا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَیْکَ مِن رَّبِّکَ وأن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لَا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکَافِرِینَ»»

.فجعلت الرسالهٔ برمتها مرهونهٔ بإبلاغ ولایهٔ علی علیه السلام، أی أن ولایهٔ علی علیه السلام امتداد للتوحید والنبوهٔ، وهی ولایهٔ اللَّه وولایهٔ الرسول صلی الله علیه و آله، وکذلک مفاد قوله

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۹۰

تعالی: «قُل لَّاأَسْأَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی» «۱».

حیث جعلت المودهٔ عدلا للکون علی جملهٔ الرسالهٔ بما فیها من أصول الدین، مما ینبه علی کون مودهٔ القربی وولایهٔ أهل البیت علیهم السلام هی من الأصول الاعتقادیهٔ.

وغیرها من الآیات الواردهٔ فی أهل البیت علیهم السلام الدالهٔ علی أن ولایتهم علیهم السلام من أصول الدین والدیانهٔ، فإذا کان جمیع الأنبیاء علی دین واحد ودیانهٔ واحدهٔ وهو دین سید الأنبیاء صلی الله علیه و آله الذی تضمن ولایهٔ علی وأهل بیته علیهم السلام کأصل من أصوله، فلا محالهٔ فإن جمیع الأنبیاء قد أخذ علیهم الإقرار بولایهٔ أهل البیت علیهم السلام أیضا، لاسیما بعد الالتفات إلی أن ولایهٔ أهل البیت وإمامتهم علیهم السلام تأتی فی ترتیب أصول الدیانهٔ بعد ولایهٔ الرسول صلی الله علیه و آله، کما هو مقتضی جملهٔ من الآیات کقوله تعالی: «إِنَّمَا وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِینَ آمَنُواْ الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلَاةَ وَیُؤْتُونَ الزَّکَاةَ وَهُمْ رَاکِعُونَ» «۲»

التى نزلت فى على عليه السلام حينما تصدق بالخاتم، وقد أورد ذلك فى كتب عديدة ومن الفريقين «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۹۲

وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ» «۱».

وقوله تعالى: «مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَايَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» «۲».

وقوله تعالى: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ» «۳»

وغيرها من الآيات.

وقد قرن أهل البيت عليهم السلام مع سيدهم سيد الأنبياء صلى الله عليه و آله فى آية التطهير ولم يشرك معه غيرهم، كما قرنوا تابعين معه فى آية المباهلة.

وعلى ضوء ذلك:

فإذا كان جميع الأنبياء إنما قد حصلوا على مقام النبوة وتأهلوا لذلك بالإقرار بدين خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله المتضمن لولاية أهل بيته تلو ولاية الرسول صلى الله عليه و آله، فذلك دال

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۹۳

على أنهم لم يحصلوا على تلك المقامات إلا بالإقرار بولاية الرسول وولاية أهل بيته عليهم السلام.

وهذا مما يقضى أن جميع الأنبياء والمرسلين توسلوا وتشفعوا بالنبى وأهل بيته عليهم السلام ليحصلوا على مقام النبوة والحكمة والكتاب، ومما يدعم ذلك قوله تعالى:

«فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» «۱».

وسوف تأتى الرواية التى رواها الحاكم النيسابورى فى تفسير الآية «۲».

وقد أطلق القرآن الكريم الكلمة على عيسى كما مر، والتعبير فى الآية بالكلمات لا الكلمة، ولا ريب أن الكلمة الإلهية أصدق على سيد الأنبياء من عيسى عليه السلام، وقد مر اقتران أهل البيت عليهم السلام بسيد الأنبياء فى مقام التطهير فى سورة الأحزاب «۳»، وفى مقام الحجية فى سورة آل عمران فى آية المباهلة «۴»، وفى مقام الطاعة فى سورة النساء «۵»، وغير ذلك من المقامات فى السور القرآنية.

فتبين من ذلك أن الكلمات التى تاب اللّه بها على آدم بعد توسله وتشفعه هى النبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام.

وكذلك فى قوله تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۹۴

جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» «۱».

إذ الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم عليه السلام وامتحن لنيل مقام الإمامة لا ريب أن أحدها هو ولاية سيد الأنبياء صلى الله عليه و آله، كما نصت على ذلك آية أخذ الميثاق التى نحن بصدد الحديث عنها.

وقد مر أن مفاد الآية أخذ الإقرار بولاية أهل البيت عليهم السلام أيضا عليهم فى الميثاق؛ لأنه قد أخذ عليهم الإقرار بدين خاتم الأنبياء المتضمن لكل من ولاية اللّه ورسوله وأهل بيته عليهم السلام، ومن ثم بين القرآن الكريم تفوق علم أهل البيت عليهم السلام- بعلم الكتاب كله- على علم جميع الأنبياء السابقين، حيث أثبتت لهم علم بعض الكتاب، فورد فى شأن أهل البيت عليهم السلام فى سورة الرعد قوله تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» «۲».

والآيـة مكيـة النزول، حيث نزلت فى مكـة المكرمـة فى بـدايات البعثـة ناعتـة لعلى بن أبى طالب عليه السـلام بمن عنـده علم الكتاب، والإضافة تقضـى الاسـتغراق مع «أل» العهديـة، وكـذلك ورد فى شأنهم قوله تعالى: «انَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيم* فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ* لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ» «۳».

فأثبتت الآيـة الكريمـة أن المطهرين من هـذه الأمة- الذين شـهد لهم القرآن بالطهارة- ينالون ويحيطون بالقرآن كله، فى مقام الكتاب المكنون، إذ قد أسند المس للكتاب كله.

وغيرها من الآيات الدالة على علمه عليه السلام، بينما نعت القرآن الكريم العلم الذى

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۹۵

أوتيه النبى عيسى بقوله تعالى: «وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ» «۱».

وقال تعالى فى شأن موسى عليه السلام فى التوراة التى أنزلت عليه: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيٍ» «۲».

فوصف العلم فى التوراة بالتبعيض، بينما نعت القرآن الكريم بأنه: «وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» «۳».

وأنه: «تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» «۴».

ثم إن قضاء الضرورة الدينية بمقام الشفاعة بالنبى وأهل بيته عليهم السلام يقضى بأن يكون الطلب مباشرة من اللَّه هو من قبل الشفيع لا المشفوع له، وأن الاستغاثة بالشفيع ترجع فى حقيقتها إلى طلب الشفاعة من الشفيع، بأن يشفع ويكون الطلب منه مباشرة.

وهذا المفاد ذاتى فى مكونات الشفاعة، فالتوجه بالطلب والاستغاثة بالشفيع من المقتضيات الذاتية للشفاعة التى هى سنة إلهية وقرآنية.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۹۶

سؤال حول قرب اللَّه وضرورة الواسطة إليه ... ص: ۹۶

وقد يعترض قائل بأنه كيف يدعى لزوم الحاجة إلى التوسل والتوجه بالنبى وأهل بيته عليهم السـلام فى العبادة للّهودعائه، مع أنه تعالى قد قال: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّى فإنى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» «۱».

فـإذا كـان البـارى تعـالى قريب، فأى حجاب وحـاجب بينه وبين خلقه؟ فهو لا يحتجب عن خلقه، وقـد قال تعالى: «وَنَحْنُ أقرب الَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» «۲».

الجواب:

إن هـذا القائـل تخيـل أن قرب اللَّه تعـالى من خلقه ملازم لقرب الخلق منه تعالى، وظن أن قرب أحـد الطرفين وهو اللَّه من الآخر وهو الخلق يلازم قرب الخلق منه تعالى، وهـذا التوهم مبنى على حساب أن هـذا القرب قرب مكانى كقرب جسم من جسم، وتشبيه بالمواد الفيزيائيـة، فـإن فى القرب الجسـمانى افتراض قرب أحـد الطرفين يلاـزم قرب الطرف الآـخر، ويمتنع افتراض قرب أحـدهما من الآـخر وافتراض بعد الآخر من الأول.

وهـذا بخلاـف القرب والبعـد المعنوى، فـإن قرب اللَّه تعـالى من خلقه بمعنى نفوذ قـدرته فيهم وسـيطرته عليهم وقيامهم بحوله وقوته، واستعلائه على فعله وهيمنته على مخلوقاته.

فقربه تعالى قرب قـدرة واقتـدار وسـيطرة واسـتعلاء وهيمنة وقيومية ونفوذ علم، فالخلق قائم به تعالى بحوله وقوته، وبفيض مدده يكون كل كائن، فأنى للمخلوق أن

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۹۷

يبتعد قيد شعرة عن قبضته؟! كيف وحاق كينونة ذات المخلوق بيده تعالى.

وقربه تعالى قرب القادر من العاجز، وقرب المحيط من المحاط به، وقرب الغنى من الفقير، وقرب المدد من المستمد، وقرب القوى من

الضعيف، وقرب القاهر من المقهور، وقرب ذى البطش النافذ من المنفوذ فيه.

فقدرته تعالى داخلهٔ فى الأشياء لا بالممازجهٔ، وخارجهٔ عنها لا بالمزايلهٔ، فمن ذا يقرب من اللَّه كقربه تعالى من الأشياء، وأنى للأشياء أن تقترب إليه كقربه هو منها.

بل هذا القرب منه تعالى يتلازم مع بعد الأشياء من أن تصل إلى مقامه وعلو شأنه، ومن ثم كان تعالى بعيدا فى قربه وقريبا فى بعده، أى أنه تعالى بعيد عن أن يضاهيه شىء غيره، فى حين أنه قريب القدرة والتصرف والنفوذ فى الأشياء.

ومن ثم عمل العاملون، وعبد العابدون، وأطاع المطيعون، وتسابق المتسابقون، وتنافس المتنافسون فى الاقتراب منه، كما جعلت نيهٔ الأعمال والعبادات لأجل الزلفى والقربى منه تعالى، وعلى ضوء ذلك اختلفت درجات قرب العباد وبعدهم منه تعالى.

فهناك المقربون والسابقون الأولون وأصحاب اليمين والأبرار وأصحاب الشمال، وهناك المذحور المطرود المرجوم كإبليس الغوى الرجيم، فليس زلفى العباد على درجهٔ واحدهٔ، ولأجل ذلك اختلف العطاء الإلهى والهبات منه بحسب مقامات القرب والبعد.

واختلاف المخلوقات فى القرب منه تعالى والبعد لا يعنى اختلاف قرب البارى منهم جميعا، بل البارى تعالى قربه من الأشياء كلها على استواء واحد، فإن قدرته تعالى على جميع مخلوقاته سواء العظيم منها والحقير.

فإذا تبين ذلك اتضح أن قرب البارى تعالى من العباد لا يعنى استواء قربهم هم

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۵، ص: ۹۸

منه تعالى، وعدم وجود الحجاب بالنسبهٔ إليه تعالى اتجاه الخلق والمخلوقات لا- يعنى عدم وجود الحجاب والحاجب بالنسبهٔ إلى المخلوقات اتجاه البارى تعالى، إذ هذا هو حال المحيط والمحاط به، فإن المحيط لا يحجبه حاجب عن إدراك المحيط به والاقتدار عليه والعلم بشؤونه، لكن ضعف المحاط به أكبر حاجب عن أن يدرك ويحيط بمن هو محيط.

وبعبارهٔ أخرى: هذا هو حال القرب والبعد الناشئ من الكمال والنقص، وهذا هو معنى استواء الرب تعالى على العرش، أى عرش القدرهٔ والعلم. واستواؤه أى سيطرته وهيمنته ونفوذ علمه وقدرته فى الأشياء على استواء وسواسيهٔ.

فإذا كانت العلاقهٔ من طرف الخالق إلى المخلوق تختلف عن العلاقهٔ من طرف المخلوق اتجاه الخالق، وأن المخلوقات على اختلاف فيما بين بعضها البعض قربا وبعدا من البارى تعالى، فلا محالهٔ كان بعضها وسيلهٔ للبعض الآخر؛ لأن المخلوق البعيد الضعيف ليس فى قابليته أن يدرك من باريه إلا فعله وهو المخلوقات العظيمهٔ الشأن قربا، والتى تمثل آيهٔ للصفات الربانيهٔ وعلامهٔ ودلالهٔ للتعرف على شأن الذات الإلهيهٔ.

فسبيل معرفهٔ الذات الإلهيهٔ ممتنع على المخلوقات الضعيفهٔ لامتناع أن تحيط بذات البارى، بل لا يمكنها إلا نيل شعاع فعل اللَّه، وهى آياته من مخلوقاته الكريمهٔ المقربهٔ عنده فى الفيض والعطاء والهبات الإلهيهٔ.

ومن كل ذلك يتبين الضرورهٔ العقليهٔ للتوسل بالنبى وأهل بيته عليهم السلام والاضطرار إلى التوجه بهم فى مقام المعرفهٔ بالذات الإلهيهٔ والإيمان بها ومقام القصد فى العبادهٔ وكل أوبهٔ إليه تعالى، ولنيل كل فيض وعطيهٔ ومقام إلهى.

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۵، ص: ۹۹

الصفات الإلهيهٔ العظمى والحاجهٔ إلى وساطهٔ كلماته تعالى ... ص: ۹۹

إن هذا الشأن- ضرورهٔ التوسل بالموجود المقدس للوصول إلى اللَّه تعالى- جار فى سائر الصفات الإلهيهٔ لعدم تناهيها فضلا عن الذات الإلهيهٔ، فإن تعاظم تلك الصفات وعدم انتهائها إلى حد محدود يوجب امتناع استغراق الفكر فيها، ويحول دون استقصاء القلب لمعرفهٔ كنهها، وبالتالى يستحيل إدراكها من المخلوقات إلا بتوسط علامات ودلائل فى أفعاله تعالى، وهى مخلوقاته العظيمهٔ، فتكون بمثابهٔ العلامات والآيات والدلائل على تلك الصفات، فتلك المخلوقات أسماؤه الحسنى؛ لأنها سمات وعلامات ودلائل على شموخ صفاته

وتعاظمها.

بل إن هذا الشأن مقرر فی أفعال اللَّه وفيضه العميم الدائم الذی لا يبيد كما تشير إلی ذلک عديد من الآيات:

قوله تعالی: «قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّی لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّی وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا» «۱».

وقوله تعالی: «وَلَوْ إنما فِی الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «۲».

وكذا قوله تعالی: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْک الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيٍ» «۳».

فإن لفظة «شیء» مبهمة فضلا عن إضافة لفظة «كل» التی هی من أدل ألفاظ العموم إليها.

وكذا قوله تعالی: «لَايَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِی السَّمَاوَاتِ وَلَا فِی الْأَرْضِ وَلَا

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۰۰

أَصْغَرُ مِن ذَلِک وَلَا أكبر الَّا فِی كِتَابٍ مُّبِينٍ» «۱».

وقوله تعالی: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِی السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِی كِتَابٍ مُّبِينٍ» «۲».

وغيرها من الآيات التی تصف الكتاب المبين بالإحاطة بغيب المقدرات الماضية والكائنة فی المستقبل والحاصل فی الحال فی جميع طبقات السماء والأرض.

وكقوله تعالی فی وصف نعيم الجنة: «وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِی الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاء رَبُّک عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ» «۳».

وقوله تعالی: «مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِی مِن تَحْتِهَا الأنهار أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْک عُقْبَی الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَی الْكَافِرِينَ النَّارُ» «۴».

وقوله تعالی فی وصف فاكهة الجنة: «وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ* لَّامَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ» «۵»

. وغيرها من الآيات الواصفة لعظمة أفعاله تعالی وأن فيضه عميم دائم لا يبيد ولا ينقطع، فهو دائم الفضل، فإذا كان هذا شأن فعله سواء فی جانب الهداية أو العلم أو الحكمة أو النور، فمن ذا الذی يحيط بكتاب اللَّه ليزعم ويتزعم تلک المقولة «حسبنا كتاب اللَّه» متوهما أن فی قدرته وإمكانه الإحاطة بكتاب اللَّه، ومن ثم إمكان التمسک بكله وأنی له ذلک!!

فهو الكتاب الذی لا تنفد كلماته ولا يعزب عنه مثقال ذرة فی السماء ولا فی

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۰۱

الأرض، ولا غائبة ولا كائنة إلا أحصاها.

تعليق علی مقولة الاستغراق فی الرسالة دون الرسول صلی الله عليه و آله ... ص: ۱۰۱

ومن الذی يحيط بشريعة اللَّه ورسالته كی يزعم ويوصی بالذوبان فی الرسالة والاستغراق فيها دون الاستغراق والذوبان فی الرسول والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، ظنا منه أنه يحيط بالكتاب والرسالة منفكا عن النبی والأئمة والأوصياء عليهم السلام الذين هم علی اتصال بالغيوب يسترفدون من بحور غيب اللَّه مددا متصلا.

ومن ثم ركز القرآن الكريم وأصر علی لزوم الرجوع إلی ثلة من هذه الأمة، مرتبطة بغيب مقامات القرآن الكريم، يتنزل عليها تأويل الكتاب كل عام ليلة القدر وفی كل وقت، وأشار إليهم بالخصوص وشخصهم بالتعيين حيث قال تعالی:

«انَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِی كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَّايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» «۱».

فأشار إلی أن القرآن الكريم المجيد فی الكتاب المكنون واللوح المحفوظ لا يمسه ولا يناله إلا المطهرون، وهم الذين شهد القرآن لهم بالتطهير فی قوله تعالی:

«إنما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكَمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» «۲».

فهم أهل بيت النبى وقرابته صلى الله عليه و آله.

وقال تعالى: «هُوَ الَّذِىَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأخر مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الألْبَابِ» «۳».

فخص علم التأويل بالراسخين فى العلم.

وقال تعالى: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۰۲

إِلَّا الظَّالِمُونَ» «۱».

فخص الذين أوتوا العلم بأن القرآن كله آيات بينات فى صدورهم، وليس منه آيات متشابهة عندهم، بل كله آيات بينات محكمات، مما يعزز أن «الواو» فى آية سورة آل عمران للعطف.

وكيف لا ـ وقد أثبتت سورة الواقعة نيل المطهرين من أهل البيت عليهم السلام للكتاب المكنون، والمطهر غير المتطهر بالوضوء أو الغسل، كما فى قوله تعالى: «انَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» «۲».

وكما شهد القرآن أيضا لهم فى قوله تعالى: «قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» «۳».

وهى آخر آية من سورة الرعد المكية نزولا، ولم يكن قد آمن أحد من النصارى واليهود فى مكة قبل الهجرة، حيث ورد أنها نزلت فى على عليه السلام، وكيف لا وهو الذى احتج اللَّه به فى آية المباهلة على النصارى واليهود إلى يوم القيامة، وجعله بمنزلة نفس النبى صلى الله عليه و آله، وقد أمر النبى صلى الله عليه و آله ببيان الكتاب كله كما فى مجموعة هذه الآيات:

قوله تعالى: «وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» «۴».

وقال تعالى: «وأنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۰۳

يَتَفَكَّرُونَ» «۱».

وقوله تعالى: «لَاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» «۲».

فإن بيان القرآن الكريم كله من المسؤوليات الملقاة على النبى صلى الله عليه و آله ومن بعده على بن أبى طالب عليه السلام الذى هو بمنزلة نفس النبى صلى الله عليه و آله بشهادة القرآن الكريم، وأنه لقب بأنه من عنده علم الكتاب، ومن بعده أهل البيت من ذريته عليهم السلام.

وكذا قوله تعالى: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» «۳».

فبينت الآيات الكريمة أن بيان القرآن الكريم بجميع فصول معارفه من أدناها إلى أعلاها هى من وظيفة سيد الأنبياء صلى الله عليه و آله، أى أنه الذى يحيط علما بالكتاب وبيانه، وأن تبيان القرآن يقوم به ما دام حيا، ومن بعده يقوم به أهل بيته عليهم السلام استمرارا ومواصلة لبيان القرآن الذى لا يحد ولا ينتهى، بل يتنزل تأويله فى كل عام وبالتحديد فى ليلة القدر، لحاجة البشر بحسب ذلك العام، ومن ثم تتنزل الملائكة والروح فى ليلة القدر بتأويل الكتاب، ومن ثم ربط بين تنزل الملائكة والروح ونزول القرآن فى سورة القدر «۴»، وفى سورة الدخان «۵».

فالقرآن والكتاب والرسالة والدين بحر لا ينزف، وغيب لا ينقطع، ولا

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۰۴

يستطيع العقل بكل ما فيه إلا من له موطأ قدم فى علوم الغيب، ويطلع على الغيوب باطلاع من رب العالمين.

فمن ادعى التمسك بالكتاب من دون أن يستمسك بأصحاب القرآن، ومن ادعى الاستغراق فى الرسالة والدين من دون أن يستمسك بالذين يبلغون رسالات اللَّه، فقد زيف بأراجيف قد بان عوارها «۱».

على أن تلك المقولة تستلزم الإمامة النوعية إذ لا- يتقيد بالأشخاص، وبالتالى قالب الإمامة نوعى غير منحصر ومختص ولا متقيد بأشخاص، وكذلك الحال فى الرسالة فيؤدى إلى النبوة النوعية، بينما شدد القرآن الكريم على ضرورة الإيمان بالشخوص والأسماء الخاصة للأنبياء، ولم يكتف بالإيمان بالنبوة العامة من دون الإيمان بالنبوات الخاصة، وكذلك الحال فى الاعتقاد بإمامة شخوص قربى

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۰۵

النبى صلى الله عليه و آله وعددهم وعدتهم الإثنى عشر، وأنه الدين القيم.

كما أن خطورة هذه المقولة هى فى هدم هذا الشرط الذى هو شرط ركنى فى صحة وقبول الإيمان، أى هدم التوسل والالتجاء والتوجه بهم، ومن ثم فإن هذه المقولة تتظافر مع مقولة السلفية فى الصد عن النبى وأهل بيته عليهم السلام، وهذه هى غاية الجاحدين والمنكرين للشريعة ولولاية أهل البيت عليهم السلام «۱».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۰۶

التوفيق بين قربه تعالى منا وبعدنا عنه ... ص: ۱۰۶

إن البارى تعالى قربه إلينا عين بعدنا عنه؛ لأنه قريب إلينا قرب قدرة واستعلاء وقاهرية، ونحن بعيدون عنه قدرة وسلطانا وقاهرية ونورا، حتى أولئك الذين يجحدون التوسل ويحاربون الواسطة بين اللَّه وخلقه، هم يقولون بالتوسل بالأعمال وسائر القربات، ومن ثم يطرح عليهم السؤال التالى:

أليس هناك مسافة من جهة العابد بينه وبين المعبود، لا من جهة المعبود للعابد؟

فمن ثم لا بد لك أن تسير على صراط الاقتراب، بأن تهتدى إلى الصراط والطريقة والوسيلة، ومن ثم أكدت أعظم سورة فى القرآن على لزوم الاهتداء إلى الصراط المستقيم، صراط الهداة المنعم عليهم، المعصومون من غضب اللَّه، والمعصومون من الضلال، فهم وصراطهم الوسيلة والوصلة للهداية إلى الساحة الربوبية.

فكيف يصد عنهم وقد أمر اللَّه بإتباع صراطهم والتمسك بحبلهم، فكون اللَّه قريب من جميع عباده لا يعنى أن الكل مقرب، وليس الكل بدرجة إبراهيم الخليل عليه السلام، بل الأنبياء ليسوا على درجة واحدة، إذ بعضهم أفضل من بعض، فالفاضل يتوسل بالأفضل، كما أن النبى إبراهيم يتوسل ويتبع ويستمسك بسيد الأنبياء صلى الله عليه و آله، كما مر فى آية سورة آل عمران «۱» من أن جميع الأنبياء والمرسلين من آدم ونوح وإبراهيم وسائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام نالوا وحصلوا على النبوة بإقرارهم بولاية سيد الأنبياء وبالتوسل به صلى الله عليه و آله.

احتياج عموم الخلق لوساطة سيد الأنبياء صلى الله عليه و آله ... ص: ۱۰۶

ومن ثم يتساءل:

لماذا الواسطة بين اللَّه وأنبيائه فضلا عما بين اللَّه وخلقه؟ بل بين آدم ونوح

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۰۷

وإبراهيم وموسى وعيسى وبين اللَّه فضلا عن بقية الأنبياء عليهم السلام، مع أن اللَّه قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه، فهو تعالى

أقرب شـیء إلی المخلوقـات، ولاـ تتفـاوت المخلوقـات إلیه فی قربه منها، ومع قربه تعالی لم تحتـج الأنبیاء علیهم السـلام کأولی العزم للواسطهٔ، والحال أنهم أنبیاء اللَّه تعالی وفی أعلی مستویات المقربین، فلم یحتاجون إلی الإیمان بنبوهٔ سید الأنبیاء صلی الله علیه و آله والتـذلل له بأن یقروا علی أنفسـهم أنهم تابعون ناصـرون له مقرون بولایته، إذ إن الناصـر تابع والمنصور متبوع، والتابع مأموم والمتبوع إمـام وهو سـید الأنبیاء صـلی الله علیه و آله، فهو الواسـطهٔ بین اللَّه عز وجل وبین أولی العزم من أنبیائه الـذین هم عظماء الأنبیاء علیهم السلام؟

الجواب:

إن الحجاب بین المخلوق والخالق من جهۀ المخلوق مع الخالق لا من جهۀ الخالق مع المخلوق لا یعنی نقص قدرة وقصور فی الخالق، وإنمـا یعنی عظم الخالق وقصور المخلوق، فالحجاب والحجب الربوبیـهٔ هی من جهـهٔ المخلوقین اتجاه الخالق لا من جهـهٔ الخالق اتجاه المخلوقین، ألا تری أن الرئیس والملک ذا المهابـهٔ، والسـلطان ذا الحجاب والحجب، أن حاجبه هو من جهـهٔ الرعیهٔ من دون أن یکون حجابا من جهۀ الملک عن أن یطلع علی الرعیۀ.

ومن ثم یقـال فی اللغـهٔ السـید المحجب أي المعظم، فالحجـاب فی الأصـل هو تعظیم لصـاحب الحجاب من طرف المحجوب عنه من دون أن یکون ذلک قصورا فی المحجوب ونقصا، فالحجاب یحجب من طرف دون الطرف الآخر.

فکلمـا تکامـل المخلوق کلما عرف من کمال خالقه أکثر فأکثر، فإن الکمال الـذی فی المخلوق هو من فعل الخالق وهو آیـهٔ لصـفات الخالق، وکلما نقص کمال المخلوق کلما قلت معرفته بالخالق لقلـهٔ ما یعکسه کمال ذاته من کمال الصـفات الإلهیهٔ، وعلی ضوء ذلک تفاضل الأنبیاء فی الفضل والکمال کما قال تعالی: «تِلْکَ

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۱۰۸

الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَی بَعْضٍ» «۱».

وقوله تعالی: «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِیِّینَ عَلَی بَعْضٍ وَآتَیْنَا دَاوُودَ زَبُورًا» «۲»

.فتفـاوت درجاتهم وقربهم وبعـدهم من اللَّه تعالی، إذ قـد مر أن القرب والبعـد قرب معرفـهٔ وعلم وقـدرهٔ وکمال لا قرب جغرافی وبعد جسـمانی، فأقربهم إلی اللَّه تعالی أکثرهم کمالا وأکثرهم معرفـهٔ، فأقرب الخلق حجاب من جهۀ الخلق اتجاه الرب، وهو حجاب ربوبی من جهۀ الخلق أیضا اتجاه الخالق.

نفی الواسطۀ رؤیۀ إبلیسیۀ ... ص: ۱۰۸

فقرب اللَّه من خلقه قرب سیطرهٔ وقدرهٔ وعلو وسـلطان، وکل شـیء قائم به من السـماوات والأرضـیین، وکل شیء فی الکون والمکان کذلک قائم باللَّه، فکیف یکون المکان محیطا باللَّه تعالی ونحن بعیدون عن اللَّه قدرهٔ وسلطانا وقاهریهٔ ونورا.

فتعظیم البـاری تعالی هو بأن تتوسل بواسـطهٔ قریبـهٔ، وتوسـلک بتلک الواسـطهٔ إقرار علی نفسک بأنک بعیـد فی الصـفات الحقیرهٔ عن صفـات البـاری العظیمـهٔ، فالتوسـل واتخـاذ الواسـطهٔ والوصـلهٔ عین التعظیم لرب العزهٔ تعالی، ورفض الواسـطهٔ کما فعل إبلیس هو عین التکبر علی اللَّه تعالی، واستنقاص عظمۀ الباری، کقول إبلیس عندما خوطب من قبل اللَّه بأن یتوجه بآدم علیه السلام فی سجوده، حیث قال الباری تعالی: «قَالَ مَا مَنَعَکَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُکَ قَالَ أَنَاْ خَیْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِی مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِینٍ» «۳».

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۱۰۹

وقال تعالی: «قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِینًا» «۱».

فإن إبلیس رأی التعاظم من ذات نفسه، ورأی أن لا حجاب بینه وبین الحضـرهٔ الربوبیـهٔ، وهـذه الرؤیـهٔ الإبلیسـیهٔ فی الحقیقهٔ اسـتنقاص لمقام الذات الإلهیهٔ؛ لأنه یری أن بکمال ذاته المحدودهٔ یتعرف علی کل صفات الرب مع أن کمال إبلیس فی الخلقهٔ ناقص ومنحدر.

فمن ثم كان التكبر من جذور الكفر، والعبودية والتواضع من جذور التوحيد، إذ فى العبودية سر وهو الاعتراف بالنقص والفقر الذى هو بدوره اعتراف بتعاظم عظمة البارى.

فتبين أن التوسل من صميم جوهر التوحيد، وجحود التوسل من صميم جوهر الكفر، ومن ثم مر فى آية سورة النساء «۲» تقديم البارى مجى مذنبى الأمة إلى الرسول صلى الله عليه و آله على استغفارهم وندامتهم، إذ بالمجى إلى النبى صلى الله عليه و آله إقرار منهم بالبعد من ساحة البارى، بخلاف مقولة إبليس «أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ» «۳»

، بل يقرون على أنفسهم بالنقص والاحتجاب، وهو تعظيم للبارى تعالى.

النبى وأهل بيته عليهم السلام الأبواب والحجب والسدنة ... ص: ۱۰۹

فالإيمان بوجود الحجب الإلهية من جهة المخلوق اتجاه الخالق هو من الاعتقاد بعظمة البارى وعلوه، ألا ترى إلى قوله تعالى: «انَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا

الامامة الالهية(۵)، ج‌۵، ص: ۱۱۰

وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ» «۱».

ألا- ترى أن الآية تثبت بين المخلوقين من جهتهم والخالق أبوابا هى حجب مسدودة مفتاحها التصديق بحجج اللَّه المصطفين، والخضوع والتواضع لهم، لا كما فعل إبليس من التكذيب والجحود بمقام خلافة آدم عليه السلام، واستكباره عن السجود والخضوع لولاية آدم، ولا- كما فعل المنافقون كما فى قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ» «۲».

بل بالتصديق بحجج اللَّه الذين اجتباهم واصطفاهم وطهرهم، بالانقياد لولايتهم والتوجه والتوسل بهم، ليكون ذلك مفتاحا وفتحا لأبواب السماوات، فالآية لا تثبت بابا واحدا بل أبوابا، وهذه الأبواب حجب لسماوات الحضرة الإلهية؛ لأن الباب بمعنى الحجاب، فإذا قصد وفتح صار وسيلة ووصلة إلى الهدف، وإذا صد واعرض عنه صار حجابا وسدا.

فوجود الأبواب بين المخلوق من جهته إلى الخالق عقيدة قرآنية أصيلة ومعتقد إسلامى أصيل، والتنكر له جحود لعقيدة ركن فى نظام السنة الإلهية.

ومع الإقرار بأن لسموات الحضرة الإلهية والسدانة الربوبية أبوابا، لا بد من طلب المفتاح لتلك الأبواب، والوسيلة لفتحه والتوجه إلى تلك الأبواب، وليس لك أن تتجهم أن تواجه ربك بأن تخاطب الرب تعالى من دون أن تتوسل إليه بتلك المفاتيح.

وإذا كان عيسى بن مريم وأمه آية كما فى قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ

الامامة الالهية(۵)، ج‌۵، ص: ۱۱۱

آيَةً» «۱»

.فكيف بسيد الأنبياء وأهل بيته عليهم السلام!

وقد احتج اللَّه بالنبى وأهل بيته الخمسة من أصحاب الكساء عليهم السلام حججه على العالمين إلى قيام يوم الدين فى آية المباهلة، كما اصطفاهم فى آية التطهير.

وقد جعلت الآية فى سورة الأعراف المتقدمة مفتاح أبواب السموات التصديق بآيات عديدة وليست بآية واحدة، فالإيمان بحجج اللَّه والتصديق بهم والتوجه بهم إلى اللَّه مفتاح أبواب السماء، ألا ترى إلى قوله تعالى فى القبلة التى يتوجه إليها فى الصلاة إلى اللَّه «وهى الكعبة» وقد كان المسلمون يتوجهون إلى بيت المقدس، كما فى قوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ» «۲».

أي ما جعلنا وفرضنا استقبال القبلة إلا لنعلم من ينقاد إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فجعل القبلة غايته الانقياد إلى النبى صلى الله عليه و آله، فى مقابل من ينقلب على عقيبيه، كما فى قوله تعالى: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِن مَّاتَ أَو قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللّهُ الشَّاكِرِينَ» «۳».

فباب استقبال القبلة والتوجه إليها هو التوجه بالنبى صلى الله عليه و آله إلى اللّه تعالى.

وقد كان الامتحان صعبا على قريش إذ كانت قبلتهم التى ورثوها من ملة إبراهيم وإسماعيل هى الكعبة، فتبدلت إلى بيت المقدس فى أوائل الإسلام، واختيار هذا الامتحان الصعب لقريش غايته هو معرفة انقيادهم وتبعيتهم لخاتم

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۱۲

الأنبياء صلى الله عليه و آله.

وقد أشار الإمام زين العابدين على بن الحسين عليهما السلام فى دعائه فى يوم عرفة إلى ذلك حيث يقول: «ولا تردنى صفرا مما ينقلب به المتعبدون لك من عبادك، وإني وإن لم أقدم ما قدموه من الصالحات فقد قدمت توحيدك، ونفى الأضداد والأنداد والأشباه عنك، وأتيتك من الأبواب التى أمرت أن تؤتى منها، وتقربت إليك بما لا يقرب به أحد منك إلا بالتقرب به، ثم اتبعت ذلك بالإنابة إليك، والتذلل والاستكانة لك» «۱».

وقد كان قد قدم فى أول دعائه الحمد والثناء على اللّه بالتوحيد والنعت بالصفات الإلهية، ثم أردف ذلك بالإطالة فى الصلاة على النبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام ووصفهم بالوسيلة.

فهو يشير بذلك إتيان اللّه من الأبواب التى أمر بها والتى لا يمكن التقرب إلا منها، كما يشير صلى الله عليه و آله أن بالتوسل والتوجه بهم تتحقق الخطوة الأولى المقدمة على شرائط التوبة، والتى يستأهل المذنب بذلك أن يشرع فى الاستغفار والندم والتوبة، وهو مطابق للآية المتقدمة وهى قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا» «۲».

فما فى دعائه صلى الله عليه و آله يشير ويفسر الترتيب فى الآية، بأن المجى إلى النبى واللواذ به والالتجاء إليه والاستعاذة به جعل بابا للوفود والأوبة إلى الحضرة الإلهية، ومن ثم بدأ به فى الآية لأنه باب للاستغفار.

الشفاعة فعل تكوينى ... ص: ۱۱۲

إن طلب الشفاعة فى الحقيقة يرجع إلى نمط من الاستغاثة؛ لأن تشفع الشافع

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۱۳

غوث وإغاثة للمشفوع له، وهذا لا يتنافى مع كون مصدر الإنعام والفضل والشفاعة كلها بيد اللّه تعالى، وأن كل حول وقوة منه تعالى، لكن جرت سنته تعالى على إجراء الفضل بيد كرام خلقه عليه والمقربين لديه.

وفى الحقيقة فإن الشفاعة من الشافع إذا كانت تكوينية تكون فى الحقيقة إيجاد من الشافع للشى المراد بإذن اللّه تعالى، والشافع يكون مجرى لفيض اللّه تعالى، كما هو الحال فى حقيقة المعجزة التى يجريها اللّه على يد صاحب المعجزة.

فكما تعددت الرؤى والنظريات فى حقيقة المعجزة، هل هى مجرد سؤال من صاحب المعجزة ودعاء منه بإنشاء الكلام؟ أم أنه مقام تمكين يوهب له من اللّه تعالى، ويستفيض مدده من البارى تعالى؟

بل وقع هذا التحليل فى تفسير مقام مستجاب الدعوة وكرامات الأولياء، هل هى بإنشاء لفظى وطلب اعتبارى؟ أم أنه مقام تمكين وإقدار إلهى يوهب منه تعالى لذلك الولى؟

وهناك قول ثالث يزاوج بين القولين السابقين، فإنه يتقدم الدعاء اللفظى والتوجه القلبى إلى الحضرة الربوبية، ومن ثم يفاض منه

تعالى القدرة على نفس الولى تكوينا، فينال مقام التمكين والاقتدار على الفعل.

بل إن تضرع الداعى والتجاءه إلى الحضرة الإلهية هو السبب فى استدرار الفيض والرحمة الإلهية، أى سبب قابلى واستعدادى للجود الربانى، فإن الجود والفضل الإلهى دائم وحتمىٌ إذا تمت قابلية القابل، إذ لا بخل فى الحضرة الإلهية ولا عجز.

ومن ذلك يرتفع توهم أن تشفع الشافع عبارة عن مجرد مسألة وطلب لفظى منه يتوجه بها إلى الحضرة الإلهية، فإن روح وحقيقة الدعاء هو الطلب من الحضرة الإلهية وليست مجرد تمتمة لفظية، وإنما قوامه التوجه القلبى والضراعة الروحية من

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۱۴

الداعى حينما يولى وجه قلبه شطر وجه الرب تعالى، وهو وصول إلى حد من حدود العبودية التى تستمطر الفيض التكوينى الربوبى.

فالقول الثالث قول متين يجمع ويزاوج بين خصائص القولين الأولين، فيجمع بين حال العبودية والضراعة الفطرية للمخلوق وحال الإفاضة الإقدارية الربانية، وأن حقيقة الشفاعة والمعجزة ومقام استجاب الدعوة مقامات تكوينية وهبية منه تعالى.

طلب الشفاعة تعلق بالاسم الإلهى التكوينى ... ص: ۱۱۴

إن الشفاعة هى الوساطة وطلب الشفيع من المشفوع إليه أو المشفوع عنده لقضاء حاجة المشفوع له، فالاستشفاع هو بعينه توسل، فصاحب الشفاعة هو الوسيلة والمتوسل إليه هو البارى تعالى، وهو بعينه استغاثة إلى اللَّه تعالى بالوسيلة وبالوجيه عند اللَّه.

وقد أشار السيد العلامة الطباطبائى فى الميزان إلى أن الشفاعة ترجع حقيقتها إلى الشفع فى الأسماء، أى الاقتران، وبالتالى يكون الأثر لمجموع الاسمين، أى أن الذى يتوجه بالشفيع إلى اللَّه يتوجه باسم إلهى ليقترن مع اسم آخر ليكون نجحا لحاجته بالأسماء الإلهية إلى اللَّه، أى توجه إلى اللَّه بأسمائه الحسنى «۱».

وقد مر أن المخلوقات العظيمة التى لها القربى والزلفى والوجاهة عند اللَّه هى الأسماء الإلهية التى يتوجه بها إلى اللَّه تعالى ويدعى بها.

ومن ثم الاستشفاع بسيد الأنبياء صلى الله عليه و آله، والذى قد وصفه البارى تعالى بأنه رحمة للعالمين وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، استشفاع بالرحمة الإلهية وباسمه

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۱۵

الرؤوف الرحيم.

استعراض بعض روايات المقام ... ص: ۱۱۵

وفى ما يلى نستعرض بعض روايات الشفاعة من كتب الفريقين:

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أعطيت خمسا لم يعطها أحد قبلى: جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، ونصرت بالرعب، وأحل لى المغنم، وأعطيت جوامع الكلم، وأعطيت الشفاعة» «۱».

تدل الرواية على أن الشفاعة تكوينية؛ لأنها عطفت على مقام جوامع الكلم، ولأن جوامع الكلم عبارة عن الكلمات التكوينية، وجوامعها عبارة عن التوفر على كمالات وقدرات الكلمات التامات وقدرات الآيات العظمى.

ورد فى الاحتجاج عنه عليه السلام: «السلام عليك أيها العلم المنصوب، والعلم المصبوب، والغوث والرحمة الواسعة» «۲».

فصفة الحجة المنتظر بأنه الغوث، وهى دالة على أنه من شؤونه ونعوته ومقاماته أنه يستغاث به ويلتجأ إليه فى طلب الحاجة.

حدثنا على بن عياش قال حدثنا شعيب بن أبى حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد اللَّه أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته، حلّت له شفاعتى يوم القيامة» «۳».

حدثنا العباس العنبری، أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن ثابت عن أنس

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۱۱۶

قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «شفاعتی لأهل الکبائر من أمتی».

وفی الباب عن جابر هذا حدیث حسن صحیح غریب من هذا الوجه «۱».

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۱۱۷

الوجه الثامن: بحث الکلمات ... ص: ۱۱۷

اشارهٔ

ویتحصل من آیات الکلمات أن الکلمات التی یتوسل بها إلی اللّه تعالی ویتوجه بها إلیه لنیل کل نائلهٔ وللاحتظاء بالزلفی والقربی هی النبی وأهل بیته علیهم السلام.

آیات قرآنیهٔ فی الکلمات الإلهیهٔ ... ص: ۱۱۷

اشارهٔ

قال اللّه تعالی: «فَتَلَقَّی آدَمُ مِن رَّبِّهِ کَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَیْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ»».

وقال تعالی: «وَإِذِ ابْتَلَی إِبْرَاهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّیَّتِی قَالَ لَا یَنَالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ» «۲».

وقال تعالی: «فَتَلَقَّی آدَمُ مِن رَّبِّهِ کَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَیْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ» «۳».

وقال تعالی: «وَلَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِکَ فَصَبَرُواْ عَلَی مَا کُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّی أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِکَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءکَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِینَ» «۴»

.وقال تعالی: «وَتَمَّتْ کَلِمَتُ رَبِّکَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلِ لِکَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِیعُ

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۱۱۸

الْعَلِیمُ» «۱».

وقال تعالی: «لَهُمُ الْبُشْرَی فِی الْحَیاهِٔ الدُّنْیَا وَفِی الآخرهٔ لَا تَبْدِیلَ لِکَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ» «۲».

وقال تعالی: «وَیُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِکَلِمَاتِهِ وَلَوْ کَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» «۳».

وقال تعالی: «وَاتْلُ مَا أُوحِیَ إِلَیْکَ مِن کِتَابِ رَبِّکَ لَامُبَدِّلَ لِکَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا» «۴».

وقال تعالی: «قُل لَّوْ کَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّکَلِمَاتِ رَبِّی لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ کَلِمَاتُ رَبِّی وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا» «۵».

وقال تعالی: «وَلَوْ إنما فِی الْأَرْضِ مِن شَجَرَهٍٔ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ یَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَهُٔ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ کَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ» «۶».

وقال تعالی: «یَا أَهْلَ الْکِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِی دِینِکُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَی اللّهِ إِلَّا الْحَقِّ إنما الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللّهِ وَکَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَی مَرْیَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَاثَهٌٔ انتَهُواْ خَیْرًا لَّکُمْ إنما اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن یَکُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِی السَّمَاوَات وَمَا فِی الْأَرْضِ وَکَفَی بِاللّهِ وَکِیلًا» «۷».

ومن مجموع هذه الآیات یظهر أن الکلمهٔ أطلقت علی من هو حجهٔ مصطفی لدیه تعالی، ومن ثم عبر فی آیات أخری بتصدیق تلک الکلمات، أی الإیمان بمن

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۱۹

هو حجة إلهية، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ» «۱».

فقوبل فى الآية بين الكتب والكلمات وأسند التصديق إلى الكلمات، مما يدل على الإيمان بالحجج الإلهية المصطفين.

فتبين أن الكلمة الإلهية تطلق فى الاستعمال القرآنى على الحجج الإلهية، وهذا هو الأصل فى معناها الحقيقى، إذ الكلمة هى الشى الدال على المعنى أو الشى المضمر أو الغائب، وحينما تكون دلالة الشى الدال دلالة تكوينية لا بتوسط الاعتبار الأدبى تكون الدلالة حقيقية، وإطلاق الكلمة على الدال حقيقة واقعة، بخلاف إطلاق الكلمة على الدال بالاعتبار الأدبى، فإنه إطلاق مجازى عقلائى.

تحقيق فى معنى الكلمة فى القرآن ... ص: ۱۱۹

ولا يخفى أن هناك تقارب بين معنى الكلمة والاسم والآية، فإن كلًّا من الثلاث فيه معنى العلامية والدلالة، فمن ثم يتطابق الاستعمال فى هذه الطائفة من الآيات مع الطوائف السابقة فى الأسماء والآيات.

ويتبين حينئذ أن معنى حصول توبة اللَّه تعالى على آدم عليه السلام بتوسط الكلمات، دال على أن الكلمات وسيلة آدم عليه السلام فى التوجه إلى اللَّه تعالى وأوبته ورجوعه، وأنه بتوسط تلك الكلمات عندما توجه آدم بها قبلت توبته منه تعالى.

والتدبر فى هذه الكلمات التى تلقاها آدم عليه السلام يعطى تطابقها مع الأسماء التى علمها اللَّه إياه، من كون تلك الكلمات والأسماء حقيقة واحدة غيبية هى غيب السموات والأرض من عالم ملكوت السماوات والأرض، حيث إن الاسم كما مرَّ

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۲۰

يطابق معنى الكلمة الإلهية، فإن كلًا منهما علامة وآية على الصفات والذات الإلهية.

حيث إنه قد وصفت تلك الأسماء وأشير إليها بضمير العاقل والشاعر كما فى قوله تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ» «۱».

وقوله تعالى: «فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاء هَؤُلاء» «۲».

وقوله تعالى: «قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ» «۳».

مما يدل على أن هذه الحقائق هى أنوار ذوات الحجج الإلهية المصطفين من النبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام، وهم الذين شرف آدم عليه السلام بتعليمه إياهم، وهذه الأنوار الإلهية وصفها تعالى بقوله: «قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ» «۴».

وهذه الذوات النورية كما هى أسماء إلهية فإن لها بدورها أسماء تظهر بها، فمن ثم تغاير التعبير فى آيات قصة آدم عليه السلام، حيث ورد التعبير الأول عنها أنها أسماء، ثم بعد عرضهم على الملائكة عبر عنها بقوله تعالى: «فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاء هَؤُلاء» «۵».

حيث أضيف إلى ذوات هذه الأسماء أن لها أسماء.

ولا يخفى أن هذه الذوات الشريفة كما أطلق عليها أنها أسماء إلهية، ولها أسماء أطلق عليها أنها كلمات إلهية.

والظاهر أن التغاير حيثى بين الأسماء والكلمات، فإن تلك الذوات النورية الشريفة المخلوقة آيات إلهية، فمن حيث حكايتها عن الصفات والذات الإلهية

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۲۱

حكاية الاسم عن المسمى هى أسماء، وبالنظر إلى ذواتها بما هى هى، أى إذا أمعن النظر إلى ذاتها أولًا ثم أنتقل منها إلى دلالتها على

الصفات والذات الإلهية يطلق عليها حينئذ الكلمات.

أو لعلَّ هذه الذوات الشريفة ذات مراتب، ففى أوائل مراتب صدورها عن البارى- وهى أعالى ومعالى مراتبها- يطلق عليها أسماء إلهية، نظرا لجامعيتها للكمالات، وبالتالى شفافيتها فى حكاية العظمة الإلهية، بخلاف مراتبها اللاحقة فإنها وإن كانت على جانبٍ من تمامية الكمال الخلقى؛ إلا أنها دون المراتب الأولى، وبالتالى فهى دونها فى الحكاية والإراءة للشؤون الإلهية والربوبية، فمن ثم كانت تلك المراتب كلمات.

ومن ذلك يتنبه إلى أن الكلمات التى ابتُلى وامتُحن بها إبراهيم عليه السلام لكى ينال مقام الإمامة؛ هى عبارة عن امتحانه بجملة من الآيات الخلقية، وهى من الحجج التى اصطفاها اللَّه تعالى فوق مرتبة النبى إبراهيم عليه السلام.

وقد أشار قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ» «۱»

. حيث بينت الآية أن النبى إبراهيم عليه السلام وغيره من المرسلين؛ لم يعطوا مقام النبوة والرسالة والكتاب والحكمة إلا بعد أخذ العهد منهم والالتزام بأن يؤمنوا بخاتم الأنبياء، ويلتزموا ويتعهدوا بنصرته ومتابعته والانقياد إليه وطاعته.

فلا ريب أن أول الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم عليه السلام وامتحن كى ينال مقام الإمامة هى امتحانه بقبول الإذعان والانقياد لولاية خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۲۲

ولا- ريب أن بقية تلك الكلمات التى امتحن بها إبراهيم عليه السلام ليتأهل للإمامة هى أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله، وذلك لإشراك اللَّه تعالى إياهم لخاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله فى مواطن عديدة، منها مقام العصمة والتطهير فى آية التطهير كما فى قوله تعالى: «إنما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» «۱».

ومنها مقام الحجية كما فى قوله تعالى: «فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» «۲».

فأشركت الآية أهل البيت عليهم السلام بالنبى صلى الله عليه و آله فى مقام الحجية على العالمين، كما أنها نزلت نفس على أمير المؤمنين عليه السلام منزلة نفس النبى صلى الله عليه و آله، كما أنه فى آية الفى والخمس والشهادة على أعمال العباد قرن أهل البيت عليهم السلام بالنبى فى تلك المقامات.

وكذلك فى مقام العلم بالكتاب وغيرها من المقامات التى أشاد بها القرآن الكريم فى النبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام.

كل ذلك مما يبرهن أن الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم عليه السلام وامتحن هى انقياده لولاية خاتم الأنبياء وأهل بيته عليهم السلام، فبطاعته لهم استأهل مقام الإمامة.

ويتحصل من آيات الكلمات أن الكلمات التى يتوسل بها إلى اللَّه تعالى، ويتوجه بها إليه لنيل كل نائلة، وللاحتظاء بالزلفى والقربى؛ هى النبى وأهل بيته عليهم السلام.

وقد ورد فى روايات الفريقين أن اللَّه تعالى قبل توبة آدم عليه السلام عندما توجه بسيد الأنبياء صلى الله عليه و آله، فقد نُقل أن آدم عليه السلام لما اقترف الخطيئة قال: «يا ربى، أسألك بحق محمد صلى الله عليه و آله لما غفرت لى» فقال: «يا آدم، كيف عرفت؟» قال: «لأنك لما خلقتنى نظرت إلى العرش فوجدت مكتوبا فيه: «لا إله إلا اللَّه، محمد رسول اللَّه» فرأيت اسمه مقرونا مع اسمك،

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۲۳

فعرفته أحب الخلق إليك» «۱».

هذا ما ذكره الحاكم فی مستدركه، وفی رسائل المرتضی:

«إن آدم رأی مكتوبا علی العرش أسماء معظمة مكرمة، فسأل عنها، فقيل له هذه أسماء أجلِّ الخلق منزلة عند اللَّه تعالی، وأمكنهم مكانة، ذلك بأعظم الثناء والتفخيم والتعظيم، أسماء محمد وعلی وفاطمة والحسن والحسين صلوات اللَّه عليهم، فحينئذ سأل آدم عليه السلام ربه تعالی وجعلهم الوسيلة فی قبول توبته ورفع منزلته» «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۲۵

الوجه التاسع: دلالة القصد إلی الحج وأداء المناسک علی ضرورة التوسل بحضرتهم ... ص: ۱۲۵

اشارة

فمركز رحی الدين مودة آل إبراهيم وآل إسماعيل وهم آل محمد صلی الله عليه و آله، وصار التوجه إلی بيت اللَّه الحرام، والتوجه إلی إقامة شعائر الدين هو توجه إليهم، فهذه هی غاية الحج وغاية الشعائر وتشييد الدين، وهی التوجه إليهم وبهم إلی اللَّه تعالی.

غاية الحج وكماله أن ينفر الناس إلی أهل البيت عليهم السلام، ويقصدوهم ويتوجهوا إليهم وبهم إلی اللَّه تعالی.

وقد أشير إلی ذلک فی آيات الحج المبينة لفلسفته ولأعماله وأركانه، وجعل فی جملة المشاعر والأعمال بصمات وعلامات وآيات ترشد الحاج والمعتمر والناسک إلی التوسل والتوجه بالنبی وأهل بيته عليهم السلام إلی اللَّه تعالی.

وأما الآيات، فمنها قوله تعالی علی لسان النبی إبراهيم عليه السلام: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِی وَبَنِیَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِی فإنه مِنِّی وَمَنْ عَصَانِی فإنک غَفُورٌ رَّحِيمٌ، رَّبَّنَا إِنِّی أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِی بِوَادٍ غَيْرِ ذِی زَرْعٍ عِندَ بَيْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِی

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۲۶

إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» «۱».

وللتدبر فی معنی الآية لا بد من التركيز علی جملة من النقاط:

الأولی: ما هی الغاية من إسكان النبی إبراهيم عليه السلام أهله فی الوادی الذی هو حرم مكة عند بيت اللَّه، أی المسجد الحرام؟ وقد كان إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر اتخذا المسجد الحرام بيتا لهما، وقد سمی حجر إسماعيل بذلک؛ لأنه كان من المرافق التی يستخدمها إسماعيل فی شؤون حياته، وتجيب الآية عن الغاية علی لسان النبی إبراهيم عليه السلام فی قوله تعالی: «لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» «۲».

وفی قوله تعالی: «وَعَهِدْنَا إِلَی إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِیَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» «۳».

فجعل الغاية من إسكان أهله فی حرم البيت هو إحياء بيت اللَّه الرحمن بإقامة الصلاة وسائر العبادات ومعالم الشريعة، فيحيوا شعائر التوحيد ومعالمه.

الثانية: إن الذی قام به إبراهيم من إسكان هاجر وإسماعيل الطفل الصغير- من دون وجود قرية أو قبيلة أو مأوی أو حمی أو كفيل أو ضامن فی وادی غير ذی زرع، وقد كان موضعا قاحلا وواديا قفرا لا ماء ولا كلأ- امتحان صعب وفداء وتضحية عظيمة، إلا أن المهم أن يُشيد التوحيد والدين فی تلک البقعة المقدسة كمركز انطلاق، وقد جعل علی عاتق ذرية إبراهيم عليه السلام.

الثالثة: ثم عطف كغاية مرتبة علی تلک الغاية: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَيْهِمْ».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۲۷

فسواء جعلت الفاء للترتب وترتيب الغاية تلو الغاية، أو لترتيب السبب علی المسبب «۱»، أی أن السبيل لتشييد الدين هو أن تهوی

الأفئدة إلى تلك الذريـة، إذ الضـمير في «تهوى» يعود إلى الذرية التى اسكنها إبراهيم عليه السلام ذلك الوادى، أى إسـماعيل ومن يتوالد منه.

وهـذه الذريـة قـد دعا في حقها إبراهيم وإسـماعيل دعوات أخرى كما في قوله تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» «۲».

فـدعا بأن تكون الإمامـة الإلهيـة في نسـله من إسـماعيل عليه السـلام إلى يوم القيامـة، ثم قال تعالى بعد تلك الآية مباشـرة: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ» «۳».

فوحدة سياق الآيات يقضى بأن الذرية التى دعا إبراهيم بأن تكون الإمامة فيها هى التى اسكنها عند البيت المحرم، وهى في البلد الذى دعا أن يكون آمنا،

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۲۸

وهى الذريـة التى دعا إبراهيم وإسـماعيل أن تكون فيها أمة مسـلمة، أى على درجة من التسـليم في الإسـلام على حذو وصف إبراهيم وإسماعيل بالمسلمين.

فهى الذرية من نسل إسـماعيل التى بقيت الإمامة في عقبه باستجابة دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في خصوص الذرية الطاهرة من نسل إسماعيل، وهم المعنيون في آخر سورة الحج: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ» «۱».

وهـم المصـطفون المجتبون من قبل اللَّه تعالى للإمامة وللشـهادة على أعمال الخلق، ويكون الرسول صـلى الله عليه و آله عليهم شـهيدا، فهم ذو وصلة بسيد الرسل صلى الله عليه و آله، وهناك تطابق واضح بين آية دعاء إبراهيم: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ».

وبين قوله تعالى: «قُل لَّاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى» «۲».

فإن قربى النبى صلى الله عليه و آله كما فرض اللَّه على الخلق مودتهم، بين على لسان إبراهيم عليه السلام في دعائه للَّه‌تعالى بأن تهوى قلوب الخلـق إليهم، وهـو معنى المودة والمحبـة إلى ذريته من نسـل إسـماعيل، الـذين دعـا في شـأنهم بـأن تكون الإمامـة فيهم، وهم المجتبون المسمون بالأمة المسلمة.

فجعلت مودتهم وهوى قلوب الخلق إليهم غاية لتشييد الدين.

والإسـكان كان بأمر من اللَّه تعالى، فبين إبراهيم الغاية من أمر اللَّه تعالى بالإسـكان، وهى إحياء شعائر ومعالم الدين من الصلاة والحج وتعظيم بيت اللَّه الحرام.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۲۹

ويترتب على ذلك ثمرة وفائدة قصوى تتمثل في قوله تعالى: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ».

سواء جعلنا حرف «الفاء» لترتيب الغاية على الغاية أى المسبب على السبب، أو لترتب السبب على المسبب.

لاسيما وأن تشـييد الـدين قـد جعل فعلا تقوم به تلك الذريـة، أى إن إشادة الدين لا يتم إلا بتوسـطهم وعلى يدهم ومن المسؤوليات الملقاة على عاتقهم، وهو بمعنى إمامتهم للخلق وهدايتهم له.

فمن ثم لا ـ بـد من أن تهوى إليهم أفئـدة من النـاس وهم أهـل الإيمان خاصـة، ولا بـد أن يفترض اللَّه مودتهم على الخلق لينقادوا لهم

ويتبعونهم.

فصار محور الصلاة والحج ومحور إقامة وإحياء شعائر ومعالم الدين من المسجد الحرام هو مودة قربى النبى صلى الله عليه و آله، وهوى أفئدة من الناس إليهم، أى ولايتهم.

فمركز رحى الدين مودة آل إبراهيم وآل إسماعيل وهم آل محمد عليهم السلام، وصار التوجه إلى بيت اللّه الحرام والتوجه إلى إقامة شعائر الدين هو توجه إليهم، فهذه هى غاية الحج وغاية الشعائر وتشييد الدين، وهى التوجه إليهم وبهم إلى اللّه تعالى.

وقد أشير فى كلام الباقر عليه السلام إلى برهان تاريخى أديانى من السيرة، وهو الذى أشار إليه عليه السلام فيما رواه الكلينى فى الصحيح عن الفضيل عن أبى جعفر عليه السلام نظر إلى الناس يطوفون حول الكعبة، فقال: «هكذا كانوا يطوفون فى الجاهلية، إنما أمروا أن يطوفوا بها ثم ينفروا إلينا، فيعلمونا ولايتهم ومودتهم، ويعرضوا علينا نصرتهم، ثم قرأ هذه الآية: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ» «۱».

وفى مصحح أبى عبيدة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام ورأى الناس بمكة وما

الامامة الالهية(۵)، ج‌۵، ص: ۱۳۰

يعملون، قال فقال: «كفعال الجاهلية، أما واللّه ما أمروا بهذا، وما أمروا إلا أن يقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم، فيمروا بنا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرتهم» «۱».

وفى رواية سدير عن أبى جعفر عليه السلام فى حديث قال يا سدير: «إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيعرضوا فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيعلمونا ولايتهم لنا، وهو قول اللّه: «وإنى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى* ثم أومأ بيده إلى صدره إلى ولايتنا»».

فيشير عليه السلام فيما مر إلى برهان من الملة الحنيفية الإبراهيمية، ويتضح هذا البرهان بالإجابة على التساؤل عن الفرق بين حج المشركين وحج المسلمين، وكيف تحول الحج الإبراهيمى «حج إبراهيم وإسماعيل» الذى توارثه قريش، من حج إبراهيمى إلى حج شرك وإشراك، ثم تبدل وعاد إلى الحج على الحنيفية البيضاء وهو الحج المحمدى «حج المسلمين»؟ حيث إن المشركين كانوا فى حجهم يتجردون عن الثياب فيحرمون ويطوفون بالبيت، ويسعون بين الصفا والمروة، ويقفون بعرفات، ويزدلفون للمشعر الحرام، ويقربون القرابين فى منى، فيأتون بكل تلك الطقوس والنسك التى تشاهد من المسلمين، فما الذى أوجد الفرق بين حج المشركين وحج المسلمين؟ وما الذى أوجد الفرق بين حج إبراهيم وحج المشركين؟

الجواب: لو فتشنا عن الفرق- بعد الالتفات إلى أن المشركين لا ينكرون أصل وجود اللّه، وإنما يتقربون إليه بالأصنام والأوثان اقتراحا منهم على ربهم- لا نجده إلا فى نبذ المشركين ولاية إبراهيم وإسماعيل والذرية الطاهرة من إسماعيل إلى

الامامة الالهية(۵)، ج‌۵، ص: ۱۳۱

ولاية الأصنام والأوثان، أى أنهم تركوا ما هو الغاية من الحج الذى بينه اللّه تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى: «رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ» «۱».

كما لا نجد الفرق من جانب حج المشركين مع حج المسلمين بعد أن خاطب اللّه عز وجل المسلمين بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إنما الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وأن خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» «۲».

فنهى اللّه عز وجل عن إحرام المشركين، وعد طوافهم بالبيت وسعيهم بين الصفا والمروة ووقوفهم بالمشاعر وتقديمهم القرابين ورميهم للجمرات وصلاتهم بالبيت اتجاه الكعبة وصدقاتهم واعتكافهم من المنهى عنه، مع أنه فى الصورة يشابه أفعال المسلمين، بينما شرَّع ذلك للمسلمين، وليس الفارق إلا إذعان المسلمين لولاية رسول اللّه صلى الله عليه و آله وإقرارهم بالشهادة الثانية ونبذهم لولاية الأصنام والأوثان التى لم ينزل اللّه بها من سلطان.

أي أن المسلمين في عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عملوا وأوفوا بما هو عماد وركن الحج الركين، وهو هوى أفئدتهم إلى الذرية الطاهرة التي هي محل استجابة دعوة إبراهيم بالإمامة والمودة لهم، فوفوا بما هو الغاية من الحج، ومن ثم صار حجهم على نهج حج إبراهيم.

فهذا برهان تاريخي أدياني تقتضيه الملة الحنيفية، دال على أن الحج وأعماله ونسكه من دون تولي وولاية الذرية المجتباة من نسل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام،

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۳۲

يقضي بكون أفعال الحج والعبادات كفعال المشركين.

وهذا هو الذي أشار إليه الإمام الباقر عليه السلام كبرهان تاريخي في الملة داعما لمفاد الآية الكريمة التي هي دليل قرآني أول.

ثم أشار عليه السلام في الروايات إلى دليل ثاني وهو قوله تعالى: «واني لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» «۱».

أي أن المغفرة يشترط فيها أربعة شروط، والشرط الرابع هو الهداية مضافا إلى الإيمان والتوبة والعمل الصالح.

ومن الواضح أن هذه الهداية أمر وراء أصل الإيمان باللَّه تعالى وبرسوله صلى الله عليه و آله، كما تشير إلى ذلك سورة الحمد، فبعد أن استعرضت التوحيد والنبوة والمعاد أشارت في ذيلها إلى أن النجاة يشترط فيها الاهتداء إلى صراط ومنهاج ثلة قد أنعم اللَّه عليهم وعصمهم من الغضب الإلهي ومن أن يضلوا.

وفي مصحح زيد الشحام قال: دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر عليه السلام فقال:

«يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: هكذا يزعمون فقال أبو جعفر عليه السلام: بلغني أنك تفسر القرآن؟ فقال له قتادة: نعم، فقال له أبو جعفر؟ بعلم تفسره أم بجهل؟ قال: لا بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك؟ قال قتادة: سل قال: أخبرني عن قول اللَّه عز وجل في سبأ: «وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ» فقال قتادة: ذلك من خرج من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت كان آمنا حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك اللَّه يا قتادة هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد حلال وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۳۳

قتادة إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وأن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت، ويحك يا قتادة ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يروم هذا البيت عارفا بحقنا يهوانا قلبه كما قال اللَّه عز وجل: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» فنحن واللَّه دعوة إبراهيم عليه السلام التي من هوانا قلبه قبلت حجته وإلا فلا، يا قتادة فإذا كان كذلك كان آمنا من عذاب جهنم يوم القيامة، قال قتادة: لا جرم واللَّه لا فسرتها إلا هكذا، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به» «۱».

وفي هذه الرواية مضافا إلى الأدلة السابقة، يشير عليه السلام إلى دليل آخر وهو قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ» «۲».

وكذا قوله تعالى: «انَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» «۳».

وقد أشير إلى هذا الدليل في رواية أخرى عن الصادق في حواره مع أبي حنيفة كما في علل الشرائع، قال: «حدثنا أبو زهير بن شبيب بن أنس عن بعض أصحابه، عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: كنت عند أبي عبد اللَّه عليه السلام إذ دخل عليه غلام من كندة فاستفتاه في مسألة فأفتاه فيها، فعرفت الغلام والمسألة فقدمت الكوفة، فدخلت على أبي حنيفة فإذا ذاك الغلام بعينه يستفتيه في تلك المسألة

بعينها، فأفتاه فيها بخلاف ما أفتاه أبو عبد اللّه عليه السلام، فقمت إليه فقلت ويلك يا أبا حنيفة إنى كنت العام حاجا فأتيت أبا عبد اللّه عليه السلام مسلّماً عليه فوجدت هذا الغلام يستفتيه فى هذه المسألة بعينها فأفتاه بخلاف ما أفتيته، فقال: وما يعلم جعفر بن محمد أنا أعلم منه، أنا لقيت الرجال وسمعت من أفواههم، وجعفر بن محمد

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۳۴

صحفى أخذ العلم من الكتب! فقلت فى نفسى واللّه لأحجن ولو حبوا. قال فكنت فى طلب حجة، فجاءتنى حجة فحججت، فأتيت أبا عبد اللّه عليه السلام فحكيت له الكلام فضحك ثم قال: أما فى قوله إنى رجل صحفى فقد صدق قرأت صحف آبائى إبراهيم وموسى، فقلت ومن له بمثل تلك الصحف، قال: فما لبث أن طرق الباب طارق وكان عنده جماعة من أصحابه فقال الغلام انظر من ذا فرجع الغلام فقال أبو حنيفة، قال أدخله فدخل فسلم على أبى عبد اللّه عليه السلام فرد عليه، ثم قال أصلحك اللّه أتأذن فى القعود؟ فأقبل على أصحابه يحدثهم ولم يلتفت إليه، ثم قال الثانية والثالثة فلم يلتفت إليه، فجلس أبو حنيفة من غير إذنه، فلما علم أنه قد جلس التفت إليه فقال: أين أبو حنيفة؟ فقيل هو ذا أصلحك اللّه، فقال أنت فقيه أهل العراق؟ قال نعم، قال: بما تفتيهم؟ قال: بكتاب اللّه وسنة نبيه صلى الله عليه و آله. قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب اللّه حق معرفته وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال نعم، قال: يا أبا حنيفة لقد ادعيت علما، ويلك ما جعل اللّه ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا صلى الله عليه و آله ما ورثك اللّه من كتابه حرفا فإن كنت كما تقول ولست كما تقول فاخبرنى عن قول اللّه عز وجل: «سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ» أين ذلك من الأرض؟

قال حسبه ما بين مكة والمدينة، فالتفت أبو عبد اللّه عليه السلام إلى أصحابه فقال: تعلمون أن الناس يقطع عليهم بين المدينة ومكة فتؤخذ أموالهم ولا يؤمنون على أنفسهم ويقتلون؟

قالوا نعم، قال فسكت أبو حنيفة، فقال يا أبا حنيفة أخبرنى عن قول اللّه صلى الله عليه و آله: «وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» أين ذلك من الأرض؟ قال: الكعبة، قال أفتعلم أن الحجاج بن يوسف حين وضع المنجنيق على ابن الزبير فى الكعبة فقتله كان آمنا فيها؟ قال: فسكت، ثم قال له يا أبا حنيفة، إذا ورد عليك شىء ليس فى كتاب اللّه ولم تأت به الآثار والسنة كيف تصنع؟ فقال أصلحك اللّه: أقيس وأعمل فيه برأيى، قال يا أبا حنيفة: إن أول من قاس إبليس الملعون قاس على ربنا تبارك وتعالى فقال: «أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» فسكت أبو حنيفة، فقال يا أبا حنيفة أيما أرجس البول أو الجنابة؟ فقال البول، فقال: فما بال

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۳۵

الناس يغتسلون من الجناية ولا يغتسلون من البول؟ فسكت، فقال يا أبا حنيفة أيما أفضل الصلاة أم الصوم؟ قال الصلاة، قال: فما بال الحائض تقضى صومها ولا تقضى صلاتها؟

فسكت، فقال يا أبا حنيفة: أخبرنى عن رجل كانت له أم ولد وله منها ابنة وكانت له حرة لا تلد فزارت الصبية بنت أم الولد أباها، فقام الرجل بعد فراغه من صلاة الفجر، فواقع أهله التى لا تلد وخرج إلى الحمام فأرادت الحرة أن تكيد أم الولد وابنتها عند الرجل فقامت إليها بحرارة ذلك الماء فوقعت عليها وهى نائمة، فعالجتها كما يعالج الرجل المرأة، فعلقت، أى شىء عندك فيها؟ قال: لا واللّه ما عندى فيها شىء، فقال يا أبا حنيفة: أخبرنى عن رجل كانت له جارية فزوجها من مملوك له وغاب المملوك، فولد له من أهله مولود وولد للمملوك مولود من أم ولد له فسقط البيت على الجاريتين ومات المولى، من الوارث؟ فقال جعلت فداك: لا واللّه ما عندى فيها شىء، فقال أبو حنيفة: أصلحك اللّه إن عندنا قوما بالكوفة يزعمون أنك تأمرهم بالبراءة من فلان وفلان وفلان فقال: ويلك يا أبا حنيفة لم يكن هذا، معاذ اللّه، فقال أصلحك اللّه: إنهم يعظمون الأمر فيهما، قال: فما تأمرنى؟ قال: تكتب إليهم، قال: بماذا؟ قال: تسألهم الكف عنهما، قال: لا يطيعونى، قال: بلى أصلحك اللّه إذا كنت أنت الكاتب وأنا الرسول أطاعونى، قال يا أبا حنيفة أبيت إلا جهلا، كم بينى وبين الكوفة من الفراسخ؟ قال أصلحك اللّه ما لا يحصى، فقال كم بينى وبينك؟ قال لا شىء، قال أنت دخلت على

فی منزلی فاستأذنت فی الجلوس ثلاث مرات فلم آذن لک، فجلست بغیر إذنی خلافا علی، کیف یطیعونی أولئک وهم هناک وأنا هاهنا؟ قال فقبل رأسه وخرج وهو یقول: أعلم الناس ولم نره عند عالم. فقال أبو بکر الحضرمی جعلت فداک الجواب فی المسألتین فقال یا أبا بکر سیروا فیها لیالی وأیاما آمنین، فقال: مع قائمنا أهل البیت، وأما قوله ومن دخله کان آمنا، فمن بایعه ودخل معه ومسح علی یده ودخل فی عقد أصحابه کان آمنا» «۱».

الامامة الالهیة(۵)، ج۵، ص: ۱۳۶

فهذا یدلل علی أن المراد من الأمن هو الأمن الأخروی والنجاة من النار، وأنه لا یجازی به إلا من وفی بعهد اللّه من إتیان الحج والعبادات وهوی فؤاده ومودته إلی الذریة من نسل إبراهیم وإسماعیل، وهم الذین فرضت مودتهم من قربی النبی وعترته علیهم السلام.

ویشیر إلی ذلک قوله تعالی فی آیات سورة البقرة من تقیید الأمم بمن آمن، کما فی قوله تعالی: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْیَوْمِ الآخر» «۱».

وفی روایة للباقر علیه السلام فی قول إبراهیم علیه السلام: «رَّبَّنَا إِنِّی أَسْکَنتُ مِن ذُرِّیَّتِی بِوَادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِندَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ» قال: «نحن بقیة تلک العترة، وقال کانت دعوة إبراهیم لنا خاصة» «۲».

وفی روایة أخری عن الباقر علیه السلام فی قوله تعالی: «رَّبَّنَا إِنِّی أَسْکَنتُ مِن ذُرِّیَّتِی بِوَادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِندَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ» فقال علیه السلام: «ما قال إلیه یعنی البیت، ما قال إلا إلیهم، أفترون اللّه فرض علیکم إتیان الأحجار والتمسح بها، ولم یفرض علیکم إتیاننا وسؤالنا وحبنا أهل البیت، واللّه ما فرض علیکم غیره» «۳».

وفی روایة أخری إشارة إلی دلیل آخر وهو قوله تعالی: «ثُمَّ لْیَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْیُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْیَطَّوَّفُوا بِالْبَیْتِ الْعَتِیقِ» «۴».

فالمفاد أن الطهارة والکمال المرجو من العیادة لا یتم إلا بلقاء الإمام علیه السلام.

وعن عبداللّه بن سنان، عن ذریح المحاربی قال: قلت لأبی عبد اللّه صلی الله علیه و آله: «إن اللّه

الامامة الالهیة(۵)، ج۵، ص: ۱۳۷

أمرنی فی کتابه بأمر فأحب أن أعمله، قال: وما ذاک؟ قلت: قول اللّه عز وجل: «ثُمَّ لْیَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْیُوفُوا نُذُورَهُمْ» قال: لیقضوا تفثهم لقاء الإمام، ولیوفوا نذورهم تلک المناسک، قال: عبداللّه بن سنان فأتیت أبا عبد اللّه علیه السلام فقلت: جعلت فداک قول اللّه عز وجل: «ثُمَّ لْیَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْیُوفُوا نُذُورَهُمْ» قال: أخذ الشارب وقص الأظفار وما أشبه ذلک، قال:

قلت: جعلت فداک إن ذریح المحاربی حدثنی عنک بأنک قلت له: «لْیَقْضُوا تَفَثَهُمْ» لقاء الإمام «وَلْیُوفُوا نُذُورَهُمْ» تلک المناسک، فقال: صدق ذریح وصدقت إن للقرآن ظاهرا وباطنا، ومن یحتمل ما یحتمل ذریح؟!» «۱».

الامامة الالهیة(۵)، ج۵، ص: ۱۳۹

شواهد من مناسک الحج ... ص: ۱۳۹

تجسد التوسل واللواذ بحضرة الأولیاء علیهم السلام ... ص: ۱۳۹

اشارة

ثم إن فی الحج جملة من الشواهد الأخری:

الشاهد الأول: مقام إبراهيم عليه السلام ... ص: ۱۳۹

قال تعالى: «وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» «۱».

فإن هـذا الأمر باتخاذ الحجر التى ركب عليها إبراهيم عليه السـلام فى بناء البيت مقاما مقدسا يصـلى عنده ويتوجه إليه، ويتوجه به إلى الكعبة، ينطوى على نفس المفاد من أن العبادات قد أخذ فيها التوجه بأولياء اللَّه وأصـفيائه من الأنبياء والأوصـياء عليهم السلام إلى اللَّه تعالى، لاسيما وأن هـذا المقام قد نصب فى بيت اللَّه الحرام معلما ليدل على أن العبادة التوحيدية للَّهلا تتم ولا تتحقق إلا بولاية أوليائه المصطفين، وأنه كما أن البيت قطب لرحى التوحيد، فبابه هم أولياؤه المصطفون آيات بينات فيه.

ولا يخفى ما فى التعبير بكلمـة «مقام» فإنه للتعظيم والتفخيم والتبجيل، مع أن هـذا الحجر ليس هو إبراهيم الخليل عليهما السـلام، وإنما أضيف إليه لملامسته جسد إبراهيم عليه السلام.

فالمكان الذى اتصل ولامس وماس جسده الشريف أمرنا فى السنة الإلهية أن نتخذه محلا للعبادة ونتوجه فيه ومنه إلى اللَّه تعالى.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۴۰

فما أشد المطابقة بين مفاد هذه الآية وما تقدم من قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا» «۱».

حيث جعل البارى تعالى المجى فى الحضرة النبوية موضعا يزدلف فيه إلى اللَّه تعالى ويتقرب فيه إليه ويتوجه فيه ومنه إليه.

فتلاحم التوجه إلى اللَّه بالتوجه بالنبى محمد وآله عليهم السـلام وإبراهيم وإسـماعيل عليهما السلام إلى اللَّه تعالى، فكانوا أبواب سماء الحضرة الإلهية.

الشاهد الثانى: حجر إسماعيل عليه السلام ... ص: ۱۴۰

فإن هذا الحجر قد جعل بضـميمة الكعبة مما يطاف به، وقد اسـتخدمه إسـماعيل لبعض مرافق معيشـته، وفى جملة من روايات الفريقين أن هاجر وإسماعيل مدفونان به، وفيها أن عشرات النبيين قد دفنوا تحته «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۴۱

فجعـل الحجر الـذى هو ذكرى لإسـماعيل عليه السـلام ولموضع قـبره مطافـا، ممـا يؤكـد على أن المـدار فى التوجه إلى اللَّه أن يكون بـالتوجه إليه عبر حججه وأصـفيائه، ومن هنـا جاء فى القرآن قوله تعالى: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» «۱»

فالبيت المقـدس وما يحويه من ذكريات الأنبياء عليهم السـلام ومقاماتهم وقبورهم وسـيلة للصـعود إلى عالم الطهارة والحظوة عند اللَّه تعالى.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۴۲

الشاهد الثالث: ولادة على عليه السلام فى الكعبة ... ص: ۱۴۲

وهذا التخصيص لعلى عليه السلام- وصى رسول اللَّه والمنزل منزلة نفس النبى صلى الله عليه و آله فى آية المباهلة، الذى هو من أهل البيت عليهم السلام فى آية التطهير، والذى هو ولى المؤمنين حصرا بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بنص آية التصدق فى الركوع-

بهـذه الآية بأن تكون ولادته فی جوف وبطن الكعبة وهی مركز القبلة الإلهية «۱»، ومركز الطواف ومركز بيت اللَّه الحرام، إشارة إلهية واضحة فی أنه كما يتوجه إلی الكعبة لأجل التوجه إلی اللَّه، فكذلك لا بد من التوجه بسيد الأوصياء الذی هو باب مدينة علم

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۴۳

النبی صلی الله عليه و آله لأجل التوجه به إلی اللَّه ورسوله صلی الله عليه و آله.

فالقران والاقتران بين الكعبة ومولد علی عليه السـلام فی التقدير والقضاء الإلهی تشـعير منه تعالی لشـعيرة الوسيلة، وأن النبی وأهل بيته عليهم السـلام هم وجه اللَّه الذی يتوجه به إليه تعالی، لاسـيما مع ما لابس ذلك الحدث من انشـقاق الجدار لفاطمة بنت أسد، ومكثها ثلاثـة أيام، ومحاولـة أبی طالب وقريش فتـح باب الكعبـة فلم ينفتـح، فعلموا أن ذلك بتدبير من اللَّه، وغيرها من الإرهاصات كتسـمية المولود، واللوح النازل من السماء والذی علق فی الكعبة وكان فيه اسم علی عليه السلام «۱».

وغير ذلك مما أبان عن كون هـذا الحـدث آيـة ربانيـة خص بها الباری علی ابن أبی طالب عليه السـلام، للتدليل علی اصـطفائه، وأنه الباب الذی منه يقصد إلی اللَّه ورسوله صلی الله عليه و آله.

ومن ثم عبر المحدث المتتبع نادرة زمانه الميرزا النوری بقوله: «لا يبعد القول بأن ولادة علی فی الكعبة من ضروريات المذهب» تدليلا علی كونها أمرا عقديا وليس مجرد حدثا تاريخيا «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۴۵

الشاهد الرابع: شواهد أخری ... ص: ۱۴۵

ومن الشواهـد علی البحث الذی نحن بصدده جملة الأعمال الأخری فی الحج كالسـعی بين الصـفا والمروة، فإن فيه بصـمة وعلامة من آدم صـفی اللَّه، ومـن ثم سـمی الصـفا، ومن حـواء وهی امرأة، ومن ثم سـمی مروة، حيث ورد أن آدم نزل علی الصـفا عنـدما أهبط، وحواء نزلت علی المروة.

مضافا إلی ارتباط اسـتحباب الشـرب من زمزم بنبع الماء لإسـماعيل وهاجر، وكـذلك عرفات حيث سـميت بـذلك لاعتراف آدم عليه السـلام بخطيئته إلی اللَّه تعالی بترك ما هو أولی، وكذلك المزدلفة حيث ازدلف آدم إلی ربه فيها، وكذلك ذبح الهدی كقربان فی منی وكافتداء عن إسماعيل.

وبالجملة فهذه النسك مضافا إلی كونها عبادات للَّهتعالی، فإنها مقترنة بمشاهد للأنبياء والمرسلين عليهم السلام مذكرة بهم احتفاء بهم وبأسمائهم، وتقربا باحتذائهم إلی اللَّه

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۴۶

كسبيل وباب إليه تعالی.

ومن ثم يتفطن إلی مـا فی لزوم الإتبـاع لسـنة الرسول صـلی الله عليه و آله من معنی التوجه به إلی اللَّه تعالی، كما فی قوله تعالی: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخر وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» «۱».

فإن التأسـی به توجه به إلی اللَّه، وتقـديمه إماما وافدا فی السـير والوفود علی اللَّه، فيكون سـيره وسـيرته سبيلا يتوجه به إلی اللَّه تعالی، وبابا يطرق للوفود علی الحضرة الإلهية، فلا يتوجه إلی اللَّه إلا بتقديمهم له إماما سواء فی نهج المعرفة أو فی سبيل العمل.

أو ليس الجـائی بمعارف القرآن من عنـد اللَّه تعالی هو رسول اللَّه صـلی الله عليه و آله فضـلا عن شـريعة الأعمال، فمن وحـد اللَّه قبل عنهم ومن قصده توجه بهم، وهذا هو معنی اتخاذهم عليهم السلام وسيلة إلی اللَّه تعالی.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۴۷

الوجه العاشر: قاعدة الإثبات بلا تشبيه والتنزيه بلا تعطيل ... ص: ۱۴۷

اشارة

فلا سبيل إلى التوحيد فى الذات والصفات والأفعال بالنحو الذى ذكرناه إلا بتقرير العظمة الإلهية والكمال اللا متناهى، وهو إنما يتقرر بتقرير أن الذات الإلهية أعظم من صفات الفعل ومن أسمائها وأفعالها.

إن السنن الإلهية فى الصفات والأفعال ونظام الوسائط هو نظام تنزيه بلا تعطيل وإثبات بلا تشبيه.

فإن تطبيق هذه القاعدة فى إقامة التوحيد خروجاً عن حد التشبيه وحد التعطيل فى مقام الأفعال، وكذلك فى مقام الصفات الفعلية والأسماء الحسنى، هو بتثبيت النسبتين المعبر عنه بنظام الوسائط.

وليس المراد من هذا العنوان ما قد يتخيل من أن الفعل إسناده إلى البارى من بعيد، وإسناده إلى الواسطة المخلوقة من قريب، فإن هذا نحو من التعطيل أو التشبيه بصدور الأفعال من العقول بأن يتصور نحو استغناء فى الوسائط عن البارى.

كما أنه ليس المراد من قرب إسناد هذه الأفعال من البارى التشبيه بتصوير مباشرة البارى للمادة أو النفس فى صدور الأفعال منه، فكم أخطأ من يتصور أن الإسناد من قرب يعنى الملابسة للمادة والمباشرة كمباشرة النفس، كما أنه يخطأ من

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۴۸

ينزه البارى عن ملابسة المادة، وعن المباشرة كمباشرة الروح، بأن يتصور أن إسناد الفعل للبارى على ضوء ذلك هو عن بعد، فإن البعد والقرب فى إسناد الأفعال ليس بمباشرة المادة وعدمها، ولا بملابسات الروح، ولا بالبعد والقرب الجغرافى والجسمانى، بل إنما هو بسيطرة القدرة ونفوذ القوة وهيمنة السلطان، فإن كل شىء قائم به.

فهذه القاعدة لا يقتصر فى مراعاتها كقاعدة أسسها أهل البيت عليهم السلام وكشفوا عنها، وتلقتها سائر المدارس الكلامية بالقبول- لسانا وشعارا لكنهم أخفقوا فى تطبيقها فى مجالات عديدة من مسائل العقيدة، فلربما ترى بعض المدارس تراعى تلك القاعدة فى تنظير معرفة التوحيد فى مقام الذات لكنها تخفق فى مراعاتها فى تنظير التوحيد فى مقام الصفات أو مقام الأفعال، بل قد وقع فى ورطة الإخفاق فى مراعاة القاعدة فى المقامين الآخرين جملة من المدارس الإسلامية فى مقام دون مقام؛ لأن أهل البيت عليهم السلام قد شددوا فى مراعاتها فى كل المقامات، فترى المدارس الإسلامية الأخرى قد جعلت جملة من الصفات الفعلية للبارى تعالى من منزلة ومقام الصفات الذاتية، فوقعت فى التشبيه كما فى قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ» «۱»

فجعلوا الأيدى هاهنا من الصفات الذاتية مع أنها من صفات الفعل.

وكذلك قوله تعالى: «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ» «۲»

وقوله تعالى: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى» «۳»

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۴۹

فجعلوا الأعين والعين صفة الذات بينما هى من صفات الفعل.

وكذلك قوله تعالى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فان* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام» «۱»

فجعلوا الوجه صفة الذات بينما هى صفة الفعل.

وقوله تعالى: «يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللَّهِ وإن كُنتُ لَمِنَ السَّآخرينَ» «۲»

فجعلوا الجنب صفة الذات بينما هو صفة الفعل.

وقوله تعالى: «يُرِيدُونَ أن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ» «۳»

وقوله تعالى: «وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» «۴»

فجعلوا الكلام صفة الذات بينما هو صفة الفعل.

وقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِی یُرْسِلُ الرِّیَاحَ بُشْرًا بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ» «۵»

وقوله تعالى: «وَقَالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّهِ مَغْلُولَهٌ غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ» «۶»

وقوله تعالى: «وَالسَّمَاء بَنَیْنَاهَا بِأَیْدٍ وإنا لَمُوسِعُونَ» «۷»

وقوله تعالى: «قَالَ یَا إِبْلِیسُ مَا مَنَعَکَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدَیَّ أَسْتَکْبَرْتَ أَمْ

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۱۵۰

کُنتَ مِنَ الْعَالِینَ» «۱»

وغیرها من الصفات الأخرى فی القرآن الکریم، فجعلوها من صفات الذات فوقعوا فی أعظم تشبیه للخالق بالمخلوقات کأحکام التجسیم أو التشبیه بالنفس والروح أو الفعل.

فجعلوا لعین الذات الإلهیهٔ عینا ویدا وجنبا ووجها وساقا ونحو ذلک، بینما هناک فرق بین ثبوت صفات الفعل للذات الإلهیهٔ وثبوت صفات الذات للذات الإلهیهٔ، فإن صفات الذات عین الذات، بینما صفات الفعل هی عین الفعل لا عین الذات، نعم هی قائمهٔ ومملوکهٔ للذات الإلهیهٔ، کمملوکیهٔ جمیع المخلوقات للذات الإلهیهٔ، ومن هذا القبیل قوله تعالى: «وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِینَ یُلْحِدُونَ فِی أَسْمَآئِهِ سَیُجْزَوْنَ مَا کَانُواْ یَعْمَلُونَ» «۲»

فإن هذه الأسماء أضیفت إلیه تعالى بلام الملکیهٔ والاختصاص للدلالهٔ على أنها مملوکهٔ له تعالى، وهذه الأسماء هی عین صفات الفعل، کما مر بیان ذلک فی روایهٔ هشام بن الحکم عن الصادق علیه السلام.

بینما أکدت مدرسهٔ أهل البیت علیهم السلام على أن هذه الصفات صفات فعل ولیست صفات الذات، وأن من یسند هذه الصفات إلى الذات على نحو صفات الذات فقد وقع فی التشبیه.

ومن ثم ورد عن أمیر المؤمنین وعنهم علیهم السلام أنهم عین اللّه الناظرهٔ ولسانه الناطق وجنبه وعیبهٔ علمه، وأنهم یده الباطشهٔ وأذنه الواعیهٔ.

وکذلک وقع أکثرهم فی التشبیه فی إسناد الأفعال إلیه تعالى، فجعلوا إسناد تلک

الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۱۵۱

الأفعال على نمط إسنادها إلى غیر اللّه تعالى، وهو إثبات بتشبیه کما فی العدید من الآیات:

قوله تعالى: «فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِینَ» «۱»

وقوله تعالى: «یَا حَسْرَهً عَلَى الْعِبَادِ مَا یَأْتِیهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا کَانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُون» «۲»

وقوله تعالى: «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِیرًا» «۳»

وقوله تعالى: «رَّضِیَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ» «۴»

وکذلک قوله تعالى: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِی تُجَادِلُکَ فِی زَوْجِهَا وَتَشْتَکِی إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ یَسْمَعُ تَحَاوُرَکُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ» «۵»

وکذا قوله تعالى: «لَقَدْ نَصَرَکُمُ اللّهُ فِی مَوَاطِنَ کَثِیرَهٍ» «۶»

وقوله تعالى: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ یَنصُرْکُمْ وَیُثَبِّتْ أَقْدَامَکُمْ» «۷»

وقوله تعالى: «وَاللّهُ یُؤَیِّدُ بِنَصْرِهِ مَن یَشَاء» «۸»

.الامامهٔ الالهیهٔ(۵)، ج۵، ص: ۱۵۲

وقوله تعالى: «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِی الْکَهْفِ سِنِینَ عَدَدًا» «۱»

وقوله تعالى: «کَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِیلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِینَ» «۲»

وقوله تعالى: «لَمَقْتُ اللَّهِ أكبر مِن مَّقْتِكَمْ أَنفُسَكَمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمان فَتَكْفُرُونَ» «۳».

وغيرها من سائر الأفعال التى أسندت فى ظاهر الكتاب إلى الذات الإلهية، فحمل الإسناد فى هذه الأفعال على نمط الإسناد إلى المخلوقين، وهو ما يستلزم القول بطرو الأحوال الحادثة على الذات الإلهية، وسبحان اللَّه عما يصفون.

وهو من التشبيه فى الأفعال إما بالأفعال الصادرة من النفس أو الروح أو الصادرة من الجسم، بينما إسناد هذه الأفعال المفروض فيه أنه بنمط آخر، كما فى إسناد أى فعل يصدر من المخلوق، فإن له نسبة إسناد إلى اللَّه لا تستلزم الجبر، فإن نسبة الأفعال إلى اللَّه هى بنمط ما منه الوجود، أى ما كان ابتداء ونشأة وإبداع وجوده منه تعالى.

ونسبة الأفعال نفسها إلى المخلوقين نسبة ما به الوجود، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «وأن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وأن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا* مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا» «۴»

.فتدل الآية على أن تقدير الأمور كلها من عند اللَّه تعالى، كما تدل على أن

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۵۳

مطلق الخير وإن صدر على يد العبيد وأسند إليهم، إلا أن منشأه وابتداءه هو من عند اللَّه تعالى، وقد ورد فى الحديث القدسى: «إن اللَّه أولى بحسنات العبد من نفسه كما إن العبد أولى بالسيئات من اللَّه» «۱».

وبعبارة أخرى:

إن جملة هذه الأفعال هى أفعال من يلابس المادة أو الجسم أو النفس، وصدورها عن البارى لا بالملابسة، وإن كان ذلك الفعل لا ينفك عن الملابسة لتقوم هويته بتلك الملابسة، وتقوم نسبته إلى النفس أو المادة أو الجسم، فمن ثم تكون له نسبتان:

الأولى: نسبة إلى البارى بنحو الإبداع.

الثانية: نسبة إلى المخلوق بنحو التكوين أو التوليد.

و من ثم أشير إلى هاتين النسبتين فى جملة من الآيات، وأسند الفعل إلى كل من الذات الإلهية، وإلى ذات المخلوقين، كما فى:

قوله تعالى: «وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» «۲»

.وقوله تعالى: «وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ» «۳»

.وقوله تعالى: «وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا» «۴»

.فأسند تعالى التأييد إلى كل من الذات الإلهية وإلى روح القدس والجنود الغيبية، فدخل حرف «الباء» على مجرى الفيض وواسطة الإيجاد، وكذا فى:

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۵۴

قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ» «۱»

.وكما فى قوله تعالى: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ» «۲»

.وقوله تعالى: «حَتَّى إذا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ» «۳»

.وقوله تعالى: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» «۴»

.وقوله تعالى: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفسَ حِينَ مَوْتِهَا» «۵»

.فأسند الموت فى هذه الآيات إلى ثلاث نسب، أى إلى كل من أعوان ملك الموت من الملائكة والرسل، وإلى ملك الموت نفسه، وإلى الذات الإلهية.

معنی نسبة الفعل بإسنادين لفاعلين بالطولية ... ص: ۱۵۴

وقد عبر عن التوفيق بين النسب السابقة بأنها على نحو النسب الطولية، وقد يوهم هذا التعبير ما مر من إسناد الفعل إلى الذات الإلهية من بعد، وإسناد الفعل من قرب إلى المخلوقين، وهذا معنى خاطئ للطولية.

بـل المراد من الطوليـة تقوم كـل من المخلوق وفعله بالـذات الإلهيـة، فكـل شـيء قائم به، وكل حول وقوة به تعالى، أى أن المراد من الطولية افتقار الفعل والفاعل من المخلوقين إليه تعالى، والتقوم والانتهاء إليه.

وإن نسبة الفعل إلى ملك الموت وأعوانه ليس بنحو يستقل عن نسبة الفعل إلى

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۵۵

البـارى، فنسبة الفعـل إليهم ليست فى عرض يغـاير ويباين ويسـتقل عن ذات النسـبة التى للبارى تعالى، بل النسـبة إليهم متقومـة بتلك النسبة التى إليه تعالى.

ويضاف أن هناك مغايرة بين النسـبتين فى أن النسـبة التى للملائكة ولملك الموت هى بمباشـرة ملك الموت وأعوانه لنحو ما للمادة، ولارتباط معين بالروح، بخلاف نسـبة الإماتـة للبارى تعالى، فإنها ليست بتعلق ببدن الميت ولا بمحاذاة روحية، بل بنسـبة إبداعية خالية من شوب نقائص الاحتياج إلى المادة أو ما يتعلق بالمادة كالنفس.

ومن ثم ورد عنهم عليهم السـلام أن معنى غضب اللَّه أن يغضب أوليـاؤه، وأن ابتهـاجه تعـالى هـو ابتهـاج أوليـائه المصـطفين وهكـذا، وإليك بعض الروايات:

فى الكافى عن الحارث بن المغيرة النصرى قال: سئل أبو عبد اللَّه عليه السلام عن قول اللَّه تبارك وتعالى: «كُلُّ شَیْءٍ هَالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ» فقال عليه السلام: «ما يقولون فيه؟ قلت:

يقولون: يهلك كل شيء إلا وجه اللَّه. فقال: سبحان اللَّه لقد قالوا قولا عظيما، إنما عنى بذلك وجه اللَّه الذى يؤتى منه» «۱».

وعن حمزة بن بزيع، عن أبى عبـد اللَّه عليه السـلام فى قول اللَّه عز وجـل: «فَلَمَّا آسَـفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ» فقال: إن اللَّه عز وجل لا يأسـف كأسفنا ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه وسخطهم سخط نفسه؛ لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه، فلذلك صاروا كذلك، وليس أن ذلك يصل إلى خلقه، لكن هذا معنى ما قال من ذلك وقد قال: «من أهان لى وليا فقـد بارزنى بالمحاربـة ودعانى إليها»، وقال: «من يطع الرسول فقـد أطاع اللَّه» وقال: «إن الـذين يبايعونك إنما يبايعون اللَّه، يد اللَّه فوق أيديهم»، فكل هذا وشبهه على ما ذكرت لك،

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۵۶

وهكـذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشـياء مما يشاكل ذلك، ولو كان يصل إلى اللَّه الأسف والضـجر، وهو الـذى خلقهما وأنشأهما لجاز لقائل هـذا أن يقول: إن الخالق يبيـد يوما ما؛ لأنه إذا دخله الغضب والضـجر دخله التغيير، وإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة، ثم لم يعرف المكون من المكوَّن، ولاـ القـادر من المقـدور عليه، ولا الخالق من المخلوق، تعالى اللَّه عن هـذا القول علوا كبيرا، بل هو الخالق للأشياء لا لحاجة، فإذا كان لا لحاجة استحال الحد والكيف فيه، فافهم إن شاء اللَّه تعالى «۱» «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۵۷

وعن زرارة، عن أبى جعفر عليه السـلام قال: سألته عن قول اللَّه عز وجل: «وَمَا ظَلَمُونَا وَلکِنْ کَانُوا أَنْفُسَـهُمْ یَظْلِمُونَ» قال: إن اللَّه تعالى أعظم وأعز وأجـل وأمنع من أن يظلم ولكنه خلطنـا بنفسه، فجعـل ظلمنـا ظلمه، وولايتنـا ولاـيته، حيث يقول: «إِنَّمَـا وَلِیُّکُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِینَ آمَنُواْ» يعنى الأئمة منا.

ثم قال فى موضع آخر: «وَمَا ظَلَمُونَا وَلکِنْ کَانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ» «۱» «۲».

وكذلك ما ورد من الأفعال التى هى أليق بالمخلوقين من الخالق، فإن اللَّه لا- يعتريه ما يعترى النفوس والأرواح من الأحوال والعوارض، ولا يقتصر قصور العقول.

ومن ثم نخرج بقاعدة عامة أن جملة صفات الأفعال وأسمائها، والأفعال هى مخلوقات لا هى عين الخالق، ولا هى أمور تعترى ذاته، وإنما هى مخلوقات تقوم به صدوراً، وهذه المخلوقات لها نسب إلى ذوات مخلوقة، فتتحقق فيها نسبتان نسبة إلى ذات الخالق تعالى، ونسبة إلى تلك الذوات المخلوقة، إلا أن نسبتها إلى الذات الإلهية نسبة الصدور من الخالق، وما منه الوجود ينشأ ويبتدئ، ونسبتها إلى

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۵۸

تلك الذوات ما به الوجود، أى ما يجرى به الفيض الإلهى ويظهر بصورته ويلابسه، أى يلابس الفعل الإلهى تلك الذوات المخلوقة.

ومن ذلك يتبين أن الارتباط بالذات الإلهية وعبر فعله تعالى والذى يكون اسماً وصفة ونفس تلك الأفعال هى ذوات مخلوقة شريفة، وهى آيات دالة وكاشفة عن العظمة الإلهية، وعظمة الكمال الذاتى.

وبذلك يظهر إن الوصول والزلفى والتوجه إلى الذات الإلهية لا يقدر عليه المخلوق إلا عبر التوجه بتلك الآيات والذوات الشريفة المخلوقة، فهى وسائل للمعرفة الإلهية والقربى والزلفى للحضرة الإلهية.

فلا سبيل إلى التوحيد فى الذات والصفات والأفعال بالنحو الذى ذكرناه إلا بتقرير العظمة الإلهية والكمال اللامتناهى، وهو إنما يتقرر بتقرير إن الذات الإلهية أعظم من صفات الفعل ومن أسمائها وأفعالها، وما هذه الأمور إلا آيات وعلامات على عظمة الذات الإلهية.

لأن هذه الأمور حيث اشتملت على نسب خلقية، فلا محال أن تكون محدودة، فلا تكون عين الخالق، بل مخلوقة دالة عليه، ووسيلة إلى معرفة عظمته، وأنه فوقها وهى دونه، ومن ثم هى متكثرة لمحدوديتها، وهو الواحد الأحد الذى ليس له حد يكثره.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۵۹

الفصل الثانى تحليل مفاد وأبعاد يا محمد ويا على ... ص: ۱۵۹

اشارة

فهذا اللفظ الحاكى للنداء والتوجه هو بنفسه عبادة راجحة أصيلة من جذر تعاليم الدين، فهو ذكر صلاتى عظيم ومن أحكامه الفقهية الثابتة بطلان صلاة كل مسلم دان بدين الإسلام إن لم يأت به، فكيف بما هو خارج الصلاة!!

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۶۱

المقام الأول: مقام النداء ... ص: ۱۵۹

اشارة

فيكون التركيز التربوى فى الصلاة على التوجه لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله وندائه ومخاطبته، ومخاطبة عباد اللَّه الصالحين تجذير لهذه السنة الدينية الأصيلة لدوام التوجه والاتصال برسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعدم الانقطاع عنه، وأن بالتوجه إليه يتوجه إلى اللَّه تعالى.

إن قول «يا محمد» أو «يا على» فى التركيب اللغوى يشتمل على «يا» النداء والمناداة، ويتضمن فى معناه توجه من المنادى إلى المنادى، كما أنها تشتمل على فعل التنبيه، أى جلب التفات المنادى للمنادى، فهى فى قوام معناها توجه وخطاب يوطأ لما بعده من الكلام، وهو فى نفسه بهذا القدر ليس إلا توجه وخطاب ونداء ونحو زيارة لفظية ومعنوية من بعد، كما فى قول المصلى المسلم فى داخل الصلاة: «السلام عليك أيها النبى ورحمة اللَّه وبركاته» فهو فى لب معناه زيارة وتوجه ونداء، فإن عبارة «أيا» من أدوات النداء مثلها مثل «يا»

النداء؛ لأن النداء قد یصاغ ب «یا» وقد یصاغ ب «أیا» ونحوه.

فهذا اللفظ الحاکی للنداء والتوجه هو بنفسه عبادة راجحة أصیلة من جذر تعالیم الدین، فهو ذکر صلاتی عظیم، ومن أحکامه الفقهیة الثابتة بطلان صلاة کل مسلم دان بدین الإسلام إن لم یأت به فکیف بما هو خارج الصلاة!!

وکذلک من أذکار الصلاة الشریفة قول المصلی: «السلام علینا وعلی عباد اللَّه

الامامة الالهیة(۵)، ج۵، ص: ۱۶۲

الصالحین» فإنه توجه وخطاب إلی عباد اللَّه الصالحین، وتکرار ذلک الخطاب والذکر فی الخمس الصلوات یمثل تربیة من الدین الحنیف للمسلم علی التوجه والنداء الیومی المکرر لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله ولعباد اللَّه الصالحین أی المصطفین من حجج اللَّه تعالی.

هذا فضلا عما لو أتی العابد بالنوافل المرتبة وغیرها، فإن هذا الذکر والتوجه والنداء سیتکرر عشرات المرات.

فیکون الترکیز التربوی فی الصلاة علی التوجه لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله وندائه ومخاطبته ومخاطبة عباد اللَّه الصالحین تجذیر لهذه السنة الدینیة الأصیلة لدوام التوجه والاتصال برسول اللَّه صلی الله علیه و آله وعدم الانقطاع عنه، وأن بالتوجه إلیه یتوجه إلی اللَّه تعالی، کما أن بدوام التوجه إلی الکعبة وهی أحجار یحصل التوجه إلی الباری تعالی، فقد جعل اللَّه فی سورة البقرة تولیة الوجه شطر المسجد الحرام هو من التولیة لوجه اللَّه تعالی، فإذا کان المسجد الحرام استحق اسم وجه اللَّه فکیف بخاتم الأنبیاء صلی الله علیه و آله وخاتم الأوصیاء علیه السلام؟!

وقد ندب القرآن الکریم إلی التوجه إلیه فقال اللَّه تعالی آمرا الناس: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا» «۱».

وقال تعالی فی صفة المنافقین: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ» «۲».

فالذی ینقطع عن التوجه برسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقد أخذ بسنة إبلیس فی استکباره عن

الامامة الالهیة(۵)، ج۵، ص: ۱۶۳

التوجه بآدم الذی هو خلیفة اللَّه فی أرضه.

ولیس وراء التحسس والإثارة علی هذا الذکر الشریف «یا محمد» و «یا علی» من ثمرة إلا قطع الصلة والاتصال والارتباط والتوجه للنبی صلی الله علیه و آله والوصی علیه السلام، مع أن هذا الذکر درس فی الصلاة التی هی عمود الدین أقیم لبیان أن الصلاة لا تقبل من دون نداء النبی صلی الله علیه و آله والتوجه إلیه والزیارة له ولو عن بعد، فضمنت الصلاة زیارة النبی صلی الله علیه و آله لبیان أن الصلاة کما هی معراج المؤمن هی أیضا حضور وتوجه إلی النبی صلی الله علیه و آله وزیارة له، وأنها لا تصح إلا بذلک کما لم تصح عبادة إبلیس عندما رفض التوجه بآدم علیه السلام فی عبادته، فکان جزاؤه أن طرد عن باب رحمة اللَّه مذؤوما مدحورا رجیما، ووجبت علیه اللعنة الإلهیة إلی یوم الدین، وقد قال تعالی: «انَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ» «۱».

وبضم قول اللَّه تعالی: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ» «۲»

إلی الآیة السابقة نفهم أن الذی لا یتوجه إلی رسل اللَّه وحججه علیهم السلام لا تفتح له أبواب السماء لصعود عبادته ودعائه، وهذا ما یفسر لنا سر ترکیز الدین علی زیارة النبی صلی الله علیه و آله وندائه والتخاطب معه والتوجه إلیه ولو من بعد الدیار فی کل صلاة، کی تقبل وتصح وترتفع وتفتح لها أبواب السماء، بل لم یقتصر علی زیارة النبی فی الصلاة الیومیة مفروضة ومندوبة، وإنما ضمنت زیارة بقیة الحجج علیهم السلام الذین هم عباد اللَّه الصالحین، کما نص علی ذلک القرآن الکریم حیث وصف جملة من الأنبیاء بمصطلح العبد الصالح.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۶۴

بل ذهب الصدوق فى الفقيه والمقنع والهداية، والنراقى فى المستند، والنورى فى المستدرك، والمفيد فى المقنعة، والطوسى فى النهاية، والحلبى فى الكافى، وسلار فى المراسم، وابن براج فى المهذب، وغيرهم، إلى هذه الصورة من التسليم الصلاتى، وصورته اللفظية كما فى الفقيه: «السلام عليك أيها النبى ورحمة اللَّه وبركاته، السلام على محمد بن عبداللَّه خاتم النبيين، السلام على الأئمة الراشدين المهديين، السلام على جميع أنبياء اللَّه وملائكته ورسله، السلام علينا وعلى عباد اللَّه الصالحين» «۱».

وأما صورة التسليم بالكيفية المتعارفة وهى: «السلام علينا وعلى عباد اللَّه الصالحين» فعليها عامة المذاهب الإسلامية بشى يسير من الاختلاف.

ونضيف هنا أن النداء للرسول والأئمة عليهم السلام ذكر عبادى متواتر فى الزيارات المأثورة للنبى صلى الله عليه و آله عند الفريقين والمتواتر من زيارات أئمة أهل البيت عليهم السلام.

فأما من طرق العامة فقد جاء فى كتاب المغنى:

ويروى عن العتبى قال: كنت جالسا عند قبر النبى صلى الله عليه و آله فجاء أعرابى فقال:

السلام عليك يا رسول اللَّه سمعت اللَّه يقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» وقد جئتك مستغفرا لذنبى مستشفعا بك إلى ربى. ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

اًثم انصرف الإعرابى، فحملتنى عينى فنمت فرأيت النبى صلى الله عليه و آله فى النوم فقال: يا عتبى إلحق الإعرابى فبشره أن اللَّه قد غفر له.

ويستحب لمن دخل المسجد أن يقدم رجله اليمنى ثم يقول بسم اللَّه والصلاة على رسول اللَّه اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد واغفر لى وافتح لى أبواب

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۶۵

رحمتك وإذا خرج قال مثل ذلك، وقال وافتح لى أبواب فضلك، لما روى عن فاطمة بنت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ورضى اللَّه عنها أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله علمها أن تقول ذلك إذا دخلت المسجد.

ثم تأتى القبر فتولى ظهرك القبلة وتستقبل وسطه وتقول السلام عليك أيها النبى ورحمة اللَّه وبركاته، السلام عليك يا نبى اللَّه وخيرته من خلقه، أشهد أن لا اله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، أشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، ونصحت لأمتك، ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وعبدت اللَّه حتى أتاك اليقين، فصلى اللَّه عليك كثيرا كما يحب ربنا ويرضى، اللهم اجز عنا نبينا أفضل ما جزيت أحدا من النبيين والمرسلين، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته يغبطه به الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم إنك قلت وقولك الحق: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» وقد أتيتك مستغفرا من ذنوبى، مستشفعا بك إلى ربى، فاسلك يا رب أن توجب لى المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه فى حياته، اللهم اجعله أول الشافعين، وانجح السائلين، وأكرم الآخرين والأولين، برحمتك يا أرحم الراحمين. ثم يدعو لوالديه ولإخوانه والمسلمين أجمعين «... ۱».

فترى فى رواياتهم يبنون على مشروعية نداء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ورجحانه، وأنه نمط من الخطاب والزيارة للنبى صلى الله عليه و آله، بل يشرعونه لقادتهم ولمن يأتمون به.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۶۶

نداء الرسول صلى الله عليه و آله فى العبادات نوع توسل ... ص: ۱۶۶

فيجد المتتبع فى مصادر العامة تظافر الكلمات على مشروعية النداء ب «يا رسول اللَّه» أو «يا محمد» أو «يا نبى اللَّه»، وأن النداء نحو خطاب وزيارة وتوسل واستغاثة واستشفاع، وأنه من الأذكار الدينية الراجحة، ولا وسوسة فى رجحانه وعباديته.

ثم إن مشروعية النداء ورجحانه للنبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام يفيد رجحان التوجه للنبى صلى الله عليه و آله وأنه وسيلة لعبادة اللَّه، لأن كل شيء يؤتى به فى الصلاة لابد أن يكون عبادة.

فهذا التوجه إلى النبى صلى الله عليه و آله أثناء الصلاة لا بد أن يكون مؤداه عبادة اللَّه، لاسيما على المقولة القائلة بأن أجزاء الصلاة عبادتها ذاتية أى مما يمكن أن يتقرب به إلى اللَّه ويتعبد به، وكذلك التوجه إلى عباد اللَّه الصالحين.

وهذه الضرورة التى يمارسها كل مسلم من أبناء جميع المذاهب الإسلامية باستقلالها وجه مستقل برهانى، وضرورة الشريعة على عبادية التوسل، وأنه من وجوه العبادة الكبرى التى يمارسها كل مسلم

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۶۷

المقام الثانى: مقام الاستغاثة ... ص: ۱۶۷

اشارة

يظهر أن أدلة الشفاعة القرآنية للرسول وأهل بيته عليهم السلام هى بنفسها مقتضية لتسويغ بل الحث على طلب الحوائج من النبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام لأن دأب المحتاجين على سؤال حوائجهم من الشفعاء والتوجه بطلبها إليهم.

إذا أريد من «يا محمد» و «يا على» الاستغاثة، وهو بلحاظ متبوع الذى يذكر بعد النداء والمنادى من الطلب والتوسل فى قضاء الحاجات، أو بتقدير نستغيث بك «يا محمد» و «يا على».

صور الاستغاثة بأهل البيت عليهم السلام ... ص: ۱۶۷

وحينئذ فللتوسل والاستغاثة بهم بهذا المعنى صور عديدة منها:

الصورة الأولى ...: ص: ۱۶۷

أن يقول الداعى المتوسل يا رسول اللَّه أو يا ولى اللَّه ادع اللَّه أن يرزقنى، أو يقضى حاجتى وهكذا.

وقد نص القرآن الكريم على كونه سنة إلهية، كما فى قوله تعالى على لسان أبناء يعقوب: «قَالُواْ يَا أَبانا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ* قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۶۸

رَبِّىَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» «۱».

وقد ذكر فى ذيل السورة قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» «۲».

فمضافا إلى تقرير النبى المعصوم صلى الله عليه و آله لطلب أبنائه، كذلك قد قرر القرآن الكريم فى شريعة القرآن هذا النمط.

وهذا يدل على سنة إلهية فى ناموس الدعاء، وأنه من آداب الدعاء التوجه بالطلب إلى ولى اللّه لأن يطلب الولى بما له من وجاهة عند اللّه حاجة الداعى، وهذا نظير مطابق لما يحدث من استغاثة بالشفيع والوسيط والوجيه لأن يطلب ويتشفع فى قضاء الحاجة، فيكون الذى يتوجه بالطلب مباشرة هو الشفيع دون المشفوع له، فهذا الرسم المرسوم فى كيفية الدعاء من الآداب التى أكد عليها القرآن الكريم.

ومنه يعلم أن إنكار ذلك محاددة للقرآن الكريم.

الصورة الثانية ...: ص: ۱۶۹

أن يقول الداعى أسألك يا اللّه بحق رسولك ونبيك صلى الله عليه و آله، أو وليك أن ترزقنى أو أن تقضى حاجتى أو أن ترفع كربتى، أو يا اللّه أتوجه إليك بوجاهة نبيك أو وليك عليهم السلام، وقد قامت روايات الفريقين على مشروعية ذلك، فمن طرق السنة ما ذكره فى الأذكار النووية:

وروينا فى كتاب الترمذى، وابن ماجه عن عثمان بن حنيف رضى اللّه عنه، أن

الامامة الالهية(۵)، ج‌۵، ص: ۱۶۹

رجلا ضرير البصر أتى النبى صلى الله عليه و آله فقال: ادع اللّه تعالى أن يعافينى، قال: «إن شئت دعوت، وأن شئت صبرت فهو خير لك» قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه و آله نبى الرحمة، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى، اللهم فشفعه فى» «۱».

وقال ابن عابدين فى حاشية رد المحتار: ج ۶ ص ۷۱۶: نعم ذكر العلامة المناوى فى حديث: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبى الرحمة، عن العز ابن عبد السلام: أنه ينبغى كونه مقصورا على النبى صلى الله عليه و آله وأن لا يقسم على اللّه بغيره، وأن يكون من خصائصه. انتهى

وقد قامت الضرورة بأن هذا النمط نحو من التوسل والتشفع الراجح وإنما الكلام فى تعيين الأرجح فى الصورتين والصور الآتية.

أقول: وأودنا كلامه وأن لم نوافقه فى الحصر، بل الخصيصة والحصر هى فى امتياز سيد الأنبياء بالشفاعة الكبرى لا فى أصل الشفاعة، كيف وقد نص القرآن الكريم على استشفاع أبناء يعقوب به واستشفاع بنى إسرائيل بموسى عليه السلام فى مواطن عديدة، كما فى قوله تعالى: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا» «۲»

.وقوله تعالى: «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ» «۳».

وغيرها من الموارد القرآنية إلا أن الغرض من ذكر كلامه هو تقريره للتوجه بالنبى صلى الله عليه و آله فى الدعاء.

الامامة الالهية(۵)، ج‌۵، ص: ۱۷۰

الصورة الثالثة ... ص: ۱۷۱

أن يقول المستغيث يا رسول اللّه أو يا ولى اللّه أسألك قضاء الحاجة الكذائية أو يا رسول ويا ولى اللّه أغثنى، بمعنى أن يكون الطلب من النبى أو الولى عليه السلام لينجز الأمر على يديه وبإرادته باعتباره محل إرادة اللّه وموضع مشيئته، وليس المعنى والاعتقاد أن النبى

الأكرم صلى الله عليه و آله أو الولى المعصوم عليه السلام يملك إنجاز الفعل بنفسه على وجه الاستقلال والاستغناء عن اقدار اللّه تعالى.

شواهد الصورة الثالثة ... ص: ۱۷۰

اشارة

وقد نص القرآن الكريم على الصورة الثالثة فى العديد من الآيات منها:

الشاهد الأول ... ص: ۱۷۰

فى شأن الرجل الذى استعان بموسى عليه السلام فى قوله تعالى: «وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلان هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ» «۱».

وتقريب الآية من وجهين ... ص: ۱۷۰

الجهة الأولى: إن الآية تخبر عن وقوع حقيقة الاستغاثة بما لها من معنى وحقيقة من المستغيث، وأن المستشفع به كان النبى موسى عليه السلام، فحقيقة ما وقع من الطلب هو استغاثة حقيقية من الرجل المظلوم إلى النبى موسى عليه السلام، وأن النبى موسى عليه السلام قد أجابه ولبى استغاثته، مما يفيد كون الاستغاثة بالأنبياء عليهم السلام من السنن بعد تلبية الاستغاثة من النبى المرسل من أولى العزم.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۷۱

الجهة الثانية: تقرير القرآن الكريم لكون ما وقع استغاثة وأنه قد تجاوب مع هذا الفعل من النبى المرسل.

الشاهد الثانى ... ص: ۱۷۱

قال تعالى: «قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ* قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وانى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ* قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فإنما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فإن رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ* قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَايَهْتَدُونَ* فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ» «۱».

فإن الطلب متعلق بأمر غيبى أى ما تتعلق به القدرة الغيبية، وهو المجى بالعرش قبل أن يأتى قوم سبأ وملكتهم إلى سليمان، والذى سأل ذلك الطلب هو نبى اللّه سليمان عليه السلام، والمسؤول والمطلوب الذى وجه إليه الطلب هو الملأ الحاضرين فى مجلسه، فهو سؤال متعلق بالحاجة من الغيب لكنه قد طلب من أولياء اللّه تعالى، أى من أعطاهم اللّه القدرة التكوينية والولاية التكوينية على الأمور المغيبة.

وقد وصف آصف بن برخيا بأن لديه علم من الكتاب، وبتوسطه استطاع أن يصدر هذا الفعل ذو القدرة الغيبية، والسائل هو نبى اللّه سليمان عليه السلام، مع أنه أعلى درجة من آصف بن برخيا وصى سليمان عليه السلام والإمام بعده.

فإذا كان هذا الفعل وهو طلب الحاجة قد صدر من نبى مرسل فهو سنة يستن بها، لاسيما بأن هذه السنة قد أقيمت فى مورد الطلب

ممن نعت بصفة القدرة اللدنية أی الغيبية المعطاة من اللّه تعالی.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۷۲

فهذا يفيد أن السنة الإلهية فی طلب الأمور ولو كانت غيبية من الأولياء الذين يعطون القدرة والولاية التكوينية من اللّه وطلب الحاجيات منهم وإن كانت ذات منشأ غيبی هو من شرعة دين اللّه وأوليائه، فإذا كان هذا حال طلب الحاجة والأمر ممن وصف أنه عنده علم من الكتاب أی بعض من الكتاب، فكيف حال طلب الحاجة ممن وصف بأنه عنده علم الكتاب كما هو الحال فی شأن علی بن أبی طالب عليه السلام حيث قال تعالی فی نعته: «كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» «۱».

حيث إن سورة الرعد مكية، ولم يكن قد أسلم فی مكة من أهل الكتاب أحد، والاحتجاج لعلی عليه السلام لمقام سيد الأنبياء صلی الله عليه و آله إنما هو بلحاظ هذا الوصف اللدنی الغيبی الذی آتاه اللّه، كما وصف بهذا الوصف أهل البيت عليهم السلام أيضا، حيث قال تعالی: «انَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِی كِتَابٍ مَّكْنُونٍ* لَّايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ» «۲»

. والمطهرون نعت لأهل البيت عليهم السلام كما فی آية التطهير، فهم الذين يطلعون علی الكتاب كله.

الشاهد الثالث ... ص: ۱۷۲

وقد وصفت قدرة الكتاب العزيز فی سورة الرعد التی هی نفس السورة التی وصفت عليا عليه السلام بأن له علم الكتاب كله، ذكرت هذه السورة أن القرآن الكريم يحيی به الموتی، وتقطع به الأرض، وتسير به الجبال، كما فی قوله تعالی: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى» «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۷۳

سبب النزول ... ص: ۱۷۳

قال الشيخ الطوسی: هذه الآية تتضمن وصف القرآن بغاية ما يمكن من علو المنزلة وبلوغه أعلی طبقات الجلال؛ لأنه تعالی قال: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» من مواضعها وقلعت من أماكنها لعظم محله وجلالة قدره.

والتسيير تصيير الشی بحيث يسير، تقول سار يسير سيرا، وسيره غيره تسييرا.

«أو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ» لمثل ذلک، والتقطيع تكثير القطع، قطعه قطعة، وقطعه تقطيعا، والقطع فصل المتصل.

«أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى» لمثل ذلک حتی يعيشوا أو يحيوا، تقول: كلمه كلاما، وتكلم تكلما، والكلام ما انتظم من حرفين فصاعدا من الحروف المعقولة إذا وقع ممن يصح منه أو من قبيله لإفادة، و «الْمَوْتَى» جمع ميت مثل صريع وصرعی، وجريح وجرحی.

ولم يجئ جواب «لَوْ» لدلالة الكلام عليه، وتقديره: لكان هذا القرآن لعظم محله فی نفسه وجلالة قدره.

وكان سبب ذلک أنهم سألوا النبی صلی الله عليه و آله أن يسير عنهم جبال مكة لتتسع عليهم المواضع، فأنزل اللّه تعالی الآية، وبين أنه لو سيرت الجبال بكلام، لسيرت بهذا القرآن لعظم مرتبته وجلالة قدره «۱».

وفی الكافی عن أبی الحسن الأول عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداک أخبرنی عن النبی صلی الله عليه و آله ورث النبيين كلهم؟ قال: «نعم، قلت: من لدن آدم حتی انتهی إلی نفسه؟ قال:

«ما بعث اللّه نبيا إلا ومحمد صلی الله عليه و آله أعلم منه» قال: قلت: إن عيسی بن مريم كان يحيی الموتی بإذن اللّه، قال: «صدقت وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير، وكان رسول اللّه صلی الله عليه و آله يقدر علی هذه المنازل، قال: فقال: إن سليمان بن داود قال للهدهد حين فقده وشک فی

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۷۴

أمره: «فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ» حين فقده، فغضب عليه فقال: «لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ» وإنما غضب لأنه كان يدله على الماء، فهذا وهو طائر قد أعطى ما لم يعط سليمان وقد كانت الريح والنمل والإنس والجن والشياطين والمردة له طائعين، ولم يكن يعرف الماء تحت الهواء، وكان الطير يعرفه وأن اللّه يقول فى كتابه: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى» وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذى فيه ما تسير به الجبال وتقطع به البلدان، وتحيى به الموتى، ونحن نعرف الماء تحت الهواء، وأن فى كتاب اللّه لآيات ما يراد بها أمر إلا أن يأذن اللّه به مع ما قد يأذن اللّه مما كتبه الماضون، جعله اللّه لنا فى أم الكتاب، إن اللّه يقول: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ» ثم قال: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» فنحن الذين اصطفانا اللّه عز وجل وأورثنا هذا الذى فيه تبيان كل شىء» «۱».

فأثبتت الآية الكريمة والرواية الشريفة أن الذى يعلم بحقيقة الكتاب والقرآن يتمكن من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وإحياء الموتى.

وإذا كانت هذه القدرة معطاة من اللّه لدنيا لصاحب علم الكتاب، فسؤال الحاجة منه الحاجة المشمولة للقدرة اللدنية التى أعطيها أو وهب إياها هى من السنن فى الشريعة الإلهية على حذو فعل النبى سليمان عليه السلام.

ومن ثم لم يخطئ اللّه فى سورة الرعد طلب الكافرين من النبى محمد صلى الله عليه و آله إحياء الموتى، وتقطيع الأرض، وتسيير الجبال لتوسعة فجاج مكة، وبسط أرضها للزراعة كأرض الشام وإحياء أسلافهم.

لم يخطئهم فى طلبهم هذا من النبى صلى الله عليه و آله، بل أقر أن هذا الطلب من متناول قدرته لعلمه بحقيقة القرآن، بل أنكر عليهم عنادهم ولجاجهم، وأن سؤالهم اقتراحى لا

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۷۵

بداعى الجد والصدق، ولا لأجل طلب المعرفة والإيمان.

فهذه الآية ثالثة الموارد القرآنية التى يتم طلب حاجة غيبية فيها من الأنبياء والرسل والأوصياء عليهم السلام، لاسيما مثل إحياء الموتى، وفتح باب رغيف العيش وبركات الأرض.

لا سيما وأن الآية الثالثة تثبت ذلك بنحو الدوام لمن عنده علم بحقيقة الكتاب، لأنها تبين أن هذه القدرة لا لظرف مؤقت لإبراز معجزة ثم ينتهى الأمد، بل هذه القدرة ثابتة لمن عنده علم الكتاب وحقيقة القرآن بسبب هذه الصفة.

وكذلك الحال فى الآية السابقة التى تثبت القدرة على جلب العرش بطى الأرض، فقد أثبتها القرآن الكريم لآصف بن برخيا بسبب أنه عنده علم ببعض الكتاب، أى أن هذه القدرة ثابتة له بسبب الوصف الذى يتحلى به.

ولا بد من التنبيه إلى أن المراد من العلم بالكتاب وحقيقة القرآن ليس هو العلم بظاهر المصحف الشريف، بل هو العلم بحقيقة القرآن فى اللوح المحفوظ والكتاب المكنون، والكتاب المبين الذى يستطر فيه كل شىء.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۷۶

الشاهد الرابع ... ص: ۱۷۶

قال اللّه تعالى: «وَمَا نَقَمُواْ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ» «۱».

وقال تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ» «۲».

ففى الآيتين إسناد إيتاء الفضل إلى كل من اللّه تعالى ثم لرسوله صلى الله عليه و آله، كما فيها إسناد الغنى إلى اللّه ثم إلى رسوله صلى الله عليه و آله، وذلك لأن الإفضال والإغناء من الرسول صلى الله عليه و آله هو فى حقيقته إفضال وإغناء من اللّه تعالى بجعل رسوله مجرى لفيضه تعالى «۳».

فحقيقة الإفضال والإغناء واحدة، وهذا مما يقضى بأن طلب الفضل والغنى من الرسول صلى الله عليه و آله هو طلب للغناء والفضل من قبل اللَّه تعالى، وأن الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه و آله هو عين طلب المدد الإلهى.

وبعبارة أخرى:

إن إسناد اللَّه الإغناء للرسول صلى الله عليه و آله بعدما أسند الإغناء إلى الذات المقدسة هو بنفسه باعث ومحرك للعباد على طلب الحوائج من الرسول صلى الله عليه و آله والتوجه إليه، كيف

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۷۷

لا وقد جعله بابا لرحمته وشفيعا لهم!!

ومن ذلك يظهر أن أدلة الشفاعة القرآنية للرسول وأهل بيته عليهم السلام هى بنفسها مقتضية لتسويغ بل الحث على طلب الحوائج من النبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام؛ لأن دأب المحتاجين على سؤال حوائجهم من الشفعاء والتوجه بطلبها إليهم «۱».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۷۸

وفى الحقيقة أن هذه الجدلية والاختلاف أشبه بالخلاف الذى وقع فى فصل الدين عن السياسة، وفصل الدين عن نظام الحكم السياسى، لكنه فى مقام فصل الدين عن نظام التشريع، والقول المتقدم فى صدر الكلام ناشئا فى الحقيقة من فصل الدين عن نظام عمارة وصناعة الطبيعة وفصل النظام الكونى والطبيعى عن نظام الآخرة.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۷۹

الاستغاثة بهم عليهم السلام تستوعب حاجات الروح والبدن ... ص: ۱۷۹

اشارة

قال البعض: مشاهد الأئمة عليهم السلام هل هى مواطن علاج روحى أو مواطن علاج بدنى؟

وكان جوابه: إن ذلك يعرف من الجواب على سؤال آخر وهو: هل أن بيوت الأئمة عليهم السلام مواطن لمراجعة مرضى الروح أو مواطن لمراجعة مرضى البدن؟

وأجاب أن بيوت الأئمة والأنبياء عليهم السلام لم يرد لها أصلا أن تكون مستشفيات لعيادة مرضى البدن، وأن بيوتهم قبل مشاهدهم كانت عيادات لطب الأرواح، فلا تقصدوا الإمام على أنه صاحب عيادة بدنية!!

والتعليق على ذلك فى نقاط:

النقطة الأولى: أصول عمارة الأرض منبثقة من الأولياء عليهم السلام ... ص: ۱۷۹

إن منع وساطة الأئمة عليهم السلام لفيض اللَّه تعالى، وكذلك حصر آثار التوسل عند قبورهم بالأثر الروحى وغيرها من المسائل فى هذا المجال، تنم عن قلة إحاطة بمقامات الأئمة عليهم السلام عند اللَّه تعالى، وتنبأ عن عدم اطلاع بما أودعه اللَّه فيهم من واسطة عامة دينية وتكوينية فى هذا الوجود.

والذى ينبغى أن يقال هنا تأسيسا على المعارف الإلهية:

إن أصول عمارة الأرض كلها بنصوص الأديان السماوية فضلا عن روايات المسلمين، منبثقة من الأنبياء والأولياء عليهم السلام، نعم ينبغى جعل الحوائج الأخروية

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۸۰

الراجعة للجانب الروحی والشق المعنوی فی الإنسان أهم فی نظر الداعی والمتوسل من الحاجيات الدنيوية؛ لأن كمالات الروح أعظم وأهم وأشرف من كمالات البدن، لاسيما المعرفة باللّه تعالی والرسول والأئمة من عترته صلی الله علیه و آله، فإنها أعظم منالا وبغية تسير بالإنسان إلی السعادة الأبدية، لكن ذلک لا ينافی صحة الرجوع إليهم من أجل إصلاح شؤون البدن الدنيوی.

النقطة الثانية: ديدن سيرة الرواة علی عموم مراجعاتهم للأئمة علیهم السلام ... ص: ۱۸۰

أرجع المستشكل الحكم فی المسألة إلی دراسة الحالة العملية لبيوت الأئمة علیهم السلام، وقال لم يرد أصلا لها أن تكون محطاً للمراجعات البدنية، وهذا غريب جدا؛ وذلک لمخالفته لارتكاز المؤمنين فی مراجعاتهم للأئمة علیهم السلام، ومخالفته للنصوص الهائلة التی أثبتت فی المجاميع الروائية.

فإن المرتكز فی أذهان الناس هو جامعية حامل الدين لشؤون الدنيا والآخرة، ومن ثم فلدی الفريقين روايات متواترة فی أسئلة الرواة من النبی صلی الله علیه و آله وأهل بيته علیهم السلام عن طبابة البدن كما هی عن طبابة الروح.

ونحيل القارئ علی الروايات المستفيضة بل المتواترة المثبتة فی كتب الفريقين ومنها:

ما فی الكافی: عن علی، عن أبيه، عن النوفلی، عن السكونی، عن أبی عبد اللّه، عن آبائه علیهم السلام قال: شكا رجل إلی النبی صلی الله علیه و آله وجعا فی صدره فقال صلی الله علیه و آله: استشف بالقرآن فإن اللّه عز وجل يقول: «وَشِفَاءٌ لِمَا فِی الصُّدُورِ» «۱».

ما ورد فی كتب العامة: كما فی خبر أبی داود فی سننه عن سلمی خادم

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۸۱

رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «ما كان أحد يشتكی إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله وجعا فی رأسه إلا قال: احتجم، ولا وجعا فی رجليه إلا قال: خضبهما، وزاد البخاری فی تاريخه بالحناء» «۱».

وعن علی بن النعمان قال: قلت للرضا علیه السلام: «إن لی أبنا، وبه الثؤلول، وقد اغتممت بأمره، فقال: خذ لكل ثؤلولة سبع شعيرات، وأقرأ علی كل شعيرة سبع مرات أول سورة الواقعة، إلی قوله: «هَبَاءً مُّنبَثًّا» وقوله عز وجل: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ» ... إلی قوله «وَلَا أَمْتاً» ثم خذ الشعير، شعيرة شعيرة، فامسح بها علی الثؤلول، ثم صيرها فی خرقة جديدة واربط علی الخرقة حجرا وألقها فی كنيف. قال: ففعلت، فنظرت واللّه يوم السابع أو الثامن وهو مثل راحتی. قال: وينبغی أن يعالج فی محاق الشهر، فانه يذهب إن شاء اللّه تعالی» «۲».

النقطة الثالثة: عموم مرجعيتهم علیهم السلام فی العلوم والشؤون المختلفة ... ص: ۱۸۱

قصر المستشكل السعی إلی المشاهد المشرفة فی قصد المداواة الروحية والمعنوية، حملا علی ما هو الحال فی البيوت المشرفة، ولكن كما تبين أن بيوتهم كانت مقصدا بالنحو المطلق ولكل المهمات فإن قبورهم كذلک ينبغی أن تقصد فی كل الحاجيات؛ لأنها مواطن استجابة الدعاء بالتوسل بهم فی كل الشؤون الأخروية والدنيوية الروحية والبدنية، وقد ورد استحباب الدعاء والحث عليه بأن يدعو الإنسان ويطلب الحاجة من ربه صغيرة وكبيرة، وسر ذلک معنوی توحيدی كی يستشعر الإنسان الفقر والحاجة إلی اللّه فی كل شیء، وأن جميع النعم هی منه تعالی.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۸۲

وهذا المعتقد ليس مجرد فتوی عقائدية فاقدة للدليل، وإنما هناک روايات متعددة تثبت ذلک ومن خلال السيرة العملية القائمة فی حياة الأئمة علیهم السلام:

الرواية الواردة فی الكافی: عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن أبی هاشم الجعفری قال: بعث إلی أبو الحسن علیه السلام فی

مرضه، وإلى محمد ابن حمزة فسبقنى إليه محمد بن حمزة وأخبرنى محمد ما زال يقول: ابعثوا إلى الحير، ابعثوا إلى الحير، فقلت لمحمد: ألا قلت له: أنا أذهب إلى الحير، ثم دخلت عليه وقلت له:

جعلت فداك: أنا أذهب إلى الحير؟ فقال: انظروا فى ذاك ... إلى أن قال فذكرت ذلك لعلى بن بلال فقال: ما كان يصنع بالحير وهو الحير فقدمت العسكر فدخلت عليه فقال لى: اجلس حين أردت القيام فلما رأيته أنس بى ذكرت له قول على بن بلال فقال لى: ألا قلت له: إن رسول اللّه صلى الله عليه و آله كان يطوف بالبيت ويقبل الحجر وحرمة النبى والمؤمن أعظم من حرمة البيت وأمره اللّه عز وجل أن يقف بعرفة وإنما هى مواطن يحب اللّه أن يذكر فيها فأنا أحب أن يدعى اللّه لى حيث يحب اللّه أن يدعى فيها وذكر عنه أنه قال: ولم أحفظ عنه، قال: «إنما هذه مواضع يحب اللّه أن يتعبد له فيها فأنا أحب أن يدعى لى حيث يحب اللّه أن يعبد» «۱».

فى وسائل الشيعة: عن ابن أبى عمير، عن أبى حمزة الثمالى، عن أبى عبد اللّه عليه السلام فى حديث، أنه سئل عن طين الحاير هل فيه شىء من الشفاء؟ فقال:

«يستشفى ما بينه وبين القبر على رأس أربعة أميال، وكذلك قبر جدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وكذا طين قبر الحسن وعلى ومحمد فخذ منها فإنها شفاء من كل داء وسقم وجنة مما تخاف ولا يعد لها شىء من الأشياء الذى يستشفى بها إلا الدعاء، وإنما يفسدها ما يخالطها من أوعيتها وقلة اليقين لمن يعالج بها» «۲».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۸۳

النقطة الرابعة: فصل الدين عن نظام الطبيعة ... ص: ۱۸۳

فى الحقيقة إن هذا البحث يمت إلى جدل مطروح فى النظرة إلى الدين على أنه مشروع هداية تشريعية وليس مشروعا لعمارة الطبيعة نظير ما أثير فى قوله تعالى:

«وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» «۱».

حيث قيل فى تفسير: «تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيٍ» أنه بيان للهداية التشريعية وأصول المعارف الاعتقادية، وأما علوم الطبيعة من الفيزياء والكيمياء والأحياء والطب والجغرافيا وغيرها من العلوم الرياضية والهندسية، فليست من شأن هداية السماء ولا من اختصاصات القرآن الكريم.

إذ ليس هو دخيلا فى السعادة الأخروية للبشر، ولا دخيلا فى إقامة العدالة الاجتماعية فى النظام الاجتماعى السياسى، ومن ثم لم يهتم الأنبياء عليهم السلام بعمارة دنيا البشرية، وإنما بعمارة الآخرة.

فالأنبياء والأولياء عليهم السلام هداة لا أطباء ومهندسون وحكام وساسة ولا محترفى صنائع ولا مهرة فنون، فلا بد أن يكون معنى «تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيٍ» هو تبيان لكل شىء فى صراط الهداية والصراط المستقيم.

بل إن بعضهم ذهب إلى أن تبيان كل شىء لا يشمل تفاصيل الشريعة وإنما يختص بأصول وكليات التشريع فضلا عن علوم الطبيعة ونحوها من أنظمة العلوم وقوانين الفنون، بينما ذهب آخرون إلى عموم الآية فى عامة العلوم والمعارف أسسها وتفاصيلها، غاية الأمر إن ذلك ليس فى ظاهر القرآن بل فيما خفى من دلالته وظهوره الذى لا يلتفت إلى الإحاطة به إلا المعصوم عليه السلام، وقد أشارت إلى ذلك جملة من الآيات الأخرى منها:

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۸۴

قوله تعالى: «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ» «۱».

وقوله تعالى: «وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ

مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِی الأرْضِ وَلَا فِی السَّمَاء وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِکَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِی كِتَابٍ* مُّبِينٍ» «۲»
. وقوله تعالی: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِی السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِی كِتَابٍ مُّبِينٍ» «۳».
وقوله تعالی: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَی وَرَبِّی لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَايَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِی السَّمَاوَاتِ وَلَا فِی الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِی كِتَابٍ مُّبِينٍ» «۴».
فوقوله تعالی: «انَّا نَحْنُ نُحْيِی الْمَوْتَی وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيٍ أحْصَيْنَاهُ فِی إِمَامٍ مُبِينٍ» «۵».
حيث تشير هذه الآيات إلی إحاطة الكتاب المبين بكل الحقائق، ليس فی العالم الأرضی فحسب، بل إلی عوالم الأرضين والسماوات السبع.
وفی الحقيقة أن هذه الجدلية والاختلاف أشبه بالخلاف الذی وقع فی فصل الدين عن السياسة، وفصل الدين عن نظام الحكم السياسی، لكنه فی مقام فصل الدين عن نظام التشريع، والقول المتقدم فی صدر الكلام ناشئا فی الحقيقة من فصل
الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۸۵
الدين عن نظام عمارة وصناعة الطبيعة وفصل النظام الكونی والطبيعی عن نظام الآخرة.
وقد يكون منشأ هذا الفصل ناشئا عن الخطأ فی حساب الأولويات وإلغاء الأهم لما عداه وإلغاء الأسس للاهتمام بالتفاصيل، وقد يكون ناشئا أيضا عن عدم كفاءة المتصدين لمعارف الدين وأحكامه لدرجة كفاءة المعصوم عليه السلام فی الجمع والإحاطة بالعلوم، وهذا ما ينبه علی أن ولی الدين إن لم يكن علمه محيطا لدُنياً انعكس ذلك تلقائيا وأوجد طابعا للدين بحسب موقعه وسلوكياته.
الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۸۷

الفصل الثالث ملفات التوسل ... ص: ۱۸۷

اشارة

وكيف يؤمل بالقلم أن يكون أميناً فی ظل إرهاب السلطة، وكم من معالم فی سيرة النبی صلی الله عليه و آله قد أخفيت وزويت عن أن تصل الی مسامع أجيال المسلمين فی القرون اللاحقة، ومع كل ذلك «وَيَأْبَی اللّهُ إِلَّا أن يُتِمَّ نُورَهُ».
الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۸۹

الطائفة الأولی: استغاثة المعصومين ببعضهم البعض عليهم السلام ... ص: ۱۸۹

اشارة

يتبين من الرواية تشكی الإمام عليه السلام حاله للرسول صلی الله عليه و آله وبثه إليه همومه، وهو نحو من الاستغاثة والاستنجاد والطلب.

استغاثة الرسول صلی الله عليه و آله بعلی عليه السلام ... ص: ۱۸۹

كتاب درر المطالب قال: «خرج رسول اللَّه صلی الله عليه و آله إلی غزوة تبوك وخلف علی بن أبی طالب عليه السلام علی أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استقلالا به، فلما سمع ذلك أخذ سلاحه وخرج إلی النبی صلی الله عليه و آله وهو نازل بالحرق، فقال: يا رسول اللَّه زعم المنافقون أنك إنما خلفتنی استقلالا بی، فقال رسول اللَّه صلی الله عليه و آله: كذبوا،

ولكنى خلفتك لما تركت ورائى، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك، ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى، فرجع إلى المدينة ومضى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لسفره.

قال: وكان من أمر الجيش أنه انكسر وانهزم الناس عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فنزل جبرائيل وقال: يا نبى اللَّه إن اللَّه يقرئك السلام ويبشرك بالنصرة، ويخيرك إن شئت أنزلت الملائكة يقاتلون، وإن شئت علياً ۷ فادعه يأتيك، فاختار النبى صلى الله عليه و آله علياً عليه السلام، فقال جبرائيل:

در وجهك نحو المدينة وناد: يا أبا الغيث أدركنى، يا على أدركنى، أدركنى يا على.

قال سلمان الفارسى: وكنت مع من تخلف مع على عليه السلام، فخرج ذات يوم يريد الحديقة فمضيت معه، فصعد النخلة ينزل كربا، فهو ينثر وأنا أجمع، إذ سمعته يقول: لبيك لبيك ها

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۹۰

أنا جئتك، ونزل والحزن ظاهر عليه ودمعه ينحدر، فقلت: ما شأنك يا أبا الحسن؟

قال: يا سلمان، إن جيش رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قد انكسر، وهو يدعونى ويستغيث بى، ثم مضى فدخل منزل فاطمة عليها السلام وأخبرها وخرج، قال: يا سلمان، ضع قدمك موضع قدمى لا تخرم منه شيئا. قال سلمان: فاتبعته حذو النعل بالنعل سبع عشرة خطوة، ثم عاينت الجيشين والجيوش والعساكر، فصرخ الإمام صرخة لهب لها الجيشان، وتفرقوا ونزل جبرائيل إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وسلّم، فردّ صلى الله عليه و آله واستبشر به، ثم عطف الإمام على الشجعان، فانهزم الجمع وولوا الدبر، ورد اللَّه الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى اللَّه المؤمنين القتال بعلى أمير المؤمنين عليه السلام وسطوته وهمته وعلاه، وأبان اللَّه عز وجل من معجزة فى هذا الموطن بما عجز عنه جميع الأمة، وكشف من فضله الباهر، وإتيانه من المدينة شرفها اللَّه فى سبعة عشر خطوة، وسماعه نداء النبى صلى الله عليه و آله على بعد المسافة، وتلبيته من أعظم المعجزات، وأدل الآيات على عدم النظير له فى الأمة» «۱».

توضيح إشكال ... ص: ۱۹۰

سؤال: قد يتوهم أن مفاد الرواية غريب وشاذ ومن جهات متعددة:

الجهة الأولى: توهم الرواية أن أمير المؤمنين عليه السلام أشجع من سيد الأنبياء صلى الله عليه و آله، ومن ثم احتاج إليه لصد عدوان الكفار.

الجهة الثانية: فى الرواية غرابة أخرى، وهى تسجيل وقوع حرب بين المسلمين والروم فى غزوة تبوك، مع أن المصادر التاريخية لم تذكر وقوع أى حرب، وإنما تخوف الروم وارتداعهم بمجرد السماع بمجى جيش النبى صلى الله عليه و آله، كما لم تسجل المصادر التاريخية أى حضور لعلى عليه السلام.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۹۱

الجهة الثالثة: فى مضمون الرواية غرابة ثالثة وهى نزول آية: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» فى غزوة تبوك مع أنها نزلت فى غزوة الأحزاب.

ويرد التوهم الأول: إن هذا الانطباع عن مفاد الرواية سطحى وفاتر جدا، فإن موقعية النبى صلى الله عليه و آله فى إدارة الجيش ونظم وضع المسلمين تستدعى أن لا يباشر بنفسه الشريفة كل الأدوار كما هو الحال فى غزوة بدر، فإنه قذف أخاه أمير المؤمنين عليه السلام فى لهوات نار الحرب فى مواطن عديدة، فلا ينكفئ حتى يطأ لهبها بأخمصه كما فى مبارزة عمرو بن ود فى الخندق، والمبيت على الفراش ليلة الهجرة وفتح خيبر، حيث بعث النبى صلى الله عليه و آله أبا بكر وعمر وعمرو بن العاص، كل منهم فى سرية ورجعوا منكفئين ولم يحققوا النصر، حتى بعث أخاه أمير المؤمنين عليه السلام مكدودا فى ذات اللَّه مجدا ناصحا، ومن ثم قال عنه النبى فى

الحدیث المشهور:

«أنت منی بمنزلة هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی» أی أن موقعیة علی علیه السلام منه صلی الله علیه و آله هی کقول موسی فی أخیه هارون: «وَاجْعَل لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی* هَارُونَ أَخِی* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِی» «۱».

ومن ثم ورد فی الحدیث القدسی الشریف عن ابن شهر آشوب: من طریق المخالفین من الرسالة القوامیة وحلیة الأولیاء، واللفظ لها: بالإسناد عن سعید ابن جبیر أنه قال أبو الحمراء: قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «رأیت لیلة أسری بی مثبتا علی ساق العرش: أنا غرست جنة عدن بیدی، محمد صفوتی من خلقی، أیدته بعلی نصرته بعلی» «۲».

وإلا فسید الأنبیاء صلی الله علیه و آله هو الحائز علی کل الفضائل فوق سید الأوصیاء علیه السلام،

الامامة الالهیة(۵)، ج۵، ص: ۱۹۲

حیث قال الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام: «کنا إذا اشتدّ البأس وحمی الوطیس اتّقینا برسول اللَّه صلی الله علیه و آله ولذنا به» «۱».

وقال علی علیه السلام عندما سئل من قبل بعضهم: أفنبی أنت؟ فقال: «ویحک إنما أنا عبد من عبید محمد» «۲» «۳».

ویرد التوهم الثانی: إن عدم ذکر المصادر التاریخیة لوقوع حرب فی غزوة تبوک لا یعنی عدم وقوعها، کیف وقد أخذ القلم السقیفی والأموی، ومن بعده القلم العباسی مأخذه فی إخفاء الحقائق وطمس مجریات مسرح الأحداث، إلی درجة أخذوا یزرون بشخصیة سید الأنبیاء صلی الله علیه و آله فضلا عن عترته، ولیس إلا لعداوة قریش لصاحب الدعوة وعترته الطاهرة علیهم السلام.

وکیف یؤمل بالقلم أن یکون أمینا فی ظل إرهاب السلطة!! وکم من معالم فی سیرة النبی صلی الله علیه و آله قد أخفیت وزویت عن أن تصل إلی مسامع أجیال المسلمین فی القرون اللاحقة!! ومع کل ذلک «وَیَأْبَی اللّهُ إِلَّا أَن یُتِمَّ نُورَهُ».

ویرد التوهم الثالث: إن نزول الآیة فی الخندق لا ینافی تکرر نزولها فی غزوة تبوک، فإن الآیة الواحدة قد یتکرر نزولها عدة مرات، وما أشتهر بین المفسرین من قاعدة سبب النزول الواحد للآیة مدفوع بما فی الروایات من وقوع نزول الآیة عدة مرات فی مواطن بمثابة تکون کلها أسباب نزولها، فلیس النزول الأول یختص بالسببیة کما عرف عن سورة الحمد بالسبع المثانی، حیث تکرر نزولها.

الامامة الالهیة(۵)، ج۵، ص: ۱۹۳

استغاثة علی علیه السلام بالرسول صلی الله علیه و آله ... ص: ۱۹۳

ما جاء فی الروایات فی وصف حال أمیر المؤمنین علیه السلام عند الاحتضار:

«فقال له الحسن علیه السلام یا أبه ما دعاک إلی هذا؟ فقال له: یا بنی إنی رأیت جدک رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی منامی قبل هذه الکائنة بلیلة، فشکوت إلیه ما أنا فیه من التذلل والأذی من هذه الأمة، فقال لی: أدع علیهم، فقلت: اللهم أبدلهم بی شرا منی وأبدلنی بهم خیرا منهم» «۱».

عن أبی عبد الرحمن السلمی، عن الحسن بن علی علیه السلام قال: خرجت أنا وأبی علیه السلام نصلی فی هذا المسجد، فقال علیه السلام لی: یا بنی إنی بت اللیلة أوقظ أهلی لأنها لیلة الجمعة صبیحة یوم بدر لسبع عشرة لیلة خلت من شهر رمضان فملکتنی عینای، فسنح لی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فقلت: یا رسول اللَّه ماذا لقیت من أمتک من الأود واللدد؟ فقال لی: ادعُ علیهم. فقلت: «اللهم أبدلنی بهم من هو خیر لی منهم، وأبدلهم بی من هو شر لهم منی» «۲».

فیتبین من الروایة تشکی الإمام علیه السلام حاله للرسول صلی الله علیه و آله وبثه إلیه همومه، وهو نحو من الاستغاثة والاستنجاد والطلب.

وتبین شکایته لجحود الأمة حقه وتمردها عن الانصیاع لهدایته صلی الله علیه و آله لها، وشدة الأذی الذی لاقاه، والتظلم هو نحو طلب المعونة والمدد من المشکو إلیه طلبا للنصرة والإغاثة، وقد أجابه صلی الله علیه و آله وأذن له أن یدعو لتجازی الأمة بحرمانها من

قيادته، وبركة وجوده، وتدبيره ورياض عدله، وحدائق القسط التى أقامها، والهدى والصلاح الذى أفشاه فيها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة، واختلست

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۹۴

الزهراء، فما أقبح الخضراء والغبراء، يا رسول اللّه! أما حزنى فسرمد، وأما ليلى فمسهد، لا ـ يبرح الحزن من قلبى، أو يختار اللّه لى دارك التى أنت فيها مقيم، كمد مقيح، وهم مهيج، سرعان ما فرق بيننا، وإلى اللّه أشكو، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على وعلى هضمها حقها، فاستخبرها الحال، فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثه سبيلا، وستقول ويحكم اللّه وهو خير الحاكمين» «۱».

وهذه الشكاية هى الأخرى طلب من النبى صلى الله عليه و آله بتضميد جراح حليلته الزهراء عليها السلام، ونحو من بث الهم والحزن لرسول اللّه صلى الله عليه و آله استظهارا واستنصارا ليكون شاهدا على ما يجرى من انحراف المسيرة، مع أنه قد وجه الشكاية إلى اللّه تعالى أولا تدليلا على أن التوجه بالشكاية إلى رسول اللّه هى شكاية إلى اللّه تعالى وتوجه بالشكاية إلى الحضرة الإلهية، وهذا هو ما مر علينا من عقيدة كل مسلم عندما يستغيث بالنبى صلى الله عليه و آله والعترة عليهم السلام أن استغاثته بصفة اصطفائهم بالقرب من اللّه تعالى، وأن التوجه إليهم يؤدى إلى التوجه للحضرة الإلهية؛ لأنهم باب اللّه الأعظم الذى منه يؤتى.

استغاثة فاطمة عليها السلام بالرسول صلى الله عليه و آله ... ص: ۱۹۴

قال سليم بن قيس: قلت لسلمان أَدَخلوا على فاطمة عليها السلام بغير إذنها؟ قال: أي واللّه وما عليها خمار. فنادت: يا أبتاه، لبئس ما خلفك أبو بكر وعمر، وعيناك لم تتفقأ فى قبرك، تنادى بأعلى صوتها...

فقالت فاطمة عليها السلام: يا عمر، ما لنا ولك؟ فقال: افتحى الباب وإلا أحرقنا عليكم بيتكم، فقالت: «يا عمر، أما تتقى اللّه تدخل على بيتى»؟ فأبى أن ينصرف، ودعا عمر بالنار

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۹۵

فأضرمها فى الباب ثم دفعه فدخل فاستقبلته فاطمة؟ وصاحت: «يا أبتاه يا رسول اللّه» فرفع عمر السيف وهو فى غمده فوجأ به جنبها فصرخت: «يا أبتاه» فرفع السوط فضرب به ذراعها فنادت: «يا رسول اللّه، لبئس ما خلفك أبو بكر وعمر» «۱».

استغاثة الحسين عليه السلام بالرسول صلى الله عليه و آله ... ص: ۱۹۵

فى الرواية أنه خرج الحسين عليه السلام من منزله ذات ليلة وأقبل إلى قبر جده صلى الله عليه و آله فقال: «السلام عليك يا رسول اللّه أنا الحسين بن فاطمة فرخك وابن فرختك، وسبطك الذى خلفتنى فى أمتك، فاشهد عليهم يا نبى اللّه أنهم قد خذلونى، وضيعونى، ولم يحفظونى، وهذه شكواى إليك حتى ألقاك، قال: ثم قام فصف قدميه فلم يزل راكعا ساجدا».

قال: فجعل الحسين عليه السلام فى منامه ينظر إلى جده ويقول: «يا جداه لا حاجة لى فى الرجوع إلى الدنيا فخذنى إليك وأدخلنى معك فى قبرك، فقال له رسول اللّه: لا ـ بد لك من الرجوع إلى الدنيا حتى ترزق الشهادة، وما قد كتب اللّه لك فيها من الثواب العظيم، فإنك وأباك وأخاك وعمك وعم أبيك تحشرون يوم القيامة فى زمرة واحدة، حتى تدخلوا الجنة» «۲».

استغاثة السجاد عليه السلام فى دعائه بالنبى والأئمة عليهم السلام ... ص: ۱۹۵

روى محمد بن يحيى العطار عن أحمد بن محمد السيارى عن العباس بن مجاهد عن أبيه قال: كان على بن الحسين عليه السلام يدعو عند كل زوال من أيام شعبان، وفى ليلة النصف منه ويصلى على النبى صلى الله عليه و آله بهذه الصلوات يقول: «اللهم صل على

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۹۶

محمد وآل محمد شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومعدن العلم وأهل بيت الوحى، اللهم صل على محمد وآل محمد الفلك الجارية فى اللجج الغامرة يأمن من ركبها ويغرق من تركها المتقدم لهم مارق والمتأخر عنهم زاهق واللازم لهم لاحق، اللهم صل على محمد وآل محمد الكهف الحصين وغياث المضطر المستكين وملجأ الهاربين وعصمة المعتصمين..» «۱».

وقال عليه السلام: «أسألك بحق نبيك محمد صلى الله عليه و آله، وأتوسل إليك بالأئمة عليهم السلام الذين اخترتهم لسرك، وأطلعتهم على خفيك، واخترتهم بعلمك، وطهرتهم وأخلصتهم واصطفيتهم وأصفيتهم وجعلتهم هداة مهديين، وائتمنتهم على وحيك، وعصمتهم عن معاصيك ورضيتهم لخلقك، وخصصتهم بعلمك، واجتبيتهم وحبوتهم وجعلتهم حججا على خلقك، وأمرت بطاعتهم على من برأت، وأتوسل إليك فى موقفى اليوم أن تجعلنى من خيار وفدك» «۲».

استغاثة الإمام الكاظم عليه السلام بالزهراء عليها السلام ... ص: ۱۹۶

عن على بن أبى حمزة، عن أبى إبراهيم عليه السلام قال: قال لى: «إنى لموعوكٌ منذ سبعة أشهر، ولقد وعك أبنى اثنى عشر شهرا وهى تضاعف علينا، أشعرت أنها لا تأخذ فى الجسد كله ربما أخذت فى أعلى الجسد ولم تأخذ فى أسفله، وربما أخذت فى أسفله ولم تأخذ فى أعلى الجسد كله؟ قلت: جعلت فداك إن أذنت لى حدثتك بحديث عن أبى بصير عن جدك أنه كان إذا وعك استعان بالماء البارد فيكون له ثوبان: ثوب فى الماء البارد وثوب على جسده يراوح بينهما، ثم ينادى حتى يسمع صوته على باب الدار يا

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۹۷

فاطمة بنت محمد، فقال: صدقت، قلت: جعلت فداك فما وجدتم للحمى عندكم دواء؟ فقال:

ما وجدنا لها عندنا دواء إلا الدعاء والماء البارد، إنى اشتكيت فأرسل إلى محمد بن إبراهيم بطبيب له فجاءنى بدواء فيه قى فأبيت أن أشربه؛ لأنى إذا قييت زال كل مفصل منى» «۱».

استغاثة زينب عليها السلام برسول اللّه صلى الله عليه و آله ... ص: ۱۹۷

وكانت زينب تقول: «وامحمداه، صلى عليك مليك السماء، هذا حسين مرمل بالدماء، صريع بكربلاء، مقطع الأعضاء، مجزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والردا، بأبى من معسكره نهبا، بأبى من فسطاطه مقطع بالعرا، بأبى من لا هو غائب فيرجى، ولا مريض فيداوى، أنا الفداء للمهموم حتى مضى، أنا الفداء للعطشان حتى قضى، أنا الفداء لمن شيبته تقطر بالدماء» «۲».

ومررن على جسد الحسين عليه السلام وهو معفر بدمائه مفقود من أحبائه، فندبت عليه زينب بصوت مشج وقلب مقروح: «يا محمداه، صلى عليك مليك السماء، هذا حسين مرمل بالدماء، مقطع الأعضاء، وبناتك سبايا وإلى اللّه المشتكى، وإلى على المرتضى، وإلى فاطمة الزهراء، وإلى حمزة سيد الشهداء، هذا حسين بالعراء تسفى عليه الصبا، قتيل أولاد الأدعياء، واحزناه واكرباه، اليوم مات جدى رسول اللّه، يا أصحاب محمداه، هذه ذرية المصطفى يساقون سوق السبايا، فأذابت القلوب القاسية والجبال الراسية» «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۱۹۹

الطائفة الثانية: الندب إلى الاستغاثة بالمعصومين عليهم السلام ... ص: ۱۹۹

يا أولياء اللّه، إن بينى وبين اللّه عز وجل ذنوبا لا يأتى عليها إلا رضاكم، فبحق من ائتمنكم على سره، واسترعاكم أمر خلقه، وقرن

طاعتكم بطاعته لما استوهبتم ذنوبى، وكنتم شفعائى.

روى البيهقى فى خبر صحيح: «إنه فى أيام عمر جاء رجل إلى قبر النبى صلى الله عليه و آله فقال: يا محمد، استسق لأمتك فسقوا» «۱».

روى الطبرانى وابن المكرى وأبو الشيخ، أنهم كانوا جياعا، فجاءوا إلى قبر النبى صلى الله عليه و آله فقالوا: «يا رسول اللَّه: الجوع، فاشبعوا» «۲».

«صلاة الاستغاثة بالبتول» تصلى ركعتين، ثم تسجد وتقول: «يا فاطمة» مائة مرة، ثم تضع خدك الأيمن على الأرض وقل مثل ذلك، وتضع خدك الأيسر على الأرض وتقول مثله، ثم اسجد وقل ذلك مائة وعشر دفعات، وقل: «يا آمناً من كل شيء، وكل شيء منك خائف حذر، أسألك بأمنك من كل شيء وخوف كل شيء منك أن تصلى على محمد وآل محمد وأن تعطينى أمانا لنفسى وأهلى ومالى وولدى حتى لا أخاف أحداً ولا أحذر من شيء أبدا إنك على كل شيء قدير» «۳».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۰۰

«صلاة الغياث» عن أبى عبد اللَّه عليه السلام قال: إذا كانت لأحدكم استغاثة إلى اللَّه تعالى فليصل ركعتين ثم يسجد ويقول: «يا محمد، يا رسول اللَّه، يا على، يا سيد المؤمنين والمؤمنات، بكما أستغيث إلى اللَّه تعالى، يا محمد يا على، أستغيث بكما، يا غوثاه باللَّه وبمحمد وعلى وفاطمة- وتعد الأئمة- بكم أتوسل إلى اللَّه تعالى، فإنك تغاث من ساعتك إن شاء اللَّه تعالى» «۱».

ذكر الشيخ القمى فى كتاب المفاتيح لهم عليهم السلام زيارة جامعة تشتمل على الاستئذان، والظاهر أنه رحمه الله قد رواها عن بعض كتب الشيخ والسيد ابن طاووس، ونحن نوردها اعتمادا على أمانته فى النقل، قال (تغمده اللَّه برحمته) بعد أن ذكر بعض آداب الزيارة، وقل أيضا: «يا موالى، يا أبناء رسول اللَّه، عبدكم وابن أمتكم، الذليل بين أيديكم، والمضعف فى علو قدركم، والمعترف بحقكم جاءكم مستجيرا بكم قاصدا إلى حرمكم، متقربا إلى مقامكم، متوسلا إلى اللَّه تعالى بكم، أأدخل يا موالى، أأدخل يا أولياء اللَّه، أأدخل يا ملائكة اللَّه المحدقين بهذا الحرم، المقيمين بهذا المشهد» «۲».

حدثنى محمد بن يعقوب، عمن حدثه، عن سهل بن زياد، عن محمد بن أورمة. وحدثنى أبى، عن الحسين بن الحسن بن أبان، عن محمد بن أورمة، عمن حدثه، عن الصادق وأبى الحسن الثالث عليه السلام، قال: تقول عند قبر أمير المؤمنين عليه السلام:

«السلام عليك يا ولى اللَّه، أنت أول مظلوم، وأول من غصب حقه، صبرت واحتسبت حتى أتاك اليقين، وأشهد أنك لقيت اللَّه وأنت شهيد، عذب اللَّه قاتلك بأنواع العذاب، وجدد عليه العذاب، جئتك عارفا بحقك، مستبصرا بشأنك، مواليا لأوليائك، معاديا لأعدائك ومن ظلمك، ألقى على ذلك ربى إن شاء اللَّه تعالى، يا ولى اللَّه، إن لى ذنوبا كثيرة فاشفع لى إلى

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۰۱

ربك» «۱».

«يا أولياء اللَّه إن بينى وبين اللَّه عز وجل ذنوبا لا يأتى عليها إلا رضاكم، فبحق من ائتمنكم على سره، واسترعاكم أمر خلقه، وقرن طاعتكم بطاعته لما استوهبتم ذنوبى، وكنتم شفعائى» «۲».

محمد بن يعقوب الكلينى عن عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن محمد بن أورمة عمن حدثه عن الصادق وأبى الحسن الثالث عليه السلام قال: تقول عند قبر أمير المؤمنين عليه السلام: «السلام عليك يا ولى اللَّه أنت أول مظلوم وأول من غصب حقه صبرت واحتسبت حتى أتاك اليقين، وأشهد أنك قد لقيت اللَّه وأنت شهيد، عذب اللَّه قاتلك بأنواع العذاب وجدد عليه العذاب، جئتك عارفا بحقك مستبصرا بشأنك معاديا لأعدائك ومن ظلمك، ألقى على ذلك ربى إن شاء اللَّه، يا ولى اللَّه إن لى ذنوبا كثيرة فاشفع لى إلى ربك؟، فإن لك عند اللَّه مقاما محمودا وأن لك عند اللَّه جاها وشفاعة وقال اللَّه تعالى: ولا يشفعون إلا لمن ارتضى» «۳».

جعفر بن محمد بن قولويه فى الكامل: عن محمد بن جعفر الرزاز، عن محمد بن عيسى بن عبيد، عمن ذكره، عن أبى الحسن عليه السلام قال: تقول ببغداد: «السلام عليك يا ولى اللَّه، السلام عليك يا حجة اللَّه، السلام عليك يا نور اللَّه فى ظلمات الأرض، السلام

عليک يا من بـدا للّهفی شأنه، أتيتک عارفا بحقک، معاديا لأعـدائک، فاشـفع لی عند ربک يا مولای، قال: وادع اللّه واسأل حاجتک، قال: وسـلم بهـذا علی أبی جعفر محمد بن علی عليهما السـلام» «۴». «مولاـی يـا حجـهٔ اللّه، يـا أمين اللّه، يا ولی اللّه، إن بينی وبين اللّه ذنوبا قد أثقلت ظهری

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۵، ص: ۲۰۲

ومنعتنی من الرقاد، وذکرها يقلقل أحشائی، وقد هربت منها إلی اللّه وإليک، فبحق من ائتمنک علی سره، واسترعاک أمر خلقه، وقرن طاعتـک بطـاعته، وموالاتـک بموالاته، کن لی إلی اللّه شـفيعا، ومن النار مجيرا، وعلی الـدهر ظهيرا، ثم انکب علی القبر وقل: يا حجهٔ اللّه، يا ولی اللّه، يا باب حطـهٔ اللّه، وليک وزائرک واللائذ بقبرک، والنازل بفنائک، والمنيخ رحله فی جوارک، أسألک أن تشـفع لی إلی اللّه فی قضاء حاجتی، وانجح طلبتی فی الدنيا والآخرهٔ، فإن لک عند اللّه الجاه العظيم والشفاعهٔ المقبولهٔ» «۱».

أخبرنا عثمان بن عمر أخبرنا شـعبهٔ عن أبی جعفر عن عمارهٔ بن خزيمهٔ عن عثمان بن حنيف: أن رجلا ضرير البصر أتی النبی صلی الله عليه و آله فقـال ادعُ اللّه أن يعـافينی، فقـال: إن شـئت أخرت ذاک فهو أعظم لأـجرک، وأن شـئت دعوت اللّه، فقـال: ادعه، فأمره أن يتوضأ ويصـلی رکعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إنی أسألک وأتوجه إليک بنبيک محمد صـلی الله عليه و آله نبی الرحمهٔ يا محمد، إنی توجهت بک إلی ربی فی حاجتی هذه لتقضی، اللهم فشفعه فی عثمان بن أبی العاص» «۲».

وروينا فی کتاب الترمذی «سنن الترمذی، کتاب الدعوات باب ۱۱۹، ح ۳۵۷۸»، وابن ماجه «کتاب إقامهٔ الصلاهٔ، باب ۱۸۹، ح ۱۳۸۵»، عن عثمـان بن حنيف رضـی اللّه عنه، أن رجلاـ ضـرير البصـر أتی النبی صـلی الله عليه و آله فقال: ادع اللّه تعالی أن يعافينی، قال: «إن شئت دعوت، وأن شـئت صبرت فهو خير لـک» قـال فـادعه، فـأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويـدعو بهـذا الـدعاء: «اللهم إنی أسألک وأتوجه إليک بنبيک محمـد صـلی الله عليه و آله نبی الرحمهٔ، يا محمد إنی توجهت بک إلی ربی فی حاجتی هذه لتقضـی لی، اللهم فشفعه فیّ؛ قال الترمذی: حديث حسن صحيح» «۳».

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۵، ص: ۲۰۳

الطائفهٔ الثالثهٔ: الندب الخاص بتوجه النداء إلی المعصومين عليهم السلام ... ص: ۲۰۳

اشارهٔ

قال النبی صـلی الله عليه و آله: «إنه حلقهٔ باب الجنهٔ من ياقوتهٔ حمراء علی صفايح الذهب، فإذا دقت الحلقهٔ علی الباب طنت وقالت: يا علی يا علی».

الندب الخاص بتوجه النداء إليهم بلفظ النداء وبذکرهم ... ص: ۲۰۳

فيما يلی مجموعهٔ من الروايات:

من کتاب المناقب قال: قال رسول اللّه صـلی اللّه عليه و آله: «إن للّهعمودا من نور يضـیء لأهل الجنـهٔ کالشـمس لأهل الدنيا لا يناله إلا علی وشيعته، وأن حلقـهٔ باب الجنـهٔ من ياقوتهٔ حمراء طولها خمسون عاما، علی صـفائح من ذهب إذا نقرت طنت وقالت فی طنينها: يا علی» «۱».

أقول: معناها طريق الجنهٔ وشعارها يا علی.

عن سـعيد بن جبير عن ابن عبـاس، عن رسول اللّه صـلی اللّه عليه و آله أنه قـال: «إن حلقـهٔ بـاب الجنـهٔ من ياقوتـهٔ حمراء علی صـفائح الذهب، فإذا دقت الحلقهٔ علی الصفحهٔ طنت وقالت: يا علی» «۲».

روى السيد المرعشى فى شرح إحقاق الحق عن مصادر العامة فى أن طنين

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۰۴

باب الجنة يا على يا على قال: رواه القوم: منهم العلامة المولى محمد صالح الترمذى فى «المناقب المرتضوية» (ص ۸۵ و ۲۲۳، ط بمبئى): روى من طريق الخطيب فى «المناقب» قال النبى صلى الله عليه و آله: «إنه حلقة باب الجنة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فإذا دقت الحلقة على الباب طنت وقالت: يا على يا على» «۱».

ابن بابويه: قال: حدثنا أبى، قال: حدثنا عبد اللَّه بن الحسن المؤدب، عن أحمد بن على الاصبهانى، قال: حدثنا إبراهيم بن محمد الثقفى، قال: حدثنا محمد بن داود الدينورى، قال: حدثنا منذر الشعرانى، قال: حدثنا سعد بن زيد، حدثنا أبو قبيل، عن أبى الجارود رفعه إلى النبى صلى الله عليه و آله قال: «إن حلقة باب الجنة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فإذا دقت الحلقة على الصفحة طنت وقالت: يا على» «۲».

خصائص النطنزى، قيس بن أبى حازم عن ابن مسعود، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«على بن أبى طالب حلقة معلقة بباب الجنة من تعلق بها دخل الجنة» «۳».

قال القاضى النعمان فى شرح الأخبار: ج ۱، ص ۱۴۱: عن مسروق، قال:

دخلت على عائشة فقالت لى: يا مسروق: إنك من أبر ولدى بى، وإنى أسألك عن شىء فأخبرنى به. فقلت: سلى يا أماه عما شئت. قالت: المخدج من قتله؟ قلت:

على بن أبى طالب عليه السلام. قالت: وأين قتله؟ قلت على نهر يقال لأعلاه تامرا، ولأسفله النهروان بين أحافيف «أخافيق» وطرق. فقالت: لعن اللَّه فلانا، تعنى عمرو بن العاص، فإنه أخبرنى أنه قتله على نيل مصر. قال مسروق: يا أماه، فإنى أسألك بحق اللَّه وبحق رسوله وبحقى فإنى ابنك، لما أخبرتنى بما سمعت من رسول اللَّه فيهم.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۰۵

قالت: سمعته يقول فيهم «أهل النهروان»: «هم شر الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة، وأقربهم إلى اللَّه وسيلة».

رواه ابن المغازلى فى المناقب عن أحمد بن محمد بن عبد الوهاب بن طاوان، عن الحسين بن محمد العلوى، عن أحمد بن محمد الجواربى، عن أحمد ابن حازم، عن سهل بن عامر البجلى عن أبى خالد الأحمر، عن مجالد، عن الشعبى، عن مسروق قال: قالت عائشة: يا مسروق إنك من ولدى، وإنك من أحبهم إلى، فهل عندك علم من المخدج؟ قال: قلت: نعم، قتله على بن أبى طالب على نهر يقال لأعلاه تامرا ولأسفله النهروان، بين أحفاق وطرقاء قالت: إبغنى على ذلك بينة، فأتيتها بخمسين رجلا من كل خمسين بعشرة- وكان الناس إذ ذاك أخماسا- يشهدون أن عليا عليه السلام قتله على نهر يقال لأعلاه تأمرا ولأسفله النهروان بين أخفاق وطرقاء. فقلت: يا أماه، أسألك باللَّه وبحق رسول اللَّه وبحقى- فإنى من ولدك- أى شىء سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول فيه؟ قالت: سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: هم شر الخلق والخليقة، يقتلهم خير الخلق والخليقة، وأقربهم إلى اللَّه وسيلة. انتهى «۱».

ورواه فى شرح الأخبار: ج ۲ ص ۵۹.

ما رواه السيد الأجل على بن طاووس رضى الله عنه فى كشف المحجة، نقلاـ عن كتاب الرسائل للشيخ الأقدم محمد بن يعقوب الكلينى رضى الله عنه عمن سماه قال: كتبت إلى أبى الحسن عليه السلام: إن الرجل يحب أن يفضى إلى إمامه ما يحب أن يفضى إلى ربه، قال:

فكتب عليه السلام «إن كان لك حاجة فحرك شفتيك فإن الجواب يأتيك» «۲».

وفى البحار عن عدة الداعى، عن سلمان الفارسى قال: سمعت محمدا صلى الله عليه و آله

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۰۶

يقول: إن اللَّه عز وجل يقول: «يا عبادى أوليس من له إليكم حوائج كبار لا- تجودون بها إلا أن يتحمل عليكم بأحب الخلق إليكم، تقضونها كرامة لشفيعهم، ألا فاعلموا أن أكرم الخلق على وأفضلهم لدى محمد صلى الله عليه و آله وأخوه على ومن بعده الأئمة الذين هم الوسائل إلى اللَّه، ألا فليدعنى من أهمته حاجة يريد نفعها أو دهته داهية يريد كشف ضررها بمحمد وآله الطيبين الطاهرين أقضها له أحسن ما يقضيها من تستشفعون بأعز الخلق عليه» «۱».

فى البحار: ووجدت بخط الشيخ محمد بن على الجبعى: نقلا من خط الشيخ الأجل على بن السكون حدثنا الشيخ الأجل الفقيه سديد الدين أبو محمد عربى بن مسافر العبادى أدام اللَّه تأييده، قراءة عليه، حدثنا الشيخ أبو عبد اللَّه الحسين بن أحمد بن محمد بن على بن طحال المقدادى رحمه اللَّه بمشهد مولانا أمير المؤمنين صلوات اللَّه عليه فى الطرز الكبير الذى عند رأس الإمام عليه السلام فى العشر الأواخر من ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة قال: حدثنا الشيخ الأجل السيد المفيد أبو على الحسن بن محمد بن الحسن الطوسى رضى اللَّه عنه بالمشهد المذكور على صاحبه أفضل السلام فى الطرز المذكور فى العشر الأواخر من ذى القعدة سنة تسع وخمسمائة، قال: حدثنا السيد السعيد الوالد أبو جعفر محمد بن الحسن، عن محمد بن إسماعيل، عن محمد بن الحسين البزاز قال: أخبرنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن يحيى القمى قال: حدثنا أبو عبد اللَّه محمد بن على بن زنجويه القمى قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن عبد اللَّه بن جعفر الحميرى قال أبو على الحسن بن أشناس:

وأخبرنا أبو المفضل محمد بن عبداللَّه الشيبانى أن أبا جعفر محمد بن عبد اللَّه بن جعفر الحميرى أخبره وأجاز له جميع ما رواه، أنه خرج إليه توقيع من الناحية المقدسة حرسها اللَّه بعد المسائل التى سألها: والصلاة والتوجه أوله:

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۰۷

«لا- لأمر اللَّه تعقلون، ولا- من أوليائه تقبلون، حكمة بالغة فما تغن الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، والسلام علينا وعلى عباد اللَّه الصالحين، فإذا أردتم التوجه بنا إلى اللَّه تعالى وإلينا، فقولوا كما قال اللَّه تعالى: سلام على آل ياسين، ذلك هو الفضل المبين، واللَّه ذو الفضل العظيم، من يهديه صراطه المستقيم. التوجه: قد آتاكم اللَّه يا آل ياسين خلافته، وعلم مجارى أمره فيما قضاه ودبره ورتبه وأراده فى ملكوته، فكشف لكم الغطاء، وأنتم خزنته وشهداؤه وعلماؤه وأمناؤه، ساسة العباد، وأركان البلاد، وقضاة الأحكام، وأبواب الإيمان ومن تقديره منايح العطاء، بكم إنفاذه محتوما مقرونا فما شىء منه إلا وأنتم له السبب، وإليه السبيل، خياره لوليكم نعمة، وانتقامه من عدوكم سخطة، فلا نجاة ولا مفزع إلا أنتم، ولا مذهب عنكم، يا أعين اللَّه الناظرة، وحملة معرفته، ومساكن توحيده فى أرضه وسمائه، وأنت يا حجة اللَّه وبقيته كمال نعمته، ووارث أنبيائه وخلفائه، ما بلغناه من دهرنا، وصاحب الرجعة لوعد ربنا، التى فيها دولة الحق وفرحنا ونصر اللَّه لنا وعزنا. السلام عليك أيها العلم المنصوب، والعلم المصبوب، والغوث والرحمة الواسعة، وعدا غير مكذوب. السلام عليك صاحب المرأى والمسمع، الذى بعين اللَّه مواثيقه، وبيد اللَّه عهوده، وبقدرة اللَّه سلطانه، أنت الحليم الذى لا تعجله العصبية والكريم الذى لا تبخله الحفيظة، والعالم الذى لا تجهله الحمية» «۱».

حميد بن زياد، عن الحسن بن محمد بن سماعة، عن وهيب بن حفص، عن أبى بصير، عن أبى عبد اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «ما اجتمع فى مجلس قوم لم يذكروا اللَّه عزّ وجلّ ولم يذكرونا إلا كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة، ثم قال: قال أبو جعفر ٧: إن

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۰۸

ذكرنا من ذكر اللَّه وذكر عدونا من ذكر الشيطان» «۱».

فى الاستيعاب لابن عبد البر: روى ابن عباس وأنس بن مالك أن عمر ابن الخطاب كان إذا قحط أهل المدينة استسقى بالعباس، قال أبو عمر: وكان سبب ذلك أن الأرض أجدبت إجدابا شديدا على عهد عمر سنة سبع عشرة، فقال كعب: إن بنى إسرائيل كانوا إذا

قحطوا وأصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة الأنبياء، فقال عمر: هذا عم النبى صلى الله عليه و آله وصنو أبيه وسيد بنى هاشم، فمضى إليه عمر فشكى إليه ما فيه الناس ثم صعد المنبر ومعه العباس فقال: «اللهم إنا قد توجهنا إليك بعم نبينا وصنو أبيه فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين» «۲».

عن أنس بن مالك أنهم كانوا إذا قحطوا على عهد عمر خرج بالعباس فاستسقى به وقال اللهم إنا كنا نتوسل بنبينا إذا قحطنا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا.. وعن ابن عمر أن عمر خطب الناس وقال: «أيها الناس إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده يعظمه ويفخمه ويبر قسمه، فاقتدوا أيها الناس برسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى اللَّه عز وجل فيما نزل بكم» «۳».

حديث حسن صحيح تفرد به الزبير بن بكار، خرجه الحافظ الدمشقى.

ثم قال: «يا أبا الفضل قم فأدعو اللَّه، فقام العباس يحمد اللَّه ويثنى عليه ويدعو إلى أن قال: اللهم ... وقد توجه القوم بى إليك فاسقنا الغيث.

قال: فأرخت السماء غزالها، وأخصبت الأرض فقال عمر: هذى واللَّه الوسيلة إلى اللَّه، والمكان منه» «۴».

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۰۹

الفتاوى الدينية ... ص: ۲۰۹

قال السيد الخوئى:

قول القائل: أدركنا يا على لا- مانع منه وهو يقصد التوسل به إلى اللَّه، وهل هناك مانع من قول الغريق أو الحريق ومن إليهما حين يستغيث بمن ينقذه فيقول: يا فلان أنقذنى؟!

ملف الفتاوى الدينية

سؤال ۱۴۲۶: من الرسوم فى هذه البلاد أن المؤمنين يستغيثون بالإمام الحجة عليه السلام بعد كل صلاة، ويقولون: يا صاحب الزمان يا ابن الحسن العسكرى عجل على ظهورك.

واستشكل عليهم بعض العلماء: بأن هذا ينافى عقيدة الشيعة، فإن الإمام لا يملك أمره، والدعاء لا بد أن يكون من اللَّه، فهل يرد هذا الإشكال ويحرم مثل هذه الاستغاثة أم لا؟

الخوئى: الإشكال المذكور غير وارد، فإن الغرض من الجملة المذكورة الدعاء والالتماس منه عليه السلام بتعجيل ظهوره بطلبه عليه السلام من اللَّه تعالى ذلك، كما هو الحال فى سائر الأدعية المشتملة على طلب الحوائج من الأئمة الأطهار، فإن معنى ذلك هو جعلهم: واسطة عند اللَّه تعالى، وقد ذكر مضمونه فى ذيل دعاء العهد الوارد فى

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۱۰

صباح أربعين يوما عن الصادق عليه السلام، واللَّه العالم. انتهى «۱»

أقول: ويستقيم الطلب منهم عليهم السلام بداعى أن يمنحوا ما أقدرهم اللَّه عليه، وأذن لهم فى إعطائه، وهذا معنى الشفاعة التكوينية الذى مر بيانها فى المطالب السابقة، وهو لا يعنى استقلالهم لا ذاتا ولا فعلا فيما أقدروا عليه.

سؤال ۱۳۰۶: هل يجوز طلب الولد أو الرزق أو الحفظ والأمان إلى غير ذلك، من المعصومين عليهم السلام مباشرة، لا لأنهم يخلقون أو يرزقون وإنما لأنهم الوسيلة إلى اللَّه تعالى والشفعاء إليه بقضاء الحاجات، ولأنهم لا يفعلون شيئا إلا بإذنه جل شأنه فهم يسألونه فيخلق ويسألونه فيرزق، ولا- ترد لهم مسألة أو دعاء لمنزلتهم منه جل شأنه ولولا-يتهم علينا، وقد قال تعالى: «وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ» و «يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ»؟

الخوئی: لا بأس بذلک القصد. انتهی «۲»

أقول: مر عدم الحصر بذلک الذی قد مر.

سؤال ۱۳۱۳: المتعارف حال النهوض أو القیام أو حال أی عمل الاستنجاد بالنبی صلی الله علیه و آله أو الإمام علی علیه السلام أو أحد الأئمة علیهم السلام، فهل یجوز ذلک عن قصد، علما أن الاعتقاد هو أنهم الباب إلی اللّه تعالی؟

الخوئی: لا بأس بتوسیطهم والاستشفاع بهم إلی اللّه تعالی کوسیلة فی قضائه هو حوائج المتوسلین؛ لأنه تعالی رغب فی التوسل بقوله تعالی: «وَابْتَغُواْ إِلَیهِ الْوَسِیلَةَ». انتهی «۳»

الامامة الالهیة(۵)، ج۵، ص: ۲۱۱

أقول: قد مر أن الأفعال والقدرات التی وکل بها الملائکة أو الأولیاء علیهم السلام لیست معزولة عن قدرة اللّه وفعله، بل قائمة به، فتسند مآلا إلیه وإن کانت لها نسبة ملابسیة إلی الموکلین، وهذه النسبة قائمة بالنسبة والإسناد إلیه تعالی.

سؤال ۹۹۳: ما معنی العبارة الواردة فی دعاء رجب الیومی: «لا فرق بینک وبینها إلا أنهم عبادک»؟

الخوئی: لعلها تشیر إلی أنهم مع بلوغهم فی مرتبة الکمال إلی حد نفوذ التصرف منهم فی الکون بإذنک، فهم مقهورون لک؛ لأنهم مربوبون لک، لا حیلة لهم دون إرادتک ومشیتک فیهم بما تشاء. واللّه العالم. انتهی «۱»

أقول: ویمکن أن یفسر بأن ظهور اللّه تعالی فی کافة شؤونه بالآیات، والآیات علامات علیه، وصور یظهر بها، فرؤیتها رؤیته، إلا أنها مخلوقة له، فما تقدم من جوابه؟ بیان للتوحید بالتوسل فی مقام الفعل، وما ذکرناه بیان للتوحید بالتوسل فی مقام الصفات والذات.

سؤال ۹۹۶: ما حکم قول: أدرکنا یا علی، ویا أبا الغیث أغثنا وغیر ذلک؟

الخوئی: قول القائل: أدرکنا یا علی لا مانع منه وهو یقصد التوسل به إلی اللّه، وهل هناک مانع من قول الغریق أو الحریق ومن إلیهما حین یستغیث بمن ینقذه فیقول: یا فلان أنقذنی؟! وهناک آیة فی القرآن الکریم تؤید ذلک، وهی قوله تعالی:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَحِیماً». صدق اللّه العلی العظیم.

التبریزی: یضاف إلی جوابه؟: ویزاد علی ذلک قوله تعالی: «وَابْتَغُواْ إِلَیهِ الْوَسِیلَةَ». انتهی «۲»

الامامة الالهیة(۵)، ج۵، ص: ۲۱۲

أقول: هذا الجواب منه؟ یقرر أن التوسل قد یکون بمعنی الطلب منهم فیما أقدرهم اللّه علیه، وأذن لهم فی فعله.

الامامة الالهیة(۵)، ج۵، ص: ۲۱۳

کلمات العلماء من الفریقین ... ص: ۲۱۳

قال العلامة الأمینی:

هناک جماعة من الحفاظ وأعلام أهل السنة بسطوا القول فی التوسل وقالوا: إن التوسل بالنبی جائز فی کل حال قبل خلقه وبعده فی مدة حیاته فی الدنیا وبعد موته..

ملف کلمات العلماء من الفریقین

قال الأصفهانی:

یمکن أن یقال إن من جملة فوائد وجود الإمام علیه السلام ووظائفه وعاداته ومناصبه علی ما یظهر من الروایات إعانة الملهوفین، وإغاثة المستغیثین، بل لا ریب فی أن أحدا من الناس إذا کان من رعیة رئیس قادر مطاع وبغی علیه، دله أحبته إلی التظلم لدی ذلک الرئیس، ولو ترکه ذمه العقلاء بترکه عرض حاجته علیه. انتهی «۱»

أقول: یشیر إلی أن نصب اللّه تعالی للنبی وأهل بیته علیهم السلام ولاة علی الأمة، بنفسه یقتضی کونهم شفعاء ووسطاء ما بین اللّه

وخلقه، ألا ترى إلى قوله تعالى: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» «۲».

الدالة على أن حساب الأمم لا يقام إلا بمجى رسول وإمام كل أمة.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۱۴

وكذلك قوله تعالى: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء» «۱».

وقوله تعالى: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا» «۲».

فجعل النبى وأهل بيته عليهم السلام من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليه السلام أشهادا على الناس، فأعمال العباد مرتهنة فى العرض على اللَّه تعالى بحججه من أنبيائه ورسله وأوصيائه.

قال الأمينى:

وأما الاستغاثة والنداء والانقطاع وما أشار إليها، فلا تعدو أن تكون توسلا بهم إلى المولى سبحانه، واتخاذهم وسائل إلى نجح طلباتهم عنده جلت عظمته، لقربهم منه وزلفتهم إليه ومكانتهم عنده؛ لأنهم عباد مكرمون، لا لأن لذواتهم القدسية دخلا فى إنجاح المقاصد أولا وبالذات، لكنهم مجارى الفيض، وحلقات الوصل، ووسايط بين المولى وعبيده، كما هو الشأن فى كل متقرب من عظيم يتوسل به إليه.

وهذا حكم عام للأولياء والصالحين جميعا وإن كانوا متفاوتين فى مراحل القرب، كل هذا مع العقيدة الثابتة بأنه لا مؤثر فى الوجود إلا اللَّه سبحانه، ولا تقع فى المشاهد المقدسة كلها من وفود الزائرين إلا ما ذكرناه من التوسل، فأين هذه من مضادة التوحيد؟! انتهى «۳»

أقول: قد مر أن التوسل هو الطريق الحصرى للتوحيد، وليس الكلام فى عدم المضادة وأصل المشروعية، بل فى الضرورة واللابدية.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۱۵

قال الأمينى:

هناك جماعة من الحفاظ وأعلام أهل السنة بسطوا القول فى التوسل وقالوا: إن التوسل بالنبى جائز فى كل حال، قبل خلقه وبعده فى مدة حياته فى الدنيا وبعد موته فى مدة البرزخ وبعد البعث فى عرصات القيامة والجنة وجعلوه على ثلاثة أنواع:

(۱) طلب الحاجة من اللَّه تعالى به أو بجاهه أو لبركته، فقالوا: إن التوسل بهذا المعنى جائز فى جميع الأحوال المذكورة.

(۲) التوسل به بمعنى طلب الدعاء منه، وحكموا بأن ذلك جائز فى الأحوال كلها.

(۳) الطلب من النبى صلى الله عليه و آله ذلك الأمر المقصود، بمعنى أنه صلى الله عليه و آله قادر على التسبب فيه بسؤاله ربه وشفاعته إليه، فيعود إلى النوع الثانى فى المعنى غير أن العبارة مختلفة، وعدوا منه قول القائل للنبى صلى الله عليه و آله: أسألك مرافقتك فى الجنة.

وقول عثمان ابن أبى العاص: شكوت إلى النبى صلى الله عليه و آله سوء حفظى للقرآن، فقال:

ادن منى يا عثمان، ثم وضع يده على صدرى وقال: اخرج يا شيطان من صدر عثمان، فما سمعت بعد ذلك شيئا إلا حفظت.

وقال السبكى فى «شفاء السقام»: والآثار فى ذلك كثيرة أيضا، إلى أن قال: فلا عليك فى تسميته توسلا، أو تشفعا، أو استغاثة، أو توجها «۱».

قال العلامة الطباطبائى:

ربما يظن أن ما ورد فى الأدعية من الاستشفاع بالنبى وآله المعصومين صلوات اللَّه عليهم، ومسألته تعالى بحقهم، وزيارة قبورهم، وتقبيلها والتبرك

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۱۶

بتربتهم، وتعظيم آثارهم، من الشرك المنهى عنه وهو الشرك الوثنى، محتجا بأن هذا النوع من التوجه العبادى فيه إعطاء تأثير ربوبى لغيره تعالى وهو شرك، وأصحاب الأوثان إنما أشركوا لقولهم فى أوثانهم: إن هؤلاء شفعاؤنا عند اللَّه، وقولهم: إنما نعبدهم ليقربونا إلى اللَّه زلفى، ولا فرق فى عبادهٔ غير اللَّه سبحانه بين أن يكون ذلك الغير نبيا أو وليا أو جبارا من الجبابرهٔ أو غيرهم، فالجميع من الشرك المنهى عنه.

وقد فاتهم أولا: أن ثبوت التأثير سواء كان ماديا أو غير مادى فى غيره تعالى ضرورى لا سبيل إلى إنكاره، وقد أسند تعالى فى كلامه التأثير بجميع أنواعه إلى غيره، ونفى التأثير عن غيره تعالى مطلقا يستلزم إبطال قانون العليهٔ والمعلوليهٔ العام الذى هو الركن فى جميع أدلهٔ التوحيد، وفيه هدم بنيان التوحيد، نعم المنفى من التأثير عن غيره تعالى هو الاستقلال فى التأثير ولا كلام لأحد فيه، وأما نفى مطلق التأثير ففيه إنكار بديههٔ العقل والخروج عن الفطرهٔ الإنسانيهٔ، ومن يستشفع بأهل الشفاعهٔ الذين ذكرهم اللَّه فى مثل قوله: «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» «۱»

وقوله: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» «۲»

، أو يسأل اللَّه بجاههم ويقسمه بحقهم الذى جعله لهم عليه بمثل قوله مطلقا: «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ» «۳»

وقوله: «انَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا» «۴»

، أو يعظمهم ويظهر حبهم بزيارهٔ قبورهم وتقبيلها والتبرك بتربتهم بما أنهم آيات اللَّه وشعائره تمسكا بمثل قوله تعالى: «ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۵، ص: ۲۱۷

مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» «۱»

، وآيهٔ القربى وغير ذلك من كتاب وسنهٔ، فهو فى جميع ذلك يبتغى بهم إلى اللَّه الوسيلهٔ وقد قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ» «۲»

فشرع به ابتغاء الوسيلهٔ، وجعلهم بما شرع من حبهم وتعزيرهم وتعظيمهم وسائل إليه، ولا معنى لا يجاب حب شىء وتعظيمه وتحريم آثار ذلك، فلا مانع من التقرب إلى اللَّه بحبهم وتعظيم أمرهم وما لذلك من الآثار، إذا كان على وجه التوسل والاستشفاع من غير أن يعطوا استقلال التأثير والعبادهٔ البتهٔ.

وثانيا: أنه فاتهم الفرق بين أن يعبد غير اللَّه رجاء أن يشفع عند اللَّه أو يقرب إلى اللَّه، وبين أن يعبد اللَّه وحده مع الاستشفاع والتقرب بهم إليه، ففى الصورهٔ الأولى إعطاء الاستقلال وإخلاص العبادهٔ لغيره تعالى، وهو الشرك فى العبوديهٔ والعبادهٔ، وفى الصورهٔ الثانيهٔ يتمحض الاستقلال للَّه‌تعالى ويختص العبادهٔ به وحده لا شريك له، وإنما ذم تعالى المشركين لقولهم: «إنما نعبدهم ليقربونا إلى اللَّه زلفى» حيث أعطوهم الاستقلال وقصدوهم بالعبادهٔ دون اللَّه سبحانه، ولو قالوا: إنما نعبد اللَّه وحده ونرجو مع ذلك أن يشفع لنا ملائكته أو رسله وأولياؤه بإذنه أو نتوسل إلى اللَّه بتعظيم شعائره وحب أوليائه، لما كفروا بذلك بل عادت شركاؤهم كمثل الكعبهٔ فى الإسلام هى وجههٔ وليست بمعبودهٔ، وإنما يعبد بالتوجه إليها اللَّه.

وليت شعرى ماذا يقول هؤلاء فى الحجر الأسود وما شرع فى الإسلام من استلامه وتقبيله؟ وكذا فى الكعبهٔ؟ فهل ذلك كله من الشرك المستثنى من حكم الحرمهٔ؟ فالحكم حكم ضرورى عقلى لا يقبل تخصصا ولا استثناء، أو أن ذلك من

الامامهٔ الالهيهٔ(۵)، ج۵، ص: ۲۱۸

عبادهٔ اللَّه محضا وللحجر حكم الطريق والجههٔ، وحينئذ فما الفرق بينه وبين غيره إذا لم يكن تعظيمه على وجه إعطاء الاستقلال وتمحيض العبادهٔ، ومطلقات تعظيم شعائر اللَّه وتعزير النبى صلى الله عليه و آله وحبه ومودته وحب أهل بيته ومودتهم وغير ذلك فى

محلها «۱».

أقول: الظاهر أن تأليه المشركين للأصنام والأوثان لم يكن بزعم استقلال تلك الذوات في الوجود عن خلق الباري، ومن الظاهر حصرهم الخلق باللَّه كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» «۲».

وإنما إشراكهم في استقلال المشركين بنصب وسائط بينهم وبين اللَّه غير مأذونين فيها، كما تشير إلى ذلك جملة من الآيات التي مرت، وبالتالي فعبودية المشركين للأصنام والأوثان منطلقة من تزلفهم وتعظيمهم لها بغير إذن وأمر من اللَّه، فأطاعوهم وقصدوهم بغير أمر من اللَّه وطاعته، فلم تكن عبودية للَّهبل طاعة وطوعانية وهي العبودية لغير اللَّه تعالى.

ومن ثم يؤكد القرآن في آيات عديدة كما أشارت إلى ذلك روايات أهل البيت أيضاً، إلى أن جملة العبادات لغير للَّهكانت في الطاعة لغير اللَّه، وطاعة غير من أمر اللَّه بطاعته، وتعظيم غير من أمر اللَّه بتعظيمه، والتوجه إلى غير من أمر اللَّه بالتوجه إليه، وهو معنى اتخاذ المشركين إلى للأصنام الطينية والأوثان الحجرية، كذا هو معنى اتخاذ الأصنام البشرية والأوثان من بني الإنسان، فالصنم والوثن البشري الذي قد تتخذه جماعة مناوئة للحق هو بنصبهم من يطيعوه بغير أمر اللَّه، ومن يعظمه

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۱۹

بغير إذن اللَّه بتعظيمه، وبأن يتوجهوا به إلى اللَّه مع إنه يصد عن سبيل اللَّه كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» «۱».

وكما يشير إلى ذلك قول الصادق عليه السلام في ذيل هذه الآية: «واللَّه ما سجدوا لهم وما ركعوا لهم، ولكن أطاعوهم» كيف لا وحقيقة العبودية هي الطاعة والطوعانية كاستحقاق للمطاع بذاته.

وكذا قوله تعالى: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّاتَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» «۲».

إذ الطوعانية هي الخضوع والانقياد، فالعمدة في الفارق بين التوحيد والشرك، والتوحيد والصنمية هو ما مر، وفي الحقيقة إن القول باستحقاق الطاعة لمطاع لذاته يرجع إلى القول باستقلاله في الحول والقوة، وإلى افتقار العابد المطيع له في ذلك الحول والقوة والوجود.

فالطاعة بداعي الاستحقاق للذات وهي الشرك في الولاية تؤول إلى الشرك في الذات والشرك في الحكم، فالنكير في القرآن على المشركين والوثنيين لا ـ لأنهم يدعون استقلال ذوات الأصنام أو الأرواح المرسلة المرتبطة بها، ولا لزعمهم ضرورة أصل الوساطة والشفاعة بين الخلق والخالق، بل لكون اتخاذها لهم هو بغير اللَّه وإذنه.

ومن ثم فالوثنية والصنمية باقية ضمن أشكال بشرية، كما ورد مستفيضاً في روايات أهل البيت عليهم السلام: «أن من أطاع وتولى من لم يأمر اللَّه بطاعته وولايته فهو وثن

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۲۰

يعبد من دون اللَّه» «۱»

، وفي المقابل إن التوحيد يقام بطاعة وتولي المنصوبين من قبل اللَّه تعالى للطاعة، لكونهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۲۱

سئل آية اللَّه التبريزي:

هل يجوز الاعتقاد بأن النبي والأئمة المعصومين عليهم السلام هم العلة الفاعلية والمادية، والصورية والغائية لجميع الخلائق؟ وهل يجوز إطلاق هذه الألفاظ عليهم؟ وما حكم من يعتقد ذلك؟.

قال في الجواب: إن خلق الدنيا ومن فيها، وكذا خلق الآخرة ومن فيها، وما فيها كله من فعل اللَّه عز وجل ومشيئته، وبما أن اللَّه سبحانه وتعالى حكيم لا يخلق شيئا عبثا، فالغرض من خلق الدنيا وما فيها هو أن يعرف الناس ربهم، ويصلوا إلى كمالاتهم، بإطاعة اللَّه سبحانه وتعالى، والتقرب إليه، وهذا يقتضي اللطف من اللَّه بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ونصب الأوصياء والأئمة عليهم السلام ليأخذ الناس منهم سبيل الاهتداء، وبما أن الحكمة هي ما ذكر في الخلق حيث يفصح عنه قوله تعالى:

«وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» وبضميمة قوله سبحانه: «خَلَقَ لَكُم مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» يعلم أن الغاية من خلق الإنس والجن هي خلق الذين يعرفون اللَّه سبحانه ويعبدونه، ويهتدون بالهدى، والسابقون على ذلك في علم اللَّه سبحانه الذين يعيشون في الدنيا وسيلة لكسب رضا ربهم، والتفاني في رضاه هم الأنبياء والأوصياء والأئمة «سلام اللَّه عليهم أجمعين» والسابقون في هذه المرتبة هم نبينا محمد والأئمة الأطهار «صلى اللَّه عليهم أجمعين» من بعده.

وبذلك يصح القول أنهم علة غائية لخلق العباد، لا بمعنى أن الخالق يحتاج إلى الغاية، بل لأن إفاضة فيض الوجود بسبب ما سبق في علمه أنهم السابقون الكاملون في الغرض والغاية من الفيض، واللَّه العالم «۱».

أقول: تقدير كونهم عليهم السلام علة غائية يستلزم كونهم علة فاعلية كما هو مقرر في علوم الحكمة، إلا أن الصحيح إنهم علة غائية في الفعل، وهي ليست علة غائية نهائية، بل العلة

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۲۲

الغائية النهائية هي اللَّه تعالى فليس وراء اللَّه تعالى منتهى، كما إنه تعالى العلة الفاعلية الأولى فمنه ينشأ الوجود وإليه يعود ويتقوم، وهم وسائط فيضه والشهداء على خلقه في المعاد.

قال القسطلاني في (المواهب اللدنية):

وينبغي للزائر له صلى الله عليه و آله أن يكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع والتوسل به صلى الله عليه و آله فجدير بمن استشفع به أن يشفعه اللَّه فيه. قال: وأن الاستغاثة هي طلب الغوث فالمستغيث بطلب من المستغاث به إغاثته أن يحصل له الغوث، فلا فرق بين أن يعبر بلفظ الاستغاثة أو التوسل أو التشفع أو التوجه أو التجوه؛ لأنهما من الجاه والوجاهة ومعناهما علو القدر والمنزلة، وقد يتوسل بصاحب الجاه إلى من هو أعلى منه.

قال: ثم إن كلا من الاستغاثة والتوسل والتشفع والتوجه بالنبي صلى الله عليه و آله كما ذكره في تحقيق النصرة ومصباح الظلام واقع في كل حال قبل خلقه وبعد خلقه في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في البرزخ وبعد البعث في عرصات القيامة.

ثم فصل ما وقع من التوسل والاستشفاع به صلى الله عليه و آله في الحالات المذكورة «۱».

قال ابن عابدين في حاشية رد المحتار: ج ۶ ص ۷۱۶:

نعم ذكر العلامة المناوي في حديث: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، عن العز بن عبد السلام أنه ينبغي كونه مقصورا على النبي صلى الله عليه و آله، وأن لا يقسم على اللَّه بغيره، وأن يكون من خصائصه «۲».

أقول: القسم على اللَّه ليس تحتيم شيء على إرادة اللَّه تعالى؛ لأن اللَّه تعالى لا يبرمه إلحاح الملحين، وإنما القسم على اللَّه تعالى يرجع إلى استجارة من يقسم بالمقسم به لما

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۲۳

للمقسم به من حرمة عند اللَّه تعالى، فيلوذ به بما له من حرمة وجاه عند اللَّه من نعمة اللَّه وسخطه، أو لاستنزال رزقه فهو نوع تشفع بالمقسم به وتوجهاً به على المقسوم عليه، وعلى ذلك فيعم القسم الذي هو نوع استشفاع وتوسل كل من له جاه وحظوة عند اللَّه تعالى وإن كانت مراتب المقسوم به مختلفة في الشفاعة والوسيلة.

قال الشربيني في مغني المحتاج: ج ۱ ص ۱۸۴ خاتمة:

سئل الشيخ عز الـدين هل يكره أن يسأل اللَّه بعظيم من خلقه كالنبى والملك والولى عليه السـلام فأجاب بأنه جاء عن النبى صـلى الله عليه و آله أنه علم بعض الناس: اللهم إنى أقسم عليك بنبيك محمد نبى الرحمهٔ الخ.

فإن صح فينبغى أن يكون مقصورا عليه عليه الصـلاهٔ والسلام؛ لأنه سيد ولد آدم، ولا يقسم على اللَّه بغيره من الأنبياء والملائكهٔ؛ لأنهم ليسوا فى درجته، ويكون هذا من خواصه، والمشهور أنه لا يكره شىء من ذلك «۱».

نقل ابن كثير فى البدايهٔ ج ۱ ص ۴۵:

أن ابن تيميـهٔ أقر أخيرا فى المجلس الـذى عقده له العلماء العاملون الربانيون المجاهدون بالتوسل وأصـر على إنكار الاسـتغاثهٔ، مع أنه يقول فى رسالهٔ خاصهٔ له فى الاستغاثهٔ بجوازها بالنبى فيما يقدر عليه المخلوق.

واعتمد الإمام الحافظ النووى اسـتحباب التوسل والاسـتغاثهٔ فى مصـنفاته، كما فى حاشيهٔ الإيضاح على المناسك له (ص ۴۵۰) و (ص ۴۹۸) من طبعـهٔ أخرى، وفى شـرح المهذب المجموع (۸، ۲۷۴) وفى الأذكار (ص ۳۰۷) من طبعـهٔ دار الفكر، فى كتاب أذكار الحج، وص (۱۸۴) من طبعهٔ المكتبهٔ العلميهٔ.

وهو مذهب الشافعيهٔ وغيرهم من الأئمهٔ المرضيين المجمع على جلالتهم «۱».

أقـول: قـد مر مراراً أن التوسـل والاسـتغاثهٔ والتوجه والاستشـفاع والسؤال كلهـا من بـاب واحـد وحقيقـهٔ واحـدهٔ، ذات حيثيـات ووجوه متلازمـهٔ، فتسويغ أحـدها ومنع الأـخرى، أو حسـبان تباينهـا نـاجم من عـدم درك معانيهـا بغور وعمق ودرجات وأنواع كل منها، وأما تسويغ بن تيميهٔ الاسـتغاثهٔ بما يقدر عليه المخلوق فقد عرفت أن جملهٔ الأشياء المخلوقهٔ والتى تسأل للداعى هى ذات نسبهٔ إلى الذوات المخلوقـهٔ التى هى مجرى الفيض الإلهى المتقوم بتلك النسـبهٔ بالإسـناد والنسـبهٔ إلى الـذات الإلهيهٔ اسـتمدادا وإيجاداً باعتبار أنه منشـأ الوجود.

وقد ذكر القرآن الكريم أفعال كونيهٔ مهولهٔ أسـندها إلى الملائكهٔ الكرام من دون أن يعنى ذلك عزل القدرهٔ الإلهيهٔ أو عدم التقوم بها بالحول والقوهٔ والقدرهٔ الإلهيهٔ.

قال الآلوسى فى تفسيره روح المعانى بعد استعراضه أطراف بحث التوسل وآراء العلماء فيه:

وبعـد هـذا كله أنا لا أرى بأسا فى التوسل إلى اللَّه تعالى بجاه النبى صـلى الله عليه و آله عنـد اللَّه تعالى حيا وميتا ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفهٔ من صفاته تعالى، مثل أن يراد به المحبهٔ التامهٔ المستدعيهٔ عدم رده وقبول شفاعته، فيكون معنى قول القائل:

إلهى أتوسل بجاه نبيك صلى الله عليه و آله أن تقضى لى حاجتى، إلهى اجعل محبتك له وسيلهٔ فى قضاء حاجتى.

ولا فرق بين هذا وقولك: إلهى أتوسل برحمتك أن تفعل كذا إذ معناه أيضا إلهى اجعل رحمتك وسيلهٔ فى فعل كذا.

بل لا أرى بأسا أيضا بالإقسام على اللَّه تعالى بجاهه صلى الله عليه و آله بهذا المعنى والكلام

فى الحرمهٔ كالكلام فى الجاه..

وقـال: إن التوسـل بجـاه غير النبى صـلى الله عليه و آله لاـ بـأس به أيضـا إن كـان المتوسل بجاهه مما علم أن له جاها عنـد اللَّه تعالى، كالمقطوع بصـلاحه وولايته، وأما من لا قطع فى حقه بـذلك فلا يتوسل بجاهه لما فيه من الحكم الضـمنى على اللَّه تعالى بما لم يعلم تحققه منه عز شأنه وفى ذلك جرأهٔ عظيمهٔ على اللَّه تعالى «۱». انتهى «۲»

أقول: تعليقا على كلام بن تيميهٔ والآلوسى:

ما ذكره بن تيميهٔ ثلاثهٔ أقسام:

القسم الأول: التوسل بإيمان الشخص بالنبى ومحبته له.

القسم الثانى: التوسل بدعاءِ النبى و شفاعته.

القسم الثالث: التوسل بذات النبى الشريفة.

وأضاف الآلوسى قسماً رابعاً، وهو التوسل بجاه النبى صلى الله عليه و آله عند اللَّه حياً وميتاً بما يرجع إلى صفة إلهية، أى إن محبة اللَّه ورحمته لنبيه.

وليت شعرى كيف يعظم الإيمان بالنبى صلى الله عليه و آله ويجعل وسيلة دون ذات النبى، مع أن الإيمان لم يكن إيماناً إلا بتعلقه بذات النبى، فهو أصل الإيمان وقوامه، إلا أن يكون الإيمان باللَّه أعظم من الذات الإلهية، مع أن الإيمان لم يحظ بشرف إلا بلحاظ متعلقة وهو النبى صلى الله عليه و آله، فلماذا كل هذه الحساسية والنفرة من سيد الأنبياء.

وكذلك الحال فى التوسل بدعاء وطلب النبى وشفاعته، وهل دعاء النبى صلى الله عليه و آله وشفاعته الذى هو عمل من الأعمال الصادرة من ذات النبى صلى الله عليه و آله أعظم من ذات النبى صلى الله عليه و آله المقدسة، كذلك يجرى الكلام فى كلام الآلوسى، فهل جاه النبى غير ذاته المقدسة.

ثم ما الفرق بين رحمة اللَّه ومحبة اللَّه فى القسم الرابع التى هى من أفعال اللَّه تعالى وبين ذات النبى صلى الله عليه و آله التى هى أيضا من أفعال اللَّه تعالى، بل ذاته؟ هى عين فعل الرحمة الإلهية، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» «۱».

فكيف يفرق بين صفات اللَّه الفعلية وبين ذات النبى صلى الله عليه و آله مع أن المآل واحد، وكأنما التوجه إلى ذات النبى صلى الله عليه و آله والتوسل بها مقطوعة الإضافة عندهم عن اللَّه تعالى مع أنه صلى الله عليه و آله أقرب الخلق للَّه، وهو وسيلة الوسائل.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۲۷

فيقدمون ويتوجهون إلى اللَّه بما هو أقل منزلة، ويجفون ما هو أكبر منزلة وأوجه مقاما عند اللَّه تعالى، أو يحسبون أن الصفات الفعلية هى غير فعله تعالى ومغايرة للذوات الشريفة المخلوقة.

قال التاج السبكى:

ويحسن التوسل والاستغاثة بالنبى صلى الله عليه و آله إلى ربه، ولم ينكر ذلك أحد من السلف والخلف حتى جاء ابن تيمية فأنكر ذلك وعدل عن الصراط المستقيم وابتدع ما لم يقله عالم، وصار بين الأنام مثلة. انتهى «۱»

قال المفسر الشعراوى:

التوسل بالنبى صلى الله عليه و آله أو الأولياء مسألة لا يصح أن تكون مثار خلاف من أحد...

ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبى أو الولى: هذبوا هذا القول قليلا، إن حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم، فالذى يتوسل إلى اللَّه بالنبى أو الولى هو يعتقد أن له منزلة عند اللَّه.

وهل يعتقد أحد أن الولى يجامله ليعطيه ما ليس له عند اللَّه صلى الله عليه و آله طبعا لا.

وهناك من قال: إن الوسيلة بالأحياء ممكنة، وأن الوسيلة بالأموات ممنوعة، ونقول له: أنت تضيق أمرا متسعا؛ لأن حياة الحى لا مدخل لها بالتوسل، فإن جاء التوسل بحضرته صلى الله عليه و آله إلى اللَّه، فإنك قد جعلت التوسل

بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى اللَّه، فحبك له هو الذى يشفع، وإياك أن تظن أنه سيأتى لك بما لا تستحق «۲».

أقول: قد مر أن التشفع بذات النبى وحبه والإيمان به، إنما صار له جزاء موفوراً

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۲۸

وعملًا شريفاً باعتبار تعلقه بذات النبى صلى الله عليه و آله فكيف لا يحتفى بما هو أصل فى الشفاعة ويتمسك بما هو فرع. انتهى

ثم يقول الشعراوى: والجماعة التى تقول: لا يصح أن نتوسل بالنبى صلى الله عليه و آله؛ لأن النبى انتقل إلى الرفيق الأعلى، نقول لهم:

انتظروا قليلاـ وانتبهوا إلى ما قال سيدنا عمر، قال: كنا في عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا امتنع المطر نتوسل برسول اللّه ونستسقى به، ولما انتقل رسول اللّه صلى الله عليه و آله توسل بعمه العباس، وقالوا: لو كان التوسل برسول اللّه جائز بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب عن التوسل بالنبى صلى الله عليه و آله بعد انتقاله، وذهب إلى التوسل بعم النبى صلى الله عليه و آله؟

ونسأل أقال عمر: «كنا نتوسل بنبيك والآن نتوسل إليك بالعباس ۷ أم قال: والآن نتوسل إليك بعم نبيك» «۱»؟!

أقول: ونعم ما تفطن إليه بأن وجاهة العباس ابن عبد المطلب بإضافته إلى شرفية ذات النبى صلى الله عليه و آله المقدسة فالتوسل راجع إلى تلك الإضافة. انتهى

ثم يقول الشعراوى: ولذلك فالذين يمنعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم؛ لأن التوسل لا يكون بالنبى صلى الله عليه و آله فقط، ولكن التوسل أيضا بمن يمت بصلة إلى النبى صلى الله عليه و آله، فساعة يتوسل واحد إلى غيره يعنى أنه يعتقد أن الذى توسل به لا يقدر على شيء، إننى أتوسل به إلى الغير لأنى أعرف أنه لا يستطيع أن ينفذ إلى مطلوبى.

الامامة الالهية(۵)، ج۵، ص: ۲۲۹

إذن فلنبعد مسألة الشرك باللّه عن هذا المجال، ونقول: نحن نتوسل به إلى غيره لأننا نعلم أن المتوسل إليه هو القادر وأن المتوسل به عاجز.

وهذا هو منتهى اليقين ومنتهى الإيمان.

ولكن المتوسل به قد ينتفع وقد لا ينتفع، وعندما توسل سيدنا عمر بالعباس عم النبى كان يفعل ذلك من أجل المطر، والمطر فى هذه الحالة لا ينتفع به رسول اللّه، لذلك جاء بواحد من آل البيت وكأنه قال: «يا رب عم نبيك عطشان فمن أجله نريد المطر».

فإذن فتوسل عمر بن الخطاب بعم النبى دليل ضد الذين يمنعون التوسل بالنبى بعد الانتقال إلى لرفيق الأعلى. انتهى «۱»

أقول: قد عرفت أن التوسل هو طريق التوحيد القويم الحصرى، وأن الصد عنه يؤل إلى التشبيه أو التعطيل وهو الشرك بعينه. انتهى

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَى الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّى: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلى التَّحَرِّی الأَدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت

–علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی" القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فَرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.


مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹